الجواب الصحيح

لمن بدّل دين المسيح

لشيخ الاسلام ابن تيمية

٦٦١ — ٧٢٨

الجزء ١

مطابع
المجد
التجارية

التعريف بكتاب

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح

للسيد على صبيح المدنى

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لله الذى جعل من العلماء ، مصابيح يهتدى الناس بها فى ظلمات الشبهات ، وصلاة وسلاماً على من أضاء القلوب ومحا الضلالات .

تسمية الكتاب :

أما بعد : فإن هذا الكتاب ـ إنما هو فى حقيقته وجوهره ـ دراسة مقارنة للأديان السماوية وقد يجد القارئ لهذا الكتاب صعوبة بادئ ذى بدء عندما يقارن بين العنوان وهو « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » والموضوع .

ولكن هذه الصعوبة لا تلبث أن تتبدد حينما يعرف سبب تصنيف هذا الكتاب .

سبب تأليفه :

كان السبب فى تأليف هذا الكتاب القيم ، أن شيخ الإسلام تقى الدين ابن تيمية ، قرأ رسالة جاءت من قبرص ، مضافة إلى « بولص الراهب » أسقف « صيدا » الإنطاكى ، وكان قد كتبها إلى بعض أصدقائه ، ويدعى أن له مصنفات كثيرة ، ورحلات إلى بلاد الروم والقسطنطينية و بلاد اللافطة وبعض أعمال الإفرنج ورومية ، واجتمع بأجلاء تلك الناحية وناظر أفاضلهم وعلماءهم ،

وقد كان اسم الرسالة « المنطيق الدولة خانى المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأى المستقيم » .

منهج الكتاب :

بدأ الكتاب بمقدمة ذكر فيهاسبب تأليف الكتاب ، وقسمه إلى فصول، فى الفصول الأولى منه ، رد على من يدعون أن محمدا صلى الله عليه وسلم إنما بعث إلى العرب خاصة ، ومن يدعون أن إرساله صلى الله عليه وسلم كان إرسالا كونياً، وكان سنده فى ذلك القرآن الكريم والسنة النبوية ، وما أوتيه من قوة الحجاج والمنطق ، وكان ذلك هو المنهاج الذى سار عليه فى جميع فصول الكتاب .

غير أنه ـ حينما أراد أن يثبت وقوع التبديل والتغيير فى عقائد النصارى واليهود ـ استدل ببعض نصوص الكتب السماوية والنبوات السابقة .

وكذلك فعل حينما رد عليهم قولهم :إن النبوات والكتب السابقة لم تبشر بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم :

وقد تقيد فى رده على النصارى بترتيب الرسالة التى جاءت من قبرص .

غير أنه — فى بعض الأحايين — كان يستطرد :

ومن ذلك أنه فى الجزء الثانى رد على الدعوى السادسة ومكانها فى الجزء الرابع حيث يقول :

« وهذا يتناول الأمر لكل أهل الكتاب إذا جاءهم رسول ثان ، أن يؤمنوا به وينصروه . . . » .

ومما يذكر لشيخ الإسلام أنه وفّى الكلام حقه، إذ كان بإزاء الرد على أناس عرفوا بالمكر والخيانة لدينهم .

والإمام يبدأ الفصل ـ فى غالبية الكتاب ـ بالقول المخالف ، ثم يعقب بالرد

عليه ، مثل قوله فى أول الجزء الثانى: « فصل : فحينئذ فقولهم: إنا نعجب من هؤلاء القوم - على علمهم وذكائهم ومعرفتهم - كيف يحتجون علينا بمثل هذا القول؟ ».

ويبدو أنه كان هناك واسطة أثناء حجاجه مع النصارى :

فهو يقول فى بعض الفصول « قال الحاكى عنهم » :

وهو - فى معظم الفصول - يكثر من الاستطراد الهادف لإبطال ما ألصق بالدين من المبتدعات ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على غزارة علمه وفضله وأدبه .

مضمون الكتاب :

ويتضمن هذا الكتاب أربعة عناصر مهمة : —

العنصر الأول: الرد على ما جاء فى « الرسالة القبرصية » ومضمونها ستة دعاوى :

الدعوى الأولى :

أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يبعث إليهم - أى النصارى - بل بعث إلى أهل الجاهلية من العرب ، وأن القرآن فيه ما يدل على ذلك ، وكذلك العقل .

الدعوى الثانية :

أن محمداً أثنى فى القرآن على دينهم - أى النصرانية - الذى هم عليه ، ومدحه بما أوجب لهم أن يثبتوا عليه :

الدعوى الثالثة :

أن كتب الأنبياء المتقدمين - كالتوراة والزبور والإنجيل ، وغير ذلك من الصحف والنبوات - تشهد لما عليه دينهم من الأقانيم والتثليث والاتحاد ، وغير ذلك وأنه يجب التمسك به ، إذ لا يعارضه شرع ، ولا يدفعه عقل .

الدعوى الرابعة :

أن ما هم عليه ثابت بالعقل والشرع ، متفق مع الأصول .

الدعوى الخامسة :

أنهم موحدون وأن ما عندهم مما يوهم التعدد كألفاظ الأقانيم ، إنما هى من جنس ما عند المسلمين من النصوص التى يظهر فيها التشبيه ، والتجسيم :

الدعوى السادسة :

أن المسيح عليه السلام جاء بعد موسى عليه السلام بغاية الكمال، فلاحاجة بعد إلى شرع آخر ، بل يكون ما بعد ذلك شرعاً آخر غير مقبول .

العنصر الثانى : تفسير النصوص القرآنية والنبوية التى استدل بها فى رده عليهم

العنصر الثالث : تصحيح ما وقع فى تفسير بعض النصوص الدينية فى الإنجيل والتوراة من أخطاء .

العنصر الرابع : دراسة مقارنة للنبوات الثلاثة ، الإسلام ، والنصرانية ، واليهودية .

* * *

والكتاب مقسم إلى أربعة أجزاء .

الجزء الأول :

رد الإمام شيخ الإسلام على هذه الدعاوى السابق ذكرها فى هذا الكتاب ودحض ما فيها من أباطيل ، وقدمها دراسة موضوعية ، ليس فيها شىء من التعصب ، ولا من الذاتية البغيضة ، فيقول فى مقدمة الرد عليها :

« ونحن ــ ولله الحمد والمنة ــ نبين أن كل ما احتجوا به من حجة سمعية ــ من القرآن أو من الكتب المتقدمة على القرآن ــ أو عقلية ، لا حجة لهم فى شىء منها ، بل الكتب كلها مع القرآن ، والعقل حجة عليهم لا لهم ، بل عامة ما يحتجون به من نصوص الأنبياء ، ومن المعقول ــ هو نفسه ــ حجة عليهم ويظهر منه فساد قولهم ، مع ما يفسده من سائر النصوص النبوية والموازين التى هى مقاييس عقلية » .

وقد رد الإمام على هذه الدعاوى الستة حسب ترتيبها فى الرسالة النصرانية فهو يقول فى الرد على الدعوى الأولى :

« إن كل من ادعى الرسالة لابد من أن تنبنى دعواه على أصلين :

أحدهما : أن نعرف ، هل قال : إنه رسول الله إلى جميع الناس ؟ أو قال : إنه لم يرسل إلا إلى طائفة معينة لا إلى غيرها ؟

والثانى : أن نعرف ، هل هو صادق أو كاذب » ؟

أما الأصل الأول : فالرسول صلى الله عليه وسلم أعلن أنه رسول إلى الناس كافة ، ولا ينافى ذلك أنه من أصل عربى ، وأن رسالته جاءت للعرب خاصة ، وللناس كافة عامة » إذا عرف هذا ، فهؤلاء القوم ــ فى هذا المقام ادعوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يرسل إليهم، بل إلى أهل الجاهلية من العرب، فهذه الدعوى على وجهين :

١ ـــ : إما أن يقولوا . إنه ــ بنفسه ــ لم يدع أنه أرسل إليهم ، ولكن أمته ادعوا له ذلك .

٢ ـــ : وإما أن يقولوا : إنه ادعى أنه أرسل إليهم ، وهو كاذب فى هذه الدعوى . وكلامهم فى صدر هذا الكتاب يقتضى الوجه الأول ، وفى آخره قد يقال إنهم قد أشاروا إلى الوجه الثانى ــ يعنى ما جاء فى الرسالة النصرانية على لسان « بولص » الراهب ــ لكنهم فى الحقيقة لم ينكروا رسالته إلى العرب ، وإنما أنكروا رسالته إليهم . أما رسالته إلى العرب فلم يصرحوا بتصديقه فيها ولا بتكذيبه ، وإن كان ظاهر لفظهم يقتضى الإقرار برسالته إلى العرب ، بل صدقوا بما وافق قولهم ، وكذبوا بما خالف قولهم .

ونحن نبين أنه لا يصح احتجاجهم بشىء مما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم، ونبين أنه لا يصح احتجاجهم بشىء من القرآن على صحة دينهم بوجه من الوجوه ،

ونبين أن القرآن لاحجة فيه لهم ولا فيه تناقض، وكذلك كتب الأنبياء المتقدمين التى يحتجون بها هى حجة عليهم ، ليس فى شىء منها لهم حجة ، ولو لم يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف والكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم موافق لسائر كلام الأنبياء عليهم السلام ، فى إبطال دينهم ، وقولهم فى التثليث والاتحاد ، وغير ذلك ، مع العقل الصريح ؟ !

فهم يحتجون فى كتابهم هذا ـ أى رسالتهم ـ بالقرآن ، وبما جاءت به الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، مع العقل ، ولا حجة لهم فيه .

وهذا بخلاف المسلمين فإنه يصح احتجاجهم على أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، بما جاءت به الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

وذلك أن المسلمين مقرون لإيمانهم بنبوة موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام .

وعندهم يجب الإيمان بكل كتاب أنزله الله ، وبكل نبى أرسله الله ، وهذا أصل دين المسلمين » .

قال : ذلك لماذا ؟ ، لأنهم استدلوا على أن الدين الإسلامى ، إنما جاء إلى العرب فقط بقوله تعالى : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » .

وما شاكل ذلك من الآيات .

ثم قال : « وحينئذ فهؤلاء إن أقروا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه صادق فيما بلغه عن الله من الكتاب والحكمة، وجب عليهم الإيمان بكل ماثبت عنه من الكتاب والحكمة كما يجب الإيمان بكل ما جاءت به الرسل » .

ثم رد على من قال من أهل الكتاب : « إنه رسول غضب أرسله الله إرسالا كونياً ، لا دينياً لينتقم به منهم ، كما أرسل بختنصر وسنجاريب على بنى إسرائيل ؛ وكما أرسل جنكس خان وغيره » .

فقال: «إن هؤلاء الملوك لم يقل أحد منهم : إن الله أنزل عليه كتاباً ؛ ولا هذا

الكلام الذى أبلغه إليكم هو كلام الله ، ولا أن الله أمركم أن تصدقونى فيما أخبرتكم به ، وتطيعونى فيما أمرتكم به ، ومن لم يصدقنى باطناً وظاهراً فإن الله يعذبه فى الدنيا والآخرة ، بل هؤلاء أرسلهم إرسالا كونيا قدّره وقضاه ، كما يرسل الريح بالعذاب ، وكما يرسل الشياطين» وفرق بين الإرسال الكونى والإرسال الدينى « فالإرسال الدينى : هو الإرسال الذى أوجب الله به طاعة من أرسله » .

وأما الدعوى الثانية ، فقد رد عليها بقوله :

« قولهم : إن محمداً صلى الله عليه وسلم أثنى على دين النصارى بعد التبديل والنسخ — وهى أعظم كذباً عليه من التى قبلها — فكيف يثنى عليهم وهو يكفرهم فى غير موضع من كتابه ويأمر بجهادهم وقتالهم ويذم المتخلفين عن جهادهم غاية الذم ، ويصف من لم ير طاعته فى قتالهم بالنفاق ويذكر أنه يدخل جهنم» .

« وأما ثناء الله ورسوله على المسيح وأمه وعلى من اتبعه ، وكان على دينه الذى لم يبدل ، فهذا حق ، وهو لا ينافى وجوب اتباع محمد صلى الله عليه وسلم على من بعث إليه ، فلو قدر أن شريعة المسيح لم تبدل ، وأن محمداً أثنى على كل من اتبعها ، وقال — مع ذلك — : إن الله أرسلنى إليكم ، لم يكن متناقضاً .

وإذا كفر من لم يؤمن به لم يناقض ذلك ثناؤه عليهم قبل أن يكذبوه .

فكيف وهو إنما مدح من اتبع دينا لم يبدل ؟

وأما الذين بدّلوا دين المسيح فلم يمدحهم بل ذمهم .

وقد قدمنا أن النصارى كفروا كما كفرت اليهود ، كفروا بتبديلهم ما فى الكتاب الأول ، وكفروا بتكذيبهم بالكتاب الثانى .

وأما من لم يبدل الكتاب ، أوأدرك محمدا فآمن به ، فهؤلاء مؤمنون ، ومما يبين ذلك أن تعظيم المسيح للتوراة ، واتباعه لها ، وعمله بشرائعها أعظم من تعظيم

محمد صلى الله عليه وسلم للإنجيل ، ومع هذا فلم يكن ذلك مسقطا عن اليهود وجوب اتباعهم المسيح ، فكيف يكون تعظيم محمد صلى الله عليه وسلم للإنجيل مسقطا عن النصارى وجوب اتباعه ؟

وقد اتفق المسلمون على ماهو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام ، وهو أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين ، وبجميع ما أنزل الله من الكتب .

فمن كفر بنبي واحد تعلم نبوته مثل إبراهيم ولوط وموسى وداود وسليمان ويونس وعيسى ، فهو كافر عند جميع المسلمين ، حكمه حكم الكفار » .

ثم قال : « وإن أرادوا بتصديقه كتبهم ، أنه صدق ما هم عليه من العقائد والشرائع التى ابتدعوها بغير إذن من الله ، وخالفوا بها ما تقدم من شرائع المسلمين ، أو خالفوا بها الشرع الذى بعث به ، مثل القول بالتثليث والأقانيم ، والقول بالحلول والاتحاد بين اللاهوت والناسوت ، وقولهم : إن المسيح هو الله ، وابن الله ، وماهم عليه من إنكار مايجب الإيمان به من الإيمان بالله واليوم الآخر ، ومن تحليل ماحرمه الله ورسله كالخنزير وغيره ، فقد كذبوا » .

وأما الدعوى الثالثة فقد ردها بقوله :

« وإن احتج بشيء من المنقول عن غيره ـ أى غير رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ـ من الأنبياء عليهم السلام ، طولب بتقدير نبوة ذلك النبى مع تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم ، وإلا فتقدير أن ينقل عن اثنين ادعيا النبوة وأتيا بالآيات التى تثبت بها النبوات خبران متناقضان لايجوز تصديق هذا ، وتكذيب ذاك إن لم يتبين ما يدل على صدق هذا وكذب هذا ، وكذلك إذا عوض أحدهما بجنس ما يعارض الآخر .

وهذا لا يرد على المسلمين إذا ردوا مايحتج به أهل الكتاب مما ينقلونه عن الأنبياء مخالفاً لخبر محمد صلى الله عليه وسلم . فإن المسلمين لايطعنون فى نبوة

أحد من الأنبياء المعروفين ، وإنما يطعنون في أنهم أخبروا بما يخالف خبر محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن ذلك لايثبت ، أى لم يثبت اللفظ والترجمة ، وتفسير اللفظ ، وهذه المقدمات تمتنع أن تقوم على شيء يخالف خبر محمد صلى الله عليه وسلم ، لا جملة ولا تفصيلا .

فأهل الكتاب يطالبون فيما يعارضون به بثلاث مقدمات :

إحداها : تقدير أن أولئك صادقون ، ومحمد صلى الله عليه وسلم كاذب .

والثانية : ثبوت ما أتوا به لفظا .

والثالثة : معرفة المراد باللفظ ترجمة وتفسيرا .

وإن قال الكتابى للمسلم ، أنت توافقنى على نبوة هؤلاء المتقدمين .

أجابه المسلم بوجوه : منها أن يقول : إنى لم أوافقك على نبوة واحد منهم مع التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم ، بل دين المسلمين كلهم ، أنه من آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض فهو كافر ، فكيف بمن كفر بمن هو عند المسلمين أفضل الأنبياء وخاتمهم ؟ ! .

بل قد يقول له أكثر المسلمين : نحن لم نعلم نبوة أولئك إلا بإخبار محمد أنهم أنبياء . فلو قدحنا فى الأصل الذى قد علمنا به نبوتهم لزم القدح فى نبوتهم ، والفرع — إذا قدح فى أصله — دل على فساده فى نفسه ، سواء قدر أصله صحيحا أو فاسدا . فإنه إن كان أصله فاسدا فسد هو ، وإن كان أصله صحيحا — وهو يناقضه — بطل هو ، فهذا إذا ناقض أصله باطل على كل تقدير ، وكذلك إذا قال له الكتابى : قد اتفقنا على تصديق موسى والتوراة أو المسيح أو الإنجيل . قال له المسلم : إنما أوافقك على تصديق موسى وعيسى اللذين بشرا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، كما أخبرنا به محمد صلى الله عليه وسلم .

« ومن حجة الجمهور الذين يمنعون أن تكون جميع ألفاظ هذه الكتب

المتقدمة الموجودة عند أهل الكتاب منزلة من عند الله ، لم يقع فيها تبديل » .

أما قولهم : إن هذه الكتب وقع فيها تبديل فى بعض ألفاظها ، وأنه لا يعلم أن ألفاظها منزلة من عند الله ، فلا يجوز أن يحتج بما فيها من الألفاظ فى معارضة ما علم نبوته ، وأن هذه التوراة والإنجيل الموجودتان اليوم بين اليهود والنصارى لم تتواتر عن موسى وعيسى عليهما السلام . أما التوراة فإن نقلها انقطع لما خرب بيت المقدس أولا ، وأجلى منه بنو إسرائيل . ثم ذكروا أن الذى أملاها عليهم بعد ذلك شخص واحد يقال له : عازر . وزعموا أنه نبى .

وأما الإنجيل الذى بأيدى المسيحيين ، فإنهم معترفون بأنه لم يكتبه المسيح عليه السلام ، ولا أملاه على من كتبه ، وإنما أملاه بعد رفع المسيح « متى » و « يوحنا » - وكانا قد صحبا المسيح - ولم يحفظه خلق كثير يبلغون حد التواتر و « مرقس » و « لوقا » وهما لم يريا المسيح عليه السلام . وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ماقاله المسيح ، وبعض أخباره ، وأنهم لم يستوعبوا ذكر أقواله وأفعاله ونقل اثنين أو ثلاثة يجوز عليهم الغلط ، لا سيما وقد غلطوا فى المسيح نفسه حتى اشتبه عليهم بالمصلوب !

الجزء الثانى :

ويبدأ الإمام شيخ الإسلام فى هذا الجزء بالردّ على الدعوى الرابعة .

فهو يقول : وحينئذ فقولهم : إنا نعجب من هؤلاء القوم - يعنى علماء المسلمين - على علمهم وذكائهم ومعرفتهم - كيف يحتجون علينا بمثل هذا القول ؟ وهو قول المسلمين لهم : إن هذا الكتاب الذى بأيديكم ليس حجة علينا فقد غيرتموه وبدلتموه وكتبتم فيه ما أردتم واشتهت نفوسكم .

فإذا قالوا : إن القرآن أيضاً قد بُدِّل وغُيِّر :

قلنا لهم : هذا مما لا يجوز ولا يمكن لأحد أن يقواه ، ولا يمكن تغييره ، ولا تبديل حرف واحد منه . فقالوا : سبحان الله العظيم ، إذا كان الكتاب المكتوب بلسان واحد لا يمكن تبديل ولا تغيير حرف منه ، فكيف يمكن تغيير كتبنا التي كتبت باثنين وسبعين لساناً ؟

والجواب أن يقال :

أولا هذا الكلام منهم ، يدل على غاية جهلهم بما يقوله المسلمون في كتبهم ، وتبين أنهم ـ لفرط جهلهم ـ يظنون أن المسلمين يقولون مقالة لا تخضع للعقل والمنطق ، وأن ما يقولونه لا يخفى فساده على من له أدنى عقل ومعرفة .

والجواب على ما ادعوه من وجوه :

أحدها : أن المسلمين لم يدعوا أن هذه الكتب حرفت بعد انتشارها وكثرة النسخ بها ، ولكن جميعهم متفقون على وقوع التبديل والتغيير في كثير من معانيها ، وكثير من أحكامها . وهذا مما تسلمه النصارى جميعهم في التوراة والنبوات المتقدمة فإنهم يسلمون أن اليهود بدلوا كثيراً من معانيها وأحكامها . ومما تسلمه النصارى في فرقهم ، أن كل فرقة تخالف الأخرى فيما تفسر به الكتب المتقدمة .

ومما تسلمه اليهود ، أنهم متفقون على أن النصارى تفسر التوراة والنبوات المتقدمة على الإنجيل بما يخالف معانيها ، وأنها بدلت أحكام التوراة .

الثاني : أن قياسهم كتبهم على القرآن ـ مع أنه لم تسمع دعوى التبديل فيه ـ قياس باطل في معناه وفي لفظه .

الثالث : أن القرآن قد ثبت بالنقل المتواتر المعلوم بالضرورة للموافق والمخالف أن محمداً كان يقول : إنه كلام الله لا كلامه ، وأنه مبلغ له عن الله ، وكان يفرق بين القرآن و بين ما يتكلم به من السنة .

وأما قولهم إنها ـ أي الأناجيل ـ مكتوبة باثنين وسبعين لساناً ، فمعلوم باتفاق

النصارى أن المسيح لم يكن يتكلم إلا بالعبرية ، فالكلام المنقول عنه فى الأناجيل إنما تكلم به عبريا ، ثم ترجم من تلك اللغة إلى غيرها . والترجمة يقع فيها الغلط كثيراً ، كما وجدنا فى زماننا من يترجم التوراة من العبرية إلى العربية ويظهر فى الترجمة من الغلط ما يشهد به الحذاق الصادقون ممن يعرف اللغتين .

ثم انتقل إلى دعوى التثليث فقال :

« قالوا : وكذلك شهد « أشعيا » بتحقق الثالوث بوحدانية جوهره . وذلك بقوله : رب القوات ، وبقوله : رب السموات والأرض .

ومثل هذا القول فى التوراة والمزامير شىء كثير ، حتى اليهود يقرءون هذه النبوات ، ولا يعرفون لها تأويلا ، وهم مقرون بذلك ، ولا ينكرون كلمة واحدة ، وإنما قلوبهم مغلوقة عن فهمه لقساوتها » .

كما أنهم إذا اجتمعوا فى الكنيسة يقف «الحزان» ويقول كلاما عبرانياً ، ترجمته : نقدسك ، ونعظمك ، ونثلث لك تقديساً مثلثاً ، كالمكتوب على لسان نبيك ، فيصيح الجميع : قدوس ، قدوس ، قدوس ، رب القوات ، ورب السموات والأرض ، فما أوضح إقرارهم بالثالوث ، وأشد كفرهم بمعناه ! !

ثم أوضح معنى التثليث الذى جاء فى التوراة فقال :

« وأما قولهم : نقدسك ، ونعظمك ، ونثلث لك تقديساً مثلثاً كالمكتوب على لسان نبيك أشعيا ، وقولهم : قدوس ، قدوس ، قدوس رب القوات ، ورب السموات والأرض . فيقال : هذا الكلام صريح فى أن المثلث ، هو نفس التقديس ، لا نفس الإله المقدس . وكذلك قولهم : قدوس ، قدوس ، قدوس ، قدسوه : ثلاث مرات . فإنه قال : نقدسك ونثلث لك تقديساً مثلثاً ، فنصب التثليث على المصدر ، الذى ينصب بفضل التقديس ، فقال : نقدسك تقديساً مثلثاً ، فنصب التقديس على المصدر ، كما تقول : سبحتك تسبيحا مثلثا ، أى

سبحتك ثلاث مرات ، وقال : نثلث لك ، أى نثلث تقديسا لك ؛ لم يقل : « أنت » ثلاثة ، بل جعلوا أنفسهم هم الذين يقدسون التقديس المثلث ، وهم يثلثون له ، وهذا صريح فى أنهم يسبحونه ثلاث مرات ، لا يسبحون ثلاثة آلهة ولا ثلاثة أقانيم .

ثم تتبع تبريرهم التثليث فقال : « قالوا : وقد علمنا أنه لا يلزمنا — إذا قلنا هذا — عبادة ثلاثة آلهة ، بل إله واحد ، كما لا يلزمنا إذا قلنا : الإنسان ، ونطقه ، وروحه ، ثلاثة أناس ، بل إنسان واحد ، ولا إذا قلنا : لهيب النار ، وضوء النار ، وحرارة النار ، ثلاثة نيران . ولا إذا قلنا قرص الشمس ، وضوء الشمس ، وشعاع الشمس ، ثلاثة شموس — أى لا يلزمهم التثليث فى كل مامر . بل الإنسان هو الإنسان بنطقه وروحه ، والنار هى النار بضوئها وحرارتها ، وقرص الشمس هو قرص الشمس بضوئه وشعاعه .

ولكن شيخ الإسلام رد عليهم بقوله : « والجواب من وجوه :

أحدها : أنكم صرحتم بتعدد الآلهة الأرباب فى عقيدة إيمانكم ، وفى استدلالكم ، وغير ذلك من كلامكم ، فليس ذلكم شيئاً ألزمكم الناس به ، بل أنتم تصرحون بذلك ، كما تقدم من قولكم : نؤمن بإله واحد ضابط الكل ، خالق ما يرى وما لا يرى وبرب واحد . يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد . المولود من الأب ، قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق من جوهر أبيه ، مولود غير مخلوق ، مساو الأب فى الجوهر ، وبروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب الذى معه الأب مسجود له ، وممجد .

الوجه الثانى : أن تمثيلهم بالإنسان ونطقه وروحه ، والنار وحرها وضوئها ، والشمس وضوئها وشعاعها ، باطل من وجوه :

أحدها : أن حر النار وضوءها القائم بها ليس ناراً من نار ، ولا جوهراً من

جوهر ولا هو مساو النار والشمس فى الجوهر . وكذلك نطق الإنسان ، وضوء الشمس ، وهم قد أثبتوا ثلاثة أرباب بقولهم فى الأمانة :

نؤمن بإله واحد ، أب ضابط الكل ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور على نور ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه ، مساو الأب فى الجوهر .

الثانى : أن الضوء فى الشمس ، والنار يراد به نفس الضوء القائم بها ، ويراد به الشعاع القائم بالأرض والجدران ، وهذا مباين لها ، ليس قائماً بها فهم جعلوا الأب جوهراً قائماً بنفسه ، والابن أيضا جوهراً قائماً بنفسه ، وروح القدس رباً جوهراً قائماً بنفسه ، ومعلوم أن ضوء النار والشمس وحرارتهما ليس كل منهما شمساً وناراً قائمة بنفسها ، ولا جوهراً قائماً بنفسه . فلو أثبتوا حياة الله ، وعلمه ، أو كلامه صفتين قائمتين به ـ ولم يجعلوا هذا رباً جوهراً قائماً بنفسه ، وهذا رباً قائما بنفسه ـ لكان قولهم حقا وتمثيلهم مطابقا . . .

وهكذا ثابر الإمام شيخ الإسلام على إدحاض حججهم الباطلة فى كل ما ذهبوا إليه من « التثليث » ، وتجسيم كلمة الله الخالقة التى بها خلق كل شىء ، وتجسدها بإنسان مخلوق ، وهو الذى أخذ من مريم العذراء المصطفاة . ودعواهم الخلق لعيسى واستدلالهم ببعض آيات من القرآن الكريم يوهم ظاهرها ذلك ، مثل قوله تعالى : ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى ﴾ وما ذهبوا إليه من اتحاد الناسوت باللاهوت .

الجزء الثالث :

وفيه أكمل شيخ الإسلام رده على الدعوى الرابعة وما ذهبوا إليه من الحلول ، وما اتصف به النصارى من تعصب ضد اليهودية .

ثم انتقل إلى الرد على الدعوى الخامسة ، فهو يقول :

« قال الحاكى عنهم : فقلت لهم : إنهم يقولون لنا : ــ يعنى المسلمين ــ إذا كان اعتقادكم فى البارى تعالى أنه واحد ، فما حملكم على أن تقولوا : أب ، وابن ، وروح قدس ؟ فتوهمون السامعين أنكم تعتقدون فى الله ثلاثة أشخاص مركبة ، أو ثلاثة آلهة ، أو ثلاثة أجزاء ، وأن له ابناً ، ويظن من لا يعرف اعتقادكم أنكم تريدون بذلك المباضعة والتناسل ، فتطرقون على أنفسكم تهمة أنتم منها بريئون ؟

قالوا: وهم أيضاً لما كان اعتقادهم فى البارى جلت عظمته وأنه غير ذى جسم، وغير ذى جوارح وأعضاء ، وغير محصور فى مكان ، فما حملهم على أن يقولوا إن له عينين يبصر بهما ، ويدين يبسطهما ، وساق ووجه ، يوليه إلى كل مكان وجنب ، وأنه يأتى فى ظلل من الغمام ، فيوهمون السامعين أن الله ذو جسم وذو أعضاء وجوارح ، وأنه ينتقل من مكان إلى مكان فى ظلل من الغمام ، فيظن من لا يعرف اعتقادهم ، أنهم يجسمون البارى ، حتى إن قوما منهم اعتقدوا ذلك ، واتخذوه مذهبا ، ومن لم يتحقق اعتقادهم يتهمهم بما هم بريئون منه .

قال ، فقلت لهم : إنهم يقولون : إن العلة فى قولهم هذا ، أن الله له وجه لأن القرآن نطق بذلك ، ولكن يراد به غير ظاهر اللفظ ، وكل من يحمل ذلك على ظاهر اللفظ ، و يعتقد أن الله له جوارح وأعضاء وأن ذاته تنتقل يلعنونه ويكفرونه ، فإذا كفروا من يعتقد هذا ، فليس لمخالفيهم أن يلزموهم هذا بعد أن بينوا أنهم لا يعتقدونه ، قالوا : وكذلك ــ نحن أيضا النصارى ــ العلة فى قولنا : إن الله ثلاثة أقانيم : أب ، وابن ، وروح قدس أن الإنجيل نطق به ، والمراد بالأقانيم غير الأشخاص المركبة، والأجزاء ، والأبعاض وغير ذلك مما يقتضى الشرك، والتكثير، والمراد بالأب والابن غير أبوة و بنوة نكاح أو تناسل أو جماع أو مباضعة .

وكل من يعتقد أن الثلاثة أقانيم ثلاثة آلهة مختلفة . أو ثلاثة آلهة متفقة ، أو ثلاثة أجسام مؤلفة أو ثلاثة أجزاء متفرقة ، أو ثلاثة أشخاص مركبة ، أو أعراض أو قوى أو غير ذلك مما يقتضى الاشتراك والتكثير والتبعيض والتشبيه أو بنوة نكاح أو تناسل أو مباضعة أو جماع أو ولادة زوجة ، أو من بعض الأجسام أو من بعض الملائكة ، أو من بعض المخلوقين ، فنحن نلعنه ونكفره ونحرمه وإذا لعنا وكفرنا من يعتقد ذلك ، فليس لمخالفينا أن يلزمونا به بعد أن لا نعتقده

فإن ألزمونا الشرك والتشبيه ألزمناهم التجسيم والتشبيه .

ويخيل إليك الآن وأنت تسمع هذه المناظرة أن الأمر قد وقف عند هذا الحد ، ولكننا نسمع الإمام يقول :

« والجواب من وجوه : أحدها : أن يقال من آمن بما جاءت به الرسل وقال ما قالوه من غير تحريف للفظه ولا معناه ، فهذا لا إنكار عليه ، بخلاف من ابتدع أقوالا لم تقلها الرسل ، بل هي تخالف ما قالوه : إما لفظا ومعنى ، وإما معنى فقط ، فهذ يستحق لإنكار عليه باتفاق الطوائف ، وأصل دين المسلمين ، أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه فى كتبه ، وبما وصفته به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل يثبتون له تعالى ما أثبته لنفسه وينفون عنه ما نفاه عن نفسه ويتبعون فى ذلك أقوال رسله ويجتنبون ما خالف أقوال الرسل كما قال تعالى : «سبحان ربك رب العزة عما يصفون» أى عما يصفه به الكفار المخالفون للرسل ، وقد قال تعالى « ليس كمثله شىء » وهو رد على الممثلة ﴿ وهو السميع البصير ﴾ وهو رد على المعطلة ، وقد قال تعالى ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

وإذا كان كذلك فهم فى أمانتهم لم يقولوا ما قاله المسيح والأنبياء ، بل ابتدعوا اعتقاداً لا يوجد فى كلام الأنبياء .

الوجه الثانى : أنهم ركبوا من ألفاظ القرآن - بسوء تصرفهم وفهمهم - تركيبا زعموا أن المسلمين يطلقونه ، وليس فى القرآن مايدل ظاهره على ماذكروه فإن الله تعالى قال فى كتابه «وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ، ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » واليهود أرادوا بقولهم : « يد الله مغلولة » أنه بخيل فكذبهم الله فى ذلك ، وبين أنه جواد لا يبخل .

الوجه الثالث : أن ما جاء فى القرآن والحديث هو مثل ما جاء فى التوراة وسائر كتب الأنبياء ، وهذا الذى فى التوراة وكتب الأنبياء ليس مما أحدثه أهل الكتاب ، ولو كانوا ، هم ابتدعوه ووصفوا الخالق بما يمتنع عليه من التجسيم لكان النبي صلى الله عليه وسلم ذمهم على ذلك . كما ذمهم على ما وصفوه به من النقائص مثل قوله :

« لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء » .

ثم ينتقل شيخ الإسلام إلى الدعوى السادسة فيمهد للرد عليها بقوله :

« والنصارى لهم سؤال مشهور بينهم ، وهو أن منهم من يقول :

محمد لم تبشر به النبوات بخلاف المسيح ، فإنه بشرت به النبوات ، وزعموا أن من لم تبشر به فليس بنبى وهذا السؤال يورد على وجهين :

أحدها : أنه لا يكون نبيا حتى يبشر به .

والثانى : أن من بشرت به أفضل ، أو أكمل ممن لم تبشر به ، أو أن هذا طريق تعرف به نبوة المسيح ، اختص به ، وأنتم - أى النصارى - قد قلتم : مامن طريق تثبت به نبوة نبى إلا وعيسى تثبت نبوته بمثل تلك الطريق وأفضل .

فأما هذا الثانى فيستحق الجواب ، وأما الأول فنحن نجيبهم عنه أيضاً ، لكن هل يجب الإجابة عنه ؟ قولان بناء على الأصل ، وهو أنه هل من شروط النسخ الإشعار بالمنسوخ ، ولنظار المسلمين فيه قولان :

الأول : أنه لابد إذا شرع الله حكما يريد أن ينسخه ، فلابد أن يشعر المخاطبين بأنه سينسخه ، لئلا يظنوا دوامه ، فيكون ذلك تجهيلا لهم .

والثانى : لا يشترط ذلك .

ثم أتى بما أثبته القرآن من بشارات الأنبياء السابقين ، ثم عقب بنفس بشارات الأنبياء السابقين فى الكتب السابقة .

وكان آخر بشارة فى الجزء الثالث هى بشارة دنيال .

الجزء الرابع :

وبما أتم به الجزء الثالث ، بدأ به الجزء الرابع ، فهو يقول :

وقال دانيال عليه السلام ، وذكر محمدا باسمه صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ستنزع فى قسيك إغراقا ، وترتوى السهام بأمرك يا محمد ارتواء » .

وقال أيضا : «سألت الله ، وتضرعت أن يبين لى ما يكون من بنى إسرائيل ، وهل يتوب عليهم ؟ ويرد إليهم ملكهم ، ويبعث فيهم الأنبياء ، أو يجعل ذلك فى غيرهم ؟ فظهر لى الملك فى صورة شاب حسن الوجه فقال: السلام عليك يا دانيال ، إن الله يقول : إن بنى إسرائيل أغضبونى وتمردوا على ، وعبدوا من دونى آلهة أخرى ، وصاروا من بعد العلم إلى الجهل ، ومن بعد الصدق إلى الكذب فسلطت عليهم بختنصر ، فقتل رجالهم وسبى ذراريهم ، وهدم مسجدهم ، وحرق كتبهم ، وكذلك فعل من بعده بهم ، وأنا غير راض عنهم ، ولا مقيلهم عثرات فلا يزالون فى سخطى حتى أبعث مسيحى ابن العذراء البتول ، وأختم ذلك عليهم باللعن والسخط ، فلا يزالون ملعونين ، عليهم الذلة والمسكنة ، حتى أبعث نبى بنى إسماعيل الذى بشرت به هاجر ، وأرسلت إليه ملاكى وبشرها ، وأوحى إلى ذلك النبى ، وأعلمه الأسماء ، وأزينه بالتقوى ، وأجعل البر شعاره ، والتقوى ضميره ، والصدق قوله ، والوفاء طبيعته ، والقصد سيرته والرشد سنته ، أخصه

بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتب ، وناسخ لبعض ما فيها ، أسرى به إلىّ ، وأرقيه من سماء إلى سماء حتى يعلو فأدنيه وأسلم عليه ، وأوحى إليه ، ثم أرده إلى عبادى السرور والغبطة ، حافظا لما استودع صادقا فيما أمر ، يدعو إلى توحيدى باللين من القول ، والموعظة الحسنة ، لا فظ ولا غليظ ، ولا صخاب بالأسواق ، رءوف بمن ولاه ، رحيم بمن آمن به ، خشن على من عاداه ، فيدعو قومه إلى توحيدى وعبادتى ، ويخبرهم بما رأى من آياتى فيكذبونه ويؤذونه .

وقص القصة إلى أن قامت قيامة الدولة الإسلامية .

ثم انتقل من التمهيد إلى صلب الدعوى فقال :

« إذا كان أهل الكتاب أكمل فى العلوم النافعة والأعمال الصالحة ممن لا كتاب له ، فمعلوم أن أمتنا أكمل من طائفتى أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، وأعدل . وقد جمع لهم محاسن ما فى التوراة وما فى الإنجيل .

فليس عند أهل الكتاب فضيلة علمية ولا عملية ، إلا وأمة محمد صلى الله عليه وسلم أكمل منهم فيها .

فأما العلوم فهم أحذق فى جميع العلوم من جميع الأمم ، حتى العلوم التى ليست بنبوية ولا أخروية ، كالطب والحساب .

وأما العلوم الإلهية والمعارف الربانية ، وما أخبرت به الأنبياء ، فكل من نظر فيها وقارنها بما قاله اليهود والنصارى ، وجد الأولى أكمل وأتم .

وبهذا يثبت فضل محمد صلى الله عليه وسلم على غيره من الأنبياء ، وبالتالى يتضح لنا حاجة البشرية إلى هذه الرسالة . ومنه نعرف فساد دعوى النصارى فى قولهم : إن النصرانية جاءت بغاية الكمال ، وكذبوا على أنفسهم وعلى الله . فما جاء بغاية الكمال إلا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

وما الإنجيل إلا مجموعة وصايا مكملة لما نقص مما جاء فى التوراة

ثم انتقل بعد ذلك إلى الأدلة الدالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وبدأ بأعظمها فقال : والقرآن كلام الله ، وفيه الدعوة والحجة .

فله به اختصاص على غيره كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

والقرآن يظهر كونه آية وبرهانا له من وجوه جملة وتفصيلا .

وآياته صلى الله عليه وسلم المعلقة بالقدرة والفعل والتأثير أنواع :

الأول : منها ماهو فى العالم العلوى كانشقاق القمر ، وحراسة السماء بالشهب الحراسة التامة لما بعث ، وكمعراجه إلى السماء .

فقد ذكر الله انشقاق القمر وبين أنه فعله وأخبر به لحكمين عظيمين .

الأول : كونه من آيات النبوة لما سأله المشركون آية فأراهم انشقاق القمر .

والثانى : أنه دلالة على جواز انشقاق الفلك ، وأن ذلك دليل على ما أخبرت به الأنبياء من انشقاق السموات .

الثانى : آيات الجو .

الثالث : تصرفه فى الحيوان والجن .

الرابع : تأثيره فى الماء والطعام والثمار .

هذا عرض سريع لأهم ما اشتمل عليه الكتاب ، والله سبحانه ولى التوفيق ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا الله محمد رسول الله ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين .

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون .

الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىٌّ من الذل وكبره تكبيراً .

والله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله ، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد ، الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً .

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ، ماكثين فيه أبداً ، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولوا إلا كذباً .

والحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور .

والحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير ، مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه

السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ، الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، الأول الآخر الظاهر الباطن الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ، أرسله بالحق بين يدى الساعة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، أرسله إلى جميع الثقلين ، الجن والإنس ، عربهم وعجمهم ، أميهم وكتابيهم ، وأنزل عليه أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ، كتاب أنزله إليه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم و يهديهم إلى صراط العزيز الحميد ، الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ، وهو الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهو دين الله الذى بعث به الرسل قبله ، كما قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ، [سورة الشورى : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم ۞ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٥١ ، ٥٢] كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٩٢] ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٥٣] .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] .

أنزل عليه الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فصدق كتابه ما بين يديه من كتب السماء ، وأمر بالإيمان بجميع الأنبياء كما قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل و إسحاق و يعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا و إن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ [سورة البقرة : ١٣٦ ، ١٣٧] .

وهيمن على ما بين يديه من الكتاب ، وذلك يعم الكتب كلها ، شاهداً وحاكما ومؤتمناً ، شهد بمثل ما فيها من الأخبار الصادقة : وقرر مافى الكتب المتقدمة من أصول الدين وشرائعه الجامعة ، التى اتفقت عليها الرسل ، كالوصايا المذكورة فى آخر الأنعام ، وأول سورة الأعراف ، وسورة سبحان ، ونحوها من السور المكية .

قال تعالى : ﴿ قل تَعَالَوْا أَتْلُ ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً و بالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى و بعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٥١ ــ ١٥٣] . وقال تعالى : ﴿ قل

أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون * فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون • يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرم رَبِّيَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثمَ والبغيَ بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾ ، [سورة الأعراف : ٢٩ ـ ٣٣]

وقال تعالى ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً * ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً * وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً * وَإمَّا تُعرِضَنَّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسوراً * ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً * إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً * ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً * ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا * ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرفْ في القتل إنه كان منصوراً * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا • وأوفوا الكيل إذا كِلْتُمْ وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا •

ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا • ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا • كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها • ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتُلْقَى فى جهنم ملوماً مدحوراً ﴾ ، [سورة الإسراء : ٢٣ ـ ٣٩] .

فدين الأنبياء والمرسلين دين واحد ، وإن كان لكل من التوراة والإنجيل شرعة ومنهاجا ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم ، فى الحديث المتفق على صحته عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد ، وأنا أولى الناس بابن مريم ، لأنه ليس بينى و بينه نبى »[١] .

فدين المرسلين يخالف دين المشركين المبتدعين ، الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً .

قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ، [سورة الروم : ٣٠ ـ ٣٢] ، قال تعالى : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين • يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم • و إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ ـ وقال فى الآية الأخرى: ﴿ فاعبدون ﴾ ـ ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [سورة المؤمنون : ٥٠ ـ ٥٣] .

---

(١) حديث أبى هريرة ، المتفق عليه ، فى شرح مسلم ١٥ : ١١٩ ، والبخارى (فتح البارى ٦ : ٣٥٣ ، ٣٥٤) بنحو هذا اللفظ ، وكأنه رواه بمعناه .

وقال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾ .
[سورة الشورى : ١٣] .

وقد خص الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بخصائص ميزه الله بها على جميع الأنبياء والمرسلين ، وجعل له شرعة ومنهاجاً ، أفضل شرعة وأكمل منهاج مبين ، كما جعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، فهم يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله من جميع الأجناس ، هداهم الله بكتابه ورسوله لما اختلفوا فيه من الحق قبلهم ، وجعلهم وسطاً عدلا خياراً ، فهم وسط فى توحيد الله وأسمائه وصفاته،وفى الإيمان برسله وكتبه وشرائع دينه من الأمر والنهى والحلال والحرام، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، وأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث ، لم يحرم عليهم شيئاً من الطيبات كما حرم على اليهود ، ولم يحل لهم شيئاً من الخبائث كما استحلتها النصارى ، ولم يضيق عليهم باب الطهارة والنجاسة كما ضيق على اليهود ، ولم يرفع عنهم طهارة الحدث والخبث كما رفعته النصارى ،فلا يوجبون الطهارة من الجنابة ولا الوضوء للصلاة ولا اجتناب النجاسة فى الصلاة ، بل يعد كثير من عبادهم مباشر النجاسات من أنواع القرب والطاعات ، حتى يقال فى فضائل الراهب : « له أربعون سنة ما مس الماء » ولهذا تركوا الختان مع أنه شرع إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وأتباعه .

واليهود عندهم إذا حاضت المرأة ، لا يواكلونها ولا يشاربونها، ولا يقعدون معها فى بيت واحد ، والنصارى لا يحرمون وطء الحائض .

وكان اليهود لا يرون إزالة النجاسة . بل إذا أصاب ثوب أحد منهم قرضه بالمقراض ، والنصارى ليس عندهم شىء نجس يحرم أكله أو تحرم الصلاة معه .

وكذلك المسلمون وسط فى الشريعة ، فلم يجحدوا شرعه الناسخ لأجل شرعه المنسوخ ، كما فعلت اليهود، ولا غيروا شيئاً من شرعه المحكم ، ولاابتدعوا شرعاً لم يأذن به الله ، كما فعلت النصارى ، ولا غلوا فى الأنبياء والصالحين كغلو النصارى ، ولا بخسوهم حقوقهم كفعل اليهود ، ولا جعلوا الخالق سبحانه وتعالى متصفاً بخصائص المخلوق ونقائصه ومعايبه - من الفقر والبخل والعجز ، كفعل اليهود - ولا المخلوق متصفاً بخصائص الخالق سبحانه ، التى ليس كمثله فيها شىء كفعل النصارى . ولم يستكبروا عن عبادته كفعل اليهود ، ولا أشركوا بعبادته أحداً كفعل النصارى .

وأهل السنة والجماعة فى الإسلام كأهل الإسلام فى أهل الملل ، فهم وسط فى باب صفات الله عز وجل ، بين أهل الجحد والتعطيل ، وبين أهل التشبيه والتمثيل ، يصفون الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفته به رسله ، من غير تعطيل ولا تمثيل ، إثباتاً لصفات الكمال ،وتنزيهاً له عن أن يكون له فيها أنداد وأمثال، إثبات بلا تمثيل ، وتنزيه بلا تعطيل ؛ كما قال تعالى ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ ، [سورة الشورى : ١١] ، وهو رد على الممثلة ، ﴿ وهو السميع البصير ﴾ ، [سورة الشورى : ١٢] ، رد على المعطلة

وقال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ، [سورة الإخلاص بأكملها] .

فالصمد : السيد المستوجب لصفات الكمال ، والأحد الذى ليس له كفو ولا مثال .

وهم وسط فى باب أفعال الله عز وجل ، بين المعتزلة المكذبين بالقدر ، والجبرية النافين لحكمة الله ورحمته وعدله ، والمعارضين بالقدر أمر الله ونهيه وثوابه وعقابه .

وفى باب الوعد والوعيد ، بين الوعيدية الذين يقولون بتخليد عصاة المسلمين فى النار ، وبين المرجئة الذين يجحدون بعض الوعيد ؛ وما فضل الله به الأبرار على الفجار .

وهم وسط فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بين الغالى فى بعضهم ؛ الذى يقول فيه بإلهية أو نبوة أو عصمة ؛ والجافى فيهم : الذى يكفر بعضهم أو يفسقه . وهم خيار . هذه الأمة .

والله سبحانه وتعالى أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم للناس رحمة ؛ وأنعم به نعمة يا لها من نعمة : قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ ؛ [سورة الأنبياء : ١٠٧] ؛ وقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً) ؛ [سورة إبراهيم : ٢٨] : وهم الذين لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، فإرساله أعظم نعمة أنعم الله بها على عباده . فجمع الله لأمته بخاتم النبيين وإمام المتقين وسيد ولد آدم أجمعين مافرقه فى غيرهم من الفضائل . وزادهم من فضله أنواع الفواضل ، بل أتاهم كفلين من رحمته ، كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم * لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » ، [سورة الحديد : ٢٨ ، ٢٩]

وفى الصحيحين عن ابن عمر ، وأبى موسى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إنما أجلكم فى أجل من خلا من الأمم مابين صلاة العصر إلى مغرب الشمس ، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالا فقال : من يعمل لى إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط ، ثم قال : من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على

قيراط قيراط ؟ ، فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ، ثم قال : من يعمل من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس ، ألا لكم الأجر مرتين ، فغضبت اليهود والنصارى وقالوا : نحن أكثر عملاً وأقل عطاء ! فقال الله تعالى : فهل ظلمتكم من حقكم شيئاً ؟ قالوا : لا . قال الله تعالى : فإنه فضلى أعطيه من شئت » .(١)

أما بعد : فإن الله تبارك وتعالى جعل محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وأكمل له ولأمته الدين ، و بعثه على حين فترة من الرسل وظهور الكفر وانطماس السبل ، فأحيا به ما درس من معالم الإيمان ، وقمع به أهل الشرك والكفر من عبدة الأوثان والنيران والصلبان ، وأذل به كفار أهل الكتاب ، أهل الشرك والارتياب ، وأقام به منار دينه الذى ارتضاه ، وشاد به ذكر من اجتباه من عباده واصطفاه ، وأظهر به ما كان مخفياً عند أهل الكتاب ، وأبان به ما عدلوا فيه عن منهج الصواب ، وحقق به صدق التوراة والزبور والإنجيل ، وأماط به عنها ما ليس بحقها من باطل التحريف والتبديل .

وكان من سنة الله تبارك وتعالى مواترة الرسل وتعميم الخلق بهم ، بحيث يبعث فى كل أمة رسولا ليقيم هداه وحجته ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] . وقال تعالى : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيراً وَإنْ من أمةٍ إلا خلا فيها نذير ﴾ ، [سورة فاطر : ٢٤] . وقال تعالى : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا

(١) رواه البخارى فى مواضع من حديث ابن عمر ، فى كتاب مواقيت الصلاة ، وفى كتاب الإجارة ، وفى كتاب الأنبياء (وهو بلفظه هنا) وكتاب فضل القراءات ، وكتاب التوحيد فى موضعين . ورواه من حديث أبى موسى فى كتاب الإجارة .

وأما حديث أبى موسى ، فرواه البخارى فى كتاب الإجارة .

تترى ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٤٤] . وقال : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥] .

ولما أهبط آدم إلى الأرض قال تعالى : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، [سورة البقرة : ٣٨] ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ ، [سورة طه : ١٢٣ ـ ١٢٧] .

وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ ، [سورة الملك : ٨ ـ ١٠] : وقال تعالى ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ، [سورة الإسراء : ١٥] . وقال تعالى ﴿ يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا

كافرين * ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾ « [سورة الأنعام : ١٣٠ ، ١٣١] .

فصل

وكان دينه الذى ارتضاه لنفسه هو دين الإسلام ، الذى بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل ، ولا يقبل من أحد دينا غيره ، لا من الأولين ، ولا من الآخرين ، وهو دين الأنبياء وأتباعهم ، كما أخبر الله بذلك عن نوح ومن بعده إلى الحواريين ، قال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كَبُرَ عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تُنْظِرون * فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأُمِرْتُ أن أكون من المسلمين ﴾ ، [سورة يونس : ٧١ ، ٧٢]

وقال تعالى عن إبراهيم : ﴿ ومن يرغبُ عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ [سورة البقرة : ١٣٠ – ١٣٢] .

وقال تعالى عن يوسف الصديق : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطرَ السموات والأرض أنت وَلِيِّى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾ ، [سورة يوسف : ١٠١] .

وقال تعالى عن موسى أنه قال : ﴿ ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ ، [سورة يونس : ٨٤] .

وأخبر تعالى عن السحرة أنهم قالوا لفرعون : ﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٢٦] .

وقال تعالى عن بلقيس ملكة اليمن : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ ، [سورة النمل : ٤٤] .

وقال تعالى عن أنبياء بنى إسرائيل : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلمو للذين هادوا ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٤] .

وقال تعالى عن المسيح : ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٢ ، ٥٣] . وقال تعالى : ﴿ وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ ، [سورة المائدة : ١١١] .

فهذا دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم هو دين الإسلام ، وهو عبادة الله وحده لاشريك له ، وعبادته تعالى فى كل زمان ومكان ، بطاعة رسله عليهم السلام . فلا يكون عابداً له مَن عبده بخلاف ماجاءت به رسله ، كالذين قال تعالى فيهم : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ﴾ ، [سورة الشورى : ٢١] فلا يكون مؤمنا به إلا من عبده بطاعة رسله ، ولا يكون مؤمناً به ولا عابداً له إلا من آمن بجميع رسله وأطاع من أرسل إليه ، فيطاع كل رسول إلى أن يأتى الذى بعده ، فتكون الطاعة للرسول الثانى ، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ، قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ ، [سورة النساء : ٦٤] .

ومن فرق بين رسله فآمن ببعض وكفر ببعض كان كافراً ، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً * والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٠ ـ ١٥٢] .

فلما كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، ولم يكن بعده رسول ولا من يجدد الدين ، لم يزل الله سبحانه وتعالى يقيم لتجديد الدين من الأسباب ما يكون مقتضياً لظهوره ، كما وعد به في الكتاب ، فيظهر به محاسن الإيمان ومحامده ، ويعرف به مساوىء الكفر ومفاسده .

ومن أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين ، وبيان حقيقة أنباء المرسلين ، ظهور المعارضين لهم من أهل الإفك المبين ، كما قال تعالى ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يُوحِي بعضهم إلى بعض زُخْرُفَ القول غروراً ولو شاء ربك مافعلوه فَذَرْهُم وما يفترون * ولتصغَى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضَوْه وليقترفوا ماهم مقترفون * أفغير الله أبتغي حَكَمًا وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين * وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾ ، [سورة الأنعام : ١١٢ ـ ١١٥] .

وقال تعالى : ﴿ ويوم يَعَضُّ الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا * ياويلتَى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا * وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً * وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ ، [سورة الفرقان : ٢٧ ـ ٣١] .

وذلك أن الحق ـ إذا جحد وعورض بالشبهات ـ أقام الله تعالى له مما يحق به الحق و يبطل به الباطل من الآيات والبينات بما يظهره من أدلة الحق و براهينه الواضحة ، وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة .

فالقرآن لما كذب به المشركون ، واجتهدوا على إبطاله بكل طريق ـ مع أنه تحداهم بالإتيان بمثله ، ثم بالإتيان بعشر سور ، ثم بالإتيان بسورة واحدة ـ كان ذلك مما دل ذوى الألباب على عجزهم عن المعارضة مع شدة الاجتهاد وقوة الأسباب ، ولو اتبعوه ـ من غير معارضة وإصرار على التبطيل ـ لم يظهر عجزهم عن معارضته التى بها يتم الدليل

وكذلك السحرة لما عارضوا موسى عليه السلام ، وأبطل الله ما جاءوا به ، كان ذلك مما بين الله تبارك وتعالى به صدق ما جاء به موسى عليه السلام . وهذا من الفروق بين آيات الأنبياء و براهينهم التى تسمى بالمعجزات ، و بين ما قد يشتبه بها من خوارق السحرة وما للشيطان من التصرفات ، فإن بين هذين فروقاً متعددة ، منها ما ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ هل أنبئكم على من تنزّلُ الشياطين * تنزّلُ على كل أفّاك أثيم ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢]

ومنها ما بينه فى آيات التحدّى ، من أن آيات الأنبياء عليهم السلام لا يمكن أن تعارض بالمثل فضلا عن الأقوى ، ولا يمكن أحداً إبطالها ، بخلاف خوارق السحرة والشياطين ، فإنه يمكن معارضتها بمثلها ، وأقوى منها ، و يمكن إبطالها .

وكذلك سائر أعداء الأنبياء من المجرمين شياطين الإنس والجن ، الذين يوحِى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ـ إذا أظهروا من حججهم ما يحتجون به على دينهم المخالف لدين الرسول ، ويموهون فى ذلك بما يلفقونه من منقول ومعقول ـ كان ذلك من أسباب ظهور الايمان ، الذى وعد الله تعالى

يظهوره على الدين كله ، بالبيان والحجة والبرهان ، ثم بالسيف واليد والسنان .

قال الله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] . وذلك بما يقيمه الله تبارك وتعالى من الآيات والدلائل التى يظهر بها الحق من الباطل ، والخالى من العاطل ، والهدى من الضلال ، والصدق من المحال ، والغيّ من الرشاد ، والصلاح من الفساد ، والخطأ من السداد . وهذا كالمحنة للرجال التى تميز بين الخبيث والطيب ، قال تعالى : ﴿ ما كان الله لِيَذَرَ المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يَميزَ الخبيثَ من الطيب ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٧٩] ، وقال تعالى : ﴿ الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين * أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾ ، [سورة العنكبوت ١ — ٤] .

والفتنة هى الامتحان والاختبار ، كما قال موسى عليه الصلاة والسلام : « إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء » ، أى امتحانك واختبارك ، تضل بها من خالف الرسل ، وتهدى بها من اتبعهم . والفتنة للانسان كفتنة الذهب إذا أدخل كير الامتحان ، فإنها تميز جيده من رديئه . فالحق كالذهب الخالص ، كلما امتحن ازداد جودة ، والباطل كالمغشوش المغشى ، إذا امتحن ظهر فساده فالدين الحق كلما نظر فيه الناظر ، وناظر عنه المناظر ، ظهرت له البراهين ، وقوى به اليقين ، وازداد به إيمان المؤمنين ، وأشرق نوره فى صدور العالمين . والدين الباطل إذا جادل عنه المجادل ، ورام أن يقيم عوده المائل ، أقام الله تبارك وتعالى من يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا

هو زاهق ، ويبين أن صاحبه الأحمق ، كاذب مائق . وظهر فيه — من القبح والفساد ، والحلول والاتحاد ، والتناقض والإلحاد ، والكفر والضلال ، والجهل والمحال — ما يظهر به لعموم الرجال ، أن أهله من أضل الضلال ، حتى يظهر فيه من الفساد ما لم يكن يعرفه أكثر العباد ، ويتنبه بذلك من كان غافلا من سنة الرقاد ، من كان لا يميز الغيّ من الرشاد ، ويحيى بالعلم والإيمان من كان ميت القلب لا يعرف معروف الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ولا ينكر[1] منكر المغضوب عليهم والضالين ، فإن[2] ما ذم الله به اليهود والنصارى فى كتابه — مثل تكذيب الحق المخالف للهوى ، والاستكبار عن قبوله ، وحسد أهله ، والبغى عليهم ، واتباع سبيل الغى ، والبخل والجبن وقسوة القلوب ، ووصف الله سبحانه وتعالى بمثل عيوب المخلوقين ونقائصهم ، وجحد ما وصف به نفسه من صفات الكمال المختصة به ، التى لا يماثله فيها مخلوق ، وبمثل الغلو فى الأنبياء والصالحين ، والإشراك فى العبادة لرب العالمين ، والقول بالحلول والاتحاد الذى يجعل العبد المخلوق هو رب العالمين ، والخروج فى أعمال الدين عن شرائع الأنبياء والمرسلين ، والعمل بمجرد هوى القلب وذوقه ووجده فى الدين ، من غير اتباع العلم الذى أنزله الله فى كتابه المبين ، واتخاذ أكابر العلماء والعباد أربابا يتبعون فيما يبتدعونه من الدين المخالف للأنبياء عليهم السلام ، كما قال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣١] ، ومخالفة صريح المعقول وصريح المنقول ، بما يظن أنه من التنزلات الإلهية

---

(١) قوله : « ولا ينكر » ، عطف على قوله : « لا يعرف . . . » .
(٢) أنظر التعليق التالى .

والفتوحات القدسية ، مع كونه من وساويس اللعين ، حتى يكون صاحبها ممن قال الله فيه : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ ، [سورة الملك : ١٠] ، وقال تعالى فيه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٧٩] ، إلى غير ذلك من أنواع البدع والضلالات التى ذم الله بها أهل الكتابيين [١] — فإنها مما حذر الله منه هذه الأمة الأخيار ، وجعل ما حل بهما عبرة لأولى الأبصار .

وقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أنه لا بد من وقوعها فى بعض هذه الأمة ، وإن كان قد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه لا يزال فى أمته أمة قائمة على الحق ، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة ، وأن أمته لا تجتمع على ضلالة ، ولا يغلبها من سواها من الأمم ، بل لاتزال ظاهرة منصورة متبعة لنبيها المهدى المنصور ، ولكن لابد أن يكون فيها من يتبع سنن اليهود والنصارى والروم والمجوس ، كما فى الصحيحين عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا فى جحرضب لدخلتموه » ، قالوا : يارسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال . « فمن ؟ » [٢]

وفى الصحيحين أيضاً ، عن أبى سعيد رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لتأخذن أمتى مأخذ الأمم قبلها شبراً بشبر وذراعاً

---

(١) سياق الكلام : « بأن ماذم الله به اليهود . . . . فإنها مما حذر الله منه الأمة . . » وبين الكلامين اعتراض طويل .

(٢) حديث أبى هريرة رواه البخارى فى كتاب الاعتصام (الفتح ١٣ : ٢٥٤) ، وانظر تفسير الطبرى (طبع دار المعارف) الأحاديث من رقم : ١٦٩٣٠ — ١٦٩٣٣ ، والتعليق عليها .

بذراع » ، قالوا : يا رسول الله ، فارس والروم ؟ قال « فمن الناس إلا أولئك ؟ »[١] .

وفى المظهرين للاسلام منافقون ، والمنافقون فى الدرك الأسفل من النار ، تحت اليهود والنصارى . فلهذا كان ما ذم الله به اليهود والنصارى قد يوجد فى المنافقين المنتسبين للاسلام ، الذين يظهرون الإيمان بجميع ما جاء الرسول ، و يبطنون خلاف ذلك ، كالملاحدة والباطنية ، فضلا عمن يظهر الإلحاد منهم . ويوجد بعض ذلك فى أهل البدع ، ممن هو مقر بعموم رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، باطناً وظاهراً ، لكن اشتبه عليه بعض ما اشتبه على هؤلاء ، فاتبع المتشابه ، وترك المحكم ، كالخوارج وغيرهم من أهل الأهواء .

وللنصارى — فى صفات الله سبحانه وتعالى ، واتحاده بالمخلوقات — ضلال شاركهم فيه كثير من هؤلاء ، بل من الملاحدة من هو أعظم ضلالا من النصارى .

والحلول والاتحاد نوعان : عام وخاص .

فالعام كالذين يقولون : إن الله بذاته حالّ فى كل مكان ، أوأن وجوده عين وجود المخلوقات .

والخاص : كالذين يقولون بالحلول والاتحاد فى بعض أهل البيت ، كعلىّ ، وغيره ، مثل النصيرية وأمثالهم ، أوبعض من ينتسب إلى أهل البيت ، كالحاكم[٢] ، وغيره ، مثل الدرزية وأمثالهم ، أوبعض من يعتقد فيه المشيخة ، كالحلاّجية وأمثالهم .

فمن قال : إن الله سبحانه وتعالى حل أوآتحد بأحد من الصحابة ، أو القرابة ، أو المشايخ ، فهو من هذ الوجه أكفر من النصارى الذين قالوا بالاتحاد

---

(١) حديث أبى سعيد الخدرى . رواه البخارى (الفتح ١٣ : ٢٥٥) ومسلم فى صحيحه (شرح النووى ١٦ : ٢١٩)

(٢) لا الحاكم بأمره العبيدى الذى حكم مصر مدة .

والحلول فى المسيح ، فإن المسيح عليه السلام أفضل من هؤلاء كلهم .

ومن قال بالحلول والاتحاد العام فضلا له أعم من ضلال النصارى ، وكذلك من قال بقدم أرواح بنى آدم ، أو أعمالهم ، أو كلامهم ، أو أصواتهم ، أو مداد مصاحفهم ، أو نحو ذلك ، ففى قوله شعبة من قول النصارى .

فبمعرفة حقيقة دين النصارى وبطلانه ، يعرف بطلان ما يشبه أقوالهم ، من أقوال أهل الإلحاد والبدع . فإذا جاء نور الإيمان والقرآن أزهق الله به ما خالفه ، كما قال تعالى : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ ، [سورة الإسراء : ٨١] . وأبان الله سبحانه وتعالى من فضائل الحق ومحاسنه ما كان به محقوقاً .

وكان من أسباب نصر الدين وظهوره ، أن كتاباً ورد من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصارى ، بما يحتج به علماء دينهم وفضلاء ملتهم قديماً وحديثاً ، من الحجج السمعية والعقلية ، فاقتضى أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب ، وبيان الخطأ من الصواب ، لينتفع بذلك أولو الألباب ، ويظهر ما بعث الله به رسله من الميزان والكتاب . وأنا أذكر ما ذكروه بألفاظهم بأعيانها فصلا فصلا ، وأتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعاً وأصلا ، وعقداً وحلا . وما ذكروه فى هذا الكتاب هو عمدتهم التى يعتمد عليها علماؤهم فى مثل هذا الزمان ، وقبل هذا الزمان ، وإن كان قد يزيد بعضهم على بعض ، بحسب الأحوال . فإن هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك ، ويتناقلها علماؤهم بينهم ، والنسخ بها موجودة قديمة . وهى مضافة إلى «بولص» الراهب أسقف صيدا الأنطاكى ، كتبها إلى بعض أصدقائه ، وله مصنفات فى نصر النصرانية ، وذكر أنه لما سافر إلى بلاد الروم والقسطنطينية وبلاد الملافطة وبعض أعمال الإفرنج ورومية ، واجتمع بأجلاء أهل تلك الناحية ، وفاوض أفاضلهم وعلماءهم ، وقد

عظم هذه الرسالة ، وسماها : « الكتاب المنطيقى الدولة خانى المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأى المستقيم » .

ومضمون ذلك ستة فصول :

(الفصل الأول) : دعواهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يبعث إليهم ، بل إلى أهل الجاهلية من العرب ، ودعواهم أن فى القرآن مايدل على ذلك ، والعقل يدل على ذلك .

(الفصل الثانى) : دعواهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم أثنى فى القرآن على دينهم الذى هم عليه ، ومدحه بما أوجب لهم أن يثبتوا عليه .

(الفصل الثالث) : دعواهم أن نبوات الأنبياء المتقدمين ، كالتوراة والزبور والإنجيل ، وغير ذلك من النبوات ، يشهد لدينهم الذى هم عليه من الأقانيم والتثليث والاتحاد ، وغير ذلك ، بأنه حق وصواب ، فيجب التمسك به ، ولا يجوز العدول عنه ، إذ لم يعارضه شرع يرفعه ولا عقل يدفعه .

(والفصل الرابع) : فيه تقرير ذلك بالمعقول ، وأن ما هم عليه من التثليث ثابت بالنظر المعقول ، والشرع المنقول ، موافق للأصول .

(والفصل الخامس) : دعواهم أنهم موحدون ، والاعتذار عما يقولونه من ألفاظ يظهرا منها تعدد الآلهة ، كألفاظ الأقانيم ، بأن ذلك من جنس ما عند المسلمين من النصوص التى يظهر منها التشبيه والتجسيم .

(والفصل السادس) : أن المسيح عليه السلام جاء بعد موسى عليه السلام بغاية الكمال ، فلاحاجة ــ بعد النهاية ــ إلى شرع مزيد على الغاية ، بل يكون مابعد ذلك شرعاً غير مقبول .

ونحن ــ ولله الحمد والمنة ــ نبين أن كل ما احتجوا به من حجة سمعية ، من القرآن ، أو من الكتب المتقدمة على القرآن ، أو عقلية ، فلا حجة لهم فى شىء منها ، بل الكتب كلها مع القرآن ، والعقل حجة عليهم ، لا لهم ، بل عامة

ما يحتجون به من نصوص الأنبياء ، ومن المعقول ، فهو نفسه حجة عليهم ، و يظهر منه فساد قولهم ، مع مايفسده من سائر النصوص النبوية ، والموازين التى هى مقاييس عقلية .

وهكذا يوجد عامة ما يحتج به أهل البدع من كتب الله عز وجل ، فى تلك النصوص ما تبين أنه لا حجة لهم فيها ، بل هى بعينها حجة عليهم ، كما ذكر أمثال ذلك فى الرد على أهل البدع والأهواء ، وغيرهم من أهل القبلة . وإنما عامة ماعند القوم ألفاظ متشابهة ، تمسكوا بها ، ظنوها تدل عليه ، وعدلوا عن الألفاظ المحكمة الصريحة المبينة ، مع مايقترن بذلك من الأهواء . وهذه حال جميع أهل الباطل ، كما قال تعالى فيهم ، ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ ، [سورة النجم : ٢٣] .

فهم فى جهل وظلم ، كما قال تعالى ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا * ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات و يتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما ﴾ [سورة الأحزاب : ٧٢ ، ٧٣] .

فالمؤمنون الذين تاب الله عليهم من الجهل والظلم هم أتباع الأنبياء عليهم السلام ، فإن الأنبياء بعثوا بالعلم والعدل ، كما قال تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى ﴾ ، [سورة النجم ١ — ٤] فبين سبحانه وتعالى أنه ليس ضالا جاهلا ، ولا غاوياً متبعاً هواه ، ولا ينطق عن هواه ، إنما نطقه وحى أوحاه الله سبحانه وتعالى .

وقال تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴾ ، [سورة الفتح : ٢٨] .

فالهدى يتضمن العلم النافع ، ودين الحق يتضمن العمل الصالح ، ومبناه على العدل ، كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] .

وأصل العدل فى حق الله تعالى هو عبادة الله وحده لا شريك له ، فإن الشرك ظلم عظيم كما قال لقمان لابنه : ﴿ يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

وفى الصحيحين ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، لما نزلت ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس هو كما تظنون ، إنما هو الشرك . ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : إن الشرك لظلم عظيم ؟ »[(١)].

ولما كان أتباع الأنبياء هم أهل العلم والعدل ، كان كلام أهل الإسلام والسنة مع الكفار وأهل البدع بالعلم والعدل ، لا بالظن وما تهوى الأنفس . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « القضاة ثلاثة : قاضيان فى النار ، وقاض فى الجنة . رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو فى النار ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار » رواه أبو داود وغيره[(٢)].

فإذا كان من يقضى بين الناس فى الأموال والدماء والأعراض — إذا لم يكن عالمًا عادلا — كان فى النار ، فكيف بمن يحكم فى الملل والأديان، وأصول الإيمان ، والمعارف الإلهية ، والمعالم الكلية ، بلا علم ، ولا عدل ؟ كحال أهل البدع والأهواء ، الذين يتمسكون بالمتشابه المشكوك ، ويدعون المحكم الصريح من نصوص الأنبياء ، ويتمسكون بالقدر المشترك المتشابه فى المقاييس والآراء ، ويعرضون عما بينها من الفروق المانعة من الإلحاق والاستواء ، كحال الكفار

---

(١) حديث عبد الله بن مسعود ، رواه البخارى (الفتح ١ : ٨١ / ٨ : ٢٢٠) ورواه مسلم (شرح النووى ٢ : ٢٤٣ و ١٤٤) ، وانظر تفسير الطبرى (طبع دار المعارف) ، الأحاديث ١٣٤٧٦ — ١٣٤٨٣ ، والتعليق عليها .

(٢) رواه أبوداود فى سننه ٣٠٦،٣ رقم ٣٥٧٣ ، وأخرجه الترمذى وابن ماجه أيضاً

وسائر أهل البدع والأهواء ، الذين يمثلون المخلوق بالخالق ، والخالق بالمخلوق ، ويضربون لله المثل السوء بالقول الهزء .

وذلك أن دين النصارى الباطل إنما هو دين مبتدع ، ابتدعوه بعد المسيح عليه السلام، وغيروا به دين المسيح ، فضل منهم من عدل عن شريعة المسيح إلى ما ابتدعوه . ثم لما بعث الله تعالى محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام كفروا به ؛ فصار كفرهم وضلالهم من هذين الوجهين: تبديل دين الرسول الأول ، وتكذيب الرسول الثانى : كما كان كفر اليهود بتبديلهم أحكام التوراة قبل مبعث المسيح، ثم تكذيبهم المسيح عليه السلام .

ونبين ـ إن شاء الله تعالى ـ أن ماعليه النصارى من التثليث والاتحاد لم يدل عليه شىء من كتب الله ، لا الإنجيل ، ولا غيره ، بل دلت على نقيض ذلك . ولا دل على ذلك عقل ، بل العقل الصريح ، مع نصوص الأنبياء ، تدل على نقيض ذلك . بل وكذلك عامة شرائع دينهم ، محدثة مبتدعة ، لم يشرعها المسيح عليه السلام .

ثم التكذيب لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو كفرهم المعلوم لكل مسلم، مثل كفر اليهود بالمسيح عليه السلام ، وأبلغ وهم يبالغون فى تكفير اليهود بأعظم مما يستحقه اليهود من التكفير ، إذ كان اليهود يزعمون أن المسيح ساحر كذاب ، بل يقولون : إنه ولد بغية ، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله سبحانه : ﴿ وقولهم على مريم بهتاناً عظيما ﴾ ، [سورة النساء : ٥٦] ، والنصارى يدعون أنه الله الذى خاق الأولين والآخرين ، وأنه ديان يوم الدين ، فكانت الأمتان فيه على غاية التناقض والتعادل والتقابل . ولهذا كل أمة تذم الأخرى بأكثر مما تستحقه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شى وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون

مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ ، [سورة البقرة : ١١٣] .

ذكر محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة ، أو سعيد بن جبير ، عن ابن‌عباس رضى الله عنه : أنه لما قدم وفد نجران من النصارى على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال ربيع بن‌حرملة : ما أنتم على‌شيء ، وكفر بعيسى والإنجيل جميعاً،فقال رجل من أهل نجران‌من النصارى لليهود : ما أنتم على شيء ، وجحد بنبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله تعالى ذلك فى قولهما : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب ﴾ ،[سورة البقرة : ١١٣] ، قال: كل يتلو فى كتابه تصديق ما كفر به : أى تكفير اليهود بعيسى ، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله تعالى عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى عليه السلام ، وفى الإنجيل بإجابة عيسى بتصديق موسى عليه السلام ، وبما جاء به من التوراة من الله تعالى ، وكل يكفر بما فى يدى صاحبه .

قال قتادة : « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء » ، قال : بلى ، قد كان أوائل النصارى على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا . «وقالت النصارى ليست اليهود على شيء » ، قال : بلى ، قد كان أوائل اليهود على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا : فاليهود كذبوا بدين النصارى ، وقالوا . ليسوا على شيء . والنصارى كذبوا بجميع ما يتميز به اليهود عنهم ، حتى فى شرائع التوراة التى لم ينسخها المسيح ، بل أمرهم بالعمل بها ، واليهود كذبوا بكثير من الذى تميزوا به عنهم ، حتى كذبوا بما جاء به عيسى عليه السلام من الحق .

لكن النصارى ـ وإن بالغوا فى تكفير اليهود ومعاداتهم عن الحد الحد الواجب عما ابتدعود من الغلو والضلال ـ فلا ريب أن اليهود لما كذبوا

المسيح صاروا كفاراً ، كما قال الله تعالى للمسيح : ﴿ إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ ، [سورة الصف : ١٤] .

وكفر النصارى ـ بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم ، وبمخالفة المسلمين ـ أعظم من كفر اليهود بمجرد تكذيب المسيح ، فإن المسيح لم ينسخ من شرع التوراة إلا قليلا ، وسائر شرعه إحالة على التوراة ، ولكن عامة دين النصارى أحدثوه بعد المسيح . فلم يكن فى مجرد تكذيب اليهود له ـ من مخالفة شرع الله ـ ما فى تكذيب النصارى لمحمد صلى الله عليه وسلم ، الذى جاء بكتاب مستقل من عند الله ، لم يحل شيء من شرعه على شرع غيره . قال تعالى : ﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٥١] .

والقرآن أصل كالتوراة ، وإن كان أعظم منها ، ولهذا كان علماء النصارى يقرنون بين موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، كما قال النجاشي ملك النصارى لما سمع القرآن : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . وكذلك قال ورقة بن نوفل ، وهو من أحبار نصارى العرب ، لما سمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنه يأتيك الناموس الذى يأتى موسى ، يا ليتنى فيها جذعاً حين يخرجك قومك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أوَمُخْرِجِيَّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عُودِىَ ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً .[1]

(١) رواه البخاري فى أول كتابه فى باب بدء الوحى بغير هذا اللفظ .

ولهذا يقرن سبحانه وتعالى بين التوراة والقرآن فى مثل قوله : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا » ، يعنى التوراة والقرآن ، وفى القراءة الأخرى : « قالوا ساحران » ، أى موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، « وقالوا إنا بكل كافرون * قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين » [سورة القصص : ٤٨ ، ٤٩] . فلم ينزل كتاب من عند الله أهدى من التوراة والقرآن .

ثم قال تعالى : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لايهدى القوم الظالمين» ، [سورة القصص : ٥٠] .

وهؤلاء النصارى ، ذكر كاتب كتابهم فى كتابه : أنه لما سأله أن يفحص له فحصاً بيناً عما يعتقده النصارى المسيحيون المختلفة ألسنتهم ، المتفرقة فى أربع زوايا العالم ، من المشرق إلى المغرب ، ومن الجنوب إلى الشمال ، والقاطنون بجزائر البحر ، والمقيمون بالبر المتصل إلى مغيب الشمس ، فإن الأسقف ديان الملك الرومى اجتمع بمن اجتمع به من أجلائهم ورؤسائهم ، وفاوض من فاوض من أفاضلهم وعلمائهم ، فيما علمه من رأى القوم الذين رآهم بجزائر البحر قبل دخوله إلى قبرص ، وخاطبهم فى دينهم وما يعتقدونه ويحتجون به عن أنفسهم ، قال الكاتب على لسان الأسقف : إنهم يقولون : إنا سمعنا أن قد ظهر إنسان من العرب اسمه محمد ، ويقول : إنه رسول الله ، وأتى بكتاب فذكر أنه منزل عليه من الله ، فلم نزل إلى أن حصل الكتاب عندنا . قال : فقلت لهم : إذا كنتم قد سمعتم بهذا الكتاب وهذا الإنسان ، واجتهدتم على تحصيل هذا الكتاب الذى أتى به عندكم ، فلأى حال لم تتبعوه ، ولا سيما وفى هذا الكتاب

يقول : « ومن يبتغ غير الإســـلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » ، [سورة آل عمران : ٨٥) . ؟ أجابوا قائلين : لأحوال شتى . قال : فقلت : وما هى ؟ قالوا : منها أن الكتاب عربى وليس بلساننا ، حسب ما جاء فيه ، يقول : « إنا أنزلناه قرآناً عربيا لعلكم تعقلون » ، [سورة يوسف: ٢) ، وقال : « بلسان عربى مبين » ، (سورة الشعراء : ١٩٥) ، وقال فى سورة الشعراء : ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين ❊ فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾ ، (سورة الشعراء : ١٩٨ ، ١٩٩) ، وقال فى سورة البقرة : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ ، (سورة البقرة : ١٥١) ، وقال فى سورة آل عمران : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين» ، [سورة آل عمران : ١٦٤] . وقال تعالى فى سورة القصص ﴿ لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾ [سورة القصص : ٤٦] ، وقال فى سورة يس ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ ، [سورة يس : ٦] ، قالوا : فلما رأينا هذا علمنا أنه لم يأت إلينا ، بل إلى جاهلية العرب ، الذين قالوا : إنه لم يأتهم رسول ولا نذير من قبله . وإنه لا يلزمنا اتباعه ، لأننا نحن قد أتانا رسل من قبله : خاطبونا بألسنتنا ، وأنذرونا بديننا الذى نحن متمسكون به يومنا هذا ، وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلغتنا ، على ما يشهد لهم هذا الكتاب الذى أتى به هذا الرجل ، حيث يقول فى سورة إبراهيم : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ ، [سورة إبراهيم : ٤] ، وقال فى سورة النحل : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] : وقال فى سورة الروم : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ﴾ ، (سورة الروم : ٤٧) . فقد صح فى هذا الكتاب أنه لم يأت إلا إلى الجاهلية

من العرب ، وأما قوله : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ ، (سورة آل عمران : ٨٥) ، فيريد بحسب مقتضى العدل قومه الذين أتاهم بلغتهم ، لا غيرهم ممن لم يأتهم بما جاء فيه . ونعلم أن الله عدل ، وليس من عدله أن يطالب يوم القيامة أمة من الأمم باتباع إنسان لم يأت إليهم ، ولا وقفوا له على كتاب بلسانهم ، ولا من جهة داع من قبله .

وهذه ألفاظهم بأعيانها فى الفصل الأول ، وهذا الفصل لم يتعرضوا فيه لا لتصديقه . ولا لتكذيبه ، بل زعموا أنه فى نفس هذا الكتاب أنه لم يقل : إنه مرسل إليهم ، بل إلى جاهلية العرب . وأن العقل أيضا يمنع أن يرسل إليهم .

فنحن نبدأ بالجواب على هذا ، ونبين أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أنه مرسل إليهم وإلى جميع الإنس والجن ، وأنه لم يقل قط : إنه لم يرسل إليهم ، ولا فى كتابه ما يدل على ذلك . وأن ما احتجوا به من الآيات التى غلطوا فى معرفة معناها ، فتركوا النصوص الكثيرة الصريحة فى كتابه ، التى تبين أنه مرسل إليهم ، من جنس ما فعلوه فى التوراة والإنجيل والزبور . وكلام الأنبياء ، حيث تركوا النصوص الكثيرة الصريحة ، وتمسكوا بقليل من المتشابه الذى لم يفهموا معناه . ومعلوم أن الكلام فى صدق مدعى الرسالة وكذبه ، متقدم على الكلام فى عموم رسالته وخصوصها ، وإن كان قد يعلم أحدهما قبل الآخر . لكن هؤلاء القوم ادعوا خصوص رسالته ، وذكروا أن القرآن يدل على ذلك . فنجيب عما ذكروه على حسب ترتيبهم فصلا فصلا ، فنقول وبالله التوفيق :

الكلام فيمن خاطب الخلق بأنه رسول الله إليهم ، كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم ، وغيره ممن قال : إنه رسول الله ، كإبراهيم ، وموسى ، ونحوهما من

الأنبياء الصادقين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وآل كل من الصالحين ، وكمسيلمة الكذاب والأسود العنسي ، ونحوهما ، من المتنبئين الكاذبين ، ينبني[١] على أصلين :

أحدهما : أن يعرف ما يقوله في خبره وأمره ، فيعرف ما يخبر به و يأمر به ، وهل قال : إنه رسول الله إلى جميع الناس ؟ أو قال : إنه لم يرسل إلا إلى طائفة معينة ، لا إلى غيرها ؟

والثاني : أن نعرف هل هو صادق أو كاذب ؟

و بهذين الأصلين يتم الإيمان المفصل ، وهو معرفة صدق الرسول ، ومعرفة ما جاء به .

وأما الإيمان المجمل ، فيحصل بالأول ، وهو معرفة صدقه فيما جاء به ، كإيماننا بالرسل المتقدمة . وقد يعلم صدقه أو كذبه ، قبل أن يعلم ما يذكره . وقد يعلم ما يذكره ، قبل أن يعلم صدقه أو كذبه . وهؤلاء بدأوا في كتابهم هذا بما ذكره الرسول ، مما زعموا أنه حجة لهم على عدم وجوب اتباعه ، وعلى مدح دينهم الذي هم اليوم عليه ، بعد النسخ والتبديل . ثم ذكروا حججاً مستقلة على صحة دينهم ، ثم ذكروا ما يقدح فيه وفي دينه ، فلهذا قدمنا الجواب عما احتجوا به من القرآن ، كما قدموه في كتابهم .

فصل

ودلائل صدق النبي الصادق ، وكذب المتنبي الكاذب ، كثير جداً . فإن من ادعى النبوة — وكان صادقاً — فهو من أفضل خلق الله تعالى ، وأكملهم في العلم والدين ، فإنه لا أحد أفضل من رسل الله وأنبيائه ، صلوات الله عليهم

---

(١) تقدير العبارة : « الكلام ... ينبني ... » .

وسلامه ، وإن كان بعضهم أفضل من بعض ، كما قال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ ، [سورة الإسراء : ٥٥] .

وإن كان المدعي للنبوة كاذباً فهو من أكفر خلق الله ، وشرهم ، كما قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلى ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩٣] ، وقال تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذَّب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين . والذي جاء بالصدق وصدَّق به أولئك هم المتقون . لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ﴾ ، [سورة الزمر : ٣٢ ـ ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ ، [سورة الزمر : ٦٠] ، فالكذب أصل للشر ، وأعظمه الكذب على الله عز وجل . والصدق أصل للخير ، وأعظمه الصدق على الله تبارك وتعالى .

وفي الصحيحين ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عليكم بالصدق ؛ فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكْتَبَ عند الله صِدِّيقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »(١) .

ولما كان هذا في أعلى الدرجات ، وهذا في أسفل الدركات ، كان بينهما من الفروق والدلائل والبراهين ، التي تدل على صدق أحدهما وكذب الآخر ـ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب ، ورواه مسلم في صحيحه أيضا في كتاب البر والصلة والآداب .

ما يظهر لكل من عرف حالها . ولهذا كانت دلائل الأنبياء وأعلامهم الدالة على صدقهم كثيرة متنوعة ، كما أن دلائل كذب المتنبئين كثيرة متنوعة ، كما قد بسط فى موضع آخر .

فصل

إذا عرف هذا ، فهؤلاء القوم ـ فى هذا المقام ـ ادعوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يرسل إليهم ، بل إلى أهل الجاهلية من العرب ، فهذه الدعوى على وجهين :

إما أن يقولوا : إنه بنفسه لم يدع أنه أرسل إليهم ، ولكن أمته ادعوا له ذلك .

وإما أن يقولوا : إنه ادعى أنه أرسل إليهم ، وهو كاذب فى هذه الدعوى وكلامهم فى صدر هذا الكتاب يقتضى الوجه الأول .

وفى آخره قد يقال : إنهم قد أشاروا إلى الوجه الثانى ، لكنهم فى الحقيقة لم ينكروا رسالته إلى العرب ، وإنما أنكروا رسالته إليهم . وأما رسالته إلى العرب فلم يصرحوا بتصديقه فيها ولا بتكذيبه ، وإن كان ظاهر لفظهم يقتضى الإقرار برسالته إلى العرب بل صدقوا بما وافق قولهم ، وكذبوا بما خالف قولهم .

ونحن نبين أنه لا يصح احتجاجهم بشىء مما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم نتكلم على الوجهين جميعاً ، ونبين أنه لا يصح احتجاجهم بشىء من القرآن على صحة دينهم ، بوجه من الوجوه . ونبين أن القرآن لا حجة فيه لهم ، ولا فيه تناقض ، وكذلك كتب الأنبياء المتقدمين ، التى يحتجون بها ، هى حجة عليهم ، ليس فى شىء منها حجة لهم ، ولو لم يبعث محمد صلى الله عليه وسلم . فكيف والكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم موافق لسائر كلام الأنبياء عليهم السلام ، فى إبطال دينهم ، وقولهم فى التثليث والاتحاد ، وغير ذلك ، مع

العقل الصريح ؟ فهم احتجوا فى كتابهم هذا بالقرآن وبما جاءت به الأنبياء ، قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، مع العقل .

ونحن نبين أنه لا حجة لهم فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا فيما جاءت به الأنبياء قبله ، ولا فى العقل . بل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاءت به الأنبياء قبله ، مع صريح العقل ، كلها براهين قطعية على فساد دينهم . ولكن نذكر قبل ذلك : أن احتجاجهم بما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم لا يصح بوجه من الوجوه ، وأنه لا يجوز أن يحتج بمجرد المنقول عن محمد صلى الله عليه وسلم من يكذبه فى كلمة واحدة مما جاء به .

وكذلك كلام سائر الأنبياء عليهم السلام ، بخلاف الاحتجاج بكلام غير الأنبياء ، فإن ذلك يمكن موافقة بعضه دون بعض . وأما ما أخبرت به الأنبياء عليهم السلام ، أو من قال : إنه نبى ، فلا يمكن الاحتجاج ببعضه دون بعض ، سواء قدر صدقهم أو كذبهم .

فيقال لهم ، على كل تقدير ، سواء إن أقروا بنبوته إلى العرب أو إلى غيرهم ، أو كذبوه فى قوله : إنه رسول الله مطلقاً ، أو سكتوا عن هذا وهذا ، أو صدقوه فى البعض دون البعض[1] .

إن احتجاجهم على صحة ما يخالفون فيه المسلمون ، مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يصح بوجه من الوجوه . فاحتجاجكم على أنه لم يرسل إليكم ، أو على صحة دينكم بشىء من القرآن ، حجة داحضة ، على كل تقدير .

مع أنا سنبين ، إن شاء الله تعالى ، أن الكتب الإلهية كلها ، مع المعقول ، لا حجة لكم شىء منها ، بل كلها حجة عليكم .

وهذا بخلاف المسلمين ، فإنه يصح احتجاجهم على أهل الكتاب ، اليهود والنصارى ، بما جاءت به الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم . وأهل الكتاب

---

(١) سياق العبارة : « فيقال لهم ... إن احتجاجهم .. » .

لا يصح احتجاجهم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن المسلمين مقرون بنبوة موسى ، وعيسى ، وداود ، وسليمان ، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام ، وعندهم يجب الإيمان بكل كتاب أنزله الله ، و بكل نبي أرسله الله ، وهذا أصل دين المسلمين : فمن كفر بنبي واحد ، أو كتاب واحد ، فهو عندهم كافر . بل من يسب نبياً من الأنبياء فهو عندهم كافر مباح الدم ، كما قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل و إسحاق و يعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، و إن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ [سورة البقرة : ١٣٦ ، ١٣٧] وقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا و إليك المصير ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٥] . وقال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ ، [سورة البقرة : ١٧٧] .

والكتاب اسم جنس لكل كتاب أنزله الله ، يتناول التوارة والإنجيل ، كما يتناول القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ﴾ ، [سورة الشورى : ١٥] . وقوله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٥] . وفي القراءة الأخرى : « وكتابه » ، كقوله تعالى : ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ﴾ ، [سورة الشورى : ١٥] . وقوله تعالى : ﴿ الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك و بالآخرة هم

يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ ، [سورة البقرة : ١ ـ ٥] .

فذكر أن هذا الكتاب الذى أنزل عليه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، والذين يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل من قبله وبالآخره هم يوقنون . ثم أخبر تعالى أن هؤلاء هم المفلحون . فحصر الفلاح فى هؤلاء ، فلا يكون مفلحاً إلا من كان من هؤلاء ، وقوله تعالى : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ هو صفة للمذكورين ليس هؤلاء صنفاً آخر . فإن عطف الشيء على الشيء قد يكون لتغاير الصفات ، وإن كانت الذات واحدة . هذا هو الصحيح هنا . وإن كان قد قيل : إن الصنف الثانى مؤمنو أهل الكتاب ، والأول هم المسلمون ، فهذا ضعيف . وأفسد منه ، قول هؤلاء النصارى : إن الكتاب المراد به الإنجيل ، كما سيأتى الكلام على ذلك ، إن شاء الله تعالى .

والعطف لتغاير الصفات كقوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوى * والذى قدر فهدى * والذى أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى ﴾ [سورة الأعلى : ١ ـ ٥] . وهو سبحانه الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى . وقوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ١ ـ ٥] . . . إلى آخر الآيات . وكذلك قوله : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ ، [سورة البقرة : ٤] هم الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون وهم الذين على هدى من ربهم ، وهم المفلحون . ولكن فصل إيمانهم بعد أن أجمله ؛ لئلا يظن ظان أن مجرد دعوى الإيمان بالغيب ينفع ، وإن لم يؤمن بما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أنزل

إلى من قبله : فلو قال أحد من الناس : أنا أومن بالغيب ، وهو مع ذلك لا يؤمن ببعض ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، أو ببعض ما أنزل على من قبله لم يكن مؤمناً ، حتى يؤمن بجميع ما أنزل إليه ، وما أنزل إلى من قبله . ولو كانوا صنفاً آخر لكان المفلحون قسمين : قسما يؤمنون بالغيب ، ولا يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل إلى من قبله ، وقسما يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل إلى من قبله ، ولا يؤمنون بالغيب وهذا باطل عند جميع الأمم : المؤمنين ، واليهود ، والنصارى . فإن الإيمان بما أنزل إليه وإلى من قبله ، يتضمن الإيمان بالغيب . والإيمان بالغيب لا يتم إلا بالإيمان[1] بجميع ما أنزله الله تبارك وتعالى .

والمسلمون لا يستجيز أحد منهم التكذيب بشيء مما أنزل على من كان قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، لكن الاحتجاج بذلك عليهم يحتاج إلى ثلاث مقدمات :

أحدها : ثبوت ذلك عن الأنبياء عليهم السلام .

والثانية : صحة الترجمة إلى اللسان العربي ، أو اللسان الذي يخاطب به ، كالرومي ، والسرياني ، فإن لسان موسى ، وداود ، والمسيح ، وغيرهم ، من أنبياء بني إسرائيل ، كان عبرانياً : ومن قال إن لسان المسيح كان سريانياً أو رومياً فقد غلط .

والثالثة : تفسير ذلك الكلام ، ومعرفة معناه

فلهذا كان المسلمون لا يردون شيئاً من الحجج بتكذيب أحد من الأنبياء في شيء قاله ، ولكن قد يكذبون الناقل عنهم ، أو يفسرون المنقول عنهم بما أرادوه ، بمعنى آخر ، على وجه الغلط .

وإن كان بعض المسلمين قد يغلط في تكذيب بعض النقل ، أو تأويل

---

(١) في المطبوعة الأولى : « والإيمان بالغيب لا يتم إلا بأن يؤمن بالإيمان » وكأنما أراد أن يقول : « بأن يؤمن » ، ثم عدل عنها إلى : « بالإيمان » ، وهما بمعنى ، ونسي الناسخ أن يحذف الأولى ، فحذفناها هنا .

بعض المنقول عنهم . فهو كما يغلط من يغلط منهم ، ومن سائر أهل الملل ، فى التكذيب على وجه الغلط ببعض ما ينقل عمن يقر بنبوته ، أو فى تأويل المنقول عنه .

وهذا بخلاف تكذيب نفس النبى ، فإنه كفر صريح بخلاف أهل الكتاب ، فإنه لايتم مرادهم إلا بتكذيبهم ببعض ما أنزل الله ، ومتى كذب بكلمة واحدة مما أخبر به من قال : إنه رسول الله ، بطل احتجاجه بسائر كلامه . فكانت حجتهم التى يحتجون بها داحضة وذلك أن الذى يقول : إنه رسول الله ، إما أن يكون صادقاً فى قوله : إنى رسول الله ، وفى جميع مايخبر به عن الله ، وإما أن يكون كاذباً ، ولو فى كلمة واحدة عن الله .

فإن كان صادقاً فى ذلك ، امتنع أن يكذب على الله فى شىء مما يبلغه عن الله ؛ فإن من كذب على الله ، ولو فى كلمة واحدة ، كان ممن افترى على الله الكذب ، ولم يكن رسولا من رسل الله ، ومن افترى على الله الكذب تبين أنه من المتنبئين الكذابين . ومثل هذا لايجوز أن يحتج بخبره عن الله ، فإنه قد علم أن الله لم يرسله . وإذا قال هو قولاً ، وكان صدقاً ، كان كما يقوله غيره ، يقبل . لا لأنه بلغه عن الله ، ولا لأنه رسول عن الله ، بل كما يقبل من المشركين وسائر الكفار ما يقولونه من الحق ؛ فإن عباد الأوثان ، إذا قالوا عن الله ما هو حق مثل إقرار مشركى العرب بأن الله خلق السموات والأرض لم نكذبهم فى ذلك ، وإن كانوا كفاراً . وكذلك إذا قال الكافر : إن الله حى قادر خالق ، لم نكذبه فى هذا القول . فمن كذب على الله فى كلمة واحدة ، قال : إن الله أنزلها عليه ، ولم يكن الله أنزلها عليه ، فهو من الكذابين ، الذين لا يجوز أن يحتج بشىء من أقوالهم ، التى يقولون : إنهم يبلغونها عن الله تبارك وتعالى . وما قالوه غير ذلك فهم فيه كسائر الناس ، بل كأمثالهم من الكذابين : إن عرف صحة ذلك القول من جهة غيرهم ، قبل ، لقيام الدليل على صحته ، لا لكونهم

قالوه . وإن لم يعرف صحته من جهة غيرهم ، لم يكن فى قولهم له مع ثبوت كذبهم على الله حجة .

وحينئذ ، فهؤلاء إن أقروا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه صادق فيما بلغه عن الله من الكتاب والحكمة ، وجب عليهم الإيمان بكل ما ثبت عنه من الكتاب والحكمة ، كما يجب الإيمان بكل ما جاءت به الرسل .

وإن كذبوه فى كلمة واحدة ، أو شكوا فى صدقه فيها ، امتنع مع ذلك أن يقروا بأنه رسول الله . وإذا لم يقروا بأنه رسول الله ، كان احتجاجهم بما قاله ، كاحتجاجهم بسائر ما يقوله من ليس من الأنبياء ، بل من الكذابين ، أو من المشكوك فى صدقهم . ومعلوم أن من عرف كذبه على الله فيما يقول : إنه يبلغه عن الله : أو شك فى صدقه ، لم يعلم أنه رسول الله ، ولا أنه صادق فى كل ما يقوله ويبلغه عن الله . وإذا لم يعلم ذلك منه ، لم يعرف أن الله أنزل إليه شيئاً . بل إذا عرف كذبه ، عرف أن الله لم ينزل إليه شيئاً ، ولا أرسله ، كما عرف كذب مسيلمة الكذاب ، والأسود العنسى ، وطليحة الأسدى ، وكما عرف كذب «مانى» وأمثاله ، من المتنبئين الكذابين .

وإذا شك فى صدقه فى كلمة واحدة ، بل جوز أن يكون كذبها عمداً أو خطأ ، لم يجز تصديقه مع ذلك ، فى سائر مايبلغه عن الله ؛ لأن تصديقه فيما يخبر به عن الله ، إنما يكون إذا كان رسولا صادقاً ، لايكذب عمداً ولا خطأ . فإن كل من أرسله الله لابد أن يكون صادقاً فى كل مايبلغه عن الله ، لا يكذب فيه عمداً ولا خطأ .

وهذا أمر اتفق عليه الناس كلهم : المسلمون ، واليهود ، والنصارى وغيرهم ، اتفقوا على أن الرسول لابد أن يكون صادقاً معصوما فيما يبلغه عن الله ، لايكذب على الله خطأ ولاعمدا . فإن مقصود الرساله لاتحصل بدون ذلك ، كما قال موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ يا فرعون إنى رسول من رب العالمين * حقيق على أن

لا أقول على الله إلا الحق ﴾ ، [سورة الأعراف : ٤ ١٠٥] . وفي القراءة المشهورة : يخبر أنه جدير وحري وثابت ومستقر على أن لا يقول على الله إلا الحق وعلى القراءة الأخرى : أخبر أنه واجب عليه أن لا يقول على الله إلا الحق ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ ، [سورة الحاقة ٤٤ : ٤٧] . وقال تعالى : ﴿ أم يقولون افترى على الله الكذب فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته ﴾ ، [سورة الشورى: ٢٤] . وقال تعالى: ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ ، [سورة النحل : ١٠١ ـ ١٠٢] . وقال تعالى ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن اتبع إلا ما يوحى إليّ ـ الآية﴾ ،[سورة يونس : ١٥].

وهذا لبسطه موضع آخر .

وإنما المقصود هنا : أن احتجاجهم بكلمة واحدة مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يصح بوجه من الوجوه . فإنه ، إن كان رسولاً صادقاً في كل ما يخبر به عن الله عز وجل ، فقد علم كل واحد أنه جاء بما يخالف دين النصارى ، فيلزم إذا كان رسولا صادقاً أن يكون دين النصارى باطلا : وإن قالوا في كلمة واحدة مما جاء به أنها باطلة ، لزم أن يكون عندهم رسولا صادقاً ؛ مبلغا عن الله ، وحينئذ فسواء قالوا : هو ملك عادل ، أو هو عالم من العلماء ، أو هو رجل صالح من الصالحين ، أو جعلوه قديساً عظيما من أعظم القديسين . فمهما عظموه به ، ومدحوه به ، لما رأوه من محاسنه الباهرة ، وفضائله الظاهرة ، وشريعته الطاهرة ، متى كذبوه في كلمة واحدة مما جاء به ، أو شكوا فيها ؛ كانوا مكذبين له في قوله : إنه رسول الله ، وأنه بلغ هذا القرآن عن الله . ومن كان كاذباً في قوله : إنه

رسول الله ، لم يكن من الأنبياء والمرسلين . ومن لم يكن منهم لم يكن قوله حجة البتة ، لكن له أسوة أمثاله . فإن عرف صحة ما يقوله بدليل منفصل ، قبل القول ؛ لأنه عرف صدقه من غير جهته ، لا لأنه قاله . وإن لم يعرف صحة القول لم يقبل .

فتبين أنه ، إن لم يقر المقر لمن ذكر أنه رسول الله بأنه صادق فى كل مايبلغه عن الله ، معصوم عن استقرار الكذب ، خطأ أو عمداً ، لم يصح احتجاجهم بقوله . وهذا الأصل يبطل قول عقلاء أهل الكتاب ، وهو لقول جهالهم أعظم إبطالا ، فإن كثيراً من عقلاء أهل الكتاب ، أو أكثرهم ، يعظمون محمداً صلى الله عليه وسلم ، لما دعا إليه من توحيد الله تعالى ، ولما نهى عنه من عبادة الأوثان ، ولما صدق التوراة والإنجيل والمرسلين قبله ، ولما ظهر من عظمة القرآن الذى جاء به ، ومحاسن الشريعة التى جاء بها ، وفضائل أمته التى آمنت به ، ولما ظهر عنه وعنهم من الآيات والبراهين والمعجزات والكرامات . لكن يقولون مع ذلك إنه بعث إلى غيرنا ، أو إنه ملك عادل له سياسة عادلة ، وإنه مع ذلك حصل علوماً من علوم أهل الكتاب وغيرهم ، ووضع لهم ناموساً بعلمه ورتبه ، كما وضع أكابرهم لهم القوانين والنواميس التى بأيديهم ومهما قالوه من هذا فإنهم لايصيرون به مؤمنين به ، ولا يسوغ لهم بمجرد ذلك الاحتجاج بشىء مما قاله ؛ لأنه قد عرف بالنقل المتواتر الذى يعلمه جميع الأمم من جميع الطوائف أنه قال : إنه رسول الله إلى جميع الناس ، وأن الله أنزل عليه القرآن ، فإن كان صادقاً فى ذلك فمن كذبه فى كلمة واحدة فقد كذب رسول الله ، ومن كذب رسول الله فهو كافر وإن لم يكن صادقاً فى ذلك لم يكن رسولا لله ، بل كان كاذباً . ومن كان كاذباً على الله ، يقول : الله أرسلنى بذلك ، ولم يرسله به لايجوز أن يحتج بشىء من أقواله .

وأما من كان من جهال أهل الكتاب ، الذين يقولون : إنه كان ملكا مسلطاً عليهم ، وأنه رسول غضب أرسله الله إرسالا كونياً ، لادينياً ، لينتقم به منهم ،

كما أرسل بختنصر وسنجاريب على بنى إسرائيل ، وكما أرسل جنكس خان ، وغيره من الملوك الكافرين والظالمين ، مما ينتقم الله به ممن عصاه ، فهؤلاء أعظم تكذيباً له ، وكفراً به ، من أولئك ؛ فإن هؤلاء الملوك لم يقل أحد منهم : إن الله أنزل عليه كتابا ، ولا أن هذا الكلام الذى أبلغه إليكم هو كلام الله ، ولا أن الله أمركم أن تصدقونى فيما أخبرتكم به ، وتطيعونى فيما أمرتكم به ، ومن لم يصدقنى باطناً وظاهراً ، فإن الله يعذبه فى الدنيا والآخرة ، بل هؤلاء أرسلهم إرسالا كونياً قدره وقضاه كما يرسل الريح بالعذاب ، وكما يرسل الشياطين

قال الله تعالى ﴿ إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ﴾ ، [سورة مريم : ٨٣] . وقال تعالى : ﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً * فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا ﴾ ، [سورة الإسراء : ٤ ، ٥] . وهذا بخلاف قوله : ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ ، [سورة نوح : ١] وقوله : ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ﴾ ، [سورة المزمل : ١٥] . وقوله تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب والأسباط ، وعيسى وأيوب و يونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٣ ــ ١٦٥] . فإن هذا يعنى به الإرسال الدينى ، الذى يحبه تعالى و يرضاه ، الذى هدى به من اتبعهم ، وأدخله فى رحمته ، وعاقب من عصاهم ، وجعله من المستوجبين للعذاب وهو الإرسال الذى أوجب الله به طاعة من أرسله ، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾ ، [سورة النساء : ٦٤] . وقال تعالى :

﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ ، [سورة النساء ٨٠] . وهذه الرسالة التى أقام الله بها الحجة على الخلق ، كما قال تعالى : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٥] . وقال تعالى « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » ، [سورة الحج : ٧٥] . وهذا كما اصطفى روح القدس جبريل عليه السلام ، لنزوله بالقرآن على من اصطفاه من البشر ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى : ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ ، [سورة البقرة : ٩٧] . وقال تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٩٢ ــ ١٩٥] . وقال تعالى : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مُفْتَرٍ بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ ، [سورة النحل : ١٠١ ، ١٠٢] . فأخبر أنه نزل به جبريل ، وسماه الروح الأمين ، وسماه روح القدس . وقد ذكره أيضاً فى قوله ﴿ إنه لقول رسول كريم ◦ ذى قوة عند ذى العرش مكين ◦ مطاع ثمَّ أمين ﴾ ثم قال : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ◦ ولقد رآه بالأفق المبين ◦ وما هو على الغيب بضنين ◦ وما هو بقول شيطان رجيم ◦ فأين تذهبون ◦ إن هو إلا ذكر للعالمين ◦ لمن شاء منكم أن يستقيم ◦ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ ، [سورة التكوير : ١٩ ــ ٢٩] فهذا الرسول جبريل عليه السلام . وقال تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين ◦ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ◦ لأخذنا منه باليمين ◦ ثم لقطعنا منه الوتين ◦ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ [سورة الحاقة : ٤٠ ــ ٤٧] فهذا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما الإرسال الكونى الذى قدره وقضاه مثل إرسال الرياح وإرسال الشياطين فذلك نوع آخر . قال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ ،[سورة مريم : ٨٣] . وقال تعالى:﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ﴾ ، [سورة الأعراف : ٥٧] . والله تعالى له الخلق والأمر فلفظ الإرسال ، والبعث ، والإرادة ، والأمر ، والإذن،والكتاب ،والتحريم،والقضاء والكلام ينقسم إلى : خلقى ، وأمرى ، وكونى ،ودينى ، وقد ذكرنا الإرسال .

وأما البعث ، فقال تعالى فى البعث الدينى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ ، [سورة الجمعة : ٢] . وقال فى الكونى : ﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد ﴾ ، [سورة الإسراء : ٥] : وقال تعالى : ﴿ فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ﴾ ، [سورة المائدة : ٣١] .

وأما الإرادة ، فقال تعالى فى الكونية : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يَصَّعَّد فى السماء ﴾ ،[سورة الأنعام : ١٢٥].وقال نوح عليه السلام:﴿ ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾،[سورة هود : ٣٤].وقال تعالى فى الإرادة الدينية : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ، [سورة البقرة : ١٨٥] . وقال تعالى ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ ، [سورة النساء : ٢٦] ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ ، [سوره النساء : ٢٧ ــ ٢٨] . وقال تعالى . مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد أن يطهركم وليتم نعمته عليكم ﴾ ، [سورة المائدة : ٦] . وقال تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ ،[سورة الأحزاب . ٣٣] .

وقال تالى فى الأمر الكونى . ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [سورة يس : ٨٢] .

وكذلك أظهر القولين قوله تعالى : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول ﴾ ، [سورة الإسراء : ١٦] .

وأما الأمر الدينى مثل قوله: ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ [سورة النساء : ٥٨] .

وأما الإذن الكونى مثل قوله فى السحرة : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ ، [سورة البقرة : ١٠٢] . والدينى مثل قوله: ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشرا ونذيرا * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٥، ٤٦]

والكتاب الكونى مثل قوله : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ ، (سورة المجادلة ٢١) . وقوله . ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ ، (سورة التوبة ٥١) . والدينى مثل قوله: ﴿ كتاب الله عليكم ﴾ ، [سورة النساء : ٢٤] وقوله : ﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ [سورة البقرة : ١٨٣] وقوله : ﴿ كتب عليكم القصاص ﴾ ، (سورة البقرة : ١٧٨) .

والقضاء الكونى كقوله : ﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾ ، (سورة فصلت : ١٢) والدينى كقوله : ﴿ وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ﴾ ، (سورة الإسراء : ٢٣] . أى . أمر .

والتحريم الكونى مثل قوله : ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾ ، (سورة القصص ١٢) وقوله: ﴿ إنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ﴾ ، (سورة المائدة : ٢٦) . وقوله ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ ، (سورة الأنبياء : ٩٥) . والدينى مثل قوله: ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾ ، (سورة المائدة : ٣) . وقوله . ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم ﴾ ، (سورة النساء : ٢٣) .

والـكلمات الـكونية مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم . « أعوذ بكلمات الله التامات التي لايجاوزهن بر ولا فاجر » ومنه قوله تعالى : ﴿ وصدقت بكلمات ربها وكتبه ﴾ ، [سورة التحريم : ١٢] .

والدينية : مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » ومنه قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الـكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٤] وهذا مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا : تفرق أهل الـكتاب فى النبي صلى الله عليه وسلم ، كل يقول فيه قولا هو نظير تفرق سائر الـكفار ، فإن الـكفار بالأنبياء من عادتهم أن تقول كل طائفة فيه قولا يناقض قول الطائفة الأخرى ، وكذلك قولهم فى الـكتاب الذى أنزل عليه ، وأقوالهم كلها أقوال مختلفة باطلة ، وهذا هو الاختلاف المذموم الذى ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾ ، [سورة هود : ١١٩] . وفى قوله : ﴿ إنـكم لفى قول مختلف * يؤفك عنه من أفك ﴾ ، [سورة الذاريات : ٨] . وقوله تعالى : ﴿ وإن الذين اختلفوا فى الـكتاب لفى شقاق بعيد ﴾ ، [سورة البقرة : ١٧٦] . وقوله : ﴿ ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم * يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٠٥ ، ١٠٦] . وقوله تعالى : ﴿ ومن الذين قالوا : إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ ، [سورة المائدة : ١٤] .

ومثال أقوال الـكفار فى الأنبياء ما ذكره تعالى فى قوله : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليـكون للعالمين نذيرا * الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا * واتخذوا

من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ، ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا * وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزورا * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما * وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا * أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحور * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ ، [سورة الفرقان ١ ـ ٩] .

فبين سبحانه أن الكفار ضربوا له أمثالا كلها باطلة ضلوا فيها عن الحق ، فلا يستطيعون مع الضلال سبيلا إلى الحق ، وضرب الأمثال له يتضمن تمثيله بأناس آخرين ، وجعله فى تلك الأنواع التى ليس هو منها ولا مماثلا لأفرادها مثل قولهم : ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ ، [سورة الفرقان : ٤] . مثلوه بالكاذب المستعين بمن يعينه على ما يفتريه ، ومثلوه بمن يستكتب أساطير الأولين من غيره ، فيقرأ عليه طرفى النهار وهو يتعلم من أولئك ما يقوله ومثلوه بالمسحور ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا * وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا * نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ ، [سورة الإسراء : ٤٥ ـ ٤٨] . وقال تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم * لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين * وقل إنى أنا النذير المبين * كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عضين * فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون *

فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين * الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ﴾ ، [سورة الحجر : ٨٧ ـ ٩٦] .

قال كثير من السلف : الذين جعلوا القرآن عضين : هم الذى عضهوه ، فقالوا سحر ، وشعر ، وكهانة ونحو ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون * ومالا تبصرون * إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ماتؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين * وإنه لتذكرة للمتقين * وإنا لنعلم أن منكم مكذبين * وإنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾ ، [الحاقة : ٣٨ـ ٥٢] . وقال تعالى : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون * أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون * قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين * أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون * أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ ، [سورة الطور : ٢٩ ـ ٣٤] . وقال تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين * وإنه لفى زبر الأولين * أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل * ولو نزلناه على بعض الأعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين * كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين * لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم * فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون * فيقولوا هل نحن منظرون * أفبعذابنا يستعجلون ، أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون * وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون * ذكرى وما كنا ظالمين ﴾ ، (سورة الشعراء ١٩٢ ـ ٢٠٩) ثم قال تعالى : ﴿ وماتنزلت به الشياطين * وما ينبغى لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون * فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين * وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل : إنى برىء مما تعملون * وتوكل

على العزيز الرحيم • الذى يراك حين تقوم • وتقلبك فى الساجدين • إنه هو السميع العليم * هل أنبئكم على من تنزل الشياطين • تنزل على كل أفاك أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون * والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ؟ *وأنهم يقولون مالا يفعلون* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢١٠ ـ ٢٢٧] وقال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون * وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ، ومن هؤلاء من يؤمن به، وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون * وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون • بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون • وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون * قل كفى بالله بينى وبينكم شهيداً يعلم مافى السموات والأرض ، والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون . ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٤٦ ـ ٥٥] وقال تعالى: ﴿ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون* فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ ، [سورة الطور . ٣٤ ، ٣٥] . وقال تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [سورة يونس : ٣٨] ، وقوله : ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون؟ ﴾،

[سورة هود ١٤] . قال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٣ ، ٢٤] . وقال تعالى: ﴿ ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون * ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين * ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إنى لكم منه نذير مبين ﴾ ، [سورة الذاريات : ٤٩ ـ ٥١]

وقد أخبر سبحانه وتعالى أن هذه سنة الكفار فى الأنبياء قبله كما قال : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ ، [سورة الذاريات : ٥٢، ٥٣] ، وقال تعالى . ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ ، [سورة فصلت . ٤٣] . وقال تعالى ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ ، [سورة الأنعام ١١٢] .

وقد أخبر سبحانه أن الكفار قالوا عن موسى عليه السلام : إنه ساحر ، وإنه مجنون ، فقال فرعون : « إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون » ، [سورة الشعراء : ٢٧] . وقوله : « وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك » ، [سورة الزخرف : ٥٩] وقوله : « إنه لكبيركم الذى علمكم السحر » ، [سورة طه : ٧١] وكذلك قالوا عن المسيح بن مريم كما قال تعالى : « وقال المسيح يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين » ، [سورة الصف : ٦] .

وذكر تعالى عن اليهود أنهم قالوا على مريم بهتاناً عظيما : فقول اليهود فى

المسيح من جنس أقوال الكفار فى الأنبياء ، وكذلك قول كفار أهل الكتاب فى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم تسليما

وإن قالوا : نحن مقصودنا بيان تناقضه وأن كلامه ينقض بعضه بعضاً .

قيل : فهذا أيضاً يستلزم أنه ليس رسولا صادقاً ، فلا يصح لكم الاحتجاج بشىء من قوله على هذا التقدير ، وإن كنا نحن نبين أنه — ولله الحمد — قوله يصدق بعضه بعضاً ، وكذلك يصدق قول الأنبياء قبله ، وأن قول الأنبياء كلهم يوافق صريح العقل ، فلا يتناقض شىء من الحق المعلوم بسمع أو عقل ، فإذا علم هذا فنقول بعد ذلك لمن قال إنه رسول أرسل إلى العرب الجاهلية دون أهل الكتاب : إنه من المعلوم بالضرورة لكل من علم أحواله و بالنقل المتواتر الذى هو أعظم تواتراً مما ينقل عن موسى وعيسى وغيرهما ، و بالقرآن المتواتر عنه وسنته المتواترة عنه ، وسنة خلفائه الراشدين من بعده ، أنه صلى الله عليه وسلم ذكر أنه أرسل إلى أهل الكتاب اليهود والنصارى ، كما ذكر أنه أرسل إلى الأميين رسولا ، بل ذكر أنه أرسل إلى جميع بنى آدم : عربهم وعجمهم من الروم، والفرس والترك ، والهند ، والبربر ، والحبشة ، وسائر الأمم ، بل إنه أرسل إلى الثقلين الجن والإنس جميعاً ، وهذا كله من الأمور الظاهرة المتواترة عنه ، التى اتفق على نقلها عنه أصحابه — مع كثرتهم وتفرق ديارهم وأحوالهم — وقد صحبه عشرات ألوف لا يحصى عددهم على الحقيقة إلا الله تعالى ، ونقل ذلك عنهم التابعون وهم أضعاف الصحابة عدداً ثم ذلك منقول قرناً بعد قرن إلى زمننا مع كثرة المسلمين وانتشارهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، كما أخبر بذلك قبل أن يكون ، فقال فى الحديث الصحيح : « زويت إلىّ الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها » وكان كما أخبر ، فبلغ ملك أمته طرفى العمارة مشرقاً ومغرباً ، وانتشرت دعوته فى وسط الأرض ، كالإقليم الثالث والرابع والخامس ؛ لأنهم

أكمل عقولا وأخلاقاً ، وأعدل أمزجة ، بخلاف طرفى الجنوب والشمال ، فإن هؤلاء نقصت عقولهم وأخلاقهم ، وانحرفت أمزجتهم .

أما طرف الجنوب، فإنه لقوة الحرارة احترقت أخلاطهم ، فاسودت ألوانهم وتجعدت شعورهم .

وأما أهل طرف الشمال فلقوة البرد لم تنضج أخلاطهم ، بل صارت فجة فأفرطوا فى سبوطة الشعر والبياض البارد الذى لا يستحسن .

ولهذا لما ظهر الإسلام غلب أهله على وسط المعمورة وهم أعدل بنى آدم وأكملهم ، والنصارى الذين تربوا تحت ذمة المسلمين أكمل من غيرهم من النصارى عقولا وأخلاقاً ، وأما النصارى المحاربون للمسلمين الخارجون عن ذمتهم من أهل الجنوب والشمال فهم أنقص عقولا وأخلاقاً ، ولما فيهم من نقص العقول والأخلاق ظهرت فيهم النصرانية دون الإسلام .

والمقصود : أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو نفسه دعا أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى الإيمان به وبما جاء به ، كما دعا من لا كتاب له من العرب وسائر الأمم ، وهو الذى أخبر عن الله تبارك وتعالى بكفر من لم يؤمن به من أهل الكتاب وغيرهم ، وبأنهم يصلون جهنم وساءت مصيراً ، وهو الذى أمر بجهادهم ودعاهم بنفسه ونوابه ، وحينئذ فقولهم فى الكتاب لم يأت إلينا ، بل إلى الجاهلية من العرب ، سواء أرادوا به أن الله بعثه إلى العرب ولم يبعثه إلينا أو أرادوا أنه ادعى أنه أرسل إلى العرب لا إلينا . فإنه قد علم جميع الطوائف أن محمداً دعا اليهود والنصارى إلى الإيمان به ، وذكر أن الله أرسله إليهم وأمره بجهاد من لم يؤمن به منهم ، فإذا قيل مع هذا إنه قال : لم أبعث إلا إلى العرب ، كان كذباً ظاهراً عليه ، سواء صدقه الإنسان أو كذبه ؛ فإن المقصود هنا أنه نفسه دعا جميع أهل الأرض إلى الإيمان به ، فدعا أهل الكتاب كما دعا الأميين .

أما اليهود : فإنهم كانوا جيرانه فى الحجاز وبالمدينة وما حولها وخيبر ، فإن

المهاجرين والأنصار كلهم آمنوا به من غير سيف ولا قتال ، بل لما ظهر لهم من براهين نبوته ودلائل صدقه آمنوا به ، وقد حصل من الأذى فى الله لمن آمن بالله ماهو معروف فى السيرة ، وقد آمن به فى حياته كثير من اليهود والنصارى بعضهم بمكة و بعضهم بالمدينة ، وكثير منهم كانوا بغير مكة والمدينة ، فلما قدم المدينة عاهد لمن لم يؤمن به من اليهود ، ثم نقضوا العهد ، فأجلى بعضهم وقتل بعضهم لمحاربتهم لله ورسوله ، وقد قاتلهم مرة بعد مرة ، قاتل بنى النضير ، وأنزل الله تعالى فيهم سورة الحشر ، وقاتل قريظة عام الأحزاب ، وذكرهم الله فى سورة الأحزاب ، وقاتل قبلهم بنى قينقاع ، و بعد هؤلاء غزا خيبر هو وأهل بيعة الرضوان ، الذين بايعوه تحت الشجرة ، وكانوا ألفاً وأربعمائة . ففتح الله عليهم خيبر وأقر اليهود فيها فلاحين ، وأنزل الله تعالى سورة الفتح يذكر فيها ذلك ، فكيف يقال: إنه لم يذكر أنه أرسل إلا إلى مشركى العرب وهذه حال اليهود معه

وأما النصارى ، فإن أهل نجران — التى باليمن — كانو نصارى، فقدم عليه وفدهم ستون راكباً وناظرهم فى مسجده وأنزل الله فيهم صدر سورة آل عمران، ولما ظهرت حجته عليهم ، وتبين لهم أنه رسول الله إليهم ، أمره الله إن لم يجيبوه أن يدعوهم إلى المباهلة ، فقال تعالى : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾،[سورة آل عمران : ٦١].فلما دعاهم إلى المباهلة طلبوا أن يمهلهم حتى يشتوروا فاشتوروا ، فقال بعضهم لبعض : تعلمون أنه نبى وأنه ما باهل قوم نبيا إلا نزل بهم العذاب ، فاستعفوا من المباهلة فصالحوه وأقروا له بالجزية عن يد وهم صاغرون ؛ لما خافوا من دعائه عليهم ، لعلمهم أنه نبى فدخلوا تحت حكمه كما يدخل أهل الذمة الذين فى بلاد المسلمين تحت حكم الله ورسوله وأدوا إليه الجزية عن يدوهم صاغرون ، وهم أول من أدى الجزية من النصارى ، واستعمل عليهم وعلى من أسلم منهم عمرو بن حزم الأنصارى ، وكتب له كتاباً

مشهوراً يذكر فيه شرائع الدين فكانوا فى ذمة المسلمين تحت حكم الله ورسوله ونائب رسوله عمرو بن حزم الأنصارى — رضى الله عنه — وقصتهم مشهورة متواترة نقلها أهل السير ، وأهل التفسير ، وأهل الحديث ، وأهل الفقة ، وأصل حديثهم معروف فى الصحاح وفى السنن كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ووفد نجران لما قدموا أنزل الله تبارك وتعالى بسبب ماجرى صدر سورة آل عمران ، وذكر تعالى فرض الحج بقوله : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ ، [سورة آل عمران : ٩٧] . وهذا أنزل إما سنة تسع وإما سنة عشر ، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء منهم :القاضى أبو يعلى وغيره

قالوا وجوب الحج ثبت بقوله ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ روى أنه نزل فى سنة عشر ، وروى أنه نزل فى سنة تسع ، وهذا قول جمهور العلماء .

قالوا : إن فرض الحج إنما ثبت بهذه الآية ، وقال بعضهم : بل ثبت ذلك بقوله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ ، [سورة البقرة : ١٩٦] وهذه الآية نزلت سنة ست عام الحديبية لما صد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت وصالحهم ذلك العام وبايع المسلمين تحت الشجرة ، وأنزل الله فيها سورة الفتح ، ثم رجع إلى المدينة وفتح الله عليهم خيبر سنة سبع ، وفيها قدم عليه جعفر بن أبى طالب مع وفد الحبشة ، ثم أرسل جعفرا ، وزيدا ، وعبد الله بن رواحة لغزو النصارى لمؤته ، ثم فتح مكة سنة ثمان فى رمضان ، ثم فى أثناء سنة تسع غزوا النصارى إلى تبوك ، وفيها حج أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — وأمر أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

وأردفه بعلى بن أبى طالب — رضى الله عنه — لنبذ العهود ، وأنزل الله آية السيف المطلقة بجهاد المشركين وجهاد أهل الكتاب ، فقال تعالى : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ ، [سورة التوبة : ٥] .

وهذه الأشهر عند جمهور العلماء هى المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين ﴾ ، [سورة التوبة : ٢]

فإن المشركين كانوا نوعين : نوعاً لهم عهد مطلق غير مؤقت ، وهو عقد جائز غير لازم ، ونوعاً لهم عهد مؤقت فأمر الله رسوله أن ينبذ إلى المشركين أهل العهد المطلق ؛ لأن هذا العهد جائز غير لازم ، وأمره أن يسيرهم أربعة أشهر ، ومن كان له عهد مؤقت فهو عهد لازم ، فأمره الله أن يوفى له إذا كان هو مؤقتاً ، وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن الهدنة لا تجوز إلا مؤقتة . وذهب بعضهم إلى أنه يجوز للامام أن يفسخ الهدنة المؤقتة مع قيامهم بالواجب ، والصواب هو القول الثالث ، وهو أنها تجوز مطلقة ومؤقتة .

فأما المطلقة فجائزة غير لازمة يخير بين إمضائها وبين نقضها .

والمؤقتة لازمة ، قال تعالى : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين * وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم * إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين * فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم * وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون * كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين * كيف وإن يظهروا

عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون * اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون * لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون * فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ، ونفصل الآيات لقوم يعلمون * وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون * ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة ، أتخشونهم ! فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ ، [سورة التوبة : ١ ــ ١٣] .

والمقصود هنا ذكر قدوم وفد نجران النصارى «السيد والعاقب ومن معهما».

قال أبو الفرج بن الجوزى : ثم دخلت سنة عشر من الهجرة فمن الحوادث فيها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد إلى بنى الحارث ابن كعب ، فروى ابن إسحاق قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالداً فى ربيع الآخر أو جمادى الأولى من سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم * وذكر القصة ، ثم قال : وفيها قدم وفد الأزد ، وفيها قدم وفد غسان ، وفيها قدم وفد زبيد ، وفيها قدم وفد عبد القيس ، قال ابن إسحاق : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الجارود بن عمرو فى وفد عبد القيس وكان نصرانياً فأسلموا ، وفيها قدم وفد كندة فأسلموا ، وفيها قدم وفد بنى حنيفة ، وفيها قدم وفد بجيلة قال : وفيها قدم العاقب والسيد من نجران ، فكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب صلح .

وذكر محمد بن سعد فى الطبقات قدومهم فى ذكر الوفود فقال : بعث النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فى شهر ربيع الأول سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب ذكره بإسناده : أنبأنا محمد بن عمر ، حدثنى إبراهيم بن موسى المخزومى عن عبد الله بن عكرمة بن عبد الرحمن بن الحارث عن أبيه ، ثم ذكر قدوم

نصارى نجران من طريق على بن محمد فقال : أنبأنا على بن محمد القرشى وهو المدائنى المشهور ، فقال : أخبرنا على بن محمد عن أبى معشر عن يزيد بن رمان ومحمد بن كعب قال : أنبأنا على بن مجاهد عن محمد بن إسحاق عن الزهرى ، وعكرمة بن خالد ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وأنبأنا يزيد بن عياض بن جعدبة عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم ، وعن غيرهم من أهل العلم يزيد بعضهم على بعض قالوا : ووفد فلان وفلان فى رجال من خثعم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ماهدم جرير بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ ذا الخلصة وقتل من قتل من خثعم ، فقالوا : آمنا بالله ورسوله فاكتب لنا كتاباً ، وذكروا القصة : وقدوم وفود متعددة ، قالوا: وقدم وفد الأشعريين على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم خمسون رجلا فيهم أبو موسى وذكر قصتهم ، قالوا:وقدم وفد حضرموت مع وفد كندة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر قصتهم ، قالوا : وقدم وفد أزد عمان ، قالوا : وقدم وفد غافق » قالوا : وقدم وفد دوس ، وقدم وفد حزام ووفد حمير ، قالوا : وقدم وفد نجران ، وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران، فخرج إليه أربعة عشر من أشرافهم نصارى وفيهم ثلاثة نفر يتولون أمورهم :

العاقب ، واسمه عبد المسيح رجل من كندة وهو أميرهم وصاحب مشورتهم والذى يصدرون عن رأيه ، وأبو حارثة أسقفهم و إمامهم وصاحب مدارسهم ، والسيد وهو صاحب رحلتهم فدخلوا المسجد وعليهم ثياب الحبرة وأردية مكفوفة بالحرير ، فقاموا يصلون فى المسجد نحو المشرق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعوهم » ثم أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأعرض عنهم فلم يكلمهم ، فقال لهم عثمان . ذلك من أجل زيكم هذا ، فانصرفوا يومهم ذلك ، ثم غدوا عليه بزى الرهبان ، فسلموا عليه ، فرد عليهم ودعاهم إلى الإسلام فأبوا وكثر الكلام والحجاج بينهم وتلا عليهم القرآن ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أنكرتم ما أقول فهلم أباهلكم » فانصرفوا على ذلك فغدا عبد المسيح

ورجلان من ذوى رأيهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : قد بدا لنا أن لا نباهلك فاحكم علينا بما أحببت نعطك ونصالحك ، فصالحهم على ألفى حلة فى رجب ، وألف فى صفر ، أو قيمة كل حلة من الأواق ، وعلى عارية ثلاثين درعا ، وثلاثين رمحاً ، وثلاثين بعيراً وثلاثين فرساً إن كان باليمن كيد .

ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنفسهم ، وملتهم ، وأرضهم ، وأموالهم ، وغائبهم وشاهدهم وبيعهم لا يغير أسقف من سقيفاه ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا واقف من وقفانيته وأشهد على ذلك شهوداً منهم : أبو سفيان بن حرب والأقرع بن حابس ، والمغيرة بن شعبة ، فرجعوا إلى بلادهم ، فلم يلبث السيد والعاقب إلا يسيراً حتى رجعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلما وأنزلها دار أبى أيوب الأنصارى ، وأقام أهل نجران على ما كتب لهم به النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى قبضه الله — صلوات الله عليه وسلم ورحمته ورضوانه — ثم ولى أبو بكر الصويق — رضى الله عنه — فكتب بالوصاة بهم عند وفاته ، ثم أصابوا ربا فأخرجهم عمر بن الخطاب من أرضهم ، وكتب لهم هـذا ما كتب عمر أمير المؤمنين لنجران أنه من سار منهم أنه آمن بأمان الله لا يضرهم أحد من المسلمين ، ووفى لهم بما كتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، فمن وقعوا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من خراب الأرض فما اعتملوا من ذلك فهو لهم صدقة وعقبة لهم ، فكان أرضهم لا سبيل عليهم فيه لأحد ولا مغرم .

أما بعد فمن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فإنهم أقوام لهم الذمة وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهراً بعد أن تقدموا ، ولا يكلفوا إلا من ضيعتهم التى اعتملوا غير مظلومين ولا معسوف عليهم ، شهد عثمان بن عفان ومعيقيب بن أبى فاطمة فوقع ناس منهم العراق ، فنزلوا النجرانية التى بناحية الكوفة .

وما ذكره ابن سعد عن على بن محمد المدائنى عن أشياخه فى حديث وفد نجران.فهو يوافق ما ذكره بن إسحاق فإن قوله أربعة عشر من أشرافهم يوافق قول ابن إسحاق عن محمد بن جعفر قال قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران.ستون راكباً فيهم أربعة عشر من أشرافهم فى الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يئول أمرهم : العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذى لا يصدرون إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح . والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم ونجعتهم واسمه الأيهم. وأبو حارثة بن علقمة أخو بنى بكر بن وائل أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم ، وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه فى دينهم ، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه و بنوا له الكنائس،و بسطوا له الكرامات،لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم ، فلما وجهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نجران جلس أبو حارثة على بغلة له موجهاً وإلى جنبه أخ له يقال له كرز بن علقمة فعثرت بغلة أبى حارثة فقال كرز تعس الأبعد يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له أبوحارثة ، بل أنت تعست فقال لم ياأخى ؟ قال: والله ،إنه للنبى الذى كنا ننتظره فقال له كرز فما منعك منه وأنت تعلم هذا ؟قال:ما صنع بنا هؤلاء القوم ،شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى فأضمر عليها منه أخوه كرز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك وهو كان يحدث عنه هـذا الحديث فيما بلغنى .

قال ابن هشام : وبلغنى أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتباً عندهم فكلما مات رئيس منهم فأفضت الرياسة إلى غـيره ختم على تلك الكتب خاتماً مع الخواتم التى قبله ولم يكسرها ، فخرج الرئيس الذى كان على عهـد رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى فعثر ، فقال ابنه تعس الأبعد يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أبوه : لا تفعل فإنه نبى واسمه فى الوضائع ـ يعنى : الكتب ـ

فلما مات لم يكن لابنه همة إلا أن شد فكسر الخواتم فوجد فيها ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم فحسن إسلامه وحج وهو يقول :

إليك تغدو قلقاً وضينها*معترضاً فى بطنها جنينها*مخالفا دين النصارى دينها*

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير قال : قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية فى جمال رجال بنى الحارث بن كعب ، قال يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دعوهم فصلوا إلى المشرق ، قال ابن إسحاق وكان تسمية الأربعة عشر الذين يئول إليهم أمرهم : العاقب وهو عبد المسيح . والسيد وهو الأيهم . وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل . وأوس . والحارث . وزيد . وقيس . ويزيد وبنيه وخويلد . وعمرو . وخالد . وعبد الله . ويحنس . فى ستين راكبا فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبوحارثة بن علقمة . والعاقب عبدالمسيح والأيهم السيد . وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلافهم فى أمرهم يقولون ، هو الله ويقولون : هو ولد الله ، ويقولون : هو ثالث ثلاثة ، وكذلك قول النصارى ، فهم يحتجون فى قولهم هو الله بأنه كان يحيي الموتى ويبرىء الأسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً ، وذلك كله بأمر الله وليجعله آية للناس . ويحتجون فى قولهم إنه ولد الله فإنهم يقولون لم يكن له أب يعلم ، وقد تكلم فى المهد وهذا شيء لم يصنعه أحد من ولد آدم . ويحتجون فى قولهم ثالث ثلاثة بقول الله فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا فيقولون لو كان واحداً ما قال إلا فعلت وقضيت وأمرت وخلقت ولكنه هو وعيسى ومريم ففى كل ذلك من أقوالهم قد نزل القرآن فلما كلمه الحبران قال لهما رسول الله صلى الله

عليه وسلم : « أسلما قالا قد أسلمنا ، قال « إنكما لم تسلما فأسلما » . قالا : بل قد أسلمنا قبلك ، قال كذبتما يمنعكما من الإسلام دعواكما لله ولداً ، وعبادتكما للصليب وأكلكما الخنزير قالا فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما فلم يجبهما » فأنزل الله فى ذلك من قولهم واختلافهم فى أمرهم كله صدراً من سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية ، وذكر نزول الآيات بسببهم غير واحد مثلما ذكره محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره قال حدثنا المثنى ، حدثنا إسحاق ، حدثنا ابن أبى جعفر - يعنى عبد الله بن أبى جعفر الرازى - عن أبيه عن الربيع فى قوله تعالى : ﴿ الم * الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ ، [سورة آل عمران : ١ ، ٢] . قال : إن النصارى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فخاصموه فى عيسى بن مريم ، وقالوا له من أبوه ؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان لا إله إلا هو لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : « ألستم تعلمون أنه لا يكون ولداً إلا وهو يشبه أباه ؟ قالوا : نعم ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا حىٌّ لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا : بلى . قال فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟ قالوا : لا ، قال: ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ؟ قالوا : بلى ، قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئا إلا ما علم ؟ قالوا لا . قال : فإن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء . قال ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ . قالوا : بلى . قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ؛ ثم غذى كما يتغذى الصبى ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا : بلى ، قال فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟ قال فعرفوا ثم أبوا إلا جحودا » فأنزل الله ﴿ الم * الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ .

وقد ثبت فى الصحاح حديث وفد نجران ففى البخارى ومسلم عن حذيفة وأخرجه مسلم عن سعد بن أبى وقاص قال لما نزلت هذه الآية ﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦١] . دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال : اللهم هؤلاء أهلى .

وفى البخارى عن حذيفة بن اليمان قال جاء السيد والعاقب صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا . قالا إنما نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلا أميناً فلا تبعث معنا إلا أميناً ، قال : لأبعثن معكم رجلا أميناً حق أمين . قال فاستشرف لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح ، فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا أمين هذه الأمة » .

وفى سنن أبى داود وغيره قال أبو داود أخبرنا مصرف بن عمرو اليامى حدثنا يونس — يعنى ابن بكير — حدثنا أسباط بن نصير الهمدانى عن إسماعيل بن عبد الرحمن القرشى ، عن ابن عباس قال : صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل نجران على ألفى حلة : النصف فى صفر ، والنصف فى رجب ، يؤدونها إلى المسلمين وعارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها ، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم إن كان باليمن كيد ذات عذر . على أن لا يهدم لهم بيعة ولا يخرج لهم قس ولا يفتنون عن دينهم مالم يحدثوا حدثاً ، أو يأكلوا الربا قال إسماعيل : فقد أكلوا الربا قال أبو داود إذاً نقضوا بعض ما شرط عليهم ، فقد أحدثوا ، وما ذكره أبو داود وأهل السير من مصالحته لأهل نجران على الجزية المذكورة معروف عند أهل العلم وقد ذكر ذلك أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب « الأموال » ذكره من طريقين .

قال أبو عبيد رحمه الله حدثنا أبو أيوب الدمشقي قال حدثني سعدان بن يحيى عن عبد الله بن أبي حميد عن أبي المليح الهذلي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح أهل نجران فكتب له كتاباً (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما كتب محمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نجران إذ كان حكمه عليهم أن في كل سوداء و بيضاء وصفراء وحمراء أو ثمرة ورقيق وأفضل عليهم وترك ذلك لهم ، ألفي حلة : في كل صفر ألف حلة ، وفي كل رجب ألف حلة ، كل حلة أوقية ما زاد الخراج أو نقص فعلى الأواقي فليحسب ، وما قضوا من ركاب أو خيل أو دروع أخذ منهم بالحساب، وعلى أهل نجران أن يقروا رسلي عشرين ليلة فادونها ، وعليهم عارية ثلاثين فرساً ، وثلاثين بعيرا ، وثلاثين درعاً إذا كان كيد باليمن ذو معذرة ، وما هلك مما أعاروا رسلي فهو ضامن على رسلي حتى يؤدوه إليهم ولنجران وحاشيتها ذمة الله وذمة رسوله على دمائهم وأموالهم وملتهم و بيعهم ورهبانهم وأساقفتهم وشاهدهم وغائبهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، وعلى أن لا يغيروا أسقفاً من سقيفاه ، ولا واقها من وقيهاه ، ولا راهباً من رهبانيته. وعلى أن لا يحسروا ولا يعشروا ولا يطأ أرضهم جيش ومن ملك منهم حقاً فالنصف بينهم وهذا لنجران على أن لا يأكلوا الربا فمن أكل الربا من ذى قبل فذمتي منه بريئة وعليهم الجهد والنصح فيما استقبلوا غير مظلومين ولا معسوف عليهم . شهد عثمان بن عفان ومعيقيب) .

قال أبو عبيد الواقه ولي العهد في لغة بلحارث بن كعب يقول إذا مات هذا الأسقف قام الآخر مكانه .

قال أبو عبيد : قال أبو أيوب ، وحدثني عيسى بن يونس ، عن عبد الله ابن أبي حميد ، عن أبي المليح عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك وزاد في حديثه قال : فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتوا أبا بكر فوفى لهم بذلك وكتب لهم كتاباً نحواً من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما ولي عمر بن الخطاب

ـ رضى الله عنه ـ أصابوا الربا فى زمانه فأجلاهم عمر وكتب لهم أما بعد : فمن وقعوا به من أمراء الشام أوالعراق فليوسعهم من خراب الأرض، وما اعتملوا من شىء فهو لهم لوجه الله وعقبى من أرضهم ، قال فأتوا العراق فاتخذوا النجرانية .

قال أبو عبيد : وهى قرية بالكوفة ، وكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة .أما بعد : فإن العاقب والأسقف وسراة أهل نجران أتونى بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرونى شرط عمر ـ رضى الله عنه ـ وقد سألت عثمان بن حنيف فأنبأنى أنه قد كان بحث على ذلك فوجده صار للدهاقين ، فنزعهم عن أرضهم ، وإنى قد وضعت عنهم من جزيتهم مائتى حلة لوجه الله ، وعقبى لهم من أرضهم وإنى أوصيك بهم فإنهم قوم لهم ذمة .

قال أبو عبيد : وحدثنا عثمان بن صالح عن عبدالله بن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كتب لأهل نجران من محمد النبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر نحو هذه النسخة وليس فى حديثه قصة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وفى آخره ، شهد أبو سفيان بن حرب ، وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف من بنى نضر ، والأقرع بن حابس الحنظلى ، والمغيرة ابن شعبة .

قال أبو عبيد حدثنى سعيد بن عفير ، عن يحيى بن أيوب ، عن يونس بن يزيد الأيلى ، عن ابن شهاب قال: أول من أعطى الجزية أهل نجران وكانوا نصارى .
فإن قيل قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴾ [سورة آل عمران ٦٤]

وقد ثبت فى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب إلى هرقل مع دحية الكلبى مدة هدنته للمشركين وكان أبو سفيان إذ ذاك لم يسلم وقد حضر عند هرقل وسأله هرقل عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبو سفيان أسلم عام الفتح فدل ذلك على أن هذا الكتاب كان قبل الفتح ، ونزول آية الجزية كان بعد الفتح

سنة تسع ، فدل ذلك على أن هذه الآية نزلت قبل آية الجزية وقبل آية المباهلة ، وقدوم وفد نجران قبل آية المباهلة ـ قد علم يقينا أنها نزلت فى قصة قدوم وفد نجران ـ والمفسرون وأهل السير ذكروا أن آل عمران نزلت بسبب مناظرة أهل نجران ، وقد ذكرناه من نقل أهل الحديث بالإسناد المتصل .

ونقل أهل المغازى والسير أن وفد نجران صالحهم على الجزية وهم أول من أداها فعلم أن قدومهم كان بعد نزول آية الجزية . وآية الجزية نزلت بعد فتح مكة ، فعلم أن قدوم وفد نجران كان بعد آية السيف التى هى آية الجزية .

قال الزهرى : أهل نجران أول من أدى الجزية وقوله تعالى ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم﴾ بعدها آيات نزلت قبل ذلك كقوله ﴿ ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ؟ * يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ [سورة آل عمران : ٧٠، ٧١] . فيكون هذا مما تقدم نزوله وتلك مما تأخر نزوله ، وجمع بينهما المناسبة كما فى نظائره فإن الآيات كانت إذا نزلت يأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يضعها فى مواضع تناسبها ، وإن كان ذلك مما تقدم . ومما يبين ذلك أن هذه الآية وهى قوله تعالى: ﴿قل ياأهل الكتاب تعلوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ لفظها يعم اليهود والنصارى كذلك ذكر أهل العلم أنها دعاء للطائفتين ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم دعا بها اليهود فدل ذلك على أن نزولها متقدم فإن دعاءه لليهود كان قبل نزول آية الجزية ، ولهذا لم يضرب الجزية على أهل خيبر وغيرهم من يهود الحجاز ولكن لما بعث معاذاً لليمن ـ وكان كثير من أهلها يهوداً ـ أمر أن يأخذ من كل حالم ديناراً أو عدله مغافراً وهذا كان متأخره بعد غزوة تبوك ، وتوفى النبى صلى الله عليه وسلم ومعاذ باليمن . قال ابن أبى حاتم فى تفسيره . حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا الوليد ، حدثنا الضحاك بن عبد الرحمن بن حوشب وغيره، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى (إليون) طاغية الروم قال فيما أنزل الله على محمد

صلى الله عليه وسلم : ﴿ قل يا أهل الكتاب ـ يعنى اليهود والنصارى ـ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٤] .

وروى بإسناده عن ابن جريج فى قوله تعالى : ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ قال : بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا اليهود أهل المدينة فأبوا عليه فجاهدهم ، وكذلك سائر الآيات التى فيها خطاب للطائفتين ، كقوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٥ـ٦٧]

ومما ينبغى أن يعلم ، أن أهل نجران المذكورة ، نجران اليمن لا نجران الشام ، وأهل نجران كان منهم نصارى أهل ذمة ، وكان منهم مسلمون ـ وهم الأكثرون ـ والنبى صلى الله عليه وسلم بعث أبى عبيدة لهؤلاء وهؤلاء ، واستعمل عمرو بن حزم على هؤلاء وهؤلاء ، كما أخرجا فى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل أمة أمينا وإن أميننا أيها الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .

وعن أنس أيضاً : أن أهل اليمن قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ابعث معنا رجلا أمينا يعلمنا السنة والإسلام ، فأخذ بيد أبى عبيدة ابن الجراح فقال : « هذا أمين هذه الأمة » .

وفى الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال : جاء أهل نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أيا رسول الله ابعث إلينا رجلا أميناً فقال : « لأبعثن إليكم رجلا أميناً حق أمين » قال : فاستشرف لها الناس ، قال : فبعث أبا عبيدة ابن الجراح .

وللبخارى عن حذيفة قال : جاءالسيد والعاقب صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه قال : فقال أحدهما للآخر : لاتفعل فوالله لإن كان نبياً فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا فالا . إنا نعطيك ماسألتنا وابعث معنا رجلا أميناً فقال : لأبعثن معكم رجلا أميناً حق أمين فاستشرف لها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قم يا أباعبيدة بن الجراح فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا أمين هذه الأمه » .

وكذلك استعمل النبى صلى الله عليه وسلم عليهم عمرو بن حزم. وكتب له الكتاب المشهور الذى فيه الفرائض والسنن ، وقد رواه النسائى بطوله وروى الناس بعضه مفرقاً ، ومحمد بن سعد لم يذكر بعد وفد نجران إلا وفد جيشان ، فدل على أن قدومهم كان متأخراً ، ومحمد بن إسحاق ذكر قدومهم فى أوائل السيرة مع قصة اليهود ليجمع بين خبر اليهود والنصارى ، وذكر فى سنة عشر فتح نجران وإرسال النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ، وإرسال خالد ذكروا أنه كان متأخراً قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بأربعة أشهر ، وأنه قدم وفد منهم بالإسلام ، وهذا إنما كان بعد قدوم وفد النصارى ، فإنه قد ذكر ابن سعد أن العاقب والسيد أسلما بعد ذلك ، والعهد بالجزية إنما كان مع النصارى ، آية الجزية هى قوله تعالى : ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] . وهذه آية السيف مع أهل الكتاب ، وقد ذكر فيها قتالهم إذ لم يؤمنوا حتى يعطوا الجزية ، والنبى صلى الله عليه وسلم لم يأخذ من أحد الجزية إلا بعد هذه الآية ، بل قالوا : إن أهل نجران أول من أخذت منهم الجزية ، كما ذكر ذلك أهل العلم ، كالزهرى وغيره ، فإنه باتفاق أهل العلم لم يضرب النبى صلى الله عليه وسلم الجزية على أحد قبل نزول هذه الآية ، لا من الأميين ولا من أهل الكتاب ، ولهذا لم يضربها على يهود

قينقاع ، والنضير ، وقريظة ، ولا ضربها على أهل خيبر ، فإنها فتحت سنة سبع قبل نزول آية الجزية ، وأقرهم فلاحين وهادنهم هدنة مطلقة قال فيها : « نقركم ما أقركم الله » فإذا كان أول ما أخذها من وفد نجران علم أن قدومهم عليه ، ومناظرته لهم ، ومحاجته إياهم ، وطلبه المباهلة معهم ، كانت بعد آية السيف التي فيها قتالهم ، وعلم بذلك أن ما ذكره الله تعالى من مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم محكم لم ينسخه شيء ، وكذلك ما ذكره تعالى من مجادلة الخلق مطلقاً بقوله : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ ، [سورة النحل : ١٢٥] . فإن من الناس من يقول : آيات المجادلة والمحاجة للكفار ، منسوخات بآية السيف ؛ لاعتقاده أن الأمر بالقتال المشروع ينافي المجادلة المشروعة وهذا غلط ، فإن النسخ إنما يكون إذا كان الحكم الناسخ مناقضاً للحكم المنسوخ كمناقضة الأمر باستقبال المسجد الحرام في الصلاة للأمر باستقبال بيت المقدس بالشام ، ومناقضة الأمر بصيام رمضان للمقيم للتخيير بين الصيام وبين إطعام كل يوم مسكيناً ، ومناقضة نهيه عن تعدي الحدود التي فرضها للورثة للأمر بالوصية للوالدين والأقربين ، ومناقضة قوله لهم : كفوا أيديكم عن القتال لقوله قاتلوهم ، كما قال تعالى : « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » ، [سورة النساء : ٧٧] . فأمره لهم بالقتال ناسخ لأمره لهم بكف أيديهم عنهم ، فأما قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » [سورة النحل : ١٢٥] . وقوله : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم » [سورة العنكبوت : ٤٦] . فهذا لا يناقضه الأمر بجهاد من أمر بجهاده منهم ، ولكن الأمر بالقتال يناقض النهي عنه والاقتصار على المجادلة .

فأما مع إمكان الجمع بين الجدال المأمور به والقتال المأمور به ، فلا منافاة بينهما وإذا لم يتنافيا بل أمكن الجمع لم يجز الحكم بالنسخ ، ومعلوم أن كلا منهما ينفع حيث لا ينفع الآخر ، وأن استعمالها جميعاً أبلغ فى إظهار الهدى ودين الحق ، ومما يبين ذلك وجوه :

أحدها : أن من كان من أهل الذمة والعهد والمستأمن منهم لا يجاهد بالقتال ، فهو داخل فيمن أمر الله بدعوته ومجادلته بالتى هى أحسن ، وليس هو داخلا فيمن أمر الله بقتاله .

الثانى : أنه قال : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا » [سورة العنكبوت : ٤٦] . فالظالم لم يؤمر بجداله بالتى هى أحسن ، فمن كان ظالماً مستحقاً للقتال غير طالب للعلم والدين ، فهو من هؤلاء الظالمين الذين لا يجادلون بالتى هى أحسن ، بخلاف من طلب العلم والدين ولم يظهر منه ظلم ، سواء كان قصده الاسترشاد أو كان يظن أنه على حق يقصد نصر ما يظنه حقاً ، ومن كان قصده العناد يعلم أنه على باطل ويجادل عليه ، فهذا لم يؤمر بمجادلته بالتى هى أحسن ، لكن قد نجادله بطرق أخرى نبين فيها عناده وظلمه وجهله جزاء له بموجب عمله .

الثالث : أنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ﴾ ، [سورة التوبة : ٦] . فهذا مستجير مستأمن وهو من أهل الحرب أمره الله بإجارته حتى تقوم حجة الله عليه ، ثم يبلغه مأمنه وهذا فى سورة براءة التى فيها نقض العهود وفيها آية السيف ، وذكر هذه الآية فى ضمن الأمر بنقض العهود ؛ ليبين سبحانه أن مثل هذا يجب أمانه حتى تقوم عليه الحجة ، لا تجوز محاربته كمحاربة من لم يطلب أن يبلغ حجة الله عليه .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ثم «أبلغه مأمنه» إن لم يوافقه مانقص عليه

ونخبر به فأبلغه مأمنه قال : وليس هذا بمنسوخ ، وقال مجاهد : من جاءك واستمع ما تقول واستمع ما أنزل إليك فهو آمن حتى يأتيك ، وقال عطاء فى الرجل من أهل الشرك يأتى المسلمين بغير عهد قال : خيره إما أن تقره ، وإما أن تبلغه مأمنه .

وقوله تعالى : ﴿ فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ ، [سورة التوبة : ٦] . قد علم أن المراد أنه يسمعه سمعاً يتمكن معه من فهم معناه، إذ المقصود لا يقوم بمجرد سمع لفظ لا يتمكن معه من فهم المعنى ، فلو كان غير عربى لوجب أن يترجم له ما تقوم به عليه الحجة ، ولو كان عربياً وفى القرآن ألفاظ غريبة ليست من لغته ، وجب أن نبين له معناها ، ولو سمع اللفظ كما يسمعه كثير من الناس ولم يفقه المعنى وطلب منا أن نفسره له ونبين له معناه ، فعلينا ذلك . وإن سألنا عن سؤال يقدح فى القرآن أجبناه عنه، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أورد عليه بعض المشركين أو أهل الكتاب أو المسلمين سؤالا يوردونه على القرآن ، فإنه كان يجيبهم عنه كما أجاب ابن الزبعرى لما قاس المسيح على آلهة المشركين وظن أن العلة فى الأصل بمجرد كونهم معبودين ، وأن ذلك يقتضى أن كل معبود غير الله فإنه يعذب فى الآخرة ، فجعل المسيح مثلا لآلهة المشركين قاسهم عليه قياس الفرع على الأصل .

قال تعالى: ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون * وقالوا : أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ﴾ ، [سورة الزخرف : ٥٧ ، ٥٨] .فبين سبحانه الفرق المانع من الإلحاق بقوله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ ، [سورة الأنبياء: ١٠١].و بين أن هؤلاء القائسين ما قاسوه إلا جدلا محضاً لا يوجب علماً ؛ لأن الفرق حاصل بين الفرع والأصل ، فإن الأصنام إذا جعلوا حصباً لجهنم ، كان ذلك إهانة وخزياً لعابديها من غير تعذيب من لا يستحق التعذيب ، بخلاف ما إذا عذب عباد الله الصالحون بذنب غيرهم ، فإن هذا لا يفعله الله تعالى ، لا سيما عند جماهير المسلمين وسائر أهل الملل

ـ سلفهم وخلفهم ـ الذين يقولون : إن الله لا يخلق ويأمر إلا لحكمة ولا يظلم أحداً فينقصه شيئاً من حسناته ، ولا يحمل عليه سيئات غيره ، بل ولا يعذب أحداً إلا بعد إرسال رسول إليه ، كما قال تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما﴾ ، [سورة طه : ١١٠] . وقال تعالى : ﴿ ومن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً » ، [سورة الجن : ١٣] . وقال تعالى : ﴿ هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟ » ، [سورة النمل : ٩٠] . وقال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ، [سورة الإسراء : ١٥] .

ومن قال من المسلمين وغيرهم من أهل الملل : إنه يجوز منه تعالى فعل كل شيء ، وأن الظلم هو الممتنع الذى لا يدخل تحت القدرة . فهؤلاء يقولون : إنما يعلم ما يفعله وما لا يفعله بدلالة خبر الصادق أو بالعادة وإن كان الجمهور يستدلون بخبر الصادق وبغيره على ما يمتنع من الله ، وقد أخبر الله تعالى أن عباده الصالحين فى الجنة لا يعذبهم فى النار، بل يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة فضلا أن يعاقبهم بذنب غيرهم مع كراهته لفعلهم ونهيهم عن ذلك ، ومن زعم أن لفظ «ما» كانت تتناول المسيح وأخر بيان العام ، أو أجاب بأن لفظ « ما » لا يتناول إلا مالا يعقل بالقولان ضعيفان ، كما قد بسط فى موضعه وإنما المشركون عارضوا النص الصحيح بقياس فاسد ، فبين الله تعالى فساد القياس وذكر الفرق بين الأصل والفرع ، وكذلك لما أورد بعض النصارى على قوله تعالى: ﴿ يا أخت هارون ﴾ . [سورة مريم : ٢٨] ظناً منه أن هارون هذا : هو هارون أخو موسى بن عمران ، وأن عمران هذا : هو عمران أبو مريم أم المسيح ، فسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك . أجاب : بأن هارون هذا ليس هو ذاك ، ولكنهم كانوا يسمون بأسماء الأنبياء والصالحين . وبعض جهال النصارى يقدح فى القرآن بمثل هذا ولا يعلم هذا المفرط فى جهله أن آحاد الناس يعلمون أن بين موسى وعيسى مدة طويلة جداً يمتنع معها أن يكون موسى وهارون خالى المسيح ، وأن هذا

مما لا يخفى على أقل أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، فضلا عن أن يخفى على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا السؤال مما أورده أهل نجران ، كما ثبت عن المغيرة بن شعبة قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل نجران فقالوا : ألستم تقرءون «يا أخت هارون» ، وقد علمتم مابين موسى وعيسى؟ فلم أدر ما أجيبهم ، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم ؟ » .

وهذا السؤال الذى هو سؤال الطاعن فى القرآن لما أورده أهل نجران الكفار على المغيرة رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم عنه أجاب عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يقل لهم . ليس لكم عندى إلا السيف ، ولا قال . قد نقضتم العهد إن كانوا قد عاهدوه ، وقد عرف أن أهل نجران لم يرسل إليهم رسولا إلا والجهاد مأمور به ، وكان المسلمون يوردون الأسئلة عليه كما أورد عليه عمر عام الحديبية لما صالح المشركين ولم يدخل مكة فقال له : ألم تكن تحدثنا أنا نأتى البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، أقلت لك إنك تأتيه فى هذا العام ؟ قال : لا قال : فإنك آتيه ومطوف به ، وكذلك أجابه أبو بكر ولم يكن سمع جواب النبى صلى الله عليه وسلم له ؛ ومعلوم أنه ليس فى ظاهر اللفظ توقيت ذلك بعام ؛ ولكن السائل ظن مالا يدل اللفظ عليه ؛ وكذلك لما قال « من نوقش الحساب عذب» قالت له عائشة : ألم يقل الله : ﴿فأما من أوتى كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حسابا يسيرا ﴾ ، [سورة الانشقاق : ٧ ، ٨] . فقال ذلك العرض ومن نوقش الحساب عذب ، ومعلوم أن الحساب اليسير لا يتناول من نوقش ؛ وقد زادها بيانا ، فأخبر أنه العرض لا المقابلة المتضمنة للمناقشة وكذلك لما قال : إنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة ، قالت له حفصة ألم يقل الله : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ ، [سورة مريم : ٧١] . فأجابها بأنه قال : ﴿ ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ ، [سورة مريم : ٧٢] .

فبين صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء هم الذين يدخلون جهنم ، وهذا الدخول هو الذى نفاه عن أهل الحديبية ، وأما الورود : فهو مرور الناس على الصراط كما فسره فى الحديث الصحيح حديث جابر بن عبد الله ، وهذا المرور لايطلق عليه اسم الدخول الذى تجزى به العصاة وينفى عن المتقين ومثل هذا كثير .

وأما مافى القرآن من ذكر أقوال الكفار وحججهم وجوابها ، فهذا كثير جداً ، فإنه يجادلهم تارة فى التوحيد ، وتارة فى النبوات ، وتارة فى المعاد ، وتارة فى الشرائع بأحسن الحجج وأكملها ، كما قال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا*ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ ، [سورة الفرقان : ٣٢ ، ٣٣] .

وقد أخبر الله تبارك وتعالى عن أولى العزم من الرسل بمجادلة الكفار ، فقال تعالى عن قوم نوح ، ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾ ، [سورة هود : ٣٢] وقال عن الخليل : ﴿ وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ــ إلى قوله ــ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ﴾ [سورة الأنعام ٨٠ ــ ٨٣]

وأمر تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بالمجادلة بالتى هى أحسن ، وذم سبحانه من جادل بغير علم أو فى الحق بعد ما تبين ومن جادل بالباطل ، فقال تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لاتعلمون؟ ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٦] . وقال تعالى : ﴿ ويجادلونك فى الحق بعد ما تبين ﴾ ، [سورة الأنفال : ٦] . وقال تعالى : ﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ ، [سورة غافر : ٥] . وهذا هو الجدال المذكور فى قوله : ﴿ ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا ﴾ . [سورة غافر : ٤]

وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يحاج الكفار بعد نزول الأمر بالقتال ،

وقد أمره الله تعالى أن يجير المستجير حتى يسمع كلام الله ثم يبلغه مأمنه ، والمراد بذلك تبليغه رسالات الله وإقامة الحجة عليه ، وذلك قد لا يتم إلا بتفسيره له الذى تقوم به الحجة ويجاب به عن المعارضة، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، علم بطلان قول من ظن أن الأمر بالجهاد ناسخ للأمر بالمجادلة مطلقا .

الوجه الرابع : إن القائل إذا قال : إن آية مجادلة الكفار أو غيرها مما يدعى نسخه منسوخة بآية السيف قيل له : ما تعنى بآية السيف ؟ أتعنى آية بعينها أم تعنى كل آية فيها الأمر بالجهاد ؟

فإن أراد الأول ، كان جوابه من وجهين :

أحدهما : أن الآيات التى فيها ذكر الجهاد متعددة ، فلا يجوز تخصيص بعضها .

وإن قال : أريد قوله تعالى : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم ،فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ ، [سورة التوبة : ٥] .

قيل له : هذه فى قتال المشركين ، وقد قال بعدها فى قتال أهل الكتاب : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة ، ٢٩]. فلو لم تكن آية السيف إلا واحدة لم تكن هذه أولى من هذه .

وإن قال : كل آية فيها ذكر الجهاد .

قيل له : الجهاد شرع على مراتب ، فأول ما أنزل الله تعالى فيه الإذن فيه بقوله : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله نصرهم لقدير ﴾ ، [سورة الحج : ٣٩] .

فقد ذكر غير واحد من العلماء أن هذه أول آية نزلت فى الجهاد ، ثم بعد ذلك نزل وجوبه بقوله : ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ ، [سورة البقرة ، ٢١٦].

ولم يؤمروا بقتال من طلب مسالمتهم بل قال : ﴿ فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيرا * إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم و بينهم ميثاق،أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم،فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ ، [سورة النساء : ٨٩ ، ٩٠] .

وكذلك من هادنهم لم يكونوا مأمورين بقتاله ، وإن كانت الهدنة عقداً جائزاً غير لازم ، ثم أنزل الله فى « برآءة » الأمر بنبذ العهود ، وأمرهم بقتال المشركين كافة ، وأمرهم بقتال أهل الكتاب إذا لم يسلموا حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، ولم يبح لهم ترك قتالهم و إن سالموهم وهادنوهم هدنة مطلقة مع إمكان جهادهم .

فإن قيل : آية للسيف التى نسخت المجادلة هى آية الإذن .

قيل . فآية الإذن نزلت فى أول مقدمه المدينة قبل أن يبعث شيئاً من السرايا ، وقد جادل بعد هذا الكفار .

وكذلك إن قيل . آيات فرض القتال ، قيل كقوله ﴿ كتب عليكم القتال ﴾ ، [سورة البقرة ، ٢١٦] . نزلت فى البقرة أول الأمر قبل بدر،وقيل. لاريب أن الجهاد كان واجباً يوم أحد والخندق وفتح خيبر ومكة،وقد ذكر الله آيات فرض الجهاد فى هؤلاء المغازى، كما ذكر ذلك فى سورة آل عمران والأحزاب، فإن قيل بل الجدال إنما نسخ لما أمر بجهاد من سالم ومن لم يسالم

قيل : هذا باطل ، فإن الجدال إن كان منافياً للجهاد ، فهو مناف لإباحته ولإيجابه ولو للمسالم ، وإن لم يناف الجهاد لم يناف إيجاب الجهاد للمسالمين ، كما لم يناف يجاب جهاد غيرهم

فإن المسالم قد لا يجادل ولا يجالد ، وقد يجادل ولا يجالد ، كما أن غيره قد يجادل و يجالد وقد يفعل أحدهما ، فإذا كان إيجابه لجهاد المحارب المبتدىء بالقتال

لا ينافى مجادلته ، فلأن يكون جهاد من لا يبدأ بالقتال لا ينافى مجادلته أولى وأخرى ، فإن من كان أبعد عن القتال كانت مجادلته أقل منافاة للقتال ممن يكون أعظم قتالا . يبين هذا .

الوجه الخامس : هو أن يقال المنسوخ هـ "" صار على الجدال ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم فى أول الأمر مأموراً ان يجاهد الكفار بلسانه لا بيده ، فيدعوهم ويعظهم ويجادلهم بالتى هى أحسن ، ويجاهدهم بالقرآن جهاداً كبيرا قال تعالى فى سورة الفرقان وهى مكية : ﴿ ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا * فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا ﴾ ، (سورة الفرقان : ٥١ ، ٥٢) . وكان مأمورا بالكف عن قتالهم لعجزه وعجز المسلمين عن ذلك ، ثم لما هاجر إلى المدينة وصار له بها أعوان أذن له فى الجهاد ، ثم لما قووا كتب عليهم القتال ولم يكتب عليهم قتال من سالمهم ؛ لأنهم لم يكونوا يطيقون قتال جميع الكفار ، فلما فتح الله مكة وانقطع قتال قريش ملوك العرب ، ووفدت إليه وفود العرب بالإسلام أمره الله تعالى بقتال الكفار كلهم إلا من كان له عهد مؤقت ، وأمره بنبذ العهود المطلقة ، فكان الذى رفعه ونسخه ترك القتال .

وأما مجاهدة الكفار باللسان ، فما زال مشروعاً من أول الأمر إلى آخره ، فإنه إذا شرع جهادهم باليد ، فباللسان أولى ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم: « جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم وأموالكم » وكان ينصب لحسان منبرا فى مسجده يجاهد فيه المشركين بلسانه جهاد هجو ، وهذا كان بعد نزول آيات القتال ، وأين منفعة الهجو من منفعة إقامة الدلائل والبراهين على صحة الإسلام وإبطال حجج الكفار من المشركين وأهل الكتاب ؟

الوجه السادس : إنه من المعلوم أن القتال إنما شرع للضرورة ، ولو أن الناس آمنوا بالبرهان والآيات لما احتيج إلى القتال ، فبيان آيات الإسلام وبراهينه واجب مطلقاً وجوباً أصلياً .

وأما الجهاد : فمشروع للضرورة ، فكيف يكون هذا مانعاً من ذلك ؟

فإن قيل : الإسلام قد ظهرت أعلامه وآياته فلم تبق حاجة إلى إظهار آياته، وإنما يحتاج إلى السيف .

قيل : معلوم أن الله وعد بإظهاره على الدين كله ظهور علم وبيان وظهور سيف وسنان ، فقال تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » ،[سورة الصف : ٩] .

وقد فسر العلماء ظهوره بهذا وهذا . ولفظ الظهور يتناولها فإن ظهور الهدى بالعلم والبيان وظهور الدين باليد والعمل ، والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ومعلوم أن ظهور الإسلام بالعلم والبيان قبل ظهوره باليد والقتال ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم مكث بمكة ثلاث عشرة سنة ، يظهر الإسلام بالعلم والبيان والآيات والبراهين ، فآمنت به المهاجرون والأنصار طوعاً واختيارا بغير سيف ، لما بان لهم من الآيات البينات ، والبراهين والمعجزات ، ثم أظهره بالسيف فإذا وجب علينا جهاد الكفار بالسيف ابتداء ودفعاً ، فلأن يجب علينا بيان الإسلام وإعلامه ابتداءودفعاً لمن يطعن فيه بطريق الأولى والأخرى .

فإن وجوب هذا قبل وجوب ذاك ومنفعته قبل منفعته ، ومعلوم أنه يحتاج كل وقت إلى السيف ، فكذلك هومحتاج إلى العلم والبيان و إظهاره بالعلم والبيان من جنس إظهاره بالسيف وهو ظهور مجمل علا به على كل دين ، مع أن كثيرا من الكفار لم يقهره سيفه ، فكذلك كثير من الناس لم يظهر لهم آياته وبراهينه، بل قد يقدحون فيه و يقيمون حججهم على بطلانه ، ولا سيما والمقهرون بالسيف فيهم منافقون كثيرون ، فهؤلاء جهادهم بالعلم والبيان دون السيف والسنان يؤكد هذا .

الوجه السابع : وهو أن القتال لا يكون إلا لظالم ، فإن من قاتل المسلمين لم يكن إلا ظالماً متعدياً ، ومن قامت عليه الحجة فشاق الرسول من بعد ما تبين

له الهدى واتبع غير سبيل المؤمنين لم يكن إلا ظالما .

وأما المجادلة فقد تكون لظالم ، إما طاعن فى الدين بالظلم ، وإما من قامت عليه الحجة الظاهرة فامتنع من قبولها ، وقد تكون لمسترشد طالب حق لم يبلغه، أما من بلغه بعض أعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ودلائل نبوته ، ولكن عورض ذلك عنده بشبهات تنافى ذلك ، فاحتاج إلى جواب تلك المعارضات ، وأما طالب لمعرفة دلائل النبوة على الوجه الذى يعلم به ذلك ، فإذا كان القتال الذى لا يكون إلا لدفع ظلم المقاتل مشروعاً ، فالمجادلة التى تكون لدفع ظلمه ولانتفاعه وامتناع غيره مشروعة بطريق الأولى . قال مجاهد : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾

قال : الذين ظلموا : من قاتلك ولم يعطك الجزية ، وفى لفظ آخر عنه قال : الذين ظلموا : منهم أهل الحرب من لا عهد لهم المجادلة لهم بالسيف .

وفى رواية عنه قال : لا تقاتلوا إلا من قاتلكم ولم يعط الجزية .

وفى رواية عنه قال . من أدى منهم الجزية فلا تقولوا لهم إلا خيراً ، وعن مجاهد : إلا بالتى هى أحسن ، فإن قالوا : شراً فقولوا :خيراً ، فهذا مجاهد لا يجعلها منسوخة وهو قول أكثر المفسرين .

قال عبد الرحمن بن يزيد بن أسلم : ﴿ ولو تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن﴾. ليست منسوخة، ولكن عن قتادة قال: نسختها : ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ ولا مجادلة أشد من السيف ، والأول أصح ؛ لأن هؤلاء من الذين ظلموا فلا نسخ ومما يعجب منه أن بعض المنكرين لمجادلة الكفار بناء على ظهور دلائل النبوة نجده هو ومن يعظمه من شيوخه الذين يعتمد فى أصول الدين على نظرهم ومناظرتهم ، ويزعمون أنهم قرروا دلائل النبوة قد أوردوا من الشبهات والشكوك والمطاعن على دلائل النبوة مايبلغ نحو ثمانين سؤالا ، وأجابوا

عنه بأجوبة لا تصلح أن تكون جواباً فى المسائل الظنية ، بل هى إلى تقرير شبه الطاعنين أقرب منها إلى تقرير أصول الدين ، وهم كما مثلهم الغزالى وغيره بمن يضرب شجرة ضرباً يزلزلها به ، وهو يزعم أنه يريد أن يثبتها ، وكثير من أئمة هؤلاء مضطرب فى الإيمان بالنبوة اضطراباً ليس هذا موضع بسطه ، وهم مع ذلك يدعون أنه قد ظهر عند أهل الكتاب ما لم يظهر عند شيوخ هؤلاء النظار وينهون عن إظهار آيات الله وبراهينه التى هى غاية مطالب مشايخهم وهم لم يعطوها حقها ، إما عجزاً وإما تفريطاً .

الوجه الثامن : أن كثيراً من أهل الكتاب يزعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته إنما أقاموا دينهم بالسيف لا بالهدى والعلم والآيات ، فإذا طلبوا العلم والمناظرة فقيل لهم : ليس لكم جواب إلا السيف ، كان هذا مما يقرر ظنهم الكاذب ، وكان هذا من أعظم ما يحتجون به عند أنفسهم على فساد الإسلام ، وأنه ليس دين رسول من عند الله ، وإنما هو دين ملك أقامه بالسيف .

الوجه التاسع : إنه من المعلوم أن السيف لا سيما سيف المسلمين وأهل الكتاب هو تابع للعلم والحجة ، بل وسيف المشركين هو تابع لآرائهم واعتقادهم ، والسيف من جنس العمل ، والعمل أبدا تابع للعلم والرأى .

وحينئذ فبيان دين الإسلام بالعلم وبيان أن ماخالفه ضلال وجهل هو تثبيت لأصل دين الإسلام ، واجتثاث لأصل غيره من الأديان التى يقاتل عليها أهلها ، ومتى ظهرت صحته وفساد غيره كان الناس أحد رجلين :

إما رجل تبين له الحق فاتبعه ، فهذا هو المقصود الأعظم من إرسال الرسل .

وإما رجل لم يتبعه ، فهذا رجل قامت عليه الحجة ؛ إما لكونه لم ينظر فى أعلام الإسلام ، أو نظر وعلم فاتبع هواه أو قصر ، وإذا قامت عليه الحجة كان أرضى لله ولرسوله وأنصر لسيف الإسلام وأذل لسيف الكفار ، وإذا قدر أن

فيهم من يعجز عن فهم الحجة ، فهذا إذاً لم يكن معذوراً مع عدم قيامها فهو مع قيامها أولى أن لا يعذر ، وإن كان معذوراً مع قيامها فهو مع عدمها أعذر ، فعلى التقديرين قيام الحجة أنصر وأعذر ، وقد قال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ، [سورة الاسراء: ١٥] . قال تعالى : ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ، [سورة النساء: ١٦٥] . وقال تعالى : ﴿ فالملقيات ذكراً ٥ عذراً أو نذراً ﴾ ، [سورة المرسلات : ٥،٦] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين » .

فصل

وكان قبل قصة نجران قد آمن بالنبي كثير من اليهود والنصارى رؤساؤهم وغير رؤسائهم لما تبين لهم أنه رسول الله إليهم كما آمن به النجاشي ملك الحبشة، وكان نصرانياً هو وقومه ، وكان إيمانه به فى أول أمر النبي صلى الله عليه وسلم لما كان أصحابه مستضعفين بمكة ، وكان الكفار يظلمونهم ويؤذونهم ويعاقبونهم على الإيمان بالله ورسوله ، فهاجر منهم طائفة مثل عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن ابن عوف ، والزبير بن العوام ، وعبد الله بن مسعود ، وجعفر بن أبي طالب ، وغيرهم من الرجال والنساء إلى بلده وكان ملكا عادلا ، فأرسل الكفار خلفهم رسلا إلى أرض الحبشة ـ أرض النجاشي ـ بهدايا ليردهم إليهم . فامتنع من عدله أن يسلمهم إليهم حتى يسمع كلامهم ، فلما سمع كلامهم وما أخبروه به من أمر النبي صلى الله عليه وسلم آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وآواهم .

ولما سمع القرآن قال : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . ولما سألهم عن قولهم فى المسيح عليه السلام قالوا : نشهد أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول التى لم يمسها رجل ، فقال النجاشي

لجعفر بن أبى طـالب : والله ما زاد عيسى بن مريم على ما قلت هـذا العود فنخرت أصحابه ، فقـال : و إن نخرتم ، و إن نخرتم . و بعث ابنه وطائفة من أصحابه إلى النبى صلى الله عليه وسلم مع جعفر بن أبى طالب ، وقدم جعفر على النبى صلى الله عليه وسلم عام خيبر ، وقد ذكر قصتهم جماعة من العلماء والحفاظ ، كأحمد بن حنبل فى المسند ، وابن سعد فى الطبقات ، وأبى نعيم فى الحلية وغيرهم، وذكرها أهل التفسير ، والحديث ، والفقه ، وهى متواترة عند العلماء .

قال أحمد : حدثنى يعقوب بن إبراهيم بن سعيد عن أبيه قال : حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثنى محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهرى ، عن أبى بكر ابن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى ، عن أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ــ ورضى عنها ــ قالت : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار (النجاشى) آمنا على ديننــا ، وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نـكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين جلدين ، وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مـكة ، وكان أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم[1] فجمعوا له أدماً كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعـة بن المغيرة المخزومى ، وعمرو بن العاص بن وائل السهمى ، وأمروهما أمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تـكلموا النجاشى فيهم ثم قدموا إلى النجاشى هداياه ، ثم اسألوه أن يسلمهم إليـكم قبل أن يكلمهم . قالت : فخرجا فقدما على النجاشى ، ونحن عنده بخير دار عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشى ، ثم قالا لـكل بطريق منهم : إنه قد صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين

---

(١) الأدم : مفردها أديم ، وهو الجلد المدبوغ .

مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ليردهم إليهم ،فأشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلا بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فقالوا لهما : نعم ، ثم إنهما قربا هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما ، ثم كلماه فقالا له .

أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منك غلمان سفهاء ،فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم ، فهم أعلا بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامنا .

فقالت بطارقته حوله : صدقوا أيها الملك قومهم أعلا بهم عيناًوأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .

قالت : فغضب النجاشي ، ثم قال : لا وايم الله إذاً لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قوماً جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى ، حتى أدعوهم فاسألهم ما يقول هذان فى أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، و إن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا اجبتموه ؟ قال : نقول : والله ما علمنا وما جاء به نبيناً كائن فى ذلك ما هو كائن : فلما جاءوه زاد أبو نعيم وقد دعى النجاشي أساقفته ومعهم مصاحفهم حوله ، فلما جاءوه فسألهم فقال : ما هذا الدين فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الأمة ؟ .

قالت : فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب ، فقال .

أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباءنا من دونه من الحجارة ، والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم ، والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنه ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة . والصيام .

قالت فعدد عليه أمور الإسلام ، قال : فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدنا علينا قومنا فعذبوا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا ، وظلمونا ، وشقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك ،

قالت : فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ .

قالت : فقال له جعفر : نعم ، فقال النجاشي : فأقرأه على ، فقرأ عليه صدراً من سورة مريم ﴿ كهيعص * ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداء خفيا * قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا * و إنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك وليا * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب راضيا * يازكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا * قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا * قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً * قال رب أجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم

الناس ثلاث ليال سوياً * فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا * يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً * وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقيا * وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصيا * وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً * واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من من أهلها مكاناً شرقياً * فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً * قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً * قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا * فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا * فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا * وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا * فكلى واشربى وقرى عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا * فأتت به قومها تحمله قالوا : يا مريم لقد جئت شيئاً فريا * ياأخت هارون ما كان أبوك أمر سوء وما كانت أمك بغيا * فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا * قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركاً أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا * ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم * أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال بعيد * وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون * إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ ، [سورة مريم ١٠ - ٤٠] .

قالت أم سلمة — رضى الله عنها — فبكى والله النجاشى حتى أخضل لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلى عليهم ، ثم قال النجاشى : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج مشكاة واحدة ، ثم قال لعبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص : انطلقا ، فوالله لا أسلمهم إليكما أبداً ولا أكاد .

قالت أم سلمة : فلما خرج من عنده قال عمرو بن العاص : والله لآتينه غداً أعيبهم عنده ، ثم أستأصل به خضراءهم .

قالت : فقال له عبد الله بن أبى ربيعة — وكان أتقى الرجلين فينا — لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا ، قال : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد .

قالت : ثم غدا عليه الغد فقال له : أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه .

قالت : فأرسل إليهم يسألهم عنه .

قالت : ولم ينزل بنا مثلها فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض : ما تقولون فى عيسى إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله فيه ما قاله الله وما جاء به نبينا كائناً فى ذلك ماهو كائن ، فلما دخلوا عليه قال لهم : ماتقولون فى عيسى بن مريم ؟ فقال له جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاء به نبينا : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

قالت : فضرب النجاشى يده على الأرض فأخذ منها عوداً ، ثم قال : ماعدى عيسى بن مريم ما قلت هذا العود ، فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضى ، والسيوم: الآمنون. من سبكم غرم ، ثم من سبكم غرم ، ثم من سبكم غرم ؛ فما أحب أن لى ديراً

ذهباً وأنى آذيت رجلا منكم ــ والدبر بلسان الحبشة : الجبل ــ ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحين مردود عليهما ما جاءا به ، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار .

قالت : فوالله إنا على ذلك إذ نزل به يعنى من ينازعه فى ملكه .

قالت : فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشد من حزن حزناه ، عند ذلك تخوفنا أن يظهر ذلك على النجاشى فيأتى رجلا لايعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه .

وروى عبد الله بن عامر بن الزبير عن أبيه قال : لما نزل بالنجاشى عدوه من أرضه جاء المهاجرون فقالوا : إنا نحن نخرج إليهم فنقاتل معك وترى حربنا ونجزيك بما صنعت بنا . فقال : ذو ينصره الله خير من الذى ينصره الناس ، يقول : الذى ينصره الله خير من الذى ينصره الناس فأبى ذلك عليهم .

(رجعنا إلى) حديث أم سلمة قالت : وسار النجاشى ــ وبينهما عرض النيل ــ قالت : فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟

قالت : فقال الزبير بن العوام : أنا .

قالت : وكان من أحدث القوم سنا ، قالت : فنفخنا له قربة فجعلها فى صدره ، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم .

قالت . ودعونا الله للنجاشى بالظهور على عدوه والتمكين له فى بلاده .

قالت : فوالله إنا لعلى ذلك متوقعين لما هو كائن إذ طلع الزبير بن العوام يسعى ويلوح بثوبه ويقول . ألا أبشروا قد ظهر النجاشى وقد أهلك الله عدوه .

قالت : فوالله ما علمت فرحنا فرحة مثلها قط .

قالت : فرجع النجاشى ، وقد أهلك الله عدوه ، ومكن له فى بلاده واستوسق عليه أمر الحبشة ، فمكنا عنده فى خير منزل حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد روى جمل هذه القصة أبو داود فى سننه من حديث أبى موسى .

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى قال : بلغنا مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لى أنا أصغرهما فى اثنين وخمسين رجلا من قومى ، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبى طالب وأصحابه عنده ، قال جعفر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنا وأمرنا ـ يعنى بالإقامة ـ فأقيموا معنا . قال : فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً . قال : فوافقنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فتح خيبر فأسهم لنا منها ، وما قسم لأحد غائب عن فتح خيبر غيرنا إلا لمن شهد معنا أصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه قسم لهم معهم .

قال . فلما رأى ناس من الناس يقولون لنا ـ يعنى أهل السفينة ـ سبقنا كم لهجرة ، قال . ودخلت أسماء بنت عميس وهى ممن قدم معنا على حفصة زائرة ، وقد كانت هاجرت إلى النجاشى فيمن هاجر إليه ، فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها ، فقال عمر حين رأى أسماء . من هذه ؟ قالت . أسماء بنت عميس ، فقال عمر : الحبشية هذه ؟ البحرية هذه ؟ قالت أسماء . نعم . فقال عمر سبقنا كم بالهجرة نحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم ، فغضبت وقالت . ياعمر كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم وكنا فى أرض البعداء البغضاء بالحبشة ، وذلك فى الله تبارك وتعالى ، وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وايم الله لا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن كنا نؤذى ونخاف ، وسأذكر

ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم واسأله ، الله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك .

فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم قالت : يا رسول الله إن عمر قال كذا وكذا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فماذا قلت له ؟ قالت : قلت كذا وكذا ، قال : ليس بأحق بى منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان » .

قالت : فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونى أرسالا يسألونى عن هذا الحديث مامن الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم فى أنفسهم مما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال أبو بردة : قالت أسماء فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث منى . أخرجاه فى الصحيحين البخارى ومسلم .

وأخرجاه فى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى لهم النجاشى صاحب الحبشة فى اليوم الذى مات فيه قال : استغفروا لأخيكم » .

وعنه — رضى الله عنه — قال : نعى النبي صلى الله عليه وسلم النجاشى يوم توفى وقال : « استغفروا لأخيكم » ثم خرج بالناس إلى المصلى فصفوا وراءه وصلى علاه وكبر أربع تكبيرات . أخرجاه .

وقال جابر بن عبد الله — رضى الله عنهما — إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على أصحمة النجاشى فكبر عليه أربعاً . أخرجاه فى الصحيحين .

فصل

وكان أول ما أنزل الله تعالى عليه صلى الله عليه وسلم الوحى عرضت خديجة امرأته أمره على عالم كبير من علماء النصارى يقال له ورقة بن نوفل ، وكان من العرب المتنصرة ، فقال هذا هو الناموس الذى كان يأتى موسى بن عمران

يا ليتني أكون فيها جذعاً حين يخرجك قومك ـ يعني ليتني أكون شاباً ـ فإنه كان شيخاً كبيراً قد كف بصره ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم «أو مخرجي هم ؟ قال : نعم ، لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عودي . وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزراً » . رواه أصحاب الصحيح .

وقدم إليه بمكة طائفة من أهل الكتاب من النصارى فآمنو به ، فآذاهم المشركون فصبروا واحتملوا أذاهم ، فأنزل الله فيهم ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ ، [سورة القصص : ٥٢ ـ ٥٥] .

وقصتهم مشهورة في كتب التفسير وغيرها ، وروى البيهقي في كتاب دلائل النبوة وأعلام الرسالة فقال : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبأنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، أنبأنا أحمد بن عبد الجبار ، أنبأنا يونس عن ابن إسحاق قال : ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرون رجلا ـ وهو بمكة أو قريب من ذلك ـ من النصارى حين ظهر خبره في الحبشة فوجدوه في المجلس فكلموه وساءلوه ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مساءلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا ، دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره ، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش ، فقالوا : خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم مانعلم ركباً أحمق منكم أو كما قال لهم ، فقالوا : سلام عليكم لا نجاهلكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا نألوا لأنفسنا

إلا خيراً ، ويقال — والله أعلم — إن فيهم نزلت هؤلاء الآيات : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون — إلى قوله تعالى — لا نبتغى الجاهلين ﴾ ، [سورة القصص : ٥٢ ـ ٥٥]

ولما كان بعد عام الحديبية ومهاذنة قريش أرسل رسله إلى جميع الطوائف ، فأرسل إلى جميع النصارى : نصارى الشام ومصر ، فأرسل إلى هرقل ملك الروم ، وقد قيل : إن هرقل هذا هو الذى زادت النصارى له فى صومهم عشرة أيام لما اقتتلت الروم والفرس وقتل اليهود بعد أن كان قد أمنهم فطلبت منه النصارى قتلهم وضمنوا له أن يكفروا له خطيئته بما زادوه فى الصوم ، وكانت الفرس مجوساً والروم نصارى ، وكانت المجوس الفرس غلبت النصارى أولا ، وكان هذا فى أوائل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم وهو بمكة وأتباعه قليل ، ففرح المشركون بانتصار الفرس ، لأنهم أقرب إليهم من أهل الكتاب وساء المسلمين ذلك ؛ لأن أهل الكتاب أقرب إليهم ، فدخل أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بانتصار الفرس على الروم ، فأنزل الله تعالى: ﴿ آلم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء ﴾ ، [سورة الروم : ١ ـ ٥] .

وكان هذا مما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يكون ، فكان كما أخبر ، ولما ذكر ذلك أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ كذبوه فراهنهم أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ على ذلك كما ذكر هذا المفسرون والمحدثون.

قال سفيان بن سعيد فى تفسيره ـ وهو شيخ البخارى ـ حدثنا حجاج عن أبى الزناد عن أبيه عن عروة بن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمى أنه قال : لما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ آلم * غلبت الروم * فى أدنى

الأرض ـ إلى قوله ـ وهو العزيز الرحيم ﴾ ، [سورة الروم : ١ ـ ٥] . خرج أبو بكر وهو يقرؤها بمكة رافعاً بها صوته:﴿ بسم الله الرحمن الرحيم آلم . غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين ﴾ ، [سورة الروم : ١ ـ ٤] .

فقال له رءوس أهل مكة : ما هذا يا ابن أبى قحافة لعله مما يأتى به صاحبك ؟ قال : لا والله ، ولـكنه كلام الله وقوله تبارك وتعالى ، قالوا : فذلك بيننا و بينك إن ظهرت الروم على فارس فى بضع سنين ، فراهنهم أبو بكر بفتح الله الروم على فارس دون التسع ، فأسلم عند ذلك خلق كثير من المشركين .

قال ابن مكرم : وإنما كانت قريش تستفتح يومئذ بالفرس ؛ لأنهم وإياهم أهل تكذيب بالبعث ، وأهل أصنام ، وإنما كان المؤمنون يستفتحون يومئذ بالروم ؛ لأنهم وإياهم أهل نبوة وتصديق بالبعث ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء ﴾ ، [سورة الروم ٤ ، ٥] .

وهذا الحديث رواه الترمذى فى جامعه فقال : حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا إسماعيل بن أبى أويس قال : حدثنى ابن أبى الزناد عن أبى الزناد عن عروة بن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمى قال : لما نزلت ﴿ الم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين ﴾ ، [سورة الروم : ١ ـ ٤] . فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب .

وذلك قوله تعالى : ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ ، [سورة الروم ٤ ، ٥] .

وكانت قريش تحب ظهور فارس ؛ لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ

يصيح فى نواحى مكة : ﴿ الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين * لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ .

قال ناس من قريش لأبى بكر : فذلك بيننا و بينكم زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارساً فى بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ فارتهن أبو بكر والمشركون فظهرت الروم على فارس فى بضع سنين ، وأسلم عند ذلك ناس كثير من المشركين .

قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن أبى الزناد - يعنى غريباً من هذا الوجه - وإلا فهو مشهور متواتر عن أهل التفسير ، والمغازى ، والحديث ، والفقه ؛ والقصة متواترة عند الناس .

وقال أبو جعفر بن جرير فى تفسيره : عن سفيان عن حبيب بن أبى عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : كان المسلمون يحبون أن تغلب الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب ، وكان المشركون يحبون أن تغلب أهل فارس ؛ لأنهم أهل أوثان . قال : فذكروا ذلك لأبى بكر فذكره أبو بكر للنبى صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله : ﴿ الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين * لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ فذكره أبو بكر للمشركين ، فقالوا : اجعل بيننا و بينك أجلا ، فإن غلبو كان لك كذا وكذا ، وإن غلبوا كان لنا كذا وكذا ، فجعلوا بينهم أجلا خمس سنين ، فذكر ذلك أبو بكر للنبى صلى الله عليه وسلم فقال له . « هلا احتطت ، أفلا جعلته دون العشر ؟ » قال سعيد بن جبير . والبضع مادون العشرة ، قال : فغلبت الروم ثم غلبت ، فذلك قوله : ﴿ الم غلبت الروم ﴾ الآية .

وهذا أيضاً أخرجه الترمذى : حدثنا حسن بن حريث ، أنبأنا معاوية بن عمرو عن أبى إسحاق الفزارى ، عن سفيان ، عن حبيب بن أبى عمرة ، عن

سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب ، إنما نعرفه من حديث سفيان الثورى عن حبيب بن أبى عمرة .

ورواه أيضاً من حديث الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس ، وقال . هذا حديث غريب من هذا الوجه .

ورواه أيضاً من حديث الأعمش عن عطية عن أبى سعيد ، وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

وذهبت طائفة من العلماء إلى أن الخبر جاء بظهور الروم على فارس يوم بدر ، وذهب آخرون أنه يوم الحديبية ـ وهذا هو الصحيح ـ وهرقل كان قد مشى شكراً لله من حمص إلى بيت المقدس لما نصره الله على الفرس ، فوافاه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام عقب نصر الله للروم على فارس ، ففرح النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين .

قال علماء السير : فلما انتصرت الروم ، وخرج هرقل ملك الروم من منزله من حمص ماشياً على قدميه إلى بيت المقدس متشكراً لله عز وجل حين رد عليه مارد ليصلى فيه ، فلما انتهى إلى بيت المقدس وصلى فيه ، قدم عليه حينئذ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع دحية الكلبي يدعوه إلى الإسلام .

قال ابن إسحاق : حدثنى الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس قال : حدثنى أبو سفيان قال : كنا قوماً تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حصرتنا حتى هلكت أموالنا ، فلما كانت الهدية بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يعنى التى عقدت يوم الحديبية ـ فلما عقدت المدنة آمنا ، فخرجت فى نفر من قريش تاجراً إلى الشام ، وكان وجه متجرنا ، فقدمتها حين ظهر هرقل على من كان عارضه من فارس ، فأخرجهم منها ، وانتزع له صليبه لأعظم وقد كانوا صلبوه إياه ، فلما بلغه ذلك منهم ، وبلغه أن صليبه قد استنقذ له ، وكانت حمص منزله ، فخرج

منها على قدميه متشكراً لله عز وجل حين رد عليه ما رد ليصلى فى بيت المقدس و بسط له الطريق بالبسط ويلقى عليها الرياحين ، فلما انتهى إلى إيليا وقضى فيها صلاته ومعه بطارقته وأساقفته الروم ، وقدم عليه كتاب رسول الله صلى عليه وسلم مع دحية بن خليفة الكلبى فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، إلى هرقل عظيم الروم ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فأسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، و إن توليت فإن عليك إثم الأريسيين » ــ يعنى الأكارين ــ .

قال ابن إسحاق ، وقال ابن شهاب : حدثنى أسقف النصارى فى زمان عبد الملك بن مروان زعم لى أنه أدرك ذلك من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمر هرقل وعقله ، قال : لما قدم عليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع دحية أخذه فجعله على خاصرته ، ثم كتب إلى رجل برومية كان يقرأ من العبرانية ما يقرأ يذكر له أمره ويصف له شأنه ، ويخبره ما جاء منه ، قال : فكتب إليه صاحب رومية أنه النبى الذى ننتظره لاشك فيه فاتبعه وصدقه ، فأمر هرقل ببطارقة الروم فجمعوا له فى دسكرة ملكه ، وأمر بها فاسترخت عليهم أبوابها ، ثم طلع عليهم من علية وخافهم على نفسه وقال : يا معشر الروم إنى قد جمعتكم لخير ، إنه قد أتانى كتاب هذا الرجل يدعونى إلى دينه ، وإنه والله للرجل الذى كنا ننتظره ونجده فى كتبنا ، فهم فلنتبعه ولنصدقه ، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا ، فنخروا نخرة رجل واحد ، ثم ابتدروا أبواب الدسكرة ليخرجوا منها ، فوجدوها قد أغلقت دونهم . فقال . كروهم على وخافهم على نفسه فكروا عليه ، وقال يا معشر الروم ، إنما قلت لكم هذه المقالة التى قلت لكم ؛ لأنظر كيف صلابتكم على دينكم الأمر الذى حدث ، فقد رأيت منكم الذى أسر به فوقعوا سجوداً وأمر بأبواب الدسكرة ففتحت لهم فانطلقوا .

وهذا حديث مشهور من حديث محمد بن إسحاق ــ وهو ذو علم و بصيرة بهذا

الشأن ، حفظ مالا يحفظة غيره ـ قال ابن إسحاق : وأخذ هرقل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعله فى قصبة من ذهب وأمسكها عنده تعظيما له، وهذه القصة مشهورة ذكرها أصحاب الصحاح ، ففى البخارى ومسلم والسياق للبخارى عن الزهرى قال : أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد فيها أبا سفيان بن حرب وكفار قريش فأتوه وهو بإيليا فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم بالترجمان فقال. أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبا سفيان : فقلت : أنا أقربهم نسباً ، فقال : أدنوه وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال : لترجمانه : إنى سائل هذا عن هـذا الرجل ، فإن كذبنى فكذبوه .قال أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على الكذب لكذبت عليه ، ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قبله قط ؟ قلت : لا ، قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت لا . قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم . فقال . أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال: فهل يرتد منهم أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت لا . قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا . قال فهل يغدر ؟ ؟ قلت لا . ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها . قال: ولم يمكنى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة . قال فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : فماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا مايقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة ، والصدق والعفاف، والصلة . فقال للترجمان : قل له سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب

وكذلك الرسل تبعث فى أنساب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فذكرت أن لا . فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا . فقلت: لو كان فى آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك؟ أبيه .وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل ، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ؛ وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا . وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد ، وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا . وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك بم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً ، فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه أنه منكم ، فلو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

ثم دعى بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى بعث به مع دحية الكلبى إلى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل فقرأه فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله ، إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت ، فإن عليك إثم الأريسين ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب ، كثر عنده

الصخب ، وارتفعت الأصوات وأخرجنا ، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر ابن أبي كبشة أنه ليخافه ملك بني الأصفر فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام .

وكان ابن الناطور صاحب إيليا أسقفاً على نصارى أهل الشام يحدث أن هرقل حين قدم إيليا أصبح يوماً خبيث النفس ، فقال له بعض بطارقته : قد استنكرنا هيئتك . قال ابن الناطور : وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم ، فقال لهم حين سألوه : إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ، أن ملك الختان قد ظهر ، فمن يختتن من هذه الأمة ؟ فقالوا : ليس يختتن إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم واكتب إلى مدائن ملكك فليقتلوا من فيهم من اليهود ، فبينما هم على أمرهم ، أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما استخبره هرقل قال : اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا ؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن وسأله عن العرب قال : هم يختتنون ، فقال هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر ، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان هرقل نظيره في العلم ، وسار هرقل إلى حمص فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي صلى الله عليه وسلم وأنه نبي ، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم اطلع عليهم فقال : يا معشر الروم ، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتتابعوا هذا النبي ، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت دونهم ، فلما رأى هرقل نفرتهم ويئس من الإيمان منهم قال : ردوهم علي ، وقال : إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عليه ، فكان هذا آخر شأن هرقل .

قلت : وكان هرقل من أجل ملوك النصارى في ذلك الوقت ، وقد أخبر

غير واحد أن هذا الكتاب باق إلى الآن عند ذرية هرقل فى أرفع صوان وأعز مكان يتوارثونه كابراً عن كابر ، وأخبر غير واحد أن هذا الكتاب باق الآن عند الفنش صاحب قشتالة و بلاد الأندلس يفتخرون به وهذا أمر مشهور معروف .

وقد روى سنيد ــ وهو شيخ البخارى ــ فى تفسيره قال :حدثنا هشام قال: أخبرنا حصين عبد الله بن شداد بن الهاد قال : لما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل فقرأ كتابه وجمع الروم فأبوا عليه قال : فلما كان يوم الأحد لم يحضر أسقفهم الكبير وتمارض ، فأرسل إليه فأبى ، ثم أرسل إليه ،فأبى ثلاث مرات فركب إليه فقال له : أليس قد عرفت أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : بلى ، قال : أليس قد رأيت ما ركبوا منى فأنت أطوع فيهم منى فتعال فادعهم . قال : أو تأذن لى فى ذلك ؟ قال : نعم . قال : اذهب هو ذا أجىء ، قال : فجاء بسواده إلى كنيستهم العظمى ، فلما رأوه خروا له سجداً الملك وغيره ، فقام فى المذبح فقال : يا أبناء الموتى ، هذا النبى الذى بشر به عيسى ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فنخروا ووثبوا إليه فعضوه بأفواههم حتى قتلوه ، قال : وجعلوا يخرجون أضلاعه بالكلبتين حتى مات .

فصل

وأرسل النبى صلى الله عليه وسلم رسولا أيضاً إلى ملك مصر المقوقس ــ ملك النصارى فى ذلك الوقت بالإسكندرية ــ وكان رسوله إليه حاطب بن أبى بلتعة رضى الله عنه ــ قال حاطب : قدمت على المقوقس ــ واسمه جريج بن مينا ــ بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك . قال : هات ، قلت : إن لك ديناً لن تدعه إلا لما هو خير منه ، وهو الإسلام الكافى بعد ما سواه ، إن هذا النبى دعا الناس

إلى الله ، فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل من أدرك نبياً فهو من أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، فأنت ممن أدرك هذا النبي ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به ، ثم ناوله كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قرأه قال : خيراً قد نظرت فى هذا فوجدته قد لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آلة النبوة ، ثم جعل الكتاب فى حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى خازنه ، وكتب جوابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد علمت أن نبياً قد بقى وقد أكرمت رسولك ، وأهدى للنبى صلى الله عليه وسلم جاريتين و بغلة تسمى الدلدل ، فقبل النبى صلى الله عليه وسلم هديته ، واصطفى الجارية الواحدة — واسمها مارية القبطية — لنفسه فولدت منه إبراهيم ، وأعطى الأخرى لحسان بن ثابت ، فولدت منه عبد الرحمن ، وعاشت البغلة إلى زمان معاوية فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه » .

قال محمد بن سعد : حدثنا محمد بن عمر قال : حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال لما رجع النبى صلى الله عليه وسلم من الحديبية فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة ، بعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس القبطى صاحب الإسكندرية ، وكتب إليه معه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام ، فلما قرأ الكتاب قال له · خيراً ، وأخذ الكتاب — وكان مختوماً — فجعله فى حق من عاج ، وختم عليه ، ودفعه إلى خازنه وكتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم جواب كتابه ولم يسلم ، وأهدى إلى النبى صلى الله عليه وسلم ما تقدم ذكره :

فكل من الملكين عظم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواضع له ولكتابه ، واعترف بأنه الرسول المنتظر الذى بشرت به الأنبياء عليهم السلام .

وقد كان المقوقس يعرف أنه حق بما يسمع من صفاته من أهل الكتاب ، ولكن ضن بملكه ولم يؤمن ، وكان قد خرج إليه المغيرة بن شعبة قبل إسلام المغيرة فحدثه بذلك .

قال محمد بن عمر الواقدى : حدثنى محمد بن سعد الثقفى ، وعبد الرحمن ابن عبد العزيز بن عبد الله بن عثمان بن سهل بن حنيف ، وعبد الملك بن عيسى ، وعبد الله بن عبد الرحمن ، ومحمد بن يعقوب بن عتبة عن أبيه وغيرهم ، كل قد حدثنى من هذا الحديث بطائفة منه قال : قال المغيرة بن شعبة فى خروجه إلى المقوقس مع بنى مالك و إنهم لما دخلوا على المقوقس قال : كيف خلصتم إلىّ من طائفتكم ومحمد وأصحابه بينى و بينكم ؟ قالوا : ألصقنا بالبحر وقد خفناه على ذلك . قال : فكيف صنعتم فيما دعاكم إليه ؟ قالوا : ما تبعه منا رجل واحد . قال : ولم ذلك ؟ قالوا . جاءنا بدين مجدد لا تدين به الآباء ، ولا يدين به الملك ، ونحن على ما كان عليه آباؤنا . قال : فكيف صنع قومه ؟ قالوا : تبعه أحداثهم وقد لاقاه من خالفه من قومه وغيرهم من العرب فى مواطن ، مرة تكون عليهم الدائرة ومرة تكون له . قال : ألا تخبرونى إلى ماذا يدعو إليه ؟ قالوا : يدعونا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له ، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا ، ويدعو إلى الصلاة والزكاة . قال : وما الصلاة والزكاة ؟ ألها وقت يعرف وعدد تنتهى إليه ؟ قالوا : يصلون فى اليوم والليلة خمس صلوات كلها لمواقيت وعدد سموه له ، و يؤدون من كل ما بلغ عشرين مثقالا نصف مثقال ، وأخبروه بصدقة الأموال كلها . قال : أفرأيتم إذا أخذها أين يضعها ؟ قالوا : يردها على فقرائهم ، و يأمر بصلة الرحم ، ووفاء العهد ، وتحريم الزنا والخمر ، ولا يأكل مما ذبح لغير الله فقال المقوقس : هذا نبى مرسل إلى الناس ، ولو أصاب القبط والروم اتبعوه ، وقد أمرهم بذلك عيسى بن مريم ، وهذا الذى تصفون منه بعث به الأنبياء من قبله ، وسيكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد ، و يظهر إلى منتهى الخف والحافر ومنقطع البحور ،

و يوشك قومه أن يدافعوه بالراح . قالوا : فلو دخل الناس كلهم معه ما دخلنا ، قال المغيرة : فأنغض المقوقس رأسه وقال : أنتم فى اللعب ، ثم قال : كيف نسبه فى قومه؟ قلنا : هو أوسطهم نسباً . قال : كذلك والمسيح ، الأنبياء تبعث فى نسب قومها ، ثم قال : فكيف صدق حديثه ؟ قال : قلنا : ما يسمى إلا الأمين من صدقه ، قال : انظروا فى أمركم أترونه يصدق فيما بينكم و بينه ويكذب على الله . قال : فمن تبعه ؟ قلنا : الأحداث . قال : هم والمسيح أتباع الأنبياء قبله . قال : فما فعلت يهود يثرب فهم أهل التوراة ؟ قلنا : خالفوه فأوقع بهم فقتلهم وسباهم وتفرقوا فى كل ناحية . قال : هم قوم حسدة حسدوه ، أما إنهم يعرفون من أمره مثل ما نعرف ؟ قال المغيرة : فقمنا من عنده وقد سمعنا كلاماً ذللنا لمحمد صلى الله عليه وسلم وخضعنا له ، وقلنا : ملوك العجم يصدقونه و يخافونه فى بعد أرحامهم منه ، ونحن أقرباؤه وجيرانه ولم ندخل معه ، وقد جاءنا داعياً إلى منازلنا قال المغيرة : فرجعت إلى منزلنا فأقمت بالإسكندرية لاأدع كنيسة إلا دخلتها وسألت أساقفتها من قبطها وروميا عما يجدون من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان أسقف من القبط هو رأس كنيسة يوحنس ، كانوا يأتونه بمرضاهم فيدعو لهم لم أرقط أشد اجتهادا منه فأتيته فقلت : هل بقى أحد من الأنبياء ؟ قال : نعم ، هو آخر الأنبياء ليس بينه و بين عيسى بن مريم أحد ، وهو نبى مرسل وقد أمرنا عيسى باتباعه ، وهو النبى الأمى العربى اسمه أحمد ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، فى عينيه حمرة ، وليس بالأبيض ولا بالأدم ، يعفى شعره ، و يلبس ما غلظ من الثياب ، و يجتزى بما لقى من الطعام ، سيفه على عاتقه ، ولا يبالى بمن لاقى ، يباشر القتال بنفسه ، ومعه أصحابه يفدونه بأنفسهم ، هم له أشد حباً من أولادهم وآبائهم ، يخرجهم من أرض حرم و يأتى إلى حرم ، يهاجر إلى أرض سباخ ونخل ، يدين بدين إبراهيم عليه السلام . قال المغيرة : فقلت له : زدنى فى صفته . قال : يأتزر على وسطه ، و يغسل أطرافه ، و يخص بما لا تخص به الأنبياء قبله ، وكان النبى يبعث إلى قومه ،

و يبعث هو إلى الناس كافة ، وجعلت له الأرض مسجداً وطهوراً ، أينما أدركته الصلاة تيمم وصلى ، ومن كان قبله كان مشدداً عليهم لا يصلون إلا فى الكنائس والبيع . قال المغيرة بن شعبة : فوعيت ذلك كله من قوله وقول غيره ، وما سمعت من ذلك .

فذكر الواقدى حديثاً طويلا فى رجوعه وإسلامه ، وما أخبر به من صفات النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك مما يعجب النبي صلى الله عليه وسلم ، و يحب أن يسمعه أصحابه . قال المغيرة : فكنت أحدثهم بذلك ، وهذا أمر معروف عند علماء أهل الكتاب وعظمائهم .

وقد أخرج أبو حاتم فى صحيحه عن عمرو بن العاص أنه قال : خرج جيش من المسلمين — أنا أميرهم — حتى نزلنا الإسكندرية ، فقال عظيم من عظمائهم : أخرجوا إلى رجلا يكلمنى وأكلمه . فقلت : لا يخرج إليه غيرى . قال ، فخرجت إليه ومعى ترجمانى ومعه ترجمانه . فقال : ما أنتم ؟ فقلت : نحن العرب ، ونحن أهل الشوك ، ونحن أهل بيت الله الحرام ، كنا أضيق الناس أرضاً ، وأجهدهم عيشاً ، نأكل الميتة والدم ، ويغير بعضنا على بعض ، حتى خرج فينا رجل ليس بأعظمنا يومئذ ، ولا بأكثرنا مالا ، فقال : أنا رسول الله إليكم ، فأمرنا بما لا نعرف ، ونهانا عما كنا عليه ، وكان عليه آباؤنا ، فكذبناه ، ورددنا عليه مقالته ، حتى خرج إليه قوم غيرنا ، فقاتلنا وظهر علينا : وغلبنا وتناول من يليه من العرب فقاتلهم حتى ظهر عليهم ولو يعلم من ورائى من العرب ما أنتم فيه من العيش لم يبق أحد إلا جاءكم حتى يشرككم فيما أنتم فيه من العيش فضحك ، ثم قال : إن رسولكم قد صدق ، قد جاءتنا رسلنا بمثل الذى جاء به رسولكم ، فإن أنتم أخذتم بأمر نبيكم لم يقاتلكم أحد إلا غلبتموه ، ولن يشارككم أحد إلا ظهرتم عليه ، وإن فعلتم مثل الذى فعلنا وتركتم أمر نبيكم ، لم تكونوا أكثر عدداً منا ولا أشد منا قوة .

فصل

ثم بعد الإرسال إلى الملوك ، أخذ صلى الله عليه وسلم فى غزو النصارى ، فأرسل أولا زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة فى جيش ، فقاتلوا النصارى بمؤتة من أرض الكرك وقال لأصحابه : « أميركم زيد ، فإن قتل ، فجعفر ، فإن قتل ، فعبد الله بن رواحة ، فقتل الثلاثة ، وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل الثلاثة فى اليوم الذى قتلوا فيه ، وأخبر أنه أخذ الراية خالد بن الوليد ، ففتح الله على يديه ، ثم إنه بعد هذا غزا النصارى بنفسه وأمر جميع المسلمين أن يخرجوا معه فى الغزاة ، ولم يأذن فى التخلف عنه لأحد ، وغزا فى عشرات ألوف غزوة تبوك ، فقدم تبوك ، وأقام بها عشرين ليلة ليغزو النصارى ، عربهم وروميهم وغيرهم ، وأقام ينتظرهم ليقاتلهم فسمعوا به وأحجموا عن قتاله ، ولم يقدموا عليه ، وأنزل الله تعالى فى ذلك أكثر سورة براءة ، وذم تعالى الذين تخلفوا عن جهاد النصارى ذماً عظيما ، والذين لم يروا جهادهم طاعة جعلهم منافقين كافرين ، لا يغفر الله لهم إذا لم يتوبوا ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴾ ، [سورة المنافقون : ٦] .

وقال تعالى : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾ ، [سورة التوبة : ٨٤] .

فإذا كان هذا حكم الله ورسوله فيمن تخلف عن جهادهم إذ لم يره طاعة ولا يراه واجباً ، فكيف حكمه فيهم أنفسهم ؟ حتى قال تعالى : ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٤] .

ثم عند موته صلى الله عليه وسلم أمرنا بإخراج اليهود والنصارى من جزيرة

العرب ، ففى صحيح مسلم أن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما » .

وروى الإمام أحمد ، وأبو عبيد عن أبى عبيدة بن الجراح ـ رضى الله عنه ـ قال : آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أخرجوا يهود أهل الحجاز ، ونصارى أهل نجران من جزيرة العرب » وقام خلفاؤه ـ رضى الله عنهم ـ بعده بدينه صلى الله عليه وسلم ، فأرسل أبو بكر الصديق الجيوش لغزو النصارى بالشام ، وجرت بين المسلمين وبينهم عدة غزوات ، ومات أبو بكر وهم محاصروا دمشق . ثم ولى عمر بن الخطاب ففتح عامة الشام ومصر والعراق و بعض خراسان فى خلافته ، وقدم إلى الشام فى خلافته ، وسلم إليه النصارى بيت المقدس لما رأوه من صفته عندهم .

قال أبو عبدالله محمد بن عائذ . فى كتاب الفتوح قال : قال عطاء الخراسانى: لما نزل المسلمون بيت المقدس قال لهم رؤساؤهم : إنا قد أجمعنا لمصالحتكم وقد عرفتم منزل بيت المقدس . و إنه المسجد الذى أسرى بنبيكم إليه ونحن نحب أن يفتحها ملككم — وكان الخليفة عمر بن الخطاب — فبعث المسلمون وفداً ، وبعث الروم أيضاً وفداً مع المسلمين حتى أوتوا المدينة ، فجعلوا يسألون عن أمير المؤمنين ، فقال الروم لترجمانهم: عمن يسألون ؟ قالوا : عن أمير المؤمنين، فاشتد عجبهم وقالوا : هذا الذى غلب فارس والروم ، وأخذ كنوز كسرى وقيصر ، وليس له مكان يعرف به بهذا غلب الأمم ، فوجدوه قد ألقى نفسه حين أصابه الحر نائما ، فازدادوا تعجباً ، فلما قرأ كتاب أبى عبيدة أقبل حتى نزل بيت المقدس وفيها اثنى عشر ألفا من الروم وخمسون ألفًا من أهل الأرض فصالحهم ، وكان من جملة المصالحة أن لا يدخل عليهم من اليهود أحـــد ، ثم دخل المسجد فوجد زبالة عظيمة على الصخرة ، فأمر بتكنس الزبالة ، وتنظيف المسجد وأمر ببنائه وجعل مصلاه فى مقدمه ،

ثم رجع إلى المدينة ، وقصته مشهورة فى كتاب الفتوحات ، ثم قدم مرة ثانية إلى أرض الشام لما تم فتحه فشارط بوضع الخراج ، وفرض الأموال ، وشارط أهل الذمة على شروط المسلمين فأتم بها المسلمون بعده .

وقد ذكرها أهل السير وغيرهم ، فروى سفيان الثورى عن مسروق عن عبد الرحمن بن غنم قال : كتبت لعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ حين صالح نصارى الشام وشرط عليهم فيه أن لا يحدثوا فى مدينتهم ولا ما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ، ولا يجددوا ماخرب ، ولا يمنعوا كنائسهم أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم ، ولايؤووا جاسوساً ، ولا يكتموا غشاً للمسلمين ، ولا يعلموا أولادهم القرآن ، ولا يظهروا شركا ، ولا يمنعوا ذوى قرابتهم من الإسلام إن أرادوه ، وأن يوقروا المسلمين ، وأن يقيموا لهم إذا أرادوا الجلوس ، ولا يتشبهوا بالمسلمين بشىء من لباسهم فى قلنسوة ولا عمامة ، ولا نعلين ، ولا فرق شعر ، ولا يتسموا بأسماء المسلمين ، ولا يكتنوا بكناهم ، ولا يركبوا سرجاً ، ولا يتقلدوا سيفاً ، ولا يتخذوا شيئاً من سلاح ، ولا ينقشوا خواتيمهم بالعربية ، ولا يبيعوا الخمور ، وأن يجزوا مقادم رؤوسهم ، وأن يلزموا زيهم حيث ما كانوا ، وأن يشدوا الزنانير ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم ، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضربا خفياً ، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة فى كنائسهم فى شىء من حضرة المسلمين ، ولا يخرجوا سعانين ولا يرفعوا مع موتاهم أصواتهم ، ولا يظهروا النيران معهم ، ولا يشتروا من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين ، فإن خالفوا فى شىء مما شرطوه ، فلا ذمة لهم وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل المعاندة والشقاق أخرجه أبو داوود فى سننه .

وقال أبو عبيدة فى كتاب الأموال : حدثنا النضر بن إسماعيل عن عبد الرحمن ابن إسحق عن خليفة بن قيس قال : كان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يأمر فأ كتب إلى أهل الأمصار فى أهل الكتاب أن يجزوا نواصيهم ، وأن

يربطوا الكستنجات فى أوساطهم لعرف زيهم من زى أهل الكتاب .

وحدثنا أبو المنذر ، ومصعب بن المقدام كلاهما عن سفيان عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن أسلم قال : كتب عمر إلى أمراء الأجناد أن يختموا رقاب أهل الذمة.

قال أبو عبيد : حدثنا عبد الرحمن عن عبد الله بن عمر عن نافع عن أسلم أن عمر أمر أهل الذمة أن يجزوا نواصيهم ، وأن يركبوا على الأكف ، وأن يركبوا عرضاً لا يركبوا كما يركب المسلمون ، وأن يوثقوا المناطق .

قال أبو عبيد : يعنى الزنانير .

ولما كتب عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ أهل الذمة هذه الشروط والتزموها ، أوصى بهم نوابه ومن يأتى بعده من الخلفاء وغيرهم ، وهذا هو العدل الذى أمر الله به ورسوله .

ففى صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب أنه قال فى خطبته عند وفاته : وأوصى الخليفة من بعدى بذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم ، وهذا امتثال لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه من حقه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه يوم القيامة » رواه أبو داود .

فكان هذا فى النصارى الذين أدوا إليه الجزية .

عمر بن الخطاب لما فتح الشام وأدوا إليه الجزية عن يد وهم صاغرون ، أسلم منهم خلق كثير لا تحصى عددهم إلا تبارك وتعالى ، فإن العامة والفلاحين وغيرهم كان عامتهم نصارى ، ولم يكن فى المسلمين من يعمل فلاحة ولم يكن للمسلمين فى دمشق مسجد يصلون فيه إلا مسجد واحد لقلتهم ، ثم صار أكثر أهل الشام وغيرهم مسلمين طوعاً لا كرها ، فإن إكراه أهل الذمة على الإسلام غير جائز ، كما قال الله تعالى : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله

سميع عليم * الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٦ ، ٢٥٧] .

قال أبو عبيد فى كتاب الأموال عن ابن الزبير قال : كتب النبى صلى الله عليه وسلم إلى أهل اليمن أنه من أسلم من يهودى أو نصرانى ، فإنه من المؤمنين ، له مالهم وعليه ما عليهم ، ومن كان على يهودية أو نصرانية ، فإنه لا يفتن عنها وعليه الجزية .

فصل

وقاتل عمر بن الخطاب الفرس المجوس ، وفتح أرضهم ، وظهر تصديق خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله عز وجل » أخرجاه فى الصحيحين .

وهذا ، بعد أن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسوله إلى المجوس ، وكتب كتابا إلى كسرى ملك الفرس ، كما كتب إلى ملوك النصارى كما تقدم عن قيصر والمقوقس ، ولكن ملوك النصارى تأدبوا معه وخضعوا له فبقى ملكهم وأما ملك الفرس فمزق كتابه فدعا عليهم فقال : « اللهم مزق ملكهم كل ممزق » فلم يبق لهم ملك .

قال ابن عباس : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة بكتابه إلى كسرى يدفعه إلى عظيم البحرين ، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى ، فلما قرأه – يعنى كسرى – مزقه فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمزقوا كل ممزق .

وقال ابن إسحاق : كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر ، فأما كسرى : فلما قرأ الكتاب مزقه ، وأما قيصر : فلما قرأ الكتاب طواه

ووضعه عنده ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أما هؤلاء - يعني كسرى - فيمزقون ، وأما هؤلاء ، فستكون لهم بقية » .

قال ابن إسحاق : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة ابن قيس السهمى إلى كسرى بن هرمز ملك الفرس وكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، آمن بالله ورسوله ، واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فإنى أدعوك بدعاية الله ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة ؛ لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلم وإن أبيت ، فإن إثم المجوسية عليك » .

فلما قرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شققه وقال : يكتب إلى بهذا الكتاب وهو عبدى ؟ .

قلت : وسبب قول كسرى هذا واستعلائه : أن الحبشة كانوا قد ملكوا اليمن ، وملكهم سار إلى مكة بالفيل ليخرب البيت وكانوا نصارى ، فأرسل الله عليهم من ناحية البحر طيراً أبابيل ، وهى جماعات فى تفرقة ، تحمل حجارة من طين ، فألقتها على الحبشة النصارى فأهلكتهم ، وكان هذا آية عظيمة خضعت بها الأمم للبيت وجيران البيت ، وعلم العقلاء أن هذا لم يكن نصراً من الله لمشركى العرب ، فإن دين النصارى خير من دينهم ، وإنما كان نصراً للبيت وللأمة المسلمة التى تعظمه وللنبي المبعوث من البيت ، وكان ذلك عام مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله فى ذلك : ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم فى تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول﴾ ، [سورة الفيل] .

ثم إن سيف بن ذى يزن ذهب إلى كسرى ، وطلب منه جيشاً يغزو به الحبشة ، فأرسل معه عسكراً من الفرس المجوس ، فأخرجوا الحبشة من اليمن ،

وصارت اليمن بيد العرب ، وبها نائب كسرى ، وسيف بن ذى يزن هذا ، ممن بشر بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره ، وأخبر بذلك جده عبد المطلب لما وفد عليه .

فلما كانت اليمن مطيعة لكسرى ، لهذا أرسل إلى نائبه باليمن أن يأتيه بالنبى صلى الله عليه وسلم ؛ لأن عسكر اليمن فى العادة يقهر أهل مكة والمدينة .

قال ابن إسحاق : فبلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مزق الله ملكه » حين بلغه أنه شقق كتابه .

ثم كتب كسرى إلى باذان ، وهو على اليمن أن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز من عندك رجلين جلدين فليأتيانى به . قال : فبعث باذان قهرمانه ، وهو بانويه . وقال غيره : فيروز الديلمى — وكان حاسباً كاتباً — وبعث معه برجل من الفرس ، وكتب معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، وقال لبانويه : ويلك ، انظر ما الرجل وكلمه وائتنى بخبره .

قال : فخرجا حتى قدما إلى الطائف ، فسألا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : هو بالمدينة واستبشروا — يعنى الكفار — وقالوا : قد نصب له كسرى كفيتم الرجل ، فخرجا حتى قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمه بانويه ؛ فقال : إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وقد بعثنى إليك فانطلق معى ، فإن فعلت كتبت معك إلى ملك الملوك بكتاب ينفعك ويكف عنك به ، وإن أبيت فهو من قد علمت وهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك ، وكانا قد دخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانا قد حلقا لحاهما ، وأبقيا شواربهما ، فكره النظر إليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال لهما : « ويلكما من أمركما بهذا ؟ قالا : أمرنا بهذا ربنا — يعنيان كسرى — فقال لهما رسول الله صلى الله

عليه وسلم : لـكن ربى عز وجل أمرنى بإعفاء لحيتى و بقص شاربى ، ثم قال لهما : ارجعا حتى تأتيانى الغد » .

قال : وجاء الخبر من السماء ، أن الله عز وجل سلط على كسرى ولده شيرويه ، فقتله فى شهر كذا ، فى ليلة كذا ، فى ساعة كذا ؛ فلما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما : « إن ربى قتل ربكما ليلة كذا ، فى شهر كذا ، بعد ما مضى من الليل كذا ، سلط عليه ابنه شيرويه فقتله ، فقالا له : هل تدرى ما تقول ؟ إنا قد نقمنا منك ما هو أيسر من هذا فنكتب بهذا عنك ، ونخبر الملك به . قال : نعم ، أخبراه ذلك عنى وقولا له : إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى ، وينتهى إلى منتهى الخف والحافر ، وقولا له : إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك ، وملكتك على قومك من الأبناء » ، وأعطى رفيقه منطقة من ذهب وفضة ، كان أهداها له بعض الملوك ، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان وأخبراه الخبر

فقال : والله ما هـذا بكلام ملك ، وإنى لأرى الرجل نبياً كما يقول ، ولننظرن ما قد قال ، فلئن كان ماقد قال حقاً ما بقى فيه كلام إنه لنبى مرسل ، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا ، فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه .

أما بعد ، فإنى قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس لما كان قد استحل من قتل أشرافهم وتجهيزهم فى بعوثهم ، فإذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعة ممن قبلك ، وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب إليك فيه ، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه . فلما انتهى الكتاب — كتاب شيرويه — إلى باذان قال : إن هذا الرجل لرسول الله ، وأسلم لله وأسلمت أبناء فارس من كان منهم باليمن .

وقال أبو معشر : حدثنى المقبرى قال : جاء فيروز الديلمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال إن كسرى كتب إلى باذان : بلغنى أن فى أرضك

رجلا تنبأ تنبؤًا فاربطه وابعث به إلى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن ربى غضب على ربك فقتله فدمه بنحره سخن الساعة » فخرج من عنده فسمع الخبر فأسلم وحسن إسلامه ، وكان رجلا صالحاً ، له فى الإسلام آثار جميلة منها : قتل الأسود العنسى الكذاب ، الذى ادعى النبوة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الأسود جباراً ، استدعى بأبى مسلم الخولانى فقال له : أتشهد أنى رسول الله ؟ فقال أبو مسلم : ما أسمع ! فقال له : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم ، فردد ذلك عليه مراراً ، فأمر بنار عظيمة فأضرمت ، ثم أمر بإلقاء أبى مسلم فيها فلم تضره ، فأخمدها الله تعالى حين ألقى فيها ، فقيل له : أخرج هذا عنك من أرضك لئلا يفسد عليك أتباعك » فأخرجه .

فقدم أبو مسلم المدينة وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستخلف أبو بكر ، فأناخ راحلته بباب المسجد ، ثم دخل المسجد فقام يصلى إلى سارية فبصر به عمر فقام إليه ، ممن الرجل ؟ قال : من أهل اليمن ، قال : ما فعل الذى حرقه الكذاب ؟ قال : ذلك عبد الله بن ثوب . قال نشدتك بالله أنت هو ؟ قال : اللهم نعم ، فاعتنقه ثم بكى ، ثم ذهب به حتى أجلسه بينه وبين أبى بكر ، فقال : الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الرحمن ، ثم خرج فيروز الديلمى على الأسود العنسى فقتله ، وجاء الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله وهو فى مرض موته ، فخرج فأخبر أصحابه بذلك ، وقال : « قتل الأسود العنسى الليلة قتله رجل صالح من قوم صالحين » وقصته مشهورة . وكذلك قصة مسيلمة الكذاب ، ونحوها من المتنبئين الكذابين .

فصل

ولما فتح خلفاء النبى صلى الله عليه وسلم : عمر وعثمان العراق وخراسان ضربوا الجزية على المجوس ، كما ضربوها على النصارى بعد أن دعوهم إلى الإسلام ، كما

دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما ضرب النبى صلى الله عليه وسلم الجزية على اليهود والنصارى والمجوس بعد أن دعاهم إلى الله عز وجل ، فإنه صلى الله عليه وسلم بعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن سارى العبدى صاحب هجر - وهى قرية بالبحرين - بكتابه صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام ، قال العلاء : فلما دخلت عليه قلت : يا منذر ، إنك عظيم العقل فى الدنيا ، فلا تصغرن عن الآخرة ، فإن هذه المجوسية شر دين ، ليس فيها تكرم العرب ولا علم أهل الكتاب ينكحون ما يستحى من نكاحه ، ويأكلون ما تكرم عن أكله ، ويعبدون فى الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة . ولست بعديم عقل ولا رأى ، فانظر هل ينبغى لمن لا يكذب أن تصدقه ؟ ولمن لا يخون أن تأمنه ؟ ولمن لا يخلف أن تثق به ؟ فإن كان هذا . هكذا فهذا هو النبى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمى الذى والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمره به نهى عنه ، وما نهى عنه أمر به ، أوليته زاد فى عفوه ، أو نقص من عقابه ، إن كل ذلك منه على أمنية أهل العقل وفكر أهل البصر .

فقال المنذر : قد نظرت فى هذا الذى فى يدى ، فوجدته للدنيا دون الآخرة ، ونظرت فى دينكم فوجدته للآخرة والدنيا ، فما يمنعنى من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الممات ، ولقد عجبت أمس ممن يقبله ، وعجبت اليوم ممن يرده ، وإن من إعظام ما جاء به أن يعظم رسوله ، وسأنظر ، ثم أسلم المنذر وكتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم بالإسلام والتصديق .

وقال عمر بن عوف : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة إلى البحرين فأتى بجزيتها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمى فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الصبح مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما صلى بهم الفجر انصرف فتعرضوا له ، فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم حين

رآهم وقال: « أظنكم قدسمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء ، قالوا :أجل يارسول الله، «قال : فأبشروا وأملوا ما يسركم ، فوالله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم » أخرجاه في الصحيحين .

وأخرج البخارى عن بجالة بن عبدة أنه قال : أتانا كتاب عمر بن الخطاب قبل موته بسنة : (فرقوا بين كل ذى محرم من المجوس) ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس ، حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها من مجوس هجر .

وقال ابن شهاب : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس هجر ، وأخذ عمر بن الخطاب الجزية من مجوس فارس ، وأخذها عثمان بن عفان من البربر .

قال ابن شهاب : أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب أهل نجران فيما بلغنا ، وكانوا نصارى،وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من أهل البحرين وكانوا مجوساً ، ثم أدى أهل (أيله) وأهل (أذرح) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية فى غزوة تبوك ، وبعث خالد بن الوليد إلى أهل دومة الجندل فأسروا رئيسهم (أكيدر) فبايعوه على الجزية .

قال أبو عبيد : الجزية مأخوذة من أهل الكتاب بالتنزيل ، ومن المجوس والبربر وغيرهم بالسنة .

فصل

وأخرج مسلم عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وقيصر والنجاشى وإلى كل جبار ، يدعوهم إلى الله عز وجل ـ وليس بالنجاشى الذى نعاه لأصحابه فى اليوم الذى مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصف وصلى عليه ـ بل نجاشى آخر تملك بعده .

وأخرج مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلت إلى الناس كافة ، وختم بى النبيون » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة و بعثت إلى الناس عامة » .

وقال تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض ﴾ ، [سورة الأعراف ١٥٨] .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ ، [سورة سبأ : ٢٨] .

وفى القرآن من دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ومن دعوة المشركين وعباد الأوثان ، وجميع الإنس والجن ما لا يحصى إلا بكلفة ، وهذا كله معلوم بالاضطرار من دين الإسلام ، فكيف يقال : إنه لم يذكر أنه بعث إلا إلى العرب خاصة وهذه دعوته ورسله وجهاده لليهود والنصارى والمجوس بعد المشركين وهذه سيرته صلى الله عليه وسلم فيهم ؟ .

وأيضاً فالكتاب المتواتر عنه — وهو القرآن — يذكر فيه دعاءه لأهل الكتاب إلى الإيمان به فى مواضع كثيرة جداً ، بل يذكر الله تبارك وتعالى فيه كفر من كفر من اليهود والنصارى ، ويأمر فيه بقتالهم كقوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ ، [سورة المائدة : ١٧] .

وقوله فى هذه السورة أيضاً : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح

ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون * قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم * قل يا أهل الكتاب لا تغلو فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٢ ـ ٧٧] .

وقال تعالى فى سورة النساء : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١ ـ ١٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن

الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ٭ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ٭ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ ، [سورة التوبة ٣٠ ـ ٣٢] .

فصل

فهذه الدلائل وأضعافها مما تبين أنه نفسه صلى الله عليه وسلم أخبر أنه رسول الله إلى النصارى وغيرهم من أهل الكتاب ، وأنه دعاهم وجاهدهم وأمر بدعوتهم وجهادهم ، وليس هذا مما فعلته أمته بعده بدعة ابتدعوها ، كما فعلت النصارى بعد المسيح عليه السلام ، فإن المسلمين لا يجوزون لأحد بعد محمد صلى الله عليه وسلم أن يغير شيئاً من شريعته ، فلا يحلل ما حرم ؛ ولا يحرم ما حلل ، ولا يوجب ما أسقط ؛ ولا يسقط ما أوجب ، بل الحلال عندهم ما حلله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله ، بخلاف النصارى الذين ابتدعوا بعد المسيح بدعاً لم يشرعها المسيح عليه السلام ولا نطق بها شيء من الأناجيل ولا كتب الأنبياء المتقدمة ، وزعموا أن ما شرعه أكابرهم من الدين ، فإن المسيح يمضيه لهم ، وهذا موضع تنازع فيه الملل الثلاث : المسلمون ، واليهود ، والنصارى ، كما تنازعوا فى المسيح عليه السلام وغير ذلك .

فاليهود : لا يجوزون لله سبحانه وتعالى أن ينسخ شيئاً شرعه .

والنصارى : يجوزون لأكابرهم أن ينسخوا شرع الله بآرائهم .

وأما المسلمون . فعندهم أن الله له الخلق والأمر ، لا شرع إلا ما شرعه الله على ألسنة رسله ، وله أن ينسخ ما شاء كما نسخ بالمسيح ما كان شرعه للأنبياء قبله ، فالنصارى تضع لهم عقائدهم وشرائعهم أكابرهم بعد المسيح كما وضع لهم الثلاث

مائة وثمانية عشر الذين كانوا فى زمن قسطنطين الملك الأمانة التى اتفقوا عليها ولعنوا من خالفها من الأريوسية وغيرهم ، وفيها أمور لم ينزل الله بها كتاباً ، بل تخالف ما أنزله الله من الكتب مع مخالفتها للعقل الصريح ، فقالوا فيها : [نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل خالق السموات والأرض كل ما يرى ومالا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور نور من نور الله ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق مساوى الأب فى الجوهر الذى به كان كل شىء الذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، ومن مريم العذراء وتانس وصلب على عهد بيلاطس البنطى وتألم وقبر ، وقام فى اليوم الثالث كما فى الكتب وصعد إلى السماء ، وجلس عن يمين الأب ، وأيضاً فسيأتى بمجده ليدين الأحياء والأموات الذى لا فناء لملكه ، وبروح القدس الرب المحى المنبثق من الأب مع الأب والابن مسجود له وممجد الناطق فى الأنبياء ، واعتقد بكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية ، واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ، وارجا قيامة الموتى وحياة الدهر الآتى آمين] ، ووضعوا لهم من القوانين والناموس ما لم يوجد فى كتب الأنبياء ولا تدل عليه ، بل يوجد بعضه فى كتب الأنبياء ، وزاد أكابرهم أشياء من عندهم لا توجد فى كتب الأنبياء ، وغيروا كثيراً مما شرعه الأنبياء ، فما عند النصارى من القوانين والنواميس التى هى شرائع دينهم ، فبعضه منقول عن الأنبياء ، وبعضه عن الحواريين ، وكثير منه من ابتداع أكابرهم مع مخالفته لشرع الأنبياء ، فدينهم من جنس دين اليهود ، قد لبسوا الحق بالباطل ، وكان المسيح عليه السلام بعث بدين الله الذى بعث به الأنبياء قبله ، وهو عبادة الله وحده لاشريك له ، والنهى عن عبادة كل ما سواه ، وأحل لهم بعض ما حرمه الله فى التوراة ، فنسخ بعض شرع التوراة ، وكان الروم واليونان وغيرهم مشركين يعبدون الهياكل العلوية والأصنام الأرضية فبعث المسيح عليه السلام رسله

يدعونهم إلى دين الله تعالى ، فذهب بعضهم فى حياته فى الأرض ، وبعضهم بعد رفعه إلى السماء ، فدعاهم إلى دين الله تعالى ، فدخل من دخل فى دين الله ، وأقاموا على ذلك مدة ، ثم زين الشيطان لمن زين له أن يغير دين المسيح ، فابتدعوا دينا مركبا من دين الله ورسله ، دين المسيح عليه السلام ، ومن دين المشركين ، وكان المشركون يعبدون الأصنام المجسدة التى لها ظل ، وهذا كان دين الروم واليونان ، وهو دين الفلاسفة أهل مقدونية وأثينته كأرسطو وأمثاله من الفلاسفة المشائين وغيرهم ، وكان أرسطو قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة ، وهو وزير الإسكندر بن فيلبس اليونانى المقدونى التى تؤرخ له التاريخ الرومى من اليهود والنصارى ، وهذا كان مشركا يعبد هو وقومه الأصنام ، ولم يكن يسمى ذا القرنين ، ولا هو ذا القرنين المذكور فى القرآن ، ولا وصل هذا المقدونى إلى أرض الترك ولا بنى السد ، وإنما وصل إلى بلاد الفرس ، ومن ظن أن أرسطو كان وزير ذى القرنين المذكور فى القرآن ، فقد غلط غلطاً يتبين أنه ليس بعارف بأديان هؤلاء القوم ولا بأزمانهم ، فلما ظهر دين المسيح عليه السلام بعد أرسطو بنحو ثلاثمائة سنة فى بلاد الروم واليونان ، كانوا على التوحيد إلى أن ظهرت فيهم البدع ، فصوروا الصور المرقومة فى الحيطان ــ جعلوا هذه الصور عوضا عن تلك الصور ــ وكان أولئك يسجدون للشمس والقمر والكواكب ، فصار هؤلاء يسجدون إليها إلى جهة المشرق التى تظهر منها الشس والقمر والكواكب . وجعلوا السجود إليها بدلا عن السجود لها ، ولهذا جاء خاتم الرسل ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ الذى ختم الله به الرسالة ، وأظهر به من كمال التوحيد ما لم يظهره من قبله ، فأمر صلى الله عليه وسلم أن لا يتحرى أحد بصلاته طلوع الشمس ولا غروبها ؛ لأن المشركين يسجدون لها تلك الساعة ، فإذا صلى الموحدون لله عز وجل فى تلك الساعة ؛ صار فى ذلك نوع مشابهة لهم ، فيتخذ ذريعة إلى السجود لها ، وكان من أعظم أسباب عبادة الأصنام تصوير الصور وتعظيم القبور .

ففى صحيح مسلم وغيره عن أبى الهياج الأسدى قال : قال لى على بن أبى طالب « ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرنى أن لا أدع قبراً مشرفاً إلا سويته ، ولا تمثالا إلا طمسته » .

وفى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال فى مرض موته : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا .

وفى الصحيحين أنه قال قبل موته بخمس ليال : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ،وإنى أنهاكم عن ذلك».

ولما ذكروا له الكنيسة بأرض الحبشة وذكروا من حسنها وتصاوير فيها. فقال : « إن أولئك كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجداً وصوروا تلك التصاوير ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

ونهى أن يستقبل الرجل القبر فى الصلاة حتى لا يتشبه بالمشركين الذين يسجدون للقبور ، ففى الصحيح أنه قال : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » إلى أمثال ذلك مما فيه تجريد التوحيد لله رب العالمين ، الذى أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله . فأين هذا ممن يصور صور المخلوقين فى الكنائس ويعظمها ويستشفع بمن صورت على صورته ، وهل كان أصل عبادة الأصنام فى بنى آدم من عهد نوح عليه السلام إلا هذا ! والصلاة إلى الشمس والقمر والكواكب والسجود إليها ذريعة إلى السجود لها ، ولم يأمر أحد من الأنبياء باتخاذ الصور والاستشفاع بأصحابها ، ولا بالسجود إلى الشمس والقمر والكواكب ، وإن كان يذكر عن بعض الأنبياء تصوير صورة لمصلحة ، فإن هذا من الأمور التى قد تتنوع فيها الشرائع بخلاف السجود لها والاستشفاع بأصحابها ، فإن هذا لم يشرعه نبى من الأنبياء ، ولا أمر قط أحد من الأنبياء أن يدعى غير الله عز وجل،لا عند قبره ولا فى مغيبه ، ولا يتشفع به فى مغيبه بعد موته بخلاف الاستشفاع بالنبى صلى الله عليه وسلم فى حياته ويوم القيامه ، وبالتوسل به بدعائه والإيمان به ،

فهذا من شرع الأنبياء عليهم السلام ، ولهـذا قال تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ ، [سورة الزخرف : ٤٥] .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ، [سورة يونس : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين * ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار * لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ ، سورة الزمر : ١ ــ ٤] .

وذلك أن المشركين من جميع الأمم لم يكن أحد منهم يقول : إن للمخلوقات خالقين منفصلين متماثلين فى الصفات ، فإن هذا لم تقله طائفة معروفة من بنى آدم ولكن الثنوية من المجوس ونحوهم يقولون : إن العالم صادر عن أصلين : النور والظلمة ، والنور عندهم:هو إله الخير المحمود، والظلمة : هى الإله الشرير المذموم.

وبعضهم يقول : إن الظلمة هى الشيطان، وهذا ليجعلوا ما فى العالم من الشر صادراً عن الظلمة .

ومنهم من قال : إن الظلمة قديمة أزلية مع أنها مذمومة عندهم ليست مماثلة للنور .

ومنهم من قال : بل هي حادثة ، وأن النور فكرة رديئة فحدثت الظلمة عن تلك الفكرة الرديئة .

فقال لهم أهل التوحيد : أنتم بزعمكم كرهتم أن تضيفوا إلى الرب سبحانه وتعالى خالق ما فى العالم من الشر ، وجعلتموه خالقاً لأصل الشر ، وهؤلاء مع إثباتهم اثنين وتسمية الناس لهم بالثنوية ، فهم لا يقولون . إن الشر مماثل للخير .

وكذلك الدهرية دهرية الفلاسفة وغيرهم ، منهم من ينكر الصانع للعالم ، كالقول الذى أظهره فرعون لعنه الله ، ومنهم من يقر بعلة بتحرك الفلك للتشبه بها كأرسطو وأتباعه ، ومنهم من يقول بالموجب بالذات المستلزم للفلك كابن سينا والسهروردى المقتول بحلب وأمثالها من متفلسفة الملل .

وأما مشركو العرب وأمثالهم فكانوا مقرين بالصانع ، و بأنه خالق السموات والأرض ، فكانت عقيدة مشركى العرب خيراً من عقيدة هؤلاء الفلاسفة الدهرية ؛ إذ كانوا مقرين بأن هذه السموات مخلوقة لله حادثة بعد أن لم تكن ، وهذا مذهب جماهير أهل الأرض من أهل الملل الثلاثة : المسلمين ، واليهود ، والنصارى ، ومن المجوس والمشركين وهؤلاء الدهرية من الفلاسفة وغيرهم يزعمون أن السموات أزلية قديمة لم تزل ، وكان مشركو العرب يقرون بأن الله قادر يفعل بمشيئته ويجيب دعاء الداعى إذا دعاه ، وهؤلاء المتفلسفة الدهرية عندهم أن الله لا يفعل شيئاً بمشيئته ، ولا يجيب دعاء الداعى ، بل ولا يعلم الجزئيات ، ولا يعرف هذا الداعى من هذا الداعى ، ولا يعرف إبراهيم من موسى من محمد وغيرهم بأعيانهم من رسله ، بل منهم من ينكر علمه مطلقاً كأرسطو وأتباعه ، ومنهم من يقول : إنما يعلم الكليات كابن سينا وأمثاله .

ومعلوم : أن كل موجود فى الخارج فهو جزء معين ، فإن لم يعلم الا الكليات لم يعلم شيئاً من الموجودات المعينة لا الأفلاك ولا الأملاك ولا غير ذلك من الموجودات بأعيانها ، والدعاء عندهم : هو تصرف النفس القوية فى هيولى العالم كما ذكر ذلك ابن سينا وأمثاله ، وزعموا أن اللوح المحفوظ: هوالنفس الفلكية ، وأن حوادث الأرض كلها إنما تحدث عن حركة الفلك ، كما قد بسط الرد عليهم فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن المشركين لم يكونوا يثبتون مع الله إلهاً آخر مساويا له فى الصفات والأفعال ، بل ولا كانوا يقولون: إن الكواكب والشمس والقمر خلقت العالم ، ولا أن الأصنام تخلق شيئاً من العالم ، ومن ظن أن قوم إبراهيم الخليل كانوا يعتقدون أن النجم أو الشمس أو القمر رب العالمين ، أو أن الخليل عليه السلام لما قال : « هذا ربى » ، أراد به رب العالم ، فقد غلط غلطاً بيناً ، بل قوم إبراهيم كانوا مقرين بالصانع ، وكانوا يشركون بعبادته كأمثالهم من المشركين

قال الله تعالى عن الخليل : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين * رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين * واجعل لى لسان صدق فى الآخرين * واجعلنى من ورثة جنة النعيم * واغفر لأبى إنه كان من الضالين * ولا تخزنى يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم * وأزلفت الجنة للمتقين * وبرزت الجحيم للغاوين * وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون * من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون * فكبكبوا فيها هم

والغاوون * وجنود إبليس أجمعون * قالوا وهم فيها يختصمون * تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين * وما أضلنا إلا المجرمون * فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم ﴾ ، [سورة الشعراء : ٦٩ ـ ١٠١] .

فأخبر تعالى عن الخليل أنه عدو لكل ما يعبدونه إلا لرب العالمين ، وأخبر عنهم أنهم يقولون يوم القيامة : تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم ـ يعنى آلهتهم ـ برب العالمين ، فلم يكونوا جاحدين للصانع ، بل عدلوا به وجعلوا له أنداداً فى العبادة والمحبة والدعاء ، كما قال تعالى فى الموضع الآخر : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ﴾ . [سورة الزخرف : ٢٦ ـ ٢٧] .

ولهذا قال . وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين ، ولم يقل : من المعطلين ، فإن قومه كانوا يشركون ولم يكونوا معطلين كفرعون اللعين ، فلم يكونوا جاحدين للصانع ، بل عدلوا به وجعلوا له أنداداً فى العبادة والمحبة والدعاء ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ ، [سورة الأنعام : ١] .

وقال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ ، [سورة البقرة : ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ ، [سورة الفرقان : ٦٨] .

وقال تعالى : ﴿ فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢١٣] .

وقال تعالى : ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولا ﴾ ، [سورة الإسراء : ٢٢] .

وقال تعالى فيما حكاه عن قوم نوح : ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن

وداً ولا سواعاً ، ولا يغوث ويعوق ونسراً * وقد أضلوا كثيراً ﴾ ، [سورة نوح : ٢٣ ، ٢٤] .

قال ابن عباس وغيره من العلماء : هؤلاء كانوا قوماً صالحين فى قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوها ، وهكذا عند النصارى عن المسيح عليه السلام فى كتاب سر بطرس الذى يسمى بشمعون ، وسمعان ، والصفا ، وبطرس ، والأربعة لمسمى واحد عندهم عنه كتاب عن المسيح فيه أسرار العلوم ، وهذا فيه عندهم عن المسيح ، فالذى تفعله النصارى أصل عبادة الأوثان ، وهكذا قال عالمهم الكبير الذى يسمونه فم الذهب — وهو من أكبر علمائهم — لما ذكر تولد الذنوب الكبار عن الصغار . قال : وهكذا هجمت عبادة الأصنام فيما سلف لما أكرم الناس أشخاصاً يعظم بعضهم بعضاً فوق المقدار الذى ينبغى ، الأحياء منهم والأموات .

وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ ، [سورة الإسراء : ٥٦ ، ٥٧] .

قالت طائفة من العلماء : كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعزير والمسيح وغيرهما ، فبين الله تبارك وتعالى : أن هؤلاء عباده كما أنتم عباده ، يرجون رحمته كما ترجون رحمته ، ويخافون عذابه ، كما تخافون عذابه ، ويتقربون إليه كما تتقربون إليه ، وقال تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] .

فبين الله تعالى : أن من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فهو كافر مع اعتقاده أنهم مخلوقون ، فإنه لم يقل أحد قط : إن جميع الملائكة والنبيين مشاركون لله سبحانه وتعالى فى خلق العالم ، وقد قال تعالى : ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ ، [سورة يوسف : ١٠٦] .

قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : تسألهم من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون . الله ، وهم يعبدون غيره ، وقد قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ ، [سورة لقمان : ٢٥] . فى غير موضع فأخبر تعالى عن المشركين أنهم كانوا يقرون بأن خالق العالم واحد مع اتخاذهم آلهة يعبدونهم من دونه سبحانه يتخذونهم شفعاء إليه أو يتقربون بهم إليه .

فصل

وكذلك تعظيمهم للصليب ، واستحلالهم لحم الخنزير ، وتعبدهم بالرهبانية، وامتناعهم من الختان ، وتركهم طهارة الحدث والخبث ، فلا يوجبون غسل جنابة ولا وضوء ، ولا يوجبون اجتناب شيء من الخبائث فى صلاتهم لا عذرة ولا بولا ولا غير ذلك من الخبائث إلى غير ذلك، كلها شرائع أحدثوها وابتدعوها بعد المسيح عليه السلام ، ودان بها أئمتهم وجمهورهم ، ولعنوا من خالفهم فيها ، حتى صار المتمسك فيهم بدين المسيح المحض مغلوباً مقموعاً قبل أن يبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأكثر ما هم عليه من الشرائع والدين لا يوجد منصوصاً عن المسيح عليه السلام

وأما المسلمون : فكل ما أجمعوا عليه إجماعاً ظاهراً يعرفه العامة والخاصة فهو منقول عن نبيهم صلى الله عليه وسلم ، لم يحدث ذلك أحد بعده لا باجتهاده ولا بغير اجتهاده ، بل ما قطعنا بإجماع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه يوجد مأخوذاً عن نبيهم .

وأما ما يظن فيه إجماعهم ولا يقطع به ، فمنه ما يكون ذلك الظن خطأ ويكون بينهم فيه نزاع ، ثم قد يكون نص الرسول صلى الله عليه وسلم مع هذا القول ، وقد يكون مع هذا القول ، ومنه ما يكون ظن الإجماع عليه صوابا ، ويكون فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أثر خفيت دلالته أو معرفته على بعض الناس ، وذلك أن الله تبارك وتعالى أكمل الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وبينه وبلغه البلاغ المبين ، فلا تحتاج أمته إلى أحد بعده يغير شيئاً من دينه ، وإنما تحتاج إلى معرفة دينه الذى بعث به فقط ، وأمته لا تجتمع على ضلالة ، بل لا يزال فى أمته طائفة قائمة بالحق حتى تقوم الساعة ، فإن الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فأظهره بالحجة والبيان ، وأظهره باليد والسنان . ولا يزال فى أمته أمة ظاهرة بهذا وهذا حتى تقوم الساعة .

والمقصود هنا : أن ما أجمعت عليه الأمة إجماعاً ظاهراً تعرفه العامة والخاصة ، فهو منقول عن نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ونحن لا نشهد بالعصمة إلا لمجموع الأمة ، وأما كثير من طوائف الأمة ، ففيهم بدع مخالفة للرسول ، وبعضها من جنس بدع اليهود والنصارى ، وفيهم فجور ومعاصى ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم برىء من ذلك ، كما قال تعالى له . ﴿ فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢١٦] .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٥٩] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من رغب عن سنتى فليس منى » وذلك مثل إجماعهم على أن محمداً صلى الله عليه وسلم أرسل إلى جميع الأمم ـ أهل الكتاب وغير أهل الكتاب ـ فإن هذا تلقوه عن نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وهو منقول عندهم نقلا متواتراً يعلمونه بالضرورة ، وكذلك إجماعهم على استقبال الكعبة البيت الحرام فى صلاتهم ، فإن هذا الإجماع منهم على ذلك مستند إلى النقل

المتواتر عن نبيهم وهو مذكور فى كتابهم ، وكذلك الإجماع على وجوب الصلوات الخمس ، وصوم شهر رمضان ، وحج البيت العتيق الذى بناه إبراهيم خليل الرحمن ودعا الناس إلى حجه وحجته الأنبياء حتى حجه موسى بن عمران ويونس بن متى وغيرهما ، وإجماعهم على وجوب الاغتسال من الجنابة ، وتحريم الخبائث ، وإيجاب الطهارة للصلاة ، فإن هذا كله مما نقلوه عن نبيهم ، وهو منقول عنه صلى الله عليه وسلم نقلا متواتراً ، وهو مذكور فى القرآن .

وأما النصارى فليست الصلوات التى يصلونها منقولة عن المسيح عليه السلام ، ولا الصوم الذى يصومونه منقولا عن المسيح ، بل جعل أولهم الصوم أربعين يوماً ، ثم زادوا فيه عشرة أيام ونقلوه إلى الربيع ، وليس هذا منقولا عندهم عن المسيح عليه السلام ، وكذلك حجهم لقمامه ، وبيت لحم ، وكنيسه صيدنايا ، ليس شىء من ذلك منقولا عن المسيح عليه السلام ، بل وكذلك عامة أعيادهم مثل عيد القلندس ، وعيد الميلاد ، وعيد الغطاس ـ وهو القداس ـ وعيد الخميس ، وعيد الصليب الذى جعلوه فى وقت ظهور الصليب ؛ لما أظهرته هيلانة الحرانية الفندقانية أم قسطنطين بعد المسيح عليه السلام بمائتين من السنين ، وعيد الخميس والجمعة والسبت التى فى آخر صومهم ، وغير ذلك من أعيادهم التى رتبوها على أحوال المسيح ، والأعياد التى ابتدعوها لكبرائهم ، فإن ذلك كله من بدعهم التى ابتدعوها بلا كتاب نزل من الله تعالى ، بل هم يبنون الكنائس على اسم بعض من يعظمونه ، كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أنهم إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك التصاوير أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامه » وهذا بخلاف المساجد التى تبنى لله عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ ، [سورة الجن : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿فى بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ ، [سورة النور : ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾ ، [سورة الأعراف : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ ، [سورة التوبة : ١٨] . والنصارى كأشباههم من المشركين يخشون غير الله ويدعون غير الله .

فصل

والمقصود هنا : أن الذى يدين به المسلمون من أن محمداً صلى الله عليه وسلم بعث رسولا إلى الثقلين : الإنس والجن أهل الكتاب وغيرهم ، وأن من لم يؤمن به فهو كافر مستحق لعذاب الله مستحق للجهاد ، وهو مما أجمع أهل الإيمان بالله ورسوله عليه؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى جاء بذلك وذكره الله فى كتابه وبينه الرسول أيضاً فى الحكمة المنزلة عليه من غير الكتاب ، فإنه تعالى أنزل عليه الكتاب والحكمة ، ولم يبتدع المسلمون شيئاً من ذلك من تلقاء أنفسهم ، كما ابتدعت النصارى كثيراً من دينهم ، بل أكثر دينهم ، و بدلوا دين المسيح وغيروه ، ولهذا كان كفر النصارى لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم مثل كفر اليهود لما بعث المسيح عليه السلام ، فإن اليهود كانوا قد بدلوا شرع التوراة قبل مجىء المسيح فكفروا بذلك، ولما بعث المسيح إليهم كذبوه فصاروا كفاراً بتبديل معانى الكتاب الأول وأحكامه ، وبتكذيب الكتاب الثانى ، وكذلك النصارى كانوا قد بدلوا دين المسيح قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فابتدعوا من التثليث والاتحاد وتغيير شرائع الإنجيل أشياء لم يبعث بها المسيح عليه السلام ، بل تخالف ما بعث به ، وافترقوا فى ذلك فرقا متعددة وكفَّر فيها بعضهم بعضاً ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كذبوه ، فصاروا

كفاراً بتبديل معانى الكتاب الأول وأحكامه ، وتكذيب الكتاب الثانى ، كما يقول علماء المسلمين : إن دينهم مبدل منسوخ ، وإن كان قليل من النصارى كانوا عند مبعث محمد صلى الله عليه وسلم متمسكين بدين المسيح ، كما كان الذين لم يبدلوا دين المسيح كله على الحق ، فهذا : كما أن من كان متبعاً شرع التوراة عند مبعث المسيح كان متمسكاً بالحق كسائر من اتبع موسى فلما بعث المسيح صار كل من لم يؤمن به كافراً ، وكذلك لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم صار كل من لم يؤمن به كافراً .

والمقصود فى هذا المقام : بيان ما بعث به محمد صلى الله عليه وسلم من عموم رسالته ، وأنه هو نفسه الذى أخبر أن الله تعالى أرسله إلى أهل الكتاب وغيرهم ، وأنه نفسه صلى الله عليه وسلم دعا أهل الكتاب وجاهدهم وأمر بجهادهم ، فمن قال بعد هذا من أهل الكتاب ـ واليهود والنصارى ـ : إنه لم يبعث إلينا بمعنى أنه لم يقل : إنه مبعوث إلينا ، كان مكابراً جاحداً للضرورة مفترياً على الرسول فرية ظاهرة تعرفها الخاصة والعامة ، وكان جحده لها كما لو جحد أنه جاء بالقرآن ، أو شرع الصلوات الخمس ، وصوم رمضان ، وحج البيت الحرام ، وجحد محمد صلى الله عليه وسلم وما تواتر عنه أعظم من جحد أتباع الحواريين للمسيح عليه السلام ، وإرساله لهم إلى الأمم ، ومجيئه بالإنجيل ، وجحد مجىء موسى عليه السلام بالتوراة ، وجحد أنه كان يسبت ، فإن النقل عن محمد صلى الله عليه وسلم مدته قريبة ، والناقلون عنه أضعاف أضعاف أضعاف من نقل دين المسيح عنه ، وأضعاف أضعاف أضعاف من اتصل به نقل دين موسى عليه السلام ، فإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ما زالوا كثيرين منتشرين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وما زال فيهم من هو ظاهر بالدين منصور على الأعداء ، بخلاف بنى إسرائيل ، فإنهم زال ملكهم فى أثناء المدة لما خرب بيت القدس الخراب الأول

بعد داود عليه السلام ، ونقص عدد من نقل دينهم حتى قد قيل : إنه لم يبق من يحفظ التوراة إلا واحد .

والمسيح عليه السلام لم ينقل دينه عنه إلا عدد قليل ، ولكن النصارى يزعمون أنهم رسل الله معصومون مثل : إبراهيم وموسى ، وسيأتى الكلام على هذا إن شاء الله تعالى إذا وصلنا إليه ، إذ المقصود هنا بيان من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يقول : إنه لم يبعث إلا إلى مشركى العرب ، فإنه فى غاية الجهل والضلال ، أو غاية المكابرة والمعاندة ، فإن هذا أعظم جهلا وعناداً ممن ينكر أنه كان يأمر بالطهارة ، والغسل من الجنابة ، ويحرم الخمر والخنزير ، وأعظم جهلا وعناداً ممن ينكر ما تواتر من أمر المسيح وموسى عليهما السلام ، وقد ظهر بهذا بطلان قولهم : علمنا أنه لم يأت إلينا بل إلى جاهلية العرب .

فصل

فإذا عرف هذا فاحتجاج هؤلاء بالآيات التى ظنوا دلالتها على نبوته خاصة بالعرب ، تدل على أنهم ليسوا ممن يجوز لهم الاستدلال بكلام أحد على مقصوده ومراده ، وأنهم ممن قيل فيه : ﴿ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ ، [سوره النساء : ٧٨] . فليسوا أهلا أن يحتجوا بالتوراة والإنجيل والزبور على مراد الأنبياء ، وسائر الكلام المنقول عن الأنبياء على مراد الأنبيا ـ عليهم السلام ـ بل ولا يحتجون بكلام الأطباء ، والفلاسفة ، والنحاة ، وعلم أهل الحساب ، والهيئة ، على مقاصدهم ، فإن الناس كلهم متفقون على أن لغة العرب من أفصح لغات الآدميين وأصحها ، ومتفقون على أن القرآن فى أعلا درجات البيان ، والبلاغة ، والفصاحة ، وفى القرآن من الدلالات الكثيرة على مقصود الرسول صلى الله عليه وسلم التى يذكر فيها : أن الله تعالى أرسله إلى أهل الكتاب

وغيرهم مالا يحصى إلا بكلفة ثم مع ذلك من النقول المتواترة عن سيرته صلى الله عليه وسلم فى دعائه لأهل الكتاب ، وأمره لهم بالإيمان به ، وجهاده لهم إذ كفروا به مالا يخفى على من له أدنى خبرة بسيرته صلى الله عليه وسلم ، وهذا أمر قد امتلأ العالم به وسمعه القاضى والدانى ، فإذا كان الناس ـ المؤمن به وغير المؤمن به ـ يعلمون أنه كان يقول : إنه رسول الله إلى أهل الكتاب وغيرهم ، وأن ظهور مقصوده بذلك مما يعلمه بالاضطرار الخاصة والعامة ، ثم شرعوا يظنون أنه كان يقول : إنى لم أبعث إلا إلى العرب واستمر على ذلك حتى مات، دل على فساد نظرهم وعقلهم أو على عنادهم ومكابرتهم ، وكان الواجب إذا لم يكن لهم معرفة بمعانى هذه الآيات التى استدلوا بها على خصوص رسالته ، أن يعتقدوا أحد أمرين .

إما أن لها معانى توافق ما كان يقوله . أو أنها من المنسوخ ، فقد علمت الخاصة والعامة أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يصلى بعد هجرته إلى بيت المقدس نحو سنة ونصف ، ثم أمر بالصلاة إلى الكعبة البيت الحرام ، والنصارى يوافقون على أن شرائع الأنبياء فيها ناسخ ومنسوخ ، مع أن ما ذكروه من الآيات ليس منسوخاً ، ولكن المقصود : أن المعلوم من حال الرسول صلى الله عليه وسلم علماً ضرورياً يقينيا متواتراً لا يجوز دفعه ، فإن العلم بأنه كان يقول : إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جميع الخلق معلوم لكل من عرف أخباره صلى الله عليه وسلم ، سواء صدقه أو كذبه، والعلم بأنه كان يقول : إنه رسول الله إلى جميع الناس ممكن قبل أن يعلم أنه نبى أو ليس بنبى ، كما أن العلم بنبوته وصدقه ممكن قبل يعلم عموم رسالته ، فليس العلم بأحدهما موقوفاً على الآخر ، ولهذا كان كثير ممن يكذبه يعلم أنه كان يقول . إنه رسول الله إلى جميع الخلق، وطائفة ممن يقر بنبوته وصدقه لا تقر بأنه رسول إلى جميع الخلق .

والمقصود هنا : الكلام مع هؤلاء بأن العلم بعموم دعوته لجميع الخلق ـ أهل الكتاب وغيرهم ـ هو متواتر معلوم بالاضطرار ، كالعلم بنفس مبعثه ، ودعائه الخلق إلى الإيمان به وطاعته ، وكالعلم بهجرته من مكة إلى المدينة ، ومجيئه بهذا القرآن، والصلوات الخمس ، وصوم شهر رمضان، وحج البيت العتيق، وإيجاب الصدق والعدل ، وتحريم الظلم والفواحش ، وغير ذلك مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

فإن قيل : بل فى القرآن مايقتضى أن رسالته خاصة وفيه ما يقتضى أن رسالته عامة وهذا تناقض .

قيل : هذا يعلم بطلانه قبل العلم بنبوته ، فإنه من المعلوم لكل أحد آمن به أو كذبه ، أنه كان من أعظم الناس عقلا وسياسة وخبرة ، وكان مقصوده : دعوة الخلق إلى طاعته واتباعه ، وكان يقرأ القرآن على جميع الناس ، ويأمر بتبليغه إلى جميع الأمم ، وكل من طلب منه أنه يؤمنه حتى يقرأ عليه القرآن من الكفار وجب عليه أن يجيبه ولو كان مشركا ، فكيف إذا كان كتابياً كما قال تعالى : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ ، [سورة التوبة : ٦] .

وكان قد أظهر أنه مبعوث إلى أهل الكتاب وسائر الخلق ، وأنه رسول الله إلى الثقلين : الجن والإنس ، فيمتنع مع هذا أن يظهر ما يدل على أنه لم يبعث إليهم ، فإن هذا لايفعله من له أدنى عقل لمناقضته لمراده ، فكيف يفعله مثل هذا الذى اتفقت عقلاء الأمم على أنه أعقل الخلق وأحسنهم سياسة وشريعة ؟

وأيضا فكان أصحابه والمقاتلون معه لعدوه ينفرون عنه ، وقد كان عادتهم أن يستشكلوا ما هو دون هذا ، وهذا لم يستشكله أحد ، ثم بعد هذا : فلو قدر أن فى القرآن ما يدل على أنه لم يبعث إلا إلى العرب وفيه مايدل على أنه بعث إلى سائر الخلق ، كان هذا دليلا على أنه أرسل إلى غيرهم بعد أن لم يرسل إلا

إليهم ، وأن الله عم بدعوته بعد أن كانت خاصة فلا مناقضة بين هذا وهذا ، فكيف وليس فى القرآن آية واحدة تدل على اختصاص رسالته بالعرب ؟ وإنما فيه إثبات رسالته إليهم ، كما أن فيه إثبات رسالته إلى قريش ، وليس هذا مناقضا لهذا ، وفيه إثبات رسالته إلى أهل الكتاب ، كقوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب آمنوا بما أنزلنا ﴾ كما فيه إثبات رسالته إلى بنى إسرائيل كقوله : ﴿ يابنى إسرائيل ﴾ ليس هذا التخصيص لليهود منافياً لذلك التعميم وفى رسالته خطاب لليهود تارة وللنصارى تارة ، وليس خطاب لإحدى الطائفتين ودعوته لها مناقضا لخطابه للأخرى ودعوته لها ، وفى كتابه خطاب للذين آمنوا من أمته فى دعوته لهم إلى شرائع دينه ، وليس فى ذلك مناقضة بأن يخاطب أهل الكتاب ويدعوهم وفى كتابه أمر بقتال أهل الكتاب النصارى حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

قال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] .

ثم لم يكن هذا مانعاً أن يأمر بقتال غيرهم من اليهود والمجوس حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، بل هذا الحكم ثابت فى المجوس بسنته واتفاق أمته .

وإن قيل إنهم ليسوا من أهل الكتاب ، فهذا كله مما يعلم بالاضطرار من دينه قبل العلم بنبوته ، فكيف ونحن نتكلم على تقدير نبوته والنبى لا يتناقض قوله ؟ وإذا كان العلم بعموم دعوته ورسالته معلوماً بالاضطرار قبل العلم بنبوته وبعد العلم بنبوته ، فالعلم الضرورى اليقينى لا يعارضه شىء ، ولكن هذا شأن الذين فى قلوبهم زيغ من أهل البدع النصارى وغيرهم يتبعون المتشابه ويدعون المحكم ؟ وبسبب مناظرة النصارى للنبى صلى الله عليه وسلم

بالمتشابه وعدولهم عن المحكم أنزل الله تبارك وتعالى فيهم : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذّكر إلا أولوا الألباب ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧] .

فالتأويل : يراد به تفسير القرآن ، ومعرفة معانيه ، وهذا يعلمه الراسخون ويراد به ما استأثر الرب بعلمه من معرفة وكنه معرفة ما وعد به ووقت الساعة ، ونحو ذلك مما لا يعلمه إلا الله :

والضلال : يذكرون آيات تشتبه عليهم معرفةمعانيها،فيتبعون تأويلها ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلها ، وليسوا من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويلها ، مع أن هذه الآيات التى ذكروها من أوضح الآيات وهذا الذى سلكوه فى القرآن هو نظير ما سلكوه فى الكتب المتقدمة وكلام الأنبياء من التوراة والإنجيل والزبور وغيرها ، فإن فيها من النصوص الكثيرة الصريحة بتوحيد الله وعبودية المسيح مالا يحصى إلا بكلفة ، وفيها كلمات قليلة فيها اشتباه فتمسكوا بالقليل المتشابه الخفى المشكل من الكتب المتقدمة ، وتركوا الكثير المحكم المبين الواضح فهم سلكوا فى القرآن ما سلكوه فى الكتب المتقدمة ، لكن تلك الكتب يقرون بنبوة أصحابها ومحمد صلى الله عليه وسلم هم فيه مضطربون متناقضون ، فأى قول قالوه فيه ، ظهر فساده وكذبهم فيه إذا لم يؤمنوا بجميع ما أنزل إليه ، وإن قالوا : كلامه متناقض ونحن نحتج بما يوافق قولنا ، إذا مقصودنا بيان تناقضه . قيل لهم عن هذا أجوبة .

أحدها : أنه فى الكتب المتقدمة مما يظن أنه متعارض أضعاف ما فى القرآن وأقرب إلى التناقض ، فإذا كانت تلك الكتب متفقة لا تناقض فيها وإنما يظن تناقضها من يجهل معانيها ومراد الرسل فيكون كما قيل :

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

فكيف القرآن الذى هو أفضل الكتب ؟

الثانى : أنهم متمسكون بالمتشابه فى تلك الكتب ومخالفون المحكم منها كما فعلوه بالقرآن وأبلغ .

الثالث : أنه إذا كان ما جاء به متناقضا لم يكن رسول الله ، فإن ما جاء به من عند الله لا يكون مختلفا متناقضاً ، وإنما يتناقض ما جاء به من غير الله ، قال تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً ﴾ ، [سورة النساء : ٨٢] ، فكل كتاب ليس من عند الله لابد أن يكون فيه تناقض ، وما كان من عند الله لا يتناقض ، وحينئذ فإن كل متناقضاً لم يجز لهم الاحتجاج بشىء منه ، فإنه ليس من عند الله ، وإن لم يكن متناقضاً ثبت أن ما فيه من عموم رسالته ، وأنه رسول إليهم ليس فيه شىء يناقضه ، فإن ما جاء من عند الله لا يتناقض :

الرابع : أنا نبين أن ما فيه من عموم رسالته لا ينافى ما فيه من أنه أرسل إلى العرب ، كما أن ما فيه من إنذار عشيرته الأقربين ، وأمر قريش لا ينافى ما فيه من دعوة سائر العرب ، فإن تخصيص بعض العام بالذكر إذا كان له سبب يقتضى التخصيص لم يدل على أن ما سوى المذكور مخالفة ، وهذا الذى يسمى مفهوم المخالفة ودليل الخطاب ، والناس كلهم متفقون على أن التخصيص بالذكر متى كان له سبب يوجب الذكر غير الاختصاص بالحكم لم يكن لاسم اللقب مفهوم بل ولا للصفة ، كقوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ [سورة الإسراء : ٣١] . فإنه نهاهم عن ذلك ؛ لأنه هو الذى كانوا يفعلونه ، وقد حرم فى مواضع أخر قتل النفس بغير حق ، سواء كان ولداً أو غيره ، ولم يكن ذلك مناقضاً لتخصيص الولد بالذكر .

الخامس : أنه فى ذلك أسوة بالمسيح عليه السلام ، فإن المسيح خص أولا

بالدعوة ، ثم عم ، كما قال فى الإنجيل : [ما بعثت وأرسلت إلا لبنى إسرائيل] وقال أيضاً فى الإنجيل : [ما بعثت إلا لهذا الشعب الخبيث] ثم عم فقال لتلاميذه حين أرسلهم كما فى الإنجيل [كما بعثنى أبى أبعث بكم فمن قبلكم فقد قبلنى] وقال: [قد أرسلنى أبى وأنا أرسلكم] وقال : [كما أفعل أنا بكم كذلك افعلوا أنتم بعباد الله ، فسيروا فى البلاد ، وعمدوا الناس بإسم الأب والإبن وروح القدس ، ولا يكون لأحدكم ثوبان ، ولا يحمل معه فضة ولا ذهباً ، ولا عصا ولا حرابة] ونحو ذلك مما هو فى الأناجيل التى بين أيديهم من تخصيص الدعوة ثم تعميمها، وهو صادق فى ذلك كله ، فكيف يسوغ لهم إنكار ما فى الإنجيل عن المسيح نظيره ؟ ثم يقال فى بيان الحال : إن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم ، كما بعث المسيح وغيره ، وإن كانت رسالته أكمل وأشمل كما يذكر فى موضعه، فأمره بتبليغ رسالته بحسب الإمكان إلى طائفة بعد طائفة ، وأمر بتبليغ الأقرب منه مكاناً ونسباً ، ثم بتبليغ طائفة بعد طائفة حتى تبلغ النذارة إلى جميع أهل الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٩] — أى من بلغه القرآن — فكل من بلغه القرآن فقد أنذره محمد صلى الله عليه وسلم ، وتبين هنا أن النذارة ليست مختصة بمن شافههم بالخطاب ، بل ينذرهم به ، و ينذر من بلغهم القرآن ، فأمره الله تبارك وتعالى أولا بإنذار عشيرته الأقربين وهم قريش ، فقال تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢١٤] . ولما أنزل الله عليه هذه الآية انطلق صلى الله عليه وسلم إلى مكان عال فعلا عليه ، ثم جعل ينادى : «يابنى عبد مناف: إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، إنما مثلى ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشى أن يسبقوه ، فجعل يهتف : ياصباحاه ياصباحاه ».

وهذه القصة رواها ابن عباس وأبو هريرة وعائشة وغيرهم - رضى الله عنهم - فى الصحيحين وغيرهما من كتب السنة والمسانيد والتفسير

قال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ورهطك منهم المخلصين[(1)] خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا، فجعل ينادى : «يابنى فهر ، يابنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ماهو ، فاجتمعوا إليه فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ، ماجربنا عليك إلا صدقاً ، ما جربنا عليك كذباً . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

وقال أبو هريرة : لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فاجتمعوا ، فعم وخص ، فقال : « يابنى كعب ابن لؤى : أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى مرة بن كعب : أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد شمس : أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبد مناف : أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى عبدالمطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد : أنقذى نفسك من النار . فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها » .

وقالت عائشة — رضى الله عنها — لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا فقال : « يا فاطمة بنت محمد ، ياصفية عمة رسول الله ، ياعباس عم رسول الله : لا أملك لكم من الله شيئاً » .

وقال ابن إسحاق : لما نزلت هذه الآية جعل النبى صلى الله عليه وسلم ينادى: « يابنى عبد المطلب ، يابنى عبد مناف ، يابنى زهرة — حتى عدد الأفخاذ من قريش — ثم قال : إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الله شيئاً ، إلا أن تقولوا لا إله إلا الله » . فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا؟

---

(١) ليست فى التلاوة .

تباً لك سائر اليوم ، فأنزل الله ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى نارا ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * فى جيدها حبل من مسد ﴾ ، [سورة المسد] .

ودعا قريشاً إلى الله وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وأنزل الله تعالى: ﴿ لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ [سورة قريش : ١ ـ ٣] .

وقد أنزل الله عليه فى غير موضع أمر جميع الخلق بعبادته ، كقوله تعالى ﴿ يأيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ ، [سورة البقرة : ٢١] وقوله : ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾ ، [سورة الذاريات : ٥٦] . وقريش هم قومه الذين كذبه جمهورهم أولا كما قال تعالى : ﴿ وكذب به قومك وهو الحق ﴾ ، [سورة الأنعام : ٦٦] .

كما أن جمهور بنى إسرائيل وهم قوم المسيح كذبوه أولا . ثم أمره الله تعالى أن يدعو سائر العرب ، فكان يخرج بنفسه ومعه أبو بكر صديقه إلى قبائل العرب قبيلة قبيلة ، وكانت العرب لم تزل تحج البيت من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام ، فكان صلى الله عليه وسلم يأتيهم فى منازلهم بمنى وعكاظ ومجنة وذى المجاز ، فلا يجد أحداً إلا دعاه إلى الله ، ويقول : « يأيها الناس إنى رسول الله إليكم ، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما يعبد من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقونى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به ، يا أيها الناس إن قريشاً منعونى أن أبلغ كلام ربى . فمن يمنعنى أن أبلغ كلام ربى إلا رجلا يحملنى إلى قومه فإن قريشاً منعونى أن أبلغ كلام ربى ، يأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وتملكوا بها العرب ، وتذل لكم بها العجم ، فيقولون : يامحمد أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن أمرك هذا لعجب » ومازال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن دعوته ، ويظهر رسالته ، ويدعو الخلق

إليها : وهم يؤذونه ويجادلونه ويكلمونه ويردون عليه بأقبح الرد وهو صابر على أذاهم ، ويقول : « اللهم لك الحمد لو شئت لم يكونوا هكذا » فلما اشتد عليه أمر قريش خرج إلى الطائف ـ وهي مدينة معروفة شرقي مكة بينهما نحو ليلتين ـ ومعه زيد بن حارثة ومكث بها عشرة أيام ، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه في منزله وكلمه ودعاه إلى التوحيد : فلم يجبه أحد منهم ، وخافوه على أحداثهم ؛ فأغروا سفهاءهم، فجعلوا يرمونه بالحجارة إذا مشى ؛ حتى إن رجليه لتدميان وزيد مولاه يقيه بنفسه ، حتى ألجأوه إلى ظل كرمة في حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة فرجع عنه ما كان من سفهائهم ، فدعا فقال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن ينزل بي غضبك ، أو يحل عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » . فلما رأى ابنا ربيعة ماصنع به رثيا له وقالا لغلام لهما يقال له عداس وكان نصرانياً : خذ قطفاً من عنب ثم اجعله في طبق ثم اذهب إلى ذلك الرجل يأكله ، ففعل عداس وأقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده قال : بسم الله ثم أكل فنظر عداس إلى وجهه ثم قال له : والله إن هذا الكلام مايقوله أهل هذه البلدة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أي البلاد أنت وما دينك ؟ فقال عداس: أنا نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فقال له عداس : وما يدريك مايونس ابن متى ، والله لقد خرجت من نينوى ومافيها عشرة يعرفون متى ، من أين عرفت أنت متى وأنت أمي وفي أمة أمية ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو :

أخى ، كان نبياً وأنا نبى » فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه ورجليه ، فلما رجع عداس قالا له : ويلك ياعداس ، ومالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه ورجليه ، فقال : ياسيدى ما فى الأرض خير من هذا الرجل ، لقد خبرنى بأمر لايعلمه إلا نبى . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف راجعاً إلى مكة وهو محزون ، إذ لم يستجب له رجل واحد ولا إمرأة . فقال له زيد بن حارثه : كيف تدخل عليهم يارسول الله وقد فعلوا وفعلوا؟ فقال : « يازيد إن الله عز وجل جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه » ثم ذكر ابن إسحاق دخوله إلى مكة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما لقى من أهل مكة والطائف لما لقى ، ودعا بالدعاء المتقدم نزل عليه جبريل ومعه ملك الجبال كما فى صحيح البخارى : أن عائشة رضى الله عنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم أشد من أحد ؟ فقال : « لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبه إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرب الثعالب ، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة وقد أظلتنى فنظرت ، فإذا فيها جبريل فنادانى : إن الله قد سمع قول قومك وماردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم قال : فنادانى ملك الجبال وسلم على ثم قال يامحمد : إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال ، وقد بعثنى ربى إليك لتأمرنى بأمرك إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين . فقال النبى صلى الله عليه وسلم . بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له » .

وأخرج مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة : أنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم ادع الله على المشركين . فقال : « إنى لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة » .

وفى الصحيحين عن خباب بن الأرت أنه قال : لما اشتد البلاء علينا من

المشركين أتينا النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا : ألا تدعوا الله لنا ؟ ألا تستنصر الله لنا ؟ فقال : «لقد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض ، ثم يجاء بالمنشار فيجعل فوق رأسه حتى يجعل فرقتين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ؛ وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله ، ولكنكم تستعجلون » . وذكر ما لقى النبى صلى الله عليه وسلم من قومه من الأذى والاستهزاء والإغراء وهو صابر محتسب ، مظهر لأمر الله بتبليغ رسالته لاتأخذه فى الله لومة لائم ، مواجهة لقومه بما يكرهون من عيب دينهم وآلهتهم، وتضليل آبائهم ، وتسفيه أحلامهم، وإظهار عدواته وقتاله إياهم مابلغ مبلغ القطع.

قال عكرمة عن ابن عباس : ولما رجع النبى صلى الله عليه وسلم إلى مكة فلما حضر الموسم حج نفرمن الأنصار ، فانتهى النبى صلى الله عليه وسلم إلى فريق منهم، فقرأ عليه القرآن ، ودعاهم إلى الله ، وأخبرهم بالذى آتاه الله فأيقنوا واطمأنت قلوبهم إلى دعوته ، وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من ذكرهم إياه بصفته ، ومايدعوهم إليه فصدقوه وآمنوا به ، وكان من أسباب الخير الذى ساق الله للأنصار إلى ما كانوا يسمعون من الأخبار فى صفته ، فلما رجعوا إلى قومهم جعلوا يدعونهم سراً ويخبرونهم بأقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذى بعثه الله به من النور والهدى والقرآن ، فأسلموا حتى قل دور من دورهم إلا أسلم فيها ناس لا محالة ، وقد ذكر الله ذلك فى القرآن وأخبر أن أهل الكتاب كانوا يخبرون به العرب ويستفتحون به عليهم ؛ فكان أهل الكتاب مقرين بنبوته مخبرين بها مبشرين بها قبل أن يبعث فقال تعالى فيما يخاطب به أهل الكتاب: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون * وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله

بكفرهم فقليلا ما يؤمنون *ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين * بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين * وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ، قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ ﴾ ، [سورة البقرة : ٨٧ — ٩١] .

فقد أخبر تعالى أن أهل الكتاب كانوا يستفتحون على العرب بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث ، أى يستنصرون به ، وكانوا هم والعرب يقتتلون فتغلبهم العرب ، فيقولون : سوف يبعث النبي الأمى من ولد إسماعيل فنتبعه ونقتلكم معه شر قتلة ، وكانوا ينعتونه بنعوته وأخبارهم بذلك كثيرة متواترة ، وكما قال تعالى : ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ ، [سورة البقرة : ٨٩] .

وأخبر بما كانت عليه اليهود من أنه كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا بعضهم وقتلوا بعضهم، وأخبر أنهم باءوا بغضب على غضب،فإنهم مازالوا يفعلون ما يغضب الله عليهم ، فإما أن يراد بالتثنية تأكيد غضب الله عليهم ، وإما أن يراد به مرتان فالغضب الأول : بتكذيبهم المسيح والإنجيل . والغضب الثانى : لمحمد والقرآن .

فصل

وكان يأتيهم بالآيات الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم ومعجزاته تزيد على ألف معجزة ، مثل انشقاق القمر وغيره من الآيات ، ومثل القرآن المعجز ، ومثل أخبار أهل الكتاب قبله و بشارة الأنبياء به ، ومثل أخبار الكهان والهواتف به ، ومثل قصة الفيل التى جعلها الله آية عام مولده وما جرى عام

مولده من العجائب الدالة على نبوته ، ومثل امتلاء السماء ورميها بالشهب التى ترجم بها الشياطين ، بخلاف ما كانت العادة عليه قبل مبعثه وبعد مبعثه ، ومثل إخباره بالغيوب التى لا يعلمها أحد بتعليم الله عز وجل ، ومن غير أن يعلمه إياها بشر ، فأخبرهم بالماضى مثل قصة آدم ونوح وإبراهيم وموسى والمسيح وهود وشعيب وصالح وغيرهم ، بالمستقبلات ، وكان قومه يعلمون أنه لم يتعلم من أهل الكتاب ولا غيرهم ، ولم يكن بمكة أحد من علماء أهل الكتاب ممن يتعلم هو منه ، بل ولا كان يجتمع بأحد منهم يعرف اللسان العربى ولا كان هو يحسن لسانا غير العربى ، ولا كان يكتب كتاباً ، ولا يقرأ كتاباً مكتوبا ، ولا سافر قبل نبوته إلا سفرتين سفرة وهو صغير مع عمه أبى طالب لم يفارقه ، ولا اجتمع بأحد من أهل الكتاب ولا غيرهم . وسفرة أخرى وهو كبير مع ركب من قريش لم يفارقهم ، ولا اجتمع بأحد من أهل الكتاب ، وأخبر من كان معه بإخبار أهل الكتاب بنبوته مثل إخبار بحيرى الراهب بنبوته ؛ وما ظهر لهم منه مما دلهم على نبوته ، ولهذا تزوجت به خديجة بنت خويلد قبل نبوته لما أخبرت به من أحواله . وهذه الأمور مبسوطة فى موضع آخر ، ولكن المقصود هنا التنبيه بأن محمداً صلى الله عليه وسلم له معجزات كثيرة ، مثل نبع الماء من بين أصابعه غير مرة ، ومثل تكثير الطعام القليل حتى أكل منه الخلق العظيم ، وتكثير الماء القليل حتى شرب منه الخلق الكثير ، وهذا قد جرى غير مرة له ولأمته من الآيات ما يطول وصفه فكان بعض أتباعه يحيى الله له الموتى من الناس والدواب ، و بعض أتباعه يمشى بالعسكر الكثير على البحر حتى يعبروا إلى الناحية الأخرى ، ومنهم من ألقى النار فصارت عليه بردا وسلاما ، وأمثال ذلك كثيرة ، ولكن المقصود هنا ذكر بعض ما فى القرآن من أنه كان يخبرهم بالأمور الماضية خبرا مفصلا لا يعلمه أحد إلا أن يكون نبياً أو من أخبره نبى ، وقومه يعلمون أنه لم يخبره بذلك أحد من البشر ، وهذا مما قامت به الحجة عليهم ،

وهم مع قوة عدواتهم له وحرصهم على ما يطعنون به عليه لم يمكنهم أن يطعنوا طعنا يقبل منهم ، وكان علم سائر الأمم بأن قومه المعادين له ، المجتهدين فى الطعن عليه ، وهم يمكنهم أن يقولوا : إن هذه الغيوب علمه إياها بشر يوجب على علم جميع الخلق أن هذا لم يعلمه إياها بشر ولهذا قال تعالى : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هـذا ﴾ ، [سورة هود : ٤٩] . فأخبر أنه لم يكن يعلم ذلك هو ولا قومه . وقومه تقر بذلك ولم يتعلم من أحد غير قومه ، ولهذا لما زعم بعضهم أنه تعلم من بشر ظهر كذبه لـكل أحد كما قال تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون * وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بمـا ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنو وهدى وبشرى للمسلمين * ولقد نعلم أنهم يقولون إنمـا يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين ﴾ [سورة النحل : ٩٨ ـ ١٠٣]

وكان بمكة رجل أعجمى مملوك لبعض قريش فادعى بعض الناس أن محمداً كان يتعلم من ذلك الرجل الأعجمى فبين الله أن هذا كذب ظاهر ، فإن ذلك رجل أعجمى لا يمكنه أن يتكلم بكلمة من هذا القرآن العربى ، ومحمد صلى الله عليه وسلم عربى لا يعرف شيئاً من ألسنة العجم ، فمن كلمه بغير العربية لا يفقه كلامه ، فلا ذلك الرجل يحسن التـكلم بالعربية ، ولا محمد صلى الله عليه وسلم يفهم كلاماً بغير العربية ، فلهذا قال تعالى : ﴿ لسان الذى يلحدون إليه ﴾ ، [سورة النحل : ١٠٣] . أى يميلون إليه ويضيفون إليه أنه علم محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ ، [سورة النحل : ١٠٣] . وكذلك

قال بعض الناس عن القرآن ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون﴾ [سورة الفرقان : ٤] . قال تعالى : ﴿ فقد جاءوا ظلماً وزوراً * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيما ﴾ ، [سورة الفرقان : ٤ ـ ٦] .

فبين سبحانه أن قول هذا من الكذب الظاهر المعلوم لأعدائه فضلا عن أوليائه فإنهم يعلمون أنه ليس عنده أحد يعينه على ذلك ، وليس فى قومه ولا فى بلده من يحسن ذلك ليعينه عليه فلهذا قال تعالى ﴿ فقد جاءوا ظلما وزورا ﴾ فإن جميع أهل بلده وقومه المعادين له يعلمون أن هذا ظلم له وزور ولهذا لم يقل هذا أحد من عقلائهم المعروفين ، وكذلك قولهم أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، فإن قومه المعادين له يعلمون أنه ليس عنده من يملى عليه كتابا وقد بين ما يظهر كذبهم بقوله ﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض﴾ فإن فى القرآن من الأسرار ما لا يعلمه بشر إلا بإعلام الله إياه فإن الله يعلم السر فى السموات والأرض ، ثم لما تبين بطلان قولهم هذا ، ذكر ما قدحوا به فى نبوته فقال : ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً * أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ ، [سورة الفرقان : ٨٧] .

فهذا كلام المعارضين له الذين أنكروا أكله ومشيه فى الأسواق التى يباع فيها ما يؤكل وما يلبس ، وقالوا هلا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يستغنى عن ذلك بكنز ينفق منه أو جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً .

قال تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ ، [سورة الفرقان : ٩] . يقول مثلوك بالكاذب وبالمسحور والناقل عن غيره ، وكل من قال هذه الأقوال يظهر كذبه لكل من عرفك ، ولهذا

قال تعالى : ﴿ فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ والضال الجاهل العادل عن الطريق فلا يستطيع الطريق الموصلة إلى المقصود ، بل ظهر عجزهم وانقطاعهم فى المناظرة .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ﴾ ، [سورة طه : ١٣٣] .

فإنه أتاهم بجلية ما فى الصحف الأولى كالتوراة والإنجيل مع علمهم بأنه لم يأخذ عن أهل الكتاب شيئاً . فإذا أخبرهم بالغيوب التى لا يعلمها إلا نبى أو من أخبره نبى ، وهم يعلمون أنه لم يعلم ذلك بخبر أحد من الأنبياء تبين لهم أنه نبى وتبين ذلك لسائر الأمم فإنه إذا كان قومه المعادون له وغير المعادين له مقربين بأنه لم يجتمع بأحد يعلمه ذلك صار هذا منقولا بالتواتر ، وكان مما أقر به مخالفوه مع حرصهم على الطعن لو أمكن ، فهذه الأخبار بالغيوب المتقدمة قامت بها الحجة على قومه وعلى جميع من بلغه خبر ذلك ، وقد أخبر بالغيوب المستقبلة وهذه تقوم بها الحجة على من عرف تصديق ذلك الخبر كما قال تعالى : ﴿ غلبت الروم * فى أدنى الأرض ﴾ ثم قال : ﴿ وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء ﴾ ، [سورة الروم : ٢ ـ ٥] .

وقال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٣ ـ ٢٤] . فأخبر أنهم لن يفعلوا ذلك فى المستقبل ، وكان كما أخبر .

وقال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ ، [سورة الإسراء : ٨٨] .

فأخبر أنه لا يقدر الإنس والجن إلى يوم القيامة أن يأتوا بمثل هذا القرآن وهذا الخبر قد مضى له أكثر من سبعمائة سنة ، ولم يقدر أحد من الإنس والجن

أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وقال عن الكفار وهو بمكة ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ ، [سورة القمر : ٤٥] . وظهر تصديق ذلك يوم بدر وغيره بعد ذلك بسنين كثيرة .

وقال تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لايشركون بى شيئاً ﴾ ، [سورة النور : ٥٥] . وكان الأمر كما وعده وظهر تصديق ذلك بعد سنين كثيرة ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴾ ، [سورة الفتح : ٢٨] . فأظهر الله ما بعثه به بالآيات والبرهان واليد والسنان .

وقال تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٢] .

فكان كما أخبرهم غلبوا فى الدنيا كما شاهده الناس وهذا يصدق الخبر الآخر وهو أنهم يحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ، وقد أيده تأييداً لا يؤيده إلا الأنبياء بل لم يؤيد أحد من الأنبياء ، كما أيده كما أنه بعث بأفضل الكتب إلى أفضل الأمم بأفضل الشرائع ، وجعله سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم ، فلا يعرف قط أحد ادعى النبوة وهو كاذب إلا قطع الله دابره وأذله وأظهر كذبه وفجوره ، وكل من أيده الله من المدعين للنبوة لم يكن إلا صادقاً كما أيد نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان ، بل وأيد شعيباً وهوداً وصالحاً فإن سنة الله أن ينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وهذا هو الواقع ، فمن كان لا يعلم ما يفعله الله إلا بالعادة فهذه عادة الله وسنته تعرف بها ما يصنع ، ومن كان يعلم ذلك بمقتضى حكمته فإنه يعلم أنه لا يؤيد من ادعى النبوة وكذب عليه تأييداً لا يمكن أحداً معارضته ، وهكذا أخبرت الأنبياء قبله أن الكذاب

لا يتم الله أمره ولا ينصره ويؤيده فصار هذا معلوماً من هذه الجهات ولهذا أمر سبحانه أن نعتبر بما فعله فى الأمم الماضية من جعل العاقبة للأنبياء وأتباعهم ، وانتقامه ممن كذبهم وعصاهم .

وقال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ ، [سورة غافر : ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ ، [سورة الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ ، [سورة غافر : ٥] .

قال تعالى: ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور * وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم وقوم لوط * وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير * فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد * أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ ، [سورة الحج : ٤٠ ـ ٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ ، [سورة الروم : ٩ ، ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد * كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ ، [سورة غافر : ٤ ، ٥] .

وقال تعالى : ﴿أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق * ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب ﴾ ، [سورة غافر . ٢١ ، ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون * فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ ، [سورة غافر : ٨٢ ــ ٨٥] .

وقال تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب * إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ﴾ [سورة ص : ١٢ ــ ١٤] .

وقال تعالى : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين * فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ ، [سورة الشعراء : ٥ ، ٦] .

فأخبر أن المكذبين له سيأتيهم فى المستقبل أخبار القرآن الذى استهزءوا به و بين أن ما أخبرهم به حق بوقوع الخبر مطابقاً للخبر وكان الأمر كذلك ومثله قوله : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم

يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ ، [سورة فصلت : ٥٣] .

أخبر أنه سيريهم فى أنفسهم وفى الآفاق ما يبين أن القرآن حق ، بأن يروا ما أخبر به كما أخبر به ، ثم قال : ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ [سورة فصلت : ٥٣] فإنه قد يشهد للقرآن بأنه حق بالآيات البينات والبراهين الدالة على صدقه التى تتبين بشهادة الرب بأنه حق فلايحتاج مع الشهادة الحاضرة إلى انتظار الآيات المستقبلة .

وقال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغن النذر ﴾ ، [سورة القمر : ١ ــ ٥] .

أخبر باقتراب الساعة وانشقاق القمر . وانشقاق القمر قد عاينوه وشاهدوه وتواترت به الأخبار ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه السورة فى المجامع الكبار مثل الجمع والأعياد ؛ ليسمع الناس مافيها من آيات النبوة ودلائلها والاعتبار وكل الناس يقر ذلك ولا ينكره ، فعلم أن انشقاق القمر كان معلوما عند الناس عامة . ثم ذكر حال الأنبياء ومكذبيهم فقال: ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر * فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مُدَّكر ﴾ ، [سورة القمر : ٩ ــ ١٥] .

فأخبر أنه أبقى السفن آية على قدرة الرب وعلى ما جرى لنوح مع قومه. ثم قال : فكيف كان عذابى لمن كذب ونذرى ؟ وكذلك ذكر قصة عاد وثمود ولوط وغيرهم، يقول فى عقب كل قصة: فكيف كان عذابى ونذر ؟ ونذره إنذاره وهو مابلغته عنه الرسل من الإنذار ، وكيف كانت عقوبته للمنذرين: والإنذار:

هو الإعلام بالخوف ، فتبين بذلك صدق ما أخبرت به الرسل من الإنذار وشدة عذابه لمن كذب رسله ، وذكر قصة فرعون فقال : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ٭ كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ٭ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر ٭ أم يقولون نحن جميع منتصر ٭ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ ، [سورة القمر : ٤١ ـ ٤٥] .

وذكر فى قصة محمد صلى الله عليه وسلم مع الناس أنواعا من ذلك فقال : ﴿ قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ٭ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار ٭ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ ، سورة الحشر : ٢ ـ ٤] .

ومثل هذا كثير فى القرآن من ذكر دلائل النبوة وأعلام الرسالة ليس هذا موضع بسطه ، وإنما المقصود هنا التنبيه على جنس ذلك . وما يذكره بعض أهل الكتاب أو غيرهم من أنه نصر فرعون ونمرود وسنجاريب وجنكسخان وغيرهم من الملوك الكافرين . جوابه ظاهر ، فإن هؤلاء لم يدع أحد منهم النبوة وأن الله أمره أن يدعو إلى عبادته وطاعته ، ومن أطاعه دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار . بخلاف من ادعى أن الله أرسله بذلك فإنه لا يكون إلا رسولا صادقاً ينصره الله ويؤيده وينصر أتباعه ويجعل العاقبة لهم . أو يكون كذاباً فينتقم الله منه ويقطع دابره ، ويتبين أن ما جاء به ليست من الآيات والبراهين التى لا تقبل

المعارضة ، بل هى من جنس مخارق السحرة والكهان والكذابين التى تقبل المعارضة ، فإن معجزات الأنبياء من خواصها أنه لا يقدر أحد أن يعارضها و يأتى بمثلها بخلاف غيرها ، فإن معارضتها ممكنة فتبطل بدلالتها والمسيح الدجال يدعى الألوهية ويأتى بخوارق ، ولكن نفس دعواه الألوهية دعوى ممتنعة فى نفسها ، ويرسل الله عليه المسيح بن مريم فيقتله و يظهر كذبه ، ومعه ما يدل على كذبه من وجوه . منها أنه مكتوب بين عينيه كافر .ومنها أنه أعور والله ليس بأعور. ومنها أن أحداً لن يرى ربه حتى يموت . و يريد أن يقتل الذى قتله أولا فيعجز عن قتله . فمعه من الدلائل الدالة على كذبه ما يبين أن ما معه ليس آية على صدقه ، بخلاف معجزات الأنبياء فإنه لا يمكن أحد من الإنس والجن أن يأتى بنظيرها ولا يبطلها مثل ، قلب العصا حية لموسى ،وإخراج ناقة لصالح من الأرض، وإحياء الموتى للمسيح ، وانشقاق القمر وإنزال القرآن وغير ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فإن المشركين لما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم آية واقترحوا عليه انشقاق القمر فأراهم ذلك .

وقد أخبر الله تعالى بذلك فى القرآن فقال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر * و إن يروا آية يعرضوا و يقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغنى النذر * فتول عنهم يدع الداع إلى شىء نكر * خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر * مهطعين إلى الداعى يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ ، [سورة القمر : ١ ــ ٨] .

ثم ذكر تعالى ما جرى قبله للمكذبين مع رسلهم فذكر قصة قوم نوح وهود وصالح ولوط ثم فرعون وهذه السورة كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فى أعظم اجتماعات الناس عنده وهى الأعياد، والناس كلهم يسمعون مايذكره من انشقاق القمر. وقول المكذبين إنه سحر ،والناس كلهم : المؤمن به،والمنافق،

والكافر ، يقرون على هذا ، لم يقل أحد منهم إن القمر لم ينشق ولاأنكره أحد وفى صحيح مسلم أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثى ما يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأضحى والفطر ، فقال : «كان يقرأ فيهما بقاف والقرآن المجيد. واقتربت الساعة وانشق القمر » ومعلوم بالضرورة فى مطرد العادة أنه لو لم يكن انشق لأسرع الناس المؤمنون به إلى تكذيب ذلك فضلا عن أعدائه من الكفار والمنافقين ، لاسيما وهو يقرأ عليهم ذلك فى أعظم مجامعهم . وأيضاً فمعلوم أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان من أحرص الخلق على تصديق الناس له واتباعهم إياه مع أنه كان أخبر الناس بسياسة الخلق ، فلو لم يكن القمر انشق لما كان يخبر بهذا ويقرأ على جميع الخلق و يستدل به و يجعله آية له ، فإن من يكون من أقل الناس خبره بالسياسة لا يتعمد إلى ما يعلم جميع الناس أنه كاذب به فيجعله من أعظم آياته الدالة على صدقه و يقرأه على الناس فى أعظم المجامع ، وهى اقتربت الساعة وانشق القمر بصيغة الفعل الماضى، ولم يقل قامت الساعة ولا تقوم بل اقتربت ـ أى دنت ـ اقتربت وانشق القمر الذى هو دليل على نبوة محمد وعلى إمكان انخراق الفلك الذى هو قيام القيامة ، وهو سبحانه قرن بين خبره باقتراب الساعة وخبره بانشقاق القمر فإن مبعث محمد صلى الله عليه وسلم هو من أشراط الساعة وهو دليل على قربها ، كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « بعثت أنا والساعة كهاتين وجمع بين أصبعيه السبابة والواسطى » وقد قال تعالى : ﴿ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها ﴾ [سورة محمد : ١٨]

وعلم الساعة أخفاها الله عن جميع خلقه ، كما يذكر ذلك عن المسيح فى الإنجيل أنه لما سئل عنها فقال [إنها لا يعلمها أحد من الناس ولا الملائكة ولا الابن وإنما يعلمها الأب وحده] وهذا مما يدل على أنه ليس هو رب العالم وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك لما سئل عنها . قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت فى السموات

والأرض﴾ ، أى : خفيت على أهل السموات والأرض﴿لا تأتيكم إلا بغتة، يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ؛ [سورة الأعراف : ١٨٧] . وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تسألونى عن الساعة وإنما علمها عند الله » فانشقاق القمر كان آية على شيئين على صدق الرسول . وعلى مجيء الساعة وإمكان انشقاق الفلك ، فإن المنكرين لقيام القيامة الكبرى قيام الناس من قبورهم لرب العالمين وانشقاق السموات وانفطارها سواء أقروا بالقيامة الصغرى وأن الأرواح بعد الموت تتنعم أو تعذب، كما هو قول الفلاسفه اللا إلهيين أو أنكروا المعاد مطلقاً كما أنكر ذلك من أنكره من مشركى العرب والفلاسفة الطبيعيين. وغيرهم ينكرون انشقاق السموات ويزعم هؤلاء الدهرية أن الأفلاك لا يجوز عليها الانشقاق ، كما ذكر ذلك أرسطو وأتباعه وزعموا أن الانشقاق يقتضى حركة مستقيمة وهى ممتنعة بزعمهم فى الفلك المحدد إذ لا خلاء وراءه عندهم وهذا لو دل فإنما يدل على ذلك فى الفلك الأطلس لا فيما دونه فكيف وهو باطل فإن الحركة المستقيمة هناك بمنزلة جعل الأفلاك ابتداء فى هذه الأحياز التى هى فيها سواء سمى خلاء أو لم يسم كما هو مذكور فى غير هذا الموضع. والمقصود هنا أنه تعالى أخبر بانشقاق القمر مع اقتراب الساعة ؛ لأنه دليل على إمكان انشقاق الأفلاك وانفطارها الذى هو قيام الساعة الكبرى ، وهو آية على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم الذى هو من أشراط الساعة والله تعالى فى كتابه يجمع بين ذكر القيامة الكبرى والصغرى كما فى سورة الواقعة ذكر فى أولها القيامة الكبرى وفى آخرها القيامة الصغرى ، وذلك كثير فى سور القرآن مثل سورة ق وسورة القيامة وسورة التكاثر وسورة الفجر وغير ذلك ، وقد استفاضت الأحاديث بانشقاق القمر ففى الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اشهدوا » وفى لفظ « ونحن معه بمنى » فقال كفار قريش

سحركم ابن أبي كبشة فقال رجل منهم إن محمدا إن كان ساحر القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها ، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر هل رأوا هذا، فأتوا فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك ، وعن أنس بن مالك أنه قال« سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر فرقتين حتى رأوا حراء بينهما فنزلت ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ [سورة القمر ١ ، ٢] .

وهذا حديث صحيح مستفيض رواه ابن مسعود وأنس بن مالك وابن عباس، وهو أيضاً معروف عن حذيفة قال: أبو الفرج بن الجوزي: والروايات في الصحيح بانشقاق القمر عن عمر وابن مسعود وابن عباس وأنس - رضي الله عنهم - ولما زعموا أن هذا القرآن هو ألفه .

قال الله تعالى : ﴿ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ . [سورة الطور : ٣٣ ، ٣٤] . ثم تحداهم بعشر سور فقال تعالى : ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ، إن كنتم صادقين * فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ ، [سورة هود : ١٣ ، ١٤] . ثم تحداهم بسورة واحدة فقال : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٣ ، ٢٤] .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ ، [سورة يونس : ٣٨] . فعجز جميع الخلق أن يعارضوا ما جاء به ثم سجل على جميع الخلق العجز إلى يوم القيامة بقوله : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ ، [سورة الإسراء : ٨٨] .

فأخبر من ذلك الزمان أن الإنس والجن إذا اجتمعوا لا يقدرون على معارضة القرآن بمثله فعجز لفظه ومعناه ومعارفه وعلومه أكمل معجزة وأعظم شأناً والأمر كذلك فإنه لم يقدر أحد من العرب وغيرهم مع قوة عدواتهم له وحصرهم على إبطال أمره بكل طريق وقدرتهم على أنواع الكلام أن يأتوا بمثله ، وأنزل الله إذ ذاك آيات بين فيها أنه رسول الله إليهم ولم يذكر فيها أنه لم يرسل إلى غيرهم .

فقال تعالى فى سورة القصص : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون * وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين * ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاوياً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين * وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون * ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾ [سورة القصص : ٤٣ ــ ٤٧] .

وقال فى سورة السجدة : ﴿ أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾ ، [سورة السجدة : ٣] .

وقال فى سورة يس : ﴿ يس * والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ [سورة يس : ١ ــ ٦] .

ذكر الله تعالى فى هذه الآيات الثلاثة نعمته على هؤلاء وحجته عليهم بإرساله وذكر بعض حكمته فى إرساله، وذلك لا يقتضى أنه لم يرسل إلا لهذا بل مثل هذا كثير معروف فى لسان العرب وغيرهم .

قال تعالى : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون ﴾ ، [سورة النحل : ٨] .

ومعلوم أن فى هذه الدواب منافع غير الركوب ، وقال تعالى : ﴿ يلقى بالروح من أمره على من يشاء من عبـاده لينذر يوم التلاق * يوم هم بارزون ﴾ [سورة غافر : ١٥ ، ١٦] . فقد أخبر أنه ينزل الملائـكة بالوحى على الأنبياء لينذروا يوم القيامة وذلك لا يمنع أن يـكونوا نزلوا بالبشارة للمؤمنين والأمر والنهى بالشرائع .

وقال تعالى : ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بـكل شىء علماً ﴾ ، [سورة الطلاق : ١٢] .

فأخبر تعالى أنه خلق العالم العلوى والسفلى ليعلم العباد قدرته وعلمه، ومع هذا فى خلق ذلك له من الحـكمة أمور أخرى غير علم العباد ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ جعل الله الـكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات ومافى الأرض وأن الله بكل شىء عليم﴾، [سورة المائدة : ٩٧] .

ومعلوم أن فى جعل الـكعبة قياماً للناس والهدى والقلائد حكما ومنافع أخرى.

وقال تعالى . ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا و يجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ ، [سورة النجم : ٣١] .

ومعلوم أن فى ملك الله حكما أخرى غير جزاء المحسن والمسىء وكذلك قوله: ﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بمـا كسبت وهم لا يظلمون ﴾ ، [سورة الجاثية : ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح ـ إلى قوله ـ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ ، [سورة النساء: ١٣٦ ـ ١٦٥] .

ومعلوم أن فى إرسال الرسل سعادة من آمن بهم وغيرها حكم أخرى غير دفع

حجة الخلق على الله وكذلك قوله تعالى . ﴿ كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ﴾ ، [سورة الحج : ٣٧] .

ومعلوم أن فى تسخيرها حكماً ومنافع غير التكبير ، وقوله : ﴿ ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾ ، [البقرة : ١٨٥] .

وقال تعالى : ﴿ وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ ، [سورة إبراهيم : ٣٢ - ٣٤] .

ومعلوم أن لله حكماً فى خلق الشمس والقمر ، والليل والنهار ، غير انتفاع بنى أدم وكذلك قوله : ﴿ هو الذى جعل الليل والنهار لتسكنوا فيه ﴾ ، [سورة يونس : ٦٧] . وقوله : ﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾ ، [سورة الفرقان : ٦٢] . وفيهما حكم أخرى .

وقال تعالى : ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ ، [سورة البقرة : ١١٣] .

وفى إنزال الكتاب من هدى من اهتدى به واتعاظه وغير ذلك مقاصد غير الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .

وقال تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ ، [سورة النحل : ٣٨ ، ٣٩] .

ومعلوم أن فى بعث الخلق يوم القيامة مقاصد غير بيان المختلف فى علم هؤلاء ، ومما يبين ذلك أنه قال فى الآية التى احتجوا بها : ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ﴾ [سورة يس : ٦] .

ومعلوم أنه لم يبعث لمجرد الإنذار ، بل وليبشر من آمن به ، ولأمرهم بالمعروف

ونهيهم عن المنكر ، وتحليل الطيبات ، وتحريم الخبائث ، وغير ذلك من مقاصد الرسل كما قال تعالى : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين ﴾ . [سورة النساء : ١٦٥] . وقوله : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾ لا ينافى كونه لم يصفهم فى موضع آخر إلا بالإنذار ، وقد قال : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه و يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً * و ينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ [سورة الكهف : ١ ـ ٥] .

وكان المسلمون مرة صلوا صلاة العيد بحضرة حصار النصارى فقام خطيبهم فخطب بهذه الآية ، ولما قرأ قوله : ﴿ و يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ﴾ [سورة الكهف : ٢] ، أشار إلى جند الإيمان ، ولما قرأ قوله : ﴿ و ينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ . [سورة الكهف : ٤] . أشار إلى جند الصلبان .

وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] . وفى إنزال الكتاب والميزان حكم أخرى من البشارة والإنذار وغير ذلك ، وكذلك قوله عن أهل الكهف : ﴿ ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً ﴾ . [سورة الكهف : ١٢] . وفى بعثهم حكم أخرى بدليل قوله : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ﴾ ، [سورة الكهف : ٢١] .

وقال تعالى : ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ ، [سورة الجن : ٢٧ ، ٢٨] . ومعلوم أن فى ذلك مقاصد أخرى من هداية الخلق ، وقيام الحجة على من بلغهم وغير ذلك. وقوله : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليذكر أولو الألباب ﴾ ، [سورة ص: ٢٩] . وفيه حكم أخرى من قيام الحجة على الخلق وضلال من ضل به ، ومثله

قوله : ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾ . [سورة إبراهيم : ٥٢] .

ومعلوم أن فى ذلك مقاصد أخرى من البشارة والأمر والنهى وغير ذلك ، وكذلك قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتيكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم * لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٨ ، ٢٩] .

ومعلوم أن فى جزاء المؤمنين مقاصد أخرى غير علم أهل الكتاب ومامعه .

وقال تعالى : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩٢] .

ومعلوم أن فيه حكما أخرى مثل تبشير من آمن به ، والأمر ، والنهى ، وإنذار هؤلاء من العرب .

وقال تعالى : ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين * لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ ، [سورة يس : ٦٩ ، ٧٠] .

ومعلوم أن فيه حكمة أخرى غير الإنذار

وقال تعالى : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا و بشرى للمحسنين ﴾ ، [سورة الأحقاف : ١٢] ومعلوم أن فيه حكمة أخرى من إنذار الخلق كلهم ، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وتبشير المؤمنين ، فقال تعالى : ﴿ وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ ، [سورة الأحزاب ٧ ، ٨] . ومعلوم أن فى أخذ الميثاق حكماً أخرى .

وقال تعالى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من

ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما ﴾ ، [سورة الفتح : ١ ، ٢] .

وقوله : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى — إلى قوله — لنريه من آياتنا ﴾ ، [سورة الإسراء : ١] . وقوله : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين — إلى قوله — لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ ، [سورة النساء : ١٢] وكذلك قوله : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ ، [سورة يونس : ٥] . وفى ذلك كله حكم أخرى ، وكذلك قوله : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ ، [سورة القصص : ٨] . وإن كانت هذه اللام لام العاقبة ، فليست العاقبة منحصرة فى ذلك ، بل فى ذلك من الإحسان إلى موسى وتربيته وغير ذلك حكم أخرى ، ومثل قوله : ﴿ وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ﴾ الآية ، [سورة الأنعام : ١٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾ ، [سورة الصف : ٩] وفى إرساله حكم أخرى ، وكذلك قوله : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ ، [سورة النساء : ١٠٥] .

وفى إنزاله تبشير وإنذار وأمر ونهى ، ووعد ووعيد ، وكذلك قوله فى عيسى ابن مريم : ﴿ هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ﴾ ، [سورة مريم : ١٩] . وكذلك قوله : ﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ﴾ ، [سورة الجاثية : ١٢] وفيه حكم أخرى، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ﴾ ، [سورة النحل : ١٤] .

وقال تعالى : ﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه ؛ وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً ، وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ ، [سورة فاطر : ١٢].

وقال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً — إلى قوله — ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٢٢،١٢٣] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ ، [سورة البقرة : ١٤٣] . وفى كونهم وسطاً حكم أخرى ، وكذلك قوله : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ ، [سورة الملك : ٢] . وفيهما حكم أخرى ، وكذلك قوله : [تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ . [سورة الفرقان : ١]. وفى ذلك حكم أخرى من البشارة والأمر والنهى .

وقال تعالى : ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء — إلى قوله — وليمحص الله الذين آمنوا ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٤٠ ، ١٤١] .

وفى ذلك حكم أخرى ، ومثل ذلك كثير فى كلام الله عزوجل ، وغير كلام الله إذا ذكر حكمة للفعل لم يلزم أن لا تكون له حكمة أخرى ، لكن لا بد لتخصيص تلك الحكمة بالذكر فى ذلك الموضع من مناسبة ، وهذا كالمناسبة فى قوله : ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ﴾ ، [سورة يس : ٦] . فإن هؤلاء كانوا أول المنذرين ، وأحقهم بالإنذار ، فكان فى تخصيصهم بالذكر فائدة لا أنه خصهم لانتفاء إنذار من سواهم .

وقال تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٩٣ ــ ١٩٥] .

ومعلوم أنه نزل به ليكون بشيرا ، وليأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويحل الطيبات ، ويحرم الخبائث ، ويضع الآصار والأغلال صلى الله عليه وسلم .

فصل

وأما احتجاجهم بقوله تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ﴾ ، [سورة البقرة : ١٥١] . وقوله تعالى : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٦٤] فهذا كقوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ ، [سورة التوبة : ١٢٨] .

وهذا فى عمومه نزاع ؛ فإنه إما أن يكون خطابا لجميع الناس ، ويكون المراد إنا بعثنا إليكم رسولا من البشر ، إذ كنتم لا تطيقون أن تأخذوا عن ملك من الملائكة ، فمن الله عليكم بأن أرسل إليكم رسولا بشريا .

قال تعالى : ﴿ وقالوا : لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لاينظرون * ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٨ ، ٩] .

وإما أن يكون الخطاب للعرب، وعلى التقديرين ، فإن ما تضمن ذكر إنعامه على المخاطبين بإرساله رسولا من جنسهم ، وليس فى هذا ما يمنع أن يكون مرسلا إلى غيرهم ، فإنه إن كان خطابا للانس كلهم ، فهو أيضا مرسل إلى الجن، وليس من جنسهم ، فكيف يمتنع إذا كان الخطاب خطابا للعرب بما امتن به عليهم، أن يكون قد امتن على غيرهم بذلك ، فالعجم أقرب إلى العرب من الجن إلى الإنس ، وقد أخبر فى الكتاب العزيز أن الجن لما سمعوا القرآن آمنوا به .

قال تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا : أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى

طريق مستقيم ﴿ يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ﴾ ، [سورة الأحقاف : ٢٩ ـ ٣٢] .

وقال : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجباً * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا * وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا * وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً * وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا * وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا * وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا * وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا * وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا * وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا * وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا * وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا * وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا * وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً * لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعداً * وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا * وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا * قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا * قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشدا * قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا * إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا * حتى إذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً * قل إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمداً * عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط

بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾ ، [سورة الجن] .

ونظير هذا قوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ، وسوف تسألون ﴾ ، [سورة الزخرف : ٤٤] . وقومه قريش،ولا يمنع أن يكون ذكراً لسائر العرب بل لسائر الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون * وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ، [سورة القلم : ٥١ ، ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ [سورة الفرقان : ١] .

وقال تعالى : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين * إن هو إلا ذكر للعالمين * ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ ، [سورة ص : ٨٦ – ٨٨] .

وقال تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم * ذى قوة عند ذى العرش مكين * مطاع ثم أمين * وما صاحبكم بمجنون * ولقد رآه بالأفق المبين * وما هو على الغيب بضنين * وما هو بقول شيطان رجيم * فأين تذهبون * إن هو إلا ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ ، [سورة التكوير : ١٩ – ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً ﴾ ، [سورة النساء : ٧٩] وهذا على أصح القولين ، وأن المراد بقوله . ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ ، أنه ذكر لهم يذكرونه فيهتدون به .

وقيل : إن المراد أنه شرف لهم وليس بشىء ، فإن القرآن هو شرف لمن آمن به من قومه وغيرهم وليس شرفا لجميع قومه ، بل من كذب به منهم كان أحق بالذم كما قال تعالى . ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وكذب به قومك وهو الحق ﴾ ، [سورة الأنعام : ٦٦] .

بخلاف كونه تذكرة وذكرى فإنه تذكرة لهم ولغيرهم ، كما قال تعالى ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ، إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩] . فعم العالمين جميعهم ،فقال: ﴿ وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ [سورة يوسف : ١٠٤]

فصل

هذا الكلام على الوجه الأول ، وهو قول من يقول إنه لم يقل إنه أرسل إلا إلى العرب .

وأما الوجه الثانى،وهو أن نقول : هو ذكر أنه رسول إلى الناس كافة كما نطق به القرآن فى غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ ، [سورة سبأ : ٢٨] . وقوله ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض ﴾ ، [سورة الأعراف . ١٦٨] .

وقد صرح فيه بدعوة أهل الكتاب و بدعوة الجن فى غير موضع فإذا سلموا أنه ذكر ذلك ولكن كذبوه فى ذلك ، فإما أن يقروا برسالته إلى العرب أولا يقروا . فإن أقروا بأنه رسول أرسله الله لم يكن مع ذلك ، تكذيبه كما تقدم ، بل يجب الإقرار برسالته إلى جميع الخلق كما أخبر بذلك ، كما تقدم أن من ذكر أنه رسول الله لا يكون إلا من أفضل الخلق وأصدقهم،أو من شر الخلق وأكذبهم، فإنه إن كان صادقاً فهو من أفضلهم ، و إن كان كاذباً فهو من شرهم ، و إذا كان الله قد أرسله ــ ولو إلى قرية كما أرسل يونس بن متى إلى أهل نينوى ، كان من أفضل الخلق ، وكان صادقاً لا يكذب على الله ، ولا يقول عليه إلا الحق ، ولو كذب على الله ولو فى كلمة واحدة ، لكان من الكاذبين ، لم يكن من رسل الله الصادقين ، فإن الكاذب لا يكذب فى كل شىء ، بل فى البعض فمن كذب على الله فى كلمة واحدة ، فقد افترى على الله الكذب ، وكان من القسم الكاذبين فى دعوى الرسالة لا من الصادقين . وأيضاً فإن مقصود الرسالة تبليغ

رسالات الله على وجهها ، فإذا خلط الكذب بالصدق لم يحصل مقصود الرسالة، وأيضاً . فإذاعلم أنه كذب فى بعضها لم يتميز ماصدق فيه مما كذب فيه إلا بدليل آخر غير رسالته ، فلا يحصل المقصود برسالته .

ولهذا أجمع أهل الملل قاطبة على أن الرسل معصومون فيما يبلغونه عن الله تبارك وتعالى لم يقل أحد قط أن من أرسله الله يكذب عليه ، وقد قال تعالى ما يبين إنه لا يقر كاذبا عليه بقوله تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ ، [سورة الحاقة : ٤٤ ـ ٤٧] .

وقال تعالى : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشإ الله يختم على قلبك ﴾ ، [سورة الشورى : ٢٤] . ثم قال تعالى : ﴿ ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته ﴾ ، [سورة الشورى : ٢٤] .

فقوله تعالى : (ويمح الله الباطل ويحق الحق) كلام مستأنف ليس داخلا فى جواب الشرط ، فإنه لو كان معطوفاً على جواب الشرط لقال : ويحق الحق بالكسر لالتقاء الساكنين ، كما فى قوله : ﴿قم الليل﴾ فلما قال : ويحق الحق، بالضم دل على أنه جملة مستأنفة أخبر فيها أنه تعالى يمحو الباطل كباطل الكاذبين عليه ، ويحق الحق كحق الصادقين عليه ، فمحو الباطل نظير إحقاق الحق ليس مما علق بالمشيئة بل لابد منه بخلاف الختم على قلبه ، فإنه معلق بالمشيئة ولايجوز أن يعلق بالمشيئة محو الباطل كتعليق الختم ، بل يقذف بالحق على الباطل فيدمغه .

وقال تعالى فى صيانته وإحكامه لما تبلغه رسله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد * وليعلم الذين أوتوا العلم أنه

الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ ، [سورة الحج : ٥٢ ـ ٥٤] .

وأيضاً : فإذا لم يكن أرسل إلا إلى العرب وقد دعا اليهود والنصارى إلى الإيمان به ، وكفرهم إذا لم يؤمنوا به ، وجاهدهم وقتل مقاتلهم، وسبى ذراريهم ، كان ذلك ظلماً لا يفعله إلا من هو من أظلم الناس ، ومن كان نبياً قد أرسله الله فهو منزه عن هذا وهذا . فالإقرار برسالته إلى العرب دون غيرهم ـ مع ماظهر من عموم دعوته للخلق كلهم ـ قول متناقض ظاهر الفساد ، وكل مادل عليه أنه رسول فإنه يستلزم رسالته إلى جميع الخلق ، وكل من اعترف بأنه رسول لزمه الاعتراف بأنه رسول إلى جميع الخلق، وإلا لزم أن يكون الله أرسل رسولا يفترى عليه الكذب، ويقول للناس : إن الله أمركم باتباعى وأمرنى بجهادكم إذا لم تفعلوا وهو كاذب فى ذلك ، ومعلوم أن كل ما دل على أن الله أرسله ، فإنه يدل على أنه صادق فى الرسالة وإلا فلا . فالرسول الكاذب لا يحصل به مقصود الرسالة ، بل يكون من جملة المفترين على الله الكذب ، وأولئك ليسوا من رسل الله ، ولا يجوز تصديقهم فى قولهم : إن الله أرسلهم .

فصل

وأما إن لم يقروا برسالته لا إلى العرب ولاغيرهم ، بل قالوا فيه ما كان يقوله مشركو العرب من أنه شاعر، أو ساحر، أو مفتر كاذب ، ونحو ذلك . فيقال لهم على هذا التقدير : فدليلكم أيضاً باطل، ولا يجوز أن تحتجوا بتقدير تكذيبكم لمحمد صلى الله عليه وسلم بشىء من كلام الأنبياء قبله ، سواء صدقتم محمداً صلى الله عليه وسلم فى جميع مايقوله أو فى بعضه ، أو كذبتموه فدليلكم باطل، فيلزم بطلان دينكم على كل تقدير، وما ثبت بطلانه على كل تقدير، فهو باطل فى نفس الأمر ، فيثبت أنه باطل فى نفس الأمر ، وذلك أنكم إذا كذبتم محمداً لم يبق لكم طريق تعلمون به صدق

غيره من الأنبياء، فيمتنع مع تكذيبه القول بصدق غيره ، بل من اعتقد كذبه وصدق غيره ، لم يكن عالماً بصدق غيره ، بل يكون مصدقاً لهم بغير علم ؛ وإذا لم يكن عالما بصدقهم لم يجز احتجاجه قط بأقوالهم بل ذلك قول منه بلا علم ، ومحاجة فيما لا علم له بها، فإن الدلائل الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم أعظم وأكثر من الدلائل الدالة على صدق موسى وعيسى ، ومعجزاته أعظم من معجزات غيره، والكتاب الذى أرسل به أشرف من الكتاب الذى بعث به غيره ، والشريعة التى جاء بها أكمل من شريعة موسى وعيسى عليهما السلام وأمته أكمل فى جميع الفضائل من أمة هذا وهذا . ولا يوجد فى التوراة والإنجيل علم نافع وعمل صالح إلا وهو فى القرآن مثله أو أكمل منه ، وفى القرآن من العلم النافع والعمل الصالح ما لا يوجد مثله فى التوراة والإنجيل ، فما من مطعن من مطاعن أعداء الأنبياء يطعن به على محمد صلى الله عليه وسلم إلا ويمكن توجيه ذلك الطعن وأعظم منه على موسى وعيسى ، وهذه جملة مبسوطة فى موضع آخر لم نبسطها هنا ؛ لأن جواب كلامهم لا يحتاج إلى ذلك ، فيمتنع الإقرار بنبوة موسى وعيسى عليهما السلام مع التكذيب بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يفعل ذلك إلا من هو من أجهل الناس وأضلهم ، أو من أعظمهم عناداً واتباعاً لهواه ، وذلك أن هؤلاء القوم احتجوا بما نقلوه عن الأنبياء، ولم يذكروا الأدلة الدالة على صدقهم، بل أخذوا ذلك مسلماً وطلبوا أن يحتجوا بما نقلوه عن الأنبياء قبله ، و بما نقلوه عنه على صحة دينهم ، وهذه حجة داحضة سواء صدقوه أو كذبوه . فإن صدقوه بطل دينهم وإن كذبوه بطل دينهم ، فإنهم إن صدقوه فقد علم أنه دعاهم وجميع أهل الأرض إلى الإيمان به وطاعته ، كما دعا المسيح وموسى وغيرهما من الرسل، وأنه أبطل ما هم عليه من الاتحاد وغيره و كفرهم فى غير موضع، ولهذا كان مجرد التصديق بأن محمداً رسول الله ولو إلى العرب يوجب بطلان دين النصارى واليهود و كل دين يخالف دينه . فإن من كان رسولا لله، فإنه لا يكذب على الله، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علم منه أنه

دعا النصارى واليهود إلى الإيمان به وطاعته كما دعا غيرهم ، وأنه كفر من لم يؤمن به ووعده النار ، وهذا متواتر عنه تواتراً تعلمه العامة والخاصة وفى القرآن من ذلك ما يكثر ذكره ، كما قال تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة * رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة * فيها كتب قيمة * وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة * وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة و يؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة * إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية * جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾ ، [سورة البينة] .

وقال تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم * إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا ، فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ ، [سورة آل عمران ١٨ ـ ٢٠].

وقد ذكر كفر اليهود والنصارى فى موضع ، كقوله تعالى عن النصارى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ﴾ ، [سورة المائدة : ١٧] . وقال تعالى أيضاً ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا

إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ، و إن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتو بون إلى الله و يستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون * قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم * قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة ٧٢ ـ ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له مافى السموات ومافى الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقر بون ، ومن يستنكف عن عبادته و يستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم و يزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً * يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً * فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل و يهديهم إليه صراطاً مستقيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١ ـ ١٧٥] .

وقال تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠ ـ ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ و إذا قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ﴾ ، [سورة المائدة ١١٦ ، ١١٧] . فقد قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ﴾ فى موضعين

وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ﴾ .

وقال تعال : ﴿ وقالت النصارى : المسيح ابن الله ﴾ .

فذكر الله عنهم هذه الأقوال الثلاثة ، والنصارى قالت الأقوال الثلاثة ، لكن من الناس من يظن أن هذا قول طائفة منهم ، وهذا قول طائفة منهم ، وهذا قول طائفة منهم ، وقولهم : ثالث ثلاثة قول النسطورية . وقولهم : إنه ابن الله قول الملكانية . ومنهم من يقول : قوله : إن الله هو المسيح بن مريم قول اليعقوبية : وقولهم والابن وروح القدس .

وظن ابن جرير الطبرى أن هذه الطوائف كانوا قبل اليعقوبية والنسطورية والملكية ، كما ذكره طائفة من المفسرين ، كابن جرير الطبرى والثعلبى وغيرهما ثم تارة يحكون عن اليعقوبية : أن عيسى هو الله ، وعن النسطورية : أنه ابن الله ، وعن المريوسية : أنه ثالث ثلاثة ، وتارة يحكون عن النسطورية : أنه ثالث ثلاثة ،وعن الملكية : أنه الله ، ويفسرون قولهم : ثالث ثلاثة بالأب والابن ، وروح القدس

والصواب : أن هذه الأقوال جميعها قول طوائف النصارى المشهورة : الملكية ، واليعقوبية والنسطورية ، فإن هذه الطوائف كلها تقول بالأقانيم

الثلاثة : الأب والابن وروح القدس ، فتقول : إن الله ثالث ثلاثة ، وتقول عن المسيح : إنه الله ، وتقول : إنه ابن الله ، وهم متفقون على اتحاد اللاهوت والناسوت وأن المتحد هو الكلمة ، وهم متفقون على عقيدة إيمانهم التى تتضمن ذلك ، وهو قولهم : نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح بن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور إله حق من إله حق مولود غير مخلوق .

وأما قوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا ثلاثة ﴾ . وقوله : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ .

فقد فسروه بالتثليث المشهور عنهم ، المذكور فى أمانتهم ، ومن الناس من يقول : إن الله هو المسيح بن مريم قول اليعقوبية ، وقولهم : ثالث ثلاثة هو قول النصارى الذين يقولون بالأب والابن . وهم قد جعلوا الله فيها ثالث ثلاثة ، وسموا كل واحد من الثلاثة بالإله والرب ، وقد فسره طائفة بجعلهم عيسى وأمه إلهين يعبدان من دون الله .

قال السدى فى قوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ قال : قالت النصارى : إن الله هو المسيح وأمه . فذلك قوله : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ﴾

وقد قيل قول ثالث أغرب من ذلك عن أبى صخر . قال : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾

قال : هو قول اليهود عزير ابن الله ، وقول النصارى المسيح ابن الله ، فجعلوا الله ثالث ثلاثة ، وهذا ضعيف ، وقد ذكر سعيد بن البطريق فى أخبار النصارى أن منهم طائفة ـ يقال لهم المرسية ـ يقولون : إن مريم إله وإن عيسى إله ،

فقد يقال : إن هذا قول هؤلاء ، كما أن القول : بأن عزير ابن الله ، قول طائفة من اليهود .

وأما الأول فمتوجه ، فإن النصارى المتفقين على الأمانة ، كلهم يقولون : إن الله ثالث ثلاثة ، والله تعالى قد نهاهم عن أن يقولوا ذلك ، فقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١] .

فذكر سبحانه فى هذه الآية التثليث والاتحاد ونهاهم عنهما ، وبين أن المسيح إنما هو رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه .وقال: ﴿ فآمنوا بالله ورسله ﴾ ثم قال : ﴿ ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ﴾ ، ولم يذكر هنا أمه . وقوله تعالى : ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ قال معمر عن قتادة : وكلمته ألقاها إلى مريم وهو قوله : كن فكان ، وكذلك قال قتادة : ليس الكلمة صار عيسى ، ولكن بالكلمة صار عيسى ، وكذلك قال الإمام أحمد بن حنبل فى مصنفه الذى صنفه فى كتبه فى الرد على الجهمية ، وذكره عنه الخلال والقاضى أبو يعلى . قال أحمد : ثم إن الجهم ادعى أمراً آخر فقال : إنا وجدنا فى كتاب الله آية تدل على أن القرآن مخلوق . قلنا : أى آية ؟

قال : قول الله : ﴿ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١] . وعيسى مخلوق .

فقلنا : إن الله منعكم الفهم فى القرآن ، عيسى عليه السلام تجرى عليه ألفاظ لا تجرى على القرآن ؛ لأن عيسى يجرى عليه نسمة ومولود وطفل وصبى وغلام يأكل ويشرب وهو يخاطب بالأمر والنهى ، يجرى عليه الوعد والوعيد ، هو من ذرية نوح ، ومن ذرية إبراهيم ، ولا يحل لنا أن نقول فى القرآن ما نقول فى عيسى . هل سمعتم الله يقول فى القرآن ما قال فى عيسى؟ ولكن المعنى فى قوله

جل ثناؤه : ﴿ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ ، فالكلمة التى ألقاها إلى مريم حين قال له : كن فكان عيسى بـ« كن» ، وليس عيسى هو الكن، ولكن بالكن كان، فالكن من الله قوله : وليس الكن مخلوقاً ، وكذبت النصارى والجهمية على الله فى أمر عيسى ، وذلك أن الجهمية قالوا : عيسى روح الله وكلمته ؛ لأن الكلمة مخلوقة .
قالت النصارى : روح الله من ذات الله ، وكلمة الله من ذات الله ، كما يقال : هذه الخرقة من هذا الثوب . وقلنا نحن : إن عيسى بالكلمة كان ، وليس عيسى هو الكلمة .

قال أحمد : وأما قوله جل ثناؤه ﴿ وروح منه ﴾ يقول من أمره كان الروح فيه كقوله : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه﴾ ، [سورة الجاثية : ١٣] يقول من أمره ، وتفسير روح الله إنما معناها أنها روح بكلمة الله خلقها الله ، كما يقال : عبد الله وسماء الله ، وفى نسخة روح يملكها الله خلقها الله .

وقال الشعبى فى قوله تعالى : ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم ﴾ الكلمة حين قال له : كن فكان عيسى بـ «كن» وليس عيسى هو الكن ، ولكن بالكن كان .
وقال ليث عن مجاهد : روح منه . قال : رسول منه يريد مجاهد قوله : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا* قال إنما أنا رسول ربك ﴾ ، [سورة مريم : ١٧ ـ ١٩] .

والمعنى أن عيسى خلق من هذه الروح وهو جبريل روح القدس — سمى روحاً كما سمى كلمة ؛ لأنه خلق بالكلمة والنصارى يقولون فى أمانتهم : تجسد من مريم ومن روح القدس ؛ لأنه جاء كذلك فى الكتب المتقدمة ، لكن ظنوا أن روح القدس هو صفة لله وجعلوها حياته وقدرته وهو رب ، وهذا غلط منهم فإنه لم يسم أحد من الأنبياء حياة الله ولا قدرته ولا شيئاً من

صفاته روح القدس ، بل روح القدس فى غير موضع من كلام الأنبياء عليهم السلام يراد بها ما ينزله الله على قلوب الأنبياء ، كالوحى ، والهدى ، والتأييد ، ويراد بها الملك ، وهكذا فى تفسير ابن السائب عن أبى صالح عن ابن عباس : أن عيسى بن مريم استقبل رهطا من اليهود ، فلما رأوه قالوا : قد جاء الساحر ابن الساحرة ، والفاعل ابن الفاعلة ، فقذفوه وأمه ، فلما سمع عيسى ذلك قال: [اللهم أنت ربى ، وأنا من روحك خرجت ، وبكلمتكَ خلقتنى ، ولم آتهم من تلقاء نفسى] . وذكر تمام الحديث

وقد قال تعالى : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٩١] .

وقال تعالى : ﴿ ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ ، [سورة التحريم : ١٢] .

فهذا يوافق قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً * قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال : إنما أنا رسول ربك ﴾ . وهذا مبسوط فى موضع آخر

والمقصود هنا : أنهم سواء صدقوا محمداً أو كذبوه ، فإنه يلزم بطلان دينهم على التقديرين ، فإنه إن كان نبياً صادقاً ، فقد بلغ عن الله فى هذا الكتاب كفر النصارى فى غير موضع ، ودعاهم إلى الإيمان به ، وأمر بجهادهم ، فمن علم أنه نبى ولو إلى طائفة معينة ، فيجب تصديقه فى كل ما أخبر به ، وقد أخبر بكفر النصارى وضلالهم ، فإذا ثبت هذا لم يغن عنهم الاحتجاج بشىء من الكتب والمعقول ، بل يعلم من حيث الجملة أن كل ما يحتجون به على صحة دينهم فهو باطل ، وإن لم يبين فساد حججهم على التفصيل ؛ لأن الأنبياء لا يقولون إلا حقا ، كما أن المسيح عليه السلام لما حكم بكفر من كذبه من اليهود ، كان كل ما يحتج به اليهود على خلاف ذلك باطلا ، فكل ما عارض قول النبى صلى الله

عليه وسلم المعصوم فهو باطل ، وإن كذبوا محمداً تكذيباً عاماً مطلقاً وقالوا : ليس هو نبي أصلا ، ولا أرسل إلى أحد لا إلى العرب ولا إلى غيرهم ، بل كان من الكذابين ، امتنع مع هذا أن يصدقوا بنبوة غيره ، فإن الطريق الذى يعلم به نبوة موسى وعيسى يعلم به نبوة محمد بطريق الأرض ، فإذا قالوا : علمت نبوة موسى والمسيح بالمعجزات وعرفت المعجزات بالنقل المتواتر إلينا . قيل لهم : معجزات محمد صلى الله عليه وسلم أعظم ، وتواترها أبلغ ، والكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أكمل ، وأمته أفضل ، وشرائع دينه أحسن ، وموسى جاء بالعدل ، وعيسى جاء بتكميلها بالفضل ، وهو صلى الله عليه وسلم قد جمع فى شريعته بين العدل والفضل ، فإن ساغ لقائل أن يقول : هو مع هذا كاذب مفتر ، كان على هذا التقدير الباطل غيره أولى أن يقال فيه ذلك ، فيبطل بتكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم جميع ما معهم من النبوات إذا حكم أحد الشيئين حكم مثله ، فكيف بما هو أولى منه ؟ فلو قال قائل : إن هارون ويوشع وداود وسليمان كانوا أنبياء وموسى لم يكن نبيا . أو أن داود وسليمان ويوشع ويحيى كانوا أنبياء والمسيح لم يكن نبيا . أو قال ما يقوله السامرة : إن يوشع كان نبيا ومن بعده كداود وسليمان والمسيح لم يكونوا أنبياء . أو قال مايقوله اليهود: إن داود وسليمان وشيعا وحبقوق ومليخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء ، والمسيح بن مريم لم يكن نبيا ، كان هذا قولا متناقضاً معلوم البطلان ، فإن الذين نفى هؤلاء عنهم النبوة أحق بالنبوة وأكمل نبوة ممن أثبتوها له . ودلائل نبوة الأكمل أفضل ، فكيف يجوز إثبات النبوة للنبي المفضول دون الفاضل ؟ وصار هذا كما لو قال قائل : إن زفر وابن القاسم والمزنى والأثرم كانوا فقهاء ، وأبا حنيفة ومالكا والشافعى وأحمد لم يكونوا فقهاء ، أو قال : إن الأخفش وابن الأنبارى والمبرد كانوا نحاة ، والخليل وسيبويه والفراء لم يكونوا نحاة . أو قال : إن صاحب الملكى والمسيحى ونحوهما من كتب الطب كانوا أطباء ،

وبقراط وجالينوس ونحوهما لم يكونوا أطباء . أو قال : إن كوشيار والخرقى ونحوهما كانوا يعرفون علم الهيئة ، و بطليموس ونحوه لم يكن له علم بالهيئة .

ومن قال : إن داود وسليمان ومليخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء ، ومحمد ابن عبد الله لم يكن نبيا . فتناقضه أظهر ، وفساد قوله أبين من هذا جميعه ، بل وكذلك من قال : إن موسى وعيسى رسولان والتوراة والإنجيل كتابان منزلان من عند الله ، ومحمداً ليس برسول ، والقرآن لم ينزل من الله . فبطلان قوله فى غاية الظهور والبيان لمن تدبر ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من قبله ، وتدبر كتابه والكتب التى قبله ، وآيات نبوته وآيات نبوة هؤلاء ، وشرائع دينه وشرائع دين هؤلاء ، وهذه الجملة مفصلة مشروحة فى غير هذا الموضع ، لكن المقصود هنا : التنبيه على مجامع جوابهم ، وهؤلاء القوم لم يأتوا بدليل واحد يدل على صدق من احتجوا به من الأنبياء ، فلو ناظرهم من يكذب بهؤلاء الأنبياء كلهم من المشركين والملاحدة لم يكن فيما ذكروه حجة لهم ، ولا حجة لهم أيضاً على المسلمين الذين يقرون بنبوة هؤلاء فإن جمهور المسلمين إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بإخبار محمد أنهم أنبياء ، فيمتنع أن يصدقوا بالفرع مع القدح فى الأصل الذى به علموا صدقهم . وأيضاً فالطريق الذى به علمت نبوة هؤلاء بما ثبت من معجزاتهم وأخبارهم ، فكذلك تعلم نبوة بما ثبت من معجزاته وأخباره بطريق الأولى ، فيمتنع أن يصدق أحد من المسلمين بنبوة واحد من هؤلاء مع تكذيبه لمحمد فى كلمة مما جاء به .

فصل

ومما ينبغى أن يعلم : أن كثيراً من النصارى إنما يعتمدون فى النبوات على بشارة الأنبياء بمن يأتى بعدهم ، فيقولون : المسيح ــ عليه السلام ــ بشرت به الأنبياء قبله ، بخلاف محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يبشر به نبى . وجواب هؤلاء من وجهين :

أحدها : أن يقال : بل البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم فى الكتب المتقدمة أعظم من البشارة بالمسيح عليه السلام ، وكما أن اليهود يتأولون البشارة بالمسيح على أنه ليس هو عيسى بن مريم بل هو آخر ينتظرونه . وهم فى الحقيقة إنما ينتظرون المسيح الدجال ، فإنه الذى يتبعه اليهود ، ويخرج معه سبعون ألف مطيلس من يهود أصبهان ، ويقتلهم المسلمون معه حتى يقول الشجر والحجر : يامسلم هذا يهودى ورائى تعال فاقتله . كما ثبت ذلك فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وثبت أيضاً فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ينزل عيسى بن مريم من السماء على المنارة البيضاء شرق دمشق ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويقتل مسيح الهدى عيسى بن مريم مسيح الضلالة الأعور الدجال على بضع عشرة خطوة من باب لد ؛ ليتبين للناس أن البشر لا يكون إلها ، فيقتل من ادعى فيه أنه الله وهو برىء مما ادعى فيه لمن ادعى فى نفسه أنه الله وهو دجال كذاب ، فهكذا البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم فى الكتب المتقدمة ، وقد يتأولها بعض أهل الكتاب على غير تأويلها ، كما قد بسط فى موضع آخر ، فإن بسط الكلام فى ذكر محمد صلى الله عليه وسلم فى الكتب التى بأيدى أهل الكتاب له موضع آخر .

الجواب الثانى : أن يقال : ليس من شرط النبى أن يبشر به من تقدمه ، كما أن موسى كان رسولا إلى فرعون ، ولم يتقدم لفرعون به بشارة ، وكذلك الخليل عليه السلام أرسل إلى نمرود ، ولم يتقدم به بشارة نبى إليه ، وكذلك نوح وهود وصالح وشعيب ولوط لم يتقدم بواحد من هؤلاء بشارة إلى قومهم بهم مع كونهم أنبياء صادقين ، فإن دلائل نبوة النبى لا تنحصر فى أخبار من تقدمه ، بل دلائل النبوة منها المعجزات ومنها غير المعجزات ، كما قد بسط فى موضع آخر ، وهؤلاء النصارى إنما مستند دينهم فى التثليث والاتحاد وغير ذلك هو السمع وهو دعواهم أن الكتب الإلهية جاءت بذلك ، ليس مستندهم فيه العقل ، فإذا تبين أنهم مع

تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم يمتنع أن تثبت نبوة غيره امتنع استدلالهم بالسمعيات ، وأما العقليات فإن تشبثوا ببعضها فهم معترفون بأن حجتهم فيها ضعيفة ، وأنها على نقيض مذهبهم أدل منها على مذهبهم ، وسنبين إن شاء الله أن لا حجة لهم فى سمع ولا عقل ، بل ذلك كله حجة عليهم .

وأما تمثيلهم الكتاب بالوثيقة التى كتب الوفاء فى ظهرها فتمثيل باطل غير مطابق ؛ لأن الإقرار بالوفاء إقرار بسقوط الدين ولا مناقضة بين ثبوت الدين أولا وسقوطه آخراً بالوفاء ، بل أمكن مع هذا دعواه ، وأما من يذكر أنه رسول الله فلا يمكن أن يقر بأنه رسول الله فى بعض ما أنبأ به عن الله دون بعض ، ولا يمكن اتباع بعض كتابه الذى ذكر أنه منزل من عند الله دون بعض ، فإنه إن كان صادقا فى قوله : إنه رسول الله ، كان معصوما فى كل ما يخبر به عن الله ، لا يجوز أن يكذب فى شىء منه لا عمداً ولا خطأ ، ووجب اتباع الكتاب الذى جاء به من عند الله ولم يمكن رد شىء مما ذكر أنه جاء به من الله ، وإن كان كاذباً فى كلمة واحدة مما أخبر به عن الله ، فهو من الكاذبين المفترين ؛ فلا يجوز أن يحتج بشىء من دينهم ولا دين غيرهم بمجرد إخباره عن الله ، بل ولا بمجرد خبره وقوله إن لم يذكر أنه خبر عن الله ، كما لا يجوز مثل ذلك فى سائر من عرف أنه كاذب فى قوله : إنى رسول الله ، كمسيلمة الحنفى ، والأسود العنسى ، وطليحة الأسدى ، والحارث الدمشقى ، وبابا الرومى وأمثالهم من الكذابين .

والواحد من المسلمين ، وإن كان الله لا يؤاخذه بالنسيان والخطأ ، بل والرسول أيضاً وإن لم يكن مؤاخذاً بالنسيان والخطأ فى غير ما يبلغه عن الله عند السلف والأئمة وجمهور المسلمين ، لكن ما يبلغه عن الله لا يجوز أن يستقر فيه خطأ ، فإنه لو جاز أن يبلغ عن الله ما لم يقله الله ويستقر ذلك ويأخذه الناس

عنه معتقدين أن الله قاله ولم يقله الله ، كان هذا مناقضاً لمقصود الرسالة ولم يكن رسولا لله فى ذلك ، بل كان كاذباً فى ذلك وإن لم يتعمده ، وإذا بلغ عن الله ما لم يقله وصدق فى ذلك ، كان قد صدق من قال على الله غير الحق ، ومن تقوّل عليه ما لم يقله ، وإن لم يكن متعمداً ويمتنع فى مثل هذا أن يصدقه الله فى كل ما يخبر به عنه أو أن يقيم له من الآيات والبراهين ما يدل على صدقه فى كل ما يخبر به عنه مع أن الأمر ليس كذلك ، ومن قامت البراهين والآيات على صدقه فيما يبلغه عن الله كان صادقا فى كل ما يخبر به عن الله ، لا يجوز أن يكون فى خبره عن الله شىء من الكذب لا عمدا ولا خطأ ، وهذا مما اتفق عليه جميع الناس من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم لم يتنازعوا أنه لا يجوز أن يستقر فى خبره عن الله خطأ ، وإنما تنازعوا هل يجوز أن يقع من الغلط ما يستدركه ويبينه ، فلا ينافى مقصود الرسالة كما نقل من ذكر «تلك الغرانيق العلى، وأن شفاعتهن لترتجى» هذا فيه قولان للناس : منهم من منع ذلك أيضاً وطعن فى وقوع ذلك . ومن هؤلاء من قال : إنهم سمعوا ما لم يقله فكان الخطأ فى سمعهم والشيطان ألقى فى سمعهم .

ومن جوز ذلك قال : إذا حصل البيان ونسخ ما ألقى الشيطان لم يكن فى ذلك محذور ، وكان ذلك دليلا على صدقه وأمانته وديانته ، وأنه غير متبع هواه ولا مصر على غير الحق ، كفعل طالب الرياسة المصر على خطئه .

وإذا كان نسخ ما جزم بأن الله أنزله لا محذور فيه ، فنسخ مثل هذا أولى أن لا يكون فيه محذور ، واستدل على ذلك بقوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، وإن الظالمين لفى شقاق بعيد * وليعلم الذين أوتوا العلم

أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ ، [سورة الحج : ٥٢ — ٥٤] .

وعلى كل قول فالناس متفقون على أن من أرسله الله وأقام الآيات على صدقه فيما يبلغه عن الله : لم يكن ما يبلغه عنه إلا حقا . وإلا كانت الآيات الدالة على صدقه دلت على صدق من ليس بصادق ، وبطلان مدلول الأدلة اليقينية ممتنع .

والصدق الذى هو مدلول آيات الأنبياء وبراهينهم هو أن يكون خبره عن الله مطابقاً لخبره ، لا يخالفه عمداً ولا خطأ ، ولو قال قائل : أنا لا أسمى الخطأ كذبا ، أو قال : إن المخطىء لا إثم عليه فى خطابه ، قيل له : هذا لا ينفع هنا ؛ فإن الآيات دلت على أن الله أرسله ليبلغ عنه رسالاته ، والله لا يرسل من يعلم أنه يخبر عنه بخلاف ما قال له ، كما لا يجوز إرسال من يتعمد عليه الكذب ، بل الواحد من الناس لا يرسل من يعلم أنه يبلغ خلاف ما أرسله به ، ولو علم أنه يقول عليه مالم يقل وأرسله مع ذلك ، لكان جاهلا سفيها ، ليس بعليم حكيم ، فكيف يجوز ذلك على أعلم العالمين ، وأحكم الحاكمين ؟

وأيضاً : فإن الآيات والبراهين دلت على صدقه فى كل ما يبلغه عن الله ، وأن الله مصدقه فى كل ما يبلغه عنه ، فيمتنع أن لا يكون صادقا فى شىء من ذلك ، ويمتنع أن يصدق الله فى كل ذلك من لا يصدق فى كل ذلك ، فإن تصديق من لا يصدق كذب ، والكذب ممتنع على الله .

وإذا تبين أن من ذكر أنه رسول الله إما أن يكون رسولا صادقا فى جميع ما يبلغه ، فيمتنع مع هذا تناقض أخباره ؛ لأنها كلها صادقة ، وإما أن يكون غير صادق ولو فى كلمة فلا يكون رسولا لله ، فلا يحتج بشىء مما يخبر به عن الله كان تمثيل من ذكر أنه رسول الله ، بالمقر باستيفاء وثيقته تمثيلا باطلا ؛ فإن صاحب الوثيقة الذى أقر بوفائها بعد ، كانت له حجة ثم استوفاها .

ومن ذكر أنه رسول الله إما صادق ، وإما كاذب ، وعلى التقديرين لا يجوز أن يحتج ببعض كلامه دون بعض ، وإذا قال القائل : مقصودى أن أبين أنه متناقض ، وأن نفس كلامه يبين أنه لم يرسل إلينا ، وأن ديننا حق ، كما أن نفس كلام الذى كان له الحق هو المقر بالوفاء ، قيل : إن كان كلامه متناقضا فليس برسول ، وحينئذ فلا يجوز لك أن تحتج بشىء مما بلغه عن الله ، بخلاف المقر بالوفاء ، فإن إقراره مقبول على نفسه ، فإنه شاهد على نفسه وشهادته على نفسه مقبولة ، ولو كان كافراً وفاسقاً ، بخلاف شهادته على الله أن الله أرسله ، إذا كذب فى كلمة واحدة لم يكن الله أرسله فلا يقبل شىء من شهادته ، وخبره عن الله .

فمن شبه إقرار المقر على نفسه بقول الذى يقول : إنه رسول الله ، دل ذلك على غاية جهله بالقياس والاعتبار والتمثيل . فإن إقرار المقر على نفسه حجة عليه ولو كان فاسقاً معروفاً بالكذب ، ليس هو مثل شهادة الإنسان على غيره . فإن شهادته على غيره لا تقبل إذا كان معروفا بالكذب ، فكيف بمن شهد على الله بأن الله أرسله ؟ فالمقر على نفسه يمكن قبول إقراره على نفسه ولا يقبل دعواه على غيره ، وكذلك الشاهد قد تقبل شهادته فيما ليس هو خصما فيه ، ولا تقبل شهادته بما ادعاه .

وأما من يقول : إنه رسول الله ، فلا يمكن أن يصدق فى بعض ما يخبر به عن الله ، ويكذب فى بعض ، بل إن كان كاذبا فى كلمة واحدة ، فليس هو رسولا لله ، فلا يحتج بكلامه ، وإن قدر أن الكلام فى نفسه صدق لكن نسبته إلى الله أن الله أرسله به وأوحاه لا يكون صادقا فيه إذا كذب فى كلمة واحدة ؛ لأن الله لا يرسل كاذبا .

وإن لم يكن كاذبا فى كلمة واحدة وجب تصديقه فى كل ما يخبر به ، فلا

يمكن تصديقه فى بعض ما يخبر به عن الله دون بعض ، بخلاف المقر والشاهد .

وإن كان المقصود : بيان تناقضه ، كان هذا احتجاجا على أنه ليس برسول ، فلا ينفعهم ذلك ، مع أنه تبين أنه ليس بمتناقض .

وإن كان المقصود : إلزام المسلمين به ، فقد بينا أنه لا يلزمه من وجوه متعددة ، فهذا بيان أنه لا يجوز لهم الاحتجاج بشىء من كلام محمد صلى الله عليه وسلم سواء صدقوه أو كذبوه .

ثم يقال لهم ثانياً : فالجواب عن التمثيل بالوثيقة : إن الإقرار بالاستيفاء يناقض استيفاء الحق . وأما القرآن الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فليس فى إخباره بأنه أرسل إلى قريش ، ثم إلى العرب ، ما يناقض إخباره بأنه أرسل إلى جميع الناس : أهل الكتاب وغيرهم ، كما أنه ليس فى إخباره أنه أرسل إلى بنى إسرائيل ومخاطبة الله لهم بقوله: «يابنى إسرائيل» مايمنع أن يكون مرسلا إلى اليهود من غير بنى إسرائيل وإلى النصارى والمشركين ، وهو أنه لم يقل قط : إنى لم أرسل إلا إلى العرب ، ولا قال ما يدل على هذا ، بل ثبت عنه بالنقل المتواتر أنه قال : إنه مرسل إلى جميع الجن والإنس ، إلى أهل الكتاب وغيرهم ، ولو قدر أنه قال : إنه لم يرسل إلا إلى العرب ، ثم قال : إنى أرسلت إلى أهل الكتاب ، لكان قد أرسل إلى أهل الكتاب بعد إرساله إلى العرب ، كما قال : ﴿ قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٤٥] . وقال أيضاً : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾ ، [سورة النحل : ١١٥] . ثم إنه بعد هذا حرم الله أشياء فلم يكن بين نفى تحريمها فى الزمن الأول ، وإثبات تحريمها فى الزمن الثانى منافاة .

ولكن نظير الدين إذا أوجب شيئاً ثم نسخ إيجابه كما نسخ إيجاب الصدقة

بين يدى النجوى ، فى مثل هذا يتمسك بالنص الناسخ دون المنسوخ ، كما يتمسك بالإقرار بالوفاء الناسخ للاقرار بالدين .

فصل

وقد ذكر أنه لا يجوز أن يحتجوا بشىء من القرآن ، وما نقل عن محمد صلى الله عليه وسلم إلا مع التصديق برسالته ، وأنه مع التكذيب برسالته لا يمكن الإقرار بنبوة غيره ، ولا الاحتجاج بشىء من كلام الأنبياء . فتكذيبهم به يستلزم تكذيبهم بغيره ، فإذا ثبتت نبوة غيره ثبتت نبوته ، وذلك يستلزم بطلان دينهم ، فكان صحة دليلهم يستلزم بطلان المدلول ، وفساد المدلول يستلزم فساد الدليل ، فإن الدليل ملزوم للمدلول عليه ، وإذا تحقق الملزوم تحقق اللازم ، وإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم ، فإذا ثبت الدليل ثبت المدلول عليه ، وإذا فسد المدلول عليه لزم فساد الدليل . فإن الباطل لا يقوم عليه دليل صحيح ، فإن كان محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله لزم بطلان دينهم ، وإذا بطل دينهم لم يجز أن يقوم دليل صحيح على صحته . وإذا لم يكن رسول الله لم يجز الاستدلال بقوله ، فثبت أن استدلالهم بقوله باطل على التقديرين .

ونحن نذكر هنا : أنه لا يجوز استدلالهم بقول أحد من الأنبياء أو الرسل على صحة دينهم ، وأيضاً فإن الذين احتجوا بقولهم : مثل موسى وداود والمسيح وغيرهم ، إما أن يكونوا عرفوا أنهم أنبياء بدليل على نبوتهم ، كالاستدلال بآياتهم وبراهينهم التى تسمى بالمعجزات ، وإما أن يكونوا قد اعتقدوا ذلك بلا علم ولا دليل ، وإما أن يكونوا احتجوا بذلك على المسلمين ؛ لأنهم يسلمون بنبوة هؤلاء . وعلى كل تقدير لا يصح استدلالهم بقولهم .

أما على الأول ؛ فلأنه : أى طريق ثبت به نبوة واحد من هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ، فإنه تثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بمثلها وأعظم منها ، وحينئذ

فإن لم يقروا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مع أن كل دليل يدل على نبوة موسى وداود وعيسى وغيرهم ، يدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لزم أن يكونوا قد نقضوا دليلهم فجعلوه قائماً مع انتفاء مدلوله ، وإذا انتقض الدليل بطلت دلالته ، فإنه إنما يدل إذا كان مستلزماً للمدلول .

فإذا كان تارة يوجد مع المدلول وتارة لا يوجد ،لم يكن مستلزماًله فلا يكون دليلا ؛ فإن من جعل المعجزات دليلا على نبوة نبى ، وقال : المعجزة هى الفعل الخارق للعادة ، المقرون بالتحدى ، السالم من المعارضة . ونحو ذلك مما يذكر فى هذا المقام وجعلوا ذلك دليلا على نبوة موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء . قيل له : إن كان هذا دليلا ، فهو دليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يكن دليلا لم يكن دليلا على نبوة موسى وعيسى ، فإنه قد ثبت عن محمد صلى الله عليه وسلم من المعجزات مالم يثبت مثله عن غيره ، ونقل معجزاته متواتر أعظم من نقل معجزات عيسى وغيره ، فيمتنع التصديق بآياته مع التكذيب بآيات محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن قالوا معجزات محمد صلى الله عليه وسلم لم تتوافر عندنا . قيل : ليس من شرط التواتر أن تتواتر عند طائفة معينة ، بل هذا كما يقول المشركون والمجوس وغيرهم لم تتواتر عندنا معجزات موسى والمسيح عليهما السلام ، وإنما تتواتر أخبار كل إنسان عند كل من رأى المشاهدين له أو رأى من رآهم وهلم جرا .

ومعلوم : أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الذين رأوه ونقلوا معجزاته أضعاف أصحاب المسيح عليه السلام . والتابعون الذين نقلوا ذلك عن الصحابة كذلك فيلزم من التصديق بمعجزات المسيح عليه السلام التصديق بمعجزات محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن التكذيب بمعجزات محمد التكذيب بمعجزات المسيح ، وإن قالوا عرفت نبوة المسيح ببشارات الأنبياء قبله . قيل : وفى الكتب المتقدمة من البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم مثل ما فيها من البشارات بالمسيح وأكثر كما سيأتى بعضها إن شاء الله تعالى .

وإن تأولوا تلك البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم بما يمنع دلالتها .
قيل لهم : واليهود يتأولون بشارات المسيح بما يمنع دلالتها على المسيح .

فإذا قالوا : تلك التأويلات باطلة من وجوه معروفة ، بين لهم أن هذه باطلة أيضاً بمثل تلك الوجوه وأقوى ، فما من جنس من الأدلة يدل على نبوة موسى والمسيح ، إلا ودلالته على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أقوى وأكثر فيلزم من ثبوت نبوة موسى والمسيح ثبوت نبوة محمد ، ومن الطعن فى نبوة محمد الطعن فى نبوة موسى والمسيح . وإن قالوا : إن المسيح إله . قيل لهم : ثبوت كونه إلهاً لو كان ممكناً أبعد من ثبوت كونه رسولا ، فكيف إذا كان ممتنعاً ؟ وذلك أنه ليس معهم ما يدل على إلهيته إلا ما ينقلونه من أقوال الأنبياء ، أو الخوارق ، والخوارق لا تدل على الإلهية فإن الأنبياء ما زالوا يأتون بالآيات الخارقة للعادة ولم تدل على إلهية أحد منهم .

وأما أقوال الأنبياء — عليهم السلام — فلا ريب أن دلالتها على رسالته ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم أظهر من دلالتها على إلهية المسيح ، فيمتنع الاحتجاج بها على إلهية المسيح دون رسالة محمد ورسالة المسيح ، ومتى ثبت أن محمداً رسول الله يطلب إلهية المسيح ، فإنه كفر من قال : إنه الله أو ابن الله . بل وكذلك متى ثبت أن المسيح رسول الله بطل كونه إلهاً ، فإن كونه هو الله مع كونه رسول الله متناقض . وقولهم : إنه إله بلاهوته ، ورسول بناسوته ، كلام باطل من وجوه :

منها : أن الذى كان يكلم الناس ، إما أن يكون هو الله أو هو رسول الله ، فإن كان هو الله ، بطل كونه رسول الله . وإن كان هو رسول الله ، بطل كونه هو الله .

ولهذا لما كان الذى كلم موسى — عليه السلام — من الشجرة هو الله لم تنطق الكتب بأنه رسول الله ، وهذا وارد بأى وجه فسروا الاتحاد ، فإنه من

المعلوم أن الناس كانوا يسمعون من المسيح كلاماً بصوته المعروف ، وصوته لم يختلف عليهم، ولا حاله عند الكلام تغيرت، كما يختلف الإنسان وحاله عند الكلام إذا دخل فيه الجنى ، وإذا فارقه الجنى ، فإن الجنى إذا تكلم على لسان المصروع ظهر الفرق بين ذلك المصروع وبين غيره من الناس، بل اختلف حال المصروع وحال كلامه وسمع منه من الكلام ما يعلم يقيناً أنه لا يعرفه وغاب عقله بحيث يظهر ذلك للحاضرين واختلف صوته ونغمته ، فكيف بمن يكون رب العالمين هو الحال فيه المتحد به المتكلم بكلامه؟ فإنه لابد أن يكون بين كلامه وصوته وكلام سائر البشر وصوتهم من الفرق أعظم من الفرق الذى بين المصروع وغير المصروع بما لا نسبة بينهما .

يبين هذا : أن موسى لما سمع كلامه سمع صوتاً خارقاً للعادة مخالفاً لما يعهد من الأصوات ، ورأى من الآيات الخارقة والعجائب ما يبين أن ذلك الذى نسمعه لا يقدر على التكلم به إلا الله، وأما المسيح فلم يكن بين كلامه وصوته طول عمره، وكلام سائر الناس فرق يدل على أنه نبى فضلا عن أن يدل على أنه إله ، وإنما علم أنه نبى بأدلة منفصلة ولم يكن حاله يختلف مع أنهم يقولون: إن الاتحاد ملازم له من حين خلق ناسوته فى بطن أمه مريم وإلى الأبد لا يفارق اللاهوت لذلك الناسوت أبداً

وحينئذ فمن المعلوم : أن خطابه للناس إن كان خطاب رب العالمين لم يكن هو رسوله ، وإن كان خطاب رسوله ، لم يكن ذلك صوت رب العالمين .

الوجه الثانى : أن خطابه خطاب رسول ونبى ، كما ثبت ذلك عنه فى عامة المواضع .

الثالث . أن مصير الشيئين شيئاً واحداً مع بقائهما على حالهما بدون الاستحالة والاختلاط ممتنع فى صريح العقل، وإنما المعقول مع الاتحاد أن يستحيلا و يختلطا ، كالماء مع الخمر واللبن ، فإنهما إذا صارا شيئاً واحداً ، استحالا واختلطا .

الرابع : أنه مع الاتحاد يصير الشيئان شيئًا واحداً ؛فيكون الإله هو الرسول والرسول هو الإله،إذ هذا هو هذا،وإن كان الإله غير الرسول ، فهما شيئان ومهما مثلوا به قولهم كتشبيهم ذلك بالنار فى الحديد والروح فى البدن ، فإنه يدل على فساد قولهم ، فإن الحديد متى طرق أو وضع فى الماء ، كان ذلك مصيباً للنار ، وكذلك البدن إذا جاع أو صلب وتألم ، كان ذلك الألم مصيباً للروح ، فيلزم أن يكون رب العالمين قد أصابه ألم الجوع والعطش ، وكذلك الضرب والصلب على قولهم وهذا شر من قول اليهود : إنه بخيل ، وإنه مسه اللغوب .

فصـــل

وإن كان مقصودهم الاحتجاج بذلك على المسلمين . قيل لهم : أولا هذه حجة جدلية،فما مستندكم فيما بينكم وبين الله فى تصديق شخص وتكذيب آخر، مع أن دلالة الصدق فيهما واحدة ، بل هى فى الذى كذبتموه أظهر ؟ فإن كانت حقاً لزم تصديق من كذبتموه وفسد دينكم . وإن كانت باطلة ، بطل استدلالكم بها على دينكم ، فثبت أنهم مع تكذيب محمد صلى الله عليهم وسلم لا يستقيم لهم الاستدلال بكلام أحد من الأنبياء عليهم السلام .

وقيل لهم ثانياً : المسلمون إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بما دلهم على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فإن لم يكن محمد صادقاً لم يعرفوا صدق هؤلاء فيبطل دليلكم ، وإن كان صادقاً بطل دين النصارى فيبطل دليل صحته فثبت بطلان دليلهم على كل تقدير .

وقيل لهم ثالثاً : المسلمون لم يصدقوا نبوة أحد من هؤلاء إلا مع نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وإن قيل إنهم عرفوا ذلك بطريق آخر ، فإن الدليل الذى يدل على صدق واحد منهم يدل على صدق محمد بطريق الأولى فلا يمكنهم تصديق شىء مع تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم :

وقيل لهم رابعاً : هم إنما يصدقون بموسى وعيسى اللذين بشرا بمحمد صلى الله

عليه وسلم ، فإن كانا قد بشرا به فتثبت نبوته ، وإن لم يكونا بشرا به ، فهم لا يؤمنون إلا بالمبشرين به ، وبالتوراة والإنجيل اللذين هو مكتوب فيهما ، فإن قدر عدم ذلك فهم لا يسلمون وجود موسى وعيسى وتوراة وإنجيل منزلين من الله ليس فيهما ذكره صلى الله عليه وسلم ، وإن قالوا : نحن صدقنا هؤلاء الأنبياء بلا علم لنا بصدقهم وطريق يدل على صدقهم ؛ لأن هذا دين آبائنا وجدناهم يعظمون هؤلاء ويقولون هم أنبياء . فاتبعنا آباءنا فى ذلك من غير علم ، وهذا هو الواقع من أكثرهم . قيل : فإذا كان هذا قولكم فى الأنبياء وفيما شهدوا به ـ إن كانوا شهدوا ـ فيلزم أن لا يكونوا عالمين به ، بل متبعين فيه لآبائهم بغير علم بطريق الأولى ، وبهذا يحصل المقصود ، وهو أن ما أنتم عليه من اعتقادين النصرانية لا علم لكم به ولا دليل لكم على صحته ، بل أنتم فيه متبعون لآبائكم كاتباع اليهود والمشركين لآبائهم ، ولا ريب أن هذا حال النصارى ، ولهذا سماهم الله ضلالا فى قوله : ﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ ، [سورة الكهف : ٤ ، ٥]

وقال تعالى : ﴿ وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب ﴾ ، [سورة الشورى : ١٤] .

ولهذا كان النصارى معروفين بالجهل والضلال ، كما أن اليهود معروفون بالظلم والقسوة والعناد ، فتبين بما ذكرناه أنه لا يمكنهم مع تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم فى كلمة واحدة الاحتجاج بقول أحد من الأنبياء على شىء من دينهم ولا دين غيرهم .

فصل

وأما كون القرآن أنزل باللسان العربى وحده فعنه أجوبة :

أحدها : أن يقال : والتوراة إنما أنزلت باللسان العبرى وحده ، وموسى عليه السلام لم يكن يتكلم إلا بالعبرية ، وكذلك المسيح لم يكن يتكلم بالتوراة والإنجيل وغيرهما إلا بالعبرية ، ثم وكذلك سائر الكتب لا ينزلها الله إلا بلسان واحد ، بلسان الذى أنزلت عليه ولسان قومه الذين يخاطبهم أولا ، وسائر الأنبياء إنما يخاطبون الناس بلسان قومهم الذى يعرفونه أولا ، ثم بعد ذلك تبلغ الكتب وكلام الأنبياء لسائر الأمم ، إما بأن يترجم لمن لا يعرف لسان ذلك الكتاب ، وإما بأن يتعلم الناس لسان ذلك الكتاب فيعرفون معانيه ، وإما بأن يبين المرسل إليه معانى ما أرسل به الرسول إليه بلسانه وإن لم يعرف سائر ما أرسل به .

وقد أخبر الله فى القرآن ماقالته الرسل لقومهم وماقالوا لهم وأكثرهم لم يكونوا عرباً ، وأنزله الله باللسان العربى ، وحينئذ فإن شرط التكليف تمكن العباد من فهم ما أرسل به الرسول إليهم ، وذلك يحصل بأن يرسل بلسان يعرف به مراده ثم جميع الناس متمكنون من معرفة مراده بأن يعرفوا ذلك اللسان أو يعرفوا معنى الكتاب بترجمة من يترجم معناه ، وهذا مقدور للعباد ، ومن لم يمكنه فهم كلام الرسول إلا بتعلم اللغة التى أرسل بها ، وجب عليه ذلك . فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، بخلاف مالا يتم الوجوب إلا به ، فإنه ليس بواجب ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لا فى الأصل ولا فى التمام . فلا نحتاج أن نقول ما لا يتم الواجب إلا به ، وكان مقدوراً للمكلف فهو واجب ، فإن ما ليس مقدوراً عليه لا يكلف به العباد ، بل وقد يكون مقدوراً عليه ولا يكلفون به ؛ فلما كانت الاستطاعة شرطاً فى وجوب الحج لم يجب تحصيل الاستطاعة بخلاف قطع المسافة ، فإنه ليس شرطاً فى الوجوب . فلهذا يجب على الإنسان الحج من المسافة البعيدة والقريبة إذا كان مستطيعاً ، وجمهور الناس لا يعرفون معانى

الكتب الإلهية : التوراة والإنجيل والقرآن إلا بمن يبينها أو يفسرها لهم ، وإن كانوا يعرفون اللغة ، فهؤلاء يجب عليهم طلب علم ما يعرفون به ما أمرهم الله به ونهاهم عنه ، وهذا هو طلب العلم المفروض على الخلق ، وكذلك ما يبينه الرسول صلى الله عليه وسلم من معانى الكتاب الذى أنزله الله عليه يجب على الخلق طلب علم ذلك ممن يعرفه ، إذا كان معرفة ذلك لا تحصل بمجرد اللسان .

كما يروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : تفسير القرآن على أربعة أوجه : تفسير تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى ، فمن ادعى علمه فهو كاذب ، والله تعالى قال : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ﴾ ، [سورة إبراهيم : ٤] . لم يقل : وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه ، لكن لم يرسله إلا بلسان قومه الذين خاطبهم أولا ليبين لقومه ، فإذا بين لقومه ما أراده حصل بذلك المقصود لهم ولغيرهم ، فإن قومه الذين بلغ إليهم أولا يمكنهم أن يبلغوا عنه اللفظ ، ويمكنهم أن ينقلوا عنه المعنى لمن لا يعرف اللغة ، ويمكن غيرهم أن يتعلم منهم لسانه فيعرف مراده ، فالحجة تقوم على الخلق ويحصل لهم الهدى بمن ينقل عن الرسول ، تارة المعنى وتارة اللفظ ، ولهذا يجوز نقل حديثه بالمعنى ، والقرآن تجوز ترجمة معانيه لمن لا يعرف العربية باتفاق العلماء

وجوز بعضهم أن يقرأ بغير العربية عند العجز عن قراءته بالعربية بعضهم جوزه مطلقاً ، وجمهور العلماء منعوا أن يقرأ بغير العربية وإن جاز أن يترجم للتفهيم بغير العربية ، كما يجوز تفسيره وبيان معانيه . وإن كان التفسير ليس قرآنا متلواً ، وكذلك الترجمة ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « نضّر الله امْرَءاً سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

وقال أيضاً فى الحديث الصحيح : « مثل مابعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها طائفة أمسكت الماء ، فنفع الله به الناس فزرعوا وسقوا ، وكانت منها طائفة إنما هى قيعان لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من تفقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

فدعا النبي صلى الله عليه وسلم لمن يبلغ حديثه وإن لم يتفقه وقال : « رب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

وقد كان العارفون باللغة العربية حين بعث الله محمداً صل الله عليه وسلم إنما يوجدون فى جزيرة العرب وما والاها ، كأرض الحجاز واليمن وبعض الشام والعراق، ثم انتشر فصار أكثر الساكنين فى وسط المعمورة يعرفون العربية،حتى اليهود والنصارى الموجودون فى وسط الأرض يتكلمون بالعربية ، كما يتكلم بها أكثر المسلمين ، بل كثير من اليهود والنصارى يتكلمون بالعربية أجودمما يتكلم بها كثير من المسلمين ، وقد انتشرت هذه اللغة أكثرمما انتشرت سائر اللغات حتى إن الكتب القديمة من كتب أهل الكتاب ، ومن كتب الفرس والهند ، واليونان ، والقبط ، وغيرهم عربت بهذه اللغة . ومعرفة الكتب المصنفة بالعربية والكلام العربى أيسر على جمهور الناس من معرفة الكتب المصنفة بغير العربية . فإن اللسان العبرى ، والسريانى ،والرومى ، والقبطى ، وغيرهاوإن عرفة طائفه من الناس ، فالذين يعرفون اللسان العربى أكثر ممن يعرف لسانامن هذه الألسنة .

وأيضاً فمعرفة ما أمر الله به عباده أمراً عاما هو مما نقلته الأمة عن نبيها محمد صلى الله عليه وسلم نقلا متواتراً ، وأجمعت عليه مثل الأمر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله،وأنه أرسل إلى جميع الناس،أميهم وغير أميهم،وإقام

الصلوات الخمس ، وإيتاء الزكاة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت العتيق من استطاع إليه سبيلا ، وإيجاب الصدق وتحريم الفواحش والظلم ، والأمر بالإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت هو ما يعرفه المسلمون معرفة عامة ، ولا يحتاج الإنسان فى معرفة ذلك إلى أن يحفظ القرآن ، بل يمكن للانسان معرفة ما أمر الله به على لسان رسوله وإن لم يعرف اللغة العربية ، ويكفيه أن يقرأ فاتحة الكتاب وسوراً معها يصلى بهن ، وكثير من الفرس ، والروم ، والترك والهند ، والحبشة ، والبربر وغيرهم لا يعرفون أن يتكلموا بالعربية الكلام المعتاد ، وقد أسلموا وصاروا من أولياء الله المتقين . ومنهم من يحفظ القرآن كله وإذا كلم الناس لا يستطيع أن يكلمهم إلا بلسانه لا بالعربية ، وإذا خوطب بالعربية لم يفقه ما قيل له .

الوجه الثانى : أن المسيح عليه السلام كان لسانه عبريا ، وكذلك ألسنة الحواريين الذين اتبعوه أولا ، ثم إنه أرسلهم إلى الأمم يخاطبونهم ويترجمون لهم ما قاله المسيح عليه السلام ، فإن قالوا : إن رسل المسيح حولت ألسنتهم إلى ألسنة من أرسل إليهم .

قيل : هذا منقول فى رسل المسيح ، وفى رسل محمد صلى الله عليهما وسلم الذين أرسلهم إلى الأمم ، ولا ريب أن رسل رسل الله ، كرسل محمد والمسيح عليهما الصلاة والسلام إلى الأمم ، لابد أن يعرفوا لسان من أرسلهم الرسول إليهم ، أو أن يكون عند أولئك من يفهم لسانهم ولسان الرسول ليترجم لهم ، فإذا لم يكن عند من أرسل المسيح إليهم من يعرف بالعربية ، فلا بد أن يكون رسوله ينطق بلسانهم .

وكذلك رسل النبى صلى الله عليه وسلم الذين أرسلهم إلى الأمم ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية أرسل رسله إلى أهل الأرض ، فبعث إلى ملوك العرب باليمن ، والحجاز ، والشام ، والعراق ، وأرسل إلى ملوك النصارى

بالشام ومصر قبطهم ، ورومهم ، وعربهم ، وعجمهم ،وغيرهم،وأرسل إلى الفرس المجوس ملوك العراق وخراسان .

قال محمد بن سعد فى الطبقات : ذكر بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الرسل بكتبه إلى الملوك وغيرهم يدعوهم،وذكر ما كتب به رسول الله صلى الله عليه وسلم لناس من العرب وغيرهم . ثم قال:أخبرنا محمد بن عمرو الأسلمى قال :حدثنى محمد بن معمر بن راشد ، ومحمد بن عبد الله عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال : وعن الواقدى : حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبى سبرة عن المسور بن رفاعة ، وحدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه عن جدته الشفا ،وحدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبى سبرة عن محمد بن يوسف عن السائب بن يزيد عن العلاء بن الحضرمى ، وحدثنا ابن محمد الأنصارى عن جعفر بن عمرو بن جعفر بن عمرو بن أمية الضمرى عن أهله عن عمرو بن أمية الضمرى دخل حديث بعضهم فى حديث بعض قالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية فى ذى الحجة سنة ست أرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام . وكتب إليهم كتبا فقيل :يارسول الله،إن الملوك لا يقرأون كتابا إلا مختوما ، فاتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ خاتما من فضة فصه منه نقشه ثلاثة أسطر محمد رسول الله وختم به الكتب فخرج ستة نفر منهم فى يوم واحد ، وذلك فى المحرم سنة سبع،وأصبح كل واحد منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم . أرسل النبى صلى الله عليه وسلم إلى هرقل: دحية بن خليفة الكلبي،و إلى المقوقس صاحب مصر والإسكندرية: حاطب بن أبى بلتعة ، وإلى كسرى : عبد الله بن حذافة السهمى ، وأرسل إلى الحارث ابن أبى شمر الغسانى — وكان نصرانياً يظاهر دمشق — فبعث إليه شجاع ابن ذهب الأسدى ، وأرسل إلى غير هؤلاء .

وقال أيضاً : أخبرنا الهيثم بن عدى قال : أخبرنا دلهم بن صالح وأبو بكر الهذلى عن عبد الله بن بريدة بن الحصيب الأسلمى قال : وحدثنا محمد بن إسحاق

عن يزيد ابن رومان والزهرى ، وحدثنا الحسن بن عمارة عن فراش عن الشعبى دخل حديث بعضهم فى حديث بعض : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « ائتونى بأجمعكم بالغداة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الفجر يجلس فى مصلاه ليلا يسبح ويدعو ، ثم التفت إليهم فبعث عدة إلى عدة ، وقال صلى الله عليه وسلم : انصحوا لله فى أمر عباده ، فإن من أخبر عن شىء من أمور المسلمين ، ثم لم ينصح حرم الله عليه الجنة ، انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى بن مريم، فإنهم أتوا القريب وتركوا البعيد فأصبحوا ـ يعنى الرسل ـ وكل منهم يعرف بلسان القوم الذين أرسل إليهم وذكر ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : هذا أعظم ما كان من حق الله عز وجل عليهم فى أمر عباده » .

الوجه الثالث : أن النصارى فيهم عرب كثير فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، وكل من يفهم اللسان العربى ، فإنه يمكن فهمه للقرآن ، وإن كان أصل لسانه فارسيا أو روميا أو تركيا أو هنديا أو قبطيا ، وهؤلاء الذين أرسلوا هذا الكتاب من علماء النصارى قد قرأوا المصحف وفهموا منه ما فهموا وهم يفهمونه بالعربية واحتجوا بآيات من القرآن ، فكيف يسوغ لهم مع هذا أن يقولوا : كيف تقوم الحجة علينا بكتاب لم نفهمه ؟

الوجه الرابع : أن حكم أهل الكتاب فى ذلك حكم المشركين ، معلوم أن المشركين فيهم عرب وفيهم عجم ـ ترك وهند وغيرهما ـ فكما أن جميع المشركين كمشركى العرب ، وكذلك جميع أهل الكتاب كأهل الكتاب من العرب وفى اليهود والنصارى ممن يعرف لسان العرب من لا يحصيه إلا الله عز وجل .

الوجه الخامس : إنه ليس فهم كل آية من القرآن فرضاً على كل مسلم وإنما يجب على المسلم أن يعلم ما أمره الله به ، وما نهاه عنه بأى عبارة كانت ، هذا ممكن لجميع الأمم ، ولهذا دخل فى الإسلام جميع أصناف العجم من الفرس ، والترك ، والهند ، والصقالبة ، والبربر ، ومن هؤلاء من يعلم اللسان العربى ، ومنهم من يعلم

مما فرض الله عليه بالترجمة ، وقد قدمنا أنه يجوز ترجمة القرآن فى غير الصلاة والتعبير ، كما يجوز تفسيره باتفاق المسلمين ، وإنما تنازعوا هل يقرأ بغير العربية تلاوة كما يقرأ فى الصلاة ؟ فجمهور العلماء منعوا من ذلك ، وحينئذ فإذا قرأ الأعجمى فاتحة الكتاب وسورتين معها بالعربية أجزأه ، وكذلك التشهد وغيره من الذكر المأمور به وهذا أمر يسير يسير من أكثر الواجبات ، فكيف يمتنع أن يأمر الله تبارك وتعالى عباده بذلك ؟

وأما جمل ما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم من الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وما حرمه الله من الشرك والفواحش والظلم وغير ذلك ، فهذا مما يمكن أن يعرفه كل أحد بتعريف من يعرفه ، إما باللسان العربى ، وإما بلسان آخر لا يتوقف تعريف ذلك على لسان العرب .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ ، [سورة يوسف : ٢] . وقوله : ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى ﴾ ، [سورة فصلت : ٤٤] . وقوله : ﴿ إنا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ ، [سورة الزخرف : ٣] .

فهذا يتضمن إنعام الله به على عباده ؛ لأن اللسان العربى أكمل الألسنة وأحسنها بياناً للمعانى ، فنزول الكتاب به أعظم نعمة على الخلق من نزوله بغيره ، وهو إنما خوطب به أولا العرب ليفهموه ، ثم من يعلم لغتهم يفهمه كما فهموه ، ثم من لم يعلم لغتهم ترجمه له من عرف لغتهم ، وكان إقامة الحجة به على العرب أولا والإنعام به عليهم أولا لمعرفتهم بمعانيه قبل أن يعرفه غيرهم .

قال تعالى : ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ﴾ ، [سورة الدخان : ٥٨] . ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً ﴾ ، [سورة مريم : ٩٧] .

واللد جمع الألد ، وهو الأعوج فى المناظرة الذى يروغ عن الحق ، كما قاله النبى صلى الله عليه وسلم « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » ، وأما قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ ، [سورة إبراهيم : ٤] .

فهو كما قال تعالى وقوم محمد صلى الله عليه وسلم هم قريش ، وبلسانهم أرسل ، وهو سبحانه لم يقل : وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه ، بل الرسول يبعثه الله إلى قومه وغير قومه ، كما تقول النصارى : إنه بعث المسيح عليه السلام ، أو الحواريون إلى غير بنى إسرائيل ، وليسوا من قومه ، وكذلك بعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى قومه وغير قومه ، ولكن إنما يبعث بلسان قومه ، ليبين لهم ثم يحصل البيان لغيرهم بتوسط البيان لهم ، إما بلغتهم ولسانهم ، وإما بالترجمة لهم ولو لم يبين لقومه أولا لم يحصل مقصود الرسالة لا لهم ولا لغيرهم ، وإذا تبين لقومه أولا حصل البيان لهم ولغيرهم بتوسطهم وقومه إليهم بعث أولا ولهم دعا أولا ، وأنذر أولا ، وليس فى هذا أنه لم يرسل إلى غيرهم ، لكن إذا تبين لقومه لكونه بلسانهم ، أمكن بعد هذا أن يعرفه غير قومه ، إما بتعلمه بلسانهم ، وإما بتعريف بلسان يفهم به ، والرجل يكتب كتاب علم فى طب أو نحو أو حساب بلسان قومه ثم يترجم ذلك الكتاب ، وينقل إلى لغات أخر ، وينتفع به أقوام آخرون ، كما ترجمت كتب الطب والحساب ، التى صنعت بغير العربى ، وانتفع بها العرب ، وعرفوا مراد أصحابها ، وإن كان المصنف لها أولا إنما صنفها بلسان قومه ، وإذا كان هذا فى بيان الأمور التى لا تتعلق بها سعادة الآخرة ، والنجاة من عذاب الله ، فكيف يمتنع فى العلوم التى تتعلق بها سعادة الآخرة والنجاة من العذاب أن ينقل من لسان إلى لسان حتى يفهم أهل اللسان الثانى بها ما أراده بها المتكلم بها أولا باللسان الأول ، وأبناء فارس المسلمون لما كان لهم عناية بهذا ، ترجموا مصاحف كثيرة ، فيكتبونها بالعربى ، ويكتبون الترجمة بالفارسية ، وكانوا قبل

الإسلام أبعد عن المسلمين من الروم والنصارى ، فإذا كان الفرس المجوس قد وصل إليهم معانى القرآن بالعربى وترجمته ، فكيف لا يصل إلى أهل الكتاب وهم أقرب إلى المسلمين منهم ؟ وعامة الأصول التى يذكرها القرآن عندهم شواهدها ونظائرها فى التوارة ، والإنجيل ، والزبور ، وغير ذلك من النبوات، بل كل من تدبر بنبوات الأنبياء وتدبر القرآن جزم جزماً يقينيًا بأن محمداً رسول الله حقا ، وأن موسى رسول الله صدقاً، لما يرى من تصادق الكتابين: التوارة والقرآن مع العلم بأن موسى عليه السلام لم يأخذ عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يأخذ عن موسى ، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم باتفاق أهل المعرفة بحاله كان أمياً ، من قوم أميين ، مقيما بمكة ، ولم يكن عندهم من يحفظ التوراة ، ولا الإنجيل ، ولا الزبور ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يخرج من بين ظهرانيهم ولم يسافر قط إلا سفرتين : إلى الشام خرج مرة مع عمه أبى طالب قبل الاحتلام ، ولم يكن يفارقه ، ومرة أخرى مع ميسرة فى تجارته ، وكان ابن بضع وعشرين سنة مع رفقة كانوا يعرفون جميع أحواله ولم يجتمع قط بعالم أخذ عنه شيئاً ، لا من علماء اليهود ولا النصارى ولا من غيرهم، لا بحيرى ولا غيره، ولكن كان بحيرى الراهب لما رآه عرفه لما كان عنده من ذكره ونعته، فأخبر أهله بذلك ، وأمرهم بحفظه من اليهود ، ولم يتعلم لا من بحيرى ولا من غيره كلمة واحدة ، وسنبين إن شاء الله الدلائل الكثيرة على أنه لم يأخذ عن أحد من أهل الكتاب كلمة واحدة ، وقصة بحيرى مذكورة ذكرها أرباب السير وأصحاب المسانيد والسنن.

قال الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى فى جامعه : حدثنا الفضل أبو العباس البغدادى قال : حدثنا عبد الرحمن بن غزوان أبو نوح أنا يونس بن أبى إسحاق عن أبى بكر بن أبى موسى الأشعرى عن أبيه قال : خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبى صلى الله عليه وسلم فى أشياخ من قريش: فلما أشرفوا على الراهب هبطوا، فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك

يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت ، قال : فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء، فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أشياخ من قريش: ماعلمك؟ فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجد ، ولا يسجدون إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غرضوف كتفه مثل التفاحة ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاهم به ـ وكان هو فى رعية الإبل ـ فقال: أرسلوا إليه فأقبل وعليه غمامة تظله ، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه ، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه . قال: فبينما هو قائم عليهم يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم ، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه ، فالتفت فإذا بسبعة قد أقبلوا من الروم، فاستقبلهم الراهب فقال : ماجاء بكم ؟ قالوا : جئنا لأن هذا النبي خارج فى هذا الشهر فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس وأنا قد أخبرنا خبره بطريقك هذه . فقال : أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده ؟ قالوا : لا . قال : فتابعوه وأقاموا معه . قال : أنشدكم الله يامعشر العرب أيكم وليه ؟ فقال أبو طالب : أنا . فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب وزوده الراهب من الكعك والزيت .

قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . ورواه البيهقى فى كتاب دلائل النبوة من حديث العباس بن محمد عن قراد بن نوح . وقال العباس : لم يحدث به ـ يعنى بهذا الإسناد ـ غير قراد وسمعه يحيى وأحمد بن قراد .

قال البيهقى : أراد أنه لم يحدث بهذا الإسناد سوى هؤلاء ، فأما القصة فهى عند أهل المغازى مشهورة .

قال ابن سعد فى الطبقات : حدثنا محمد بن عمر قال : حدثنى محمد بن صالح وعبد الله بن جعفر وإبراهيم بن إسماعيل بن أبى حبيبة عن داود بن الحصين قال

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنى عشرة سنة خرج به أبو طالب إلى الشام فى العير التى خرج فيها للتجارة ، فنزلوا بالراهب بحيرى فقال بحيرى لأبى طالب فى النبى صلى الله عليه وسلم ماقال ، وأمره أن يحتفظ به فرده أبو طالب معه إلى مكة ، وشب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبى طالب يكلؤه الله و يحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعائبها لما يريده به من كرامته حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم مخالطة ، وأعظمهم حلما وأمانة ، وأصدقهم حديثاً ، وأبعدهم من الفحش والأذى ماروؤى ملاحيا ولا مماريا أحدا حتى سماه قومه الأمين لما جمع فيه من الأمور الصالحة .

وقال ابن الجوزى : خرج أبو طالب إلى الشام ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن اثنى عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام ، فنزل الركب ببصرى وبها راهب ــ يقال له بحيرى ــ فى صومعة له ، وكان ذا علم بالنصرانية ، ولم يزل فى تلك الصومعة راهب تنتهى إليه علم النصرانية صاغرا عن كابر وفيها كتب يدرسونها ، وكان كثيرا ما يمر به الركب فلا يكلمه ، حتى إذا كان فى ذلك العام نزلوا منزلا قريبا من الصومعة ، فصنع لهم الراهب طعاما ودعاهم . وإنما حمله على ذلك شىء رآه ، فلما رأى بحيرى ذلك نزل من صومعته وأمر بذلك الطعام فحضر وأرسل إلى القوم فقال : يا معشر قريش ، أحب أن تحضروا طعامى ولا يتخلف منكم أحد ، فقال : وهذا شىء تكرمونى به ، فلما حضروا عنده جعل يلاحظ النبى صلى الله عليه وسلم لحظا شديدا ، وينظر إلى جسده ، وجعل أبو طالب يخاف عليه من الراهب ، ثم قال الراهب لأبى طالب : ارجع بابن أخيك ، فإنه كائن له شأن عظيم ، فإنا نجد صفته فى كتبنا ونرويه عن آبائنا . فلما فرغوا من التجارة رجع به أبو طالب سريعاً إلى مكة ، فما خرج بعدها به أبو طالب خوفا عليه . هذا مع أن فى القرآن من الرد على أهل الكتاب فى بعض ما حرفوه مثل دعواهم أن المسيح عليه السلام صلب . وقول بعضهم : إنه إله . وقول بعضهم : إنه ساحر .

وطعنهم على سليمان عليه السلام وقولهم : إنه كان ساحرا وأمثال ذلك مما يبين أنه لم يأخذ عنهم .

وفى القرآن من قصص الأنبياء عليهم السلام مالا يوجد فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل قصة هود وصالح وشعيب وغير ذلك .

وفى القرآن من ذكر المعاد وتفصيله وصفة الجنة والنار والنعيم والعذاب مالا يوجد مثله فى التوراة والإنجيل ، بل التوراة ليس فيها تصريح بذكر المعاد وعامة مافيها من الوعد والوعيد ، فهو فى الدنيا كالوعد بالرزق والنصر ، والعاقبة ، والوعيد بالقحط ، والأمراض ، والأعداء . وإن كان ذكر المعاد موجودا فى غير التوراة من النبوات ، ولهذا كان أهل الكتاب يقرون بالمعاد ، وقيام القيامة الكبرى ، وقد قيل : إن ذلك مذكور فى التوراة أيضاً ، لكن لم يبسط كما بسط فى غير التوراة .

فصل

فإن قالوا : إن الكتب التى عندنا من التوراة والإنجيل وغيرهما ترجمها لنا الحواريون ، وهم عندنا رسل معصومون ، ترجموها لجميع الأمم بخلاف القرآن فإنه إنما يترجمه من ليس بمعصوم ، فعن هذا أجوبة .

أحدها : أن هذا كذب بين ، فإن من العرب من النصارى من لا يحصى عدده إلا الله تعالى ، وكان فيهم نصارى كثيرون تنصروا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان فيهم قوم على دين المسيح الذى لم يبدل وهم مؤمنون من أهل الجنة ، كسائر من كان على دين المسيح عليه السلام ، فإن كل من كان على دين المسيح الذى لم يبدل قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه مؤمن مسلم من أهل الجنة .

ومع هذا فليس على وجه الأرض توراة ولا إنجيل معرب من عهد الحواريين ، بل التوراة العبرية تنقل من اللسان العبرى أو غيره إلى العربية ، وكذلك الإنجيل

ينقل من اللسان الرومى ، أو السريانى ، أو اليونانى ، أو غيره إلى اللغة العربية ، فلو كان عند كل أمة من الأمم توراة وإنجيل ونبوات بلسانهم، لكان نصارى العرب أحق بهذ من نصارى الحبشة والصقالبة والهند، فإنهم جيران البيت المقدس، وهم بنو إسماعيل عليه السلام والأناجيل عندهم أربعة ، وهم يدعون أن كل واحد كتبها بلسان . كتبت بلسان العبرى ، والرومى ، واليونانى ، مع أن فى بعض الأناجيل ما ليس فى بعض . مثل قولهم: عمدوا الناس باسم الأب ، والإبن وروح القدس الذى جعلوه أصل دينهم . وهذا إنما هو قوله فى إنجيل متى ، وإذا كان كل واحد من الأربعة كتب إنجيلا بلسانه ،لم يكن هناك إنجيل واحد أصلى . ترجع إليه الأناجيل كلها ، ثم إنهم مع هذا يدعون أنها ترجمت باثنين ،سبعين لسانا . وهذا فيه من الكذب والتناقض أمور سننبه إن شاء الله على بعضها، لكن غاية ما يدعون أنه ترجم باثنين وسبعين لسانا . ومعلوم أن الألسنة الموجودة فى بنى آدم فى جميع المعمورة فى زماننا وقبل زماننا أكثر من هذا ، كما يعرفه من عرف أحوال العالم ، بل اللسان الواحد كالعربى ،والفارسى ؛ والتركى جنس تحته أنواع مختلفة لا يفهم بعضهم لسان بعض إلا أن يتعلمه منهم ، والعرب أقرب الأمم إلى بنى إسحاق بنى إسرائيل والعيص ، فإنهم بنوا إسماعيل وجيرانهم ، فإن أهل الحجاز جيران الشام ، ومكة لم تزل تحج إليها العرب ، ولم يكن قط عند العرب توراة ولا إنجيل عربيان من عهد المسيح عليه السلام ، بل ولا كان بمكة لا توراة ولا إنجيل لا معرب ولا غير معرب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ ، [سورة القصص : ٤٦] . فكيف يدعى أن التوراة ، والإنجيل ترجمهما الحواريون لكل قوم من جميع بنى آدم شرقا وغربا وجنوبا وشمالا بلسان يفهمونه به، وهل يقول هذا إلا من هو من أكذب الناس وأجهلهم ؟

الوجه الثانى : أن يقال ترجمة الكلام من لغة إلى لغة لاتحتاج إلى معصوم

بل هذا أمر تعلمه الأمم ، فكل من عرف اللسانين أمكنه الترجمة و يحصل العلم بذلك إذا كان المترجمون كثيرين متفرقين لا يتواطؤون على الكذب ، بقرائن تقترن بخبر أحدهم و بغير ذلك ، وهذا موجود معلوم ، بل إذا ترجمه اثنان كل منهما لا يعرف ما يقوله الآخر لم يتواطؤوا حصل بذلك المقصود فى الغالب ، وهم يذكرون أن التوراة ترجمها اثنان وسبعون حبرا من اليهود ،ولم يكونوا معصومين، وأن الملك فرقهم لئلا يتواطأوا على الكذب ، واتفقوا على ترجمة واحدة ، وهذا كان بعد الخراب الأول ، فهكذا يمكن ترجمة غير التوراة وهذه التوراة فى زماننا والإنجيل والزبور يترجم باللغة العربية ، و يعرف المقصود به بلا ريب ، فكيف بالقرآن الذى يفهم أهله معناه و يفسرونه و يترجمونه أكمل وأحسن مما يترجم أهل التوراة والإنجيل ، التوراة والإنجيل ؟

الوجه الثالث : أن دعوى العصمة فى كل واحد من الحواريين وأنهم رسل الله بمنزلة إبراهيم وموسى عليهما السلام ، دعوى ممنوعة وهى باطلة ، وإنما هم رسل المسيح عليه السلام بمنزلة رسل موسى ورسل إبراهيم ورسل محمد صلى الله عليهم وسلم ، وأكثر النصارى أو كثير منهم أو كلهم يقولون : هم رسل الله وليسوا بأنبياء ، وكل من ليس بنبى ، فليس برسول الله وليس بمعصوم، إن كانت له خوارق عادات ، كأولياء الله من المسلمين وغيرهم ، فإنه وإن كانت لهم كرامات من الخوارق،فليسوا معصومين من الخطأ ،والخوارق التى تجرى على أيدى غير الأنبياء،لا تدل على أن أصحابها أولياء الله عند أكثر العلماء ، فضلا عن كونهم معصومين ، فإن ولى الله من يموت على الإيمان ومجرد الخوارق لا تدل على أنه يموت على الإيمان ، بل قد يتغير عن ذلك الحال ، و إذا قطعنا بأن الرجل ولى الله كمن أخبر النبى بأنه من أهل الجنة ، فلا يجب الإيمان بكل ما يقوله إن لم يوافق ما قالته الأنبياء بخلاف الأنبياء ــ عليهم السلام ــ فإنهم معصومون لا يجوز أن يستقر فيما يبلغونه خطأ ، ولهذا أوجب الله الإيمان بهم ، ومن كفر بواحد منهم

فهو كافر ، ومن يسب واحداً منهم ، وجب قتله فى شرع الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦ ، ١٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٥] . وهذا مبسوط فى موضع آخر .

فصل

وأما قولهم : لا يلزمنا اتباعه ؛ لأننا نحن قد أتانا رسل من قبله خاطبونا بألسنتنا وأنذرونا بديننا الذى نحن متمسكون به يومنا هذا وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلغاتنا على ما يشهد لها الكتاب الذى أتى به هذا حيث يقول فى سورة إبراهيم : ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾ ، [سورة إبراهيم : ٤] وقال فى سورة النحل : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ﴾ ، [سورة النحل ٣٦].

فالجواب عنه من وجوه :

أحدها : أن إثبات رسول من قبله إليكم لا يمنع إتيان رسول ثان ، فإن بنى إسرائيل قد بعث الله إليهم موسى عليه السلام وكانوا على شريعة التوراة ، ثم بعث الله تبارك وتعالى إليهم المسيح عليه السلام فوجب عليهم الإيمان به ومن لم يؤمن به كان كافراً وإن قال إنى متمسك بالكتاب الذى أنزل إلىّ .

فكذلك إذا أرسل الله رسولا بعد المسيح وجب الإيمان به ومن لم يؤمن

جه كان كافراً ، كما أن من لم يؤمن بالمسيح من بنى إسرائيل كان كافراً
و بنو إسرائيل أكثر اختصاصاً بموسى والتوراة من الروم وغيرهم فالمسيح
والإنجيل فإنهم كانوا عبرانيين والتوراة عبرانية .

الوجه الثانى : دعواهم أنهم متمسكون فى هذا الوقت بالدين الذى نقله الحواريون عن المسيح عليه السلام كذب ظاهر ، بل هم عامة ما هم عليه من الدين عقائده وشرائعه ، كالأمانة والصلاة إلى المشرق ، واتخاذ الصور والتماثيل فى الكنائس واتخاذها وسائط والاستشفاع بأصحابها ، وجعل الأعياد بأسمائهم ، و بناء الكنائس على أسمائهم ، واستحلال الخنزير ، وترك الختان والرهبانية ، وجعل الصيام فى الربيع ، وجعله خمسين يوماً ، والصلوات والقرابين والناموس لم ينقله الحواريون عن المسيح ولا هو موجود لا فى التوراة ولا فى الإنجيل ، و إنما هم متمسكون بقليل مما جاءت به الأنبياء . وأما كفرياتهم و بدعهم فكثيرة جداً ولم ينقل أحد عن المسيح والحواريين أنهم أمروهم أن يقولوا ما يقولونه فى صلاتهم السحرية : تعالوا بنا نسجد للمسيح إلهنا . وفى الصلاة الثانية والثالثة : يا والدة الإله مريم العذراء إفتحى لنا أبواب الرحمة .

الوجه الثالث : قولهم إنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل بلغاتهم إنما يستقيم إن كان صحيحاً فى بعض النصارى لا فى جميعهم ، فإن العرب من النصارى وغير العرب لم يسلم أحد إليهم توراة ولا إنجيلا بلسانهم ، وهذا أمر معروف ولا يوجد قط توراة ولا إنجيل معرب من زمن الحواريين ، وإنما عربت فى الأزمان المتأخرة فإذا كانت النصارى من العرب تقوم عليهم الحجة قبل محمد صلى الله عليه وسلم بكتاب نزل بغير لسانهم ثم عرب لهم ، فكيف لا تقوم على الروم وغيرهم الحجة بكتاب نزل بغير لسانهم ثم ترجم بلسانهم ؟

الوجه الرابع : أن يقال : الأمة إذا غيرت دين رسولها الذى أرسل إليها

و بدلته أرسل الله إليها من يدعوها إلى الدين الذى يحبه الله و يرضاه ، كما أن بنى إسرائيل لما غيروا دين موسى و بدلوه ، بعث الله إليهم وإلى غيرهم المسيح بالدين الذى يحبه الله ، وكذلك النصارى لما بدلوا دين المسيح وغيروه ، بعث الله إليهم و إلى غيرهم محمداً صلى الله عليه وسلم بالدين الذى يحبه و يرضاه .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب » وأولئك البقايا الذين كانوا متمسكين بدين المسيح قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على دين الله عز وجل . وأما من حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم فمن لم يؤمن به فهو من أهل النار ، كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار »

الوجه الخامس : أن يقال : دعواهم أن الرسل سلموا إليهم التوراة والإنجيل وسائر النبوات باثنين وسبعين لساناً ، وأنها باقية إلى اليوم على لفظ واحد دعوى يعلم أن قائلها يتكلم بلا علم بل مفتر كاذب ، وذلك أن هذا يقتضى أنه الآن فى الأرض هذه الكتب باثنين وسبعين لساناً كلها منقولة عن الحواريين وكلها متفقة غير مختلفة البتة فهذا أربع دعاوى أنهـا موجودة باثنين وسبعين لساناً ، وأنها متفقة ، وأنها كلها منقولة عن الحواريين .

الرابعة : أنهم معصومون . فيقال من الذى منكم لو قدر أن هذه الكتب التى باثنين وسبعين لساناً هى عن الحواريين . وهى موجودة اليوم ، فمن الذى يمكنه أن يشهد بموافقة بعضها بعضاً ؟ وذلك لا يمكن إلا لمن يعلم الاثنين وسبعين لساناً ويكون ما عنده من الكتب يعلم إنما هى مأخوذة عن الحواريين و يعلم أن كل نسخة فى العالم بذلك اللسان توافق النسخة التى عنده وإلا فلو جمع اثنين

وسبعين نسخة باثنين و سبعين لساناً لم يعلم أن كل نسخة من هـذه هى المأخوذة عن الحواريين إن قدر أنه أخذ عنهم اثنين وسبعين لساناً . ولا يعـلم أن كل نسخة فى العالم توافق تلك النسخة ، فإنه من المعلوم أنه فى زماننا وقبل زماننا لم تزل هذه الكتب تنقل من لسان إلى لسان كما يترجم من العبرانيـة إلى العربية ومن السريانية والرومية واليونانية إلى العربية وغيرها .

وحينئذ فإذا وجدت نسخة بالعربية لم يعلم أنها مما عربت بعـد الحواريين أو هى من المأخوذ عن الحواريين إذا قدر أنه أخذ عنهم نسخة بالعربية ولا يمكن لأحد أن يجمع جميع النسخ المعربة ويقابل بينها . بل قد وجـدنا النسخ المعربة يخالف بعضها بعضاً فى الترجمة مخالفة شـديدة تمنع الثقة ببعضها ، وقد رأيت أنا بالزبور عدة نسخ معربة بينها من الاختلاف ما لا يكاد ينضبط وما يشهد بأنها مبدلة مغيرة لا يوثق بها ، ورأيت من التوراة المعربة من النسخ مايكذب بكثير من ترجمتها طائفة من أهل الـكتاب ، فـكيف يمكنه أن يجمع جميع النسخ التى بالاثنين وسبعين لساناً ويقابل بين نسخ كل لسان حتى يكون فيهـا النسخة القديمة المأخوذة عن الحواريين ؟ ثم يقابل بين نسخ جميع الألسنة ولايمكن ذلك إلا لمن يكون عارفاً بالاثنين وسبعين لساناً معرفة تامة ، وليس فى بنى آدم من يقدر على ذلك ولو قدر وجود ذلك فـلم يعرف أن القادر على ذلك فعل ذلك وأخبرنا باتفاقها .

ولو وجد ذلك لـكان هذا خبر واحد وأن يترجم كل لسان من يعلم صحة ترجمته حتى تنتهى الترجمة إلى لسان واحد كالعربى مثلا ويعلم حينئذ اتفاقها . وإلا فإذا ترجم هذا الـكتاب بلسان أو لسانين أو أكثر وترجم الآخر كذلك لم يعلم اتفاقها إن لم يعلم أن المعنى بهذا اللسان هو المعنى بهذا اللسان وهـذا لا يكون إلا ممن يعرف اللسانين أو من ترجم له اللسانان باللسان الذى يعرفه ،

ومعلوم أن أحداً لم يترجم له الاثنان وسبعون لساناً باسان واحد أو ألسنة يعرفها ولا يعرف أحد باثنين وسبعين لساناً .

وحينئذ فالجزم باتفاق جميع الكتب المكتوبة باثنين وسبعين لساناً أو الجزم بأن نسخ كل لسان متفقة جزم بما لا يعلم صحته لو لم يكن في الأرض اليوم الاثنان وسبعون لساناً منقولة عن الحواريين لم تختلط بالمترجم بعد ذلك، فكيف وأكثر ما بأيدى الناس هو مما يترجم بعد ذلك بالعربى وغيره ؟ هذا إذا ثبت أن الحواريين سلموها باثنين وسبعين لساناً وأنها باقية إلى اليوم وهذا أمر لا يمكن لأحد معرفته . فليس اليوم توراة ، و إنجيل ، ونبوات يشهد لها أحد أنها مترجمة باللسان العربى من عهد الحواريين بل ولا بأكثر الألسنة ، وإلا فإذا قدر أن الحواريين سلموها باثنين وسبعين لساناً مع حصول الترجمة بعد ذلك وكثرة المترجمات أمكن وقوع التغيير فى بعض المترجمات ، وحينئذ فالعلم بأن تلك النسخ القديمة لا تتغير فيها لا يمنع وقوع التغيير فى بعض ما ترجم بعدها أو فى بعض ما نسخ بعدها ولا سبيل إلى العلم باتفاقها مع كونها باثنين وسبعين لساناً بخلاف القرآن الذى هو بلسان العرب وخط العرب ، فإن العلم باتفاق ما يوجد من نسخه ممكن وهو محفوظ فى الصدور لا يحتاج إلى حفظ فى الكتب فهو منقول بالتواتر لفظاً وخطاً .

الوجه السادس : قولهم وسلموا إلينا التوراة والإنجيل بلساننا على ما يشهد لهما الكتاب الذى أتى به هذا : فيقال لهم : ليس فى القرآن ما يشهد لكم بأن التوراة والإنجيل سلمت إليكم بلسانكم فاستشهادكم بالقرآن على هذه الدعوى من جنس استشهادكم به على أن دينكم حق .

ومن جنس استشهادكم بالنبوات على ما أحدثتموه وغيرتم به دين المسيح عليه السلام من التثليث والاتحاد وغير ذلك وقولهم حيث يقول الله: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ ، [سورة : إبراهيم : ٤] . وقوله تعالى : ﴿ ولقد

بعثنا فى كل أمة رسولا ﴾ ، [رسورة : النحل : ٣٦] . فيقال لا ريب أن قوم موسى عليه السلام هم بنو إسرائيل و بلسانهم نزلت التوراة ، وكذلك بنو إسرائيل هم قوم المسيح عليه السلام ، وبلسانهم كان المسيح يتكلم فلم يخاطب واحد من الرسولين أحدا إلا باللسان العبرانى ، لم يتكلم أحد منهما لا برومية ، ولا سريانية ، ولا يونانية ، ولا قبطية ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ﴾ ، [سورة النحل ، ٣٦] . كلام مطلق عام كقوله : وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ ، [سورة فاطر : ٢٤] . ليس فى هذا تعرض لكون التوراة والإنجيل سلمت إليهم بألسنتهم .

الوجه السابع : أن يقال عمدتهم فى هذه الحجة أنهم يقولون : الحواريون هم عندنا رسل الله كإبراهيم وموسى . والمسيح عندنا هو الله وهو أرسل هؤلاء إلينا فيجب أن يكونوا أرسلوا إلينا بلساننا ، وأن يكونوا سلموا إلينا التوراة والإنجيل بلساننا ، فيقال لهم : هب أنكم تدعون هذا وتعتقدونه ونحن سنبين إن شاء الله تعالى أن هذه دعاوى باطلة لكن أنتم فى هذا المقام تذكرون أن هذا الكتاب الذى هو القرآن الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يشهد لكم بذلك وهذا كذب ظاهر على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى كتابه وأنتم صدرتم كتابكم بأن كتابه يشهد لكم ، ونحن نبين كذبكم وافتراءكم عليه سواء أقررتم بنبوته أو لم تقروا بها ; فإن من المعلوم يقينا عنه أنه لم يشهد للمسيح بأنه الله ، بل كفر من قال ذلك ، ولا يشهد للحواريين بأنهم رسل أرسلهم الله ، بل إنما شهد للحواريين بأنهم قالوا إنا مؤمنون مسلمون وأنهم قالوا نحن أنصار الله كما شهد لمن آمن به بأنهم مؤمنون مسلمون ينصرون الله ورسوله ، بل وأنهم أفضل من الحواريين لكون أمته خير الأمم كما قال تعالى : ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون ﴾ ، [سورة المائدة : ١١١] .

وقال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ ، [سورة الصف : ١٤] .

وسيأتى الكلام على هذا مبسوطاً ونبين أن الرسل المذكورين فى سورة «يس» ليس هم الحواريين ولا كانوا رسلا للمسيح ، بل كان هذا الإرسال قبل المسيح وأهل القرية كذبوا أولئك الرسل فأهلكهم الله كما قال تعالى : ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ ، [سورة يس : ٢٨ ، ٢٩] .

والرسل المذكورون فى سورة «يس» هم ثلاثة ، وكان فى القرية رجل آمن بهم وهذه وإن كانت إنطاكية فكان هذا الإرسال قبل المسيح . والمسيح عليه السلام ذهب إلى إنطاكية اثنان من أصحابه بعد رفعه إلى السماء ولم يعززوا بثالث ولا كان حبيب النجار موجوداً إذ ذاك ، وآمن أهل إنطاكية بالمسيح عليه السلام وهى أول مدينة آمنت به كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يشهد للمسيح بالألوهية ولا للحواريين بأنهم رسل الله ولا أنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل بلسانهم ولا بأنهم معصومون وما ذكروه من قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ ، [سورة إبراهيم : ٤] . إنما يتناول رسل الله لا رسل رسل الله بل رسل رسل الله يجوز أن يبلغوا رسالات الرسل بلسان الرسل إذا كان هناك من يترجم لهم ذلك اللسان ، وإن لم يكن هناك من يترجم ذلك اللسان

كانت رسل الرسل تخاطبهم بلسانهم لـكن لا يلزم من هـذا أن يكونوا قد كتبوا الـكتب الإلهيـة بلسانهم بل يكفى أن يقرءوها بلسان الأنبياء عليهم السلام ثم يترجموها بلسان أولئك وهو سبحانه قال : ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ ، [سورة إبراهيم : ٤] . ولم يقل وما أرسلنا من رسول إلا إلى قومه بل محمـد أرسل بلسان قومه وهم قريش وأرسل إلى قومه وغير قومه كما يذكرون هم ذلك عن المسيح عليه السلام.

فصـل

وأما قوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ﴾ ، فتمام الآية : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليهم الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المـكذبين ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] . وهذا كقوله تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ ، [سورة فاطر : ٢٤] . وقوله : إنما أنت منذر ولـكل قوم هاد ﴾ ، [سورة الرعد : ٧] ـ فى أصح الأقوال ـ أى : ولـكل قوم داع يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته كما أنت هاد أى داع لمن أرسلت إليه ، والهادى : بمعنى الداعى المعلم المبلغ لا بمعنى الذى يجعل الهدى فى القلوب كقوله : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض ﴾،[سورة الشورى :٥٢، ٥٣] وقوله ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾،[سورة فصلت:١٧]

ومعلوم أن بنى إسرائيل كانوا أكثر الأمم أنبياء بعث إليهم موسى و بعث إليهم بعده أنبياء كثيرون حتى قيل: إنهم ألف نبى وكلهم يأمرون بشريعة التوراة ولا يغيرون منها شيئاً ثم جاء المسيح بعد ذلك بشريعة أخرى غير فيها بعض شرع التوراة بأمر الله عز وجل ، فإذا كان إرسال موسى والأنبياء بعده إليهم لم

يمنع إرسال المسيح إليهم فكيف يمتنع إرسال محمد صلى الله عليه وسلم إلى اهل الكتاب من اليهود والنصارى وهم من حين المسيح لم يأتهم رسول من الله كما قال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير ﴾ ، [سورة المائدة : ١٩] .

هذه الفترة التي كانت بين المسيح وبين محمد صلوات الله عليهما وسلامه وهي فيما ذكره غير واحد من العلماء كسلمان الفارسي وغيره كانت ستمائة سنة وقد قيل ستمائة سنة شمسية وهي ستمائة وعشرون أو ثمانية عشر هلالية وذلك أن كل مائة سنة شمسية تكون مائة وثلاث سنين هلالية . كما قال تعالى : ﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾ ، [سورة الكهف : ٢٥] .

وهذه التسع وبعض العاشرة ، والتاريخ قد تحسب فيه التامة وتحسب فيه الناقصة ، فمن قال عشرين حسب الناقصة ، ومن قال ثمانية عشر حسب التامة فقط .

فصـــل

وأما قولهم : ونعلم أن الله عدل وليس من عدله أن يطالب أمة يوم القيامة باتباع إنسان لم يأت إليهم ولا وقفوا له على كتاب بلسانهم ولا من جهة داع من قبله ، فيقال الجواب من وجوه :

أحدها : أن هذا الكلام لا يجوز أن يقوله من كتب هذا الكتاب ولا أحد يفهم بالعربية فإن هؤلاء يفهمون هذا الكتاب بالعربية وقد قرءوه وناظروا بما فيه وإذا كانوا مع ذلك يفهمون بغير العربية كان ذلك أبلغ في قيام الحجة عليهم ، فإنهم يمكنهم فهم ما قال بالعربية وتفهيم ذلك لقومهم باللسان الآخر .

الوجه الثاني : أنهم يفهمون ما في كتبهم الرومية ، والسريانية ، والقبطية ،

وغيرها ويترجمونها للعرب من النصارى بالعربية ، فإذا قامت الحجة على عرب النصارى باللسان الرومى فلأن تقوم على الروم باللسان العربى أولى ، فإن اللسان العربى أكثر انتشاراً فى العالم من اللسان الرومى، والناطقون به بعد ظهور الإسلام أكثر من الناطقين بغيره وهو أكمل بياناً وأتم تفهماً

وحينئذ فيكون وصول المعانى به إلى غير أهل لسانه أيسر لكمال معناه ولكثرة العارفين به . وهؤلاء علماء النصارى يقرءون كتب الطب والحساب والفلسفة وغير ذلك باللسان العربى مع أن مصنفيها كانوا عجما من رومى ويونانى وغير ذلك . فما المانع أن يقرأ القرآن العربى وتفسيره وحديث النبى صلى الله عليه وسلم باللسان العبرى ؟ مع أنه أخذ عن الرسول بالعربى فهو أولى بأن يعرف به مراد المتكلم به .

الوجه الثالث : أن يقال الناس لهم فى عدل الله ثلاثة أقوال ، قيل : كل ما يكون مقدوراً لله فهو عدل ، وقيل : العدل منه نظير العدل من عباده وهما قولان ضعيفان ، وقيل : من عدله أن يجزى المحسن بحسناته ولا ينقصه شيئا منها ولا يعاقبه بلا ذنب .

ومعلوم أنه إذا أمر العبد بما يقدر عليه كان جائزاً باتفاق طوائف أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى، وإن كان الفعل مكروهاً للانسان فإن الجنة حفت بالمكاره وحفت النار بالشهوات وقد كلفت بنو إسرائيل والنصارى من الأعمال ما هو مكروه لهم وشاق عليهم فكيف يمتنع أن يأمرهم وينهاهم بلغة يبين بعض المسلمين معناها لهم والعرب الذى نزل القرآن بلسانهم طبقوا الأرض . ومنهم نصارى لا يحصون فكل من عرف بالعربية من النصارى أمكنه فهم ما يقال بالعربى ومن كان منهم رومياً كان له أسوة من أسلم من سائر طوائف الأعاجم كالفرس ، والترك ، والهند ، والبربر ، والحبشة وغيرهم وهو متمكن من معرفة ما أمره الله به والعمل به كما يمكن هؤلاء كلهم ، بل الروم أقدر على ذلك من

غيرهم فلأى وجه يمتنع أن يأمرهم الله بذلك ؟ ومالا يتم الواجب إلا به إذا كان مقدوراً للعبد، فعليه أن يفعله باتفاق أهل الملل للمسلمين واليهود والنصارى .

وإن ما تنازع الناس فيه هل يسمى واجبا ؟ فقيل يسمى واجبا ، وقيل لايسمى واجبا . فإن الآمر لم يقصده بالأمر وقد لايخطر بباله إذا كان الأمر مخلوقا قال : ولأن الواجب ما يذم تاركه شرعاً ، أو يعاقب تاركه شرعا ، أو ما يستحق تاركه الذم أو العقاب ، أو ما يكون تركه سببا للذم أو العقاب ، قالوا : ومالا يتم الواجب إلا به لايستحق تاركه الذم والعقاب . فإن الحج إذا وجب على شخصين أحدهما بعيد والآخر قريب ولم يفعلاه لم تكن عقوبة البعيد على الترك أعظم من عقوبة القريب مع أن المسافة التى لابد لهما من قطعها أكثر ، وكذلك من وجب عليه قضاء دينه من غير احتياج إلى بيع شىء من ماله ليست عقوبته على الترك بأقل من عقوبة من يحتاج إلى بيع مال له ليقضى به دينه ، وفصل الخطاب أن مالا يتم الواجب إلا به هو من لوازم وجود الواجب . ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع فالمأمور به لا يمكن فعله إلا بلوازمه والمنهى عنه لايمكن تركه إلا بترك ملزوماته ، لكن هذا اللزوم لزوم عقلى أو عادى فوجوبه وجوب عقلى عادى ، لا أن الأمر نفسه قصد إيجابه والذم والعقاب على تركه وتنازع الناس ، هل يقال مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب، سواء كان وجوبه شرعياً أو عقلياً؟ أو يحتاج أن يقال مالا يتم الواجب إلا به وكان مقدورا للمكلف فهو واجب ؟ فالجمهور أطلقوا العبارة الأولى ، وبعض المتأخرين قيدوها بالمقدور ولا حاجة إلى ذلك. فإن مالم يكن مقدوراً ينتفى الوجوب مع انتفائه فيكون شرطاً فى الوجوب لافى فعل الواجب والجمهور قالوا : مالا يتم الواجب إلا به فإنه يجب .

والمقصود هنا : أن الله إذا أوجب على العباد شيئاً واحتاج أداء الواجب إلى تعلم شىء من العلم كان تعلمه واجباً فإذا كان معرفة العبد لما أمره الله به تتوقف على أن يعرف معنى كلام تكلم به بغير لغته وهو قادر على تعلم معنى تلك

الألفاظ التى ليست بلغته أو على معرفة ترجمتها بلغته وجب عليه تعلم ذلك .

ولو جاءت رسالة من ملك إلى ملك بغير لسانه ، لطلب من يترجم مقصود الملك المرسل ولم يجز أن يقول أنت لم تبعث إلىّ من يخاطبنى بلغتى من قدرته على أن يفهم مراده بالترجمة ، فكيف يجوز أن يقال ذلك لرب العالمين؟ ولو أمر بعض الملوك بعض رعاياه وجنوده بلغته وهم قادرون على معرفة ما أمرهم به إما بتعلم لغته وإما بمن يترجم لهم ما قاله لم يكن ظلما ذلك ، فكيف يكون ظلما من رب العالمين مع أنه ليس بظلم من المخلوقين ؟ .

ولو وجب لبعض الرعية حق على بعض أو ظلم بعضهم بعضاً لوجب على الملك أن ينصف المظلوم و يرسل إلى الظالم من يأمره بالعدل والإنصاف و يعاقبه إذا لم ينصف إذا كان الظالم متمكنا من معرفة أمر الملك بالترجمة أو غيرها وهذا هو العدل ، ليس العدل أن يترك الناس ظالمين فى حق الله وحق عباده والله تعالى أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] .فليس لأحد ممن أرسل إليه رسول وهو قادر على معرفة ما أرسل به إليه بالترجمة أو غير الترجمة أن يمتنع من شرع الله الذى أنزله ، وهو القسط الذى بعث به رسوله لكون الرسول ليس لغته لغته، مع قدرته على أن يعرف مراده بطرق متعددة ، والناس فى مصالح دنياهم يتوسل أحدهم إلى معرفة مراد الآخر بالترجمة وغيرها فيتبايعون ، و بينهم ترجمان يبلغ بعضهم عن بعض ، و يتراسلون فى عمارة بلادهم ، وأغراض نفوسهم بالتراجم الذين يترجمون لهم ، وأمر الدين أعظم من أمر الدنيا ، فكيف لا يتوسلون إلى معرفة مراد بعضهم من بعض ؟ وكيف يكون أمر الدنيا أهم من أمر الدين إلا عند من أغفل الله قلبه عن ذكر ربه ، واتبع هواه وأعرض عن ذكر ربه ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم .

قال تعالى : ﴿فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا﴾، [سورة النجم : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه من ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ ، [سورة الكهف ٢٨] .

الوجه الرابع : أنه من العجب أن تمدح النصارى مثل هذا ظالماً خارجاً عن العدل ، وهم قد نسبوا إلى الله من الظلم العظيم على هذا الأصل مالم ينسبه إليه أحد من الأمم كما سبوه وشتموه ، مسبة ما سبه إياها أحد من الأمم فهم من أبعد الأمم عن توحيده ، وتمجيده ، وحمده ، والثناء عليه ، وذلك أنهم يزعمون أن آدم لما أكل من الشجرة غضب الرب عليه وعاقبه ، وإن تلك العقوبة بقيت فى ذريته إلى أن جاء المسيح وصلب ، وأنه كانت الذرية فى حبس إبليس ، فمن مات منهم ذهبت روحه إلى جهنم فى حبس إبليس حتى قالوا ذلك فى الأنبياء نوح وإبراهيم ، وموسى ، وداود ، وسليمان ، وغيرهم .

ومعلوم أن إبراهيم كان أبوه كافراً ولم يؤاخذه الله بذنب أبيه فكيف يؤاخذه بذنب آدم وهو أبوه الأبعد ؟ هذا لو قدر أن آدم لم يتب ، فكيف وقد أخبر الله عنه بالتوبة ؟ ثم يزعمون أن الصلب الذى هو من أعظم الذنوب والخطايا به خلص الله آدم وذريته من عذاب الجحيم ، وبه عاقب إبليس مع أن إبليس ما زال عاصياً لله مستحقاً للعقاب من حين امتنع من السجود لآدم ووسوس لآدم إلى حين مبعث المسيح والرب قادر على عقوبته ، وبنو آدم لاعقوبة عليهم فى ذنب أبيهم ، فمن كان قولهم مثل هذه الخرافات التى هى مضاحك العقلاء ، والتى لا تصلح أن تضاف إلى أجهل الملوك وأظلمهم ، فكيف يدعون مع هذا أنهم يصفون الله بالعدل ، ويجعلون من عدله أنه لا يأمر الإنسان بتعلم ما يقدر على تعلمه ، وفيه صلاح معاشه ، ومعاده ، ويجعلون مثل هذا موجبا لتكذيب

كتابه ، ورسله ، والإصرار على تبديل الكتاب الأول ، وتكذيب الكتاب الآخر وعلى أنه يتضمن مخالفة موسى ، وعيسى ، وسائر الأنبياء والرسل ؟

والنصارى يقولون : إن المسيح الذى هو عندهم اللاهوت والناسوت جميعا إنما مكن الكفار من صلبه ليحتال بذلك على عقوبة إبليس ، قالوا : فأخفى نفسه عن إبليس لئلا يعلم ، قالوا ؛ ومكن أعداءه من أخذه وضربه ، والبصاق فى وجهه ، ووضع الشوك على رأسه وصلبه ، وأظهر الجزع من الموت وصار يقول : يا إلهى لم سلطت أعدائى على ليخفى بذلك عن إبليس ، فلا يعرف إبليس أنه الله أو ابن الله ويريد إبليس أن يأخذ روحه إلى الجحيم كما أخذ أرواح نوح ، وإبراهيم ، وموسى وغيرهم من الأنبياء والمؤمنين . فيحتج عليه الرب ؛ حينئذ ويقول بماذا استحللت يا إبليس أن تأخذ روحى ؟ فيقول له إبليس : بخطيئتك فيقول ناسوتى : لا خطيئة له كنواسيت الأنبياء ، فإنه كان لهم خطايا استحقوا بها أن تأخذ أرواحهم إلى جهنم ، وأنا لا خطيئة لى ، قالوا : فلما أقام الله الحجة على إبليس جاز للرب حينئذ أن يأخذ إبليس ويعاقبه ويخلص ذرية آدم من إذهابهم إلى الجحيم ، وهذا الكلام فيه من الباطل ونسبة الظلم إلى الله ما يطول وصفه ، فمن هذا قوله : فقد قدح فى علم الرب وحكمته وعدله قدحاً ما قدحه فيه أحد ، وذلك من وجوه :

أحدها : أن يقال إبليس إن كان أخذ الذرية بذنب أبيهم فلا فرق بين ناسوت المسيح وغيره ، وإن كان بخطاياهم فلم يأخذهم بذنب أبيهم ، وهم قالوا : إنما أخذهم بذنب آدم ؟

الثانى : أن يقال من خلق بعد المسيح من الذرية كمن خلق قبله فكيف جاز أن يمكن إبليس من الذرية المتقدمين دون المتأخرين ، وكلهم بالنسبة إلى آدم سواء ، وهم أيضاً يخطئون أعظم من خطايا الأنبياء المتقدمين ، فكيف جاز

تمكين إبليس من عقوبة الأنبياء المتقدمين ، ولم يمكن من عقوبة الكفار والجبابرة الذين كانوا بعد المسيح ؟

الوجه الثالث : أن يقال أخذ إبليس لذرية آدم وإدخالهم جهنم . إما أن يكون ظلما من إبليس . وإما أن يكون عدلا . فإن كان عدلا فلا لوم على إبليس ، ولا يجوز أن يحتال عليه ليمتنع من العدل الذى يستحقه بل يجب تمكينه من المتقدمين والمتأخرين . وإن كان ظلما فلم لا يمنعه الرب منه قبل المسيح ؟ فإن قيل : لم يقدر فقد نسبوه إلى العجز . وإن قيل : قدر على دفع ظلم إبليس ولم يفعله فلا فرق بين دفعه فى زمان دون زمان ، أو جاز ذلك جاز فى كل زمان وإن امتنع امتنع فى كل زمان .

الوجه الرابع : أن إبليس إن كان معذوراً قبل المسيح فلا حاجة إلى عقوبته ولا يلام عليه . وإن لم يكن معذوراً استحق العقوبة ولا حاجة أن يحتال عليه بحيلة تقام بها الحجة عليه .

الوجه الخامس : إنه بتقدير أنه لم يقم عليه حجة قبل الصلب فلم يقم عليه بالصلب فإنه يمكنه أن يقول أنا ما علمت أن هذا الناسوب هو ناسوت الرب ، وأنت يا رب قد أذنت لى أن آخذ جميع ذرية آدم فأؤديهم إلى الجحيم ، وهذا واحد منهم ، وما علمت أنك أو ابنك اتحد به ، ولو علمت ذلك لعظمته فأنا معذور فى ذلك فلا يجوز أن تظلمنى .

الوجه السادس : أن نقول أن إبليس يقول حينئذ يا رب فهذا الناسوت الواحد أخطأت فى أخذ روحه لكن سائر بنى آدم الذين بعده لى أن أحبس أرواحهم فى جهنم كما حبست أرواح الذين كانوا قبل المسيح ، إما بذنب أبيهم ، وإما بخطاياهم أنفسهم ، وحينئذ فإن كان ما يقوله النصارى حقا فلا حجة لله على إبليس .

الوجه السابع : أن يقال هب أن آدم أذنب و بنوه أذنبوا بتزيين الشيطان

فعقوبة بنى آدم على ذنوبهم هى إلى الله أو إلى إبليس ؟ فهل يقول عاقل أنه إبليس له أن يغوى بنى آدم بتزيينه لهم ثم له أن يعاقبهم جميعا بغير إذن من الله له فى ذلك ، وهل هذا القول إلا من قول المجوس الثنوية الذين يقولون إن كل ما فى العالم من الشر من الذنوب والعقاب وغير ذلك هو من فعل أبليس لم يفعل الله شيئاً من ذلك ، ولا عاقب الله أحداً على ذنب ؟ ولا ريب أن هذا القول سرى إلى النصارى من المجوس ولهذا لا ينقلون هذا القول فى كتاب منزل ولا عن أحد من الحواريين ولهذا كان المانوية دينهم مركبا من دين النصارى والمجوس، وكان رأسهم مانى نصرانياً مجوسياً فالنسب بين النصارى ، والمجوس ، بل وسائر المشركين نسب معروف .

الوجه الثامن : أن يقال إبليس عاقب بنى آدم وأدخلهم جهنم بإذن الله أو بغير إذنه ؟ إن قالوا بإذنه . فلا ذنب له ولا يستحق أن يحتال عليه ليعاقب ويمتنع وإن كان بغير إذنه فهل جاز فى عدل الله أن يمكنه من ذلك أم لم يجز؟ فإن جاز ذلك فى زمان جاز فى جميع الأزمنة، وإن لم يجز فى زمان لم يجز فى جميع الأزمنة ، فلا فرق بين ما قبل المسيح وما بعده .

الوجه التاسع : أن يقال هل كان الله قادراً على منع إبليس وعقوبته بدون هذه الحيلة وكان ذلك عدلا منه لو فعله أم لا ؟ فإن كان ذلك مقدوراً له ، وهو عدل منه لم يحتج أن يحتال على إبليس ولا يصلب نفسه أو ابنه ، ثم إن كان هذا العدل واجباً عليه وجب منع إبليس وإن لم يكن واجباً جاز تمكينه فى كل زمان فلا فرق بين زمان وزمان وإن قيل : لم يكن قادراً على منع إبليس فهو تعجيز للرب على منع إبليس ،وهذا من أعظم الكفر باتفاق أهل الملل من جنس قول الثنوية الذين يقولون : لم يكن يقدر النور أن يمنع العالم من الشر ، ومن جنس قول ديمقراطيس والحنانيين الذين يقولون : لم يكن واجب الوجود الذى يمنع النفس عن ملابسة الهيولى بل تعلقت النفس بها بغير اختياره .

الوجه العاشر : أن ما فعله به الكفار اليهود الذين صلبوه قد كان طاعة لله أو معصية ؟ فإن كان طاعة لله : استحق اليهود الذين صلبوه أن يثيبهم ويكرمهم على طاعته كما يثيب سائر المطيعين له، والنصارى متفقون على أن أولئك من أعظم الناس إثماً — وهم من شر الخلق — وهم يستحلون دمهم ولعنتهم مالا يستحلونه من غيرهم ، بل يبالغون فى طلب اليهود ، وعقوبتهم فى آخر صومهم الأيام التى تشبه أيام الصليب، وإن كان أولئك اليهود عصاة لله فهل كان قادراً على منعهم من هذه المعصية أم لا ؟ فإن لم يكن قادراً لم يكن قادراً على منع إبليس من ظلم الذرية فى الزمن المستقبل ، وإن كان قادراً على منعهم من المعاصى ولم يمنعهم كان قادراً على منع إبليس بدون هذه الحيلة ، وإن كان حسناً منه تمكينهم من هذه المعصية كان حسنا منه تمكين إبليس من ظلم الذرية فى الماضى والمستقبل فلا حاجة إلى الحيلة عليه .

واعلم : أن الوجوه الدالة على فساد دين النصارى كثيرة جداً ، وكلما تصور العاقل مذهبهم ، وتصور لوازمه ، تبين له فساده ، لكن المقصود هنا بيان تناقضهم فى أنهم يقيمون عذر أنفسهم فى ترك الإيمان بكتابه ورسوله ودينه لكونه سبحانه عدلا لا يأمر الناس بما يعجزون عنه ، وهو سبحانه لم يأمرهم إلا بما يقدرون عليه وقد نسبوا إليه من الظلم ما لم ينسبه إليه أحد من بنى آدم يوضح هذا .

الوجه الحادى عشر : وهو إما أن نقول فى الظلم كما تقول الجهمية المجبرة الذين يقولون يفعل ما يشاء بلا حكمة ولا سبب ولا مراعاة عدل ، وإما أن يقال بقول القدرية إنه يجب عليه العدل الذى يجب على المخلوقين ، وإما أن يقال هو عادل منزه عن الظلم ولكن ليس عدله كعدل المخلوقين فهذه أقوال الناس الثلاثة .

فإن قيل بالأول : جاز أن يسلط إبليس على جميع الذرية بلا ذنب وأن

يعاقبهم جميعاً بلا ذنب ، ولا حاجة حينئذ إلى الحيلة على إبليس .

وإن قيل بالثانى : فمعلوم أن الواحد من الناس لو علم أن بعض مماليكه أمره غيره بذنب يكرهه السيدففعله كان العدل منه أن يعاقب الآمر والمأمور جميعاً

وأما تسليطه للآمر على عقوبة المأمور فليس من العدل وكذلك تسليط الآمر الظالم على جميع ذرية المأمور الذين لم يذنبوا ذنب أبيهم ليس من العدل .

وإن قيل : بل هو استحق أن يستعبدهم لكون أبيهم أطاعه قيل فحينئذ يستحق أن يأسر الأولين والآخرين فلا يجوز أن يمنع من حقه بالاحتيال عليه

وإن قيل : إنما يستحق أخذهم بخطاياهم ، قيل : فله أن يأخذ الأولين والآخرين .

وإن قيل : هو لما طلب أخذ روح ناسوت المسيح منع بهذا الذنب ؟ قيل: هذا إن كان ذنباً فهو أخف ذنوبه فإنه لم يعلم أنه ناسوت الإله فإذا استحق الرجل أن يسترق أولاد غيره فطلب رجلا ليسترقه لظنه أنه منهم ، ولم يكن منهم لم يكن هذا ذنباً يمنع استرقاق الباقين .

وإن قيل : إن عدل الرب ليس كعدل المخلوقين بل من عدله أن لا ينقص أحداً من حسناته ولا يعاقبه إلا بذنبه لم يجز حينئذ أن يعاقب ذرية آدم بذنب أبيهم ، ولم يجز أن يعاقب الأنبياء الذين ليس لهم ذنب إلا ذنب تابوا منه بذنب غيرهم بأن الأنبياء معصومون أن يقروا على ذنب ، فكل من مات منهم مات وليس له ذنب يستحق عليه العقوبة ، فكيف يعاقبون بعد الموت بذنب أبيهم إن قدر أنه مات مصراً على الذنب مع أن هذا تقدير باطل ،ولو قدر أن الأنبياء لهم خطايا يستحقون بها العقوبة بعد الموت وتسليط إبليس على عقوبتهم مع أن هذا تقدير باطل ، فمن بعد المسيح من غير الأنبياء أولى بذلك : فكيف يجوز فى العدل الذى يوجب التسوية بين المتماثلين عقوبة الأنبياء ومنع عقوبة من هو دونهم بل من هو من الكفار ؟

الوجه الثانى عشر : أن الرب إذا قصد بهذا دفع ظلم إبليس فهلا اتحد بناسوت بعض أولاد آدم ليحتال على إبليس فيمنعه من ظلم من تقدم ، فإن المنع من الشر الكثير أولى من المنع من الشر القليل ، أتراه ما كان يعلم أن إبليس يعمل هذا الشر كله فهذا تجهيل له ، أو كان يعترف ويعجز عن دفعه فهذا تعجيز له ، ثم ما الفرق بين زمان وزمان ؟ أم كان ترك منعه عدلا منه فهو عدل فى كل زمان ؟

فصـــــل

وأما تفسيرهم لقوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٥] . بأن مراده قومه كذا قالوا .

وأما قوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ يريد بحسب مقتضى العدل قومه الذين آتاهم بلغتهم لا غيرهم ممن لم يأتهم بما جاء به ، فيقال لهم من فسر مراد متكلم ، أى : متكلم كان بما يعلم الناس أنه خلاف مراده فهو كاذب مفتر عليه ، وإن كان المتكلم من آحاد العامة ، ولو كان المتكلم من المتنبئين الكذابين ، فإن من عرف كذبه إذا تكلم بكلام وعرف مراده به لم يجز أن يكذب عليه ، فيقال : أراد كذا وكذا فإن الكذب حرام قبيح على كل أحد سواء كان صادقاً أو كاذباً ، فكيف بمن يفسر مراد الله ورسوله بما يعلم كل من خبر حاله علما ضرورياً أنه لم يرد ذلك بل يعلم علما ضرورياً أنه أراد العموم ؟ فإن قوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً ﴾ صيغة عامة وصيغة « من » الشرطية من أبلغ صيغ العموم كقوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ ، [سورة الزلزلة : ٧ ، ٨] .

ثم إن سياق الكلام يدل على أنه أراد أهل الكتاب وغيرهم . فإن هذا في سورة آل عمران في أثناء مخاطبته لأهل الكتاب ومناظرته للنصارى ، فإنها نزلت لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران النصارى ، وروى أنهم كانوا ستين راكباً ، وفيهم السيد ، والأيهم،والعاقب ، وقصتهم مشهورة معروفة كما تقدم ذكرها .

وقد قال قبل هذا الكلام بذم دين النصارى الذين ابتدعوه وغيروا به دين المسيح ولبسوا الحق الذى بعث به المسيح بالباطل الذى ابتدعوه حتى صار دينهم مركباً من حق و باطل ، واختلط أحدهما بالآخر فلا يكاد يوجد معه من يعرف ما نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقره والمسيح قرر أكثر شرع التوراة ، وغير المغنى ، وعامة النصارى لا يميزون ما قرره مما غيره فلا يعرف دين المسيح .

قال تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] .

فقد بين أن من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فهو كافر ، فمن اتخذ من دونهم أرباباً كان أولى بالكفر ، وقد ذكر أن النصارى اتخذوا من هو دونهم أرباباً بقوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣١] . ثم قال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا : أقررنا ، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨١] .

قال ابن عباس وغيره من السلف : مابعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن

بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . والآية تدل على ما قالوا ، فإن قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين — يتناول جميع النبيين — لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨١] . وهذه اللام الأولى تسمى : اللام الموطئة للقسم . واللام الثانية تسمى : لام جواب القسم ، والكلام إذا اجتمع فيه شرط وقسم وقدم القسم سد جواب القسم مسد جواب الشرط ، والقسم كقوله تعالى : ﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لاينصرون ﴾ ، [سورة الحشر : ١٢] ومنه قوله تعالى : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴾ ، [سورة التوبة : ٧٥] . وقوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٠٩] . وقوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لاتقسموا طاعة معروفة ﴾ ، [سورة النور : ٥٣] . وقوله: ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ [سورة فاطر : ٤٢] ومنه قوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ ، [سورة لقمان : ٢٥] . وقوله : ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ ، [سورة التوبة : ٦٥] وقوله : ﴿ لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٤٩] . وقوله : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ﴾ ، [سورة الأحزاب : ٦٠] . وقوله : ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك﴾ ، [سورة الإسراء : ٨٦] . وقوله : ﴿ وإن لم ينتهوا عمايقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٣] . وقوله : ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ ، [سورة يوسف : ٣٢] . وقوله تعالى :

﴿ ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾ ، [سورة الروم : ٥٨] . وقوله : ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ﴾ ، [سورة العنكبوت : ١٠] ، وقوله : ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ﴾ ، [سورة هود : ٨] .

ومثل هذا كثير وحيث لم يذكر القسم فهو محذوف مراد تقدير الكلام ﴿ ــ والله ــ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ــ والله ــ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ﴾ [سورة الحشر : ١٢] . ومن محاسن لغة العرب أنها تحذف من الكلام مايدل المذكور عليه اختصاراً وإيجازاً ، لاسيما فيما يكثر استعماله كالقسم ، وقوله : ﴿ لما آتيتكم من كتاب وحكمة ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨١] . هي ما الشرطية والتقدير ، أي : شيء أعطيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، ولا تكتفوا بما عندكم عما جاء به ولا يحملكم ما آتيتكم من كتاب وحكمة على أن تتركوا متابعته ، بل عليكم أن تؤمنوا به وتنصروه ، وإن كان معكم من قبله من كتاب وحكمة فلا تستغنوا بما آتيتكم عما جاء به فإن ذلك لا ينجيكم من عذاب الله .

فدل ذلك على أن من أدرك محمداً من الأنبياء وأتباعهم وإن كان معه كتاب وحكمة فعليه أن يؤمن بمحمد وينصره كما قال : ﴿ لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨١] . وقد أقر الأنبياء بهذا الميثاق وشهد الله عليهم به كما قال تعالى : ﴿ أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨١] . ثم قال تعالى : ﴿ فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٢] . ثم قال تعالى : ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرهاً وإليه يرجعون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٣] . ثم قال تعالى : ﴿ قل آمنا بالله

وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٤] . ثم قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٥] .

قالت طائفة من السلف : لما أنزل الله هذه الآية قال من قال من اليهود والنصارى نحن مسلمون . فقال تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ ، [سورة آل عمران : ٩٧] . فقالوا لا نحج . فقال تعالى : ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٩٧] .

فكل من لم ير حج البيت واجباً عليه مع الاستطاعة فهو كافر باتفاق المسلمين كما دل عليه القرآن . واليهود ، والنصارى لا يرونه واجباً عليهم فهم من الكفار حتى أنه روى في حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم : « من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فليمت إن شاء الله يهودياً وإن شاء نصرانياً » . وهو محفوظ من قول عمر بن الخطاب ، وقد اتفق المسلمون على أن من جحد وجوب مباني الإسلام الخمس: الشهادتين ، والصلوات الخمس ، والزكاة وصيام شهر رمضان ، وحج البيت فإنه كافر .

وأيضاً فقد قال تعالى في أول سورة آل عمران : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم * إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨-٢٠] . فقد أمره تعالى بعد قوله : ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾

[سورة آل عمران : ١٩] . أن يقول أسلمت وجهى لله ، ومن اتبعن . وأن يقول للذين أوتوا الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، والأميين ، وهم الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم أأسلمتم فالعرب الأميون يدخلون فى لفظ الأميين باتفاق الناس .

وأما من سواهم : فإما أن يشمله هذا اللفظ أو يدخل فى معناه بغيره من الألفاظ المبينة أنه أرسل إلى جميع الناس .

قال تعالى : ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ ، [سورة آل عمران : ٢٠] . فقد أمر أهل الكتاب بالإسلام كما أمر به الأميين وجعلهم إذا أسلموا مهتدين ، وإن لم يسلموا فقد قال : إنما عليك البلاغ . أى : تبلغهم رسالات ربك إليهم والله هو الذى يحاسبهم ، فدل بهذا كله على أنه عليه أن يبلغ أهل الكتاب ما أمرهم به من الإسلام كما يبلغ الأميين ، وأن الله يحاسبهم على ترك الإسلام كما يحاسب الأميين .

وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم فى الكتاب الذى كتبه إلى هرقل ملك النصارى : « من محمد رسول إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين » ﴿ ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٤] .

وأبلغ من ذلك أن الله تعالى أخبر فى كتابه أن الإسلام دين الأنبياء كنوح وإبراهيم ، ويعقوب ، وأتباعهم إلى الحواريين ، وهذا تحقيق لقوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٥] . وإن الدين عند الله الإسلام فى كل زمان ومكان .

قال تعالى عن نوح أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون * فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ ، [سورة يونس : ٧١ ، ٧٢] .

فهذا نوح الذى غرق الله أهل الأرض بدعوته ، وجعل جميع الآدميين من ذريته يذكر أنه أمر أن يكون من المسلمين .

وأما الخليل فقال تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٢٧ ، ١٢٨] . ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ، سورة البقرة : ١٣٠ ، ١٣٢] .

فقد أخبر تعالى أنه أمر الخليل بالإسلام ، وأنه قال أسلمت لرب العالمين وأن إبراهيم وصى بنيه ، ويعقوب وصى بنيه أن لايموتن إلا وهم مسلمون .

وقال تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٧ ، ٦٨] .

وقال تعالى عن يوسف الصديق بن يعقوب أنه قال : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولىّ فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾ ، [سورة يوسف : ١٠١] .

وقال تعالى عن موسى : ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ ، [سورة يونس : ٨٤] .

وقال عن السحرة الذين آمنوا بموسى : ﴿ قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾ ، [سورة الشعراء : ٥٠ ، ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٢٦] .

قال تعالى فى قصة سليمان : ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألاَّ تعلوا على وأتونى مسلمين ﴾ ، [سورة النمل : ٣٠ ، ٣١] .

و ﴿ قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ﴾ ، [سورة النمل : ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾ ، [سوره النمل : ٤٢]

وقال تعالى عن بلقيس التى آمنت بسليمان : ﴿رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ ، [سورة النمل : ٤٤] .

وقال ــ عن أنبياء بنى إسرائيل : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٤] .

وقال تعالى عن الحواريين : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ ، [سورة المائدة : ١١١] .

وقال تعالى : ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ [سورة آل عمران : ٥٣] .

فهؤلاء الأنبياء كلهم وأتباعهم ، كلهم يذكر الله تعالى أنهم كانوا مسلمين، وهذا مما يبين أن قوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ، [سورة آل عمران : ٨٥] . وقوله : ﴿إن الدين عندالله

الإسلام ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٩] . لا يختص بمن بعث إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، بل هو حكم عام فى الأولين والآخرين ، ولهـذا قال تعالى : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسـلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ [سورة النساء : ١٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنـة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانـكم إن كنتم صادقين * بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾ ، [سورة البقرة :١١١،١١٢]

فصل

قولهم : ثم وجدنا فى هـذا الـكتاب من تعظيم السيد المسيح وأمه حيث يقول فى سورة الأنبياء هـذا ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٩١] .

وقال فى سورة آل عمران : ﴿ وإذ قالت الملائـكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٤٢] مع الشهادات للسيد المسيح بالمعجزات ، وأنه حبلت به أمه من غير مباضعة رجـل لبشارة ملائـكة الله لأمه ، وأنه تـكلم فى المهد ، وإحياء الميت ، وإبراء الأكمه ، ونقى الأبرص وأنه خلق من الطين كهيئة الطير فنفخ فيه فـكان طيراً بإذن الله . أى : بإذن اللاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة فى الناسوت . ووجدنا أيضاً فى الـكتاب أن الله رفعه إليه .

وقال فى سورة النساء : ﴿ وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٧، ١٥٨] . وفى سورة آل عمران : ﴿ إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٥] .

وقال فى سورة البقرة : ﴿ وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ ، [سورة البقرة : ٨٧] .

وقال فى سورة الحديد : ﴿ وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ، ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٧] .

وقال فى سورة آل عمران : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١٣، ١١٤] .

ثم وجدناه يعظم إنجيلنا . الجواب : أما تعظيم المسيح وأمه فهو حق ، وكذلك مدح من كان على دينه الذى لم يبدل قبل أن انبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، أو بقى على ذلك إلى أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به ، فإن هؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون ، وكذلك من كان على دين موسى الذى لم يبدل إلى أن بعث المسيح فآمن به فهؤلاء مؤمنون مسلمون مهتدون ، وقد قدمنا أن المسلمين هم عدل متوسطون لا ينحرفون لا إلى غلو ، ولا إلى تقصير .

وأما اليهود والنصارى : فهم على طرفى نقيض . هؤلاء ينحرفون إلى جهة، وهؤلاء إلى الجهة التى تقابلها كما ذكرنا تقابلهم فى النسخ ، وكذلك تقابلهم فى التحريم ، والتحليل ، والطهارة ، والنجاسة . فإن اليهود حرمت عليهم الطيبات وهم يبالغون فى اجتناب النجاسات حتى أن الحائض لا يؤاكلونها ، ولا يشاربونها ، ولا يجامعونها ، وكانوا لا يرون إزالة النجاسة من الثوب بل يقرض موضعها ، ويستخرجون الدم من العروق إلى غير ذلك من الآصار ، والأغلال التى كانت عليهم .

وأما النصارى : فني مقابلتهم تجد عامتهم لا يرون شيئاً حراماً ، ولا نجساً إلا ما كرهه الإنسان بطبعه ، ويصلون مع الجنابة ، والحدث ، وحمل النجاسات ، ويأكلون الخبائث : كالدم ، والميتة ، ولحم الخنزير ، إلا من كره منهم شيئاً فتركه ، والمسلمون وسط كما قال تعالى فيهم : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ ، [سورة البقرة:١٤٣] أي : عدلا خياراً ، كما قال تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم ، والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به ، وعزروه ، ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ ، [سورة الأعراف:١٥٦، ١٥٧]

ولهذا كان من انحرف من المسلمين إلى شبه اليهود والنصارى ، مأموراً بترك ذلك الانحراف ، واتباع الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ، غير المغضوب عليهم كاليهود . ولا الضالين كالنصارى . وذلك مثل من بالغ في اجتناب النجاسات فينجس ما لم ينجسه الله ورسوله ، ويحرم ما لم يحرمه الله ورسوله ، ويأخذه الوسواس في اجتناب النجاسات ، ويحرم الطيبات التي أحلها الله للمسلمين ، مثل : من يرى أن القياس أن النجاسة لا تزول لا بماء ولا غيره . أو يرى أنها وإن زالت فلم يبق لها أثر فالمحل نجس إذا لم تزل بما يشترطه هو من الماء أو غيره . أو يرى أن الطيبات التي أحلها الله حرام خبيثة لأنها مستحيلة عن المحرم مع أن الخل حلال ، وإن كان قد كان خمرا باتفاق المسلمين إذا بدا إلى حالته ، أو يرى أن الماء الطيب ، والمائعات الطيبة التي ليس فيها أثر من الخبيث

حرام لكون الخبيث لاقاها استهلك فيها مع أنها من الطيبات لا من الخبائث أو يرى تحريم ما سوى موضع الدم الذى هو أذى إلى غير ذلك من أقوال قالها بعض العلماء ، ولكن غيرهم نازعهم فى ذلك واتبع ما دل عليه الكتاب والسنة . وأعظم من ذلك من يكفر من خالفه من المسلمين ، ويرى نجاسة الكفار كما دل عليه كثير من أهل البدع من الرافضة والخوارج وغيرهم ، فإذا أكل غيرهم من وعائهم نجسه عندهم . وأما ما يفعله كثير من الناس من غير أن يقوله عالم مثل من يغسل يديه ، وثيابه ، وحصر بيته بتوهم نجاستها ، أو يأمر الحائض إذا طهرت أن تبدل ثيابها الأول أو تغسلها ، أو يمنع الجنب أن يأكل أو يشرب حتى يغتسل ، فهذا كثير فيمن يشبه اليهود بل يشبه سامرة اليهود .

وأما من يشبه النصارى : فمثل من يحسن الظن بمن لا يتطهر ، ولا يصلى من المنسوبين إلى الفقر والزهد والعبادة ، مثل من يكون فى مواضع الشياطين والنجاسات . كالحمام ، والأتانين ، والمزابل وهو ملوث بالبول والعذرة ويباشر الكلاب ولا يتوضأ ولا يغتسل من الجنابة بل ولا يصلى أو يصلى بلا وضوء ، وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن الصلوات الخمس فرض على كل أحد، وأن الوضوء من الحدث ، والاغتسال من الجنابة فرض ولا يصلى إلا به مع القدرة ، وأن لا يتيمم مع القدرة . فمن أنكر وجوب ذلك فهو كافر باتفاق المسلمين . ومن جعل الزاهد العابد الذى له نوع من الخوارق مثل نوع من الكشف والتصرف الذى يكون من الشياطين، والجهال يظنون أنه من كرامات أولياء الله إذا لم يكن يصلى الصلوات الخمس ويتوضأ ويغتسل من الجنابة من المؤمنين ، أو من أولياء الله فهو كافر باتفاق المسلمين ، ومن لم يحرم الخبائث التى حرمها الله ورسوله كالبول والعذرة والدم والميتة ولحم الخنزير والخمر فهو كافر باتفاق المسلمين ومن جعل مستحل ذلك مع العلم بمخالفته لدين الرسول ولياً لله فهو كافر باتفاق المسلمين ، وكذلك فيمن ينتحل الإسلام ويذم أهل الكتاب من يكون منافقاً

فى الدرك الأسفل من النار ، ويكون كثير من اليهود والنصارى أخف عذابا فى الآخرة منه . قال تعالى : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً * إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٤٥، ١٤٦]. وكذلك المسلمون وأهل السنة فى المسلمين فى التوحيد فإن اليهود شبهوا الخالق بالمخلوق فيما يختص بالمخلوق ، وهو صفات النقص الذى يجب تنزيه الرب عنها . والنصارى شبهوا المخلوق بالخالق فيما يختص بالخالق ، وهو صفات الكمال التى لا يستحقها إلا الله تبارك وتعالى : فقال من قال من اليهود ، ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨١] وقالوا : ﴿ يد الله مغلولة ﴾ ، [سورة المائدة : ٦٤] . وهو بخيل ؛ وقالوا : إنه خلق العالم فتعب فاستراح .

وحكى عن بعضهم أنه قال : بكى على الطوفان حتى رمد وعادته الملائكة ، وأنه ناح على بعض من أهلكه من عباده كما ينوح المصاب على ميته ، وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه و يتقدس سبحانه وتعالى. وأيضاً فهم يستكبرون عن عبادة الله وطاعة رسله ، و يعصون أمره ويتعدون حدوده ، ولا يجوزون له أن ينسخ ما شرعه بل يحجرون عليه . والنصارى يصفون المخلوق بما يتصف به الخالق فيجعلونه رب العالمين خالق كل شيء ومليكه الذى هو بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون واتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً من دون الله ، وصوروا تماثيل المخلوقات واتخذوهم شفعاء يشفعون لهم عند الله كما فعلت عباد الأوثان كما قال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ﴾ ، [سورة يونس : ١٨].

ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع ﴾ ، [سورة السجدة : ٤] والمسلمون وسط يصفون الله بما وصف به نفسه ، ووصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تمثيل ، يصفونه بصفات الكمال ، وينزهونه عن النقائص التى تمتنع على الخالق ولا يتصف بها المخلوق ، فيصفونه بالحياة ، والقدرة ، والرحمة ، والعدل ، والإحسان وينزهونه عن الموت ، والنوم ، والجهل ، والعجز والظلم ، والفناء ، ويعلمون مع ذلك أنه لا مثل له فى شىء من صفات الكمال فلا أحد يعلم كعلمه ، ولا يقدر كقدرته ، ولا يرحم كرحمته ، ولا يسمع كسمعه ، ولا يبصر كبصره ، ولا يخلق كخلقه ، ولا يستوى كاستوائه ، ولا يأتى كإتيانه ، ولا ينزل كنزوله كما قال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ؛ [سورة الإخلاص] ولا يصفون أحداً من المخلوقين بخصائص الخالق جل جلاله ، بل كل ما سواه من الملائكة والأنبياء وسائر الخلق فقير إليه عبد له ، وهو الصمد الذى يحتاج إليه كل شىء ، ويسأله كل أحد ، وهو غنى بنفسه لا يحتاج إلى أحد فى شىء من الأشياء كما قال تعالى: ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إدًّا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ ، [سورة مريم : ٨٨ ـ ٩٥]

وقال تعالى: ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون

له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليما ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ [سورة النساء : ١٧٠ ــ ١٧٣] .

وكذلك هم فى المسيح ،فالنصارى يقولون : هو الله ، ويقولون:أيضاً:ابن الله

وهو إله تام وإنسان تام . واليهود يقولون : هو ولدزنا ، وهو ابن يوسف النجار، ويقولون عن مريم : إنها بغى بعيسى كما قال تعالى . ﴿ وقولهم على مريم بهتاناً عظيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٦] . ويقولون عنه هو ساحر كذاب .

وأما المسلمون فيقولون : هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول وروح منه ، وهو وجيه فى الدنيا والآخرة ، ومن المقربين ، ويصفونه بما وصفه الله به فى كتابه لا يغلون فيه غلو النصارى ، ولا يقصرون فى حقه تقصير اليهود ، وكذلك قولهم فى سائر الأنبياء والمرسلين : وفى أولياء الله . فاليهود قتلوا النبيين والذين يأمرون بالقسط من الناس . والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ، ومع هذا فقد شارك النصارى اليهود فى نقص حق كثير من الأنبياء فيقولون إن سليمان لم يكن نبياً ، ويقولون : إن الحواريين مثل موسى وإبراهيم ، ويقولون : إن من عمل بوصايا الله من غير الأنبياء صار مثل الأنبياء ، وكان له أن يشرع شريعة ، وبعض اليهود غلوا فى العزيز حتى قالوا : إنه ابن الله .

ولهذا قال نبينا صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد الله فقولوا عبد الله ورسوله »

والله تعالى ذكر فى القرآن فى سورة « كهيعص » قصة ابنى الخالة يحيى وعيسى . ويحيى يسمونه النصارى يوحنا المعمدانى عندهم فقال تعالى بعد أن ذكر قصة يحيى ﴿ واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً * فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكياً * قالت أنَّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا * فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا * فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا » وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا * فكلى واشربى وقرى عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا * فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فريا * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا * فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا * قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾ ، [سورة مريم : ١٦ — ٣٣] . ثم قال الله تعالى : ﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان الله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم * أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ﴾ ، [سورة مريم : ٣٤ — ٣٨] .

فذكر سبحانه قصة مريم والمسيح فى هذه السورة المكية التى أنزلها فى أول الأمر بمكة فى السور التى ذكر فيها أصول الدين التى اتفق عليها الأنبياء ، ثم ذكرها فى سورة آل عمران ، وهى من السور المدنية التى يخاطب فيها من اتبع الأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين ، لما قدم عليه نصارى نجران فكان فيها الخطاب لأهل الكتاب فقال تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين * ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم * إذ قالت امرأت عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم * فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ ، [سورة آل عمران : ٣٣ ـ ٣٦] .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من مولود إلا يمسه الشيطان فيستهل صارخا من الشيطان إلا مريم وابنها » . ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم ﴿ وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ .

قال تعالى : ﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ ، [سورة آل عمران : ٣٧] . ثم ذكر قصة زكريا ويحيى ثم قال : ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين * قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟ قال كذلك الله يفعل ما يشاء * قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً

وسبح بالعشى والإبكار * وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين * ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون * إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين * قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟ قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل * ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين * ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون * إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين * ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين * إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين * ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم * إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب

ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم * فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين * قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون * يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٣٨ ـ ٦٨] .

فهو سبحانه قد ذكر قصة مريم والمسيح فى هاتين السورتين . إحداهما : مكية نزلت فى أول الأمر مع السور الممهدة لأصول الدين ، وهى سورة كهيعص . والثانية : مدنية نزلت بعد أن أمر بالهجرة والجهاد ، ولهذا تضمنت مناظرة أهل الكتاب ومباهلتم ، كما نزلت فى «براءة» مجاهدتهم . فأخبر فى السور المكية أنها لما انفردت للعبادة أرسل الله إليها روحه فتمثل لها بشرا سويا . فقالت : ﴿ إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ ، [سورة مريم : ١٨] .

قال أبو وائل : علمت أن المتقى ذو نهية ، أى : تقواه ينهاه عن الفاحشة . وأنها خافت منه أن يكون قصده الفاحشة ، فقالت : ﴿ أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ ، أى : تتقى الله ، وما يقول بعض الجهال من أنه كان فيهم رجل فاجر إسمه تقى فهو من نوع الهذيان وهو من الكذب الظاهر الذى لا يقوله إلا جاهل ، ثم قال : (إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً)

[سورة مريم:١٩] وفى القراءة الأخرى : ﴿ولأهب لك غلاماً زكياً﴾ ، فأخبر هذا الروح الذى تمثل له بشراً سوياً أنه رسول ربها ، فدل الكلام على أن هذا الروح عين قائمة بنفسها ليست صفة لغيرها ، وأنه رسول من الله ليس صفة من صفات الله، ولهذا قال جماهير العلماء : إنه جبريل عليه السلام ، فإن الله سماه الروح الأمين وسماه روح القدس ، وسماه جبريل ، وهكذا عند أهل الكتاب أنه تجسد من مريم ومن روح القدس ، لكن ضلالهم حيث يظنون أن روح القدس حياة الله وأنه إله يخلق ويرزق ويعبد ، وليس فى شىء من الكتب الإلهية ولا فى كلام الأنبياء أن الله سمى صفته القائمة به روح القدس ، ولا سمى كلامه ، ولا شيئا من صفاته إبناً ، وهذا أحد ما تبين به ضلال النصارى ، وأنهم حرفوا كلام الأنبياء وتأولوه على غير ما أرادت به الأنبياء ، فإن أصل تثليثهم مبنى على ما فى أحد الأناجيل من أن المسيح عليه السلام قال لهم : [عمدوا الناس باسم الأب والإبن وروح القدس] . فيقال لهم : هذا إذا كان قد قاله المسيح ، وليس فى لغة المسيح ولا لغة أحد من الأنبياء ، أنهم يسمون صفة الله القائمة به لا كلمته ولا حياته لا إبنا ولا روح قدس ، ولا يسمون كلمته إبنا ، ولا يسمونه نفسه إبناً، ولا روح قدس ، ولكن يوجد فيما ينقلونه عنهم أنهم يسمون المصطفى المكرم إبناً ، وهذا موجود فى حق المسيح وغيره كما يذكرون أنه قال تعالى لإسرائيل : أنت ابنى بكرى . أى : بنى إسرائيل . وروح القدس يراد به الروح التى تنزل على الأنبياء كما نزلت على داود وغيره ، فإن فى كتبهم أن روح القدس كانت فى داود وغيره ، وأن المسيح قال لهم : أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم فسماه أبا للجميع ، لم يكن المسيح مخصوصاً عندهم باسم الإبن ، ولا يوجد عندهم لفظ الإبن إلا اسما للمصطفى المكرم لا إسما لشىء من صفات الله القديمة حتى يكون الإبن صفة الله تولدت منه ، وإذا كان كذلك كان فى هذا ما يبين أنه ليس المراد بالإبن كلمة الله القديمة الأزلية التى يقولون إنها تولدت

من الله عندهم مع كونها أزلية ، ولا بروح القدس حياة الله ، بل المراد بالإبن ناسوت المسيح ، و بروح القدس ما أنزل عليه من الوحى والملك الذى نزل به فيكون قد أمرهم بالإيمان بالله ، و برسوله ، وبما أنزله على رسوله ، والملك الذى نزل به ، وبهذا الذى نزل به ، و بهذا أمرت الأنبياء كلهم وليس للمسيح خاصة استحق بها أن يكون فيه شىء من اللاهوت ، لكن ظهر فيه نور الله وكلام الله وروح الله كما ظهر فى غيره من الأنبياء والرسل .

ومعلوم أن غيره أيضاً فيما ينقلونه عن الأنبياء يسمى إبنا وروح القدس حلت فيه ، وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع ، والمقصود هنا : التنبيه على أن كلام الأنبياء عليهم السلام يصدق بعضه بعضاً ، وأنه ليس مع النصارى حجة سمعية ، ولا عقلية توافق ما ابتدعوه ، ولكن فسروا كلام الأنبياء بما لا يدل عليه ، وعندهم فى الإنجيل أنه قال : [إن الساعة لا يعلمها الملائكة ولا الإبن و إنما يعلمها الأب وحده] فبين أن الإبن لا يعلم الساعة فعلم أن الإبن ليس هو القديم الأزلى و إنما هو المحدث الزمانى .

فصل

والمضاف إلى الله نوعان : فإن المضاف إما أن يكون صفة لا تقوم بنفسها كالعلم ، والقدرة ، والكلام ، والحياة . و إما أن يكون عيناً قائمة بنفسها .

فالأول إضافة صفة كقوله : ﴿ ولا يحيطون بشىء من علمه ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٥] . وقوله : ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ ، [سورة الذاريات: ٥٨] . وقوله : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾ ، [سورة فصلت : ١٥] .

وقول النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح حديث الاستخارة : «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك

بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك » ، وقوله تعالى : ﴿ وتمت كلمت ربك صدقاً وعدلا ﴾ ، [سورة الأنعام : ١١٥] . وقوله : ﴿ ذلكم حكم الله يحكم بينكم ﴾ ، [سورة الممتحنة : ١٠] . وقوله : ﴿ ذلك أمر الله أنزله إليكم ﴾ ، [سورة الطلاق : ٥] .

والثانى : إضافة عين كقوله تعالى : ﴿وطهر بيتى للطائفين﴾ ، [سورة الحج: ٢٦]. وقوله : ﴿ ناقة الله وسقياها ﴾ ، [سورة الشمس : ١٣] . وقوله : ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله ﴾ ، [سورة الإنسان : ٦] .

فالمضاف فى الأول : صفة لله قائمة به ليست مخلوقا له بائن عنه والمضاف فى الثانى : مملوك لله مخلوق له بائن عنه . لكنه مفضل مشرف لما خصه الله به من الصفات التى اقتضت إضافته إلى الله تبارك وتعالى ، كما خص ناقة صالح من بين النوق ، وكما خص بيته بمكة من بين البيوت ، كما خص عباده الصالحين من بين الخلق ، ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ ، [سورة مريم : ١٧] . فإنه وصف هذا الروح بأنه تمثل لها بشراً سوياً ، وأنها استعاذت بالله منه إن كان تقيا وأنه قال : «إنما أنا رسول ربك» وهذا كله يدل على أنها عين قائمة بنفسها ، وهى التى تسمى فى اصطلاح النظار جوهراً ، وقد تسمى جسما إذا كانت مشاراً إليها مع اختلاف الناس فى الجسم . هل هو مركب من الجواهر المفردة ، أم من المادة والصورة ، أم ليس مركباً لا من هذا ولا من هذا ؟ وإذا كان الله قد بين أن المضاف هنا ليس من الصفات القائمة بغيرها بل من الأعيان القائمة بنفسها علم أن المضاف مملوك لله مخلوق له ، لكن إضافته إلى الله تدل على تخصيص الله له من الاصطفاء والإكرام بما أوجب التخصيص بالإضافة ، وقد ذكرت فيما كنت كتبته قبل هذا من الرد على النصارى ، الكلام فى ذلك وغيره وبينت أن المضافات إلى الله نوعان : أعيان ، وصفات . فالصفات إذا أضيفت إليه كالعلم والقدرة والكلام والحياة والرضا والغضب ونحو ذلك دلت

الإضافة على أنها إضافة وصف له قائم به ليست مخلوقة ، لأن الصفة لا تقوم بنفسها فلابد لها من موصوف تقوم به ، فإذا أضيفت إليه علم أنها صفة له لكن قد يعبر باسم الصفة عن المفعول بها يسمى المقدور قدرة ، والمخلوق بالكلمة كلاما ، والمعلوم علماً ، والمرحوم به رحمة كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة » وقوله تعالى فيما يروى عن نبيه أنه قال للجنة : ﴿ أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ﴾ . ويقال للمطر والسحاب : هذه قدرة قادر ، وهذه قدرة عظيمة . ويقال في الدعاء : غفر الله لك علمه فيك ، أي : معلومه

وأما الأعيان إذا أضيفت إلى الله تعالى فإما أن تضاف بالجهة العامة التي يشترك فيها المخلوق مثل كونها مخلوقة ومملوكة له ومقدورة ، ونحو ذلك . فهذه إضافة عامة مشتركة كقوله ﴿ هذا خلق الله ﴾ وقد يضاف لمعنى يختص بها يميز به المضاف عن غيره مثل : بيت الله ، وناقة الله ، وعبدالله ، وروح الله ، فمن المعلوم اختصاص ناقة صالح بما تميزت به عن سائر النياق ، وكذلك اختصاص الكعبة ، واختصاص العبد الصالح الذي عبد الله وأطاع أمره ، وكذلك الروح المقدسة التي امتازت بما فارقت به غيرها من الأرواح . فإن المخلوقات اشتركت في كونها مخلوقة مملوكة مربوبة لله يجري عليها حكمه وقضاؤه وقدره وهذه الإضافة لا اختصاص فيها ، ولا فضيلة للمضاف على غيره وامتاز بعضها بأن الله يحبه ويرضاه ويصطفيه ويقربه إليه ، ويأمر به ، أو يعظمه ويحبه فهذه الإضافة يختص بها بعض المخلوقات كإضافة البيت ، والناقة ، والروح ، وعباد الله من هذا الباب .

وقد قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿ والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ .

وقال في سورة التحريم : ﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم

الظالمين * ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ ، [سورة التحريم : ١١ ، ١٢] .

فذكر امرأة فرعون التي ربت موسى بن عمران ، وجمعت بينه وبين أمه حتى أرضعته أمه عندها . وذكر مريم أم المسيح التي ولدته وربته فهاتان المرأتان ربتا هذين الرسولين الكريمين ، فلما قال هنا : ﴿فنفخنا فيها﴾ ، أى : فى المرأة ، وفيه ، أى : فى فرجها من روحنا وقال هنا : فأرسلنا إليها روحها ـ إلى قوله ـ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ﴾ ، دل على أن قوله : روحنا ليس المراد به أنه صفة لله لا الحياة ، ولا غيرها ، ولا هو رب خالق فلا هو الرب الخالق ، ولا صفة الرب الخالق ، بل هو روح من الأرواح التى اصطفاها الله وأكرمها كما تقدم فى قوله : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ . وأن الأكثرين على أنه جبريل ، وهذا الأصل الذى ذكرناه من الفرق فيما يضاف إلى الله من صفاته ، وبين مملوكاته أصل عظيم ضل فيه كثير من أهل الأرض من أهل الملل كلهم ، فإن كتب الأنبياء : التوراة ، والإنجيل ، والقرآن ، وغيرها أضافت إلى الله أشياء على هذا الوجه . وأشياء على هذا الوجه : فاختلف الناس فى هذه الإضافة ، فقالت المعطلة ـ نفاة الصفات من أهل الملل : إن الجميع إضافة ملك وليس لله حياة قائمة به . ولا علم قائم به ، ولا قدرة قائمة به ، ولا كلام قائم به ، ولا حب ، ولا بغض ولا غضب ، ولا رضى ، بل جميع ذلك مخلوق من مخلوقاته ، وهذا أول ما ابتدعه فى الإسلام الجهمية وإنما ابتدعوه بعد انقراض عصر الصحابة ، وأكابر التابعين لهم بإحسان وكان مقدمهم رجل يقال له : الجهم ابن صفوان ؛ فنسبت الجهمية إليه ، ونفوا الأسماء والصفات ، واتبعهم المعتزلة وغيرهم فنفوا الصفات دون الأسماء ، ووافقهم طائفة من الفلاسفة أتباع أرسطو .

وقالت الحلولية : بل ما يضاف إلى الله قد يكون هو صفة له وإن كان بائنا عنه ، بل قالوا : هو قديم أزلى ، فقالوا : روح الله قديمة أزلية صفة لله ، حتى قال

كثيرمنهم : إن أرواح بنى آدم قديمة أزلية صفة لله ، وقالوا : إن مايسمعه الناس من أصوات القراء ومداد المصاحف قديم أزلى ، وهو صفة لله .

وقال حذاق هؤلاء بل غضبه ، ورضاه ، وحبه ، و بغضه ، وإرادته لما يخلقه قديم أزلى ، وكلامه الذى سمعه موسى قديم أزلى ، وأنه لم يزل راضيا محبا لمن علم أنه يطيعه قبل أن يخلق ، ولم يزل غضبانا ساخطا على من علم أنه يكفر قبل أن يخلق ، ولم يزل ولا يزال قائلا : يا آدم ، يانوح ، يا إبراهيم قبل أن يوجدوا ، و بعد موتهم ، ولم يزل ولا يزال يقول : يا معشر الجن والإنس ، قبل أن يخلقوا و بعد ما يدخلون الجنة والنار .

وأما سلف المسلمين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وأئمة المسلمين المشهورون بالإمامة فيها كالأربعة وغيرهم ، وأهل العلم بالكتاب السنة ، فيفرقون بين مملوكاته ، وبين صفاته ، فيعلمون أن العباد مخلوقون ، وصفات العباد مخلوقة ، وأجسادهم ، وأرواحهم ، وأصواتهم ، وكلامهم بالكتب الإلهية وغيرها ، ومدادهم ، وأوراقهم ، والملائكة ، والأنبياء وغيرها ، ويعلمون أن صفات الله القائمة به ليست مخلوقة كعلمه ، وقدرته ، وكلامه ، وإرادته ، وحياته ، وسمعه ، وبصره ، ورضاه ، وغضبه ، وحبه و بغضه ، بل هو موصوف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، ولا بما وصفه به رسله ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يتأولون كلام الله بغير ما أراده ، ولا يمثلون صفات الخالق بصفات المخلوق ، بل يعلمون أن الله سبحانه ليس كمثله شيء لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله بل هو موصوف بصفات الكمال ، منزه عن النقائص ، وليس له مثل فى شيء من صفاته ، ويقولون : إنه لم ، ولا يزال موصوفا بصفات الكمال ، لم يزل متكلما إذا شاء بمشيئته وقدرته ، ولم يزل عالما ، ولم يزل قادرا ، ولم يزل حيا سميعا بصيراً ، ولم يزل مريداً ، فكل كمال لا نقص فيه يمكن

اتصافه به فهو موصوف به لم يزل ولا يزال متصفا بصفات الكمال منعوتا بنعوت الجلال والإكرام سبحانه وتعالى والنصارى من أعظم الناس اضطرابا فى هذا الأصل، فتارة: يجعلون كلامه الذى تكلم به كالتوراة والإنجيل مخلوقا منفصلا عنه و ينفون عنه الصفات. وتارة: يجعلون كلمته قديمة أزلية متولدة عنه لم تزل ولا تزال، ثم يقولون هذه الكلمة هى ابنه، ويجعلون هذه الكلمة علمه، أو حكمته و يقولون: إن هذه الكلمة هى إله خالق وهو الذى خلق السموات والأرض ويقولون: هذه الكلمة هى المسيح والمسيح إله خالق العالم.

و يقولون: مع هذا إن هذه الكلمة ليست هى الأب الذى خلق السموات والأرض فيجعلون كلمته صفة قديمة أزلية، و يجعلونها ابناً له، و يجعلون الصفة إلها خالقا. ويجعلون المسيح هو الإله الخالق. و يقولون مع هذا: هو إله حق من إله حق من جوهر أبيه. ولهم فى كلام الله وصفاته من التناقض والاضطراب، ومخالفة كلام الأنبياء. وتفسيره بغير ما أراده ومخالفة صريح المعقول وصحيح المنقول ماسنذكر إن شاء الله تعالى منه مايسره الله، إذ بيان فساد دين النصارى بالاستقصاء لايتسع له هذا الكتاب، ولما قص الله تعالى قصة المسيح قال: ﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ﴾، [سورة مريم: ٣٤]. أى: يشكون و يتمارون كتمارى اليهود والنصارى. ثم قال تعالى: ﴿ فاختلفت الأحزاب من بينهم ﴾، [سورة الزخرف: ٦٥]. فاختلفت اليهود والنصارى فيه، ثم اختلفت النصارى فيه وصاروا أحزابا كثيرة جداً، كالنسطورية، واليعقوبية، والملكية، والباروبية، والمريمانية، والسمياطية. وأمثال هذه الطوائف، كما سنذكر إن شاء الله تعالى كثيراً من طوائفهم واختلافهم فى مجامعهم كما حكى ذلك عنهم أحد أكابرهم سعيد بن البطريق وغيره، فإنه ليس فى الأمم أكثر اختلافا فى رب العالمين منهم، فويل للذين

كفروا من هذه الطوائف كلها من مشهد يوم عظيم ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ ، [سورة مريم : ٣٨] . يقول تعالى : ما أسمعهم وما أبصرهم يوم يأتوننا . لكن الظالمون اليوم كالنصارى الذين ظلموا بإفكهم وشركهم فى ضلال مبين ضلوا عن الحق فى المسيح ، وقد وصف الله النصارى بالضلال فى مثل قوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ ، [سورة الكهف : ٤ ، ٥] . لأن الغالب عليهم الجهل بالدين ، وأنهم يتكلمون بكلام لا يعقلون معناه ليس منقولا عن الأنبياء حتى يسلم لقائله بل هم ابتدعوه ، وإذا سألتهم عن معناه قالوا : هذا لا يعرف بالعقول فيبتدعون كلاما يعرفون بأنهم لا يعقلونه ، وهو كلام متناقض ينقض أوله آخره ، ولهذا لا تجدهم يتفقون على قول واحد فى معبودهم حتى قال بعض الناس : لو اجتمع عشرة نصارى ، افترقوا على أحد عشر قولا .

وقال الربيعى : النصارى أشد الناس اختلافا فى مذاهبهم ، وأقلهم تحصيلا لها ، لا يمكن أن يعرف لهم مذهب ، ولو سألت قسا من أقسائهم عن مذهبهم فى المسيح ، وسألت أباه وأمه لاختلفوا عليك الثلاثة ، ولقال كل واحد منهم قولا لا يشبه قول الآخر .

وقال بعض النظار : مامن قول يقوله طائفة من العقلاء إلا إذا تأملته لم تصورت منه معنى معقولا وإن كان باطلا . إلا قول النصارى فإنك كلما تأملته تتصور له حقيقة تعقل لكن غايتهم أن يحفظوا الأمانة أو غيرها ، وإذا طولبوا بتفسير ذلك فسره كل منهم بتفسير يكفر به الآخر ، كما يكفر اليعقوبية ،

والملكانية ، والنسطورية بعضهم بعضاً لاختلافهم فى أصل التوحيد والرسالة إذ كان قولهم فى التوحيد . والرسالة من أفسد الأقوال وأعظمها تناقضاً كما بين فى موضع آخر .

فصل

وأما قولهم : فكان طيراً بإذن الله . أى : بإذن اللاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة فى الناسوت ، فهذا إذا قالوه على أنه مذهبهم من غير أن يقولوا إن محمداً أراده ، تكلمنا معهم فى ذلك وبينا فساد ذلك عقلا ونقلا .

وأما قولهم : إن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يقول: إن المراد إذن اللاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة فى الناسوت فهذا من البهتان الظاهر على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو من جنس قولهم إن قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ ، [سورة الفاتحة : ٦ ، ٧] . أراد به : النصارى ومن جنس قولهم إن قوله : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٥] أراد به : العرب ، ومن جنس قولهم : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] أراد بهم : الحواريين ، ومن جنس قولهم : ﴿ الم * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ﴾ ، [سورة البقرة : ١ ، ٢] . أراد به الإنجيل فهذه المواضع التى فسروا بها القرآن وزعموا أن محمداً صلى الله عليه وسلم الذى بين للناس ما أنزل إليهم ، كان يريد بها ما يتلوه من القرآن هذه المعانى التى ذكروها وهى من الكذب الظاهر الذى يدل على غاية جهل قائلها ، أو غاية معاندته ، ولكن مثل هذا التأويل غير مستنكر من النصارى ، فإنهم قد فسروا مواضع كثيرة من التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والنبوات بنحو هذه التفاسير التى حرفوا فيها الكلام الذى جاءت به الأنبياء عن مواضعه تحريفاً ظاهرا ، فبدلوا بذلك كتب الله ودين الله ، وضاهوا بذلك اليهود الذين حرفوا و بدلوا ، وإن اختلفت جهة التحريف والتبديل ، فتحريفهم للقرآن من جنس تحريفهم للتوراة والإنجيل

وهم من الذين يدعون المحكم و يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، لكن فى هذه المواضع حرفوا المحكم الذى معناه ظاهر لا يحتمل إلا معنى واحداً فكانوا من الجهل والمعاندة أبعد عن الصواب ممن حرف معنى المتشابه ، وذلك أنه قد علم بالاضطرار من دين محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « إن المسيح عندالله مخلوق كسائر المرسلين وأنه يكفر النصارى الذين يقولون: هو الله وابن الله»

قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ ، [سورة المائدة : ١٧] .

وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم : وقال المسيح : يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك الله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقه كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون * قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم * قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٢-٧٧] .

فقد ذكر كفر النصارى فى قولهم : هو الله مرتين ، وذكر أنه ليس المسيح إلا رسول قد خلت من قبله الرسل فغايته الرسالة كما قال فى محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٤٤] .

وغاية أمه أن تكون صديقة ودل بهذا أنها ليست بنبية ، ثم قال : ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ . وهذا من أظهر الصفات النافية للالهية لحاجة الأكل إلى ما يدخل فى جوفه ولما يخرج منه مع ذلك من الفضلات .

والرب تعالى أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

والنصارى تقول : إنه يلد ، وإنه يولد ، وإن له كفوا كما قد بين فى موضع آخر ، وقد أخبر بعبودية المسيح فى غير موضع كقوله تعالى : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون * وقالوا ءآلهتنا خير أم هو ؟ ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون * إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ﴾ ، [سورة الزخرف : ٥٧ ـ ٥٩] .

وأخبر تعالى أن أول شىء نطق به المسيح قوله : ﴿ إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته ـ الآيات إلى قوله ـ شهيد ﴾ ، [سورة المائدة : ١١٦] .

وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١] . الآيات كلها .
فإذا كان قد علم بالاضطرار من دين محمد صلى الله عليه وسلم ، وبالنقل المتواتر عنه ، وبإجماع أمته إجماعاً يستندون فيه إلى النقل عنه ، وبكتابه المنزل عليه وسنته المعروفة عنه أنه كان يقول : إن المسيح عبد الله ورسوله ليس هو إلا رسول ، وأنه يكفر النصارى الذين يقولون : هو الله وهو ابن الله ، والذين يقولون : ثالث ثلاثة وأمثال ذلك ، كان بعد هذا تفسيرهم لقول الله الذى بلغه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فيكون طيراً بإذن الله . أى : بإذن اللاهوت الذى

هو كلمة الله المتحدة بالناسوت كذباً ظاهراً على محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذا مما يعرف كذبهم فيه على محمد صلى الله عليه وسلم جميع أهل الأرض العالم بحال محمد صلى الله عليه وسلم ، سواء أقروا بنبوته أو أنكروها .

فالمقصود فى هذا المقام : أن هؤلاء كذبوا على محمد صلى الله عليه وسلم كذباً ظاهراً معلوماً للخلق المؤمنين به والمكذبين له ليس هو كذباً خفيا .

وإن قدر أن ما قالوه يكون ممكنا معقولا ، فكيف إذا كان ممتنعاً فى صرائح العقول ؟ بل هو قول غير معقول . أى : غير معقول ثبوته فى الخارج ، وإن كان يعقل ما يختلفون ويعلم به فساد عقولهم لمن قال سائر الأقوال المتناقضة الفاسدة التى يمتنع ثبوتها فى الخارج ، وذلك كما قد بسط فى موضع آخر ، فإن قولهم : بإذن اللاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة فى الناسوت باطل من وجوه :

منها : أن تلك الكلمة إما أن تكون هى الله أو صفة لذاته . أولا هى ذاته ولا هى صفة له ، أو الذات والصفة جميعاً ، فإن لم تكن هى ذات الله ولا صفته ، ولا الذات والصفة كانت بائنة عنه مخلوقة له ، ولم يكن لا هوتا بل ولا خالقه ، وحينئذ فلم يتحد بالمسيح لاهوت ، بل لم يتحد به إن كان اتحد به إلا مخلوق . وإن كانت الكلمة هى الذات أو الذات والصفة فهى رب العالمين ، وهى الأب عندهم ، وهم متفقون على أن المسيح ليس هو الأب ، ولم يتحد به الأب بل الابن .

وإن كانت الكلمة صفة لله عز وجل ، فصفة الله ليست هى الإله الخالق والمسيح عندهم هو الإله الخالق ، وأيضاً فصفة الله قائمة بذاته لاتفارق ذاته وتحل بغيره وتتحد به وكلمة الله عندهم اتحدت بالمسيح ،

وإن قالوا : قولنا هذا كما يقول طائفة من المسلمين : إن القرآن أو التوراة أو الإنجيل حل فى القراء أو اتحد بهم وإن القديم حل فى المخلوق أو اتحد به

ونحو ذلك . قيل : لو كان قول هؤلاء صواباً لم يكن لهم فيه حجة ، فإنه على هذا التقدير لا فرق بين المسيح وبين سائر من يقرأ التوراة ، والإنجيل ، والزبور والقرآن ، وأنتم تدعون أن المسيح هو الله أو ابن الله مخصوصاً بذلك دون غيره ، وأيضاً فهؤلاء وجميع الأمم متفقون على أن قراء القرآن ، وسائر الكتب الإلهية ليس واحد منهم هو الله ، ولا هو ابن الله ، ولا أنه خالق للعالم ، فإذا جعلتم قولكم مثل قول هؤلاء لزمكم أن لا يكون المسيح هو الله ، ولا ابن الله ، ولا ربا للعالم ، وأيضاً فلم نعلم أحداً من هؤلاء قال : إن اللاهوت اتحد بالناسوت ، ولا إن القديم اتحد بالمحدث ، ولا إن كلام الله صار هو والمخلوق شيئاً واحداً ، فالاتحاد باطل باتفاق هؤلاء وغيرهم ، ولكن طائفة منهم أطلقت لفظ الحلول . وطائفة أنكرت لفظ الحلول ، وقالوا : إنما نقول ظهر القديم فى المحدث لا حل فيه ، لكن قالوا ما يستلزم الحلول . وسلف المسلمين وجمهورهم يخطئون هؤلاء ، ويبينون خطأهم عقلا ونقلا ، وقولهم ليس هو قول أحد من أئمة المسلمين ، ولا قول طائفة مشهورة من طوائف المسلمين كالمالكية ، والشافعية ، والحنفية ، والحنبلية ، والثورية ، والداودية ، والإسحاقية وغيرهم ، ولا قول طائفة من طوائف المتكلمين من المسلمين لا المنتسبين إلى السنة كالأشعرية ، والكرامية ولا غيرهم كالمعتزلة والشيعة ، وأمثالهم . وإنما قال ذلك طائفة قليلة انتسبت إلى بعض علماء المسلمين مثل قليل من المالكية ، والشافعية ، والحنبلية ، وهؤلاء غايتهم أن يقولوا بحلول صفة من صفات الله ، وكذلك من قال بحلول الرب واتحاده فى العبد من طوائف الغلاة المنتسبين إلى التشيع ، والتصوف أو غيرهم ، فهم ضلال كالنصارى مع أنه لا حجة للنصارى على هؤلاء ، إذ كان ما يقولونه لا يختص به المسيح ، بل هو مشترك بينه وبين غيره من الأنبياء ، والصالحين . والنصارى تدعى اختصاص المسيح بالاتحاد مع أن المتحد بالناسوت صار هو هو والناسوت شيئاً واحداً ، ومع الاتحاد فيمتنع أن يكون لأحدهما فعل أو صفة

خارج عن الآخر . والنصارى يدعون الاتحاد ثم يتناقضون .

فمنهم من يقول : جوهر واحد . ومنهم من يقول : جوهران . ومنهم من يقول : مشيئة واحدة . ومنهم من يقول : مشيئتان ، كما سيأتى الكلام إن شاء الله تعالى على ذلك .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٥] .

فهذا حق كما أخبر الله به ، فمن اتبع المسيح عليه السلام جعله الله فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، وكان الذين اتبعوه على دينه الذى لم يبدل قد جعلهم الله فوق اليهود ، وأيضاً فالنصارى فوق اليهود الذين كفروا به إلى يوم القيامة .

وأما المسلمون فهم مؤمنون به ليسوا كافرين به ، بل لما بدل النصارى دينه وبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بدين الله الذى بعث به المسيح وغيره من الأنبياء جعل الله محمداً وأمته فوق النصارى إلى يوم القيامة ، كما فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بابن مريم لأنا ؛ لأنه ليس بينى وبينه نبى » .

وقال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ﴾ ، [سورة الشورى : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم

بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٥١ ـ ٥٣] . فكل من كان أتم إيمانا بالله ورسله ، كان أحق بنصر الله تعالى ، فإن الله تعالى يقول فى كتابه : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ ، [سورة غافر : ٥١] .

وقال فى كتابه : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ ، [سورة الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣] . واليهود كذبوا المسيح ومحمداً صلى الله عليهما وسلم ، كما قال الله فيهم : ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب ﴾ ، [سورة البقرة : ٩٠] .

فالغضب الأول : تكذيبهم المسيح ، والثانى : محمداً صلى الله عليه وسلم . والنصارى لم يكذبوا المسيح وكانوا منصورين على اليهود ؛ والمسلمون منصورون على اليهود والنصارى ، فإنهم آمنوا بجميع كتب الله ورسله ، ولم يكذبوا بشىء من كتبه ولا كذبوا أحدا من رسله ، بل اتبعوا ما قال الله لهم حيث قال : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦] :

وقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٥] .

ولما كان المسلمون هم المتبعون لرسل الله كلهم المسيح وغيره ، وكان الله قد وعد الرسل وأتباعهم قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة » . وقال أيضاً : « سألت ربى أن لا يسلط على أمتى عدوا

من غيرهم فيحتاجهم فأعطانيها » الحديث - فكان ما احتجوا به حجة عليهم لا لهم .

فصل

وأما قولهم[1] : وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، فهذا حق كما قال تعالى ، وقد ذكر تعالى تأييد عيسى بن مريم بروح القدس فى عدة مواضع ، فقال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٣] :

وقال تعالى : ﴿ يا عيسى بن مريم أذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذا تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى ﴾ ،[سورة المائدة: ١١٠]

وقد قال تعالى فى القرآن : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ ، [سورة النحل : ١٠١ : ١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ ، [سورة الشعراء . ١٩٣ ، ١٩٤] .

---

(١) أى : وأما احتجاجهم بقول الله : وآتينا الخ .

وقال تعالى : ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾. [سورة البقرة : ٩٧] .

فروح القدس الذى نزل بالقرآن من الله هو الروح الأمين وهو جبريل . وثبت فى الصحيح عن أبى هريرة أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول لحسان ابن ثابت : « أجب عنى اللهم أيده بروح القدس » وفى صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول لحسان بن ثابت : « إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله » .

وفى الصحيحين عن البراء بن عازب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان بن ثابت :« اهجهم أو هاجهم وجبريل معك » . فهذا حسان بن ثابت واحد من المؤمنين لما نافح عن الله ورسوله ، وهجا المشركين الذين يكذبون الرسول أيده الله بروح القدس وهو جبريل عليه السلام وأهل الأرض يعلمون أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن يجعل اللاهوت متحدا بناسبون حسان ابن ثابت ، فعلم أن إخباره بأن الله أيده بروح القدس لا يقتضى اتحاد اللاهوت بالناسوت ، فعلم أن التأييد بروح القدس ليس من خصائص المسيح ، وأهل الكتاب يقرون بذلك وأن غيره من الأنبياء كان مؤيدا بروح القدس. كداود وغيره بل يقولون : إن الحواريين كانت فيهم روح القدس ، وقد ثبت باتفاق المسلمين واليهود والنصارى أن روح القدس يكون فى غير المسيح ، بل فى غير الأنبياء كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

وإنما المقصود فى هذا المقام ، بيان كذبهم على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا التأييد نظير قوله تعالى ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ ، [سورة المجادلة : ٢٢] .

فهذا التأييد بروح منه عام لكل من لم يحب أعداء الرسل وإن كانوا

أقاربه ، بل يحب من يؤمن بالرسل وإن كانوا أجانب ، ويبغض من لم يؤمن بالرسل وإن كانوا أقارب وهذه ملة إبراهيم .

قال تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ : [سورة الممتحنة : ٤] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾ ، سورة الزخرف : ٢٦ ـ ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ ، [سورة التوبة : ١١٤]

وهذا التأييد بروح القدس لمن ينصر الرسل عام فى كل من نصرهم على من خالفهم من المشركين وأهل الكتاب كما تقدم . وليس فى القرآن، ولا فى الإنجيل، ولا غير ذلك من كتب الأنبياء أن روح القدس الذى أيد به المسيح هو صفة الله القائمة به وهى حياته ، ولا أن روح القدس يخلق ويرزق فليس روح القدس هو الله ، ولا صفة من صفات الله ، بل ليس فى شىء من كلام الأنبياء أن صفة الله القائمة به تسمى ابنا ، ولا روح القدس .

فإذا تأول النصارى قول المسيح عمدوا الناس باسم الأب والإبن وروح القدس على أن الإبن صفته التى هى العلم ، وروح القدس صفته التى هى الحياة، كان هذا كذباً بيناً على المسيح ، ولا يوجد قط فى كلامه ولا كلام غيره من الأنبياء تسمية الله ، ولا شىء من صفاته ابناً ؛ ولا حياته روح القدس .

وأيضاً : فهم يذكرون فى الأمانة أن المسيح تجسد من مريم ومن روح القدس ، وهذا يوافق ما أخبر الله به من أنه أرسل روحه الذى هو جبريل ، وهو روح القدس ، فنفخ فى مريم فحملت بالمسيح ، فكان المسيح متجسداً مخلوقا

من أمه من ذلك الروح ، وهذا الروح ليس صفة الله ، لا حياته ولا غيرها ، بل روح القدس قد جاء ذكرها كثيراً فى كلام الأنبياء ، ويراد بها إما الملك ، وإما مايجعله الله فى قلوب أنبيائه وأوليائه من الهدى والتأييد ونحو ذلك كما قال تعالى : ﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، [سورة المجادلة : ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشا من عبادنا ﴾ ، [سورة الشورى : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ ، [سورة النحل : ٢] .

وقال تعالى : يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴾ ، [سوة غافر : ١٥] .

فسمى الملك روحا وسمى ما ينزل به الملك روحا وهما متلازمان ، والمسيح عليه السلام مؤيد بهذا وهذا .

ولهذا قال كثير من المفسرين : إنه جبريل ، وقال بعضهم : إنه الوحى : وهذا كلفظ الناموس يراد به صاحب سر الخير كما يراد بالجاسوس صاحب سر الشر فيكون الناموس جبريل ، ويراد به الكتاب الذى نزل به وما فيه من الأمر والنهى والشرع ، ولما قال ورقة بن نوفل للنبى صلى الله عليه وسلم :هذا هو الناموس الذى كان يأتى موسى ، فسر الناموس بهذا وهذا وهما متلازمان .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز * ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون * ثم قفينا

على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون ﴾ ، [سورة الحديد : ـ ٢٥ ـ ٢٧] .

فهو حق كما قال تعالى وليس فى ذلك مدح للرهبانية ولا لمن بدل دين المسيح، وإنما فيه مدح لمن اتبعه بما جعل الله فى قلوبهم من الرحمة والرأفة حيث يقول : ﴿ وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ﴾ ثم قال : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴾ . أى وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم » وهذه الرهبانية لم يشرعها الله ولم يجعلها مشروعة لهم، بل نفى جعله عنها كما نفى ذلك عما ابتدعه المشركون بقوله : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾ ، [سورة المائدة : ١٠٣] .

وهذا الجعل المنفى عن البدع هو الجعل الذى أثبته للمشروع بقوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٨] .

وقوله : ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ﴾ ، [سورة الحج : ٦٧].

فالرهبانية ابتدعوها لم يشرعها الله . والناس فى قوله « ورهبانية » قولان .

أحدهما : إنها منصوبة . يعنى ابتدعوها إما بفعل مضمر يفسره ما بعده[1] أو يقال هذا الفعل يعمل فى المضمر والمظهر كما هو قول الكوفيين . حكاه عنهم ابن جرير وثعلب وغيرهما ونظيره قوله: ﴿ يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليما ﴾ ؛ [سورة الإنسان : ٣١] : وقوله : ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ : [سورة الأعراف : ٣٠] .

وعلى هذا القول . فلا تكون الرهبانية معطوفة على الرأفة ، والرحمة .

فالقول الثانى : إنها معطوفة عليها فيكون الله قد جعل فى قلوبهم الرأفة

(١) المعنى : ابتدعوا رهبانية ابتدعوها وأصحاب هذا يقولون تفسيره ما بعده ،

والرجمة والرهبانية المبتدعة ، ويكون هذا جعلا خلقيا كونيا والجعل الكونى يتناول الخير والشر كقوله تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ ، [سورة القصص : ٤١] .

وعلى هذا القول:فلا مدح للرهبانية لأنها فى القلوب،فثبت أنه على التقديرين ليس فى القرآن مدح[(١)] . ثم قال:﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ أى لم يكتب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، وابتغاء رضوان الله بفعل ما أمر به لا بما يبتدع . وهذا يسمى استثناء منقطعاً كما فى قوله : ﴿ مالهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾ ، [سورة النساء:١٥٧] . وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلون أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾ ، [سورة النساء : ٢٩] .وقوله تعالى ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ ، [سورة الدخان : ٥٦] . وقوله : ﴿ فما لهم لا يؤمنون * وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون * بل الذين كفروا يكذبون * والله أعلم بما يوعون * فبشرهم بعذاب أليم * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ ، [سورة الانشقاق . ٢٠ ـ ٢٥] . وقوله تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما * إلا قليلا سلاماً سلاماً ﴾ ، [سورة الواقعة : ٢٥ ـ ٢٦] . وقوله : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً ، [سورة النساء : ٩٢] .

وهذا أصح الأقوال فى هذه الآية كما هو مبسوط فى موضع آخر وذكر أنهم ابتدعوا الرهبانية ، ولايجوز أن يكون المعنى أن الله كتبها عليهم ابتغاء رضوان الله ، فإن الله لا يفعل شيئاً ابتغاء رضوان نفسه ، ولا أن المعنى أنهم ابتدعوها ابتغاء رضوانه كما يظن هذا وهذا بعض الغالطين ، كما قد بسط فى موضع آخر ، وذكر أنهم ابتدعوا الرهبانية ، ومارعوها حق رعايتها ، وليس فى ذلك مدح لهم بل هو ذم ثم قال تعالى : ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾،سورة الحديد:٢٧]

(١) يعنى : ليس فى القرآن مدح للرهبانية التى ابتدعها النصارى .

وهم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وكثير منهم فاسقون ، ولو أريد الذين آمنوا بالمسيح أيضاً فالمراد من اتبعه على دينه الذى لم يبدل والآن فكلهم يقولون : إنهم مؤمنون بالمسيح وبكل حال فلم يمدح سبحانه إلا من اتبع المسيح على دينه الذى لم يبدل ، ومن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم لم يمدح النصارى الذين بدلوا دين المسيح ولا الذين لم يؤمنو بمحمد صلى الله عليه وسلم .

فإن قيل : قد قال بعض الناس : إن قوله تعالى : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ عطف على رأفة ورحمة ، وأن المعنى أن الله جعل فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها وجعلو الجعل شرعيا ممدوحاً . قيل : هذا غلط لوجوه :

منها : أن الرهبانية لم تكن فى كل من اتبعه . بل الذين صحبوه كالحواريين لم يكن فيهم راهب ، وإنما ابتدعت الرهبانية بعد ذلك بخلاف الرأفة والرحمة فإنها جعلت فى قلب كل من اتبعه .

ومنها : أنه أخبر أنهم ابتدعوا الرهبانية بخلاف الرأفة والرحمة ، فإنهم لم يبتدعوها ، وإذا كانوا ابتدعوها لم يكن قد شرعها لهم ، فإن كان المراد هو الجعل الشرعى الدينى لا الجعل الكونى القدرى فلم تدخل الرهبانية فى ذلك ، وإن كان المراد الجعل الخلقى الكونى فلا مدح للرهبانية فى ذلك .

ومنها : أن الرأفة والرحمة جعلها فى القلوب . والرهبانية لا تختص بالقلوب ، بل الرهبانية تتضمن ترك المباحات من النكاح واللحم وغير ذلك ، وقد كان طائفة من الصحابة — رضوان الله عليهم — هموا بالترهب ، فأنزل الله تعالى نهيهم عن ذلك بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ ، [سورة المائدة : ٨٧] .

وثبت فى الصحيحين : أن نفراً من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال أحدهم : أما أنا فأصوم لا أفطر . وقال الآخر : أما أنا فأقوم لا أنام ، وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء . وقال الآخر : أما أنا فلا آكل اللحم .

فقام النبي صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال : « ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا لـكنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

وفى صحيح البخارى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا قائماً فى الشمس فقال : ما هذا ؟ قالوا هذا أبو إسرائيل نذر أن يقوم فى الشمس ولا يستظل ولا يتـكلم ويصوم . فقال « مروه فليجلس وليستظل وليتـكلم وليتم صومه » .

وثبت فى صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى خطبته : « خير الـكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة »

وفى السنن عن العرباض بن سارية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهـــديين من بعدى ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » .

قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وقد بينت النصوص الصحيحة أن الرهبانية بدعة وضلالة ، وما كان بدعة وضلالة لم يكن هدى ، ولم يكن الله جعلها بمعنى أنه شرعها ، كما لم يجعل الله ما شرعه المشركون من البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام . فإن قيل : قد قال طائفة : معناها ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله .

وقالت طائفة : ما فعلوها أو ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله . قيل : كلا القولين خطأ والأول أظهر خطأ ، فإن الرهبانية لم يكتبها الله عليهم ، بل لم يشرعها لا إيجابا ولا استحبابا ، ولـكن ذهبت طائفة إلى أنهم لما ابتدعوها كتب عليهم إتمامها وليس فى الآية ما يدل على ذلك فإنه قال : ﴿ ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٧] ،

فلم يذكر أنه كتب عليهم نفس الرهبانية ولا إتمامها ولا رعايتها ، بل أخبر أنهم ابتدعوا بدعة ، وأن تلك البدعة لم يرعوها حق رعايتها . فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾ يدل على أنهم لو رعوها حق رعايتها لكانوا ممدوحين . قيل : ليس فى الكلام مايدل على ذلك ، بل يدل على أنهم — مع عدم الرعاية — يستحقون من الذم مالا يستحقونه بدون ذلك ، فيكون ذم من ابتدع البدعة ولم يرعها حق رعايتها أعظم من ذم من رعاها ، وإن لم يكن واحد منهما محموداً ، بل مذموماً مثل نصارى بنى تغلب ونحوهم ممن دخل فى النصرانية ولم يقوموا بواجباتها ، بل أخذوا منها ما وافق أهواءهم ، فكان كفرهم وذمهم أغلظ ممن هو أقل شراً منهم ، والنار دركات كما أن الجنة درجات ، وأيضاً : فالله تعالى إذا كتب شيئاً على عباده لم يكتب ابتغاء رضوانه ، بل العباد يفعلون ما يفعلون ابتغاء رضوان الله ، وأيضاً : فتخصيص الرهبانية بأنه كتبها ابتغاء رضوان الله دون غيرها تخصيص بغير موجب فإن ما كتبه ابتداء لم يذكر أنه كتبه ابتغاء رضوانه فكيف بالرهبانية ؟ وأما قول من قال : ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله ، فهذا المعنى لو دل عليه الكلام لم يكن فى ذلك مدح للرهبانية ، فإن من فعل ما لم يأمر الله به ، بل نهاه عنه مع حسن مقصده ، غايته أن يثاب على قصده لا يثاب على ما نهى عنه ، ولا على ما ليس بواجب ، ولا مستحب ، فكيف والكلام لايدل عليه فإنه قال: ﴿ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله﴾ [سورة الحديد : ٢٧] . لم يقل ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله ، ولا قال : ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله ، ولو كان المراد ما فعلوها أو ما ابتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله ، لكان منصوبا على المفعولية ، ولم يتقدم لفظ الفعل ليعمل فيه ولا نفى ابتداع ، بل أثبته لهم وإنما تقدم لفظ الكتابة فعلم أن القول الذى ذكرناه هو الصواب ، وأنه استثناء منقطع فتقديره وابتدعوا رهبانية ما كتبناها عليهم ، لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله ، فإن إرضاء الله واجب مكتوب

على الخلق ، وذلك يكون بفعل المأمور و بترك المحظور ، لا بفعل ما لم يأمر بفعله و بترك مالم ينهه[1] عن تركه ، والرهبانية فيها فعل مالم يأمر به وترك ما لم ينهه[2] عنه .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر و يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر و يسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ ، [سورة آل عمران:١١٣،١١٤] فهذه الآية لا اختصاص فيها للنصارى ، بل هى مذكورة بعد قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون * لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون * ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله و حبل من الناس و باءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله و يقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ ، [سورة آل عمران:١١٠ ـ ١١٢] ثم قال: ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ [سورة آل عمران : ١١٣] . ومعلوم أن الصفة المذكورة فى قوله : ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ﴾ . صفة لليهود ، وكذلك قوله : ﴿ ضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ .

فقوله : عقب ذلك ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ لابد أن يكون متناولا لليهود ، ثم قد اتفق المسلمون والنصارى على أن اليهود مع كفرهم بالمسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، ليس فيهم مؤمن ، وهذا معلوم بالاضطرار من دين محمد

(١ ، ٢) قوله : ينهه — هكذا فى الأصل وصحتهما | ينه بحذف الهاء الثانية لأن سياق الكلام يأبى ذلك .

صلى الله عليه وسلم . والآية إذا تناولت النصارى كان حكمهم فى ذلك حكم اليهود ، والله تعالى إنما أثنى على من آمن أهل الكتاب ، كما قال تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٩٩] . وقد ذكر أكثر العلماء أن هذه الآية الأخرى فى آل عمران ، نزلت فى النجاشى ونحوه ممن آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم لكنه لم تمكنه الهجرة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا العمل بشرائع الإسلام لكون أهل بلده نصارى لا يوافقونه على إظهار شرائع الإسلام ، وقد قيل : إن النبى صلى الله عليه وسلم إنما صلى عليه لما مات ؛ لأجل هذا . فإنه لم يكن هناك من يظهر الصلاة عليه فى جماعة كثيرة ظاهرة ، كما يصلى المسلمون على جنائزهم .

ولهذا جعل من أهل الكتاب مع كونه آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم بمنزلة من يؤمن بالنبى صلى الله عليه وسلم فى بلاد الحرب، ولا يتمكن من الهجرة إلى دار الإسلام ، ولا يمكنه العمل بشرائع الإسلام الظاهرة ، بل يعمل ما يمكنه ويسقط عنه ما يعجز عنه ، كما قال تعالى : ﴿ فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ ، [سورة النساء : ٩٢] . فقد يكون الرجل فى الظاهر من الكفار ، وهو فى الباطن مؤمن ، كما كان مؤمن آل فرعون .

قال تعالى : ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب * ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟ قال فرعون : ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد * وقال الذى آمن : يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب * مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد * وياقوم إنى

أخاف عليكم يوم التناد * يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد * ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب * الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار * وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب * وقال الذى آمن ياقوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد * ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار * من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب * وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار * تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار * لا جرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار * فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد * فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ ، [سورة غافر : ٢٨ – ٤٦] . فقد أخبر سبحانه وتعالى أنه حاق بآل فرعون سوء العذاب . وأخبر أنه كان من آل فرعون رجل مؤمن يكتم إيمانه وأنه خاطبهم بالخطاب الذى ذكره ، فهو من آل فرعون باعتبار النسب والجنس والظاهر . وليس هو من آل فرعون الذين يدخلون أشد العذاب ، وكذلك امرأة فرعون ليست من آل فرعون هؤلاء ، قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب

ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ﴾ [سورة التحريم : ١١] . وامرأة الرجل من آله بدليل قوله : ﴿ إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين * إلا امرأته قدرناها إنها لمن الغابرين ﴾ ، [سورة الحجر : ٥٩ ، ٦٠] وهكذا أهل الكتاب فيهم من هو فى الظاهر منهم ، وهو فى الباطن يؤمن بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، يعمل بما يقدر عليه ويسقط عنه ما يعجز عنه علماً وعملا ﴿ ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ وهو عاجز عن الهجرة إلى دار الإسلام ، كعجز النجاشى ، وكما أن الذين يظهرون الإسلام فيهم من هم فى الظاهر مسلمون ، وفيهم من هو منافق كافر فى الباطن . إما يهودى . وإما نصرانى . وإما مشرك وإما معطل .

كذلك فى أهل الكتاب والمشركين ، من هو فى الظاهر منهم ، وهو فى الباطن أهل الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، يفعل ما يقدر على علمه وعمله ، ويسقط عنه ما يعجز عنه من ذلك .

وفى حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : لما مات النجاشى قال النبى صلى الله عليه وسلم : « استغفروا لأخيكم » ، فقال بعض القوم : تأمرنا أن نستغفر لهذا العلج ، يموت بأرض الحبشة . فنزلت : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٩٩] ذكره ابن أبى حاتم وغيره بأسانيدهم ، وذكره حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن البصرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « استغفروا لأخيكم النجاشى » فذكر مثله . وكذلك ذكر طائفة من المفسرين عن جابر وابن عباس وأنس وقتادة أنهم قالوا : نزلت هذه الآية فى النجاشى ملك الحبشة، واسمه أصحمة . وهو بالعربية : عطية . وذلك أنه لما مات نعاه جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم فى اليوم الذى مات فيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم . فقالوا : ومن هو ؟ قال :

النجاشي » فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البقيع . وزاد بعضهم . وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة ، فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه ، وكبر أربع تكبيرات ، واستغفر له ، وقال لأصحابه : « استغفروا له » . فقال المنافقون : أبصروا إلى هذا يصلى على علج حبشي نصراني لم يره قط : وليس على دينه . فأنزل الله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٩٩] .

وقد ذهبت طائفة من العلماء إلى أنها نزلت فيمن كان على دين المسيح عليه السلام إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم فآمن به ، كما نقل ذلك عن عطاء . وذهبت طائفة إلى أنها نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب كلهم .

والقول الأول أجود ، فإن من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وأظهر الإيمان به ، وهو من أهل دار الإسلام ، يعمل بما يعمله المسلمون ظاهراً وباطنا فهذا من المؤمنين ، وإن كان قبل ذلك مشركا يعبد الأوثان ، فكيف إذا كان كتابياً ؟ وهذا مثل عبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسى وغيرهما ، وهؤلاء لا يقال : إنهم من أهل الكتاب ، كما لا يقال فى المهاجرين والأنصار : إنهم من المشركين وعباد الأوثان ، ولا ينكر أحد من المنافقين ، ولا غيرهم ، أن يصلى على واحد منهم ، بخلاف من هو فى الظاهر منهم ، وفى الباطن من المؤمنين . وفى بلاد النصارى من هذا النوع خلق كثير ، يكتمون إيمانهم . إما مطلقا وإما يكتمونه عن العامة ويظهرونه لخاصتهم ، وهؤلاء قد يتناولهم قوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ﴾ الآية — فهؤلاء لا يدعون الإيمان بكتاب الله ورسوله لأجل مال يأخذونه ، كما يفعل كثير من الأحبار والرهبان ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدونهم عن سبيل الله، فيمنعونهم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وأما قوله : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾، [سورة آل عمران:١١٣-١١٤] فهذه الآية تتناول اليهود أقوى مما تتناول النصارى ، ونظيره قوله تعالى ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٩] . هذا مدح مطلق لمن تمسك بالتوراة ، ليس فى ذلك مدح لمن كذب المسيح ، ولا فيها مدح لمن كذب محمداً صلى الله عليه وسلم .

وهذا الكلام تفسيره سياق الكلام ، فإنه قال تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله - ثم قال تعالى - ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ ، [سورة آل عمران: ١١٠]. فقد جعلهم نوعين: نوعاً مؤمنين ونوعاً فاسقين وهم أكثرهم لقوله تعالى : ﴿ منهم المؤمنون ﴾ يتناول من كان مؤمنا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، كما يتناولهم قوله تعالى : ﴿ وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة - إلى قوله - وكثير منهم فاسقون ﴾، [سورة الحديد. ٢٧]. وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٦] .

وقوله عن إبراهيم الخليل : ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾، [سورة الصافات:١١٣] . ثم لما قال : ﴿ وأكثرهم الفاسقون ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١٠] . قال : ﴿ لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون * ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١١ - ١١٢]. وضرب الذلة عليهم

أينما ثقفوا وباؤوا بغضب من الله ـ الآية ـ وما ذكر معه من قتل الأنبياء بغير حق وعصيانهم واعتدائهم كان اليهود متصفين به قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال : أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ـ ثم قال بعد ذلك ـ ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، [سورة البقرة : ٦١ ، ٦٢] .

فتناولت هذه الآية من كان من أهل الملل الأربع متمسكا بها قبل النسخ بغير تبديل ، كذلك آية آل عمران لما وصف أهل الكتاب بما كانوا متصفا به أكثرهم قبل محمد صلى الله عليه وسلم من الكفر ، قال : ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١٣ ـ ١١٤] .

وهذا يتناول من كان متصفا منهم بهذا قبل النسخ ، فإنهم كانوا على الدين الحق الذى لم يبدل ولم ينسخ ، كما قال فى الأعراف : ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون * وقطعناهم فى الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون * فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا مافيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون * والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا

الصلاة إنا لا تضيع أجر المصلحين ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٦٨ - ١٧٠] .

وقد قال تعالى مطلقا : ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٨١] .

فهذا خبر من الله عمن كان متصفا بهذا الوصف قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أدرك من هؤلاء محمداً صلى الله عليه وسلم ، فآمن به كان له أجره مرتين .

فصل

قالوا ثم وجدناه يعظم إنجيلنا ، ويقدم صوامعنا ، ويشرف مساجدنا ويشهد بأن اسم الله يذكر فيها كثيراً ، وذلك مثل قوله : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ﴾ ، [سورة الحج : ٤٠] .

والجواب:أن فيها ذكر الصوامع والبيع،وأما قوله : ﴿ ويذكر فيها اسم الله كثيرا ﴾ فإنما ذكره عقب ذكر المساجد ، والمساجد للمسلمين ، وليس المراد بها كنائس النصارى ، فإنما هي البيع . ثم قوله : ﴿ يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾إما أن يكون مختصا بالمساجد ، فلا يكون فى ذلك إخبار بأن اسم يذكر كثيراً فى الصوامع والبيع . وإما أن يكون ذكر اسم الله فى الجميع ، فلا ريب أن الصوامع والبيع قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم كان فيها من يتبع دين المسيح الذى لم يبدل ويذكر فيها اسم الله كثيراً . وقد قيل: إنها بعد النسخ والتبديل يذكر فيها اسم كثيرا وإن الله يحب أن يذكر اسمه .

قال الضحاك : إن الله يحب أن يذكر اسمه وإن كان يشرك به يعنى:أن المشرك به خير من المعطل الجاحد الذى لايذكر اسم الله بحال .

وأهل الكتاب خير من المشركين ، وقد ذكرنا أنه لما اقتتل فارس والروم وانتصرت الفرس ، ساء ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكرهوا

انتصار الفرس على النصارى ؛ لأن النصارى أقرب إلى دين الله من المجوس والرسل بعثوا بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وتقديم خير الخيرين على أدناها حسب الإمكان ، ودفع شر الشرين بخيرهما ، فهدم صوامع النصارى و بيعهم فساد إذا هدمها المجوس والمشركون . وأما إذا هدمها المسلمون وجعلوا أماكنها مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، فهذا خير وصلاح . وهذه الآية ذكرت فى سياق الإذن للسلمين بالجهاد بقوله تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ ، [سورة الحج : ٣٩] . وهذه الآية أول آية نزلت فى الجهاد ، ولهذا قال : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ [سورة الحج : ٤٠] . ثم قال : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ ، فيدفع بالمؤمنين الكفار ويدفع شر الطائفتين بخيرهما ، كما دفع المجوس بالروم والنصارى ، ثم دفع النصارى بالمؤمنين أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا كما قال فى سورة البقرة : ﴿ وقتل داوودُ جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥١] .

وأما التقديم فى اللفظ ، فإنه يكون للانتقال من الأدنى إلى الأعلى ، كقوله تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾ ، [سورة الأعراف : ٣٣] . وقوله : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته و بنيه ﴾ ، [سورة عبس ٣٤ ـ ٣٦] . وقوله : ﴿ والذاريات * ذرواً فالحاملات وقراً فالجاريات يسراً فالمقسمات أمراً ﴾ ، [سورة الذاريات : ١ـ٤]. ونظائره متعددة . وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ لهدمت صوامع و بيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ ، [سورة الحج : ٤٠] .

بين سبحانه أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت مواضع العبادات ،

وهدمها فساد إذا هدمها من لا يبدلها بخير منها وأدناها هى الصوامع،فإن الصومعة تكون لواحد أو طائفة قليلة فبدأ بأدنى المعابد ، وختم بأشرفها وهى المساجد التى يذكر فيها اسم الله كثيراً . فنى الجملة حكم هذه المعابد حكم أهلها وأهلها قبل النسخ والتبديل مؤمنون مسلمون ، وهدم معابد المؤمنين المسلمين فساد ، وبعد النسخ والتبديل،إذا غلب أهل الكتاب من هو شر منهم،كالمجوس والمشركين، وهدموا معابدهم ، كان ذلك فسادا وإذا هدمها من هو خير منهم كأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأبدلوها مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولا يشرك به ، ويذكر فيها الإيمان بجميع كتبه ورسله، كان ذلك صلاحا لا فساداً ، ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذ المساجد مواضع معابد الكفار ، كما كان لثقيف أهل الطائف معبد يعبدون فيه اللات ، التى قال الله فيها:﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ [سورة النجم : ١٩] فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يهدم ذلك المعبد ، ويتخذ مكانه المسجد الذى يعبد الله وحده فيه ، فإن المساجد هى بيوت الله فى الأرض قال تعالى : ﴿ قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون ﴾،[سورة الأعراف:٢٩].

وقال تعالى:﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾،[سورة الجن:١٨]

وقال تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم — الآية إلى قوله — المهتدين ﴾ ، [سورة التوبة : ١٧ ، ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره— الآية إلى قوله — بغير حساب ﴾ ، [سورة النور : ٣٥ ـ ٣٨] : ثم لما ذكر المؤمنين ذكر الكفار من أهل الكتاب والمشركين ، فذكر أهل الجهل المركب والبسيط ، فقال تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب *

أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ ، [سورة النور : ٣٩ ، ٤٠] .

فقد تبين أنه ليس لهم حجة فى شيء مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، بل ما جاء به حجة عليهم من وجوه متعددة .

فصل

قالوا : وهذا وغيره أوجب لنا التمسك بديننا ، وأن لانهمل ما معنا ، ولا نرفض مذهبنا ، ولا نتبع غير السيد المسيح ، كلمة الله ، وروحه وحوارييه الذين أرسلهم إلينا . والجواب : أنهم احتجوا بحجتين باطلتين .

أحدهما : أن محمداً لم يرسل إليهم بل إلى العرب ؛ وقد تبين أن الاحتجاج بها من أعظم الكذب والافتراء على محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يقل قط : إنى لم أرسل إلى أهل الكتاب ، ولا قال قط : إنى لم أرسل إلا إلى العرب ، بل نصوصه المتواترة عنه وأفعاله تبين أنه مرسل إلى جميع أهل الأرض أميهم وكتابيهم .

والحجة الثانية : قولهم : إن محمداً صلى الله عليه وسلم أثنى على دين النصارى بعد التبديل والنسخ ، وهى أيضاً أعظم كذباً عليه من التى قبلها ، فكيف يثنى عليهم وهو يكفرهم فى غير موضع من كتابه ، ويأمر بجهادهم وقتالهم ، ويذم المتخلفين عن جهادهم غاية الذم، ويصف من لم ير طاعته فى قتالهم بالنفاق والكفر ، ويذكر أنه يدخل جهنم ، وهذا كله يخبر به عن الله عز وجل ويذكره تبليغاً لرسالة ربه ، وإنما يضاف إليه لأنه بلغه وأداه ، لا لأنه أنشأه وابتداه ، كما قال تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد

عنه حاجزين * وإنه لتذكرة للمتقين * وإنا لنعلم أن منكم مكذبين * وإنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾ ، [سورة الحاقة : ٤٠ — ٥٢] .

وأما ثناء الله ورسوله على المسيح وأمه وعلى من اتبعه ، وكان على دينه الذى لم يبدل ، فهذا حق وهو لا ينافى وجوب اتباع محمد صلى الله عليه وسلم على من بعث إليه ، فلو قدر أن شريعة المسيح لم تبدل ، وأن محمداً أثنى على كل من اتبعها ، وقال مع ذلك إن الله أرسلنى إليكم ، لم يكن متناقضاً ، وإذا كفر من لم يؤمن به لم يناقض ذلك ثناؤه عليهم قبل أن يكذبوه .

فكيف وهو إنما مدح من اتبع ديناً لم يبدل ؟ وأما الذين بدلوا دين المسيح فلم يمدحهم بل ذمهم ، كما قال : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ ، [سورة المائدة : ١٤] .

وقد قدمنا أن النصارى كفروا كما كفرت اليهود ، كفروا بتبديلهم ما فى الكتاب الأول وكفروا بتكذيبهم بالكتاب الثانى . وأما من لم يبدل الكتاب أو أدرك محمداً فآمن به ، فهؤلاء مؤمنون ، ومما يبين ذلك : أن تعظيم المسيح للتوراة واتباعه لها ، وعمله بشرائعها أعظم من تعظيم محمد صلى الله عليه وسلم للإنجيل ، ومع هذا فلم يكن ذلك مسقطاً عن اليهود وجوب اتباعهم للمسيح ، فكيف يكون تعظيم محمد صلى الله عليه وسلم للإنجيل مسقطاً عن النصارى وجوب اتباعه ؟ .

فصل

وأما قولهم : وحوارييه الذين أرسلهم إلينا أنذورنا بلغاتنا ، وسلموا إلينا ديننا الذين قد عظموا فى هذا الكتاب ، بقوله فى سورة الحديد : ﴿ لقد أرسلنا

رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الـكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] ؛

وقال فى سورة البقرة : ﴿ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الـكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ ،[سورة البقرة : ١٢٣] . فأعنى بقوله أنبياءه المبشرين ،ورسله ينحو بذلك الحواريين الذين داروا فى سبعة أقاليم العالم ، و بشروا بالـكتاب الواحد ، الذى هو الإنجيل الطاهر ؛ لأنه لو عنى عن إبراهيم وداود ، وموسى ، ومحمد ، لـكان قال : معهم الـكتب ؛ لأن كل واحد منهم جاء بكتاب دون غيره ، ولم يقل : إلا الـكتاب الواحد؛ لأنه ما أتى جماعة مبشرين بكتاب واحد غير الحواريين الذين أتوا بالإنجيل الطاهر . وجاء أيضاً فى الـكتاب : ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين ﴾ ، [سورة يس : ٢٠] — يعنى الحواريين — لم يقل : رسول ، إنما قال : المرسلين ، والجواب من وجوه :

أحدها : أنه ليس فيما ذكر ولا فى غيره،ما يوجب تـكذيب الرسول الذى أرسل إليـكم أو إلى غيركم وتمسكـكم بدين مبدل منسوخ . كما أنه ليس فيما يعظم به موسى والتوراة ومن اتبع موسى ما يوجب لليهود تـكذيب الرسول الذى أرسل إليهم ، وتمسكهم بدين مبدل منسوخ .

الثانى : أن قولهم : ولا نتبع غير المسيح وحوارييه ، قول باطل ، فإنهم ليسوا متبعين ، لا للمسيح ولا لحوارييه ، لوجهين :

أحدهما : أن دينهم مبدل ليس كله عن المسيح والحواريين ، بل أكثر شرائعهم أو كثير منها ليست عن المسيح والحواريين .

الثانى : أن المسيح بشر بأحمد ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليـكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾ ، [سورة الصف : ٦] فإذا لم يتبعوا أحمد ،

كانوا مكذبين للمسيح ، وعندهم من البشارات عن المسيح وغيره من الأنبياء بأحمد ، ما هو مبسوط فى موضع آخر كما سيأتى إن شاء الله .

وإنما المقصود هنا منع احتجاجهم بشىء مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وبيان أنه حجة عليهم لا لهم ، إذ زعموا أن فى بعضه حجة لهم .

الثالث : أن قولهم عن الحواريين : إنهم الرسل الذين عظموا فى هذا الكتاب قول باطل، فسروا به القرآن تفسيراً باطلا من جنس تفسيرهم ﴿ الذين نعمت عليهم ﴾ بالنصارى . وتفسيرهم ﴿ بإذنى ﴾ أى : ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن اللاهوت الذى هو كلمة الله المتحدة فى الناسوت ، وتفسيرهم ﴿ الٓمٓ ذلك الكتاب ﴾ ، [سورة البقرة : ١ ، ٢] . بالإنجيل ، وتفسيرهم ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ، [سورة البقرة : ٣] . هم النصارى . وتفسيرهم قوله :﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٤٦] . هم النصارى . ﴿ إلا الذين ظلموا ﴾ هم اليهود . وأمثال ذلك من تفسيرهم القرآن ، بمثل ما يفسرون به التوارة ، والإنجيل ، والزبور ، من التفاسير التى هى من تحريف الكلم عن مواضعه،والإلحاد فى آيات الله ، والكذب على أنبيائه بما يظهر أنه كذب على الأنبياء لكل من تدبر ذلك. وبطلان ذلك يظهر من وجوه .

أحدها : أن الله قال : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾،[سورة الحديد : ٢٥].

وقوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا ﴾ اسم جمع مضاف ، يعم جميع من أرسله الله تعالى .

الثانى : أن أحق الرسل بهذا الحكم الرسل الذين سماهم الله تعالى فى القرآن كما قال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده

وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٣ — ١٦٥] .

وقال تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وماأسألكم عليه من أجر إن أجرى إلاعلى رب العالمين * فاتقوا الله وأطيعون ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٠٥ — ١١٠] .

وقوله : ﴿ كذبت عاد المرسلين * إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وماأسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٢٣ ـ ١٢٧] .

وقوله : ﴿ كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٤١ ـ ١٤٥] .

وقوله : ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين * إذ قال لهم أخوهم لوط ألاتتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٦٠ ـ ١٦٤] .

وقوله : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال لهم شعيب ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٧٦ ـ ١٨٠] .

وقال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون

رسولا * فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلا ﴾ ، [سورة المزمل : ١٥ ، ١٦] .

وقال تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ ، [سورة غافر : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٢٣] . وذكر قصته ثم قال من بعد ذلك : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين * فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ؟ ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٣١ ، ٣٢] . ثم لما قضى قصته قال تعالى : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين * ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون * ثم أرسلنا رسلنا تترى كل ماجاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون * ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٤٢ ـ ٤٦] .

فذكر إرسال رسله تترى = أي متواترة = ثم ذكر إرسال موسى ، وهارون ، و إرسال موسى وهارون قبل إرسال المسيح بمدة طويلة .

وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] . فهذا إخبار منه سبحانه وتعالى بأنه بعث فى كل أمة رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وقال تعالى فى المسيح صلوات الله عليه : ﴿ ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٥] . فأخبر أن المسيح رسول من هؤلاء الرسل ﴿ قد خلت من قبله الرسل ﴾ وقبله قد بعث فى كل أمة رسولا .

وقد روى فى حديث أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم «أن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبى ، وأن الرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر» . وبعض الناس يصحح هذا الحديث وبعضهم يضعفه ، فإن كان صحيحاً ، فالرسل ثلثمائة وثلاثة عشر ، وإن لم تعرف صحته أمكن أن يكونوا بقدر ذلك وأن يكونوا أكثر ، كما يمكن أن يكونوا أقل ، فإن الله أخبر أنه بعث فى كل أمة رسولا ، وقال تعالى : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ [سورة فاطر : ٢٤] .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنتم توفون سبعين أمة أنتم أكرمها وأفضلها على الله » وهو حديث جيد ، وقال تعالى فى سورة الزمر : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ . [سورة الزمر : ٧١] .

وقال تعالى فى سورة تبارك : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ ، [سورة الملك : ٦] .

وقال تعالى : ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ ، [سورة الملك : ٨ ، ٩] .

فهذا إخبار منه بأن كل فوج يلقى فى النار ، وقد جاءهم نذير كما قال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ ، [سورة الإسراء : ١٥] . وقد قال ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم إنهم كانوا كافرين ﴾ ، [سورة الأنعام: ١٣٠].

فقد أرسل الله قبل المسيح رسلا كثيرين إلى جميع الأمم ، فكيف يجوز أن يدعى أن المراد بقوله : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ هم الحواريون فقط ، الذين أرسلهم المسيح ، مع أن الحواريين رسل المسيح بمنزلة رسل موسى ، وإبراهيم ، ورسل محمد صلى الله عليه وسلم . ومن أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت على الناس طاعته فيما يبلغه عن رسول الله ، كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن عصى أميرى فقد عصانى » . فبين أن أميره إنما تجب طاعته فى المعروف الذى أمر الله به رسوله . لا فى كل مايأمر به ، ففى الصحيحين عن على عليه السلام : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيشا ، وأمر عليهم رجلا ، وأمرهم أن يسمعوا و يطيعوا ، فأغضبوه . فقال : اجمعوا لى حطبا فجمعوا له . ثم قال : أوقدوا ناراً ، فأوقدوا ناراً ، ثم قال : ألم يأمركم رسول الله أن تسمعوا لى وتطيعوا ؟ قالوا : بلى . قال:فادخلوها ، فنظر بعضهم إلى بعض فقالوا : إنما فررنا إلى رسول الله من النار ، فكانوا كذلك حتى سكن غضبه ، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ، وقال : لو دخلوها ما خرجوا منها أبدا ، وقال : لا طاعة فى معصية الله ، إنما الطاعة فى المعروف » . وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع وطاعة » وفى مسلم عن أم الحصين سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع يقول : « ولو استعمل عليكم عبد أسود يقودكم بكتاب الله فاستمعوا وأطيعوا » . وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى له من سامع » وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبوء مقعده من

النار » وفى السنن عنه أنه قال : « نصر الله امرأ استمع فسمع منا حديثاً ويبلغه إلى من لم يسمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

فالحواريون فى تبليغهم عن المسيح كسائر أصحاب الأنبياء فى تبليغهم عنهم ، وقال الله تعالى فى كتابه : ﴿ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ ، [سورة النساء : ٥٩] . وأولوا الأمر هم العلماء والأمراء ، فإذا أمروا بما أمر الله به ورسوله ، وجبت طاعتهم ، وإن تنازع الناس فى شىء ، وجب رده إلى الله والرسول ، لا يرد إلى أحد دون الرسل الذين أرسلهم الله ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ ، [سورة البقرة : ٢١٣] . والكتاب اسم جنس لكل كتاب أنزله الله ليس المراد به كتاباً معيناً ، كما قال الله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ ، [سورة البقرة : ١٧٧] . ولم يرد بهذا أن يؤمن بكتاب معين واحد ، بل هذا يتضمن الإيمان بالتوراة ، والإنجيل ، والقرآن ، وكل ما أنزله الله من كتاب ، كما قال فى سورة الشورى : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ﴾ ، [سورة الشورى : ١٥] . فأمره الله تعالى أن يؤمن بكل ما أنزله الله من كتاب ، وأن يعدل بين من بلغتهم رسالته ، كما قال : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٩] .

وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بلغوا عني ولو آية ». فكل من بلغه القرآن ، فهو مخاطب به يتناوله خطاب القرآن . وقال تعالى : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٥] . وفى القراءة الأخرى وكتابه ورسله وكلا القراءتين موافقة للأخرى وقوله تعالى : ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ ، [سورة البقرة : ٢١٣] . أى فاختلفوا بعد ذلك . كما قال فى السورة الأخرى : ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا فلما اختلف بنو آدم بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب﴾ .

وذلك يتناول كل كتاب أنزله الله ليحكم الله ، ويحكم كتابه بين الناس بالحق فالحاكم بين الناس هو الله تعالى ، وحكمه فى كتبه المنزلة ، فلهذا أمر الله المؤمنين إذا تنازعوا فى شيء أن يردوه إلى الله والرسول . والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه ، فأمرهم بالرد إلى كتابه ورسوله . وقد ذم تعالى من لم يتحاكم إلى كتابه ورسوله فقال تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً * أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً * وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما * فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ ، [سورة النساء : ٦٠ ـ ٦٤] .

فقد تبين أن الرسل الذين ذكرهم الله فى قوله : ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾.

يتناول الرسل الذين أرسلهم الله كلهم ، ومن أحقهم بذلك الرسل الذين أخبر فى القرآن أنه أرسلهم إلى عباده ؛ فظهر بطلان قولهم أنهم الحواريون .

الوجه الثالث: أنه قال : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾ . [سورة الحديد : ٢٥] . فذكر أنه أنزل الحديد أيضاً ، ليتبين من يجاهد فى سبيل الله بالحديد . والنصارى يزعمون أن الحواريين والنصارى لم يؤمروا بقتال أحد بالحديد .

الوجه الرابع : أنه قال بعد ذلك : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون * ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٦] . وإخباره بإرسال نوح وإبراهيم بعد قوله لقد أرسلنا رسلنا بالبينات من باب ذكر الخاص بعد العام ، وبيان ما اختص به الخاص من الأحكام التى امتاز بها عن غيره ، مما دخل فى العام كما يأمر السلطان العسكر بالجهاد ، ويأمر فلاناً وفلاناً بأن يفعلوا كذا وكذا ، ومثل أن أرسل رسله إلى فلان وفلان ، وأرسل إليهم فلاناً ، وأمره بكذا وكذا ، قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ﴾ . فنوح هو أبو الآدميين الذين حدثوا بعد الطوفان ، فإن الله أغرق ولد آدم إلا أهل السفينة ، وقال فى نوح : ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ وإبراهيم جعل الأنبياء بعده من ذريته ، كما قال تعالى فى إبراهيم : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ . ثم قال بعد أن ذكر إرسال نوح وإبراهيم وأنه جعل فى ذريتهما النبوة والكتاب ﴿ ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل ﴾ . فأخبر أنه قفى على آثارهم برسله وقفى بعيسى بن مريم ، وآتاه الإنجيل ، وهؤلاء رسل

قبل المسيح ، وآخرهم المسيح ولم يذكر أنه أرسل أحداً من أتباع المسيح ، بل إنه جعل فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ، فكيف يجوز أن يقال : إن مراده بالرسل الذين أرسلهم بالبينات ، وأنزل معهم الكتاب ، والميزان ، هم الحواريون ، دون الرسل الذين ذكرهم وأرسلهم قبل المسيح .

الوجه الخامس : أنه ليس فى القرآن آية تنطق بأن الحواريين هم رسل الله ، بل ولا صرح فى القرآن بأنه أرسلهم ، لكن قال فى سورة يس : ﴿واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون * قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون * قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين * قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم * قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون * وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون * ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون * أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون * إنى إذاً لفى ضلال مبين * إنى آمنت بربكم فاسمعون * قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون * بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين * وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون * ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون﴾ ، [سورة يس : ١٣ - ٣٠] .

فهذا كلام الله ليس فيه ذكر أن هؤلاء المرسلين كانوا من الحواريين ، ولا أن الذين أرسل إليهم آمنوا بهم ، وفيه أن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم هؤلاء الثلاثة ، أنزل الله عليهم صيحة واحدة ، فإذا هم خامدون .

وقد ذكر طائفة من المفسرين ، أن هؤلاء كانوا من الحواريين ، وأن القرية إنطاكية ، وأن هذا الرجل اسمه حبيب النجار ، ثم إن بعضهم يقول : إن المسيح

أرسلهم فى حياته ، لكن المعروف عند النصارى ، أن أهل إنطاكية آمنوا بالحواريين واتبعوهم لم يهلك الله أهل إنطاكية .

والقرآن يدل على أن الله أهلك قوم هذا الرجل الذى آمن بالرسل . وأيضاً فالنصارى يقولون : إنما جاءوا إلى أهل إنطاكية بعد رفع المسيح، وأن الذين جاءوا كانوا اثنين لم يكن لهما ثالث . قيل : أحدهما: شمعون الصفا . والآخر : بولص . ويقولون : إن أهل إنطاكية آمنوا بهم ، ولا يذكرون حبيب النجار ، ولا مجىء رجل من أقصى المدينة ، بل يقولون . إن شمعون وبولص ، دعوا الله حتى أحيا ابن الملك ، فالأمر المنقول عند النصارى ، أن هؤلاء الرسل المذكورين فى القرآن ، ليسوا من الحواريين ، وهذا أصل القولين عند علماء المسلمين . وأئمة المفسرين ذكروا أن المذكورين فى القرآن فى سورة يس . ليسوا من الحواريين ، بل كانوا قبل المسيح ، وسموهم بأسماء غير أسماء الحواريين . كما ذكر محمد بن إسحاق . قال سلمة بن الفضل : كان من حديث صاحب يس فيما حدثنى محمد بن إسحاق عن ابن عباس وعن كعب بن منبه ، أنه كان رجل من أهل إنطاكية ، وكان اسمه حبيباً ، وكان يعمل بالحرث ، وكان رجلا سقيما قد أسرع فيه الجذام، وكان منزله عند باب من أبواب المدينة ، يتأخر ، وكان مؤمنا ذا صدقة ، يجمع كسبه إذا أمسى فيما يذكرون فيقسمه نصفين ، فيطعم نصفه عياله ، ويتصدق بنصفه ، وكان بالمدينة التى هو بها ، مدينة إنطاكية ، فرعون من الفراعنة، يقال له : إنطخسر بن أنطنجس، يعبد الأصنام، صاحب شرك ، فبعث الله إليه المرسلين وهم ثلاثة : صادق ، وصدوق ، وسلوم، فقدم الله إليه وإلى أهل المدينة منهم اثنين فكذبوهما ، ثم عزز الله بالثالث .

وروى الربيع بن أنس ، عن أبى العالية فى قوله : ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ۞ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ ، [سورة يس : ١٣ ، ١٤] . لكى تكون الحجة عليهم أشد ، فأتوا أهل القرية

فدعوهم إلى الله وحده ، وعبادته لا شريك له ، فكذبوهم ، فأتوا على رجل فى ناحية القرية فى زرع له فسألهم الرجل : ما أنتم ؟ قالوا : نحن رسل رب العالمين ، أرسلنا إلى أهل هذه القرية ندعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له . قال لهم : أتسألون على ذلك أجراً ؟ قالوا : لا . قال : فألقى ما فى يده ، ثم أتى أهل المدينة فقال : ﴿ ياقوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾ ، [سورة يس : ٢٠ ، ٢١] .

وهذا القول هو الصواب ، وأن هؤلاء المرسلين كانوا رسلا لله قبل المسيح ، وإن كانوا قد أرسلوا إلى إنطاكية وآمن بهم حبيب النجار ، فهم كانوا قبل المسيح ، ولم تؤمن أهل القرية بالرسل . بل أهلكهم الله تعالى كما أخبر فى القرآن ثم بعد هذا عمرت إنطاكية . وكان أهلها مشركين حتى جاءهم من جاءهم من الحواريين فآمنوا بالمسيح على أيديهم . ودخلوا فى دين المسيح .

ويقال: إن إنطاكية أول المدائن الكبار الذين آمنوا بالمسيح عليه السلام، وذلك بعد رفعه إلى السماء . ولكن ظن من ظن من المفسرين أن المذكورين فى القرآن هم رسل المسيح . وهم من الحواريين فهذا غلط لوجوه :

منها : أن الله قد ذكر فى كتابه أنه أهلك الذين جاءتهم الرسل ؛ وأهل إنطاكية لما جاءهم من دعاهم إلى دين المسيح آمنوا ولم يهلكوا .

ومنها : أن الرسل فى القرآن ثلاثة ، وجاءهم رجل من أهل المدينة يسعى ، والذين جاءوا من أتباع المسيح كانوا اثنين ؛ ولم يأتهم رجل يسعى . لا حبيب ولا غيره .

ومنها : أن هؤلاء جاءوا بعد المسيح فلم يكن الله أرسلهم، وهذا كما أن الله ذكر فى القرآن أنه أهلك أهل مدين بالظلة لما جاءهم شعيب . وذكر فى القرآن أن موسى أتاها وتزوج ببنت واحد منها فظن بعض الناس أنه شعيب النبى ،

وهذا غلط عند علماء المسلمين مثل ابن عباس ، والحسن البصرى ، وابن جريج وغيرهم كلهم ذكروا أن الذى صاهره موسى ليس هو شعيباً النبى ، وحكى أنه شعيب عمن لا يعرف ولم يثبت ذلك عن أحد من الصحابة والتابعين ، كما قد بسطناه فى موضع آخر .

وأهل الكتاب يقرون بأن الذى صاهره موسى ليس هو شعيباً بل رجل من أهل مدين ، ومنهم من يقول : إنها غير مدين التى أهلك الله أهلها. والله أعلم.

وكذلك ذكر المفسرون فى المرسلين هل أرسلهم الله، أو أرسلهم المسيح ؟ قولين :

أحدهما : أن الله هو الذى أرسلهم .

قال أبو الفرج ابن الجوزى. وهذا ظاهر القرآن ، وهو مروى عن ابن عباس وكعب ، ووهب بن منبه . قال : وقال المفسرون فى قوله تعالى : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ ، [سورة يس : ٢٩] . أخذ جبريل بعضادتى باب المدينة ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم ميتون لا يسمع لهم حس كالنار إذا أطفئت وذلك قوله : ﴿ فإذا هم خامدون ﴾ ، [سورة يس : ٢٩] . أى ساكتون كهيئة الرماد الخامد .

ومعلوم عند الناس أن أهل إنطاكية لم يصبهم ذلك بعد مبعث المسيح بل آمنوا به قبل أن يبدل دينه ، وكانوا مسلمين مؤمنين به على دينه إلى أن تبدل دينه بعد ذلك . ومما يبين ذلك أن المعروف عند أهل العلم أنه بعد نزول التوراة لم يهلك الله مكذبى الأمم بعذاب سماوى يعمهم ، كما أهلك قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وفرعون وغيرهم ، بل أمر المؤمنين بجهاد الكفار ، كما أمر بنى إسرائيل على لسان موسى بقتال الجبابرة ، وهذه القرية أهلك الله أهلها بعذاب من السماء ، فدل ذلك على أن هؤلاء الرسل المذكورين فى يس كانوا قبل موسى

عليه السلام ، وأيضاً فإن الله لم يذكر فى القرآن رسولا أرسله غيره ، وإنما ذكر الرسل الذين أرسلهم هو ، وأيضاً فإنه قال : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ ، [سورة يس : ١٤] . فأخبر أنه أرسلهم ، كما أخبر أنه أرسل نوحاً وموسى وغيرهما ، وفى الآية : ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء ﴾ ، [سورة يس : ١٥] . ومثل هذا هو خطاب المشركين لمن قال : إن الله أرسله وأنزل عليه الوحى لا من جاء رسولا من عند رسول ، وقد قال بعد هذا : ﴿ ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون ﴾ ، [سورة يس : ٣٠] . وهذا إنما هو فى الرسل الذين جاءوهم من عند الله لا من عند رسله . وأيضاً : فإن الله ضرب هذا مثلا لمن أرسل إليه محمداً صلى الله عليه وسلم يحذرهم أن ينتقم الله منهم ، كما انتقم من هؤلاء ، ومحمد إنما يضرب له المثل برسول نظيره لا بمن أصحابه أفضل منهم ، فإن أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلياً أفضل من الحواريين باتفاق علماء المسلمين ، ولم يبعث الله بعد المسيح رسولا بل جعل ذلك الزمان زمان فترة كقوله : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ﴾ ، [سورة المائدة : ١٩] . وأيضاً فإنه قال تعالى : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ ، [سورة يس:١٤، ١٥] . ولو كانوا رسل رسول لكان التكذيب لمن أرسلهم ، ولم يكن فى قولهم : إن أنتم إلا بشر مثلنا شبهة ، فإن أحداً لا ينكر أن يكون رسل الله بشراً ، وإنما أنكروا أن يكون رسول الله بشراً ، وأيضاً فلو كان التكذيب لهما وهما رسل الرسول لأمكنهما أن يقولا : فأرسلوا إلى من أرسلنا ، أو إلى أصحابه فإنهم يعلمون صدقنا فى البلاغ عنه ، بخلاف ما إذا كانا رسل الله ، وأيضا فقوله : ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين ﴾ صريح فى أن الله هو المرسل ومن أرسلهم غيره إنما أرسلهم ذلك لم يرسلهم الله كما لا يقال لمن أرسله محمد بن عبد الله إنهم رسل الله فلا يقال لدحية بن خليفة الكلبي أن الله أرسله ، ولا يقال

. ذلك للمغيرة بن شعبة ، وعبد الله بن حذافة وأمثالهم ممن أرسلهم الرسول وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل رسله إلى ملوك الأرض ، كما أرسل دحية بن خليفة إلى قيصر وأرسل عبد الله بن حذافة إلى كسرى ، وأرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ، كما تقدم ذكر ذلك .

ومعلوم أنه لا يقال فى هؤلاء إن الله أرسلهم ، ولا يسمون عند المسلمين رسل الله ، ولا يجوز باتفاق المسلمين أن يقال هؤلاء داخلون فى قوله : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٥] .

فإذا كانت رسل محمد صلى الله عليه وسلم لم يتناولهم اسم رسل الله فى الكتاب الذى جاء به . فكيف يجوز أن يقال : إن هذا الاسم يتناول رسل رسول غيره ، والمقصود هنا بيان معانى القرآن وما أراده الله تبارك وتعالى بقوله : ﴿ إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين ﴾ ، [سورة يس : ١٤] . هل مراد الله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم من أرسلهم الله ، أو من أرسلهم رسوله ، وقد علم يقيناً أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يدخل فى مثل هذا فمن قال : إن محمداً أراد بذلك من أرسله رسولا فقد كذب على محمد صلى الله عليه وسلم عمداً أو خطأ .

فصل

وقد تبين بما ذكرناه فساد قولهم فى تفسير آية البقرة ، فإنهم قالوا : وقال فى سورة البقرة : ﴿ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ ، [سورة البقرة : ٢١٣] . قالوا : فأعنى بقوله أنبياءه المبشرين ورسله ينحو بذلك عن الحواريين الذين داروا فى سبعة أقاليم العالم وبشروا بالكتاب الواحد الذى هو الإنجيل الطاهر لأنه لو كان أعنى عن إبراهيم وموسى وداود ومحمد لكان قال : ومعهم الكتب لأن كل واحد منهم جاء بكتاب دون غيره ولم يقل إلا الكتاب الواحد لأنه ما أتى جماعة

مبشرين بكتاب واحد غير الحواريين الذين أتوا بالإنجيل الطاهر . فيقال لهم قد تقدم بعض ما يدل على فساد هذا التفسير وأيضاً فإنه قال تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ . أى : فاختلفوا ﴿ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ﴾ .

والحواريون ليسوا من النبيين ، وإن كان المسيح أرسلهم ولا يلزم من إرساله لهم أن يكونوا أنبياء كمن أرسلهم موسى ومحمد وغيرهما ولهذا تسميهم عامة النصارى رسلا ولا يسمونهم أنبياء ، وأيضاً فإنه قال : ﴿ وأنزل معهم الكتاب ﴾ والحواريون لم ينزل معهم الكتاب إنما أنزل الكتاب مع المسيح ولكن الأنبياء أنزل معهم جنس الكتاب فإن الكتاب اسم جنس فيدخل فيه الكتب المنزلة كلها كما فى قوله : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ ، [سورة البقرة : ١٧٧] . وفى قوله : ﴿ كل آمن بالله وملائكته وكتبه ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٥] . وفى القراءة الأخرى وكتابه ورسله ، وكذلك قوله عن مريم : ﴿ وصدقت بكلمات ربها وكتبه ﴾ ، [سورة التحريم :١٢] . وفى القراءة الأخرى : وكتابه ، وأيضاً قال تعالى:﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾ ، [سورة البقرة:٢١٣]

وقال تعالى فى سورة يونس : ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ﴾ وهذا يدل أنه لما اختلفت بنو آدم بعث الله النبيين، وكان اختلافهم قبل المسيح بل قبل موسى ، بل قبل الخليل ، بل قبل نوح ، كما قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ثم حدث فيهم الشرك والاختلاف على وجهين . تارة يختلفون فيؤمن بعضهم ، ويكفر بعضهم ، كما قال تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٣] .

وقال تعالى ، ﴿ هذان خصمان اختصموا فى ربهم ﴾ ، [سورة الحج : ١٩] يعنى : أهل الإيمان والكفر ، وقد يكون المختلفون كلهم على باطل كقوله :

﴿ وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد ﴾ ، [سورة مريم : ٣٤] .
وقوله : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾ ، [سورة الزخرف : ٦٥]

وأيضاً : فالإنجيل ليس فيه حكم بين الناس فيما اختلفوا فيه بل عامته مواعظ ووصايا وأخبار المسيح . بخلاف التوراة والقرآن فإن فيهما من الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ماليس فى الإنجيل ،وأيضاً فإنه قال : ﴿ وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴾ ، [سورة البقرة : ٢١٣] . وذلك يقتضى أن الله هدى الذين آمنوا بعد اختلاف الذين أوتوا الكتاب بغياً بينهم لما اختلفوا فيه من الحق ، وهذا ذم لمن أوتوا الكتاب فاختلفوا . والنصارى داخلون فى هذا الذم ، ولو كان المراد بالإنجيل كانوا هم المذمومين دون غيرهم ، وليس كذلك ، بل اليهود وغيرهم من المختلفين مذمومون أيضاً ، وإنما الممدوح هم المؤمنون الذين هداهم الله لما اختلف أولئك فيه من الحق بإذنه . وهذا يتناول أمة محمد صلى الله عليه وسلم قطعاً ، وقد يتناول كل من آمن من الأمم المتقدمة ، كالذين كانوا على دين موسى ، والمسيح ، وإبراهيم الخليل ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾ ، [سورة البقرة : ٦٢] .

وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الله هداهم لما اختلف فيه الأمم قبلهم من الحق بإذنه وهذا بين فإنهم على الحق والعدل الوسط بين طرفى الباطل ،وهذا ظاهر فى اتباعهم الحق الذى اختلفت فيه اليهود والنصارى فى التوحيد والأنبياء والأخبار ، والتشريع ، والنسخ ، والحلال والحرام ، والتصديق والتكذيب ، وغير ذلك .

أما التوحيد فإن اليهود شبهوا الخالق بالمخلوق فوصفوا الرب سبحانه بصفات النقص الذى يختص بها المخلوق ، فقالوا: إنه فقير وبخيل ، وإنه يتعب وغير ذلك.

والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق صفات الكمال التى يختص بها الخالق فقالوا عن المسيح : إنه خالق السموات والأرض القديم الأزلى علام الغيوب القادر على كل شىء واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله .

والمسلمون هداهم الله لما اختلف فيه من الحق فلم يشبهوا الخالق بالمخلوق ولا المخلوق بالخالق ، بل أثبتوا لله ما يستحقه من صفات الكمال ، ونزهوه عن النقائص وأقروا بأنه أحد ليس كمثله شىء وليس له كفواً أحد فى شىء من صفات الكمال فنزهوه عن النقائص خلافاً لليهود ، وعن مماثلة المخلوق له خلافاً للنصارى

وأما الأنبياء عليهم السلام فإن اليهود قتلوا بعضاً وكذبوا بعضاً كما قال تعالى: ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ [سورة البقرة : ٨٧] . والنصارى أشركوا بهم وبمن هو دونهم فعبدوا المسيح بل اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، وجعلوا الحواريين رسلا لله وزعموا أن الإنسان بطاعته يصير بمنزلة الأنبياء، وصوروا تماثيل الأنبياء والصالحين ، وصاروا يدعونهم ويستشفعون بهم بعد موتهم وإذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تماثيلهم .

وفى الصحيحين أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر له كنيسة بأرض الحبشة وذكر من حسنها وتصاوير فيها ، فقال أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك التصاوير ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة .

وأما المسلمون فهداهم الله لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، فآمنوا بأنبياء الله كلهم ولم يفرقوا بين أحد منهم ولم يغلوا فيهم غلو النصارى ولا قصروا فى حقهم تقصير اليهود ، وكذلك قتل اليهود الذين يأمرون بالقسط من الناس . والنصارى يطيعون من يأمر بالشرك . وإن الشرك لظلم عظيم ، ويطيعون من يحرم الحلال

ويحلل الحرام . والمسلمون يطيعون من يأمر بطاعة الله ، ولا يطيعون من يأمر بمعصية الله . والنصارى فيهم الشرك بالله .واليهود فيهم الاستكبار عن عبادة الله كما قال تعالى فى النصارى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣١] . وقال فى اليهود : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ ، [سورة البقرة : ٨٧] .

والإسلام هو أن يستسلم العبد لله وحده فيعبده وحده بما أمره به . فمن استسلم له ولغيره كان مشركا ، والله لا يغفر أن يشرك به . ومن لم يستسلم له بل استكبر عن عبادته كان ممن قيل فيه ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ فلهذا كان جميع الأنبياء وأممهم مسلمين لله يعبدونه وحده بما أمرهم به وإن تنوعت شرائعهم . فالمسيح لم يزل مسلماً لما كان متبعاً لشرع التوراة ولما نسخ الله له ما نسخه منها .

ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يزل مسلماً لما كان يصلى إلى بيت المقدس ثم لما صلى إلى الكعبة ولما بعثه الله إلى الخلق كانوا كلهم مأمورين بطاعته وكانت عبادة الله طاعته فمن لم يطعه لم يكن عابداً لله فلم يكن مسلماً .

وأما التشريع فإن اليهود زعموا أن ما أمره الله به يمتنع منه أن ينسخه .

والنصارى زعموا أن ما أمر الله به يسوغ لأكابرهم أن ينسخوه فهدى الله المؤمنين لما اختلفوا فيه من الحق ، فقالوا : إن الله سبحانه له أن ينسخ ما شرعه خلافاً لليهود ، وليس لمخلوق أن يغير شيئاً من شرع الخالق خلافاً للنصارى .

وأما الحلال والحرام والطهارة والنجاسة فإن اليهود حرمت عليهم الطيبات وشدد عليهم فى أمر النجاسات ، فمنعوا من مؤاكلة الحائض ، والجلوس معها

فى بيت ومن إزالة النجاسة ، وحرم عليهم شحم الترب والكليتين ، وكل ذى ظفر وغير ذلك .

والمسيح عليه السلام أحل لهم بعض الذى حرم عليهم فقابلهم النصارى ، فقالوا : ليس شىء محرم ، لا الخنزير ولا غيره . بل ولا شىء نجس ، لا البول ولا غيره وزعموا أن بعض أكابرهم رأى ملآءة صور له فيها صور الحيوان وقيل له : كل ما طابت نفسك ودع ما تكره وأنه أبيح لهم جميع الحيوان ونسخوا شرع التوراة بمجرد ذلك . فالحلال عندهم ما اشتهته أنفسهم . والحرام عندهم ما كرهته أنفسهم . فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق فأحل الله لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث وأزال عنهم الآصار والأغلال التى كانت على بنى إسرائيل خلافاً لليهود وأمرهم بالطهارة طهارة الحدث والخبث خلافاً للنصارى . والمسيح عليه السلام جعلته اليهود ولد زنا كذاباً ساحراً ، وجعلته النصارى هو الله خالق السموات والأرض ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه فشهدوا أنه عبد الله مخلوق خلافاً للنصارى وأنه رسول الله وجيه فى الدنيا والآخرة ومن المقربين خلافاً لليهود ، وأما التصديق والتكذيب فإن اليهود من شأنهم التكذيب بالحق ، والنصارى من شأنهم التصديق بالباطل فإن اليهود كذبوا من كذبوه من الأنبياء وقد جاءوا بالحق كما قال تعالى : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ ، [سورة البقرة : ٨٧] .

والنصارى يصدقون بمحالات العقول والشرائع كما صدقوا بالتثليث والاتحاد ونحوهما من الممتنعات .

فصل

قالوا عن القرآن إنه شهد لهم أنهم أنصار الله حيث يقول كما قال عيسى

ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون : ﴿ نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ ، [سورة الصف : ١٤] . فيقال هذا حق والحواريون مؤمنون مسلمون وهم أنصار الله لكن ليس فى هذا أنهم رسل الله ولا فى هذا أن كل ما أنتم عليه من الدين مأخوذ عنهم ولا فى هذا أن الواحد من الحواريين معصوم من الغلط بل بأمر الله المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يكونوا أنصار الله كما طلب المسيح ذلك بقوله : ﴿ من أنصارى إلى الله ﴾ ، وقد وصف الله المؤمنين أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من أهل المدينة النبوية بأنهم أنصار بقوله تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ ، [سورة التوبة : ١٠٠] . والمهاجرون أفضل من الأنصار ، وهم أيضاً من أنصار الله نصروه كما نصره الأنصار ، لكن لما كان لهم يخصهم وهم المهاجرون وهو أفضل الإسمين خص الأنصار بهذا الإسم والمهاجرون والأنصار أفضل ممن آمن بموسى ومن آمن بعيسى عند المسلمين .

ومع هذا فليس فيهم عندهم نبى ولا رسول لله ، ولكن فيهم رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما .

فصل

قالوا وأما تعظيمه لإنجيلنا وكتبنا التى فى أيدينا فيقول : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٨] ، وقال فى سورة آل عمران : ﴿ آلم * الله لا إله إلا هو الحى القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس ﴾ ، [سورة آل عمران : ١ ـ ٥] .

وقال فى سورة البقرة : ﴿ آلم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين *

الذى يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ ، [سورة البقرة : ١ — ٥] .

فعنى بالكتاب الإنجيل والذين يؤمنون بالغيب نحن النصارى الذين آمنا بالسيد المسيح وما رأيناه ثم أتبع بالقول والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، فعنى بهم المسلمين الذين آمنوا بما أتى به وما أتى من قبله ، وقال فى سورة المائدة : ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين * وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٦ ، ٤٧] .

وقال فى سورة آل عمران : ﴿فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨٤] . فعنى أيضاً بالكتاب المنير الذى هو الإنجيل المقدس .

وقال أيضاً : ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ ، [سورة يونس : ٩٤] .

فثبت بهذا ما معنا ونفى عن إنجيلنا وكتبنا التى فى أيدينا التهم والتبديل والتغيير لما فيها بتصديقه إياها .

والجواب : بعد أن تعرف أن لفظ الآية الأولى من سورة المائدة ، ثم أنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه أن يقال :

أما تصديق خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم لما أنزل الله قبله من الكتب ولمن جاء قبله من الأنبياء ، فهذا معلوم بالاضطرار من دينه متواتراً تواتراً ظاهراً

كتواتر إرساله إلى الخلق كلهم وهذا من أصول الإيمان .

قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وماأنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦ ، ١٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ قل آمنا بالله وماأنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٤ ، ٨٥] .

وقال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم والآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ [سورة البقرة : ١٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير * لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٦] .

وتصديقه للتوراة والإنجيل مذكور فى مواضع من القرآن ، وقد قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ [سورة المائدة : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين — إلى آخر الآية — ﴾ ، [سورة الزمر : ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ ، [سورة يوسف : ٣] . فبين أنه أنزل هذا القرآن مهيمنا على ما بين يديه من الكتب ، والمهيمن الشاهد المؤتمن الحاكم ، فشهد بما فيها من الحق ويبين ما حرف فيها ويحكم بإقرار ما أقره الله من أحكامها ، وينسخ ما نسخه الله منها وهو مؤتمن فى ذلك عليها ، وأخبر أنه أحسن الحديث وأحسن القصص ، وهذا يتضمن أنه كل من كان متمسكا بالتوراة قبل النسخ من غير تبديل شىء من أحكامها فإنه من أهل الإيمان والهدى ، وكذلك من كان متمسكا بالإنجيل من غير تبديل شىء من أحكامه قبل النسخ ، فهو من أهل الإيمان والهدى . وليس فى ذلك مدح لمن تمسك بشرع مبدل ، فضلا عمن تمسك بشرع مبدل منسوخ ولم يؤمن بما أرسل الله إليه من الرسل وما أنزل إليه من الكتب بل قد بين سبحانه كفر اليهود والنصارى بتبديل الكتاب الأول وبترك الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فى غير موضع .

وأما تأويلهم قوله : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ ، إنه الإنجيل . ﴿ وإن الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ : عنى بهم النصارى فهو من تحريف الكلم عن مواضعه ، وتبديل كلام الله كما فعلوه فى قوله : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً ﴾ ، وفى قوله : ﴿ بإذنى ﴾ . أى بإذن اللاهوت ، وفى قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ . وفى غير ذلك مما ذكروه وتأولوه من القرآن على غير المعنى الذى أراد الله به ، وهذا مما يؤيد أنهم فعلوا كذلك بالتوراة

والإنجيل ، فإنه إذا كان القرآن الذى قد عرف تفسيره ، والمراد به : العام والخاص ، ونقل ذلك عن الرسول نقلا متواتراً حتى عرف معناه علماً يقينياً اضطرارياً فيبدلون معناه ويحرفون الكلم عن مواضعه ، فماذا يصنعون بالتوراة والإنجيل ، ولم ينقل لفظ ذلك ومعناه كما نقل القرآن وليس فى أهل تلك الكتب من يذب عن لفظها ومعناها كما يذب المسلمون عن لفظ القرآن ومعناه ، وهؤلاء غرهم قوله : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ فظنوا أن لفظ « ذلك » لما كان يشار بها إلى الغائب أشير بها إلى الإنجيل . فيقال لهم هذا كقوله : ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ .

وأشار بذلك إلى ما تلاه قبل هذه الآية ، وقوله : ﴿ واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم ﴾ ، [سورة الممتحنة: ١٠]. وقوله: ﴿ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ ، [سورة الطلاق:٢] ومثله قوله تعالى بعد أن ذكر خبر يوسف الصديق : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ ، [سورة يوسف : ١٠٢] . وقال أيضاً لما ذكر خبر مريم : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم ﴾ ، [سورة البقرة : ٤٤] . كما قال لما ذكر آيات يخبر فيها عن نوح : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ﴾ = الآية = [سورة هود:٤٩] . وقال : ﴿ الر * تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ [سورة يوسف: ١] و « تلك » فى المؤنث مثل « ذلك » فى المذكر ، ومع هذا فأشار إلى القرآن ومنه قوله : ﴿ الر * تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾ ، [سورة الحجر : ١] ، وقوله : ﴿ طس * تلك آيات القرآن وكتاب مبين ﴾ ، [سورة النمل : ١] . ومنه قوله : ﴿ طسم * تلك آيات الكتاب المبين ﴾ ، [سورة القصص : ١ ، ٢] . ومنه قوله : ﴿ حم * عسق * كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله

العزيز الحكيم ﴾ ، [سورة الشورى: ١ ، ٣] . وقوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً ﴾ ، [سورة الشورى : ٧] وقوله : ﴿ المر ✽ تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق = الآية = ﴾ ، [سورة الرعد : ١] . ومثل هذا كثير ، وذلك أنه لما أنزل قوله : ﴿ ذلك الكتاب وتلك آيات الكتاب ﴾ ونحو ذلك لم يكن الكتاب المشار إليه قد أنزل تلك الساعة ، وإنما كان قد أنزل قبل ذلك فصار كالغائب الذى يشار إليه كما يشار إلى الغائب وهو باعتبار حضوره عند النبي صلى الله عليه وسلم يشار إليه كما يشار إلى الحاضر ، كما قال تعالى : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ [سورة الأنبياء : ٥٠] .

ولهذا قال غير واحد من السلف « ذلك الكتاب » أى هذا الكتاب ، يقولون : المراد هذا الكتاب وإن كانت الإشارة تكون تارة إشارة غائب ، وتارة إشارة حاضر ، وقد قال : ﴿ هدى للمتقين ✽ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ ، [سورة البقرة : ٢ ، ٣] . وقد وصف النصارى بأنهم لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ، وأنهم كافرون ظالمون ، فكيف يجعلهم المتقين الذين يؤمنون بالغيب .

قال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] .

وأول التقوى تقوى الشرك ، وقد وصف النصارى بالشرك فى قوله : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة: ٣١].

وقال تعالى لما ذكر المسيح : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين

كفروا من مشهد يوم عظيم * أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لـكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ﴾ ، [سورة مريم : ٣٧ ، ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٢] . ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٣] . ونهى عن موالاتهم فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منـكم فإنه منهم ﴾ ، [سورة المائدة : ٥١] . وقد أخبر أن الله ولى المتقين فقال : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين ﴾ ، [سورة الجاثية : ١٨ ، ١٩] . فلو كانوا من المتقين فضلا عن أن يكونوا هم المتقين لـكان الله وليهم ولـكانت موالاتهم واجبة على المؤمنين ، وهو قد نهى عن موالاتهم وجعل من يتولاهم ظالمـاً ، وجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، والـكفار بعضهم أولياء بعض ، ولهذا لمـا قطع الله الموالاة بين المؤمنين وبين الـكافرين .

قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « لا يرث المسلم الـكافر ، ولا الـكافر المسلم » . واتفق المسلمون على أن اليهودى والنصرانى لا يرث مسلماً ولو كان ابنه وأباه لأن الله قطع الموالاة بينهما ، وقد قال تعالى : لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمـان وأيدهم بروح منه ﴾ ، [سورة المجادلة : ٢٢] . وأيضا فإنه قال تعالى : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ﴾ ، [سورة البقرة : ٣] وهى الصلاة التى أمر بها فى قوله : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ ، [سورة الإسراء : ٧٨] .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يقبل الله صلاة بغير طهور » . والنصارى يصلون بغير طهور . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب » وهم لا يقرءونها . والصلاة التي فرضها وأثنى عليها مشتملة على استقبال الكعبة وعلى ركوع وسجدتين في كل ركعة ، وغير ذلك مما لا يفعله النصارى فكيف يمدحهم بإقام الصلاة وهم لا يقيمون الصلاة التي أمر بإقامتها ، ثم لو قال اليهودى المراد بقوله : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ التوراة ، ﴿ وبالمتقين ﴾ اليهود . لكان هذا = مع بطلانه = أقرب من قول القائل : إن المراد بالكتاب الإنجيل . لأن التوراة أحق بذلك من الإنجيل فإنها الأصل والله تعالى يقرن بينها وبين القرآن في غير موضع كقوله : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ﴾ ، [سورة هود : ١٧] . وقوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ، [سورة الأحقاف ١٠] . وقد قالت الجن لما سمعت القرآن : ﴿ يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾ ، [سورة الأحقاف : ٣٠] .

وقال النجاشي — لما سمع القرآن — : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . وكذلك ورقة بن نوفل قال : هذا هو الناموس الذى كان ينزل على موسى بن عمران .

وقال تعالى : ﴿ قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا ﴾ [سورة القصص : ٤٨] . أى : التوراة والقرآن . وقالوا : ساحران تظاهرا ، أى موسى ومحمد . وقالوا : إنا بكل كافرون.

قال الله تعالى : ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ ، [سورة القصص : ٤٩] . فقد بين أنه لم يأت من عند الله كتاب أهدى من التوراة والقرآن .

وقال تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩١] . أى الله هو الذى ﴿ أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ، وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩١ ، ٩٢] .

وأما قوله تعالى : ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ [سورة البقرة: ٤] فهى صفة ثانية للذين يؤمنون بالغيب ، وصفهم بالإيمان بالغيب مجملا ، ثم وصفهم بإيمان مفصل بما أنزل إليه ، وما أنزل من قبله . والعطف بالواو يكون لتغاير الذوات ويكون لتغاير الصفات كقوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوى * والذى قدر فهدى * والذى أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى ﴾ ، [سورة الأعلى : ١ ــ ٥] . والذى خلق فسوى هو الذى قدر فهدى وهو الذى أخرج المرعى ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم * الذى جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون * والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون * والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون ﴾ ، [سورة الزخرف : ٩ ــ ١٢] . ومثله قوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ ،

[سورة المؤمنون : ١ ـ ١١] فهم صنف واحد وصفهم بهذه الصفات بحرف الواو ، وكذلك فى قوله : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم بشهاداتهم قائمون * والذين هم على صلاتهم يحافظون * أولئك فى جنات مكرمون ﴾ ، [سورة المعارج : ١٩ ـ ٣٥] .

وقد فسر قبل قوله يؤمنون بالغيب ، صفة المؤمنين من غير أهل الكتاب كمشركى العرب ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك صفة من آمن به من أهل الكتاب .

وعلى هذا القول : هؤلاء غير هؤلاء ، لكن هذا ضعيف فإنه لا بد فى المؤمنين من غير أهل الكتاب أن يؤمنوا بما أنزل إليه ، وما أنزل من قبله . ولا بد فى مؤمن أهل الكتاب أن يؤمن بالغيب . فكل من الإيمانين واجب على كل واحد ، ولا يكون أحد على هدى من ربه مفلحاً إلا بهذا وهذا .

وأما قول النصارى : نحن الذين آمنا بالسيد المسيح وما رأيناه . فهكذا اليهود آمنوا بموسى عليه السلام وما رأوه . والمسلمون آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وما رأوه ، بل المسلمون آمنوا بموسى ، وعيسى وسائر النبيين ، وما رأوهم بخلاف اليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض . ثم الغيب ليس المراد به صورة النبي عليه السلام فإن صورة النبي ليست من الغيب فإن الناس يرونها وليس فى رؤيتها ما يوجب إيماناً ولا كفراً ، ولكن الغيب ما غاب عن مشاهدة الخلق وهو ما أخبرت به الأنبياء من الغيب فيدخل فيه الإيمان بالله ، وملائكته وكتبه ،

ورسله ، وهو الإيمان بأنهم رسل الله وسواء رؤيت أبدانهم أو لم تر فقد يراهم من لم يؤمن برسالتهم ، وقد يؤمن برسالتهم من لم يرهم .

والمقصود الإيمان برسالتهم لا بنفس صورهم حتى يقول القائل : آمنا بنبي ولم نره ، وقد يعلم من دلائل نبوته وإعلام رسالته من لم يره أكثر مما يعلمها من رآه.

فصل

وأما قوله فى سورة المائدة : ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين * وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٦ ، ٤٧] .

فهذا ثناء منه على المسيح والإنجيل وأمر للنصارى بالحكم بما أنزل فيه ، كما أثنى على موسى والتوراة بأعظم مما عظم به المسيح والإنجيل فقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ﴾ ، [سورة المائدة : ٤١] . أى : قائلون للكذب مصدقون مستجيبون مطيعون لقوم آخرين لم يأتوك فهم مصدقون للكذب مطيعون لما يخالفك وأنت رسول الله .

فكل من تصديق الكذب والطاعة لمن خالف رسول الله من أعظم الذنوب .

ولفظ «السميع» : يراد به الإحساس بالصوت ويراد به فهم المعنى ويراد به قبوله فيقال : فلان سمع مايقول فلان . أى : يصدقه أو يطيعه ويقبل منه بقوله : سماعون للكذب . أى : مصدقون به وإلا مجرد سماع صوت الكاذب وفهم كلامه ليس مذموماً على الإطلاق ، وكذلك سماعون لقوم آخرين لم يأتوك . أى : مستجيبون لهم مطيعون لهم كما قال فى حق المنافقين وفيكم سماعون لهم . أى :

مستجيبون مطيعون لهم ، ومن قال : إن المراد به الجاسوس فهو غالط كغلط من قال سماعون لهم : هم الجواسيس ، فإن الجاسوس إنما ينقل خبر القوم إلى من لا يعرفه ، ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ما يذكره ويأمر به ويفعله يراه ويسمعه كل من بالمدينة مؤمنهم ومنافقهم ، ولم يكن يقصد أن يكتم يهود المدينة ما يقوله ويفعله ، خلاف من كان يأتيهم من اليهود وهم يصدقون الكذب ويطيعون لليهود الآخرين الذين لم يأتوه ، والله نهى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحزنه المسارعون فى الكفر من هاتين الطائفتين المنافقتين الذين أظهروا الإيمان به ولم تؤمن قلوبهم ومن أهل الكتاب الذين يطلبون أن يحكم بينهم وليس مقصودهم أن يطيعوه ويتبعوا حكمه بل إن حكم بما يهوونه قبلوه . وإن حكم بخلاف ذلك لم يقبلوه لكونهم مطيعين لقوم آخرين لم يأتوه .

قال تعالى : ﴿ سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ﴾ . أى : لم يأتك أولئك القوم الآخرون يقولون ، أى : يقول السماعون : ﴿ إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ ، [سورة المائدة : ٤١] .

والحكم يفتقر إلى الصدق والعدل فلابد أن يكون الشاهد صادقاً والحاكم عادلا وهؤلاء يصدقون الكاذبين من الشهود ويتبعون حكم المخالفين للرسل الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ، وإذا لم يكن قصدهم اتباع الصدق والعدل فليس عليك أن تحكم بينهم ، بل إن شئت فاحكم بينهم ، وإن شئت فلا تحكم .

ولكن إذا حكمت فلا تحكم إلا بما أنزل الله إليك ، إذ هو العدل .

قال تعالى ﴿ سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط

إن الله يحب المقسطين ﴾ ، [سورة المائدة:٤٢] . ثم قال : ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون * وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٣ـ ٤٥] .

فهذا ثناؤه على التوراة ، وإخباره أن فيها حكم الله ، وأنه أنزل التوراة ، وفيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، وقال عقب ذكرها : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ . وهذا أعظم مما ذكره فى الإنجيل فإنه قال فى الإنجيل : ﴿ وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ﴾ . وقال فيه : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

وقال فى التوراة : ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ . وقال عقب ذكرها : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ فهوسبحانه مع إخباره بإنزال الكتابين يصف التوراة بأعظم مما يصف به الإنجيل .

كما قال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ .

وإذا كان ما ذكره من مدح موسى والتوراة لم يوجب ذلك مدح اليهود الذين كذبوا المسيح ومحمداً صلى الله عليهما وسلم تسليماً ، وليس فيه ثناء على دين اليهود المبدل المنسوخ باتفاق المسلمين والنصارى ، فكذلك أيضاً ماذكره من مدح للمسيح والإنجيل ليس فيه مدح النصارى الذين كذبوا محمداً صلى الله عليه

وسلم وبدلوا أحكام التوراة والإنجيل ، واتبعوا المبدل المنسوخ . واليهود توافق المسلمين على أنه ليس فيما ذكر مدح للنصارى ، والنصارى توافق المسلمين على أنه ليس فيما ذكر مدح لليهود بعد النسخ والتبديل . فعلم اتفاق أهل الملل كلها المسلمون واليهود والنصارى على أنه ليس فيما ذكر فى القرآن من ذكر التوراة والإنجيل ، وموسى ، وعيسى مدح لأهل الكتاب الذين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ولا مدح لدينهم المبدل قبل مبعثه فليس فى ذلك مدح لمن تمسك بدين مبدل ، ولا بدين منسوخ ، فكيف بمن تمسك بدين مبدل منسوخ ؟ .

فصل

وهذا أصل لابد من ثباته وهو أنه قد دلت النصوص على أن الله لا يعذب إلا من أرسل إليه رسولا تقوم به الحجة عليه .

قال تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً * من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ، [سورة الإسراء : ١٣ — ١٥]

وقال تعالى : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٥] .

وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ ، [سورة الملك : ٨ ، ٩] .

قال تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً * حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ ، [سورة الزمر : ٧١]

وقال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم

آياتى و ينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ ، [سورة القصص: ٥٩]

وقال تعالى : ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا — إلى قوله — فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون ﴾ ، [سورة القصص : ٤٧ ، ٤٨] .

وقال تعالى ﴿ : يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شىء قدير ﴾ ، [سورة المائدة : ١٩] .

و إذا كان كذلك فمعلوم أن الحجة إنما تقوم بالقرآن على من بلغه كقوله : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ ، فمن بلغه بعض القرآن دون بعض قامت عليه الحجة بما بلغه دون ما لم يبلغه ، فإذا اشتبه معنى بعض الآيات ، وتنازع الناس فى تأويل الآية ، وجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول ، فإذا اجتهد الناس فى فهم ما أراده الرسل فالمصيب له أجران والمخطىء له أجر واحد فلا يمتنع أن يقال ذلك فى أهل الكتاب قبلنا فمن لم يبلغه جميع نصوص الكتاب قبلنا ، لم تقم عليه الحجة بما بلغه فيما خفى عليهم معناه منه فاجتهد فى معرفته فإن أصاب فله أجران . و إن أخطأ فله أجر وخطأه محطوط عنه . فأما من تعمد تحريف الكتاب لفظه أو معناه وعرف ما جاء به الرسول فعانده فهذا مستحق للعقاب ، وكذلك من فرط فى طلب الحق واتباعه متبعاً لهواه مشتغلا عن ذلك بدنياه .

وعلى هذا فإذا كان بعض أهل الكتاب قد حرفوا بعض الكتاب وفيهم آخرون لم يعلموا ذلك وهم مجتهدون فى اتباع ما جاء به الرسول لم يجب أن يجعل

هؤلاء من المستوجبين للوعيد ، فإذا جاز أن يكون فى أهل الكتاب من لم يعرف جميع ما جاء به المسيح ، بل خفى عليه بعض ما جاء به أو بعض معانيه فاجتهد لم يعاقب على ما لم يبلغه . وقد تحمل أخبار اليهود الذين كانوا مع = تبع = والذين كانوا ينتظرون الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل المدينة كابن الهتيان وغيره على هذا ، وأنهم لم يكونوا مكذبين للمسيح تكذيب غيرهم من اليهود ، وقد تنازع الناس هل يمكن مع الاجتهاد واستفراغ الوسع أن لا يبين للناظر المستدل صدق الرسول أولا .

وإذا لم يبن له ذلك هل يستحق العقوبة فى الآخرة أم لا يستحقها . بل وتنازع بعض الناس فى المقلد منهم أيضاً والكلام فى مقامين :

المقام الأول : فى شأن خطأ المخالف للحق وضلاله . وهذا مما يعلم بطرق متعددة عقلية وسمعية ، وقد يعرف الخطأ فى أقوال كثيرة من أهل القبلة المخالفين للحق ، وغير أهل القبلة بأنواع متعددة من الدلائل .

والمقام الثانى : الكلام فى كفرهم واستحقاقهم الوعيد فى الآخرة .

فهذا فيه ثلاثة أقوال للناس من أصحاب الأئمة المشهورين مالك والشافعى وأحمد لهم الأقوال الثلاثة .

قيل : إنه يعذب فى النار من لم يؤمن وإن لم يرسل إليه رسول لقيام الحجة عليه بالعقل وهذا قول كثير ممن يقول بالحكم العقلى من أهل الكلام والفقه من أصحاب أبى حنيفة وغيرهم وهو اختيار أبى الخطاب .

وقيل : لا حجة عليه بالعقل بل لا يجوز أن يعذب من لم يقم عليه حجة لا بالشرع ، ولا بالعقل ، وهذا قول من يجوز تعذيب أطفال الكفار ومجانينهم وهذا قول كثير من أهل الكلام كالجهم ، وكأبى الحسن الأشعرى ، وأصحابه ، والقاضى أبى يعلى ، وابن عقيل وغيرهم .

والقول الثالث وعليه السلف والأئمة : أنه لا يعذب إلا من بلغته الرسالة ،

ولا يعذب إلا من خالف الرسل كما دل عليه الكتاب والسنة .

قال تعالى لإبليس : ﴿ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ ، [سورة ص : ٨٥] وإذا كان كذلك فهو كما تناظر فيه أهل الكتاب متقدميهم ومتأخريهم ، تارة تتكلم فى المقام الأول ؛ وهو بيان مخالفتهم للحق وجهلهم وضلالهم ، فهذا تنبيه لجميع الأدلة الشرعية والعقلية وتبين كفرهم الذى يستحقون به العذاب فى الدنيا والآخرة ، فهذا أمره إلى الله ورسوله لا يتكلم فيه إلا بما أخبرت به الرسل ، كما إنا أيضا لا نشهد بالإيمان والجنة إلا لمن شهدت له الرسل ومن لم تقم عليه الحجة فى الدنيا بالرسالة كالأطفال والمجانين وأهل الفترات ، فهؤلاء فيهم أقوال أظهرها ما جاءت به الآثار أنهم يمتحنون يوم القيامة فيبعث إليهم من يأمرهم بطاعته ، فإن أطاعوه استحقوا الثواب ، وإن عصوه استحقوا العذاب .

وإذا كان كذلك فنحن نشهد لمن كان مؤمناً بموسى متبعاً له بأنه مؤمن مسلم مستحق للثواب .

وكذلك من كان مؤمناً بالمسيح متبعاً له . ونشهد لمن قامت عليه الحجة بموسى فلم يتبعه كآل فرعون أنهم من أهل النار .

وكذلك لمن قامت عليه الحجة بالمسيح الذين قال الله فيهم : ﴿ إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ . [سورة المائدة : ١١٥] : والذين قال فيهم : ﴿ ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين ﴾ ، [سورة آل عمران ٥٥ ــ ٥٧] .

وأما من بعد مهده بالمسيح وبلغته بعض أخباره دون بعض ، أو بموسى

وبلغته بعض أخباره دون بعض ، فهؤلاء قامت عليهم الحجة بما بلغهم من أخبارهم دون ما لم يبلغهم من أخبارهم . وإذا اختلفوا فى تأويل بعض التوراة والإنجيل فمن قصد الحق واجتهد فى طلبه لم يجب أن يعذب ، وإن كان مخطئاً للحق جاهلا به ضالا عنه ، كالمجتهد فى طلب الحق من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وعلى هذا فإذا قيل : إن الحواريين ، أو بعضهم ، أو كثيراً من أهل الكتاب ، أو أكثرهم كانوا يعتقدون أن المسيح نفسه صلب . كانوا مخطئين فى ذلك ولم يكن هذا الخطأ مما يقدح فى إيمانهم بالمسيح إذا آمنوا بما جاء به ، ولا يوجب لهم النار فإن الأناجيل التى بأيدى أهل الكتاب فيها ذكر صلب المسيح وعندهم أنها مأخوذة عن الأربعة : مرقس ، ولوقا ، ويوحنا ، ومتى . ولم يكن فى الأربعة من شهد صلب المسيح ، ولا من الحواريين ، بل ولا فى أتباعه من شهد الصلب ، وإنما الذين شهدوا الصلب طائفة من اليهود فمن الناس من يقول : إنهم علموا أن المصلوب غيره وتعمدوا الكذب فى أنهم صلبوه وشبه صلبه على من أخبروهم . وهذا قول طائفة من أهل الكلام ، المعتزلة وغيرهم وهو قول ابن حزم وغيره . ومنهم من يقول : بل اشتبه على الذين صلبوه ، وهذا قول أكثر الناس ، والأولون يقولون إن قوله : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ . أى : شبه للناس الذين أخبرهم أولئك بصلبه .

والجمهور يقولون : بل شبه للذين يقولون صلبوه كما قد ذكرت القصة فى غير هذا الموضع . والمقصود هنا أن الناس فى هذا المقام على طرفين ووسط .

أما الطرف الواحد : فهم الغلاة من النصارى الذين يدعون أن الحواريين كانوا معصومين فيما يقولونه ويروونه ويرونه ، وكذلك يقولون بتصويب علماء النصارى فيما يقولونه من تأويل الإنجيل .

والطرف الآخر يقول : بل كل من غلط وأخطأ فى شىء من ذلك فإنه يستحق الوعيد بل كافر .

والثالث ، الوسط : أنهم لا يعصمون ، ولا يؤثمون بل قد يكونون مخطئين خطأ مغفوراً لهم إذا كانوا مجتهدين فى معرفة الحق واتباعه بحسب وسعهم وطاقتهم ، وعلى هـذا تصح الأدلة الصحيحة وكتب الله تدل على ذم الضال والجاحد ومقته مع أنه لا يعاقب إلا بعد إنذاره .

وقد ثبت فى الصحيح عن عياض بن حماد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب » فأخبر أنه مقتهم إلا هؤلاء البقايا - والمقت هو البغض بل أشد البغض ومع هذا فقد أخبر فى القرآن إنه لم يكن ليعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا ، فقال : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ . وقال : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ ، [سورة طه : ١٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾ ، [سورة القصص : ٤٧] . فدل ذلك على أن المقتضى لعذابهم قائم ولكن شرط العذاب هو بعد بلوغ الرسالة ، ولهذا قال ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما أحد أحب إليه العذر من الله عز وجل : من أجل ذلك ، أرسل الرسل ، وأنزل الكتب » وفى رواية : « من أجل ذلك : بعث الرسل مبشرين ومنذرين ، وما أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه ، وما من أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » . وقد تنازع الناس فى حسن الأفعال وقبحها كحسن العدل والتوحيد ، والصدق ، وقبح الظلم ، والشرك ، والكذب : هل يعلم بالعقل أم لا يعلم إلا بالسمع ، وإذا قيل : إنه يعلم بالعقل فهل يعاقب من فعل ذلك قبل أن يأتيه رسول ؟ على ثلاثة أقوال معروفة فى أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم ،

وهى ثلاثة أقوال لأصحاب الإمام أحمد وغيرهم . فقالت طائفة لا يعرف ذلك إلا بالشرع لا بالعقل ، وهذا قول نظار المجبرة كالجهم بن صفوان وأمثاله ، وهو قول أبى الحسن الأشعرى وأتباعه من أصحاب الأئمة الأربعة كالقاضى أبى بكر بن الطيب ، وأبى عبد الله بن حامد ، والقاضى أبى يعلى ، وأبى المعالى ، وأبى الوفاء ابن عقيل وغيرهم ، وقيل : بل قد يعلم حسن الأقوال وقبحها بالعقل .

وقال أبو الخطاب محفوظ بن أحمد : وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين ، وهذا هو المنقول عن أبى حنيفة نفسه ، وعليه عامة أصحابه ، وكثير من أصحاب مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وأهل الحديث كأبى الحسن التميمى ، وأبى الخطاب ، وأبى بكر القفال ، وأبى نصر السجزى ، وأبى القاسم سعد بن على الريحانى ، وهو قول الكرامية وغيرهم من نظار المثبتة للقدر ، وهو قول المعتزلة وغيرهم من نظار القدرية ، ثم هؤلاء على قولين :

منهم من يقول : يستحقون عذاب الآخرة بمجرد مخالفتهم للعقل كقول : المعتزلة ، والحنفية ، وأبى الخطاب ، وقول هؤلاء مخالف للكتاب والسنة .

ومنهم من يقول : لا يعذبون حتى يبعث إليهم رسول كما دل عليه الكتاب والسنة . لكن أفعالهم تكون مذمومة ممقوتة يذمها الله ويبغضها و يوصفون بالكفر الذى يذمه الله ويبغضه ، وإن كان لا يعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح كما تقدم : « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وإن ربى قال لى : قم فى قريش فأنذرهم . قلت : إذا يثلغوا رأسى حتى يدعوه خبزة . قال : إنى مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً و يقظان . فابعث جنداً أبعث مثليهم ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك ، وأنفق أنفق عليك . وقال : إنى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين . وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة». وفى رواية : « على هذه الملة ، فأبواه يهودانه وينصرانه و يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسنون فيها من جدعاء » . ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه « اقرءوا إن شئتم : فطرة الله التى فطر الناس عليها . قيل : يارسول الله أرأيت من يموت وهو صغير . قال : الله أعلم بما كانوا عاملين » . ومع مقت الله لهم ، فقد أخبر أنه لم يكن ليعذبهم حتى نبعث إليهم رسولا . وهذا يدل على إبطال قول من قال إنهم لم يكونوا مسيئين ، ولا مرتكبين لقبيح حتى جاء السمع . وقول من قال : إنهم كانوا معذبين بدون السمع إما لقيام الحجة بالعقل كما يقوله من يقوله من القدرية وإما لمحض المشيئة ، كما يقوله الجبرة .

قال تعالى : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ ، [سورة القصص : ٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾ . [سورة القصص : ٤٧] .

وقال تعالى : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ ، [سورة طه : ١٣٤] .

فهذا يبين أنه لم يكن ليعذب الكفار حتى يبعث إليهم رسولا ، ويبين أنهم كانوا قبل الرسول قد اكتسبوا الأعمال التى توجب المقت والذم وهى سبب للعذاب لكن شرط العذاب قيام الحجة عليهم بالرسالة .

فصل

ومما ينبغى أن يعلم أن سبب ضلال النصارى وأمثالهم من الغالية كغالية العباد والشيعة وغيرهم ثلاثة أشياء :

أحدها : ألفاظ متشابهة مجملة مشكلة منقولة عن الأنبياء وعدلوا عن الألفاظ الصريحة المحكمة وتمسكوا بها، وهم كلما سمعوا لفظاً لهم فيه شبهة تمسكوا به وحملوه على مذهبهم وإن لم يكن دليلا على ذلك . والألفاظ الصريحة المخالفة لذلك إما أن يفوضوها ، وإما أن يتأولوها كما يصنع أهل الضلال ؛ يتبعون المتشابه من الأدلة العقلية والسمعية ويعدلون عن المحكم الصريح من القسمين .

والثانى : خوارق ظنوها من الآيات وهى من أحوال الشياطين ، وهذا مما ضل به كثير من الضلال المشركين وغيرهم مثل دخول الشياطين فى الأصنام وتكليمهم للناس . ومثل إخبار الشياطين للكهان بأمور غائبة ، ولا بد لهم مع ذلك من كذب . ومثل تصرفات تقع من الشياطين .

والثالث : أخبار منقولة إليهم ظنوها صدقا وهى كذب . وإلا فليس مع النصارى ولا غيرهم من أهل الضلال على باطلهم لا معقول صريح ولا منقول صحيح ، ولا آية من آيات الأنبياء . إن تكلموا بمعقول تكلموا بألفاظ متشابهة مجملة . فإذا استفسروا عن معانى تلك الكلمات وفرق بين حقها وباطلها تبين ما فيها من التلبيس والاشتباه ، وإن تكلموا بمنقول . فإما أن يكون صحيحاً لا يدل على باطلهم ، وإما أن يكون غير ثابت بل مكذوب ، وكذلك ما يذكرونه من خوارق العادات . إما أن يكون صحيحاً قد ظهر على يد نبى كمعجزات المسيح ومن قبله كإلياس واليسع وغيرهما من الأنبياء ، وكمعجزات موسى صلى الله عليه وسلم فهذه حق . وإما أن تكون قد ظهرت على يد بعض الصالحين ، كالحواريين ، وذلك لا يستلزم أن يكونوا معصومين كالأنبياء فإن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه لا يتصور أن يقولوا على الله إلا الحق ، ولا يستقر فى كلامهم باطل ، لا عمدا ولا خطأ .

وأما الصالحون : فقد يغلط أحدهم ويخطىء مع ظهور الخوارق على يديه ، وذلك لا يخرجه عن كونه رجلا صالحاً ، ولا يوجب أن يكون معصوما إذا كان

هو لم يدع العصمة ، ولم يأت بالآيات دالة على ذلك ، ولو ادعى العصمة وليس بنبي ، لـكان كاذباً لا بد أن يظهر كذبه فتقترن به الشياطين فتضله ويدخل في قوله تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢] .

والنصارى عندهم منقول في الأناجيل أن الذى صلب ودفن في القبر رآه بعض الحواريين وغيرهم بعد أن دفن ، قام من قبره مرتين أو ثلاثا ، وأراهم موضع المسامير ، وقال : لا تظنوا أني شيطان. وهذا إذا كان صحيحاً فذاك شيطان ادعى أنه المسيح ، والتبس على أولئك ، ومثل هذا قد جرى لخلق كثير في زماننا وقبل زماننا ، كناس كانوا بـ «تدمر» فرأوا شخصاً عظيما طائراً في الهواء ، وظهر لهم مرات بأنواع من اللباس ، وقال لهم : أنا المسيح ابن مريم ، وأمرهم بأمور يمتنع أن يأمر بها المسيح ، وحضروا إلى عند الناس وبينوا أن ذلك هو شيطان أراد أن يضلهم .

وآخرون يأتي أحدهم إلى قبر من يعظمه ويحسن به الظن من الصالحين وغيرهم ، فتارة يرى القبر انشق وخرج منه إنسان على صورة ذلك الرجل ، وتارة يرى ذلك الإنسان قد دخل في القبر ، وتارة يراه إما راكباً وإما ماشيا داخلا إلى مكان ذلك الميت كالقبة المبنية على القبر ، وتارة يراه خارجا من ذلك المكان ويظن أن ذلك هو ذلك الرجل الصالح ، وقد يظن أن قوماً استغاثوا به فذهب إليهم ويكون ذلك شيطانا تصور بصورته . وهذا جرى لغير واحد ممن أعرفهم ، وتارة يستغيث أقوام بشخص يحسنون به الظن إما ميت غائب ، فيرونه بعيونهم قد جاء ، وقد يكلمهم وقد يقضي بعض حوائجهم ، فيظنونه ذلك الشخص الميت ، وإنما هو شيطان زعم أنه هو ، وليس هو إياه ، وكثيراً ما يأتي الشخص بعد الموت في صورة الميت ، فيحدثهم ويقضي ديونا ، ويرد ودائع ويخبرهم عن الموتى ، ويظنون أنه هو الميت نفسه قد جاء إليهم ، وإنما هو شيطان تصور بصورته .

وهذا كثير جداً لا سيا فى بلاد الشرك ، كبلاد الهند ونحوها ، ومن هؤلاء من تراه أنت تحت سريره آخذ بيد ابنه فى الجنازة ، ومنهم من يقول : إذا مت فلا تدعوا أحداً يغسلنى فأنا آتى من هذه الناحية أغسل نفسى ، فيأتى بعد الموت شخص فى الهواء على صورته يغسله هو ، والذى أوصاه ، ويظن ذلك أنه جاء ، وإنما هو شيطان تصور بصورته ، وتارة يرى أحدهم شخصاً إما طائراً فى الهواء وإما عظيم الخلقة ، وإما أن يخبره بأشياء غائبة ونحو ذلك ، ويقول له: أنا الخضر ، ويكون ذلك شيطاناً كذب على ذلك الشخص ، وقد يكون الرائى من أهل الدين والزهد والعبادة . وقد جرى هذا لغير واحد ، وتارة يرى عندقبر نبى أو غيره ، أن الميت قد خرج إما من حجرته ، وإما من قبره وعانق ذلك الزائر وسلم عليه ، ويكون شيطاناً تصور بصورته ، وتارة يجىء من يجىء إلى عند قبر ذلك الشخص فيستأذنه فى أشياء : يسأله عن أمور فيخاطبه شخص يراه أو يسمع صوتاً ، أو يرى شخصاً ، ويكون ذلك شيطاناً أضله .

وقد يرى أشخاصاً فى اليقظة ، إما ركبانا ، وإما غير ركبان ، ويقولون : هذا فلان النبى ، إما إبراهيم ، وإما المسيح ، وإما محمد ، وهذا فلان الصديق إما أبا بكر ، وإما بعض الحواريين . وهذا فلان لبعض من يعتقد فيه الصلاح إما جرجس ، وإما غيره ممن تعظمه النصارى . وإما بعض شيوخ المسلمين ، ويكون ذلك شيطاناً ادعى أنه ذلك النبى ، أو ذلك الشيخ ، أو الصديق ، أو القديس .

ومثل هذا يجرى كثيراً لكثير من المشركين والنصارى ، وكثير من المسلمين ، ويرى أحدهم شيخاً يحسن به الظن ، ويقول : أنا الشيخ فلان ، ويكون شيطاناً . وأعرف من هذا شيئاً كثيراً وأعرف غير واحد ممن يستغيث ببعض الشيوخ الغائبين ، الموتى ، يراه قد أتاه فى اليقظة وأعانه .

وقد جرى مثل هذا لى ولغيرى ممن أعرفه ، ذكر غير واحد أنه استغاث بى

من بلاد بعيدة ، وأنه رآنى قد جئته . ومنهم من قال : رأيتك راكبا بثيابك وصورتك ، ومنهم من قال : رأيتك على جبل ، ومنهم من قال : غير ذلك . فأخبرتهم أنى لم أغثهم ، وإنما ذلك شيطان تصور بصورتى ليضلهم لما أشركوا بالله ، ودعوا غير الله .

وكذلك غير واحد ممن أعرفه من أصحابنا استغاث به بعض من يحسن به الظن ، فرآه قد جاءه وقضى حاجته ، قال صاحبى : وأنا لا أعلم بذلك ، ومن هؤلاء الشيوخ من يقول : إنه يسمع صوت ذلك الشخص المستغيث به ويجيبه ، وتكون الشياطين أسمعته صوتاً يشبه صوت المستغيث به ، فأجابه الشيخ بصوته فأسمعت المستغيث صوتاً يشبه صوت الشيخ ، فيظن أنه صوت الشيخ .

وهذا جرى لمن أعرفه فأخبر بذلك عن نفسه ، وقال : بقى الجنى الذى يحدثنى يبلغنى مثل صوت المستغيثين بى ، ويبلغهم مثل صوتى ، ويرينى فى شىء أبيض نظير ما أسأل عنه ، فأخبر به الناس أنى رأيته ، وأنه سيأتى ، ولا أكون قد رأيته ، وإنما رأيت شبهه .

وهكذا تفعل الجن بمن يعزم عليهم ويقسم عليهم .

وكذلك ما رآه قسطنطين من الصليب الذى رآه من نجوم ، والصليب الذى رآه مرة أخري وهو ما مثله الشياطين، وأراهم ذلك ليضلهم به ، كما فعلت الشياطين ما هو أعظم من ذلك لعباد الأوثان .

وكذلك من ذكر أن المسيح جاءه فى اليقظة وقال : إنه المسيح ، إنما هو شيطان من الشياطين ، كما جرى مثل ذلك لغير واحد .

والشيطان إنما يضل الناس ويغويهم بما يظن أنهم يطيعونه فيه فيخاطب النصارى بما يوافق دينهم ، ويخاطب من يخاطب من ضلال المسلمين بما يوافق اعتقاده ، وينقله إلى ما يستجب لهم فيه بحسب اعتقادهم .

ولهذا يتمثل لمن يستغيث من النصاري بجرجس فى صورة جرجس ، أو بصورة

من يستغيث به من النصارى من أكابر دينهم ، إما بعض البتاركة ، وإما بعض المطارنة وإما بعض الرهبان . ويتمثل لمن يستغيث به من ضلال المسلمين بشيخ من الشيوخ فى صورة ذلك الشيخ ، كما يتمثل لجماعة ممن أعرفه فى صورتى ، وفى صورة جماعة من الشيوخ الذين ذكروا فى ذلك ، ويتمثل كثيراً فى صورة بعض الموتى : تارة يقول : أنا الشيخ عبد القادر ، وتارة يقول : أنا الشيخ أبو الحجاج الأقصرى ، وتارة يقول : أنا الشيخ عدى . وتارة يقول : أنا أحمد ابن الرفاعى، وتارة يقول : أنا أبو مدين المغربى ، وإذا كان يقول : أنا المسيح ، أو إبراهيم ، أو محمد : فغيرهم بطريق الأولى ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال : « من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً ، فإن الشيطان لا يتمثل فى صورتى » .

وفى رواية « فى صور الأنبياء » .

فرؤيا الأنبياء فى المنام حق . وأما رؤية الميت فى اليقظة فهذا جنى تمثل فى صورته .

وبعض الناس يسمى هذا روحانية الشيخ ، وبعض الناس يقول :هى رفيقه، وكثير من هؤلاء من يقوم من مكانه ويدع فى مكانه صورة مثل صورته ، وكثير من هؤلاء ، ومن هؤلاء ، يرى فى مكانين ، ويرى واقفاً بعرفات . وهو فى بلده لم يذهب ، فيبقى الناس الذين لا يعرفون حائرين .

فإن العقل الصريح يعلم أن الجسم الواحد لا يكون فى الوقت الواحد فى مكانين .

والصادقون قد رأوا ذلك عياناً لا يشكون فيه ، ولهذا يقع النزاع كثيراً بين هؤلاء وهؤلاء ، كما قد جرى ذلك غير مرة .

وهذا صادق فيما رأى وشاهد ، وهذا صادق فيما دل عليه الصريح .

لكن ذلك المرئىّ ، كان جنياً تمثل فى صورة الإنسان .

والحسيات إن لم يكن معها عقليات تكشف حقائقها وإلا وقع فيها غلط كثير .

وهذا القسم المشهود فى الخارج غير ما يتخيله الإنسان فى نفسه ، فإن هذا يعرفه جميع الناس ، ويعرفه جميع العقلاء ، و يتخيلون أشياء فى أنفسهم ، كما يتخيله النائم فى منامه ، وتكون تلك الصورة موجودة فى الخيال لا فى الخارج .

والفلاسفة وجميع العقلاء يعترفون بهذا ، لكن كثيراً من الفلاسفة يظن أن ما رأته الأنبياء من الملائكة ، وما سمعته من الكلام كان من هذا النوع ، ويظنون أن ما يرى من الجن هو من هذا النوع ، وهؤلاء جهال غالطون فى هذا ، كما جهلوا وغلطوا فى ظنهم أن خوارق العادات سببها قوى نفسانية ، أو طبيعية ، أو قوى فلكية ، وأن الفرق بين النبى والساحر ، إنما هو حسن قصد هذا ، وفساد قصد ظن الآخر ، وإلا فكلاهما خوارق سببها قوى نفسانية أو فلكية ، وهذا النفى باطل ، كما قد بسطنا الكلام عليه ، وبينا جهل هؤلاء وضلالهم فى غير ذلك هذا الموضع .

والذين شاهدوا ذلك فى الخارج وثبت عندهم بالأخبار الصادقة المتواترة ، وجود ذلك فى الخارج يعلمون أن هؤلاء جاهلون ، ضالون ، ويعلمون أن الملائكة تظهر فى صورة البشر ، كما ظهرت لإبراهيم ، ولوط ؛ ومريم ، فى صورة البشر ، وكما كان جبريل يظهر للنبى صلى الله عليه وسلم تارة فى صورة دحية الكلبى ، وتارة فى صورة أعرابى ، ويراه كثير من الناس عياناً ، وما فى خيال الإنسان لا يراه غيره ، وكذلك لما ظهر الشيطان المشركين فى صورة الشيخ النجدى ، وغيره ، وظهر لهم يوم بدر فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم ؛ فلما رأى الملائكة هرب .

قال تعالى : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم

إني أرى مالا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ :[سورة الأنفال:٤٨].

وروى عن ابن عباس وغيره ، قال : تبدّى إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من مدلج، والشيطان في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم . وأقبل جبريل عليه السلام على إبليس ، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين نزع إبليس يده وولى مدبراً هو وشعبه ، فقال الرجل : يا سراقة أتزعم أنك لنا جار فقال إني أرى مالا ترون ، إني أخاف الله ، والله شديد العقاب .

قال ابن عباس : وذلك لما رأى الملائكة ، قال الضحاك : سار الشيطان معهم برايته وجنوده وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم وأنتم تقاتلون على دينكم ودين آبائكم .

وكثير من الناس تحمله الجن إلى مكان بعيد ، فتنقل كثيراً من الناس إلى عرفات وغير عرفات ، وإذا رأى واحد من هؤلاء في غير بلده يكون تارة محمولا، تارة قد حملته الجن ، وتارة قد تصورت على صورته ، ولا يكون هذا من أولياء الله المتقين الذين لهم كرامات ، بل قد يكون من الكافرين ، أو الفاسقين ، وأعرف من ذلك قصصاً كثيرة ليس تفصيلها في هذا الموضع .

وعند المشركين والنصاري من ذلك شيء كثير يظنونه من جنس الآيات التي للأنبياء ، وإنما هي من جنس ما للسحرة والكهان ، ومن لم يفرق بين أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان . ويفرق بين معجزات الأنبياء ، وكرامات الصالحين ، وبين خوارق السحرة والكهان، ومن يقترن بهم الشياطين . وإلا التبس عليه الحق بالباطل ، فإما أن يكذب بالحق الذي جاء به الأنبياء الصادقون، وإما أن يصدق بالباطل الذي يقوله الكافرون والغالطون .

وهذه الأمور مبسوطة في موضع آخر، والمقصود هنا التنبيه على هذا الأصل وعلماء النصارى يسلمون هذا وعندهم من ذلك أخبار كثيرة من حكايات

أولياء الشيطان الذين عارضهم أولياء الرحمن، وأبطلوا أحوالهم كما أبطل موسى ماعارضه به السحرة من الخوارق، كما ذكر فى التوراة، وكما يذكرونه عن فلان وفلان، مثل حكاية سيمون الساحر مع الحواريين وغير ذلك. فإذا كان هذا معلوما كان ما يذكرونه من هذا الجنس، إذا كان مخالفاً لما ثبت عن الأنبياء من الشيطان، فلا يجوز أن يحتج على ما يخالف شرائع الأنبياء الثابتة عنهم، بل هؤلاء من جنس الدجال الكبير الذى أنذرت به الأنبياء كلهم حتى نوح أنذر قومه. وقال خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم: «ما من نبى إلا قد أنذر أمته حتى نوح أنذر قومه وسأقول لكم فيه قولا لم يقله نبى لأمته: إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر «ك ف ر» يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ. وقال: واعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت وقد أخبر أن المسيح عيسى ابن مريم مسيح الهدى ينزل إلى الأرض على المنارة البيضاء شرقى دمشق، فيقتل مسيح الضلالة، وهذا هو الذي تنتظره اليهود ويجحدون المسيح عيسى بن مريم، ويقولون: هذا هو الذى بشرت به الأنبياء، ويتبعه من يهود أصبهان سبعون ألفاً مطيلسين، ويقتلهم المسلمون مع عيسى بن مريم شر قتلة حتى يقول الشجر والحجر: يامسلم هذا يهودى ورائى تعال اقتله». وكل هذا ثابت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم. ولهذا أمر أمته أن يستعيذوا بالله من فتنته فقال: «إذا قعد أحدكم فى التشهد فى الصلاة فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات؛ ومن فتنة المسيح الدجال».

والأنبياء كلهم أنذروا بالكذابين الذين يتشبهون بالأنبياء، لكن من الناس من يتعمد الكذب، وكثير منهم لا يتعمد، بل يلتبس عليه فيغلط فيخبر بما يظنه حقاً، ولا يكون كذلك، ويرى فى اليقظة ما يظنه فلاناً الولى أو النبى، أو الخضر، ولا يكون كذلك.

والغلط جائز على كل أحد إلا الأنبياء عليهم السلام، فإنهم معصومون،

لا يقرون على خطأ ، فمن لم يزن علومه وأعماله وأقواله وأفعاله بالمعلوم عن الأنبياء، وإلا كان ضالا ، نسأل الله العظيم أن يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

فصل

والخوارق التي يضل بها الشياطين لبني آدم مثل تصور الشيطان بصورة شخص غائب أو ميت ، ونحو ذلك ضل بها كثير من الناس من المنتسبين إلى المسلمين ، أو إلى أهل الكتاب وغيرهم ، ، وهم بنوا ذلك على مقدمتين .

أحدهما : أن من ظهرت هذه على يديه فهو ولى لله . وبلغة النصارى هو قديس عظيم .

الثاني : أن من يكون كذلك فهو معصوم وكل ما يخبر به حق وكل ما يأمر به فهو عدل ، وقد لا يكون ظهرت على يديه خوارق ، لا رحمانية ولا شيطانية ، ولكن صنع حيلة من حيل أهل الكذب والفجور . وحيل أهل الكذب والفجور كثيرة جداً ، فيظن أن ذلك من العجائب الخارقة للعادة ، ولا يكون كذلك مثل الحيل المذكورة عن الرهبان .

وقد صنف بعض الناس مصنفاً في حيل الرهبان ، مثل الحيلة المحكية عن أحدهم في جعل الماء زيتا بأن يكون الزيت في جوف منارة ، فإذا نقص صب فيها ماء ، فيطفو الزيت على الماء ، فيظن الحاضرون أن نفس الماء انقلب زيتا . ومثل الحيلة المحكية عنهم في ارتفاع النخلة ، وهو أن بعضهم مر بدير راهب وأسفل منه نخلة فأراه النخلة صعدت شيئاً حتى حاذت الدير ، فأخذ من رطبها ثم نزلت حتى عادت كما كانت فكشف الرجل الحيلة فوجد النخلة في سفينة في مكان منخفض إذا أرسل عليه الماء امتلأ حتى تصعد السفينة وإذا صرف الماء إلى موضع آخر هبطت السفينة .

ومثل الحيلة المحكية عنهم في التكحل بدموع السيدة وهو أنهم يضعون

كحلا فى ماء متحرك حركة لطيفة ، فيسيل حتى ينزل من تلك الصورة فيخرج من عينها فيظن أنه دموع .

ومثل الحيلة التى صنعوها بالصورة التى يسمونها القونة بصيدنايا ، وهى أعظم مزاراتهم بعد القمامة و بيت لحم ، حيث ولد المسيح : وحيث قبر ، فإن هذه هى صورة السيدة مريم ، وأصلها حشة نخلة سقيت بالأدهان حتى سمنت وصار الدهن يخرج منها مصنوعاً يظن أنه من بركة الصورة ومن حيلهم الكثيرة النار التى يظن عوامهم أنها تنزل من السماء فى عيدهم فى قمامة وهى حيلة قد شهدها غير واحد من المسلمين والنصارى ورأوها بعيونهم أنها نار مصنوعة يصلون بها عوامهم يظنون أنها نزلت من السماء و يتبركون بها وإنما هى صنعة صاحب محال وتلبيس .

ومثل ذلك كثير من حيل النصارى فجميع ما عند النصارى المبدلين لدين المسيح من الخوارق . إما حال شيطانى . و إما محال بهتانى ليس فيه شىء من كرامات الصالحين .

وكذلك أهل الإلحاد المبدلين لدين محمد صلى الله عليه وسلم ، الذين يتخذون ديناً لم يشرعه الله ورسوله ، و يجعلونه طريقاً إلى الله ، وقد يختارونه على الطريق الذى شرعه الله ورسوله ، مثل أن يختاروا سماع الدفوف والشبابات على سماع كتاب الله تعالى ، فقد يحصل لأحدهم من الوجد والغرام الشيطانى ما يلبسه معه الشيطان حتى يتكلم على لسان أحدهم بكلام لا يعرفه ذلك الشخص ، إذا أفاق كما يتكلم الجنى على لسان المصروع ، وقد يخبر بعض الحاضرين بما فى نفسه ويكون ذلك من الشيطان ، فإذا فارق الشيطان ذلك الشخص لم يدر ما قال .

ومنهم من يحمله الشيطان و يصعد به قدام الناس فى الهواء .

ومنهم من يشير إلى بعض الحاضرين فيموت أو يمرض أو يصير مثل الخشبة

ومنهم من يشير إلى بعض الحاضرين فيلبسه الشيطان ويزول عقله حتى يبقى دائراً زمانا طويلا بغير اختياره .

ومنهم من يدخل النار ويأكلها ويبقى لهبها فى بدنه وشعره .

ومنهم من تحضر له الشياطين طعاما أو شيئاً من لادن أو سكر أو زعفران أو ماء ورد . ومنهم من تأتيه بدراهم تسرقها الشياطين من بعض المواضع .

ثم من هؤلاء إذا فرق الدراهم على الحاضرين ، أخذت منهم ، فلا يمكنون من التصرف فيها ، إلى أمور يطول وصفها ، وآخرون ليس لهم من يعينهم على ذلك من الشياطين ، فيصنعون حيلا ومخاريق .

فالملحدون المبدلون لدين الرسل ، دين المسيح ، أو دين محمد صلى الله عليه وسلم كأمثالهم من أهل الإلحاد والضلال والكفار ، المرتدين المشركين وغيرهم ، كمسيلمة الكذاب ، والأسود العنسى ، والحارث الدمشقى، وبابا الرومى وغيرهم، ممن لهم خوارق شيطانية .

وأما أهل الحيل فيكثرون ، وهؤلاء ليسوا أولياء الله ، بل خوارقهم إذا كانت شيطانية من جنس خوارق الكهنة والسحرة ، لم يكن لهم حال شيطانى بل محال بهتانى . فهم متعمدون الكذب والتلبيس ، بخلاف من يقترن به الشياطين فإن فيهم من يلبس عليه ، فيظن أن هذا من جنس كرامات الصالحين ، كما أن فيهم من يعرف أن ذلك من الشياطين ، ويفعله لتحصيل أغراضه ، فالمقصود أنه كثير من الخوارق ، ما يكون من الشياطين . أو يكون حيلا ومخاريق ، ويظن أنها من كرامات الصالحين . فإن ما يكون سببه الشرك أو الفجور ، إنما يكون من الشياطين ، مثل أن يشرك الرجل بالله فيدعو الكواكب أو يدعو مخلوقا من البشر ميتاً، أو غائباً أو يعزم أو يقسم بأسماء مجهولة لا يعرف معناها ، أو يعرف أنها أسما الشياطين ، أو يستعين بالفواحش

والظلم ، فإن ما كان هذا سببه من الخوارق فهو من الشيطان ، كما قد بسط الـكلام على ذلك فى غير هذا الموضع .

والصالحون لهم كرامات ، مثل كرامات صالحى هذه الأمة ، ومثل كرامات الحواريين وغيرهم ممن كان على دين المسيح ، لـكن وجود الـكرامات على أيدى الصالحين لا توجب أن يكونوا معصومين كالأنبياء ، بل يكون الرجل صالحاً ولياً لله وله كرامات ، ومع هذا فقد يغلط ويخطىء فيما يظنه ، أو فيما يسمعه ، ويرويه ، أو فيما يراه ، أو فيما يفهمه من الـكتب ، ولهذا كان كل من سوى الأنبياء يؤخذ من قولهم ويترك ، بخلاف الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، فإنه يجب تصديقهم فى كل ما أخبروا به من الغيب ، وطاعتهم فى كل ما أمروا به ، ولها أوجب الله الإيمان بكل ما أتوه ، ولم يوجب الإيمان بجميع ما يأتى به غيرهم .

قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولـكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائـكة والـكتاب والنبيين ﴾ . [سورة البقرة : ١٧٧] .

ولهذا اتفق المسلمون على أن من كذّب نبياً معلوم النبوة فهو كافر مرتد . ومن سب نبياً وجب قتله بل يجب الإيمان بجميع ما أوتيه النبيون كلهم ، وأن لا يفرق بين أحد منهم ، فيؤمن ببعض ويكفر ببعض . قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونـكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الـكافرون حقا وأعتدنا للـكافرين عذاباً مهيناً ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٠ ،

١٥١] . وليس هذا لأحد غير الأنبياء ، ولو كان من رسل الأنبياء . وكانوا من أعظم الصديقين المقدمين .

فصل

فضلال الضلال من هؤلاء مبنى على مقدمتين .

إحداهما : أن هذا له كرامة فيكون ولياً لله .

والثانية : أن ولى الله لايجوز أن يخطىء ، بل يجب تصديقه فى كل ماأخبر، وطاعته فى كل ما أمر ، وليس لأحد من البشر أن يصدّق فى كل ما أخبر به ، ويطاع فى كل أمر إلا أن يكون نبياً .

والمقدمتان المذكورتان ، قدتكون إحداهماباطلة ، وقديكون كلاهما باطلا، فالرجل المعين ، قد لايكون من أولياء الله ، وتكون خوارقه من الشياطين ، وقد يكون من أولياء الله ، ولكن ليس بمعصوم ، بل يجوز عليه الخطأ . وقد لايكون من أولياء الله ، ولا يكون له خوارق ، ولكن له محالات وأكاذيب .

والمسلمون وأهل الكتاب متفقون على إثبات مسيحين ، مسيح هدى من ولدداوود ، ومسيح ضلال. يقول أهل الكتاب : إنهمن ولد يوسف . ومتفقون على أن مسيح الهدى سوف يأتى كما يأتى مسيح الضلالة ، لكن المسلمون والنصارى يقولون : مسيح الهدى هو عيسى بن مريم ، و إن الله أرسله ثم يأتى مرة ثانية ، لكن المسلمون يقولون : إنه ينزل قبل يوم القيامة فيقتل مسيح الضلالة ، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ولا يُبقِى ديناً إلا دين الإسلام ، ويؤمن به أهل الكتاب ، اليهود ، والنصارى . كما قال تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٩] .

والقول الصحيح الذى عليه الجمهور قبل موت المسيح وقال تعالى : ﴿ وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها ﴾ [سورة الزخرف : ٦١] .

وأما النصارى فيظنون أنه الله ، وأنه يأتى يوم القيامة لحساب الخلائق وجزائهم ، وهذا مما ضلوا فيه . واليهود تعترف بمجيء مسيح هدى يأتى . لكن يزعمون أن عيسى عليه السلام لم يكن مسيح هدى ، لزعمهم أنه جاء بدين النصارى المبدل ، ومن جاء به فهو كاذب ، وهم ينتظرون المسيحين .

فصل

قالوا : وقال فى سورة آل عمران : ﴿ فإن كذبوك فقد كُذِّب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨٤] . فعنى أيضاً بالكتاب المنير ، الذى هو الإنجيل المقدس .

فيقال : قد تقدم أن الرسل يتناول قطعاً الرسل الذين ذكرهم الله فى القرآن ، لاسيما أولو العزم كنوح و إبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، فإن هؤلاء مع محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين صلوات الله عليهم وسلامه ، خصهم الله وفضلهم بقوله تعالى : ﴿ و إذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح و إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذابا أليما ﴾ ، [سورة الأحزاب : ٧ ، ٨] .

وفى قوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ، [سورة الشورى : ١٣] ، فالدين ، دين رسل الله ، دين واحد كما بينه الله فى كتابه ، وكما ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وأنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بينى وبينه نبى » .

ويتناول أيضاً اسم الرسل من لم يسمهم بأعيانهم فى القرآن . قال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان

وآتينا داوود زبوراً * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ ، [سورة غافر : ٧٨] .

وأما الحواريون فإن الله تعالى ذكرهم فى القرآن ، ووصفهم بالإسلام واتباع الرسول والإيمان بالله ، كما أنزل فى قوله تعالى : ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٢ ، ٥٣] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا : آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ ، [سورة المائدة : ١١١] .

وقال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ ، [سورة الصف : ١٤] . ولم يذكر الله تعالى فى القرآن أنه أرسلهم البتة . بل ذكر أنه ألهمهم الإيمان به وبرسوله وأنهم أمروا باتباع رسوله وقوله : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين ﴾ لايدل على النبوة فإنه قال تعالى: ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ ، [سورة القصص : ٧] وأم موسى لم تكن نبية ، بل ليس فى النساء نبية كما تقوله عامة علماء النصارى والمسلمين . وقد ذكر إجماعهم على ذلك غير واحد ، مثل القاضيين أبى بكر بن الطيب وأبى يعلى ابن أبى الفراء ، والأستاذ أبى المعالى الجوينى وغيرهم . ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ﴾ ، [سورة يوسف : ١٠٩] .

وقوله تعالى : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٥] . فجعل غاية مريم الصديقية كما جعل غاية المسيح الرسالة .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربعة : مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم » يعني من نساء الأمم قبلنا ، وهذا يدل على أن أم موسى ليست ممن كمل من النساء فكيف تكون نبية ؟ وقوله تعالى : ﴿ جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٤] . والكتاب اسم جنس كما تقدم يتناول كل كتاب أنزله الله تعالى . وقال الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ ، [سورة الحج : ٨] . وقوله : ولا كتاب منير ، نكرة في سياق النفي ، تعم كل كتاب منير . ولو لم يكن إلا الإنجيل ؛ لقيل ولا الكتاب المنير . وأيضاً فالتوراة أعظم من الإنجيل وقد بين الله أنه لم ينزل كتاباً أهدى من التوراة والقرآن . فقال تعالى : ﴿ قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران = وقرىء « ساحران » = تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون * قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ ، [سورة القصص : ٤٨ ، ٤٩] . وهذا تعجيز لهم أن يأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما كقوله : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله ﴾ ، [سورة يونس : ٣٨] . وهذا يبين أنه ليس الإنجيل ولا الزبور أهدى من التوراة والقرآن فكيف يجعل الكتاب المنير هو الإنجيل دون التوراة والزبور ؟ وأيضاً فإن الله تعالى إنما يخص بالذكر من الكتب المتقدمة التوراة دون غيرها ، فهي التي يقرنها بالقرآن كقوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم

مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩١ ، ٩٢] .

وقد وصف التوراة بأن فيها نوراً وهدى للناس ، فكيف يجعل النور فى الإنجيل دونها ؟ وقال تعالى : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون * أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين ﴾ [سورة الأنعام : ١٥٤ ـ ١٥٦] . فقد ذكر التوراة والقرآن ، وقولهم أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا . فبين أن الكتاب اسم جنس يتناول هنا التوراة والإنجيل كقوله تعالى: ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ ، [سورة المائدة : ٥] .

فذكر الكتاب بلفظ المفرد ، ومعلوم أنه أراد بالذين أوتوا الكتاب من قبلنا اليهود والنصارى لا يختص ذلك بالنصاري كما قال : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ﴾ ، وقد تبين بطلان قول هؤلاء الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويفسرون كلام الله ورسوله بما يعلم كل من عرف حاله من مؤمن وكافر أنه لم يرده . وبيّنّ أن الله لم يرد بالكتاب الإنجيل وحده ، كما لم يرد بالرسل الحواريّين ، بل أراد بالكتاب المنير ما أنزله الله من الكتب كالتوراة والإنجيل ، كما أراد بالرسل من أرسله الله مطلقاً كنوح وإبراهيم وموسى والمسيح بن مريم صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين .

فصل

قالوا وقال أيضاً : ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ ، [سورة يونس : ٩٤] ، فيقال لهم : من المعلوم بالاضطرار ، أنه ليس المراد بهذا النصارى فقط كما تقدم ، بل اليهود يقرءون الكتاب من قبلنا ، والنصارى يقرءون الكتاب من قبلنا . والكتاب اسم جنس كما تقدم نظائره فى قوله : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ﴾ ، وقوله : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب ﴾ : وقوله : ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ فى غير موضع وقوله ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴾ ، [سورة البينة : ١] .

وقوله تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم * إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨ — ٢٠] .

وقد قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا ﴾ ، [سورة النساء : ٤٧] .

وتناول لفظ أهل الكتاب هنا لليهود ، وأظهر من تناوله للنصارى لذكره لعنة أصحاب السبت وكذلك قوله تعالى : ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾ ، [سوره آل عمران: ٧٢] .فهذا خبر عن طائفة من اليهود قالوا ذلك وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد

إيمانكم كافرين ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٠٠] ، وسبب نزولها ، أراد طائفة من اليهود إلقاء الفتنة بين المسلمين. فهم داخلون قطعاً ، وإن كان الخطاب مطلقاً يتناول الطائفتين وأمره تعالى بسؤال الذين يقرؤن الكتاب من قبله على تقدير الشك ، لا يقتضى أن يكون الرسول شك ولا سأل ، إن قيل الخطاب له ، وإن قيل لغيره فهو أولى وأحرى .

فإن تعليق الحكم بالشرط ، لا يدل على تحقيق الشرط . بل قد يتعلق بشرط ممتنع لبيان حكمة . قال تعالى : ﴿ ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرِّياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هُدَى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لَحَبِطَ عنهم ما كانوا يعملون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٨٤ — ٨٨] . فأخبر أنهم لو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ، مع انتفاء الشرك عنهم بل مع امتناعه لأنهم قد ماتوا ، ولأن الأنبياء معصومون من الشرك . وقال تعالى : ﴿ قل أفغير الله تأمرونِّى أعبدُ أيها الجاهلون * ولقد أُوحِىَ إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشرَكْتَ ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ ، [سورة الزمر : ٦٤ — ٦٦] .

فهذا خطاب للجميع . وذكر هنا لفظ «إن» لأنه خطاب لموجود . وهناك خبر عن ميت وكذلك قوله : ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل ﴾ ، لا يدل على وقوع الشك ، ولا السؤال . بل النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن شاكا ولا سأل أحداً منهم . بل روى عنه أنه قال: « والله لا أشك ولا أسأل» ولكن المقصود بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون . كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ قل كفى بالله شهيداً بينى

وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ [سورة الرعد : ٤٣] .

وقال تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ، [سورة الأحقاف : ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ أوَلَمْ يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٩٧] .

وقال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يُتْلَى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ ، سورة القصص : ٥٢ ، ٥٣] . الآية وقال : ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتْلَى عليهم يخِرُّون للأذقان سجدا * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعْدُ ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ ، [سورة الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٩] .

وقال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ ، [سورة المائدة : ٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أُنزل إليك ﴾ ، [سورة النساء : ١٦٢] .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلاَّ رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٧] .

وقال تعالى : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفونه أبناءهم ﴾ ، [سورة الأنعام : ٢٠] .

فالمقصود : بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون وذلك من وجوه :

أحدها : أن الكتب المتقدمة تنطق بأن موسى وغيره دعوا إلى عبادة الله

وحده ونهوا عن الشرك فكان فى هذا حجة على من ظن أن الشرك دين .
ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ ، [سورة الزخرف : ٤٥] .

وقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٢٥] .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ، [سورة النحل : ٣٦] .

الوجه الثانى : أن أهل الكتاب يعلمون أن الله إنما أرسل إلى الناس بشراً مثلهم ، لم يرسل ملكا . فإن من الكفار من كان يزعم أن الله لا يرسل إلا ملكا أو بشراً معه ملك . ويتعجبون من إرسال بشر ليس معه ملك ظاهر كما قال تعالى : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا * قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ ، [سورة الإسراء : ٩٤ ، ٩٥] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين * إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشرا منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفى ضلال وسعر ﴾ الآية . [سورة القمر : ٢٣ ، ٢٤] وكذلك قال الذين من بعدهم : ﴿ ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون *

ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذاً لخاسرون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٣٣ ، ٣٤] . وكذلك قال فرعون لموسى وهرون: ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾ ، سورة المؤمنون : ٤٧] . وقال فرعون : ﴿ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين * فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ ، [سورة الزخرف : ٥٢ ، ٥٣] . وكذلك قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : ﴿ آلر تلك آيات الكتاب الحكيم * أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ ، [سورة يونس ١ ، ٢] .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٨ ، ٩] .

فبين سبحانه أنكم لا تطيقون التلقى عن الملك . فلو أنزلناه ملكا لجعلناه فى صورة بشر . وحينئذ كنتم تظنونه بشراً فيحصل اللبس عليكم . فأمر الله تعالى بسؤال أهل الكتاب عمن أرسل إليهم أكان بشراً أم كان ملكا ليقيم الحجة بذلك على من أنكر إرسال بشر ، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين * ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٧ — ٩] .

وأهل الذكر هم أهل الذكر الذى أنزله الله تعالى .

الوجه الثالث : أنهم يسألون أهل الكتاب عما جرى للرسل مع أممهم ، وكيف كان عاقبة المؤمنين بهم ، وعاقبة المكذبين لهم .

الوجه الرابع : يسألون أهل الكتاب عن الدين الذى بعث الله به رسله وهو دين الإسلام الذى اتفقت عليه الرسل ، كالأمر بالتوحيد ، والصدق ، والعدل ،

و بر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والنهى عن الشرك ، والظلم والفواحش .

الوجه الخامس : يسألونه عما وصفت به الرسل ربهم ، هل هو موافق لما وصفه به محمد أم لا ؟ وهذه الأمور المسئول عنها متواترة عند أهل الكتاب معلومة لهم ليست مما يشكون فيه ، وليس إذا كان مثل هذا معلوما لهم بالتواتر فيسألون عنه يجب أن يكون كل ما يقولونه معلوماً لهم بالتواتر . وأيضاً فإنهم يسألون أيضاً عما عندهم من الشهادات والبشارات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقد أخبر الله بذلك فى القرآن فقال تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ ، [سورة الصف : ٦] .

فقد أخبر عن عيسى أنه صدق بالرسول والكتاب الذى قبله وهو التوراة و بشر بالرسول الذى يأتى بعده وهو أحمد . قال تعالى : ﴿ ومن حيث خرجت فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولُّوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴾ إلى قوله : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم و إن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٤٤ — ١٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين * وإنه لفى

زبر الأولين * أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴾ ، [سورة الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٧] .

وقال تعالى عن من أثنى عليه من النصارى : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع بما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا ﴾ ، [سورة المائدة : ٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا * قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾ ، [سورة الإسراء : ١٠٥ ـ ١٠٨] .

وقال تعالى : ﴿ أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ﴾ ، [سورة الأنعام : ١١٤] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون * الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ، [سورة القصص : ٥١ ـ ٥٤] .

وقال تعالى فى سورة الأنعام آية ٢٠ : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ ، [سورة البقرة : ٨٩] .

والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد صلى الله عليه وسلم عندهم فى الكتب المتقدمة متواترة عنهم وكان قبل أن يبعث النبى صلى الله عليه وسلم تجرى حروب

وقتال بين العرب وبين أهل الكتاب فيقول أهل الكتاب : قد قرب مبعث هذا النبي الأمي الذي يبعث بدين إبراهيم ، فإذا ظهر اتبعناه ،وقتلناكم معه شر قتلة فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، كان منهم من آمن به ، ومنهم من كفر به فقال تعالى ﴿وكانوا من قبل يستفتحون﴾ أي يستنصرون بمحمد صلى الله عليه وسلم على الذين كفروا ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم في خطابه لأهل الكتاب يقول لهم «والله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله » وكذلك من أسلم منهم كعبد الله بن سلام وكان يقول لغيره من أهل الكتاب « والله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله » وهذا أمر معروف في الأحاديث الصحاح والمخرجة في الصحيحين وغيرها فظهر بما ذكرناه تحريف هؤلاء لكلام الله وأنه لا حجة لهم فيما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم نظائر ذلك .

فصل

قالوا : فثبت بهذا ما معنا نعم ، ونفى عن إنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا التهم والتبديل لها ، والتغيير لما فيها بتصديقه إياها : فيقال : كلامكم الذي تحتجون به في هذا الموضع وغيره ، إما أن يكون باطلا محضاً وإما أن يكون مما لبستم فيه الحق بالباطل ، فإن قولكم بتصديقه إياها ، إن أردتم أنه صدق التوراة والإنجيل والزبور التي أنزلها الله على أنبيائه ، فهذا لاريب فيه ، فإن هذا مذكور في القرآن في غير موضع وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بكل كتاب أنزله وبكل نبي من الأنبياء ، مع أخباره أنه أنزل هذه الكتب قبل القرآن وأنزل القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه .

قال تعالى : ﴿ الم * الله لا إله إلا هو الحي القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل

الفرقان ﴾ ، [سورة آل عمران : ١ — ٤] .

وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ﴾ ، [سورة النساء : ٤٧] .

وقال تعالى : ﴿ آلم * الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ﴾ الآية. وقال : ﴿والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ ، [سورة فاطر : ٣١] . وقال : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٠١]. وقال: ﴿ آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم ﴾ ، [سورة النساء: ٤٧].

وقد أوجب على عباده أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله ، وحكم بكفر من آمن ببعض وكفر ببعض ، فقال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦ ، ١٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٨٥].

وقال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا * والذين آمنوا

بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٠ — ١٥٢] .

فذم المفرق بينهم بأن يؤمن ببعض دون بعض وبين أنه فضل بعضهم على بعض ، فقال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٣] . فبين أنه فضل بعضهم على بعض ، وقال تعالى : ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ ، [سورة الإسراء : ٥٥] .

وقد اتفق المسلمون على ما هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام وهو أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين وبجميع ما أنزل الله من الكتب ، فمن كفر بنبي واحد تعلم نبوته مثل إبراهيم ولوط وموسى وداود وسليمان ويونس وعيسى فهو كافر عند جميع المسلمين حكمه حكم الكفار ، وإن كان مرتداً استتيب فإن تاب وإلا قتل . ومن سب نبيا واحداً من الأنبياء قتل أيضا باتفاق المسلمين وما علم المسلمون أن نبيا من الأنبياء أخبر به فعليهم التصديق به كما يصدقون بما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أن أخبار الأنبياء لا تتناقض ولا تختلف ، وما لم يعلموا أن النبي أخبر به فهو كما لم يعلموا أن محمداً أخبر به صلى الله عليه وسلم عليهم أجمعين ولكن يكذبون إلا بما علموا أنه كذب كما لا يجوز أن يصدقوا إلا بما علموا أنه صدق ، وما لم يعلموا أنه كذب ولا صدق لم يصدقوا به ولم يكذبوا به كما أمرهم نبيهم محمد عليه السلام، وبهذا أمرهم المسيح عليه السلام فقال : « الأمور ثلاثة أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اشتبه عليكم فكلوه إلى عالمه » .

فصل

وإن أرادوا بتصديقه كتبهم أنه صدق ما هم عليه من العقائد والشرائع التي ابتدعوها بغير إذن من الله وخالفوا بها ما تقدمه مع شرائع المسلمين أو خالفوا بها الشرع الذي بعث به مثل القول بالتثليث والأقانيم، والقول بالحلول والاتحاد

بين اللاهوت والناسوت ، وقولهم إن المسيح هو الله وابن الله وماهم عليه من إنكار ما يجب الإيمان به من الإيمان بالله واليوم الآخر ومن تحليل ماحرمه الله ورسله كالخنزير وغيره ، و بين أنهم لايدينون بدين الحق الذى أنزل به كتابه وأرسل به رسوله بل بدين مبتدع ابتدعه لهم أكابرهم كما قال تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم﴾ [سورة التوبة : ٣١] . وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لعدى بن حاتم وكان نصرانياً لما جاءه ليؤمن به وقد آمن به عدى وكان من خيار الصحابة فسمعه يقرأ هذه الآية : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ ، قال عدى : قلت يا رسول الله ماعبدوهم قال : « إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال » فكانت تلك عبادتهم إياهم . فإن أرادوا بتصديقهم كتبهم فى هذه الأمور أو أن محمداً صلى الله عليه وسلم صدق ما عندهم مما لم يأت به الأنبياء عن الله فقد كذبوا على محمد صلى الله عليه وسلم كذبا ظاهراً معلوماً بالاضطرار من دينه و إنما صدق ماجاءت به الأنبياء قبله .

وأما ما أحدثوه وابتدعوه فلم يصدقه كما أنه لم يشرع لهم أن يستمروا على ما هم عليه من الشرع الأول ولو لم يكن مبدلا بل دعاهم وجميع الإنس والجن إلى الإيمان به وبما جاء به واتباع ما بعث به من الكتاب والحكمة ، وحكم بكفر كل من لم يتبع كتابه المنزل عليه ، وأوجب مع خلودهم فى عذاب الآخرة جهادهم فى الدنيا حتى يكون الدين كله لله وحتى تكون كلمة الله هى العليا وقد دعا أهل الكتاب من اليهود والنصارى عموماً ثم كلا من الطائفتين خصوصاً فى غير موضع مع دعائه الناس كلهم أهل الكتاب وغيرهم كقوله تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون و يؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً

عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون * قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٦ ـ ١٥٨] .

وقال تعالى يخاطب النصارى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيراً ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١ — ١٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٢] . فى موضعين .

وقال تعالى : ﴿ ومن الذين قالوا : إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ ، [سورة المائدة : ١٤] .

أخبر سبحانه أن النصارى تركوا حظا مما ذكرهم به . وبسبب ذلك أغرى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . فعلم أنه سبحانه بين أنهم تركوا بعض

ما جاء به المسيح ومن قبله من الأنبياء ، واستحقوا لذلك أن يغرى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة .

وقال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٧] .

فنهاهم عن الغلو فى دينهم وعن اتباع أهواء الذين ابتدعوا بدعا غيروا بها شرع المسيح ، فضلوا من قبل هؤلاء الاتباع وأضلوا كثيراً من هؤلاء الأتباع وغيرهم ، وضلوا عن سواء السبيل وهو وسط السبيل بين الضلال وقيده بعد أن أطلقه وأجمله .

وقال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] .

وقد خرج النبى صلى الله عليه وسلم لقتالهم بنفسه عام تبوك واستنفر لقتالهم جميع المؤمنين ولم يأذن لأحد من القادرين على الغزو فى التخلف . ومن تخلف لأنه لم ير قتالهم واجباً كان كافراً ، وإن أظهر الإسلام كان منافقاً ملعوناً ، بين الله أنه لا يغفر لهم ونهى نبيه عن الصلاة عليهم وأنزل فى ذلك جمهور سورة براءة بالنقل المتواتر حتى بين كفر الذين استأذنوه فى ترك الخروج معه لقتال النصارى . فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير * إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى

وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم * انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصدا لا اتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون * عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين * لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون * ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين * لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ ، [سورة التوبة : ٣٨-٤٨].

فصل

فتبين أن قولهم : فثبت بهذا ما معناه نعم ونفى عن إنجيلنا وكتبنا التى فى أيدينا التهم والتبديل لها والتغيير لما فيها بتصديقه إياها .

إن أراد به أنه ثبت ما جاءت به الأنبياء قبله عن الله ، فهذا حق .

وإن أرادوا أنه ثبت ماهم عليه بعد مبعثه من الشرع الذى خالف شرعه أو ما ابتدعوه مما لم يأت به الأنبياء عليهم السلام قبله فهذا باطل .

وإن أرادوا أنه صدق ألفاظ الكتب التى بأيدينا. أى التوراة ، والإنجيل فهذا مما يسلمه لهم بعض المسلمين ، وينازعهم فيه أكثر المسلمين ، وإن كان أكثر ذلك مما يسلمه أكثر المسلمين .

فأما تحريف معانى الكتب بالتفسير ، والتأويل ، وتبديل أحكامها فجميع المسلمين ، واليهود ، والنصارى يشهدون عليهم بتحريفها وتبديلها ، كما يشهدون

هم والمسلمون على اليهود ، بتحريف كثير من معانى التوراة ، وتبديل أحكامها، وإن كانوا هم واليهود ، يقولون : إن التوراة لم تحرف ألفاظها .

وحينئذ فلا ينفعهم بقاء حروف الكتب عندهم مع تحريف معانيها . إلا كما ينفع اليهود بقاء حروف التوراة والنبوات عندهم مع تحريف معانيها ، بل جميع النبوات التى يقرون بها هى عند اليهود ، وهم مع اليهود ينفون عنها التهم والتبديل لألفاظها ، مع أن اليهود عندهم من أعظم الخلق كفراً ، واستحقاقا لعذاب الله فى الدنيا والآخرة ، وهم عند النصارى الذين يكفرون المسلمين أكثر من هؤلاء وشر منهم . فإن النصارى متفقون على أن المسلمين خير من اليهود ، وكذلك اليهود متفقون على أن المسلمين خير من النصارى . بل جميع الأمم المخالفين للمسلمين يشهدون أن المسلمين خير من سائر الطوائف إلا أنفسهم، وشهادتهم لأنفسهم لا تقبل فصار هذا اتفاق أهل الأرض على تفضيل دين الإسلام .

فعلم أن بقاء حروف الكتاب مع الإعراض عن اتباع معانيها ، وتحريفها لا يوجب إيمان أصحابها ولا يمنع كفرهم .

وحينئذ فليس شهادة محمد صلى الله عليه وسلم وأمته للمسيح عليه السلام ، ولما أنزل عليه من الإنجيل فى تثبيت ما عند النصارى بأعظم من شهادة المسيح عليه السلام ، والحواريين ، وبسائر من اتبعه لموسى ولما أنزل عليه من التوراة فى تثبيت ما عند اليهود ، فإن المسيح أمر أتباعه باتباع التوراة إلا القدر اليسير الذى نسخه منها .

وأما محمد صلى الله عليه وسلم فَبُعِثَ بكتاب مستقل ، وشرع مستقل كامل تام لم يحتج معه إلى شرع سابق تتعلمه أمته من غيره ، ولا إلى شرع لاحق يكمل شرعه ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « إنه قد كان فى الأمم قبلكم محدَّثون فإن يكن فى أمتى أحد فعمر » فجزم بأن من

كان قبله كان فيهم محدثون وعلق الأمر فى أمته ، وإن كان هذا المعلق قد تحقق لأن أمته ، لا تحتاج بعده إلى نبى آخر ، فلأن لا تحتاج معه إلى محدث ملهم أولى وأحرى .

وأما من كان قبله فإنهم كانو يحتاجون إلى نبى بعد نبى فأمكن حاجتهم إلى المحدثين الملهمين ولهذا إذا أنزل المسيح بن مريم فى أمته لم يحكم فيهم إلا بشرع محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان مع هذا فشهادة المسيح والحواريين وكل من آمن بالمسيح للتوراة بأنها حق ، ولموسى بأنه رسول لا يمنع كفر اليهود لكونهم بدلوا شرع التوراة ، وكذبوا بالمسيح وبالإنجيل .

فكيف تكون شهادة محمد وأمته للإنجيل بأنه منزل من عند الله ، وللمسيح بأنه رسول الله مانعة من كفر النصارى مع تبديلهم شرع الإنجيل وتكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وشرع القرآن ؟ !

وأما إيمان من يؤمن منهم بأن محمداً رسول الله إلى العرب أو بكثير مما جاء به القرآن . فلا يمنع كفرهم إذا كفروا ببعض ما جاء به ، بل من كذب بشىء مما جاءت به الرسل عن الله فهو كافر . وإن آمن بأكثر ما جاءت به الرسل كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٠] .

وقال تعالى : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴾ : [سورة البقرة : ٨٥] .

وقد صرح بكفر النصارى فى غير موضع وأمر بجهادهم وقتالهم وحكم بكفر من لا يوجب جهادهم وقتالهم أو لا يرى ذلك عبادة لله وطاعة له كما تقدم

التنبيه على ذلك فإذا كان من لا يرى جهادهم عبادة لله ، كافراً عند محمد صلى الله عليه وسلم فكيف حالهم هم عنده صلى الله عليه وسلم ؟ !

فصل

وإذا تبين للخاصة والعامة ممن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ومن كفر به أنه كان مصدقا لما بين يديه من الكتب ، والأنبياء مصدقا للتوراة والإنجيل شاهدا بأن موسى عليه السلام ، ومن كان متبعا له على الحق . وأن المسيح عليه السلام ومن اتبعه على الحق ، وإن كان يكفر جميع اليهود ، والنصارى ، وغيرهم ممن بلغته رسالته ، ولم يؤمن به ، وشهد عليهم بأنهم حرفوا كثيرا من معانى التوراة والإنجيل قبل نبوته . وأن أهل الكتاب كلهم من المسلمين يشهدون أيضاً بأن كثيرا من معانى التوراة ، والإنجيل حرفها كثير من أهل الكتاب ، لم يجز لأحد من أهل الكتاب أن يحتج بقول محمد صلى الله عليه وسلم على صحة دينهم الذى شهد محمد صلى الله عليه وسلم بأنه باطل مبدل منسوخ وأهله من أهل النار كما تقدم بسطه .

وإذا قالوا : نحن نذكر ذلك لنبين تناقضه حيث صدقها ، وهى تناقض بعض ما أخبر به أو لنبين أن ما أخبرت به الأنبياء قبله يناقض خبره فيكون ذلك قدحا فيما جاء به .

أجاب المسلمون عن هذا بعدة طرق .

أحدها أن يقولوا : أما مناقضة بعض خبره لبعض كما يزعمه هؤلاء من أن كتابه يمدح أهل الكتاب مرة ويذمهم أخرى وأنه يصدق الكتب المنزلة تارة ، ويذمها أخرى . فهذا قد ظهر بطلانه .

فإنه إنما مدح من اتبع موسى ، والمسيح على الدين الذى لم يبدل ولم ينسخ. وأما من اتبع الدين المبدل المنسوخ فقد كفره .

فأما دعواهم مناقضة خبره لخبر غيره فيقال: هو مصدق للأنبياء فيما أخبروا به.

وأما ما يدل من ألفاظهم أو غيرها بالترجمة أو فسر بغير مرادهم فلم يصدقه.
ويقال أيضاً: إن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثبتت بمثل ما ثبتت به نبوات الأنبياء قبله و بأعظم من ذلك ، كما قد بسط فى موضع آخر ، وبين أن التكذيب بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مع التصديق بنبوة غيره فمن غاية التناقض والفساد ، وأنه ما من طريق يعلم بها نبوة غيره إلا ونبوته تعلم بمثل تلك الطريق ، وبأعظم منها . فلو لم تكن نبوته بطريق نبوتها إلا مثل نبوة غيره وطريق نبواتها لوجب التصديق بنبوته كما وجب التصديق بنبوة غيره ، ولكان تكذيبه كتكذيب إبراهيم وموسى وغيرهما من الرسل . فكيف إذا كان أعظم من وجوه متعددة .

وحينئذ فالأنبياء كلهم صادقون مصدقون معصومون فيما يخبرون عن الله لا يجوز أن يثبت فى خبرهم عن الله خبر باطل ، لا عمداً ولا خطأ ، فلا يجوز أن يخبر أحدهم بخلاف ما أخبر به غيره ، بل ولا يفترقون فى الدين الجامع كما قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ، [سورة الشورى : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٥١-٥٣].

وإنما يقع النسخ فى بعض الشرائع كما يقع النسخ فى شريعة الرسول الواحد وحينئذ فيعلم أن كل ما ينقل عن الأنبياء المتقدمين مما يناقض ما علم من أخبار محمد صلى الله عليه وسلم فهو باطل . سواء كان اللفظ نفسه باطلا لم يقله ذلك النبى أو قد قال لفظاً وغلط المترجمون له من لغة إلى لغة ، أو كان اللفظ وترجمته صحيحين لكن وقع الغلط فى معرفة مراد ذلك النبى بذلك الكلام .

فإن كل مايحتج به من الألفاظ المنقولة عن الأنبياء أنبياء بنى إسرائيل وغيرهم ممن أرسل بغير اللغة العربية لا بد فى الاحتجاج بألفاظه من هذه المقدمات أن يعلم اللفظ الذى قاله و يعلم ترجمته و يعلم مراده بذلك اللفظ .

والمسلمون وأهل الكتاب متفقون على وقع الغلط فى تفسير بعض الألفاظ و بيان مراد الأنبياء بها وفى ترجمة بعضها فإنك تجد بالتوراة عدة نسخ مترجمة و بينها فروق يختلف بها المعنى المفهوم وكذلك فى الإنجيل وغيره فهذا الطريق فى الجواب طريق عام لكل من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وشهد أنه رسول الله باطنا وظاهراً يخاطب به كل يهودى ونصرانى على وجه الأرض . وإن لم يكن عارفا بما عند أهل الكتاب فإنه لا يقدر أحد من أهل الأرض أن يقيم دليلا صحيحا على نبوة موسى وعيسى وبطلان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا ممتنع لذاته . بل ولا يمكنه أن يقيم دليلا صحيحاً على نبوة أحدهما إلا وإقامة مثل ذلك الدليل أو أعظم منه على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أولى . وحينئذ فلا يمكن أحداً من أهل الكتاب أن يحتج بشىء من المنقولات عن الأنبياء المخالفة لما ثبت عن محمد صلى الله عليه وسلم ، سواء أقر بنبوته أو أنكرها ، بل إن احتج بشىء مما نقل عن محمد صلى الله عليه وسلم بين له بطلان احتجاجه به وأنه حجة عليه ، لا له .

و إن احتج بشىء من المنقول عن غيره من الأنبياء عليهم السلام طولب بتقدير نبوة ذلك النبى مع تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم . وإلا فبتقدير أن ينقل عن اثنين ادعيا النبوة وأتيا بالآيات التى تثبت بها النبوات خبران متناقضان لا يجوز تصديق هذا وتكذيب ذاك إن لم يتبين مايدل على صدق هذا وكذب هذا ، وكذلك إذا عورض أحدهما بجنس ما يعارض الآخر .

وهذا لا يرِدُ على المسلمين إذا ردوا مايحتج به أهل الكتاب مما ينقلونه عن الأنبياء مخالفا لخبر محمد صلى الله عليه وسلم .

فإن المسلمين لا يطعنون فى نبوة أحد من الأنبياء المعروفين ، وإنما يطعنون فى أنهم أخبروا بما يخالف خبر محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن ذلك لايثبت . أى لم يثبت اللفظ والترجمة ، وتفسير اللفظ . وهذه المقدمات تمتنع أن تقوم على شيء يخالف خبر محمد صلى الله عليه وسلم لاجملة ولا تفصيلا .

فأهل الكتاب يطالبون فيما يعارضون به بثلاث مقدمات .

أحدها : تقدير أن أولئك صادقون ، ومحمد صلى الله عليه وسلم كاذب .

والثانى : ثبوت ما أتوا به لفظاً .

والثالث : بمعرفة المراد باللفظ ترجمة وتفسيراً . وإن قال الكتابى للمسلم : أنت توافقنى على نبوة هؤلاء المتقدمين . أجابه المسلم بوجوه :

منها أن يقول : إنى لم أوافقك على نبوة واحد منهم مع التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم ، بل دين المسلمين كلهم ، أنه من آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض فهو كافر، فكيف بمن كفر بمن هو عند المسلمين أفضل الأنبياء وخاتمهم بل قد يقول له أكثر المسلمين : نحن لم نعلم نبوة أولئك إلا بإخبار محمد ، أنهم أنبياء . فلو قدحنا فى الأصل الذى قد علمنا به نبوتهم لزم القدح فى نبوتهم ،والفرع إذا قدح فى أصله دل على فساده فى نفسه ، سواء قدر أصله صحيحاً أو فاسداً . فإنه إن كان أصله فاسداً فسد هو ، وإن كان أصله صحيحاً وهو يناقضه بطل هو ، فهو إذا ناقض أصله باطل على كل تقدير ، وكذلك إذا قال له الكتابى : قد اتفقنا على تصديق موسى والتوراة ، أو المسيح والإنجيل : قال له المسلم : إنما وافقتك على تصديق موسى وعيسى اللذين بشرا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، كما أخبرنا به محمد صلى الله عليه وسلم عن الله حيث قال الله تعالى: ﴿ورحمتى وَسِعَتْ كلَّ شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾ الآية ، [سورة الأعراف : ١٥٦، ١٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدىَّ من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد﴾ [سورة الصف : ٦] . إلى أمثال ذلك .

فأما الإيمان بموسى ، الذى ذكر أن شريعته مؤيدة لاينسخ منها شىء ، أو بمسيح ادعى أنه الله أو أن الله اتحد به أو حلَّ فيه ، ونحو ذلك مما يدعيه أهل الكتاب فى الرسولين ، والكتابين ، ويخالفهم فيه المسلمون ، فهذا من موارد النزاع ، لا من مواقع الإجماع ، فليس لأحد من أهل الكتاب أن يحتج على أحد من المسلمين بموافقته له على ذلك ، ومن تمام ذلك أن يقول المسلم : نعم أنا أقر بنبوة موسى والمسيح ، وإن التوراة والإنجيل كلام الله ، لكن يمتنع عقلا الإقرار بنبوة واحد من هؤلاء ، دون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن البراهين ، والآيات ، والأدلة الدالة على صدق موسى والمسيح تدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الأولى ، فلو انتقضت تلك الأدلة لزم فسادها ، وأن لا أصدق بأحد من الأنبياء ، وإن كانت حقاً لزم تصديقهم كلهم فلزم ، إما أن أصدقهم كلهم ، وإما أن أكذبهم كلهم ، ولهذا كان من آمن ببعض ، وكذب ببعض كافراً ، ومن الأجوبة للمسلمين أن يقولوا : نحن نصدق الأنبياء المتقدمين فى كل ما أخبروا به لكن من نقل عنهم أنهم أخبروا بما يناقض خبر محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا بد له من مقدمتين ، ثبوت ذلك اللفظ عن الأنبياء ، والعلم بمعناه الذى يعلم أنه مناقض للمعنى الذى علم أن محمداً صلى الله عليه وسلم عناه ، ثم العلم باللفظ يحتاج مع الخطاب بغير ألسن الأنبياء العربية سواء كانت عربية ، أو رومية ، أو سريانية ، أو قبطية ، إلى أن يعرف أن هذا اللفظ الذى ترجم به لفظه مطابق للفظه ، ويمتنع ثبوت المقدمتين ، لأن فى ثبوتهما تناقض الأدلة العلمية ، والأدلة العلمية لا تتناقض .

الطريق الثانى : أن يقول المسلمون : ما تذكرونه من المنقول عن الأنبياء،

مناقضة لما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم أمور لم تعلم صحتها ، ولا يجوز اعتقاد ثبوتها ، والجزم بها ، ولو لم يعلم أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، أخبر بخلافها فكيف إذا علم أنه أخبر بخلافها ؟ وذلك أن العلم بثبوتها مبنى على مقدمات :

أحدها : العلم بثبوتها وهذا ممتنع مع تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم .

والثانية : أنهم قالوا : هذه الألفاظ ، وهذا يحتاج إلى إثبات تواتر هذه الألفاظ عن الأنبياء ، ولم يثبت أنها تواترت عنهم .

والثالثة : أن معناها ، هو المعنى المناقض لخبر محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يعلم ذلك .

وكل واحدة من هذه المقدمات يمنع العلم بثبوت هذه المعانى المناقضة لخبر محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف إذا اجتمعت ؟ وهى تمنع العلم بصحتها ،ولو لم تناقض خبر محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف إذا ناقضته ؟

الطريق الثالث:طريق من يتبين أن ألفاظ هذه الكتب لم تتواتر ، ويثبتون ذلك بانقطاع تواتر التوراة ، وبسط الأمر ، لما خرب بيت المقدس ، وانقطاع تواتر الإنجيل فى أول الأمر .

الطريق الرابع : طريق من يبين أن بعض ألفاظ الكتب حرفت ، ويقيم الأدلة الشرعية ، والعقلية على تبديل بعض ألفاظها .

الطريق الخامس : أن يبين أن الألفاظ التى بأيديهم لا تناقض ما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم ، بل تدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، ويتكلم على تفسير تلك الألفاظ بأعيانها .

وهذه الطرق يسلكها من لا ينازع فى ثبوت الألفاظ من المسلمين .

وأما الجمهور الذين يقولون بتبديل هذه الألفاظ فيسلكون هذه الطرق ، ويسلكون أيضاً بيان عدم تواتر الألفاظ ، بل بيان التبديل فى ألفاظها .

فصل

ومن حجة الجمهور الذين يمنعون أن تكون جميع ألفاظ هذه الكتب المتقدمة الموجودة عند أهل الكتاب منزلة من عند الله ، لم يقع فيها تبديل ، ويقولون : إنه وقع التبديل فى بعض ألفاظها ، أو يقولون: إنه لم يعلم أن ألفاظها منزلة من عند الله ، فلا يجوز أن يحتج بما فيها من الألفاظ فى معارضة ما علم ثبوته ، أنهم قالوا : التوراة والإنجيل الموجودة اليوم بيد أهل الكتاب لم تتواتر عن موسى ، وعيسى عليهما السلام ، أما التوراة فإن نقلها انقطع لما خرب بيت المقدس أولا ، وأجلى منه بنوا إسرائيل ، ثم ذكروا أن الذى أملاها عليهم بعد ذلك شخص واحد يقال له عازر ، وزعموا أنه نبي .

ومن الناس من يقول:إنه لم يكن نبياً، وإنهاقوبلت بنسخة،وجدوها عتيقة .

وقيل : إنه أحضرت نسخة كانت بالمغرب ، وهذا كله لا يوجب تواتر جميع ألفاظها ، ولا يمنع وقوع الغلط فى بعضها كما يجرى مثل ذلك فى الكتب التى يلى نسخها ومقابلتها ، وحفظها القليل . الاثنان والثلاثة .

وأما الإنجيل الذى بأيديهم فإنهم معترفون بأنه لم يكتبه المسيح عليه السلام ولا أملاه على من كتبه ، وإنما أملاه بعد رفع المسيح « متى » و « يوحنا » وكانا قد صحبا المسيح ، ولم يحفظه خلق كثير يبلغون عدد التواتر ، ومرقس ، ولوقا ، وهما لم يريا المسيح عليه السلام ، وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح ، وبعض أخباره ، وأنهم لم يستوعبوا ذكر أقواله ، وأفعاله .

ونقل اثنين ، وثلاثة ، وأربعة يجوز عليهم الغلط ، لا سيما ، وقد غلطوا فى المسيح نفسه حتى اشتبه عليهم بالمصلوب ، ولكن النصارى يزعمون أن الحواريين رسل الله مثل عيسى ابن مريم ، وموسى عليهما السلام ، وأنهم معصومون ، وأنهم سلموا إليهم التوراة والإنجيل ، وأن لهم معجزات ، وقالوا لم هذه التوراة ، وهذا الإنجيل ، ويقرون مع هذا بأنهم ليسوا بأنبياء ، فإذا لم

يكونوا أنبياء ، فمن ليس بنبي ليس بمعصوم من الخطأ ، ولو كان من أعظم أولياء الله ، ولو كان له خوارق عادات. فأبو بكر ، وعمر ، وعثمان، وعلى ، وغيرهم من أفاضل الصحابة عند المسلمين أفضل من الحواريين ، ولا معصوم عندهم إلا من كان نبياً ، ودعوى أنهم رسل الله مع كونهم ليسوا بأنبياء تناقض ، وكونهم رسل الله هو مبنى على كون المسيح هو الله ، فإنهم رسل المسيح ، وهذا الأصل باطل ولكن فى طرق المناظرة ، والمجادلة بالتى هى أحسن فنمنعهم فى هذا المقام ونطالبهم بالدليل على أنهم رسل الله ، وليس لهم على ذلك دليل فإنه لا يثبت أنهم رسل الله إن لم يثبت أن المسيح هو الله . وإثباتهم أن المسيح هو الله إما أن يكون بالعقل أو بالسمع . والعقل لا يثبت ذلك ، بل يحيله وهم لا يدعون ثبوت ذلك بالعقل .

بل غاية مايدعون إثبات إمكانه بالعقل لا إثبات وجوده مع أن ذلك أيضاً باطل وإنما يدعون ثبوت وجوده بالسمع ، وهو ماينقلونه عن الأنبياء من ألفاظ يدعون ثبوتها عن الأنبياء ، ودلالتها على أن المسيح هو الله كسائر من يحتج بالحجة السمعية . فإن عامة بيان صحة الإسناد دون بيان دلالة المتن . وكلا المقدمتين باطلة .

ولكن يقال لهم فى هذا المقام : أنتم لا يمكنكم إثبات كون المسيح هو الله إلا بهذه الكتب ، ولا يمكنكم تصحيح هذه الكتب إلا بإثبات أن الحواريين رسل الله معصومون ، ولا يمكنهم إثبات أنهم رسل الله إلا بإثبات أن المسيح هو الله ، فصار ذلك دوراً ممتنعاً .

فإنه لا تعلم إلهية المسيح إلا بثبوت هذه الكتب ، ولا تثبت هذه الكتب إلا بثبوت أنهم رسل الله ، ولا يثبت ذلك إلا بثبوت أنه الله ، فصار ثبوت الإلهية متوقفاً على ثبوت إلهيته ، وثبوت كونهم رسل الله متوقفاً على كونهم رسل الله ، فصار ذلك دوراً ممتنعاً .

وقد يدعون عصمة الحواريين ، وعصمة أهل الجامع بعد الحواريين، كأهل المجمع الأول الذى كان بحضرة قسطنطين الذى حضره ثلاثمائة وثمانية عشر ، ووضعوا لهم الأمانة التى هى عقيدة النصارى ، التى لا يصح لهم قربان إلا بها ، فيزعمون أن الحواريين أو هؤلاء جرت على أيديهم خوارق ، وقد يذكرون أن منهم من جرى إحياء الميت على يديه ، وهذا إذا كان صحيحاً — مع أن صاحبه لم يذكر أنه نبى — لا يدل على عصمته

فإن أولياء الله من الصحابة ، والتابعين بعدهم بإحسان وسائر أولياء الله من هذه الأمة وغيرها لهم من خوارق العادات مايطول وصفه ، وليس فيهم معصوم، يجب قبول كل ما يقول ، بل يجوز الغلط على كل واحد منهم ، وكل أحد يؤخذ من قوله ، ويترك إلا الأنبياء عليهم السلام .

ولهذا أوجب الله الإيمان بكل ما أوتيه الأنبياء ، ولم يجب الإيمان بكل ما يقوله كل ولى لله .

قال تعالى: ﴿ قولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم﴾ [سورة البقرة : ١٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ ، [سورة البقرة : ١٧٧] .

ولهذا وجب الإيمان بالأنبياء جميعهم وما أوتوه كلهم .

ومن كذب نبياً واحداً تعلم نبوته ، فهو كافر باتفاق المسلمين ، ومن سبه وجب قتله كذلك . بخلاف من ليس بنبى فإنه لا يكفر أحد بمخالفته ،ولا يقتل بمجرد سبه ، إلا أن يقترن بالسب ما يكون مبيحاً للدم ، والذى عليه سلف الأمة كالصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الدين ، وجماهير المسلمين ، أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر وليس بعد الأنبياء أفضل منهما ، وهذه الأمة أفضل

الأمم ، وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : قد كان قبلكم فى الأمم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد فعمر ، والمحدث الملهم : المخاطب.

وكان عمر قد جعل الله الحق على قلبه ولسانه ، وما كان يقول لشىء : إنى لأراه كذا وكذا ، إلا كان كما يقول ، وكانت السكينة تنطق على لسانه ، ومع هذا فلم يكن لا هو ولا غيره ممن ليس بنبى معصوماً من الغلط ، ولا يجب على المسلم قبول ما يقوله إن لم يدل عليه الكتاب والسنة ، ولا كان يجوز له العمل بما يلقى فى قلبه إن لم يعرضه على الكتاب والسنة ، فإن وافق ذلك قبله ، وإن خالف ذلك رده .

وعند المسلمين أنه ليس فى أتباع المسيح عليه السلام مثل أبى بكر وعمر رضوان الله عليهما فإذا قالوا عن الحواريين : إنهم ليسوا معصومين ، فهم يقولون ذلك فيمن هو عندهم أفضل من الحواريين ، كما أنهم إذا قالوا عن المسيح : إنه عبد مخلوق ليس بإله - فهم يقولون ذلك فيمن هو عندهم أفضل من المسيح كمحمد وإبراهيم عليهما أفضل الصلاة والسلام .

وفى الملاحدة المنتسبين إلى الأمة من فيه بدع من الغلو يشبه غلو النصارى من يد الإلهية من الإسماعيلية كبنى عبيد القداح ، كالحاكم وغيره ، أو من يدعى الإلهية فى على بن أبى طالب أو غيره كدعوى النصيرية ، وهؤلاء كفار عند المسلمين .

وكذلك من يدعى الإلهية فى بعض المشايخ ، كغلاة العدوية ، والحلاجية ، واليونسية ، وغيرهم ، وكذلك من يدعى عصمة بنى عبيد أو عصمة الإثنى عشر أو عصمة بعض المشايخ .

فإن النصارى يدعون عصمة الحواريين الإثنى عشر ، وهؤلاء يدعون عصمة الأئمة الإثنى عشر .

وهؤلاء يسندون أصل دينهم إلى قول الحواريين المعصومين عندهم ويقولون

إنهم معصومون فى النقل عن المسيح وفى الفتيا ، وإن ما قالوه فقد قاله المسيح عليه أفضل الصلاة والسلام .

وهؤلاء يقولون عن أولئك : إنهم معصومون فى النقل والفتيا ، وإن ماقالوه فقد قاله الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهذا مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا أنه ليس مع النصارى نقل متواتر عن المسيح بألفاظ هذه الأناجيل ولا نقل متواتر ولا آحاد ، بأكثر ماهم عليه من الشرائع . ولاعندهم ولا عند اليهود نقل متواتر بألفاظ التوراة ونبوات الأنبياء كما عند المسلمين نقل متواتر بالقرآن ، وبالشرائع الظاهرة المعروفة للعامة والخاصة ، وهذا مثل الأمانة التى هى أصل دينهم ، وصلاتهم إلى المشرق ، وإحلال الخنزير ، وترك الختان ، وتعظيم الصليب، واتخاذ الصور فى الكنائس، وغير ذلك من شرائعهم ، ليست منقولة عن المسيح ولا لها ذكر فى الأناجيل التى ينقلونها عنه . وهم متفقون على أن الأمانة التى جعلوها أصل دينهم وأساس اعتقادهم ، ليست ألفاظها موجودة فى الأناجيل ولا هى مأثورة عن الحواريين ، وهم متفقون على أن الذين وضعوها أهل المجمع الأول الذين كانوا عند قسطنطين الذى حضره ثلاثمائة وثمان عشر ، وخالفوا عبد الله بن أريوس الذى جعل المسيح عبد الله كما يقوله المسلمون ، ووضعوا هذه الأمانة .

وهذا المجمع كان بعد المسيح بمدة طويلة تزيد على ثلاثمائة سنة ، و بسطه له موضع آخر ، وإنما المقصود هنا الجواب عن قولهم : إن محمداً صلى الله عليه وسلم ثبت ما معهم ، وإنه نفى عن إنجيلهم ، وكتبهم التى بأيديهم التهم ، والتبديل لها ، والتغيير لما فيها بتصديقه إياها .

وقد تبين أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، لم يصدق شيئاً من دينهم المبدل ، والمنسوخ ، ولكن صدق الأنبياء قبله وما جاءوا به ، وأثنى على من اتبعهم لا على من خالفهم أو كذب نبياً من الأنبياء . وإن كفر النصارى من جنس

كفر اليهود ، فإن اليهود بدلوا معانى الكتاب الأول ، وكذبوا بالكتاب الثانى ، وهو الإنجيل ، وكذلك النصاري بدلوا معانى الكتاب الأول التوراة ، والإنجيل ، وكذبوا بالكتاب الثانى، وهو القرآن ،وأنهم ادعوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم صدق بجميع ألفاظ الكتب التى عندهم .

فجمهور المسلمين يمنعون هذا ويقولون : إن بعض ألفاظها بدل كما قد بدل كثير من معانيها ومن المسلمين من يقول : التبديل إنما وقع فى معانيها لا فى ألفاظها ، وهذا القول يقربه عامة اليهود والنصارى .

وعلى القولين فلا حجة لهم فى تصديق محمد صلى الله عليه وسلم لماهم عليه من الدين الباطل ، فإن الكتب الإلهية التى بأيديهم لا تدل على صحة ما كفرهم به محمد صلى الله عليه وسلم وأمته . مثل التثليث ، والاتحاد ، والحلول ، وتغيير شريعة المسيح ، وتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم ، فليس فى الكتب التى بأيديهم ما يدل لا نصاً ولا ظاهرا ، على الأمانة التى هى أصل دينهم ، وما فى ذلك من التثليث ، والاتحاد ، والحلول ، ولا فيها يدل على أكثر شرائعهم كالصلاة إلى المشرق واستحلال المحرمات من الخنزير والميتة ونحو ذلك ، كما قد بسط فى موضع آخر[1] .

ويقال لهم : أين ما معكم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، مما يدل على أن ألفاظ الكتب التى بأيديكم لم يغير منها شىء ؟ ومعلوم أن المسلمين ، وغيرهم إذا اختلفوا لم يكن قول فريق حجة على الفريق الآخر .

فإذا كان المسلمون قد اختلفوا فى تبديل بعض ألفاظ الكتب الإلهية المتقدمة لم يكن قول فريق حجة على الأخرى ، ولا يجوز لأحد من المسلمين ، ولا منكم أن يضيف إلى الرسول قولا إلا بدليل .

---

(١) وسيأتى ما بدلوه من الشرائع وغيرها بنقل علمائهم فى آخر هذا الكتاب .

فأين فى القرآن والسنة الثابتة عن محمد صلى الله عليه وسلم أن جميع ما بأيدى أهل الكتاب من التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، ونبوات الأنبياء لم تبدل بشىء من ألفاظها حتى يقولوا : إن محمداً صلى الله عليه وسلم نفى عن كتبهم ذلك ؟

وهؤلاء بنوا كلامهم على أن ألفاظ كتبهم تدل على صحة دينهم الذى هم عليه بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم وبعد تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه لم يبدل شىء من ألفاظها .

وقد تبين فساد ذلك من وجوه متعددة . ثم زعموا أن المسلمين يدعون أن ألفاظ هذه الكتب حرفت كلها بجميع لغاتها بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا القول لم يقله أحد من المسلمين ــ فيما أعلم ــ وظنوا أنهم بالجواب عن هذا يكونون قد أجابوا المسلمين .

فصل

فقال الحاكى عنهم : فقلت لهم : إن قال قائل : إن التبديل والتغيير يجوز أن يكون بعد هذا القول فقالوا : إنا نعجب من هؤلاء القوم ــ على علمهم ، وذكائهم ، ومعرفتهم ــ كيف يحتجون علينا بمثل هذا القول ؟ وذلك أنا أيضاً إذا احتججنا عليهم بمثل هذا القول ، وقلنا : إن الكتاب الذى فى أيديهم يومنا هذا قد غيروه وبدلوه وكتبوا فيه ما أرادوا واشتهوا . هل كانوا يجوزون كلامنا ؟ قال الحاكى عنهم : فقلت لهم : هذا مما لا يجوز ولا يمكن أحداً أن يقوله ، ولا يمكن أن يتغير منه إلى آخر الفصل ، وسيأتى بألفاظ بعد هذا .

والجواب أن هذا السائل النصرانى الذى ذكر عن المسلمين سؤالا لا يقولونه ، وعن علماء النصارى جوابه ، هو وهم بنوا كلامهم على أصلين فاسدين .

أحدهما : أن الرسول ثبت ما معهم ، ونفى عن كتبهم التى بين أيديهم التهم ، والتبديل ، والتغيير لها . ومقصودهم بذلك لا يتم إلا إذا نفى التبديل عن لفظها ، ومعناها ، وهذا مما يعلم كل عاقل أن الرسول لم ينفه عنها بل النقل المتواتر عنه

بنقيض ذلك . وهم أيضاً ، وكل عاقل يعلم أن الكتب التى بأيديهم فى تفسيرها من الاختلاف والاضطراب بين فرق النصارى، و بين النصارى واليهود ما يوجب القطع بأن كثيراً من ذلك مبدل محرف ، وكذلك وقع فى تغيير شرائع هذه الكتب ، فإن الكتب تضمنت أصلين : الإخبار والأمر . والإيمان بها لا يتم إلا بتصديقها فيما أخبرت ، و إيجاب طاعتها فيما أوجبته .

وأهل الكتاب يكذبون بكثير مما أخبرت به ولا يوجبون طاعتها فى كثير مما أوجبته وأمرت به ، وكل فرقة منهم تشهد على الفرقة الأخرى بمثل ذلك .

والنصارى لهم سبع مجامع مشهورة عندهم، وهم فى كل مجمع يلعنون طائفة منهم كثيرة ويكفرونهم و يقولون عنهم : إنهم كذبوا ببعض ما فى تلك الكتب، ولم يوجبوا طاعة بعض أمرها . وتلك الطائفة تشهد على الأخرى بأنها كذبت ببعض ما فيها . ثم فرقهم الثلاثة المشهورة النسطورية ، والملكية ، واليعقوبية ؛ كل طائفة تكفر الأخرى وتلعنها وتشهد عليها أنها مكذبة لبعض ما فى النبوات غير موجبة لطاعة بعض ما فيها . بل اختلافهم فى نفس التوحيد والرسالة ، فزعم كل فريق منهم أن المسيح جاء بما هم عليه . والمسيح عليه السلام وجميع الرسل بريئون من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، وبريئون ممن يقول على الله غير الحق أو يقول على الله مالا يعلم . وبريئون من كل قول باطل يقال على الله عز وجل وإن كان قائله مخطئاً لم يتعمد الكذب .

وفى مقالات النصارى من هذه الأنواع ما يطول وصفه . وقد بسط فى غير هذا الموضع .

وإذا عرف أن جميع الطوائف من المسلمين واليهود والنصارى ، يشهدون أنه قد وقع فى هذه الكتب تحريف وتبديل فى معانيها وتفسيرها وشرائعها فهذا القدر كاف . وهم من حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم صار كل من لم يؤمن به كافرا ، بخلاف حال النصارى قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم،فإنه كان فيهم

من هو متبع لدين المسيح . والمسلمون ـ وإن كان فيهم من حرَّف الدين و بدله ـ فجمهورهم خالفوا هؤلاء ، فلا يزال فيهم طائفة ظاهرة على الحق لا يضرهم من خالفهم ، وخذلهم حتى تقوم الساعة ، بخلاف النصارى ، فإنهم كفروا جميعهم، كما كفرت اليهود بتكذيب المسيح .

والمسلمون يثبتون بالدلائل الكثيرة أنهم بدلوا معانى التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، وغيرهم من نبوات الأنبياء ، وابتدعوا شرعاً لم يأت به المسيح ، ولا غيره ، ولا يقوله عاقل ، مثل زعمهم أن جميع بنى آدم من الأنبياء ، والرسل ، وغيرهم كانوا فى الجحيم فى حبس الشيطان ، لأجل أن أباهم آدم أكل من الشجرة ، وأنهم إنما تخلصوا من ذلك لما صلب المسيح .

فإن هذا الكلام لو نقله ناقل عن بعض الأنبياء لقطعنا بكذبه عليهم، فكيف وهذا الكلام ليس منقولا عندهم من أحد من الأنبياء ؟ وإنما ينقلونه عن ليس قوله حجة لازمة ، فإن كثيراً من دينهم مأخوذ عن رءوسهم الذين ليسوا بأنبياء.

فإذا قطعنا بكذب من ينقله عن الأنبياء . فكيف إذا لم ينقل عنهم ذلك ؟ فإن الأنبياء عليهم السلام يخبرون الناس بما تقصر عقولهم عن معرفته . لا بما يعرفون أنه باطل ممتنع ، فيخبرونهم بمحيرات العقول لا محالات العقول ، وآدم عليه السلام ـ وإن كان أكل من الشجرة ـ فقد تاب الله عليه واجتباه وهداه .

قال تعالى : ﴿ وعصى آدمُ ربَّهُ فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ ، [سورة طه : ١٢١ ، ١٢٢] .

وقال تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ ، [سورة البقرة : ٣٧] .

وليس عند أهل الكتاب فى كتبهم ما ينفى توبته وإنما قد يقول قائلهم إنا لا نعلم أنه تاب أو ليس عندنا توبته ، وعدم العلم بشىء ليس علماً بعدمه ، وعدم وجود الشىء فى كتاب من كتب الله لا ينفى أن يكون فى كتاب آخر، ففى التوراة

ما ليس فى الإنجيل . وفيهما ما ليس فى الزبور ، وفى الإنجيل والزبور ما ليس فى التوراة ، وفى سائر النبوات ما لا يوجد فى هذه الكتب، والقرآن لو كان دون التوراة والإنجيل والزبور والنبوات أو كان مثلها لأمكن أن يكون فيه ما ليس فيها . فكيف إذا كان أفضل وأشرف وفيه من العلم أعظم مما فى التوراة والإنجيل وقد بين الله تعالى فضله عليهما فى غير موضع ، كقوله تعالى: ﴿ الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعرُ منه ﴾ ، [سورة الزمر : ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القَصَصِ بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ ، [سورة يوسف : ٣] .

وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٨] .

وسواء تاب آدم أو لم يتب فكيف يجوز أن يكون رسل الله الذين هم أفضل منه محبوسين فى حبس الشيطان فى جهنم بذنبه ؟ وإبراهيم خليل الرحمن كان أبوه كافراً ولم يؤاخذه الله بذنبه فكيف يجعله الله فى جهنم فى حبس الشيطان بسبب ذنب أبيه الأقصى آدم ، مع أنه كان نبياً ؟ ونوح عليه السلام قد مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته وجعل ذريته هم الباقين فكيف يكون فى جهنم فى حبس الشيطان لأجل ذنب آدم ؟

وموسى بن عمران كلمه الله تكليما ، وأظهر على يديه من البراهين ، والآيات مالم يظهر مثله على يدى المسيح ، وقتل نفساً لم يؤمر بقتلها ، فغفر الله له ذلك ، وله من المنزلة عند الله والكرامة ، مالا يقدر قدره ، فكيف يكون فى جهنم فى حبس الشيطان .

ثم أى مناسبة بين الصلب الذى هو من أعظم الذنوب ، سواء صلبوا المسيح ، أو المشبه به ، و بين تخليص هؤلاء من الشيطان ؟ فإن الشيطان إن فعل ذلك

بالذرية كان ظالماً معتدياً والله عز وجل قادر على منعه من ظلمهم ، بل وعلى عقوبته إذا لم ينته عن ظلمهم .

فلماذا أخر منعه من ظلمهم إلى زمن المسيح ؟ وهو سبحانه ولى المؤمنين وناصرهم ، ومؤيدهم ، وهم رسله الذين نصرهم على من عاداهم ، بل أهلك أعداءهم الذين هم جند الشيطان . فكيف لا يمنع الشيطان بعد موتهم أن يظلمهم ، ويجعل أرواحهم فى جهنم ؟ هذا إن قدر أن الشيطان كان قادراً على ذلك ، وكيف يجوز أن يجعل الشيطان بعد موت أنبيائه ، وأوليائه ، وسقوط التكليف عنهم ، واستحقاقهم كرامته ، وإحسانه ، وجنته بحكم وعده ، ومقتضى حكمته ، وجعله مسلطاً على حبسهم فى جهنم ؟!

وإن قالوا : الرب عز وجل ما كان يقدر على تخليصهم من الشيطان ، مع علمه بأنه ظالم معتد عليهم بعد الموت إلا بأن يحتال عليه بإخفاء نفسه ليتمكن منه كما يزعمون — فهذا مع ما فيه من الكفر العظيم ، وجعل الرب سبحانه عاجزاً كما جعلوه أولا ظالماً — فيه من التناقض مايقتضى عظيم جهلهم الذى جعلوا به الرب جاهلا ، فإنهم يقولون : إنه احتال على الشيطان ليأخذه بعدل ، كما احتال الشيطان على آدم بالحية ، فاختفى منه لئلا يعلم أنه ناسوت الإله ، وناسوت الإله لم يعمل خطيئة قط بخلاف غيره .

فلما أراد الشيطان أخذ روحه ليحبسه فى جهنم كسائر من مضى ، وهو لم يعمل خطيئة . استحق الشيطان أن يأخذه الرب ، ويخلص الذرية من حبسه .

وهذا تجهيل منهم للرب سبحانه وتعالى عما يقولون مع تعجيزه وتظليمه .

فإنه إن كان هو سلط الشيطان على بنى آدم كما يقولون . فلا فرق بين ناسوت المسيح وغيره ، إذ الجميع بنى آدم ، وأيضاً فإذا قدر أن الناسوت دفع الشيطان عن نفسه بحق ، فإنهم يقولون : إنه دخل الجحيم ، وأخرج منه ذرية آدم .

فيقال : إن كان تسلط الشيطان على حبسهم فى الجحيم بحق لأجل ذنوبهم

مع ذنب أبيهم ، لم يجز إخراجهم لأجل سلامة ناسوت المسيح من الذنب ، وإن كانوا مظلومين مع الشيطان ، وجب تخليصهم قبل صلب الناسوت ولم يجز تأخير ذلك فليس فى مجرد سلامة المسيح من الذنوب مايوجب سلامة غيره ، وإن قالوا إنه كان بدون تسلطهم على صلبه عاجزاً عن دفعه ، فهو مع تسلطه على صلبه أعجز وأعجز الأصل الثانى الفاسد ، الذى بنوا عليه سؤالهم الذى جعلوه من جهة المسلمين وجوابهم ، ظنهم أن المسلمين يقولون : إن هذه الكتب حرفت ألفاظ جميع النسخ الموجودة منها بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذا مما لايقوله المسلمون ، ولكن قد يقول بعضهم : إنه حرف بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، ألفاظ بعد النسخ .

فإن الجمهور الذين يقولون : إن بعض ألفاظها حرفت ، منهم من يقول : كان هذا قبل البعث .

ومنهم من يقول : كان بعده ، ومنهم من يثبت الأمرين أو يجوزهما ، ولكن لايقولون : إنه حرفت ألفاظ جميع النسخ الموجودة فى مشارق الأرض ومغاربها ، كما حكاه هذا الحاكى عنهم ، ولكن علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب متفقون على وقوع التحريف فى المعانى والتفسير .

وإن كانت كل طائفة تزعم أن الأخرى هى التى حرفت المعانى .

وأما ألفاظ الكتب ، فقد ذهبت طائفة من علماء المسلمين إلى أن ألفاظها لم تبدل ، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكتاب .

وذهب كثير من علماء المسلمين وأهل الكتاب إلى أنه بدل بعض ألفاظها.

وهذا مشهور عن كثير من علماء المسلمين ، وقاله أيضا كثير من علماء أهل الكتاب ، حتى فى صلب المسيح ، ذهبت طائفة من النصارى إلى أنه إنما صلب الذى شبه بالمسيح ، كما أخبر به فى القرآن ، وإن الذين أخبروا بصلبه كانوا قد أخبروا بظاهر الأمر ، فإنه لما ألقى شبهه على المصلوب ظنوا أنه هو المسيح ،

أو تعمدوا الكذب ، ثم هؤلاء منهم الذين يقولون : إن فى ألفاظ الكتب ما هو مبدل .

وفيهم من يجعل المبدل من التوراة والإنجيل كثير منهما . وربما جعل بعضهم المبدل أكثرهما ، لاسيما الإنجيل ، فإن الطعن فيه أكثر وأظهر منه فى التوراة .

ومن هؤلاء من يسرف حتى يقول : إنه لاحرمة لشىء منهما ، بل يجوز الاستنجاء بهما .

ومنهم من يقول : الذى بدلت ألفاظه قليل منهما ، وهذا أظهر .

والتبديل فى الإنجيل أظهر ، بل كثير من الناس يقول : هذه الأناجيل ليس فيها من كلام الله إلا القليل .

والإنجيل الذى هو كلام الله ليس هو هذه الأناجيل .

والصحيح أن هذه التوراة والإنجيل الذى بأيدى أهل الكتاب ، فيه ماهو حكم الله ، وإن كان قد بدل وغير بعض ألفاظهما لقوله تعالى : ﴿يا أيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا ، سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم﴾ ، [سورة المائدة : ٤١] . إلى قوله : ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ؟﴾ ، [سورة المائدة : ٤٣] .

فعلم أن التوراة التى كانت موجودة بعد خراب بيت المقدس، بعد مجىء بختنصر، وبعد مبعث المسيح ، وبعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فيها حكم الله .

والتوراة التى كانت عند يهود المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن قيل : إنه غير بعض ألفاظها بعد مبعثه ، فلا نشهد على كل نسخة فى العالم بمثل ذلك ، فإن هذا غير معلوم لنا ، وهو أيضاً متعذر ، بل يمكن تغيير كثير من النسخ ، وإشاعة ذلك عند الأتباع حتى لايوجد عند كثير من الناس إلا ماغير بعد ذلك ، ومع هذا فكثير من نسخ التوراة والإنجيل متفقة فى

الغالب ، إنما يختلف فى اليسير من ألفاظها ، فتبديل ألفاظ اليسير من النسخ بعد مبعث الرسول ممكن لا يمكن أحدا أن يجزم بنفيه ، ولا يقدر أحد من اليهود والنصارى أن يشهد بأن كل نسخة فى العالم بالكتابين متفقة الألفاظ ، إذ هذا لا سبيل لأحد إلى علمه والاختلاف اليسير فى ألفاظ هذه الكتب موجود فى الكثير من النسخ ، كما قد تختلف نسخ بعض كتب الحديث ، أو تبدل بعض ألفاظ بعض النسخ ، وهذا بخلاف القرآن المجيد الذى حفظت ألفاظه فى الصدور ، وبالنقل المتواتر لا يحتاج أن يحفظ فى كتاب كما قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ، [سورة الحجر : ٩] . وذلك أن اليهود قبل النبي صلى الله عليه وسلم وعلى عهده ، وبعده منتشرون فى مشارق الأرض ومغاربها ، وعندهم نسخ كثيرة من التوراة .

وكذلك النصارى عندهم نسخ كثيرة من التوراة ، ولم يتمكن أحد من جمع هذه النسخ وتبديلها ، ولو كان هذا ممكنا لكان ذلك من الوقائع العظيمة التى تتوفر الدواعى على نقلها ، وكذلك فى الإنجيل قال تعالى : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٧] .

فعلم أن فى هذا الإنجيل حكما أنزله الله تعالى ، لكن الحكم هو من باب الأمر والنهى . وذلك لا يمنع أن يكون التغيير فى باب الإخبار ، وهو الذى وقع فيه التبديل لفظا . وأما الأحكام التى فى التوراة ، فما يكاد أحد يدعى التبديل فى ألفاظها . وقد ذكر طائفة من العلماء أن قوله تعالى فى الإنجيل : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾ هو خطاب لمن كان على دين المسيح قبل النسخ والتبديل ، لا الموجودين بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذا القول يناسب مناسبة ظاهرة لقراءة من قرأ « وليحكم أهل الإنجيل » بكسر اللام كقراءة حمزة فإن هذه لام كى ، فإنه تعالى قال : ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور

ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين * وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ [سورة المائدة : ٤٦ ، ٤٧] . فإذا قرأ « وليحكم » ، كان المعنى وآتيناه الإنجيل لكذا وكذا ، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، وهذا يوجب الحكم بما أنزل الله فى الإنجيل الحق ، ولا يدل على أن الإنجيل الموجود فى زمن الرسول هو ذلك الإنجيل .

وأما قراءة الجمهور « وليحكم أهل الإنجيل » فهو أمر بذلك . فمن العلماء من قال : هو أمر لمن كان الإنجيل الحق موجوداً عندهم أن يحكموا بما أنزل الله فيه ، وعلى هذا يكون قوله تعالى : « وليحكم » أمر لهم قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم . وقال آخرون : لا حاجة إلى هذا التكليف ، فإن القول فى الإنجيل كالقول فى التوراة . وقد قال تعالى : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم عن مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم * سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين * وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون * وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف

بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون * وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٤١ — ٤٦] . فهذا قد صرح بأن أولئك الذين تحاكموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود عندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم تولوا عن حكم الله وقال بعد ذلك ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾ وهذه لام الأمر ، وهو أمر من الله أنزله على لسان محمد . وأمر من مات قبل هذا الخطاب ممتنع ، وإنما يكون الأمر أمراً لمن آمن به من بعد خطاب الله لعباده بالأمر ، فعلم أنه أمر لمن كان موجودا حينئذ أن يحكموا بما أنزل الله فى الإنجيل ، والله أنزل فى الإنجيل الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أمر به فى التوراة ، فليحكموا بما أنزل الله فى الإنجيل مما لم ينسخه محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أمر أهل التوراة أن يحكموا بما أنزله مما لم ينسخه المسيح . وما نسخه فقد أمروا فيه باتباع المسيح ، وقد أمروا فى الإنجيل باتباع محمد صلى الله عليه وسلم لمن حكم من أهل الكتاب — بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم — بما أنزله الله فى التوراة والإنجيل ولم يحكم بما يخالف حكم محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ كانوا مأمورين فى التوراة والإنجيل باتباع محمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾ ، [سورة المائدة :٤٨] .

فجعل القرآن مهيمناً . والمهيمن : الشاهد الحاكم المؤتمن ، فهو يحكم بما فيها مما لم ينسخه الله ويشهد بتصديق ما فيها مما لم يبدل ولهذا قال : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٨] .

وقد ثبت فى الصحاح والسنن والمسانيد هذا . فنى الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : إن اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكروا له أن امرأة منهم ورجلا زنيا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم . قالوا : نفضحهم ويجلدون . فقال عبد الله بن سلام : كذبتم . إن فيها الرجم . فأتوا بالتوراة ، فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها . فقال له عبد الله : ارفع يدك ، فرفع يده ، فإذا فيها آية الرجم . فقالوا : صدق يامحمد . فأمر بهما النبى صلى الله عليه وسلم ، فرجما .

وأخرج البخارى عن عبد الله بن عمر أنه قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيهودى ويهودية قد زنيا ، فانطلق حتى جاء يهودى . فقال : ماتجدون فى التوراة على من زنى ؟ قالوا : نسود وجوههما ، ويطاف بهما . قال : « فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » قال : فجاءوا بها فقرأوها حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذى يقرأ يده على آية الرجم ، وقرأ ما بين يديها وما وراءها . فقال عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : مره فليرفع يده فرفعها ، فإذا تحتها آية الرجم . قالوا : صدق فيها آية الرجم ، ولكننا نتكاتمه بيننا ، وأن أحبارنا أحدثوا التحميم والتجبية . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجمهما فرجما . وأخرج مسلم عن البراء بن عازب رضى الله عنه أنه قال : « مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بيهودى محمم مجلود فدعاهم . فقال : هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قالوا : نعم . فدعى رجلا من علمائهم ، فقال : أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قال : لا ، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجد الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا : تعالوا فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع ،

فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه ، فأمر به فرجم » . فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم = إلى قوله = فأولئك هم الكافرون إلى ـ الظالمون ـ إلى الفاسقون ﴾ ، [سورة المائدة : ٤١] . قال هى فى الكفارة كلها .

وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أنه قال : « رجم النبى صلى الله عليه وسلم رجلا من أسلم ، ورجلا من اليهود » . وأما السنن ففى سنن أبى داود عن زيد بن أسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : « أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القف فأتاهم فى بيت المدارس . فقالوا : يا أبا القاسم إن رجلا منا زنى بامرأة فاحكم بينهم ، فوضعوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسادة فجلس عليها ثم قال : ائتونى بالتوراة فأتى بها فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها ، وقال : آمنت بك وبمن أنزلك . ثم قال : ائتونى بأعلمكم فأتى بشاب ، ثم ذكر قصة الرجم » .

وأخرج أيضاً أبو داود وغيره عن أبى هريرة أنه قال : « زنى رجل من اليهود بامرأة فقال بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى هذا النبى ، فإنه نبى بعث بالتخفيف فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله ، فقلنا نبى من أنبيائك ، قالوا : فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو جالس فى المسجد فى أصحابه فقالوا : يا أبا القاسم ما ترى فى رجل وامرأة ـ منهم ـ زنيا ، فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدارسهم ، فقام على الباب فقال أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ما تجدون فى التوراة على من زنى إذا أحصن ؟ .

قالوا : نحمم ونجبيه ، ونجلده ـ والتجبية : أن يحمل الزانيان على حمار ، ويقابل أقفيتهما ، ويطاف بهما ـ قال : وسكت شاب منهم ، فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم ساكتاً ، أنشده . فقال : اللهم إذا نشدتنا فإنا نجد فى التوراة

الرجم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فما أول ما ارتخصتم أمر الله ؟ قال : زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا فأخر عنه الرجم ثم زنى رجل فى أسرة من الناس فأراد رجمه فحال قومه دونه . وقالوا : لا يرجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم . قال النبي صلى الله عليه وسلم : فإنى أحكم بما فى التوراة ، فأمر بهما فرجما».

قال الزهرى : فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٤] .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم منهم ، وأيضاً فقد تحاكموا إليه فى القود الذى كان بين بنى قريظة والنضير ، وكان النضير أشرف من قريظة ، فكان إذا قتل بعض إحدى القبيلتين قتيلا من الأخرى فيقتلونه ، ولم يضعفوا الدية ، وإذا قتل من القبيلة الشريفة قتلوا به ، وأضعفوا الدية .

قال أبو داود سليمان بن الأشعث فى سننه : حدثنا محمد بن العلا ، حدثنا عبيد الله بن موسى عن على بن صالح ، عن سماك بن حرب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : «كان قريظة ، والنضير ، وكان النضير أشرف من قريظة ، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلا من النضير قتل به و وإذا قتل رجل من النضير رجلا من قريظة ودى ماية وسق من تمر .

فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم قتل رجل من النضير رجلا من قريظة فقالوا : ادفعوه إلينا نقتله . فقالوا : بيننا وبينكم محمد فأتوه فنزلت ﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ﴾ : [سورة المائدة : ٤٢] .

والقسط : النفس بالنفس ، ثم نزلت ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ﴾ ، [سورة المائدة : ٥٠] قال أبو داود : قريظة والنضير من ولد هارون .

وبسط هذا له موضع آخر ، وعلى كل قول ، فقد أخبر الله عز وجل أن فى التوراة الموجودة بعد المسيح عليه السلام حكم الله ، وأن أهل الكتاب اليهود

تركوا حكم الله الذى فى التوراة مع كفرهم بالمسيح ، وهذا ذم من الله لهم على ما تركوه من حكمه الذى جاء به الكتاب الأول ، ولم ينسخه الرسول الثانى .

وهذا من التبديل الثانى الذى ذموا عليه ، ودل ذلك على أن فى التوراة الموجودة بعد مبعث المسيح حكما أنزله الله ، أمروا أن يحكموا به ، وهكذا يمكن أن يقال فى الإنجيل . ومعلوم أن الحكم الذى أمروا أن يحكموا به من أحكام التوراة ، لم ينسخه الإنجيل ، ولا القرآن ، فكذلك ما أمروا أن يحكموا به من أحكام الإنجيل هو مما لم ينسخه القرآن ، وذلك أن الدين الجامع أن يعبدالله وحده ، ويأمر بما أمر الله به ويحكم بما أنزله الله فى أى كتاب أنزله ولم ينسخه فإنه يحكم به .

ولهذا كان مذهب جماهير السلف والأئمة ، أن شرع من قبلنا شرع لنا مالم يرد شرعنا بخلافه . ومن حكم بالشرع المنسوخ فلم يحكم بما أنزل الله ، كما أن الله أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يحكموا بما أنزل الله فى القرآن ، وفيه الناسخ ، والمنسوخ . فهكذا القول فى جنس الكتب المنزلة .

قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون * وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون * أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون * يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين * فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى

أنفسهم نادمين * ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين * يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ ، [سورة المائدة : ٤٨ — ٥٦] .

فقد أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، أن يحكم بما أنزل الله إليه ، وحذره اتباع أهوائهم ، وبين أن المخالف لحكمه هو حكم الجاهلية ، حيث قال تعالى : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ وأخبره تعالى أنه جعل لكل من أهل التوراة ، والإنجيل ، والقرآن شرعة ومنهاجاً ، وأمره تعالى بالحكم بما أنزل الله أمر عام لأهل التوراة والإنجيل والقرآن ، ليس لأحد فى وقت من الأوقات أن يحكم بغير ما أنزل الله . والذى أنزله الله هو دين واحد اتفقت عليه الكتب والرسل ، وهم متفقون فى أصول الدين وقواعد الشريعة ، وإن تنوعوا فى الشرعة والمنهاج ، بين ناسخ ومنسوخ ، فهو شبيه بتنوع حال الكتاب ، فإن المسلمين كانوا أولا مأمورين بالصلاة لبيت المقدس ، ثم أمروا أن يصلوا إلى المسجد الحرام ، وفى كلا الأمرين إنما اتبعوا ما أنزل الله عز وجل .

وكذلك موسى عليه السلام ، كان مأموراً بالسبت محرماً عليه ما حرمه الله فى التوراة ، وهو متبع ما أنزله الله عز وجل ، والمسيح صلى الله عليه وسلم أحل بعض ما حرمه الله ، فى التوراة ، وهو متبع ما أنزل الله عز وجل . فليس فى أمر الله لأهل التوراة والإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله أمر بما نسخ ، كما أنه ليس فى أمر أهل القرآن أن يحكموا بما أنزل الله أمر بما نسخ ، بل إذا كان ناسخ

فقد حكم ومنسوخ فالذى أنزل الله هو الحكم بالناسخ دون المنسوخ . فمن حكم بالمنسوخ بغير ماأنزل الله . ومما يوضح هذا قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ [سورة المائدة : ٦٨] . فإن هذا يبين أن هذا أمر لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يقول لأهل الكتاب الذى بعث إليهم : إنهم ليسوا على شيء ، حتى يقيموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليهم من ربهم . فدل ذلك على أنهم عندهم ما يعلم أنه منزل من الله ، وإنهم مأمورون بإقامته إذ كان ذلك مما قرره محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم ينسخه . ومعلوم أن كل ما أمر الله به على لسان نبى ، ولم ينسخه النبى الثانى بل أقره كان الله آمرا به على لسان نبى بعد نبى ، ولم يكن فى بعثة الثانى ما يسقط وجوب اتباع ما أمر به النبى الأول ، وقرره النبى الثانى .

ولا يجوز أن يقال : إن الله ينسخ بالكتاب الثانى جميع ماشرعه بالكتاب الأول ، وإنما المنسوخ قليل بالنسبة إلى ما اتفقت عليه الكتب ، والشرائع .

وأيضاً ففى التوراة والإنجيل ما دل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإذا حكم أهل التوراة والإنجيل بما أنزل الله فيهما ، حكموا بما أوجب عليهم اتباع محمد صلى الله عليه وسلم . وهذا يدل على أن فى التوراة والإنجيل ما يعلمون أن الله أنزله ، إذ لا يؤمرون أن يحكموا بما أنزل الله ، ولا يعلمون ما أنزل الله ، والحكم إنما يكون فى الأمر والنهى . والعلم ببعض معانى الكتب لا ينافى عدم العلم ببعضها . وهذا متفق عليه فى المعانى . فإن المسلمين واليهود والنصارى متفقون على أن فى الكتب الإلهية الأمر بعبادة الله وحده لاشريك له ، وأنه أرسل إلى الخلق رسلا من البشر ، وأنه وجب العدل وحرم الظلم والفواحش والشرك ، وأمثال ذلك من الشرائع الكلية وأن فيها الوعد بالثواب ، والوعيد بالعقاب ،

بل هم متفقون على الإيمان باليوم الآخر ، وقد تنازعوا فى بعض معانيها ، واختلفوا فى تفسير ذلك كما اختلفت اليهود والنصارى فى المسيح المبشر به النبوات ، هل هو المسيح بن مريم عليه السلام أو مسيح آخر ينتظر ؟ والمسلمون يعلمون أن الصواب فى هذا مع النصارى ، لكن لا يوافقهم على ما أحدثوا فيه من الإفك والشرك .

وكذلك يقال إذا بدل قليل من ألفاظها الخبرية لم يمنع ذلك أن يكون أكثر ألفاظها لم يبدل ، لاسيما إذا كان فى نفس الكتاب ما يدل على المبدل . وقد يقال إن ما بدل من ألفاظ التوراة والإنجيل ففى نفس التوراة والإنجيل ما يدل على تبديله ، فبهذا يحصل الجواب عن شبهة من يقول : إنه لم يبدل شيء من ألفاظها ، فإنهم يقولون : إذا كان التبديل قد وقع فى ألفاظ التوراة والإنجيل قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم لم يعلم الحق من الباطل ، فسقط الاحتجاج بهما ووجوب العمل بهما على أهل الكتاب ، فلا يذمون حينئذ على ترك اتباعهما . والقرآن قد ذمهم على ترك الحكم بما فيها ، واستشهد بهما فى مواضع . وجواب ذلك أن ما وقع من التبديل قليل والأكثر لم يبدل ، والذى لم يبدل فيه ألفاظ صريحة بينة بالمقصود تبين غلط ما خالفها ولها شواهد ونظائر متعددة ، يصدق بعضها بعضا ، بخلاف المبدل فإنه ألفاظ قليلة ، وسائر نصوص الكتب يناقضها ، وصار هذا بمنزلة كتب الحديث المنقولة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنه إذا وقع فى سنن أبى داود والترمذى أو غيرهما أحاديث قليلة ضعيفة ، كان فى الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم ما يبين ضعف تلك ، بل وكذلك صحيح مسلم فيه ألفاظ قليلة غلط ، وفى نفس الأحاديث الصحيحة مع القرآن ما يبين غلطها ، مثل ما روى أن الله خلق التربة يوم السبت وجعل خلق المخلوقات فى الأيام السبعة ، فإن هذا الحديث قد بين أئمة الحديث كيحيى ابن معين ، وعبد الرحمن بن مهدى ، والبخارى وغيرهم أنه غلط ، وأنه ليس فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، بل صرح البخارى فى تاريخه الكبير أنه من

كلام كعب الأحبار ، كما قد بسط فى موضعه . والقرآن يدل على غلط هذا ، وبين أن الخلق فى ستة أيام ، وثبت فى الصحيح أن آخر الخلق كان يوم الجمعة ، فيكون أول الخلق يوم الأحد . وكذلك ما روى أنه صلى الله عليه وسلم ، صلى الكسوف بركوعين أوثلاثة . فإن الثابت المتواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى الصحيحين ، وغيرهما من حديث عائشة ، وابن عباس ، وعبد الله بن عمرو ، وغيرهم أنه «صلى كل ركعة بركوعين» ولهذا لم يخرج البخارى إلا ذلك . وضعف الشافعى ، والبخارى ، وأحمد ، فى أخذ الروايتين عنه ، وغيرهم[1] حديث الثلاثة والأربع ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم إنما صلى الكسوف مرة واحدة ، وفى حديث الثلاث والأربع ، أنه صلاها يوم مات إبراهيم ابنه ، وأحاديث الركوعين كانت ذلك اليوم فمثل هذا الغلط إذا وقع كان فى نفس الأحاديث الصحيحة ما يبين أنه غلط ، والبخارى إذا روى الحديث بطرق فى بعضها غلط فى بعض الألفاظ ، ذكر معه الطرق التى تبين ذلك الغلط ، كما قد بسطنا الكلام على ذلك فى موضعه .

فكذلك إذا قيل : إنه وقع تبديل فى بعض ألفاظ الكتب المتقدمة كان فى الكتب ما يبين ذلك الغلط ، وقد قدمنا أن المسلمين لا يدعون أن كل نسخة فى العالم من زمن محمد صلى الله عليه وسلم بكل لسان من التوراة والإنجيل والزبور بدلت ألفاظها ، فإن هذا لا أعرف أحداً من السلف قاله . وإن كان من المتأخرين من قد يقول ذلك ، كما فى بعض المتأخرين من يجوز الاستنجاء بكل ما فى العالم من نسخ التوراة والإنجيل . فليست هذه الأقوال ونحوها من أقوال سلف الأمة وأئمتها . وعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لما رأى بيد كعب الأحبار نسخة من التوراة قال : يا كعب إن كنت تعلم أن هذه هى التوراة التى أنزلها الله ، على موسى بن عمران فاقرأها ، فعلق الأمر على ما يمتنع العلم به ، ولم يجزم عمر رضى الله عنه بأن ألفاظ تلك مبدلة لما لم يتأمل كل ما فيها . والقرآن والسنة المتواترة

(١) أى ، وغيرهم ضعف حديث الثلاثة والأربع .

يدلان على أن التوراة والإنجيل الموجودين فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فيهما ما أنزله الله عزوجل ، والجزم بتبديل ذلك فى جميع النسخ التى فى العالم متعذر ، ولا حاجة بنا إلى ذكره ، ولا علم لنا بذلك ، ولا يمكن أحداً من أهل الكتاب أن يدعى أن كل نسخة فى العالم بجميع الألسنة من الكتب متفقة على لفظ واحد ، فإن هذا مما لا يمكن أحداً من البشر أن يعرفه باختياره ، وامتحانه ، وإنما يعلم مثل هذا بالوحى وإلا فلا يمكن أحداً من البشر أن يقابل كل نسخة موجودة فى العالم بكل نسخة من جميع الألسنة بالكتب الأربعة والعشرين ، وقد رأيناها مختلفة فى الألفاظ اختلافاً بيناً . والتوراة هى أصح الكتب ، وأشهرها عند اليهود ، والنصارى ، ومع هذا فنسخة السامرة مخالفة لنسخة اليهود والنصارى ، حتى فى نفس الكلمات العشر ، ذكر فى نسخة السامرة منها ـ من أمر استقبال الطور ـ ماليس فى نسخه اليهود والنصارى ، وهذا مما يبين أن التبديل وقع فى كثير من نسخ هذه الكتب ، فإن عند السامرة نسخاً متعددة ، وكذلك رأينا فى الزبور نسخاً متعددة تخالف بعضهما بعضاً ، مخالفة كثيرة فى كثير من الألفاظ والمعانى ، يقطع من رآها أن كثيراً منها كذب على زبور داود عليه السلام . وأما الأناجيل فالاضطراب فيها أعظم منه فى التوراة . فإن قيل : فإذا كانت الكتب المتقدمة منسوخة ، فلماذا ذم أهل الكتاب عن ترك الحكم بما أنزل الله منها ؟ قيل النسخ لم يقع إلا فى قليل من الشرائع ، وإلا فالأخبار عن الله ، وعن اليوم الآخر ، وغير ذلك فلم تنسخ .

وكذلك الدين الجامع والشرائع الكلية لا نسخ فيها ، وهو سبحانه ذمهم على ترك اتباع الكتاب الأول ، لأن أهل الكتاب كفروا من جهتين ، من جهة تبديلهم الكتاب الأول ، وترك الإيمان ، والعمل ببعضه . ومن جهة تكذيبهم بالكتاب الثانى وهو القرآن ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم

قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ ، [سورة البقرة : ٩١] .

فبين أنهم كفروا قبل مبعثه بما أنزل عليهم وقتلوا الأنبياء كما كفروا حين مبعثه بما أنزل عليه ، وقال تعالى : ﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨٤] .

وقال تعالى : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا : سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون * قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ ، [سورة القصص : ٤٨ ، ٤٩] .

وإذا كان الأمر كذلك فهو سبحانه يذمهم على ترك اتباع ما أنزله فى التوراة والإنجيل وعلى ترك أتباع ما أنزله فى القرآن وبين كفرهم بالكتاب الأول وبالكتاب الثانى ، وليس فى شىء من ذلك أمرهم أن يحكموا بالمنسوخ من الكتاب الأول ، كما ليس فيه أمرهم أن يحكموا بالمنسوخ فى الكتاب الثانى .

فهرس الجزء الأول

من

كتاب « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح »

ص

١ المقـــدمة

١ خطبة الـكتاب .

٥ دين الأنبياء والمرسلين دين واحد .

٩ محمد عليه السلام خاتم النبيين .

١١ فصل ، وكان دينه الذى ارتضاه لنفسه هو دين الإسلام .

١٩ الباعث لتأليف هذا الـكتاب .

٢٩ جواب المؤلف على دعوى النصارى .

٢٩ فصل فى دلائل صدق النبي الصادق ، وكذب المتنبي الـكاذب .

٣١ فصل فى ادعائهم أن محمداً أرسل إلى جاهلية العرب .

٣٤ الفرق بين الإرسال الـكونى والإرسال الدينى .

٦٦ الأمر بالمجادلة ، لاينافى الأمر بالقتال .

٧٨ فصل ، وكان قبل قصة نجران قد آمن بالنبي كثير من اليهود والنصارى ، ويشتمل على هجرة بعض الصحابة إلى الحبشة وإيمان النجاشي ملك الحبشة .

٨٦ فصل ، وكان أول ما أنزل الله عليه الوحى ، عرضت خديجة امرأته أمره إلى ورقة بن نوفل وكان من علماء النصارى .

٨٨ بيان أن محمداً عليه السلام أرسل رسله إلى جميع الطوائف ، وبيان غلبة الفرس على النصارى ، وفرح المشركين بذلك ، وإخبار النبي بغلبة النصارى على الفرس ، وفرح المؤمنين بذلك .

٩٢ إرسال النبي كتابه إلى هرقل مع دحية الـكلبي .

١٠٥ فصل ، وقاتل عمر بن الخطاب الفرس المجوس ، وفتح أرضهم وظهر صدق خبر الرسول بذلك .

١٠٦ إرسال النبي عبد الله بن حذافة بكتابه إلى كسرى .

ص

١٠٩ فصل فى ضرب الخلفاء الجزية على المجوس والنصارى ، بعد أن دعوهم للاسلام .

١١١ فصل فى إرساله كتبه عليه السلام إلى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم إلى الله .

١١٤ فصل فى الدلائل الدالة على أنه عليه الصلاة والسلام رسول إلى النصارى وغيرهم .

١٢٣ فصل فى تعظيم النصارى للصليب ، واستحلالهم لحم الخنزير . وتعبدهم بالرهبانية ، وامتناعهم من الختان ، وتركهم طهارة الحدث والخبث .

١٢٥ النصارى ليست صلاتهم التى يصلونها ، منقولة عن المسيح .

١٢٦ فصل فى اعتقاد أهل الإيمان ، أن محمداً عليه السلام بعث رسولا لأهل الثقلين ، ومن لم يؤمن به فهو كافر .

١٤٠ فصل فى إتيانه بالآيات الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم .

١٦١ « فى قولهم : أرسل إلى " رب ، وقوله عليه السلام ، أرسل للناس كافة .

١٦٦ « فى جواب من لايقر برسالته ، لا إلى العرب ، ولا غيرهم .

١٧٦ « فى اعتقاد النصارى فى النبوات على بشارة الأنبياء بمن يأتى بعدهم .

١٨٣ « يتضمن بطلان احتجاجهم بالقرآن إلا مع التصديق برسالته .

١٨٧ « وإن كان مقصودهم الاحتجاج بذلك على المسلمين . . .

١٨٩ « فى كون القرآن أنزل باللسان العربى ، والجواب عن ذلك .

١٩٥ « فى قوله تعالى : إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون .

٢٠٠ فصل فى قولهم : إن كتبهم ترجمها لهم الحواريون وهم معصومون .

٢٠٣ « فى قولهم : لايلزمنا اتباعه ، لأننا نحن أتانا رسل من قبله .

٢١٠ « فى قوله تعالى : ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا .

٢١١ « فى قولهم : ونعلم أن الله عدل لايطالبنا . .

٢٢١ « فى تفسيرهم لقوله تعالى : ومن يبتغى غير الإسلام ديناً .

٢٢٩ « فى قولهم : ثم وجدنا فى هذا الكتاب من تعظيم المسيح وأمه . . .

٢٤١ « والمضاف إلى الله نوعان .

٢٤٨ « وأما قولهم (فكان طيراً بإذن الله) أى بإذن اللاهوت .

٢٥٣ « فى قوله تعالى : ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى .

ص
٢٥٥ « فى قولهم : . وآتينا عيسى بن مريم البينات .
٢٥٨ « فى قوله تعالى : ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات .
٢٦٤ « فى قوله تعالى : من أهل الكتاب أمة قائمة .
٢٧١ « قالوا : ثم وجدناه يعظم إنجيلنا ، ويقدم صوامعنا ومساجدنا .
٢٨٤ « فيما يتضمن ما أوجب لهم التمسك بدينهم ، والجواب عنه .
٢٩٠ « فى فساد قولهم فى تفسير آية البقرة .
٢٩٦ « قالوا : وأما تعظيمه لإنجيلنا وكتبنا التى فى أيدينا والجواب عنه .
٣٠٢ « فى قوله تعالى : (وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم) .
٣٠٩ « فى أن الله لايعذب إلا من أرسل إليه رسولا .
٣١٦ « فى سبب ضلال النصارى ، وأمثالهم من الغالية .
٣٢٥ « فى الخوارق التى يضل بها الشياطين أبناء آدم .
٣٣٠ « قالوا : وقال فى سورة آل عمران : (فإن كذبوك فقد كذب رسل) .
٣٣٤ « قالوا : وقال أيضاً : (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك) .
٣٤١ « قالو : فثبت بهذا مامعنا ، ونفى عن إنجيلنا التهم والتبديل .
٣٤٣ « وإن أرادوا بتصديقه كتبهم ، أنه صدق ماهم عليه من العقائد ...
٣٤٧ فصل يتضمن إيضاح ماشهد لهم به .
٣٥٠ « يتضمن اعتراف الجميع بأن محمداً مصدق للتوراة والإنجيل ، شاهد بأن موسى وعيسى ومن اتبعهما على الحق ، كما أنه كفر جميع من بلغته رسالته ولم يؤمن به .
٣٥٦ « يتضمن حجة الجمهور على منع أن تكون جميع ألفاظ الكتب المتقدمة ، الموجودة عند أهل الكتاب . منزلة من عند الله ، لم يقع بها تبديل .
٣٦٢ فصل يتضمن دعواهم بعدم التحريف والجواب عنه .
٣٧٢ سؤاله عليه السلام لليهود فى شأن الزانى .
٣٧٥ تحكيم قريظة والنضير للنبى عليه الصلاة والسلام فى القاتل .
٣٧٨ اختلاف اليهود والنصارى فى المسيح المبشر به النبوات هل هو المسيح بن مريم أو مسيح آخر ينتظر ؟
٣٨٠ اختلاف نسخ التوراة ، ومخالفة نسخة السامرة لنسخة اليهود والنصارى حتى فى الكلمات العشر وغيرها .

الجواب الصحيح

لمن بدّل دين المسيح

لشيخ الإسلام ابن تيمية

٦٦١ — ٧٢٨

الجزء ٢

مطابع
المجد
التجارية

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل في بطلان قياس كتبهم على القرآن

فحينئذ فقولهم: إنا نعجب من هؤلاء القوم على علمهم وذكائهم ومعرفتهم، كيف يحتجّون علينا بمثل هذا القول؟.

وذلك أنا أيضاً إذا قلنا واحتججنا عليهم بمثل هذا القول: إن الكتاب الذى بأيديهم - يومنا هذا - قد غيّروه وبدلوه وكتبوا فيه ما أرادوا واشتهوا، هل كانوا يجوّزون كلامنا؟ قال الحاكى عنهم: فقلت لهم: هذا مما لا يجوز، ولا يمكن لأحد أن يقوله، ولا يمكن تغييره، ولا تبديل حرف واحد منه.

فقالوا: سبحان الله العظيم! إذا كان الكتاب الذى لهم، الذى هو باللسان الواحد لا يمكن تبديله، ولا تغيير حرف واحد منه، فكيف يمكن تغيير كتبنا التى هى مكتوبة باثنين وسبعين لساناً؟ وفى كل لسان منها كذا وكذا ألف نسخة؟ وجاز عليها إلى مجىء محمد أكثر من ستمائة سنة، وصارت فى أيدى الناس يقرءونها باختلاف ألسنتهم على تشاسع بلدانهم.

فمن الذى تكلم باثنين وسبعين لساناً، ومن هو الذى حكم على الدنيا جميعها ملوكها وقساوستها وغالبها حتى حكم على جميعها فى أقطار الأرض، وجمعها فى أربع زوايا العالم حتى يغيرها؟

وإن كان غيّر بعضها، وترك بعضها، فهذا لا يمكن أن يكون لأن كلها قول واحد، ولفظ واحد فى جميع الألسن، فهذا مما لا يجوز لقائل أن يقوله أبداً.

والجواب أن يقال أولا: هذا الكلام منهم يدل على غاية جهلهم بما تقوله المسلمون فى كتبهم، وتبين أنهم - لفرط جهلهم - يظنون أن المسلمين يقولون

مقالة لا يخفى فسادها على من له أدنى عقل ومعرفة ، والمسلمون فلا يشك أحد من الأمم أنهم أعظم الأمم عقولا وأفهاما وأتمهم معرفة وبيانا ، وأحسن قصداً وديانة وتحريا للصدق والعدل ، وأنهم لم يحصل فى النوع الإنسانى أمة أكمل منهم ، ولا ناموس أكمل من الناموس الذى جاء به نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وحذاق الفلاسفة معترفون لهم بذلك ، وأنه لم يقرع العالم ناموس أكمل من هذا الناموس .

وقد جمع الله للمسلمين جميع طرق المعارف الإنسانية وأنواعها فإن الناس نوعان :

أهل كتاب ، وغير أهل كتاب كالفلاسفة والهنود .

والعلم ينال بالحس والعقل ، وما يحصل بهما ، وبوحى الله إلى أنبيائه الذى هو خارج عما يشترك فيه الناس من الحس والعقل .

ولهذا قيل : الطرق العلمية : البصر والنظر . والخبر : الحس ، والعقل . والوحى : الحس ، والقياس ، والنبوة .

فأهل الكتاب امتازوا عن غيرهم بما جاءهم من النبوة ، مع مشاركتهم لغيرهم فيما يشترك فيه الناس من العلوم الحسية ، والعقلية .

والمسلمون حصل لهم من العلوم النبوية والعقلية ما كان للأمم قبلهم وامتازوا عنهم بما لا تعرفه الأمم ، وما اتصل إليهم من عقليات الأمم هذبوه لفظاً ومعنى ، حتى صار أحسن مما كان عندهم ، ونفوا عنه من الناموس ، وضموا إليه من الحق مما امتازوا به على من سواهم .

وكذلك العلوم النبوية أعطاهم الله منها ما لم يعطه أمة قبلهم ، وهذا ظاهر لمن تدبر القرآن ، مع تدبر التوراة والإنجيل ، فإنه يجد من فضل علم القرآن مالا يخفى إلا على العميان .

فكيف يظن مع هذا بالمسلمين أن يخفى عليهم فساد هذا الكلام الذى غلبه بهم هؤلاء الجهال.

ويقال ثانياً الجواب من وجوه:

أحدها: أن المسلمين لم يدعوا أن هذه الكتب حرفت بعد انتشارها، وكثرة النسخ بها ولكن جميعهم متفقون على وقوع التبديل والتغيير فى كثير من معانيها وكثير من أحكامها.

وهذا مما تسلمه النصارى جميعهم فى التوراة والنبوات المتقدمة، فإنهم يسلمون أن اليهود بدّلوا كثيراً من معانيها وأحكامها.

ومما تسلمه النصارى فى فرقهم، أن كل فرقة تخالف الأخرى فيما تفسر به الكتب المتقدمة، ومما تسلمه اليهود أنهم متفقون على أن النصارى تفسر التوراة والنبوات المتقدمة على الإنجيل بما يخالف معانيها، وأنها بدلت أحكام التوراة، فصار تبديل كثير من معانى الكتب المتقدمة متفقاً عليه بين المسلمين، واليهود، والنصارى.

وأما تغيير بعض ألفاظها ففيه نزاع بين المسلمين.

والصواب الذى عليه الجمهور أنه بدل بعض ألفاظها، كما ذكر ذلك فى مواضعه.

الوجه الثانى: أن قياسهم كتبهم على القرآن، وأنه كما لا تسمع دعوى التبديل فيه، فكذلك فى كتبهم قياس باطل فى معناه ولفظه.

أما معناه: فكل ما أجمع المسلمون عليه من دينهم إجماعاً ظاهراً معروفاً عندهم فهو منقول عن الرسول نقلاً متواتراً، بل معلوماً بالاضطرار من دينه، فإن الصلوات الخمس، والزكاة، وصيام شهر رمضان، وحج البيت العتيق، ووجوب العدل، والصدق، وتحريم الشرك، والفواحش، والظلم، بل وتحريم

الخمر ، والميسر ، والربا ، وغير ذلك منقول عن النبي صلى الله عليه وسلم نقلاً متواتراً كنقل ألفاظ القرآن الدالة على ذلك .

ومن هذا الباب عموم رسالته صلى الله عليه وسلم ، وأنه مبعوث إلى جميع الناس : أهل الكتاب وغير أهل الكتاب بل إلى الثقلين : الإنس والجن ، وأنه كان يكفر اليهود والنصارى الذين لم يتبعوا ما أنزل الله عليه ، كما كان يكفر غيرهم ممن لم يؤمن بذلك ، وأنه جاهدهم وأمر بجهادهم .

فالمسلمون عندهم ـ منقولا عن نبيهم نقلا متواتراً ـ ثلاثة أمور : لفظ القرآن ومعانيه التي أجمع المسلمون عليها . والسنة المتواترة ، وهي الحكمة التي أنزلها الله عليه غير القرآن .

كما قال تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلّمكم الكتاب والحكمة ﴾ ، [سورة البقرة : ١٥١] وقال تعالى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾ ، [سورة النساء : ١١٣] وقال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٣١] . وقال تعالى : ﴿ واذكُرْن ما يُتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ ، [سورة الأحزاب : ٣٤] .

وبذلك دعى الخليل حيث قال لما بنى ـ هو وإسماعيل ـ الكعبة بأرض «فاران» المذكورة في الكتاب الأول ، قال تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل * ربنا تقبّل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمَيْن لك ومن ذريتنا أمةً مسلمة لك وأرِنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٢٧ ـ ١٢٩] .

وقال صلى الله عليه وسلم : «ألا إني أوتيت الكتاب ، ومثله معه» .

فالمسلمون عندهم نقل متواتر عن نبيهم بألفاظ القرآن، ومعانيه المتفق عليها، وبالسنة المتواترة عنه مثل كون الظهر والعصر والعشاء أربعاً، وكون المغرب ثلاث ركعات، وكون الصبح ركعتين، ومثل الجهر فى العشائين والفجر، والمخافتة فى الظهر والعصر، ومثل كون الركعة فيها سجدتان، وكون الطواف بالبيت، وبين الصفا والمروة سبعا، ورمى الجمرات كل واحدة سبع حصيات، وأمثال ذلك.

وأيضاً فالمسلمون يحفظون القرآن فى صدورهم حفظا يستغنون به عن المصاحف كما ثبت فى الصحيح الذى رواه مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن ربى قال لى : إنى منزل عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرأه نائماً ويقظانا » .

يقول: ولو غسل بالماء من المصاحف لم يغسل من القلوب، كالكتب المتقدمة فإنه لو عدمت نسخها لم يوجد من ينقلها نقلا متواتراً محفوظة فى الصدور .

والقرآن مازال محفوظاً فى الصدور نقلا متواتراً، حتى لو أراد مريد أن يغير شيئاً من المصاحف، وعرض ذلك على صبيان المسلمين لعرفوا أنه قد غير المصحف لحفظهم للقرآن من غير أن يقابلوه بمصحف، وأنكروا ذلك .

وأهل الكتاب يقدر الإنسان منهم أن يكتب نسخاً كثيرة من التوراة والإنجيل، ويغيّر بعضها ويعرضها على كثير من علمائهم، ولا يعرفون ما غير منها إن لم يعرضوه على النسخ التى عندهم .

ولهذا لما غير من نسخ التوراة راج ذلك على طوائف منهم ولم يعلموا التغيير .

وأيضاً فالمسلمون لهم الأسانيد المتصلة بنقل العدول الثقات لدقيق الدين، كما نقل العامة جليله، وليس هذا لأهل الكتاب .

وأيضاً فما ذكروه من أن كتبهم مكتوبة باثنين وسبعين لسانا هو أقرب إلى التغيير من الكتاب الواحد باللغة الواحدة، فإن هذا مما يحفظه الخلق الكثير، فلا يقدر أحد أن يغيره

وأما الكتب المكتوبة باثنين وسبعين لسانا، فإذا قدر أن بعض النسخ

الموجودة ببعض الألسنة غُيِّر بعض مافيها ، لم يعلم ذلك سائر أهل الألسن الباقية، بل ولم يعلم بذلك سائر أهل النسخ الأخرى ، فالتغيير فيها ممكن ، كما يمكن في نظائر ذلك .

وماادعوه من تعذر جمع جميع النسخ ، هو حجة عليهم ، فإن ذلك إذا كان متعذراً لم يمكن الجزم باتفاق جميع النسخ لواحد حتى يشهد بأنها كلها متفقة لفظا ومعنى ، بل إمكان التغيير فيها أيسر من إمكان الشهادة باتفاقها .

ولهذا لايمكن أحداً تغيير القرآن مع كونه محفوظا في القلوب منقولاً بالتواتر مع أنا لانشهد لجميع المصاحف بالاتفاق ، بل قد يقع في بعض نسخ المصاحف ماهو غلط يعلمه حفاظ القرآن ، ولا يحتاجون إلى اعتبار ذلك بمصحف آخر .

وتلك الكتب لايحفظ كلا منها قوم من أهل التواتر حتى يعتبر النسخ بها ، ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام فيهم موجودين ، كانوا هم المرجع للناس فيما يعتمدون عليه إذا غير بعض الناس شيئاً من الكتب ، فلما انقطعت النبوة فيهم أسرع فيهم التغيير .

فلهذا بدل كثير من النصارى كثيراً من دين المسيح عليه السلام ، بعد رفعه بقليل من الزمان ، وصاروا يبدّلون شيئاً بعد شيء ، وتبقى فيهم طائفة متمسكة بدين الحق إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقد بقي من أولئك الذين على الحق طائفة قليلة كما في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه ، عن عياض بن حمار المشاجعي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ماتوا قبيل مبعثه صلى الله عليه وسلم » .

وقد أدرك سلمان الفارسي - وكان قد تنصر بعد أن كان مجوسياً - طائفة ممن كانوا متبعين لدين المسيح عليه السلام ، واحد بالموصل ، وآخر بنصيبين ، وآخر بعمورية.

وكل منهم يخبر بأنه لم يبق على دين المسيح عليه السلام إلا قليل ، إلى أن قال له آخرهم : لم يبق عليه أحد ، وأخبره أنه يبعث نبي بدين إبراهيم من جهة الحجاز ، فكان ذلك سبب هجرة سلمان إليه وإيمانه به .

فالدين الذى اجتمع عليه المسلمون اجتماعا ظاهرا معلوما ، هو منقول عن نبيهم نقلا متواتراً ، نقلوا القرآن ، ونقلوا سنته ، وسنته مفسرة للقرآن مبينة له كما قال تعالى له: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم﴾ ، [سورة النحل ٤٤] . فبين ما أنزل الله لفظه ومعناه فصار معاني القرآن التي اتفق عليها المسلمون اتفاقا ظاهراً مما توارثته الأمة عن نبيها ، كما توارثت عنه ألفاظ القرآن فلم يكن - ولله الحمد - فيما اتفقت عليه الأمة شيء محرف مبدل من المعاني ، فكيف بألفاظ تلك المعاني ؟

فإن نقلها والاتفاق عليها أظهر منه في الألفاظ فكان الدين الظاهر للمسلمين الذين اتفقوا عليه مما نقلوه عن نبيهم ، لفظه ومعناه فلم يكن فيه تحريف ولا تبديل ، لا للفظ ولا للمعنى ، بخلاف التوراة والإنجيل فإن من ألفاظهما ما بدل معانيه وأحكامه اليهود أو النصارى أو مجموعهما تبديلا ظاهراً مشهوراً في عامتهم ، كما بدلت اليهود ما في الكتب المتقدمة من البشارة بالمسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، وما في التوراة من الشرائع ، وأمور في بعض الأخبار ، وكما بدلت النصارى كثيراً مما في التوراة والنبوات من الأخبار ومن الشرائع التي لم يغيرها المسيح ، فإن ما نسخه الله على لسان المسيح من التوراة يجب اتباع المسيح فيه .

وأما ما بدل بعد المسيح مثل استحلال لحم الخنزير ، وغيره مما حرمه الله ، ولم يبحه المسيح ، ومثل إسقاط الختان ، ومثل الصلاة إلى المشرق ، وزيادة الصوم ونقله من زمان إلى زمان ، واتخاذ الصور في الكنائس ، وتعظيم الصليب ، واتباع الرهبانية ، فإن هذه كلها شرائع لم يشرعها نبي من الأنبياء لا المسيح ولا غيره ، خالفوا بها شرع الله الذى بعث به الأنبياء من غير أن يشرعها الله على لسان نبي .

الوجه الثالث : أن القرآن قد ثبت بالنقل المتواتر ، المعلوم بالضرورة الموافق

والمخالف أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يقول : إنه كلام الله لا كلامه ، وأنه مبلغ له عن الله ، وكان يفرق بين القرآن ، وبين ما يتكلم به من السنة ، وإن كان ذلك مما يجب اتباعه فيه تصديقاً وعملا .

فإن الله أنزل عليه الكتاب والحكمة ، وعلم أمته الكتاب والحكمة ، كما قال تعالى : ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٦٤] . وقال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكمُ به ﴾ [سورة البقرة : ٢٣١] وقال تعالى : ﴿ وأنزل عليك الكتابَ والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم ﴾ ، [سورة النساء : ١١٣] ، وقال تعالى : ﴿ واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ ، [سورة الأحزاب : ٣٤] : وقال تعالى عن الخليل وابنه إسماعيل : ﴿ ربنا واجعلنا مُسلمَين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرِنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ﴾ ، [سورة البقرة : ١٢٨ ، ١٢٩] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا إنى أوتيت الكتاب ، ومثله معه » فكان يعلم أمته الكتاب وهو القرآن العزيز الذى أخبرهم أنه كلام الله ، لا كلامه ، وهو الذى قال عنه ، قال : ﴿ لئن اجتمعتْ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ ، [سورة الإسراء : ٨٨] ، وهو الذى شرع لأمته أن تقرأه فى صلاتهم فلا تصح صلاة إلا به ، وعلمهم مع ذلك الحكمة التى أنزلها الله عليه وفرق بينها وبين القرآن من وجوه :

منها أن القرآن معجز .

ومنها أن القرآن هو الذى يقرأ فى الصلاة دونها .

ومنها أن ألفاظ القرآن العربية منزلة على ترتيب الآيات ، فليس لأحد أن يغيرها باللسان العربي باتفاق المسلمين ، ولكن جوز تفسيرها باللسان العربي ، وترجمتها بغير العربي .

وأما تلاوتها بالعربي بغير لفظها ، فلا يجوز باتفاق المسلمين، بخلاف ما علمهم من الحكمة ، فإنه ليس حكم ألفاظها حكم ألفاظ القرآن .

ومنها أن القرآن ﴿ لا يَمَسُّهُ إلاَّ المطهرون ﴾ ، [سورة الواقعة : ٧٩] .
ولا يقرأه الجنب كما دلت عليه سنته عند جماهير أمته ، بخلاف ما ليس بقرآن .

والقرآن تلقته الأمة منه حفظاً في حياته ، وحفظ القرآن جميعه في حياته غير واحد من أصحابه ، وما من الصحابة إلا من حفظ بعضه ، وكان يحفظ بعضهم ما لا يحفظه الآخر ، فهو جميعه منقول سماعا منه بالنقل المتواتر ، وهو يقول إنه مبلغ له عن الله ، وهو كلام الله لا كلامه .

وفي القرآن ـ ما يبين أنه كلام الله ـ نصوص كثيرة ، وكان الذين رأوا محمداً صلى الله عليه وسلم ونقلوا ما عاينوه من معجزاته وأفعاله وشريعته وما سمعوه من القرآن وحديثه ألوفا مؤلفة أكثر من مائة ألف رأوه وآمنوا به .

وأما الأناجيل التي بأيدي النصارى ، فهي أربعة أناجيل : إنجيل متّى ، ويوحنا ، ولوقا ، ومرقس . وهم متفقون على أن لوقا ومرقس لم يريا المسيح، وإنما رآه متى ويوحنا ، وأن هذه المقالات الأربعة التي يسمونها الإنجيل ، وقد يسمون كل واحد منهم إنجيلا إنما كتبها هؤلاء بعد أن رفع المسيح فلم يذكروا فيها أنها كلام الله ، ولا أن المسيح بلغها عن الله ، بل نقلوا فيها أشياء من كلام المسيح وأشياء من أفعاله ومعجزاته .

وذكروا أنهم لم ينقلوا كل ما سمعوه منه ورأوه فكانت من جنس ما يرويه أهل الحديث والسير والمغازي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، من أقواله ، وأفعاله التي ليست قرآنا .

فالأناجيل التى بأيديهم شبه كتاب السيرة ، وكتب الحديث ، ومثل هذه الكتب ، وإن كان غالبها صحيحاً ، وما قاله المسيح عليه السلام فهو مبلغ له عن الله يجب فيه تصديق خبره ، وطاعة أمره ، كما قاله الرسول من السنة فهو يشبه ما قاله الرسول من السنة . فإن منها ما يذكر الرسول أنه قول الله كقوله يقول الله تعالى « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » ونحو ذلك .

ومنها ما يقول هو ، ولكن هو أيضاً مما أوحاه الله إليه ، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله ، فهكذا ماينقل فى الإنجيل وهو من هذا النوع فإنه وإن كان أمراً من المسيح فأمر المسيح أمر الله ، ومن أطاع المسيح فقد أطاع الله .

وما أخبر به المسيح عن الغيب فالله أخبره به ، فإنه معصوم أن يكذب فيما يخبر به ، وإذا كان الإنجيل يشبه السنة المنزلة ، فإنه قد يقع فى بعض ألفاظها غلط ، كما يقع فى كتاب السيرة ، وسنن أبى داود والترمذى ، وابن ماجه ، ثم هذه الكتب قد اشتهرت واستفاضت بين المسلمين ، فلا يمكن أحداً ــ بعد اشتهارها وكثرة النسخ بها ــ أن يبدلها كلها .

لكن فى بعض ألفاظها غلط وقع فيها قبل أن تشتهر ، فإن المحدث وإن كان عدلا فقد يغلط ، لكن ما تلقاه المسلمون بالقبول والتصديق والعمل من الأخبار فهو مما يجزم جمهور المسلمين بصدقه عن نبيهم .

هذا مذهب السلف ، وعامة الطوائف ، كجمهور الطوائف الأربعة ، وجمهور أهل الكلام من الكلابية والكرامية والأشعرية وغيرهم ، ولكن ظن بعض أهل الكلام أنه لايجزم بصدقها لكون الواحد قد يغلط أو يكذب ، وهذا الظن إنما يتوجه فى الواحد الذى لم يعرف صدقه وضبطه .

أما إذا عرف صدقه وضبطه ، إما بالمعجزات كالأنبياء ، وإما بتصديق النبى له فيما يقول ، وإما باتفاق الأمة المعصومة على صدقه ، واتفاقهم على العمل بخبره

أو اتفاقهم على قبول خبره وإقراره ، وذكره من غير نكير أو ظهور دلائل وشواهد وقرائن احتفت بخبره ، ونحو ذلك من الدلائل الدالة على صدق المخبر ، فهذه يجب معها الحكم بصدقه ، بأنه لم يكذب ولم يغلط وإن كان خبره لو تجرد عن تلك الدلائل أمكن كذبه ، أو غلطه كما أن الخبر المجرد لايجزم بكذبه إلا بدليل يدل على ذلك .

أما قيام دليل عقلي قاطع أو سمعي قاطع على أنه بخلاف مخبره ، فيجزم ببطلان مخبره وحينئذ فالمخبر إما كاذبا أو غالط قد يعلم أحدهما بدليل .

فالمسلمون عندهم من الأخبار عن نبيهم ما هو متواتر وما اتفقت الأمة المعصومة على تصديقه ، وماقامت دلائل صدقه من غير هذه الجهة مثل أن يخبر، واحد أو اثنان أو ثلاثة بحضرة جمع كثير لايجوز أن يتواطئوا على الكذب بخبر يقولون : إن أولئك عاينوه وشاهدوه ، فيقرونهم على هذا ولا يكذب به منهم أحد،فيعلم بالعادة المطردة أنه لوكان كاذبا لامتنع اتفاق أهل التواتر على السكوت عن تكذيبه ، كما يمتنع اتفاقهم على تعمد الكذب .

وإذا نقل الواحد والإثنان ماتوجب العادة اشتهاره وظهوره ولم يظهر ونقلوه مستخفين بنقله لم ينقلوه على رءوس الجمهور ، علم أنهم كذبوا فيه .

ودلائل صدق الخبر وكذبه كثيرة متنوعة ليس هذا موضع بسطها ،ولكن المقصود هنا أن المسلمين تواتر عنهم عن نبيهم ألفاظ القرآن ومعانيه المجمع عليها، والسنة المتواترة ، وعندهم عن نبيهم أخبار كثيرة معلومة الصدق بطرق متنوعة ، كتصديق الأمة المعصومة ، ودلالة العادات ، وغير ذلك ، وهم يحفظون القرآن فى صدورهم ، لايحتاجون فى حفظه إلى كتاب مسطور ، فلو عدمت المصاحف من الأرض لم يقدح ذلك فيما حفظوه .

بخلاف أهل الكتاب فإنه لو عدمت نسخ الكتب لم يكن عندهم به نقل متواتر بألفاظها ، إذ لايحفظها إلا قليل لا يوثق بحفظهم ، فلهذا كان أهل

الكتاب بعد انقطاع النبوة عنهم يقع فيهم من تبديل الكتب ، إما تبديل بعض أحكامها ومعانيها ، وإما تبديل بعض ألفاظها مالم يقوموا بتقويمه .

ولهذا لا يوجد فيهم الإسناد الذى للمسلمين ، ولا لهم كلام فى نقلة العلم ، وتعديلهم وجرحهم ، ومعرفة أحوال نقلة العلم ما للمسلمين ، ولا قام دليل سمعى ولا عقلى على أنهم لا يجتمعون على خطأ ، بل قد علم أنهم اجتمعوا على الخطأ لما كذبوا المسيح ، ثم كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، فإذا كانت الكتب المنقولة عن الأنبياء من جنس الكتب المنقولة عن محمد ، ولم تكن متواترة عنهم ولم يكن تصديق غير المعصوم حجة ، لم يكن عندهم من العلم بالتمييز بين الصدق والكذب ما عند المسلمين ، فهذه الأناجيل التى بأيدى النصارى من هذا الجنس فيها شىء كثير من أقوال المسيح وأفعاله ومعجزاته ، وفيها ما هو غلط عليه بلاشك ، والذى كتبها فى الأول إذا لم يكن ممن يتهم بتعمد الكذب ، فإن الواحد والإثنين والثلاثة والأربعة لا يمتنع وقوع الغلط والنسيان منهم .

لاسيما ماسمعه الإنسان ورآه ، ثم حدث به بعد سنين كثيرة ، فإن الغلط فى مثل هذا كثير ، ولم يكن هناك أمة معصومة يكون تلقيها لها بالقبول والتصديق موجباً للعلم بها ، لئلا تجتمع الأمة المعصومة على الخطأ ، والحواريون كلهم اثنا عشر رجلا .

وقصة الصلب مما وقع فيها الاشتباه ، وقد قام الدليل على أن المصلوب لم يكن هو المسيح عليه السلام ﴿ بل شبه ﴾ وهم ظنوا أنه المسيح ، والحواريون لم يرا أحد منهم المسيح مصلوباً ، بل أخبرهم بصلبه بعض من شهد ذلك من اليهود .

فبعض الناس يقولون : إن أولئك تعمدوا الكذب ، وأكثر الناس يقول: اشتبه عليهم ، ولهذا كان جمهور المسلمين يقولون فى قوله ﴿ ولكن شبه لهم ﴾ عن أولئك ، ومن قال بالأول جعل الضمير فى ﴿ شبه لهم ﴾ عن السامعين لخبر أولئك ، فإذا جاز أن يغلطوا فى هذا ، ولم يكونوا معصومين فى نقله ، جاز أن يغلطوا فى

بعض ما ينقلونه عنه ، وليس هذا مما يقدح فى رسالة المسيح ، ولا فيما تواتر نقله عنه بأنه رسول الله الذى يجب اتباعه ، سواء صلب أولم يصلب ، وما تواتر عنه ، فإنه يجب الإيمان به ، سواء صلب أو لم يصلب .

والحواريون مصدقون فيما ينقلونه عنه لا يتهمون بتعمد الكذب عليه لكن إذا غلط بعضهم فى بعض ما ينقله لم يمنع ذلك أى يكون غيره معلوماً ، لاسيما إذا كان ذلك الذى غلط فيه مما تبين غلطه فيه فى مواضع أخر .

وقد اختلفت النصارى فى عامة ما وقع فيه الغلط ، حتى فى الصلب ، فمنهم من يقول المصلوب لم يكن المسيح ، بل الشبه كما يقول المسلمون ، ومنهم من يقر بعبوديته لله وينكر الحلول والاتحاد كالأريوسية ، ومنهم من ينكر الاتحاد وإن أقر بالحلول كالنسطورية .

وأما الشرائع التى هم عليها فعلماؤهم يعلمون أن أكثرها ليس عن المسيح عليه السلام ، فالمسيح لم يشرع لهم الصلاة إلى المشرق ولا الصيام الخمسين ، ولا جعله فى زمن الربيع ، ولا عيد الميلاد ، والغطاس ، وعيد الصليب ، وغير ذلك من أعيادهم ، بل أكثر ذلك مما ابتدعوه بعد الحواريين ، مثل عيد الصليب فإنه مما ابتدعته « هيلانة الحرانية » أم قسطنطين ، وفى زمن قسطنطين غيروا كثيراً من دين المسيح والعقائد ، والشرائع فابتدعوا « الأمانة » التى هى عقيدة إيمانهم ، وهى عقيدة لم ينطق بها شىء من كتب الأنبياء التى هى عندهم ، ولا هى منقولة عن أحد من الأنبياء ، ولا عن أحد من الحواريين الذين صحبوا المسيح ، بل ابتدعها لهم طائفة من أكابرهم قالوا : كانوا ثلاث مائة وثمانية عشر .

واستندوا فى ذلك إلى ألفاظ متشابهة فى الكتب ، وفى الكتب ألفاظ محكمة تناقض ما ذكروه ، كما قد بسط فى موضع آخر ، وكذلك عامة شرائعهم التى وضعوها فى كتاب « القانون » بعضها منقول عن الأنبياء ، وبعضها منقول عن الحواريين ، وكثير منها مما ابتدعوه ليست منقولة عن أحد من الأنبياء ،

ولا عن الحواريين ، وهم يجوّزون لأكابر أهل العلم والدين أن يغيروا ما رأوه من الشرائع ، ويضعوا شرعا جديداً ، فلهذا كان أكثر شرعهم مبتدعا ، لم ينزل به كتاب ، ولا شرعه نبي .

فصل فى أن الغلط إنما وقع فى الترجمة

وأما قولهم : كيف يمكن تغيير كتبنا التى هى مكتوبة باثنين وسبعين لسانا ، وفى كل لسان منها كذا كذا ألف مصحف ، ومضى عليها إلى مجيء محمد أكثر من ستمائة سنة ؟

فيقال : أما بعد انتشارها هذا الانتشار فلم يقل المسلمون ، بل ولا طائفة معروفة منهم أن ألفاظ جميع كل نسخة فى العالم غيرت ، لكن جمهور المسلمين الذين يقولون إن فى ألفاظها ماغير ، إنما يدعون تغيير بعض ألفاظها قبل المبعث ، أو تغيير بعض النسخ بعد المبعث لاتيغير جميع النسخ ، فبعض الناس يقول :إن ذلك التغيير وقع فى أول الأمر ، ويقول بعضهم : إن منها ماغير بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم،ولا يقولون:إنه غير كل نسخة فى العالم،بل يقولون : غير بعض النسخ دون البعض،وظهر عند كثير من الناس النسخ المبدلة دون التى لم تبدل .

والنسخ التى لم تبدل هى موجودة عند بعض الناس .

ومعلوم أن هذا لا يمكن نفيه فإنه لا يمكن أحداً أن يعلم أن كل نسخة فى العالم بكل لسان مطابق لفظها سائر النسخ لسائر الألسنة إلا من أحاط علما بذلك ، وهم قد سلموا أن أحداً لا يمكنه ذلك .

وأما من ذكر أن التغيير وقع فى أول الأمر فهم يقولون : إنما أخذت الأناجيل عن أربعة : اثنان منهم لم يريا المسيح ، بل إنما رآه اثنان من نقلة الإنجيل : متى ويوحنا .

ومعلوم إمكان التغيير فى مثل ذلك .

وأما قولهم : إنها مكتوبة باثنين وسبعين لسانا فمعلوم باتفاق النصارى أن المسيح لم يكن يتكلم إلا بالعبرية كسائر أنبياء بنى إسرائيل ، وأنه كان مختونا ختن بعد السابع كما يختن بنو إسرائيل ، وأنه كان يصلى إلى قبلتهم لم يكن يصلى إلى الشرق ، ولا أمر بالصلاة إلى الشرق .

ومن قال : إن لسانه كان سريانيا ، كما يظنه بعض الناس فهو غالط ، فالكلام المنقول عنه فى الأناجيل إنما تكلم به عبريا ، ثم ترجم من تلك اللغة إلى غيرها .

والترجمة يقع فيها الغلط كثيراً ، كما وجدنا فى زماننا من يترجم التوراة من العبرية إلى العربية ، ويظهر فى الترجمة من الغلط ما يشهد به الحذاق الصادقون ممن يعرف اللغتين .

والنصارى يقولون : إنما كتبت بأربع لغات : بالعبرية ، والرومية ، واليونانية ، والسريانية .

وأما قولهم : إنها كتبت باثنين وسبعين لغة ، فهذا إن كان صحيحاً فإنما كتبت بعد أن كتبت تلك الأربعة ، فإذا كان الغلط وقع فى مواضع من تلك الأربعة ، لم يرفعه بعد ذلك كتابتها باثنين وسبعين لغة ، فإن المسلمين لا يقولون : إنها كتبت باثنين وسبعين لغة غير لفظها فى جميع الألسن لإثنين وسبعين لغة فى كل نسخة من ذلك .

وإنما يقال التغيير وقع قبل ذلك كما يقال فى سائر ماورد عن المسيح وموسى ومحمد عليهم صلوات الله وسلامه من الحديث ، مثل سيرة ابن اسحاق ، وأحاديث السنن ، والمسانيد المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن فى العالم بكل كتاب منها نسخ كثيرة ، لا يمكن أن يغير منها فصل طويل ، ولكن فى نفس السيرة

وفيه غلط في مواضع وأحاديث وقعت في السنن هي غلط في الأصل ، وهذه كتب التفسير والفقه والرقائق ، مامن كتاب إلا وبه نسخ كثيرة في العالم لايمكن تغيير فصل طويل منها ، وفيها أحاديث غلط في الأصل .

والأناجيل التي بأيدي النصارى تشبه هذا ، ولهذا أمروا أن يحكموا فيها ، فإن فيها أحكام الله ، وعامة مافيها من الأحكام لم يبدل لفظه وإنما بدلت بعض ألفاظ الخبريات ، وبعض معاني الأمريات ، كما نؤمر نحن أن نعمل بأحاديث الأحكام المعروفة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن العلماء اعتنوا بضبطها أكثر من اعتنائهم بضبط الخبريات ، كأحاديث الزهد والقصص والفضائل ، ونحو ذلك ، إذ حاجة الأمم إلى معرفة الأمر والنهي أكثر من حاجتهم إلى معرفة التفاصيل بالخبريات التي يكتفى بالإيمان المجمل بها .

وأما الأمر والنهي . فلابد من معرفته على وجه التفصيل ، إذ العمل بالمأمور لا يكون إلا مفصلا والمحظور الذي يجب اجتنابه ، لابد أن يميز بينه وبين غيره ، كما قال تعالى ﴿وما كانَ اللهُ ليضلَّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يُبيِّنَ لهم مايتَّقون﴾ ، [التوبة : ١١٥] .

والنصارى لا يحتاجون عند أنفسهم إلى هذا ، فإنه لا يجب عندهم أن يتمسكوا بشرع منقول عن المسيح عليه السلام ، وعندهم لأكابرهم أن يشرعوا ديناً لم يشرعه المسيح ، ويقولون : ما شرعه هؤلاء فقد شرعه المسيح فلم يكن لهم عناية ولا معرفة بشرع المسيح ، كما للمسلمين عناية ومعرفة بشرع محمد صلى الله عليه وسلم .

فصل فيما حدث في التوراة من تغيير

وأما التوراة ، فمن المعلوم عند المسلمين واليهود والنصارى أن بيت المقدس خرب الخراب الأول ، وخلا أهله منه وسُبُوا ، ولم يكن هناك من التوراة نسخ كثيرة ظاهرة ، بل إنما أخذت عن نفر قليل .

كما يقولون : إن عزيرا أملاها وأنهم وجدوا نسخة أخرى فقابلوها بها . والمقابلة تحصل باثنين ، وقد يغلط أحدهما ، وهم يذكرون أن من الملوك من أمر اثنين وسبعين حبراً منهم بنقلها ، واعتبر بعض تلك النسخ ببعض ، وهذا إذا كان صدقا لا يمنع أن يكون الغلط وقع فى بعض ألفاظها قبل ذلك إلا أن يثبت أنها مأخوذة عن نبى معصوم ، أو أقر جميع ألفاظها نبىٌّ معصوم .

فما قاله المعصوم فهو حق ، وما ثبت بالنقل المتواتر فهو حق .

وهؤلاء القائلون إنه وقع التغيير فى بعض ألفاظها فى ذلك الزمان يقولون : لم تؤخذ عن نبى معصوم ، ولا نقلت بالتواتر .

ومن نازع من المسلمين وأهل الكتاب يقولون : أخذت عن العزير ، وهو نبى معصوم هذا مما يحتاج المثبت فيه والنافى إلى تحقيقه .

وإذا قالت النصارى : فالمسيح عليه السلام أقرها ، قيل : المسيح عليه السلام لم يمكن أن يلزمهم بما أوجبه الله عليهم من الإيمان به وطاعته ، فكيف كان يمكنه أن يغير نسخ التوراة التى عندهم مع كثرتها ، وهم قد طلبوا قتله وصلبه لعجزه وضعفه، وصلبوا شبيهه كما يقوله المسلمون أو صلبوا نفسه كما يقوله النصارى، فكيف كان يمكنه أن يصلح ما غير منها ؟

وأما مَنْ بعد المسيح فليس معصوماً ، والمسيح غيّر بعض أحكامها وأقر أكثرها ، والأحكام إنما يدعى المسلمون فيها النسخ وتبديلها بالاعتقاد ، بخلاف موجبها والعمل بذلك لا يحتاجون إلى دعوى تبديل ألفاظها .

كما بدلوا شريعة الرجم بغيرها ، وهو مكتوب فى التوراة ، بخلاف الخبريات فإن هذه يقول أكثر المسلمين : إن التغيير وقع فى بعض ألفاظها .

وأما النبوات المنقولة عن الإثنين وعشرين نبياً ، فهذه لا تعلم منها نبوة واحدة تواترت جميع ألفاظها ، بل أحسن أحوالها أن تكون بمنزلة الإنجيل ، وهو بمنزلة ما ينقل من أقوال الأنبياء وسيرهم ، كسيرة ابن اسحق ، أو بعض

كتب المسانيد والسنن التي ينقل فيها ماينقله الناقلون من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله، وأكثره صدق، وبعضه غلط.

ولكن هذه الأمة حفظ الله لها ما أنزله، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾، (سورة الحجر : ٩) : فما في تفسير القرآن، أو نقل الحديث أو تفسيره من غلط فإن الله يقيم لهمن الأمة من يبينه، ويذكر الدليل على غلط الغالط، وكذب الكاذب، فإن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولا يزال فيها طائفة ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة، إذ كانوا آخر الأمم فلا نبي بعد نبيهم، ولا كتاب بعد كتابهم.

وكانت الأمم قبلهم إذا بدلوا وغيروا بعث الله نبياً يبين لهم ويأمرهم وينهاهم، ولم يكن بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبي، وقد ضمن الله أنه يحفظ ما أنزله من الذكر، وأن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، بل أقام الله لهذه الأمة في كل عصر من يحفظ به دينه من أهل العلم والقرآن، وينفي به تحريف الغالين، وانتحال المضلين، وتأويل الجاهلين.

فصل فيما حدث في الإنجيل من تبديل

وأما من قال: إنه غيّر بعض ألفاظها بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم، فهؤلاء يقولون: إنه كان في التوراة والإنجيل وغيرهما ألفاظ صريحة بأمور منها اسم محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه عمد بعض أهل الكتاب فغيروا بعض الألفاظ في النسخ التي كانت عندهم.

لا يقولون: إن هؤلاء غيروا كل نسخة كانت على وجه الأرض، لكن غيروا بعض ألفاظ النسخ، وكتب الناس من تلك النسخ المغيرة نسخاً كثيرة انتشرت فصار أكثر ما يوجد عند كثير من أهل الكتاب هو من تلك النسخ المغيرة.

وفي العالم نسخ أخرى لم تغير، فذكر كثير من الناس أنه رآها وقرأها، وفي

تلك النسخ ماليس فى النسخ الأخرى ، ومما يدل على ذلك أنك فى هذا الزمان إذا أخذت نسخ التوراة الموجودة عند اليهود والنصارى والسامرة وجدت بينهما اختلافا فى مواضع متعددة .

وكذلك نسخ الإنجيل ، وكذلك نسخ الزبور مختلفة اختلافا متباينا بحيث لا يعلم العاقل أن جميع نسخ التوراة الموجودة متفقة على لفظ واحد ، ولا يعلم أن جميع نسخ الإنجيل متفقة على لفظ واحد ، ولا يعلم أن جميع نسخ الزبور متفقة على لفظ واحد ، فضلا عن سائر النبوات .

ومعلوم أنه لا يمكن أهل الكتاب إقامة حجة على أن جميع النسخ بجميع اللغات فى زوايا الأرض متفقة على لفظ واحد فى جميع ما هو موجود من جميع النبوات . والحجة التى احتجوا بها على تعذر تغييرها كلها تدل على تعذر العلم بتساويها كلها .

فإذا قالوا : فمن هو الذى تكلم باثنين وسبعين لسانا ، ومن هو الذى حكم على الدنيا كلها ملوكها وقساوستها وعلمائها حتى حكم على جميع من بأقطار الأرض وجمعها من أربع زوايا الأرض حتى يغيرها ؟

قيل لهم : ومن الذى يعلم اثنين وسبعين لغة؟ ومن هو الذى حكم على الدنيا ملوكها وقساوستها وعلمائها حتى حكم على جميع من بأقطار الأرض وجمعها من أربع زوايا الأرض ، وأحضر كل نسخة موجودة فى جميع الأرض ، وقابل كل نسخة موجودة فى جميع الأرض بجميع النسخ ، فوجد جميع ألفاظ جميع النسخ التى باثنين وسبعين لسانا من جميع أقطار الأرض لفظا متفقا ، لم يختلف ألفاظها ؟

فإن دعوى العلم بهذا ممتنع أعظم من امتناع دعوى تغييرها ، فإنه إن أمكن أحداً أن يجمع جميع النسخ كانت قدرته على تغيير بعض ألفاظها كلها أيسر عليه من مقابلة كل ما فى نسخة بجميع ما فى سائر النسخ .

فإنا إذا أحضرنا بكتاب من الكتب عشرة نسخ كان تغيير بعض ألفاظ

العشرة أيسر علينا من مقابلة كل واحدة من العشرة بالتسعة الباقية . إذ المقابلة يُحتاج فيها إلى معرفة جميع ألفاظ كل نسخة ومساواتها للأخرى .

وأما التغيير فيكفى فيه أن يغير من كل نسخة ما يغيره من الأخرى ، فإن كان تغيير جميع النسخ ممتنعاً فى العادة فالعلم باتفاقها أشد امتناعا ؛ وإن كان العلم باتفاقها ممكنا ؛ فإمكان تغيير بعض ألفاظها أيسر وأيسر .

وأما قولهم إن قيل : إنه غيّر بعضها وتُرك بعضها ، فهذا لا يمكن أن يكون لأنها كلها قول واحد ، ولفظ واحد فى جميع الألسن ، فيقال : أما إمكان هذا فظاهر لا ينازع فيه عاقل ، وهو واقع فإنا قد رأينا التوراة التى عند السامرة ، تخالف توراة اليهود والنصارى ، حتى فى العشر الكلمات .

فذكر السامرة فيها من أمر استقبال الطور ما لا يوجد فى نسخ اليهود والنصارى ، وكذلك بين نسخ اليهود والنصارى اختلاف معروف ونسخ الإنجيل مختلفة ، ونسخ الزبور مختلفة اختلافا أكثر من ذلك ، وبكل حال فلا يقدر عاقل أن يقول : يمتنع تغيير بعض النسخ ، ولكن إذا قالوا لم يغير شىء منها ، لأن جميعها قول واحد ، ولفظ واحد فى جميع الألسن ، كانت هذه الدعوى باطلة من وجهين :

أحدهما : أن دعوى العلم بتساوى جميع النسخ أبلغ من دعوى إمكان تغييرها فإن كان التغيير ممتنعاً على جميعها كان علم الواحد بما فى جميعها — وأنها مماثلة الألفاظ مع اختلاف الألسن — أولى بالامتناع .

الثانى : أن هذا دعوى خلاف الواقع ، فإن الاختلاف فى نسخ التوراة والإنجيل والزبور موجود قد رأيناه نحن بأعيننا ، ورآه غيرنا ، فرأيت عدة نسخ بالزبور يخالف بعضها بعضاً اختلافا كثيراً ، ورأينا بعض ألفاظ التوراة التى ينقلها هذه الطائفة ، وهى مكتوبة عندهم يدعون أنها هى التوراة الصحيحة المنقولة عندهم بالتواتر تخالف بعض ألفاظ توراة الطائفة الأخرى ، وكذلك الإنجيل .

وبالجملة قولهم : هذا لا يمكن أن يكون ، لأنها كلها قول واحد ، واللفظ واحد فى جميع الألسن تضمن شيئين :

تضمن دعوى كاذبة ، وحجة باطلة .

فإن قولهم « هذا لا يمكن » مكابرة ظاهرة ، فإن إمكان تغيير بعض النسخ مما لا ينازع عاقل فى إمكانه ، لكن قد يقول القائل : إذا غير بعض النسخ وأظهر ذلك ، شاع ذلك فرأى سائر أهل النسخ تلك النسخة مغايرة بنسخهم فأنكروه ، فإن الهمم والدواعى متوفرة على إنكار ذلك كما يوجد اليوم مثل ذلك لو أراد رجل أن يغير كتاباً مشهوراً عند الناس ، به نسخ متعددة ، فإذا غيّره فوصلت تلك النسخة إلى من يعرف ما فى تلك النسخ أنكروا ذلك .

فيقال : هذا يمكن إذا كانت تلك النسخة المغيرة وصلت إلى طائفة يمتنع عليهم مواطأتهم على الكذب ، فإنه كما يمتنع فى الأخبار المتواترة التواطؤ على الكذب . فيمتنع التواطؤ على كتمان ما يتعذر كتمانه فى العادة :

ومعلوم أنه لا يمتنع على الجماعة القليلة التواطؤ على تغيير بعض النسخ . والنسخ إنما هى موجودة عند علماء أهل الكتاب وليس عامتهم يحفظ ألفاظها ، كما يحفظ عوام المسلمين ألفاظ القرآن ، فإذا قصد طائفة منهم تغيير نسخة أو نسخ عندهم أمكن ذلك ؛ ثم إذا تواطأت طائفة أخرى على أن لا يذكروا ذلك أمكن ذلك ، ولكن إذا كانت الطوائف ممن لا يمكن تواطؤها على الكذب أو الكتمان امتنع ذلك فيهم .

وقد رأينا عند أهل الكتاب كتباً يدعون أنها عندهم من النبى صلى الله عليه وسلم بخط على بن أبى طالب ، فيها أمور تتعلق بأغراضهم ، وقد التبس أمرها على كثير من المسلمين ، وعظموا ما فيها وأعطوا أهل الكتاب ما كتب لهم فيها معتقدين أنهم ممتثلين ما فيها ، فلما وصلت إلى من وصلت إليه من علماء المسلمين

يبينوا كذبها بطرق معلومة بالتواتر ؛ مثل ذكرهم فيها : شهد بما فيها كعب ابن مالك الحبر على النبي صلى الله عليه وسلم ، يعنون كعب الأحبار .

وكعب الأحبار إنما أسلم على عهد عمر بن الخطاب لم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، واسمه كعب بن مانع ، ولكن في الأنصار كعب بن مالك الشاعر الذي أنزل الله توبته في سورة براءة فظن هؤلاء الجهال أن هذا هو ذاك .

ومثل ذكرهم شهادة سعد بن معاذ الذي اهتز لموته عرش الرحمن ، ذكروا شهادته عام خيبر ، وقد اتفق أهل العلم أنه مات عقب غزوة الخندق قبل غزوة خيبر بمدة ، وأمثال ذلك .

وأما حجتهم الداحضة بقولهم : إن جميع كتب التوراة التي في العالم من التوراة والإنجيل والزبور والنبوات موجودة باثنين وسبعين لسانا بلفظ واحد وقول واحد ، فهل يقول عاقل من العقلاء أنه علم ذلك ؟ وأنه علم أن كل نسخة من النبوات الأربعة وعشرين بأحد الألسنة الاثنين وسبعين موافقة لكل نسخة في سائر الألسنة ، ولو ادعى مدع أن كل نسخة من التوارة في العالم باللسان العربي ، أو كل نسخة من الإنجيل في العالم باللسان العربي أو كل نسخة في العالم من الزبور باللسان العربي موافقة لجميع النسخ العربية الموجودة في زوايا العالم لكان قد ادعى مالا يعلمه ولا يمكنه علمه ، فمن أين له ذلك ؟

وهل رأى كل نسخة عربية بهذه الكتب ، أو أخبره من يعلم صدقه أن جميع النسخ العربية الموجودة في العالم موافقة لهذه النسخة ؟ . وكذلك إذا ادعى ذلك في اللسان اليوناني ، والسرياني ، والرومي ، والعبراني ، والهندي ، فإن كان في العالم بكل كتاب من هذه اثنان وسبعون لسانًا يدعون اتفاق نسخ كل لسان من جنس دعوى اتفاق النسخ العربية ؛ فكيف إذا ادعى اتفاق النسخ بجميع الألسنة ؟

وهب أنه يمكن أن يقال ذلك في نسخ لسان نقلها أهله ، والناطقون به ،

فكيف يمكن دعواه فى لسان كثر الناطقون به وانتشر أهله؟ وليس هذا كدعوى اتفاق مصاحف المسلمين بالقرآن ، فإن القرآن لا يتوقف نقله على المصاحف ، بل القرآن محفوظ فى قلوب ألوف مؤلفة من المسلمين ، لا يحصى عددهم إلا الله عز وجل ، فلو عدم كل مصحف فى العالم لم يقدح ذلك فى نقل لفظ من ألفاظ القرآن ، بخلاف الكتب المتقدمة ، فإنه قلّ أن نجد من أهل الكتاب أحداً يحفظ كتابا من هذه الكتب ، فقلّ أن يوجد من اليهود من يحفظ التوراة .

وأما النصارى فلا يوجد فيهم من يحفظ التوارة والإنجيل والزبور والنبوات كلها فضلا عن أن يحفظها باثنين وسبعين لسانا، وإن وجد ذلك فهو قليل لا يمتنع عليهم لا الكذب ولا الغلط ، فتبين أن ما ذكروه من انتشار كتبهم بالألسنة المختلفة هو من أقوى الأمور فى عدم العلم بتماثل مافيها من الألفاظ ، وأن القرآن إذا كان منقولا بلغة واحدة ، وذلك اللسان يحفظه خلق كثير من المسلمين فكان ذلك مما يبين أن القرآن لا يمكن أحداً أن يغير شيئاً من ألفاظه ، وإن أمكن تغيير بعض ألفاظ التوراة والإنجيل ، عند كثير من أهل الكتاب .

والمسلمون لا يدعون أنه غيّر جميع ألفاظ جميع النسخ بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم كما ظنه بهم هؤلاء الجهال ، بل إنما ادعوا ما يسوغه العقل ، بل ويظهر دليل صدقه ، ولكن هؤلاء جهال ادعوا العلم ، بأن جميع النسخ بجميع الألسنة بجميع الكتب بلفظ واحد فادعوا ما لا يمكن أحداً علمه ، وادعوا ما يعلم بطلانه .

فصل فى كيفية التغيير الذى حدث فى الإنجيل

وقد ظهر الجواب عن قولهم فمن هو الذى تكلم باثنين وسبعين لسانا ، أو من هو الذى حكم على الدنيا جميعها ملوكها وقساوستها وعلمائها حتى حكم على الدنيا جميعها من أربع زوايا العالم حتى غيرها ، وإن كان مما أمكنه جمعها كلها أو بعضها .

فهذا مالا يمكن إذ جميعها قول واحد ونص واعتقاد واحد .

وقد ظهر الجواب عن ذلك من وجوه :

أحدها : أنا لم ندع تغييرها بعد أن صارت بهذه الألسن ، وانتشرت بها النسخ ، بل لاندعى التغيير بعد انتشار النسخ فيما ليس من كتب الأنبياء ، مثل كتب النحو والطب والحساب والأحاديث والسنن المنقولة عن الأنبياء مما نقل فى الأصل نقل أحاد ، ثم صارت النسخ به كثيرة منتشرة،فإن أحداً لايدعى أنه بعد انتشار النسخ بكتاب فى مشارق الأرض ومغاربها حكم إنسان على جميع المعمورة ، وجمع النسخ به وغيرها .

ولا ادعى أحد مثل ذلك فى التوارة والإنجيل ، وإنما ادعى ذلك فيها ، لما كانت النسخ قليلة : إما نسخة وإما اثنتين وإما أربعة ونحو ذلك ، أو ادعى تغيير بعض ألفاظ النسخ ، فإن بعض النسخ يمكن تغييرها .

ونسخ التوراة والإنجيل والزبور موجودة اليوم وفى بعضها اختلاف ، لكنه اختلاف قليل والغالب عليها الاتفاق .

وذلك يظهر بالوجه الثانى أن قولهم : إن جميعها قول واحد ، ونص واحد، واعتقاد واحد ليس كما قالوه ، بل نسخ التوراة مختلفة فى مواضع .

وبين توراة اليهود والنصارى والسامرة اختلاف ، وبين نسخ الزبور اختلاف أكثر من ذلك ، وكذلك بين الأناجيل ، فكيف بنسخ النبوات ؟

وقد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم باسمه ، ورأيت نسخة أخرى بالزبور فلم أرَ ذلك فيها وحينئذ فلا يمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس في أخرى .

الوجه الثالث : أن التبديل في التفسير أمر لا ريب فيه ، وبه يحصل المقصود في هذا المقام ، فإنا نعلم قطعاً أن ذكر محمد صلى الله عليه وسلم فيما كان موجودا في زمنه من التوراة والإنجيل ، كما قال تعالى ﴿ الذي يجدونَهُ مكتوباً عندَهم في التّورَاةِ والإنجيلِ ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٧] .

ولا ريب أن نسخ التوراة والإنجيل على عهده كانت كثيرة منتشرة في مشارق الأرض ومغاربها ، فلابد من أحد الأمرين :

إما أن يكون غير اللفظ من بعض النسخ ، وانتشرت النسخ المغيرة .

وإما أن يكون ذكره في جميع النسخ ، كما استخرجه كثير من العلماء ممن كان من أحبار اليهود والنصارى ، وممن لم يكن من أحبارهم استخرجوا ذكره والبشارة به في مواضع كثيرة متعددة من التوراة والإنجيل ونبوات الأنبياء ، كما هو مبسوط في موضع آخر .

ومن قال : إن ذكره موجود فيها أكثر من هذا وأصرح في بعض النسخ ، لا يمكن هؤلاء دفعه بأن يقولوا : قد اطلعنا على كل نسخة في العالم بالتوراة والإنجيل في مشارق الأرض ومغاربها فوجدناها على لفظ واحد ، فإن هذا لا يقوله إلا كذاب ، فإنه لا يمكن بشراً أن يطّلع على كل نسخة في مشارق الأرض ومغاربها ، كما لا يمكنه أن يغير كل نسخة في مشارق الأرض ومغاربها ، فلو لم يعلم اختلاف النسخ لم يمكنه الجزم باتفاقها في اللفظ ، فكيف وقد ذكر الناس المطلعون عليها من اختلاف لفظها ما يبين به كذب من ادعى اتفاق لفظها ؟

فصل فى قوله تعالى « لكم دينكم ولى دين »

قالوا : ثم وجدنا فى هذا الكتاب ، ما هو أعظم من هذا برهاناً ، قوله فى سورة الشورى ﴿ وقل آمنتُ بما أنزلَ اللهُ من كتابٍ وأمرتُ لأعدلَ بينكم الله ربُّنا وربُّكم لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم لا حجةَ بيننا وبينكم الله يجمعُ بيننا وإليهِ المصيرُ ﴾ .

وأما لغير أهل الكتاب فيقول : ﴿ قُل يا أيها الكافرونَ ✽ لا أعبدُ ما تعبدون✽ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ ، [سورة الكافرون : ١ـ٣]السورة كلها.

والجواب : أما قوله ﴿ وقل آمنتُ بما أنزل الله من كتابٍ وأمرتُ لأعدلَ بينكم الله ربُّنا وربُّكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حُجَّةَ بيننا وبينكم ﴾ .

فهذه الآية مذكورة بعد قوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصَّى بهِ نوحاً والذى أوحينا إليكَ وما وصَّينا بهِ إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيمُوا الدين ولا تتفرَّقُوا فيه كَبُرَ على المشركينَ ما تدعوهم إليهِ الله يجتبى إليه مَنْ يشاء ويهدى إليه مَنْ يُنيبُ ✽ وما تفرَّقُوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمةٌ سبقت من ربك إلى أجلٍ مُسمًّى لقضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مُريب ✽ فلذلك فادعُ واستقم كما أُمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتابٍ وأمرت لأعدل بينكم الله ربُّنا وربكم ﴾ الآية ، [سورة الشورى ١٣ ـ ١٥] .

فقد أخبر أنه شرع لنا من الدين ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه، كما قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿فأقم وجهكَ للدين حنيفاً فطرةَ اللهُ التى فطر الناسَ عليها لا تبديل لخلقِ الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناسِ لا يعلمون ✽ مُنيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاةَ

ولا تكونُوا من المشركين * من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً ، كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون ﴾ ، [سورة الروم : ٣٠ ـ ٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسلُ كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم * وإنّ هذه أمتكم أمّةً واحدةً وأنا ربكم فاتقون * فتقطّعوا أمرهم بينهم زُبُراً كل حزبٍ بما لديهم فَرِحون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٥١ـ٥٣].

ثم أخبر عن تفرق الذين أوتوا الكتاب كتفرق اليهود والنصارى، وتفرق فرق اليهود ، وفرق النصارى كالنسطورية واليعقوبية والملكية .

ثم قال : ﴿ وإن الذين أورِثوا الكتابَ مِنْ بعدهم ـ أولئك المفترقين ـ لفى شكٍّ منه مُريبٍ ﴾ ، [سورة الشورى : ١٤] .

وهكذا توجد عامة اليهود والنصارى فى شك من ذلك مريب، وقال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتابَ فاختُلِف فيه ولولا كلمةٌ سبقتْ مِنْ ربك لقضِى بينهم وإنهم لفى شكٍّ منه مُريبٍ ﴾ ، [سورة هود : ١١٠] .

وقال تعالى : ﴿ وما قتلوهُ وما صلبوهُ ولكن شُبِّه لهم وإن الذينَ اختلَفُوا فيه لفى شكٍّ منه ما لهم به من علم إلا اتباعَ الظنِّ وما قتلوه يقيناً * بل رفعه اللهُ إليه وكان اللهُ عزيزاً حكيما ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٧ ، ١٥٨] . ثم قال تعالى : ﴿ فلذلك فادعُ واستقم كما أُمرت ﴾ [سورة الشورى : ١٥] . إلى الدين الذى شرعه الله لنا ﴿ واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ﴾ ، [سورة الشورى : ١٥] .

وهذا يتناول أهواء أهل الكتاب ، كما يتناول أهواء المشركين ، وقد صرح بذلك فى قوله تعالى : ﴿ ولن ترضى عنكَ اليهودُ ولا النصارى حتى تتبع ملّتهم. قل إنّ هُدى الله هو الهدى ولَئِنْ اتّبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك منَ الله من ولىٍّ ولا نصيرٍ ﴾ ، [سورة البقرة : ١٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتابَ بكل آيةٍ ما تبعُوا قِبلتكَ

وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين ﴾ ، [سورة البقرة : ١٤٥] .

كما صرح بنهيه عن اتباع أهواء المشركين في قوله تعالى : ﴿ قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون ﴾ ، [سوره الأنعام : ١٥٠] .

وقوله تعالى : ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ حق ، فإن الله أمره وجميع الخلق أن يؤمنوا بجميع ما أنزل الله ، وكذلك قوله : ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾ ، فإن الله أمره أن يعدل بين جميع الخلق ، وقوله : ﴿ الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ . هذه براءة منه لمن يخاطب بذلك من المشركين ، وأهل الكتاب ، كقوله تعالى : ﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ ، [سورة يونس : ٤١] .

ومثله قوله تعالى : ﴿ قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾ ، [سورة البقرة ١٣٩] .

وكذلك قوله : ﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين ﴾ ، [سورة الكافرون : ١ - ٦] . فإن هذه الكلمة كقوله : ﴿ لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ هي كلمة توجب براءته من عملهم وبراءتهم من عمله ، فإن حرف « اللام » في لغة العرب يدل على الاختصاص ، فقوله ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ يدل على أنكم مختصون بدينكم ، لا أشرككم فيه ، وأنا مختص بديني ، لا تشركوني فيه كما قال ﴿ لي عملي ولكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء ، مما تعملون ﴾ .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ هى براءة من الشرك ، وليس فى هذه الآية أنه رضى بدين المشركين ، ولا أهل الكتاب كما يظنه بعض الملحدين ، ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظنه بعض الغالطين ، وجعلوها منسوخة ، بل فيها براءته من دينهم ، وبراءتهم من دينه ، وأنه لا تضره أعمالهم ، ولا يجزون بعمله ولا ينفعهم.

وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ ولم يرض الرسول بدين المشركين ، ولا أهل الكتاب طرفة عين قط ، ومن زعم أنه رضى بدين الكفار ، واحتج بقوله تعالى : ﴿قل ياأيها الكافرون * لا أعبد ماتعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين ﴾ .

فظن هذا الملحد أن قوله ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ معناه أنه رضى بدين الكفار ، ثم قال : هذه الآية منسوخة ، فيكون قد رضى بدين الكفار ، وهذا من أبين الكذب والافتراء على محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يرض قط إلا بدين الله الذى أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، ما رضى قط بدين الكفار ، لا من المشركين ، ولا من أهل الكتاب .

وقوله : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ لا يدل على رضاء بدينهم ، بل ولا على إقرارهم عليه ، بل يدل على براءته من دينهم ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن هذه السورة براءة من الشرك » .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ إن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ وكذلك قوله تعالى ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ .

وقد يظن بعض الناس أيضاً أن قوله ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ الآية أنى

لا آمر بالقتال ، ولا أنهى عنه ، ولا أتعرض له بنفى ولا إثبات ، وإنما فيها أن دينكم لكم أنتم مختصون به ، وأنا برىء منه ودينى لى وأنا مختص به،وأنتم براء منه .

وهذا أمر محكم لا يمكن نسخه بحال ، كما قال تعالى عن الخليل : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين ﴾ ، [سورة الزخرف : ٢٦ ، ٢٧] . وقد قال تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناهُ طائرهُ فى عُنُقه ﴾ ، [سورة الإسراء : ١٣] . وهو ما طار عنه من خير وشر .

وقد قال تعالى : ﴿ ولا تكسبُ كل نفسٍ إلا عليها ، ولا تزرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٦٤] . وقال تعالى : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ [سورة البقرة . ٢٨٦] . وقال تعالى : ﴿إن أحسنتُمْ أحسنتُمْ لأنفسكم ، وإن أسأتم فلَهَا ﴾ ، [سورة الإسراء : ٧] . بل قال تعالى لنبيه : ﴿ واخفض جناحك لِمَنِ اتبعك من المؤمنين ، فإن عَصَوْك فقل إنى برىء مما تعملون ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢١٥ ، ٢١٦] . فإذا كان قد برأه الله من معصية من عصاه من أتباعه المؤمنين ، فكيف لا يبرئه من كفر الكافرين الذين هم أشد له معصية ومخالفة ؟

فصل فى أن دين الأنبياء كلهم واحد

وأما قوله تعالى ﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين ﴾ .

فهو أمر بالقول لجميع الكافرين من المشركين وأهل الكتاب ، فإن أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بما أنزل إليه من ربه كافرون ، قد شهد عليهم بالكفر ، وأمر بجهادهم وكفر من لم يجعلهم كافرين ، ويوجب جهادهم قال تعالى :

﴿ لم يكن الذين كفروا من أهلِ الكتاب والمشركينَ منفكين حتى تأتيهم البينة ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيحُ ابن مريم ﴾ ؛ ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٢،٧٣] .وقال تعالى: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أُوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] . وحرف «من» فى هذه المواضع لبيان الجنس فتبين جنس المتقدم ، وإن كان ما قبلها يدخل فى جميع الجنس الذى بعدها ، بخلاف ما إذا كانت للتبعيض ، كقوله : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴾ ، [سورة البينة : ١] . فإنه يدخل فى الذين كفروا بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم جميع المشركين وأهل الكتاب .

وكذلك دخل فى الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق جميع أهل الكتاب الذين بلغتهم دعوته ، ولم يؤمنوا به ، وكذلك قوله : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ﴾ ، [سورة النور : ٥٥] . وإن كان جميعهم آمنوا وعملوا الصالحات ، وهذا إذا كان الجنس يتناول المذكورين وغيرهم ، ولكن لم يبق فى الجنس إلا المذكورون ، كما يقول : هذا رجل من بنى عبد المطلب ، وإن لم يكن بقى منهم غيره .

وصفهم بالشرك، وبأنهم يعبدون غيرالله ، كما قال تعالى : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أُمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣١]. فأخبر أنهم اتخذوا من دون الله أرباباً ، واتخذوا المسيح ربا ، وما أمروا إلا

ليعبدوا إلهاً واحداً ، وهؤلاء باتخاذهم غيره أرباباً عبدوهم فاشركوا بالله سبحانه وتعالى عما يشركون .

وقال تعالى : ﴿ ما كان لبشرٍ أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلِّمون الكتاب ، وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟ ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] .

فقد أخبر أيضاً أنه من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فإنه كافر ، وقال تعالى: ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم ، أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ، ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون، قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ، والله هو السميع العليم ﴾ .

فقد وبخ أهل التثليث على أنهم يعبدون مالا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، والله هو السميع العليم ، فدخلوا فى قوله : ﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ .

كما دخل فى ذلك غيرهم من الكفار ، لاسيما وقد دخل فى ذلك اليهود ، وهم أولى بالدخول من غيرهم ، فإن قوله : ﴿ما تعبدون﴾ يتناول صفات المعبود ، والإله الذى يعبده المؤمنون هو الإله الذى أنزل التوراة والإنجيل والقرآن ، وأرسل موسى وعيسى ومحمداً صلوات الله عليهم وسلامه .

والإله المتصف بهذه الصفات لا يعبده اليهود والنصارى ، وهذا كقوله :

﴿ قالُوا نعبدُ إلهكَ وإله آبائكَ إبراهيم وإسماعيلَ وإسحاقَ إلهاً واحداً ونحنُ له مسلمونَ ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٣] . فهذا الإله الذى يعبده محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمته ليس هو إله المشركين الذى يعبدونه ، وإن كان هو المستحق لأن يعبدوه ، فإنهم يشركون بعبادته ويصفونه بما هو برىء منه فلا يخلصون له الدين ، فيعبدوا معه آلهة أخرى ، إن لم يستكبروا عن عبادته . وإله العبد الذى يعبده بالفعل ليس حاله معه كحاله مع الذى يستحق أن يعبده ، وهو لا يعبده ، بل يشرك به أو يستكبر عن عبادته ، فهذا هو الذى فيه : ﴿ لا أعبد ماتعبدون ﴾ والشرك غالب على النصارى ، والكبر غالب على اليهود .

فصل فى قوله تعالى ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾

وأما قوله : ﴿ لا حجةَ بيننا وبينكمُ ﴾ الآية ، [سورة الشورى: ١٥] فهذا ليس خطاباً للنصارى خصوصاً ، بل هو خطاب للجميع ، وهؤلاء النصارى ظنوا أن معنى هذا لاتحاجوا أهل الكتاب، كما ظنوا فى قوله تعالى : ﴿ ولاتجادلُوا أهلَ الكتابِ إلا بالتى هى أحسنُ إلا الذينَ ظلموا منهُمْ ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٤٦] إن معناه . لا تجادلوا أهل الكتاب ـ النصارى ـ إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا أى اليهود .

وهذا تحريف كلام الله عن مواضعه، وهو تشبيه بتحريفهم لما عندهم من التوراة والإنجيل والزبور ، وسائر النبوات ، فإنهم أعظم تسلطاً على تحريف معانيها منهم على تحريف معانى القرآن ، إذ كان القرآن له أمة تحفظه ، وتعرف معانيه وتذب عنه من يحرّف لفظه أو معناه .

وأما تلك الكتب فليس لها من يذب عن لفظها ومعناها ، فلهذا عَظُم تحريفهم لها ، وكان أعظم من تحريفهم للقرآن .

ومما يبين أن هذا الخطاب ليس مختصاً بالنصارى أن هذه السورة مكية ،

والسورة المكية كانت تتناول من لا يقرأ الكتاب ، لا تختص بأهل الكتاب ، بل كانت تعم الأمم أو تختص بالمشركين .

والسور المدنية خطابها تارة لأهل الكتاب ، وتارة تختص بالمؤمنين ، وتارة تعم ، وقد قال تعالى : ﴿ كَبُرَ على المشركينَ ما تدعُوهم إليهِ ، اللهُ يجتَبِى إليهِ من يشاء ويهدِى إليهِ من يُنيبُ ﴾ ، [سورة الشورى : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ وما تفرقُوا إلاّ من بعدِ ما جاءهم العلمُ بغياً بينهم ، ولَوْلاَ كلمةٌ سبقتْ من ربِّكَ إلى أجل مسمًّى لقُضِى بينهم ، وإن الذينَ أُورثُوا الكتابَ من بعدِهم لفِى شَكٍّ منهُ مُريبٍ ﴾ .

فالخطاب إما أن يعم المشركين وأهل الكتاب ، أو يخص المشركين ، وأهل الكتاب : اليهود والنصارى ، و بكل تقدير فلا وجه لتخصيص النصارى به .

وأما قوله تعالى : ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ ، فهو نظير قوله تعالى : ﴿ قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾ ، وقوله : ﴿ فإن حاجُّوكَ فقُلْ أسلمتُ وَجْهِى لله ومن اتَّبعن ، وقُلْ للذين أوتُوا الكتاب والأميين : ءأسلمتم ؟ فإنْ أسلَمُوا فقد اهتَدَوْا و إن توَلَّوا فإنما عليكَ البلاَغُ ﴾ ، [سورة آل عمران : ٢٠] .

فالحجة اسم لما يحتج به من حق وباطل ، كقوله . ﴿ لئلا يكون عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم ﴾ [سورة البقرة : ١٥٠] . فإن الظالمين يحتجون عليكم بحجة باطلة ، كقول المشركين لما حوّلت القبلة إلى الكعبة قد عاد إلى قبلتكم ، فسوف يعود إلى ملتكم ، فهذه حجة داحضة من الظالمين .

ومما يبين ذلك قوله بعد ذلك : ﴿ والذين يُحاجُّونَ فى اللهِ مِنْ بَعْدِ ما استُجيبَ لَهُ حُجَّتهم داحضَةٌ عِندَ ربهم وعليهم غَضَبٌ ولهم عذابٌ شَدِيدٌ ﴾ ، [سورة الشورى : ١٦] .

فسماها حجة وجعلها داحضة وهؤلاء الذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له هم الكفار من المشركين ، وأهل الكتاب .

فهم يحاجُّون المؤمنين ليردوهم عن دينهم ، وقال عن النصارى : ﴿ فَمَنْ حاجَّكَ فيه مِنْ بعد ما جاءك مِنَ العلمِ فَقُلْ تعالَوْا نَدْعُ أبناءنا وأبناءكُمْ ونساءنا ونساءكُمْ وأنفُسنا وأنفسكم ، ثُمَّ نبتهل فَنَجْعل لعنتَ اللهِ عَلَى الكاذِبِينَ ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦١] .

فكان الكفار يحاجون المؤمنين حتى يردوهم عن دينهم ، كما كانوا يؤذونهم فهؤلاء حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد .

ومحاجتهم للمؤمنين من باب الظلم لهم ، والعدوان عليهم ، وقول الباطل . فأمره تعالى أن يقول :﴿ لاحجة بيننا وبينكم ﴾ ، أى ليس لكم أن تظلمونا ، وتعتدوا علينا بحجتكم الداحضة ، وليس المراد بذلك أنا نحن لا نحاجكم ، وندعوكم إلى الحق بالحجج الصحيحة .

فإنه تعالى قال : ﴿ ادع إلى سبيل ربِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنَةِ وجادلهم بالَّتى هىَ أحسنُ ﴾ ، [سورة النحل : ١٢٥] .

فأمره تعالى أن يجادل أهل دعوته مطلقاً من المشركين ، وأهل الكتاب بالتى هى أحسن .

وقد قال تعالى : ﴿ ولا تجادلُوا أهلَ الكتابِ إلاّ بالتى هِىَ أحسنُ إلاّ الذين ظلمُوا مِنْهُم ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٤٦] .

فإن الظالم باغ معتد مستحق للعقوبة ، فيجوز أن يقابل بما يستحقه من العقوبة ، لايجب الاقتصار معه على التى هى أحسن ، بخلاف من لم يظلم ، فإنه لايجادل إلا بالتى هى أحسن ، وأهل الكتاب اسم يتناول اليهود والنصارى ، كما فى نظائره من القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ وطعامُ الذينَ أوتوا الكتابَ ﴾ ، الآية

وقوله : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين ﴾ ، وأمثال ذلك .

والظالم يكون ظالماً بترك ما تبين له من الحق واتباع ما تبين له أنه باطل ، والكلام بلا علم فإذا ظهر له الحق فعند عنه كان ظالماً .

وذلك مثل الألد فى الخصام قال تعالى: ﴿ ومنَ النّاسِ من يُعجِبُكَ قولُهُ فى الحياة الدنيا ويُشهِدُ اللهَ على مافى قلبه وهو ألدُّ الخصامِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٠٤]. وقال : ﴿ يجادِلُونكَ فى الحقِّ بعدَ ما تبيّنَ ﴾ ، [سورة الأنفال : ٦] . وقال : ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علمٌ فلِمَ تحاجُّونَ فيما ليسَ لكم به علمٌ ؟ ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٦] .

فصل فى دعوى النصارى أن الإسلام دين عربى

وقولهم : إنه لم يقل : كونوا له مسلمين ، ولكن ونحن أى عنه وعن العرب التابعين له ، ولما أتى به وجاء فى كتابه .

فقال لهم : هذا ونظائره كلام من لم يفهم القرآن ، بل ولا يفهم كلام سائر الناس ، فإنه إذا عرف من صاحب كتاب ، يقول إنه منزل من الله ، أو يقول إنه صدقه هو أنه يدعو قوما بالأقوال الصريحة الكثيرة ، والأعمال البينة الظاهرة كان سكوته عن دعائهم فى بعض الألفاظ لا ينافى دعاءهم له .

لكن إن كان حكيما فى كلامه كان للسكوت عن دعائهم فى بعض المواضع حكمة تناسب ذلك ، وهذا كقوله تعالى ﴿ قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾، أفتراه لما أمر أمته أن يقولوا: ﴿ونحنُ لَهُ مخلصُونَ ﴾ ، لم يكن أهل الكتاب مأمورين بالإخلاص لله ، وقد ذكر أمر أهل الكتاب بالإخلاص فى غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ وما تفرّقَ الذينَ أوتُوا الكتابَ إلا مِنْ بعدِ ما جاءتْهم البيِّنةُ ٭ وما أُمِرُوا إلاَّ ليعبدُوا اللهَ

مُخلصينَ لهُ الدِّينَ حُنفاء ويُقيمُوا الصَّلاةَ ويُؤتُوا الزَّكاةَ وذلكَ دِينُ القيِّمةِ ﴾ ، [سورة البينة : ٤ ، ٥] .

وكذلك دعاهم إلى الإسلام ، وتوعدهم على التولى عنه فى مثل : ﴿ شَهِدَ اللهُ أنَّهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ والملائِكةُ وأولُوا العِلْمِ قائِماً بالقِسْطِ لا إلهَ إلاَّ هُوَ العزيزُ الحكيمُ * إنَّ الدِّينَ عندَ اللهِ الإسلامُ وما اختَلفَ الذينَ أوتُوا الكتابَ إلاَّ مِنْ بعدِ ما جاءهم العِلمُ بغياً بينهمْ ومَنْ يكفر بآياتِ اللهِ فإنَّ اللهَ سريعُ الحسابِ * فإن حاجُّوكَ فقل أسلمتُ وجهِى للهِ ومَنِ اتبعنِ وقل للذينَ أوتوا الكتابَ والأميين : ءأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتَدَوا وإن تولّوا فإنما عليكَ البلاغُ واللهُ بصيرٌ بالعبادِ ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٨ — ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ ومن يرغبُ عن ملّةِ إبراهيمَ إلا من سَفِهَ نفسَه ولقد اصطَفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرةِ لمنَ الصالحينَ * إذ قال له ربه : أسلِمْ ، قال أسْلَمتُ لربِّ العالمينَ * ووصَّى بها إبراهيمُ بَنيهِ ويعقوبُ يا بَنِيَّ إن اللهَ اصطفى لكمُ الدِّين فلا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مسلمون * أم كُنتم شُهداء إذْ حَضَرَ يعقُوبَ الموت إذ قال لبنيه : ما تعبدونَ من بعدِى ؟ قالوا نعبُد إلهكَ وإله ءابائكَ إبراهيم وإسماعيلَ وإسحقَ إلهاً واحداً ونحنُ له مسلمونَ ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٠ — ١٣٣] .

فقد بين سبحانه أنه لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، أى سفه نفساً أى كانت نفسه سفيهة جاهلة ، هذا أصح القولين فى ذلك ، وهو مذهب الكوفيين من النحاة : يجوِّزون أن يكون المنصوب على التمييز معرفة ، كما يكون نكرة . ثم أخبر عنه أنه : ﴿ قال له ربُّه : أسلمْ ، قال : أسْلمتُ لِربِّ العالمينَ ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣١] .

وذكر أن إبراهيم وصى بها بنيه ، ويعقوب وصى بها بنيه أيضاً كلاهما قال

لبنيه : يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدِّينَ فلا تَمُوتُنَّ إلا وَأنتم مسلمونَ ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٢] .

ثم ذكر أن يعقوب عند موته: ﴿قال لبنيه ما تعبدون من بعدى؟ قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ ، فهولاء إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب كلهم على الإسلام ، وهم يأمرون بالإسلام ، ثم قال بعد ذلك : ﴿وَقالُوا كونُوا هوداً أو نصارَى تهتدُوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ، [سورة البقرة:١٣٥] . ثم قال: ﴿ قولوا آمنا بالله وما أُنزِلَ إلينا وما أُنزِلَ إلى إبراهِيمَ وإسماعِيلَ وإسحق ويعقوبَ والأسباطَ وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرِّقُ بين أحدٍ منهم ونحنُ له مُسلمُونَ ﴾ ، [سورة البقرة ١٣٦] .

ثم قال : ﴿ فإنْ آمنُوا بمثل ما آمنتُمْ بِهِ فَقَدِ اهتدَوا وإنْ تولَّوْا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكَهُمْ الله وهو السميعُ العليمُ ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٧] .

فقد أخبر أنهم إن تولوا عن الإيمان بمثل ما آمنتم به المتضمن قولكم : ﴿ ونحنُ له مسلمونَ ﴾ فإنما هم شقاق ، أى مشاقون لله ورسوله ، كما قال تعالى : ﴿ هو الذى أخرجَ الذينَ كفروا من أهلِ الكتابِ من ديارِهم لأولِ الحشر ماظننتم أن يخرجُوا وظنوا أنهم مانعتُهم حُصونُهم من اللهِ فأتاهم الله من حيثُ لم يحتسبوا وقذفَ فى قلوبهم الرُّعبَ يُخرِبون بيوتَهم بأيديهم وأيدِى المؤمنينَ فاعتبروا يا أُولى الأبصارِ ﴾ إلى قوله ﴿ ذلك بأنهم شاقُّوا اللهَ ورسوله وَمَن يشاقِّ الله فإن الله شديدُ العقابِ ﴾ ، [سورة الحشر : ٢ ، ٤] .

وقوله تعالى ﴿ونحن له مسلمونَ ﴾ فى العنكبوت [٤٦] فهو مثل قوله ﴿ونحن له مسلمون﴾ فى البقرة [١٣٣] مع دعائهم إلى الإسلام ، وكذلك فى سورة آل عمران [٤٦] فى قوله ﴿ قل ياأهلِ الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا

﴿لله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ .

فقد دعاهم أولا إلى الإسلام ، وهو عبادة الله وحده ، لا شريك له وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ، كما قال تعالى ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيحَ ابن مريمَ وما أُمروا إلا ليعبُدُوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سُبحانه عما يُشركونَ ﴾ ، [سورة التوبة . ٣١] .

ثم قال تعالى ﴿ فإن تولوا فقولوا اشهدُوا بأنا مسلمونَ ﴾ .

وهذه الآية التي كتب بها النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيصر ملك الروم لما دعاه إلى الإسلام .

وقال في كتابه « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإنما عليك إثم الأريسين ﴿ ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ، ولا نشركَ به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ » .

فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام في كتابه الذي أرسله إليه ، وقال أيضاً في آل عمران ﴿ ما كانَ لبشرٍ أن يؤتيَه اللهُ الكتابَ والحُكمَ والنبوّةَ ثم يقولَ للناس كونوا عباداً لي مِنْ دونِ الله ولكنْ كونوا ربانيينَ بما كنتم تعلّمُونَ الكتابَ وبما كنتم تدرُسُون * ولا يأمركم أن تتّخذُوا الملائكةَ والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعدَ إذ أنتم مُسلمونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] .

فذكر التوحيد في هذه الآية ، وكفّر من اتخذ الملائكة والنبيين أربابا ،

فكيف بمن اتخذ الأحبار والرهبان أربابًا ، ثم ذكر الإيمان بخاتم الرسل ، فقال :

﴿ وإذْ أخذَ اللهُ ميثاقَ النبيِّين لَمَا آتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ ثم جاءكم رسولٌ مصدقٌ لِمَا معكم لتؤمنُنَّ به ولتنصرُنَّه قال : ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصْرِى ، قالوا : أقررنا . قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين * فمن تولّى بعدَ ذلكَ فأولئك هم الفاسقونَ * أفغيرَ دينِ اللهِ يبغونَ وله أسلمَ مَن في السموات والأرضِ طوعًا وكَرْهًا وإليهِ يرجعونَ * قل ءامنا باللهِ وما أُنزل علينا وما أُنزل على إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتىَ موسى وعيسى والنبيُّونَ مِن ربهم لا نُفرق بين أحدٍ منهم ونحنُ له مسلمونَ * ومَن يبتغ غيرَ الإسلامِ دينًا فلن يقبلَ منه وهو في الآخرة مِن الخاسرين ﴾ ، [سورة آل عمران ٨٨ — ٨٥] .

فقد ذكر أنه أخذ الميثاق على النبيين وأممهم ﴿ مهما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ .

وهذا يتناول الأمر لكل أهل كتاب إذا جاءهم رسول ثانى أن يؤمنوا به وينصروه ، وإن كان عندهم من الكتاب والحكمة مهما كان .

ولا يقولون نحن مستغنون بما عندنا من الكتاب والحكمة ، لا نؤمن بالرسول الذى جاءنا ، ونخص الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، فإنه خاتم الرسل وهو آخر رسول جاء، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، فوجب على من جاءه أن يؤمن به وينصره ، وإن كان عنده من الكتاب والحكمة ما كان .

وهذا الميثاق أخذه الله على الأنبياء ، وأخذوه على أممهم ، ثم قال ﴿ أفغير دينِ اللهِ يَبغُونَ ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٣] وهذا هو دين الإسلام الذى أرسل به رسله وأنزل به كتبه، فمن ابتغى غيره فقد ابتغى غير دين الله وهذا هو دين الإسلام الذى قال : ﴿ ومن يبتغِ غيرَ الإسلامِ دينًا فلن يُقبل منه ، وهو في الآخرة مِن الخاسرين ﴾ .

فصل فى مجادلة أهل الكتاب

وأما فى قوله تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ .

أمر للمؤمنين أن يقولوا الحق الذى أوجبه لله عليهم ، وعلى جميع الخلق ليرضوا به الله ، وتقوم به الحجة على المخالفين ، فإن هذا من الجدال بالتى هى أحسن ، وهو أن يقول كلاماً حقاً يلزمك ، ويلزم المنازع لك أن يقوله فإن وافقك و إلا ظهر عناده وظلمه .

كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾ ، فإنا مشتركون فى أنه ربنا كلنا وأن عمل كل عامل له لا لغيره وامتزنا نحن بأنا مخلصون له ، وأنتم لستم مخلصين له . فأوجب هذا أن الحق معنا دونكم ، وأن أعمالنا صالحة مقبولة وأعمالكم مردودة .

ويشبه ذلك قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

فأمره لهم أن يقولوا اشهدوا بأنا مسلمون يتضمن إقامة الحجة عليهم ، كما كان للمسيح عليه السلام يقول .

فصل فى وعيد الله لأهل الكتاب

بسبب ماأحدثوه فى كتبهم من تبديل

ثم قالوا : فأما الذين ظلموا فما يشك أحد فى أنهم اليهود الذين سجدوا لرأس العجل ، وكفروا بالله مرارا كثيرة ليست واحدة ، وقتلوا أنبياءه ورسله وعبدوا الأصنام ، وذبحوا للشياطين ، ليس حيوانات غير ناطقة فقط ، بل بنيهم و بناتهم حسب ماشهد الله عليهم قائلا على لسان داود النبى عليه السلام فى كتاب الزبور فى مزمور مائة وخمسة يقول : [ذبحوا بنيهم و بناتهم للشياطين ، وأراقوا دماً زكيا ، دم بنيهم و بناتهم الذين ذبحوا المنحوتات بكنعان ، وقد تنجست الأرض بالدماء ، وتنجست أعمالهم ، وزنوا بضغائنهم ، وسخط الرب عليهم ، ورذّل ميراثهم] .

وقال أيضاً على لسان أشعيا النبى عليه السلام يقول الله فى بنى إسرائيل : [لم يسمعوا وصاياى ، لم يحفظوا كل ما أوصيتهم به ، بل غيروا و نقضوا الميثاق الذى كنت جعلته لهم إلى الأبد ، فلذلك أجلستهم عليهم الحزن والخراب وأهلكتهم وانقطع ممن يبقى منهم الفرح والسرور] .

هكذا قال الله على سكان البيت المقدس من بنى إسرائيل : [سأبدّدهم بين الأمم ، وفى تلك الأيام يرفعون الأمم أصواتهم ، ويسبحون الله ويمجدونه بأصوات عالية ، ويجتمعون من أقطار الأرض ، ومن جزائر البحر ، ومن البلدان البعيدة ويقدسون اسم الله ، ويرجعون إلى الله إله إسرائيل ، ويكونون شعبه . وأما بنو إسرائيل فيكونون مبددين فى الأرض] .

وقال أشعيا النبى عليه السلام يقول الله : [يابنى إسرائيل نجستم جبلى المقدس ، فإنى سأفنيكم بالحرب وتموتون ، وذلك لأنى دعوتكم فلم تجيبوا ، وكلمتكم فلم تسمعوا ، وعملتم الشيء بين يدى] .

قال أشعيا أيضاً : [إن الله قد بغض بنى إسرائيل ، وأخرجهم من بيوتهم ، ومن بيته ، ولا يغفر لهم لأنهم لعنة ، وجعلوا لعنة الناس ، فلذلك أهلكهم الله ، وبددهم بين الأمم ، ولا يعود يرحمهم ولا ينظر إليهم برحمة إلى أبد الآبدين ، ولا يقربون لله قربانا فى ذلك اليوم ، وذلك الزمان ، ولا يفرح بنو إسرائيل لأنهم قد ضلوا عن الله عز وجل] .

وقال أرميا النبى عليه السلام : [كما أن الحبشى لا يستطيع أن يكون أبيضا، فكذلك بنو إسرائيل لا يتركون عادتهم الخبيثة ، ولذلك إنى لا أرحم ، ولا أشفق ، ولا أرق على الأمة الخبيثة ولا أرثى لها] .

وقال حزقيل النبى عليه السلام قال الله : [إنما رفعت يدى عن بنى إسرائيل وبددتهم بين الأمم ، لأنهم لم يعملوا بوصاياى ، ولم يطيعوا أمرى ، وخالفونى فيها ، فيما قلت لهم ، ولم يسمعوا لى] .

ومثل هذا القول فى التوراة ، وكتب الأنبياء ، وزبور داود شىء كثير يقرأها اليهود فى كنائسهم ، ويقرأونها ، ولا ينكرون منها حرفا واحداً ، ومثل ماهو عندهم ، وكذلك عندنا فى جميع الألسن .

والجواب أن يقال : أما كون اليهود ظالمين كافرين معتدين مستحقين لعذاب الله وعقابه ، فهذا معلوم بالاضطرار من دين محمد صلى الله عليه وسلم منقول بالتواتر ، كما علم بالاضطرار والنقل المتواتر عنه صلى الله عليه وسلم أن النصارى أيضاً ظالمون معتدون كافرون مستحقون لعذاب الله وعقابه ، وفى اليهود من الكفر ماليس فى النصارى ، وفى النصارى ماليس فى اليهود ، فإن اليهود بدلوا شريعة التوراة ، قبل أن يأتيهم المسيح ابن مريم ، فلما آتاهم كفروا به ، وكذبوه، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كذبوه ، فباءوا بغضب على غضب .

كما قال تعالى عنهم : ﴿ أفتؤمنونَ ببعضِ الكتاب وتكفرونَ ببعضٍ

فما جزاء مَن يفعلُ ذلكَ منكم إلا خِزىٌ فى الحياةِ الدنيا ويوم القيامةِ يُردُّونَ إلى أشدِّ العذابِ وما الله بغافلٍ عما تعملون * أولئكَ الذين اشتروا الحياةَ الدنيا بالآخرةِ فلا يُخففُ عنهمُ العذابُ ولا هم ينصرون * ولقد آتينا موسى الكتابَ وقفَّينا مِن بعدهِ بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البيناتِ وأيدناه بروح القدسِ أفكلما جاءكم رسولٌ بما لا تَهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلونَ * وقالوا قُلوبُنا غُلْفٌ بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يُؤمنون * ولما جاءهم كتابٌ مِن عند اللهِ مُصدِّقٌ لما معهم وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين * بئسما اشتَرَوْا به أنفسهُم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزِّلَ الله مِن فضله على مَن يشاء مِن عبادِه فباءوا بغضبٍ على غضبٍ وللكافرين عذاب مُهين * وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل اللهُ ، قالوا : نُؤمن بما أُنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل : فَلِمَ تقتلون أنبياء اللهِ مِن قبلُ إن كنتم مؤمنين ؟ * ولقد جاءكم موسى بالبيناتِ ثم اتخذتم العجلَ مِن بعدِهِ وأنتم ظالمون * وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطورَ خُذوا ما آتيناكم بقوةٍ واسمعوا ، قالوا : سمعنا وعصينا وأُشرِبوا فى قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾

[سورة البقرة : ٨٥ - ٩٣]

فغضب عليهم أولا بتكذيب للمسيح ، وثانياً بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال تعالى : ﴿ ضُرِبت عليهم الذِّلّة أين ما ثُقِفُوا إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناسِ وباءوا بغضبٍ من الله ، وضُرِبت عليهم المسكنة ، ذلك بأنهم

كانوا يكفُرُون بآياتِ اللهِ ويقتلون الأنبياء بغيرِ حقٍّ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١٢] . ﴿ كانوا لا يتناهَونَ عن منكرٍ فعلوه لَبئسَ ما كانوا يفعلون ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٩] .

وقال تعالى ﴿ قُل هل أنبئكم بشرٍ من ذلك مثوبةً عندَ الله مَن لعَنَه اللهُ وغضبَ عليه وجعلَ منهم القِرَدَةَ والخنازيرَ وعبَدَ الطاغوتَ ﴾ ، [سورة المائدة ٦٠] .

فتبين أن اليهود لعنهم الله وأنهم عبدوا الطاغوت ، وأنه جعل منهم القردة والخنازير ، ومثل هذا فى القرآن كثير لكن قول القائل إنهم المرادون بقوله ﴿ إلاَّ الذين ظلموا منهم ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٤٦]. فى قوله ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا ﴾ غلط بيّن ، ولهذا كان باطلا باتفاق المسلمين.

فإن قوله تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾ نهى عن مجادلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا بالتى هى أحسن، وقوله ﴿ إلا الذين ظلموا ﴾ من الطائفتين جميعاً .

ولهذا كان الواجب على المسلمين ، إذا جادلهم اليهودى والنصرانى أن يجادلوهم بالتى هى أحسن ، إلا من ظلم من الطائفتين ، فإنه يعاقب باللسان تارة وباليد أخرى ، كما أمر الله ورسوله بجهاد الظالمين من هؤلاء وهؤلاء ، فجاهد النبى صلى الله عليه وسلم اليهود الذين كانوا بالمدينة النبوية وحولها وقريباً منها ، كما جاهد بنى قينقاع ، والنضير ، وقريظة ، وأهل خيبر ، وأهل وادى القرى وغيرهم .

وكما جاهد النصارى عام تبوك غزاهم بالشام عربهم ورومهم ، وأغزاهم قبل ذلك نوابه : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وأمر بغزوهم فغزاهم بعده خلفاؤه الراشدون .

والنبي صلى الله عليه وسلم لما قدم وفد نجران جادلهم صلى الله عليه وسلم في مسجده بالتي هي أحسن ، ثم أمره الله سبحانه أن يدعوهم إلى المباهلة فامتنعوا عن مباهلته ، وأقروا بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون ، كما تقدم ذكر ذلك مفصلا فجادل بعضهم بالتي هي أحسن ، والظالم منهم عاقبه وجاهده ، كما عاقب الظالم من اليهود .

ومن أعجب الأشياء قولهم : ﴿ وأما الذين ظلموا ﴾ فلا يشك أنهم اليهود ، فإن هذا من جنس قولهم ، ثم وجدونا في الكتاب أعظم من هذا برهانا .

وهو قوله في سورة الشورى : ﴿ وقل آمنت بما أنزل من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ كما تقدم ، وهي من جنس قولهم في قوله ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ، [سورة البقرة : ٢و٣] .

إنه عنى بالكتاب : الإنجيل ، والذين يؤمنون بالغيب : النصارى ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك : هم المسلمون ، وزعمهم أن قولهم هذا بين ظاهر .

وتفاسير النصارى للكتب الإلهية فيها من التحريف لكلمات الله ، والإلحاد في أسماء الله وآياته ما يطول وصفه ، ولا ينقضي التعجب منه ، ولكن إقدامهم على تفسير القرآن بالإلحاد والتحريف أعجب وأعجب ، كقولهم : إن محمداً صلى الله عليه وسلم ذكر أنه لم يرسل إليهم ، وأنه أثنى على الدين الذي هم عليه بعد النسخ والتبديل بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم ، وأن قوله ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ . [سورة الفاتحة:٧] ، أراد به النصارى ، وقوله : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا ﴾ [سورة الحديد : ٢٥] أراد به الحواريين ، وقوله « وأنزلنا معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس » أراد به الإنجيل ، فإن هذا من الكذب الظاهر ،

من الكذب الظاهر ، والافتراء على محمد صلى الله عليه وسلم ، بأنه أراد هذه الأمور ، ما هو من جنس افترائهم على الأنبياء ، فإنهم أخبروا أن المسيح هو خالق السموات والأرض ، وأن التوراة والزبور وغيرهما من الكتب أخبرت بذلك ، ثم يأتون إلى ما يعلم كل عاقل أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يرده ، فيقولون : إنه لا يشك فيه واحد ، وأنه قول ظاهر بيّن ، وكل من عرف حال محمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من القرآن والدين يعلم علماً يقينياً ضروريا أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن يجعل النصارى مؤمنين دون اليهود ، بل كان يكفر الطائفتين ، ويأمر بجهادهم ، ويكفر من لم ير جهادهم واجباً عليه .

وهذا مما اتفق عليه المسلمون ، وهو منقول عندهم عن نبيهم نقلا متواتراً ، بل هذا يعلمه من حاله للموافق والمخالف ، إلا من هو مفرط فى الجهل بحاله ، أو من هو معاند عناداً ظاهراً .

فصل فى كيفية الإيمان بما جاء به الأنبياء

وأما ما نقلوه عن الأنبياء مما يدل على كفر اليهود ، فهذا لا ننازعهم فيه ، ولا حاجة بنا إلى الاستدلال بما نقلوه ، وإن كان فيما يثبت عن الأنبياء ما يبين كفرهم لما بدلوا دين موسى عليه السلام ، كما كفر النصارى لما بدلوا دين المسيح .

فهذا حق موافق لما أخبر به خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم ، فإنا قد علمنا كفرهم من جهة لا نشك فى صدقها ، وما أخبرونا به عن الأنبياء إن علمنا صدقهم فيه صدقناهم فيه ، وإن علمنا كذبهم فيه كذبناهم فيه ، وإن لم نعلم صدقه ولا كذبه لم نصدقه ولم نكذبه ، بل نقول ﴿ آمنا بما أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحدٌ ونحن له مسلمونَ ﴾ .

فإن الإيمان بجميع ما أوتى النبيون حق واجب ، لكن وجوب التصديق فى النبى المعين الذى لم نعلمه من غيرهم يقف على مقدمتين :

أن يكون اللفظ قد قاله النبى .

وأن يكون المعنى الذى فسروه به مراداً للنبى الذى تكلم بذلك القول ، فلابد من الإسناد ودلالة المتن .

وهاتان المقدمتان ، لابد منهما فى جميع المنقول عن الأنبياء .

وقد يحتاج إلى مقدمة ثالثة فى حق من لم يعرف اللغة العبرية ، فإن موسى وداود والمسيح وغيرهم إنما تكلموا باللغة العبرية ، فمن لم يعرف بها ، وإنما يعرف بالعربية أو الرومية ، لابد أن يعرف أن المترجم من تلك اللغة إلى هذه قد ترجم ترجمة مطابقة .

فصل فى غلو النصارى فى الدين

وأما قولهم : نحن النصارى فلم نعمل شيئاً مما عملته اليهود ، فيقال لهم : الكفر والفسوق والعصيان لم ينحصر فى ذنوب اليهود ، فإن لم تعملوا مثل أعمالهم فلكم من الأقوال والأعمال ما بعضه أصعب من كفر اليهود ، وإن كنتم أنتم ألين من اليهود وأقرب مودة ، فأنتم أيضاً أجهل وأضل من اليهود .

قال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذَ الرحمنُ ولداً * لقد جئتم شيئاً إدًّا * تكادُ السماوات يتفطّرن منه وتنشقّ الأرض وتخرُّ الجبالُ هدًّا * أن دَعَوا للرحمن ولداً * وماينبغى للرحمن أن يتّخذَ ولداً * إن كلُّ من فى السمواتِ والأرضِ إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدَّهم عدّاً * وكلهم آتيهِ يوم القيامةِ فرداً ﴾ ، [سورة مريم : ٨٨ ـ ٩٥] .

وقال تعالى : ﴿ الحمدلله الذى أنزل على عبده الكتابَ ولم يجعل له عوَجاً * قيماً لينذِرَ بأساً شديداً من لَدُنْه و يبشِّر المؤمنينَ الذين يعملون الصالحاتِ أنَّ لهم أجراً حسناً * ما كثين فيه أبداً * و ينذر الذين قالوا اتّخذ الله ولداً * مالهم به من علم ولا لآبائهم كَبُرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ ، [سورة الكهف ١ ـ ٥]

وقال تعالى : ﴿ قاتلوا الذينَ لا يؤمنونَ باللهِ ولا باليومِ الآخرِ ولا يُحرِّمون

ـمة حرّم الله ورسوله ولا يَدِينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيحُ ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يُضاهئون قول الذين كفروا مِنْ قبل قاتلهم الله أنى يُؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠ ، ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتم نوره ولو كره الكافرون * هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودينِ الحقِّ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون * يا أيها الذين آمنوا إنّ كثيراً من الأحبارِ والرهبانِ ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدُّون عن سبيل الله ﴾ ، [سورة التوبة ٣٢ ـ ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ ومن الذين قالوا إنّا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حَظًّا مما ذُكِّروا به فأغرينا بينهم العداوةَ والبغضاء إلى يوم القيامةِ وسوف ينبِّئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ ، [سورة المائدة : ١٤] .

وقال تعالى لما قص قصة المسيح عليه السلام : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتّخذ من ولدٍ سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراطٌ مستقيمٌ * فاختلف الأحزاب من بينهم فويلٌ للذين كفروا من مشهدِ يومٍ عظيم * أسمع بهم وأبصر يومَ يأتوننا لكنِ الظالمون اليومَ فى ضلالٍ مبين ﴾ ، [سورة مريم : ٣٤ ـ ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ يا أهلَ الكتابِ لا تغلوا فى دينكم ولا تتّبعوا أهواء

قوم قد ضلوا مِن قبلُ وأضلوا كثيراً وضلُّوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة . ٧٧] .

فصل فى غلو اليهود فى الدين

ومن تدبر حال اليهود والنصارى مع المسلمين ، وجد اليهود والنصارى متقابلين هؤلاء فى طرف ضلال ، وهؤلاء فى طرف يقابله ، والمسلمون هم الوسط .

وذلك فى التوحيد ، والأنبياء ، والشرائع ، والحلال ، والحرام ، والأخلاق ، وغير ذلك .

فاليهود يشبهون الخالق بالمخلوق فى صفات النقص المختصة بالمخلوق التى يجب تنزيه الرب سبحانه عنها كقول من قال منهم : إنه فقير ، وإنه بخيل ، وإنه تعب لما خلق السموات والأرض ، والنصارى يشبهون المخلوق بالخالق فى صفات الكمال المختصة بالخالق التى ليس له فيها مثل ، كقولهم إن المسيح هو الله ، وابن الله .

وكل من القولين يستلزم الآخر .

والنصارى أيضاً يصفون اللاهوت بصفات النقص التى يجب تنزيه الرب عنها ، ويسبون الله سباً ما سبه إياه أحد من البشر ، كما كان معاذ بن جبل يقول : لا ترحموهم فإنهم قد سبُّوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر .

واليهود تزعم أن الله يمتنع منه أن ينسخ مما شرعه ، كما يمتنع مالا يدخل فى القدرة ، أو ما ينافى العلم والحكمة .

والنصارى يجوِّزون لأكابرهم أن ينسخوا شرع الله الذى بعث به رسله ، فيحللوا ما حرم ، كما حللوا الخنزير ، وغيره من الخبائث ، بل لم يحرموا شيئاً ، ويحرمون ما حلل ، كما يحرمون فى رهبانيتهم التى ابتدعوها ، وحرموا فيها من الطيبات ما أحله الله ، ويسقطون ما أوجب ، كما أسقطوا الختان وغيره ، وأنواع الطهارة من الغسل ، وإزالة النجاسة وغير ذلك .

ويوجبون ما أسقط ، كما أوجبوا من القوانين ما لم يوجبه الله وأنبياؤه ـ

والمسلمون وصفوا الرب بما يستحقه من صفات الكمال ، ونزهوه عن النقص ، وأن يكون له مثل ، فوصفوه بما وصف به نفسه ، وبما وصفته به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، مع علمهم أنه ليس كمثله شيء لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله .

وقالوا : ﴿ ألا له الخلقُ والأمرُ ﴾ ، [الأعراف : ٥٤] . فكما لا يخلق غيره لا يأمره غيره ، بل الدين كله له ، وهو المعبود المطاع الذي لا يستحق العبادة إلا هو ، ولا طاعة لأحد إلا طاعته ، وهو ينسخ ما ينسخه من شرعه ، وليس لغيره أن ينسخ شرعه .

واليهود بالغوا في اجتناب النجاسات ، وتحريم الطيبات ، والنصارى استحلوا الخبائث ، وملابسة النجاسات .

والمسلمون أحل الله لهم الطيبات خلافاً لليهود ، وحرم عليهم الخبائث ، خلافاً للنصارى ، واليهود يبالغون في طهارة أبدانهم مع خبث قلوبهم .

والنصارى يدعون أنهم يطهرون قلوبهم مع نجاسة أبدانهم ، والمسلمون يطهرون أبدانهم وقلوبهم جميعاً .

وللنصارى لهم عبادات وأخلاق بلا علم ومعرفة ، ولا ذكاء . واليهود لهم علم ومعرفة بلا عبادات ولا أخلاق حسنة .

والمسلمون جمعوا بين العلم النافع ، والعمل الصالح بين الزكا والذكاء ، فإن الله أرسل رسله بالهدى ودين الحق ، فالهدى يتضمن العلم النافع ، ودين الحق يتضمن العمل الصالح ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ والظهور يكون بالعلم واللسان ليبين أنه حق وهدى ، ويكون باليد والسلاح ليكون منصوراً مؤيداً ، والله أظهره هذا الظهور فهم أهل الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ الذين يعرفون الحق ، ولا يعملون به كاليهود ﴿ ولا الضالين ﴾ الذين يعملون و يعبدون ويزهدون ، بلا علم كالنصارى واليهود، قتلوا النبيين ، والذين يأمرون بالقسط من الناس ، والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم .

والمسلمون اعتدلوا فآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، فلم يكذبوا الأنبياء ولا سبّوهم ، ولا غلوا فيهم ولا عبدوهم ، وكذلك في أهل العلم والدين لا يبخسونهم حقهم ، ولا غلوا فيهم . واليهود يغضبون لأنفسهم وينتقمون . والنصارى لا يغضبون لربهم ولا ينتقمون .

والمسلمون المعتدلون المتبعون لنبيهم ، يغضبون لربهم ويعفون عن حظوظهم كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادما له ، ولا امرأة ولا شيئا قط ، إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا نيل منه شيء قط فانتقم لنفسه ، إلا أن تنتهك محارم الله فينتقم لله » .

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه ، قال « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لي : أف قط ، وما قال لي لشيء فعلته : لِمَ فعلته ، ولا شيء لم أفعله . لِمَ لم تفعله ؟ وكان بعض أهله إذا عتبني على شيء يقول : دعوه فلو قضي شيء لكان » .

هذا في حق نفسه ، وأما في حدود الله ، ففي الصحيحين عن عائشة « أن قريشا أهمهم شأن المخزومية التي سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : من يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمه فيها أسامة ، فقال : يا أسامة ، أتشفع في حد من حدود الله ، إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدود ، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وقد وصف الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأنهم أنفع الأمم للخلق ، فقال : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهلُ الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ ، [سورة آل عمران : ١١٠] .

ففى أمة محمد صلى الله عليه وسلم من الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر الذى فيه صلاح العباد فى المعاش والمعاد ما لم يوجد مثله فى الأمتين .

فصل فى بطلان الاستدلال بالمتشابه

ثم قالوا : وكذلك جاء فى الكتاب يقول : ﴿ لتجدنَّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا ولتجدنَّ أقربهم مودَّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأن منهم قِسِّيسين ورُهباناً وأنهم لا يَستكبرونَ ﴾ ، [سورة المائدة : ٨٢] .

فذكر القسيسين والرهبان ، لئلا يقال : إن هذا قيل عن غيرنا فدل هذا على أفعالنا وحسن نياتنا ، ونفى عنا اسم الشرك بقوله : اليهود والذين أشركوا أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، والذين قالوا إنا نصارى أقربهم مودة .

والجواب أن يقال : تمام الكلام ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسولِ ترى أعينهم تفيضُ مِنَ الدمع مما عرفوا مِنَ الحقِّ يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ۞ وما لنا لا نؤمنُ بالله وما جاءنا من الحق ونطمعُ أن يُدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ۞ فأثابهم الله بما قالوا جناتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين ﴾ ، [سورة المائدة : ٨٣ ـ ٨٥] .

فهو سبحانه لم يعد بالثواب فى الآخرة إلا لهؤلاء الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم الذين قال فيهم : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم

تفيضُ من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ .

والشاهدون هم الذين شهدوا له بالرسالة فشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وهم الشهداء الذين قال فيهم :

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناسِ ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً ﴾ ، [سورة البقرة : ١٤٣] .

ولهذا قال ابن عباس وغيره :

﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٣] .

قال : مع محمد صلى الله عليه وسلم وأُمته .

وكل من شهد للرسل بالتصديق فهو من الشاهدين ، كما قال الحواريون :

﴿ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدُوا واعبدُوا ربكم وافعلوا الخير لعلّكم تفلحون * وجاهدوا فى اللهِ حقَّ جهاده هو اجْتَبَاكم وما جعل عليكم فى الدِّين مِنْ حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سمَّاكم المسلمين من قبل وفى هذا لِيَكُون الرسولُ شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناسِ ﴾ ، [سورة الحج : ٧٧، ٧٨] .

وأما قوله فى أول الآية : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ ، فهو كما أخبر سبحانه وتعالى ، فإن عداوة المشركين واليهود للمؤمنين أشد من عداوة النصارى . والنصارى أقرب مودة لهم ، وهذا معروف من أخلاق اليهود ، فإن اليهود فيهم من البغض والحسد والعداوة ما ليس فى النصارى .

وفى النصارى من الرحمة والمودة ماليس فى اليهود ، والعداوة أصلها البغض .

فاليهود كانوا يبغضون أنبياءهم ، فكيف ببغضهم للمؤمنين ؟

وأما النصارى فليس فى الدين الذى يدينون به عداوة ولا بغض لأعداء الله

الذين حاربوا الله ورسوله وسعوا فى الأرض فساداً ، فكيف بعداوتهم وبغضهم للمؤمنين المعتدلين أهل ملة إبراهيم المؤمنين بجميع الكتب والرسل ؟

وليس فى هذا مدح للنصارى بالإيمان بالله ولا وعد لهم بالنجاة من العذاب واستحقاق الثواب ، وإنما فيه أنهم أقرب مودة ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك بأنَّ منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾ أى بسبب هؤلاء ، وسبب ترك الاستكبار يصيّر فيهم من المودة ما يصيرهم بذلك خيراً من المشركين وأقرب مودة من اليهود والمشركين .

ثم قال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيضُ من الدمع مما عرفوا مِنَ الحق ﴾ فهؤلاء الذين مدحهم بالإيمان ووعدهم بثواب الآخرة ، والضمير وإن عاد إلى المتقدمين فالمراد به جنس المتقدمين لا كل واحد منهم ، كقوله تعالى : ﴿ الذين قالَ لهم الناسُ إنَّ الناسَ قد جَمَعوا لكم فاخْشَوهم فزادهم إيماناً وقالوا حَسْبنا اللهُ ونِعْمَ الوكيل ﴾ ، [سورة آل عمران : ١٧٣] .

وكان جنس الناس ، قالوا لهم : إن جنس الناس ، قد جمعوا ويمتنع العموم فإن القائل من الناس ، والمقول له من الناس ، والمقول عنه من الناس ، ويمتنع أن يكون جميع الناس قال لجميع الناس : إنه قد جمع لكم جميع الناس .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهودُ عزيرٌ ابن اللهِ ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠] . أى جنس اليهود قال هذا ، لم يقل هذا كل يهودى . ومن هذا أن فى النصارى من رقة القلوب التى توجب لهم الإيمان ما ليس فى اليهود ، وهذا حق ، وأما قولهم : ونفى عنا اسم الشرك ، فلا ريب أن الله فرق بين المشركين وأهل الكتاب فى عدة مواضع ، ووصف من أشرك منهم فى بعض المواضع ، بل قد ميز بين الصابئين والمجوس وبين المشركين فى بعض المواضع ، وكلا الأمرين حق ، فالأول كقوله تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتابِ والمشركين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إنَّ الذين آمنوا والذين هادُوا والصابئِينَ والنَّصارى والمجوسَ والذين أشركوا ﴾ ، [سورة الحج : ١٧] . وقال تعالى : ﴿ لتجدنَّ أشدَّ الناسِ عداوةً للذين آمنوا اليهود والذينَ أشركوا ﴾ .

وأما وصفهم بالشرك ففي قوله : ﴿ اتخذُوا أحبارهم ورُهبانهم أرباباً من دون الله والمسيحَ ابنَ مريمَ وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يُشركون ﴾ فنزه نفسه عن شركهم ، وذلك أن أصل دينهم ليس فيه شرك ، فإن الله إنما بعث رسله بالتوحيد ، والنهي عن الشرك ، كما قال تعالى ﴿ واسْئَلْ من أرسلنا مِنْ قبلك مِن رُسلنا أجعلنا مِن دُون الرحمنِ آلهةً يُعبدونَ ؟ ﴾ ، [سورة الزخرف : ٤٥] .

وقال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً أَنِ اعْبدوا الله واجتَنِبوا الطاغوتَ) ، [سورة النحل : ٣٦] .

وقال تعالى : (وما أرسلنا مِن قَبلكَ مِن رسولٍ إلاَّ نُوحِي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدُونِ) ، [سورة الأنبياء : ٢٥] .

فالمسيح صلوات الله عليه وسلامه ومن قبله من الرسل إنما دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وفي التوراة من ذلك مايعظم وصفه لم يأمر أحد من الأنبياء بأن يعبد ملك ولا نبي ولا كواكب ولا وثن ، ولا أن تسأل الشفاعة إلى الله من ميت ولاغائب ، ولا نبي ولاملك فلم يأمر أحد من الرسل بأن يدعو الملائكة ، ويقول : اشفعوا لنا إلى الله ، ولا يدعو الأنبياء والصالحين الموتى والغائبين ، ويقول : اشفعوا لنا إلى الله ، ولا تصور تماثيلهم لامجسدة ذات ظل ، ولا مصورة في الحيطان ، ولا يجعل دعاء تماثيلهم وتعظيمها قربة وطاعة سواء قصدوا دعاء أصحاب التماثيل ، وتعظيمهم والاستشفاع بهم ، وطلبوا منهم أن يسألوا الله تعالى ، وجعلوا تلك التماثيل تذكرة بأصحابها ، وقصدوا دعاء التماثيل ولم يستشعروا أن المقصود دعاء أصحابها ، كما فعله جهال المشركين ، وإن كان في هذا جميعه إنما

يعبدون الشيطان ، و إن كانوا لا يقصدون عبادته ، فإنه قد يتصور لهم فى صورة ما يظنون أنها صورة الذى يعظمونه ، ويقول : أنا الخضر ، أنا المسيح ، أنا جرجس ، أنا الشيخ فلان .

كما قد وقع هذا لغير واحد من المنتسبين إلى المسلمين والنصارى . وقد يدخل الشيطان فى بعض التماثيل فيخاطبهم ، وقد يقضى بعض حاجاتهم ، فبهذا السبب وأمثاله ظهر الشرك قديماً وحديثاً ؛ وفعل النصارى وأشباههم ما فعلوه من الشرك .

وأما الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه فنهوا عن هذا كله ، ولم يشرع أحد منهم شيئاً من ذلك ، فالنصارى لا يأمرون بتعظيم الأوثان المجسدة ، ولكن بتعظيم التماثيل المصورة . فليسوا على التوحيد المحض ، وليسوا كالمشركين الذين يعبدون الأوثان ويكذبون الرسل ، فلهذا جعلهم الله نوعاً غير المشركين تارة ، وذمهم على ما أحدثوه من الشرك تارة .

وإذا أطلق لفظ الشرك فطائفة من المسلمين تدخل فيه جميع الكفار من أهل الكتاب ، وغيرهم كقوله تعالى : ﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ فمن الناس من يجعل اللفظ عاما لجميع الكفار لا سيما النصارى ثم من هؤلاء من ينهى عن نكاح هؤلاء ، كما كان عبد الله ابن عمر ينهى عن نكاح هؤلاء ، ويقول لا أعظم شركا من أن يقول : عيسى ربنا .

وهذا قول طائفة من الشيعة وغيرهم .

وأما جمهور السلف والخلف ، فيجوّزن نكاح الكتابيات ، ويبيحون ذبائحهم ، لكن إذا قالوا : لفظ المشركين عام ، قالوا : هذه الآية مخصوصة أو منسوخة بآية المائدة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وطعامُ الذينَ أُوتُوا الكتابَ حِلٌّ لكم وطعامُكم حِلٌّ لهم والمحصناتُ مِنَ المؤمنات والمحصناتُ مِنَ الذينَ أُوتوا

الكتابَ مِن قبلكم إذا آتيتموهن أجورهنّ مُحصنين غير مسافحين ولا متّخذِى أخدانٍ ﴾ ، [سورة المائدة : ٥] .

وطائفة أخرى جعلوا لفظ المشركين إذا أطلق لا يدخل فيه أهل الكتاب، وأما كون النصارى فيهم شرك كما ذكره الله ، فهذا متفق عليه بين المسلمين ، كما نطق به القرآن كما أن المسلمين متفقون على أن قوله : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ لأن النصارى لم يدخلوا فى لفظ الذين أشركوا ، كما لم يدخلوا فى لفظ اليهود .

وكذلك قوله : ﴿ لم يكنِ الذين كفروا من أهلِ الكتابِ والمشركينَ ﴾ ، ونحو ذلك ،وهذا لأن لفظ الواحد تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران فيدخل فيه مع الإفراد والتجريد مالا يدخل فيه عند الاقتران ، كلفظ المعروف والمنكر فى قوله تعالى : ﴿ يأمُرُهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٥٧] فإنه يتناول جميع ما أمر الله به فإنه معروف ، وجميع ما نهى عنه فإنه منكر .

وفى قوله : ﴿ لا خيرَ فى كثيرٍ مِنْ نجواهم إلا مَنْ أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بينَ الناسِ ﴾ ، [سورة النساء : ١١٤]. فهنا قرن الصدقة بالمعروف والإصلاح بين الناس .

وكذلك المنكر فى قوله : ﴿ إنّ الصلاةَ تنهى عنِ الفحشاء والمنكرِ ﴾ ، [سورة العنكبوت : ٤٥] . قرن الفحشاء بالمنكر ، وقوله ﴿إن اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاء ذى القُربى وينهى عن الفحشاء والمنكرِ والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ قرن الفحشاء بالمنكر والبغى .

وكذلك لفظ البر والإيمان ، وإذا أفرده دخل فيه الأعمال والتقوى، كقوله ﴿ ولكنّ البرّ من آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنّبيِّينَ ﴾ الآية [سورة البقرة : ١٧٧] .

وقال ﴿ إن الأبرار لفى نعيم ﴾ ، [سورة الانفطار : ١٣] . وقوله : ﴿ إنَّما المؤمنونَ ﴾ ، [سورة الأنفال : ٢] . ﴿ ليُدخِلَ المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجرى ﴾ ، [سورة الفتح : ٥] . وقال ﴿ إنما المؤمنونَ الذينَ إذا ذُكرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبهم وإذا تُليت عليهم آياتهِ زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ ، [سورة الأنفال : ٢] . وقد يقرنه بغيره كقوله ﴿وتعاونوا على البرِّ والتقوى﴾ ، [سورة المائدة : ٢] . وقوله ﴿ إنَّ الذينَ آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ ﴾ ، [سورة البروج : ١١] . وكذلك لفظ الفقير ، والمسكين إذا أفرد أحدهما دخل فيه لفظ الآخر .

وقد يجمع بينهما فى قوله : ﴿ إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينَ ﴾ ، [سورة التوبة : ٦٠] . فيكونان هنا صنفين ، وفى تلك المواضع صنف واحد، فكذلك لفظ الشرك فى مثل قوله : ﴿ إنما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجدَ الحرامَ بعدَ عامِهِمْ هذا ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٨] يدخل فيه جميع الكفار أهل الكتاب ، وغيرهم عند عامة العلماء ، لأنه أفرده وجرده ، وإن كانوا إذا قرن بأهل الكتاب كانا صنفين .

وفى صحيح مسلم عن بريدة أن النبى صلى الله عليه وسلم : « كان إذا أرسل أميراً على سرية ، أو جيش أوصاه فى خاصه نفسه بتقوى الله ، وأوصاه بمن معه من المسلمين خيراً ، وقال لهم : اغزوا بسم الله فى سبيل الله ، فى دعة قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خلال ثلاث ـ فإنهم ما أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكف عنهم ـ إلى الإسلام فإن أجابوك إلى ذلك ، فاقبل منهم ، وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم ، فإن أبوا أن يتحولوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على

المسلمين وليس لهم فى الغنيمة والفىء نصيب ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية ، فإن هم أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم » .

وهذا الحديث كان بعد نزول آية الجزية ، وهى إنما نزلت عام تبوك لما قاتل النبى صلى الله عليه وسلم النصارى بالشام ، واليهود باليمن .

وهذا الحكم ثابت فى أهل الكتاب باتفاق المسلمين ، كما دل عليه الكتاب والسنة ، ولكن تنازعوا فى الجزية : هل تؤخذ من غير أهل الكتاب ؟ وهذا مبسوط فى موضعه .

فصل فى ادعاء النصارى أن القرآن سوى بين جميع الأديان

قالوا فى سورة البقرة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، [سورة المائدة : ٦٩] .

فساوى بهذا القول بين سائر الناس : اليهود والمسلمين وغيرهم .

والجواب أن يقال أولا : لا حجة لكم فى هذه الآية على مطلوبكم ، فإنه يسوى بينكم و بين اليهود والصابئين ، وأنتم مع المسلمين متفقون على أن اليهود كفار من بعث المسيح إليهم فكذبوه .

وكذا الصابئون من حيث بعث إليهم رسول فكذبوه ، فهم كفار فإن كان فى الآية مدح لدينكم الذى أنتم عليه بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ففيها مدح دين اليهود أيضاً ، وهذا باطل عندكم وعند المسلمين .

وإن لم يكن فيها مدح اليهود بعد النسخ والتبديل فليس فيها مدح لدين النصارى بعد النسخ والتبديل .

وكذلك يقال لليهودى ، إن احتج بها على صحة دينه .

وأيضاً فإن النصارى يكفرون اليهود ، فإن كان دينهم حقاً لزم كفر اليهود ،

وإن كان باطلا لزم بطلان دينهم فلا بد من بطلان أحد الدينين فيمتنع أن تكون الآية مدحتهما ، وقد سوت بينهما .

فلم أنها لم تمدح واحداً منهما بعد النسخ والتبديل ، وإنما معنى الآية أن المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والذين هادوا الذين اتبعوا موسى عليه السلام ، وهم الذين كانوا على شرعه قبل النسخ والتبديل . والنصارى الذين اتبعوا المسيح عليه السلام ، وهم الذين كانوا على شريعته قبل النسخ والتبديل .

والصابئون ، وهم الصابئون الحنفاء ، كالذين كانوا من العرب وغيرهم على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحق قبل التبديل والنسخ .

فإن العرب من ولد إسماعيل وغيره الذين كانوا جيران البيت العتيق الذى بناه إبراهيم وإسماعيل كانوا حنفاء على ملة إبراهيم إلى أن غير دينه بعض ولاة خزاعة ، وهو عمرو بن لحى ، وهو أول من غير دين إبراهيم بالشرك ، وتحريم ما لم يحرمه الله . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه ــ أى أمعاءه ــ فى النار » وهو أول من بحر البحيرة وسيب السوائب وغير دين إبراهيم .

وكذلك بنو اسحاق الذين كانوا قبل مبعث موسى متمسكين بدين إبراهيم كانوا من السعداء المحمودين ، فهؤلاء الذين كانوا على دين موسى والمسيح وإبراهيم ، ونحوهم الذين مدحهم الله تعالى : ﴿ إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئون من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

فأهل الكتاب بعد النسخ والتبديل ليسوا ممن آمن بالله ، ولا باليوم الآخر وعمل صالحاً ، كما قال تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنونَ باللهِ ولا باليومِ الآخِرِ ولا يحرِّمون ما حرَّم اللهُ ورسولُهُ ولا يَدِينُون دينَ الحقِّ مِنَ الذين أُوتوا الكتاب حتى يُعْطُوا الجزية عن يَدٍ وهم صاغرون ﴾ ، [سورة التوبة : ٢٩] .

وقد تقدم أنه كفّر أهل الكتاب الذين بدّلوا دين موسى والمسيح وكذّبوا بالمسيح أو بمحمد صلى الله عليه وسلم فى غير موضع ، وتلك آيات صريحة ، ونصوص كثيرة ، وهذا متواتر معلوم بالاضطرار من دين محمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن هؤلاء النصارى سلكوا فى القرآن ما سلكوه فى التوراة والإنجيل يدّعون النصوص المحكمة الصريحة البينة الواضحة التى لا تحتمل إلا معنى واحدا ويتمسكون بالمتشابه المحتمل ، وإنّ فيه ما يدل على خلاف مرادهم ، كما قال تعالى فيهم وفى أمثالهم : ﴿ هو الذى أنزلَ عليكَ الكتابَ منهُ آياتٌ محكماتٌ هنّ أمّ الكتاب وأُخر متشابهاتٌ فأما الذين فى قلوبهم زيغٌ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنةِ وابتغاء تأويله وما يعلمُ تأويلهُ إلا الله والرّاسخون فى العلم يقولون آمنا به كلٌّ منْ عند ربنا وما يَذّكّرُ إلا أُولوا الألباب ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧] .

فصل فى إدعاء النصارى أن القرآن مدحهم

قالوا : ثم مدح قرابيننا وتواعدنا إن أهملنا ما معنا وكفرنا بما أنزل إلينا أن يعذبنا عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين بقوله ذلك فى سورة المائدة : ﴿ إذْ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربُّك أنْ يُنزل علينا مائدة من السماء قال : اتقوا الله إنْ كنتم مُؤمنين ــ إلى قوله ــ فمن يكفر بعدُ منكم فإنى أعذِّبه عذاباً لا أعذبه أحداً مِنَ العالمين ﴾ ، [سورة المائدة : ١١٢ ــ ١١٥] .

فالمائدة هى القربان المقدس الذى يتقرب منه فى كل قداس .

والجواب أن يقال : هذا كذب ظاهر على القرآن فى هذا الموضع ، كما كذبت عليه فى غير هذا الموضع ، فإنه ليس فى الآيات ذكر قرابينكم ألبتة ، وإنما فيه ذكر المائدة التى أنزلها الله تعالى فى عهد المسيح عليه السلام ، وقولهم بالمائدة : هى القربان الذى يتقرب به فى كل قداس ، هو أولا : قول لا دليل عليه . وثانياً : هو قول معلوم

الفساد بالاضطرار من دين المسلمين الذين نقلوا هذا القرآن عن محمد صلى الله عليه وسلم لفظه ومعناه ،فإنهم متفقون على أن المائدة ، مائدة أنزلها الله على عهد المسيح عليه السلام،وقصتها مشهورة فيعامة الكتب تعرفها العامة والخاصة ولم يقل أحد إنها قرابين النصارى ، وليس فى لفظ الآية ما يدل على ذلك ، بل يدل على خلاف ذلك ، فإن الآية تبين أن المائدة منزلة من السماء وقرابينهم هى عندهم فى الأرض لم تنزل من السماء .

وفى الآية أن عيسى قال: ﴿اللهم ربنا أنزل علينا مائدةً من السماء تكونُ لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآيةً منك وارزقنا وأنت خيرُ الرازقين ، قال الله : إنى منزّلها عليكم فمن يكفر بعدُ منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً مِنَ العالمين﴾ ، وفى أول الكلام : ﴿ إذ قال الحواريون يا عيسى ابنَ مريمَ هل يستطيع ربُّك أن ينزلَ علينا مائدةً من السماء قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ ، قالوا : نريد أن نأ كل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين، فأين هذا من قرابينهم الموجودة اليوم ؟ .

فصل فيما ادعاه النصارى من تأييد الكتب السماوية لدينهم

قالوا : ولما تقدم به القول لأنه غير لائق عند ذوى الألباب أن نهمل روح القدس وكلمة الله الذى شهد لهما فى هذا الكتاب بالعظائم ، فقال عن كلمة الله : ﴿ وإنْ مِنْ أهلِ الكتابِ إلاَّ ليُؤمِنَنَّ به قبلَ موته ويوم القيامة يكونُ عليهم شهيداً ﴾ ،[سورة النساء : ١٥٩] .

والجواب : إن الله تعالى لم يبعث محمداً صلى الله عليه وسلم بإهمال ما يجب فى حق المسيح عليه السلام ، بل أمره بالإيمان بالمسيح وبما جاء به ، كما أمر بالإيمان بموسى وبما جاء به ، وكما أمر المسيح بالإيمان بموسى وبما جاء به ، لكنه أمر بإهمال ما ابتدع من الدين الذى لم يشرعه الله على لسان المسيح ،

عليه السلام ، ومانسخه الله من شرعه على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، فيهمل المبدل والمنسوخ ، كما أمر الله المسيح أن يهمل ما ابتدعته اليهود من الدين الذى لم يشرعه ، وما نسخه من شرع موسى .

فكما أمر المسيح أن يهمل المبدل والمنسوخ من التوراة التى جاء بها موسى عليه السلام ، ولم يكن فى ذلك إهمال لما يجب من حق التوراة وموسى عليه السلام ، فكذلك إذا أهمل المبدل والمنسوخ من دين أهل الإنجيل لم يكن فى ذلك إهمال لما يجب من حق الإنجيل والمسيح بل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يتضمن الإيمان بجميع الكتب والرسل ، وأن لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون كما قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٣٦] .

والنصارى كاليهود ، آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، فأيما هو اللائق عند أولى الألباب، أن نؤمن بجميع كتب الله ورسله ، أو نؤمن ببعض ونكفر ببعض، وأيما هو اللائق عند أولى الألباب أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ونعبده بما شرعه على لسان رسوله ، أو نبتدع من الشرك والعبادات المبتدعة مالم ينزل به الله كتاباً ولا بعث به رسولا ونضاهى المشركين عباد الأوثان ؟

قال تعالى ﴿ وقالت اليهودُ : عُزيرٌ ابن الله ، وقالت النصارى : المسيحُ ابن الله ذلكَ قولهم بأفواههم يُضاهئونَ قولَ الذينَ كفروا من قبلُ - يعنى المشركين - قاتلهم الله أنَّى يُؤفكونَ ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠] .

وقال تعالى ﴿ قلْ ياأهلَ الكتابِ تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نُشركَ به شيئاً ولا يتَّخِذ بعضنا بعضاً أرباباً مِنْ دون اللهِ فإن تولَّوا فقولوا اشهدوا بأنَّا مُسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٤] .

فالمسلمون لم يهملوا روحَ القدس ، وكلمة الله ، وقد قال تعالى عن كلمة الله :

﴿ وإنّ مِنْ أهلِ الكتابِ إلا ليؤمنن به قبل موتِه ﴾ ، بل هم الذين اتبعوا دينه ودين الرسل قبله ، فإن دين الأنبياء عليهم السلام جميعهم واحد لِمَا ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد » .

وقد قال تعالى ﴿ شرعَ لكم مِنَ الدِّين ماوصَّى بهِ نُوحاً والذى أوحينا إليكَ وماوصَّينا بهِ إبراهيمَ وموسَى وعيسَى أنْ أقيموا الدين ولا تتفرَّقوا فيه ﴾ ، [سورة الشورى : ١٣] .

فدين المرسلين كلهم دين واحد ، وبتنوع شرعهم ومناهجهم كتنوع شريعة الرسول الواحد ، فإن دين المسيح هو دين موسى ، وهو دين الخليل قبلهما ، ودين محمد بعدهما ، مع أن المسيح كان على شريعة التوراة ، ثم نسخ الله على لسانه مانسخ منها وهو قبل النسخ وبعده دينه دين المسيح موسى ، ولم يهمل دين موسى .

كذلك المسلمون هم على دين المسيح وموسى وإبراهيم وسائر الرسل ، وهم الذين اتبعوا المسيح ، ولهذا جعلهم الله فوق النصارى إلى يوم القيامة .

والنصارى الذين بدّلوا دين المسيح وكذّبوا محمداً صلى الله عليه وسلم بريئون من دين المسيح والمسيح برىء منهم كبراءة موسى ممن بدل وغير دينه وكذّب المسيح .

والمسلمون أشد تعظيما للمسيح عليه السلام ، واتباعاً له بالحق ممن بدل دينه وخالفه من النصارى فإن المسلمين يصدقونه فى كل ما أخبر به عن نفسه ، ولا يحرفون ما قاله عن مواضعه ، ولا يفسرون كلامه بغير مراده ، وكلام غيره من الأنبياء كما فعلت النصارى ، فإنهم نقلوا عن المسيح أنه قال : [عمدوا الناس باسم الأب والإبن وروح القدس] وهذا إذا قاله المسيح فإنه يفسر بلغته وعادته فى خطابه وعادة سائر الأنبياء . وليس فى كلام المسيح ، ولا فى كلام سائر الأنبياء ، ولا كلام غيرهم أن كلمة الله القائمة بذاته سبحانه وتعالى تسمى ابنا ، ولا روح

قدس ، ولا تسمى صفته القديمة ، ابنا ، ولا روح قدس، ولا يوجد قط في كلام الأنبياء اسم الابن واقعاً إلا على مخلوق .

والمراد في تلك اللغة أنه مصطفى محبوب لله ، كما ينقلونه أنه قال لإسرائيل : [إنه ابنه بكره] ولداود [أنت ابني وحبيبي] وإن المسيح قال للحواريين : [أبي وأبيكم] فجعله أبا للجميع ، وهم كلهم مخلوقون فيكون اسم الإبن واقعا على المسيح الذي هو ناسوت مخلوق ، فعمد هؤلاء الضُّلال فجعلوا اسم الإبن واقعا على اللاهوت قديم أزلي مولود غير مخلوق .

وزعموا أن الإبن يراد به لإبن بالوضع، وهو المخلوق وهو الابن بالطبع وهو القديم الأزلي المولود غير المخلوق، وهذا التفريق هم أحدثوه وابتدعوه ، ولا يوجد قط في كلام المسيح ولا غيره أنه سمى القديم الأزلي ابنا ، ولا جعل له ابنا قديماً مولوداً غير مخلوق ، ولا سمى شيئاً من صفات الله قط ابنا .

وكذلك لفظ روح القدس موجود في غير موضع من كلام الأنبياء عليهم السلام لا يراد بهذا قط حياة الله ولا صفة قائمة .

وإنما يراد به ما أيد الله به الأنبياء والأولياء ، ويجعله في قلوبهم من هداه ونوره ووحيه وتأييده ، ومن ينزل بذلك من الملائكة ، وهذا الذي تسميه الأنبياء روح القدس لم يختص به المسيح ، باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ، بل قد أنزله على غيره من الأنبياء والصالحين كما هو موجود في كتبهم : إن روح القدس كانت في داود وغيره ، وكانت أيضاً عندهم في الحواريين .

وهكذا خاتم الرسل كان يقول لحسان بن ثابت : « إن روح القدس معك ما دمت تنافح عن نبيه » ، ويقول : « اللهم أيده بروح القدس » .

وقد قال الله تعالى عن المؤمنين : ﴿ لا تجدُ قوما يُؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ يُوادُّون من حادَّ اللهَ ورسولهُ ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانَهُم أو عَشيرتَهم أولئك كَتَبَ في قلوبهم الإيمانُ وأيَّدهم بروح منهُ ﴾ . [سورة المجادلة : ٢٢] .

فروح القدس لا اختصاص للمسيح عليه السلام بها ، بل ما يفسر به اسم الإبن واسم روح القدس ، وغير ذلك مما وصف به المسيح ، فهو مشترك بينه وبين غيره من الرسل ، وإذا فسروا الحلول بظهور نور الله وعلمه وهداه فى الأنبياء فهذا حق وهو مشترك بين المسيح وغيره .

فأما نفس ذات الله فلم تحل فى أحد من البشر .

والمسلمون مع شهادتهم للمسيح بأنه عبد الله ورسوله يقولون إنه مؤيد منصور عصمه الله من أعدائه وطهره منهم ، ولم يسلطهم عليه .

والنصارى يدَّعون أنه اسم المسيح اسم اللاهوت والناسوت وأنه إله تام وإنسان تام ، وهذا يمتنع شرعا وعقلا ثم يصفونه بالصفات المتناقضة ، يصفونه بأن طائفة من شرار اليهود وضعوا الشوك على رأسه وبصقوا فى وجهه ، وأهانوه وصلبوه وفعلوا به مالا يُفعل بأخس الناس ، ويقولون مع هذا إنه رب السموات والأرض وما بينهما .

فصل فى بطلان ما استدلوا به

قالوا : ثم شهد لقرابيننا وذبائحنا أنها مقدسة مقبولة لدى الله من كتب اليهود التى فى أيديهم يومنا هذا المنزلة من الله على أفواه الأنبياء المرسلين .

قال أشعيا : [قال الله : إنى أعرف بنى إسرائيل وقلوبهم القاسية الخبيثة فإذا أنا ظهرت إلى الأمم فنظروا إلى كرامتى ، أقيم منهم أنبياء وأبعث منهم مخلصين يخلصون الأمم من البلدان القاصية الذين لم يسمعوا بسماعى ، ولم يعرفوا من قبل كرامتى ، ويكون اسمى فيهم ، ويجلبون اخوتهم من الأمم كلها ، ويجيبون قرابين الله على الدواب والمراكب إلى جبل قدسى بيت المقدس ، فيقربون لى القرابين بالسميد ، كما كان بنو إسرائيل من قبل ، وكذلك باقى الأمم ويقرب القرابين بين يدى فمهم وزرعهم إلى الأبد ، ويحجّون فى كل سنة ، وفى كل شهر ،

ومن سنة إلى سنة إلى بيت المقدس ، بيت الله ، و يقربون لله ربهم فيه قرابين زكية نقية ، ينظرون إلى الأمة الخبيثة الماردة : بنى إسرائيل ، لا يبلى حرمها ولا ينقطع بلاؤها إلى الأبد] .

وقال دانيال عليه السلام : [وسيأتى على بيعتك وقرية قدسك سبعون سابوعا ، وتنقضى الذنوب ، وتفنى الخطايا وغفران الإثم ، و يؤتى بالحق الذى لم ينزل من قبل ، وتتم نبوات الأنبياء وكتب الرسل ، وتبيد قرية القدس وتخرب مع مجىء المسيح ، ويفنى الميثاق العتيق من الناس ، ومن بعد أسبوع ونصف تبطل ذبائح اليهود وقرابينهم ، وتصير على كف النجاسة والفساد إلى انقضاء الدهر] .

وقال ميخا النبى عليه السلام : [قال الله : فى آخر الزمان إذا أتى المسيح يدعو الأمم المبددة ، ويضعهم شعباً واحداً ، و يبطل قتال بنى إسرائيل وسلاحهم وقرابينهم إلى الأبد] .

وقال عاموص النبى : [لا يذبحوا العجول بعد ، فإن الرب سيأتى صهيون ويحدث وصية جديدة طاهرة من الخبز النقى والخمر الزكى ويصير بنو إسرائيل مطرودين] .

الجواب من وجوه :

أحدها : إن مايحتجون به من النقل عن الأنبياء صلوات الله عليهم يحتاجون فيه إلى أربع مقدمات :

١ — إلى أن تعلم نبوة المنقول عنه .

٢ — وإلى أن يعلم لفظه الذى تكلم به .

٣ — و إلى أن نعلم ما ذكروه ترجمة صحيحة عنه ، فإن أولئك الأنبياء

لم يتكلموا بالعربية ، بل ولا بالرومية والسريانية واليونانية ، وإنما تكلموا بالعبرية ، كالمسيح عليه السلام .

٤ — أن يعلم ما ذكروه من كلام الأنبياء دليل على ما ادعوه من قبول قرابينهم فى هذا الزمان . ونحن فى هذا المقام نقتصر على معارضتهم فى هذه المقدمة ، فليس فيما ذكروه دليل على مدح قرابينهم وذبائحهم بعد التبديل والنسخ ، ولكن غايتها أن يدل على مدحها قبل النسخ والتبديل ، وهذا مما لا ينازع فيه المسلمون .

الوجه الثانى : أن هذه النعوت المذكورة عن « أشعيا » وغيره من الأنبياء لا توافق ما عليه النصارى ، فإن النصارى لا يقربون القرابين بالسميد ، كما كان بنو إسرائيل من قبل ، ولا يحجّون فى كل شهر ومن سنة إلى سنة إلى بيت المقدس بيت الله ، ويقربون لله ربهم فيه قرابين نقية زكية ، وإنما يحجّون إلى قمامة الخارجة عن بيت الله الذى كانت الأنبياء تقصده وتصلى فيه ، فإن الأنبياء إنما كانوا يصلون فى بيت المقدس ، ويزورون بيت المقدس نفسه . وأما قمامة فليس لها ذكر فى كتب الأنبياء عليهم السلام ، بل إنما ظهرت قمامة فى زمن قسطنطين الملك ، لما أظهرتها أمه هيلانة الحرانية لما جاءت بيت المقدس ، واختارت من اليهود ثلاثة ، وسألتهم أن يدلوها على موضع الصلب فامتنعوا فعاقبتهم بالحبس والجوع فدلوها على موضعه فى مزبلة فاستخرجوه ، وجعلته فى غلاف من ذهب وحملته ، وبنت كنيسة القمامة فى موضعه ، كما ذكر ذلك ابن البطريق فى تاريخه وغيره كما سيأتى ، وذلك بعد المسيح بأكثر من ثلاث مائة سنة .

ومن ذلك الوقت أظهروا الصليب ، وجعلوا «عيد الصليب» فلم يشرع ذلك لا المسيح ولا الحواريين ، وهذا مذكور فى كتبهم متفق عليه بين علمائهم ، كما قد ذكر فى موضع آخر ، ولاهم يأتون بقرابين لله على الدواب والمراكب إلى جبل قدس الله المقدس .

الوجه الثالث : أن ما ذكروه عن «دانيال» لا يتضمن مدح دينهم بعد النسخ والتبديل ، وإنما يتضمن أن الله يبعث المسيح عليه السلام بالحق الذى نزل من قبل ، وهو الدين الذى بُعث به الرسل قبله ، وهو عبادة الله وحده ، وأن بيت المقدس يخرب مع مجىء المسيح ، ويفنى الميثاق العتيق ، يعنى ما نسخ من شرع التوراة وأنه يبطل ذبائح اليهود وقرابينهم .

وهذا كله إنما يدل على نسخ شرع التوراة ، وبطلان دولة اليهود ، ويدل على أن المسيح جاء بالحق ومن اتبع المسيح كان على الحق ، وهذا مما لا ينازع فيه المسلمون فإنهم متفقون على أن من كان متمسكا بما أمر به المسيح فإنه من عباد الله الصالحين ، ولكن من جاء بشرع لم يأت به المسيح ، أو أراد اتباع شرعه بعد النسخ فهو بمنزلة اليهود الذى نسخ الله ما نسخه من شرعهم ، وأزال دولتهم ، وكذلك فعل بالنصارى لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أزال دولتهم عن وسط الأرض وخيارها ، وحيث بعثت الأنبياء كأرض الشام ومصر والجزيرة والعراق وأرمينية وأزربيجان ، وأجلاهم إلى طرفى الأرض من جهة الشمال والجنوب ، وصار الذين فى وسط الأرض منهم أحسن أحوالهم إذا لم يسلموا أن يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

وكذلك ما ذكروه عن «ميخا» و«عاموص» إنما يدل على مجىء المسيح عليه السلام وبطلان ما نسخه الله وأبطله من شرع اليهود وملكهم لا يدل على صحة دين النصارى الذى لم يشرعه المسيح عليه السلام ؟ ولا على صحته بعد أن نسخ بشرع محمد صلى الله عليه وسلم نسخا هو أبلغ من نسخ بعض شرع موسى بشرع المسيح .
هذا إذا سمى الشرع المؤقت بغاية مجهولة نسخا ، فإن الأول لم يبشر بالثانى .

وأما إذا كان الأول بشر الثانى ، وكانت شريعة الأول مؤقتة إلى مجىء الثانى لم يسم ذلك نسخا ، فالمسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم لم ينسخا شيئاً بل

كان شرع موسى إلى مجىء المسيح ، وشرع المسيح إلى مجىء محمد صلى الله عليهما وسلم .

وأما ما حكى عن أشعياء عن الله أنه قال: [فإذا ظهرتُ إلى الأمم فهذا قد يحتج به النصارى وبأمثاله من كلام الأنبياء عليهم السلام على الحلول الذى ابتدعوه ، وهو باطل فإن هذا اللفظ مذكور فى كتب أهل الكتاب فى غير موضع ولا يراد بشىء منها حلول ذات الله فى أحد من البشر، كما ذكر فى التوراة أن الله عز وجل استعلن لإبراهيم وغيره وأن الله يأتى من طورسيدا ، ويشرف من ساعير ، ويستعلن من جبال فاران] .

ومعلوم عند جميع أهل الملل أن الله سبحانه وتعالى لم يحل فى موسى ولا غيره لما كلمه ، ولا يحصل فى شىء من جبال فاران مع أخباره أنه استعلن منها .

وقال تعالى : ﴿ هو الذى أرسلَ رَسوله بالهدى ودِينِ الحقّ ليُظهرهُ على الدِّينِ كلِه ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٣] .

فأظهره بالعلم والحجة والبيان ، وأظهره باليد والسنان كما قال تعالى: ﴿ الله نُورُ السمواتِ والأرضِ ، مَثَلُ نوره كمشكاةٍ فيها مصباحٌ ، المصباحُ فى زجاجةٍ الزجاجةُ كأنّها كوكبٌ دُرِّىٌّ يُوقد مِن شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ ، لا شرقيةٍ ولا غربيّةٍ يكاد زيتها يُضىء ، ولَو لم تمسَسْهُ نارٌ ، نورٌ على نورٍ يهْدِى اللهُ لنورِهِ مَنْ يشاء ﴾ ، [سورة النور : ٣٥] .

قال أبى بن كعب وغيره : مثل نوره فى قلب المؤمن .

وقال تعالى ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا اتّقوا الله وآمنوا برسولِه يُؤْتِكم كِفْلَيْنِ مِن رحمته ، ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٨] .

وقال تعالى : « وكذلكَ أوحينا إليكَ رُوحاً مِنْ أمرنا ما كنت تدرى ما الكتابُ ولا الإيمان ؟ ولكن جعلناه نوراً نهدى به مَن نشاء مِنْ عبادنَا » ، [سورة الشورى : ٥٢] .

وفى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، ثم قرأ : ﴿ إنَّ فى ذلك لآياتٍ للمُتوسِّمِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٧٥] » .

قال الترمذى : حديث حسن ، وقد جاء عن بعض السلف أن قلوب المؤمنين تضىء لأهل السموات كما تضىء الكواكب لأهل الأرض .

فالمخلوق الذى تظهر محبته وذكره وطاعته فى بعض البلاد ، يقال فلان قد ظهر فى هذه الأرض ، فإذا ظهر ذكر الله وذكر أسمائه وصفاته وتوحيده وآياته وعبادته حتى امتلأت القلوب بذلك بعد أن كانت ممتلئة بظلمة الكفر والشرك ، كان ذلك مما أخبر به من ظهوره ، وهذا أعظم ما يكون فى بيوته التى يعبد فيها و يذكر فيها اسمه .

ولهذا ذكر تعالى آية النور وقال : ﴿ الله نورُ السمواتِ والأرض مثل نوره كمشكاةٍ فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم ﴾ ، قال عقب ذلك : ﴿ فى بيوتٍ أذِنَ الله أن تُرفع ويُذكَرَ فيها اسمه يُسَبِّح له فيها بالغدُوِّ والأصالِ ❊ رجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر اللهِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاء الزكاةِ يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوبُ والأبصارُ ❊ ليَجزيَهم الله أحسنَ ما عملوا ويزيدَهُم مِن فَضْلِه واللهُ يرزُقُ من يشاء بغيرِ حسابٍ ﴾ ، [سورة النور : ٣٦ ــ ٣٨] .

وكذلك ما فى الكتب من ظهوره ببيت المقدس فهو كظهوره بطورسيدا وبجبل فاران ، ومع هذا فلم يره موسى ولا غيره لا مجرداً ولا حالا فى غيره ، وقد أخبر المسيح أنه لم يره أحد ، كما أخبر غيره ، وذلك نفى عام يوجب أنه لا يرى لا مجرداً ، ولا حالا فى دار الدنيا كما قد بسط هذا فى موضع آخر .

ومعلوم أن ملابسة الشيء أبلغ من رؤيته ، فإذا كان الرب تعالى لا يراه ناسوت ، فإن لا يلابسه ناسوت بطريق الأولى والأحرى . والنصارى يزعمون أنه اتحد هو والناسوت ، وهذه أعظم من الرؤية .

فصل فيما بشر به القرآن مريم من ولادة المسيح

قالوا : فما يكون أعظم من هذا برهاناً ، وأقوى شهادة ، إذ هذه كتب أعدائنا المخالفين لديننا ، وهم يقرون بذلك ويقرأونه في كنائسهم ، ولم ينكروا منه كلمة واحدة ، ولا حرفا واحداً .

والجواب : أن الأمر إذا كان على ما قالوه من ثبوت هذه الكلمات عن بعض الأنبياء فليس فيها مدح لدينهم بعد التبديل ، فكيف بعد النسخ والتبديل ؟ وإنما فيها إخبار بزوال ملك بنى إسرائيل ، ونسخ ما نسخ من شرعهم بمجيء المسيح عليه السلام ، وهذا دليل على نبوة المسيح وصدقه ، وهذا مما اتفق عليه المسلمون .

والمسيح عليه السلام عندهم كما أخبر الله عنه ، بقوله تعالى لمريم : ﴿إنَّ اللهَ يبشِّرك بكلمةٍ منه اسمهُ المسيحُ عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرةِ ومن المقربينَ ، ويكلمُ الناسَ في المهدِ وكهلاً من الصالحين﴾ ، وأما قولهم إن هذا وغيره موجود في كتب أعدائنا اليهود .

فيقال لهم : لا ريب أن اليهود يخالفونكم في تفسير الكتب فأنتم تفسرونها بشيء ، وهم يفسرونها بشيء آخر ، وقد يكون كلا التفسيرين باطلا ، وحينئذ فيقال لكم : كما أن كتب الأنبياء شاهدة للمسيح ولدينه ، وإن خالفتكم اليهود في تفسيرها ، فكذلك هي شاهدة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأمته ، وإن خالف أهل الكتاب في تفسيرها ، كما قد بينَ الله في كتب الأنبياء صفة محمد وأمته في غير موضع .

والواجب فى الكتب إذا تنازعت الأمم فى تفسيرها أن يبين الحق الذى يقوم عليه الدليل الشرعى والعقلى ، وحينئذ تبين أنكم فسرتم كتب الله بأشياء تخالف مراد الله فى أمر التثليث والاتحاد وغيره كما فعلت اليهود بتفسير الكتب ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

فصل فى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم للنصارى للدخول فى الإسلام

قالوا : وأيضاً فى قول هذا الإنسان مما أتى فى كتابه حيث اتبع القول أنه لم يرسل إلينا مع تشككه فيما أتى به فى هذا الكتاب فى سورة سبأ حيث يقول : ﴿ وإنّا أوْ إيّاكم لَعَلى هُدًى أوْ فِي ضلالٍ مبينٍ ﴾ ، [سورة سبأ : ٢٤] .

وأيضاً فى سورة الأحقاف يقول ﴿ وما أدرِى ما يُفعلُ بِى وَلا بكم ﴾ ، [سورة الأحقاف : ٩] .

والجواب أن نقلهم إنه قال : إنه لم يرسل إليهم كذب ظاهر عليه ، فإن كتابه مملوء بدعوتهم وأمره لهم بالإيمان به واتباعه ، بل وبعموم رسالته إلى جميع الناس بل وإلى الجن والإنس ، وليس فيه قط أنه لم يرسل إلى أهل الكتاب ، بل فيه التصريح بدعوة أهل الكتاب فى غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ قُل يا أهلَ الكتابِ تعالَوْا إلى كَلِمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم أن لا نعبُدَ إلاّ الله ولا نُشرِكَ بِهِ شيئاً ولا يتّخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً مِن دُون اللهِ فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مُسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٦٤] .

وقد كتب النبى صلى الله عليه وسلم بهذه الآية إلى قيصر ملك النصارى الذى اسمه « هرقل » بالشام ، وقد تقدم ذكر ذلك ، وتقدم أيضاً أن قوله تعالى : ﴿ لتُنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم ﴾ ، [سورة يس : ٦] .

يقتضى أنه ينذر الأميين ، وليس فيه أنه لا ينذر غيرهم ، كما أن قوله :

﴿ وأنذرْ عشيرتكَ الأقربينَ ﴾ ، [سورة الشعراء : ٢١٤] .

يقتضى إنذار قومه ولا ينافى أن ينذر غيرهم من العرب كما أن قوله فى قريش :
﴿ فليعبدوا ربَّ هذا البيتِ * الذى أطعمهم مِن جُوعٍ وآمنهم من خوفٍ ﴾ ،
[سورة قريش : ٣ ، ٤] .

لا يمنع أن يكون غير قريش مأمورين بعبادة رب هذا البيت ، بل قد أمر الله جميع الثقلين : الجن والإنس ، أن يعبدوا رب هذا البيت .

فإن قيل : فقد سكت عن ما سوى الأميين فى هذا ، فيشعر بالنفى بدليل الخطاب الذى يسمى مفهوم المخالفة . قيل : ذاك إنما يدل إذا لم يكن فى التخصيص فائدة سوى الاختصاص بالحكم ، ولم يكن هنا صريح بأن حكم المسكوت كحكم المنطوق ، وهنا لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأمره أن ينذر عشيرته الأقربين أولا ، ثم ينذر العرب الأميين ، ثم أهل الكتاب والمجوس وغيرهم ، وقد تقدم بسط هذا .

فصل فى دعوى النصارى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان شاكا فيما جاء به

وأما قولهم : مع تشككه فيما أتى به ، فمن الكذب البيّن فإنه تعالى قال :
﴿ قل ادعوا الَّذينَ زَعمتم مِن دُون اللهِ لا يملكونَ مثقالَ ذرَّةٍ فى السماوَاتِ ، ولا فى الأرضِ وما لهم فيهما مِن شركٍ وما له منهم من ظهيرٍ * ولا تنفعُ الشفاعة عِندهُ إلا لمن أذِن له حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قالَ ربكم ؟ قالوا الحقَّ وهو العليُّ الكبير * قل مَن يرزقكم مِن السماواتِ والأرضِ ، قل اللهُ ، وإنّا أوْ إياكم لعلى هُدىً أو فى ضلالٍ مبينٍ * قل لا تسألونَ عما أجْرَمْنا ولا نسأل عما تعملون * قل يجمع بيننا ربُّنا ثم يَفتحُ بيننا بالحق وهو الفتاحُ العليم ﴾ ، [سورة سبأ : ٢٢ ـ ٢٦] .

فإنه لما دعاهم إلى التوحيد وبيّن أن ما يدعونه من دون الله لا يملك مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا هو شريك ولا هو ظهير ولا ينفع شفيع إلا بإذنه نفى بذلك جميع وجوه الشرك ، فإن ما يشرك به إما أن يكون له ملك أو شريك فى الملك أو يكون معيناً ، فإذا انتفت الثلاثة لم يبق إلا الشفاعة التى هى دعاء لك ومسألة ، وتلك لا تنفع عنده إلا لمن أذن له .

ثم ذكر بعد هذا أنه لا رازق يرزق من السماء والأرض إلا الله دلّ بهذا وهذا على التوحيد ، كما فى قوله : ﴿ وما بكم من نعمةٍ فمنَ اللهِ ثم إذا مسّكم الضُّرُّ فإليه تجأرونَ * ثم إذا كشف الضُّرَّ عنكم إذا فريقٌ منكم بربّهم يُشرِكونَ * ليكفرُوا بما آتيناهم فتمتَّعوا فسوفَ تعلمونَ ﴾ ، [سورة النحل ٥٣ ـ ٥٥] .

فلما ذكر ما دل على وجوب توحيده ، وبيان أن أهل التوحيد هم على الهدى ، وأن أهل الشرك على الضلال قال : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ ، يقول : إن أحد الفريقين أهل التوحيد الذين لا يعبدون إلا الحق ، وأهل الشرك لعلى هدى أو فى ضلال مبين .

وهذا من الإنصاف فى الخطاب الذى كل من سمعه من ولىّ وعدو قال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبك ، كما قال العادل الذى ظهر عدله للظالم الذى ظهر ظلمه : الظالم إما أنا وإما أنت ، لا للشك فى الأمر الظاهر ، ولكن لبيان أن أحدنا ظالم ظاهر الظلم ، وهو أنت لا أنا .

فإنه إذا قيل : أهل التوحيد الذين يعبدون الله على هدى ، أو فى ضلال مبين ، وأهل الشرك الذين يعبدون مالا يضر ولا ينفع على هدى أو فى ضلال تبين أن أهل التوحيد على الهدى ، وأهل الشرك على الضلال ، وهذا مما يعلمه جميع الملل ، ومن المسلمين واليهود والنصارى ، يعلمون أن أهل التوحيد على الهدى وأهل الشرك على الضلال .

وفى القرآن فى بيان مثل هذا مالا يحصى إلا بكلفة ، بل قطب القرآن وسائر الكتب مدارها على عبادة الله وحده ، فكيف يقال إن الرسول كان يشك هل المهتدى هم أهل التوحيد أم أهل الشرك ؟ وهل يقول هذا إلا من هو فى غاية الجهل والعناد .

ثم الآية خطاب للمشركين ليست خطابا للنصارى خصوصاً .

فصل فى أن الرسول لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً

وأما قوله تعالى : ﴿ قلْ ما أدرى ما يفعلُ بى ولا بكم ﴾ فلفظ الآية : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن اتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين ﴾ ، وهذا بعد قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراهُ قل إن افتريته فلا تملكونَ لى مِن الله شيئاً هو أعلم بما تُفيضونَ فيهِ كفى بِهِ شهيداً بينى وبينكم ، وهو الغفور الرّحيم ﴾ ، [سورة الأحقاف : ٨] .

ونظير هذا قوله : ﴿ قلْ لا أقولُ لكم عندِى خزائنُ اللهِ ، ولا أعلم الغيب ولا أقولُ لكم إنى ملكٌ إن أتّبِع إلا ما يوحى إلىّ وما أنا إلا نذيرٌ مبينٌ ﴾ .

وهذا قاله نوح عليه السلام أول الرسل ، وأمر محمداً صلى الله عليه وسلم آخر الرسل أن يقوله ، ومثل قوله : ﴿ قل إنى لا أملكُ لكم ضَراً ولا رَشَداً ✽ قل إنى لَنْ يجيرُنى من الله أحدٌ ولن أجِدَ من دونه مُلتحدا ✽ إلا بلاغا مِن الله ورسالاتِه ، ومَنْ يَعْصِ الله ورسوله فإن له نار جَهنّم خالدينَ فيها أبداً ﴾ ، [سورة الجن : ٢١ ـ ٢٣] .

وهذا ونحوه يتضمن اعترافه بأنه عبد الله ورسول من الله لا يتعدى حد الرسالة ولا يدعى للشاركة فى الألوهية ، كما ادعته النصارى فى المسيح ، ولهذا قال

تعالى: ﴿ما المسيح ابنُ مريمَ إلاّ رسولٌ قد خلتْ مِن قبله الرُسل وأمُّه صدِّيقة كانا يأكلانِ الطعامَ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٥] .

فتبين أنه لا يتعدى حدّ الرسالة ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلتْ من قبله الرسل أفإنْ ماتَ أو قُتلَ انقلبتم على أعقابكم ؟ ﴾ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » .

وقال تعالى : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسلِ وما أدرى ما يفعلُ بى ولا بكم ﴾ ، يقول لست أول من أرسل ، وادعى الرسالة ، بل قد تقدم قبلى رسل ، ﴿ وما أدرى ما يفعلُ بى ولا بكم ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين ﴾ يقول لا أدعى علم الغيب ، إن اتبع إلا ما يوحى إلى ، وما أنا إلا نذير مبين أنذركم بما أمرنى الله أن أنذركم به ، لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك ، وهذا من كمال صدقه وعدله وعبوديته لله وطاعته وتمييز ما يستحقه الخالق وحده مما يستحقه العبد ، فإن العلم بعواقب الأمور على وجه التفصيل مما استأثر الله بعلمه ، فلا يعلمه ملك مقرّب ، ولا نبى مرسل .

وليس من شرط الرسول أن يعلم كل ما يكون ، وقوله تعالى : ﴿ وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ﴾ نفىٌ لعلمه بجميع ما يفعل به وبهم ، وهذا لا يعلمه إلا الله تبارك ، وهذا لا ينفى أن يكون عالماً بأنه سعيد من أهل الجنة فإن لم يدر تفاصيل ما يجرى له فى الدنيا من المحن والأعمال ، وما يتجدد له من الشرائع ، وما يكرم به فى الآخرة من أصناف النعيم ، فإنه قد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » وأيضاً هذا مأثور عن غيره من الأنبياء عليهم السلام ، ولا من شرط النبى أن يعلم حال المخاطبين : من يؤمن به ،

ومن يكفر ، وتفصيل ما يصيرون إليه هذا إن قيل إنه لم يعلم بعد هذه الآية ما نفى فيها ، وإن قيل إنه أعلم بذلك فمعلوم أن الله لم يعلمه بكل شيء جملة بل أعلمه بالأمور شيئاً بعد شيء .

وقد قال الله تعالى بعد ذلك : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ ، [سورة الفتح : ١ ـ ٣] .

وقال تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴾ ، [سورة الفتح : ٢٨] .

وفى القرآن والأحاديث عنه صلى الله عليه وسلم من الأخبار بما سيكون فى الدنيا وفى الآخرة أضعاف أضعاف ما يوجد عن الأنبياء قبله حتى أنه ينبىء على الشيء الذى يكون بعد ما يبين من السنين خبراً أكمل من خبر من عاين ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك صغار الأعين ، ذلف الأنوف ، حمر الخدود ، ينتعلون الشعر ، كأن وجوههم المجان المطرقة » فمن رأى هؤلاء الترك الذين قاتلهم المسلمون من حين خرج جنكزخان ملكهم الأكبر وأولاده وأولاد أولاده ، مثل هلاكو وغيره من الترك الكفار الذى قاتلهم المسلمون لم يحسن أن يصفهم بأحسن من هذه الصفة .

وقد أخبر بهذا قبل ظهوره بأكثر من ستمائة سنة وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى » . وهذه النار ظهرت سنة خمس وخمسين وستمائة بأرض الحجاز ، فكانت تحرق الحجر ولا تنضج اللحم ورأى أهل بصرى أعناق الجمال من ضوء تلك النار ، وكانت منذرة بما يكون بعدها فنى سنة ست وخمسين وستمائة دخل هلاكو ملك الكفار بغداد وقتل فيها مقتلة عظيمة مشهورة ، وسيأتى ـ إن شاء الله ـ بعض أخبار أنه شاهد الناس وقوعها ، كما أخبر عند ذكرنا معجزاته.

فصل فى دعوى النصارى أنهم هم المعنيون
بقوله : « صراط الذين أنعمت عليهم »

ثم قالوا : مع الأمر له فى فاتحة الكتاب أن يسأل الهداية إلى الصراط المستقيم «صراط الذين أنعم الله عليهم، غيرالمغضوب عليهم ولاالضالين» ، فإنه عنى بقوله المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالين الثلاث أمم الذين كانوا فى عصره ، وهم النصارى واليهود وعباد الأصنام ، ولم يكن فى زمانه غير هؤلاء الثلاث أمم .

فالمنعم عليهم نحن النصارى والمغضوب عليهم — فلا يشك — أنهم اليهود والذين غضب الله عليهم فى كتب التوراة والأنبياء وهذا الكتاب ، والضالين فهم عباد الأصنام الذين ضلوا عن الله ، فهذا أمر واضح بيّن ظاهر عند كل أحد ، ولاسيما عند ذوى العقول والمعرفة . والصراط : هو المذهب ، أى الطريق ، وهذه اللفظة رومية لأن الطريق بالرومية اسطراطا .

والجواب . أما قولهم : المنعم عليهم نحن النصارى ، فمن العجائب التى تدل على فرط جهل صاحبها ، وأعجب من ذلك قولهم إن هذا شىء بين واضح عند كل أحد ، لاسيما عند ذوى العقل والمعرفة ، فيا سبحان الله ! ألم يعرف العام والخاص علماً لا تمكن المنازعة فيه من دين محمد صلى الله عليه وسلم ، ودين أمته الذى تلقوه عنه من تكفير النصارى وتجهيلهم وتضليلهم واستحلال جهادهم وسبى حريمهم وأخذ أموالهم ما يناقض كل المناقضة أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم وأمته فى كل صلاة يقولون : اللهم اهدنا صراط النصارى ، وهل ينسب محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته إلى أنهم فى كل صلاة يطلبون من الله أن يهديهم صراط النصارى إلا من هو من أكذب الكذابين وأعظم الخلق افتراء

ووقاحة وجهلا وضلالا ؟ ولو كانوا يسألون الله هداية طريق النصارى لدخلوا فى دين النصارى ، ولم يكفروهم ويقاتلوهم ، ويضعوا عليهم الجزية التى يؤدونها عن يدوهم صاغرون ، ولم يشهدوا عليهم بأنهم من أهل النار ؛ وأمته أخذوا ذلك جميعه عنه منقولا عنه بالنقل المتواتر بإجماعهم لم يبتدعوا ذلك ، كما ابتدعت النصارى من العقائد والشرائع ما لم يأذن به الله ، فلا يلام المسلمون فى اتباعهم لرسول الله الذى جاء بالبينات والهدى .

ومحمد صلى الله عليه وسلم إن كان رسولاً صادقاً ، فقد كفر النصارى ، وأمر بجهادهم ، وتبرأ منهم ومن دينهم ، وإن كان كاذباً لم يقبل شىء مما نقله عن الله عز وجل .

وقد تقدم غير مرة قوله تعالى : ﴿ لقد كفرَ الذين قالوا إنَّ الله ثالث ثلاثة ﴾ ، ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيحُ ابن مريم ﴾ [سورة المائدة ٧٢ ، ٧٣]

﴿ وقالت النصارى المسيحُ ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيحَ ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠ ، ٣١] .

فمن يقول عن النصارى مثل هذه الأقوال هل يأمر أمته فى كل صلاة أن يقولوا : اهدنا طريقهم ؟ ثم يقال : أى شىء فى الآية مما يدل على أن قوله صراط الذين أنعمت عليهم هم النصارى .

وإنما المنعم عليهم هم الذين ذكرهم الله فى قوله تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ ، [سورة النساء : ٦٩] .

فهؤلاء الذين أمر الله عباده أن يسألوا هداية صراطهم .

وأما النصارى الذين كانوا على دين المسيح قبل النسخ والتبديل فهم من

المنعم عليهم ، كما أن اليهود الذين كانوا على دين موسى قبل النسخ والتبديل كانوا من المنعم عليهم ، وأما النصارى بعد النسخ والتبديل فهم من الضالين ، لا من المنعم عليهم عند الله ورسوله كما قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ ، [سورة المائدة : ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلالٍ مبين ﴾ ، [سورة مريم : ٣٨] .

وعباد الأصنام من الضالين المغضوب عليهم ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » رواه الإمام أحمد والترمذى عن عدى بن حاتم عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال الترمذى هذا حديث صحيح ، وسبب ذلك أن اليهود يعرفون الحق ولا يعملون به والنصارى يعبدون بلا علم ، وقد وصف الله اليهود بأعمال ، والنصارى بأعمال ، فوصف اليهود بالكبر والبخل والجبن والقسوة وكتمان العلم وسلوك الغى وهو سبيل الشهوات والعدوان . وذكر عن النصارى الغلو والبدع فى العبادات والشرك والضلال واستحلال محارم الله ، فقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلُوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيحُ عيسى ابن مريمَ رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثةٌ انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولدٌ له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلاً * لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيراً ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١ ـ ١٧٣] .

وقال ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾ ، [سورة الحديد : ٢٧] .

أى لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله لم نكتب عليهم الرهبانية بل هم ابتدعوها مع ابتداعهم و إياها فما رعوها حق رعايتها ، وكل بدعة ضلالة فهم مذمومون على ابتداع الرهبانية وعلى أنهم لم يرعوها حق رعايتها .

فأما ما كتب عليهم من ابتغاء رضوان الله فيحصل بفعل ما شرعه الله لهم من واجب ومستحب فإن ذلك هو الذى يرضاه ، ومن فعل ما يرضاه الله فقد فعل ما كتب عليه . ويحصل رضوان الله أيضاً بمجرد فعل الواجبات ، وهذا هو الذى كتب على العباد ، فإذا لم يكتب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله كان ابتغاء رضوانه واجباً ، فما ليس بواجب لا يشترط فى حصول ما كتب عليهم .

ولهذا ضعف أحمد بن حنبل وغيره الحديث المروى: « أول الوقت رضوان الله وآخره عفو الله» ، فإن من صلى فى آخر الوقت كما أمر فقد فعل الواجب و بذلك يرضى الله عنه ، و إن كان فعل المستحبات والمسابقة إلى الطاعات أبلغ فى إرضاء الله عنه و يحصل له بذلك من رضوان الله ومحبته مالا يحصل بمجرد الواجبات .

كما قال موسى عليه السلام : ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعالى من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلىّ عبد بمثل أداء ماافترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، فلئن سألنى لأعطينّه ولئن استعاذ بى لأعيذنّه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض روح عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه » . فقوله حتى أحبه . يريد المحبة المطلقة الكاملة .

وأما أصل المحبة : فهى حاصلة بفعل الواجبات ، فإن الله يحب المتقين والمقسطين .

وقال تعالى فيهم : ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠ ، ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ .

وهو سبحانه خاطَب النصارى بهذا لأن النصارى يعتمدون فى دينهم على ما يقوله كبراؤهم الذين وضعوا لهم القوانين والنواميس ويسوغون لأكابرهم الذين صار عندهم عظماء فى الدين أن يصنعوا لهم شريعة وينسخوا بعض ما كانوا عليه قبل ذلك لا يردون ما يتنازعون فيه من دينهم إلى الله ورسله بحيث لا يمكنون أحداً من الخروج عن كتب الله المنزلة كالتوراة والإنجيل وعن اتباع ما جاء به المسيح ، ومن قبله من الأنبياء عليهم السلام .

ولهذا قال تعالى ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ ، بل ما وضعه لهم أكابرهم من القوانين الدينية والنواميس الشرعية بعضها ينقلونه عن الأنبياء ، وبعضها عن الحواريين ، وكثير من ذلك ليس منقولا ، لا عن الأنبياء ، ولا عن الحواريين ، بل من وضع أكابرهم وابتداعهم . كما ابتدعوا لهم الأمانة التى هى أصل عقيدتهم ، وابتدعوا لهم الصلاة إلى الشرق ، وابتدعوا لهم تحليل لحم الخنزير ، وسائر المحرمات ، وابتدعوا لهم الصوم وقت الربيع ، وجعلوه خمسين يوماً ، وابتدعوا لهم أعيادهم كعيد الصليب وغيره من الأعياد .

وكذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم لما سمعه يقرأ هذه الآية :

﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ فقال : لم يعبدوهم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « إنهم أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم فـكانت تلك عبادتهم » .

ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلُّوا مِنْ قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] .

فإنهم يتبعون أهواء أكابرهم الذين مضوا من قبلهم، وأولئك ضلوا من قبل هؤلاء وأضلوا أتباعهم ، وهم كثيرون ، وضلوا عن سواء السبيل ، وهو وسط السبيل ، وهو الصراط المستقيم ، فإذا كانوا هم وأتباعهم ضالين عن الصراط المستقيم ، فـكيف يجوز أن يأمر الله عباده أن يهديهم الصراط المستقيم ، ويعنى به صراط هؤلاء الضالين المضلين ، الضالين عن سـواء السبيل ، وهو الصراط المستقيم .

وقد قال سبحانه : ﴿ ولا تتبعوا أهواء ﴾ هؤلاء لأن أصل ابتداعهم هذه البدعة كان عن هوى من أنفسهم مع ظن كاذب ، فـكانوا ممن قيل فيهم : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوَى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ ، [سورة النجم : ٢٣] . وممن قيل فيه : ﴿ ومن أضلُّ ممن اتبع هواه بغير هدًى من الله ﴾ ، [سورة القصص : ٥٠]

وسبب ذلك أن المسيح صلى الله عليه وسلم لما رفع إلى السماء وعاداه اليهود وعادوا أتباعه عداوة شديدة ، وبالغوا فى أذاهم وإذلالهم ، وطلب قتلهم ونفيهم صار فى قلوبهم من بغض اليهود ، وطلب الانتقام منهم ما لا يوصف ، فلما صار لهم دولة وملك مثل ما صار لهم فى دولة قسطنطين ، صاروا يريدون مقابلة اليهود ، كما جرت العادة فى مثل ذلك بين الطوائف المتقابلة المتنازعين فى الملك ، والمتنازعين فى البدع كالخوارج والروافض والجبرية مع القدرية والمعطلة مع الممثلة ، وكالدولتين المتنازعتين على الملك والأهواء بمنزلة قيس ويمن ، وأمثال ذلك إذا

ظهرت طائفة على الأخرى بعد ما آذتها الأخرى وانتقمت منها تريد أن تأخذ بثأرها ، ولا تقف عند حد العدل ، بل تعتدى على تلك كما اعتدت تلك عليها ، فصار النصارى يريدون مناقضة اليهود فأحلوا ما يحرمه اليهود كالخنزير وغيره ، وصاروا يمتحنون من دخل فى دينهم بأكل الخنزير فإن أكله وإلا لم يجعلوه نصرانياً .

وتركوا الختان وقالوا : إن المعمودية عوض عنه وصلوا إلى قبلة غير قبلة اليهود ، وكان اليهود قد أسرفوا فى المسيح وزعموا أنه ولد زنا ، وأنه كذاب ساحر فغلوا هؤلاء فى تعظيم المسيح ، وقالوا : إنه الله وابن الله وأمثال ذلك ، وصار من يطلب أن يقول فيه القول العدل مثل كثير من علمائهم وعبادهم ، يجمعون لهم جمعاً ويلعنونه فيه على وجه التعصب ، واتباع الهوى ، والغلو فيمن يعظمونه كما يجرى مثل ذلك لأهل الأهواء كالغلاة فى بعض المشايخ ، وبعض أهل البيت ، وبعض العلماء ، وبعض الملوك ، وبعض القبائل ، وبعض المذاهب ، وبعض الطرائق ، فإنما كان مصدر ضلالهم أهواء نفوسهم ، قال تعالى للنصارى الذين كانوا فى وقت النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن بعدهم : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غيرَ الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ . وأما قولهم إن الصراط هو المذهب ، أى الطريق ، وهذه لفظة رومية لأن الطريق بالرومية اسطراطا .

فيقال لهم : الصراط فى لغة العرب : هو الطريق . يقال : هو الطريق الواضح ، ويقال : هو الطريق المحدود بما بين الذى لا يخرج عنه ، ومنه الصراط المنصوب على جهنم ، وهو الجسر الذى يعبُر عليه المؤمنون إلى الجنة وإذا عبر عليه الكفار سقطوا فى جهنم ، ويقال فيه معنى الاستواء والاعتدال الذى يوجب سرعة العبور عليه ، وفيه ثلاث لغات ، هى ثلاث قراءات : الصراط ، والسراط ،

والزراط ، وهى لغة عربية عرباء ليست من المعرب ، ولا مأخوذة من لغة الروم كما زعموا .

ويقال أصله من قولهم سرطت الشيء أسرطه سرطاً إذا ابتلعته واسترطته ابتلعته ، فإن المبتلع يجرى بسرعة فى مجرى محدود .

ومن أمثال العرب : لا تكن حلوا فتسترط ولا مراً فتعقى ، من قولهم الشيء ، إذا أزلته من فيك لمرارته ويقال فلان يسترط ما يأخذ من الدين .

وحكى يعقوب بن السكيت ، الأخذ : سريط ، والقضا : مريط ، والسرطاط : الفالوذج ، لأنه يسترط استراطا وسيف سراطى أى قاطع فإنه ماض سريع الذهب فى مضربه .

فالصراط : هو الطريق المحدود المعتدل الذى يصل سالكه إلى مطلوبه بسرعة وقد ذكر الله لفظ الصراط فى كتابه فى غير موضع ولم يسم الله سبل الشيطان صراطاً بل سماها سبلا وخص طريقه باسم الصراط ، كقوله تعالى : ﴿ وأنّ هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٥٣] .

وفى السنن عن عبد الله بن مسعود قال : « خطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً ، وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، من أجابه قذفه فى النار ، ثم قرأ ﴿ وأنّ هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ » .

فسمى سبحانه طريقه صراطاً ، وسمى تلك سبلا ، ولم يسمها صراطاً كما سماها سبيلا وطريقه يسميه سبيلا ، كما يسميه صراطاً .

وقال تعالى عن موسى وهارون : ﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين * وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ ، [سورة الصافات : ١١٧ ، ١١٨] . وقال تعالى ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبيناً * ليغفرَ لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر

ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ ، [سورة الفتح : ١ ـ ٣] . وهذه الهداية الخاصة التي أعطاها إياها بعد فتح الحديبية أخص مما تقدم فإن السالك إلى الله لا يزال يتقرب إليه بشيء بعد شيء ، ويزيده الله هدى بعد هدى ، وأقوم الطريق وأكملها الطريق التي بعث الله بها نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ﴾ ، [سورة الإسراء : ٩] .

فصل فى القول فى بطلان التثليث

قال الحاكى عنهم : فقلت : إنهم ينكرون علينا فى قولنا ، أب وابن ، وروح قدس ، وأيضاً فى قولنا إنهم ثلاث أقانيم ، وأيضاً فى قولنا : إن المسيح رب وإله وخالق ، وأيضاً يطلبون منا إيضاح تجسد تجسم كلمة الله الخالق بإنسان مخلوق ، أجابوا قائلين : لو علموا قولنا هذا إنما نريد به القول الذى يعنى أن الله شيء حى ناطق لما أنكروا علينا ذلك لأننا معشر النصارى لما رأينا حدوث الأشياء علمنا أن شيئاً غيرها أحدثها إذ لا يمكن حدوثها من ذواتها لما فيه من التضاد والتلقب فقلنا : إنه شيء لا كالأشياء المخلوقة إذ هو الخالق لكل شيء ، وذلك لننفى عنه العدم ، ورأينا الأشياء المخلوقة تنقسم قسمين : شيء حى ، وشيء غير حى ، فوصفناه بأجلهما ، فقلنا : هو شيء حى لننفى الموت عنه ، ورأينا الحى ينقسم قسمين : حى ناطق وحى غير ناطق ؛ فوصفناه بأفضلهما ، فقلنا : هو شيء حى ناطق ، لننفى الجهل عنه والثلاثة أسماء وهى إله واحد مسمى واحد ، ورب واحد ، خالق واحد شيء حى ناطق ، أى الذات والنطق والحياة ، والذات عندنا الأب الذى هو ابتداء الإثنين ، والنطق الإبن الذى هو مولود منه لولادة النطق من العقل ، والحياة روح القدس وهذه أسماء لم نسم نحن بها .

والجواب من وجوه : أحدها : قولهم : أما قولنا أب ، وابن ، وروح قدس ،

فلو علموا قولنا هذا إنما نريد به تصحيح القول بأن الله حي ناطق لما أنكروا ذلك علينا، فيقال : ليس الأمر كما ادعوه فإن النصارى يقولون : إن هذا القول تلقوه عن الإنجيل ، وإن في الإنجيل عن المسيح صلوات الله عليه أنه قال : [عمدوا الناس باسم الأب ، والإبن ، وروح القدس] ، فكان أصل قولهم هو ما يذكرونه من أنه تلقى من الشرع المنزل لا أنهم أثبتوا الحياة والنطق بعقولهم ، ثم عبروا عنها بهذه العبارات ، كما ادعوه في مناظرتهم .

ولو كان الأمر كذلك لما احتاجوا إلى هذه العبارة ، ولا إلى جعل الأقانيم ثلاثة ، بل معلوم عندهم ، وعند سائر أهل الملل أن الله موجود حي عليم ، قدير متكلم لا تختص صفاته بثلاثة ، ولا يعبر عن ثلاثة منها بعبارة لا تدل على ذلك ، وهو لفظ : الأب ، والإبن ، وروح القدس ، فإن هذه الألفاظ لا تدل على ما فسروها به في لغة أحد من الأمم ولا يوجد في كلام أحد من الأنبياء أنه عبر بهذه الألفاظ عما ذكروه من المعاني بل إثبات ما ادعوه من التثليث والتعبير عنه بهذه الألفاظ هو مما ابتدعوه لم يدل عليه شرع ولا عقل .

وهم يدعون أن التثليث والحلول والاتحاد إنما صاروا إليه من جهة الشرع ، وهو نصوص الأنبياء والكتب المنزلة لا من جهة العقل ، وزعموا أن الكتب الإلهية نطقت بذلك ، ثم تكلفوا لما ظنوه مدلول الكتب طريقاً عقلية ، فسروه بها تفسيراً ظنوه جائزاً في العقل . ولهذا نجد النصارى لا يلجأون في التثليث والاتحاد إلا إلى الشرع والكتب ، وهم يجدون نفرة عقولهم وقلوبهم عن التثليث والاتحاد والحلول فإن فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وما جعله الله في قلوب الناس من المعارف العقلية التي قد يسمونها ناموساً عقلياً طبيعياً يدفع ذلك وينفيه وينفر عنه ، لكن يزعمون أن الكتب الإلهية جاءت بذلك وأن ذلك أمر فوق العقل ، وأن هذا الكلام من طور وراء طور العقل فيتقلونه لظنهم أن الكتب الإلهية أخبرت به ، لا لأن العقول دلت عليه مع أنه ليس في الكتب الإلهية

ما يدل على ذلك ، بل فيها ما يدل على نقيضه ، كما سنذكره إن شاء الله تعالى، ولا يميزون ما يحيله العقل ويبطله ويعلم أنه ممتنع وبين ما يعجز عنه العقل فلا يعرفه ولا يعلم فيه بنفي ولا إثبات وأن الرسل أخبرت بالنوع الثاني : ولا يجوز أن تخبر بالنوع الأول فلم يفرقوا بين محالات العقول ومحارات العقول ، وقد ضاهوا في ذلك من قبلهم من المشركين الذين جعلوا لله ولداً وشريكا .

قال تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾، وقد ضاهاهم في ذلك أهل البدع والضلال ، المشبهون لهم من المنتسبين إلى الإسلام الذين يقولون بنحو قولهم من الغلو في الأنبياء وأهل الكتب والمشايخ وغيرهم ، ومن يدعى الوحدة والحلول أو الاتحاد الخاص الذين كدعوى النصارى ودعوى الغالية من الشيعة في علىّ وطائفة في أهل البيت كالنصيرية ونحوهم ممن يدعى إلهية علىّ ، وكدعوى بعض الإسماعيلية الإلهية في الحاكم وغيره من بني عبد الله ابن ميمون القداح المنتسبين إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر .

ودعوى كثير من الناس نحو ذلك في بعض الشيوخ إما المعروفين بالصلاح وإما من يظن به الصلاح وليس من أهله فإن لهم أقوالا من جنس أقوال النصارى ، وبعضها شر من أقوال النصارى .

وعامة هؤلاء إذا خوطبوا ببيان فساد قولهم قالوا من جنس قول النصارى هذا أمر فوق العقل ، ويقول بعضهم ما كان يقوله التلمساني لشيخ أهل الوحدة يقول : ثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل ، ويقولون لمن أراد أن يسلك سبيلهم : دع العقل والنقل ، أو اخرج عن العقل والنقل .

وينشدون فيهم :

مجانين إلا أن سر جنونهم ... عزيز على أقدامه يسجد العقل

هم معشر حلوا النظام وحرفوا ... السياج فلا فرض لديهم ولا نفل

وهؤلاء مقلدون لمشايخهم متبعون لهم فيما يخرجون به عن شريعة الرسول، وما ابتدعوه مما لم يأذن به الله باتخاذ البدع عبادات واستحلال المحرمات كتقليد بعض النصارى لشيوخهم فإذا اعترضوا على أحد منهم يقولون : الشيخ يسلم له ، ولا يعترض عليه كما يقوله النصارى لشيوخهم ، ومن هؤلاء من يقول نحن أولاد الله ، ويقول الشيخ هو ولد الله ، وينطق بلفظ الشهوة فيقول إنهم أولاد شهوة ، ويقول إنه زوج مريم كما يقول ذلك من يقوله من النصارى .

وغاية ما عندهم أنهم يحكون عن شيوخهم نوعا من خرق العادات قد يكون كذبا ، وقد يكون صدقا ، وإذا كانت صدقا فقد يكون من أحوال أولياء الشيطان كالسحرة والكهان وقد تكون من أحوال أولياء الرحمن وحينئذ لم يكن في ذلك ما يوجب تقليد الولي في كل ما يقوله إذ الولي لا يجب أن يكون معصوما ، ولا يجب اتباعه في كل ما يقوله ، ولا الإيمان بكل ما يقوله .

وإنما هذا من خصائص الأنبياء الذين يجب الإيمان بكل مايقولونه ، فيجب تصديقهم في كل ما يخبرون به من الغيب ، وطاعتهم فيما أوجبوه على الأمم ومن كفر بشيء مما جاءوا به فهو كافر ، ومن سب نبياً واحداً منهم وجب قتله، وليس هذا لغير الأنبياء من الصالحين .

فهؤلاء المبتدعة الغلاة المشركون القائلون بنوع من الحلول هم يضاهئون النصارى بما شابهوهم فيه ، وخالفوا فيه دين المسلمين ، ومنهم من تكون موافقته لدين المسلمين أكثر ، وأما الغلاة منهم فموافقتهم للنصارى أكثر ، ومنهم من هو أكفر من النصارى ، ولما كان مستند النصارى هو ما ينقلونه إما عن الأنبياء ، وإما عن غيرهم ممن يوجبون اتباعه ، كانوا إذا أوردوا على علمائهم ما يقتضي امتناع ذلك ، قالوا هكذا في الكتاب ، وبهذا نطق الكتاب ، وهذه الكتب جاءت بها الرسل ، يعنون المؤيدين بالمعجزات ، ويعنون بالرسل الحواريين

فاعتصامهم بهم إنما هو لما ظنوه مذكوراً فى الكتب الإلهية وإن رأوه مخالفاً لصريح المعقول .

ولهذا ينهون جمهورهم عن البحث والمناظرة فى ذلك لعلمهم بأن العقل الصريح متى تصور دينهم علم أنه باطل . فدعوى المدعين أنا إنما قلنا أب وابن وروح قدس لتصحيح القول بأن الله حى ناطق كذب ظاهر ، وهم يعلمون أنه كذب ، وتصحيح القول بأن الله حى متكلم ، لا يقف على هذه العبارة ، بل يمكنه تصحيح ذلك بالأدلة الشرعية والسمعية والعقلية ، والتعبير عنه بالعبارات المبينة كما يقوله المسلمون وغيرهم بدون قولنا أب وابن وروح قدس .

ومما يبين ذلك الوجه الثانى وهو أن النصارى المقرون بأن هذه العبارة فى الإنجيل المأخوذ عن المسيح مختلفون فى تفسير هذا الكلام ، فكثير منهم يقول الأب هو الوجود ، والابن هو الكلمة ، وروح القدس هو الحياة .

ومنهم من يقول : بل الأب هو الوجود ، والإبن هو الكلمة، وروح القدس هو القدرة .

وبعضهم يقول : إن الاقانيم الثلاثة : جواد حكيم قادر ، فيجعل الأب هو الجواد ، والإبن هو الحكيم ، وروح القدس هو القادر ، ويزعمون أن جميع الصفات تدخل تحت هذه الثلاثة ، ويقولون : إنا استدللنا على وجوده بإخراجه الأشياء من العدم إلى الوجود ، وذلك من جوده .

وقد رأيت فى كتب النصارى هذا وهذا وهذا . ومنهم من يعبر عن الكلمة بالعلم ، فيقولون موجود حى عالم أو موجود عالم قادر ، كما يقول بعضهم ناطق. ومنهم من يقول موجود حى حكيم . ومنهم من يقول قائم بنفسه حى حكيم. وهم متفقون على أن المتحد بالمسيح والحال فيه هو أقنوم الكلمة ، وهو الذى يسمونه الإبن دون الأب ومن أنكر الحلول والاتحاد منهم كالأريوسية يقول: إن المسيح عليه السلام عبد مرسل ، كسائر الرسل صلوات الله عليهم وسلامه،

فوافقهم على لفظ : الأب ، والإبن ، وروح القدس ، ولا يفسر ذلك بما يقوله منازعوه من الحلول والاتحاد .

كما أن النسطورية يوافقونهم أيضاً على هذا اللفظ وينازعونهم فى الاتحاد الذى يقوله اليعقوبية والملكية فإذا كانوا متفقين على اللفظ متنازعين فى معناه علم أنهم صدقوا أولا باللفظ لأجل اعتقادهم مجىء الشرع به ، ثم تنازعوا بعد ذلك فى تفسير الكتاب ، كما يختلفون هم وسائر أهل الملل فى تفسير بعض الكلام الذى يعتقدون أنه منقول عن الأنبياء عليهم السلام ، وعلم بذلك أن أصل قولهم الأب ، والابن ، وروح القدس ، لم يكن لأجل تصحيح القول بأن الله موجود حى ناطق الذى علموه أولا بالعقل .

يوضح هذا الوجه الثالث ، وهو قولهم إنا لما رأينا حدوث الأشياء وعلمنا أن شيئاً غيرها أحدثها ، إن كان المتكلم بها طائفة معينة من النصارى فيقال لهؤلاء : القول بالأب ، والإبن ، وروح القدس ، موجود عند النصارى قبل وجودكم ، وقبل نظركم هذا واستدلالكم فلا يجوز أن يكون نظركم هو الموجب لقول النصارى هذا ، وإن كان المراد به أن جميع النصارى من حين قالوا هذا الكلام نظروا واستدلوا حتى قالوا ذلك فهذا كذب بيّن ، فإن هذا الكلام يقول النصارى إنهم تلقوه عن الإنجيل ، وأن المسيح عليه السلام قال : [عمدوا الناس باسم الأب ، والابن ، وروح القدس] .

والمسيح والحواريون لم يأمروهم بهذا النظر الموجب لهذا القول ولا جعل المسيح هذا القول موقوفاً عندهم على هذا البحث فعلم أن جعلهم هذا القول ناشئاً عن هذا البحث قول باطل يعلمون هم ببطلانه .

الوجه الرابع : إن هذا القول : إن كان المسيح لم يقله فلا يجوز أن يقال ، ولو عنى به الإنسان معنى صحيحاً فإن هذه العبارة إنما يفهم منها عند الإطلاق

المعانى الباطلة ، ولهذا يوجد كثير من عوام النصارى يعتقدون أن المسيح ابن الله البنوة المعروفة فى المخلوقات ، ويقولون : إن مريم زوجة الله وهذا لازم لعامة النصارى وإن لم يقولوه فإن الذى يلد لا بد له من زوجة .

ولهذا قال تعالى : ﴿أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم﴾ ، [سورة الأنعام : ١٠١] .

وجعل الرب والد المولود أنكر فى العقول من إثبات صاحبة له سواء فسرت الولادة بالولادة المعروفة أو بالولادة العقلية التى يقولها علماء النصارى ، فإن من أثبت صاحبة له يمكنه تأويل ذلك كما تأولوا هم الولد ، ويقولون : إن الأب ولدت منه الكلمة ، ومريم ولد منها الناسوت ، واتحد الناسوت باللاهوت ، فكما أن الأب أب باللاهوت لا بالناسوت ومريم أم للناسوت لا اللاهوت ، فكذلك هى صاحبة للأب بالناسوت ، واللاهوت زوج مريم بلاهوته ، كما أنه أب للمسيح بلاهوته وإذا اتحد اللاهوت بناسوت المسيح مدة طويلة فلماذا يمتنع أن يجتمع اللاهوت بناسوت مريم مدة قصيرة . وإذا جعل الناسوت الذى ولدته ابناً للاهوت فلأى شىء لا تجعل هى صاحبة وزوجة للاهوت فإن المسيح عندهم اسم لمجموع اللاهوت والناسوت ، وهو عندهم إله تام وإنسان تام . فلاهوته من الله وناسوته من مريم فهو من أصلين : لاهوت وناسوت ، فإذا كان أحد الأصلين أباه والآخر أمه فلماذا لا تكون أمه زوجة أبيه بهذا الاعتبار ، مع أن المصاحبة قبل النبوة ؟ فكيف يثبت الفرع الملزوم بدون ثبوت الأصل اللازم ؟

وليس فى ذلك من المحال على أصلهم إلا ما هو من جنس إثبات نبوة المسيح وأقل امتناعاً وإن كان المسيح عليه السلام قال هذا الكلام ، فقد علمنا أن المسيح عليه السلام وغيره من الأنبياء معصومون لا يقولون إلا الحق ، وإذا قالوا قولاً فلا بد له من معنى صحيح .

ويمتنع أن يريدوا بقولهم ما يمتنع بطلانه بسمع أو عقل فإذا كانت العقول ،

ونصوص الكتب المتقدمة مع نصوص القرآن تناقض ما ابتدعته النصارى فى المسيح عُلِمَ أن المسيح لم يُرِدْ معنى باطلا يخالف صريح المعقول وصحيح المنقول .

بل نقول فى الوجه الخامس : إن صحت هذه العبارة عن المسيح المعصوم عليه الصلاة والسلام فإنه أراد بذلك ما يناسب سائر كلامه ، وفى الموجود فى كتبهم تسمية الرب أباً وتسمية عباده أبناء ، كما يذكرون أنه قال فى التوراة ليعقوب إسرائيل : [أنت ابنى بكرى] ، وقال لداود فى الزبور : [أنت ابنى وحبيبى] ، وفى الإنجيل فى غير موضع يقول المسيح : [أبى وأبيكم] كقوله : [إنى أذهب إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم] فيسميه أباً لهم كما يسميهم أبناء له فإن كان هذا صحيحاً ، فالمراد بذلك أنه الرب المربى الرحيم ، فإن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، والإبن هو المربّى المرحوم ، فإن تربية الله لعبده أكمل من تربية الوالدة لولدها ، فيكون المراد بالأب الرّب ، والمراد بالإبن عنده المسيح الذى رباه .

وأما روح القدس : فهى لفظة موجودة فى غير موضع من الكتب التى عندهم ، وليس المراد بها حياة الله باتفاقهم ، بل روح القدس عندهم تحلّ فى إبراهيم وموسى وداود وغيرهم من الأنبياء والصالحين .

والقرآن قد شهد أن الله أيد المسيح بروح القدس ، كما قال الله تعالى : ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناهُ بروح القدس﴾ ، [سورة البقرة : ٨٧] . فى موضعين (١) من البقرة .

وقال تعالى : ﴿ يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتِكَ إذ أيدتُك بروح القدس ﴾ ، [سورة المائدة : ١١٠] . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت : « إن روح القدس معك ما دمت تنافح عن نبيه » وقال « اللهم أيده بروح القدس » كما تقدم عن ذكر هذا كله مبسوطاً .

وروح القدس : قد يراد بها الملك المقدس كجبريل ، ويراد بها الوحى ، والهدى

---

(١) الموضع الثانى فى : ٢٥٣ .

والتأييد الذي ينزله الله بواسطة الملك أو بغير واسطته ، وقد يكونان متلازمين فإن الملك ينزل بالوحي ، والوحي ينزل به الملك ، والله يؤيد رسله بالملائكة وبالهدى كما قال تعالى عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فأنزلَ الله سكينته عليه وأيّده بجنودٍ لم تروها ﴾ في موضعين من سورة براءة ؛ [٤٠] [1] .

وقال الله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾، [سورة الأحزاب: ٩] وقال تعالى : ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ ، [سورة الأنفال: ١٢] . الآية ، وقال تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتبَ في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ ، [سورة المجادلة ٢٢]. وقال الله تعالى : ﴿ ينزِّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ ، [سورة النحل : ٢] وقال تعالى : ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴾ ، [سورة غافر: ١٥] وقال . « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا » ، [سورة الشورى : ٥٢] . وإذا كان روح القدس معروفاً في كلام الأنبياء المتقدمين والمتأخرين أنها أمر ينزله الله على أنبيائه وصالحي عباده سواء كان ملائكة تنزل بالوحي والنصر أو وحياً وتأييداً مع الملك ، وبدون الملك ليس المراد بروح القدس أنها حياة الله القائمة به كان قال : [عمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس] مراده مروا الناس أن يؤمنوا بالله ونبيه الذي أرسله وبالملك الذي أنزل عليه الوحي الذي جاء به ، فيكون ذلك أمراً لهم بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وهذا هو الحق الذي يدل عليه صريح المعقول وصحيح المنقول .

---

(١) هذا هو الموضع الثاني ، وأما الموضع الأول فهو في [٢٦] وهو (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) .

فتفسير كلام المعصوم بهذا التفسير الذى يوافق سائر ألفاظ الكتب التى عندهم و يوافق القرآن والعقل أولى من تفسيره بما يخالف صريح المعقول وصحيح المنقول .

وهذا تفسير ظاهر ليس فيه تكلف ، ولا هو من التأويل الذى هو صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره ، بل هو تفسير له بما يدل ظاهره عليه باللغة المعروفة والعبارة المألوفة فى خطاب المسيح وخطاب سائر الأنبياء .

وأما تفسير النصارى بأن الابن مولود قديم أزلى هو العلم أو كلمة الله فتفسير للفظ بما لم يستعمل هذا اللفظ فيه لا فى كلام أحد من الأنبياء ، ولا لغة أحد من الأنبياء ، وكذلك تفسير روح القدس بحياة الله ، فالذى فسر النصارى به ظاهر كلام المسيح هو تفسير لا تدل عليه لغة المسيح وعادته فى كلامه ، ولا لغة غيره من الأنبياء والأمم ، بل المعروف فى لغته وكلامه وكلام سائر الأنبياء تفسيره بما فسرناه ، و بذلك فسره أكابر علماء النصارى .

وأما ضلال النصارى المحرفون لمعانى كتب الله عز وجل ، فسروه بما يخالف معناه الظاهر وينكره العقل والشرع .

وتمام هذا بالوجه السادس ، وهو أن النصارى لما كان عندهم فى الكتب تسمية المسيح عليه السلام ابناً ، وتسمية غيره من الأنبياء ابناً ، كقوله ليعقوب : [أنت ابنى بكرى] وتسمية الحواريين أبناء قالوا هو ابنه بالطبع ، وغيره ابنه بالوضع ، فجعلوا لفظ الأب مشتركاً بين معنيين وأثبتوا لله طبعاً ، جعلوا المسيح ابنه باعتبار ذلك الطبع ، وهذا يقرره قول من يفهم منهم أنه ابنه البنوة المعروفة فى المخلوقين ، وأن مريم زوجة الله ، وكذلك جعلوا روح القدس مشتركة بين حياة الله وبين روح القدس التى تنزل على الأنبياء والصالحين .

ومعلوم أن الاشتراك على خلاف الأصل ، وأن اللفظ إذا استعمل فى عدة

مواضع كان جمله حقيقة متواطئاً فى القدر المشترك أولى من جمله مشتركاً اشتراكاً لفظياً بحيث يكون حقيقة فى خصوص هذا ، وخصوص هذا ، أو يكون مجازاً فى إحداهما فإن المجاز والاشتراك على خلاف الأصل ، هذا إن قدر أن لفظ الابن وروح القدس استعمل فى نطق الله وحياته كما يزعم النصارى ، فكيف إذا لم يوجد فى كلام الأنبياء أنهم قالوا لفظ الإبن، ولفظ روح القدس وأرادوا به شيئاً من صفات الله لا كلامه ولا حياته ولا علمه ولا غير ذلك ، بل لم يوجد استعمال لفظ الابن فى كلام الأنبياء إلا فى شىء مخلوق ولم يوجد استعمال روح القدس بما هو فى صفات الله القائمة به ، ونحن إذا فسرنا الأب وروح القدس ببنوة التربية وروح القدس بما ينزل على الأنبياء . كنا قد جعلنا اللفظ مفرداً متواطئاً وهم يحتاجون أن يجعلوا اللفظ مشتركاً أو مجازاً فى أحد المعنيين ، فكان تفسيرهم مخالفاً لظاهر اللغة التى خوطبوا بها ، ولظاهر الكتب التى بأيديهم وتفسيرنا موافقاً لظاهر لغتهم ، وظاهر الكتب التى بأيديهم ، وحينئذ فقد تبين أنه ليس معهم بالتثليث لا حجة سمعية ولا عقلية ، بل هو باطل شرعاً وعقلا .

ويؤيد هذا الوجه السابع : وهو أنهم فى أمانتهم أثبتوا من المعانى ، ولفظ الأقانيم وغير ذلك ما لا تدل عليه الكتب التى بأيديهم ألبتة ، بل فهموا منها معنى باطلا ، وضموا إليه معانى باطلة من عند أنفسهم فكانوا محرفين لكتب الله فى ذلك ، مفترين على الله الكذب ، وهذا مبسوط فى موضع آخر .

الوجه الثامن : أن قولهم بالأقانيم مع بطلانه فى العقل والشرع لم ينطق به عندهم كتاب ، ولم يوجد هذا اللفظ فى شىء من كتب الأنبياء التى بأيديهم ولا فى كلام الحواريين ، بل هى لفظة ابتدعوها ، ويقال : إنها رومية ، وقد قيل : الأقنوم فى لغتهم معناه الأصل ، ولهذا يضطرون فى تفسير الأقانيم تارة يقولون أشخاص ، وتارة خواص ، وتارة صفات ، وتارة جواهر ، وتارة يجعلون الأقنوم اسماً للذات والصفة معاً ، وهذا تفسير حذاقهم .

الوجه التاسع : قولهم فى المسيح عليه السلام إنه خالق قول مع بطلانه فى الشرع والعقل لم ينطق به شيء من النبوات التى عندهم ، ولكن يستدلون على ذلك بما لا يدل عليه كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

الوجه العاشر : قولهم فى تجسد اللاهوت أيضاً هو قول مع بطلانه فى العقل والشرع ، لا يدل عليه شيء من كلام المعصوم من النبيين والمرسلين .

الوجه الحادى عشر : أنا نقول : لا ريب أن الله حىّ عالم قادر متكلم ، وللمسلمين على ذلك من الدلائل العقلية التى دل الرسول عليها ، وأرشد إليها فصارت معروفة بالعقل مدلولا عليها بالشرع ما هو مبسوط فى موضعه وأنتم مع دعواكم أنكم تثبتون ذلك بالعقل ، لم تذكروا على ذلك دليلا عقليا .

فقولكم لما رأينا حدوث الأشياء علمنا أن شيئاً غيرها أحدثها إذ لا يمكن حدوثها من ذواتها لما فيها من التضاد والتقلب كلام قاصر لوجوه :

أحدها : أنكم لم تروا حدوث جميع المخلوقات ، وإنما رأيتم حدوث مايشهد حدوثه كالسحاب والمطر والحيوان والنبات ونحو ذلك ، فأين دليلكم على حدوث سائر الأشياء ؟

الثانى : أنه كان ينبغى أن تقولوا لما علم حدوث المحدثات ، أو حدوث المخلوقات أو حدوث ما سوى الله ونحو ذلك مما يبين المحدث ما سوى الله . فأما إطلاق حدوث جميع الأشياء فباطل ، فإن الله يسمى عندكم وعند جمهور المسلمين شيئاً من الأشياء . وهذا بخلاف قوله تعالى : ﴿ الله خالقُ كل شيء ﴾ ، [سورة الرعد : ١٦] . فإن هذا التركيب يبين أن الخالق غير المخلوق خلاف قول القائل حدوث الأشياء .

الثالث : أن العلم بالمحدث لابد له من محدث ، علم فطرى ضرورى ، ولهذا قال الله تعالى فى القرآن : ﴿ أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ ، [سورة الطور : ٣٥] . قال جبير بن مطعم : « لما سمعت النبى صلى الله عليه وسلم

يقرأ بها فى صلاة المغرب أحسست بفؤادى قد انصدع بقوله تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير خالقٍ أم هم الخالقون ؟ ﴾ .

ومعلوم بالفطرة التى فطر الله عليها عباده بصريح العقل أن الحادث لا يحدث إلا بمحدث أحدثه .

وإن حدوث الحادث بلا محدث أحدثه معلوم البطلان بضرورة العقل ، وهذا أمر مركوز فى بنى آدم حتى الصبيان ، لو ضرب الصبى ضربة فقال : من ضربنى ؟ فقيل : ما ضربك أحد ، لم يصدق عقله أن الضربة حدثت من غير فاعل .

ولهذا لو جوّز مجوز أن يحدث كتابة أو نساجة أو غراسا ونحو ذلك من غير محدث لذلك ، لكان عند العقلاء إما مجنوناً ، وإما مُسَفْسِطاً كالمنكر للعلوم والمعارف الضرورية ، وكذلك معلوم أنه لم يحدث نفسه ، فإن كان معدوماً قبل حدوثه لم يكن شيئاً فيمتنع أن يحدث غيره فضلا عن أن يحدث نفسه .

فقولكم لم يكن حدوثها من ذواتها لما فيها من التضاد والتقلب تعليل باطل فإن علمنا حدوثها لم يكن من ذواتها ليس لأجل ما فيها من التضاد والتقلب بل سواء كانت متماثلة أو مختلفة أو متضادة ، نحن نعلم بصريح العقل أن المحدث لا يحدث نفسه ، وهذا من أظهر المعارف وأبينها للعقل ، كما تعلم أن العدل لا يخلق موجوداً ، وأن المحدث للحوادث الموجودة لا يكون معدوماً .

الوجه الرابع : أنكم ذكرتم حجة على أنها لم تحدث نفسها ، وهى حجة ضعيفة ولم تذكر حجة على أنها حدثت بلا محدث ، لا أنفسها ولا غيرها ، فإن كان امتناع كونها أحدثت نفسها محتاجاً إلى دليل ، فكذلك امتناع حدوثها بلا محدث ، وإن كان معلوماً ببديهة العقل ، وهو من العلوم الضرورية فكذلك الآخر فذكر الدليل على أحدهما دون الآخر خطأ لو كنتم ذكرتم دليلا صحيحاً ، فكيف إذا كان الدليل باطلا ؟ ومن يكون مبلغهم من العلم بالأدلة العقلية التى يثبتون بها العلم بالصانع وصفاته هذا المبلغ ؟ ثم يريدون مع ذلك أن يثبتوا معانى

عقلية ، ويزعمون أنها موافقة لفهمهم الباطل من الكتب الإلهية . فهم ممن قال الله فيه : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب * أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ ، [سورة النور : ٣٩ : ٤٠] .

الوجه الثانى عشر : قولكم : فقلنا إنه شىء لا كالأشياء المخلوقة ، إذ هو الخالق لكل شىء ، المنفى عنه العدم . فيقال لهم : لا ريب أن الله كما وصف نفسه بقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ ، [سورة الشورى:١١] . وقوله : ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً ﴾ ، [سورة مريم : ٦٥] . أى مثلا يستحق أن يسمى بأسمائه .

وقوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ وقد دل على ذلك العقل فإن المثلين اللذين يسد أحدهما مسد الآخر يجب لأحدهما ما يجب للآخر ، ويمتنع عليه ما يمتنع عليه ، ويجوز عليه ما يجوز عليه ، فلو كان للخالق مثلٌ للزم أن يشتركا فيما يجب ، ويجوز ، ويمتنع .

والخالق يجب له الوجود والقدم ويمتنع عليه العدم فيلزم أن يكون المخلوق واجب الوجود قديماً أزلياً لم يعدم قط ، وكونه محدثاً مخلوقا يستلزم أن يكون كان معدوماً ، فيلزم أن يكون موجوداً معدوماً قديماً محدثاً ، وهو جمع بين النقيضين يمتنع فى بداية العقول وأيضاً فالمخلوق يمتنع عليه القدم ، ويجب له مسابقة العدم ، فلو وجب للخالق القديم ما يجب له لوجب كون الواجب القدم واجب الحدوث بعدم العدم ، وهذا جمع بين النقيضين ، فالعقل الصريح يجزم بأن الله ليس كمثله شىء ، والكلام على هذا مبسوط فى موضع آخر لكن أنتم لم تذكروا على هذا حجة على أنه خالق كل شىء ، إذ كان عمدتكم على ما شهدتم حدوثه ، وليس ذلك كل

شيء ، ولم تذكروا حجة مع كونه خالق كل شيء على أنه ليس كمثله شيء ، بل قلتم لأننا معشر النصارى لما رأينا حدوث الأشياء علمنا أن شيئاً غيرها أحدثها لما فيها من التضاد والتقلب فقلنا إنه شيء لا كالأشياء المخلوقة إذ هو الخالق لكل شيء ، وذلك لننفي العدم عنه . ودليلكم لو دل على العلم بالصانع لم يدل إلا على أنه خالق ، فكيف إذا لم يدل ؟

ولا ريب أن الخالق سبحانه يجب أن يكون موجوداً لا معدوماً وهذا معلوم بالضرورة ، لا يحتاج إلى دليل عند جمهور العقلاء والنظار وإن كان بعضهم أثبت وجوده بالدليل النظرى لكن ليس فى دليلكم ما يدل على أنه ليس كالأشياء المخلوقة ، وقولكم إذ هو الخالق لكل شيء يتضمن أنه خالق لكل ما سواه ليس فيه بيان نفى المماثلة عنه ، ولكن بينتم بهذا الكلام جهلكم بالدلائل العقلية كجهلكم بالكتب المنزلة ، وكذلك أخبر تعالى عن أهل النار أنهم يقولون : ﴿ لو كنا نسمعُ أو نعقلُ ، ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ ، [الملك : ١٠] .

فصل فى تقسيم الأشياء

وأما قولكم : ورأينا الأشياء المخلوقة تنقسم قسمين : شيء حى ، وشيء غير حى ، فوصفناه بأجل القسمين فقلنا إنه حى لننفى الموت عنه ، فيقال : لا ريب أن الله حىّ كما نطقت بذلك كتبه المنزلة التى هى آياته القولية ، ودلت على ذلك آياته كمخلوقاته ، التى هى آياته الفعلية، قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحقُّ ﴾ ، [سورة فصلت : ٥٣] أى القرآن حق ، وقد تقدم ذكر القرآن ، فى قوله : ﴿ قل أرأيتم إن كنا من عند الله ثم كفرتم به من أضلُّ ممن هو فى شقاق بعيد ﴾ [فصلت : ٥٢] . فالله تعالى يرى عباده من آياته المشاهدة المعاينة الفعلية ، مايبين صدق آياته المنزلة المسموعة القولية ، قوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٥]

وقال تعالى : ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ ، [سورة الفرقان : ٥٨] .
والدلائل على حياته كثيرة منها أنه قد ثبت أنه عالم والعلم لا يقوم إلا بحي ، وثبت أنه قادر مختار يفعل بمشيئته ، والقادر المختار لا يكون إلا حياً .

ومنها أنه خالق الأحياء وغيرهم ، والخالق أكمل من المخلوق ، فكل كمال ثبت للمخلوق فهو من الخالق ، فيمتنع أن يكون المخلوق أكمل من خالقه ، وكماله أكمل منه .

والمتفلسفة القائلون بالموجب بالذات يسلمون هذا ، ويقولون كمال المعلول مستفاد من علته ، فإذا كان خالقاً للأحياء كان حياً بطريق الأولى والأحرى .

ومنها أن الحي أكمل من غير الحي ، كما قال تعالى : ﴿ وما يستوي الأحياء ولا الأمواتُ ﴾ ، [سورة فاطر : ٢٢] .

فلو كان الخالق غير حي لزم أن يكون المحدث المخلوق أكمل من الواجب القديم الخالق ، فيكون أنقص الموجودين أكمل من أكملهما .

وهذا الوجه يتناول ما ذكروه من الدليل ، وإن كانوا لم يبينوا بياناً تاماً ، لكن قولهم : قلنا إنه حي لننفي الموت عنه كلام مستدرك ، فإن الله موصوف بصفات الكمال الثبوتية كالحياة والعلم والقدرة ، فيلزم من ثبوتها سلب صفات النقص ، وهو سبحانه لا يمدح بالصفات السلبية إلا لتضمنها المعاني الثبوتية ، فإن العدم المحض والسلب الصرف لا مدح فيه ولا كمال ، إذ كان المعدوم يوصف بالعدم المحض والعدم نفي محض لا كمال فيه ، وإنما الكمال الموجود .

ولهذا جاء كتاب الله على هذا الوجه فيصف سبحانه نفسه بالصفات الثبوتية صفات الكمال وبصفات السلب المتضمنة للثبوت ، كقوله ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ فنفي أخذ السنة والنوم يتضمن كمال حياته وقيوميته إذ النوم أخو الموت ، ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون مع كمال الراحة ، كما لا يموتون .

والقيوم : القائم المقيم لما سواه فلو جعلت له سنة أو نوم لنقصت حياته وقيوميته ، فلم يكن قائماً ولا قيوماً ، كما ضرب الله المثل لبنى إسرائيل ، لما سألوا موسى : هل ينام ربك ؟ فأرقه ثلاثة ، ثم أعطاه قوارير فأخذه النوم فتكسرت .

بيّن بهذا المثل أن خالق العالم لو نام لنفد العالم ، ثم قال تعالى : ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٥] .

فإنكاره ونفيه أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه يتضمن كمال ملكه لما فى السموات وما فى الأرض وأنه ليس له شريك ، فإن من شفع عنده غيره بغير إذنه وقبل شفاعته كان مشاركاً له ، إذ صارت شفاعته سبباً لتحريك المشفوع إليه ، بخلاف من لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه فإنه منفرد بالملك ليس له شريك بوجه من الوجوه .

ثم قال تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٥] . فنفى أن يعلم أحد شيئاً من علمه إلا بمشيئته ليس إلا أنه منفرد بالتعليم ، فهو العالم بالمعلومات ، ولا يعلم أحد شيئاً إلا بتعليمه ، كما قالت الملائكة : ﴿ لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ ، [سورة البقرة : ٣٢] . ثم قال تعالى : ﴿ وَسِع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٥] .

أى لا يكرثه ولا يثقل عليه فبين بذلك كمال قدرته ، وأنه لا يلحقه أدنى مشقة ، ولا أيسر كلفة فى حفظ المخلوقات ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى .

﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسّنا من لُغوبٍ ﴾ ، [سورة ق : ٣٨]

بين بذلك كمال قدرته وأنه لا يلحقه اللغوب فى الأعمال العظيمة مثل خلقه

السموات والأرض ، كما يلحق المخلوق اللغوب إذا عمل عملا عظيما ، واللغوب : الانقطاع والإعياء ، وهذا باب واسع مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا أنه موصوف بصفات الكمال التى يستحقها بذاته ويمتنع اتصافه بنقائضها وإذا وصف باللغوب ، فالمقصود هو إثبات الكمال . وهؤلاء قالوا : قد وصفناه بالحياة لننفى عنه بالموت ، كما قالوا : هو شىء لننفى العدم عنه ، والحياة صفة كمال يستحقها بذاته ، والموت مناقض لها ، فلم يوصف بالحياة لأجل نفى الموت ، بل وصفه بالحياة يستلزم نفى الموت فينفى عنه الموت ، لأنه حى لا يثبت له الحياة لنفى الموت ، وكذلك لتثبت له أنه شىء موجود .

وذلك يستلزم نفى العدم عنه ، لا أن إثبات وجوده لأجل نفى العدم ، بل نفى العدم عنه لأجل وجوده ، كما أن الموت نفى الموت عنه لأجل حياته ، وكذلك قولهم : قولنا : إنه شىء لا كالأشياء المخلوقة وذلك لننفى العدم عنه ، لكن كان مرادهم ، والله أعلم ، وإن كانت عبارتهم قاصرة إثبات الوجود ، ونفى العدم ، وإثبات الحياة ونفى الموت .

فصل فى رد دعوى النصارى أن الحىّ قسمين

ثم قالوا : ورأينا الحى ينقسم قسمين : حياً ناطقاً ، وحياً غير ناطق فوصفناه بأفضل الوصفين فقلنا : إنه ناطق لننفى الجهل عنه . فيقال لهم : لا ريب أن الربّ سبحانه موصوف بأنه حى عليم قدير متكلم مختار ، لكن قولهم : فقلنا إنه ناطق لننفى الجهل عنه يقتضى أنكم أردتم النطق المناقض للجهل . وهذا هو العلم ، فإن العلم يناقض الجهل لم تريدوا بذلك النطق الذى هو العبارة والبيان ، ولم يريدوا بذلك ما جعله بعض النظار كلاماً ، وهى معانى قائمة بالنفس ليست من جنس العلوم ، ولا من جنس الإرادات ، وحينئذ فيقال لكم : ليس فى الأحياء إلا ما هو شاعر ، فكل حىّ فله شعور بحبسه .

وكلما قويت الحياة قوى شعورها ، وشعور الحيوان قد يعبر عنه بلفظ العلم، كما يقول الناس : علم الفهد والبازى والكلب ، ويقال : كلب معلم وغير معلم وبازى معلم .

وقال تعالى : ﴿ وما علّمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله ﴾ ، [سورة المائدة : ٤] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا أرسلت كلبك المعلم ، وذكرت اسم الله فقتل فكل » . لاريب أن العلم صفة كمال ، فالعالم أكمل من الجاهل والدلائل الدالة على علم الله كثيرة مثل إنه سبحانه خالق كل شيء بإرادته .

والارادة تستلزم تصور المراد فلابد أن يعلم المخلوقات قبل أن يخلقها .

وكلما وجد في الخارج فهو موجود وجوداً معيناً يمتاز به عن غيره فإذا خلقها كذلك فلابد أن يعلمها علماً مفصلاً يمتاز به كل معلوم عما سواه ، ولو قدر أنه علمها على وجه كلي فقط ، لم يكن علم منها شيئاً لأن الكلى إنما يكون كلياً في الأذهان. وأما ما هو موجود في الخارج فهو معين مختص بعينه ليس بكلى .

وكل واحد من الأفلاك معين فلو لم يعلم إلا الكليات لم يكن عالماً بشيء من الموجودات وقد بسط في غير هذا الموضوع تمام الكلام على هذا ، وبين فساد شبه نفاق ذلك بما ادعوه من لزوم التغير أو التكثر وبين أنه لا يلزم من ثبوت علم الله بالأشياء كلها على وجه التفصيل محذور ينفيه دليل صحيح .

فإن التكثر فيما يقوم به من المعاني هو مدلول الأدلة العقلية والسمعية فإنه عالم قادر حيّ ،وليس العلم هو القدرة،ولا القدرة هي الحياة ولا الصفة هي الموصوف، ومن جعل كل صفة هي الأخرى ، وجعل الصفات هو الموصوف ، فهو قول في غاية السفسطة .

وأيضاً فإنه خالق العالمين من الملائكة والجن والإنس ، وجاعلهم علماء فيمتنع أن يجعل غيره عالماً من ليس هو في نفسه بعالم ، فان العلم صفة كمال،

ومن يعلم أكمل ممن لا يعلم ، وكل كمال للمخلوق فهو من الخلق فيمتنع أن يكون المخلوق أكمل من الخالق،وأيضاً فإن فى الممكنات المحدثة المخلوقة ماهو عالم والواجب القديم الخالق أكمل من الممكن المحدث فيمتنع أن يتصف بالكمال الموجود الناقص الخسيس دون الموجود الكامل الشريف . وهذا يتناول معنى حجتهم .

وأيضاً فإنه حىّ ، والحياة مستلزمة لجنس العلم ، وإذا كانت حياته أكمل من كل حياة فعلمه أكمل من كل علم ، لكن ، يقال لكم : كما أنه حى عالم فهو أيضا قادر ، فيما ذكرتم بأن الموجودات أو الأحياء تنقسم إلى قادر وغير قادر فيجب أن يوصف بأجل القسمين ، وهو القدرة .

لاسيما ودلائل كونه قادرا أظهر من دلائل كونه عالماً ، فإن نفس كونه خالقاً فاعلا يستلزم كونه قادرا ، فإن الفعل بدون القدرة ممتنع حتى إذا قيل : إن الجماد يفعل فإنما يفعل بقوة فيه كالقوى الطبيعية التى فى الأجسام الطبيعية فيمتنع فى خالق العالم أن لا يكون له قوة ، ولا قدرة ، قال تعالى : ﴿ إنّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ ، [سورة الذاريات : ٥٨] .

وقال تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشدُّ منهم قوة ﴾ .

[سورة فصلت : ١٥].

وفى صحيح البخارى حديث الاستخارة : « اللهم إنى أستخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب » .

وكثير من نظار المسلمين المصنفين فى أصول الدين الذين يقيمون الدليل على كونه قادراً قبل كونه عالماً وحياً .

ويقول العلم بذلك أسبق فى السلوك الاستدلالى النظرى لدلالة الأحداث والفعل على قدرة المحدث الفاعل فيجب أن يثبتوا له صفة القدرة مع العلم .

وكذلك يقولون : إن الحى لما كان ينقسم إلى سميع ، وغير سميع ،

وبصير ، وغير بصير وصفناه بأشرف القسمين ، وهو السميع والبصير .

وكذلك فى النطق إذا أريد به البيان والعبارة ، ولم يرد به مجرد العلم ، أو معنى من جنس العلم فإن الحى ينقسم إلى متكلم ، ومبين معبر عما فى نفسه ، وإلى ماليس كذلك ، فيجب أن تصفوه بأشرف القسمين ، وهو الكلام المبين المعبر عما فى النفس من المعانى .

ومما يستدل به على ثبوت جميع صفات الكمال أنه لو لم يوصف بكونه حياً عالماً قادراً سميعاً بصيراً متكلماً لوصف بضد ذلك كالموت والجهل والعجز والصمم، والبكم والخرس. ومعلوم وجوب تقدسه عن هذه النقائص، بل هذا معلوم بالضرورة العقلية ، فإنه أكمل الموجودات وأجلها وأعظمها ، وربّ كل ماسواه وخالقه ومالكه ، وجاعل كل ماسواه حياً عالماً قادراً سميعاً بصيراً متكلماً فيمتنع أن يكون هو شيئاً عاجزاً جاهلا أصم أبكم أخرس ، بل من المعلوم بضرورة العقل أن المتصف بهذه النقائص يمتنع أن يكون فاعلا فضلا عن أن يكون خالقاً لكل شىء .

ولبعض الملاحدة من المتفلسفة اتبعهم هنا سؤال مشهور وهو أنه إنما يلزم إذا لم يتصف الكمال أن يوصف بأضدادها ، فأما إذا لم يكن قابلا لها لم يلزم .

وقالوا : وهذه الصفات متقابلة العدم والملكة ، وهو عدم الشىء عما من شأنه أن يكون قابلا له كعدم الحياة والسمع والبصر .

والكلام عن الحيوان الذى هو القابل له فإذا لم يكن قابلا له كالجماد . فلا يسمى مع عدم الحياة والسمع والبصر والكلام ميتاً ولا أصم ولا أعمى ولا أخرس .

وجواب ذلك من أوجه :

أحدها : أنه أن يكون قابلا للاتصاف بصفات الكمال ، وإما أن لايكون .

فإن لم يكن قابلا لزم أن يكون أنقص ممن قبلها ، ولم يتصف بها ، فالجماد أنقص من الحيوان الذى لم يتصف بعد بصفات كماله . وإن كان قابلا لها لزم -إذا عدمها- أن يتصف بأضدادها .

وهؤلاء قد يقولون فى إثباتها تشبيه له بالحيوان . فيقال لهم : وفى نفيها تشبيه له بالجماد الذى هو أنقص من الحيوان، فإذا لم يكن فى نفيها تشبيه له بالجماد، فكذلك لا يكون فى إثباتها تشبيه له بالحيوان ، وإن كان فى ذلك تشبيه بالحيوان فهو محذور ، فالمحذور فى تشبيهه بالجماد أعظم ، وإن لم يكن مثل هذا التشبيه محذوراً فى ذلك ، فأن لا يكون محذوراً فى هذا بطريق الأولى .

الوجه الثانى : أن جعلهم سلب الموت والصمم والبكم على الجماد ، ولزعمهم إنه غير قابل لها اصطلاح محض ، فإنه موجود فى كلام الله تسمية الجماد ميتاً ، كما قال تعالى فى الأصنام : ﴿ أموات غير أحياء ﴾ .

الوجه الثالث : أنه يكفى عدم هذه الصفات ، فإن مجرد عدم الحياة والعلم والقدرة صفة نقص سواء قدر الموصوف قابلا لها أو غير قابل ، بل إذا قدر أنه غير قابل لها كان ذلك أبلغ فى النقص .

فعلم أن نفى هذه الصفات عنه ، ونفى قبولها يوجب أن يكون أنقص من الحيوان الأعمى الأصم الذى يقبلها ، وإن لم يتصف بها .

الوجه الرابع : أن الكمال فى الوجود ، والنقص فى العدم ، فنفس ثبوت هذه الصفات كمال. ونفس نفيها نقص وإن لم يتصف بها لزم نقصه ، وأن يكون المفعول أكمل من الفاعل ، وأن يكون المحدث الممكن أكمل من القديم الأزلى الواجب الوجود الخالق ، وهذا ممتنع فى بداية العقول ، وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع ، ولكن نبهنا عليها هنا لبيان بعض الطرق التى بها تعرف صفات الرب ، وبيان أن هؤلاء القوم من أجهل أهل الملل بالرب .

والطرق التى يعرف بها كماله فى العقلية والسمعية وأن القوم عندهم من ألفاظ

الأنبياء مالم يفهموا كثيراً منه وما حرفوه كثيراً منه،وعندهم من المنقول فى ذلك ما يفضلهم اليهود فيه ، ولـكن اليهود، وإن كانوا أعظم منهم ، فهم أعظم عناداً وكبراً وجهداً للحق والنصارى أجهل وأضل من اليهود ، ولـكن هم أعبد وأزهد وأحسن أخلاقاً ، ولهذا كانوا أقرب مودة للذين آمنوا من والمشركين .

فصل فى بطلان كون الثلاثة إله واحد

قالوا : والثلاثة أسماء فهى إله واحد ورب واحد ، وخالق واحد ، ومسمى واحد لم يزل ولا يزال شيئاً حياً ناطقاً ، أى الذات ، والنطق ، والحياة .

فالذات ، عندنا : الأب الذى هو ابتداء الإثنين .

والنطق : الابن الذى هو مولود منه كولادة النطق من العقل .

والحياة : هى الروح القدس .

والجواب عن هذا من وجوه :

الأول : أن أسماء الله تعالى متعددة كثيرة ، فإنه ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ ، [سورة الحشر : ٢٢ ، ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يُلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٨٠] .

﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ ، [سورة الإسراء : ١١٠]

وقال تعالى : ﴿ طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة

لمن يخشى * تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العُلى * الرحمنُ على العرش استوى * له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ ، [سورة طه : ١ ـ ٨] .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » .

وهذا معناه فى أشهر قولى العلماء وأصحهما أن من أسمائه تعالى تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة وإلا فأسماؤه تبارك وتعالى أكثر من ذلك ، كما فى الحديث الآخر الذى رواه أحمد فى مسنده ، وأبو حاتم فى صحيحه ، عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أصاب عبداً قط همٌّ ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علّمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى ، إلا أذهب الله همه وغمه ، وأبدل مكانه فرحاً ، قالوا : يا رسول الله ، أفلا نتعلمهن ؟ قال : بل ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن » .

وإذا كانت أسماء الله كثيرة كالعزيز والقدير وغيرها ، فالاقتصار على ثلاثة أسماء دون غيرها باطل ، وأى شىء زعم الزاعم فى اختصاص هذه الأسماء دون غيرها ، فهو باطل ، كما قد بسط فى موضع آخر .

الوجه الثانى : قولهم الأب الذى هو ابتداء الاثنين ، والابن : النطق الذى هو مولود منه ، كولادة النطق من العقل كلام باطل ، فإن صفات الكمال لازمة لذات الرب عز وجل أولا وآخراً ، لم يزل ولا يزال حياً عالماً قادراً ، لم يصر حياً بعد أن لم يكن حيا ولا عالماً ، بعد أن لم يكن عالماً .

فإذا قالوا : إن الأب الذي هو الذات ، هو ابتداء الحياة والنطق ، اقتضى ذلك أن يكون الأب قبل الحياة والنطق ، فإن ما كان ابتداء لغيره يكون متقدماً عليه أو فاعلا له

وهذا فى حق الله باطل .

وكذلك قولهم : إن النطق مولود منه كولادة النطق من العقل ، فإن المولود من غيره متولد منه ، فيحدث بعد أن لم يكن ، كما يحدث النطق شيئاً فشيئاً ، سواء أريد بالنطق العلم أو البيان فكلاهما لم يكن لازماً للنفس الناطقة ، بل حدث فيها واتصفت به بعد أن لم يكن ، وإن كانت قابلة له ناطقة له بالقوة فإذا مثلوا قوله النطق من الرب كتولده عن العقل لزم أن يكون الرب كان ناطقاً بالقوة ، ثم صار ناطقاً بالفعل فيلزم أنه صار عالماً بعد أن لم يكن عالما ، وهذا من أعظم الكفر وأشده استحالة ، أنه لا شىء غيره ، جعله متصفاً بصفات الكمال بعد أن لم يكن متصفا بها ، إذ كل ما سواه فهو مخلوق له وكماله منه ، فيمتنع أن يكون هو جاعل الرب سبحانه وتعالى كاملا .

وذلك دور ممتنع فى صريح العقل ، إذ كان الشىء لا يجعل غيره متصفا بصفات الكمال ، حتى يكون هو متصفا بها ، فإذا لم يتصف بها حتى جعله غيره متصفا بها ، لزم الدور الممتنع مثل كون كل من الشيئين فاعلا للآخر وعلة له ، أو لبعض صفاته المشروطة فى الفعل فتبين بطلان كون نطقه متولداً منه ؛ كتولد النطق من العقل ، كما بطل أن يكون لصفاته اللازمة له ما هو مبدأ لها متقدم عليها أو فاعل لها .

الوجه الثالث : أن قولهم فى الإبن أنه مولود من الله إن أرادوا به أنه صفة لازمة له ، فكذلك الحياة صفة لازمة لله ، فيكون روح القدس أيضاً ابناً ثانياً ، وإن أرادوا به أنه حصل منه ، بعد أن لم يكن ؛ لزم أن يكون عالماً بعد أن

لم يكن عالما ، وهذا مع كونه باطلا وكفراً فيلزم مثله فى الحياة وهو أنه صار حيا بعد أن لم يكن حيا .

الوجه الرابع : أن تسميته حياة الله روح القدس أمر لم ينطق به شىء من كتب الله المنزلة ، فإطلاق روح القدس على حياة الله من تبديلهم وتحريفهم .

الوجه الخامس : أنهم يدعون أن المتحد بالمسيح هو الكلمة الذى هو العلم ، وهذا إن أرادوا به نفس الذات العالمة الناطقة كان المسيح هو لأب ؛ وكان المسيح نفسه هو الأب ، وهو الابن ، وهو روح القدس ، وهذا عندهم وعند جميع الناس باطل وكفر .

وإن قالوا : المتحد به هو العلم ، فالعلم صفة لا تفارق العالم ، ولا تفارق الصفة الأخرى التى هى حياة ، فيمتنع أن يتحد به العلم دون الذات ، ودون الحياة .

الوجه السادس : أن العلم أيضاً صفة والصفة لا تخلق ولا ترزق ، والمسيح نفسه ليس هو صفة قائمة بغيرها باتفاق العقلاء وأيضاً فهو عندهم خالق السموات والأرض فامتنع أن يكون المتحد به صفة ، فإن الإله المعبود هو الإله الحى العالم القادر ، وليس هو نفس الحياة ، ولا نفس العلم والكلام .

فلو قال قائل : ياحياة الله ، أو يا علم الله ، أو يا كلام الله ، اغفر لى ، وارحمنى واهدنى كان هذا باطلا فى صريح العقل ، ولهذا لم يجوز أحد من أهل الملل أن يقال للتوراة أو الإنجيل وغير ذلك من كلام الله اغفر لى وارحمنى ، وإنما يقال للإله المتكلم بهذا الكلام : اغفر لى وارحمنى .

والمسيح عليه السلام عندكم هو الإله الخالق الذى يقال له اغفر لنا وارحمنا فلو كان هو نفس علم الله ، وكلامه لم يجز أن يكون إلها معبوداً فكيف إذا لم يكن هو نفس علم الله وكلامه ، بل هو مخلوق بكلامه ، حيث قال له : كن فيكون ؟

فتبين من ذلك أن كلمات لله كثيرة لا نهاية لها وفى الكتب الإلهية كالتوراة أنه خلق الأشياء بكلامه ، وكان فى أول التوراة أنه قال : ليكن كذا ليكن كذا .

ومعلوم أن المسيح ليس هو كلمات كثيرة بل غايته أن يكون كلمة واحدة إذ هو الخارق بكلمة من كلمات الله عز وجل .

الوجه السابع : أن أمانتكم التي وضعها أكابركم بحضرة « قسطنطين » ، وهي عقيدة إيمانكم التي جعلتموها أصل دينكم تناقض ماتدعونه من أن الإله واحد ، وتبين أنكم تقولون لمن يناظركم خلاف ما تعتقدونه .

وهذان أمران معروفان في دينكم تناقضكم وإظهاركم في المناظرة خلاف ما تقولونه من أصل إيمانكم، وإن « الأمانة » التي تتفق عليها جماهير النصارى يقولون فيها : [نؤمن بإله واحد ، أب ضابط الكل، خالق السموات والأرض، كل ما يرى وما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه مولود غير مخلوق مساو للأب في الجوهر الذي به كان كل شيء ، الذي من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا ـ نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، ومن مريم العذراء وتأنس وصلب وتألم وقبر ، وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب المقدسة ، وصعد إلى السماء ، وجلس عن يمين الأب .

وأيضاً سيأتي بمجده ليدين الأحياء والأموات الذي لا فناء لملكه وبروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والابن المسجود له ، وبمجد ناطق من الأنبياء ، كنيسة واحدة جامعة رسولية ، واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ، وابن جاء لقيامة الموتى ، وحياة الدهر العتيد ، كونه أمين] .

ففي هذه الأمانة التي جعلتموها أصل دينكم ذكر الإيمان بثلاثة أشياء : بإله واحد خالق السموات والأرض، خالق ما يرى وما لا يرى ، فهذا هو رب العالمين الذي لا إله غيره ، ولا رب سواه ، وهو إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسائر الأنبياء والمرسلين ، وهو الذي دعت جميع الرسل إلى عبادته وحده لا شريك له ونهوا أن يعبد غيره ، كما قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك رسول

﴿إلا نُوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ ،[سورة الأنبياء : ٢٥]:وقال تعالى ﴿ واسأل مَن أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون﴾ ، [سورة الزخرف : ٤٥] .

ثم قلتم : [وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه ، مولود غير مخلوق ، مساو الأب فى الجوهر] فصرحتم بالإيمان مع خالق السموات والأرض برب واحد مخلوق ، مساوٍ الأب ابن الله الوحيد، وقلتم [هو إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه] .

وهذا تصريح بالإيمان بإلهين أحدهما من الآخر وعلم الله القائم به أو كلامه أو حكمته القائمة به الذى سميتموه ابناً ، ولم يسم أحد من الرسل لصفة الله ابناً ليس هو إله حق من إله حق، بل إله واحد، وهذا صفة الإله ، وصفة الإله ليست بإله كما أن قدرته وسمعه وبصره وسائر صفاته ليست بآلهة ، ولأن الإله واحد، وصفاته متعددة . والإله:ذات متصفة بالصفات قائمة بنفسها ، والصفة قائمة بالموصوف ، ولأنكم سميتم الإله جوهراً ، وقلتم : هو القائم بنفسه .

والصفة ليست جوهراً قائماً بنفسه ، وهم فى هذه الأمانة قد جعلوا الله والداً وهو الأب ، ومولوداً وهو الابن ، وجعلوه مساويا له فى الجوهر، وقد نزه الله نفسه عن الأنواع الثلاثة ، فقالوا : مولود غير مخلوق مساوٍ الأب فى الجوهر ، فصرحوا بأنه مساوٍ له فى الجوهر ، والمساوى ليس هو المساوَى .

ولا يساوى الأب فى الجوهر إلا جوهر ، فوجب أن يكون الأب جوهراً ثانياً ، وروح القدس جوهراً ثالثاً كما سيأتى .

وهذا تصريح بإثبات ثلاثة جواهر،وثلاثة آلهة،ويقولون مع ذلك: إنما نثبت جوهراً واحداً وإلهاً واحداً،وهذا جمع بين النقيضين ، فهو حقيقة قولهم يجمعون بين جعل الآلهة واحداً ، وإثبات ثلاثة آلهة وبين إثبات جوهر واحد ، وبين

إثبات ثلاثة جواهر ، وقد نزّه الله نفسه عن ذلك بقوله ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ فنزه نفسه أن يلد كما يقولون هو الأب وأن يولد كما يقولون هو الابن وأن يكن [١] له كفواً أحد .

كما يقولون : إن له من يساويه فى الجوهر ، وإذا قلتم نحن نقول : أحَدِيُّ الذاتِ ، ثلاثيُّ الصفات ، قيل لكم : قد صرحتم بإثبات إله الحق ، من إله حق وأنه مساو للأب فى الجوهر ، وهذا تصريح بإثبات جوهر ثانى لا بصفة ، فجمعتم بين القولين ، بين إثبات ثلاثة جواهر ، وبين دعوى إثبات جوهر واحد ، ولا ينجيكم عن هذا اعتذار من اعتذر منكم كيحيى بن عدى ونحوه ، حيث قالوا هذا بمنزلة قولك : زيد الطبيب الحاسب الكاتب ، ثم تقول : زيد الطبيب وزيد الحاسب وزيد الكاتب .

فهو مع كل صفة له حكم خلاف حكمه مع الصفة الأخرى ، وقد يفسرون الأقنوم بهذا ، فيقولون الأقنوم هو الذات مع الصفة ، فالذات مع كل صفة أقنوم ، فصار الأقانيم ثلاثة لأن هذا المثال لا يطابق قولكم ، فإن زيداً هنا هو جوهر واحد له صفات : الطب ، والحساب ، والكتابة ، وليس هنا ثلاثة جواهر ، ولكن لكل صفة حكم ليس للأخرى .

ولا يقول عاقل : إن الصفة مساوية للموصوف فى الجوهر ، ولا إن الذات مع هذه الصفة تساوى الذات مع الصفة الأخرى فى الجوهر ، لأن الذات واحدة ، والمساوِى ليس هو المساوَى ، ولأن الذات مع الصفة هى الأب فإن كان هذا هو الذى اتحد بالمسيح فالمتحد به هو الأب ، ولأنكم قلتم عن هذا الذى قلتم : [إنه إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه الذى هو مساوٍ الأب فى الجوهر الذى نزل ، وتجسد من روح القدس ، ومن مريم العذراء ، وتأنس وصلب وتألم] اقتضى ذلك أن

(١) قوله : أن يكن له كفوا احد ، الصحيح : وأن يكون . . . الخ .

يكون الإله الحق المساوى للأب فى الجوهر صلب وتألم ، فيكون اللاهوت مصلوباً متألماً ، وهذا تقر به طوائف منكم ، وطوائف تنكره ، لكن مقتضى أمانتكم هو الأول .

وأيضاً فإذا كان تجسد من روح القدس ومريم ، فإذا كان روح القدس هو حياة الله ، كما زعمتم فيكون المسيح كلمة الله وحياته فيكون لاهوته أقنومين من الأقانيم الثلاثة ، وعندهم إنما هو أقنوم الكلمة فقط ، وإن كان روح القدس ليس هو حياة الله بطل تفسيركم لروح القدس فإنه حياة الله .

وقيل لكم : لا يجب أن يكون روح القدس صفة الله ولا أقنوماً ، ثم ذكرتم فى عقيدة أمانتكم أنكم تؤمنون بروح القدس الرب الحيى ، فأثبتم رباً ثالثاً قلتم : المنبثق من الأب . والانبثاق : الانفجار ، كالاندفاق والانصباب ، ونحو ذلك . يقال : بثق السيل موضع كذا ، يبثقه بثقاً أى خرقه وشقه فانبثق أى انفجر ، فاقتضى ذلك أن يكون هذا الرب الحيى انفجر من الأب واندفق منه .

ثم قلتم [هو الأب مسجود له وممجد ناطق فى الأنبياء] فجعلتموه مع الأب مسجوداً له فأثبتم إلهاً ثالثاً يسجد له

ومعلوم أن حياة الله هى التى صفته ليست منبثقة منه ، بل هى قائمة به لا تخرج عنه ألبتة ، وهى صفة لازمة له لا تتعلق بغيره ، فإن العلم يتعلق بالمعلومات ، والقدرة بالمقدورات والتكليم بالمخاطبين بخلاف التكلم فإنه صفة لازمة ، يقال علم الله كذا ، وقدر الله على كل شىء ، وكلم الله موسى .

وأما الحياة : فاللفظ الدال عليها لازم لا يتعلق بغير الحى ، يقال حيا يحيا حياة ، ولا يقال حيا كذا ولا بكذا ، وإنما يقال : أحيا كذا . والإحياء فعل غير كونه حياً ، كما أن التعليم غير العلم ، والأقدار غير القدرة والتكليم غير التكلم ، ثم جعلتم روح القدس هذا ناطقاً فى الأنبياء عليهم السلام ، وحياة الله صفة قائمة به لا تحل فى غيره ، وروح القدس الذى تكون فى الأنبياء والصالحين ليس هو

حياة الله القائمة به ، ولو كان روح القدس الذى فى الأنبياء هو أحد الأقانيم الثلاثة لكان كل من الأنبياء إلهاً معبوداً قد اتحد ناسوته باللاهوت كالمسيح عندكم ، فإن المسيح لما اتحد به أحد الأقانيم صار ناسوتا ولاهوتاً ، فإذا كان روح القدس الذى هو أحد الأقانيم الثلاثة ناطقاً فى الأنبياء كان كل منهم فيه لاهوت وناسوت كالمسيح ، وأنتم لا تقرون بالحلول والاتحاد إلا بالمسيح وحده مع إثباتكم لغيره ما ثبت له .

وهم تارة يشبهون الأقنومين ـ العلم والحياة التى يسمونها : الكلمة وروح القدس ـ بالضياء والحرارة التى للشمس مع الشمس ويشبهون ذلك بالحياة والنطق الذى للنفس مع الشمس ، وهذا تشبيه فاسد ، فإنهم إن أرادوا بالضياء والحرارة ما يقوم بذات النفس ، فذلك صفة للشمس قائمة بها لم تحل بغيرها ولم تتحد بغيرها ، كما أن صفة الشمس كذلك . هذا إن قيل : إن الشمس تقوم بها حرارة ، وإلا فهذا ممنوع .

والمقصود هنا : بيان فساد كلامهم وقياسهم ، وإن أرادوا ما هو بائن عن الشمس قائم بغيرها ، كالشعاع القائم بالهواء والأرض والحرارة القائمة بذلك كان هذا دليلا على فساد قولهم من وجوه :

منها إن هذه أعراض منفصلة بائنة عن الشمس قائمة بغيرها لا بها ، ونظير هذا ما يقوم بقلوب الأنبياء من العلم والحكمة والوحى الذى أنذروا به ، وعلى هذا التقدير فليس فى الناسوت شيئاً من اللاهوت ، وإنما فيه آثار حكمته وقدرته .

ومنها أن الحرارة والضوء القائم بالهواء والجدران أعراض قائمة بغير الشمس . والكلمة وروح القدس عندهم هما جوهران .

ومنها أن هذا ليس هو الشمس ، ولا صفة من صفات الشمس ، وإنما هو أثر حاصل فى غير الشمس بسبب الشمس ، ومثل هذا لا ينكر قيامه بالأنبياء والصالحين ، ولكن ليس المسيح عليه السلام بذلك اختصاص ، فما حلّ بالمسيح

حلّ بغيره من المرسلين، ومالم يحل بغيره لم يحل به فلا اختصاص له بأمر يوجب أن يكون إلهاً دون غيره من الرسل ، ولا هنا اتحاد بين اللاهوت والناسوت ، كما لم تتحد الشمس ولا صفاتها القائمة بها بالهواء ، والأرض التى حصل بها الشعاع الحرارة .

فصل فى معنى روح القدس

قالوا : وهذه الأسماء لم نسمه نحن معشر النصارى بها من ذات أنفسنا ، بل الله سمى لاهوته بها ، وذلك أنه قال على لسان موسى النبى فى التوراة مخاطباً بنى إسرائيل قائلا (١) [أليس هذا الأب الذى صنعك وبراك واقتناك ؟] وعلى لسانه أيضاً قائلا :[وكان روح الله ترف على الماء] وقوله على لسان داود النبى : [روحك القدس لا تنزع منى] وأيضاً على لسانه : [بكلمة الله تشددت السموات والأرض وبروح فاه جميع قواهن] .

وقوله على لسان أشعيا : [ييبس القتاد ويجف العشب، وكلمة الله باقية إلى الأبد] ، وعلى لسان أيوب الصديق : [روح الله خلقنى وهو يعلمنى]

وقال السيد المسيح فى الإنجيل المقدس للتلاميذ الأطهار : [اذهبوا إلى جميع العالم وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد ، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به] ، وقد قال فى هذا الكتاب : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ [سورة الصافات : ١٧١] .

وقال أيضاً : ﴿ يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القُدُس ﴾ : [سورة المائدة : ١١٠] .

وقال أيضاً : ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ .

وقال فى سورة التحريم : ﴿ ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها

---

(١) قوله : قائلا ، لا داعى لها بعد قوله : قال .

فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكُتُبه وكانت من القانتين ﴾ ، [سورة التحريم : ١٢] .

وسائر المسلمين يقولون : إن الكتاب كلام الله، ولا يكون كلام إلا لحيّ ناطق ، وهذه صفات جوهرية تجرى مجرى الأسماء ، وكل صفة منها غير الأخرى والإله واحد لا يتبعض ولا يتجزأ .

والجواب من وجوه :

أحدها : أن نقول أولا : إن كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يكون إلا حقاً وصدقا ، ولا يكون فيه شيء يعلم بطلانه بصريح العقل ، وإن كان فيه ما يعجز العقل عن معرفته بدون إخبار الأنبياء ، ولا يكون كلام النبي الذي يخبر به مناقضاً لكلامه فى موضع آخر ولا لكلام سائر الأنبياء ، بل كل ما أخبرت به الأنبياء فهو حق وصدق يصدّق بعضه بعضاً .

وقد أوجب الله علينا أن نؤمن بكل ما أخبروا به . وأخبروا بكفر من آمن ببعض ذلك ، وكفر ببعضه ، فما علم بصريح العقل لايناقض ماعلم بالنقل الصحيح عن غيره ، ولكن قد يختلف بعض الشرع والمناهج فى الأمر والنهى .

فأما ما يخبرون به عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وغير ذلك ، فلا يجوز أن يناقض بعضه بعضاً ، وإذا كان كذلك مما ينقلونه عن الأنبياء إنما تتم الحجة به إذ علم إسناده ومتنه فيعلم أنه منقول عنهم نقلا صحيحا، ونعلم أن ترجمته من العبرية إلى اللسان الآخر ، كالرومية والعربية والسريانية ترجمة صحيحة، ويُعلم بعد ذلك أنهم أرادوا به ذلك المعنى ، وليس مع النصارى حجة عن الأنبياء تثبت فيها هذه المقدمات الثلاث ، ونحن فى هذا المقام يكفينا المنع ، والمطالبة لهم بتصحيح هذه المقدمات ، فإنهم ادعوا أن التثليث أخذوه عن الأنبياء فنحن نطالبهم بتصحيح هذه المقدمات .

والجواب الثانى : أنا نبين تفسير ما ذكروه من الكلمات. أما قوله على لسان

موسى عليه السلام مخاطباً بنى إسرائيل قائلا : [أليس هذا الأب الذى صنعك وبراك واقتناك؟] فهذا فيه أنه سماه أبا لغير المسيح عليه السلام ،وهذا نظير قوله لإسرائيل [أنت ابنى بكرى] ولداود [ابنى وحبيبى] وقول المسيح [أبى وأبيكم] وهم يسلمون أن المراد بهذا فى حق غير المسيح بمعنى الرب لا معنى التولد الذى يخصون به المسيح .

الثالث : أن هذا حجة عليهم ، فإذا كان فى الكتب المتقدمة تسميته أباً لغير المسيح وليس المراد بذلك إلا معنى الرب علم أن هذا اللفظ فى لغة الكتب يراد به الرب فيجب حمله فى حق المسيح على هذا المعنى ، لأن الأصل عدم الاشتراك فى الكلام .

الرابع : أن استعماله فى المعنى الذى خصوا به المسيح إنما يثبت إذا علم أنه أريد المعنى الذى ادعوه فى المسيح ، فلو أثبت ذلك المعنى بمجرد إطلاق لفظ الأب لزم الدور ، فإنه يعلم أنه أريد به ذلك المعنى من حيث يثبت أنه كان يراد به فى حق الله هذا المعنى ولا يثبت ذلك ، حتى يعلم أنه أريد به ذلك المعنى فى حق المسيح ، فإذا توقف العلم بكل منهما على الآخر لم يعلم واحد منهما ، فتبين أنه لا علم عندهم بأنه أريد فى حق المسيح بلفظ الأب ما خصوه به فى محل النزاع .

الوجه الخامس : أنه لا يوجد فى كتب الأنبياء وكلامهم اطلاق اسم الأب ، والمراد به أب اللاهوت ، ولا اطلاق اسم الابن والمراد به شىء من اللاهوت ولا كلمته ولا حياته بل لا يوجد لفظ الابن إلا والمراد به المخلوق ، فلا يكون لفظ الابن إلا لابن مخلوق .

وحينئذ فيلزم من ذلك أن يكون مسمى الابن فى حق المسيح هو الناسوت ، وهذا يبطل قولهم : إن الابن وروح القدس إنهما صفتان لله ، وأن المسيح اسم للاهوت والناسوت ، فتبين أن نصوص كتب الأنبياء تبطل مذهب النصارى ، وتناقض أمانتهم ، فهم بين أمرين :

١ — بين الإيمان بكلام الأنبياء وبطلان دينهم .
٢ — وبين تصحيح دينهم وتكذيب الأنبياء ، وهذا هو المطلوب .

فصل فى معنى الروح

قالوا : وعلى لسانه أيضا قائلا : [وكان روح الله ترف على الماء] فيقال هذا فى السفر الأول « سفر الخليقة » فى أوله ، لما ذكر أنه فى البدء خلق السموات والأرض ، وأنه كانت الأرض مغمورة بالماء وكانت روح الله ترف على الماء أخبر أنه كان الماء فوق التراب والهواء فوق الماء . وروح الله : هى الريح التى كانت فوق الماء .

هذا تفسير جميع الأمم من المسلمين واليهود وعقلاء النصارى ولفظ الكلمة بالعبرية «رُوّح» بضم الراء وتشديد الواو ، وهى الروح . والريح تسمى «روحا» وجمعها : أرواح ، ولم يرد بذلك أن حياة الله كانت ترف على الماء .

فإن هذا لا يقوله عاقل ، فإن حياة الله صفة قائمة به لا تفارقه ولا تقوم بغيره فيمتنع أن تقوم بماء أو غيره فضلا عن أن ترف على الماء ، والذى يرف على الماء جسم قائم بنفسه ، وهذا إخبار عن الريح التى كانت تتحرك فوق الماء .

ومثل هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا الريح فإنها من روح الله ، تأتى بالرحمة ، وتأتى بالعذاب ، فلا تسبوها ولكن تعوّذوا بالله من شرها ، وسلوا الله خيرها » ، وقوله : « إنى لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن » .

فصل فى عدم خصوصية روح القدس بالمسيح

قالوا : وقوله على لسان داود النبى صلى الله عليه وسلم : [روحك القدس لا تنزع منى] .

فيقال : هذا دليل على أن روح القدس التى كانت فى المسيح من هذا

الجنس ، فعلم بذلك أن روح القدس لا تختص بالمسيح . وهم يسلمون ذلك ، فإن ما فى الكتب التى بأيديهم فى غير موضع أن روح القدس حلت فى غير المسيح ، فى داود ، وفى الحواريين ، وفى غيرهم .

وحينئذ فإن كان روح القدس هو حياة الله ، ومن حلت فيه يكون لاهوتاً ، لزم أن يكون إلها ، لزم أن يكون كل هؤلاء فيهم لاهوت وناسوت كالمسيح ، وهذا خلاف إجماع المسلمين والنصارى واليهود .

ويلزم من ذلك أيضاً أن يكون المسيح فيه لاهوتان : الكلمة ، وروح القدس ، فيكون المسيح مع الناسوت أقنومين : أقنوم الكلمة ، وأقنوم روح القدس . وأيضاً فإن هذه ليست صفة لله قائمة به ، فإن صفة الله القائمة به ، بل وصفة كل موصوف لا تفارقه ، وتقوم بغيره ، وليس فى هذا أن الله اسمه روح القدس ، ولو أن حياته اسمها روح القدس ، ولا أن روح القدس الذى تجسد منه المسيح ، ومن مريم هو حياة الله سبحانه وتعالى ، وأنتم قلتم : إنا معاشر النصارى لم نسمه بهذه الأسماء من ذات أنفسنا ، ولكن الله سمى لاهوته بها ، وليس فيما ذكرتموه عن الأنبياء أن الله سمى نفسه ، ولا شيئاً من صفاته روح القدس ، ولا سمى نفسه ولا شيئاً من صفاته ابنا فبطل تسميتكم لصفته التى هى الحياة بروح القدس ولصفته التى هى العلم بالابن .

وأيضاً فأنتم تزعمون أن المسيح مختص بالكلمة والروح فإذا كانت روح القدس فى داود عليه السلام والحواريين وغيرهم بطل ما خصصتم به المسيح ، وقد علم بالاتفاق أن داود عبد لله عز وجل ، وإن كانت روح القدس فيه . وكذلك المسيح عبد الله وإن كانت روح القدس فيه ، فما ذكرتموه عن الأنبياء حجة عليكم لأهل الإسلام ، ولا حجة لكم .

فصل فى تحريف روح القدس فى الإنجيل

قالوا : وأيضاً على لسان داود النبى عليه السلام : [بكلمة الله تشددت

السموات والأرض ، وبروح فاه جميع قواتهن] .

فيقال : أما قوله « بكلمة الله تشددت السموات والأرض » فهو أيضاً حجة عليكم لوجوه : أحدها : أن الله خلق الأشياء بكلمته التى هى « كن » ، كما قال فى التوراة : [ليكن كذا ، ليكن كذا ، ليكن كذا] وكذلك فى الزبور [لأنه قال فكانوا ، وأمر فخلقوا] فجعل كونهم عن قوله .

ومثله فى الزبور : [الكل بحكمة صنعت] ، وفى القرآن : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ ، [يس : ٨٢] وليس المسيح هو هذه الكلمات .

الثانى : أن كلمة الله اسم جنس ، فإن كلمات الله لا نهاية لها ، قال تعالى : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلماتُ ربى ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ ، [سورة الكهف : ١٠٩] .

والتوراة تدل على تعدد الكلمات ، وإذا كان كذلك ، فالمسيح ليس هو مجموع الكلمات ، بل خلق بكلمة منها .

الثالث : أن المسيح عندكم هو الخالق وأنتم مع قولكم : إنه الإبن والكلمة تقولون : إنه الإله الخالق ، وتقولون : [إنه إله حق من إله حق] وتقولون : [إله واحد] فتجمعون بين النقيضين ، وإذا كان هو الخالق فهو الذى يشدد السموات والأرض ، لا يقال به تشددت السموات والأرض ، وإنما يقال به فيما كان صفة للموصوف ، فيقال : خلق الله الأشياء بكن ، وخلق الأشياء بقدرته .

وقوله : [بكلمته تشددت السموات والأرض] يقتضى أن الكلمة صفة فعل بها ، لأنها هى الخالقة والمسيح عندكم هو الخالق ليس هو صفة خالق بها .

والرابع : أن كلمة الله يراد بها جنس كلماته قال تعالى : ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ﴾ : [سورة التوبة : ٤٠] .

وكقول النبي صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » وحينئذ فالمراد أن الله أقام السموات والأرض بكلمته كقوله « كن » وليس في هذا تعرّض للمسيح عليه السلام .

وأما نقلكم أنه قال : [وبروح فاه جميع قواهن] فهذه الكلمة سواء كانت حقا أو باطلا لا حجة لكم فيها لأنه إن أريد بهذه الكلمة حياة الله فإثبات حياة الله حق ، وهو لم يسم حياة الله روح القدس ، كما زعمتم وإن أراد شيئاً غير حياة الله لم تنفعكم فأنتم ادعيتم حياة روح القدس ، حتى قلتم مراده في الإنجيل بقوله : [عمدوا الناس باسم الأب والابن والروح القدس] هو حياة الله ، وادعيتم أن الأنبياء سموه بذلك ، ولم تذكروا نقلا عن الأنبياء أنهم سموا حياته روح القدس ، بل ذكرتم عنهم ما يوافق ما في القرآن أن روح القدس ليس المراد بها حياة الله ، ولو قدر أن هذا اللفظ استعمل في هذا وهذا لم يتعين أن المسيح أراد بقوله : [روح القدس] حياة الله ، فكيف إذا لم يستعمل في كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في حياة الله قط .

فصل في إبطال دعوى أن حياة الله تسمى روحا

قالوا : وقوله على لسان أيوب الصديق [روح الله خلقني وهو يعلمني] .

فيقال : هذا لا حجة فيه لأنكم ادعيتم أن الأنبياء سمت حياة الله روح القدس ، وهذا لم يقل روح القدس ، بل قال روح الله .

وروح الله يراد بها الملك الذي هو روح اصطفاها الله فأحبها ، كما قال في القرآن : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويا قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا ﴾ ، [سورة مريم ١٧ : ١٩] .

فقد أخبر أنه أرسل إليها روحه فتمثّل لها بشراً سويا ، وتبين أنه رسوله ،

فعلم أن المراد بالروح ملك هو روح اصطفاها فأضافها إليه كما يضاف إليه الأعيان التي خصها بخصائص يحبها ، كقوله : ﴿ناقةَ الله وسقياها﴾ ، [سورة الشمس : ١٣] . وقوله : ﴿ وطهِّر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ ، [سورة الحج : ٢٦] وقوله: ﴿ عيناً يشربُ بها عباد الله ﴾ ، [سورة الإنسان : ٦] . والمضاف إلى الله إن كان صفة لم تقم بمخلوق كالعلم والقدرة والكلام والحياة كان صفة له ، وإن كان عيناً قائمة بنفسها أو صفة لغيره كالبيت والناقة والعبد والروح كان مخلوقاً مملوكا مضافاً إلى خالقه ومالكه ، لكن الإضافة تقتضي اختصاص المضاف بصفات تميز بها عن غيره حتى استحق الإضافة ، كما اختصت الكعبة والناقة والعباد الصالحون بأن يقال فيهم ﴿ بيت الله ﴾ ﴿ وناقة الله ﴾ ﴿ وعباد الله ﴾ كذلك اختصت الروح المصطفاة بأن يقال لها ﴿ روح الله ﴾ بخلاف الأرواح الخبيثة كأرواح الشياطين والكفار فإنهما مخلوقة لله ، ولا تضاف إليه إضافة الأرواح المقدسة ، كما لا تضاف إليه الجمادات ، كما تضاف الكعبة ، ولا نوق الناس كما تضاف ناقة صالح التي كانت آية من آياته .

كما قال : ﴿ هذه ناقةُ الله لكم آية ﴾ ، [سورة الأعراف : ٧٣] ، وإذا كان كذلك فهذا اللفظ إن كان ثابتاً عن النبي وترجم ترجمة صحيحة فقد يكون معناه أن الملك صورني في بطن أمي ، وهو يعلمني ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يا رب أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك ، ثم يقول : يارب ، أجله ، فيقول ربك ما شاء ، ويكتب الملك . ثم يقول : يا رب ، رزقه ، فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده ، فلا يزاد على أمر ولا ينقص » رواه مسلم من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري .

وقد يقال : من هذا قوله فى الزبور فى مزمور الخليقة [ترسل روحك فيخلقون] وفى المزمور أيضا [هو قال فكانوا وأمر فخلقوا] فقد يضاف الخلق إلى الملك .

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿ أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ﴾ ، [سورة آل عمران : ٤٩] .

فأخبر أنه يخلق من الطين كهيئة الطير فيكون طيرا بإذن الله ، وكذلك الملك يخلق النطفة فى الرحم بإذن الله .

ولا يجوز أن يريد به أن حياة الله خلقتنى ، وتعلمنى فإن الصفة لا تخلق ولا تعلم ، وإنما يخلق ويعلم الرب الموصوف الذى خلق الإنسان من علق ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، ولكن هو سبحانه يخلق بواسطة الملائكة ، فإن الملائكة رسل الله فى الخلق فجاز أن يضاف الفعل إلى الوسائط تارة ، وإلى الرب أخرى ، وهذا موجود فى الكتب الإلهية فى غير موضع كما فى القرآن :

﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ﴾ ، [سورة الزمر : ٤٢] .

وفى موضع آخر : ﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ ، [سورة الأنعام : ٦١] .

وفى موضع ثالث : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ : [سورة السجدة : ١١] .

والجميع حق فإذا وجد لفظ له معنى فى كلام بعض الأنبياء ، ولم يوجد له معنى يخالف ذلك من كلامهم كان حمله على ذلك المعنى أولى من حمله على معنى يخالف كلامهم ولا يوجد فى كلامهم أن حياة الله تسمى روحا ، ولا أن صفات الله تخلق المخلوقات .

فصل فى قوله [وكلمته باقية إلى الأبد]

قالوا : وقوله : على لسان أشعيا النبي [ييبس القتاد ، ويجف العشب وكلمته باقية إلى الأبد] .

فيقال : إما أن يريد بكلمة الله علمه أو كلمة معينة أو يكون كلمة الله اسم جنس ، وعلى التقديرات فلا حجة لكم فى ذلك ، فإنه إن كان كلمة الله اسم جنس لكل ما تكلم به — كما قال : ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

ولهذا جمعها فى قوله تعالى : ﴿ وتمت كلماتُ ربك صدقا وعدلا ﴾ ، [سورة الأنعام : ١١٥] .

وفى قوله : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفِدَ البحرُ قبل أن تنفَدَ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ ، [سورة الكهف : ١٠٩] .

فالمراد بذلك أن ما قاله الله فهو حق ثابت لا يبطل .

كما قال تعالى : ﴿ وتمت كلمات ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٣٧] .

يعنى بتمامها نفاد ما وعدهم به من النصر على فرعون ، وإهلاكه ، وإخراجهم إلى الشام .

وقال تعالى : ﴿ وتمت كلماتُ ربك صدقاً وعدلا ﴾ ، ومنه قوله : ﴿ واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدّل لكلماته ﴾ .

وقوله : ﴿ سيقول المخلَّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذَرُونا نتّبعكم يريدون أن يبدِّلوا كلام الله قل لنْ تتبعونا كذلكم قال الله من قبل ﴾ ، [سورة الفتح : ١٥] .

ومن هذا الباب قول المسيح [السماء والأرض يزولان، وكلامى هذا لا يتغير]

فإن أراد علم الله فعلم الله باق ، سواء أراد به علمه القائم بذاته أو معلومه الذى أخبر ببقائه فلاحجة لكم فيه، وكذلك إن أراد كلمة معينة ،فإن المسيح عندكم ليس كلمة معينة من كلامه ، بل هو عندكم هو الكلمة ، وهو الله الخالق ، وليس فى هذا اللفظ مايدل على أنه أراد بالكلمة المسيح ، والمسيح عندكم أزلى أبدى لا يوصف بالبقاء دون القدم ، ولو قدر أنه أراد بالكلمة المسيح فنحن لا ننكر أنه تسمى بالكلمة ، لأنه قال له : كن فكان كما سيأتى بيان ذلك ، ويريد بذلك إما بقاؤه إلى أن ينزل إلى الأرض ، وإما أن يريد بقاء ذكره والثناء عليه ولسان الصدق له إلى آخر الزمان : ومما يوضح هذا أنه ليس المراد به ما يدعونه[1] أنه قال :

[وكلمة الله باقية إلى الأبد] فوصفها بالبقاء دون القدم .

وعندهم أن الكلمة المولودة من الأب قديمة أزلية لم تزل ولا تزال،مثل هذا لايحتاج أن يوصف بالدوام والبقاء بخلاف ماوعد به من النعيم والرحمة والثواب، فإنه يوصف بالبقاء والدوام كما فى القرآن : ﴿ أُكلها دائم ﴾ ، [سورة الرعد:٣٥].

وقوله : ﴿ إن هذا لرزقنا ما له من نفادٍ ﴾ ، [سورة ص : ٥٤] .

وفى الزبور [اعترفوا للرب ، فإنه صالح ، وإنه إلى الأبد رحمته] .

فصل فى معنى التعميد باسم الأب والابن

قالوا : وقال السيد المسيح فى الإنجيل المقدس لتلاميذه الأطهار [اذهبوا إلى جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والإبن وروح القدس الإله الواحد ، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيكم به] فيقال لهم : هذا عمدتكم على ما تدعونه من الأقانيم الثلاثة وليس فيه شىء يدل على ذلك لا نصاً ولا ظاهراً ، فإن لفظ الإبن لم يستعمل قط فى الكتب الإلهية فى معنى صفة من صفات الله ، ولم يسم أحد من الأنبياء علم الله ابنه ، ولا سموا كلامه ابنه ، ولكن عندكم أنهم سموا عبده أو عباده ابنه أو بنيه وإذا كان كذلك فدعوا كم أن المسيح أراد بالعلم ابن الله،

(١) قوله : يدعونه أنه. الصحيح : مايدعون أنه...

وكلامه دعوى فى غاية الكذب على المسيح ، وهو حمل للفظ على ما لم يستعمله هو ولا غيره فيه لا حقيقة ولا مجازاً فأى كذب وتحريف لكلام الأنبياء أعظم من هذا ، ولو كان لفظ الإبن يستعمل فى صفة الله لسميت حياته ابناً ، وقدرته ابناً فتخصيص العلم بلفظ الإبن دون الحياة خطأ ثانى لو كان لفظ الإبن يستعمل فى صفة الله ، فكيف إذا لم يكن كذلك ، وكذلك روح القدس لم يستعملوها فى حياة الله ، ولا أرادوا بهذا اللفظ حياة الله هى صفته ، وإنما أرادوا بذلك ما ينزله على الصديقين والأنبياء ، ويؤيدهم به كما فى قول داود : [روحك القدس لاتنزع منى] وعندهم أن روح القدس حلت فى الحواريين ، وقدقدمنا أن روح القدس يراد به الملك ، ويراد به مايجعله فى القلوب من الهدى والقوة ، ومنه قوله فى بعض النبوات ، وفى تلك الأيام [أسكب من روحى على كل قديس] وفى زابور داود : [روحك الصالح يهدينى فى أرض مستقيمة] .

يوضح هذا أنهم قالوا فى أمانتهم [الذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس ، ومن مريم العذراء] وذكروا أن ذلك فى الكتب المقدسة والذى فى الكتب المقدسة لا يكون إلا حقاً ، ولا ريب أن فيها مثل ما فى القرآن ، وفى القرآن أن الله أرسل روحه إلى مريم فنفخ فيها فحملت بالمسيح عليه السلام قال تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً * قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو على هيّن ولنجعله آيةً للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً * فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً ﴾ ، [سورة مريم : ١٧ــ ٢٢] . إلى آخر القصة ، وقال تعالى : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آيةً للعالمين ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٩١] . وقال تعالى : ﴿ ومريم ابنتَ عمران التى أحصنت

فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ [سورة التحريم : ١٢] وهذا الروح : هو الرسول ، كما قال : ﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ﴾ .

ونفخ فيها من هذا الروح المسيح مخلوقا من هذا الروح ، ومن أمه مريم كما قالوا فى الأمانة : [إنه تجسد من مريم ، ومن روح القدس] لكن اعتقدوا أن روح القدس التى خلق المسيح منها ومن مريم هى حياة الله ، وهذا ليس فى الكتب مايدل عليه ، بل الكتب كلها صريحة فى نقيض هذا ، وهو أيضاً مناقض لقولهم إن المتحد بالمسيح هو أقنوم الكلمة ، وهو العلم ، فإن كان قد تجسد من مريم ، وأقنوم الكلمة لم يكن تجسد من روح القدس لم يكن من الكلمة وإن كان منهما جميعاً كان المسيح أقنومين : أقنوم الكلمة ، وأقنوم الروح .

والنصارى بفرقهم الثلاثة كلهم يقولون : إنما المتحد به أقنوم الكلمة لا أقنوم الحياة ، فتبين تناقضهم فى أمانتهم ، وتبين خطأهم فيما فسروا به كلام الأنبياء .

وتبين أن ماثبت عن الأنبياء فهو حق موافق لما أخبر به محمد خاتم النبيين لا يتناقض مع شىء من كلام الأنبياء ، كما أنه لايناقض شىء من كلامهم صريح المعقول ، وتبين أنهم حملوا كلام الأنبياء فى لفظ الإبن وروح القدس وغيره على مالم يوجد استعمال هذا اللفظ فيه ، وتركوا حمله على المعنى الموجود فى كلامهم ، فكيف يجوز أن يحمل لفظ روح القدس على معنى لم يستعمله فيه الأنبياء ، ولا أرادوه به ، و يترك حمله على المعنى المعروف الذى يستعملونه فيه دائماً .

وهل هذا إلا من فعل من يحرّف كلام الأنبياء ، و يفترى الكذب عليهم؟ بل ظاهر هذا الكلام أن يعمدوهم باسم الأب الذى يريدون به فى لغتهم الرب ، والإبن الذى يريدون به فى لغتهم المربّى ، وهو هنا المسيح وهو الروح القدس

الذى أيد الله به المسيح من الملك والوحى وغير ذلك ، وبهذا فسر هذا الكلام من فسره من أكابر علمائهم .

فصل فى عدم حجية ما ادعوه من الأقانيم

فهذا ما ذكروه فى كتابهم يحتجون بها على مايعتقدونه من الأقانيم الثلاثة قائلين : إن تسمية الله أنه أب وابن وروح القدس أسماء لم نسمه نحن النصارى بها من ذات أنفسنا ، بل الله سمى لاهوته بها .

وقد تبين أنه ليس فيما ذكروه عن الأنبياء مايدل لانصاً ولا ظاهراً على أن أحداً من الأنبياء سمى الله ، ولا شيئاً من صفاته ابنا ولا روح قدس .

وتبين أن تسميتهم لعلم الله وكلامه ابنا ، وتسميتهم لحياته روح القدس أسماء ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان ، وأنه ليس معهم على ما ادعوه من الأقانيم حجة أصلا لا سمعية ولا عقلية ، وأنه ليس لقولهم بالتثليث وحصرهم لصفات الله فى ثلاثة مستند شرعى .

كما تبين أنه ليس له مستند عقلى ، وأن القوم ممن قيل فيهم : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ ، [سورة الملك : ١٠] . وممن قيل فيهم : ﴿ أمْ تحسب أنَّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إنْ هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ ، [سورة الفرقان : ٤٤] .

فصل فى بطلان دعوى تأييد القرآن لهم

ثم أخذوا يزعمون أن فيما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم حجة لهم على الأقانيم التى ادعوها ، وهم ابتدعوا القول بالأقانيم والتثليث قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

ذلك معروف عندهم من حين ابتدعوا الأمانة التى لهم التى وضعها الثلاثة

مائة وثمانية عشر منهم بحضرة قسطنطين الملك فإذا لم يكن لهم مستند عقلى ، ولا سمعى عن الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم . فكيف يكون لهم مستند فيما جاء به صلى الله عليه وسلم بعد ابتداعهم الأمانة .

لاسيما مع العلم الظاهر المتواتر أن محمدا صلى الله عليه وسلم كفرهم فى الكتاب الذى أنزل عليه وضللهم ، وجاهدهم بنفسه وأمر بجهادهم كقوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيحُ ابن مريم ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ ، وقال : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ ، وقال: ﴿ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم ﴾ونحو ذلك من الآيات ، وقالوا : وقد قال فى هذا الكتاب أيضاً : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا الصالحين ﴾ فيقال لهم : حرفتم لفظ الآية ، ومعناها فإن لفظها :

﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ ، [سورة الصافات : ١٧١ — ١٧٣] . فالكلمة التى سبقت لعباده المرسلين قوله : ﴿ إنهم لهم المنصورون ﴾ .

أخبر أنه سبق منه كلمة لعباده المرسلين لينصرنّهم ، كما قال تعالى : ﴿ ولولا كلمةٌ سبقت من ربك لكان لزاماً وأجلٌ مسمى ﴾ ، [سورة طه : ١٢٩] ، وقوله : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتابَ فاختُلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقُضِي بينهم وإنهم لفى شك منه مريب ﴾ ، [سورة هود : ١١٠] . وقوله : ﴿ وكذلك حقّت كلمت ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ ، [سورة غافر : ٦] . وقوله : ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم * ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم﴾ ، [سورة الشورى: ١٤] وقوله : ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حقّ القول منى لأملئن جهنم من الجِنّة والناس أجمعين ﴾ ، [سورة السجدة : ١٣] .

والكلمة فى لغة العرب : هى الجملة المفيدة سواء كانت جملة اسمية أو فعلية وهى القول التام ، وكذلك الكلام عندهم هو الجملة التامة .

قال سيبويه : واعلم أنهم يحكون بالقول ما كان كلاما ولا يحكون به ما كان قولا ، ولكن النحاة اصطلحوا على أن يسموا ما تسميه العرب حرفا يسمونه كلمة مثل زيد وعمرو ، ومثل قعد وذهب وكل حرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل مثل إن وثم ، وهل ولعل .

قال تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ فسمى هذه الجملة كلمة .

وقال تعالى : ﴿ مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ ﴾ ، [سورة إبراهيم : ٢٤] . وهو قول لا إله إلا الله

وقال تعالى : ﴿ إليه يصعدُ الكلمُ الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ ، [سورة فاطر : ١٠] . وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ ، [سورة الفتح : ٢٦] . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » وقال صلى الله عليه وسلم « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

* ألا كل شىء ما خلا الله باطل[1] *

وقال النبى صلى الله عليه وسلم « اتقو النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » ، ولما شاع عند المشتغلين بالنحو استعمال لفظ الكلمة فى الاسم أو الفعل

---

(١) هذا صدر بيت عجزه :

وكل نعيم لا محالة زائل

وحرّف المعنى صاروا يظنون أن هذا هو كلام العرب ، ثم لما وجد بعضهم ماسمعه من كلام العرب أنه يراد بالكلمة الجملة التامة صار يقول :

وكلمة بها كلام قد يؤم

فيجعل ذلك من القليل ، ومنهم من يجعل ذلك مجاز وليس الأمر كذلك بل هذا اصطلاح هؤلاء النحاة ، فإن العرب لم يعرفوا عنهم أنهم استعملوا لفظ الكلمة ، والكلام إلا من الجملة التامة ، وهكذا نقل عنهم أئمة النحو كسيبويه وغيره ، فكيف يقال : إن هذا هو المجاز ، وإن هذا قليل وكثير .

كما أن لفظ القديم فى لغة العرب هو المتقدم على غيره كما قال تعالى : ﴿ حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ ، [سورة يس : ٣٩] . وقوله تعالى : ﴿ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ ، [سورة الأحقاف : ١١] . وقوله تعالى: ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون ﴾ ، [سورة الشعراء: ٧٥، ٧٦] ثم إن من أهل الكلام من خص لفظ القديم بما لم يسبقه عدم أو لم يسبقه غيره وصار هذا عندهم هو حقيقة اللفظ حتى صار كثير منهم يظن أن استعمال القديم فى المتقدم على غيره مطلقاً مجاز .

فتبين أن مراده تعالى بقوله ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ من جنس قوله ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً ﴾ فسبق منه كلمته بما سيكون من نصر المرسلين ، وملء جهنم من الجنة والناس أجمعين ونحو ذلك ، فحرف هؤلاء الضلاّل لفظ الآية فقالوا « لعبادنا الصالحين » وجعلوا « الكلمة » هى المسيح وليس فى اللفظ مايدل على ذلك بوجه من الوجوه ، ولا فى كون المسيح سبق لعبادنا المرسلين فى معنى صحيح ، وقد قال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم منصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ .

فصل فى محاولتهم تحريف القرآن

قالوا : وقال أيضاً : ﴿ ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس ﴾ ، [سورة المائدة : ١١٠] .

فيقال : هذا مما لاريب فيه ، ولا حجة لكم فيه ، بل هو حجة عليكم ، فإن الله أيد المسيح عليه السلام بروح القدس ، كما ذكر ذلك فى هذه الآية .
وقال تعالى فى البقرة : [٨٧] ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥٣] .

وهذا ليس مختصاً بالمسيح ، بل قد أيد غيره بذلك ، وقد ذكروا هم أنه قال لداود [روحك القدس لاتنزع منى] ، وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم لحسان ابن ثابت « اللهم أيده بروح القدس » .

وفى لفظ « روح القدس معك مادمت تنافح عن نبيه » .

وكلا اللفظين فى الصحيح .

وعند النصارى أن الحواريين حلت فيهم روح القدس ، وكذلك عندهم روح القدس حلت فى جميع الأنبياء .

وقد قال تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولّونه ، والذين هم به مشركون * وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزّل قالوا : إنما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون * قل نزّله روح القدس من ربك

بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ ، [سورة النحل : ٩٨-١٠٢]

وقد قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ نزلَ به الروح الأمين على قلبك ﴾ ، [سورة الشعراء : ١٩٤] .

وقال : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ ، [سورة البقرة : ٩٧] .

فقد تبين أن روح القدس هنا جبريل ، وقال تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ ، [سورة المجادلة : ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ ، [سورة الشورى : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ ينزِّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ ، [سورة النحل : ٢] .

وقال : ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴾ ، [سورة غافر : ١٥] .

فهذه الروح التى أوحاها ، والتى تنزل بها الملائكة على من يشاء من عباده غير الروح الأمين التى تنزل بالكتاب ، وكلاهما يتسمى روحا ، وهما متلازمان ، فالروح التى ينزل بها الملك مع الروح الأمين التى ينزل بها روح القدس ، يراد بها هذا وهذا .

وبكلا القولين فسر المفسرون قوله فى المسيح : ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾ [سوره البقرة : ٨٧] .

ولم يقل أحد إن المراد بذلك حياة الله ، ولا اللفظ يدل على ذلك ،

ولا استعمل فيه ، وهم إما أن يسلموا أن روح القدس في حق غيره ليس المراد بها حياة الله ، فإذا ثبت أن لها معنى غير الحياة ، فلو استعمل في حياة الله أيضاً لم يتعين أن يراد بها ذلك في حق المسيح ، فكيف ولم يستعمل في حياة الله في حق المسيح ، وأما أن يدعوا أن المراد بها حياة الله في حق الأنبياء والحواريين فإن قالوا ذلك لزمهم أن يكون اللاهوت حالا في جميع الأنبياء والحواريين ، وحينئذ فلا فرق بين هؤلاء وبين المسيح .

ويلزمهم أيضاً أن يكون في المسيح لاهوتان : لاهوت الكلمة ، ولاهوت الروح ، فيكون قد اتحد به أقنومان ، ثم في قوله تعالى : ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾ يمتنع أن يراد بها حياة الله ، فإن حياة الله صفة قائمة بذاته لا تقوم بغيره ، ولا تختص ببعض الموجودات غيره . وأما عندهم فالمسيح ، هو الله الخالق ، فكيف يؤيد بغيره وأيضاً فالمتحد بالمسيح هو الكلمة دون الحياة ، فلا يصح تأييده بها .

فتبين أنهم يريدون أن يحرّفوا القرآن كما حرفوا غيره من الكتب المتقدمة ، وأن كلامهم في تفسير المتشابه من الكتب الإلهية من جنس واحد .

فصل في معنى كلمة الله

قالوا : وقال أيضاً ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ فيقال لهم : وأى حجة لكم في هذا ، وإنما هو حجة عليكم ، فإنه قد ثبت أن الله كلم موسى تكليما ، وكلام الله الذي سمعه منه موسى عليه السلام ، ليس هو المسيح فعلم أن المسيح ليس هو كلام الله ، وعندهم هو كلمة الله ، وهو علم الله ، وهو الله .

ومعلوم أن كلام الله كثير كالتوراة والإنجيل والقرآن، وغير ذلك من كلامه وليس المسيح شيئاً من ذلك ، والمسيح عندهم خالق ولو كان المسيح نفس كلام لم يكن خالقاً ولا معبوداً فإن كلام الله ليس هو الإله المعبود ، بل كلامه كسائر

صفاته مثل حياته وقدرته ولا يقول أحد : يا علم الله اغفر لى ، ولا يا كلام الله اغفر لى ، وإنما يعبد ويدعى الإله الموصوف بالعلم والقدرة والكلام الذى كلم الله موسى تكليما .

فصل فى معنى ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾

قالوا : وقال أيضاً فى سورة التحريم : ﴿ ومريم ابنتَ عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدَّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ ، [سورة التحريم : ١٢] .

فيقال : أما قوله تعالى : ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ . وقوله فى سورة الأنبياء : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ ، [٩١] . فهذا قد فسره قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثَّل لها بشراً سوياً * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ ، [سورة مريم : ١٧ - ١٩] .

وفى القراءة : ﴿ لأهب لك غُلاماً زكياً ﴾ .

فأخبر أنه رسوله وروحه ، وأنه تمثل لها بشراً ، وأنه ذكر أنه رسول الله إليها ، فعلم أن روحه مخلوق مملوك له ، ليس المراد حياته التى هى صفته سبحانه وتعالى .

وكذلك قوله ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ وهو مثل قوله فى آدم عليه السلام ﴿ فإذا سوَّيته ونفخت فيه من روحى ﴾ ، [سورة الحجر : ٢٩] . وقد شبه المسيح بآدم فى قوله : ﴿ إن مَثَلَ عيسى عند الله كمثل آدم خلقَهُ من ترابٍ ثم قال له كن فيكون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٩] .

والشبهة فى هذا نشأت عند بعض الجهال من أن الإنسان إذا قال : روحى ، فروحه فى هذا الباب هى الروح التى فى البدن ، وهى عين قائمة بنفسها ، وإن

كان من الناس من يعنى بها الحياة ، والإنسان مؤلف من بدن وروح ، وهى عين قائمة بنفسها عند سلف المسلمين وأئمتهم وجماهير الأمم .

والرب تعالى منزه عن هذا ، وإنه ليس مركباً من بدن وروح ، ولا يجوز أن يراد بروحه ما يريد الإنسان بقوله : روحى ، بل تضاف إليه ملائكته وما ينزله على أنبيائه من الوحى والهدى والتأييد ، ونحو ذلك .

فصل فى معنى القرآن كلام الله

قالوا : وسائر المسلمين يقولون : إن الكتاب كلام الله ، ولا يكون كلام إلا لحى ناطق ، وهذه صفات جوهرية تجرى مجرى الأسماء ، وكل صفة منها غير الأخرى ، فالإله واحد ، خالق واحد ، رب واحد لا يتجزأ .

فيقال لهم : إن الكتاب ، أى القرآن كلام الله ، فهذا حق ، والكلام لا يكون إلا لمتكلم .

والمسلمون يقولون : إن الله حى متكلم ، وإنه تكلم بالتوراة والإنجيل والقرآن ، وغير ذلك من كلامه ، والقرآن قد أخبر بكلام الله فى مواضع كثيرة ، وهل يسمى ناطقاً وكلامه نطقاً ؟

فيه نزاع فبعض المسلمين يجيزه ، وبعضهم يمنع منه لكونه لم يرد به الشرع ، وليس فى التوراة والإنجيل والزبور تسمية الله ناطقاً ، بخلاف لفظ القول والكلام وقد تنازع المسلمون بعد ظهور البدع فيهم ، كما تنازع أهل الكتاب فى كلام الله ، هو قائم به أو مخلوق منفصل عنه ؟ والذى عليه سلف الأمة وأئمتها وجمهورها أن كلام الله قائم به ، وكذلك سائر ما يوصف به من الحياة والقدرة وغير ذلك .

وأحدث قوم منهم ـ بعد انقراض الصحابة وأكابر التابعين ، بعد أكثر من مائة سنة من موت النبى صلى الله عليه وسلم ـ أنه مخلوق خلقه فى غيره ،

وشاركهم فى هذه البدعة كثير من اليهود والنصارى .

وظهرت هذه المقالة بعد المئة الثانية ، وانتصر لها قوم من الولاة ، وغيرهم ، ثم أطفأها الله بمن أقامه الله من أئمة الإسلام والسنة ، الذين بينوا فسادها وبينوا مااتفق عليه السلف من أن كلام الله منزل منه غير مخلوق ، بل منه بدء ، لم يبتدء من شىء من المخلوقات ، ومع هذا فلم يقل أحد من المسلمين : إن كلام الله يكون إلهاً ولا رباً .

وكذلك حياته لم يقل أحد منهم إن حياته تكون إلهاً ولا ربا ، ولا أنه مساوٍ للرب تعالى فى الجوهر .

فصل فى الصفات الجوهرية وهل تجرى مجرى الأسماء ؟

وأما قولهم : هذه صفات جوهرية تجرى مجرى أسماء ، فإن أرادوا بقولهم : جوهرية أن كل صفة جوهر ، فهذا كلام ظاهر الفساد ، فإن الصفة القائمة بغيرها لا تكون جوهراً قائماً بنفسه ، ومن ظن أن حرارة النار القائمة بها جوهر قائم بنفسه كالنار ، فهو إما مصاب فى عقله ، وإما مسفسط معاند .

والأول : يستحق علاج المجانين .

والثانى : يستحق العقوبة التى تردعه عن العناد ، ثم إن جاز أن تكون الصفة جوهراً كانت القدرة أيضاً جوهراً ، وإن أرادوا بقوله جوهرية أنها صفات ذاتية ، وغيرها صفات فعلية كالخالق والرازق ، فمعلوم أن صفاته الذاتية منها القدرة وغيرها لم تنحصر فى هذه .

وأيضا فالكلام ، وإن كان قائماً بذاته ، فقيل : هو متعلق بمشيئته وقدرته ، وهو قول السلف والأكثرين ، وقيل : ليس كذلك ، والمتكلم قيل : هو من فعل الكلام ولو كان منفصلا عنه ، وقيل هو من قام به الكلام ، وإن لم يكن بمشيئته وقدرته وقيل : المتكلم من قام به الكلام بمشيئته وقدرته .

وهذا قول السلف والأكثرين ، فبطل قولهم على كل تقدير ، وإن أرادوا بالجوهرية أنها ذاتية مقومة ، وباقى الصفات عرضية على رأى أهل المنطق اليونان الذين يفرقون فى الصفات اللازمة للموصوف بين هذا وهذا كان هذا فاسداً من وجوه :

منها أن تفريق هؤلاء فى الصفات اللازمة للموصوف بين صفة وصفة ، وجعل بعضها ذاتياً مقوماً داخلا فى الماهية ، وبعضها عرضياً لاحقاً خارجاً عن الماهية ، كلام باطل عند جماهير نظار الأمم من أهل الملل ، وغيرهم ، كما قد بسط الكلام عليه فى الرد على هؤلاء المتفلسفة ، وبين أن ما يدعونه من تركب الأنواع من الأجناس والفصول إنما هو تركب فى الأذهان لا حقيقة له فى الأعيان ، وأن ما يقوم بالأذهان يختلف باختلاف تصور الأذهان .

فتارة يتصور الشىء مجملا ، وتارة يتصوره متصلا ، وما سموه تمام الماهية ، والداخل فى الماهية ، والخارج عنها اللازم لها يعود عند التحقيق إلى ما يدل عليه اللفظ بالمطابقة والتضمن والالتزام .

ومدلول اللفظ هو بحسب ما يعنيه المتكلم ويقصده ويتصوره ، وهذا يختلف باختلاف إرادات الناس لا يرجع ذلك إلى حقيقة عقلية ولا صفة ذاتية للموجودات .

ولهذا لما كان كلامهم باطلا لم يمكنهم ذكر فرق صحيح بين الذاتى والعرضى اللازم إذ كان كلاهما لازما للموصوف ، بل ذكروا ثلاثة فروق والثلاثة باطلة ، واعترف حذاقهم ببطلانها ، كقولهم : إن الذاتى يثبت للموصوف بلا وسط ، والعرضى اللازم إنما يثبت بوسط ، ثم حذاقهم يفسرون الوسط بالدليل ، كما فسره ابن سينا .

ومنهم من يفسر الوسط بصفة قائمة بالموصوف كما يفسره الرازى وغيره ، وهؤلاء لم يفهموا مراد أولئك فزاد غلطهم ، وأولئك أرادوا بالوسط الدليل ،

كما يريدون بالحد الأوسط ما يعرف باللام فى قولك (لأنه) فصار العرضى اللازم عندهم ما يعلم ثبوته للموصوف بدليل ، وهذا لا يرجع إلى حقيقة ثابتة فى نفس الأمر ، بل هذا أمر يتعلق بالعالم بالصفات .

فنهم من يكون تام التصور فيعلم لزوم الصفة للموصوف بلا دليل .

ومنهم من لا يكون تام التصور فلا يعلم ذلك إلا بدليل ، ثم كل ما كان مستلزما لشيء ، فإنه يمكن الاستدلال به عليه ، إذ كان الدليل هو الذى يلزم من تحققه تحقق المدلول ، فيكون الوسط كل ما كان مستلزماً للعرض ، فيكون العرض لازم اللازم .

وهم معترفون بأن من العرضيات مايلزم بلا وسط ، وقد مثلوا ذلك بالزوجية والفردية فى العدد ، فإن العلم بأن الأربعة زوج ، والثلاثة فرد وإن كان ظاهرا لكن العلم بأن خمسمائة وثلاثة وأربعين نصف ألف وستة وثمانين قد يفتقر إلى دليل ، وقد يفتقر إلى تأمل ، وفكر .

وهم يقولون ما يقول ابن سينا ـ أفضل متأخريهم ـ وغيره من أن العرض المنقسم إلى الكيف والكم وغير ذلك هو ذاتى لموصوفاته .

واللون المنقسم إلى السواد والبياض هو ذاتى للمتلون .

والسوادية والبياضية صفتان ذاتيتان ، بخلاف الزوجية والفردية .

قالوا : لأن كون هذا أسود وأبيض وعرضاً قائماً بغيره ، لا يفتقر إلى استدلال ونظر بخلاف كون هذا العدد زوجا أو فردا ، فإن قد يفتقر إلى نظر واستدلال ، فإنه ينقسم إلى قسمين متساويين أو لا ينقسم .

ومعلوم أن هذا فرق يعود إلى علم العالم بهذه الصفات ، هل هو جلى أو خفى وهل يفتقر إلى نظر واستدلال أو لا يفتقر ، أو ليس هو فرقا يعود إلى الصفة فى نفسها ولا إلى موصوفها ، فعلم أنه ليس بين ماجعلوه ذاتياً مقوماً داخلا

فى الماهية ، وما جعلوه عرضياً لازماً خارجاً عن الماهية ، فرق يعود إلى نفس الماهية التى هى الذات الموصوفة الموجودة فى الخارج ، ولا إلى صفاتها ، بل جميع صفاتها اللازمة لها ، سواء فى ذلك ليست الماهية مركبة من هذا دون هذا ، ولا فيها شىء يتقدم على الماهية فى الوجود الخارجى .

كما يقولون : إن الذاتى يتقدم على الماهية فى الوجود والذهن ، ولا هى الصفات جواهر موجودة فى الخارج أجزاء لها كأجزاء الأجسام المركبة ، وإنما هى صفات قائمة بالموصوف يمتنع تقدم شىء منها على الموصوف .

ولكن إذا قيل فى الإنسان : هو جسم حساس تام متحرك بالإرادة ناطق ، فهنا قد يتصور الذهن هذه الأمور ، ويعبر عنها فكل واحد منهما جزء من الجملة التى فى ذهنه ، ولسانه .

والجملة التى فى ذهنه ولسانه مركبة من هذه الأجزاء لا أن الإنسان الموجود فى الخارج مركب من هذه الأجزاء ، وأنها متقدمة عليه أو أنها جواهر ، فإن هذا كله مما يعلم بصريح العقل أنه باطل ، لكن هؤلاء المتفلسفة اليونان ، ومن اتبعهم كثيراً ما يشتبه عليهم ما يتصورونه فى الأذهان بما يوجد فى الأعيان ، كما أثبت من أثبت قدمائهم مثل «فيثاغورث» وأتباعه أعداداً مجردة موجودة فى الخارج .

وقد رد ذلك عليهم سائر العقلاء ، كما رده من بعده منهم .

وقالوا : إن العدد المجرد ، والمقدار المجرد إنما يوجد فى الذهن ، لا فى الخارج ، وإنما يوجد فى الخارج المعدودات والمقدورات ، مثل الأجسام المتفرقة التى تعد كالكواكب ، أو المتصلة التى تقدر كالأفلاك ، وذلك هو المتصف بالكم المتصل والكم المنفصل الموجود فى الخارج .

وأثبت أصحاب أفلاطون الكليات العقلية فى الخارج التى يسمونها « المثل الأفلاطونية » ، وزعموا أنها قديمة أزلية ، وأثبتوا بعداً موجوداً جوهراً : هو

الخلاء ، وجوهراً قائماً بنفسه : هو الدهر ، وجوهراً مجرداً قائماً بنفسه : هو المادة والهيولى الأزلية .

وهذه كلها إنما تتصور فى الأذهان لا فى الأعيان ، بل وما أثبتوه من العقول المجردة العشرة هى أيضاً عند التحقيق ترجع إلى مايجرده الذهن ، ويقدره فيه لا إلى موجود فى الخارج .

وأصل قولهم : المجردات والمفارقات هو مأخوذ من مفارقة النفس الناطقة للبدن بالموت ، وهذا حق ، فإن الذى عليه الأنبياء وأتباعهم ، وجمهور العقلاء أن الروح تفارق البدن ، وتبقى بعد فراق البدن ، ومن قال من متكلمة أهل الملل أنه لا يبقى بعد البدن روح تفارقه ، وأن الروح جزء من البدن أو عرض من أعراض البدن فقوله مع أنه خطأ فى العقل الصريح هو أيضاً مخالف لكتب الله المنزلة ولرسله ، ولمن اتبعهم من جميع أهل الملل ، وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا التنبيه على أن تفريق هؤلاء اليونانيين فى الصفات اللازمة للموصوف بين الصفات الذاتية والعرضية اللازمة ، وجعلهم اللازمة : منها ما هو لازم للماهية ، ومنها ما هو لازم لوجودها ، هو مبنى على أصلين فاسدين لهم خالفهم فيها جمهور عقلاء الأمم من نظار أهل الملل وغيرهم .

أحد الأصلين : هو ما تقدم من جعلهم الصفات اللازمة للموصوف هى فى الخارج منقسمة إلى ذاتى جزء من الماهية داخل فيها ، وإلى عرضى خارج عنها لازم لها .

والثانى : زعمهم أن كل موجود ممكن ، وله فى الخارج ماهية هى ذاته ، وحقيقته غير الموجود المعلوم المعين الثابت فى الخارج ، وهذا أيضاً مما اشتبه عليهم فيه ما فى الذهن بما فى الخارج .

فإنه إذا أريد بالماهية ما يتصور فى الذهن ، وهو القول فى جواب ما هو ،

وبالوجود ما هو ثابت متحقق فى الخارج ، فمعلوم أن هذا غير هذا ، كما يقولون : إنا نتصور المثلث قبل أن نعلم وجوده فى الخارج ، فعلم أن ماهية المثلث غير المثلث الموجود فى الخارج . فإنه يقال لهم إن أردتم أن ما يتصور فى الذهن من المثلث غير الوجود فى الخارج .

وهذا حق ، لكن ليس فى هذا ما يدل على أنه فى الخارج عن الذهن شيئين :

أحدهما : ماهية المثلث التى هى حقيقته وذاته .

والثانى : المثلث الموجود الذى هو زاوية الحائط ، وإن أردتم أن فى الخارج شيئين ، فهذا غلط ، وهذا الموضع مما اشتبه على كثير من النظار حتى صار بعض أكابرهم حائراً متوقفاً .

وبعضهم يختلف قوله ويتناقض ، وسبب ذلك عدم تمييزهم بين ما يتصور فى الأذهان وبين ما يوجد فى الأعيان ثم هذا الموضوع نقلوه إلى الكلام فى صفات الله اللازمة له كحياته وعلمه وقدرته هل هى ذاتية أو عرضية ؟

فإن قيل : ذاتية لزم أن تكون له أجزاء متقدمة عليه تركب منها ، وإن كانت عرضية لازمة لزم أن يكون قابلاً وفاعلاً . فإن كونه فاعلا غير كونه قابلاً فلزم أن يكون فيه جهتان ، وهذا من التركيب الذى زعموه منتفياً ، وذلك يستلزم التركيب ، وهو التركيب من الذاتيات ، وقد بُيِّن فساد هذا من وجوه متعددة :

منها : أن التركيب المعقول هو تركيب الحيوان والنبات والمعادن من أبعاضه وأخلاطه ، وتركيب المبنيات والملبوسات والأطعمة والأشربة من أبعاضها وأخلاطها .

أما تركيب الأجسام من الجواهر المنفردة أو من المادة والصورة ، فهذا مما تنازع فيه جمهور العقلاء ، وكذلك تركيب الشىء من الموجود ، والماهية سواء

كان واجباً أو ممكناً هو مما تنازع فيه جمهور العقلاء ، و كذلك تركيبه من الصفات الذاتية المشتركة ، والمميزة التي يسمونها : الجنس ، والفصل .

وأما اتصاف الذات بصفات تقوم بها ، فهذا هو الذي يعرفه عامة العقلاء ، ولكن لا يسمون هذا تركيباً فمن سماه تركيباً لم يكن نزاعه اللفظي قادحاً فيما علم بالأدلة السمعية والعقلية .

ثم هم يقولون : المركب يفتقر إلى أجزائه ، وأجزاؤه غيره ، وواجب الوجود لا يفتقر إلى غيره ، وهذه كلها ألفاظ مجملة ، فإن لفظ الافتقار هنا لم يعنوا به افتقار المفعول إلى فاعله ، ولا المعلول إلى علته الفاعلية ، فإن جزء الشيء لا يكون فاعله ولا علته الموجبة له ، بل يريدون به التلازم والاشتراط ، فإن وجود المجموع مستلزم لوجود أجزائه ، وهو مشروط بذلك .

ومنها : أن لفظ الجزء ليس مرادهم جزءاً مبايناً للجملة ، فإن جزء الجملة ليس مبايناً لها . ومنها لفظ الغير ، فإنه يراد بالغيرين ما يجوز مباينة أحدهما لصاحبه ، أو مفارقته له بزمان أو مكان أو وجود ، ويراد بهما ما يجوز العلم بأحدهما دون الآخر ، و بعض المجموع وصفة الموصوف لا يجب أن تفارقه وتباينه بل قد يجوز أن تباينه ويجوز أن لا تباينه .

فصفات الرب عزّ وجل اللازمة له لا يجوز أن تفارقه وتباينه ، وحينئذ فمن الناس من لا يسميها غيراً له ، ومن سماها غيراً له فذاته مستلزمة لها ليست الصفات فاعلة للذات ، ولا علة موجبة لها .

ولفظ واجب الوجود يراد به الوجود بنفسه الذي لا فاعل له ، ولا علة فاعلة . وذات الرب عز وجل وصفاته واجبة الوجود بهذا الاعتبار ، ويراد به مع ذلك المستغنى عن محل يقوم به ، والذات بهذا المعنى واجبة دون الصفات ، ويراد به ما لا تعلق له بغيره ، وهذا لا حقيقة له ، فإن الرب تعالى له تعلق بمخلوقاته لا سيما عند هؤلاء الفلاسفة الدهرية الذين يقولون : إنه موجب بذاته للأفلاك

مستلزم لها ، فيجعلونه ملزوماً لمفعولاته ، فكيف ينكرون أن تكون ذاته ملزومة لصفاته ؟

وهؤلاء المتفلسفة اليونانيون الذين يسمون «المشائين» أتباع أرسطو صاحب التعاليم : المنطق ، والطبيعى ، والرياضى ، والإلهى ، يقولون : إن موضوع العلم الطبيعى متعلق بالمادة فى الذهن ، والخارج وهو الجسم وأحكامه .

والثانى الرياضى : وهو متعلق بالمادة فى الخارج لا فى الذهن ، فإنه لا يوجد عدداً ولا مقدار فى الخارج إلا فى جسم فى الخارج أو عرض معدود ، أو مقدر منفصل بخلاف الذهن ، فإنه يجرد إعداداً ومقادير مجردة عن المعدودات والمقدورات .

والثالث : الذى يسمونه علم مابعد الطبيعة باعتبار السلوك العلمى ، وهو علم ماقبلها باعتبار الوجود العينى ، ويسمونه أيضا « العلم الإلهى » وموضوعه عندهم : المجرد عن المادة فى الذهن والخارج ، وهو الموجود من حيث هو موجود وانقسامه إلى جوهر وعرض ، وانقسام الجوهر إلى جسم وغير جسم ، وانقسام غير الجسم إلى المادة والصورة والعقول والنفوس .

والعلة الأولى يسميها أرسطو وأتباعه جوهراً ، ولا يسميها واجب الوجود . وأما متأخروهم كابن سينا وأتباعه يسمونها واجب الوجود ولا يسمونها جوهراً ، والكلام على هؤلاء مبسوط فى موضع آخر ، إذ المقصود هنا أن هذه الأمور التى يقولون هى موضوع العلم الإلهى ، هى المجردة عندهم عن المادة فى الذهن والخارج هى عند التحقيق وجودها فى الأذهان ، لا فى الأعيان .

فإن الوجود العام الكلى لا يوجد عاماً كلياً إلا فى الأذهان لا فى الأعيان ، كما أن الإنسان العام الكلى ، والحيوان العام الكلى لا يوجد عاماً كلياً إلا فى الذهن ، لا فى الأعيان .

وقد بسط الكلام على هؤلاء فى غير هذا الموضع ، وبين أن اليهود

والنصارى بعد النسخ والتبديل ، أقرب إلى الحق فى الأمور الإلهية منهم .

وهذه الأمور مبسوطة فى موضع آخر ، ولكن نبهنا عليها لتعلقها هنا بقول هؤلاء النصارى إن صفات الرب الثلاث هى جوهرية دون غيرها ، وإنهم إن عنوا بذلك ما يعنيه هؤلاء بالذاتية ، فقولهم باطل مبنى على أصل باطل .

فإن تفريق هؤلاء اليونان فى الصفات اللازمة بين الذاتى والعرضى اللازم للوجود ، والعرضى اللازم للماهية ، والعرضى اللازم للموصوف فرق باطل ، وقد ذكروا ثلاث فروق كلها باطلة ، كما تقدم :

الأول : الوسط .

والفرق الثانى : تقدم الذاتى ذهناً ، ووجوداً بخلاف اللازم العرضى .

والثالث : توقف الحقيقة على الذاتى .

وقد تبين بطلان هذا فى غير هذا الموضع . والنصارى ليس مرادهم بالجوهرية ما يريده هؤلاء بالذاتية ، فلهذا لم نبسط الكلام عليه ، بل يقولون : إن الثلاثة جواهر ، وهؤلاء المنطقيون يفرقون بين اللازم للماهية ، واللازم لوجودها بناء على أن فى الخارج شيئين : الوجود ، وماهية أخرى غير الوجود .

والكلام على هذا كله مبسوط فى موضع آخر .

ومنها : أنه لو قدر أن صفات الموصوفات اللازمة لها تنقسم إلى ذاتى مقوم ، وعرضى لازم ، وأن صفات الرب سبحانه كذلك ، لم يكن تخصيص العلم بأنه ذاتى أولى من القدرة ، فليس ذكر القائم بنفسه الحى العالم بأولى من ذكر القائم بنفسه الحى القادر .

والنصارى لما كانت الأقانيم عندهم ثلاثة ، وزعموا أن الشرع المنزل دلّ على ذلك ، وكانوا فى ذلك مخالفين للشرع المنزل إليهم ، كما قد بسط فى موضعه ، صار طائفة منهم يقولون : موجود حى عالم ، وطائفة يقولون : موجود عالم قادر ، فيجعلون القادر مكان الحى ، ويجعلون روح القدس هو القدرة .

وهذا القول وإن كان أحسن في المعنى لكن تفسير روح القدس بالقدرة في غاية البعد الذي يظهر فساده لكل أحد ، ولابد لهم من إثبات أقنوم الكلمة الذي يقولون تارة : هي العلم ، وتارة : هي الحكمة ، ويسمونها تارة : النطق ، كما سموها في كتابهم هذا ، لأن الذي اتحد بالمسيح عندهم هي أقنوم الكلمة فصاروا تارة يضمون إليها الحياة ، وتارة يضمون إليها القدرة . والأب تارة يقولون : هو الوجود ، وتارة يقولون : القائم بنفسه ، وتارة يقولون : الذات ، وتسمى القائم بنفسه بالسريانية : الكيان ، وتارة يقولون : الجود .

وكل هذا من الحيرة والضلال ، لأنهم لايجدون ثلاث معانى هي المستحقة لأن تكون جوهرية دون غيرها من الصفات سواء فسرت الجوهرية بأنها جواهر ، أو بأنها ذاتية مقومة أو بغير ذلك .

ومنها قولهم: تجرى مجرى أسماء ، فإن أرادوا بذلك أسماء أعلام أو جامدة ، وسائرها صفات ، فاسم الحي والعالم اسم مشتق يدل على معنى العلم والحياة ، كما يدل القدير على القدرة ، وإن أرادوا أنه يسمى بها ، فلله تعالى أسماء كثيرة ، فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى .

ومن أسمائه القدير ، والقدرة تستلزم من قدرته على المخلوقات مالا يدل عليه العلم ، وخلقه للمخلوقات يدل على قدرته أبلغ من دلالته على علمه ، واختصاصه بالقدرة أظهر من اختصاصه بالعلم ، حتى إن طائفة من النظار كأبي الحسن الأشعري، وغيره يقول : أخص وصفه القدرة على الاختراع ، فلا يوصف بذلك غيره .

والجهم بن صفوان قبله يقول : ليس في الوجود قادر غيره ، ولا لغيره قدرة . والأشعري،وإن أثبت للمخلوق قدرة ، لكن يثبت قدرة لا تؤثر في المقدور ، ولم يقل أحد من العقلاء إن أخص وصفه الحياة والعلم ، ولا أن غيره ليس بحيّ ، ولا عالم فكان جعل القدير اسما وغيره صفة إن كان الفرق حقا أولى من العكس ، فكيف إذا كان الفرق باطلا فإن أسماءه تعالى التي يعرفها الناس هي أسماء

وهى صفات فى اصطلاح أهل العربية تدل على معانى ، هى صفاته القائمة به .

فالحى يدل على الحياة والعليم يدل على العلم والقدير يدل على القدرة ؛ هذا مذهب سلف الأمة وجماهيرها وجماهير الأمم . ومن الناس فرقة شاذة تزعم أن هذه الأسماء لا تدل على معانى كأسماء الأعلام ، وقد تنازع الناس فيما يسمى به سبحانه ، ويسمى به غيره كالحى والعليم والقدير .

فالجمهور على أنه حقيقة فيهما . وقالت طائفة كأبى العباس الناشى : إنها حقيقة فى الرب عز وجل مجاز فى المخلوق . وقالت طائفة عكس هؤلاء من الجهمية والملاحدة والمتفلسفة إنها مجاز فى الرب عز وجل حقيقة فى المخلوق ، والأولون هى عندهم متواطئة ، وقد يسمونها مشككة لما فيها من التفاضل . وبعضهم يقول : هى مشتركة اشتراكا لفظيا .

فصل فى قولهم فى تباين الصفات وتوافقها

وأما قولهم : كل صفة منها غير الأخرى ، فهذا إن أرادوا به أن صفات الرب سبحانه وتعالى قد تباينه وتنفصل عنه ، وهو حقيقة قولهم ، ويقولون مع ذلك إنها متصلة به فهو جمع بين النقيضين، وتمثيلهم بشعاع الشمس تمثيل باطل، وهو حجة عليهم لا لهم .

فإن الشعاع القائم بالهواء والأرض والجبال والشجر والحيطان ، ليس هو قائم بذات الشمس .

والقائم بذات الشمس ، ليس هو قائماً بالهواء والأرض . فإن قالوا : ما يقوم به من العلم يفيض منه على قلوب الأنبياء علوم ، كما يفيض الشعاع من الشمس . قيل لهم : لا اختصاص للمسيح بهذا ، بل هذا قدر مشترك بينه وبين غيره من الأنبياء ، وليس فى هذا حلول ذات الرب ولا صفته القائمة به بشىء من مخلوقاته ، ولا أن العبد بما حل فيه من العلم

والإيمان يصير إلهاً معبوداً ، وإن أرادوا أنها قائمة به ، وتسمى كل واحدة غير الأخرى .

فهنا نزاع لفظي ، هل تسمى غيراً أو لا تسمى غيراً ؟ فإن من الناس من يقول: كل صفة للرب عز وجل فهي غير الأخرى ، ويقول: الغيران ما جاز وجود أحدهما مع عدم الآخر ، أو ما جاز العلم بأحدهما مع الجهل بالآخر . ومنهم من يقول ليست هي الأخرى ، ولا هي هي لأن الغيرين ما جاز وجود أحدهما مع عدم الآخر ، أو ما جاز مفارقة أحدهما الآخر ، بزمان أو مكان أو وجود . والذي عليه سلف الأمة وأئمتها إذا قيل لهم علم الله وكلام الله ، هل هو غير الله أم لا ؟ لم يطلقوا النفي ولا الإثبات ، فإنه إذا قيل لهم غيره أوهم أنه مباين لهم .

وإذا قال ليس غيره أوهم أنه هو ، بل يستفصل السائل ، فإن أراد بقوله غيره أنه مباين له منفصل عنه فصفات الموصوف لا تكون مباينة له منفصلة عنه ، وإن كان مخلوقاً ، فكيف بصفات الخالق ؟ وإن أراد بالغير أنها ليست هي هو ، فليست الصفة هي الموصوف ، فهي غيره بهذا الاعتبار ، واسم الرب تعالى إذا أطلق يتناول الذات المقدسة بما يستحقه من صفات الكمال ، فيمتنع وجود الذات عَرِيَّةً عن صفات الكمال .

فاسم الله يتناول الذات الموصوفة بصفات الكمال ، وهذه الصفات ليست زائدة على هذا المسمى ، بل هي داخلة في المسمى ، ولكنها زائدة على الذات المجردة التي تثبتها نفاة الصفات ، فأولئك لما زعموا أنه ذات مجردة قال هؤلاء بل الصفات زائدة على ما أثبتموه من الذات .

وأما في نفس الأمر ، فليس هناك ذات مجردة تكون الصفات زائدة عليها ، بل الرب تعالى هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال ، وصفاته داخلة في مسمى أسمائه سبحانه وتعالى .

فصل فيما قالوه فى التثليث

وقولهم : فالإله واحد ، خالق واحد ، رب واحد . هو حق فى نفسه ، لكن قد نقضوه بقولهم فى عقيدة إيمانهم : [نؤمن برب واحد ، يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه ، مساوٍ الأب فى الجوهر] فأثبتوا هنا إلهين ، ثم أثبتوا روح القدس إلهاً ثالثاً ، وقالوا إنه مسجود له ، فصاروا يثبتون ثلاثة آلهة ، ويقولون : إنما نثبت إلهاً واحداً ، وهو تناقض ظاهر ، وجمع بين النقيضين : بين الإثبات والنفى .

ولهذا قال طائفة من العقلاء : إن عامة مقالات الناس يمكن تصورها إلا مقالة النصارى ، وذلك أن الذين وضعوها لم يتصوروا ما قالوا ، بل تكلموا بجهل ، وجمعوا فى كلامهم بين النقيضين ، ولهذا قال بعضهم : لو اجتمع عشر نصارى لتفرقوا عن أحد عشر قولا . وقال آخر : لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم لقال الرجل قولا ، وامرأته قولا آخر ، وابنه قولا ثالثاً .

فصل فى تناقض ما قالوه مع ما فى الأمانة

وقولهم : [لا يتبعض ولا يتجزأ] مناقض لما ذكروه فى أمانتهم ، ولما يمثلونه به ، فإنهم يمثلونه بشعاع الشمس ، والشعاع يتبعض ويتجزأ ، فإن ما يقوم منه بهذا الموضع بعض وجزء منه ، ويمكن زوال بعضه مع بقاء بعض ، فإنه إذا وضع على مطرح الشعاع شىء فصل ما بين جانبيه ، وصار الشعاع الذى كان بينهما على ذلك الفوقانى فاصلا بين الشعاعين السافلين .

يبين ذلك أن الشعاع قائم بالأرض والهواء ، وكل منهما متجزىء متبعض ، وما قام بالمتبعض فهو متبعض ، فإن الحال يتبع المحل ، وذلك يستلزم التبعيض والتجزىء فيما قام به .

ويقولون أيضاً : إنه اتحد بالمسيح وإنه صعد إلى السماء ، وجلس عن يمين الأب ، وعندهم أن اللاهوت منذ اتحد بالناسوت لم يفارقه ، بل لما صعد إلى السماء ، وجلس عن يمين الأب كان الصاعد عندهم هو المسيح الذى هو ناسوت ولاهوت إله تام ، وإنسان تام ، فهم لا يقولون : إن الجالس عن يمين الأب هو الناسوت فقط ، بل اللاهوت المتحد بالناسوت جلس عن يمين اللاهوت ، فأى تبعيض وتجزئة أبلغ من هذا ؟ وليس هذا من كلام الأنبياء حتى يقال : إن له معنى لا نفهمه ، بل هو من كلام أكابرهم الذى وضعوه وجعلوه عقيدة إيمانهم ، فإن كانوا تكلموا بما لا يعقلونه ، فهم جهال لا يجوز أن يتبعوا ، وإن كانوا لا يعقلون ما قالوه فلا يعقل أحد من كون اللاهوت المتحد بالناسوت جلس عن يمين اللاهوت المجرد عن الاتحاد ، إلا أن هذا اللاهوت المجرد منفصل مباين للاهوت المتحد ، وليس هو متصلا به ، بل غايته أن يكون مماساً له ، بل يجب أن يكون الذى يماس اللاهوت المجرد هو الناسوت مع اللاهوت المتحد به ، فهذا حقيقة التبعيض والتجزئة مع انفصال أحد البعضين عن الآخر .

وأيضاً فيقال لهم : المتحد بالمسيح أهو ذات رب العالمين ، أم صفة من صفاته ؟ فإن كان هو ذات الأب فهو الأب نفسه ، ويكون المسيح هو الأب نفسه ، وهذا مما اتفق النصارى على بطلانه فإنهم يقولون : هو الله ، وهو ابن الله ، كما حكى الله عنهم ، ولا يقولون هو الأب والابن .

والأب عندهم هو الله ، وهذا من تناقضهم . وإن قالوا المتحد بالمسيح صفة الرب فصفة الرب لا تفارقه ، ولا يمكن اتحادها ولا حلولها فى شىء دون الذات .

وأيضاً فالصفة نفسها ليست هى الإله الخالق رب العالمين ، بل هى صفة ، ولا يقول عاقل : إن كلام الله ، أو علم الله أو حياة الله هى رب العالمين الذى خلق السموات والأرض ، فلو قدّر أن المسيح هو صفة الله نفسها لم يكن هو الله ، ولم يكن هو رب العالمين ، ولا خالق السموات والأرض .

والنصارى يقولون : إن المسيح رب العالمين خالق كل شيء ، وهو خالق آدم ، ومريم وإن كان ابن آدم ومريم ، فإنه خالق ذلك بلاهوته ، وهو ابن آدم ومريم بناسوته ، فلو قدر أن المسيح هو صفة الرب لم تكن الصفة هي الخالق ، فكيف والمسيح ليس هو صفة الله نفسها ، بل هو مخلوق بكلمة الله ، وسمى كلمة الله ، لأن الله كونه « بكن » ؟

وقال تعالى ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

وسماه روحه ، لأنه خلقه من نفخ روح القدس فى أمه لم يخلقه ، كما خلق غيره من أب آدمى .

قال الله تعالى : ﴿ إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين ، قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟ قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

وإن قالوا : المتحد به بعض ذلك دون بعض ، فقد قالوا بالتبعيض والتجزئة فهم بين أمرين : إما بطلان مذهبهم ، وإما اعترافهم بالتبعيض والتجزئة مع بطلانه ، وأيضاً فقولهم : [إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه ، مولود غير مخلوق ، مساو الأب فى الجوهر ، ابن الله الوحيد ، المولود قبل كل الدهور] .

يقال لهم : هذا الابن المولود المساوى للأب فى الجوهر ، الذى هو إله حق من إله حق هو صفة قائمة بغيرها أو عين قائمة بنفسها، فإن كان الأول فالصفة ليست إلها ولا هى خالقة ، ولا يقال لها : مولودة من الله ولا أنها مساوية لله فى الجوهر ، ولم يسم قط أحد من الأنبياء ، ولا أتباع الأنبياء صفات الله لا ابناً له ولا ولداً ، ولا قال : إن صفة الله تولدت منه ، ولا قال عاقل : إن الصفة القديمة تولدت من الذات القديمة .

وهم يقولون : إن المسيح إله خلق السموات والأرض لاتحاد ناسوته بهذا الابن المولود قبل كل الدهور ، المساوى الأب فى الجوهر .

وهذا كله نعت عين قائمة بنفسها ، كالجواهر القائمة بنفسها ، لا نعت صفات قائمة بغيرها ، وإذا كان كذلك التبعيض والتجزئة لازمة لقولهم ، فإن القول بالولادة الطبيعية مستلزم لأن يكون خرج منه جزء ، قال تعالى :

﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفورٌ مبينٌ * أم اتخذ مما يخلُق بناتٍ وأصفاكم بالبنين * وإذا بُشر أحدهم بما ضربَ للرحمن مثلا ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم * أو من ينشئوا فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين * وجعلوا الملائكة الذين هم عبد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهدتهم ويُسئلون ﴾ ، [سورة الزخرف : ١٥ ـ ١٩] .

وأما هذا المعنى الذى يثبته من يثبته من علماء النصارى ويسمونه ولادة وبنوة ، فيسمونه الصفة القديمة الأزلية القائمة بالموصوف ابنا ، ويسمونها تارة : النطق بالكلمة ، وتارة : العلم ، وتارة : الحكمة .

ويقولون : هذا مولود من الله ، وابن الله ، فهذا لم يقله أحد من الأنبياء وأتباعهم ، ولا من سائر العقلاء غير هؤلاء المبتدعة من النصارى، ولا يفهم أحد من العقلاء من اسم الولادة والبنوة هذا المعنى .

والأنبياء لم يطلقوا لفظ الابن إلا على مخلوق ، وهم يقولون :هو أب للمسيح بالطبع ، ولغيره بالوضع فلا يعقل جمهور العقلاء وغيرهما من هذا إلا البنوة المعقولة بانفصال جزء من الولد ، وهذا ينكره من ينكره من علمائهم ، لكنهم لم يتبعوا الأنبياء ، ولم يقولوا ما تعقله العقلاء ، فضلوا فيما نقلوه عن الأنبياء وأضلوا أتباعهم فيما قالوه وعوامهم وإن كانوا لا يقولون : إن ولادة الله مثل ولادة الحيوان بانفصال شيء يوجد ، فيقولون : ولادة لاهوتية بانفصال جزء من اللاهوت حلّ فى الناسوت لا يعقل من الولادة غير هذا .

وأيضاً فقولهم : [ونؤمن بروح القدس الرب الحي المنبثق من الأب الذى هو مع الأب مسجود له وممجد ناطق فى الأنبياء] ، فقولهم المنبثق من الأب الذى هو مسجود وممجد يمتنع أن يقال هذا فى حياة الرب القائمة به ، فإنها ليست منبثقة منه كسائر الصفات ، إذ لو كان القائم بنفسه منبثقاً لكان علمه وقدرته ، وسائر صفاته منبثقة منه ، بل الانبثاق فى الكلام أظهر منه فى الحياة ، فإن الكلام يخرج من المتكلم ، وأما الحياة فلا تخرج من الحىّ ، فلو كان فى الصفات ما هو منبثق لكان الصفة التى يسمونها الإبن،ويقولون:هى العلم والكلام أو النطق والحكمة أولى بأن تكون من الحياة التى هى أبعد عن ذلك من الكلام ، وقد قالوا أيضا : إنه مع الأب مسجود له وممجد ، والصفة القائمة بالرب ليست معه مسجوداً لها ، وقالوا:هو ناطق فى الأنبياء وصفة الرب القائمة به لا تنطق فى الأنبياء ، بل هذا كله صفة روح القدس الذى يجعله الله فى قلوب الأنبياء ، أو صفة ملك من الملائكة كجبريل ، فإذا كان هذا منبثقاً من الأب،والانبثاق الخروج، فأى تبعيض وتجزئة أبلغ من هذا .

وإذا شبهوه بانبثاق الشعاع من الشمس كان هذا باطلا من وجوه منها :

أن الشعاع عرض قائم بالهواء والأرض ، وليس جوهراً قائما بنفسه ، وهذا عندهم حىّ مسجود له ، وهو جوهر .

ومنها : أن ذلك الشعاع القائم بالهواء والأرض ليس صفة للشمس ، ولا قائماً بها وحياة الرب صفة قائمة به .

ومنها : أن الانبثاق خصوا به روح القدس، ولم يقولوا فى الكلمة إنها منبثقة.

والانبثاق لو كان حقاً لكلام الكلام أشبه منه بالحياة ، وكلما تدبر أجهل العاقل كلامهم فى الأمانة وغيرها وجد فيه من التناقض والفساد ما لا يخفى إلا على العباد ووجد فيه من مناقضة التوراة والإنجيل ، وسائر كتب الله ما لا يخفى على من تدبر هذا ، وهذا .

ووجد فيه من مناقضة صريح المعقول ما لا يخفى إلا على معاند أو جهول ، فقولهم متناقض في نفسه مخالف لصريح المعقول، وصحيح المنقول عن جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين .

فصل فيما قالوه من التجسيم والحلول

قالوا : وأما تجسم كلمة الله الخالقة بإنسان مخلوق وولادتهما معا ، أى الكلمة مع الناسوت ، فإنه لم يخاطب البارى أحداً من الأنبياء إلا وحياً أو من وراء حجاب ، حسب ما جاء فى هذا الكتاب بقوله : ﴿ وما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء ﴾ ، [سورة الشورى : ٥١] .

وإذا كانت اللطائف لاتظهر إلا فى الكثائف مثل روح القدس وغيرها، فكلمة الله التى بها خلقت اللطائف والكثائف تظهر فى غير كثف كلا !

ولذلك ظهر عيسى ابن مريم ، إذ الإنسان أجلّ ماخلقه الله ، ولهذا خاطب الخلق ، وشاهدوا منه ما شاهدوا .

والجواب من طرق :

أحدها : أنه يقال : هذا الذى ذكروه ، وادعوا أنه تجسم كلمة الله الخالقة بإنسان مخلوق ، وولادتهما معاً أى الكلمة مع الناسوت ، وهو الذى يعبر عنه باتحاد اللاهوت بالناسوت ، هو أمر ممتنع فى صريح العقل ، وما علم أنه ممتنع فى صريح العقل لم يجز أن يخبر به رسول ، فإن الرسل إنما تخبر بما لا يعلم بالعقل أنه ممتنع ، فأما ما يعلم بصريح العقل أنه ممتنع ، فالرسل منزهون عن الإخبار عنه .

الطريق الثانى : أن الأخبار الإلهية صريحة بأن المسيح عبد الله ليس بخالق العالم . والنصارى يقولون : هو إله تام وإنسان تام .

الطريق الثالث : فيما ذكروه ، فأما الطريق الأول فمن وجوه :

أحدها : أن يقال : المتحد بالمسيح إما أن يكون هو الذات المتصفة بالكلام أو الكلام فقط ، وإن شئت قلت : المتحد به ، إما الكلام مع الذات ، وإما الكلام بدون الذات ، فإن كان المتحد به الكلام مع الذات كان المسيح هو الأب وهو الإبن وهو روح القدس ، وكان المسيح هو الأقانيم الثلاثة .

وهذا باطل باتفاق النصارى ، وسائر أهل الملل ، وباتفاق الكتب الإلهية ، وباطل بصريح العقل كما سنذكره إن شاء الله .

وإن كان المتحد به هو الكلمة فقط فالكلمة صفة ، والصفة لا تقوم بغير موصوفها ، والصفة ليست إلهاً خالقاً ، والمسيح عندهم إله خالق ، فبطل قولهم على التقديرين ، وإن قالوا : المتحد به الموصوف بالصفة فالموصوف هو الأب ، والمسيح عندهم ليس هو الاب . وإن قالوا : الصفة فقط ، فالصفة لا تفارق الموصوف ولا تقوم بغير الموصوف ، والصفة لا تخلق ولا ترزق ، وليست الإله . والصفة عن يمين الموصوف ، والمسيح عندهم صعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه ، وأما كونه هو الأب فقط ، وهو الذات المجردة عن الصفات ، فهذا أشد استحالة ، وليس فيهم من يقول بهذا الوجه .

الثاني : أن الذات المتحدة بناسوت المسيح مع ناسوت المسيح إن كانتا بعد الاتحاد ذاتين ، وهما جوهران كما كانا قبل الاتحاد ، فليس ذلك باتحاد .

وإن قيل : صار جوهراً واحداً ، كما يقول من يقول منهم : إنهما صارا كالنار مع الحديدة ، أو اللبن مع الماء : فهذا يستلزم استحالة كل منهما ، وانقلاب صفة كل منهما بل حقيقته كما استحال الماء واللبن إذا اختلطا والنار مع الحديدة ، وحينئذ فيلزم أن يكون اللاهوت استحال وتبدلت صفته وحقيقته . والاستحالة لا تكون إلا بعدم شيء ووجود آخر ، فيلزم عدم شيء من القديم الواجب الوجود بنفسه . وما وجب قدمه استحال عدمه ، وما وجب وجوده امتنع عدمه ، فإن القديم لا يكون قديماً إلا لوجوبه بنفسه ، أو لكونه لازما للواجب بنفسه ، إذ لو لم يكن

لازماً له – بل كان غير لازم له – لم يكن قديماً بقدمه والواجب بنفسه يمتنع عدمه ، ولازمه لا يعدم إلا بعدمه ، فإنه يلزم انتفاء اللازم انتفاء الملزوم .

الوجه الثالث : أن يقال : الناس لهم في كلام الله عز وجل عدة أقوال ، وقول النصارى باطل على جميع الأقوال التي قالها الناس في كلام الله فثبت بطلانه على كل تقدير ، وذلك أن كلام الله سبحانه إما أن يكون صفة له قائماً به ، وإما أن يكون مخلوقا له بائنا عنه ؛ وإما أن يكون لا هذا ولا هذا ،بل هو مايوجد في النفوس ، وهذا الثالث هو أبعد الأقوال عن أقوال الأنبياء ،وهو قول من يقول من الفلاسفة والصابئة : إن الرب لا تقوم به الصفات وليس هو خالقاً باختياره.

ويقولون مع ذلك : إنه ليس عالماً بالجزئيات ،ولا قادراً على تغيير الأفلاك ، بل كلامه عندهم مايفيض على النفوس ، وربما سموه كلاما بلسان الحال ، وهؤلاء ينفون الكلام عن الله ، ويقولون : ليس بمتكلم ، وقد يقولون : متكلم مجازا ، لكن لما نطقت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أطلقه من دخل في الملل منهم ، ثم فسره بمثل هذا ، وهذا أحد قولي الجهمية .

والقول الثاني : أنه متكلم حقيقة لكن كلامه مخلوق خلقه في غيره وهو قول المعتزلة وغيرهم ، والقول الآخر للجهمية وعلى هذين القولين ، فليس لله كلام قائم به حتى يتحد بالمسيح ، أو يحلّ به ، والمخلوق عرض من الأعراض ليس بإله خالق ، وكثير من أهل الكتاب : اليهود ، والنصارى من يقول بهذا وهذا .

وأما القول الأول :–وهو قول سلف الأمة وأئمتها ، وجمهورها ، وقول كثير من سلف أهل الكتاب ، وجمهورهم – فإما أن يقال الكلام قديم النوع ، بمعنى أنه لم يزل متكلما بمشيئة أو قديم العين ، وإما أن يقال ليس بقديم ، بل هو حادث والأول هو القول المعروف عن أئمة السنة والحديث .

وأما القائلون بقدم العين ، فهم يقولون الكلام لا يتعلق بمشيئته وقدرته

لاعتقادهم أنه لا تحله الحوادث ، وما كان بمشيئته وقدرته لا يكون إلا حادثا ، ولهم قولان : منهم من قال القديم معنى واحد ، أو خمسة معان ، وذلك المعنى يكون أمراً ونهياً وخبراً ، وهذه صفات له لا أقسام له ، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة . ومنهم من قال : هو حروف ، أو حروف وأصوات قديمة الأعيان .

والقول الثالث : إنه متكلم بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً بذاته ، قالوا : وهو حادث ، ويمتنع أن يكون قديماً ، لامتناع كون المقدور المراد قديماً ، وهذه الطوائف بنوا أقوالهم على أن ما لم يَخْلُ عن الحوادث ، فهو حادث ، لامتناع وجود ما لا نهاية له عندهم ، وإذا امتنع ذلك تعين أن يكون لنوع الحوادث ابتداء ، كما للحادث المعين ابتداء ولم يسبق الحوادث كان معه أو بعده فيكون حادثاً ، فلهذا منع هؤلاء أن تكون كلمات الله لا نهاية لها في الأزل ، وإن كان من هؤلاء من يقول بدوام وجودها في الأبد .

وأما القول بأن كلمات الله لانهاية لها مع أنها قائمة بذاته ، فهو القول المأثور عن أئمة السلف ، وهو قول أكثر أهل الحديث ، وكثير من أهل الكلام ، ومن الفلاسفة . وهذه الأقوال قد بسط الكلام عليها في غير موضع ، والمقصود هنا أن قول النصارى باطل في كل قول من هذه الأقوال الأربعة كما تقدم بيان بطلانه على ذينك القولين،فإنه على قول الجمهور الذين يجعلون لله كلمات كثيرة إما كلمات لا نهاية لها ولم تزل ، وإما كلمات لها ابتداء ، وإذا كان له كلمات كثيرة فالمسيح ليس هو الكلمات التي لا نهاية لها وليس هو كلمات كثيرة ، بل إنما خُلقَ بكلمة من كلمات الله في الكتب الإلهية : القرآن والتوراة .

إنه يخلق الأشياء بكلماته .

قال تعالى في قصة بشارة مريم بالمسيح : ﴿ قالت ربِّ أنَّى يكون لي ولدٌ ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما

يقول له كن فيكون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٤٧] .

وقال أيضاً : ﴿ إن مثلَ عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٩] .

وقال : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ ، [سورة مريم : ٣٤ ، ٣٥] .

وقد أخبر الله فى القرآن بخلقه للأشياء بكلماته فى غير موضع ، بقوله ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ وفى التوراة : [ليكن يوم الأحد ، ليكن كذا ، ليكن كذا] .

وأيضاً فعلى قول هؤلاء وعلى قول من يجعل كلامه إما معنى واحدا وإما خمسة معانى ، وإما حروف وأصوات هى شىء واحد فكلهم يقولون : إن الكلام صفة قائمة بالموصوف لا يتصور أن يكون جوهراً قائماً بنفسه ، ولا يتصور أن يكون خالقاً ، ولا للكلام مشيئة ، ولا جوهر آخر غير جوهر المتكلم ، ولا يتحد بغير المتكلم ، بل جمهورهم يقولون : إنه لا يحل أيضاً بغير المتكلم .

ومن قال بالحلول منهم فلا يقول : إن الحال جوهر ، ولا إله خالق ، فتبين أن ما قاله النصارى باطل على جميع الأقوال التى قالها الناس كلام الله مع أن أكثر هذه الأقوال خطأ ، ولما كان قول النصارى فساده أظهر للعقلاء كان الخطأ الذى فى أكثر هذه الأقوال قد خفى على العقلاء الذين قالوها ، ولم يخف عليهم فساد قول النصارى .

وأيضاً فالذين قالوا بالحلول من الغلاة الذين يكفرهم المسلمون ، كالذين يقولون بحلوله فى بعض أهل البيت أو بعض المشايخ ، هم وإن كانوا كفاراً شاركوا النصارى فى الحلول ، ولكن لم يقولوا إن الكلمة التى حلت هى الإله الخالق ، فيتناقضون تناقضاً ظاهراً مثل ما فى قول النصارى .

ومن التناقض البين ماليس فى قول هؤلاء ، وإن كان فى بعض الوجوه تقولهم شرٌّ من قول النصارى .

والوجه الرابع : أن يقال لو كان المسيح نفس كلمة الله فكلمة الله ليست هى الإله الخالق للسموات والأرض ، ولا هى تغفر الذنوب ، وتجزى الناس بأعمالهم ، سواء كانت كلمة صفة له أم مخلوقة له كسائر صفاته ومخلوقاته ، فإن علم الله وقدرته وحياته لم تخلق العالم ، ولا يقول أحد : ياعلم الله اغفر لى ، وياقدرة الله توبى علىّ ، وياكلام الله ارحمنى ، ولا يقول يا توراته أو يا إنجيله أو يا قرآنه اغفرلى وارحمنى ، وإنما يدعو الله سبحانه ، وهو سبحانه متصف بصفات الكمال ، فكيف والمسيح ليس هو نفس الكلام ؟

فإن المسيح جوهر قائم بنفسه ، والكلام صفة قائمة المتكلم ، وليس هو نفس الرب المتكلم ، فإن الرب المتكلم هو الذى يسمونه الأب ، والمسيح ليس هو الأب عندهم ، بل الإبن ، فضلوا فى قولهم من جهات منها جعل الأقانيم ثلاثة . وصفات الله لا تختص بثلاثة .

ومنها : جعل الصفة خالقة ، والصفة لا تخلق .

ومنها : جعلهم المسيح نفس الكلمة ، والمسيح خُلِقَ بالكلمة ، فقيل له : كن فكان ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى تفسير ذلك ، وإنما خُصَّ المسيح بتسميته كلمة الله دون سائر البشر لأن سائر البشر خلقوا على الوجه المعتاد فى المخلوقات بخلق الواحد من ذرية آدم من نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم ينفخ فيه الروح ، وخلقوا من ماء الأبوين : الأب والأم .

والمسيح عليه السلام لم يخلق من ماء رجل ، بل لما نفخ روح القدس فى أمه حبلت به ، وقال الله له : كن فكان ، ولهذا شبهه الله بآدم فى قوله : ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ . فإن

آدم عليه السلام خلق من تراب وماء ، فصار طينا ثم أيبس الطين ، ثم قال له : كن فكان ، وهو حين نفخ الروح فيه صار بشراً تاماً ، لم يحتج بعد ذلك إلى ما احتاج إليه أولاده بعد نفخ الروح ، فإن الجنين بعد نفخ الروح يكمل خلق جسده فى بطن أمه ، فيبقى فى بطنها نحو خمسة أشهر ، ثم يخرج طفلا يرتضع ، ثم يكبر شيئاً بعد شيء ، وآدم عليه السلام حين خلق جسده قيل له كن فكان بشراً تاماً بنفخ الروح فيه ، ولكن لم يسم كلمة الله لأن جسده خلق من التراب والماء ، وبقى مدة طويلة ـ يقال : أربعين سنة ـ فلم يكن خلق جسده إبداعياً فى وقت واحد ، بل خلق شيئاً فشيئاً ، وخَلْقُ الحيوان من الطين معتاد فى الجملة .

وأما المسيح عليه السلام فخلق جسده خلقاً إبداعياً بنفس نفخ روح القدس فى أمه ، قيل له : كن فكان ، فكان له من الاختصاص ـ بكونه خلق بكلمة الله ـ مالم يكن لغيره من البشر ، ومن الأمر المعتاد فى لغة العرب وغيرهم أن الاسم العام إذا كان له نوعان خصّت أحد النوعين باسم وأبقت الاسم العام مختصاً بالنوع كلفظ الدابة والحيوان ، فإنه عام فى كل مايدب ، وكل حيوان ، ثم لما كان للآدمى اسم يخصه بقى كلفظ الحيوان يختص به البهيم .

ولفظ الدابة يختص به الخيل أو هى والبغال والحمير ونحو ذلك وكذلك لفظ الجائز والممكن ، وذوى الأرحام ، وأمثال ذلك ، فلما كان لغير المسيح مايختص به ، أبقى اسم الكلمة العامة مختصاً بالمسيح .

الطريق الثانى : أن ماذكروه حجة عليهم ، فإن الله إذا لم يكلم أحداً من الأنبياء إلا وحياً أو من وراء حجاب . فالمسيح عيسى ابن مريم يجب أن لا يكلمه إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل إليه رسولا .

وقوله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ﴾ ـ

يعم كل بشر : المسيح وغيره ، وإذا امتنع أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب فامتناع أن يتحد به ، أو يحل فيه أولى وأحرى فإن ما اتحد به ، وحل فيه كلمة من غير حجاب بين اللاهوت والناسوت ، وهم قد سلموا أن الله لا يكلم بشراً إلا من وراء حجاب .

الوجه الثالث : أن قوله ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ﴾ يقتضي أن يكون الحجاب حجاباً يحجب البشر كما حجب موسى ، فيقتضي ذلك أنهم لا يرونه في الدنيا ، وإن كلمهم كما أنه كلم موسى ولم يره موسى ، بل سأل الرؤية فقال : ﴿ رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلّى ربّه للجبل جعله دكا وخر موسى صَعِقاً فلما أفاق قال سبحانك تُبتُ إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ ، [سورة الأعراف : ١٤٣] .

قيل : [إنا أول من آمن أنه لا يراك أحد في الدنيا] ، وعندهم في التوراة أن الإنسان لا يمكنه أن يرى الله في الدنيا فيعيش ، وكذلك قال عيسى لما سألوه عن رؤية الله فقال : [إن الله لم يره أحد قط] . وهذا معروف عندهم ، وإذا كان كذلك فلا بد أن يكون الحجاب الحاجب للبشر ليس هو من البشر ، وهذا يبطل قول النصارى فإنهم يقولون : إن الرب احتجب بحجاب بشرى ، وهو الجسد الذي ولدته مريم فاتخذه حجاباً ، وكلم الناس من ورائه .

والقرآن يدل على أن الحجاب ليس من البشر .

يبين هذا الوجه الرابع : وهو أن ذلك الجسد الذي ولدته مريم هو من جنس أجسام بني آدم ، فإن جاز أن يتحد به ، ويحل فيه ، ويطيق الجسد البشرى ذلك في الدنيا بما يجعله الله فيه من القوة جاز أن يتحد بغيره من الأجسام بما يجعله فيه من القوة ، وإذا جاز أن يتحد به جاز أن يكلمها بغير حجاب بينه وبينها بطريق الأولى والأحرى .

وهذا خلاف ما ذكروه وخلاف القرآن، فتبين أن نفى الأنبياء لأن يراه المرء فى الدنيا هو نفى لماسته ببشر بطريق الأولى والأحرى . والناسوت المسيحى هو بشر فإذا لم يمكنه أن يرى الله ، فكيف يمكنه أن يتحد به ، ويماسه ويصير هو وإياه كاللبن والماء ، والنار والحديد ، أو كالروح والبدن ؟

والوجه الخامس : أنه من المعلوم أن رؤية الآدمى له أيسر من اتحاده به ، وحلوله فيه ، وأولى بالإمكان فإذا كانت الرؤية فى الدنيا قد نفاها الله ، ومنعها على ألسن رسله موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه ، فكيف يجوز اتصاله بالبشر واتحاده به .

الوجه السادس : أنه لو كان حلوله فى البشر مما هو ممكن وواقع لم يكن لاختصاص واحد من البشر بذلك دون من قبله وبعده ، فإن القدرة شاملة والمقتضى -وهو وجود الله وحاجة الخلق- موجود، ولهذا لما كانت الرسالة ممكنة أرسل من البشر غير واحد ، ولما كان سماع كلامه للبشر ممكناً سمع كلامه غير واحد . ورؤيته فى الدنيا بالأبصار لم تقع لأحد باتفاق علماء المسلمين ، لكن لهم فى النبى صلى الله عليه وسلم قولان ، والذى عليه أكابر العلماء وجمهورهم أنه لم يره بعينه ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة .

والخلة لما كانت ممكنة اتخذ إبراهيم خليلا ، واتخذ محمداً أيضاً خليلا كما فى الصحيحين من غير وجه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لو كنت متخذاً - من أهل الأرض - خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله » يعنى نفسه .

الوجه السابع ، قولهم : وإذا كانت اللطائف لا تظهر إلا فى الكثائف مثل الروح وغيرها ، فكلمة الله التى بها خلقت الكثائف تظهر فى غير كثيف كلا ؟

فيقال : لم ظهور اللطائف فى الكثائف كلام مجمل ، فإن أردتم أن روح الإنسان تظهر فى جسده ، أو الجنى يتكلم على لسان المصروع ونحو ذلك فليس هذا مما نحن فيه ؛ وإن أردتم أن الله تعالى نفسه يحل فى البشر، فهذا محل النزاع فأين الدليل عليه ؟ وأنتم لم تذكروا إلا مايدل على نقيض ذلك .

والوجه الثامن : أن هذا أمر لم يدل عليه عقل ولا نقل ، ولا نطق نبى من الأنبياء بأن الله يحل فى بشر ، ولا ادعى صادق قط حلول الرب فيه، وإنما يدعى الكذابون كالمسيح الدجال الذى يظهر فى آخر الزمان، ويدعى الإلهية فينزل الله تبارك وتعالى عيسى ابن مريم مسيح الهدى فيقتل مسيحُ الهدى ـ الذى ادعيت فيه الإلهية بالباطل ـ المسيح الدجال الذى ادعى الإلهية بالباطل ، ويبين أن البشر لا يحل فيه رب العالمين .

ولهذا لما أنذر النبى صلى الله عليه وسلم بالمسيح الدجال ، وقال « ما من نبى إلا وقد أنذر أمته المسيح الدجال حتى نوح أنذر قومه به » .

وذكر النبى صلى الله عليه وسلم له ثلاث دلائل ظاهرة تظهر لكل مسلم تبيِّن كذبَه .

أحدها : قوله مكتوب بين عينيه كافر « ك ف ر » ويقرأه كل مؤمن : قارىء وغير قارىء .

الثانى قوله : واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت . فبين أن الله لا يراه أحد فى الدنيا بعينه ، وكل بشر فإنه يرى فى الدنيا بالعين ، فعلم أن الله لا يتجسد ببشر .

الثالث : قوله : إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور . ودلائل نفى الربوبية عنه كثيرة ، ولكن لما كان حلول اللاهوت فى البشر واتحاده به مذهباً ضل به طوائف كثيرون من بنى آدم النصارى وغيرهم ، وكان المسيح الدجال يأتى بخوارق عظيمة ، والنصارى احتجوا على إلهية المسيح بمثل ذلك .

وذكر النبي صلى الله عليه وسلم من علامات كذبه أموراً ظاهرة لا يحتاج فيها إلى بيان موارد النزاع التي ضل فيها خلق كثير من الآدميين ، فإن كثيراً من الناس ، بل أكثرهم تدهشهم الخوارق حتى يصدقوا صاحبها قبل النظر في إمكان دعواه ، وإذا صدقوه صدقوا النصارى في دعوى إلهية المسيح ، وصدقوا أيضاً من ادعى الحلول والاتحاد في بعض المشايخ ، أو بعض أهل البيت أو غيرهم من أهل الإفك والفجور .

وبهذا يظهر الجواب عما يورده بعض أهل الكلام كالرازي على هذا الحديث حيث قالوا : دلائل كون الدجال ليس هو الله ظاهرة ، فكيف يحتج النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور ؟ وهذا السؤال يدل على جهل قائله بما يقع فيه بنو آدم من الضلال ، وبالأدلة البينة التي تبين فساد الأقوال الباطلة ، وإلا فإذا كان بنو إسرائيل في عهد موسى ظنوا أن العجل هو إله موسى ، فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى ، وظنوا أن موسى نسيه.

والنصارى مع كثرتهم يقولون: ان المسيح هو الله ، وفي المنتسبين الى القبلة خلق كثير يقولون : ذلك كثير في المشايخ ، أو أهل البيت حتى إن كثيراً من أكابر شيوخ المعرفة والتصوف يجعلون هذا نهاية التحقيق والتوحيد ، وهو أن يكون الموحِّد هو الموحَّد وينشدون :

ما وحَّد الواحد من واحد إذ كل من وحده جاحد
توحيد من يخبر عن نعته عارية أبطلها الواحد
توحيده إياه توحيده ونعت من ينعته لاحد

فكيف يستبعد مع إظهار الدجال هذه الخوارق العظيمة أن يعتقد فيه أنه الله ، وهو يقول : أنا الله ، وقد اعتقد ذلك فيمن لم يظهر فيه مثل خوارقه من الكذابين ، وفيمن لم يقل : أنا الله كالمسيح ، وسائر الأنبياء والصالحين .

الوجه العاشر : قولهم فكلمة الله التي بها خلقت الطائف تظهر في غير

كثيف كلاً . فيقال لهم : كلمة الله التى يدّعون ظهورها فى المسيح ، أهى كلام الله الذى هو صفته أو ذات الله المتكلمة أو مجموعهما ؟ فإن قلتم : الظاهر فيه نفس الـكلام فهذا يراد به شيئان :

إن أريد به أن الله أنزل كلامه على المسيح ، كما أنزله على غيره من الرسل، فهذا حق اتفق عليه أهل الإيمان ، ونطق به القرآن .

وإن أريد به أن كلام الله فارق ذاته وحلّ فى المسيح أو غيره ، فهو باطل مع أن هذا لا ينفع النصارى ، فإن المسيح عندهم إله خالق السموات والأرض ، وهو عندهم ابن آدم وخالق آدم ، وابن مريم وخالق مريم ، ابنها بناسوته وخالقها بلاهوته . وإن أرادوا بظهور الـكلمة ظهور ذات الله أو ظهور ذاته وكلامه فى الـكثيف الذى هو الإنسان ، فهذا أيضاً يراد به ظهور نوره فى قلوب المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ إلى قوله : ﴿ كوكب درىّ ﴾ الآية .

وكما ظهر الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران ، وكما تجلى لإبراهيم، كما ذكره فى التوراة ، فهذا لا يختص بالمسيح ، بل هو كغيره كما هو له .

وإن أرادوا أن ذات الرب حلّت فى المسيح ، أو فى غيره فهذا محل النزاع ، فأين دليلهم على إمكان ذلك ، ثم وقوعه ؟ مع أن جماهير العقلاء من أهل الملل وغيرهم يقولون : هذا غير واقع ، بل هو ممتنع .

الوجه الحادى عشر : قولهم : فـكلمة الله التى بها خلقت اللطائف تظهر فى غير كثيف كلاً ، كلام باطل . فإن ظهور ما يظهر من الأمور الإلهية إذا أمكن ظهوره فظهوره فى اللطيف أولى من ظهوره فى الـكثيف ، فإن الملائـكة تنزل بالوحى على الأنبياء عليهم السلام ، وتتلقى كلام الله من الله، وتنزل به على الأنبياء عليهم السلام ، فيـكون وصول كلام الله إلى الملائـكة قبل وصوله

إلى البشر ، وهم الوسائط كما قال تعالى : ﴿ أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ﴾ . والله تعالى أيد رسله من البشر حتى أطاقوا التلقى عن الملائكة ، وكانت الملائكة تأتيهم أحيانا فى غير الصورة البشرية ، وأحيانا فى الصورة البشرية ، فكان ظهور الأمور الإلهية باللطائف ووصولها إليهم أولى منه بالكثائف ، ولو جاز أن يتحد الرب سبحانه بحىّ من الأحياء ، ويحل فيه ، لكان حلوله فى ملك من الملائكة واتحاده به أولى من حلوله واتحاده بواحد من البشر .

الوجه الثانى عشر : أن الناسوت المسيحى عندهم الذى اتحد به هو البدن والروح معاً ، فإن المسيح كان له بدن وروح ، كما لسائر البشر ، واتحد به عندهم اللاهوت ، فهو عندهم اسم يقع على بدن وروح آدميين وعلى اللاهوت ، وحينئذ فاللاهوت على رأيهم إنما اتحد فى لطيف وهو الروح ، وكثيف وهو البدن لم يظهر فى كثيف فقط ، ولولا اللطيف الذى كان مع الكثيف ، وهو الروح لم يكن للكثيف فضيلة ولا شرف .

الوجه الثالث عشر : أنهم يشبهون اتحاد اللاهوت بالناسوت باتحاد الروح بالبدن كما شبهوا هنا ظهوره فيه بظهور الروح فى البدن ، وحينئذ فمن المعلوم أن ما يصيب البدن من الآلام تتألم به الروح ، وما تتألم به الروح يتألم به البدن ، فيلزمهم أن يكون الناسوت لما صلب وتألم وتوجع الوجع الشديد كان اللاهوت أيضاً متألماً متوجعاً . وقد خاطبت بهذا بعض النصارى فقال لى : الروح بسيطة ، أى لا يلحقها ألم ، فقلت له : فما تقول فى أرواح الكفار بعد الموت أمنعّمة أو معذّبة ؟ فقال : هى فى العذاب فقلت : فعلم أن الروح المفارقة تنعم وتعذب ، فإذا شبهتم اللاهوت فى الناسوت بالروح فى البدن لزم أن تتألم إذا تألم الناسوت كما تتألم الروح إذا تألم البدن ، فاعترف هو وغيره بلزوم ذلك .

الوجه الرابع عشر : أن قولهم : وإذا كانت اللطائف لا تظهر إلا فى

الكثائف فكلمة الله لا تظهر إلا فى كثيف كلاً تركيب فاسد لا دلالة فيه ، وإنما يدل إذا بينوا أن كل لطيف يظهر فى كثيف ، ولا يظهر فى غيره حتى يقال : فلهذا ظهر الله فى كثيف ، ولم يظهر فى لطيف ، وإلا فإذا قيل : إنه لا يحل فى لطيف ، ولا كثيف ، أو قيل إنه يحل فيهما بطل قولهم بوجوب حلوله فى المسيح الكثيف ، دون اللطيف ، وهم لم يؤلفوا الحجة تأليفاً منتجاً ، ولا دلوا على مقدماتها بدليل ، فلا أتوا بصورة الدليل ، ولا مادته ، بل مغاليط لا تروج إلا على جاهل يقلدهم .

ولا يلزم من حلول الروح فى البدن أن يحل كل شىء فى البدن ، بل هذه دعوى مجردة وأرواح بنى آدم تظهر فى أبدانهم ، ولا تظهر فى أبدان البهائم ، بل ولا فى الجن . والملائكة تتصور فى صورة الآدميين ، وكذلك الجن والإنسان لا يظهر فى غير صورة الإنسان فأى دليل من كلامهم على أن الرب يحل فى الإنسان الكثيف ، ولا يحل فى اللطيف ؟

والقوم شرعوا يحتجون على تجسيم كلمة الله الخالقة فقالوا : وأما تجسيم كلمة الله الخالقة بإنسان مخلوق وولادتهما معا ، أى الكلمة مع الناسوت فإن الله لم يكلم أحداً من الأنبياء إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، وليس فيما ذكروه قط دلالة لا قطعية ولا ظنية على تجسيم كلمة الله الخالقة ، وولادتها مع الناسوت .

الوجه الخامس عشر : أنهم قالوا : وأما تجسيم كلمة الله الخالقة ، ثم قالوا : فكلمة الله التى بها خلقت اللطائف فتارة يجعلونها خالقة ، وتارة يجعلونها مخلوقا بها ، ومعلوم أن الخالق ليس هو المخلوق به والمخلوق به ليس هو الخالق فإن كانت الكلمة خالقة ، فهى خلقت الأشياء ، ولم تخلق الأشياء بها ، وإن كانت الأشياء خلقت بها ، فلم تخلق الأشياء ، بل خلقت الأشياء بها ، ولو قالوا : إن الأشياء خلقت بها بمعنى أن الله إذا أراد شيئاً فإنما يقول له : كن فيكون ، لكان هذا حقا لكنهم يجعلونها خالقة ، مع قولهم بما يناقض ذلك .

الوجه السادس عشر : أن يقال لهم : إذا كان الله لم يخاطب بشراً إلا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ، فتكليمه للبشر بالوحى ومن وراء حجاب ، كما كلم موسى ، وبإرسال ملك كما أرسل الملائكة ، إما أن يكون كافيا فى حصول مراد الرب من الرسالة إلى عباده ، أو ليس كافيا ، بل لابد من حلوله نفسه فى بشر ، فإن كان ذلك كافيا أمكن أن يكون المسيح مثل غيره فيوحى الله إليه أو يرسل إليه ملكا فيوحى بإذن الله ما يشاء ، أو يكلمه من وراء حجاب كما كلم موسى ، وحينئذ فلا حاجة به إلى اتحاده ببشر مخلوق . وإن كان المتكلم ليس كافيا وجب أن يتحد بسائر الأنبياء ، كما اتحد بالمسيح فيتحد بنوح و إبراهيم وموسى وداود وغيرهم ، يبين هذا :

الوجه السابع عشر : وهو أنه من المعلوم أن الأنبياء الذين كانوا قبل المسيح أفضل من عوام النصارى الذين كانوا بعد المسيح ، وأفضل من اليهود الذين كذبوا المسيح ، فإذا كان الرب قد يفضل باتحاده فى المسيح حتى كلم عباده بنفسه فيتحد بالمسيح محتجبا ببدنه الكثيف ، وكلم بنفسه اليهود المكذبين للمسيح وعوام النصارى ، وسائر من كلمه المسيح فكان أن يكلم من هم أفضل من هؤلاء من الأنبياء والصالحين بنفسه أولى وأحرى مثل من يتحد بإبراهيم الخليل ، فيكلم إسحق و يعقوب ولوطا محتجبا ببدن الخليل ، أو يتحد بيعقوب فيكلم أولاده أو غيرهم محتجبا ببدن يعقوب ، أو يتحد بموسى بن عمران فيكلم هارون ويوشع بن نون وغيرهما محتجبا ببدن موسى ، فإذا هو كان سبحانه لم يفعل ذلك ، إما لامتناع ذلك ، وإما لأن عزته وحكمته أعلى من ذلك مع عدم الحاجة إلى ذلك ، علم أنه لا يفعل ذلك فى المسيح بطريق الأولى والأحرى .

الوجه الثامن عشر : أنه إذا أمكنه أن يتحد ببشر فاتحاده بملك من الملائكة أولى وأحرى وحينئذ فقد كان اتحاده بجبريل الذى أرسله إلى الأنبياء أولى من اتحاده ببشر يخاطب اليهود ، وعوام النصارى .

فصل فيما ادعوه من ظهوره فى عيسى ابن مريم

قالوا : ولذلك ظهر فى عيسى ابن مريم ، إذ الإنسان أجلّ ما خلقه الله ، ولهذا خاطب الخلق ، وشهدوا منه ما شاهدوا .

فيقال : إن ادعيتم ظهوره فى عيسى كما ظهر فى إبراهيم وموسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه ، وكما يظهر فى بيوته التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، وذلك بظهور نوره ومعرفته ، وذكر أسمائه وعبادته ، ونحو ذلك من حلول ذاته فى البشر ولا اتحاده به ، فهذا أمر مشترك بين المسيح وغيره ؛ فلا اختصاص للمسيح بهذا ، وهذا أيضاً قد يسمى حلولا ، وعندهم أن الله يحل فى الصالحين ، وهذا مذكور عندهم فى بعض الكتب الإلهية ، كما فى كتبهم فى المزمور الرابع من الزبور .

يقول داود عليه السلام فى مناجاته لربه : [وليفرح المتوكلون عليك إلى الأبد ، ويبتهجون ، وتحل فيهم ويفتخرون] فأخبر أنه يحل فى الصالحين المذكورين ، فعلم أن هذا لا اختصاص للمسيح به ، وليس المراد بهذا باتفاقهم ، واتفاق المسلمين أن ذات الله نفسه تتحد بالبشر ، ويصير اللاهوت والناسوت كالنار والحديد ، والماء واللبن ، ونحو ذلك مما يمثلون به الاتحاد ، بل هذا يراد به حلول الإيمان به ومعرفته ، ومحبته وذكره وعبادته ، ونوره وهداه .

وقد يعبر عن ذلك بحلول المثال العلمى ، كما قال تعالى : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض ﴾ ، [سورة الأنعام : ٣] . ﴿ وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ﴾ ، [سورة الروم : ٢٧] .

فهو سبحانه له المثل الأعلى فى قلوب أهل السموات وأهل الأرض .

ومن هذا الباب ما يرويه النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه قال : « يقول الله : أنا مع عبدى ما ذكرنى ، وتحركت بى شفتاه » فأخبر أن شفتيه تتحرك به أى

باسمه ، وكذلك قوله فى الحديث الصحيح : « عبدى مرضت فلم تعدنى ، فيقول العبد : رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلو عدته لوجدتنى عنده » .

فقال : « لوجدتنى عنده » ولم يقل : لوجدتنى إياه ، وهو عنده أى فى قلبه ، والذى فى قلبه المثال العلمى .

وقال تعالى : « عبدى جعت فلم تطعمنى ، فيقول : وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدى فلانا جاع ، فلو أطعمته لوجدت ذلك عندى » ، ولم يقل : لوجدتنى قد أكلته .

وكذلك قوله فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى « من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » .

وفى رواية « فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وماترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته » .

وهذا الحديث قد يحتج به القائلون بالحلول العام ، أو الاتحاد العام ، أو وحدة الوجود ، وقد يحتج به من يقول : بالخاص من ذلك ، كأشباه النصارى .

والحديث حجة على الفريقين ، فإنه قال : « من عادى وليا فقد آذنته بالحرب » فأثبت ثلاثة : وليا له ، وعدوا يعادى وليا له ، وميز بين نفسه وبين وليه ، وعدو وليه ، فقال « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » ولكن دل ذلك على أن وليه الذى والاه فصار يحب ما يحب ، ويبغض ما يبغض ، ويوالى من يوالى ، ويعادى من يعادى ، فيكون الرب مؤذنا بالحرب لمن عاداه ، بأنه معاد لله .

ثم قال تعالى : « وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه » ففرق بين العبد المتقرب ، والرب المتقرب إليه ، ثم قال : « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » فبين أنه يحبه بعد تقربه بالنوافل والفرائض .

ثم قال : « فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، و بصره الذى يبصر به ، و يده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » وعند أهل الحلول والاتحاد العام أو الوحدة هو صدره و بطنه وظهره ورأسه وشعره ، وهو كل شىء ، أو فى كل شىء قبل التقرب و بعده ، وعند الخاص صار هو ، وهو كالنار والحديد ، والماء واللبن لا يختص بذلك آلة الإدراك والفعل .

ثم قال تعالى : « فبى يسمع ، و بى يبصر ، و بى يبطش ، و بى يمشى » وعلى قول هؤلاء ، الرب هو الذى يسمع و يبصر و يبطش و يمشى ، والرسول إنما قال : « فبى » ثم قال « ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » فجعل العبد سائلا مستعيذاً ، والرب مسئولا مستعاذا به ، وهذا يناقض الاتحاد ، وقوله « فبى يسمع » مثل قوله « ما تحركت به شفتاه » يريد به المثال العلمى .

وقول الله : « فيكون الله فى قلبه » أى معرفته ومحبته وهداه وموالاته ، وهو المثال العلمى ، فبذلك الذى فى قلبه يسمع و يبصر و يبطش و يمشى .

والمخلوق إذا أحب المخلوق أو عظمه أو أطاعه يعبر عنه بمثل هذا ، فيقول : أنت فى قلبى وفى فؤادى ، وما زلت بين عينى ، ومنه قول القائل :

مثالك فى عينى وذكراك فى فمى ومثواك فى قلبى فأين تغيب ؟

وقول الآخر :

ومن عجبى أنى أحن إليهم وأسأل عنهم من لقيت وهم معى
وتطلبهم عينى وهم فى سوادها ويطلبهم قلبى وهم بين أضلعى

ومثل هذا كثير مع علم العقلاء أن نفس المحبوب المعظم هو فى نفسه ليست ذاته فى عين محبه ولا فى قلبه ، ولكن قد يشتبه هذا بهذا حتى يظن الغالطون أن

نفس المحبوب المعبود فى ذات المحب العابد .

ولذلك غلط بعض الفلاسفة حتى ظنوا أن ذات المعلوم المعقول يتحد بالعالم العاقل ، فجعلوا المعقول والعقل والعاقل شيئاً واحداً ، ولم يميزوا بين حلول مثال المعلول ، و بين حلول ذاته ، وهذا يكون لضعف العقل وقوة سلطان المحبة والمعرفة ، فيغيب الإنسان بمعبوده عن عبادته و بمحبوبه عن محبته و بمشهوده عن شهادته ، و بمعروفه عن معرفته فيفنى من لم يكن عن شهود العبد لا أنه نفسه يعدم و يفنى من لم يزل فى شهوده ، ومن هذا المقام إذا غلط قد يقول مسلما مثل ما يحكى عن أبى يزيد البسطامى : سبحانى سبحانى ، أو مافى الجبة إلا الله . وفى هذا يذكر حكاية ، وهو أن شخصاً كان يحب آخر ، فألقى المحبوب نفسه فى ماء فألقى المحب نفسه خلفه ، فقال : أنا وقعت فلم وقعت أنت ؟ فقال : غبت بك عنى ، فظننت أنك أنى . فهذا العبد المحب لما استولى على قلبه سلطان المحبة صار قلبه مستغرقا فى محبوبه ، لا يشهد قلبه غير مافى قلبه وغاب عن شهود نفسه وأفعاله فظن أنه هو نفس المحبوب ، وهذا أهون من أن يظن أن ذات المحبوب نفسه .

فهذا الظن لاتحاد الذات أو حلولها ظن غالط وقع فيه كثير من الناس ، فالذين قالوا : إن المسيح أو غيره من البشر هو الله ، أو أن الله حال فيه قد يكون غلطتهم من هذا الجنس لما سمعوا كلاما يقتضى أن الله فى ذات الشخص ، وجعلوا فعل هذا فعل هذا ، ظنوا ذاك اتحاد الذات وحلولها .

و إنما المراد أن معرفة الله فيه ، واتحاد المأمور به ، والمنهى عنه ، والموالى والمعادى كقوله تعالى : ﴿إنّ الذين يُبايعونكَ إنما يُبايعون الله﴾ [سورة الفتح : ١٠] . وقوله : ﴿ مَن يُطع الرسولَ فقد أطاعَ الله ﴾ ، [سورة النساء : ٨٠] .

وليس ذلك لأن الرسول هو الله ولا لأن الله نفسه حال فى الرسول ، بل لأن الرسول أمر بما يأمر الله به ، و ينهى عما ينهى الله عنه ، ويحب ما يحبه الله ، و يبغض ما يبغضه الله ، و يوالى أولياء الله ، و يعادى أعداء الله .

فمن بايعه على السمع والطاعة ، فإنما بايع الله على السمع والطاعة ، ومن أطاعه فإنما أطاع الله .

وكذلك المسيح ، وسائر الرسل إنما يأمرون بما يأمر الله به ، وينهون عما نهى الله عنه ويوالون أولياء الله ، ويعادون أعداء الله ، فمن أطاعهم فقد أطاع الله ، ومن صدقهم فقبل منهم ما أخبروا به ، فقد قبل عن الله ، ومن والاهم فقد والى الله ، ومن عاداهم وحاربهم فقد عادى الله وحارب الله ، ومن تصور هذه الأمور تبين له أن لفظ الحلول قد يعبر بها عن معنى صحيح ، وقد يعبر بها عن معنى فاسد .

وكذلك حلول كلامه فى القلوب ، ولذلك كره أحمد بن حنبل الكلام فى لفظ حلول القرآن فى القلوب ، كما ذكر فى غير هذا الموضع .

ومما يوضح هذا أن الشىء له وجود فى نفسه هو ، وله وجود فى المعلوم والأذهان ووجود فى اللفظ واللسان ووجود فى الخط والبيان : ووجود عينى شخصى ، وعلمى ولفظى ، ورسمى ، وذلك كالشمس مثلا فلها تحقق فى نفسها ، وهى الشمس التى فى السماء ، ثم يتصور بالقلب الشمس ، ثم ينطق اللسان بلفظ الشمس ، ويكتب بالقلم الشمس .

والمقصود بالكتابة مطابقة اللفظ ، وباللفظ مطابقة العلم ، وبالعلم مطابقة المعلوم ، فإذا رأى الإنسان فى كتاب خط الشمس أو سمع قائلا يذكر قال : هذه الشمس قد جعلها الله سراجاً وهاجاً ، وهذه الشمس تطلع من المشرق وتغرب فى المغرب ، فهو يشير إلى ما سمعه من اللفظ ورآه من الخط ، وليس مراده نفس اللفظ والخط ، فإن ذلك ليس هو الشمس التى تطلع وتغرب وإنما مراده ما يقصد بالخط واللفظ ويراد بهما ، وهو المدلول المطابق لها ، وكذلك قد يرى اسم الله مكتوبا فى كتاب ، ومعه اسم صنم ، فيقول : آمنت بهذا ، وكفرت بهذا ، ومراده أنه مؤمن بالله كافر بالصنم ، فيشير إلى اسمه المكتوب ومراده المسمى بهذا الاسم ، وكذلك إذا سمع من يذكر أسماء الله الحسنى قال : هذا رب العالمين ، ومراده المسمى بتلك

الأسماء ، ومن هذا قول أنس بن مالك : كان نقش خاتم النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أسطر : محمد رسول الله ، محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر .

ومراده بهذه الأسماء الخط لهذا وهذا ، وهذا لا اللفظ ولا المسمى ، ومما يشبه هذا ما يرى في المرآة أو الماء ، مثل أن يرى الشمس أو غيرها في ماء أو مرآة فيشار إلى المرئي ، فيقال : هذا الشمس ، وهذا وجهي أو وجه فلان ، وليس مراده أن نفس الشمس أو وجهه أو وجه فلان حلّ في الماء أو المرآة ، ولكن لما كان المقصود بتلك الرؤية هو الشمس وهو الوجه ذكره ، ثم قد يقال : رآه رؤية مقيدة في الماء ، أو المرآة ، وقد يقال : رآه بواسطة الماء والمرآة ، وقد يقال : رأى مثاله وخياله المحاكي له .

ولكن المقصود بالرؤية هو نفسه ، ومثل هذا كثير .

ومعلوم أن ما في القلوب من المثال العلمي المطابق للمعلوم أقرب إليه من اللفظ ، واللفظ أقرب من الخط ، فإذا كان يشار إلى اللفظ والخط ، والمراد هو نفسه ، وإن لم يكن الخط واللفظ هو ذاته ، بل به ظهر وعرف فلأن يشار إلى ما في القلب ، ويراد به المعروف الذي ظهر للقلب وتجلى للقلب ، وصار نوره في القلب بطريق الأولى .

والعقلاء إنما تتوجه قلوبهم إلى المقصود المراد دون الوسائل ، ويعبرون بعبارات تدل على ذلك لظهور مرادهم بها ، كما يقولون لمن يعرف علم غيره ، أو لمن يأمر بأمره ، ويخبر بخبره ، هذا فلان ، فإذا كان مطلوبهم علم عالم أو طاعة أمير فجاء نائبه القائم مقامه في ذلك ، قالوا هذا فلان ، أي المطلوب منه هو مع هذا ، فلاتحاد المقصود بهما يعبرون عن أحدهما بلفظ الآخر .

كما يقال : عكرمة : هو ابن عباس ، وأبو يوسف : هو أبو حنيفة ، ومن هذا الباب ما يذكر عن المسيح عليه السلام أنه قال : [أنا وأبي واحد من رآني ، فقد رأى أبي] .

وقوله تعالى فيما حكاه عنه رسوله : « عبدي مرضت فلم تعدني ، عبدي جعت فلم تطعمني » ، ويشبهه قوله : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ ،

[سورة الفتح : ١٠] . فينبغى أن يعرف هذا النوع من الكلام ، فإنه تنحل به إشكالات كثيرة ، فإن هذا موجود فى كلام الله ورسله وكلام المخلوقين ، فى عامة الطوائف ، مع ظهور المعنى ومعرفة المتكلم والمخاطب أنه ليس المراد أن ذات أحدهما اتحدت بذات الآخر .

بل أبلغ من ذلك يطلق لفظ الحلول والاتحاد ، ويراد به معنى صحيح ، كما يقال فلان وفلان بينهما اتحاد ، إذا كانا متفقين فيما يحبان ويبغضان ، ويواليان ويعاديان ، فلما اتحد مرادهما ومقصودهما صار يقال هما متحدان ، وبينهما اتحاد ، ولا يعنى بذلك أن ذات هذا اتحدت بذات الآخر ، كاتحاد النار والحديد ، والماء واللبن ، أو النفس والبدن ، وكذلك لفظ الحلول ، والسكنى ، والتخلل وغير ذلك كما قيل :

قد تخللت مسلك الروح منى * وبذا سمى الخليل خليلا

والتخلل مسلك الروح منه هو محبته له وشعوره به ، ونحو ذلك لا نفس ذاته ، وكذلك قول الآخر :

ساكن فى القلب يعمره * لست أنساه فأذكره

والساكن فى القلب هو مثاله العلمى ومحبته ومعرفته ، فتسكن فى القلب معرفته ومحبته لا عين ذاته ، وكذلك الآخر :

إذا سكن الغدير على صفاء * وجنب أن يحركه النسيم

بدت فيه السماء بلا امتراء * كذاك الشمس تبدو والنجوم

كذاك قلوب أرباب التجلى * يرى فى صفوها الله العظيم

وقد يقال : فلان ما فى قلبه إلا الله ، وما عنده إلا الله ، يراد بذلك : إلا ذكره ومعرفته ومحبته وخشيته وطاعته ، وما يشبه ذلك أى ليس فى قلبه ما فى قلب غيره من المخلوقين ، بل ما فى قلبه إلا الله وحده ، ويقال : فلان ما عنده إلا فلان إذا كان يلهج بذكره ، ويفضله على غيره .

وهذا باب واسع مع علم المتكلم والمستمع أن ذات فلان لم تحل فى هذا ، فضلا عن أن تتحد به ، وهذا كما يقال عن المرآة إذا لم تقابل إلا الشمس : ما فيها إلا الشمس ، أى لم يظهر فيها غير الشمس .

وأيضاً فلفظ الحلول يراد به حلول ذات الشىء تارة ، وحلول معرفته ومحبته ومثاله العلمى تارة كما تقدم ذكره ، وعندهم فى النبوات أن الله حلّ فى غير المسيح من الصالحين ، وليس المراد به أن ذات الرب حلت فيه ، بل يقال : فلان ساكن فى قلبى ، وحالٌّ فى قلبى ، وهو فى سرى ، وسويداء قلبى ، ونحو ذلك ، وإنما حلّ فيه مثاله العلمى ، وإذا كان كذلك فمعلوم أن المكان إذا خلا ممن يعرف الله ويعبده لم يكن هناك ذكر الله ، ولا حلت فيه عبادته ومعرفته ، فإذا صار فى المكان من يعرف الله ويعبده ويذكره ظهر فيه ذكره ، والإيمان به وحل فيه الإيمان بالله وعبادته وذكره ، وهو بيت الله عزّ وجل ، فيقال : إن الله فيه ، وهو حالٌّ فيه .

كما يقال : إن الله فى قلوب العارفين ، وحالّ فيهم ، والمراد به حلول معرفته والإيمان به ومحبته ، ونحو ذلك . وقد تقدم شواهد ذلك ، فإذا كان الربُّ فى قلوب عباده المؤمنين ، أى نوره ومعرفته ، وعبر عن هذا بأنه حال فيهم ، وهم حالون فى المسجد قيل : إن الله فى المسجد ، وحال فيه بهذا المعنى ، كما يقال : الله فى قلب فلان ، وفلان ما عنده إلا الله ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلو عدته لوجدتنى عنده » .

ومما يزيد ذلك إيضاحاً ما يراه النائم من بعض الأشخاص فى منامه، فيخاطبه ويأمره وينهاه ويخبره بأمور كثيرة ، وهو يقول : رأيت فلاناً فى منامى فقال لى : كذا ، وقلت له : كذا ، وفعل كذا ، وفعلت كذا . ويذكر أنواعاً من الأقوال والأفعال .

وقد يكون فيها علوم وحكم وآداب ينتفع بها غاية المنفعة ، وقد يكون ذلك

الشخص الذى رأى فى المنام حياً ، وهو لا يشعر بأن ذاك رآه فى منامه فضلا عن أن يكون شاعراً بأنه قال أو فعل ، وقد يقص الرائى عليه رؤياه ، و يقول له الرائى : ياسيدى رأيتك فى المنام فقلت لى : كذا ، وأمرتنى بكذا ، ونهيتنى عن كذا ، والمرئى لا يعرف ذلك ، ولا يشعر به ، لأن المرئى الذى حل فى قلب الرائى هو المثال العلمى المطابق للعينى ، كما يرى الرائى فى المرآة أو الماء الشخص الموجود فى الخارج ، فهو المقصود ، و بعض المرئيين فى المنام قد يدرى بأنه رؤى فى المنام و يكاشف بذلك الرائى كما قد يكاشفه بأمور أخرى ، لا لأنه نفسه حل فيه .

والرؤيا إذا كانت صادقة كان ذلك القول والعمل مناسباً لحال المرئى ، مما هو عادته بقوله و بفعله بنفسه ، فتمثل للرائى مثاله قائلا له وفاعلا ليعلم أنه نفسه بقوله و بفعله فينتفع بذلك الرائى ، كما يحكى للإنسان قول غيره وعمله ليعرف بذلك نفس القول والعمل المحكى ، فإن كثيراً من الأشياء لا تعرفه الناس أو أكثرهم إلا بالمثل المضروب له .

إما فى اليقظة و إما فى المنام ، مع العلم بأن عين هذا ليس عين هذا ، ومن توهم أنه إذا رأى شخصاً فى منامه بأن ذاته نفسها حلت فيه دل على جهله ، فإن المرئى كثيراً ما يكون حياً وهو لا يشعر بما رآه ، ذلك لا روحه تشعر ولا جسمه ، فلا يتوهم أن ذات روحه تمثلت فى صورته الجسيمة للنائم ، بل المثل فى نفس الرائى مثال مطابق له وجسمه وروحه حيث هما .

ثم الرؤيا قد تكون من الله ، فتكون حقاً وقد تكون من الشيطان ، كما ثبت تقسيمها إلى هذين فى الأحاديث الصحيحة ، والشيطان كما قد يتمثل فى المنام بصورة شخص يراه كثير من الناس يضل بذلك من لم يكن من أهل العلم والإيمان ، كما يجرى لكثير من مشركى الهند وغيرهم إذا مات ميتهم يرونه قد جاء بعد ذلك وقضى ديونا ، ورد ودائع وأخبرهم بأمور عن موتاهم ، و إنما

هو شيطان تصور فى صورته وقد يأتيهم فى صورة من يعظمونه من الصالحين ، ويقول : أنا فلانا ، وإنما هو شيطان .

وقد يقوم شيخ من الشيوخ ، ويخلف موضعه شخصاً فى صورته يسمونه روحانية الشيخ ورفيقه ، وهو جنى تصور فى صورته ، وهذا يقع لكثير من الرهبان وغير الرهبان من المنتسبين إلى الإسلام ، وقد يرى أحدهم فى اليقظة من يقول له : أنا الخليل ، أو أنا موسى أو أنا المسيح ، أو محمد ، أو أنا فلان لبعض الصحابة ، أو الحواريين ويراه طائراً فى الهواء وإنما يكون ذلك من الشياطين ، ولا تكون تلك الصورة مثل صورة ذلك الشخص .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً ، فإن الشيطان لا يتمثل فى صورتى » فرؤيته فى المنام حق ، وأما فى اليقظة فلا يرى بالعين هو ، ولا أحد من الموتى ، مع أن كثيراً من الناس قد يرى فى اليقظة من يظنه نبياً من الأنبياء إما عند قبره ، وإما عند غير قبره .

وقد يرى القبر انشق ، وخرج منه صورة إنسان فيظن أن الميت نفسه خرج من قبره ، أو أن روحه تجسدت وخرجت من القبر ، وإنما ذلك جنى تصور فى صورته ليضل ذلك الرائى ، فإن الروح ليست مما تكون تحت التراب وينشق عنها التراب ، فإنها وإن كانت قد تتصل بالبدن ، فلا يحتاج فى ذلك إلى شق التراب ، والبدن لم ينشق عنه التراب ، وإنما ذلك تخييل من الشيطان ، وقد جرى مثل هذا لكثير من المنتسبين إلى المسلمين ، وأهل الكتاب ، والمشركين .

ويظن كثير من الناس أن هذا من كرامات عباد الله الصالحين ، ويكون من إضلال الشياطين ، كما قد بسط الكلام فى هذا الباب فى غير هذا الكتاب ، مثل (الفرقان بين أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان) وغير ذلك .

فصل فى أنه لادليل على حلول ذاته واتحاده بالمسيح

وإن أردتم بقولكم ظهر فى عيسى حلول ذاته واتحاده بالمسيح أو غيره . فهذه دعوى مجردة من غير دليل متقدم ولا متأخر، وكون الإنسان أجلّ ما خلقه الله لو كان مناسباً لحلوله فيه أمر لا يختص به المسيح ، بل قد قام الدليل على أن غير عيسى عليه السلام أفضل منه مثل إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وهذان اتخذهما الله خليلين ، وليس فوق الخلة مرتبة ، فلو كان يحل فى أجلّ ما خلقه الله من الإنسان لكونه أجلّ مخلوقاته لحلّ فى أجل هذا النوع ، وهو الخليل ، ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، وليس معهم قط حجة على أن الجسد المأخوذ من مريم إذا لم يتحد باللاهوت على أصلهم أنه أفضل من الخليل وموسى .

وإذا قالوا : إنه لم يعمل خطيئة ، فيحيى بن زكريا لم يعمل خطيئة ، ومن عمل خطيئة وتاب منها فقد يصير بالتوبة أفضل مما كان قبل الخطيئة ، وأفضل ممن لم يعمل تلك الخطيئة ، والخليل وموسى أفضل من يحيى الذى يسمونه « يوحنا المعمدانى » .

وأما قولهم : ولهذا خاطب الخلق ، فالذى خاطب الخلق هو عيسى ابن مريم ، وإنما سمع الناس صوته لم يسمعوا غير صوته ، والجنى إذا حلّ فى الإنسان وتكلم على لسانه يظهر للسامعين أن هذا الصوت ليس هو صوت الآدمى ، ويتكلم بكلام ، يعلم الحاضرون أنه ليس كلام الآدمى .

والمسيح عليه السلام لم يكن يسمع منه إلا ما يسمع من مثله من الرسل ، ولو كان المتكلم على لسان الناسوت هو جنياً أو ملكا لظهر ذلك ، وعرف أنه ليس هو البشر ، فكيف إذا كان المتكلم هو رب العالمين ؟ فإن هذا لو كان حقاً لظهر ظهوراً أعظم من ظهور كلام الملك والجنى على لسان البشر بكثير كثير .

وأما ما شاهدوه من معجزات المسيح عليه الصلاة والسلام فقد شاهدوا من

غيره ما هو مثلها وأعظم منها ، وقد أحيا غيره الميت وأخبر بالغيوب أكثر منه ، ومعجزات موسى أعظم من معجزاته وأكثر ، وظهور المعجزات على يديه يدل على نبوته ورسالته ، كما دلت المعجزات على نبوة غيره ، ورسالتهم لا تدل على الإلهية. والدجال لما ادعى الإلهية لم يكن ما يظهر على يديه من الخوارق دليلا عليها ، لأن دعوى الإلهية ممتنعة ، فلا يكون فى ظهور العجائب ما يدل على الأمر الممتنع .

فصل فيما تأوّله اليهود فى البشارة بالمسيح

قالوا : قد قال الله على أفواه الأنبياء المرسلين ، الذين تنبوا على ولادته من العذراء الطاهرة مريم ، وعلى جميع أفعاله التى فعلها فى الأرض ، وصعوده إلى السماء ، وهذه النبوات جميعها عند اليهود مقرين ومعترفين بها ويقرونها فى كنائسهم ، ولم ينكروا منها كلمة واحدة .

فيقال : هذا كل مما لا ينازع فيه المسلمون ، فإنه لا ريب أنه ولد من مريم العذراء البتول التى لم يمسها بشر قط ، وأن الله أظهر على يديه الآيات ، وأنه صعد إلى السماء ، كما أخبر الله بذلك فى كتابه ، كما تقدم ذكره ، فإذا كان هذا مما أخبرت به الأنبياء فى النبوات التى عند اليهود لم ينكروا ذلك ، وإن كان اليهود يتأوّلون ذلك على غير المسيح ، كما فى النبوات من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فهو حق ، وإن كان الكافرون به من أهل الكتاب يتأولون ذلك على غيره.

فصل فى الفرق بين المسيح والمسيخ

قالوا : وسئلنا أن نذكر من بعض قول الأنبياء الذين تنبوا على السيد المسيح ، ونزوله إلى الأرض ، قال « عزرا » الكاهن حيث سباهم « بختنصر الفريدى » إلى أرض بابل إلى أربعمائة واثنين وثمانين سنة : [يأتى المسيح ويخلص الشعوب والأمم] ، وفى كمال هذه المدة أتى السيد المسيح ، فيقال : أما قول عزرا الكاهن فليس فيه إلا إخباره بأنه يأتى المسيح ويخلص الشعوب

والأمم ، وهذا مما لا يتنازع فيه المسلمون ، فإنهم يقرون بما أخبر الله به في كتابه من إتيان المسيح عليه السلام ، وتخليص الله به كل من آمن به من الشعوب والأمم إلى أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم .

فكل من كان مؤمناً بالمسيح ، متبعاً لما أنزل عليه من غير تحريف ولا تبديل ، فإن الله خلصه بالمسيح من شر الدنيا والآخرة ، كما خلص الله تعالى بموسى من أتبعه من بني إسرائيل ، ومن حرّف وبدل فلم يتبع المسيح ، ومن كذّب محمداً صلى الله عليه وسلم فهو كمن كذّب المسيح بعد أن كان مقراً بموسى عليه السلام.

ولكن هذا النص وأمثاله حجة على اليهود الذين يتأولون ذلك على أن هذا ليس هو المسيح ابن مريم ، وإنما هو مسيح ينتظر ، وإنما ينتظرون المسيح الدجال مسيح الضلالة ، فإن اليهود يتبعونه ويقتلهم المسلمون معه حتى يقول الشجر والحجر : يامسلم هذا يهودى ورائى تعال فاقتله . وهكذا قال في النبوة الثانية التي ذكروها عن « أرميا » النبي عليه السلام .

فصل في أن عيسى ليس بدعاً من الرسل

قالوا : وقال « أرميا » النبي عن ولادته في ذلك الزمان : [يقوم لداود ابن ، وهو ضوء النور يملك الملك ، ويعلم ويفهم ويقيم الحق والعدل في الأرض ، ويخلص من آمن به من اليهود ، ومن بني إسرائيل وغيرهم ويبقى بيت المقدس بغير مقاتل ، ويسمى الإله] ، وأما قوله [ابن لداود] لأن مريم كانت من نسل داود، ولأجل ذلك قال [ويقوم لداود ابن] .

والجواب أن يقال : قد قال فيه : [ويخلص من آمن به اليهود ، ومن بني اسرائيل] وهو كما فسرنا به التخليص الذي نقلوه عن عذرا الكاهن .

وأما قوله [واسمه الإله] فهذا يدل على أنه ليس هو الله رب العالمين ، وإنما لفظ الإله اسم سمي به كما يسمى موسى إلها لفرعون عندهم في التوراة ، إذا لو كان هو الله ربَّ العالمين لكان أجل من أن يقال ويسمى الإله ، فإن الله تبارك وتعالى

لا يعرف بمثل هذا ، ولا يقال فيه : إن الله يسمى الإله ولقال : يأتى الله بنفسه فيظهر ، ويقال : يملك الملك ورب العالمين مازال ولا يزال مالكا للملك سبحانه.

وأيضاً فإنه قال : [يقوم لداود ابن هو ضوء النور] ومعلوم أن الإبن الذى من نسل داود الذى اسم أمه مريم هو الناسوت فقط ، فإن اللاهوت ليس من نسل بشر ، وقد تبين أن هذا الناسوت الذى هو ابن داود ، ويسمى الإله فعلم أن هذا اسم للناسوت المخلوق لا الإله الخالق .

وأيضاً فإنه قال: وهو ضوء النور لم يجعله النور نفسه ، بل جعله ضوء النور والله تعالى منوِّر كل نور ، فكيف يكون هو ضوء النور ، والله تعالى قد سمى محمداً صلى الله عليه وسلم سراجاً منيرا ، ولم يكن بذلك خالقا ، فكيف إذا سمى ضوء النور؟

وأيضاً فإنه لم يجعل القائم إلا ابن داود ، وابن داود مخلوق ، وأضاف الفعل إلى هذا المخلوق ، ولو كان هذا هو الله رب العالمين قد اتحد بالناسوت البشرى لبيّن « أرميا » وغيره من الأنبياء ذلك بيانا قاطعاً للعذر ، ولم يكتفوا بمثل هذه الألفاظ التى هى إما صريحة أو ظاهرة فى نقيض ذلك ، أو مجملة لاتدل على ذلك فإنه من المعلوم أن إخبارهم بإتيان نبى من الأنبياء أمر معتاد ممكن ، ومع هذا يذكرون فيه من البشارات والدلائل الواضحة ما يزيل الشبهة .

وأما الإخبار بمجيء الرب نفسه وحلوله ، أو اتحاده بناسوت بشرى فهو :

إما ممتنع غير ممكن كما يقوله أكثر العقلاء من بنى آدم ، ويقولون : يعلم بصريح العقل أن هذا ممتنع .

وإما ممكن كما يقوله بعض الناس ، وحينئذ فإمكانه خُفِىَ على أكثر العقلاء وهو أمر غير معتاد ، وإتيان الرب بنفسه أعظم من إتيان كل رسول ونبى ، لا سيما إذا كان إتيانه باتحاده ببشر لم يظهر على يديه من الآيات ما يختص بالإلهية ، بل لم يظهر على يديه إلا ما ظهر على يد غيره من الأنبياء ما هو مثله أو أعظم منه ، والله تعالى لما كان يكلم موسى ولم يكن موسى يراه ولا يتحد لا بموسى ولا بغيره ، ومع هذا

فقد أظهر من الآيات على ذلك ، وعلى نبوة موسى ما لم يظهر مثله ولا قريب منه على يد المسيح .

فلو كان هو بذاته متحدا بناسوت بشرى لكان الأنبياء يخبرون بذلك إخبارا صريحا بينا لا يحتمل التأويلات ، ولكان الرب يظهر على ذلك من الآيات ما لم يظهر على يد رسول ولا نبي ، فكيف والأنبياء لم ينطلقوا في ذلك بلفظ صريح ، بل النصوص الصريحة تدل على أن المسيح مخلوق ولم تأت آية على خلاف ذلك ، بل إنما تدل الآيات على نبوة المسيح .

فصل في أن ما جاء في الإنجيل نظير ما في التوراة

قالوا : وقال « أشعيا » النبي : [قل لصهيون هنا تفرح وتتهلل ، فإن الله يأتي ويخلص الشعوب ، ويخلص من آمن به ويشبهه ويخلص مدينة بيت المقدس ، ويظهر الله ذراعه الطاهر فيها لجميع الأمم المبددين ويجعلهم أمة واحدة ، ويبصّرون جميع أهل الأرض من خلاص الله ، لأنه يمشي معهم وبين يديهم ويجمعهم إله إسرائيل] .

فيقال : هذا يحتاج أولا أن يعلم أن في هذه النبوة أن هذا الكلام نقل بلا تحريف لفظه ، ولا غلط في الترجمة ولم يثبت ذلك ، وإذا ثبت ذلك فحينئذ هو نظير ما في التوراة من قوله : [جاء الرب من طور سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران] .

ومعلوم أنه ليس في هذا ما يدل على أن الله حال في موسى بن عمران ، ولا متحد به ، ولا أنه حال في جبال فاران ، ولا أنه متحد بشيء من طور سيناء ، ولا ساعير .

وكذلك هذا اللفظ لا يدل على أنه حال في المسيح ومتحد به ، إذ كلاهما سواء وإذا قيل : المراد بذلك قربه ودنوه كتكليم موسى ، وظهور نوره وهداه وكتابه

ودينه ، ونحو ذلك من الأمور التي وقعت ، قيل : وهكذا في المسيح عليه السلام.

وقوله : [و يظهر الله ذراعه الطاهر لجميع الأمم المبددين] ، قد قال في التوراة مثل هذا في غير موضع ، ولم يدل ذلك على اتحاده بموسى عليه السلام ، كقوله : وأما قوله عن الأمم المبددين فيجعلهم أمة واحدة ، فهم الذين اتبعوا المسيح ، فإنهم كانوا متفرقين مبددين فجعلهم أمة واحدة .

وأما قوله : ويبصرون جميع أهل الأرض خلاص الله ، لأنه يمشى معهم وبين يديهم ، و يجمعهم إله إسرائيل ، فمثل هذا في التوراة في غير موضع ، ولم يدل ذلك على اتحاده بموسى ولا حلوله فيه ، كقوله في السفر الخامس من التوراة يقول موسى لبنى إسرائيل : [لا تهابوهم ولا تخافوهم ، لأن الله ربكم سائر بين أيديكم هو محارب عنكم] .

وفي موضع قال موسى : [إن الشعب هو شعبك ، فقال : أنا أمضى أمامك فارتحل ، فقال : إن لم تمض أنت أمامنا وإلا فلا تصعدنا من ههنا ، وكيف أعلم أنا وهذا الشعب أنى وجدت أمامك نعمة كذا بعلمك إلا بسيرك معنا] .

وفي السفر الرابع من الفصل الثالث عشر : [ربى اصعدن هؤلاء من بينهم بقدرتك ، فيقولون لأهل هذه الأرض الذين سمعوا أنك الله فيما بين هؤلاء القوم يرونه عيناً بعين ، وغمامك يقيم عليهم ، وبعمود غمام يسير بين أيديهم نهاراً ، وبعمود نار ليلا] .

وفي التوراة أيضاً :

يقول الله لموسى : [إنى آت إليك في غلظ الغمام لكى يسمع القوم مخاطبتى لك] .

ثم قوله :

[اجمع سبعين رجلا من شيوخ بنى إسرائيل ، وخذهم إلى خباء العرب يقفون معك حتى أخاطبهم] .

فصل فى معنى حلول الله

قالوا : وقال « زكريا » النبى :

[افرحى يا بيت صهيون ، لأنى آتيك وأحل فيك وأتراءى ، قال الله : ويؤمن بالله فى ذلك اليوم الأمم الكثيرة ، ويكونون له شعباً واحداً ، ويحل هو وهم فيك ، وتعرفين أنى أنا الله القوى الساكن فيك ، ويأخذ الله فى ذلك اليوم الملك من يهودا ، ويملك عليهم إلى الأبد] .

فيقال مثل هذا قد ذكر عندهم عن إبراهيم وغيره من الأنبياء أن الله تجلى له ، واستعلن له ، وترايا له ، ونحو هذه العبارات ، ولم يدل ذلك على حلوله فيه .

وكذلك إتيانه ، وهو لم يقل إنى أحل فى المسيح وأتحد به ، وإنما قال عن بيت صهيون : [آتيك وأحل فيك] كما قال مثل ذلك عندهم فى غير هذا ولم يدل على حلوله فى بشر ، وكذلك قوله : [وتعرفين أنى أنا الله القوى الساكن فيك] ، ولم يُرد بهذا اللفظ حلوله فى المسيح ، فإن المسيح لم يسكن بيت المقدس ، وهو قوى بل كان يدخلها وهو مغلوب مقهور حتى أخذ وصلب أو شبهه ، والله سبحانه إذا حصلت معرفته والإيمان به فى القلوب اطمأنت وسكنت .

وكان بيت المقدس لما ظهر فيه دين المسيح عليه السلام بعد رفعه حصل فيه من الإيمان بالله ومعرفته ما لم يكن قبل ذلك .

وجماع هذا أن النبوات المتقدمة والكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل والزبور وسائر نبوات الأنبياء لم تخص المسيح بشىء يقتضى اختصاصه باتحاد اللاهوت به وحلوله فيه ، كما يقوله النصارى ، بل لم تخصه إلا بما خصه به محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسولُ الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١] .

فكتب الأنبياء المتقدمة ، وسائر النبوات موافقة لما أخبر به محمد صلى الله

عليه وسلم يصدق بعضها بعضاً ، وسائر ما استدل به النصارى على إلهيته من كلام الأنبياء قد يوجد مثل تلك الكلمات فى حق غير المسيح ، فتخصيص المسيح بالإلهية ودون غيره باطل ، وذلك مثل اسم الإبن والمسيح ، ومثل حلول روح القدس فيه ، ومثل تسميته إلهاً ، ومثل ظهور الرب أو حلوله فيه أو سكونه فيه أو فى مكانه .

فهذه الكلمات وما أشبهها موجودة فى حق غير المسيح وعندهم ، ولم يكونوا بذلك آلهة ، ولكن القائلون بالحلول والاتحاد فى حق جميع الأنبياء والصالحين قد يحتجون بهذه الكلمات .

وهذا المذهب باطل باتفاق المسلمين واليهود والنصارى ، وهو باطل فى نفسه عقلاً ونقلاً ، وإن كان طوائف من أهل الإلحاد والبدع المنتسبين إلى المسلمين واليهود والنصارى تقول به ، فهؤلاء اشتبه عليهم ما يحل فى قلوب العارفين به من أهل الإيمان به ومعرفته ونوره وهداه والروح منه ، وما يعبر عنه بالمثل الأعلى ، والمثال العلمى .

وظنوا أن ذلك ذات الرب ، كمن يظن أن نفس اللفظ بالإسم هو المعنى الذى فى القلب ، أو نفس الخط هو نفس اللفظ ، ومن يظن أن ذات المحبوب حلت فى ذات المحب واتحدت به أو نفس المعروف المعلوم حل فى ذات العالم العارف به واتحد به مع العلم اليقينى أن نفس المحبوب المعلوم باين عن ذات المحب روحه وبدنه لم يحل واحد منهما فى ذات المحب .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ﴾ ، [سورة الروم : ٢٧] . وقال تعالى : ﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ﴾ ، [سورة الزخرف : ٨٤] . وقال تعالى : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض ﴾ ، [سورة الأنعام : ٣] .

فالمؤمنون يعرفون الله ويحبونه ويعبدونه ويذكرونه ويقال هو فى قلوبهم ، والمراد معرفته ومحبته وعبادته ، وهو المثل العلمى ليس المراد نفس ذاته ، كما يقول

الإنسان لغيره : أنت فى قلبى ، وما زلت فى قلبى وبين عينى ، ويقال :

ساكن فى القلب يعمره   لست أنساه فأذكره

وقال :

إن بيتاً أنت ساكنه   غير محتاج إلى السرُجِ

ومن قول القائل :

ومن عجبى أنى أحن إليهم   وأسأل عنهم من لقيت وهم معى
وتطلبهم عينى وهم فى سوادها   ويشتاقهم قلبى وهم بين أضلعى

وقال :

مثالك فى عينى وذكرك فى فمى   ومثواك فى قلبى فأين تغيب ؟

والمساجد : هى بيوت الله التى فيها يظهر ذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾ .

قال أُبى بن كعب : مثل نوره فى قلوب المؤمنين ، ثم قال : ﴿نور على نور﴾ ، ثم قال : ﴿فى بيوت أَذِنَ الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾ ، [سورة النور : ٣٦] . فذكر سبحانه نوره فى قلوب المؤمنين ، ثم ذكر ذلك فى بيوته كذلك ما ذكر فى الكتب الأولى .

وأما الإتيان والمجىء والتجلى فعندهم فى التوراة يقول الله لموسى : [إنى آتى إليك فى غلظ الغمام لكى يسمع القوم مخاطبتى لك] ثم قوله : [اجمع سبعين رجلا من شيوخ بنى إسرائيل ، وخذهم إلى خباء العرب يقفون معك حتى أخاطبهم] .

وفى السفر الرابع لما تكلم مريم وهارون فى موسى : [حينئذ تجلى الله بعمود الغمام قائما على باب الخبا ونادى ياهارون ويا مريم ، فخرجا كلاهما فقال اسمعا كلامى إنى أنا الله فيما بينكم] .

وفى الفصل الثالث عشر : [إن أصمدت هؤلاء من بينهم بقدرتك فيقولون لأهل هذه الأرض الذين سمعوا أنك الله فيما بين هؤلاء القوم يرونه عيناً بعين ، وغمامك يقيم عليهم ، و بعمود غمام يسير بين أيديهم نهاراً ، وبعمود نار ليلا] ،

وفى السفر الخامس قول موسى لبنى إسرائيل : [لا تهابوهم ولا تخافوهم ، لأن الله ربكم السائر بين أيديكم ، وهو يحارب عنكم] .

وفى موضع آخر قال موسى : [إن الشعب هو شعبك ، فقال : يا موسى أنا أمضى أمامك فارتحل ، فقال : إن لم تمض أنت معنا وإلا فلا تصعدنا من ههنا ، وكيف أعلم أنا وهذا الشعب أنى وجدت أمامك نعمة كذا بعلمك إلا بسيرك معنا] .

وفى المزمور الرابع من الزبور عندهم يقول : [وليفرح المتكلون عليك إلى الأبد ويبتهجون ويحل فيهم ويفتخرون] فأخبر أنه يحل فى جميع الصديقين أى معرفته ومحبته فإنهم متفقون على أن ذات الله لم تحل فى الصديقين ، وكذلك فى رسائل يوحنا الإنجيلى : [إذا أحبنا بعضنا بعضاً نعلم أن الله يلبث فينا] ، أى محبته ونظائره كثيرة .

فصل فيما يوافق فيه المسلمون النصارى

قالوا : وقال « عاموص » النبى : [ستشرق الشمس على الأرض ، ويهتدى بها الضالون ويضل عنها بنو إسرائيل] ، قالوا : فالشمس هو السيد المسيح ، والضالون الذين اهتدوا به هم النصارى المختلفة ألسنتهم ، الذين كانوا من قبله عابدين الأصنام وضالين عن معرفة الله ، فلما أتوهم التلاميذ وأنذروهم بما أوصاهم السيد المسيح فتركوا عبادة الأصنام واهتدوا باتباعهم السيد المسيح .

فيقال : هذا مما لا ينازع فيه المسلمون وإنما ينازع فى مثل هذا وأمثاله اليهود المكذبون للمسيح عليه السلام ، كما ينازع كفار أهل الكتاب فى محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما المسلمون فيؤمنون بجميع كتب الله ورسله ، وأن المسيح عليه الصلاة

السلام أشرق نوره على الأرض كما أشرق قبله نور موسى عليه الصلاة والسلام، وأشرق بعده نور محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً ﴾ ، [سورة الأحزاب :٤٥، ٤٦].

فسماه الله سراجاً منيراً وسمى الشمس سراجا وهاجاً ، والسراج المنير أكمل من السراج الوهاج فإن الوهاج له حرارة تؤذى ، والمنير يهتدى بنوره من غير أذى بوهجه .

وقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ ، [سورة الأعراف: ١٥٧] . وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصيرُ الأمور ﴾ ، [سورة الشورى : ٥٢ ، ٥٣] .

والمسلمون مقرّون بأن كل من كان متبعاً لدين المسيح عليه السلام الذى لم يغير ولم يبدل فإنه اهتدى بالمسيح من الضلالة ومن كفر به من بنى إسرائيل ، فإنه ضال ، بل كافر كما قال تعالى : ﴿ إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتّبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعذّبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين ﴾ ،[سورة آل عمران:٥٥-٥٧]

وقال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين مَنْ أنصارى إلى الله قال الحواريون : نحن أنصار الله فآمنت طائفة

من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ ، [سورة الصف : ١٤] .

وقوله : [ستشرق الشمس على الأرض ويهتدى بها الضالون ويضل عنها بنو إسرائيل] ، يناسب قوله فى التوراة : [جاء الرب من طورسينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران] ، فإن إشراقه من ساعير هو ظهور نوره بالمسيح ، كما أن مجيئه من طورسينا : هو ظهور نوره بموسى ، واستعلانه من جبال فاران هو ظهور نوره بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وبهذه الأماكن الثلاثة أقسم الله فى القرآن بقوله : ﴿ والتين والزيتون * وطور سنين * وهذا البلد الأمين ﴾ ، [سورة التين : ١-٣] . فبلد التين والزيتون هى الأرض المقدسة التى بعث منها المسيح ، وكان بها أنبياء بنى إسرائيل ، وأسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم إليها وظهرت بها نبوّته ، وطور سينين المكان الذى كلم الله فيه موسى بن عمران ، وهذا البلد الأمين هو بلد مكة التى بعث الله منه محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن .

فصل فى شهادة الرب

قالوا : وقال فى السفر الثالث من أسفار الملوك : [والآن يارب إله إسرائيل لتحقق كلامك لداود ، لأنه حق أن يكون ، إنه سيسكن الله مع الناس على الأرض ، اسمعوا أيتها الشعوب كلكم ، ولتنصت الأرض ، وكل من فيها فيكون الرب عليها شاهداً من بيته القدوس ، ويخرج من موضعه وينزل ويطأ على مشاريق الأرض فى شأن خطيئة بنى يعقوب هذا كله] .

فيقال هذا السفر يحتاج إلى أن يثبت أن الذى تكلم به نبى ، وأن ألفاظه ضبطت وترجمت إلى العربية ترجمة مطابقة ، ثم بعد ذلك يقال فيه مايقال فى أمثاله من الألفاظ الموجودة عندهم ، وليس فيهاما يدل على اتحاده بالمسيح فإن قوله : [إن

الله سيسكن مع الناس فى الأرض] لايدل على المسيح ، إذ كان المسيح لم يسكن مع الناس فى الأرض ، بل لما أظهر الدعوة لم يبق فى الأرض إلا مدة قليلة ، ولم يكن ساكنا فى موضع معين ، وقبل ذلك لم يظهر عنه شيء من دعوى النبوة فضلا عن الإلهية ، ثم إنه بعد ذلك رفع إلى السماء فلم يسكن مع الناس فى الأرض، وأيضا فإذا قالوا سكونه هو ظهوره فى المسيح عليه السلام قيل لهم : أما الظهور الممكن المعقول ، كظهور معرفته ومحبته ونوره ، وذكره وعبادته ، فهذا لا فرق فيه بين المسيح وغيره .

وحينئذ فليس فى هذا اللفظ ما يدل على أن هذا السكون كان بالمسيح دون غيره ، وإن كان بالمسيح فليس هذا من خصائصه عليه السلام ، وليس فى ظهوره فيه أو حلوله معرفته ومحبته ومثاله العلمى ما يوجب اتحاد ذاته به .

وأما قوله : [فيكون الرب عليها شاهداً] ، فيقال أولا شهود الله على عباده لا يستلزم حلوله ، أو اتحاده ببعض مخلوقاته ، بل هو شهيد على العباد بأعمالهم كما قال : ﴿ ثمَّ الله شهيد على ما يفعلون ﴾ ، [سورة يونس : ٤٦] .

ولفظ النص : [ولتنصت الأرض ، وكل من فيها فيكون الرب عليها شاهداً] ، وهذا كما فى التوراة : إن موسى لما خاطب بنى إسرائيل أشهد عليهم، وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم كان يقول لأمته لما بلّغ الناس يقول « ألا هل بلغت ؟ فيقولون : نعم ، فيقول اللهم اشهد » .

وحينئذ فليس فى هذا تعرض لكون للسيح هو الله ، وقد يقال أيضاً : ليس فيه أن المراد بلفظ الرب هنا هو الله ، ولفظ الرب يراد به السيد المطاع ، وقد غاير بين اللفظين ، فقال : هناك إنه سيسكن الله مع الناس ، فقال : فيكون الرب عليها شاهداً ، والأنبياء يشهدون على أممهم ، كما قال المسيح عليه السلام: ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ﴾ ، [سورة المائدة : ١١٧] .

وقال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ﴾ ، [سورة المزمل : ١٥] .

وقال تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ ، [سورة النساء : ٤١] .

وقال تعالى : ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ ، [سورة : النحل ٨٩] .

وحينئذ فيكون الرب الشهيد هو المسيح ، الذى هو الناسوت ، وهو الذى جاء من بيت المقدس ، وخرج من موضعه ، ونزل ووطىء على الأرض من أجل خطيئة بنى يعقوب فإنهم لما أخطأوا وبدلوا أرسل الله إليهم المسيح عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده وطاعته ، فمن آمن به كان سعيداً مستحقاً للثواب ، ومن كفر به كان شقياً مستحقاً للعذاب .

فصل فى أن كل ما ذكروه حجة عليهم

قالوا . وقال « ميخا » النبى : [وأنت يا بيت لحم قرية يهودا بيت أفرانا منك يخرج لى رئيس الذى يرعى شعبى إسرائيل ، وهو من قبل أن تكون الدنيا ، لكنه لا يظهر إلا فى الأيام التى تلده فيها الوالدة وسلطانه من أقاصى الأرض إلى أقاصيها] .

والجواب: أن عامة ما يذكرونه عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حجة عليهم، لا لهم كما ذكروه عن المسيح عليه السلام فى أمر التثليث ، فإنه حجة عليهم لا لهم ، وهكذا تأملنا عامة ما يحتج به أهل البدع والضلالة من كلام الأنبياء فإنه إذا تدبر حق التدبر وجد حجة عليهم لا لهم ، فإن كلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هدى وبيان ، وهم معصومون لا يتكلمون بباطل .

فمن احتج بكلامهم على باطل فلا بد أن يكون فى كلامهم مايبين به أنهم أرادوا الحق لا الباطل ، وهذا مثل قوله فى هذه النبوة : [منك يخرج لى رئيس] ، فهذا صريح فى أن هذا الذى يخرج هو رئيس لله ليس هو الله ، بل هو رئيس له كسائر الرؤساء الذين لله وهم الرسل والأنبياء المطاعون مثل : داود ، وموسى ، وغيرهما .

ولهذا قال : [الذى يرعى شعبى إسرائيل] ، ولو كان هو ، لـكان هو راعى شعب نفسه ، وأما قوله : [وهو من قبل أن تـكون الدنيا] ، فهذا مثل قول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ميسرة الفجر .

وقد قيل له : يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » ، وفى لفظ : متى كتبت نبياً ؟ قال : « وآدم بين الروح والجسد » ، وفى مسند الإمام أحمد عن العرباض بن سارية عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنى عند الله لمكتوب خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته وسأنبئكم بأول أمرى دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ، ورؤيا أمى رأت حين ولدتنى أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام » . فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه كان نبياً ، وكتب نبياً وآدم بين الروح والجسد ، وأنه مكتوب عند الله خاتم النبيين وآدم منجدل فى طينته .

ومراده صلى الله عليه وسلم أن الله كتب نبوته ، وأظهرها وذكر اسمه ، ولهذا جعل ذلك فى ذلك الوقت بعد خلق جسد آدم وقبل نفخ الروح فيه ، كما يكتب رزق المولود وأجله وعمله ، وشقىٌّ هو أو سعيد بعد خلق جسده ، وقبل نفخ الروح فيه .

وكذلك قول القائل فى المسيح عليه السلام وهو من قبل أن تـكون الدنيا ، فإنه مكتوب مذكور من قبل أن تـكون الدنيا .

فإنه قد ثبت فى الصحيح عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم

أنه قال : « قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » .

وفى صحيح البخارى عن عمران بن حصين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كان الله ولم يكن شىء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ، ثم خلق السموات والأرض » .

وهو قد قال قبل أن تكون الدنيا ، ولم يقل إنه كان قديماً أزلياً مع الله لم يزل كما يقول النصارى : إنه صفة الله الأزلية ، بل وقت ذلك بقوله : « قبل أن تكون الدنيا » ولا يحسن أن يقال فى رب العالمين كان قبل أن تكون الدنيا ، فإنه سبحانه قديم أزلى ، ولا ابتداء لوجوده فلا يوقت بهذا المبدأ ، لاسيما إن أريد بكون الدنيا عمارتها بآدم وذريته ، فإن الدنيا قد لاتدخل فيها السموات والأرض ، بل يجعل من الآخرة وأزواج المؤمنين فى الجنة فى السموات ، ويراد بالدنيا الحياة الدنيا أو الدار الدنيا .

ولهذا قال : لكنه لايظهر إلا فى الأيام التى تلده فيها الوالدة كما يظهر غيره من الأنبياء بعد أن تلده أمه .

والوالدة إنما ولدت الناسوت ، وأما اللاهوت فهو عندهم مولود من الله القديم الأزلى ، وإذا قالوا فهى ولدت اللاهوت مع الناسوت كان هذا معلوم الفساد من وجوه كثيرة ، وإذا قيل : لِمَ خصّ عيسى المسيح عليه السلام بالذكر ؟ قيل : كما خص محمد صلى الله عليه وسلم بالذكر ، لأن أمر المسيح كان أظهر وأعظم ممن قبله من الأنبياء بعد موسى .

وكذلك أمر محمد صلى الله عليه وسلم كان أظهر وأعظم من جميع الأنبياء قبله ، وإذا عظم الشىء كان ظهوره فى الكتاب أعظم .

وظنُّ بعض النصارى أن المراد بذلك وجود ذات المسيح يضاهى ظن طائفة

من غلاة المنتسبين إلى الإسلام وغيرهم الذين يقولون إن ذات النبي صلى الله عليه وسلم كانت موجودة قبل خلق آدم .

ويقولون : إنه خلق من نور رب العالمين ، ووجد قبل خلق آدم ، وأن الأشياء خلقت منه حتى قد يقولون فى محمد صلى الله عليه وسلم من جنس قول النصارى فى المسيح حتى قد يجعلون مدد العالم منه ، ويرون فى ذلك أحاديث وكلها كذب مع أن هؤلاء لا يقولون إن المتقدم هو اللاهوت ، بل يدعون تقدم حقيقته وذاته ، ويشيرون إلى شىء لا حقيقة له ، كما تشير النصارى إلى تقدم لاهوت اتحد به لا حقيقة له .

ومن هؤلاء الغلاة من يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال إنى كلىّ بشر فقد كفر . ومن قال لست ببشر فقد كفر » ويحتجون بقوله تعالى : ﴿ ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم ﴾ ، [سورة الأحزاب : ٤٠] . فيجعلون فيه شيئاً من اللاهوت مضاهاة للنصارى .

وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم بالحديث ، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى فى الصحيحين ، أنه قال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد الله ورسوله » .

وقد قال تعالى : ﴿ قل سبحان ربى هل كنتَ إلاَّ بشراً رسولاً ﴾ ، [سورة الإسراء : ٩٣] . وهذا من جنس الغلاة الذين يقولون : إن الرب يحل فى الصالحين ، ويتكلم على ألسنتهم ، وأن الناطق فى أحدهم هو الله لا نفسه ، وقول هؤلاء من جنس قول النصارى فى المسيح ، ويقول أحدهم إن الموحِد هو الموحَد ، وينشدون :

ما وحد الواحد من واحد   إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته   عارية أبطلها الواحد
توحيدُه إياه توحيدَه   ونعت من ينعته لاحد

وهو من جنس قول الذين يجعلون روح الإنسان قديمة أزلية ، و يقولون : هى صفة لله فيجعلون نصف الإنسان لاهوتاً ، ونصفه ناسوتاً لـكن اللاهوت عندهم هو روحه لا لاهوت واحد كما يقوله النصارى وعلى قول هؤلاء مع قول النصارى يكون فى المسيح ، وأمثاله ممن ادعى فيه اتحاد اللاهوت به لاهوتان : روحه لاهوت ، والـكلمة لاهوت ثان . ومن جنس هؤلاء من ينشد ما يحـكى عن الحلاج أنه أنشد :

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا فى خلقه ظاهـرا ... فى صورة الآكل والشارب
حتى لقـد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب للحاجب

ولو قدر أن نفسه هى التى كانت قبل أن تـكون الدنيا ، فهذا لا يدل على أنه الله أو صفة الله ، بل إذا قال من يدعى أن روحه كانت موجودة حينئذ المراد روحه كان هذا أقرب من قول النصارى ، وفى الجملة ما يخبر عن المسيح أنه كان قبل أن تـكون الدنيا بمنزلة ماعند أهل الـكتاب . عن سليمان أنه قال : [كنت قبل أن تـكون الدنيا] ثم قد ثبت باتفاق الخلائق أن سليمان لم يكن اللاهوت متحداً به ، فعلم أن مثل هذا الـكلام لا يوجب اتحاد اللاهوت به ، بل المسلمون يعدلون فى القول ، و يفسرون كلام الله فى كتبه بعضه ببعض ، و يجعلون كلامه يصدق بعضه بعضاً لا يناقض بعضه بعضاً .

وأما أهل الضلال من النصارى وغيرهم فيفضلون المفضول على من هو أفضل منه ، و ينقصون الفاضل حقه ، و يغلون فى المفضول و يبخسون الأنبياء حقوقهم مثل تنقصهم لسليمان ، فإن كثيراً من اليهود والنصارى يطعنون فيه .

منهم من يقول : كان ساحراً ، وأنه سخر الجن بسحره .

ومنهم من يقول : سقط عن درجة النبوة فيجعلونه حكيما لا نبيا ، ولهذا ذكر الله فى القرآن تبرئة سليمان عن ذلك . وذلك أن سليمان سأل الله ملـكا لا ينبغى

لأحد من بعده ، فسخر لسليمان الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الأصفاد ، فسخر له الريح غدوها شهر ، ورواحها شهر ، ولما طلب من الملأ أن يأتوه بعرش « بلقيس » ملكة اليمن ، وكان هو بالشام . ﴿ قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين * قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين * قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾ ، [سورة النمل : ٣٨ - ٤٠] .

فلما مات عمدت الشياطين إلى أنواع من الشرك فكتبوها ووضعوها تحت كرسيه ، وقالوا : كان سليمان يسخر الجن بهذا ، فصار هذا فتنة لمن صدق بذلك وصاروا طائفتين طائفة علمت أن هذا من الشرك والسحر ، وأنه لا يجوز فطعنت فى سليمان كما فعل ذلك كثير من أهل الكتاب اليهود والنصارى .

وطائفة قالت : سليمان نبى ، وإذا كان قد سخر الجن بهذا دل على أن هذا جائز ، فصاروا يقولون ويكتبون من الأقوال التى فيها الشرك والتعزيم والإقسام بالشرك والشياطين ما تحبه الشياطين وتختاره ويساعدونهم لأجل ذلك على بعض مطالب الإنس إما إخبارا بأمور غائبة يخلطون فيها كذبا كثيرا ، وإما تصرف فى بعض الناس ، كما يقتل الرجل أو يمرض بالسحر أو تسرق الشياطين له بعض الأموال ونحو ذلك مما فيه إعانة الشياطين للإنس على أمور تريدها الإنس لأجل مطاوعة الإنس وموافقتهم للشياطين على ما تريده الشياطين من الكفر والفسوق والعصيان .

وكثير منهم يضيف ذلك إلى سليمان وإلى « آصف بن برخيا » ويصورون خاتم سليمان ، وقد يأخذون الرجل الذى صار من إخوانهم إلى مواضع فيرونه

شخصاً ، و يقولون : هذا سليمان بن داود ، كما قد جرى مثل ذلك لمن نعرفه من المشايخ الذين كانت تقترن بهم الشياطين ، وكان لهم خوارق شيطانية من جنس خوارق السحرة والكهان .

فنزه الله تعالى سليمان من كذب هؤلاء وهؤلاء الذين جعلوه يسخر الشياطين بنوع من الشرك والسحر ، هؤلاء جرّحوه ، وهؤلاء زعموا أنهم يتبعونه ، فقال تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلُوا الشياطين على مُلك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يُعلمون الناس السحر وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون * ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ ، [سورة البقرة : ١٠٢ ، ١٠٣] .

ومثل هذا كثير يحكى عن بعض الأنبياء ، أو بعض أهل العلم والدين ، من أمور ليست من شرع الله فيصدق بها بعض الناس ، وتصير فتنة لطائفتين مصدقتين بها :

طائفة تقدح فى ذلك النبي والرجل الصالح بما هو منه برىء .

وطائفة تقول إنها تتبعه فيم يقول ، وهـذا موجود فى كثير مما يحكيه أهل الكتاب عن الأنبياء ، فإن اليهود يذكر عنهم ما يقدح من نبوتهم .

والنصارى تجعل ذلك قدوة لهم فيما يبتدعونه وهذا مبسوط فى موضع آخر ، فالمقصود هنا أن الكلام الذى وُصف به المسيح إما وصفه به الأنبياء قبله ، أو أخبر به عن نفسه ، موجود مثله فى حق غيره ، ولم يكن أحدهم بذلك لاهوتا وناسوتا ، ولا اتحد اللاهوت بالناسوت ، ولا استحق أحدهم بذلك أن يُعْبَدَ

ويصلى له ويسجد ويدعا كما يدعا الله ، ويضاف إليه ما يضاف إلى الله من الخلق والبعث والثواب والعقاب ، وليس المسيح صلوات الله عليه آية خارقة إلا ولغيره مثلها وأعظم منها ، ولا قيل فيه كلمة ، إلا قيل فى غيره مثلها ، وأعظم منها إلا ما خصه فيه القرآن .

فصل فى الموهم التشبيه من آيات الكتب النبوية

قالوا : وقال « حيقوق » النبى : [إن الله فى الأرض يتراآى ، ويختلط مع الناس ويمشى معهم] .

وقال « أرميا » النبى : [الله بعد هذا فى الأرض يظهر وينقلب مع البشر ، فيقول : أنا الله رب الأرباب] .

والجواب : أن هذا يحتاج إلى تثبيت نبوة هذين ، وإلى ثبوت النقل عنهما ، وثبوت الترجمة الصحيحة المطابقة ، وبعد هذا يكون حكم هذا الكلام حكم نظائره ، ففى التوراة ما هو من هذا الجنس ، ولم يدل ذلك باتفاق المسلمين واليهود والنصارى على أن الله حلّ فى موسى ، ولا فى غيره من أنبياء بنى إسرائيل ، بل قوله يتراآى هو بمنزلة يتجلى ويظهر ، وقد ذكر فى التوراة أنه تجلى وتراآى لإبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم السلام من غير أن تكون ذاته حلت بأحد منهم ، وما فى القلوب من المثال العلمى وبمعرفته ومحبته وذكره يطلق عليه ما يطلق على المعروف بنفسه ، لعلم الناس أن المراد به المثال العلمى .

وما فى القلوب من معرفته للمعروف ومحبته ليس المراد به نفس المعروف المحبوب ، فإذا قال القائل : أنت والله فى قلبى أو فى سويداء قلبى ، أو قال له : والله مازلت فى قلبى ، ومازلت فى عينى ، ونحو ذلك علم جميع الناس أنه لم يرد ذاته ، فإذا رأوا من يذكر عالماً مشهوراً أو شيخاً مشهوراً ، فيذكر علمه وعمله ،

ويجيء ذلك بين الناس ، قالوا : قد صار فلان ، يعني المعروف المذكور عندنا وبين أظهرنا لعلم المخاطبين بالمراد .

ويقول أحدهم لمن مات والده : أنا والدك أي قائم مقامه ، ويقولون للولد القائم مقام أبيه : من خلّف مثلك مامات . وإذا رأوا عكرمة مولى ابن عباس الذي معه علمه يقولون : جاء ابن عباس ، وابن عباس بين الناس ، لأن مولاه نائب عنه ، وقام مقامه وإذا بعث الملك نائباً قائماً مقامه يقولون : جاء الملك الفلاني لأن هذا النائب قائم مقامه مظهر لأمره ونهيه وأحواله .

وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله : «عبدي مرضت فلم تعدني ، فيقول العبد : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ، أما لو عدته لوجدتني عنده . عبدي ، جعت فلم تطعمني ، فيقول : يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدي فلانا جاع فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي . عبدي ، عطشت فلم تسقني ، فيقول : رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدي استسقاك فلم تسقه ، أما لو سقيته لوجدت ذلك عندي » .

فجعل جوع عبده جوعه ، ومرضه مرضه ، لأن العبد موافق لله فيما يحبه ويرضاه ويأمر به وينهى عنه ، وقد عرف أن الرب نفسه لايجوع ولايمرض .

ومعلوم أن وصفه بالجوع والمرض أبعد من وصفه بالمشي بين الناس والاختلاط بهم ، ولهذا نظائر كثيرة موجودة في كلام الأنبياء وغير الأنبياء من الخاصة والعامة ، ولا يفهم عاقل من ذلك أن ذات المذكور اتحدت بالآخر ، أو حلت فيه إلا من هو جاهل كالنصارى .

والناس يرون الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك في الماء الصافي ، وفي المرآة المجلوة ، ونحو ذلك .

ويقول أحدهم : رأيت وجه فلانا في هذه المرآة ، ورأيت الشمس والقمر

فى المرآة أو فى الماء ، مع علم كل عاقل أن نفس الشمس والقمر وغيرها لم تحلا لا فى المرآة ولا فى الماء ، ولـكن هذه رؤية مقيدة رآها بواسطة المثال الذى تمثل فى المرآة أو الماء ، سواء كان ذلك شعاعاً منعكساً أو غير ذلك ، ومن هذا الباب قول القائل :

إذا ظهر الغدير على صفاء وجُنِّب أن يحركه النسيم
ترى فيه السماء بلا امتراء كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك قلوب أرباب التجلى يرى فى صفوها الله العظيم

فقد أخبر أن الله يرى فى قلوب العارفين ، كما ترى الشمس والنجوم فى الماء الصافى بل يتصور لأحدهم صورة من يعرفه بحمرة أو خضرة أو سواد ، فيقول : والله هذا هو فلان بعينه مع علمه ، وعلم كل من سمعه أنه مثاله المطابق لصورته لا عينه ، وذلك لمماثلة تلك الصورة لصورته يريد أن هذا تمثيل مطابق له لا يخالف .

ومن هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم : « من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً ، فإن الشيطان لا يتمثل فى صورتى » لم يرد أنه رأى جسدى الذى فى القبر ، وروحى التى فى الجنة حالة فى ذاته ، فإن هذا ممتنع لوجوه كثيرة ، فلهذا قال : « فإن الشيطان لا يتمثّل فى صورتى » .

ولما دخل جماعة من الصحابة على المقوقس ملك النصارى بمصر ، واستخبرهم عن دينهم فأخبروه بذلك ، فإذا عنده شبه الربعة العظيمة مذهبة ، وإذا فيها أبواب صغار ففتح منها بابا فاستخرج منه خرقة حرير سوداء فيها صورة بيضاء ، فإذا رجل طوال أكثر الناس شعراً ، فقال : أتعرفون هذا ؟ قالوا : قلنا : لا ، فقال : هذا آدم .

ثم أعاد وفتح بابا آخر ، فاستخرج حريرة سوداء فيها صورة بيضاء ، فإذ رجل ضخم الرأس عظيم شعر كشعر القبط أحمر العين ، فقال : أتعرفون هذا ؟ فقلنا : لا ، فقال : هذا نوح .

ثم أعاد وفتح باباً آخر فاستخرج حريرة سوداء فيها صورة بيضاء ، فإذا رجل أبيض الرأس واللحية ، كأنه يتبسم ، فقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، فقال هذا إبراهيم .

ثم أعاده وفتح باباً آخر فاستخرج حريرة سوداء فيهاصورة بيضاء ، قال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : هذا والله محمد رسول الله .

قال : والله يعلم أنه قام ثم قعد ثم قال : الله بدينكم إنه بينكم ! قلنا : الله بديننا إنه نبينا كأنما ننظر إليه .

ثم قال : أما إنه كان آخر الأبواب ، ولكنى عجلته لكم لأنظر ما عندكم .

ثم أعاد وفتح باباً باباً وهو يقول : هذا موسى ، هذا هارون ، هذا داود ، هذا سليمان ، هذا عيسى

وهذا كله لظهور المراد ومعرفة الناس بمقصود المتكلم ، كما يقال لمن كتب اسمه فى كتاب : هذا فلان .

ومعلوم أن الموجود فى الكتاب اسمه المكتوب ، لاذاته الموجودة فى الخارج ، ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿وكل شىء فعلوه فى الزُّبر﴾ ، [سورة القمر : ٥٢] .

وإنما فى الزبر ذكر أعمالهم وكتابة ذلك ، ويقال فى كتابة الوثائق : هذا ماأصدق فلان ، وهذا ما يقاضى عليه فلان وفلان ، ويقال : هذا ذكر ما أصدق فلان أو يقاضى عليه فلان وفلان فيشار إلى الموجود تارة ، وإلى ذكره تارة .

ومعلوم أن الموجود فى الكتاب ذكره لاعينه ، بل ذلك وجود الخط فى الأذهان المطابق لذكره باللفظ .

والشىء له وجود فى الأعيان ، ووجود فى الأذهان ، ووجود فى اللسان ، ووجود فى البنان ، ووجود عينى وعلمى ورسمى ولفظى ، وفى كل من الأربعة يذكر ، ويشار إليه مع القرائن والضمائر التى تبين تارة أن المشار إليه هو الخط المطابق للفظ ، وتارة تكون الإشارة إلى اللفظ المطابق للمعنى .

ومعلوم أن المعنى الذى فى القلب أقرب إلى الموجود فى الخارج من اللفظ والخط ، فإذا أشير إلى ما فى قلب العارف بعين المحب له الذاكر له ، فإنه المعروف المحبوب ، كان أقرب لاسيا وقد يغلب الذكر والمعرفة والمحبة على القلب حتى يغيب بموجوده عن وجوده ، و بمعروفه عن معروفه ، و بمذكوره عن ذكره ، حتى يقول أحدهم فى هذه الحال : سبحانى ، أو ما فى هذه الجبة إلا الله .

ومعلوم أن ذات الله تبارك وتعالى ليست الذى فى قلبه ، بل فى قلبه مثاله العلمى ومعرفته ومحبته ، فغاب بذلك عن نفسه ، هذا وإن كان يقوله الغالط ، فيقول من ليس بغالط : الله فى قلب فلان ، وفلان ما عنده إلا الله ، ومن أراد الله فليذهب إلى فلان ، وليس مرادهم أن ذات الله فى قلبه ، بل مثاله العلمى ومعرفته وذكره ومحبته ، وأنه لا يعبد إلا الله ، ولا يرجو إلا إياه ولا يخاف إلا إياه ، ولا يعمل إلا بالله ، ولا يأمر إلا بطاعته فيغنى بعبادته عن عبادة ما سواه ، وبطاعته عن طاعة ما سواه ، و بمحبته عن محبة ما سواه .

فما قيل فى المسيح عليه السلام وأمثاله من هذا فهو حق لكن لا اختصاص للمسيح بهذا .

وإذا كان مثل هذا الكلام كثيراً موجوداً فى كلام الأنبياء وغيرهم ، بل هو المعروف فى كلامهم ولا يوجد قط عن أحد من الأنبياء أنه جعل ذات الله فى قلب أحد من البشر علم أن النصارى تركوا المحكم من كلام الأنبياء عليهم السلام ، وتمسكوا بالمتشابه كأمثالهم من الضلال ، فاشتبه عليهم المعلوم بالقلوب المذكور بالألسن بالموجود فى نفسه ، فظنوا أن نفس المثال العلمى هو الوجود العينى ، كما يظن ذلك كثير من الغالطين ، وهؤلاء يقولون بالحلول تارة ، وبالاتحاد أخرى ، ولا يفرقون بين حلول الإيمان والمعرفة والمثال العلمى فى القلب وبين حلول الذات المعلومة المحبوبة .

ولهذا يعتقد كثير من هؤلاء أنهم يكلمون الله ويكلمهم ، ويقول أحدهم :

أوقفنى ، وقال لى ، وقلت له . وتكون مخاطبته ومناجاته مع هذا المثال العلمى بحسب ما عندهم من الاعتقاد فى الله تعالى ، وكثير منهم يتمثل له الشيطان ويقول : أنا ربك فيخاطبه بظنه ربه ، وإنما هو الشيطان .

ومنهم : من يرى عرشاً عليه نور ، أو يرى ما يظنه الملائكة وهم شياطين ، وذلك شيطان .

وكثير من هؤلاء يظن أنه أفضل من الأنبياء ، وأنه يدخل إلى الله بلا إذن خلاف الأنبياء ويكون ذلك الإله الذى يعتقده هو الشيطان ، والذين لا يتمثل لهم الشيطان يخاطب أحدهم من فى قلبه فتخاطبه تلك الصورة العلمية ويقدر أنها تخاطبه ، ويظن ذلك مخاطبة الحق له .

وهذا كالرجل يذكر بعض أصحابه فيمثله فى قلبه ويخاطبه مخاطبة من يعاتبه أو يعتذر إليه ، ويقدر خطاب تلك الصورة ، ويقول قلت لك : كذا ، وقلت لى : كذا .

ونفس الشخص لا يكلمه ولا يسمع كلامه ، وإنما هو المثال كما قد يصور صورة الإنسان يخاطبها الإنسان ويقدر ذلك مخاطبة لصاحب الصورة والنصارى ادخل فى هذا من غيرهم ، فإنهم يخاطبون الصور الممثلة فى الكنائس كصورة مريم والمسيح والقديسين ، ويقولون : إنما نقصد خطاب أصحاب تلك الصورة نستشفع بهم .

وهذا مما حرمه الله على ألسن جميع النبيين ولم يشرع لأحد أن يدعو الملائكة ولا الأنبياء والصالحين الأموات ، فكيف بالصور الممثلة لهم كما قد بسط فى موضع آخر .

والمقصود هنا أن كثيراً ما يوجد فى كلام الناس الأنبياء وغيرهم من ذكر ظهور الله عز وجل ، والمراد به ظهوره فى قلوب عباده بالمعرفة والمحبة والذكر .

ولهذا لما كان يقصد بذكر اسمه ذكر المسمى صار يقول من يقول : إن الاسم

هو المسمى أى أن المراد المقصود من الاسم هو المسمى لأن نفس اللفظ هو المسمى ، فإن هذا لا يقوله عاقل وتنزيه الاسم وتسبيحه تنزيه للمسمى وتسبيح له .

كما قال تعالى: ﴿سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوّى﴾ [سورة الأعلى: ١،٢] وقال : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ ، [سورة الواقعة : ٩٦] . وقال : ﴿ تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام ﴾ ، [سورة الرحمن : ٧٨] .

وجاء فى حديث : «لا تقوم القيامة حتى لا يعبد الله اسم » أى لا يعبد الله باسم من أسمائه ، فإنه إذا قيل : دعوت الله وعبدته ، فإنما فى اللفظ الاسم والمقصود هو المسمى .

وهذا الذى ذكرناه من تفسير ظهور اللاهوت فى المسيح وغيره بأن المراد ظهور ما فى القلوب من توحيد الله ومعرفته ومحبته وذكره ونوره وهداه وروحه ، هو مما يفسر به ذلك كثير من علماء النصارى ، فإنهم يفسرون اتحاد اللاهوت بالناسوت بظهور اللاهوت فيه كظهور نقش الخاتم فى الشمع والطين .

ومعلوم أن الحال فى الشمع والطين هو مثال نقش الخاتم لا أن فى الشمع والطين شيئاً من الخاتم ، بل ظهر فيه نقش الخاتم .

وكذلك يظهر نور الله وروحه فى الأنبياء والصالحين ، وهذا المعنى لا يختص به المسيح عليه السلام ، بل يشترك فيه وسائر الرسل ، بل وكل مؤمن له من هذا نصيب بحسب إيمانه .

فصل فى معنى « عمانويل »

قالوا : وقال « أشعيا » النبى : [ها هى العذراء تحبل وتلد ابناً ، ويدعى اسمه عمانويل] .

وعمانويل كلمة عبرانية تفسيرها بالعربى « إلهنا معنا » فقد شهد النبى أن مريم ولدت اللاهوت المتحد بالناسوت كلاهما .

فيقال : ليس فى هذا الكلام أن مريم ولدت اللاهوت المتحد بالناسوت ، وأنها ولدت خالق السموات والأرض ، بل هذا الكلام يدل على أن المولود ليس هو خالق السموات والأرض ، فإنه قال : تلد ابناً .

وهذا نكرة فى الإثبات كما يقال فى سائر النساء : إن فلانة ولدت ابناً ، وهذا دليل على أنه ابن من البنين ليس هو خالق السموات والأرضين . ثم قال : ويدعى اسمه « عمانويل » فدل بذلك على أن هذا اسم يوضع له ، ويسمى به كما يسمى الناس أبناءهم بأسماء الأعلام ، أو الصفات التى يسمونهم بها .

ومن تلك الأسماء ما يكون مرتجلاً ارتجلوه .

ومنها ما يكون جملة يحكونها ، ولهذا كثير من أهل الكتاب يسمى ابنه عمانويل ، ثم منهم من يقول العذراء المراد بها غير مريم ، ويذكرون فى ذلك قصة جرت .

ومنهم من يقول : بل المراد بها مريم ، وعلى هذا التقدير فيكون المراد أحد معنيين :

إما أنه يريد أن إلهنا معنا بالنصر والإعانة ، فإن بنى إسرائيل كانوا قد خذلوا بسبب تبديلهم،فلما بعث المسيح عليه السلام بالحق كان الله مع من اتبع المسيح والمسيح نفسه لم يبق معهم ، بل رفع إلى السماء ولكن الله كان مع من اتبعه بالنصر والإعانة .

كما قال تعالى : ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوِّهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ ، [سورة الصف : ١٤] .

وقال تعالى : ﴿ وجاعلُ الذين اتَّبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ ، [سورة آل عمران : ٥٥] . وهذا أظهر .

وإما أن يكون يسمى المسيح إلها ، كما يقولون : إنه يسمى موسى إله فرعون أى هو الآمر الناهى له المسلط عليه ، وقد حرّف بعضهم معنى هذه الكلمة ،

فقال : معناها الله معنا ، فقال من رد عليهم علمائهم يقال لهم : أهذا هو القائل أنا الرب ولا إله غيري وأنا أميت وأنا أحيي ، أم هو القائل لله : إنك أنت الإله الحق وحدك الذي أرسلت يسوع المسيح؟ وإذا كان الأول باطلا والثاني هو الذي شهد به الإنجيل وجب تصديق الإنجيل وتكذيب من كذب في الإنجيل أن «عمانو يل» تأويله « الله معنا » بل تأويل عمانويل « معنا إله » وليس المسيح مخصوصاً بهذا الاسم ، بل عمانو يل اسم يُسَمّى به النصارى واليهود من قبل النصارى .

وهذا موجود في عصرنا هذا في أهل الكتاب من سماه أبوه عمانو يل معنى « شر بن القدر » ، قال : وكذلك السريان أكثرهم يسمون أولادهم عمانو يل ، قلت : ومعلوم أن الله مع المتقين والمحسنين والمقسطين بالهداية والنصر والإعانة ، ويقال للرجل في الدعاء : الله معك فإذا سمى الرجل بقوله : «الله معك» كان هذا تبركا بمعنى هذا الاسم ، وإذا قيل إن المسيح سمى الله معنا ، أو إلهنا معنا ونحو ذلك كان ذلك دليلا على أن الله مع من اتبع المسيح وآمن به فيكون الله هاديه وناصره ومعينه .

فصل في التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم

وقالوا : وقال أشعيا أيضاً : [إن غلاما ولد لنا ، وإننا أعطيناه الذي رياسته على عاتقيه وبين منكبيه ويدعى اسمه ملكا عظيم المشية مسيرا عجيبا إلهاقويا مسلطا رئيس السلامة في كل الدهور ، وسلطانه كامل ليس له فناء] ، فيقال: ليس في هذه البشارة دلالة بينة أن المراد به المسيح عليه السلام ، ولو كان المراد به المسيح لم يدل على مطلوبهم ، بل قد يقال المراد بها محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه الذي رياسته على عاتقيه وبين منكبيه من جهتين :

من جهة أن خاتم النبوة على بعض كتفيه وهو علامة من أعلام النبوة الذي أخبرت به الأنبياء وعلامة ختمهم .

ومن جهة أنه بعث بالسيف الذي يتقلد به على عاتقه ويرفعه . إذا ضرب به

على عاتقه ، و يدل على ذلك قوله : [مسلط رئيس قوى السلامة] ، وهذه صفة محمد صلى الله عليه وسلم المؤيد المنصور المسلط رئيس السلامة، فإن دينه الإسلام ومن اتبعه سلم من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، ومن استيلاء عدوه عليه .

والمسيح عليه السلام لم يسلط على أعدائه ، كما سلط محمد صلى الله عليه وسلم ؛ بل كان أعداؤه بحيث يقدرون على صلبه ، وعند النصارى قد صلبوه ، وعند المسلمين ألقى الله شبهه على غيره ، فصلب ذلك المشبه ، فبهذه الطريق دفع الله الصلب عنه لا بقهر أعدائه وإهلاكهم وذلهم له ، كما نصر الله محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ على أعدائه ، وقال : [فى كل الدهور سلطانه كامل ليس له فناء] وهذا صفة خاتم الرسل الذى لا يأتى بعده نبى ينسخ شرعه . وسلطانه بالحجة واليد كامل لا يحتاج فيه إلى الاستعانة بشرع آخر ، وشرعه ثابت باق إلى آخر الدهر .

فصل فى أن روح القدس هو روح الله

قالوا : وقال «أشعيا» : [أيضاً يخرج عصاه من بيت سى وينبث اور منها ؛ ويحل فيه روح القدس روح الله ، روح الحكمة والفهم ، روح الحيل والقوة ، روح العلم وخوف الله .

وفى تلك الأيام يكون أصل يسى آية للأمم ، وبه يؤمنون وعليه يتوكلون ، ويكون لهم النتاج والكرامة إلى دهر الداهرين]

والجواب : إن هذا الكلام بعد المطالبة بصحة نقله عن النبى ، وصحة الترجمة له باللسان العربى هو حجة على النصارى لا لهم ، فإنه لا يدل على أن المسيح هو خالق السموات والأرض ، بل يدل على مثل ما دل عليه القرآن من أن المسيح عليه السلام أيد بروح القدس ، فإنه قال : [ويحل فيه روح القدس ، وروح الله ، روح الحكمة والفهم ، روح الحيل والقوة ، روح العلم وخوف الله] ، ولم يقل تحل فيه حياة الله فضلا عن أن يقول حل فيه الله أو اتحد به ، ولكن جعل روح القدس

هى روح الله ، وهى روح الحكمة والفهم والعلم ، وهى روح الحيل والقوة .

كما أن عندهم فى التوراة أن الذين كانوا يعملون فى قبة الزمان حلت فيهم روح الحكمة روح الفهم ، وروح العلم فهى ما يحصل به الهدى والنصر ، كما قال تعالى : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوبَ أولى الأيدى والأبصار ﴾ ، [سورة ص : ٤٥] . فقال : هى روح الله ، وهذا كقوله تعالى : ﴿أولئك كتب فى قلوبهم الإيمانَ وأيّدهم بروح منه﴾.[سورة المجادلة : ٢٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ ، [سورة الشورى : ٥٢] .

وقال تعالى ﴿ ينزّل الملائكة بالروح من أمره ﴾ ، [سورة النحل : ٢] فما أنزله يسمى هدى الله ، وروح الله ، ووحى الله ، ونور الله ، ونحو ذلك .

وقال تعالى لما ذكر أنبياءه من ذرية إبراهيم فقال : ﴿ ومن ذريته داود وسليمانَ وأيوبَ ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصّالحين * وإسماعيل واليسعَ ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ﴾ ، [سورة الأنعام : ٨٤ ـ ٨٨] .

وقال تعالى : ﴿ فإما يأتينكم منّى هُدًى فمن اتّبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ [سورة طه : ٢] . وسماه نور الله كقوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مَثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباحٌ المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّىٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يُضىء ولو لم تمسسه نار نورٌ على نورٍ يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾ ، [سورة النور : ٣٥] .

فهذا هدى الله ، ونور الله هو روح الله كما قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ ، [سورة الشورى : ٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ ، [سورة المجادلة : ٢٢] .

فصل فى أن المسيح إنما هو رب الملائكة

قالوا : وقال « أشعيا » أيضاً : [من أعجب الأعاجيب أن رب الملائكة سيولد من البشر] .

فيقال : مثل هذا الكلام لابد أن يكون قبله كلام وبعده كلام ، وهو منقول من لغة إلى لغة ونحن نعلم قطعاً أنه لم يرد أن رب العالمين يولد من البشر ، ولو أراد ذلك لم يقل رب الملائكة فقط ، فإن الله رب كل شيء لكن قد يريد أنه يولد من البشر من يكون سيد الملائكة تخدمه وتكرمه ، كما سجدت الملائكة لأبى البشر آدم .

والنصارى يسلمون أن اللاهوت ما هو متولد من البشر ، وإنما المتولد من البشر هو الناسوت وليس هو رب العالمين بالاتفاق . فعلم أنه لا حجة لهم فى ظاهر اللفظ إن قدر سلامته من التغيير .

ونظير هذا ما عندهم فى إنجيل متى : [أن ابن الإنسان يرسل ملائكته ، ويجمعون كل الملوك ربا على الأمم فيلقونهم فى أتون النار] . قال بعض علماء أهل الكتاب : لم يرد بذلك أن المسيح هو رب الأرباب ، ولا أنه خالق الملائكة ، بل رب الملائكة ، أوصى الملائكة بحفظ المسيح بشهادة النبى القائل : [إن الله يوصى ملائكته بك ليحفظوك] .

ثم شهادة « لوقا » أن الله أرسل له ملكا من السماء ليقويه قال : « وإذا

شهد الإنجيل باتفاق الأنبياء والرسل بأن الله يوصي ملائكته بالمسيح فيحفظونه على أن الملائكة تطيعه للمسيح بالأمر ، وهو والملائكة فى خدمة رب العالمين .

وقال المسيح لتلاميذه : [من قبلكم فقد قبلنى ، ومن قبلنى فقد قبل من أرسلنى] .

وقال المسيح : [من أنكرنى قدام الناس أنكرته قدام ملائكة الله] .

وقال للذى ضرب عبد رئيس الكهنة : [أغمد سيفك ، ولا تظن أن لا أستطيع أن أدعو الله الأب فينقم لى أكثر من اثنى عشر جوقا من الملائكة] .

فصل فى شهادة علمائهم على التحريف

قالوا : ومثل هذا القول فى كتب الله المنزلة على أفواه الأنبياء والرسل شىء كثير عند النصارى جميعهم ، المختلفة ألسنتهم المفرقين فى سبعة أقاليم العالم المتمسكين بدين النصرانية ، قول واحد ونص واحد ، على ما تسلموه من الحواريين حين أنذروهم وردوهم عن عبادة الأصنام إلى معرفة الله تعالى ، سلموها إليهم كل أمة بلسانها ، وهى على هيئتها إلى يومنا هذا .

والجواب عن هذا من وجوه :

أحدها : أن القول فى سائر ما يذكرونه من النصوص كما تقدم ، وقد تكلم على هذا من تكلم عليه من علماء النصارى الذين هداهم الله ، و بينوا ما وقع فى ذلك من تحريفهم لمعانى الكتب التى عندهم ، وذكروا مما عندهم من النصوص الصريحة بأن المسيح عبد الله ليس هو الله ما يتبين به بطلان قولهم ، وأنهم عن تركوا المحكم من الآيات واتبعوا المتشابه ، ولهذا أنزل الله فيهم : ﴿ فأما الذين فى قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم ، يقولون آمنا به كلٌ من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧] .

وهذا كقول المسيح عليه السلام لما سئل عن علم الساعة فقال : [لا يعلمها إنسان ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الإبن إلا الأب فقط] ، فنفى عن نفسه علم الساعة ، وهذا يدل على شيئين : على أن اسم الإبن إنما يقع على الناسوت دون اللاهوت ، فإن اللاهوت لا يجوز أن ينفى عنه علم الساعة ، ويدل على أن الإبن لم يكن يعلم ما يعلمه الله ، وهذا يبطل قولهم بالاتحاد ، فإنه لو كان الاتحاد حقا كما يزعمون لكان الإبن يعلم ما يعلمه الله ويقدر على ما يقدر عليه ، فإنه هو الله عندهم والناسوت لا يتميز عندهم عن اللاهوت فيما يوصف به المسيح من كونه عالما قادرا يحيى ويميت .

وقال المسيح لتلاميذه: [آمنوا بالله وآمنوا بى] ، وقال أيضاً : [من يؤمن بى فليس يؤمن بى فقط ، بل وبالذى أرسلنى] ، وهم يذكرون أن المسيح عليه السلام استصرخ لله قائلا : [إلهى إلهى انظر لماذا تركتنى وتباعدت عن خلاصى] .

الوجه الثانى قولهم إن هذه الكتب التى بأيديهم من التوراة والإنجيل ، وسائر النبوات تسلموها من الحواريين كل أمة بلسانها ، وهى على هيئتها قول لم يقيموا على صحته دليلا ، بل ادعوا ذلك دعوى مجردة .

ومثل هذا النقل إن لم يثبت بالتواتر لم يحتج به فى المسائل العلمية ، لا سيما إذ قيل فى الوجه الثالث : إن هذا كذب ظاهر ، فإن كثيراً من الألسنة ليس عند أهله إنجيل قديم ، ومن ذلك لسان العرب ، فإن العرب النصارى كثيرون قبل الإسلام ، ولا تعرف توراة ولا إنجيل ولا نبوات عربية ، إلا ما عُرِّب من النسخ العبرية والرومية والسريانية ، ونحن نطالبهم بهذه الكتب التى هى بالعربية التى فى زمن الحواريين أين هى ، ومن رآها ؟ ولو قدر أنها كانت بالعربية ، فهذه النسخ اليوم العربية الموجودة بأيدى الناس هى مما عُرِّب مما بأيديهم ، وحينئذ

فلا تعرف صحتها إن لم تعرف صحة الترجمة ، ويثبت نقل تلك عن المسيح عليه السلام ، وهكذا القول فى سائر الألسن .

الوجه الرابع : أن التوراة والنبوات التى نقلت من نسخ اليهود والأناجيل هى أربعة كتبت بعد المسيح عليه السلام ، واثنان ممن كتبها لم يريا المسيح ، وهما لوقا ، ومرقس ، واثنان رأياه وهما يوحنا ، ومتى .

والنسخ إنما كثرت عن الأربعة وما ينقله الأربعة لايجب أن يكون متواترا معلوماً ، وإذا كثرت الألسن بها فمن بعد الأربعة ، لا إن الذين سمعوها من المسيح عليه السلام تكلموا باثنين وسبعين لساناً ، فإن هذا لم يقله أحد ، ولا يقوله عاقل ، إذ الحواريون كانوا اثنى عشر لم يكونوا اثنين وسبعين ، فإذا قيل إنه نقلها اثنان وسبعون فهم نقلوها عمن نقلها إليهم من الحواريين ، وهم إنما يسندون نقلها إلى الأربعة .

الوجه الخامس : أن الحواريين ليسوا معصومين ، بل يجوز على أحدهم الغلط فى بعض ما ينقله ، وما ينقل من خوارقهم للعادات ، فمن الناس من يكذبه ، ومنهم من يصدقه ولا دلالة فيه على عصمتهم ، إلا أن يثبت أنهم ادعوا النبوة ، وأقاموا المعجزات الدالة على نبوتهم ، ولم يكن الأمر كذلك ، وإلا فالصالحون إذا كانت لهم كرامات لم تدل كراماتهم على أنهم معصومون كالأنبياء ، بل يجوز عليهم الغلط مع ثبوت كراماتهم .

والحواريون عندهم ليسوا بأنبياء وإن سموهم رسلاً ، فهم رسل المسيح لارسل الله تبارك وتعالى .

الوجه السادس : أن فى هذه الكتب التى بأيديهم ما يناقض قولهم من الأقوال الصريحة الكثيرة ماهو أكثر وأصرح مما احتجوا به على قولهم .

والواجب حينئذ التمسك بالصريح المحكم ، ورد المتشابه ، لايجوز التمسك بالمتشابه به ورد المحكم إليه .

الوجه السابع : أنه بتقدير أن يكون فى الأرض هذه الكتب باثنين وسبعين لسانا ـ سواء كانت منقولة عن الحواريين نقلا صحيحا ، أو كان نقل أكثرها أو كثير منها ـ مترجمة من لغة إلى لغة .

فمعلوم أنه بكل لسان عدة نسخ ، ولو لم يكن بها إلا لسان واحد مع كثرة النسخ بها فى مشارق الأرض ومغاربها لم يمكن أحداً أن يقطع بأن جميع النسخ على لفظ واحد ونص واحد كما ادعاه هؤلاء فى الإثنين وسبعين لسانا ، حيث قالوا مثل هذا القول فى كتب الله المنزلة على أفواه الأنبياء والرسل كثير عند النصارى جميعهم ، المختلفة ألسنتهم ، المتفرقين فى سبعة أقاليم العالم ، المتمسكين بدين النصرانية ، قول واحد ونص على ما تسلموه من الحواريين ، وردوهم عن عبادة الأصنام فسلموها إليهم كل أمة بلسانها ، وهى على هيئتها إلى يومنا هذا ، فإن هذا الكلام يتضمن عدة دعاوى ليس فيها ما يمكن قائله أن يكون عالما به فعلم أن هؤلاء تكلموا بهذا الكلام بلا علم ، بل بالجهل والضلال ، كما هو عادتهم ، فإنه يقال لهم : من الذى جمع كل نسخة فى العالم من جميع التوراة والإنجيل والزبور وسائر النبوات الأربعة والعشرين بلسان واحد كالعربى مثلا ، وهل ميز جميع النسخ فلم يجد نسخة تزيد على نسخة ولا تنقص عنها ؟

ومعلوم إن كان هذا ممكنا أمكن أن يقال : جمعها جامع وغير بعض ألفاظها ، فلا يمكنهم دعوى بقائها بلا تغيير ، وإن لم يمكن ذلك لم يمكن أحداً أن يقول : أنا أعلم موافقة كل نسخة من نسخ هذه الكتب لكل نسخة توجد فى سبعة أقاليم العالم بذلك اللسان ، فضلا عن اثنين وسبعين لسانا ، فضلا عن أن يقال : أنا أعلم أن هذه الألسن كلها تكلمت بها الحواريون ، وهى باقية على لفظهم إلى اليوم .

ومعلوم أن الإنسان إذا أمكنه جمع نسخ كتاب واحد من جميع الفنون

من كتب الطب والحساب والهندسة والنحو والفقه والحديث كان إمكان تغيير بعض ألفاظ تلك النسخ أيسر عليهم من مقابلة ألفاظ كل نسخة بألفاظ تلك النسخ مثلها .

فإن هذا لا يقدر عليه فى العادة ، بل هو متعذر أو متعسر ، ولاسيما المقابلة إن كانت بين اثنين فكل منهما ينقل الآخر لفظ نسخته فيكون مدار المقابلة على خبر واحد لم يقترن بخبره ما يعلم به صدقه ، فقد يغلطان أو يكذبان جميعاً .

و إن كانت بين عدد يحصل بهم العلم احتاجت كل نسخة بكل لسان إلى أن يشهد بلفظها جمع يحصل بهم العلم ؛ وأولئك بأعيانهم يشهدون بلفظ كل نسخة بكل لسان ، وشهدوا بلفظ كل نسخة ، و يشهد لهم من هو مثلهم بلفظ النسخة الأخرى وموافقتها لها ، وهؤلاء أو مثلهم بموافقة النسخة الثانية .

ومعلوم أن هذا لم يفعله أحد ولا يقدر عليه أحد ، بل لو اجتمع جميع ملوك النصارى على ذلك وعلماء بلادهم على ذلك لم يقدروا عليه ، فإن من النسخ ما هو عند المسلمين ، ومنها ما هو فى بلاد لا حكم لهم عليها ، وأيضاً فقد يكون فى بلادهم من النسخ ما لم يظهرها أصحابها .

فكل من شهد من النصارى وغيرهم بأن كل نسخة فى العالم بهذه الكتب توافق جميع النسخ فهو شاهد زور شهد بما لا يعلم ، بل شهد بما يعلم أنه كاذب فيه ، وكذلك لو شهد بمثل هذا النسخ أى كتاب كان ، فإن العادة المعروفة أن نسخ الكتب تختلف و يزيد بعضها و ينقص بعضها . والقرآن المنقول بالتواتر لم يكن الاعتماد فى نقله على نسخ المصاحف ، بل الاعتماد على حفظ أهل التواتر له فى صدورهم .

ولهذا إذا وجد مصحف يخالف حفظ الناس أصلحوه ، وقد يكون فى بعض نسخ المصاحف غلط ، فلا يلتفت إليه مع أن المصاحف التى كتبها الصحابة

قد قيد الناس صورة الخط ورسمه ، وصار ذلك أيضاً منقولا بالتواتر ، فنقلوا بالتواتر لفظ القرآن حفظاً ، ونقلوا رسم المصاحف أيضاً بالتواتر .

ونحن لا ندعى اتفاق جميع نسخ المصاحف كما لا ندعى أن كل من يحفظ القرآن لا يغلط ، بل ألفاظه منقولة بالتواتر حفظاً ورسماً فمن خرج عن ذلك علم الناس أنه غالط لمخالفته النقل المتواتر ، بخلاف هذه الكتب ، فإن النصارى لم يحفظوها كلها فى قلوبهم تلقيا لها عن الحواريين حفظاً منقولا بالتواتر ، بل لم يكن أحد منهم يحفظها كلها ، فضلا عن أن يحفظها كلها أهل التواتر ، فضلا عن أن يحفظ كل لسان منها من تواتر بهم ذلك اللسان .

وهذا أمر معلوم لجميع النصارى وغيرهم أنه لم يحفظها كلها بكل لسان من زمن الحواريين عدد التواتر ، بل ولا فى زمن من الأزمان ، بل بعد انتشار النصارى وكثرتهم وتفرقهم فى الأقاليم السبعة لا يكاد يوجد فيهم من يحفظها كلها عن قلبه ، كما يحفظ صبيان مكاتب المسلمين القرآن ، فكيف يحفظها فى كل زمان أهل التواتر ؟ فكيف يحفظ كل لسان من الإثنين وسبعين أهل التواتر ؟

وإذا كان اعتمادهم إنما هو على الكتب ، وهم لا يمكنهم معرفة اتفاق جميع النسخ بلسان واحد فضلا عن جميع الألسنة علم أن دعواهم إنها لم تزل متفقة على نص واحد ولفظ واحد ، وأن جميع نسخها متفقة فى هذا الزمان ، وفيما قبله كلام مجازف يتكلم بلا علم . بل يتكلم بما يعلم أنه باطل .

الوجه الثامن : أن هذا لو قدر إمكانه ، فإنما يكون منقولا لو لم يعلم أنه كذب فكيف مع العلم بأنه كذب ؟ فإنه يوجد فى هذا الزمان نسخ التوراة والإنجيل والزبور والنبوات مختلفة متناقضة .

والنسخ التى عند النصارى مختلفة ، وهى أيضاً تخالف نسخ اليهود والسامرة

فى مواضع ، وحينئذ فإذا قالت النصارى : نسخنا هى الصحيحة لم يكن هذا أولى من قول اليهود : نسخنا هى الصحيحة .

بل معلوم أن اعتناء اليهود بالتوراة أعظم من اعتناء النصارى ، ثم بعد هذا ما ذكروه لا يكفى إن لم يعلم أن نسخهم توافق النسخ التى عند اليهود حتى السامرة ، وهذا غير معلوم .

وإن قالوا : إذا خالف نقل اليهود لنقل الحواريين لم يلتفت إليه لأنهم معصومون كان هذا مبنياً على دعوى عصمتهم ، وقد عرف فساده ، وإذا قالت النصارى : نحن ننقلها عن الحواريين المعصومين ، قالت اليهود : نحن ننقلها عن موسى المعصوم باتفاق أهل الملل ، أو عن العارف المعصوم باتفاق اليهود والنصارى ، وكثير من المسلمين . فالتوراة باتفاق الخلق مأخوذة عن موسى ابن عمران وهو معصوم ، وإنما يطعن من يطعن فى نقل بعضها ، لانقطاع التواتر فى أثناء المدة لما خرب البيت المقدس ولم يبق فيه ساكن أكثر من سبعين سنة ، فيقول بعض الناس : إن بعض ألفاظها غيّر حينئذ ، ويقول بعضهم : لم تغير ألفاظ جميع النسخ وإنما غير ألفاظ بعض النسخ ، وانتشرت النسخ المغيرة عند كثير من الناس حتى لا يعرفون غيرها ، ثم بنو إسرائيل لم يزل فيهم نبى بعد نبى حتى جاء المسيح .

وبعد المسيح فلم يزالوا خلقاً كثيراً لا يمكن تواطؤهم — فى مشارق الأرض ومغاربها — على تغيير جميع نسخ التوراة ، بخلاف الإنجيل فإنه إنما نقله أربعة ، ومن كتب التوراة والزبور والنبوات من أتباع المسيح ، فإنما كتبوها من النسخ التى كانت بأيدى اليهود .

وإذا قالوا : كانوا معصومين ، فهذا ممنوع عند المسلمين واليهود ، وعلى تقدير تسليمه فاليهود ينقلونها أيضاً عن المعصوم قبل هؤلاء ، فلا يمكن مع هذا أن يدعى مدع أن النبوات التى عند النصارى تواترت عن المعصوم أعظم

من تواتر ما عند اليهود ، بل لا يشك العقلاء العادلون أن نقل حروف التوراة أصح من نقل حروف الإنجيل

وهذا أمر يعرف من وجوه متعددة ؛ فإن التوراة أخذت عن المعصوم باتفاق أهل الملل ، وكانت منقولة قبل المسيح بين الأنبياء و بين بنى إسرائيل أعظم من نقل الإنجيل ، و بعد المسيح نقلها اليهود والنصارى .

و إذا كان كذلك ، فإذا وجد ما عند اليهود والسامرة من نسخ النبوات يخالف ما عند النصارى فى بعض الألفاظ كان هذا دليلا على أن هذه الكتب ليست ألفاظها منقولة عن نص واحد ، وأنه ليس كل لفظ من ألفاظها متواتراً ، والله أعلم .

الوجه التاسع : أن جميع ماعندهم من النصوص الصحيحة لايدل على مذهبهم ألبتة نصا ، بل غاية ما يدعون فيها الظهور ، وهم منازَعون فى ذلك حتى يقال ، بل الظاهر فيما يحتجون به خلاف قولهم .

ومعلوم أن أصول الإيمان التى يؤمن أهل الإيمان بها ، و يكفرون من خالفها لابد أن تكون معلومة عندهم عن الأنبياء ، والعلم لا يحصل بلفظ علم محتمل فعلم أنه لاعلم عندهم عن الأنبياء عليهم السلام ، وهو محل النزاع .

الوجه العاشر : أن أصرح ما عندهم من التثليث ، هو قوله : [عمدوا الناس باسم الأب والإبن وروح القدس] ، وعلى هذا القول بَنَوْا قولهم بالتثليث ، وأثبتوا لله ثلاثة أقانيم .

ولفظ الأقانيم لم ينطق به أحد من الأنبياء ، ولا أحد من الحوار يين باتفاقهم ، بل هو مما ابتدعوه . قيل : إنه لفظ رومى معناه : الأصل ، ثم أقنوم الإبن تارة ، يقولون « هو علم الله » وتارة يقولون : « هو حكمة الله » وتارة يقولون : « هو كلمة الله » وتارة يقولون : « هو نطق الله وروح القدس » ، وتارة يقولون : « هو حياة الله » وتارة يقولون : « هو قدرة الله » .

والكتب المنقولة عن الأنبياء عندهم ليس فيها تسمية شيء من صفات الله لا باسم ابن ولا باسم روح القدس ، فلا يوجد[1] أن أحداً من الأنبياء يسمى علم الله وحكمته وكلامه ابناً ، ولا سمى حياة الله أو قدرته روح القدس ، بل روح القدس فى كلام الأنبياء يراد بها معنى ليس هو حياة الله ، كما يراد بها ملك الله أو ما ينزله فى قلوب الأنبياء والصالحين من هداه ونوره وتأييده ، ونحو ذلك .

وإذا كان كذلك علم أن ما فسروا به قول المسيح عليه السلام : [عمدوا الناس باسم الأب والإبن وروح القدس] ، كذب صريح عليهم ، وكذلك ما فسروا به كلام الأنبياء من إثبات الأقانيم الثلاثة كذب صريح عليهم ، كقولهم إله إبراهيم وإله اسحق وإله يعقوب أرادوا به إثبات ثلاثة آلهة ، فإن هذا مما يعلم بالضرورة ضلالهم فيه وافتراءهم على الأنبياء ، ويعلم أن إله الثلاثة هو إله واحد ليس إله إبراهيم إله آخر غير إله إسحاق حتى لو قيل بالأقانيم ، فلا يقول عاقل : إن أحد الأقانيم إله هذا ، والأقنوم الآخر إله الآخر ، فإن هذا لم يقله أحد من العقلاء ، لا النصارى ولا غيرهم ، يقولون : إن الأب إله إبراهيم مثلا ، والإبن إله اسحاق وروح القدس إله يعقوب بل هم متفقون مع قولهم بالتثليث إن الجميع إله واحد لجميع المرسلين ، ليس إله هذا أقنوما وإله الآخر أقنوما آخر ، فعلم أن ما يفسرون به كلام الأنبياء كذب ، لا يصح لا على تثليثهم الذى ابتدعوه ، ولا قول أهل التوحيد لرسل الله تعالى .

فصل فيما بدله اليهود وغيروه وكفروا به

قال الحاكى عنهم : فقلت لهم : إذا كانت هذه النبوات عند اليهود ، وهم مقرون معترفون بها أنها حق وأنها عتيدة أن تكمل عند مجيء المسيح فأى حجة لهم يحتجون بها عن الإيمان به ؟

(١) قوله : « فلا يوجد » الأصح أن يقال فلم يعلم أن أحداً . . . إلخ .

أجابوا قائلين إن الله اختار بنى إسرائيل واصطفاهم على الناس له شعباً فى ذلك الزمان ، وحيث كانوا فى أرض مصر فى عبودية فرعون أرسل إليهم موسى النبى دلّهم على معرفة الله ، ووعدهم أن الله يخلصهم من عبودية فرعون ، ويخرجهم من مصر ويريهم أرض الميعاد التى هى أرض بيت المقدس ، فطلب موسى من الله وعمل العجائب قدام عيونهم .

وضرب أهل مصر العشر ضربات ، وهم يرون ذلك جميعه ، ويعلمون أن الله يصنعه لأجلهم وأخرجهم من مصر بيد قوية وشق لهم البحر وأدخلهم فيه ، وصار لهم الماء حائطاً عن يمينهم وحائطا عن شمالهم ، ودخل فرعون وجميع جنوده فى البحر وبنو إسرائيل ينظرون ذلك ، فلما برز موسى وبنو إسرائيل من البحر ، وخلفهم فرعون بجنوده فيه أمر الله لموسى أن يرد عصاه إلى الماء فعاد الماء كما كان وغرق فرعون وجميع جنوده فى البحر وبنو إسرائيل يشهدون ذلك .

فلما غاب عنهم موسى أتى الجبل ليناجى ربه وأخذ لهم التوراة من يد الله وتركوا عبادة الله ونسوا جميع أفعاله ، وكفروا به وعبدوا رأس العجل من بعد ذلك ، ثم عبدوا الأصنام مراراً كثيرة ليس مرة واحدة ، وذبحوا لها الذبائح ليست حيوانات بل بنيهم مع البنات حسبما ذكر فيما قبل ذلك ، وجميع أفعالهم مكتوبة فى أخبار بنى إسرائيل ، فلما رأى الله قساوة قلوبهم وغلظ رقابهم وكفرهم به ، ورأى أفعالهم النجسة الخبيثة غضب عليها وجعلهم مرذولين ، وطبع على قلوبهم فلا يؤمنون ، وجعلهم مهانين فى جميع الأمم وليس لهم ملك ولا بلاد ولا نبى ولا كاهن إلى الأبد حسبما تنبئت عليهم الأنبياء على ما ذكرناه قبل ، وتشهد به كتبهم التى فى أيديهم إلى يومنا هذا .

وكذا قال الله لأشعيا : [اذهب إلى هذا الشعب ، فقل لهم تسمعون سماعا ولا تفهمون ، وتنظرون نظراً ولا تبصرون ، لأن قلب هذا الشعب قد غلظ وقد سمعوا

بأفواههم سمعاً ثقيلا ، وقد غمضوا أعينهم لئلا يبصروا بها وسمعوا بآذانهم ولا يفهمون بقلوبهم ويرجعون إلى فأرحمهم] .

وقال أشعيا : [قال الله : هكذا مقت نفسى سبوتكم ورءوس شهوركم صارت عندى مرذلة] وقال : وفى ذلك اليوم يقول الله : [سأبطل السبوت والأعياد كلها وأعطيكم سنة جديدة مختارة لا كالسنة التى أعطيتها لموسى عبدى « يوم خوريب » يوم الجمع الكثير ، بل سنة جديدة مختارة أمر بها وأخرجها من صهيون] فصهيون هى أورشليم ، والسنة الجديدة المختارة : هى السنة التى تسلمناها نحن معشر النصارى من يدى الرسل الحواريين الأطهار الذين خرجوا من أورشليم ، وداروا فى سبعة أقاليم العالم وأنذروا بهذه السنة الجديدة فأى بيان يكون أوضح وأصح من هذا البيان ، إذ قد أوردناه من قول الله ، ولا سيما وأعداؤنا اليهود المخالفون لدينا شهدوا لنا بصحة ذلك جميعه .

وأما حجة اليهود فى هذه النبوات يقولون ويعتقدون أنها حق وأنها قول الله ، لكن يقولون : إنها عتيدة أن تكمل وتتم عند مجىء المسيح ، لكن المسيح ينكرون مجيئه ، ويقولون : بعد ما جاء ، وأن الذى جاء ليس هو المسيح ، هذا قولهم وكفاهم أنهم يكفرون ويفتخرون مع الكفر ، ويقولون إن المسيح كان ضالا مضلا ، وأما المسيح الحق فعتيد ، إنه يأتى ويكمل نبوات الأنبياء إذا جاء ، وإذا جاء اتبعناه وكنا أنصاره ، وهذا رأيهم واعتقادهم فى السيد المسيح ، فاذا يكون أعظم من هذا الكفر الذى هم عليه ؟

ولأجل ذلك فى هذا الكتاب سماهم المغضوب عليهم لأجل خلافهم لقول الذى أرسل نطقه على أفواه لأنبياء ، ولما كنا نحن النصارى متمسكين بما أمرنا به الرسل الأطهار سمانا فى هذا الكتاب المنعم عليهم ، وأما قولنا فى الله : ثلاثة أقانيم إله واحد ، فهو أن الله نطق به وأوضحه فى التوراة ، وفى كتب الأنبياء ، ومن ذلك ما جاء فى السفر الأول من التوراة يقول : [حيث شاء الله أن يخلق آدم قال : لنخلق

خلقاً عن شبهنا ومثالنا] ، فمن هو شبهه ومثاله سوى كلمته وروح قدسه ، وحين خالف آدم وعصى ربه [ها آدم قد صار كواحد منا] .

وهذا واضح أن الله قال هذا القول لإبنه ، أى كلمته وروح قدسه ، وقال هذا القول يستهزىء بآدم ، أى طلب أن يصير كواحد منا صار عريانا مفتضحاً.

وقال الله عندما أخسف بسدوم وعامورة،وقال فى التوراة:[وأمطر الرب من عند الرب من السماء على سدوم وعامورة ناراًو كبريتا] ، أوضح بهذا ربوبية الأب والإبن بذكر ثالث .

والجواب : أن يقال أما كفر اليهود كلهم لما أرسل المسيح عليه السلام إليهم فلم يؤمنوا به وكفر من كفر منهم قبل ذلك، إما بقتل النبيين ، وإما بتكذيبهم ، وإما بالشرك ، وإما بغير ذلك مما كفروا فيه فيه بما أنزل الله فهذا حق .

وهذا هو نظير كفر النصارى كلهم الذين بلغتهم دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأقام الله عليهم الحجة به فلم يؤمنوا به ، وكفر من كفر منهم قبل ذلك بما أنزل الله إما بتكذيب بعض ما أنزله وإما بتبديله ، وإما بجعل مالم ينزله الله منزلا منه ، وإما بغير ذلك مما فيه كفر بما أنزل الله عز وجل .

وكذلك ما ذكر من أن الله أقام سنة جديدة وعهدا جديداً ، وهو ما بعث به المسيح عليه السلام من الشريعة التى بعث بها وفيها تحليل بعض ما حرمه الله فى التوراة ، كما فى القرآن عن المسيح ﴿ ولأحل لكم بعض الذى حرّم عليكم ﴾ فهذا أيضاً حق .

فصل فى البدع التى أحدثتها النصارى

وأما قولكم : السنة الجديدة المختارة هى السنة التى تسلمناها من يدى الرسل الأطهار ، على ما تسلموها من المسيح عليه السلام .

فيقال : لو كنتم على تلك السنة لم تغيروها لم ينفعكم المقام عليها ، إذا كذبتم

الرسول النبي الأمي الذى بعث إليكم وإلى سائر الخلق بسنة أخرى أكمل من السنن التي كانت قبله، كما لم ينفع اليهود، ولو تمسكوا بسنة التوراة، ولم يتبعوا سنة المسيح الذى أرسل إليهم، بل من كذب برسول واحد فهو كافر.

كما قال تعالى: ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ﴾، [سورة النساء: ١٥٠].

فإنه، وإن كانت السنة التي جاء بها المسيح عليه السلام حقاً، وكل من كان متبعاً له فهو مؤمن مسلم، من أولياء الله، من أهل الجنة الذين لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَنْ آمنَ بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾، [البقرة: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿ كما قال عيسى ابن مريم للحواريين مَنْ أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾، فمن اتبع المسيح كان مؤمنا، ومن كفر به كان كافرا.

وقال تعالى: ﴿ يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيٰمة ثمّ إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين ﴾، [سورة آل عمران: ٥٥ ـ ٥٧].

لكن غيرتموها وبدلتموها قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم، فصرتم كفارا بتبديل شريعة المسيح، وتكذيب شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، كما كفرت

اليهود بتبديل شريعة التوراة ، وتكذيب شريعة الإنجيل ، ثم كفروا بتكذيب شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى سائر رسل الله أجمعين .

فإن المسيح لم يسن لكم التثليث والقول بالأقانيم ، ولا القول بأنه رب العالمين ، ولا سن لكم استحلال الخنزير وغيره من المحرمات ، ولا ترك الختان ، ولا الصلاة إلى المشرق ، ولا اتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، ولا الشرك واتخاذ التماثيل والصليب ، ودعاء الموتى والغائبين من الأنبياء والصالحين وغيرهم ، وسؤالهم الحوائج ، ولا الرهبانية وغير ذلك من المنكرات التي أحدثتموها ولم يسنها لكم المسيح ، ولا ما أنتم عليه هي السنة التي سلمتموها من رسل المسيح .

بل عامة ما أنتم عليه من السنن أمور محدثة مبتدعة بعد الحواريين ، كصومكم خمسين يوما زمن الربيع ، واتخاذكم عيدا يوم الخميس والجمعة والسبت ، فإن هذا لم يسنه المسيح ولا أحد من الحواريين ، وكذلك عيد الحواريين : الميلاد والغطاس وغير ذلك من أعيادكم .

بل عيد الصليب إنما ابتدعته « هيلانة » الحرانية الفندقانية أم قسطنطين ، فأنتم تقولون : إنها هي التي أظهرت الصليب وصنعت لوقت ظهوره عيدا ، وذلك بعد المسيح والحواريين بمدة طويلة في زمن ملك قسطنطين بعد المسيح بأكثر من ثلثمائة سنة .

وفي ذلك الزمان أحدثتم الأمانة المخالفة لنصوص الأنبياء في غير موضع ، وأظهرتم استحلال الخنزير وعقوبة من يأكله ؛ وابتدعتم في ذلك الزمان تعظيم الصليب وغير ذلك من بدعكم ، وكذلك كتب القوانين التي عندكم التي جعلتموها سنة وشريعة فيها شيء عن الأنبياء والحواريين ، وكثير مما فيها ابتدعه مَنْ بعدهم لا ينقلونه لا عن المسيح ولا عن الحواريين ، فكيف تدعون أنكم على السنة والشريعة التي كان عليها المسيح عليه السلام وهذا مما يعلم بالاضطرار والتواتر أنه كذب بيِّن .

فصل فى الفرق بين المشابهة والمماثلة

قالوا : وأما قولنا فى الله ثلاثة أقانيم إله واحد ، فهو أن الله نطق به وأوضحه فى التوراة ، وفى كتب الأنبياء، ومن ذلك ما جاء فى السفر الأول من التوراة يقول حيث شاء الله أن يخلق آدم قال الله : [لنخلق خلقا على شبهنا ومثالنا] ، فمن هو شبهه ومثاله سوى كلمته وروحه ؟

وحين خالف آدم وعصى ربه ، قال الله تعالى : [ها آدم قد صار كواحد منا]، وهو قول واضح أن الله قال هذا القول لابنه وروح قدسه .

والجواب : أن استدلالهم بهذا على قولهم فى المسيح هو فى غاية الفساد والضلال ، فإن لفظ التوراة : [نصنع آدم كصورتنا وشبهنا] ، وبعضهم يترجمه [نخلق بشراً على صورتنا . شبهنا] .

والمعنى واحد ، وهو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق آدم على صورته » ، وفى رواية « على صورة الرحمن » فقولهم : من هو شبهه ومثاله سوى كلمته وروحه من أبطل الأباطيل من وجوه :

أحدها : أن الله ليس كمثله شيء ، وليس لفظ النص على مثالنا .

الثانى : أنه لا اختصاص للمسيح بما ذكر على كل تقدير حق وباطل بأى تفسير فسر قوله . [سنخلق بشراً على صورتنا شبهنا] ، لم يخص ذلك المسيح .

الثالث : أنهم إن أرادوا بالكلمة التى هى شبهه ومثاله صفته ، التى هى العلم القائم به والحياة القائمة به مثلا ، فالصفة لا تكون مثالا للموصوف ، إذ الموصوف هو الذات القائمة بنفسها ، والصفة قائمة بها ، والقائم بغيره لا يكون مثل القائم بنفسه .

وإن أرادوا به شيئاً غير صفاته ، مثل بدن المسيح وروحه ، فذلك مخلوق له ، والمخلوق لا يكون مثل الخالق ، وكذلك روح القدس سواء أريد به ملك أو هدىً وتأييد ، ليس مثلا لله عز وجل .

الرابع : أنه قال [لنخلق خلقاً] ، أو قال : [نخلق آدم أو نخلق بشراً على صورتنا وشبهنا] ، وعلى ما قالوه : [نخلق خلقاً على شبهنا ومثالنا] ، وبكل حال ، فهذا مخلوق وكلمة الله وروحه عندهم غير مخلوق فامتنع أن يكون المراد بذلك كلمته وروحه.

وإن قالوا : أراد بذلك الناسوت المسيحى ، فلا فرق بين ذلك الناسوت وسائر النواسيت ، مع أن المراد بذلك النص آدم أبو البشر باتفاق الأمم ، والناسوت نفسه ليس هو كلمة الله وروحه .

الخامس : أنه لو قدر أنه أريد بذلك أن كلام الله يشبه ذاته من بعض الوجوه ، مثل كونه قديماً بقدمه ، لم يكن فى ذلك ما يدل على الأقانيم الثلاثة .

وكذلك اللفظ المعروف وهو قوله : [سنخلق بشراً على صورتنا شبهنا]. فهذا لا يدل على التثليث بوجه من الوجوه ، وشَبَهُ الشىء بالشىء يكون لمشابهته له من بعض الوجوه ، وذلك لا يقتضى التماثل الذى يوجب أن يشتركا فيما يجب ويجوز ويمتنع ، وإذا قيل هذا حى عليم قدير ، وهذا حى عليم قدير فتشابها فى مسمى الحى والعليم والقدير ، لم يوجب ذلك أن يكون هذا المسمى مماثلا لهذا المسمى فيما يجب ويجوز ويمتنع .

بل هنا ثلاثة أشياء :

أحدها : القدر المشترك ، الذى تشابها فيه ، وهو معنى كلى لا يختص به أحدهما ، ولا يوجد كلياً عاماً مشتركا إلا فى علم العالم .

والثانى : ما يختص به هذا ، كما يختص الرب به من الحياة والعلم والقدرة .

والثالث : ما يختص به العبد من الحياة والعلم والقدرة ، فما اختص به الرب عز وجل لا يشركه فيه العبد ، ولا يجوز عليه شىء من النقائص التى تجوز على صفات العبد ، وما يختص به العبد لا يشركه فيه الرب ، ولا يستحق شيئاً من صفات الكمال التى يختص به الرب عز وجل .

وأما القدر المشترك كالمعنى الكلى الثابت فى ذهن الانسان فهذا لا يستلزم

خصائص الخالق ولا خصائص المخلوق ، فالاشتراك فيه لا محذور فيه .

ولفظ التوراة فيه : [سنخلق بشراً على صورتنا يشبهنا] ، لم يقل : على مثالنا وهو كقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « لا يقولن أحدكم: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك ، فإن الله تعالى خلق آدم على صورته » فلم تذكر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، كموسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم إلا لفظة « شبه » دون لفظ « مثل » .

وقد تنازع الناس : هل لفظ الشبه والمثل بمعنى واحد أو معنيين على قولين:

أحدهما : أنهما بمعنى واحد ، وأن ما دل عليه لفظ المثل مطلقا ومقيداً يدل عليه لفظ الشبه ، وهذا قول طائفة من النظار .

والثاني : أن معناهما مختلف عند الاطلاق لغة وشرعاً وعقلاً ، وإن كان مع التقييد والقرينة يراد بأحدهما ما يراد بالآخر ، وهذا قول أكثر الناس ، وهذا الاختلاف مبني على مسألة عقلية ، وهو أنه هل يجوز أن يشبه الشيء الشيء من وجه دون وجه ، وللناس في ذلك قولان ، فمن منع أن يشبه من وجه دون وجه قال : المثل والشبه واحد ، ومن قال إنه قد يشبه الشيء الشيء من وجه دون وجه فرق بينهما عند الاطلاق ، وهذا قول جمهور الناس ، فإن العقل يعلم أن الأعراض مثل الألوان تشتبه في كونها ألوانا مع أن السواد ليس مثل البياض ، وكذلك الأجسام والجواهر عند جمهور العقلاء تشتبه في مسمى الجسم والجوهر ، وإن كانت حقائقها ليست متماثلة ، فليست حقيقة الماء مماثلة لحقيقة التراب ، ولا حقيقة النبات مماثلة لحقيقة الحيوان ؛ ولا حقيقة النار مماثلة لحقيقة الماء ، وإن اشتركا في أن كلا منهما جوهر وجسم وقائم بنفسه .

وأيضاً فمعلوم في اللغة أن يقال : هذا يشبه هذا ، وفيه شبه من هذا ، إذ أشبهه من بعض الوجوه ، وإن كان مخالفاً له في الحقيقة .

قال الله تعالى : ﴿ وأتوا به متشابهاً ﴾ ، [سورة البقرة : ٢٥] .

وقوله : ﴿ منه آياتٌ محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ .

﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آيةٌ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ﴾ ، [سورة البقرة : ١١٨] .

فوصف القولين بالتماثل ، والقلوب بالتشابه لا بالتماثل ، فإن القلوب ، وإن اشتركت في هذا القول فهي مختلفة لا متماثلة ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم « الحلال بيِّن والحرام بيِّن ، وبين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس » .

فدل على أنه يعلمها بعض الناس ، وهي في نفس الأمر ليست متماثلة ، بل بعضها حرام وبعضها حلال .

والوجه السادس : أن قوله : [سنخلق خلقاً على شبهنا] لا يتناول صفته ، مثل كلامه وحياته القائمة به ، فإن ذلك ليس بمخلوق ، وحينئذ فهذا لا يتناول اللاهوت الذي يزعمون أنه تدرع الناسوت ، فإن اللاهوت ليس بمخلوق .

وأما الناسوت فهو كسائر نواسيت الناس لا اختصاص له ، بأن يكون شبيهاً لله دون سائر النواسيت ، فقوله : فمن هو الشبه المخلوق سوى كلمته وروحه ؟ باطل على كل تقدير .

وأما قوله : [ها آدم قد صار كواحد منا] ، وقولهم : إن هذا قول واضح أن الله قال : هذا القول لابنه وروح قدسه ، فإن أرادوا أنه يجعل الذي صار كواحد منا لابنه ، كان هذا من أبطل الكلام ، فإن هذا الإبن إن كان المراد به الكلمة التي هي صفة لله ، فتلك لم يخلق لها أمر يصير كواحد منهم ، وتلك لا تسمى آدم ولا سماها الله ابناً .

وإن أريد به ناسوت المسيح فذلك مخلوق مبتدع يمتنع أن يكون كالقديم الأزلي ، وأيضاً فإن الله قال هذا عن آدم ، وآدم ليس هو المسيح ، ولا يجوز أن يقال : آدم ويراد به المسيح ، كما لا يجوز أن يقال : عصى آدم ويراد به المسيح ،

وأيضاً فإنه قال : [ها آدم كواحد منا] وهذا إشارة إلى أمر قد كان فى الزمن الماضى ، ليس هو إشارة إلى ما سيكون بعد ذلك بألوف السنين ، وإن أرادوا أن الله قال لابنه الذى هو كلمته وروحه وهذا هو مرادهم ، كقولهم : إنه قال القول يستهزىء بآدم أى أنه طلب أن يصير كواحد صار هكذا عرياناً مفتضحاً ، ويكون شبهتهم قوله « منا » لأنه عبر بصيغة الجمع ، وكذلك إن أرادوا هذا بقوله « نخلق بشراً على صورتنا وشبهنا » فاحتجوا على التثليث بصيغة الجمع .

وهذا مما احتج به نصارى نجران على النبى صلى الله عليه وسلم فاحتجوا بقوله تعالى « إنا ، ونحن » قالوا وهذا يدل على أنهم ثلاثة ، وكان هذا من المتشابه الذى اتبعوه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وتركوا المحكم المبين ، الذى لا يحتمل إلا واحداً ، فإن الله فى جميع كتبه الإلهية قد بين أنه إله واحد ، وأنه لا شريك له ، ولا مثل له .

وقوله : إنا ، ونحن لفظ يقع فى جميع اللغات على من كان له شركاء وأمثال ، وعلى الواحد المطاع العظيم الذى له أعوان يطيعونه ، وإن لم يكونوا شركاء ولا نظراء ، والله تعالى خلق كل ما سواه ، فيمتنع أن يكون له شريك أو مثل والملائكة وسائر العالمين جنوده .

قال تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ ، [سورة المدثر : ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ ولله جنودُ السمواتِ والأرضِ وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ ، [سورة الفتح : ٧]

فإذا كان الواحد من الملوك يقول : إنا ، ونحن ولا يريدون إنهم ثلاثة ملوك فالك الملك رب العالمين ورب كل شىء ومليكه هو أحق بأن يقول : إنا ، ونحن مع أنه ليس له شريك ، ولا مثل بل له جنود السموات والأرض .

وأيضاً فمن المعلوم آدم لم يطلب أن يصير مثل الله ولا مثل صفاته كعلمه وصفاته ، وأيضاً فليس فى ظاهر اللفظ أن الله خاطب صفاته بذلك .

وأيضاً فالصفة القائمة بالموصوف لا تخاطِب ولا تخاطَب ، وإنما يخاطب الموصوف ، ولم يكن قد خلق آدم ناسوت المسيح ولا غيره من البشر حتى يخاطب ، فعلم أن دعواهم أن الله خاطب صفته التي سموها هم ابناً وروح قدس كلام باطل ، بل قد يخاطب ملائكته ، وآدم عليه السلام أراد ما أطمعه الشيطان من الخلد والملك كما قال تعالى : ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلُّك على شجرةِ الخلدِ وملكٍ لا يبلى ﴾ ، [سورة طه : ١٢٠] .

فصل فى أن الصفة ليست ابنا

قالوا : وقال الله عندما أخسف بسدوم وعامورة ، قال فى التوراة : [وأمطر الرب من عند الرب من السماء على سدوم وعامورة نارا وكبريتا] أوضح بهذا ربوبية الأب والإبن .

والجواب : أن احتجاجهم بهذا من أبطل الأباطيل لوجوه :

أحدها : أن تسمية الله علمه وحياته ابنا وربا تسمية باطلة ، لم يسم موسى فى التوراة شيئاً من صفات الله باسم الإبن ولا باسم الرب ، فدعوى المدعى أن موسى عليه السلام أراد بالرب شيئاً من صفات الله ،أو أن له صفة تسمى ابنه كلام باطل .

الثانى : أنه لو قدر أن صفة الله تسمى بذلك معلوم أن الذى أمطر ، كان هو الذى كان المطر عنده ، لم يكن المطر عند أحدهما والآخر هو الممطر ، كما لا يجوز أن يقال خلق أحدهما من شيء عند الآخر ، ولا أنزل أحدهما المطر من سحاب الآخر .

الثالث : أن الصفة لا تفعل شيئاً ، ولا عندها شيء ، بل هى قائمة بالموصوف ، والذات المتصفة بالصفة هى التى تفعل ، وعندها يكون ما يكون .

الرابع : أن هذا بمنزلة قوله : [أمطر الرب من عنده] لكن جعل الاسم الظاهر موضع المضمر إظهاراً لأن الأمر له وحده فى هذا وهذا .

ومثل هذا فى القرآن كقوله ﴿ الحاقة ما الحاقة ﴾ [سورة الحاقة : ١ ، ٢] .

﴿ القارعة ما القارعة ﴾ [سورة القارعة : ١ ، ٢] .

وقال تعالى : ﴿ تنزيلُ الكتابِ من الله العزيز العليم ﴾ ، [سورة غافر : ٢] ﴿ تنزيلٌ من الرحمن الرحيم ﴾ [سورة فصلت : ٢] .

والله هو المنزل ولم يقل منى .

فصل فى معنى الرب

قالوا : نذكر ثالثاً ، وقال داود فى الزبور فى المزمور المئة والتسعة قائلا : [قال الرب : لربى اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك تحت موطأ قدميك] .

والجواب من وجوه :

أحدها : أنه لا يجوز أن يراد بربى شيئاً من صفات الله ، فإنه لم يسم داود ولا أحد من الأنبياء شيئاً من صفات الله رباً ولا ابناً ، ولا قال أحد لشىء من صفات الله : يا رب ارحمنى ، ولا قال لعلم الله أو كلامه أو قدرته : يا رب ، وإذا لم يكونوا يسمون صفات الله رباً ، فلو كان المسيح صفة من صفاته لم يجز أن يكون هو الله المراد بلفظ الرب ، فكيف وناسوته أبعد عن اللاهوت أن يراد بذلك ؟

فعلم أنهم لم يريدوا بذلك لا اللاهوت ولا الناسوت .

الثانى : أنه قال : قال الرب لربى ، فأضاف إليه الثانى دون الأول ، وأنه هو ربه الذى خلقه ، وعامة ما عند النصارى من الغلو أن يقولوا : إله حق من إله حق ، ويجعلونه خالقاً بأن يجعلوه أحق من الأب بكونه رب داود ، فهذا لم يقولوه ، وهو ظاهر البطلان .

الثالث : أنه ليس فى هذا ذكر الأقانيم الثلاثة غايته لو كان لما تأولوه أن يكون فيه ذكر الإبن ، وأما الأقانيم الثلاثة فلم ينطق بها شىء من كتب الله التى بأيديهم ، فضلاً عن القرآن لا بلفظها ولا معناها ، بل ابتدعوا لفظ الأقنوم ، وعبروا به عن ما جعلوه مدلول كتب الله ، وهى لا تدل على ذلك ، فكانوا فى ذلك مترجمين

لكلام الله ، وهم لم يفهموا معناه ، ولا عبروا عنه بعبارة تدل على المراد .

الرابع : أنه قال لربي ، وهذا يراد به السيد ، كما قال يوسف : ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ ، [سورة يوسف : ٢٣] .

وقال لغلام الملك : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ ، [سورة يوسف : ٤٢] .

وقال تعالى : ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ ، [سورة يوسف : ٤٢] .

ولهذا ذكر الأول مطلقاً والثاني مقيداً فيكون المعنى وقال الله لسيدي : قال رب العالمين لسيدي ، وسماه سيداً تواضعاً من داود وتعظيماً له لاعتقاده أنه أنه أفضل منه .

فصل في معنى الابن

قالوا : نذكر رابعاً ، وقال في الزبور الثاني : [الذي قال لي : أنت ابني وأنا اليوم ولدتك] .

والجواب من وجوه :

أحدها : أن هذا ليس فيه تسمية صفات الله : علمه وحياته ابناً ، ولا في ذكر الأقانيم الثلاثة ، فليس فيه حجة لشيء مما تدعونه .

والثاني : أن هذا حجة عليهم ، فإنه سمى داود ابنه ، فعلم أن اسم الإبن ليس مختصاً بالمسيح عليه السلام ، بل سمى غيره من عباده ابناً ، فعلم أن اسم الإبن ليس لصفاته ، بل هو اسم لمن رباه من عبيده .

وحينئذ فلا يكون تسميته ابناً لكون الرب أو صفته اتحدت به ، بل كما سمى داود ابناً ، وكما سمى إسرائيل ابناً فقال [أنت ابني بكري] .

وهذا في كتبهم ، كما ذكر في كتبهم فلا حجة فيه ، لأن قول غير المعصوم ليس بحجة .

الثالث أن قوله : [وأنا اليوم ولدتك] يدل على حدوث هذا الفعل ،

وعندهم تولد الكلمة التي سموها الإبن من الأب قديم أزلي ، كما قالوا في أمانتهم [و برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، المولود من الأب قبل كل الدهور نور من نور إله حق من إله حق من جوهر أبيه ، مولود غير مخلوق ، مساوٍ الأب في الجوهر الذي به كان كل شيء] .

فهذا الإبن عندهم مولود من الأب قبل كل الدهور ، وذاك ولده في يوم خاطبه بعد خلق دواد فلم يكن في هذا المحدث دليل على وجود ذلك القديم .

الوجه الرابع : أنه إذا كان الأب في لغتهم هو الرب الذي يربِّي عبده أعظم مما يربى الأب ابنه ، كان معنى لفظ الولادة مما يناسب معنى هذه الأبوة ، فيكون المعنى : اليوم جعلتك مرحوماً مصطفًى مختاراً .

والنصارى قد يجعلون الخطاب الذي هو ضمير لغير المسيح ، يراد به المسيح فقد يقولون : المراد بهذا المسيح ، وهذا باطل لايدل اللفظ عليه ، و بتقدير صحته ، فهو يدل على أن المسيح هو الناسوت المخلوق ، وهو المسمى بالإبن ، كقوله [وأنا اليوم ولدتك] .

واللاهوت عندهم مولود من قبل الدهور ، وحينئذ فإن كان المراد به يوم ولادته ، فالمعنى خلقتك وإن كان يوم اصطفاه ، فالمراد اليوم اصطفيتك وأحببتك ، كأنه قال : اليوم جعلتك والداً وابناً على لغتهم .

فصل في بطلان ما استدلوا به على التعدد

قالوا : نذكر خامساً ، وفي السفر الثاني من التوراة وكلم الله موسى من العليقة قائلاً : [أنا إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب] ولم يقل أنا إله إسحق . بل كرر اسم الإله ثلاث دفوع قائلا : أنا إله وإله وإله لتحقق مسألة الثلاث أقانيم في لاهوته .

والجواب : أن الاحتجاج بهذا على الأقانيم الثلاثة من أفسد الأشياء ، وذلك يظهر من وجوه :

أحدها : أنه لو أريد بلفظ الإله أقنوم الوجود ، وبلفظ الإله مرة ثانية أقنوم الكلمة ، وبالثالث أقنوم الحياة ، لكن الأقنوم الواحد إله إبراهيم ، والأقنوم الثانى إله إسحق ، والأقنوم الثالث إله يعقوب فيكون كل من الأقانيم الثلاثة إله أحد الأنبياء الثلاثة ، والأقنومين ليسا بإلهين له .

وهذا كفر عندهم ، وعند جميع أهل الملل ، وأيضاً فيلزم من ذلك أن يكون الآلهة الثلاثة ثلاثة ، وهم يقولون : إله واحد ، ثم هم إذا قالوا : كل من الأقانيم إله واحد ، فيجعلون الجميع إله كل نبى ، فإذا احتجوا بهذا النص على قولهم لزم أن يكون إله كل نبى ، ليس هو إله النبى الآخر ، مع كون الآلهة ثلاثة .

الوجه الثانى : أنه يقال : إن الله رب العالمين ، ورب السموات ورب الأرض ورب العرش ورب كل شىء ، فيلزم أن يكون رب كل شىء ، ويقال : إله موسى وإله محمد ، مع قولنا : إله إبراهيم وإسحق .

أفتراه أثبت إلهين : أحدهما إله ، والآخر إله الثلاثة ؟ !

الوجه الثالث : أن العطف يكون تارة لتغاير الذوات ، وتارة لتغاير الصفات ، كقوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوّى * والذى قدّر فهدى * والذى أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى ﴾ .

[سورة الأعلى : ١ ـ ٥]

والذى خلق هو الذى قدر وأخرج ، وكذلك قوله : ﴿ إلهك وإله آبائك ﴾ ، [سورة البقرة : ٣٣] .

وهو هو سبحانه ، وقال إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه لقوله : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدوٌّ لى إلا ربَّ العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يُطعمنى ويَسقين * وإذا مرضت فهو يَشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن

يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ ، [سورة الشعراء : ٧٥ - ٨٢] .

والذى خلقه هو الذى يطعمه ويسقيه ، وهو الذى يميته ثم يحييه ، فقوله فى التوراة : إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب هو من هذا الباب ، ولا يختص هذا بثلاثة ، بل يقال فى الإثنين والأربعة والخمسة بحسب ما يقصد المتكلم ذكره من الصفات ، وفى هذا من الفائدة ما ليس فى قوله : إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ، فإنه لو قيل ذلك لم يفد إلا أنه معبود الثلاثة ، لا يدل على أنهم عبدوه مستقلين ، كل منهم عبده عبادة اختص بها ، لم تكن هى نفس عبادة الأول .

وأيضاً فإنه إذا قيل إله إبراهيم وإسحق ويعقوب دلّ على عبادة كل منهم باللزوم ، وإذا قال : وإله دلّ على معبود كل من الثلاثة ، فأعاده باسم الإله الذى يدل على العبادة دلالة باللفظ المتضمن لها ، وفى ذلك من ظهور المعنى للسامع وتفرعه بصورة له من غير فكر ماليس فى دلالة الملزوم .

فصل أن الرب لا يتعدد

وإنما الذى يتعدد هو التقديس

قالوا : وكذلك شهد « أشعيا » بتحقق الثالوث بوحدانية جوهره ، وذلك بقوله : [رب القوات] ، وبقوله : [رب السموات والأرض] ومثل هذا القول فى التوراة والمزامير شيء كثير حتى اليهود يقرأون هذه النبوات ، ولا يعرفون لها تأويلا ، وهم مقرون بذلك ، ولا ينكرون منه كلمة واحدة ، وإنما قلوبهم مغلوقة عن فهمه لقساوتها على ما ذكرنا قبل ذلك ، وأنهم إذا اجتمعوا فى كنيستهم كل سبت يقف الحزان أمامهم ، ويقول كلاماً عبرانياً هذا تفسيره ، ولا يجحدونه : [نقدسك ، ونعظمك ، ونثلث لك تقديساً مثلثاً ، كالمكتوب على لسان نبيك] .

فيصرخ الجميع مجاوبين . [قدوس قدوس قدوس ، رب القوات ، ورب السموات والأرض] .

فما أوضح إقرارهم بالثالوث ، وأشد كفرهم بمعناه فنحن لأجل هذا البيان الواضح الذى قاله الله فى التوراة ، وفى كتب الأنبياء جعلوه ثلاثة أقانيم جوهراً واحداً ، طبيعة واحدة إلهاً واحداً أبا واحداً ، خالقاً واحداً ، وهو الذى نقوله : أب وابن وروح قدس .

والجواب : أما ما فى كتب الأنبياء عليهم السلام من تسميته اسم الرب عند إضافته إلى مخلوق آخر فهو من نمط تسميته اسم الإله ، وهذا لا يقتضى تعدد الأرباب والآلهة ، ولهذا يقتضى جعلهم اثنين وأربعة إذا ذكر اللفظ مرتين وأربعة .

فكذلك إذا كان ثلاث مرات لا يقتضى أن الأرباب ثلاثة ، وهم أيضاً لا يقولون بثلاثة أرباب وثلاثة آلهة تدل على نقيض قولهم ، بل هم يزعمون أنهم إنما يثبتون إلهاً واحداً ، ولكنهم يتناقضون فيصرحون بثلاثة آلهة ، ويقولون هم إله واحد .

والكتب لا تدل على قولهم المتناقض بوجه من الوجوه ، وأما ما ذكروه من اعتراف اليهود بألفاظ هذه النبوات ، ودعواه أنهم لا يعرفون لها تأويلا ، فإن أراد بالتأويل تفسيرها وما يدل عليه لفظها ، فهذا ظاهر لا يخفى على الصبيان من اليهود وغيرهم .

ولكن النصارى ادعوا ما يدل عليه اللفظ ، فهذا إنما يحتاج إليه إن أرادوا بالتأويل معنى يخالف ظاهر اللفظ ، فهذا إنما يحتاج إليه ـ إن كان يحتاج إليه ـ إذا كان ظاهره معنى باطلا ، لا يجوز إرادته وليس ماذكر هنا من هذا الباب بل الكتب الإلهية يكثر فيها مثل هذا الكلام عند أهل الكتاب وعند المسلمين ، ولا يفهم منها ثلاثة أرباب أو ثلاثة آلهة إلا من اتبع هواه بغير هدى من الله ،

وقال قولا مختلفاً يؤفك عنه من أفك ، ومثل هذا موجود في سائر الكلام ، فقال : هذا أمير البلد الفلاني ، وأمير البلد الفلاني ، وأمير البلد الفلاني ، وهو أمير واحد .

ويقال : هذا رسول إلى الأميين ، ورسول إلى أهل الكتاب ، ورسول إلى الجن والإنس ، وهو رسول واحد .

فصل في معنى قوله : تثلث لك

وأما قولهم : [نقدسك، ونعظمك ، ونثلث لك تقديساً مثلثاً ، كالمكتوب على لسان نبيك أشعيا] .

قولهم · [قدوس،قدوس،قدوس ،رب القوات ، ورب السموات والأرض] فيقال :هذا الكلام صريح في أن المثلث هو نفس التقديس ،لا نفس الإله المقدس.

وكذلك قولهم : [قدوس ، قدوس،قدوس] . قدسوه ثلاث مرات ، فإنه قال : [نقدسك ، ونثلث لك تقديساً مثلثاً] فنصب التثليث على المصدر الذي ينصب بفعل التقديس ، فقال : نقدسك تقديساً مثلثاً .

فنصب التقديس على المصدر، كما تقول:سبحتك تسبيحاً مثلثاً، أى سبحتك ثلاث مرات ، وقال : تثلث لك أى نثلث تقديساً لك ، لم يقل أنت ثلاثة ،بل جعلوا أنفسهم هم الذين يقدسون التقديس المثلث ، وهم يثلثون له ، وهذا صريح في أنهم يسبحونه ثلاث مرات ، لا يسبحون ثلاثة آلهة ، ولا ثلاثة أقانيم .

وهذا كما في السنن عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا قال العبد في ركوعه : سبحان ربي العظيم ثلاثاً فقد تم ركوعه ، وذلك أدناه ، وإذا قال في سجوده : سبحان ربي الأعلى ثلاثاً فقد تم سجوده وذلك أدناه » والتسبيح هو تقديس الرب وأدناه أن يقدسه ثلاث مرات ، فمعنى قدسوه ثلاث مرات : لا تقتصروا على مرة واحدة .

ولهذا قالوا مجاوبين : قدوس ، قدوس، قدوس ، فيقدسونه ثلاث مرات ، فعلم أن المراد حيث مادل على لفظه ، وما يفعلونه ممتثلين لهذا الأمر ، وما يفعل في نظير ذلك تثليث تقديسه ، وأن يقدس ثلاث مرات ، لا أن يكون المقدس ثلاث أقانيم ، فإن هذا أمر لم ينطق نبي من الأنبياء به لا لفظاً ولا معنى ، بل جميع الأنبياء عليهم السلام أثبتوا إلهاً واحداً له الأسماء الحسنى .

وأسماؤه متعددة تدل على صفاته المتعددة ، ولا يختص ذلك بثلاثة أسماء ، ولا بثلاثة صفات ، وليست الصفات أقنوما هو ذات وصفة ، بل ليس إلا ذات واحدة لها صفات متعددة ، فالتعدد في الصفات لا في الذات التي سموها الجوهر ، ولا في الذات والصفة التي يسمونها الأقنوم .

فصل في المسيح الذي تنتظره اليهود

قالوا : فما أعظم إقرارهم في الثالوث ، وأشد كفرهم بمعناه .

فيقال هذا من الافتراء الظاهر على اليهود وجعلهم كفاراً فلم يكن كفرهم من أجل إنكار الثالوث ، بل لو أقروا به كان زيادة كفرهم يزيد به عذابهم .

كما أن النصارى لما كفروا لم يكن كفرهم بإقرارهم بأن المسيح المبشر به قد ظهر ليس هو المسيح الدجال الذي تنتظره اليهود ، وإذا خرج كانوا شيعته ويقتلهم المسلمون معه شر قتلة حتى إن الشجر والحجر يقول : يامسلم هذا يهودي ورائي تعالى فاقتله .

بل لو كفروا بالمسيح كما كفرت اليهود لكان ذلك زيادة في كفرهم .

وعند اليهود ، وعندهم في التوراة من التوحيد المحض ما يبطل تثليثكم مالا يخفى إلا عمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله ، وهداه الذي يهدي به عباده.

فصل فيما ذهب إليه النصارى من الأقانيم

قالوا : فلأجل هذا البيان الواضح الذي قاله الله في التوراة ، وفي كتب

الأنبياء نجمل ثلاثة أقانيم: جوهراً واحداً، إلهاً واحداً، رباً واحداً، خالقاً واحداً.
وهو الذى نقول: أب وابن، وروح قدس.

والجواب من وجوه:

أحدها: أن فى التوراة والكتب الإلهية من إثبات وحدانية الله، ونفى تعدد الآلهة، ونفى إلهية ما سواه ما هو صريح فى إبطال قول النصارى ونحوهم، وليس فيها ذكر الأقانيم لا لفظاً ولا معنى، حيث يجعلون الأقنوم اسماً للذات مع الصفة، والذات واحدة، والتعدد فى الصفات لا فى الذات.

ولا يمكن أن تتحد صفة دون الأخرى، ولا دون الذات فيمتنع اتحاد أقنوم أو حلوله بشىء من المخلوقات دون الأقنوم الآخر، ولا إثبات ثلاثة أقانيم ولا إثبات ثلاث صفات دون ماسواها فى شىء من الكتب الإلهية، ولا كلام الحواريين، ولا إثبات إله حق من إله حق، ولا تسمية صفات الله مثل كلامه وحياته لا ابناً ولا إلهاً ولا رباً، ولا إثبات اتحاد الرب خالق السموات والأرض بشىء من الآدميين، ولا حلول ذات وصفة دون ذات مع الصفات الأخرى، ولا حلول نفس الصفة ببدنه فى غيره ولا علمه ولا كلامه ولا حياته، ولا غير ذلك.

بل جميع ما أثبتوه من التثليث والحلول والاتحاد ليس فى كتب الأنبياء التى بأيديهم مايدل عليه، بل فيها أقوال كثيرة صريحة بنقيض ذلك مع القرآن والعقل، فهم مخالفون للمعقول وكتب الله المنزلة.

الثانى: أنهم يقولون: إنما نثبت إلهاً واحداً، ثم يقولون فى أمانتهم وأدلتهم وغير ذلك من كلامهم ما هو صريح بإثبات ثلاثة آلهة فينقضون كلام بعضهم ببعض، و يقولون من الأقوال المتناقضة ما يعلم بطلانه كل عاقل تصوره.

وهذا لا ينضبط لهم قول مطرد، كما يقول من يقول من عقلاء الناس: إن النصارى ليس لهم قول يعقله عاقل، وليست أقوالهم منصوصة عن الأنبياء، فليس معهم لا سمع ولا عقل، كما قال الله تعالى عن أصحاب النار: ﴿ لو كنا

نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ ، [سورة الملك : ١٠] .

وهم أيضاً يبطنون خلاف مايظهرون، ويفهم جمهور الناس مقالاتهم خلافه ما يزعم بعضهم أنه مرادهم ، فإنه قد تقدم آنفاً من استدلالهم بالتوراة ، وقوله : [وكلم الله موسى من العليقة قائلا : أنا إله إبراهيم ، وإله إسحاق ، و إله يعقوب]. قالوا : ولم يقل : إنا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، بل كرر اسم الإله ثلاث دفوع قائلا: أنا إله، وإله وإله لتتحقق مسألة الثلاث أقانيم في لاهوته،فيقال لهم :وإن كان هذا التكرير لا يقتضي إلا إثبات إله واحد فلا حجة لكم فيه ، لو قال أنا إله إبراهيم و إسحاق ويعقوب ، وإن كان يقتضي إثبات ثلاثة آلهة ، فقد أثبتم ثلاثة آلهة ، وأنتم تقولون : لا نثبت إلا إلهاً واحداً ، وإن كان المعنى: إنه إله واحد موصوف بأنه معبود إبراهيم ، ومعبود إسحاق ، ومعبود يعقوب .

فلا حجة لكم فيه التثليث والأقانيم ، حيث تجعلون الأقنوم اسماً الذات مع صفة الذات واحدة ، فالتعدد في الصفات لا في الذات ، ولا يمكن أن تتحد صفة دون أخرى ، ولا دون الذات فيمتنع اتحاد أقنوم وحلوله بشيء من المخلوقات دون الأقنوم الآخر .

الوجه الثالث : قولهم : وهو الذي نقوله : أب وابن وروح القدس قد تقدم أن هذا القول هم معترفون بأنهم لم يقولوه ابتداء ، ولا علموا بالعقل التثليث الذي قالوه في أمانتهم ثم عبروا عنه بهذه العبارة ، بل هذه العبارة منقولة عندهم في بعض الأناجيل أن المسيح عليه الصلاة والسلام أمر أن يعمدوا الناس بها ، وحينئذ فالواجب إذا كان المسيح قالها أن ينظر ما أراد بها ، و ينظر سائر ألفاظه ومعانيها ، فيفسر كلامه بلغته التي تكلم بها تفسيراً يناسب سائر كلامه .

وهؤلاء حملوا كلام المسيح والأنبياء عليهم السلام على شيء لا يدل عليه كلامهم ، بل يدل على نقيضه فسموا كلام الله ، أو علمه أو حكمته أو نطقه ابناً ، وهذه تسمية ابتدعوها لم يسم أحد من الأنبياء شيئاً من صفات الله باسم الإبن ،

ولا باسم الرب ، ولا إله ، ثم لما أحدثوا هذه التسمية قالوا : مراد المسيح بالإبن الكلمة ، وهذا افتراء على المسيح عليه السلام ، وحمل لكلامه على معنى لا يدل عليه لفظه .

ولفظ الإبن عندهم فى كتبهم يراد به من رباه الله تبارك وتعالى ، فلا يطلق عندهم فى كلام الأنبياء لفظ الإبن إلا على مخلوق محدث ، ولا يطلق إلا على الناسوت دون اللاهوت ، فلا يسمى عندهم إسرائيل ابناً وداود ابناً لله ، والحواريون كذلك بل عندهم فى إنجيل يوحنا فى ذكر المسيح إلى خاصته ، أى وخاصته لم يقبلوه ، والذين قبلوه أعطاهم ليكونوا أبناء الله الذى ليس من دم ولا مشيه لحم ، ولا من مشيه رجل ، بل من الله ولد .

فهذا إخبار بأنهم يكونون جميعاً أبناء الله ، وهم معترفون بأنه ليس فيهم لاهوت يتحد بناسوت ، بل كل منهم ناسوت محض ، فعلم أن الكتب ناطقة بأن لفظ ابن الله يتناول الناسوت فقط ، وليس معهم لفظ ابن الله ، والمراد به صفة من صفات الله .

فقولهم : إن المسيح أراد بلفظ الإبن اللاهوت كذب بيّن عليه ، والمسيح يسمى ابناً بهذا الاعتبار ، وروح القدس لم يعبر بها أحد الأنبياء عن حياة الله التى هى صفته ، بل روح القدس فى كتب الله يراد بها الملك ، ويراد بها الهدى والوحى والتأييد فيقال : روح الله ، كما يقال : نور الله وهدى الله ، ووحى الله وملك الله ، ورسول الله لم يرد به أحد من الأنبياء ، بقوله روح الله وروح القدس ما يريده الإنسان بقوله « روحى » .

فإن الإنسان مركب من روح وبدن ، وفى بدنه بخار يخرج من القلب ، ويسرى فى بدنه ، وله جوف يخرج منه هواء ويدخل فيه ، فإذا قيل : روح الإنسان فقد يراد بها الروح التى مع البدن ، وقد يراد بها البخار اللطيف الذى فى البدن ، وقد يراد بها الريح الذى يخرج من جوف البدن ، ويدخل فيه الله

تبارك وتعالى - بإجماع المسلمين واليهود والنصارى - ليس هو روحاً وبدناً كالإنسان بل هو سبحانه أحد صمد لا جوف له ، ولا يدخل فيه شيء ، لا بخار ولا هواء متردد .

وقد يعبر بعض الناس بلفظ الروح عن الحياة ، والله تعالى حيّ له حياة ولكن لم ترد الأنبياء عليهم السلام بقولهم : روح القدس حياة الله بل أرادوا به ما يجعله الله في قلوب الأنبياء وأيدهم به ، كما يراد بنور الله ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ .

فضرب الله مثلا للمؤمن الذي جعل صدره كالمشكاة ، وقلبه كالزجاجة في المشكاة ، ونور الإيمان الذي في قلبه ، وهو نور الله كالمصباح الذي في الزجاجة ، وذلك النور الذي في قلبه ليس هو نفس صفة الله القائمة به .

فتبين أن العارف كلما تدبر ما قالته الأنبياء ، وما قاله أهل البدع من النصارى وغيرهم لم يجد لهم في كلام الأنبياء ما يدل على نقيض ضلالهم لا ما يدل على ضلالهم .

فصل في الكلمة وأنها صفة الرب

قالوا : وقد علمنا أنه لا يلزمنا إذا قلنا هذا عبادة ثلاثة آلهة ، بل إله واحد ، كما لا يلزمنا إذا قلنا : الإنسان ونطقه وروحه ثلاثة أناس ، بل إنسان واحد ، ولا إذا قلنا لهيب النار وضوء النار وحرارة النار ثلاثة نيران ، ولا إذا قلنا قرص الشمس وضوء الشمس وشعاع الشمس ثلاثة شموس ، وإذا كان رأينا في الله تقدست أسماؤه وجلت آلاؤه فلا لوم علينا ، ولا ذنب لنا إذ لم نهمل ما تسلمناه ولا نرفض ما تقلدناه ونتبع ما سواه .

والجواب من وجوه :

أحدها : أنكم صرحتم بتعدد الآلهة الأرباب في عقيدة إيمانكم وفي

استدلالكم وغير ذلك من كلامكم ، فليس ذلكم شيئاً ألزمكم الناس به ، بل أنتم تصرحون بذلك ، كما تقدم من قولكم نؤمن بإله واحد ، ضابط الكل ، خالق ما يرى ومالا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله ، الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه مولود غير مخلوق مساوٍ الأب فى الجوهر ، بروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب الذى مع الآب ، مسجود له وممجد .

فهذا تصريح بالثلاثة أرباب ، وأن الإبن إله حق من إله حق مع تصريحكم بثلاثة أرباب وتصريحكم بأن هـذا إله حق من إله حق ، تقولون إن ذلك إله واحد ، وهذا تصريح بتعدد الآلهة مع القول بإله واحد ، ولو لم تذكروا ما يقتضى أنه جوهر آخر ، لأمكن أن يحمل كلامكم على عطف الصفة ، لكن كان يكون كلامكم أعظم كفراً ، فتكونون قد جعلتم المسيح هو نفس إله الواحد الأب خالق ما يرى ، ومالا يرى ، وهذا من أعظم كفركم مع أن هذا حقيقه قولكم ، فإنكم تقولون : المسيح هو الله ، وتقولون : هو ابن الله ، كما يقوله بعض الناس ، بل القولان جميعاً يقولها فرق النصارى كالنسطورية واليعقوبية والملكية ونحوهم ، وهذا أيضاً من تناقضكم ، فإنه إن كان هو الله لم يكن هو ابن الله سواء عبر بالإبن عن الصفة أو غيرها ، فإن الأب هو الذات ليست هى الصفة ، وإن عنى بالإبن الذات مع صفة الكلام كما تفسرون الأقنوم بذلك .

فهذا الذات متصفة مع ذلك بالحياة والكلام سواء عنوا به العلم أو البيان مع العلم هو مع الحياة قائم بالأب ، والصفة ليست غير الموصوف ، بل ولا يعبر عنها بأنها ابن الموصوف ، ولا عبر بذلك أحد من الأنبياء عليهم السلام .

والمقصود أنهم لم يريدوا بقولهم ، وبرب واحد يسوع المسيح عطف الصفة ،

وأن هذا هو الأب كما قال إله إبراهيم ، وإله إسحاق ، وإله يعقوب ، فهذا إله واحد .

والعطف لتغاير الصفة ، فلو كان المراد بالإبن نفس الأب لكان هذا خلاف مذهبهم ، ويكونون قد جعلوه إلهاً من نفسه ، فقالوا : إلهان ، بل ثلاثة وهو واحد .

فهذا لو أرادوه لكان أعظم من الكفر ، بل قالوا : برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب كل الدهور ، نور من نور ، إله حق ، من إله حق من جوهر أبيه ، مولود غير مخلوق . فصرحوا بأنه رب ، وأنه إله حق ، من إله حق ، وصرحوا بإله ثان مع الإله الأول .

قالوا : مع ذلك إنه مولود من الأب قبل كل الدهور ، وأنه مولود غير مخلوق فامتنع أن يريدوا بذلك الناسوت ، فإن الناسوت مخلوق .

وهم يقولون : إن الكلمة هي المتولدة من الأب ، والكلمة صفة المتكلم وقائمة به ، والكلام ليس برب ولا بإله ، بل هو كلام الرب الإله ، كما أن سائر كلام الله كالتوراة والإنجيل والقرآن ليس هو الرب والإله ، ثم قلتم مساوٍ الأب في الجوهر فاقتضى هذا أن يكون المولود الذي هو الكلمة جوهراً وأنه مساوٍ الأب في الجوهر والمساوي ليس المساوَى .

وهذا يقتضي إثبات جوهر ثان مساوٍ الجوهر الأول ، وهو صريح بإثبات إلهين ، وتقولون مع ذلك : إنه إله واحد جوهر واحد ، ولا يقال الجوهر مع العلم الذي تعتبرون عنه بالأقنوم مساوٍ الجوهر الذي هو الذات . فإن الجوهر هو الذات وليس هنا جوهران : أحدهما مجرد عن العلم ، والآخر متصف به ، حتى يقال : إن أحدهما مساوٍ للآخر ، بل الرب تعالى هو الذات المتصفة بالعلم ، فإن كان الأب هو الذات المجردة ، فالإبن أكمل من الأب ، وهو الذات مع العلم ، والأب بعض الابن .

وكذلك يلزمهم أن يكون الإبن هو بعض روح القدس ، فإنهم فى أمانتهم جعلوا روح القدس هو الرب المحيي هو الذات المتصفة بالحياة ، والذات المجردة بعض ذلك ، فإن كان الأب هو الذات المجردة فالأب بعض روح القدس .

ثم قلتم فى أقنوم روح القدس الذى جعلتموه الرب المحيي أنه منبثق من الأب مسجود ممجد ، ناطق فى الأنبياء ، فإن كان المنبثق ربا حياً ، فهذا إثبات إله ثالث ، وقد جعلتم الذات الحية منبثقة من الذات المجردة ، وفى كل منهما من الكفر والتناقض مالا يخفى .

ثم جعلتم هذا الثالث مسجوداً له ، والمسجود له هو الإله المعبود ، وهذا تصريح بالسجود لإله ثالث مع ما فيه من التناقض ، ثم جعلتموه ناطقاً بالأنبياء وهذا تصريح بحلول هذا الأقنوم الثالث بجميع الأنبياء ، فيلزمكم أن تجعلوا كل نبي مركباً من لاهوت وناسوت ، وأنه إله تام وإنسان تام ، كما قلتم فى المسيح إذ لا فرق بين حلول الكلمة ، وحلول روح القدس ، كلاهما أقنوم .

وأيضاً فيمتنع حلول إحدى الصفتين دون الأخرى ، وحلول الصفة دون الذات ، فيلزم الإله الحى الناطق بأقانيمه الثلاثة حالاً فى كل نبي ، ويكون كل نبي هو رب العالمين ، ويقال مع ذلك هو ابنه ، وفى هذا من الكفر الكبير والتناقض العظيم مالا يخفى ، وهذا لازم للنصارى لزوماً لا محيد عنه ، فإن ما ثبت لنظيره ، ولا يجوز التفريق بين المتماثلين ، وليس لهم أن يقولوا : الحلول أو الاتحاد فى المسيح ثبت بالنص ، ولا نص فى غيره لوجوه :

أحدها : أن النصوص لم تدل على شيء من ذلك ، كما قد بُيِّن .

الثانى : أن فى غير المسيح من النصوص ما شابه النصوص الواردة فيه كلفظ الإبن ، ولفظ حلول روح القدس فيه ، ونحو ذلك .

الثالث : أن الدليل لا ينعكس فلا يلزم من عدم الدليل المعين عدم المدلول ،

وليس كل ما علمه الله وأكرم به أنبياءه أعلم به الخلق بنص صريح ، بل من جملة الدلالات دلالة الالتزام .

وإذ ثبت الحلول والاتحاد فى أحد النبيين لمعنى مشترك بينه وبين النبى الآخر وجب التسوية بين المتماثلين ، كما إذ ثبت أن النبى يجب تصديقه لأن نبى ربه ويكفر من كذبه لأنه نبيٌّ فيلزم من ذلك يجب تصديق كل نبى وتكفير من كذبه .

الرابع : هب أنه لا دليل على ثبوت ذلك فى الغير ، فيلزم تجويز ذلك فى الغير إذ لا دليل على انتفائه ، كما يقولون : إن ذلك كان ثابتاً فى المسيح قبل إظهاره الآيات على قولهم ، وحينئذ فيلزمهم أن يجوزوا فى كل نبى أن يكون الله قد جعله إلهاً تاماً وإنساناً تاماً كالمسيح وإن لم يعلم ذلك .

الخامس : لو لم يقع ذلك ، لكنه جائز عندهم ، إذ لا فرق فى قدرة الله بين اتحاده بالمسيح واتحاده بسائر الآدميين ، فيلزمهم تجويز أن يجعل الله كل إنسان إلهاً تاماً وإنساناً تاماً ويكون كل إنسان مركباً من لاهوت وناسوت ، وقد تقرب إلى هذا اللازم الباطل من قال بأن أرواح بنى آدم من ذات الله ، وأنها لاهوت قديم أزلى فيجعلون نصف كل آدمى لاهوتاً ، وهؤلاء يلزمهم من المحالات أكثر مما يلزم النصارى من بعض الوجوه ، والمحالات التى تلزم النصارى أكثر من بعض الوجوه .

الوجه الثانى : قولهم : ولا يلزمنا إذا قلنا هذا عبادة ثلاثة آلهة بل إله واحد ، كما لا يلزمنا إذا قلنا : الإنسان وروحه ونطقه ثلاث أناسى ، ولا إذا قلنا : النار وحرها وضوءها ثلاث نيران ، ولا إذا قلنا : الشمس وضوءها وشعاعها ثلاث شموس .

فيقال : هذا تمثيل باطل لوجوه :

أحدها : أن حر النار وضوءها القائم بها ليس ناراً من نار ، ولا جوهراً من جوهر ، ولا هو مساوى النار والشمس فى الجوهر ، وكذلك نطق الإنسان ليس

هو إنساناً من إنسان ، ولا هو مساوى الإنسان فى الجوهر ، وكذلك الشمس وضوءها القائم بها وشعاعها القائم بها ليس شمساً ولا جوهراً قائماً بنفسه ، وأنتم قلتم إله حق من إله حق ، فقلتم فى الأمانة : [نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه مساوى الأب فى الجوهر] .

وقلتم فى روح القدس : [إنه رب ممجد مسجود له] فأثبتم ثلاثة أرباب .

الثانى : أن الضوء فى الشمس والنار يراد به نفس الضوء القائم بها ، ويراد به الشعاع القائم بالأرض والجدران ، وهذا مباين لما ليس قائما بها ، ولفظ النور يعبر به عن هذا وهذا ، وكلاهما صفة قائمة بغيرها وعرض ، وقد يراد بلفظ النور نفس النار ونفس الشمس والقمر ، فيكون النور جوهراً قائماً بنفسه ، وإذا كان كذلك فهم جعلوا الأب رباً جوهراً قائما بنفسه والإبن أيضاً ربا جوهراً قائما بنفسه ، وروح القدس ربا جوهراً قائما بنفسه .

ومعلوم أن ضوء النار والشمس وحرارتها ليس كل منهما شمساً وناراً قائمة بنفسها ، ولا جوهراً قائما بنفسه ، فلو أثبتوا حياة الله وعلمه أو كلامه صفتين قائمتين به ولم يجعلوا هذا رباً جوهراً قائما بنفسه ، وهذا رباً جوهراً قائما بنفسه لكان قولهم حقا وتمثيلهم مطابقاً ، ولكنهم لم يقتصروا على مجرد جعلهما صفتين لله حتى جعلوا كلا منهما ربا وجوهرا وخالقا ، بل صرحوا بأن المسيح الذى يزعمون اتحاد أحدهما به إلها واحدا وخالقا ؛ فلو كان نفس كلمة الله وعلمه لم تكن إلها خالقا فإن كلام الله وعلمه ليس إلها خالقا ، فكيف والمسيح مخلوق بكلمة الله ، ليس هو نفس كلمة الله ؟

الوجه الثالث : أن قولهم الشمس وشعاعها وضوءها إن أرادوا بالضوء ما يقوم بها وبالشعاع ما ينفصل عنها فليس هذا مثال النار وحرها ولهبها إذ كلاهما يقوم بها ، وعلى هذا فالشمس لم تقم بها إلى صفة واحدة لا صفتين ،

فلايكون التمثيل بها مطابقا ، وإن أرادوا بالضوء والشعاع كلاهما ما يقوم بها ، أو كلاهما ما ينفصل عنها فكلاهما صفة واحدة ليس هما صفتان كالحياة والعلم ، فعلم أن تمثيلهم بالشمس خطأ ، وبعضهم يقول : الشمس وحرها وضوءها ، كما يقولون مثل ذلك فى النار .

وهذا التمثيل أصح لو ثبت أن فى جرم الشمس حرارة تقوم ، فإن هذا لم يقم عليه دليل ، وكثير من العقلاء ينكره ، ويزعم أن جرم الشمس والقمر والكواكب لا توصف بحرارة ولا برودة ، وهو قول أرسطو وأتباعه .

وأما تمثيلهم بروح الإنسان ونطقه ، فإن أرادوا بالروح حياته ، فليس هذا هو مفهوم الروح ، وإن أرادوا الروح التى تفارق بدنه بالموت وتسمى النفس الناطقة فهذه جوهر قائم بنفسه ليس عرضا من أعراضه ، وحينئذ فيلزم أن تكون روح الله جوهراً قائما بنفسه مع جوهر آخر نظير بدن الإنسان ويكون الرب سبحانه وتعالى مركبا من بدن وروح كالإنسان ، وليس هذا قول أهل الملل ، لا المسلمين ولا اليهود ولا النصارى ، فتبين أن تمثيلهم بالثلاثة باطل .

والوجه الرابع : أن التمثيل إما أن يقع بصفات الشمس والنار والإنسان أو النفس القائمة بهذه الجواهر أو بما هو مباين لذلك ، كالضوء الذى يقع على الأرض والحيطان والهواء ، وغير ذلك من الأجسام إذا قابلت الشمس أو النار أو الإنسان أو النفس القائمة بهذه الجواهر ، فإن أريد بهذا فهذا شعاع منعكس وضوء منقلب ، وليس هو صفة قائمة بالشمس والنار .

وإذا أريد بما حلّ فى المسيح فهذا وهذا يسمى نورا وروحا ، ويسمى نور الله كما قال تعالى : ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء﴾ .

وقال تعالى : ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا﴾ .

فأخبر أنه جعل الروح الذى أوحاه نورا يهدى به من يشاء .

وقال تعالى : ﴿أولئك الذين كتب الله فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾ .

وقال تعالى : ﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه﴾ .

وقال تعالى : ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ .

وقال تعالى : ﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ .

فإذا أريد ما حل فى المسيح من الروح والكلمة بهذا المعنى فلا اختصاص للمسيح بذلك ، فإن هذا يحل فى جميع الأنبياء والمؤمنين وإن كانوا متفاضلين فيه بحسب درجاتهم ، وليس هذا الحال فيهم نفس صفة الله القائمة به ، وإن كان ذلك حاصلا عنها ومسببا عنها ، لكن ليس هو نفس صفة الله ، وإن كان من الناس من يقول : بل صفة الله التى اتصف بها حلت فى العبد . فهذا القول خطأ ، فإن صفة الموصوف القائمة به يمتنع قيامها بعينها بغيره ، ولكن الإنسان إذا تعلم علم غيره ، وبلغ كلام غيره يقال : هذا علم فلان ، وكلامه لأن هذا الثانى بلغه عنه .

والمقصود هو علم الأول ، وكلامه مع العلم بأن نفس ما قام بذات الأول ليس هو عين ما قام بذات الثانى ، وإن كان قد يكون مثله ، وقد يكون الأول هو المقصود بالثانى مثل من بلغ كلام غيره ، فكلام المبلغ هو المقصود بالتبليغ .

وصفات المبلغ كحركته وصوته بها يحصل التبليغ ليس هو نفس المقصود ، وإذا قيل هذا كلام المبلغ عنه ، فالإشارة إلى حقيقة الكلام المقصود بالتبليغ ، لا إلى ما يختص به المبلغ من أفعاله وصفاته ، ولهذا شبه الناس من قال بحلول صفة الرب فى عبده بالنصارى القائلين بالحلول ، وهو شبيه بهم من بعض الوجوه .

لكن النصارى لايقولون بحلول صفة مجردة ، بل بحلول الأقنوم الذى هو ذات متصفة بالصفة ، ويقولون : إن المسيح خالق ورازق ، وهو خالق آدم ومريم وهو ولد آدم ومريم ، وهو خالق لهما بلاهوته ابن لهما بناسوته .

ويقولون : هو ابن الله ، وهو الله بلاهوته ، ويقولون أيضاً : باللاهوت والناسوت لأجل الاتحاد ، والله كفرهم بقولهم : ﴿ إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ ونحو ذلك ، وإن أرادوا بتمثيلهم بصفات الشمس والنار والنفس التمثيل بنفس مايقوم بالشمس والنار والنفس من الضوء والحياة والنطق ، وجعلوا مايثبتونه من الأب والإبن وروح القدس صفات لله ، كما أن هذه صفات لهذه المخلوقات .

قيل لهم أولا : لم يعبر أحد من الأنبياء عليهم السلام عن صفات الله باسم الأب والإبن وروح القدس ، فليس لكم إذا وجدتم فى كلام المسيح عليه السلام ، أو غيره من الأنبياء ذكر الإيمان بالأب والإبن وروح القدس أن تقولوا مرادهم بذلك صفة الله التى هى الكلمة والعلم ، ولا حياة الله إذ كانوا لم يريدوا هذا المعنى بهذا اللفظ ، وإنما أرادوا باسم الإبن وروح القدس ماهو بائن عن الله عز وجل .

والبائن عن الله ليس صفة لله ، فضلاً عن أن يكون هو الخالق ، فضلا عن أن يكون البشر المتحد به خالقاً ، فقد ضللتم ضلالا بعد ضلال ، ضلالا حيث جعلتم مراد المسيح وغيره بالإبن وروح القدس صفة الرب ، ثم ضلالا ثانياً حيث جعلتم الصفة خالقاً ورباً ثم ضلالا ثالثاً حيث جعلتم الصفة تتحد ببشر هو عيسى .

ويسمى المسيح ويكون هو الخالق رب العالمين فضللتم فى الحلول ضلالا مثلثاً بعد ضلالكم فى التثليث أيضاً ضلالات أخر ، حيث أثبتم ثلاث صفات دون غيرها ، وجعلتموها جواهر أرباباً ، ثم قلتم إله واحد فضللتم ضلال مثلثاً فى التثليث ، وضلالا مثلثا فى الاتحاد .

وقيل لكم ثانيا : إذا جعلتم ذلك صفات الله ، كما أن الضوء والنطق والحرارة صفات لما تقوم بها امتنع أن تحل بغيرها ، وامتنع مع الحلول أن تكون فاعلة فعل النار والشمس والنفس ، وأنتم جعلتم الكلمة والحياة حاله بغير الله ، وجعلتم مايحل به إلها خالقاً ، بل هو الإله الخالق ، ومعلوم أن أحداً من العقلاء لايجعل مايحصل فيه ضوء النار ناراً ، ولا مايحصل فيه شعاع الشمس شمساً ، ولا مايحصل فيه نطق زيد وعلمه هو نفس زيد ، فكان جعلكم المسيح هو الخالق للعالم مخالفا لتمثيلكم .

وتبين بذلك أن ماذكرتموه لايطابقه شيء من الأمثلة ، إذ كان كلاما باطلا متناقضاً يمتنع تحققه ، فلا تمثيل بشيء من الموجودات الثابتة المعلومة ، إلا كان تمثيلا غير مطابق .

ولهذا يشبهون الحلول والاتحاد تارة بحلول الماء فى الظرف وتارة بحلول النار فى الحديد وتارة بالنفس والبدن ، وتارة يقولون بأنهما جوهر واحد اختلطا كاختلاط الماء واللبن ، وكل هذه الأمثال التى ضربوها لله أمثال باطلة ، فإن الماء فى الظرف وغيره من الأوعية محتاج إلى وعائه لو انخرق وعاؤه لتبدد ، وهو محيط ولا يتصف الظرف بشيء من صفات الماء ، والرب تعالى يمتنع أن يحتاج إلى شيء من مخلوقاته لا إلى العرش ولا غيره أو يحيط به شيء من الموجودات إذ هو الظاهر ، فليس فوقه شيء .

كما ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء » ، فهو غنى عن كل ماسواه ، وكل ماسواه فقير إليه ، ولهذا لم يكن ماوصف به نفسه مماثلا لصفات المخلوقين ، كما لم تكن ذاته كذوات المخلوقين فهو مستو على عرشه ، كما أخبر عن نفسه مع غناه عن العرش .

والمخلوق المستوى على السرير أو الفلك أو الدابة لو ذهب ما تحته لسقط لحاجته إليه ، والله غنى عن كل ماسواه ، وهو الحامل للعرش ولحملة العرش ، وفرق النصارى الثلاثة يقولون بالاتحاد فلا ينفعهم التمثيل بحلول الماء فى الظرف ، ولو قدر أنهم قالوا بالحلول المجرد مع أن الرب لايحتاج إلى الناسوت لايحويه ولا يمسه ، بل كما خاطب موسى من الشجرة فهذا يوجب أن الناسوت لايتصف بشىء من الإلهية كالشجرة ثم إنه معلوم بالضرورة أن الصوت الذى كان يسمع هو صوت الناسوت ، فالتمثيل بالشجرة أيضاً باطل ، كما بسط فى موضعه .

وأما الحديد والخشب وغيرهما إذا ألقى فى النار فإنه يستحيل ناراً لاتصاله بالنار ، لا أن النار الذى استحال إليها كانت موجودة فحلت به هنا استحالة بلا حلول ، والنار الذى صارت فى الحديدة حادثة عن تلك النار ليست إياها ، ثم تلك الحديدة إذا طرقت وقع التطريق على النار ، وكذلك إذا ألقيت فى الماء ، فلو كان هذا تمثيلا مطابقا لكان الضرب والصلب والإهانة وقع على اللاهوت ، وكان اللاهوت هو الذى يغتسل بالماء ، وهو الذى يأكل ويشرب ، وهذا من أعظم الكفر .

ويحكى عن بعض طائفة منهم كاليعقوبية أنه يقول : بهذا الكفر ، وإن كان كثير منهم كالملكية والنسطورية ينكره ، فهو لازم لهم ، وكذلك إذا شبهوه بالنفس والبدن ، فإن النفس تتألم تألم البدن ، وتستحيل صفاتها بكونها فى البدن ، وتكتسب عن البدن أخلاقا ، وصفات ، فلو كان هذا تمثيلا مطابقاً لزم تألم اللاهوت بآلام البدن ، وأن يكون متألماً بجوع البدن وعطشه وضربه وصلبه ، وأن يكون مستحيلا لما اكتسبه من صفات الناسوت الذى عندهم بمنزلة البدن للنفس ، وأما قولهم إذ لم نهمل ماتسلمناه ، ولم نرفض ماتقلدناه فقولهم فى ذلك بمنزلة قول اليهود للمسيح : إنا لا نهمل ماتسلمناه ولا نرفض ماتقلدناه من موسى عليه السلام .

وجواب الطائفتين من وجهين :

أحدهما : أنكم بدلتم وحرفتم الكتاب الذى أنزل إليكم ، والشرع الذى شرع لكم ، وتدليل المعانى والأحكام لاريب فيه عند جميع عقلاء الأنام ، وما كان عليه اليهود بعد التبديل لم يكن هو الشرع الذى شرعه موسى عليه السلام ، وما كان عليه النصارى بعد التبديل لم يكن هو الشرع الذى شرعه المسيح عليه السلام .

والثانى : أنكم كذبتم بالكتاب الآخر ، والرسول الآخر الذى أرسل ، ومن كذب ما أنزل إليه من ربه ، والرسول الذى أرسل إليه كان كافراً مستحقاً لعذاب الدنيا والآخرة ، وإن كان قبل ذلك متبعاً لشرع رسول الله وكتاب غير مبدل ، فكيف إذا كان قد بدل من أحكامه ومعانيه ؟ .

فصل فى عدم تناقض القرآن

وأما قولهم : ولنا هذه الشهادات والدلائل من الكتاب الذى فى أيدى هؤلاء القوم .

فيقال : لا يصح استشهادهم بهذا الكتاب ، واستدلالهم به من الوجوه ، فإنه الذى قد جاء به ، وقد تواتر عنه أنه أخبر مرسل إليهم ، وأنهم كفار إذا لم يؤمنوا به مستحقون للجهاد ، ومن لم يستحل جهادهم فهو كافر ، والقرآن مملوء بكفرهم ، فإن كان هذا رسولا من الله ، وقد أخبر بكفرهم ثبت أنهم كفار .

فإن الرسول لا يقول على الله إلا حقاً لا يكذب على الله فى شىء ، ومن كذب على لله ولو فى كلمة واحدة فهو من الكذابين المفترين على الله الكذب ، مستحق لعقوبة الكذابين كما قال تعالى : ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين ﴾ ، [سورة الحاقة : ٤٤ ـ ٤٧] .

وقال تعالى : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشاء الله يختم على قلبك ويمحُ الله الباطل ويُحقّ الحق بكلماته ﴾ ، [سورة الشورى : ٢٤] .

وقال تعالى : ﴿ وإذا بدّلنا آيةً مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنمـــا أنت مُفتر بل أكثرهم لايعلمون قل نزلهُ روح القدس من ربك بالحق ليُثبّت الذين آمنوا وهدى و بشرى للمسلمين ﴾ ، [سورة النحل : ١٠١ — ١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا ائتِ بقرآنٍ غير هذا أو بدّله قل ما يكون لى أن أُبدّله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذابَ يوم عظيم * قل لو شاء الله ماتلوته عليـكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ ، [سورة يونس ١٥ : ١٦] .

فمتى كانت كلمة من كلمات هذا الـكتاب كذبا على الله لم يكن كتاب الله ، ولم يكن الذى جاء به رسول الله ، فإن الـكاذب قد يصدق فى أكثر مايقوله لـكن إذا كذب فى بعض مايقوله كان كاذباً ، والله تعالى لايرسل من يكذب عليه ، فإن المخلوق لايرضى أن يرسل من يعلم أنه يكذب عليه ، ولو فعل ذلك دل على جهله أو عجزه فـكيف يرسل رب العالمين من يعلم أنه يكذب عليه .

وحينئذ فمتى كذبوا بكلمة واحدة مما فى الـكتاب لم يصح استشهادهم واستدلالهم بشىء مما فى الـكتاب ؟ وإن صدقوا بالـكتاب كله لزمهم الإيمان بما جاء به واتباع شريعته ، والاعتراف بكفر الذين كذبوه ، وكفر الذين يقولون : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وإن الله ثالث ثلاثة .

وهذا بخلاف من آمن بالرسول ، ولم يثبت عنده بعض مانقل عنه ، أو لم يعرف معناه فإن هذا لايقدح فى أصل إيمانه بالرسول .

فالمسلمون إذا كذبوا ببعض ما نقل عن موسى والمسيح فهو لطعنهم فى الناقل ، لا فى النبي المنقول عنه .

وأما النصارى فيعلمون أن محمداً جاء بالقرآن فطعنهم فى بعضه طعن فى الرسول نفسه ، وكفر به ، وليس هذا بمنزلة ما مثلوا به من الوثيقة التى كتب وفاؤها فى ظهرها ، فإن الذى له الدين أقر بالاستيفاء المسقط له ، فلم يبق هناك حق له يدعيه ، بخلاف مايخبر به الذى يقول: إنه رسول الله ، فإنه يقول: إن الله أنزل على هذا الكتاب كله ، وأرسلنى بكذا وكذا إلى كذا وكذا ، فإن كذب فى شيء مما أخبر به عن الله لم يكن الله أرسله ، فإن الذى أرسله هو الذى جعله يبلغ عنه ما يقوله بلا زيادة ولا نقص ، وإرسال الله للرسول يتضمن شيئين :

إنشاء الله للرسالة والله حكيم وهو أعلم حيث يجعل رسالته لايجعلها إلافيمن هو من أكمل الخلق وأصدقهم .

ويتضمن إخبار الله عنه بأنه صادق عليه فيما يبلغه عنه مما يقول: إن الله أرسله به فكما صدقه بالآيات المعجزات فى قوله : إنه أرسلنى فقد صدقه بما يقول إنه أرسلنى به ، إذ التصديق بكونه أرسله من غير معرفة بصدقه فيما يخبر به لافائدة فيه ، ولا يحصل به مقصود الإرسال .

والله عليم بما يشهد به لمن أرسله بخلاف المخلوق الذى يبعث من يظنه يصدق فيما يبلغه عنه ، فيظهر أنه كذب عليه والله يعلم عواقب الأمور ، والرسالة صادرة من علمه وحكمته وهو عليم ، ومن يكذب على الله ولو فى كلمة لم يبلغ عنه مايقوله على هذا الوجه فلا يكون رسوله .

ولهذا اتفق أهل الملل على أن الرسل معصومون فيما يبلغونه عن الله لا يكذبون عليه عمداً ولا خطأ ، فإن هذا مقصود الرسالة فكان تمثيل هذا بالوثيقة تمثيلا باطلا ، فإن المدعى للاسقاط لم يدع كلاماً متناقضاً ، بل قال :أقررت الدين ثم وفيتك إياه وأنت تقر بوفائه وإقرارك مكتوب فى ظهرها فليس لك أن

تحتج بإقرار الدين دون إقرارك بالوفاء ، بل إما أن تعتبر ما فى الوثيقة من إقرارى وإقرارك ، وإما أن تبطل الأمرين .

وهذا كلام عدل ، كالشريكين المتفاوضين ، مثل شريكى العنان ، إذا قال لصاحبه : إن حصل ربح فهو لى ولك ، وإن لم يحصل ربح فلا لى ولا لك .

وكذلك البائع والمؤاجر الذى يقول : إن كان بيننا معاوضة فعليك تسليم ما بذلته وعلى تسليم ما بذلته ، لا يستحق هذا إلا بهذا فهذا كله كلام عدل وإنصاف ، بخلاف الشخص الذى يقال فيه : إنه رسول الله ، والكتاب الذى يقال : إنه كلام الله ، وأن الله أنزله ، فإن هذا إن كان رسولا صادقاً لجميع ما بلغه عن الله حق وإن كان كذباً لم يكن الله أرسله لجميع ما بلغه عن الله كذب على الله ، فلا يجوز بمجرد خبره أن ينسب إلى الله شىء ولا يحتج بما يخبره به عن الله على شىء .

ألا ترى أن من ادعى الرسالة وعلم أنه كاذب كالأسود العنسى ، ومسيلمة الكذاب وطليحة الأسدى ، والحارث الدمشقى ، وبابا الرومى ، وغير هؤلاء لا يجوز لأحد أن يحتج بشىء مما ذكروا أن الله أرسلهم به ، وإن كان ذلك القول قد علم أنه حق من جهة أخرى ، فإنه قد علم بكذبهم أن الله لم يرسلهم فأى شىء قالوا إن الله أنزل عليهم كاذبين فيه ، ومتى علم أنه كاذب فى نفس الخبر المعين لم يجز أن يحتج بجنس الذى علم أنه كاذب فيه .

كذلك لو قال رجل عندى أن موسى أو داود أو المسيح لم يرسلهم الله بشىء لكن كذبوا فى قولهم أن الله أرسلهم فإذا أراد مع هذا أن يحتج بما ينقل من التوراة والزبور والإنجيل عن الله كان متناقضاً ، وكان احتجاجه باطلا غير مقبول ، بل لو قال : أنا أشك فى بعض ما أخبروا به عن الله ، هل كذبوا فيه أم لا ؟ كان ذلك شكا فى أن الله أرسلهم ، فإن من أرسله لا يكذب فى شىء لا خطأ ولا عمداً ، ومع شكه فى ذلك لا يجوز أن يحتج بشىء مما ينقلونه عن الله لتجويز أن يكونوا

كاذبين فى نفس ذلك الذى نقلوه عن الله ، وليس هذا مثل رسول الواحد من الآدميين ، فإنه قد يكون أرسله ، ثم إن الرسول صدق فى بعض ما بلغه من مرسله ، وكذب فى البعض .

ويجوز على الآدمى أن يرسل من يكذب عليه لعدم علمه بكذبه ، أو عدم حكمته فى إرساله .

وأما الرب تعالى : فلا يجوز أن يرسل من يكذب عليه لا عمداً ولا خطأ ، وكذلك الشاهد والمخبر الذى قد علم أنه تارة يصدق وتارة يكذب يمكن أن يستدل ببعض أخباره الذى يظهر فيها صدقه لدلالات تقترن بذلك ، بخلاف الرسول فإنه إذا كذب كذبة واحدة امتنع أن يكون الله أرسله ، فصار جميع ما يبلغه عن قدر هو كاذب فى أن الله أرسله به ، فكذبه فى كلمة واحدة يوجب أنه كاذب فى جميع ما بلغه عن الله ؛ وأن جميع ما حكاه ورواه عن الله قد كذب فيه ، وإن قدر أن ذلك الكلام فى نفسه حق ، لكن تبليغه عن الله ونقله وروايته وحكايته عن الله كذب على الله .

وقد أخبر الله أنه ينسخ ما يلقيه الشيطان ، مما يناقض مقصود التبليغ بقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد * وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم * ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ ، [سورة الحج : ٥٢ ـ ٥٥] .

وإن قالوا : خبره يناقض بعضه بعضاً كان الجواب من وجهين :

أحدها : أن هذا أيضاً إن كان حقاً فإنه يقدح فى رسالته ، فإن الرسول

لا يناقض بعض خبره بعضاً ، ومن كان كذلك لم يصح لكم أن تحتجوا بشيء مما جاء به ، وإن كان باطلا لم يرد عليه فعلم أن استدلالهم بما في هذا الكتاب على صحة دينهم الذي خالفوا به هذا الكتاب في غاية الفساد ، وهو جمع بين النقضين واستدلال بما في الكتاب على مايوجب بطلان الاستدلال بشيء مما في الكتاب.

وإذا كانت النتيجة تستلزم فساد بعض مقدمات الدليل بطل الاستدلال بذلك الدليل ، الذي لا يصح إلا بصحة مقدماته ، فإذا كانت مقدمته لا تصح إلا مع فساد نتيجته ، ونتيجته مستلزمة لفساد مقدمته ، كان الجمع بين صحة المقدمة والنتيجة جمعاً بين النقيضين .

وكذلك من استدل بشيء من الكتاب على ماينافض مافي الكتاب ، كاستدلال النصارى بآيات فيه على صحة دينهم كان تناقضاً ، فإنه إن صح ذلك الدليل بأن مدح دينهم مع ذمه كان متناقضاً ، والكتاب المتناقض لا يكون كتاب الله ، وإن فسد أحدهما ، إما فساد دينهم ، وإما فساد مدحه .

فالكتاب الذي فيه فساد لا يكون كتاب الله ، فيلزم أن لا يكون كتاب الله على التقديرين ، فلا يصح الاستدلال به من جهة كونه خبر الله ، وأما الاستدلال به من جهة كون المتكلم به رجلا عالماً حكيما ، وهذا لا يفيد العلم ، إذ ليس معصوماً إلا الأنبياء عليهم السلام .

والنصارى يجوّزون أن يكون معصوماً غير الأنبياء ، فبتقدير أن يكون كذلك فهو حجة عليهم ، وإن قالوا : هو رجل عالم ليس برسول من الله ، قيل لهم : فهذا قوله ليس بحجة لجواز أن يخطىء ، ولكن يعتضد بقوله ، وأما إذا ادعى أن الله أرسله وهو لم يرسله بهذا الكتاب كله ، فهذا كذاب لا يحتج بشيء من كلامه ، ولا يكون مثل هذا عدلا فضلا عن أن يكون حكيما ، بل هو من الذين افتروا على الله كذباً . ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليّ ولم يوحَ إليه شيء ﴾ ، [سورة الأنعام : ٩٣] .

والجواب الثانى : أنا قد بيّنا ما ذكروه ، أنه لا يُناقض شيئاً مما أخبر به ، وأنه ليس فى هذا الكتاب تناقض يحتجون به بوجه من الوجوه .

وأما قولهم : وأعظم حجتنا ماوجدناه فيه من الشهادة لنا بأن الله جعلنا فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة .

فيقال : بل ما ذكروه حجة عليهم لا لهم ، فإن الله أخبر المسيح أنه جاعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، وخبر الله حق ، ووعد الله صدق والله لا يخلف الميعاد ، فلما اتبع المسيح من آمن به جعلهم الله فوق الذين كفروا به من اليهود وغيرهم .

ثم لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالدِّين الذى بعث به المسيح ، وسائر الأنبياء قبله، وكان محمد صلى الله عليه وسلم مصدقاً لما جاء به المسيح،مبشراً برسول يأتى من بعده اسمه «أحمد» ، صارت أمة محمدصلى الله عليه وسلم أتبعُ للمسيح عليه السلام من النصارى الذين غيّروا شريعته ، وكذّبوه فيما بشر به ، فجعل الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم فوق النصارى إلى يوم القيامة .

كما جعلهم أيضاً فوق اليهود إلى يوم القيامة ، والنصارى بعد النسخ والتبديل ليسوا متبعين المسيح ، لكنهم أتبع له من اليهود الذين بالغوا فى تكذيبه وسبه فإنهم كذبوه أولا ، وكذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ثانياً ،فصاروا أبعد عن المسيح من اليهود ، فكانوا مجعولين فوق اليهود

والمؤمنون أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، هم المتبعون للمسيح عليه السلام ، ومن سواهم كافر به ، فأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فوق اليهود والنصارى إلى يوم القيامة .

ولهذا لما جاء المسلمون يقاتلون النصارى غلبوهم،وأخذوا منهم خيار الأرض : الأرض المقدسة ،وما حولها من مصر والجزيرة ،وأرض العرب ، ولم يزل المسلمون منتصرين على النصارى ، ولا يزالون إلى يوم القيامة .

لم تنتصر النصارى قط على جميع المسلمين ، وإنما تنتصر على طائفة من المسلمين بسبب ذنوبهم ، ثم يؤيد الله المؤمنين عليهم ولو كان النصارى هم المتبعون المسيح عليه السلام ، والمسلمون كفاراً به لوجب أن ينتصروا على جميع المسلمين ، لأن جميع المسلمين ينكرون إلهية المسيح ويكفرون النصارى ، فعلم أن المتبعين للمسيح هم المسلمون دون النصارى .

فصل فى تناقض ما ذهب إليه النصارى

من اتحاد اللاهوت بالناسوت

قالوا : وأما تجسم كلمة الله الخالقة التى بها خلق كل شىء، وتجسدها بإنسان مخلوق ، وهو الذى أخذ من مريم العذراء المصطفاة ، التى فضلت على نساء العالمين واتحدت الكلمة به اتحاداً بريا من اختلاط أو تغير أو استحالة وخاطب الناس ، كما خاطب الله لموسى النبى من العوسجة ففعل المعجز بلاهوته ، وأظهر العجز بناسوته والفعلان هما من المسيح الواحد .

والجواب : إن فى هذا الكلام من أنواع الكذب والكفر والتناقض أموراً كثيرة ، وذلك يظهر بوجوه :

الأول : إن قولهم كلمة الله الخالقة التى بها خلق كل شىء كلام متناقض ، فإن الخالق هو الإله الخالق ، وهو خلق الأشياء بكلامه ، وهو قوله : « كن » فالخالق لم يخلق به الأشياء ، بل هو خلقها والكلام الذى به خلقت الأشياء ليس هو الخالق لها ، بل به خلق الخالق الأشياء .

والفرق بين الخالق والمخلوق ، وبين ما به خلق الخالق معقول ، وهؤلاء جعلوا الخالق هو الذى به خلقت المخلوقات ، فجعلوا الكلمة هى الخالق ، وجعلوا المخلوقات خلقت بها .

وإيضاح هذا أن الكلمة إن كانت مجرد الصفة ، فإن الصفة ليست خالقة ، وإن كانت الصفة مع الموصوف فهذا هو الخالق ، ليس هذا هو المخلوق به .

والثانى قولهم : تجسدها بإنسان مخلوق ، وقولهم : تجسم كلمة الله ، فإن قولهم تجسمت وتجسدت يقتضى أن الكلمة صارت جسداً وجسما بالإنسان المخلوق وذلك يقتضى انقلابها جسداً وجسماً ، وهذا يقتضى استحالتها وتغيرها ، وهم قالوا : اتحاداً بريا من تغير واستحالة .

الثالث قولهم : اتحدت الكلمة به اتحاداً بريا من اختلاط أو تغير ، أو استحالة ، كلام متناقض أيضاً ، فإن الاتحاد أن يصير الإثنان واحداً ، فيقال قبل الاتحاد كان اللاهوت جوهراً والناسوت جوهراً آخر .

وإن شئت قلت : كان هذا شيئاً وهذا شيئاً ، أو هذا عينا قائمة بنفسها ، وهذا عيناً قائمة بنفسها ، فبعد الاتحاد إما أن يكونا اثنين كما كانا ، أو صار الإثنان واحداً ، فإن كانا اثنين كما كانا فلا اتحاد ، بل هما متعددان كما كانا متعددين ، وإن كانا قد صار شيئاً واحداً ، فإن كان هذا الواحد هو أحدهما فالآخر قد عدم وهذا عدم لأحدهما لا اتحاده ، وإن كان هذا الذى صار واحداً ليس هو أحدهما ، فلابد من تغيرهما واستحالتهما ، وإلا فلو كانا بعد الاتحاد اثنين باقيين بصفاتهما لم يكن هناك اتحاد .

فإذا قيل : اتحد اتحاداً بريًا من اختلاط أو تغير أو استحالة كان هذا كلاماً متناقضاً ، ينقض بعضه بعضاً ، فإن هذا إنما يكون مع التعدد والمباينة ، لا مع الاتحاد . يوضح ذلك أنه إذا اتحد الماء واللبن ، والماء والخمر ، ونحو ذلك كان الحاصل من اتحادهما شيئاً ثالثاً ليس ماء محضاً ولا لبناً محضاً ، بل هو نوع ثالث ، و كل من الماء واللبن قد استحال وتغير واختلط ، وأما اتحاد بدون ذلك فغير معقول .

ولهذا عظم اضطراب النصارى فى هذا الموضع ، وكثر اختلافهم ، وصار كل منهم يرد على الآخر ما يقوله ، ويقول هو قولاً يكون مردوداً ، فكانت أقوالهم كلها باطلة مردودة ، إذ كانوا اشتركوا فى أصل فاسد يستلزم أحد أمور

كلها باطلة ، فأى شيء أخذ من تلك اللوازم كان باطلا ، ولابد له منها ، فيأخذ هذا بعض اللوازم فيرده الآخر ، ويأخذ الآخر لازماً آخر فيرده الآخر .

وهذا شأن جميع المقالات الباطلة ، إذا اشترك فيها طائفة لزمها لوازم باطلة ، وفساد اللازم يدل على الملزوم ، فإنه إذا تحقق الملزوم تحقق اللازم ، وإذا انتفى اللازم انتفى الملزوم .

وهذا يتبين بالوجه الرابع ، وهو أن يقال كثير من النصارى يقول : إنها بعد الاتحاد جوهر واحد ، وطبيعة واحدة ومشيئة واحدة ، وهذا القول يضاف إلى اليعقوبية .

ويقولون : إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا ، كما يختلط الماء واللبن ، والماء والخمر . وهذا القول هو حقيقة الاتحاد ، لا يعقل الاتحاد إلا هكذا ، لكن فساده ظاهر لعقول الناس ، وإذا كان هذا لازماً لقول النصارى ، وفساده ظاهر كان فساد اللازم يدل على فساد الملزوم . فإن حقيقة هذا القول أن الذى كان يأكل ويشرب ويبول ويتغوط ، والذى ضرب وبصق فى وجهه ، ووضع الشوك على رأسه هو رب العالمين .

ونفس تصور هذا القول مما يوجب العلم ببطلانه وتنزيه الله عن ذلك ، وإن قائله من أعظم المفترين على الله .

قال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئاً إدًّا ، تكاد السموات يتفطَّرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدَّهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾ .

الوجه الخامس : قولهم : وخاطب الناس ، كما خاطب الله موسى من العوسجة يوجب أن يكون الذين كلمهم المسيح ممن آمن به وكفر به هو بمنزلة موسى ابن عمران الذى كلمه الله تكليما .

ومعلوم أن تكليم الله لموسى عليه الصلاة والسلام، مما فضله به على غيره من النبيين، فإن كان آحاد الناس بمنزلة موسى بن عمران لزم أن يكون كل من آحاد الناس في ذلك بمنزلة موسى بن عمران، وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسل.

الوجه السادس: أنه من المعلوم أن خطاب الله لأنبيائه ورسله أفضل من خطابه لمن ليس بنبي ولا رسول. والمسيح عليه السلام لم يكلم عامة النبيين والمرسلين، بل لم يكلم إلا ناساً منهم من آمن به، ومنهم من كفر.

والتحقيق أنه لم يكلم أحداً من رسل الله، ولكن النصارى يزعمون أن الحواريين رسل الله، وهذا باطل، ولو سلم فلم يكلم إلا اثنى عشر رسولا، وقد بعث الله قبله رسلا كثيرين. قد روى في حديث أبي ذر أن عدتهم ثلاثمائة وثلاثة عشر.

وقد قال الله في القرآن: ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقّت عليه الضلالة ﴾، [سورة النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾، [سورة فاطر: ٢٤].

وفي الحديث الذي في المسند عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل »، وهذه السبعون سواء كانت هي التي هداها. أو هي الجميع فإنه يدل على أكثرية الرسل، ولم يكلم الله أحداً من هؤلاء من بشر حل فيه، فلو كان المكلم للناس في عيسى هو الله لكان تكليم الله للذين كلمهم عيسى من الكفار.

والمؤمنون أكمل من يكلمه رسل الله الذين أرسلهم.

الوجه السابع: أن الناسوت ناسوت المسيح هو من جنس سائر النواسيت، والإنسان لا يستطيع أن يرى الله في الدنيا، كما أخبر بذلك موسى وعيسى ومحمد، فإذا لم يستطع أن يراه كان أن لا يستطيع الاتصال به ومماسته، فضلا عن أن الإتحاد به أولى وأحرى.

الوجه الثامن : أن الله لما كلّم موسى عليه السلام من الشجرة كان الكلام المسموع مخالفاً لما يسمع من كلام الناس ، ولهذا لم تطق بنو إسرائيل سماع ذلك الصوت ، بل قالوا لموسى : صف لنا ذلك وهذا عندهم فى التوراة .

كما روى الخلال فى كتاب السنة ، عن أحمد بن حنبل ، فيما رواه من حديث الزهرى قال : « لما سمع موسى كلام الله قال : يارب هذا الكلام الذى أسمع هو كلامك ؟ قال : نعم يا موسى هو كلامى ، وإنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان ولى قوة الألسن كلها ، وأنا أقوى من ذلك ، وإنما كلمتك على قدر ما يطيق بدنك ولو كلمتك بأكثر من هذا لمت . فلما رجع موسى إلى قومه قالوا له : صف لنا كلام ربك ، فقال ، سبحان الله ، وهل أستطيع أن أصفه لكم ؟ ! قالوا : فشبهه لنا قال : هل سمعتم أصوات الصواعق التى تقبل فى أحلى حلاوة وسمعتموها فكأنه مثله » .

وأما المسيح عليه السلام ، فكان كل أحد يسمع صوته كصوت سائر الناس لم يتميز عنهم بما يوجب أن يكونوا سمعوا كلام الله كما سمعه موسى بن عمران .

الوجه التاسع : أن الجنى إذا حلّ فى الإنسى ، كما يحل فى المصروع ، ويتكلم على لسانه ، فإنه يتغير الكلام ويعرف الحاضرون أنه ليس هو كلام الإنسى مع أنه يتكلم بلسان الإنسى وحركة أعضائه ، فيعلم أن الصوت حصل بحركة بدن الإنسى ، مع العلم بأنه قد تغير تغيرا خالف به المعهود من كلام الإنسى ، والإنسان الذى حل فيه الجنى يغيب عنه عقله ولا يشعر بما تكلم الجنى على لسانه ، فربّ العالمين سبحانه وتعالى لو حل فى بشر واتحد به وتكلم بكلامه ، وكان الكلام المسموع كلام الله المسموع منه ، لكان يظهر من الفرق بين ذلك وبين المعهود من كلام الإنسى ما هو فى غاية الظهور ، وكان يتغير حال الإنسى غاية التغير ، فإن الربّ عز وجل لما تجلى للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فإذا كان البدن الإنسى لا يثبت لتجليه للجبل ، فكيف يثبت لحلوله فيه ويكلمه على لسانه من غير تغير فى البدن .

وقد كان الوحى والملائكة إذا نزلت على الأنبياء فى باطنهم يظهر التغير فى أبدانهم ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى ثقل حتى ينزل به البعير ، وإن كان فخذه على فخذ أحد ثقل حتى كاد يرضه .

وفى الصحيحين عن عائشة : «أن الحارث بن هشام قال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ قال : أحيانا يأتينى فى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على ، فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك يكلمنى فأعى ما يقول ، قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصّد عرقا » .

وموسى عليه السلام لما سمع كلام الله مقت الآدميين ، لما وقر فى سمعه من كلام الله ، وكان النور يظهر على وجهه حتى كان يتبرقع . والمسيح عند النصارى قد اتحد به اللاهوت من حين علقت به مريم ولم يزل متحداً به وهو حمل فى بطنها يعظم اتحاده به كلما كبر ، ثم كذلك كان متحداً به وهو صبى إلى أن رفع إلى السماء ، وقعد عن يمين أبيه ، وهو متحد به عندهم واللاهوت والناسوت جميعا . ومع هذا لم يتغير بدن المسيح قبل أن يعمده « يوحنا » ويرى شبه الحمامة نازلا عليه لم يظهر الآيات ، بل كان كآحاد الناس .

وأول ما ظهر من الآيات قلب الماء خمراً .

وموسى عليه السلام بمجرد ما سمع الكلام ، وكلمه الله ظهر عليه النور ، وأين سمع الكلام من الاتحاد به . وموسى لما سمع الكلام وكلمه الله من الشجرة نزلت الملائكة وظهر له من آيات الله ، وعظمته ما يناسب تكليم الله عز وجل .

والرب دائما عند النصارى متحد ببدن المسيح ولم يظهر من آيات الربوبية والعظمة إلا ما يظهر أكثر منه لبعض الأنبياء .

الوجه العاشر : أن المخاطب للناس إن كان هو مجموع اللاهوت والناسوت فكلامه صريح فى أنه مخلوق مربوب يدعو ويسأل ، والمجموع ليس بمخلوق يسأل الله ويعبده ، وإن كان هو اللاهوت وحده كما يقتضيه كلامهم هذا ، فهو أبعد

وأبعد ، وإن كان الناسوت وحده فلم يكن اللاهوت مخاطبا للناس من الناسوت كما كلم الله موسى من الشجرة .

وأيضاً فلم يكن فرق بين حقيقة كلام الناسوت ، وكلام المسيح الصريح فى أنه مخلوق كثير وهم يقرون به ، ولكن يقولون ذلك كلام عن الناسوت فيقال لهم حينئذ فالمخاطب للناس هو الناسوت دون اللاهوت ، ، أنتم قلتم إن الله خاطب الخلق من بدن المسيح كما خاطب موسى من الشجرة .

والخطاب الذى سمعه موسى من الشجرة، هو كله كلام اللاهوت والكلام الذى كان يسمع من المسيح ليس فيه شىء يختص باللاهوت ، بل عامته صريح فى أنه كلام الناسوت .

الوجه الحادى عشر : أن الله لما كلم موسى من الشجرة ، كان الكلام كلام الله وحده لم يكن للشجرة كلام أصلا بوجه من الوجوه ، فإن كان هذا المثل مطابقاً ، كان الذى يكلم الناس من ناسوت المسيح هو اللاهوت وحده .

ومعلوم أن فى الإنجيل وغيره من النصوص الصريحة ما يدل على أن الناسوت كان هو المتكلم ، مما يبين الفرق الواضح بين هذا وهذا .

الوجه الثانى عشر : أن الذى نادى موسى من الشجرة لم يتكلم إلا بكلام الربوبية فقال : ﴿ إنى أنا الله رب العالمين ﴾ ، [سورة القصص : ٣٠] .

﴿ إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى * إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزَى كل نفسٍ بما تَسْعَى * فلا يصدَّنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتَرْدَى ﴾ ، [سورة طه : ١٤ - ١٦] .

وسائر ما تكلم به كله يقتضى أنه كلام رب العالمين ، وأما المتكلم على لسان المسيح فلم يقل كلمة من هذا أصلا ، بل كان فى كلامه من الإقرار بأنه رسول ، وأنه مخلوق محتاج ، وأنه ابن البشر وغير ذلك ما يناقض من كل وجه كلام المنادى لموسى من الشجرة ، فمن سوّى بين هذا وهذا كان قد سوّى بين

رب العالمين وبين إنسان من الآدميين ، وهو أضل من الذين قال الله فيهم : ﴿ تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسوّيكم برب العالمين ﴾ ، [سورة الشعراء : ٩٨] .

فإن أولئك جعلوهم أنداداً لله فى بعض الأمور مع اعترافهم مخلوقون ، وهؤلاء الضلال جعلوا هذا الإنسان الذى يتكلم هو رب العالمين الذى كلم موسى من الشجرة ، وقالوا : إن هذا الذى كلم العباد هو ذاك الذى نادى موسى من الشجرة .

الوجه الثالث عشر : أن يقال : معلوم أن الله أجل أعظم وأكبر من رسله بما لا يقدر المخلوق قدره ، فلو كان هو الذى كلم الخلق على لسان المسيح ، وكان الحواريون رسله الذين سمعوا كلامه منه بلا واسطة ، لكان الحواريون ، إما مثل موسى وإما أعظم .

ومعلوم أن المسيح نفسه لم تكن له آيات مثل آيات موسى ، فضلا عن الحواريين ، فإن أعظم آيات المسيح عليه السلام إحياء الموتى ، وهذه الآية قد شاركه فيها غيره من الأنبياء كإلياس وغيره .

وأهل الكتاب عندهم فى كتبهم أن غير المسيح أحيا الله على يديه الموتى ، وموسى بن عمران من جملة آياته العصا التى انقلبت فصارت ثعبانا مبينا حتى بلعت الحبال والعصى التى للسحرة ، وكان غير مرة يلقيها فتصير ثعبانا ثم يمسكها فتعود عصا .

ومعلوم أن هذه آية لم تكن لغيره وهى أعظم من إحياء الموتى ، فإن الإنسان إذا كانت فيه الحياة ، فإذا عاش فقد عاد إلى مثل حاله الأول والله تعالى يحيى الموتى ، بإقامتهم من قبورهم وقد أحيا غير واحد من الموتى فى الدنيا .

وأما انقلاب خشبة تصير حيوانا ثم تعود خشبة مرة بعد مرة وتبتلع الحبال

والعمى فهذا أعجب من حياة الميت ؛ وأيضاً فالله قد أخبر أنه أحيا من الموتى على يد موسى وغيره من أنبياء بنى إسرائيل أعظم ممن أحياهم على يد المسيح .

قال تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾ ، [سورة البقرة ٥٥ ، ٥٦] .

وقال تعالى : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ﴾ ، [سورة البقرة : ٧٣] .

وقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حَذَر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ﴾ . [سورة البقرة : ٢٤٣] .

وأيضاً فموسى عليه الصلاة والسلام كان يخرج يد بيضاء من غير سوء ، وهذا أعظم من إبراء البرص الذى فعله المسيح عليه السلام ، فإن البرص مرض معتاد ، وإنما العجب الإبراء منه ، وأما بياض اليد من برص ثم عودها إلى حالها الأول ففيه أمران عجيبان لا يعرف لهما نظير .

وأيضاً فموسى فلق الله البحر حتى عبر فيه بنو إسرائيل وغرق فيه فرعون وجنوده وهذا أمر باهر فيه من عظمة هذه الآية ومن اهلاك الله لعدو موسى مالم يكن مثله للمسيح .

وأيضا فموسى كان الله يطعمهم على يده المنّ والسلوى مع كثرة بنى إسرائيل ويفجر لهم بضربه للحجر كل يوم اثنى عشر عينا يكفيهم .

وهذا أعظم من إنزال المسيح عليه السلام للمائدة ، ومن قلب الماء خمراً ونحو ذلك مما يحكى عنه ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وكان لموسى فى عدوّه من القمل والضفادع والدم وسائر الآيات مالم يكن مثله للمسيح ، فلو كان الحواريون رسلا قد كلمهم الله مثل ما كلم موسى من الشجرة كانوا مثل موسى ، فكيف والمسيح نفسه لم يكن له آيات مثل آيات

موسى ، ولو كان المسيح هو اللاهوت الذى كلم موسى لـكان يظهر قدرته أعظم مما أظهره على يد موسى ، فانه لم يحلّ فى بدن موسى ، ولا كان اللاهوت يكلم الخلق من موسى ، كما يزعمه هؤلاء فى المسيح ، ومع هذه فالآيات التى أيّد بها عبده موسى تلك الآيات العظيمة ، فـكيف تـكون آياته إذا كان هو نفسه الذى قد حل فى بدن المسيح ، وهو الذى يخاطب الناس على لسان المسيح .

الوجه الرابع عشر : أن يقال إن قولهم إن الله خاطب الناس فى المسيح ، كما خاطب موسى النبى من العوسجة من أبطل الباطل ، فان الله باتفاق الأمم كلها لم يحل فى الشجرة ولم يتحد بها ، كما يزعمون هم أنه حلّ بالمسيح واتحد به ، فإنه عندهم حلّ بباطن المسيح ، بل و بظاهره واتحد به باطنا وظاهراً والرب تعالى لم يكن فى باطن الشجرة ولا حل فيها ولا اتحد بها وقول الله إنه كلمه منها وناداه منها كقوله إنه :

﴿ نُودِىَ من شاطىء الوادى الأيمن ﴾ ، [سورة القصص : ٣٠] .

وذلك مثل قوله : ﴿ وهل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربه بالوادى المقدّس طوى ﴾ ، [سورة النازعات : ١٥، ١٦] .

وفى البقعة المباركة ونحو ذلك وليس فى شىء من ذلك أن الرب حلّ فى باطن الوادى المقدس ، أو البقعة المباركة أو الجانب الأيمن ، ولا أنه اتحد بشىء من ذلك ولا صار هو وشىء من ذلك جوهراً واحداً ولا شخصاً واحداً ، كما يقول بعض النصارى : إن اللاهوت والناسوت صار جوهراً واحداً ، وبعضهم يقول : صارا شخصاً واحداً ، بل ولا قال أحد : إنه حل فى شىء من ذلك كحلول الماء فى اللبن ، أو النار فى الحديد ، كما يقول بعضهم : إن اللاهوت حل فى الناسوت كذلك لو قدر أن بعض الناس قال شيئاً من المقالات التى لا تدل عليها الـكتب الإلهية ، ولا تعلم بالعقل لم يكن قوله حجة ، إذ لا يحتج إلا بنقل ثابت عن الأنبياء ، أو بما يعلم بالعقل .

والوجه الخامس عشر : أن الذى كلم موسى وناداه هو الله رب العالمين وتكليمه له من الشجرة من جنس ما أخبر بنزوله إلى السماء الدنيا ، ونزوله يوم القيامة لحساب الخلق ، والكلام على ذلك مبسوط فى غير هذا الموضع .

وأما حلوله فى البشر أو اتحاده به فيمتنع من وجوه كثيرة عقلا وسمعاً مع أنه لم يخبر به نبى .

وما تقوله النصارى فى غاية التناقض ، فإنهم يزعمون أن المسيح هو الكلمة ، وهو الخالق لأن الكلمة والذات شيء واحد ، فلا يفرقون بين الصفة والموصوف ثم يقولون : المتحد بالمسيح هو الكلمة دون الذات التى يسمونها الأب ، ويقولون مع ذلك : إنه لم يتبعض ولم يتجزأ .

ومعلوم بصريح العقل أن الكلمة التى هى الصفة لا يمكن مفارقتها للموصوف ، فلا تتحد وتحل دون الموصوف لا سيما والمتحد الحال عندهم هو الخالق ، فيجب أن يكون هو الأب وهم لا يقولون : المتحد الحال هو الأب ، بل هو الإبن ، وإذ قالوا : إن الإبن هو المتحد الحال دون الأب ، فالمتحد ليس هو الذى اتحد ، والابن اتحد والأب ما اتحد .

ويقولون : إن المتحد أخذ عيسى حجاباً احتجب به ، ومسكناً يسكن فيه خاطب الناس فيه ، ويقولون مع ذلك : إنه اتحد به والأب لم يحتجب به ولم يسكن فيه ولم يتحد به فلزم قطعاً أن يكون منه شيء اتحد ومنه شيء لم يتحد، فالأب لم يتحد والإبن اتحد وهذا يناقض قولهم لم يتبعض ويبطل تمثيلهم بالخاطب من الشجرة ، فإن ذلك هو الله رب العالمين ليس هو الإبن دون الأب مع ما ذكر من الفروق الكثيرة البينة التى تبين بطلان تمثيل هذا بهذا .

الوجه السادس عشر : أن الرب عز وجل إذا تكلم بكلام الربوبية فلو كان فى المسيح اللاهوت الذى أرسل موسى وغيره لم يخضع لموسى والتوراته ويذكر أنه إنما جاء ليكملها لا لينقصها ، ولا كان يقوم بشرائعها فإن رب العالمين

أعظم وأجلّ من ذلك ، بل لو كان ملكا من الملائكة لم يفعل مثل ذلك ، فكيف رب العالمين ؟

وإذا قالت النصارى : فعل ذلك خوفاً من بنى إسرائيل ، أو خوفاً أن يكذبوه كان عذرهم أقبح من ذنوبهم ،فرب العالمين ممن يخاف سبحانه وتعالى ؟!

وموسى لما كان فرعون يكذبه كان يظهر من الآيات ما يدل بها فرعون وقومه مع عتوه وعتو قومه ، ولم تكن بنو إسرائيل أعتى من فرعون وقومه ، فلو كان هو رب العالمين كان ما يؤيد به نفسه عن الآيات أعظم مما يؤيد به عبده موسى .

ومن عجائب النصارى أنهم يدعون فيه الإلهية مع ادعائهم فيه غاية العجز حتى صلب .

وأما المسلمون فيقولون : هو رسول مؤيد ، لم يصلب وهذه سنته سبحانه فى رسله ، فإنه يؤيدهم وينصرهم على عدوهم ، كما نصر نوحاً وإبراهيم ومحمداً صلوات الله عليهم وسلامه ، فإذا كان لا يجوز أن يكون رسولا مغلوباً ، فكيف يكون رباً مصلوباً ؟ .

الوجه السابع عشر : قولهم فعل المعجز بلاهوته ، وأظهر العجز بناسوته ، فيقال لهم : إن الله فعل من المعجزات ما هو أعظم من المعجزات التى ظهرت على يد المسيح عليه السلام ، ولم يكن متحداً بشىء من البشر ، فأى ضرورة به إلى أن يتحد بالبشر إذا فعل معجزات دون ذلك ؟

الوجه الثامن عشر : أن المسيح ظهرت على يديه معجزات كما ظهر لسائر المرسلين ، ومعجزات بعضهم أعظم من معجزاته ، ومع هذا فلم تكن المعجزات دليلا على اتحاد اللاهوت بالنبى الذى ظهرت على يديه ، فعلم أن الاستدلال بظهور المعجزات على يديه فى غاية الفساد .

والوجه التاسع عشر : أن اللاهوت إن كان متحداً بالناسوت لم يتميز فعله عن فعل الناسوت،فإنهما إذا صارا شيئاً واحداً كان كل ما فعله عن عجز ومعجز

هو ذلك الواحد ، كالأمثال التى يضربونها لله سبحانه ، فإنهم يمثلون ذلك بالنار مع الحديد ، وللماء مع اللبن والخمر .

ومعلوم أن الحديدة إذا أدخلت النار حتى صارت بيضاء كالنار البيضاء ففعلها فعل واحد ، ليس لها فعلان متميزان : أحدهما بالحديد ، والآخر بالنار ، بل فيها قوة الحديد وقوة النار ، بل فيها قوة ثالثة ليست قوة الحديد ولاقوة النار ، إذ ليست حديداً محضاً ولا ناراً محضاً .

وكذلك الماء إذا اختلط باللبن والخمر ، فالمتحد منها شيء واحد فعله فعل واحد منه ليس ماء محضاً ولا لبناً محضاً ، لا يقول عاقل : إن له فعلين يتميز أحدهما عن الآخر ، فعلا بكونه لبناً محضاً ، وفعلا بكونه ماء محضاً فقولهم بالاتحاد يوجب استحالة اللاهوت بالناسوت ، وأن يصير فعل المتحد شيئاً واحداً .

وإن كان اللاهوت لم يتحد به فهما اثنان شخصان جوهران وطبيعتان ومشيئتان ، وليس هذا دين النصارى مع أن حلول الرب عز وجل فى البشر ممتنع ، وكذلك إذا مثلوه بالنفس مع البدن ، فإن النفس تتغير صفاتها بمفارقة البدن ، وكذلك البدن تتغير صفاته بمفارقة الروح له .

والإنسان الذى نفخت فيه الروح هو نوع ثالث ليس فيه بدن محض ، وروح محض حتى يقال : إنه يفعل كذا ببدنه ، وكذا بنفسه ، بل أفعاله تشترك فيها الروح فهو إذا أكل وشرب فالروح تتلذذ بالأكل والشرب ، وبها صار آكلا شارباً ، وإلا فالبدن الميت لا يأكل ولا يشرب وإذا نظر واستدل وسمع ورأى وتعلم ، فالنفس فعلت ذلك بالبدن ، والبدن يظهر فيه ذلك ، والروح وحدها لاتفعل ذلك ، وعندهم إن فعل هو فعل اللاهوت بعد الاتحاد .

والقول بهذا مع الاتحاد فى غاية التناقض والفساد ولا يعقل نظاير هذا فى شيء من الموجودات ، ونفس المتكلم بهذا من النصارى لايتصور ما يقول ، ولا يمكنه أن يمثله بشيء معقول .

فصل فى امتناع كون المسيح إلهاً

قالوا : وقد جاء فى هذا الكتاب ، الذى جاء به هذا الإنسان يقول : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ .

وهذا يوافق قولنا : إذ قد شهد أنه إنسان مثلنا بالناسوت الذى أخذ من مريم وكلمة الله وروحه المتحدة فيه ، وحاشا أن تكون كلمة الله وروحه الخالقة مثلنا نحن المخلوقين ، وأيضاً قال فى سورة النساء : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم ﴾ .

فأشار بهذا القول إلى اللاهوت الذى هو كلمة الله التى لم يدخل عليها ألمٌ ولا عرض ، وقال أيضا : ﴿ ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلىّ يوم القيامة ﴾ وقال فى سورة المائدة عن عيسى إنه قال : ﴿ وكنتُ عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيبَ عليهم وأنت على كل شىء شهيد ﴾ فأعنى بموته عن موت الناسوت الذى أخذ من مريم العذراء .

قال أيضاً فى سورة النساء : ﴿ وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٧ ، ١٥٨] .

فأشار بهذا إلى اللاهوت الذى هو كلمة الله الخالقة ، وعلى هذا القياس نقول : إن المسيح صلب وتألم بناسوته ، ولم يصلب ولا تألم بلاهوته .

والجواب من وجوه :

أحدها : أن يقال : دعواهم على محمد صلى الله عليه وسلم أنه أثبت فى المسيح اللاهوت والناسوت ، كما يزعمه هؤلاء النصارى فيه هو من الكذب الواضح المعلوم على محمد صلى الله عليه وسلم الذى يعلم من دينه بالاضطرار ، كما يعلم من دينه تصديق المسيح عليه السلام ، وإثبات رسالته فلو ادعى اليهود على محمد صلى الله

عليه وسلم أنه كان يكذِّب المسيح ويجحد رسالته كان كدعوى النصارى عليه أنه كان يقول : إنه رب العالمين ، وأن اللاهوت اتحد بالناسوت ، ومحمد صلى الله عليه وسلم قد أخبر فيما بلغه عن الله عز وجل بكفر من قال ذلك .

وبما يناقض ذلك فى غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير ﴾ ، [سورة المائدة : ١٧] .

وقوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه مَنْ يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحدٌ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت مِنْ قبله الرسل وأمه صديقةٌ كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنَّى يؤفكون * قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم * قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبلُ وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾، [سورة المائدة : ٧٢ ـ ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون * يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون *

هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون * يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله ﴾ ، [سورة التوبة : ٣٠ - ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ ولما ضُرِب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون * وقالوا أآلهتنا خيرٌ أم هو ما ضَرَبوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون * إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل * ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون * وإنه لعلم للساعة فلا تَمْتَرن بها واتبعون هذا صراط مستقيم * ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين * ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون * إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ ، [سورة الزخرف: ٥٧ - ٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفّيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ﴾ ، [سورة المائدة : ١١٦ ، ١١٧] .

فأخبر عن المسيح أنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به بقوله أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكان عليهم شهيداً مادام فيهم ، وبعد وفاته كان الله الرقيب عليهم ، فإذا كان بعضهم قد غلط فى النقل عنه أو فى تفسير كلامه ، أو تعمد تغير دينه لم يكن على المسيح عليه السلام من ذلك درك ، وإنما هو رسول عليه البلاغ المبين .

وقد أخبر الله سبحانه أن أول ما تكلم به المسيح أن قال : ﴿ إنى عبد الله آتانِىَ الكتاب وجعلنى نبيـاً * وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادُمت حيًّا * وَبرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً ﴾ ، [سورة مريم : ٣٠ ـ ٣٢] .

ثم طلب لنفسه السلام فقال : ﴿ والسلام علىَّ يوم وُلدتُ و يوم أموتُ و يوم أُبعث حيا ﴾ ، [سورة مريم : ٣٣] .

والنصارى يقولون : علينا منه السلام ، كما يقوم الغالية فيمن يدعون فيه الإلهية كالنصيرية فى علىّ ، والحاكمية فى الحاكم .

الوجه الثانى : أن يقال إن الله لم يذكر أن المسيح مات ولا قتل ، و إنما قال : ﴿ ياعيسى إنى متوفيك ، ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ﴾ ، وقال : ﴿ المسيح فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فبما نقضِهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حقّ وقولهم قلوبنـا غُلْفٌ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً * و بكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسولَ الله وما قتلوه وما صلبوه ولـكن شُبِّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينـاً * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً * فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم و بصدهم عن سبيل الله كثيراً * وأخذهم الربا وقد نُهُوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٥ — ١٦١] .

فذم الله اليهود بأشياء منها : ﴿ قولهم على مريم بهتاناً عظيما ﴾ حيث زعموا أنها بغىّ ، ومنها قولهم : ﴿ إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾ .

قال تعالى : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولـكن شُبِّه لهم ﴾ ، وأضاف هذا القول إليهم ، وذمهم عليه ، ولم يذكر النصارى لأن الذين تولوا صلب المصلوب المشبه به هم اليهود ، ولم يكن أحد من النصارى شاهداً معهم ، بل كان الحواريون خائفين غائبين فلم يشهد أحد منهم الصلب ، وإنما شهده اليهود وهم الذين أخبروا الناس أنهم صلبوا المسيح ، والذين نقلوا أن المسيح صلب من النصارى وغيرهم إنما نقلوه عن أولئك اليهود وهم شرط من أعوان الظلمة ، لم يكونوا خلقاً كثيراً يمتنع تواطؤهم على الـكذب .

قال تعالى : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولـكن شبه لهم ﴾ فنفى عنه القتل ، ثم قال : ﴿ وإن من أهل الـكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ .

وهذا عند أكثرهم العلماء معناه قبل موت المسيح . وقد قيل قبل موت اليهودى وهو ضعيف ، كما قيل إنه قبل موت محمد صلى الله عليه وسلم وهو أضعف ، فإنه لو آمن به قبل الموت لنفعه إيمانه به ، فإن يقبل توبة العبد مالم يغرغر .

وإن قيل : المراد به الإيمان الذى يكون بعد الغرغرة لم يكن فى هذا فائدة فإن كل أحد بعد موته يؤمن بالغيب الذى كان يجحده ، فلا اختصاص للمسيح به، ولأنه قال : قبل موته ، ولم يقل بعد موته ، ولأنه لا فرق بين إيمانه بالمسيح وبمحمد صلوات الله عليهما وسلامه ، واليهودى الذى يموت على اليهودية فيموت كافراً بمحمد والمسيح عليهما الصلاة والسلام ، ولأنه قال : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ ، وقوله : ﴿ ليؤمنن به ﴾ فعل مقسم عليه ، وهذا إنما يكون فى المستقبل ، فدل ذلك على أن هذا الإيمان بعد إخبار الله بهذا ، ولو أريد قبل موت الـكتابى لقال : وإن من أهل الـكتاب إلا من يؤمن به ، لم يقل « ليؤمنن به » .

وأيضاً فإنه قال : إن من أهل الـكتاب وهذا يعم اليهود والنصارى ، فدل

ذلك على أن جميع أهل الكتاب اليهود والنصارى يؤمنون بالمسيح قبل موت المسيح ، وذلك إذا نزل آمنت اليهود والنصارى بأنه رسول الله ليس كاذباً كما يقول اليهودى ، ولا هو الله كما تقوله النصارى .

والمحافظة على هذا العموم أولى من أن يدعى أن كل كتابى ليؤمنن به قبل أن يموت الكتابى ، فإن هذا يستلزم إيمان كل يهودى ونصرانى ، وهذا خلاف الواقع وهو لما قال : ﴿ وإن منهم إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ ودل على أن المراد بإيمانهم قبل أن يموت هو علم أنه أريد بالعموم عموم من كان موجوداً حين نزوله أى لايختلف منهم أحدعن الإيمان به ، لاإيمان من كان منهم ميتاً .

وهذا كما يقال : إنه لايبقى بلد إلا دخله الدجال إلا مكة والمدينة أى فى المدائن الموجودة حينئذ ، وسبب إيمان أهل الكتاب به حينئذ ظاهر ، فإنه يظهر لكل أحد أنه رسول مؤيد ليس بكذاب ولا هو رب العالمين .

فالله تعالى ذكر إيمانهم به إذا نزل إلى الأرض فإنه تعالى لما ذكر رفعه إلى الله بقوله : ﴿ إنى متوفيك ورافعك إلى ﴾ ، وهو ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ويموت حينئذ أخبر بإيمانهم به قبل موته ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل * ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون * وإنه لعلمٌ للساعة فلا تمترن بها واتبعونِ هذا صراط مستقيم * ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين * ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعونِ * إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ ، [سورة الزخرف : ٥٩ - ٦٥] .

فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يوشك أن ينزل فيكم

ابن مريم حكما عدلاً، وإماماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية »

وقوله تعالى : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولـكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ بيان أن الله رفعه حيا وسلمه من القتل ، وبين أنهم يؤمنون به قبل أن يموت .

وكذلك قوله : ﴿ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ ، ولو مات لم يكن فرق بينه وبين غيره .

ولفظ التوفى فى لغة العرب معناه : الاستيفاء والقبض ، وذلك ثلاثة أنواع : أحدها : توفى النوم ، والثانى : توفى الموت ، والثالث : توفى الروح والبدن جميعاً ، فإنه بذلك خرج عن حال أهل الأرض الذين يحتاجون إلى الأكل والشرب واللباس ، ويخرج منهم الغائط والبول ، والمسيح عليه السلام توفاه الله وهو فى السماء الثانية إلى أن ينزل إلى الأرض ، ليست حاله كحالة أهل الأرض فى الأكل والشرب واللباس والنوم ، والغائط والبول ، ونحو ذلك .

الوجه الثالث : قولهم إنه عنى بموته عن موت الناسوت كان ينبغى لهم أن يقولوا على أصلهم : عنى بتوفيته عن توفى الناسوت . وسواء قيل موته أو توفيته فليس هو شيئا غير الناسوت ، فليس هناك شيء غيره لم يتوف الله تعالى قال : ﴿ إنى متوفيك ورافعك إلىّ ﴾ فالمتوفى هو المرفوع إلى الله وقولهم : إن المرفوع هو اللاهوت مخالف لنص القرآن ، ولو كان هناك موت فكيف إذا لم يكن فإنهم جعلوا المرفوع غير المتوفى ، والقرآن أخبر أن المرفوع هو المتوفى .

وكذلك قوله فى الآية الأخرى : ﴿ وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه ﴾ هو تكذيب لليهود فى قولهم : ﴿ إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾، واليهود لم يدعوا قتل لاهوت ، ولا أثبتوا لله لاهوتا فى المسيح ، والله تعالى لم يذكر دعوى

نقله عن النصارى حتى يقال : إن مقصودهم قتل الناسوت دون اللاهوت ، بل عن اليهود الذين لا يثبتون إلا الناسوت .

وقد زعموا أنهم قتلوه،فقال تعالى : ﴿وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه﴾ فأثبت رفع الذى قالوا إنهم قتلوه ، وإنما هو الناسوت،فعلم أنه هو الذى نفى عنه القتل، وهو الذى رفع ، والنصارى معترفون برفع الناسوت ، لكن يزعمون أنه صلب وأقام فى القبر إما يوما وإما ثلاثة أيام ، ثم صعد إلى السماء ، وقعد عن يمين الأب الناسوت مع اللاهوت .

وقوله تعالى : ﴿ وما قتلوه يقينا ﴾ معناه أن نفى قتله هو يقين لا ريب فيه بخلاف الذين اختلفوا بأنهم فى شك منه من قتله وغير قتله ، فليسوا مستيقنين أنه قتل إذ لا حجة معهم بذلك .

ولذلك كانت طائفة من النصارى يقولون : إنه لم يصب فإن الذين صلبوا المصلوب هم اليهود ، وكان قد اشتبه عليهم المسيح بغيره ، كما دل عليه القرآن ، وكذلك عند أهل الكتاب أنه اشتبه بغيره ، فلم يعرفوا من هو المسيح من أولئك حتى قال لهم بعض الناس : أنا أعرفه فعرفوه ، وقول من قالوا : معنى الكلام ما قتلوه علما بل ظنا قول ضعيف .

الوجه الرابع : أنه قال تعالى : ﴿إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ﴾ ، فلو كان المرفوع هو اللاهوت لكان رب العالمين قال لنفسه أو لكلمته : ﴿ إنى رافعك إلى ﴾ ، وكذلك قوله ﴿بل رفعه الله إليه﴾ فالمسيح عندهم هو الله .

ومن المعلوم أنه يمتنع رفع نفسه إلى نفسه ، وإذا قالوا : هو الكلمة فهم مع ذلك إنه الإله الخالق لا يجعلونه بمنزلة التوراة والقرآن ، ونحوهما مما هو كلام الله الذى قال فيه : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ بل عندهم هو الله الخالق الرازق رب العالمين ، ورفع رب العالمين إلى رب العالمين ممتنع .

الوجه الخامس : قوله : ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ﴾ ، دليل على أنه بعد توفيته لم يكن الرقيب عليهم إلا الله دون المسيح ، فإن قوله كنت أنت يدل على الحصر ، كقوله إن كان هذا هو الحق ونحو ذلك ، فعلم أن المسيح بعد توفيته ليس رقيباً على اتباعه ، بل الله هو الرقيب المطلع عليهم المحصى أعمالهم المجازى عليها ، والمسيح ليس برقيب فلا يطلع على أعمالهم ، ولا يحصيها ولا يجازيهم بها .

فصل فى كلمة الله ما هى

قالوا : وقد سماه الله أيضاً فى هذا الكتاب خالقاً حيث قال : ﴿ وإذ تخلقُ من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكونُ طيراً بإذنى ﴾ ، سورة المائدة : ١١٠] .

فأشار بالخالق إلى كلمة الله المتحدة فى الناسوت المأخوذة من مريم ، لأنه كذا قال على لسان داود النبى .

[بكلمة الله خلقت السموات والأرض ،ليس خالق إلا الله وكلمته وروحه].

وهذا مما يوافق رأينا ، واعتقادنا فى السيد المسيح لذكره ، لأنه حيث قال : ﴿ وتخلق من الطين كهيئة الطير فتنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ﴾ أى بإذن اللاهوت الكلمة المتحدة فى الناسوت .

والجواب : إن جميع مايحتجون بهمن هذه الآيات وغيرها ، فهو حجة عليهم لا لهم ، وهكذا شأن جميع أهل الضلال إذا احتجوا بشىء من كتب الله وكلام أنبيائه ، كان فى نفس مااحتجوا به ما يدل على فساد قولهم ، وذلك لعظمة كتب الله المنزلة وما نطق به أنبياؤه ، فإنه جعل ذلك هدى وبياناً للخلق وشفاء لما فى الصدور ، فلابد أن يكون فى كلام الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين من الهدى والبيان ما يفرق الله به بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، لكن

الناس يؤتون من قبل أنفسهم ، لا من قبل أنبياء الله تعالى .

أما من كونهم لم يتدبروا القول الذى قالته الأنبياء حق التدبر حتى يفقهوه ويفهموه .

وإما من جهة أخذهم ببعض الحق دون بعض ، مثل أن يؤمنوا ببعض ما أنزله الله دون بعض ، فيضلون من جهة ما لم يؤمنوا به ، كما قال تعالى عن النصارى : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ .

وإما من جهة نسبتهم إلى الأنبياء ما لم يقولوه من أقوال كذبت عليهم ، ومن جهة ترجمة أقوالهم بغير ما تستحقه من الترجمة ، وتفسيرها بغير ما تستحقه من التفسير الذى دل عليه كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فإنه يجب أن يفسر كلام المتكلم بعضه ببعض ، ويؤخذ كلامه هاهنا وهاهنا ، وتعرف ماعادته يعنيه ويريده بذلك اللفظ إذا تكلم به وتعرف المعانى التى عرف أنه أرادها فى موضع آخر ، فإذا عرف عرفه وعادته فى معانيه وألفاظه كان هذا مما يستعان به على معرفة مراده .

وأما إذا استعمل لفظه فى معنى لم تجر عادته باستعماله فيه ، وترك استعماله فى المعنى الذى جرت عادته باستعماله فيه ، وحمل كلامه على خلاف المعنى الذى قد عرف أنه يريده بذلك اللفظ بجعل كلامه متناقضاً ، ويترك كلامه على مايناسب سائر كلامه كان ذلك تحريفاً لـكلامه عن موضعه ، وتبديلا لمقاصده وكذباً عليه .

فهذا أصل من ضل فى تأويل كلام الأنبياء على غير مرادهم ، فإذا عرف هذا ، فنقول : الجواب عما ذكروه هنا من وجوه :

أحدها : أن الله لم يذكر عن المسيح خلقاً مطلقاً ، ولا خلقاً عاما ، كما ذكر عن نفسه تبارك وتعالى ، فأول ما أنزل الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ؛ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ؛ هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى ﴾ .

فذكر نفسه بأنه الخالق البارىء المصور ، ولم يصف قط شيئاً من المخلوقات بهذا لا ملكا ولا نبياً ، وكذلك قال تعالى : ﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ، له مقاليد السموات والأرض ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ﴾ .

ووصف نفسه بأنه رب العالمين ، وبأنه مالك يوم الدين ، وأنه له الملك وله الحمد ، وأنه الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، وأنه على كل شىء قدير ، وبكل شىء عليم ، ونحو ذلك من خصائص الربوبية ، ولم يصف شيئاً من مخلوقاته لا ملكا مقربا ولا نبياً مرسلا بشىء من الخصائص التى يختص بها ، التى وصف بها نفسه سبحانه وتعالى .

وأما المسيح عليه السلام فقال فيه : ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى ﴾ .

وقال المسيح عن نفسه : ﴿ وأخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحى الموتى بإذن الله ﴾ فلم يذكر إلا خلق شىء معين خاص بإذن الله ، فكيف يكون هذا الخالق هو ذاك ؟

الوجه الثانى : أنه خلق من الطين كهيئة الطير ، والمراد به تصويره بصورة الطير ، وهذا الخلق يقدر عليه عامة الناس ، فإنه يمكن أحدهم أن يصور من الطين كهيئة الطير ، وغير الطير من الحيوانات ، ولكن التصوير محرم ، بخلاف تصوير المسيح ، فإن الله أذن له فيه .

والمعجزة أنه ينفخ فيه الروح فيصير طيراً بإذن الله عز وجل ، ليس المعجزة مجرد خلقه من الطين ، فإن هذا مشترك ، ولقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم المصورين ، وقال : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » .

الوجه الثالث : أن الله أخبر أن المسيح إنما فعل التصوير محرم ، والنفخ بإذنه تعالى ، وأخبر المسيح عليه السلام أنه فعله بإذن الله وأخبر الله أن هذا من نعمته التى أنعم بها على المسيح عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ﴾ .

وقال تعالى له : ﴿ يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى ، وإذا كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات ﴾ .

وهذا كله صريح فى أنه ليس هو الله ، وإنما هو عبد الله فعل ذلك بإذن الله ، كما فعل مثل غيره من ذلك الأنبياء ، وصريح بأن الإذن غير المأذون له والمعلِم ليس هو المعلَّم ، والمنعم عليه وعلى والدته ليس هو إياه ، كما ليس هو والدته .

والوجه الرابع : أنهم قالوا : أشاروا بالخالق إلى كلمة الله المتحدة فى الناسوت ، ثم قالوا فى قوله [بإذن الله] أى بإذن الكلمة المتحدة فى الناسوت ، وهذ يبين تناقضهم وافتراءهم على القرآن ، لأن الله أخبر فى القرآن أن المسيح خلق من الطين

كهيئة الطير بإذن الله ، ففرق بين المسيح و بين الله ، وبين أن الله هو الآذن المسيح وهؤلاء زعموا أن مراده بذلك أن اللاهوت المتحد بناسوت المسيح هو الخالق ، وهو الآذن فجعلوا الخالق هو الآذن ، وهو تفسير للقرآن بما يخالف صريح القرآن .

الوجه الخامس : أن اللاهوت إذا كان هو الخالق لم يحتج إلى أن يأذن لنفسه ، فإنهم يقولون : هو إله واحد وهو الخالق ، فكيف يحتاج أن يأذن لنفسه وينعم على نفسه ؟

الوجه السادس : أن الخالق إما أن يكون هو الذات الموصوفة بالكلام ، أو الكلام الذى هو صفة للذات ، فإن كان هو الكلام ، فالكلام صفة لا تكون ذاتا قائمة بنفسها خالقة ، ولو لم تتحد بالناسوت واتحادها بالناسوت دون الموصوف ممتنع ولو كان الاتحاد ممكنا ، فكيف وهو ممتنع ؟

فقد تبين امتناع كون الكلمة تكون خالقة من وجوه ، وإن كان الخالق هو الذات المتصفة بالكلام ، فذاك هو الله الخالق لكل شىء رب العالمين ، وعندهم هو الأب ، والمسيح عندهم ليس هو الأب فلا يكون هو الخالق لكل شىء ، والقرآن يبين أن الله هو الذى آذن المسيح حتى خلق من الطين كهيئة الطير ، فتبين أن الذى خلق من الطين كهيئة الطير ليس هو الله ولا صفة من صفاته ، فليس المسيح هو الله ولا ابن قديم أزلى لله ، ولكن عبده فعل بإذنه .

الوجه السابع : قولهم فأشار بالخالق إلى كلمة الله المتحدة فى الناسوت المأخوذ من مريم ، لأنه كذا قال على لسان داود النبى : [بكلمة الله خلقت السموات والأرض] .

فيقال لهم : هذا النص عن داود حجة عليكم ، كما أن التوراة والقرآن ، وسائر ما ثبت عن الأنبياء حجة عليكم ، فإن داود عليه السلام قال : [بكلمة الله خلقت السموات والأرض] ولم يقل : إن كلمة الله هى الخالقة ، كما قلتم أنتم إنه أشار بالخالق إلى كلمة الله .

والفرق بين الخالق للسموات والأرض وبين الكلمة التي بها خلقت السموات والأرض أمر ظاهر معروف ، كالفرق بين القادر والقدرة ، فإن القادر هو الخالق وقد خلق الأشياء بقدرته ، وليست القدرة هي الخالقة ، وكذلك الفرق بين المريد والإرادة ، فإن الله خلق الأشياء بمشيئته ، وليست مشيئته هي الخالقة ، وكذلك الدعاء والعبادة هو للإله الخالق لا لشيء من صفاته ، فالناس كلهم يقولون : يا الله يا ربنا يا خالقنا ارحمنا واغفر لنا ، ولا يقول أحد : يا كلام الله اغفر لنا وارحمنا ، ولا يا قدرة الله ، ويامشيئة الله ، ويا علم الله اغفر لنا وارحمنا ، والله تعالى يخلق بقدرته ومشيئته وكلامه ، وليست صفاته هي الخالقة .

الوجه الثامن : أن قول داود عليه السلام : [بكلمة الله خلقت السموات والأرض] يوافق ما جاء في القرآن والتوراة ، وغير ذلك من كتب الأنبياء أن الله يقول للشيء : كن فيكون ، وهذا في القرآن في غير موضع ، وفي التوراة قال الله : [ليكن كذا ليكن كذا] .

الوجه التاسع : قولهم لأنه ليس خالق إلا الله وكلمته وروحه ، إن أرادوا بكلمته كلامه ، وبروحه حياته فهذه من صفات الله كعلمه وقدرته ، فلم يعبر أحد من الأنبياء عن حياة الله بأنها روح الله ، فمن حمل كلام أحد من الأنبياء بلفظ الروح أنه يراد به حياة الله فقد كذب عليه ، ثم يقال : هذا كلامه وحياته من صفات الله كعلمه وقدرته ، وحينئذ فالخالق هو الله وحده وصفاته داخلة في مسمى اسمه ، لا يحتاج أن تجعل معطوفه على اسمه بواو التشريك التي تؤذن فإن الله له شريك في خلقه ، فإن الله لا شريك له .

ولهذا لما قال تعالى : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ ، دخل كل ما سواه في مخلوقاته ، ولم تدخل صفاته كعلمه وقدرته ومشيئته وكلامه ، لأن هذه داخلة في مسمى اسمه ليست أشياء مباينة له ، بل أسماؤه الحسنى متناولة لذاته المقدسة المتصفة بهذه

الصفات لا يجوز أن يراد بأسمائه ذاتاً مجردة عن صفات الكمال ، فإن تلك حقيقة لها ، ويمتنع وجود ذات مجردة عن صفة فضلا عن وجود ذاته تعالى ، مجردة عن صفات كماله ، التي هي لازمة لذاته يمتنع تحقق ذاته دونها .

ولهذا لا يقال : الله وعلمه خالق، والله وقدرته خالق، وإن أرادوا بكلمته وروحه المسيح، أو شيئاً اتحد بناسوت المسيح، فالمسيح عليه السلام كله مخلوق كسائر الرسل والله وحده هو الخالق ، وإن شئت قلت : إن أريد بالروح والكلمة ما هو صفة لله فتلك داخلة في مسمى اسمه ، وإن أريد ما ليس بصفة فذلك مخلوق له كالناسوت .

الوجه العاشر : أن داود عليه السلام لا يجوز أن يريد بكلمة الله المسيح لأن المسيح عند جميع الناس هو اسم للناسوت ، وهو عندهم اسم اللاهوت والناسوت لما اتحد ، والاتحاد فعل حادث عندهم ، فقبل الاتحاد لم يكن هناك ناسوت ولا ما يسمى مسيحياً ، فعلم أن داود لم يرد بكلمة الله المسيح ، ولكن غايتهم أن يقولوا : أراد الكلمة التي اتحدت فيها بعد المسيح ، لكن الذي خلق بإذن الله هو المسيح ، كما نطق به القرآن بقوله : ﴿ يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴾ .

فالكلمة التي ذكرها وأنها هي التي بها خلقت السموات والأرض ليست هي المسيح الذي خلق من الطين كهيئة الطير بإذن الله ، فاحتجاجهم بهذا على هذا احتجاج باطل ، بل تلك الكلمة التي بها خلقت السموات والأرض لم يكن معها ناسوت حين خلقت باتفاق الأمم ، والمسيح لا بد أن يدخل فيه الناسوت فعلم أنه لم يرد بالكلمة المسيح .

فصل في أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم

قالوا : وقال أيضاً في موضع آخر : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ﴾ فأعنى بقوله : ﴿ مثل عيسى ﴾ إشارة إلى البشرية المأخوذة من مريم

الطاهرة لأنه لم يذكر هنا اسم المسيح ، إنما ذكر عيسى فقط[(١)] .

وكما أن آدم خلق من غير جماع ومباضعة ، فكذلك جسد المسيح خلق من غير جماع ولا مباضعة ، وكما أن جسد آدم ذاق الموت ، فكذلك جسد المسيح ذاق الموت ، وقد يبرهن بقوله أيضاً قائلا إن الله ألقى كلمته إلى مريم ، وذلك حسب قولنا معشر النصارى : إن كلمة الله الأزلية الخالقة حلت فى مريم وتجسدت بإنسان كامل ، وعلى هذا المثال نقول : فى السيد المسيح طبيعتان : طبيعة لاهوتية : التى هى طبيعة كلمة الله وروحه ، وطبيعة ناسوتية : التى أخذت من مريم العذراء واتحدت به ، ولما تقدم به القول من الله تعالى على لسان موسى النبي ، إذ يقول: [أليس هذا الأب الذي خلقك وبراك واقتناك]، قيل: وعلى لسان داود النبي : [روحك القدس لا تنزع منى] ، وأيضا على لسان داود النبي: [بكلمة الله تشددت السموات وبروح فاه جميع قواهن] ، وليس يدل هذا القول على ثلاثة خالقين ، بل خالق واحد : الأب ، ونطقه أى كلمته ، وروحه أى حياته .

والجواب من وجوه :

أحدها : أن قوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون ﴾ كلام حق فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشرى على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته ، فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى ، كما قال : ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ ، وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر ، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى ، وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح ، فإن حواء خلقت من ضلع آدم ، وهذا أعجب من خلق المسيح فى بطن مريم ، وخلق آدم أعجب من هذا وهذا ، وهو أصل خلق حواء .

فلهذا شبهه الله بخلق آدم الذى هو أعجب من خلق المسيح ، فإذا كان

(١) وفى نسخة أخرى : فأعنى بقوله : (مثل آدم) إشارة إلى الناسوت المأخوذ من مريم الطاهرة .

سبحانه قادرا أن يخلقه من تراب ، والتراب ليس من جنس بدن الإنسان ، أفلا يقدر أن يخلقه من امرأة هي من جنس بدن الإنسان ؟ وهو سبحانه خلق آدم من تراب ، ثم قال له كن فيكون ، لما نفخ فيه من روحه ، فكذلك المسيح نفخ فيه من روحه وقال له: كن فيكون، ولم يكن آدم بما نفخ من روحه لاهوتا وناسوتا، بل كله ناسوت فكذلك المسيح كله ناسوت ، والله تبارك وتعالى ذكر هذه الآية في ضمن الآيات التي أنزلها في شأن النصارى ، لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران وناظروه في المسيح ، وأنزل الله فيه ما أنزل ، فبين فيه قول الحق الذي اختلفت فيه اليهود والنصارى ، فكذب الله الطائفتين : هؤلاء في غلوهم فيه ، وهؤلاء في ذمهم له

وقال عقب هذه الآية : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ، إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم ، فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

وقد امتثل النبي صلى الله عليه وسلم قول الله فدعاهم إلى المباهلة فعرفوا أنهم إن باهلوه أنزل الله عليهم لعنته فأقروا بالجزية وهم صاغرون ، ثم كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم بقوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا ﴾ إلى آخرها، وكان أحياناً يقرأ بها في الركعة الثانية من ركعتي الفجر ويقرأ في الأولى بقوله : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

وهذا كله يبين به أن المسيح عبد ليس بإله ، وأنه مخلوق كما خلق آدم ، وقد

أمر أن يباهل من قال إنه إله فيدعو كل من المتباهلين أبناءه ونساءه وقريبه المختص به ، ثم يبتهل هؤلاء وهؤلاء ، ويدعون الله أن يجعل لعنته على الكاذبين ، فإن كان النصارى كاذبين فى قولهم هو الله حقت اللعنة عليهم ، وإن كان من قال ليس هو الله بل عبد الله كاذبا حقت اللعنة عليه ، وهذا إنصاف من صاحب يقين يعلم أنه على الحق .

والنصارى لما لم يعلموا أنهم على حق نكلوا عن المباهلة ، وقد قال عقب ذلك : ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ، وما من إله إلا الله ﴾ تكذيبا للنصارى الذين يقولون : هو إله حق من إله حق ، فكيف يقال إنه أراد أن المسيح فيه لاهوت ، وناسوت ، وأن هذا هو الناسوت فقط دون اللاهوت ؟ وبهذا ظهر الجواب عن قولهم قال فى موضع آخر : إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم فأعنى بقوله : عيسى أشار إلى البشرية المأخوذة من مريم الطاهرة ، لأنه لم يذكر الناسوت هاهنا اسم المسيح إلا ذكر عيسى فقط ، فإنه يقال : عيسى هو المسيح ، بدليل أنه قال : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ فأخبر أنه ليس المسيح إلا رسولا ليس هو بإله وأنه ابن مريم والذى هو ابن من مريم هو الناسوت ، وقال : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ﴾ .

الوجه الثانى : أن ما ذكروه من موته قد بينا أن الله لم يذكر ذلك ، وأن المسيح لم يمت بعد ، وما ذكروه من أنه صلب ناسوته دون لاهوته باطل من وجهين : فإن ناسوته لم يصلب وليس فيه لاهوت وهم ذكروا ذلك دعوى مجردة فيكفى فى مقابلتها المنع ، ولكن نقول فى الوجه الثالث : إنهم فى اتحاد اللاهوت بالناسوت يشبهونه تارة باتحاد الماء باللبن ، وهذا تشبيه اليعقوبية ، وتارة باتحاد النار بالحديد أو النفس بالجسم ، وهذا تشبيه الملكانية وغيرهم .

ومعلوم أنه لا يصل إلى الماء إلا وصل إلى اللبن ، فإنه لا يتميز أحدهما عن الآخر ، وكذلك النار التى فى الحديد متى طرق الحديد أو بصق عليه لحق ذلك بالنار التى فيه ، والبدن إذا ضرب وعذب لحق ألم الضرب والعذاب للنفس ، فكأن حقيقة تمثيلهم يقتضى أن اللاهوت أصابه ما أصاب الناسوت من إهانة اليهود وتعذيبهم وإتلافهم له والصلب الذى ادعوه .

وهذا لازم على القول بالاتحاد ، فان الاتحاد لو كان ما يصيب أحدهما لا يشركه الآخر فيه لم يكن هنا اتحاد بل تعدد .

الرابع : أن هؤلاء الضلال لم يكفهم أن جعلوا إله السموات والأرض متحداً ببشر فى جوف امرأة ، وجعلوه له مسكناً ، ثم جعلوا أخابث خلق الله أمسكوه وبصقوا فى وجهه ، ووضعوا الشوك على رأسه وصلبوه بين لصين ، وهو فى ذلك يستغيث بالله ويقول : « إلهى إلهى لم تركتنى » وهم يقولون الذى كان يسمع الناس كلامه هو اللاهوت ، كما سمع موسى كلام الله من الشجرة ، ويقولون هما شخص واحد ، ويقول بعضهم : لهما مشيئة واحدة ، وطبيعة واحدة .

والكلام إنما يكون بمشيئة المتكلم ، فيلزم أن يكون المتكلم الداعى المستغيث المصلوب هو اللاهوت هو المستغيث المتضرع وهو المستغاث به ، وأيضا فهم يقولون : إن اللاهوت والناسوت شخص واحد فمع القول بأنهما شخص واحد إما أن يكون مستغيثاً واما أن يكون مستغاثا به ، واما أن يكون داعيا وإما أن يكون

مدعوا ، فإذا قالوا : إن الداعى هو غير المدعو لزم أن يكونا اثنين لا واحد ، وإذا قالوا : هما واحد فالداعى هو المدعو .

والوجه الخامس : أن يقال لايخلو إلى أن يقولوا : إن اللاهوت كان قادرا على دفعهم عن ناسوته ، وإما أن يقولوا : لم يكن قادراً ، فإن قالوا لم يكن قادرا لزم أن يكون أولئك اليهود أقدر من رب العالمين ، أن يكون رب العالمين مقهورا مأسورا مع قوم من شرار اليهود ، وهذا من أعظم الكفر والتنقص برب العالمين ، وهذا أعظم من قولهم : إن لله ولدا ، وإنه بخيل وإنه فقير ، ونحو ذلك مما سبّ به الكفار رب العالمين .

وإن قالوا : كان قادرا ، فإن كان ذلك من عدوان الكفار على ناسوته وهو كاره لذلك فسنة الله فى مثل ذلك نصر رسله المستغيثين به ، فكيف لم يغث ناسوته المستصرخ به ، وهذا بخلاف من قتل من النبيين وهو صابر ، فإن أولئك صبروا حتى قتلوا شهداء ، والناسوت عندهم استغاث وقال : [إلهى إلهى لماذا تركتنى] وإن كان هو قد فعل ذلك مكرا ، كما يزعمون أنه مكر بالشيطان وأخفى نفسه حتى يأخذه بوجه حق ، فناسوته أعلم بذلك من جميع الخلق ، فكان الواجب أن لا يجزع ولا يهرب لما فى ذلك من الحكمة ، وهم يذكرون من جزع الناسوت وهربه ودعائه ، مايقتضى أن كل ماجرى عليه كان بغير اختياره ، ويقول بعضهم : مشيئتهما واحدة فكيف شاء ذلك وهرب مما يكرهه الناسوت ؟ بل لو يشاء اللاهوت مايكرهه كانا متباينين ، وقد اتفقا على المكر بالعدو لم يجزع الناسوت كما جرى ليوسف مع أخيه لما وافقه على أنه يجعل الصواع فى رحله ، ويظهر أنه سارق لم يجزع أخوه ، لما ظهر الصواع فى رحله ، كما جزع أخوته حيث لم يعلموا ، وكثيرٌ من الشطار العيارين يمسكون ويصلبون وهم ثابتون صابرون ، فما بال هذا يجزع الجزع العظيم الذى يصفون به المسيح ، وهو يقتضى غاية النقص العظيم مع دعواهم فيه الإلهية .

الوجه السادس : قولهم إنه كلمته وروحه تناقض منهم، لأن عندهم أقنوم الكلمة فقط لا أقنوم الحياة .

الوجه السابع : قولهم : وقد برهن بقوله رأينا أيضا فى موضع آخر قائلا : إن الله ألقى كلمته إلى مريم ، وذلك حسب قولنا معشر النصارى : إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلت فى مريم واتحدت بإنسان كامل .

فيقال لهم : أما قول الله فى القرآن فهو حق ، ولكن ضللتم فى تأويله كما ضللتم فى تأويل غيره من كلام الأنبياء ، وما بلغوه عن الله ، وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين * قالت ربِّ أنَّى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٤٥ ـ ٤٧] .

ففى هذا الكلام وجوه تُبَيِّن أنه مخلوق ليس هو ما يقوله النصارى . منها أنه قال : [بكلمة منه] وقوله بكلمة منه نكرة فى الإثبات يقتضى أنه كلمة من كلمات الله ليس هو كلامه كله كما يقوله النصارى . ومنها أنه بين مراده بقوله بكلمة منه ، وأنه مخلوق حيث قال : ﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ .

وقال تعالى فى سورة كهيعص : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتَّخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ ، [سورة مريم : ٣٤] .

فهذه ثلاث آيات فى القرآن تبين أنه قال له : ﴿ كن فيكون ﴾ وهذا تفسير

كونه كلمة منه وقال اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، أخبر أنه ابن مريم ، وأخبر أنه وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، وهذه كلها صفة مخلوق ، والله تعالى وكلامه الذى هو صفته لا يقال فيه شىء من ذلك ، وقالت مريم: ﴿أنى يكون لى ولد؟!﴾ فبين أن المسيح الذى هو الكلمة هو ولد مريم . لا ولد الله سبحانه وتعالى .

وقال فى سورة النساء : ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليما ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ ، [سورة النساء : ١٧١ ـ ١٧٣] .

فقد نهى النصارى عن الغلو فى دينهم ، وأن يقولوا على الله غير الحق ، و بين أن ﴿المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ ، وأمرهم أن يؤمنوا بالله ورسله ، فبين أنه رسوله ، ونهاهم أن يقولوا ثلاثة ، وقال : انتهوا خيرا لكم ، إنما الله إله واحد ، وهذا تكذيب لقولهم فى المسيح إنه إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه . ثم قال : ﴿سبحانه أن يكون له ولد﴾ فنزه نفسه وعظمها أن يكون له ولد ، كما تقوله النصارى ، ثم قال : ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ فأخبر أن ذلك ملك له ليس فيه شىء من ذاته ، ثم قال : ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون﴾ أى لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لله تبارك وتعالى ، فمع هذا البيان الواضح الجلى ، هل يظن ظان أن مراده بقوله وكلمته أنه إله خالق أو أنه صفة لله قائمة به ، وأن قوله :

﴿ وروح منه ﴾ المراد به أنه حياته أو روح منفصلة من ذاته .

ثم نقول أيضاً : أما قوله وكلمته ، فقد بين مراده أنه خلقه بـ « كن » وفى لغة العرب التى نزل بها القرآن أن يسمى المفعول باسم المصدر ، فيسمى المخلوق خلقا لقوله : ﴿ هذا خلق الله ﴾ ويقال : درهم ضرب الأمير أى مضروب الأمير ، ولهذا يسمى المأمور به أمراً ، والمقدور قدرة وقدرا ، والمعلوم علما ، والمرحوم به رحمة ؛

كقوله تعالى : ﴿ وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴾ ، وقوله : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يقول الله للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى ، ويقول للنار : أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى ، وقال : إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة ، أنزل منها رحمة واحدة فيها تتراحم الخلق ويتعاطفون ، وأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة ، فإذا كان يوم القيامة جمع هذه إلى تلك ، فرحم بها الخلق » ؛ ويقال : للمطر والآيات هذه قدرة عظيمة ، ويقال : غفر الله لك علمه فيك ، أى معلومه ، فتسمية المخلوق بالكلمة كلمة من هذا الباب .

وقد ذكر الإمام أحمد فى (كتاب الرد على الجهمية) ـ وذكره غيره ـ أن النصارى الحلولية والجهمية المعطلة اعترضوا على أهل السنة ، فقالت النصارى: القرآن كلام الله غير مخلوق ، والمسيح كلمة الله فهو غير مخلوق ، وقالت الجهمية: المسيح كلمة الله وهو مخلوق ، والقرآن كلام الله فيكون مخلوقا .

وأجاب أحمد وغيره : بأن المسيح نفسه ليس هو كلاما ، فإن المسيح إنسان ، وبشر مولود من امرأة ، وكلام الله ليس بإنسان ولا بشر ، ولا مولود من امرأة ، ولكن المسيح خلق بالكلام ، وأما القرآن فهو نفسه كلام الله ، فأين هذا من هذا ؟

وقد قيل : أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء ، وما من عاقل

إذا سمع قوله تعالى فى المسيح عليه السلام إنه كلمته ألقاها إلى مريم ، ألا يعلم أنه المراد أن المسيح نفسه كلام الله ، ولا أنه صفة لله ولا خالق ، ثم يقال للنصارى : فلو قدر أن المسيح نفس الكلام ، فالكلام ليس بخالق ، فإن القرآن كلام الله ، وليس بخالق ، والتوراة كلام الله وليست بخالقة ، وكلمات الله كثيرة ، وليس منها شيء خالق ، فلو كان المسيح نفس الكلام لم يجز أن يكون خالقا ، فكيف وليس هو الكلام ، وإنما خلق بالكلمة ، وخص باسم الكلمة فإنه لم يخلق على الوجه المعتاد الذى خلق عليه غيره ، بل خرج عن العادة فخلق بالكلمة من غير السنة المعروفة بالبشر .

وقوله : ﴿ بروح منه ﴾ لايوجب أن يكون منفصلا من ذات الله ، كقوله تعالى : ﴿ وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه ﴾ ، [سورة الجاثية : ١٣] :

وقوله تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ ، سورة النحل : ٥٣] .

وقو تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ، [سورة النساء : ٧٩] .

وقال تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة ﴾ .

فهذه الأشياء كلها من الله وهى مخلوقة ، وأبلغ من ذلك روح الله التى أرسلها إلى مريم ، وهى مخلوقة .

فالمسيح الذى هو روح من تلك الروح أولى أن يكون مخلوقاً ، قال تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا * قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب

لك غلاماً زكياً ﴾ ، [سورة مريم : ١٧ - ١٩] .

وقد قال تعالى : ﴿ ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ ، [سورة يم التحريم : ١٢] .

وقال : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٩١] . فأخبر أنه نفخ فى مريم من روحه ، كما أخبر أنه نفـــخ فى آدم من روحه ، وقد بين أنه أرسل إليها روحه .

﴿ فتمثل لها بشراً سويا ، قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ، قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا ، قال : كذلك ، قال ربك هو على هيِّن ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً فحملته ﴾ .

فهذا الروح الذى أرسله الله إليها ليهب لها غلاماً زكياً مخلوق ، وهو روح القدس الذى خلق المسيح منه ومن مريم ، فإذا كان الأصل مخلوقا فكيف الفرع الذى حصل به وهو روح القدس ؟ وقوله عن المسيح : ﴿ وروح منه ﴾ خصَّ المسيح بذلك لأنه نفخ فى أمه من الروح فحبلت به من ذلك النفخ ، وذلك غير روحه التى يشاركه فيها سائر البشر ، فامتاز بأن حبلت به من نفخ الروح ؛ فلهذا سمى روحا منه .

ولهذا قال طائفة من المفسرين : روح منه ، أى رسول منه فسماه باسم الروح الرسول الذى نفخ فيها ، فكما يسمى « كلمة » يسمى « روحا » لأنه كون بالكلمة ، لا كما يخلق الآدميون غيره ، ويسمى روحا ، لأنه حبلت به أمه بنفخ الروح الذى نفخ فيها لم تحبل به من ذكر كغيره من الآدميين ، وعلى هذا فيقال : لما خلق من نفخ الروح ومن مريم سمى روحاً بخلاف سائر الآدميين ، فإنه يخلق من ذكر وأنثى ، ثم ينفخ فيه من الروح بعد مضى أربعة أشهر .

والنصارى يقولون فى أمانتهم : [تجسد من مريم ، ومن روح القدس] ، ولو اقتصروا على هذا ، وفسروا روح القدس بالملك الذى نفخ فيها ، وهو روح الله لكان هذا موافقا لما أخبر الله به ، لكنهم جعلوا روح القدس حياة الله ، وجعلوه ربا وتناقضوا فى ذلك ، فإنه على هذا كان ينبغى فيه أقنومان : أقنوم الكلمة ، وأقنوم الروح .

وهم يقولون : ليس فيه إلا أقنوم الكلمة ، وكما يسمى المسيح كلمة لأنه خلق بالكلمة ، يسمى « روحا » لأنه حل به الروح ، فإن قيل : فقد قال فى القرآن ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك ﴾ ، وقال : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ .

وقد قال : أئمة المسلمين وجمهورهم : [القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدا] وقال : فى المسيح ﴿ وروح منه ﴾ قيل : هذا بمنزلة سائر المضاف إلى الله إن كان عينا قائمة بنفسها أو صفة فيها كان مخلوقا ، وإن كان صفة مضافة إلى الله كعلمه وكلامه ونحو ذلك كان إضافة صفة ، وكذلك ما منه إن كان عينا قائمة أو صفة قائمة تعين بغيرها كما فى السموات والأرض والنعم والروح الذى أرسلها إلى مريم ، وقال : ﴿ إنما رسول ربك ﴾ كان مخلوقا ، وإن كان صفة لا تقوم بنفسها ولا يتصف بها المخلوق كالقرآن لم يكن مخلوقا ، فإن ذلك قائم بالله ، وما يقوم بالله لا يكون مخلوقا .

والمقصود هنا بيان بطلان احتجاج النصارى ، وأنه ليس لهم فى ظاهر القرآن ولا باطنه حجة كما ليس لهم حجة فى سائر كتب الله ، وإنما تمسكوا بآيات متشابهات ، وتركوا المحكم ، كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ ، والآية نزلت فى النصارى فهم مرادون من الآية قطعاً ، ثم قال : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم

يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ ، وفيها قولان وقراءتان منهم من يقف عند قوله إلا الله ، ويقول : الراسخون فى العلم لا يعلمون تأويل المتشابه ، لا يعلمه إلا الله .

ومنهم من لا يقف ، بل يصل بذلك قوله تعالى : ﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا ﴾ ، [سورة آل عمران : ٧] . ويقول : ﴿ الراسخون فى العلم يعلمون تأويل المتشابه ﴾ وكلا القولين مأثور عن طائفة من السلف ، وهؤلاء يقولون : قد يكون الحال من المعطوف دون المعطوف عليه كما فى قوله تعالى : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا ﴾ ، [سورة الحشر : ١٠] . أى قائلين ، وكلا القولين حق باعتبار ، فإن لفظ التأويل يراد به التفسير ، ومعرفة معانيه .

والراسخون فى العلم يعلمون تفسير القرآن ، قال الحسن البصرى : لم ينزل الله آية إلا وهو يحب أن تعلم فيماذا نزلت ، وماذا عنى بها ؟ وقد يعنى بالتأويل ما استأثر الله بعلمه من كيفية ما أخبر به عن نفسه ، وعن اليوم الآخر ، وقت الساعة ، ونزول عيسى ، ونحو ذلك .

فهذا التأويل لا يعلمه إلا الله وأما لفظ التأويل إذا أريد به صرف اللفظ عن ظاهره إلى ما يخالف ذلك لدليل يقترن به ، فلم يكن السلف يريدون بلفظ التأويل هذا ، ولا هو معنى التأويل فى كتاب الله عز وجل .

ولكن طائفة من المتأخرين خصوا لفظ التأويل بهذا ، بل لفظ التأويل فى كتاب الله يراد به ما يؤول إليه الكلام ، وإن وافق ظاهره كقوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل ﴾ .

ومنه تأويل الرؤيا كقول يوسف الصديق : ﴿ هذا تأويل رؤياى من قبل ﴾ ، وكقوله : ﴿ إلا نبأتكما بتأويله ﴾ ، [سورة يوسف : ٣٧] .

وقوله : ﴿ ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ ، [سورة النساء : ٥٩] . وهذا مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا أنه ليس للنصارى حجة لا فى ظاهر النصوص ولا باطنها ، كما قال تعالى : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ .

والكلمة عندهم هى جوهر ، وهى رب لا يخلق بها الخالق ، بل هى الخالقة لكل شىء ، كما قالوا فى كتابهم : [إن كلمة الله الخالقة الأزلية حلت فى مريم] ، والله تعالى قد أخبر أنه سبحانه ألقاها إلى مريم ، والرب سبحانه هو الخالق ، والكلمة التى ألقاها ليست خالقة ، إذ الخالق لا يلقيه شىء ، بل هو يلقى غيره ، وكلمات الله نوعان : كونية ، ودينية .

فالكونية : كقوله للشىء كن فيكون .

والدينية : أمره وشرعه التى جاءت به الرسل ، وكذلك أمره وإرادته وإذنه وإرساله وبعثه ينقسم إلى هذين القسمين ، وقد ذكر الله تعالى إلقاء القول فى غير هذا ، وقد قال تعالى : ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ﴾ ، [سورة النساء : ٩٤]

وقال تعالى : ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ● وألقوا إلى الله يومئذ السَّلَمَ ﴾ ، [سورة النحل : ٨٦ ، ٨٧] .

وقال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ ، [سورة الممتحنة : ١] .

وأما لقيته القول فتلقاه ، فذلك إذا أردت أن تحفظه بخلاف ما إذا ألقيته إليه ، فإن هذا يقوله فيما يخاطبه به ، وإن لم يحفظه كمن ألقيت إليه القول بخلاف القول إنكم لكاذبون ، وألقوا إليهم السلام ، وليس هنا إلا خطاب سمعوه لم يحصل نفس صفة المتكلم فى المخاطب ، فكذلك مريم إذا ألقى الله كلمته إليها ، وهى قول « كن » لم يلزم أن تكون نفس صفته القائمة به حلت فى مريم كما لم يلزم

أن تكون صفته القائمة به حلت فى سائر من ألقى كلامه ، كما لا تحصل صفة كل متكلم فيمن يلقى إلى كلامه .

فصل فى الرد على أن فى عيسى طبيعتين

وأما قولهم : وعلى هذا المثال نقول : فى السيد المسيح طبيعتان :
طبيعة لاهوتية : التى هى طبيعة كلمة الله وروحه .

وطبيعة ناسوتية : التى أخذ من مريم العذراء واتحدت به ، فيقال لهم : كلام النصارى فى هذا الباب مضطرب مختلف متناقض ، وليس لهم فى ذلك قول اتفقوا عليه ، ولا قول معقول ولا قول دل عليه كتاب ، بل هم فيه فرق وطوائف كل فرقة تكفر الأخرى ، كاليعقوبية والملكانية والنسطورية ، ونقل الأقوال عنهم فى ذلك مضطربة ، كثيرة الاختلاف .

ولهذا يقال : لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا على أحد عشر قولا ، وذلك أن ما هم عليه من اعتقادهم من التثليث والاتحاد كما هو مذكور فى أمانتهم لم ينطق به شيء من كتب الأنبياء ، ولا يوجد لا فى كلام المسيح ولا الحواريين ولا أحد من الأنبياء ، ولكن عندهم فى الكتب ألفاظ متشابهة وألفاظ محكمة يتنازعون فى فهمها ، ثم القائلون منهم بالأمانة ، وهم عامة النصارى اليوم من الملكانية والنسطورية واليعقوبية مختلفون فى تفسيرها ، ونفس قولهم متناقض يمتنع تصوره على الوجه الصحيح .

فلهذا صار كل منهم يقول ما يظن أنه أقرب من غيره ، فمنهم من يراعى لفظ أمانتهم ، وإن صرح بالكفر الذى يظهر فساده لكل أحد كاليعقوبية ، ومنهم من يستر بعض ذلك كالنسطورية ، وكثير منهم وهم الملكانية بين هؤلاء وهؤلاء ، ولما ابتدعوا ما ابتدعوه من التثليث والحلول كان فيهم من يخالفهم فى ذلك .

وقد يوجد نقل الناس لمقالاتهم مختلفاً ، وذلك بحسب قول الطائفة التى ينقل

ذلك الناقل قولها ، والقول الذى يحكيه كثير من نظائر المسلمين بوجد كثير منهم على خلافه كما نقلوا عنهم ماذكره أبو المعالى ، وصاحبه أبو القاسم الأنصارى وغيرهما أن القديم واحد بالجوهر ، ثلاثة بالأقنوم ، وأنهم يعنون بالأقنوم : الوجود ، والحياة ، والعلم .

ونقلوا عنهم أن الحياة والعلم ليسا بوصفين زائدين على الذات موجودين ، بل هما صفتان نفسيتان للجوهر ، قالوا : ولو مثل مذهبهم بمثال لقيل : إن الأقانيم عندهم تنزل منزلة الأحوال والصفات النفسية عند مثبتيها من المسلمين ، فإن سوادية اللون ولونيته صفتان نفسيتان للعرض ، قال : وربما يعبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس فيعنون بالأب الوجود و بالابن المسيح والكلمة ، وربما سموا العلم كلمة ، والكلمة علماً ، ويعبرون عن الحياة بالروح ، قال : ولا يريدون بالكلمة الكلام ، فإن الكلام عندهم من صفات الفعل ، ولا يسمون العلم قبل تدرعه بالمسيح واتحاده به ابناً ، بل المسيح عندهم مع ماتدرع به ابن ، قالوا : ومن مذهبهم أن الكلمة اتحدت بالمسيح وتدرعت بالناسوت، ثم اختلفوا فى معنى الاتحاد فنهم من فسره بالاختلاط والامتزاج ، وهذا مذهب طوائف من اليعقوبية والنسطورية والملكانية ، قالوا : إن الكلمة خالطت جسد المسيح ، ومازجته كما مازج الخمر الماء أو اللبن ، قالوا : وهذا مذهب الروم ومعظمهم الملكانية ، قالوا : فمازجت الكلمة جسد المسيح فصارت شيئاً واحداً وصارت الكثرة قلة .

وذهبت طائفة من اليعاقبة إلى أن الكلمة انقلبت لحماً ودماً قالوا : وصارت شرذمة من كل صنف إلى أن المراد بالاتحاد ظهور اللاهوت على الناسوت ، كظهور الصورة فى المرآة ، والنقش فى الخاتم .

ومنهم من قال : ظهور اللاهوت على الناسوت كاستواء الإله على العرش عند المسلمين ، وذهب كثير من هذه الطوائف إلى أن المراد بالاتحاد الحلول ،

قالوا وقد اختلفوا أيضاً فى الجواهر والأقانيم فذهبت اليعقوبية والنسطورية إلى أن الجوهر ليس بغير الأقانيم .

ولا يقال : إنه هى ، صرحت الملكانية بأنه غير الأقانيم ، وآخرون قالوا : هو الأقانيم، قالوا : وافترقت النصارى من وجه آخر ، فذهبت الروم إلى التصريح بإثبات ثلاثة آلهة ، وامتنعت اليعقوبية والنسطورية من ذلك فى وجه والتزموه من وجه ، وذلك أنهم قالوا : الكلمة إله ، والروح إله ، والأب إله والثلاثة الأقانيم التى كل أقنوم إله ، إله واحد ، قالوا : وذهبت شرذمة من النصارى إلى أن عيسى كان ابناً لله على جهة الكرامة ، فكما اتخذ إبراهيم خليلا ، كذلك اتخذ عيسى ابناً قالوا : وهؤلاء يقال لهم : الأريوسية . فهذا نقل طائفة من نظار المسلمين ، وهذا قول لمن قاله من النصارى ، وفيه ما هو مخالف لصريح أمانتهم، وما عليه جمهورهم مثل قوله : إنهم لا يسمون العلم قبل تدرعه بالمسيح ابناً ، بل المسيح مع ما تدرع به ابن ، فإن هذا خلاف ما عليه فرق النصارى من الملكانية واليعقوبية والنسطورية ، وخلاف ما تضمنته أمانتهم ، إذ صرحوا فيها بأن الكلمة ابن قديم أزلى مولود قبل الدهور ، وهذا صفة اللاهوت عندهم ، وفيها أشياء يقولها بعض النصارى لا كلهم ، وكذلك نقلهم عنهم أنهم لا يريدون بالكلمة الكلام ، فإن الكلام عندهم صفة فعل ، وهذا قول طائفة منهم ومن اليهود ، وكثير منهم أو أكثرهم يقولون: إن كلام الله غير مخلوق وينكرون على من يقول : إنه مخلوق ، ونقلت طائفة أخرى منهم أبو الحسن بن الزاغونى عنهم ما يوافق هذا من وجه دون وجه ، فقالوا : اتفقت طوائف النصارى على أن الله ليس بجسم ، واتفقوا على أنه جوهر واحد ثلاثة أقانيم ، وأن كل واحد من الأقانيم جوهر خاص يجمعها الجوهر العام، ثم اختلفوا فقال بعضهم : إن الأقانيم مختلفة فى الأقنومية ، متفقة فى الجوهرية .

وقال آخرون : ليست مختلفة فى الأقنومية ، بل متغايرة ، وقال فريق منهم:

إن كل واحد منها لاهو الآخر ولاهو غيره وليست متغايرة ولا مختلفة ، وزعموا أن الجوهر ليس هو غيرها إلا ماذكر عن طائفة من الملكانية ، فإنهم قالوا : إن الأقانيم هى الجوهر ، وإن الجوهر غير الأقانيم ، وزعموا أن الجوهر هوالأب والأقانيم الحياة وهى روح القدس والقدرة والعلم ، وأن الله اتحد بأحد الأقانيم الذى هو الإبن بعيسى ابن مريم ، وكان مسيحاً عند الاتحاد لاهوتاً وناسوتاً حمل ، وولد ، ونشأ ، وقتل وصلب ، ودفن .

واختلفوا أيضاً فقالت النسطورية : إن المسيح جوهران أقنومان قديم ومحدث، وأن اتحاده إنما هو بالمشيئة ، وأن مشيئتهما واحدة ،وإن كانا جوهرين .

وقالت اليعقوبية : لما اتحدا صار الجوهران: الجوهرالقديم والجوهر المحدث جوهراً واحداً

واختلفوا هاهنا فقال بعضهم : الجوهر المحدث صار قديماً . وزعم آخرون ، أنهما لما اتحدا صارا جوهراً واحداً قديماً من وجه محدثاً من وجه .

وقالت الملكانية : إن المسيح جوهران أقنوم واحد . وحكى عن بعضهم أنه أقنومان جوهر واحد ، وقال الأريوسية : إن الله ليس بجسم ولا أقانيم له ، وأن المسيح لم يصلب ولم يقتل ، وأنه نبى وحكى عن بعضهم أنه قال : المسيح ليس بابن لله ، وحكى عن بعضهم أنه ابن لله على التسمية والتقريب .

واختلفوا فى الكلمة الملقاة إلى مريم ، فقالت طائفة منهم : إن الكلمة حلت فى مريم حلول الممازجة ، كما يحل الماء فى اللبن فيمازجه ويخالطه ، فقالت طائفة منهم : إنها حلت فى مريم من غير ممازجة ، كما أن شخص الإنسان يحل فى المرآة ، وفى الأجسام الصقيلة من غير ممازجة .

وزعمت طائفة من النصارى أن الناسوت مع اللاهوت كمثل الخاتم مع الشمع يؤثر فيه بالنقش ، ثم لا يبقى منه شىء إلا أثره ، قالت هذه الطائفة وأبو الحسن بن الزاغونى ، ومن معه ، واختلفت النصارى فى الأقانيم ، فقال قوم

منهم : هى جواهر ، وقال قوم : هى خواص ، وقال قوم : هى صفات ، وقال قوم : هى أشخاص : والأب عندهم الجوهر الجامع الأقانيم ، والإبن هو الكلمة التى اتحدت عند مبدأ المسيح ، والروح هى الحياة ، واجتمعوا على أن الاتحاد صفة فعل ، وليس بصفة ذات .

قالوا : واختلف قولهم فى الاتحاد اختلافاً متبايناً ، فزعم قوم منهم أن الاتحاد هو : أن الكلمة التى هى الابن حلت جسد المسيح ، وقيل : هذا قول الأكثرين منهم .

وزعم قوم منهم أن الاتحاد : هو الاختلاط والامتزاج ، وقال قوم من اليعقوبية : هو أن كلمة الله انقلبت لحماً ودماً بالاختلاط ، وقال كثير من اليعقوبية والنسطورية : الاتحاد هو أن الكلمة والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط الماء بالخمر وامتزاجهما ، وكذلك الخمر باللبن .

وقال قوم منهم : الاتحاد هو أن الكلمة والناسوت اتحدا فصار هيكلا واحداً .

وقال قوم منهم : الاتحاد مثل ظهور صورة الإنسان فى المرآة ، وكظهور الطابع فى المطبوع مثل الخاتم فى الشمع ، وقال قوم منهم: الكلمة اتحدت بجسد المسيح على معنى أنها حلته من غير مماسة ولا ممازجة ، كما نقول : الله فى السماء على العرش من غير مماسة ولا ممازجة ، وكما نقول : إن العقل جوهر حال فى النفس من غير مخالطة للنفس ولا مماسة لها ، وقالت الملكانية : الاتحاد أن الإثنين صارا واحداً ، وصارت الكثرة قلة .

وهذا الذى نقله عنهم أبو الحسن الزاغونى هو نحو ما نقله عنهم القاضى أبو بكر بن الطيب، والقاضى أبو يعلى وغيرهما . وقال أبو محمد بن حزم :النصارى فرق منهم أصحاب أريوس ، وكان قسيساً بالإسكندرية ومن قوله : التوحيد المجرد ، وأن عيسى عبد مخلوق ، وأنه كلمة الله التى بها خلق السموات والأرض،

وكان في زمن قسطنطين الأول باني القسطنطينية ، وأول من تنصر من ملوك الروم ، وكان على مذهب أريوس هذا .

قال : ومنهم أصحاب بولس الشمشاطي ، وكان بطريارك بانطاكية قبل ظهور النصرانية ، وكان قوله بالتوحيد المجرد الصحيح ، وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام خلقه الله في بطن مريم من غير ذكر ، وأنه إنسان لا إلهية فيه ألبتة ، وكان يقول : لا أدرى ما الكلمة ولا روح القدس ، قال : وكان منهم أصحاب مقدنيوس كان بطرياركا بالقسطنطينية بعد ظهور النصرانية أيام قسطنطين ابن قسطنطين باني القسطنطينية ، وكان هذا الملك أريوسيا كأبيه وكان من قول مقدنيوس هذا التوحيد المجرد ، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق إنسان نبي رسول كسائر الأنبياء عليهم السلام ، وأن عيسى هو روح القدس وكلمة الله ، وأن روح القدس والكلمة مخلوقان خلق الله كل ذلك ، قال : وكان منهم البربرانية ، وهم يقولون : إن عيسى وأمه إلهان من دون الله تعالى ، قال : وهذه الفرق قد بادت وعمدتهم اليوم ثلاث فرق ، وأعظمها فرق الملكانية ، وهي مذهب جميع ملوك النصارى حيث كانوا حاشا الحبشة والنوبة ، ومذهب عامة أهل مملكة النصارى حاشا النوبة والحبشة ، ومذهب جميع نصارى أفريقية ، وصقلية ، والأندلس ، وجمهور الشام ، وقولهم إن الله ـ تعالى الله عن قولهم ـ ثلاثة أشياء : أب ، وابن ، وروح القدس كلها لم تزل ، وأن عيسى إله تام كله وإنسان تام ليس أحدهما غير الآخر ، وأن الإنسان منه هو الذي صلب وقتل ، وأن الإله منه لم ينله شيء من ذلك ، وأن مريم ولدت الإله والإنسان ، وأنهما معا شيء واحد ابن الله ـ تعالى الله عن كفرهم .

وقالت النسطورية : مثل ذلك سواء بسواء إلا أنهم قالوا : إن مريم لم تلد الإله ، وإنما ولدت الإنسان وإن الله لم يلد الإنسان وإنما ولد الإله ـ تعالى الله عن كفرهم ـ

وهذه الفرقة غالبة على الموصل والعراق وفارس وخراسان ، وهم منسوبين إلى نسطور ، وكان بطرياركا بالقسطنطينية .

وقالت اليعقوبية : إن المسيح هو الله نفسه ، وأن الله تعالى عن عظيم كفرهم مات وصلب وقتل ، وأن العالم بقي ثلاثة أيام بلا مدبر ، والفلك بلا مدبر ، ثم قام ورجع كما كان والله عاد محدثا ، والمحدث عاد قديما ، وأنه تعالى هو كان في بطن مريم محمولا به ، وهم في أعمال مصر وجميع النوبة ، وجميع الحبشة ، وملوك الأمتين المذكورتين .

ومن أعلم الناس بمقالاتهم من كان من علمائهم ، وأسلم على بصيرة بعد الخبرة بكتبهم ومقالاتهم ، كالحسن بن أيوب ، الذي كتب رسالة إلى أخيه على ابن أيوب يذكر فيها سبب إسلامه ، ويذكر الأدلة على بطلان دين النصارى ، وصحة دين الإسلام ، قال في رسالته إلى أخيه لما كتب إليه يسأله عن سبب إسلامه بعد أن ذكر خطبته : « ثم أعلمك أن ابتداء أمرى في الشك الذي دخلني فيما كنت عليه ، والاستبشاع للقول به من أكثر من عشرين سنة ، لما كنت أقف عليه في المقالة من فساد التوحيد لله عز وجل بما أدخل فيه من القول بالثلاثة الأقانيم وغيرها مما تضمنته شريعة النصارى ، ووضع الاحتجاجات التي لا تزكو ولا تثبت في تنوير ذلك ، وكنت إذا تبحرته وأجلت الفكر فيه بان لي عواره ونفرت نفسي من قبوله ، وإذا فكرت في دين الإسلام الذي من الله على به وجدت أصوله ثابتة ، وفروعه مستقيمة ، وشرائعه جميلة .

وأصل ذلك ما لا يختلف فيه أحد ممن عرف الله عز وجل منكم ومن غيركم ، وهو الإيمان بالله الحي القيوم ، السميع البصير ، الواحد الفرد ، الملك القدوس ، الجواد العدل إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وإله عيسى وموسى ، وسائر النبيين ، والخلق أجمعين ، الذي لا ابتداء له ، ولا انتهاء ولا ضد ولا ند ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، الذي خلق الأشياء كلها لا من شيء ولا على

نال ، بل كيف شاء و بأن قال لها : كونى فكانت على ما قدر وأراد وهو العليم القدير ، الرؤف الرحيم ، الذى لايشبهه شيء ، وهو الغالب فلا يغلب ، والجواد فلا يبخل ، لا يفوته مطلوب ، ولا تخفى عليه خافية ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، فكل مذكور أو موهوم هو منه ، وكل ذلك به وكل له قانتون ، ثم نؤمن بأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، ونؤمن بموسى وعيسى وسائر الأنبياء عليهم السلام ، لا نفرق بين أحد منهم ، و نؤمن بالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، وسائر الكتب التى أنزلها الله تعالى على أنبيائه ، ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ ، ﴿ وإن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم يصلونها يوم الدين ﴾ ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ : [١٨٢ سورة آل عمران] .

قال : وكان يحملنى إلف دينى ، وطول المدة والعهد عليه ، والاجتماع مع الآباء والأمهات والأخوة والأخوات والأقارب والإخوان والجيران وأهل المودات على التسويف بالعزم والتلبث عن إبرام الأمر ، ويعرض مع ذلك الفكر فى إمعان النظر والازدياد فى البصيرة فلم أدع كتاباً من كتب أنبياء التوراة والانجيل والزبور ، وكتب الأنبياء والقرآن إلا نظرت فيه وتصفحته ، ولا شيئاً من مقالات النصرانية إلا تأملته ، فلم أجد للحق مدفعاً ، ولا للشك فيه موضعاً ، ولا للأناة والتلبث وجهاً خرجت مهاجراً إلى الله عز وجل بنفسى ، هاربا بدينى عن نعمة وأهل ومستقر ومحل وعز ومتصرف فى عمل ، فأظهرت ما أظهرته عن نية صحيحة وسريرة صادقة ، ويقين ثابت ، فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وإياه نسأل أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، وأن يهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب. قال : ولما نظرت فى مقالات النصارى وجدت صنفاً منهم يعرفون بالأريوسية يجردون توحيد الله ويعترفون بعبودية المسيح عليه السلام ،

ولا يقولون فيه شيئاً مما يقوله النصارى من ربوبية ولا بنوة خاصة ولا غيرها ، وهم متمسكون بإنجيل المسيح مقرون بما جاء به تلاميذه ، والحاملون عنه .

فكانت هذه الطبقة قريبة من الحق ، مخالفة لبعضه فى جحود نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ودفع ما جاء به من الكتاب والسنة ، قال : ثم وجدت منهم صنفاً يعرفون باليعقوبية ، يقولون : إن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين : إحداهما طبيعة الناسوت ، والأخرى طبيعة اللاهوت ، وأن هاتين الطبيعتين : تركبتا كما تركبت النفس مع البدن فصارتا إنسانا واحداً ، وجوهراً واحداً ، وشخصاً واحداً . وإن هذه الطبيعة الواحدة ، والشخص الواحد هو المسيح ، وهو إله كله ، وإنسان كله ، وهو شخص واحد ، وطبيعة واحدة من طبيعتين .

وقالوا : إن مريم ولدت الله ـ تعالى الله عما يقولون ـ وإن الله مات وتألم وصلب متجسداً ودفن وقام من بين الأموات ، وصعد إلى السماء فجاءوا من القول بما لو عرض على السماء لانفطرت ، أو على الأرض لانشقت ، أو على الجبال لانهدت فلم يكن لحاجة هؤلاء وجه ، إذ كان كفرهم بما صرحوا به أوضح من أن يقع فيه الشك ، وكان غيرهم من النصارى كالملكانية والنسطورية يشهدون بذلك عليهم .

قال : ثم نظرت فى قول الملكانية وهم الروم ، وهم أكثر النصارى فوجدتهم قالوا : إن الابن الأزلى الذى هو الله الكلمة تجسد من مريم تجسداً كاملا كسائر أجساد الناس ، وركب فى ذلك الجسد نفسا كاملة بالعقل والمعرفة والعلم كسائر أنفس الناس ، وأنه صار إنسانا بالنفس والجسد اللذين هما من جوهر الناس ، وإلها بجوهر اللاهوت ، كمثل أبيه لم يزل وهو إنسان بجوهر الناسوت ، مثل إبراهيم وداود وهو شخص واحد لم يزد عدده ، وثبت له جوهر اللاهوت ، كما لم يزل وصح له جوهر الناسوت الذى لبسه من مريم ، وهو شخص واحد لم يزد عدده ، وطبيعتان ، ولكل واحد من الطبيعتين مشيئة كاملة ، فله بلاهوته مشيئة

مثل الأب والروح ، وله بناسوته مشيئة مثل مشيئة إبراهيم وداود .

وقالوا : إن مريم ولدت إلها ، وأن المسيح ، وهو اسم يجمع اللاهوت والناسوت مات ، وقالوا : إن الله لم يمت والذى ولدت مريم قد مات بجوهر ناسوته ، فهو إله تام بجوهر لاهوته ، وإنسان تام بجوهر ناسوته ، وله مشيئة اللاهوت ومشيئة الناسوت ، وهو شخص واحد ، لا نقول شخصان لئلا يلزمنا القول بأربعة أقانيم ، قال: فهؤلاء أتوا من ذلك بمثل ما أتت اليعقوبية فى ولادة مريم - تعالى الله عما يقول الظالمون - وقالوا : إن المسيح - وهو اسم لا تشك جماعة النصارى أنه واقع على اللاهوت والناسوت - مات ، وأن الله لم يمت ، فكيف يكون ميت لم يمت ، وقائم قاعد فى حال واحد ؟ وهل بين المقالتين فرق إلا ما اختلفوا فيه من الطبائع ؟

قال : ثم نظرت فى قول النسطورية فوجدتهم قالوا : إن المسيح شخصان وطبيعتان لهما مشيئة واحدة ، وأن طبيعة اللاهوت التى للمسيح غير طبيعة ناسوته ، وأن طبيعة اللاهوت لما توحدت بالناسوت بشخصها الكلمة التى صارت الطبيعتان بجهة واحدة ، وإرادة واحدة واللاهوت لا يقبل زيادة ولا نقصانا ، ولا يمتزج بشىء والناسوت يقبل الزيادة والنقصان ، فكان المسيح بتلك إلها وإنسانا ، فهو إله بجوهر اللاهوت الذى لا يزيد ولا ينقص ، وهو إنسان بجوهر الناسوت القابل للزيادة والنقصان .

وقالوا : إن مريم ولدت المسيح بناسوته ، وإن اللاهوت لم يفارقه قط منذ توحدت بناسوته .

وقال : فوجدنا اليعقوبية قد صرحوا بأن مريم ولدت الله - تعالى عما يصفه المبطلون ، و يقوله العادلون - وأنه تألم وصلب ومات ، وقام بعد ثلاثة أيام من بين الموتى وهذا الكفر الذى تشهد به عليهم سائر ملل النصارى وغيرهم ؟ ووجدنا الملكانية قد حادوا عن هذا التصريح إلى ما هو دونه فى الظاهر ، فقالوا : إن

المسيح شخص واحد وطبيعتان ، فلكل واحدة من الطبيعتين مشيئة ، فله بلاهوته مشيئة مثل الأب والروح ، وله بناسوته مشيئة كمشيئة ابراهيم وداود .
وأوهموا الواقف على قولهم أنهم بما اخترعوه من هذا الاختيار قد فرقوا بين اللاهوت والناسوت . ثم عادوا إلى قول اليعقوبية فقالوا : إن مريم ولدت إلها ، وأن المسيح وهو اسم يجمع اللاهوت والناسوت عند جماعتهم لا يشكون في ذلك مات بالجسد ، وأن الله لم يمت والذى قد ولدته مريم قد مات بجوهر ناسوته ، فكيف يكون ميت لم يمت ؟ وهل بين القالتين إلا ما اختلفوا فيه من الطبائع فرق ؟ أو إذا كانوا قد اعترفوا بأن مريم ولدت الله ، وأن الذى ولدته مريم ، وهو المسيح الاسم الجامع للجوهرين ، للاهوت والناسوت قد مات فهل وقعت الولادة والموت وسائر الأفعال ، التى تحكى النصارى أنها فعلت بالمسيح إلا عليهما فكيف يصح الذى عقل عبادة مولود من امرأة بشرية قد مات ونالته العلل والآفات ؟ قلت : ومما يوضح تناقضهم أنهم يقولون : إن المسيح وهو اللاهوت والناسوت شخص واحد وأقنوم واحد ، مع قولهم إنهما جوهران بطبيعتين ومشيئتين فيثبتون للجوهرين أقنوماً واحداً ، ويقولون : هو شخص واحد ، ثم يقولون : إن رب العالمين إله واحد ، وجوهر واحد ، وهو ثلاثة أقانيم ، فيثبتون للجوهر الواحد ثلاثة أقانيم ، وللجوهرين المتحدين أقنوماً واحداً مع أن مشيئة الأقانيم الثلاثة عندهم واحدة ، والناسوت واللاهوت يثبتون لهما مشيئتين وطبيعتين .

ومع هذا هما عندهم شخص واحد ، وأقنوم واحد ، وهذا يقتضى غاية التناقض ، فسواء فسروا الأقنوم بالصفة ، أو الشخص ، أو الذات مع الصفة ، أو أى شىء قالوه ، وهو يبين أن الذين تكلموا بهذا الكلام ما تصوروا ما قالوه ، بل كانوا ضلالا جهالا ، بخلاف ما يقوله الأنبياء فإنه حق ، فلهذا لا يوجد عن المسيح ، ولا غيره من الأنبياء ما يوافق قولهم فى التثليث ،

والأقانيم والاتحاد ، ونحو ذلك مما ابتدعوه بغير سمع وعقل ، بل ألقوا أقوالاً مخالفة للشرع والعقل .

ثم قال الحسن بن أيوب : ثم وجدنا النصارى المعروفين بالنسطورية ، قد خالفوا اليعقوبية والملكانية فى قولهم بشخصين لهما مشيئة واحدة ، وأن الطبيعتين اتحدتا فصارتا بجهة واحدة ، ثم عادوا إلى شبيه قولهم فى أن مريم ولدت المسيح ، فإذا كانت ولدت المسيح فقد لزمهم ووجب عليهم الإقرار بأنها ولدت هذا اللاهوت والناسوت المتحدين .

وقد رجع المعنى إلى قول اليعقوبية إلا أنهم اختاروا لذلك ألفاظاً زوقوها وقدروا بها التمويه على السامع ، ولم يصرحوا بالقول كتصريح اليعقوبية ، لأن المتحد بالشىء هو الممازج له والجتمع معه حتى صار الذى مازجه وهو شيئا واحداً ، ثم أكدوا القول بإقرارهم أن الناسوت منذ اتحد باللاهوت لم يفارقه ، فما لم يفارق الشىء هل هو إلا أن يجرى مجراه فى سائر متفرقاته من ضر ونفع ، وخير وشر ، وحاجة وغنى .

قال : وأما قولهم : إن مريم ولدت المسيح بناسوته فهذه أغلوطة ، وإلا فكيف يولد ولد متحد بشىء آخر مجامع له دون ذلك الشىء ؟ وكيف يكون ذاك ، وهم يقولون : إنه لم يفارقه قط ! وهل يصح هذا عند أهل النظر ، أو ليس الحكم عند كل ناظر ؟ ومن كل ذى عقل يوجب أن تكون الولادة واقعة على اللاهوت والناسوت معاً بمعنى الاتحاد ، وبمعنى الاسم الجامع للاهوت والناسوت وهو المسيح .

وكذلك الحمل بهما جميعاً وأن يكون البطن قد حواهما ، قال : فإن لجوا فى الباطل ، ودافعوا عن قبيح هذه المقالة ، ومالوا إلى تحسينها بالتمويهات المشككة لمن قصرت معرفته فنحن نقيم عليها شاهداً من أنفسهم لا يمكنهم دفعه ، وذلك أن شريعة إيمانهم التى ألفها لهم رؤساؤهم من البطاركة والمطارنة والأساقفة

والأحبار فى دينهم وذوى العلم منهم بحضرة الملك ، عند اجتماعهم من آفاق الأرض بمدينة قسطنطينية ، وكانوا ثلثمائة وثمانية عشر رجلا ، يصفون أنهم نطقوا بها بروح القدس ، وهى التى لم تختلف جماعتهم عند اختلافهم فى المقالات فيها ، ولا يتم لهم قربان إلا بها على هذا النسق الذى تبينه [نؤمن بالله الأب ، مالك كل شىء ، صانع ما يرى وما لا يرى ، وبالرب الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد ، بكر الخلائق كلها ، وليس بمصنوع ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه الذى بيده أتقنت العوالم ، وخلق كل شىء ، الذى من أجلنا معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، وصار إنسانا وحبل به وولد من مريم البتول وتألم وصلب أيام فيطوس بن بيلاطوس ودفن وقام فى اليوم الثالث كما هو مكتوب ، وصعد إلى السماء ، وجلس عن يمين أبيه ، وهو مستعد للمجىء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء ، ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذى يخرج من أبيه روح ومحييه وبعمودية واحدة لغفران الخطايا ، وبجماعة واحدة قديسية سليحية جاثليقية ، وبقيامة أبداننا ، وبالحياة الدائمة إلى أبد الآبدين] .

قال : فهذه الشريعة يجتمع على الإيمان بها ، وتبذل المهج فيها ، وإخراج الأنفس دونها جماهيرهم من الملكانية واليعقوبية والنسطورية .

وقد اعترفوا فيها جميعاً بأن الرب المسيح الذى هذه صفته على ما اقتصصناه منها الإله الحق من الإله الحق ، نزل من السماء وتجسد من روح القدس ، وصار إنسانا وحبل به وولد من مريم البتول وتألم وصلب ، قال : فهل فى هذا الإقرار شبهة أو علقة يتعلق بها المعنت المدافع عن الحجة ؟ فتدبروا هذا القول يامعشر النصارى ، فإنه لا يمكن أحداً منكم أن يخرج عنه ، ولا أن يدفع ما صرح به فإنكم إن قلتم إن المقتول المصلوب هو الله ، فريم على قولكم ولدت الله — سبحانه وتعالى عما يقولون — وإن قلتم إنه إنسان فريم ولدت إنسانا وفى ذلك أجمع بطلان شريعة

إيمانكم فاختاروا أى القولين شئتم ، فإن فيه نقض الدين .

قال : وقد يجب على ذوى العقول أن تزجرهم عقولهم عن عبادة إله ولدته مريم ، وهى امرأة آدمية ، ثم مكث على الأرض ثلاثين سنة ، تجرى عليه أحكام الآدميين من غذاء وتربية ، وصحة وسقم ، وخوف وأمن ، وتعلم وتعليم لا يتهيأ لكم أن تدعوا أنه كان منه فى تلك المدة من أسباب اللاهوتية شىء ، ولا له من أحوال الآدميين كلها من حاجتهم وضروراتهم وهمومهم ومحنهم وتصرفاتهم مخرج ، ثم أحدث بعد هذه المدة الطويلة ما أحدثه من إظهار أمر الله تعالى ، والنبوات ، والآيات الباهرة المعجزة بقوة الله تعالى ، وقد كان فى غيره من الأنبياء مثلها وما هو أعلا منها ، فكانت مدته فى ذلك أقل ثلاث سنين ، ثم انقضى أمره بما يصفون أنه انقضى به ، وينسبونه إليه من حبس وضرب وقذف وصلب وقتل فهل تقبل العقول مايقولون من أن إلهاً نال عباده منه مثل ماتذكرون أنه نيل منه ؟ فإن تأولتم أن ذلك حل بالجسم ، وليس بالقياس يحتمل ذلك لما شرحناه من معنى اتحاد اللاهوت به : فليس قد وقع بجسم توحدت اللاهوتية به ، وحلت الروح فيه ، وقد أنجبه الله على ماتزعمون وتصفون لخلاص الخلق ، وفوض إليه القضاء بين العباد فى اليوم الذى تجتمع فيه الأولون والآخرون للحساب ، وقد وجدناكم تؤثرون أخباراً فى قوم عرضوا التوابيت فيها شهد لكم بأن الأيدى التى بسطت إليها جفت أو هل نال أحداً من الجزع والهلع والغم والقلق والتضرع إلى الله فى إزالة ماحل به ، مثل مايحكى فى الإنجيل أنه ناله ، ووجدنا الكتب تنبىء بأنه نيل من جورجيس ـ أحد من كان على دين المسيح صلى الله عليه وسلم ـ من العذاب الشديد بالقتل والحرق والنشر بالمناشير مالم يسمع بمثله فى أحد من الخلق ، ونال خلقاً كثيراً من تلامذته أيضاً عذاب شديد .

وقيل : لما كان الملوك المحاربون لهم يسومونهم إياه من الرجوع عن أديانهم إلى الكفر الذى كان أولئك الملوك عليه فصبروا على ذلك ، واحتسبوا أنفسهم ،

فلم يهربوا من الموت ، وقد كان يمكنهم الهرب من بلد إلى بلد ، والاستتار وإخفاء أشخاصهم ، وما أظهروا فى حال من تلك الأحوال جزعاً ولا هلعاً ، وهم بعض الآدميين التابعين له ، لأنه خفف عنهم ما كانوا ينالون به بتأييد الله عز وجل إياهم.

قال : ثم نقول قولا آخر : قد نستدل على صحة هذه الشريعة من سقمها بأربعة أوجه ، لا يقع فى شيء منها شك ولا طعن ، ولا زيادة ولا نقصان ، وهى أصل أمر المسيح عندكم .

فأولها : البشرى التى أتى بها جبريل عليه السلام .

والثانية : قول يحيى بن زكريا الذى شهد له المسيح بأنه لم تقم النساء عن مثله .

والثالثة : النداء المسموع من السماء .

والرابعة : قول المسيح عن نفسه حين سأله يحيى عن شأنه ، والذى قال جبريل على ماثبت فى إنجيلكم لمريم حين بشرها : [السلام عليك أيتها الممتلئة نعما وربنا معك أيتها المباركة فى النساء ، فلما رأته مريم ذعرت منه ، فقال : لاترهبى يامريم فقد فزت بنعمة ربك فها أنت تحبلين وتلدين ابنا ، وتسميه يسوع ، ويكون كبيراً ، ويسمى ابن الله العلى ، ويعطيه الرب كرسى أبيه داود . ويكون ملكا على آل يعقوب إلى الأبد ، فقالت مريم : أنى يكون لى ذلك ولم يمسسنى رجل ، قال لها الملك : إن روح القدس يأتيك ، أو قال يحل فيك وقوة العلى تحبلك ، من أجل ذلك يكون الذى يلد منك قديساً ويسمى ابن الله العلى] . قال : فلم نر الملك قال لها : إن الذى تلدين ، وهو خالقك هو الرب كما سميتموه ، بل أزال الشك فى ذلك بأن قال : [إن الله الرب يعطيه كرسى أبيه داود ، ويصطفيه ويكرمه ، وأن داود النبى أبوه ، وأنه يسمى ابن الله] وما قال أيضاً : [إنه يكون ملكا على الأرض] وإنما جعل له الملك على بنى إسرائيل فقط ، وقد علمتم أن من يسمى بابن الله كثير لا يحصون ، فمن ذلك إقراركم بأنكم جميعاً أبناء الله

بالمحبة ، وقول المسيح : [أبى وأبوكم ، وإلهى وإلهكم] فى غير موضع من الإنجيل ثم تسمية الله يعقوب وغيره بنيه خصوصاً ، فالسبيل فى المسيح إذ لم تلحقوه فى هذا الإسم بالجمهور أن يجرى فى هذه التسمية مجرى الجماعة الذين اختصوا بها من الأنبياء والأبرار ، ونسبة الملك إياه إلى أبيه داود تحقق أن أباه داود ، وأن التسمية الأولى على جهة الاصطفاء والمحبة ، وأن حلول الروح عليه على الجهة التى قالها « متى » التلميذ للشعب عن المسيح فى الإنجيل : [لستم أنتم متكلمين ، بل روح الله تأتيكم تتكلم فيكم] .

فأخبر أن الروح تحل فى القوم أجمعين ، وتتكلم فيهم ، وقال الملك فى بشارته لمريم بالمسيح عليه السلام : إنه يكون ملكا على آل يعقوب ، فخص آل يعقوب بتملكه عليهم دون غيرهم من الناس ، ولم يقل إنه يكون إلها للخلائق ، ومعنى قول جبريل عليه السلام لمريم : [ربنا معك] مثل معنى قول الله عز وجل لموسى وغيره من الأنبياء : ﴿ إنى معكم ﴾ فقد قال ليوشع ابن نون : [إنى أكون معك ، كما كنت مع موسى عبدى] . فقول النصارى كلهم فى مجارى لغتهم ومعانى ألفاظهم إن الله عز وجل ، وروح القدس مع كل خطيب وراهب وفاضل فى دينه على هذه السبيل .

قال : وأما النداء الذى سمعه يحيى بن زكريا من السماء فى المسيح ، وشهادة يحيى له فإن « متى » قال فى إنجيله : [إن المسيح عليه السلام لما خرج من الأردن تفتحت له السماء ، فنظر يحيى إلى روح القدس قد نزلت على المسيح كهيئة حمامة ، وسمع نداء من السماء : إن هذا ابنى الحبيب الذى اصطفيته] .

وقد علمنا وعلمتم أن المصطفى مفعول ، والمفعول مخلوق ، وليس يستنكف المسيح عليه السلام من الاعتراف بذلك عن الاعتراف بذلك فى كل كلامه ، وما زال يقول : [إلهى إلهكم وأبى أبيكم] ، وكلما يصحح به أنه عبد مرسل مربوب

مبعوث مأمور يؤدى ماسمع و يفعل ماحد له ، ونحن نشرح هذا فى موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

ثم قال : وقد وجدنا المسيح عليه السلام . احتاج إلى تكميل أمره بمعمودية يحيى له فصار إليه لذلك وسأله إياه فليس مرتبة المقصود بدون مرتبة القاصد الراغب ، وقال «لوقا» التلميذ فى إنجيله [إن يحيى المعمدانى أرسل إلى المسيح بعد أن عمده وسأله : أنت ذلك الذى تجىء أو نتوقع غيرك ؟]فكان جواب المسيح لرسله أن [ارجعوا فأخبروه بما ترون من عميان يبصرون ، وزمن ينهضون ، وصم يسمعون ، فطوبى لمن لم يفتر بى ، أو يذل فى أمرى] .

قال : فوجدنا يحيى مع محله وجلالة قدره عند الله عز وجل ، ثم ماشهد به المسيح له من أنه ماقامت النساء عن مثله قد شك فيه فاحتاج إلى أن يسأله عن شأنه ، ثم لم يكن من جواب المسيح له بشىء مما تصفون من الربوبية ، ولاقال : إنى خالقك وخالق كل شىء ، كما فى شريعة إيمانكم ، بل حذر الغلط فى أمره والاغترار ، ولا كان من قوله أكثر مما ذكر أنه أظهره بنبوته من هذه الآيات التى يسبق إلى مثلها أكثر الأنبياء .

قال : ولارأينا يحيى زاد فى وضعه إياه لما قرظه وأعلاه ذكره مع تشككه فى أمره وحاجته إلى مسألته عن حاله إلى أن قال : [هو أقوى منى ، وأنى لا أستحق أن أحل معقد خفه] ولم يقل : إنه خالقى ، وقد يقول الرجل : الخير فيمن هو دونه مثل الذى قال يحيى فيه تواضعاً لله وخشوعاً ، كما قال المسيح فى يحيى : [إنه ماقامت النساء عن مثله] .

قال : فتركتم ما أتت به الرسل والنبوات فى المسيح وهو أصلكم الذى وقع عليه أبناؤكم ، وجعلتم لأنفسكم شريعة غيرها ، ومثل الذين عقدوا هذه الشريعة لكم مثل من آمن بنبوة رجل ينتفى من النبوة ، لأن المسيح عليه السلام يقول : إنه مربوب مبعوث ، يقول جبريل : إنه مكرم مصطفى ، وأن أباه داود ، وأن الله

جعله ملكا على آل يعقوب ، ينادى مناد من السماء بمثل ذلك ، و يشهد يحيى ابن زكريا على مثله ، وتقولون : بل هو خالق أزلى إلا أنه يستر نفسه ، و يقول المسيح وغيره ممن سمينا أنه معطى وأن الله معطيه ، و يقولون : بل هو رازق النعم وواهبها ، و يقول : إن الله أرسله ، وتقولون : بل هو الذى نزل لخلاصنا ، وتعتقدون سبب نزوله من السماء أنه أراد أن يخلصكم ، و يحتمل الخطيئة ، و يربط الشيطان فقد وجدنا الخلاص لم يقع ، قائمة لم تزل ، والشيطان أعتى ما كان لم يربط ، بل سلطه الله عليه على ماتقولون ، فحصره فى الجبل أربعين يوماً يمتحنه ، وقال له فى بعض أحواله معه : [إن كنت ابن الله فقل لهذه الصخور تصير خبزاً ، فقال له المسيح مجيباً له : إنه مكتوب أن حياة الإنسان لاتكون بالخبز ، بل بكل كلمة تخرج من الله ، ثم ساقه الشيطان إلى مدينة بيت المقدس ، وأقامه على قرنة الهيكل ، وقال له : إن كنت ابن الله فارم بنفسك من هاهنا ، فإنه مكتوب إن الملائكة توكل بك ، لئلا تعثر رجلك بالحجر] .

قال يسوع ومكتوب أيضاً : [لاتجرب الرب إلهك ، ثم ساقه إلى جبل عال ، وأراه جميع مملكات الدنيا وزخارفها ، وقال له : إن خررت على وجهك ساجدا لى جعلت هذا الذى ترى كله لك . قال له المسيح : أغرب أيها الشيطان فإنه مكتوب اسجد للرب إلهك ، ولا تعبد شيئاً سواه ، ثم بعث الله عز وجل ملكا اقتلع العدو من مكانه ورمى به فى البحر ، وأطلق السبيل للمسيح] .

وقال : أفلا يعلم من كان فى عقله أدنى مسكة أن هذا الفعل لا يكون من شيطان الى إله ، ولو كان إلها لأزاله عن نفسه قبل نفسه قبل أن يأتيه الملك من عند ربه ، ولما قال : [أمرنا أن لانجرب الله ، وأن نسجد للرب ولانعبد شيئاً سواه] ، وكيف لم يربط الشيطان عن نفسه قبل أن يربطه عن أمته ، قال : فهذه أمور إذا تأملها المتأمل قبحت جدا ، وكثر اختلافها واشتد تنقضها واضطرابها .

قال : مما يعجب منه أنكم تعتقدون الإبن الأزلى اتحد بالمسيح فصارا بجهة

واحدة ، ولم يفارقه قط منذ اتحد به ، ومكث على ذلك فى بطن أمه تسعة أشهر ، ثم أقام مولودا ، وتغذى بالابن ، ومربوبا صبيا مغذى بالأغذية إلى أن بلغ ثلاثين سنة لا يظهر منه شيء من آلة الربوبية ، ولا أمر يوجب هذا المحل ، ولا كان بينه وبين نظرائه من الآدميين فرق ، ولا سطع منه نور ، ولا ظهرت له سكينة ولا حفته الملائكة بالتهليل ، ولا ألم به الشمث بعد ذلك فوق ما كان من الأنبياء قبله ، فقد كلم الله موسى من العوسجة كيف شاء فأشرق ما حولها نورا وكلمه من طور سيناء فاضطرمت فى الجبل النيران ، والتبس وجهه النور الساطع حتى كان يتبرقع إذا جلس مع بنى إسرائيل بعد ذلك ، لأنهم كانوا لا يستطيعون النظر إليه ثم سأل موسى ربه عز وجل لما قرب منه فقال :﴿ رب أرنى أنظر إليك ، قال: لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق ﴾ من صعقته استغفر ربه فتاب عليه ، وتجلى مجد الله لجماعة من الأنبياء فرأوا حول مجده ربوات الملائكة .

وقال داود : [يارب إنك حيث عبرت ببلاد سينين تزلزت الأرض منك ، وانفطرت من هيبتك] وقال أيضاً كالمخاطب للبحر والجبال والمتعجب منها : [مالك أيها البحر هاربا ، وأنت يانهر الأردن لم وليت راجعاً ، ومالك أيتها الجبال تنفرين كالأبابيل ، ومالكن أيتها الشوامخ والهضبات تنزوان نزول الشياه] ، ثم قال كالمجيب عنهم من قدام الرب [تزلزت البقاع] .

قال : فإن كان المسيح هو الأزلى الخالق أو كان متحداً به فكيف لم ترجف بين يديه الجبال ، ولم تتصرف عن مشيئة الأنهار والبحار ، أو كيف لم تظهر منه آيات باهرات أجل من آيات الأنبياء قبله مثل المشى على متون الهوى ، والاضطجاع على أكتاف الرياح . والاستغناء عن المآكل والمشارب وإحراق من قرب منه من الشياطين والجن ، كما أحرق إيليا من قرب منه من جند

أحاب الملك ويمنع الآدميين من نفسه ، وما فعلوا على زعمهم بجسمه ليعلم الناس أنه خلقهم ، أو أنه هيكل الخالق .

قال : ووجدناكم تقولون : إن الإبن إنما يسمى ابن الله وكلامه ، لأنه تولد من الأب وظهر منه فلم نقف على معنى ذلك ، لأن شريعة إيمانكم تقول : إن الروح أيضاً تخرج من الأب ، فإن كان الأمر كما تقولون : فالروح أيضاً ابن ، لأنها تخرج عن الله تعالى ، وإلا فما الفرق بينهما ؟

قال : ولم نفهم أيضاً قولكم إن الإبن تجسد من روح القدس ، وأن روح القدس ساقه إلى البر يمتحنه الشيطان ، فما كانت حاجة الإبن إلى أن تكون الروح وهى فى قولكم مثله تدبره وتغيره من حال إلى حال ؟ أو ماعلمتم أن المغير السابق المدبر فاعل والمسبوق المدبر مفعول به فالإبن إذن دون الروح ، وليس كمثله لأن الأزلى لاينفك من الأزلى وهو مثله .

قال : وإن المسيح من روح القدس ، كما قال جبريل الملك لأمه مريم : فلم سميتموه كلمة الله وابنه ، ولم تسموه روحه ، فإنما قال لها الملك : إن الذى تلدين من روح القدس ، والروح غير الإبن ، ولو كان المعنى واحدا لما قالت الشريعة : إنه تجسد من روح القدس ، وإن روح القدس ساقه إلى البر ، وإن روح القدس نزل عليه ولم تثلثون به فى أيمانكم ، فتقولون : نؤمن بالأب والإبن والروح القدس ؟

قال ووجدناكم تقولون : أيتها النسطورية إن الله علماً وحكمة هما الإبن ، وحياة هى الروح قديمين ، ولعلمه وحياته ذات كذات الله ، وذلك أن علم الله له علم وحياة ، ولحياته التى هى روحه علم وحياة ، وأن الله الأب لما رأى استيلاء العدو على خلقه ، ونكول الأنبياء عن مناوأته أرسل إليه ابنه الفرد وحبيبه ، وجعله فداء ووقاء للناس أجمعين ، وإن الله نزل من السماء ، وتجسد من روح القدس ، وصار إنساناً ثم ولد ونشأ ، وعاش ثلاثين سنة يتقلب بين بنى إسرائيل كواحد منهم يصلى فى كنائسهم ، ويستن بسنتهم لايبدى ديناً غير دينهم ، ولا ينتحل رسالة نبوة

ولا بنوة حتى إذا انقضت تلك السنون أظهر الدعوة ، وجاء بالآيات الباهرة والبراهين المشهورة ، فأنكرته اليهود وقتلته وصلبته ، ثم صعد إلى السماء .

وصدقتم بشريعة الإيمان ، وكفرتم من خالفها ، ثم لم تلبثوا أن خلعتموها وانسلختم منها ، وقلتم : إن المسيح جوهران وأقنومان جوهر قديم ، وجوهر حديث ، ولكل جوهر أقنوم على حياله ، وإن الله جوهر قديم يقوم بمعنيين ، فهو واحد يقوم بثلاثة معان ، وثلاثة لها معنى واحد ، كالشمس التي هي شيء واحد ، ولها ثلاثة معان : القرص ، والحر ، والنور .

فالمسيح هو الله ، وهو مبعوث غير أنه ليس يعبد ، فكان معنى قولكم هذا أن المسيح مولود لكنه ليس مفعولا به وهو مبعوث مرسل ، لكنكم تستحيون أن تسموه رسولا إذ كنتم لا تفرقون بين الله وبينه في شيء من الأشياء ، وأقبلتم على الملكانية واليعقوبية بالتكفير واللعن لقولهم : إن الله والمسيح شيء واحد ، ثم لم تلبثوا أن قدمتم المسيح على الله تبارك وتعالى ، وبدأتم به في التحميد ورفعتم إليه تهاليلكم ورغائبكم في أوقات القرابين خاصة ، وهي أجل صلواتكم ، وأفضل محافلكم عندكم ، فإنه الإمام منكم على المذبح من مذابحكم وأهله مرعوبون فتتوقعون نزول روح القدس بزعمكم من السماء بدعائه .

فيفتتح دعاءه ويقول : [ليتم علينا وعليكم نعمة يسوع المسيح ، ومحبة الله الأب ومشاركة روح القدس إلى دهر الداهرين] . ثم يختم صلاته بمثل ذلك ، فهذا تصريح بالشرك وتصغير لعظمة الله وعزته إن جعلتم النعم والمواهب لمن هو دونه ، ومن هو معطى ومخول من عند الله على قولكم ، وجعلتم لله بعد المسيح محبة ولروحه مشاركة .

قال : ووجدناكم قد عبتم على اليعقوبية قولهم : إن مريم ولدت الله ـ عز وجل عن ذلك ـ ، وفي شريعة الإيمان التي بيناها المجتمع عليها أن المسيح إله

حق وأنه ولد من مريم ، فما معنى المنافرة ، وما الفرق وما تنكرون من قولهم إن المقتول المصلوب هو الله ، عز وجل عن ذلك ؟

وشريعة إيمانكم تقول : نؤمن بالرب المسيح الذى من خبر هو حاله الذى ولد من مريم ، وتألم وصلب على عهد الملك « بيلاطس » النبطى ، ودفن وقام فى اليوم الثالث ، أليس هذا إقراراً بمثل قولكم ؟ فتدبروا هذا القول يا أولى الألباب .

فإنكم إن قلتم إن المقتول المصلوب هو الله ، فإن مريم عندكم ولدت الله .

وإن قلتم : إنه إنسان فإن مريم ولدت إنساناً وبطلت الشريعة فأى القولين اخترتموه ففيه نقض دينكم ، ثم عبتم على الملكانية قولهم : إنه ليس للمسيح إلا أقنوم واحد لأنه صار مع الأزلى الخالق شيئاً واحداً لا فرق بينهما ، وقلتم بأن له أقنومين لكل جوهر أقنوم على حياله ، ثم لم تلبثوا أن رجعتم إلى مثل قولهم فقلتم : إن المسيح ، وإن كان مخلوقاً من مريم مبعوثاً ، فإنه هيكل لإبن الله الأزلى ونحن لا نفرق بينهما ، فإذا كان الأمر عندكم على هذا فما تنقمون على الملكية ، وما معنى الافتراق ، وقد رجعتم فى الاتحاد إلى مثل قولهم : إن هذا الأمر تحار فيه الأفهام .

فإن كانت الشريعة بمعنى الأمانة عندكم حقاً ، فالقول ما قال يعقوب ، وذلك أنا إذا ابتدأنا من الشريعة فى ذكر المسيح ، ثم نسقنا المعانى نسقاً واحداً ، وانحدرنا فيها إلى آخرها وجدنا القوم الذين ألفوها لكم قد صححوا أن يسوع المسيح هو ابن الله ، وهو بكر الخلائق كلها ، وهو الذى ولد من مريم ليس بمصنوع وهو إله حق من إله حق من جوهر أبيه ، وهو الذى اتقن العوالم وخلق كل شىء على يده ، وهو الذى نزل لخلاصكم فتجسد وحملته مريم وولدته وقتل وصلب ، فمن أنكر قول اليعقوبية لزمه أن ينكر هذه الشريعة التى تشهد بصحة قولهم وتلعن من ألفها .

قال : وإنما أخذت تلك الطائفة يعنى الذين وضعوا الأمانة بكلمات ، وذكروا

أنهم وجدوها فى الإنجيل مشكلات تأولت فيها ما وقع بهواها ، وتركت ما فى الإنجيل من الكلام البيّن الواضح الذى يشهد بعبودية المسيح وشهادته بذلك على نفسه، وشهادة تلاميذه به عليه. فأخذت بالمشكل اليسير وجعلت له ماأحبت من التأويل ، وألغت الواضح الكثير الذى لا يحتاج إلى تأويل .

قال : فأما احتجاجكم بالشمس ، وأنها شىء واحد له ثلاثة معان وتشبيهكم ما يقولونه فى الثلاثة الأقانيم بها ، فإن ذلك تمويه لا يصح لأن نور الشمس لا يحد بحد الشمس ، وكذلك حرها لا يحد بحد الشمس ، إذ كان حد الشمس جسما مستديراً مضيئاً مسخناً دائراً فى وسط الأفلاك دوراناً دائماً، ولا يتهيأ أن يحد نورها وحرها بمثل هذه الصفة ، ولا يقال : إن نورها أو حرها جسم مستدير مضىء مسخن دائم الدوران ، ولو كان نورها وحرها شمساً حقا من شمس حق من جوهر الشمس كما قالت الشريعة فى المسيح : إنه إله حق من إله حق من جوهر أبيه لكان ما قلتم له مثلا تاما ، والأمر مخالف لذلك فلا يشبهه ولا يقع القياس عليه والحجة منكم فيه باطلة .

قال : ووجدناكم تذكرون أن المسيح نزل من السماء فأبطل بنزوله الموت والآثام ، فإن العجب ليطول من هذا القول ، وأعجب منه من قبله ، ولم يتفكر فيه ، وممن لم يستقبح أن يعتقد ديانة لله تبارك وتعالى على مثل هذا القول المحال البائن مما تشهد به العقول وتنبىء به المشاهدة ، ويدعو الناس إليها فما هو ببعيد من عقد ما هو أمحل وأبطل منها ، لأنه إن كانت الخطيئة بطلت بمجيئه ، فالذين قتلوه إذاً ليسوا خاطئين ولا مأثومين لأنه لا خاطىء بعد مجيئه ولا خطيئة .

وكذلك أيضاً الذين قتلوا حواريه وأحرقوا أسفاره غير خاطئين ، وكذلك من يراه من جماعتكم ، منذ ذلك الدهر إلى هذا الوقت يقتل ويسرق ويزنى ويلوط ويسكر ويكذب ويركب كل ما نهى عنه من الكبائر وغيرها غير خاطئين ، ولا مأثومين .

فمن جحد ذلك فليرجع إلى التسبيحة التى تقرأ بعقب كل قربان ، وهو أن [ياربنا الذى غلب بوجهه الموت الطاغى] .

وفى الأخرى التى تقال فى اليوم الجمعة الثانية من الفصح : [إن مخرنا بالصليب الذى بطل به سلطان الموت وصرنا إلى الأمن والنجاة بسببه] . وفى بعض التسابيح [بصلوات ربنا يسوع المسيح بطل الموت ، وانطفأت فتن الشيطان ، ودرست آثارها] فأى خطيئة بطلت ؟ وأى فتنة للشيطان انطفأت أو أى أمر كان الناس عليه قبل مجيئه من المحارم والآثام تغير عن حالته .

قال: فإذا كان التمويه يقع فيما يلحقه كل أحد بالمعرفة والعيان فهو فيما أشكل من الأمور وفعل بالتأويلات التى تأولها أولئك المتأولون أوقع .

وإذا كنتم قبلتم هذا المحال الظاهر الذى لاخفاء به عن الصبيان ، فأنتم لما هو أعظم منه من المحال أقبل، وهذا إنجيلكم يكذب هذا القول حيث يقول المسيح فيه ما أكثر من يقول لى يوم القيامة : [ياسيدنا أليس باسمك أخرجنا الشيطان فأقول : أغربوا عنى أيتها الفجرة الغاوون ، فما أن عرفتكم قط] فهذا خلاف قول علمائكم ما قالوا ووضعهم لكم ما وضعوا ، ومثله قوله [إنى جامع الناس يوم القيامة عن ميمنتى وميسرتى] .

[وقائل لأهل الميسرة إنى جعت فلم تطعمونى ، وعطشت فلم تسقونى، وكنت غريباً فلم تأوونى ، ومحبوساً فلم تزورونى ، ومريضاً فلم تعودونى ، فاذهبوا إلى النار المعدة لكم من قبل تأسيس الدنيا] .

[وأقول لأهل الميمنة: فعلتم بى هذه الأشياء، فاذهبوا إلى النعيم المعد لكم من قبل تأسيس الدنيا] فهل أدخل أولئك النار إلا خطاياهم التى ركبوها وهل صار هؤلاء إلى النعيم إلا أعمالهم الجميلة التى قدموها بتوفيق الله إياهم فمن قال : إن الخطيئة قد بطلت فقد بهت وخالف قول المسيح ، وكان هو من الكاذبين .

قال : ويا أيها القوم الذين هم أولوا الألباب والمعرفة حيث ينسبونه إلى

الربوبية وينحلونه اللاهوتية ، ويجعلونه خالق الخلق أجمعين وإلههم ، بماذا ساغ ذلك لكم ، وما الحجة فيه عندكم ؟

هل قالت كتب النبوات فيه ذلك ، أو هل قاله عن نفسه أو قاله أحد عن تلامذته ، والناقلين عنه ، الذين هم عماد دينكم وأساسه ومن أخذتم الشرائع والسنن عنه ؟ ومن كتب الإنجيل وبيّنه ، بل قد أفصح فى كل الإنجيل من كلامه ومخاطباته ووصاياه بما لا يحصى كثرة بأنه عبد مثلكم ومربوب معكم ، ومرسل من عند ربه وربكم ومبدى ما أمر به فيكم ، وحكى مثل ذلك من أمره حواريوه وتلامذته ووصفوه لمن سأل عنه .

وفى كلامهم بأنه رجل جاء من عند الله عز وجل ونبى له قوة وفضل فتأولتم فى ذلك أنه أخرج كلامه على معنى الناسوت ، ولو كان كما تقولون لأفصح عن نفسه بأنه إله كما أفصح بأنه عبد ولكنه ما ذكره ولا ادعاه ، ولا دعا إليه ولا ادعته له كتب الأنبياء قبله ولا كتب تلامذته ، ولا حكى عنهم ولا أوجبه كلام جبريل الذى أداه إلى مريم ، ولا قول يحيى بن زكريا ما قال ، قال: فإن قلتم إنكم استدللتم على ربوبيته بأنه أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص ومشى على الماء وصعد إلى السماء وصير الماء خمراً، وكثر القليل. فيجب الآن أن ينظر إلى كل من فعل من هذه الأمور فعلا فنجعله رباً وإلهاً ، وإلا فما الفرق .؟ .

فمن ذلك أن كتاب « سفر الملوك » يخبر أن إلياس أحيا ابن الأرملة، وأن اليسع أحيا ابن الإسرائيلية ، وأن « حزقيال » أحيا بشراً كثيراً ، ولم يكن أحد ممن ذكرنا بإحيائه الموتى إلهاً .

وأما إبراء الأكمه فهذه التوراة تخبر أن يوسف أبرأ عين أبيه يعقوب بعد أن ذهبت ، وهذا موسى طرح العصا فصارت حية لها عينان تبصر بهما ، وضرب بها الرمل فصار قملا لكل واحدة منها عينان تبصر بهما ، ولم يكن واحد منهم بذلك إلهاً .

وأما إبراءه الأبرص ، فإن كتاب سفر الملوك يخبر بأن رجلا من عظماء الروم برص فرحل من بلده قاصداً اليسع عليه السلام ليبرئه من برصه ، فأخبر الكتاب بأن الرجل وقف بباب اليسع أياماً لا يؤذن له ، فقيل لليسع: إن ببابك رجلا يقال له «نعمان» ، وهو أجل عظماء الروم به برص ، وقد قصدك لتبرئه من مرضه، فإن أذنت له دخل إليك فلم يأذن له ، وقال لرجل من أصحابه : اخرج إلى هذا الرجل ، فقل له : يدغمس فى الأردن سبع مرات ، فأبلغ الرسول لنعمان ما أمره به اليسع ففعل ذلك ، فذهب عنه البرص ورجع قافلا إلى بلده فاتبعه خادم اليسع فأوهمه أن اليسع وجه به إليه يطلب منه مالا فسر الرجل بذلك ، ودفع إلى الخادم مالا وجوهراً ، ورجع فأخفى ذلك وستره .

ثم دخل إلى اليسع فلما مثل بين يديه ، قال له : تبعت نعمان وأوهمته عنى كذا وكذا ، وأخذت منه كذا وأخفيته فى موضع كذا ، إذ فعلت الذى فعلت به فليصر برصه عليك وعلى نسلك فبرص ذلك الخادم على المكان ، قال ، فهذا اليسع قد أبرأ أبرص وأبرص صحيحاً ، وهو أعظم مما فعل المسيح عليه السلام ، فلم يكن فى فعله ذلك إلهاً .

قال: وأما قولكم إنه مشى على الماء ؛ فإن كتاب سفر الملوك يخبر بأن إلياس عليه السلام صار إلى الأردن ، ومعه اليسع تلميذه فأخذ عمامته فضرب بها الأردن فاستيبس له الماء حتى مشى عليه هو واليسع ، ثم صعد إلى السماء على فرس من نور ، واليسع يراه ، ودفع عمامته إلى اليسع فلما رجع اليسع إلى الأردن ضرب بها الماء فاستيبس له حتى مشى عليه راجعاً ، ولم يكن واحد منهما بمشيه على الماء إلهاً ولا كان إلياس بصعوده إلى السماء إلها .

قال : وأما قولكم إنه صير ماء خمراً فهذا كتاب سفر الملوك يخبر بأن اليسع نزل بامرأة إسرائيلية فأضافته وأحسنت إليه فلما أراد الانصراف ، قال لها :

هل لك من حاجة ؟ فقالت المرأة : يانبى الله إن على زوجى ديناً قد فدحه ، فإن رأيت أن تدعو الله لنا بقضاء ديننا فافعل .

فقال لها اليسع : اجمعى كل ما عندك من الآنية واستعيرى من جيرانك جميع ما قدرت عليه من آنيتهم ففعلت ، ثم أمرها فملأت الآنية كلها ماء فقال : اتركيه ليلتك هذه ، ومضى من عندها فأصبحت المرأة ، وقد صار ذلك الماء كله زيتاً فباعوه فقضوا دينهم .

وتحويل الماء زيتاً أبدع من تحويله خمراً ولم يكن اليسع بذلك إلهاً . وأما قولكم المسيح عليه السلام كثّر القليل حتى أكل خلق كثير من أرغفة يسيرة فإن كتاب سفر الملوك يخبر بأن إلياس نزل بامرأة أرملة وكان القحط قد عمّ الناس وأجدبت البلاد ومات الخلق ضراً وهزلا ، وكان الناس فى ضيق ، فقال الأرملة : هل عندك من طعام ؟ فقالت : والله ما عندى إلا كف من دقيق فى قلة أردت أن أخبزه لطفل لى ، وقد أيقنا بالهلاك لما الناس فيه من القحط .

فقال لها : احضريه فلا عليك فأتته به فبارك عليه فمكث عندها ثلاث سنين وستة أشهر تأكل هى وأهلها وجيرانها منه حتى فرّج الله عن الناس فقد فعل إلياس فى ذلك أكثر مما فعل المسيح لأن إلياس كثّر القليل وأدامه ، والمسيح كثّر القليل فى وقت واحد ولم يكن إلياس بفعله هذا إلهاً . وقال : فإن قلتم إن هؤلاء الأنبياء ليس لهم صنع فى هذه الأفعال ، وإن الصنع فيها والقدرة لله عز وجل إذ كان هو الذى أجراها على أيديهم فقد صدقتم ، ونقول لكم أيضاً كذلك المسيح ليس له صنع فيما ظهر على يديه من هذه الأعاجيب ، إذ كان الله هو الذى أظهرها على يديه ، فما الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء ، والحجة فى ذلك ؟

قال : وإن قلتم . إن الأنبياء كانت إذا أرادت أن يظهر الله على أيديهم آية تضرعت إلى الله ودعته وأقرت له بالربوبية وشهدت على أنفسها بالعبودية .

قيل لكم : وكذلك سبيل المسيح سبيل سائر الأنبياء قد كان يدعو ويتضرع ويعترف بربوبية الله ويقر له بالعبودية ، فمن ذلك أن الإنجيل يخبر بأن المسيح أراد أن يحيي رجلا يقال له العازر ، فقال : [يا أبي أدعوك كما كنت أدعوك من قبل فتجيبني تستجيب لي ، وأنا أدعوك من أجل هؤلاء القيام ليعلموا] وقال : بزعمكم وهو على الخشبة [إلهي إلهي لم تركتني] ، وقال : [يا أبي اغفر لليهود ما يعملون فإنهم لا يدرون ما يصنعون] .

وقال في إنجيل متى : [يا أبي أحمدك] ، وقال : [يا أبي إن كان بد أن يتعداني هذا الكأس ، ولكن ليس كما أريد أنا فلتكن مشيئتك] .

وقال أيضا : [أنا أذهب إلى إلهي الذي هو أعظم مني] .

وقال : [لا أستطيع أن أصنع شيئا ولا أتفكر فيه إلا باسم إلهي] . وقال يعني نفسه [لا ينبغي للعبد أن يكون أعظم من سيده ، ولا للرسول أن يكون أعظم ممن أرسله] .

وقال : [إن الله لم يلد ولم يولد ولم يأكل ولم يشرب ولم ينم ولم يره أحد من خلقه ، ولا يراه أحد إلا مات] .

والمسيح قد أكل وشرب وَوُلِدَ ورآه الناس فما ماتوا من رؤيته ، ولا مات أحد منهم ، وقد لبث فيهم ثلاثا وثلاثين سنة .

قلت : وعامة ماذكره هذا عن الكتب تعترف به النصارى لكن بعضهم ينازعه في يسير من الألفاظ فنازعه هنا في قوله : [لا ينبغي للعبد أن يكون أعظم من سيده] ، وقال هذا إنما قاله المسيح للحواريين ، وذكر أنه لا يعرف عنه لفظ لم يلد ولم يولد ولم يأكل ولم يشرب ، قال : وقال في إنجيل «يوحنا» [إنكم متى رفعتم ابن البشر فحينئذ تعلمون أني أنا هو وشيء من قبل نفسي لا أفعل ، ولكن كل شيء كالذي علمني أبي] . وقال في موضع آخر : [من عند الله أرسلت معلماً]، وقال لأصحابه : [اخرجوا بنا من هذه المدينة ، فإن النبي لا يحل في مدينته] ، وأخبر الإنجيل

أن امرأة رأت المسيح ، فقالت : إنك لذلك النبي الذى كنا ننتظر مجيئه ، فقال لها المسيح : [صدقت طوبى لك] وقال لتلامذته [كما بعثنى أبى كذلك أبعث بكم]، قال : فاعترف بأنه نبي وأنه مألوه ومربوب ومبعوث ، وقال لتلامذته : [إن من قبلكم وآواكم فقد قبلنى ، ومن قبلنى فإنما يقبل من أرسلنى ومن قبل نبياً باسم نبى فإنما يفوز بأجر من قبل النبي] .

فبين هاهنا وفى غير موضع أنه نبي مرسل ، وأن سبيله مع الله سبيلهم معهم. وقال «متى» التلميذ فى إنجيله يستشهد على المسيح بنبوة أشعيا عن الله عز وجل : [هذا عبدى الذى اصطفيته ، وحبيبي الذى ارتاحت إليه نفسي ، أنا واضع روحى عليه ويدعو الأمم إلى الحق] ، فلن يحتاج إلى حجة أوضح من هذا القول الذى جعلتموه حجة لكم ، فقد أوضح الله أمره وسماه عبداً ، وأعلم أنه يضع عليه روحه ويؤيده بها ، كما أيدّ سائر الأنبياء بالروح فأظهروا الآيات المذكورة عنهم ، وهذا القول يوافق ما بشّر به جبريل الملك مريم حين ظهر لها ، وقال القول الذى سقناه فى صدر كتابنا قال : وقال يوحنا التلميذ فى الإنجيل عن المسيح عليه السلام : [إن كلامى الذى تسمعون هو كلام من أرسلنى] ، وقال فى موضع آخر : [إن أبى أجلّ وأعظم منى] ، وقال أيضاً : [كما أمرنى أبى كذلك أفعل أنا ، أنا الكرم وأبى هو الفلاح] ، وقال يوحنا : [كما للأب حياة فى جوهره ، فكذلك أعطى الابن أن تكون له حياة فى قينومه] قال : فالمعطى خلاف المعطّى لا محالة والفاعل خلاف المفعول .

قال : وقال المسيح فى إنجيل يوحنا : [إنى لو كنت أنا الشاهد لنفسى على صحة دعواى لكانت شهادتى باطلة لكن غيرى يشهد لى فأنا أشهد لنفسى ويشهد لى أبى الذى أرسلنى] وقال المسيح لبنى إسرائيل : [تريدون قتلى ، وأنا رجل قلت لكم الحق الذى سمعت الله يقوله] قال : وقال فى الرجل الذى أقامه من الموتى : [ياأبى أشكرك على استجابتك دعائى وأعترف لك بذلك ، وأعلم أنك

كل وقت تجيب دعوتى لـكن أسألك من أجل هذه الجماعه ليؤمنوا بأنك أنت أرسلتنى] ، قال : فأى تضرع وإقرار بالرسالة والمسألة والطلب للاجابة من الله عز وجل أشد من هذا أو أكثر قال : وقال فى بعض مخاطبته لليهود ، وقد نسبوه إلى الجنون : [أنا لست بمجنون ، ولـكن أكرِمُ أبى ولا أحب مدح نفسى ، بل مدح أبى لأنى أعرفه ، ولو قلت : إنى لا أعرفه لـكنت كذابا مثلـكم ، بل أعرفه وأتمسك بأمره] ، قال : وقال داود فى مزمور مئة وعشرة [قال الرب لربى اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئًا لرجليك] .

[عصا العظمة تبعث الرب من صهيون وتبسط على أعدائك شعبك يامسيح يوم الرعب فى بهاء القدس من البدىء] .

[اليوم ولدتك ياصبى عهد الرب ولا تـكذب إنك أنت الـكاهن المؤيد يشبه ملـكليز داق](1) قال : فهذه مخاطبة ينسبونها إلى اللاهوت ، وقد أبان داود فى مخاطبته أن لربه الذى ذكره ربا هو أعظم منه وأعلى ، أعطاه ما حكيناه ومنحه ذلك وشهد عليه ، إن عصا العظمة تبعث ربه هذا من صهيون وسماه صبيا محققا لقوله الأول : اليوم ولدتك ونسقا على أول كلامه وهو ربه ووصف أنه الـكاهن المؤيد الذى يشبه ملـكيز داق . قلت : قالوا : وهذا الـكاهن هو الذى ذكره فى التوراة إن الخليل أعطاه القربان ، وإذا كان المسيح مشبها به مع تسميته كاهنا كان ذلك من أعظم الأدلة على أنه مخلوق قال : فأما قوله [من البدىء . ولدتك] فهو يشبه قول داود [تبتنى على نفسه من البدىء ذكرتك وهديت كل أعمالك] ، وبعضهم يقول : لفظ النص : [إن الرب يبعث عصاه من صهيون] قال : وقال شمعون الصفا رئيس الحواريين فى الفصل الثانى من قصصهم : [يا رجال بنى إسرائيل اسمعوا مقالتى إن يسوع الناصرى رجل ظهر لـكم من

---

(١) قال أبو نصر : ملـكيز داق ، وهو حبر عظيم من أحبار بنى إسرائيل .

عند الله بالقوة والأيدى والعجائب التى أجراها على يديه وإنكم أسلمتموه وقتلتموه فأقام الله يسوع هذا من بين الأموات] .

قال : فأى شهادة أبين وأوضح من هذا القول وهو أوثق التلاميذ عندكم يخبر كما ترون أن المسيح رجل وأنه من عند الله وأن الآيات التى ظهرت منه بأمر الله أجراها على يديه وأن الذى بعثه من بين الموتى هو الله عز وجل قال : وقال أيضاً فى هذا الموضع : اعلموا أن الله جعل يسوع الذى قتلتموه رباً ومسيحاً قال: فهذا القول يزيل تأويل من لعله أن يتأول فى الفصل الأول أنه أراد بقوله الناسوت ، لأنه يقول : إن الله جعله رباً ومسيحاً ، والمجعول مخلوق مفعول ،قال أبو نصر : وإنما سمى ناصرى ، لأن أمه كانت من قرية يقال لها « ناصرة » فى الأردن ، وبها ، سميت النصرانية .

قال : وقد سمى الله جل ثناؤه يوسف رباً قال داود فى مزمور مئة وخمسة : [وللعبودية بيع يوسف ، وشدوا بالكبول رجليه ،وبالحديد دخلت نفسه حتى صدقت كلمته قول الرب جربه بعث الملك نخلاه وصيره مسلطاً على شعبه ، ورباً على بنيه ومسلطاً على فتيانه] .

وقال لوقا فى آخر إنجيله : إن المسيح عرض لعملوقا ولوقا تلميذه جبريل فى الطريق وهما محزونان فقال لهما ، وهما لا يعرفانه : مابالكما محزونين ؟ فقالا : كأنك أنت وحدك غريب ببيت المقدس إذ كنت لا تعلم ماحدث فيها فى هذه الأيام من أمر يسوع الناصرى ، فإنه كان رجلا نبياً قوياً فى قوله وفعله عند الله وعند الأمة أخذوه وقتلوه] على قولهم فيه .

قال : فهذا قوله وأقوال تلاميذه قد تركتموها وعقدتم على بدع ابتدعها لكم أولوكم تؤدى إلى الضلالة والشرك بالله جل ثناؤه . وقال داود فى المزمور الثانى فى زبوره مخاطباً لله ومثنياً على المسيح : [مَنْ الرجل الذى ذكرته والإنسان الذى أمرته وجعلته دون الملائكة قليلا ،وألبسته المجد والكرامات ؟] ، وقال فى المزمور الثانى:

[قال لى الرب : أنت ابنى وأنا اليوم ولدتك سلنى فأعطيك] ، فقوله ولدتك دليل على أنه حديث غير قديم، وكل حادث فهو مخلوق ، ثم أكد ذلك بقوله : [اليوم] فحد باليوم حداً لولادته أزال به الشك فى أنه ما كان قبل « اليوم » ودل بقوله : سلنى فأعطيك على أنه محتاج إلى المسألة غير مستغن من العطية ، قال : فهذا ماحضرنا من الآيات فى تصحيح خلق المسيح وعبوديته وبطلان ما يدعونه من ربوبيته ، ومثله كثير فى الإنجيل لا يحصى فإذا كانت الشهادات منه على نفسه ، ومن الأنبياء عليه ومن تلاميذه بمثل ماقد بيناه فى هذا الكتاب ، وإنما اقتصرنا على الاحتجاج عليكم من كتبكم ، فما الحجة فيما تدعونه له ومن أى جهة أخذتم ذلك واخترتم الكلام الشنيع الذى يخرج عن المعقول ، وتنكره النفوس ، وتنفر منه القلوب، الذى لا يصح بحجة ولا قياس ولا تأويل على القول الجميل الذى تشهد به العقول وتسكن إليه النفوس وتشا كل عظمة الله وجلاله .

قال : وإذا تأملتم كل ما بيناه تأمل إنصاف من أنفسكم وإشفاق عليها علمتم أنه قول لا يحتمل أن يتأول فيه للناسوت شيئاً دون اللاهوت .

قال: فإن قلتم: إنه يثبت للمسيح البنوة بقوله [أبى وأبيكم – ويا أبى – وبعثنى أبى] قلنا : فإن كان الإنجيل أنزل على هذه الألفاظ لم تبدل ولم تغير ، فإن اللغة قد أجازت أن يسمى الولىّ ابناً ، وقد سماكم الله جميعاً بنيه ، وأنتم لستم فى مثل حاله .

ومن ذلك أن الله عز وجل قال لإسرائيل فى التوراة : [أنت ابنى بكرى]. وقال لداود فى الزبور : [أنت ابنى وحبيبى] . وقال المسيح فى الإنجيل للحواريين: [أريد أن أذهب إلى أبى وأبيكم و إلهى وإلهكم] فسمى الحواريين أبناء الله وأقر بأن له إلهاً هو الله ، ومن كان له إله فليس بإله كما تقولون : فإن زعمتم أن المسيح إنما استحق الإلهية بأن الله سماه ابناً فلتلتزم ذلك ، ونشهد بالإلهية لكل من سماه الله ابناً وإلا فما الفرق ؟ .

قال : فإن قلتم : إن إسرائيل وداود ونظراءهم إنما سُمُّوا أبناء لله على جهة

الرحمة من الله لهم ، والمسيح ابن الله على الحقيقة ، تعالى الله عن ذلك .

قلنا : يجوز لمعارض أن يعارضكم ، فيقول لكم ما تنكرون أن يكون إسرائيل وداود ابنى الله على الحقيقة ، والمسيح ابن رحمة ، وما الفرق ؟ .

فإن قلتم : إن الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء من قبل أن المسيح جاء إلى مُقْعَد فقال له : [قم فقد غفرت لك] فقام الرجل ، ولم يدع الله فى ذلك الوقت.

قلنا لكم : هذا إلياس أمر السماء أن تمطر فطرت ، ولم يدع الله فى ذلك الوقت ، وكذلك اليسع أمر نعمان الرومى بأن ينغمس فى الأردن من غير دعاء ، ولا تضرع ، على أنا وجدناه فى الإنجيل قد تضرع ، وسأل مسائل قد تقدم ذكرها .

وقال فى بعض الإنجيل : [ياأبى أشكرك على استجابتك دعائى ،وأعلم أنك فى كل وقت تجيب دعوتى لكن أسألك من أجل هذه الجماعة ليؤمنوا بأنك أنت أرسلتنى] .

فإن قلتم : إن الغفران من الله عز وجل ، وإن المسيح قال لبعض بنى إسرائيل : [قم فقد غفرت لك] والله هو الذى يغفر الذنوب .

قلنا : فقد قال الله فى السفر الخامس من التوراة لموسى :[اخرج أنت وشعبك الذى أخرجت من مصر وأنا أجعل معكم ملكا يغفر ذنوبكم] .

فإن زعمتم أن المسيح إله لأنه غفر ذنوب المقعد ، فالملك إذاً إله لأنه يغفر ذنوب بنى إسرائيل وإلا فما الفرق ؟ !

فإن قلتم : إن الفرق بين المسيح وسائر الأنبياء من قبل أن الله سبحانه ربًا فقال : [ابن البشر رب السبت] .

قلنا : فهذه التوراة تخبر بأن لوطاً عليه السلام لما رأى الملكين قد أقبلا من البرية لهلاك قومه قال لهما [ياربى مهلا إلى منزل عبدكما] وقد تقدم لنا الاحتجاج

فى هذا الكتاب رباً من يوسف وغيره ، فإن كان المسيح إلهاً لأنه سمى رباً فهؤلاء إذاً آلهة لأنهم سموا بمثل ذلك .

فإن قلتم : إن الأنبياء قد تثبت على إلهية المسيح فقال أشعيا : [العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعى اسمه « عمانويل »] وتفسيره « معنا إلهنا » .

قلنا : قيل : إن هذا اسم يعاره السيد الشريف من الناس ، وإن كان الله عز وجل المنفرد بمعنى الإلهية جل ثناؤه فقد قال الله فى التوراة لموسى عليه السلام [قد جعلتك لهارون إلهاً وجعلته لك نبياً] .

وقال فى موضع آخر : [قد جعلتك يا موسى إلهاً لفرعون] ، وقال داود فى الزبور لمن كانت عنده حكمة : [كلكم آلهة ومن العلية تدعون] .

فإن قلتم : إن الله عز وجل جعل موسى إلهاً لهارون على معنى الرياسة عليه .

قلنا : وكذلك قال أشعيا فى المسيح إنه إله لأمته على هذا المعنى ، وإلا فما الفرق ؟

فإن قلتم : إن المسيح قد قال فى الإنجيل : [من رآنى فقد رأى أبى وأنا وأبى واحد] .

قلنا : إن قوله [أنا وأبى واحد] إنما يريد به أن قبولكم لأمرى هو قبولكم لأمر الله ، كما يقول رسول الرجل : أنا ومن أرسلنى واحد ، ويقول الوكيل : أنا ومن وكلنى واحد ، لأنه يقوم فيما يؤديه مقامه ، ويؤدى عنه ما أرسله به ويتكلم بحجته ، ويطالب بحقوقه ، وكذلك قوله : [من رآنى فقد رأى أبى] يريد بذلك أن من رأى هذه الأفعال التى أظهرها فقد رأى أفعال أبى .

فإن قلتم : إن المسيح قد قال فى الإنجيل : [أنا قبل إبراهيم] فكيف يكون قبل إبراهيم ، وإنما هو من ولده ؟ ولكن لما قال قبل إبراهيم علمنا ما أراد أنه قبل إبراهيم من جهة الإلهية :

قلنا : هذا سليمان بن داود يقول فى حكمته : [أنا قبل الدنيا وكنت مع الله حيث بدأ الأرض] ، فما الفرق بينه وبين من قال : إن سليمان ابن الله ، وإنه إنما

قال أنا قبل الدنيا بالإلهية ، وقد قال داود أيضاً فى الزبور : [ذكرتك من البدء يارب فى البدء ، وهديت بكل أعمالك] .

فإن قلتم : إن كلام سليمان بن داود متأول لأنهما من ولد إسرائيل ، وليس يجوز أن يكونا قبل الدنيا .

قلنا : وكذلك قول المسيح أنا قبل الدنيا متأول ، لأنه من ولد إبراهيم ، ولا يجوز أن يكون كان قبل إبراهيم ، فإن تأولتم تأولنا وإن تعلقتم بظاهر الخبر فى المسيح تعلقنا بظاهر الخبر فى سليمان وداود ، وإلا فما الفرق ؟

وقد قدمنا هذا الاحتجاج على تأويلكم لتعلموا بطلان ماذهبتم إليه على أنه تأويل غير واقع لحقه ، وإنما حقه أن يكون هذا الاسم يعنى « عمانويل » لما وقع على المسيح كان معناه أنه أخبر عن نفسه بأن « إلهنا معنا » ، يعنى أن الله معه ، ومع شعبه معيناً وناصراً .

ومما يصحح ذلك أنكم تتسمون به ، ولو كان المعنى ماذهبتم إليه لما جاز لأحد أن يتسمى به ، كما لم يجز أن يتسمى بالمسيح لأنه مخصوص بمعناه .

فإن قلتم : إن تلاميذ المسيح كانوا يعملون الآيات باسم المسيح .

قلنا لكم : فقد قال الله عز وجل ثناؤه ليحيى بن زكريا [قد أيدتك بروح القدس وبقوة إلياس ، وهى قوة تفعل الآيات] فأضاف القوة إلى إلياس .

فإن زعمتم أن المسيح إله لأنه فعلت الآيات باسمه ، فما الفرق بينكم وبين من قال : إلياس إله فإنه فعلت بقوته الآيات ؟ . فإن قلت : إن الخشبة التى صلب عليها المسيح على زعمكم ألصقت بميت فعاش ، وإن هذا دليل على أنه إله ، قلنا لكم ، فما الفرق بينكم وبين من قال : إن اليسع إله ؟ واحتج فى ذلك بأن كتاب سفر الملوك يخبر بأن رجلا مات فحمله أهله إلى المقبرة ، فلما كانوا بين القبور رأوا عدواً يريد أنفسهم فطرحوا الميت عن رقابهم وبادروا إلى المدينة وكان الموضع الذى ألقوا عليه الميت قبر اليسع ، فلما أصاب ذلك الميت تراب قبر

اليسع عاش ، وأقبل يمشي إلى المدينة ، فإن زعمتم أن المسيح إله لأن الخشبة التي ذكروا أنه صلب عليها ألصقت بميت فعاش فاليسع إله لأن تراب قبره لصق بميت فعاش ، فإن قلتم أن المسيح كان من غير فحل .

قلنا لكم: قد كان كذلك ، وليس أعجوبة الولادة توجب الإلهية ولا الربوبية، لأن القدرة فى ذلك للخالق تبارك وتعالى لا للمخلوق ، وعلى أنه يوجدكم . لأن حواء خلقت من فحل بلا أنثى ، وخلق أنثى من ذكر بلا أنثى أعجب من ذكر من أنثى بغير ذكر وأعجب من ذلك أن آدم خلقه الله من تراب ، وخلق بشر من تراب أعجب وأبدع من خلق ذكر من أنثى بلا فحل ، فما الفرق ؟ .

قال : وهذه الأسباب التى ذكرناها كلها هى الأسباب التى تتعلقون بها فى نحلتكم المسيح الربوبية وإضافتكم إليه الإلهية ، وقد وصفناها على حقائقها عندكم وقبلنا قولكم ، وإن كنا لا نشك فى أن أهل الكتب قد حرفوا بعض ما فيها من الكلام عن مواضعه ، وأوجدناكم بطول ما تنتحلونه ، وفساد ما تتأولونه من الكتب التى فى أيديكم التوراة والزبور والأنبياء والإنجيل ، فما الذى يثبت الحجة بعد ذلك لكم ؟ قال : وقد قال السيد المسيح فى الانجيل لتلاميذه لما سألوه عن الساعة والقيامة :[إن ذلك اليوم، وتلك الساعة لا يعرفها أحد ، ولا الملائكة الذين فى السماء ، ولا الابن أيضاً ، ولكن الأب وحده يعرفه]: قال: فهذا إقرار منه بأنه منقوص العلم وأن الله تبارك وتعالى أعز وأعلم منه ، وأنه خلافه وأعلا منه ، وقد بين بقوله أحد عمومه بذلك الخلق جميعاً ، ثم قال ، [ولا الملائكة] وعندهم من علم ما ليس عند أهل الأرض ، ثم قال: [ولا الابن] ، وله من القوة ما ليس لغيره وشهد قوله هذا شهادة واضحة عليه بأنه لا يعلم كل ما يعلمه الله ، بل ما علمه الله إياه وأطلعه على معرفته وجعله له وأنه لقصور معرفته بكل الأشياء ليس بحيث يصفونه من الربوبية ، وأنه هو الله ومن جوهر أبيه - تعالى الخالق لكل شيء علواً كبيراً - ولو كان إلهاً كما يقولون : لعلم ما يعلمه الله من سائر الأشياء وسرائر الأمور

وعلانيتها ، إذا كان هذا المعنى ليس من الكلام الذى إذا سئلتم عنه تعلقتم بأنه قيل للناسوت دون اللاهوت .

قلت : مقصوده بذلك أنه صرح بأنه لا يعلمه أحد ، ثم خص الملائكة بالذكر لئلا يظن أن أحدا منهم يعلمه ، فقال : [ولا الملائكة الذين فى السماء] ثم قال : [ولا الإبن يعرفه ، وأن الأب وحده يعرفه] فنفى معرفة الإبن وأثبت أن الأب وحده يعرفه ، ومراده بالإبن المسيح فعرف أن المسيح لا يعرفه وأثبت أن الرب يعرفه دون الإبن .

ودل ذلك على أن لفظ الإبن عند المسيح ، إنما يراد بها الناسوت وحده إذ كان لا يجوز نفى العلم عن اللاهوت ، فإن اللاهوت يعلم كل شىء ، وقد دل ذلك على أن قوله : [عمدوا الناس باسم الأب والإبن] ، والمراد به الناسوت وحده ، كما أريد بلفظ الإبن فى سائر كلامه وكلام غيره لم يرد قط أحد منهم بلفظ الإبن اللاهوت ، بل إطلاق الإبن على اللاهوت مما ابتدعته النصارى ، وحملوا عليه كلام المسيح فابتدعوا لصفات الله أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ، وحملوا عليها كلام المسيح وإنما يحمل كلام الأنبياء عليهم السلام وغيرهم على معنى لغتهم التى جرت عادتهم بالتكلم بها لا على لغة يحدثها من بعدهم ، ويحمل كلامهم عليها

قلت : فإن هذا الذى فعلته النصارى وأشباههم بفتح باب الإلحاد فى كتب الله المنزلة ، وقد قال تعالى : ﴿ إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ، أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ﴾ ، [فصلت : ٤٠] وذلك أن كل من اعتقد معانى برأيه يمكنه أن يعبر عنها بألفاظ تناسبها بنوع مناسبة ، وتلك الألفاظ موجودة فى كلام الأنبياء عليهم السلام لها معان أخر ، ويحمل تلك الألفاظ دالة على معانيه التى رآها ، ثم يحمل الألفاظ التى تكلمت بها الأنبياء ، وجاءت بها الكتب الالهية أرادوا بها معانيه هو ، وهكذا فعل سائر أهل الإلحاد فى سائر الكتب الإلهية كما فعلته النصارى مثل ما عملت الملاحدة المتبعون لفلاسفة اليونان

القائلون بأن هذه الأفلاك قديمة أزلية لم تزل ولا تزال ، وأن الله لم يتكلم بالتوراة ولا غيرها من الكتب الالهية ، ولا هو عالم بالجزئيات لا بموسى بن عمران ولا بغيره ، ولا هو قادر أن يفعل بمشيئة ولا يقيم الناس من قبورهم ، فقالوا : خلق وأحدث وفعل وصنع ونحو ذلك يقال على الإحداث الذاتى ، والإحداث الزمانى .

فالأول : هو إيجاب العلة لمعلومها المقارن لها فى الزمان .

والثانى : إيجاد الشيء بعد أن لم يكن ، ثم قالوا : ونحن نقول : إن الله خالق السموات والأرض وما بينهما وأحدث ذلك وأبدعه وصنعه كما أخبرت بذلك الأنبياء عليهم السلام ، لكن مرادهم بذلك الإحداث الذاتى وهو أن ذلك معلول له لم يزل معه .

فيقال لهم : لم يستعمل أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بل ولا أحد من سائر الأمم لفظ الخلق والإحداث إلا فيما كان بعد عدمه وهو ما كان مسبوقاً بعدمه ووجود غيره ، ومعنى هذا اللفظ معلوم بالاضطرار فى جميع لغات الأمم ، وأيضاً فاللفظ المستعمل فى لغة العامة والخاصة لا يجوز أن يكون معناه ما لا يعرفه إلا بعض الناس ، وهذا المعنى الذى يدعونه لو كان حقاً لم يتصوره إلا بعض الناس ، فلا يجوز أن يكون اللفظ العام الذى تداوله العامة والخاصة موضوعاً له إذا كان هذا يبطل مقصود اللغات ، ويبطل تعريف الأنبياء للناس ، فكيف وهو باطل فى صريح المعقول ، كما هو باطل فى صحيح المنقول ، فإنه لم يعرف أن أحداً قط عبر عن القديم الأزلى الذى لم يزل موجوداً ، ولا يزال بأنه محدث أو مخلوق أو مصنوع أو مفعول ، فهذا الذى ذكرتموه كذب صريح على الأنبياء عليهم السلام ، لتوهموا الناس أنكم موافقون لهم والكتب الالهية كالتوراة والقرآن مصرحة بأن الله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، والقديم الأزلى لا يكون مخلوقاً فى ستة أيام ، وكذلك

الكتب الإلهية كالتوراة والقرآن قد أخبرت بتكليم الله لموسى ، وبندائه إياه من الطور من الشجرة ، وفى التوراة إنها شجرة العليق .

وأخبرت بأن موسى عليه السلام كان يلقى عصاه فتصير حية تسعى ، وتخبر بأن الله فلق له البحر ، فقال الملاحدة : إن الشيء الثابت يسمى طوراً ، فإنه ثابت كالجبل والقلوب تسمى أودية ، وإظهار العلوم بتفجير ينابيع العلم والحجة المبتلعة كلام أهل الباطل هى عصا معنوية ، فمراد الكتب بالطور العقل الفعال الذى فاض منه العلم على قلب موسى عليه السلام ، والوادى قلب موسى ، والكلام الذى سمعه موسى من سماء عقله ، وتلك الأصوات كانت فى نفسه لا فى الخارج ، والملائكة التى رآها كانت أشخاصاً نورانية تمثلت فى نفسه لا فى الخارج ، والبحر الذى فلقه هو بحر العلم ، والعصا كانت حجته غلب على السحرة بحجته العلمية فابتلعت حجته شبههم التى جعلوها حبالا يتوسلون بها إلى نيل أغراضهم ، وعصياً يقهرون بها من يجادلونه .

أفليس من قال مثل هذا الكلام يعلم بالاضطرار أنه يكذب على الكتب الإلهية التى أخبرت بقصة موسى كالتوراة والقرآن ، وأنه ليس مراد الرسل بما أخبروا به من قصة موسى هذا ، بل صرحوا بأن موسى سمع نداء الله له ، وأنه كلمه من الطور طورسينا الذى هو الجبل ، وقلب عصاه التى كان يهش بها على غنمه ثعباناً عظيما ، وفلق له البحر ، وغرق فيه آل فرعون فغرقوا وماتوا فيه وهلكوا ، وأمثال هذا من تحريفات الملاحدة كثير .

فهكذا النصارى حرفوا كتب الله وسموا صفة الله القديمة الأزلية التى هى علمه أو حكمته ابناً ، وسموها أيضاً كلمة وسموا صفته القديمة الأزلية ، التى هى حياته روح القدس ، وتسمية هذه الصفات بهذه الأسماء لا توجد فى شيء من كلام الأنبياء ولا غيرهم ، ولا يعرف أن أحداً قط لا من الأنبياء ولا غيرهم سمى علم الله القائم به ابنه ، بل ولا سمى علم أحد من العالمين القائم به ابنه ، ولكن

فلفظ الابن يعبر به عن وُلِد الولادة المعروفة ، ويعبر به عمن كان هو سبباً فى وجوده ، كما يقال ابن السبيل لمن ولدته الطريق ، فإنه لما جاء من جهة الطريق جعل كأنه ولده .

ويقال لبعض الطير ابن ماء ، لأنه يجىء من جهة الماء ، وقال : كونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن الابن ينتسب إلى أبيه ويحبه ، ويضاف إليه أى كونوا ممن ينتسب إلى الآخرة ويحبها ، ويضاف إليها ، وهذا اللفظ موجود فى الكتب التى بأيدى أهل الكتاب فى حق الصالحين الذين يحبهم الله ويربيهم كما ذكروا أن المسيح قال : [أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم] وفى التوراة : إن الله قال ليعقوب : [أنت ابنى بكرى] .

ونحو ذلك مما يراد به إذا كان صحيحاً له معنى صحيح ، وهو المحبة له والاصطفاء والرحمة له ، وكان المعنى مفهوماً عند الأنبياء عليهم السلام ، ومن يخاطبونه ، وهو من الألفاظ المتشابهة ، فصار كثير من أتباعهم يريدون به المعنى الباطل .

وزعم كثير من الكفار أن لله سبحانه وتعالى بنين وبنات ، وأن الملائكة بناته ، وبعض من يقول بقدم العالم من المتفلسفة يقولون العقول العشرة هى بنوه ، والنفوس الفلكية هى بناته ، وهى متولدة عنه لازمة لذاته ، فجاء القرآن الذى هو أفضل الكتب وأكملها بإبطال هذه المعانى ، ومنع استعمال هذا اللفظ فى حق الله تعالى فنزه الله عن أن يتخذ ولداً ، كما نزهه عن أن يكون له ولد ، والأول من باب تنزيهه عن الأفعال المذمومة ، وهذا على قول جماهير المسلمين وغيرهم الذين ينزهون الله ويقدسونه عن الأفعال القبيحة التى لا تليق به ، بل تنافى ما وجب له من الكمالات فى أفعاله ، كما وجب له الكمال فى ذاته وصفاته ، وأما من كان من المسلمين وغيرهم لا ينزه الله عن فعل من الأفعال إلا ما كان ممتنعاً لذاته ، فأما الممكن المقدور فيقول : لا يعلم انتفاؤه إلا بالخبر أو بالعادة المطردة التى يمكن انتقاضها فهذا لا يبقى معه ما ينفى به عن الله الأفعال المذمومة القبيحة ،

والكتب الإلهية قد نزهت الرب عز وجل عن الأفعال المذمومة كما نزهته عن صفات النقص كقوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ ، [سورة الأنبياء : ٢٦ ، ٢٧] .

وقال تعالى ﴿ إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا ﴾ ، [سورة النساء : ١٧١] .

كما قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين و بنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ ، [سورة الأنعام : ١٠٠] .

وقال تعالى : ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً ﴾ ، [سورة الإسراء : ١١١] .

وقال تعالى عن المؤمنين : ﴿ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا ﴾ ، سورة آل عمران : ١٩١] .

وقال تعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً * الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديراً ﴾ ، سورة الفرقان : ١ ، ٢] .

وقال تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون * عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾ ، [سورة المؤمنون : ٩١ ، ٩٢] .

وقال تعالى : ﴿ألا إنهم من إفكهم ليقولون*ولد الله و إنهم لكاذبون﴾ ، [سورة الصافات : ١٥١ ، ١٥٢] .

وقال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

فكما نزه نفسه عن الولادة نزه نفسه عن اتخاذ الولد .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إداً * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ ، [سورة مريم : ٨٨ – ٩٥]

قال تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾ ، [سورة النساء : ١٧٢] .

وقال تعالى : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ ، [سورة آل عمران : ٨٠] .

وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعالى : كذبنى ابن آدم وما ينبغى له ذلك ، وشتمنى ابن آدم وما ينبغى له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله أنى يعيدنى كما بدانى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياى فقوله : إنى اتخذت ولداً وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ، إنهم ليجعلون له ولداً وشريكا ، وهو يرزقهم ويعافيهم » .

ولهذا كان معاذ بن جبل يقول : لا ترحموا النصارى فإنهم سبوا الله مسبة ماسبه إياها أحد من البشر . فجاءت هذه الشريعة الحنيفية القرآنية حرمت أن يتكلم فى حق الله باسم ابن أو ولد سداً للذريعة ، كما منعت أن يسجد أحد لغير الله، وإن كان على وجه التحية، كما منعت أن يصلى أحد عند طلوع الشمس وغروبها لئلا يشبه عباد الشمس والقمر ، فكانت بسدها للأبواب التى تجعل لله فيها الشريك والولد أكمل من غيرها من الشرائع كما سدت غير ذلك من الذرائع

مثل تحريمها قليل المسكر ، لأنه يجر إلى كثيره ، فإن أصول المحرمات التى قال فيها : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ـ منها ـ والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ ، [سورة الأعراف : ٣٣] .

مما اتفقت عليه شرائع الأنبياء بخلاف تحريم الطيبات عقوبة ، فإن هذا جاء فى شرع التوراة دون شرع القرآن ، فإن الله أحل لأمة محمد الطيبات ، وحرم عليهم الخبائث ، وكذلك تكميل التوحيد من كل الوجوه ، وسد أبواب الشرك من كل الوجوه جاءت به هذه الشريعة مع اتفاق الأنبياء على إيجاب التوحيد وتحريم أن يجعل لله شريك أو ولد ، فإذا كان مراده المسيح عليه السلام بالإبن هو الناسوت ، وهو لم يسم اللاهوت ابنا . وقد ذكر أن الابن لا يعلم الساعة فتبين بذلك أن المسيح هو الناسوت وحده وأنه لا يعلم الساعة ، وهذا هو الحق وإن قالوا مراده بالابن اللاهوت والناسوت لزم من ذلك أن اللاهوت أو اللاهوت والناسوت لا يعلم الساعة ، وهذا باطل ، وكذب وهو أيضاً مناقض لقولهم .

فدل هذا النص من المسيح مع سائر نصوصه ونصوص الأنبياء على أن مسمى الابن هو الناسوت وحده ، وأنه لا يعلم ما يعلمه الله ، وذلك صريح فى أنه مخلوق ليس بخالق ، ولا يجوز أن يكون هذا خطأنا للناسوت المتحد باللاهوت دون اللاهوت . كما يتأوله عليه بعض النصارى ، لأن كل ما علمه اللاهوت المتحد بالمسيح علمه الناسوت ، ولأن الناسوت ليس هو الابن عندهم دون اللاهوت المتحد به ، بل اسم الابن عندهم هو اللاهوت ، ولأجل الاتحاد دخل فيه الناسوت ، ولأنه لم يثبت إلا علم الأب وحده لم يستثن علم الابن الأزلى عندهم ، بل نفى علم ما سوى الأب به ، وهذا مناقض بقولهم من كل وجه .

فصل فى بطلان ما قاله النصارى فى المسيح

قال الحسن بن أيوب : ومثل هذا أنه لما خاطبه الرجل على ما كتب فى الإنجيل فقال له : أيها الخير ، فقال :ليس الخير إلا الله وحده ، قلت : وبعضهم يترجمه أيها الصالح فقال :ليس الصالح إلا الله وحده ،قال : ومثله قوله فى الإنجيل [إنى لم آت لأعمل بمشيئتى لكن بمشيئة من أرسلنى] قال : ولو كانت له مشيئة لاهوتية كما يقولون : لما قال هذا القول فقد أبطل به ما تدعونه فى ذلك ، قال : ثم أنتم مع ذلك تدعون أن المسيح كلمة الله ، ومن قوة الله غير بائنة ولا متصلة عنه ، وتشهدون عليه فى الإنجيل بقوله : إنه يصعد السماء ، ويجلس عن يمين أبيه ، ويدين الناس يوم القيامة ،ويجازيهم بأعمالهم ، ويتولى الحكم بينهم، وأن الله عز وجل معه ذلك إذ كان لا يراه أحد من خلقه فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فإن كان هذا الجالس للحكومة بين العالمين يوم الدين والقاعد عن يمين أبيه هو شخص قائم بذاته لا يشك فيه هو الجسد الذى كان فى الأرض المتوحد به الربوبية ، فقد فصلتم بين الله تبارك وتعالى وبينه ، وبعضتموه باجتماعهما فى السماء شخصين متباينين أحدهما عن يمين صاحبه ، وهذا كفر وشرك بالله عز وجل وإن كان جسداً خالياً من الإلهية ، وهى الكلمة ، وقد عادت إلى الله كما بدت منه فقد زال عنه حكم الربوبية التى تنتحلونه إياها .

قال : ونسألكم عن واحدة نحب أن تخبرونا بها أصل ما وضعتموه من عبادة الثلاثة الأقانيم التى ترجع بزعمكم إلى جوهر واحد ، وهو اللاهوت ماهو؟ ومن أين أخذتموه ؟ ومن أمركم به؟ وفى أى كتاب نزل ؟ وأى نبى تنبأ به ، أو أى قول للمسيح تدعونه فيه ؟ وهل بنيتم أمركم فى ذلك إلا على قول « متى » التلميذ عن المسيح عليه السلام أنه قال لتلاميذه حيث أراد أن يفارقهم : [اذهبوا فعمدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس] ؟

قال : وهذا كلام يحتمل معناه ـ إن كان صحيحاً ـ أن يكون ذهب فيه بأن يجمع هذه الألفاظ إلى أن تجتمع لهم بركات الله وبركة نبيه للمسيح وروح القدس التي يؤيد بها الأنبياء والرسل ، وقد نراكم إذا أردتم الدعاء بعضكم لبعض قلتم صلاة فلان القديس تكون معك ، ومعنى الصلاة الدعاء ، واسم فلان النبي يعنيك على أمورك .

وكما قال الله تبارك وتعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ يقرن طاعته بطاعة نبيه وأولى الأمر من المسلمين ، أفنقول لذلك إنهم جميعاً آلهة ؟

قال : وقد يجوز أن يكون له معنى يدق عن الوقوف عليه بغير التأويل إن لم يكن معناه ما قلناه ، أو يكون المسيح عليه السلام ذهب فيه إلى ما هو أعلم به ، فلم حكم بأنه ذهب إلى أن هذه الأسماء لما أضافها إلى الله صارت آلهة ، وجعلتم لها أقانيم لكل اسم أقنوم بعينه ، وهو شخص ، وكيف استجزتم ما أشركتموه مع الله بالتأويل الذي لا يصح .

وإذا قلتم بثلاثة أقانيم كل أقنوم بذاته ، فلابد من أن تعترفوا ضرورة بأن كل أقنوم منها سميع حى بصير عالم حكيم منفرد بذاته ، كما يقولون فى المسيح إنه جالس عن يمين أبيه فنراكم أخذتم الأقنومين اللذين أحدثتموهما مع الله من جهة أن الله حكيم حى لحكمته الكلمة ، وهى المسيح وروحه وروح القدس ، وهذه صفة من صفات الله مثلها كثير ، لأنه يقال حكيم عليم سميع بصير حى قدير .

وكذا ربنا تعالى وإن كانت صفاتنا إياه لا تلحق صفاته ، ولا تبلغ كنه مجده إلا بالتمثيل لعظمته وعزته وجلاله وعلوه فنحلتم صفاته التى هى معناه وليست سواه غيره وجعلتموه أقانيم لكل واحد من الحياة والحكمة وسائر الصفات مثل الذى له ، وما فيها أقنوم له صفة إلا ويحتمل على قياس قولكم أن تكونوا صفته مثله ، فإذا كانت هذه الأقانيم آلهة ، وكل صفة إله ، وهى من من جوهره فيجب

أن تكون كل صفة لكل واحد من الثلاثة الأقانيم إلهاً مثله إذ كان من جوهره فيتسع الأمر فى ذلك حتى لا يكون له غاية ولا نهاية .

قال : و إذا قلتم بثلاثة أقانيم هى فى السماء من جوهر قديم أفليس يلزمكم الإقرار بثلاثة آلهة ، لأن الأقانيم أشخاص يومأ إليها ، ويقع الحد عليها ، وإلا فلا الحجة وأنتم تذكرون فى بعض احتجاجكم أنها ثلاثة ترجع إلى واحد غير متبعضة ولا منفصلة وتشبهونها فى اجتماعها وظهور ما يظهر منها بالشمس ، وقد نراكم عقدتم شريعة إيمانكم على أن المسيح إله وإنسان متحدين وأنه يصعد إلى السماء ويجلس عن يمين أبيه ، والجالس عن يمين صاحبه أليس هو منفصلا عنه مفروزاً عنه ؟ فكيف يصح على هذا القول قياس ، أو يصح به عقد دين ؟ تقولون مرة مجتمع ، ومرة منفصل ، وما شبهتموه به من الشمس ، فقد تقدم شرحنا لبطلان الحجة فيه ، وأنه لا يكون قياسه القياس الذى تعلقتم به .

على أنا وجدناكم تقولون فى معنى التثليث: إن الذى دعاكم إليه ما ذكرتم أن « متى » التلميذ حكاه فى الإنجيل عن المسيح عليه السلام ، إذ قال لتلاميذه : [سيروا فى البلاد ، وعمدوا الناس باسم الأب والإبن] ، والروح القدس وأنكم فكرتم فى هذا القول بعقولكم فعلمتم أن المراد بذلك أنه لما أن ثبت حدوث العالم علمتم أن له محدثا فتوهمتموه شيئا موجوداً ، ثم توهمتموه حياً ناطقاً لأن الشيء ينقسم لحى ، ولا حى ، والحى ينقسم لناطق ، ولا ناطق .

وأنكم علمتم بذلك أنه شيء حى ناطق فأثبتم له حياة ونطقا غيره فى الشخص وهما هو فى الجوهرية .

فنقول لكم فى ذلك: إذا كان الحىّ له حياة ونطق فأخبرونا عنه أتقولون إنه قادر عزيز أم عاجز ذليل ؟

فإن قلتم : لا بل قادر عزيز ، قلنا : فأثبتوا له قدرة وعزة كما أثبتم له حياة وحكمة .

فإن قلتم : لا يلزمنا ذلك لأنه قادر بنفسه عزيز بنفسه ، قلنا لكم : وكذلك ، فقولوا : إنه حيّ بنفسه ، وناطق بنفسه ، ولا بد لكم مع ذلك من إبطال التثليث أو إثبات التخميس ، وإلا فما الفرق ، وهيهات من فرق .

وقال الحسن بن أيوب أيضاً : إنا كلما تأملنا معكم فى نسبة للمسيح عليه السلام إلى الإلهية وعبادتكم له مع الله على الجهة التى تذهبون إليها ، وطلبنا لكم الحجة فى ذلك من كتبكم ، ازددنا بصيرة فى استحالة ذلك ، ووضعكم له من القول ما لا يثبت لكم به حجة ولا يشهد به لكم شىء من كتبكم ، ووجدنا أبين ما جاء فى المسيح وصحة أمره فيما أتى به ما قال « متى » التلميذ [إنه لما جاء يسوع إلى أرض قيسارية سأل تلاميذه فقال : ماذا يقول الناس فى أنى ابن البشر؟ فقالوا : منهم من يقول : إنك يوحنا المعمدانى ، وآخرون يقولون : إنك أرميا أو أحد الأنبياء] .

[فقال لهم يسوع : فأنتم ماذا تقولون؟ فأجابه سمعان الصفا وهو رئيسهم فقال : أنت المسيح ابن ابن الله الحق فأجابه المسيح ، وقال : طوبى لك يا سمعان ابن يونان إنه لم يطلعك على هذا لحم ولا دم ، ولكن أبى الذى فى السماء] .

وحكى لوقا فى إنجيله هذا الخبر فقال : إن سمعان أجابه فقال : [أنت مسيح الله] ولم يقل ابن الله فهذا كلام تلميذه الرئيس فيه وأرضاه ما قال .

وقوله : إنه لم ينطق بذلك الا ما أوحاه الله فى قلبه ولم ندفعكم قط عن أنه مسيح الله ، ولا عن أنه كما تقولون فى لغتكم إنه ابن الله بالرحمة الصفوة مع الاختلاف الواقع فى ذلك فى الإنجيلين ، وقد قال : مثل ذلك فيكم جميعاً [إن الله إلهى وإلهكم وأبى وأبوكم] فتحمل على احتجاجكم بأنه ليس مثلكم فى معنى النبوة ونجعله مثل من سمى فى الكتب ابنا على جهة الاصطفاء والمحبة مثل إسرائيل وغيره بل قد خص إسرائيل بأن قال عز وجل : [أنت إبنى بكرى] . وهذا كلام له مذهب فى اللغة القديمة التى جاءت بها الكتب ، وليست بموجبة الإلهية إذ كان قد شاركه فى هذا الاسم غيره فلم لا جعلتموه كما جعل نفسه ؟ .

ومما يؤكد المعنى فى ذلك ، ويزيل تأويل من يتأول له ما لم يدعه ولم يرض به قوله فى علم الساعة . [إن ذلك شىء لا يعلمه أحد من الخلق ولا الملائكة المقربون ولا الإبن — يعنى نفسه — إلا الأب وحده] ، ثم قال للرجل الذى أتاه فقال له : [أيها العالم الصالح ، أى الأعمال خير لى ، الذى تكون لى حياة إلى يوم الدين؟ فقال له : لم تقل لى صالحاً ، ليس الصالح إلا الله وحده] فاعترف لله بأنه واحد لا شريك له ، ونفى عن نفسه فلم يجعلها — ولا أحدا من الخلق — أهلا لذلك .

وقوله للمرأة التى جاءته فقالت : أنت ذلك النبى الذى كنا ننتظر مجيئه . فقال لها المسيح [صدقت طوبى لك] ثم قال الشيطان حين اختبره فسامه أن يلقى نفسه من رأس الهيكل ، فقال : أمرنا أن لا نجرب الرب ثم سامه أن يسجد له ، فقال : [أمرنا أن لا نسجد إلا لله وحده ، ولا نعبد سواه] ثم صلاته فى غير وقت لله ، وآخرها الليلة التى أخذته اليهود فيها ، فإذا كان إلهاً كما زعمتم فلمن كان يصلى و يسجد ؟

ثم قول الجموع الذين كانوا معه حين دخل أورشليم ، وهى مدينة بيت المقدس على الأتان لمن كان يسأله عن أمره لما راجت المدينة به : هذا هو يسوع الناصرى النبى الذى من الناصرة ، ثم قوله فى بعض الإنجيل : [اخرجوا بنا من هذه المدينة فإن النبى لا يبجل فى مدينته] وفى موضع آخر إنه قال : [لا يهان نبى إلا فى مدينته وفى بيته وأقاربه] :

وقوله فى بعض خطبه [إن هذا الجيل السوء يريد آية وأنه لا يعطى إلا آية يونس ، كما كان يونس لأهل « نينوى » كذلك يكون ابن البشر لهذا الجيل ، رجال نينوى يقدمون فى الدين مع هذا الجيل فيخصمونهم لأنهم تابوا على قول يونس النبى ، وإن ها هنا أفضل من يونس] .

ثم قول داود فى نبوته عليه : [من لهذا الرجل الذى ذكرته وجملته دون الملائكة قليلا] ثم قول تلاميذه فيه ما شرحناه فى صدر كتابنا هذا ما تقدم

ووصفهم أنه رجل أتى من عند الله بالأيدى والقوة .

ومما يشبه ذلك أنه لما قدم تلاميذته فركبوا السفينة ، وقال لهم: [امضوا فإنى ألحق بكم فأتاهم يمشى على البحر فلما رأوه فى تلك الحال قالوا : ما هذا الحال ويح ، ومن الغرق صاحوا ، فقال لهم يسوع : اطمئنوا ولا تخافوا أنا هو ، فأجابه شمعون الصفا ، وقال له : يارب إن كنت أنت هو فاذن لى آتيك على الماء . فقال له : تعالى فنزل سمعان إلى الماء ليمشى عليه ، فلم يستطع وجعل يغرق ، فصاح ، وقال : يارب أغثنى فبسط يده يسوع فأخذه ، وقال له تشككت ياقليل الأمانة ؟] قال فبان بذلك عجز المسيح عن إتمام ما سأله شمعون الصفا ، ومثله أمر الرجل الذى قال ليسوع خبر ابنته وما ينالها من الشيطان ، وأنه قد قدمها إلى تلاميذه ، فلم يستطيعوا أن يخرجوه ، وقد كان جعل لهم ذلك وغيره فأخرجه هو منها .

وقال فى الإنجيل ، وهو يذكر الأمثال التى ضربها لرؤساء الكهنة إنهم لما سمعوها منه علموا أنها فى شأنهم ، فهموا أن يأخذوه ، ثم فرقوا من الجوع لأنها كانوا ينزلونه مثل النبى .

وقال فى الإنجيل ؟ [لما جاءته أم ابنى زندا ، وكانت من تلامذته مع ابنيها ، فقال لها : ما تريدين ؟ قالت : أريد أن تجلس ابناى أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك فى ملكوتك ، فقال: ليس إلى ذلك سبيل ، لأنه ليس لى أن أعطيه ، ولكن من وعد له أبى] .

قال الحسن بن أيوب : فما يكون ياهؤلاء أفصح وأبين وأوضح من اجتماع هذه الشواهد لكم فى كتبكم ما رضيتم بقوله فى نفسه ، ولا بقول تلامذته فيه ، ولا بقول من تنبأ عليه من الأنبياء ، ولا قول جموعه الذين تولوه لمن سألهم من مخالفيهم عنه وتركتم ذلك كله ، وأخذتم بآراء قوم تأولوا لكم على علمكم فإنهم قد اختلفوا أيضاً فى الرأى ، فقال كل قوم فى المسيح ما اختاروا ، واتبع كلامهم طائفة قالوا بقولهم ثم سلك من بعدهم سبيل الآباء فى الاقتداء بهم ، فبينوا لنا

حجتكم فى ذلك وهيهات من حجة ، ونحن نستوهب الله العصمة والتوفيق منه .

قال : ومما يشبه ما تقدم قوله لتلاميذه فى إنجيل لوقا : [فأما أنتم الذين صبرتم معى فى بلائى ومخازى ، فإنى أعدكم كما وعدنى أبى الملكوت لتأكلوا وتشربوا معى على مائدتى فى ملكوتى] فبين أن الله عز وجل ثناؤه وعده أن يجعله فى ملكوت السماء يأكل ويشرب مع تلاميذه على مائدته ، وهذا ما لا شك لكم فيه ، وهو مخالف لقولكم فيما يصير إليه ، وفى الأكل والشرب والنعيم هناك ، ثم قوله لشمعون حين أتته الجموع فأخذوه : [أم يظن أنى لست قادراً أن أطلب إلى أبى فيقيم لى اثنى عشر جنداً من ملائكته أو أكثر ، ولكن كيف يتم الكتب أنه هكذا ينبغى أن يكون] ، ولم يقل : إنى قادر أن أدفعهم عن نفسى ، ولا أبى آمر الملائكة أن يمنعوا عنى ، كما يقول من له القدرة والأمر .

قال : ونجدكم تقولون فى المسيح عليه السلام : إنه مولود من أبيه أزلى ويجب على المدعى القول أن يثبت الحجة فيه ، ويعلم أنه مطالب بإيضاحها لاسيما فى مثل هذا الخطب الجليل الذى لا يقع التلاعب به ، ولا تجترىء النفوس على ركوب الشبهات فيه ، والويل الطويل لمن تأول فى ذلك تأويلا لا حقيقة له ، فإنه يهلك نفسه ، ومن كان من الناس معه ممن يتبع قوله إن كان هذا الإبن أزلياً على ما فى شريعة إيمانكم ، فليس بمولود ، وإن كان مولوداً فليس بأزلى ، لأن اسم الأزلية إنما يقع على من لا أول له ولا آخر .

ومعنى المولود أنه حادث مفعول ، وكل مفعول فله أول ، فكيف ما أردتم القول فيه كان بطلان الشريعة ، قال : ونسألكم أيضاً عن واحدتم سميتم الأب أباً ، والإبن إبناً ، فإنه إن كان وجب للأب اسم الأبوة لقدمه فالإبن أيضاً يستحق هذا الاسم بعينه إذ كان قديماً مثله . وإن كان الأب عالماً عزيزاً فهو أيضاً عالم عزيز تشهد له شريعة الإيمان له بذلك فى قولها إنه خالق الخلائق كلها ، وأتقنت على يده وأنه نزل لخلاصكم ومن قدر على ذلك لم يكن إلا عالماً عزيزاً ، فهذه المعانى

التى ذكرناها تبطل اسم الأبوة والبنوة ، وفى إبطالها بطلان الشريعة التى تقول ولد من أبيه ، وإلا فإن كان الأب والإبن متكافئين فى القدم والقدرة ، فبأى فضل وسلطان للأب عليه أمره ونهاه فصار الأب باعثاً والإبن مبعوثاً والأب متبوعاً مطاعاً والإبن تابعاً مطيعاً .

ومما يشهد بصحة قولنا وبطلان ماتأوله أولوكم فى عبودية المسيح أن «متى» التلميذ حين بنى كتابه الإنجيل أول ما ابتدأ بهأن قال كتاب مولد يسوع المسيح ابن داود بن إبراهيم فنسبه إلى من كان منه على الصحة ، ولم يقل : إنه ابن الله ، ولا إنه إله من إله ، كما يقولون . فإن قلتم إن تسمية يسوع للناسوت الذى قد جعلتموه حجة بينكم وبين كل من التمس الحجة منكم عند الانقطاع فيما يعترف به للمسيح من العبودية ، فقد نسق متى على اسم يسوع الذى هو عندكم اسم للناسوت المسيح الذى هو جامع الناسوت واللاهوت ، فأى حجة فى إبطال هذا التأويل أوضح من هذا .

ومما يصحح قولنا ويؤكده قول جبريل الملك لمريم عند مخاطبته إياها إنه ابن داود على ما ثبت من ذلك فى الإنجيل ، قال : ووجدنا كم قد ذكرتم فى شريعة الإيمان أن يسوع المسيح بكر الخلائق .

فإن كنتم ذهبتم فى ذلك إلى أنه على نحو ما يسمى أول ولد الرجل وكبيرهم فجائز . وهو محقق لقولنا فى عبوديته ، وإن كنتم أردتم بذكر البكر أنه أول قديم . فلسنا نعرف للبكر معنى فى لغة من اللغات إلا للأكبر من الأخوة ، والأول من الولد وبكر الخلائق لا يكون إلا من الخلائق .

كما أن بكر الرجل والمرأة لا يكون إلا من جنسهما ، وباكورة الثمار لا يكون إلا ثمرة ، ولأن من المحال أن يقول قائل بكر ولد آدم ملك من الملائكة ، وكذلك من المحال أن يكون بكر المصنوعات ليس بمصنوع وبكر المخلوقات ليس بمخلوق .

وقد قال الله تعالى فى التوراة : [ياابنى بكرى] أى إسرائيل ، وقال فى موضع آخر : [إنه نظر بنو الله إلى بنات الناس فشغفوا بهن] ، فهل يوجب لآل إسرائيل الإلهية بهذا القول ؟

قال : وقلتم : إن المسيح ولد من أبيه قبل العوالم ، وليس بمصنوع فليس يخلو الأب من أن يكون أولد شيئاً موجوداً أو غير موجود . فإن كان لم يزل موجوداً فإن الأب لم يلد شيئاً . وإن كان غير موجود ، وإنما هو حادث لم يكن فهو مخلوق كما قلنا . قال : ومما يبين قولنا فى خلق المسيح : إن هذا الإسم إنما وقع له ، لأنه مسح للنبوة والخير ، وماسحه الله تبارك وتعالى ، وقد قال داود فى زبوره قولا يشهد على ذلك بعينه : [من أجل هذا البر مسحك الله إلهك أكثر مما مسح به نظراءك] ، فأبان داود بهذه الآية معنى المسح بإنجيله ، وأن ماسحه الله إلهه ، وأنه مصطفى مكرم بزيادة على نظرائه ، وقال داود أيضاً فى مزمور إحدى وثلاثين يخاطب الله : [من أجل داود عبدك لا يغلب وجه مسيحك عهد الرب لداود بالحق ، ولا يرجع عنه] يعنى بمسيحه نفسه لأن الله مسحه للنبوة والملك ، وقد قال فى مثل هذا فى غير موضع من زبوره [فسمى نفسه مسيح الله] ، وإذا نظر فى الإنجيل .

وكتب « بولص » وغيره ممن يحتج به النصارى وجد نحوا من عشرين ألف آية مما فيه اسم المسيح ، وكلها تنطق بعبودية المسيح ، وأنه مبعوث مربوب ، وأن الله اختصه بالكرامات ، ماخلا آيات يسيرة مشكلات قد تأولها كل فريق من أولئك الذين وضعوا الشريعة باختيارهم على هواهم ، فأخذوا بذلك التأويل الفاسد ، وتركوا المعظم الذى ينطق بعبوديته ، فلو كانوا قصدوا الحق لردوا تلك المشكلات الشاذة اليسيرة التى يوجد لها من التأويل خلاف مايتأولونه على الواضحات الكثيرة التى قد بانت بغير تأويل ، لأنه إنما يجب أن يقاس الجزء على الكل ، ويستدل على ما غاب بما حضر ، وعلى ما أشكل بما ظهر ، فمن تلك

الآيات المشكلات ما قد ذكرناه فى كتابنا هذا وبينا معناه والحجة فيه ، وأنه ليس كما تأولوه

ومنها ما يحكون عن المسيح أنه قال : [أنا بأبى] ، وقد فسر المسيح عليه السلام ذلك ، وكشفه قال «يوحنا» فى إنجيله : إن المسيح تضرع إلى الله فى تلاميذه ، وقال : [يا أيها الرب القدوس احفظهم باسمك الذى أعطيتنى ليكونوا هم أيضاً واحداً ، كما أنا شىء واحد ، وكما أنك أرسلتنى إلى العالم ، وكذلك أرسلهم أنا أيضاً ، ثم قال بعد هذا أيضاً : إنى قد منحتهم من المجد الذى أعطيتنى ومنحتنى ، ليكونوا أيضاً شيئاً واحداً كما أنا شىء واحد ، فأنا بهم ، وأنت بى] قال : هو معنى ذلك أنه قال أنت لى كما أنا مع تلاميذى ولهم .

قلت : أو أراد إنك بى هديت الخلق وعلمتهم وأنا أهديهم وأعلمهم ، والباء للسببية ، فإن الله برسله هدى عباده وعلمهم ، والرسل علموا الغائبين عنهم ، فالحاضرين الذين بلغوا عنهم ، وقوله ليكونوا شيئاً واحداً : أراد به اتفاق صدقهم وأمرهم ومرادهم ، وهذا مفسر ، وقد قال : ليكونوا هم شيئاً واحداً ، كما أنا شىء واحد . فقد طلب لهم مثل ما حصل له ولربه .

وهذا يبين أن قوله كما أنا شىء واحد أى أنا موافق فى أمرك ونهيك ومحبتك ورضاك ، لم يرد بذلك اتحاد ذاته به ، كما يرد أن تتحد ذوات بعضهم ببعض ، فإنه طلب لهم مثل ما حصل له من الموافقة لأمر الله ونهيه ومحبته ورضاه ، قال : أو يكون ذهب فيه إلى معنى دقيق لا يعرفه إلا أنه قد بطل على كل حال بهذا القول تأويلكم ممازجته عز وجل فى اللاهوت بقوله فى تلاميذه : إنه بهم ، كما أن أباه به ، لأنه إن تأول متأول فى هذا المعنى أنه ذهب فى بعض وصفه بأبيه ، وأن أباه به إلى مشاركته فى اللاهوت فقد قال فى تلامذته مثل هذا القول ، فيجب أن يكونوا على هذا القياس شركاء فى الحل ، وهذا مالا يكون ، ولا يجترىء على القول به أحد .

قال : ومن أعجب العجب أن تكون أمة كتابها وعبودتها ومعبودها واحداً يتمسكون بأمر المسيح عليه السلام ، وتلامذته ، وإنجيله ، وسننه ، وشرائعه ، وهم مع ذلك مختلفون فيه أشد الاختلاف فنهم ، من يقول : إنه عبد ، ومنهم من يقول : إنه إله ، ومنهم من يقول : إنه ولد ، ومنهم من يقول : إنه أقنوم وطبيعة ، ومنهم من يقول : إنه أقنومان وطبيعتان .

وكل يكفر صاحبه : ويقول : إن الحق فى يده ، وكلهم لا يأتى من الكتاب بحجة واضحة يثبت بها دعواه ، ولا من قياسه لنفسه وتأوله بما يصح له عند المناظرة وإنما يرجع فى دينه واعتقاده إلى ما تأوله المتأولون ، بما يخالف إنجيلهم ، وكتبهم بالهوى والعناد من بعضهم . فهم يشركون بالله على التأويل ولا شريك له ويدعون له ولداً من جهة ما أحدثوا لأنفسهم سبحانه أنى يكون له ولد !!!

فهرست الجزء الثانى

من

كتاب « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح »

صفحة	
٣	فصل فى بطلان قياس كتبهم على القرآن
١٦	« فى أن الغلط إنما وقع فى الترجمة
١٨	« فيما حدث فى التوراة من تغيير
٢٠	« « « « الإنجيل من تبديل
٢٦	« فى كيفية التغيير الذى حدث فى الإنجيل
٢٨	« فى قوله تعالى (لكم دينكم ولىَ دين)
٣٢	« « أن دين الأنبياء كلهم واحد
٣٥	« « قوله تعالى : (لا حجة بيننا وبينكم)
٣٨	« « دعوى النصارى أن الإسلام دين عربى
٤٣	« « مجادلة أهل الكتاب
٤٤	« « وعيد الله لأهل الكتاب بسبب ما أحدثوه فى كتبهم من تبديل
٤٩	« « كيفية الإيمان بما جاء به الأنبياء
٥٠	« « غلو النصارى فى الدين
٥٢	« « غلو اليهود فى الدين
٥٥	« « بطلان الاستدلال بالمتشابه
٦٤	« « ادعاء النصارى أن القرآن مدحهم
٦٥	« « ادعاء النصارى من تأييد الكتب السماوية لدينهم
٦٩	« « بطلان ما استدلوا به
٧٥	« « فيما بشر به القرآن مريم من ولادة المسيح
٧٦	« « دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم للنصارى للدخول فى الإسلام
٧٧	« « دعوى النصارى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان شاكا فيما جاء به
٧٩	« « أن الرسول لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً
٨٢	« « دعوى النصارى أنهم هم المعينون بقوله « صراط الذين أنعمت عليهم »

صفحة

٩٠ فصل فى القول فى بطلان التثليث
١٠٤ « « تقسيم الأشياء
١٠٧ « « رد دعوى النصارى أن الحى قسمين
١١٢ « « بطلان كون الثلاثة إله واحد
١٢١ « « معنى روح القدس
١٢٤ « « « الروح
١٢٤ « « عدم خصوصية روح القدس بالمسيح
١٢٥ « « تحريف روح القدس فى الإنجيل
١٢٧ « « إبطال دعوى أن حياة الله تسمى روحاً
١٣٠ « « قوله : (وكلمته باقية إلى الأبد)
١٣١ « « معنى التعميد باسم الأب والإبن
١٣٤ « « عدم حجية ما ادعوه من الأقانيم
١٣٤ « « بطلان دعوى تأييد القرآن لهم
١٣٨ « « محاولتهم تحريف القرآن
١٤٠ « « معنى كلمة الله
١٤١ « « معنى : (فنفخنا فيه من روحنا)
١٤٢ « « « القرآن كلام الله
١٤٣ « « الصفات الجوهرية وهل تجرى مجرى الأسماء ؟
١٥٣ « « قولهم فى تباين الصفات وتوافقها
١٥٥ « فيما قالوه فى التثليث
١٥٥ « فى تناقض ما قالوه مع ما فى الأمانة
١٦٠ « فيما قالوه من التجسيم والحلول
١٧٥ « « ادعوه من ظهوره فى عيسى ابن مريم
١٨٥ « فى أنه لا دليل على حلول ذاته واتحاده بالمسيح
١٨٦ « فيما تأوله اليهود فى البشارة بالمسيح
١٨٦ « فى الفرق بين المسيح والمسيخ
١٨٧ « « أن عيسى ليس بدعا من الرسل
١٨٩ « « أن ما جاء فى الإنجيل نظير ما فى التوراة
١٩١ « « معنى حلول الله

صفحة

١٩٤ فصل فيما يوافق المسلمون النصارى
١٩٦ « فى شهادة الرب
١٩٨ « « أن كل ما ذكروه حجة عليهم
٢٠٥ « « الوهم التشبيه من آيات الكتب النبوية
٢١١ « « معنى : « عمانويل »
٢١٣ « « التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم
٢١٤ « « أن روح القدس هو روح الله
٢١٦ « « أن المسيح إنما هو رب الملائكة
٢١٧ « « شهادة علمائهم على التحريف
٢٢٥ « فيما بدله اليهود وغيروه وكفروا به
٢٢٨ « فى البدع التى أحدثتها النصارى
٢٣١ « « الفرق بين المشابهة والمماثلة
٢٣٦ « « أن الصفة ليست ابنا
٢٣٧ « « معنى الرب
٢٣٨ « « « الابن
٢٣٩ « « بطلان ما استدلوا به على التعدد
٢٤١ « « أن الرب لا يتعدد وإنما الذى يتعدد هو التقديس
٢٤٣ « « معنى قوله : نثلث لك
٢٤٤ « « المسيح الذى تنتظره اليهود
٢٤٤ « فيما ذهب إليه النصارى من الأقانيم
٢٤٨ « فى الكلمة وأنها صفة الرب
٢٥٩ « « عدم تناقض القرآن
٢٦٦ « « تناقض ما ذهب إليه النصارى من اتحاد اللاهوت والناسوت
٢٧٩ « « امتناع كون المسيح إلهاً
٢٨٧ « « كلمة الله ما هى ؟
٢٩٣ « « أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم
٣٠٧ « « الرد على أن فى عيسى طبيعتين
٣١١ « « أن المسيح إنما هو رب الملائكة
٣٥٠ « « بطلان ما قاله النصارى فى المسيح

الجَوابُ الصَّحِيح

لِمَن بَدَّل دِين المَسِيح

لشيخ الاسلام ابن تيميه

٦٦١ — ٧٢٨

الجـزء ٣

مطابع
المجد
التجارية

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الحسن بن أيوب : وقد بينا الحجج فى بطلان كل قول لكم مما عقدتم به شريعة إيمانكم ، ووجدنا قوماً منكم إذا نوظروا فى ذلك قالوا : قد وجدنا أكثر الأديان يختلف أهلها فيها ، ويتفرقون على مقالات شتَّى ، هم عليها وكل منهم يدَّعِي أن الصواب فى يده .

وهذا أيضاً من سوء الاختبار ، وذهاب القلوب عن رشدها ، وانصرامها عن سبيل حقها .

فلم يختلف أهل دين من الأديان فى عقد معبودهم ، ولا شكُّوا فيه ، ولا تفرقوا القول فيما اختاروه إلا أهل مِلَلِ النصرانية فقط .

وسائر من سواهم إنما اختلفوا فى فروع من فروع الدين وشرائعه ، مثل اختلاف اليهود فى أعيادهم وسنن لهم ، ومثل اختلاف المسلمين فى القدر .

فمنهم من قال به ، ومنهم من دفعه .

وفى تفضيل قوم من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم على نظرائهم بعد اتفاق جماعتهم على إلههم ومعبودهم وخالقهم ، وأن الله إله الخلق كلهم ، واحد لا شريك له ولا ولد .

ثم اتفاقهم بعد ذلك على نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يشكون فيه ، وعلى القرآن ، وأنه كتاب الله المنزل على محمد المرسل لا يختلفون فيه .

فإذا صح اتفاقهم على هذه الأصول ، كان ما سواها جللاً[1] لا يقع معه كفر ، ولا يبطل به دين .

---

(١) قوله : جللا . أى يسيراً . فكلمة « الجلل » من الأضداد تطلق على الأمر العظيم واليسير .

والبلاء العظيم الاختلاف فى المعبود .

فلو أن قوماً لم يعرفوا لهم إلهاً ولا ديناً ، ثم عرض عليهم دين النصرانية ، وجب أن يتوقفوا عنه ، إذ كان أهله لم يتفقوا على شىء فيه .

ودل اختلافهم فى مقالاتهم وما بينها مما فى كتبهم ، على باطله .

فأما قولنا فى باب التوحيد ، واعترافنا بوحدانية الله تعالى ، ونفيُنا عنه الشركاء والأنداد والأمثال والأولاد ، فهو قول لا يشكون فى صحته ، ولا يشك فيه أحد من أهل الكتب وسائر الملل ولا غيرهم من أهل القول بالدهر وسائر عبدة الأصنام والأوثان وكل منهم يُقِرُّ به ويرجع إليه .

إلا أن منهم من يتابعنا على تحديد التوحيد . ومنهم من يدخل العلل فيه ، بأن يقول : ثلاثة ترجع إلى واحد ، وصنماً نعبده إجلالاً لله ليقربنا إلى ربنا وربه ومدبر للأمور قديم لابد أن نعترف به خالقها وباريها .

وكل منهم مقر بقولنا وذاهب إلى مذهبنا على الاعتراف بالله على الجهة التى يذهب إليها وأنه واحد لا شريك له .

فقد صح عقدنا بلا شك منكم ، ولا من أحد من الأمم فيه ، ولا فى شىء منه ، بل تقودكم الضرورة إلى الإقرار به والاجتماع معنا عليه .

والحمد لله رب العالمين على توفيقه ، وإياه نسأل أن يتم علينا تسديده بقدرته ، وأن يحيينا ويميتنا على الإسلام ، غير مشركين ولا جاحدين ولا مبدلين ، إنه على كل شىء قدير ، وكل مستصعب عليه يسير ، وهو بمن خافه واتقاه وطلب ما عنده ولم يلحد فى دينه رءوف رحيم .

قلت : هذا آخر ما كتبته من كلام الحسن بن أيوب وهو ممن كان من أجلاء علماء النصارى وأخبر الناس بأقوالهم ، فنقله لقولهم أصح من نقل غيره .

وقد ذكر فى كتابه من الرد على ما يحتجون به من الحجج العقلية والسمعية ، وما يبطل قولهم من الحجج السمعية والعقلية ، ما يبين ذلك .

ونحن نذكر مع ذلك كلام من نقل مذاهبهم من أئمتهم المنتصرين لدين النصرانية ، ونذكر ما ذكروه من حججهم ، مثل ابن البطريق ، بترك الإسكندرية ، فإنه صنف كتابه الذى سماه « نظم الجوهر » وذكر فيه أخبار النصارى ومجامعهم واختلافهم وسبب إحداثهم ما أحدثوه مع انتصاره لقول الملكية والرد على من خالفهم

قال سعيد بن البطريق بطريرك الإسكندرية فى تاريخه المعروف عند النصارى الذى سماه « نظم الجوهر » وذكر فيه مبدأ الخلق وتواريخ الأنبياء والملوك والأمم وأخبار ملوك الروم وأصحاب الكراسى برومية وقسطنطينية وغيرهما ، ووصف دين النصرانية ، وفِرَق أهلها ، وهو ملكى ، رد على سائر طوائف النصارى ، لما ذكر مولد المسيح صلوات الله عليه ، وأنه ولد فى عهد ملك الروم قيصر المسمى أغسطس لثنتين وأربعين سنة من ملكه ، قال : وملك ستا وخمسين سنة .

قال : وملك بعده ابنه « طيباريوس » قيصر برومية ، وللمسيح خمس عشرة سنة .

وكان لقيصر هذا صديق يقال له « بلاطس » من قرية على شط البحر الذى تحت « قسطنطينية » ويسمى ذلك البحر « السطس » ولذلك يسمى « بلاطس النبطى » فولاه على أرض « يهوذا » .

قال : وفى خمس عشرة سنة من ملك طيباريوس قيصر هذا ظهر « يحيى » ابن زكريا المعمدانى ، فعمد اليهود فى الأردن لغفران الخطايا .

فجاء المسيح إلى يحيى بن زكريا فعمده يحيى فى الأردن ، ولسيدنا المسيح ثلاثون سنة وذكر قصة قتل يحيى ، وقصة الصلب المعروفة عند النصارى .

إلى أن قال : وكتب « بلاطس » إلى « طيباريوس » الملك بخبر سيدنا المسيح وما تفعل تلاميذه من العجائب الكثيرة من إبراء المرضى و إحياء الموتى .

فأراد أن يؤمن بسيدنا المسيح و يظهر دين النصرانية فلم يتابعه أصحابه على

ذلك . وملك اثنتين وعشرين سنة وستة أشهر .

وذكر أن فى عصره بُنِيَتْ مدينة « طبرية » مشتقة من اسمه .

قال : وملك بعده قيصر آخر أربع سنين وثلاثة أشهر ، فقتل بلاطس وولّى شخصاً كان شديداً على تلاميذ المسيح ، وقتل رئيس الشهداء والشمامسة ، فرجم بالحجارة حتى مات .

وذكر أنه لَقِيَ التلاميذ من اليهود ومن الروم شدة شديدة ، وقتل منهم خلق كثيرة ، وأنه مات هذا وولى بعده قيصر آخر ، وفى زمنه وقع جوع ووباء ، وفى زمنه كتب « متّى » وبين إنجيله بالعبرانية فى بيت المقدس ، وفسره من العبرانية إلى الرومية « يوحنا » صاحب الإنجيل .

قال : وفى تسع سنين من ملكه كان « مُرقس » صاحب الإنجيل بمدينة الإسكندرية يدعو الناس إلى الإيمان بالمسيح ، وأنه أول شخص جعل بطريركاً على الإسكندرية ، وأنه صيَّر معه اثنى عشر قسيساً وأمرهم إذا مات البطريرك أن يختاروا واحداً من الاثنى عشر قسيساً ، ويضع الاثنا عشر أيديهم على رأسه ويبركونه ويصلحونه بطريركا ، ثم يختارون رجلاً فاضلاً قسيساً ويصيرونه معهم بدل القسيس الذى أصلحوه بِتْركاً ، ليكونوا اثنى عشر أبداً .

فلم يزل رسمهم بالإسكندرية على هذا إلى زمن الثلاثمائة وثمانية عشر .

فأمرهم بطريرك الإسكندرية الذى كان من جملة الثلاثمائة وثمانية عشر أن لا يُفْعَلَ هذا فيما بَعْدُ ، ومنع أن يصلح الأقساء البترك ، بل يختاروا من أى بلد كان ، رجلا فاضلا ، وإذا مات البترك ، اجتمع الأساقفة فأصلحوا البترك من أى بلد كان من أولئك الأقِسَّة ، أو من غيرهم .

فانقطع الرسم الأول من إصلاح الأقساء البترك ، وجعل التيسير لهم فى إصلاح البترك بابا .

ثم سُمِّيَ بترك الإسكندرية بابا ، ومعناه ، الجد .

ومن حنانيا الذى أصلحه مرقس البشير إلى حادى عشر بطركا بالإسكندرية لم يكن فى عمل مصر أسقف ، ولم يكن البطاركة قبله أصلحوا أسقفا ، وأن العامة لما سمعت الأساقفة يسمون البطريرك أباً قالوا : إذا كنا نحن نسمى الأسقف أباً ، والأسقف يسمى البطريرك أباً ، فيجب علينا أن نسمى البطريرك بابا (أى الجد) إذا كان أباً لأبينا فسمى بطريرك الإسكندرية من وقت « هرقل » بابا (أى الجد) .

قال وخرج مرقس إلى « بُرْقَة » يدعو الناس إلى الإيمان بالسيد المسيح .

ومات قلوريوس قيصر ، وملك بعده ابنه « بارون » ثلاث عشرة سنة .

قال . وهو أول من هاج على النصارى الشرَّ والبلاء والعذاب .

قال : وفى عصره كتب « بطرس » رئيس الحواريين الإنجيل (إنجيل مرقس) عن مرقس بمدينة رومية ، ونسبه إلى مرقس .

قال : وفى عصر هذا الملك كتب « لوقا » إنجيله بالرومية إلى رجل شريف من عظماء الروم يقال له « فوفيلا » فكتب له أيضاً الأبركسس الذى فيه أخبار التلاميذ .

وقد كان « لوقا » البشير صاحب « بولس الرسول » يقول فى بعض رسائله : إن « لوقا » الطبيب يقول : عليكم السلام .

وقال : وأخذ بارون قيصر لبطرس فصلبه منكساً ، ثم قتله ، لأن بطرس قال له : إن أردت أن تصلبنى فاصلبنى منكساً لئلا أكون مثل سيدى المسيح فإنه صُلِبَ قائماً ، وضرب عنق بولس الرسول بالسيف .

وأقام بطرس بعد صعود المسيح اثنين وعشرين سنة .

قال : وكان مرقس صاحب الإنجيل بالإسكندرية وبرقة يدعو الناس إلى الإيمان فأقام سبع سنين .

وفى أول سنة من ملك بارون قيصر قتل مرقس بالإسكندرية ، وأحرق

جسده بالنار ، وذكر بعده عدة قياصرة ، وذكر أن طيطس خرب البيت المقدس بعد المسيح بسبعين سنة بعد أن حاصرها ، وأصاب أهلها جوع عظيم ، وقتل كل من كان فيها من ذكر وأنثى حتى كانوا يشقون بطون الحبالى ، ويضربون بأطفالهم الصخور .

وخرب المدينة والهيكل ، وأضرم بهما النار ، وأحصى القتلى على يده ، فكانوا ثلاثة آلاف ألف .

وذكر عدة قياصرة بعد ذلك وأنه وَلِيَ واحد منهم خمس عشرة سنة يقال له « ذوما طيانوس » وكان شديداً جداً على اليهود ، وأنه بلغه أن النصارى يقولون : إن المسيح ملكهم وأن ملكه إلى الدهر .

فغضب غضباً شديداً ، وأمر بقتل النصارى ، وأن لايكون فى ملكه نصرانى وكان «يوحنا» صاحب الإنجيل هناك ، فسمع بهذا فخاف وهرب إلى أفسس ثم إنه أمر بإكرامهم وترك الاعتراض عليهم .

ثم تولى بعده قيصر آخر سنة و بعض أخرى ، ثم ملك آخر بعض تسع عشرة سنة يسمى طرايانوس .

قال : وهذا الملك أثار على النصارى بلاء عظيما وحزناً طويلا ، وقتل شهداء كثيرة ، وقتل بطريرك إنطاكية برومية ، وقتل أسقف بيت المقدس وصلبه وله مائة وعشرون سنة ، وأمر أن يستعبد النصارى ، إذ ليس لهم دين ولا شريعة

فلشدة ما استعبد النصارى وغلظ مانالهم من القتل رحمتهم الروم ، وشهد وزراء الملك عنده أن النصارى لهم شريعة ودين ، وأنه لايحل أن يستعبدوا فكفّ عنهم الأذية .

قال : وفى عصره كتب «يوحنا» إنجيله بالرومية فى جزيرة يقال لها « تيمرا » من أرض الروم من أرض « أثينة » فى عصر رجل من عظماء الروم فيلسوف يقال له « موموديس » .

قال : وفى ذلك العصر رجع اليهود إلى بيت المقدس .

فلما كثروا وامتلأت منهم المدينة عزموا أن يملكوا منهم ملكا

فبلغ الخبر « طيباريوس قيصر » فوجّه بقائد من قواده بجيش عظيم إلى بيت المقدس فقتل من اليهود ما لا يحصى كثرة .

قال : وخرج على قيصر هـذا خارجيٌّ مقاتل ببابل ، فخرج إليه بنفسه فوقعت بينهم حرب شديدة ، وقتل من الفريقين خلق عظيم ، وقتل قيصر فى الحرب .

وملك بعده « أندريانوس قيصر » عشرين سنة فخرج إلى ذلك الخارجى ببابل فهزمه ، وصار إلى مصر فلقى منه أهل مصر شدة شديدة ، وأخذ الناس بعبادة الأصنام وقتل من النصارى خلقاً كثيراً وأصاب « إيليا » ابنه علة فى بدنه فـكان ينفذ إلى البلدان يطلب شفاء لعلته ، فوصفوا له بيت المقدس .

فلما وافاه ، رآها خراباً ليس فيها أحد إلا كنيسة للنصارى فأمر أن تبنى المدينة وتُحَصَّن بحصن قوىّ .

فلما سمع اليهود أقبلوا من كل بلد وكل مدينة .

فما كان إلا زمان قليل حتى امتلأت منهم المدينة فلما كثروا ملكوا عليهم ملكا .

فاتصل الخبر بإيليا بن قيصر أندريانوس ، فوجّه إليهم بقائد من قواده مع خلق كثير فحاصر المدينة ، فمات كل من فيها من الجوع والعطش ثم فتحها فقتل من اليهود مالا يحصى ، وهدم الحصن ، وخرّب المدينة حتى صيرها صحراء .

قال : وهذا آخر خراب بيت المقدس وهرب من اليهود من هرب إلى مصر وإلى الشام ، وإلى الجبال ، وإلى الغور .

وأمر الملك أن لا يسكن المدينة يهودى وأن يقتل اليهود ويستأصلوا ، وأن يسكن المدينة اليونانيون ، ويبنوا على باب الهيكل برجا ، ويجعل فوقه ألواح ويكتبوا عليها اسم « إيليا الملك » وذلك من ثمان سنين من ملكه .

قال : والبرج اليوم على باب مدينة بيت المقدس ، وسمى محراب دارد .

قال : فسمى بيت المقدس إلى هذا الوقت « إيليا » .

فمن الخراب الأول الذى أخربه «طيطس» إلى هذا الخراب، ثلاث وخمسون سنة

وامتلأت بيت المقدس من اليونانيين فنظروا إلى النصارى يأتون إلى تلك المزبلة التى فيها القبر والأقرانيون ، فيصلون ، فمنعوهم من ذلك .

و بنى اليونانيون على تلك المزبلة هيكلا على اسم الزهرة ، فلم يقدر أحد من النصارى بعد ذلك أن يقرب ذلك الموضع .

قال : ثم مات « إيليا الملك » وملك بعده « أنطوينوس قيصر » برومية اثنى وعشرين سنة .

قال : وفى إحدى عشرة سنة من ملكه صير يهودا أسقفاً على بيت المقدس ، أقام سنتين ومات .

قال : فمن يعقوب أسقف بيت المقدس الأول إلى يهودا أسقف بيت المقدس هذا ، كانت الأساقفة الذين صيروا على بيت المقدس مختونين .

وذكر أنه وَلِيَ بعد هذا قيصر آخر اسمه « مرقس » تسع عشرة سنة ، وأنه أثار على النصارى بلاء عظيما ، وحزناً شديداً ، واستشهد فى زمانه شهداء كثيرون.

قال : وكان فى أيامه جوع شديد ، ووباء عظيم ، لم تمطر السماء سنين ، وكاد الملك وجميع أهل مملكته أن يهلكوا من الجوع .

فسألوا النصارى أن يبتهلوا إلى إلههم فدفعوا ، فأمطر الله عليهم مطراً عظيما ، وارتفع الوباء والقحط .

قال : وكان بأيامه بأرض اليونانيين « مغنوس » الحكيم .

قال: وفى خمس سنين من ملكه صير « لوليانوس» بطريركا وهو أول بطريرك أصلح الأساقفة فى عمل مصر . أقام ثلاثاً وأربعين سنة ومات .

فصـــــل

قال : وفى ذلك العصر كتب بطريرك الإسكندرية إلى أسقف بيت المقدس ، وبطرك أنطاكية ، وبطرك رومية فى حساب فُصْح النصارى وصومهم ، وكيف يستخرج من فَصْح اليهود ، فوضعوا فى ذلك كتباً كثيرة على ماهو عليه اليوم .

قال : وذلك أن النصارى كانوا بعد صعود سيدنا المسيح إلى السماء إذا عَيَّدوا عيد الغطاس من الغد ، يصومون أربعين يوماً ، ويفطرون كما فعل سيدنا يسوع المسيح ، لأن سيدنا المسيح لما اعتمد بالأردن خرج إلى البرية ، فأقام بها صائماً أربعين يوماً وكان النصارى إذا أفصح اليهود ، عَيَّدوا هم الفصح .

فوضع هؤلاء البطاركة حساباً للفصح ، ليصوم النصارى أربعين يوماً ، ويكون فطرهم يوم الفصح ، ليتم فرحهم بذلك .

قلت : فقد أخبر عن المسيح أنه لما صام أربعين يوماً عقب المعمودية وكان يُعَيِّد مع اليهود فى عيدهم لايعيد عقب صومه ، شاركه النصارى فى ذلك مدة ، فصاروا يصومون أربعين عقب الغطاس الذى هو نظير المعمودية ، ويعيدون مع اليهود العيد .

ثم إنهم بعد هـذا ، ابتدعوا تغيير الصوم ، فلم يصوموا عقب الغطاس ، بل نقلوا الصوم إلى وقت يكون عيدهم مع عيد اليهود ، فيكون عيدهم مع عيد اليهود ، وهو فُصْحُ المسيح ، ويكون ذلك وقت قيامته من قبره .

قال : ومات « مرقس » الملك ، وملك بعده « قوذوس » قيصر برومية ، اثنى عشرة سنة .

وفى أيامه كان فى أرض اليونانيين فى مدينة أفرغامس «جالينوس» الحكيم صاحب صناعة الطب .

وذكر « جالينوس » فى فهرست كتبه أنه ربى « قموذوس » الملك .

وذكر « جالينوس » فى المقالة الأولى من الكتاب المعروف بـ « كتاب أخلاق النفس » : أنه كان فى عصر «قموذوس» الملك ، رجل يقال له « بولس» طلبه قموذوس الملك ليقتله ، فهرب منه ، وكان له غلامان فقبضهما الملك ، فضربهما الملك ، وطلب منهما أن يدلاه على مولاهما فلم يفعلا ، لكرم أنفسهما ونخوتهما وشدة محاماتهما على مولاهما ، فقتلهما ، وأن من الإسكندر إلى بولس خمسمائة سنة وست عشرة سنة ، وذلك فى السنة التاسعة من ملك قموذوس قيصر . فهذا ماذكر جالينوس .

قال : وكان أيضاً فى أيامه « ديمقراطيس » الحكيم .

قلت : هذه المدة أكثر مما ذكره « سعيد » هذا ، فإنه لم يذكر من المسيح إلى هنا مائتى سنة ، بل ذكر إلى الخراب مائة وثلاثة وعشرين سنة ، وقد تقدم ذكره لديمقراطيس قبل هذا .

قال : وفى عشر سنين من ملكه ، ظهرت الفرس ، فغلبت على « بابل » وأمدوا فارس ، وتملك أزدشير بن ساسان بابل من أهل أصطخر ، وهو أول ملك مَلَكَ على فارس فى المرة الثانية .

قال : ومات قموذوس قيصر ملك الروم ، وملك بعده قيصر آخر ثلاثة أشهر أخر ، وملك بعده برومية « سويرس » قيصر سبع عشرة سنة ، وذلك فى أربع سنين من ملك أزدشير .

وكان هذا الملك شديداً ، قد أثار على النصارى بلاء عظيما ، وعذاباً كبيراً ، وقتل كل عالم منهم ، وقتل خلقاً كثيراً ، واستشهد فى أيامه خلق كثير من النصارى فى كل موضع ، ثم قتل كل من كان بمصر والإسكندرية من النصارى ، وهدم الكنائس ، و بنى بالإسكندرية هيكلا ، وسماه هيكل الآلهة .

وملك بعده قيصر وهو «أنطونيوس» الأصلع ست سنين ، وملك بعده قيصر

آخر ثلاث عشرة سنة ، كانت النصارى فى أيامه فى هدوء ، وسلامة ، وكانت أمه تحب النصارى .

وفى أيامه سمى بطرك الإسكندرية « بابا » (أى الجد) وملك بعده قيصر آخر ثلاث سنين .

وهذا أثار على النصارى بلاء طويلا وحزنا عظيما ، وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وأخذ الناس بعبادة الأصنام ، وقتل من الأساقفة خلقاً كثيراً ، وقتل بترك أنطاكية

فلما سمع أسقف بيت المقدس بقتله ، هرب وترك الكرسى .

قال : ومات قيصر هذا فى السنة الثانية من ملك بهرام بن هرمز ، وملك بعده قيصر آخر ثلاثة أشهر ، ثم بعده آخر أربع سنين ، واسمه « عزدمانوس » وفى ثلاث سنين من ملكه مات بهرام بن هرمز ، وملك بعده بهرام ابن بهرام على الفرس تسع عشرة سنة .

وفى أيامه ظهر رجل فارسى يقال له « مانى » فأظهر دين المانية ، وزعم أنه نبى .

فأخذه بهرام بن بهرام ملك الفرس فشقَّه نصفين ، وأخذ من أصحابه وممن يقول بقوله مائتى رجل ، فغرس رءوسهم فى الطين منكسين حتى ماتوا منكسين .

وملك بعد قيصر هذا « فيلبس » قيصر على الروم برومية سبع سنين ، وآمن بالسيد المسيح ، ووثب عليه قائد من قواده فقتله .

ثم ملك بعده قيصر آخر اسمه « ذاقنيوس » وهو « دقيانوس » وذلك من عشر سنين من ملك بهرام بن بهرام ، فلقى النصارى منه حزناً طويلاً ، وعذاباً شديداً ، وقتل منهم من لا يحصى ، واستشهد فى أيامه من الشهداء خلق كثير ، وقتل بطرك رومية .

ثم خرج إلى مدينة أفسس فبنى فى وسطها هيكلاً عظيماً ، وصيَّر فيه الأصنام وأمر أن يسجد للأصنام ، و يذبح لها ، ومن لم يفعل ذلك قتل .

فقتل من النصارى بأفسس خلقاً عظيماً وصلبهم على الحصن واتخذ من أولاد عظماء « أفسس » سبعة غلمان من خواصه وعلى كسوته وقدمهم على جميع من عنده وذكر أسماءهم ، أسماء أصحاب الكهف .

قال : وهؤلاء السبعة الغلمان لم يسجدوا للأصنام ، فأعلموا الملك بخبرهم ، فأمر بحبسهم .

ثم خرج إلى بعض المواضع وأطلق سبيلهم إلى حين رجوعه .

فلما خرج من المدينة ، أخذ الغلمان كل ما لهم فتصدقوا به ، ثم خرجوا إلى جبل عظيم يقال له « جاوس » شرقىّ « أفسس » فيه كهف كبير ، فاختفوا فى الكهف ، فكان واحد منهم فى كل يوم يتنكر و يدخل المدينة ، فيسمع ما يقول الناس فى شأنهم و يشترى لهم طعاماً و يرجع ، فيعلمهم بقدوم «دقيانوس» الملك ، فسأل عنهم فقيل له : إنهم فى جبل جاوس فى الكهف مختفين .

فأمر الملك أن يبنى باب الكهف عليهم ليموتوا ، وصب الله عليهم النعاس فناموا كالأموات .

وأخذ قائد من قواده صفيحة من نحاس ، وكتب فيها خبرهم وقصتهم مع دقيانوس الملك ، وصيَّر الصفيحة فى صندوق نحاس ودفنه داخل الكهف ، و بنى الكهف .

ومات الملك دقيانوس قيصر ، وملك بعده قيصران برومية سنتين ، ثم قيصر آخر اسمه « غنيونوس » خمس عشرة سنة ، وملك بعده قيصر آخر سنة واحدة ، وذلك من ثلاث سنين من ملك هرمز .

وفى أول سنة من ملك هذا ، صيَّر « بولس » بطركاً على أنطاكية و يسمى « بولوس الشمشاطى » قال : وهو الذى ابتدع دين البوليانية ، فسمى التابعون لدينه والقائلون بمقالته بوليانيين .

قال : وكانت مقالته : أن سيدنا المسيح خلق من اللاهوت إنساناً كواحد

معا فى جوهره ، فإن ابتداء الابن من مريم ، وأنه اصطفى ليـكون مخلصاً للجوهر الإنسى ، صحبته النعمة الإلهية ، فَحَلَّت فيه بالمحبة والمشيئة ، ولذلك سمى : « ابن الله » .

وقال : إن الله جوهر واحد ، وأقنوم واحد ؛ ولا نؤمن بالـكلمة ، ولا بروح القدس .

قال : وبعد موته اجتمع ثلاثة عشر أسقفاً فى مدينة أنطاكية ، ونظروا فى مقالة « بولس » فأوجبوا على هذا الشمشاطى اللعن فلعنوه ، ولعنوا من يقول مقالته وانصرفوا .

قال : وبعده ملك قيصر آخر ست سنين ، اسمه « أوراغوس قيصر » .

قال : وكان النصارى بالإسكندرية فى أيامه يصلون فى المطامير والبيوت فزعاً من الروم ، ولم يكن يظهر بترك بالإسكندرية لئلا يقتلوهم .

فلماصار «نارون» بطركاً ، ظهر ، ولم يزل بدارى الروم حتى بنى بالإسكندرية كنيسة « حنا » و « مار مريم » وملك بعده قيصران ، ثم قيصر اسمه «فاروس» وذلك فى تسع سنين من ملك سابور بن هرمز ، وكان شديداً على النصارى ، فقتل الأخوين قرمان ودميان الشهيدين ، وملك بعده دقيطيانوس .

قال : فمن خراب طيطس لبيت المقدس إلى ملك دقيطيانوس مائتان وست سنين ، ومن مولد سيدنا المسيح إلى دقيطيانوس ، مائتان وست وسبعون سنة ، ومن الإسكندر إلى دقيطيانوس خمسمائة وخمس وتسعون سنة ، ومن سَبْى بابل إلى دقيطيانوس ألف وثلاثمائة وخمس وثلاثون سنة ، ومن داود إلى دقيطيانوس ألف وتسعمائة وإحدى وأربعون سنة .

قال : وملك دقيطيانوس فى إحدى عشرة سنة من ملك سابور بن هرمز ملك الفرس ، وملك معه اثنان ، تملـكا على الروم إحدى وعشرين سنة ، وهؤلاء أثاروا على النصارى بلاء عظيماً ، وحزناً طويلاً ، وعذاباً أليماً ، وشدة

شديدة ، تجل عن الوصف ، من القتل ، والعذاب ، واستباحة الأموال واستشهدوا ألوفاً من الشهداء وعذبوا « ماری جرجس » أصناف العذاب وقتلوه بفلسطين وقتلوا «ماری مینا» و «ماری بقطر» و «أبتاخوس» ، و «مرکورس» وغیرهما .

قال : وفى عشر سنين من ملكهما صير «بطرس» بطركاً على الإسكندرية فأقام عشر سنين ، وقتل .

وفى عشرين سنة من ملكهما ، ضُرِبَ عنق بطرس هذا البطرك بالإسكندرية .

قال : وكان لبطرس تلميذان ، اسم أحدهما « أشلا » والآخر « الأكصندروس » وكان بالإسكندرية رجل يقال له « أريوس » يقول : إن الأب ـ وحده ـ الله الفرد ، و «الابن» مخلوق مصنوع ، وقد كان «الأب» إذ لم يكن الابن .

فقال « بطرس» البطرك لتلميذيه : إن المسيح لعن « أريوس » فاحذرا أن تقبلا قوله ، فإنى رأيت المسيح فى النوم مشقوق الثوب ، فقلت له : يا سيدى ، من شقّ ثوبك ؟ فقال لى : أريوس ، فاحذروا أن تقبلوه ويدخل معكم الكنيسة كنيسة الله .

قال : وبعد قتل بطرس بخمس سنين صير «أشلا» بطركاً على الإسكندرية فأقام ستة أشهر ومات .

وكان « أريوس » قد استعان على « أشلا » بأصدقائه فأورى[1] أنه قد رجع عن تلك المقالة ، فقبله « أشلا » وأدخله الكنيسة وجعله قسيساً .

قال : وأما « دقيطيانوس » الملك ، فكان يطلب النصارى فيقتلهم .

فبينما هو يسير فى طلبهم إذ بلغ إلى موضع يقال له « ملطية » فصب الله عليه نقمته ، فوقع فى علل عظيمة ، وأمراض عظيمة حتى ذاب جسمه ، وكان

(١) قوله : فأورى . الأظهر أن يقال : فورى . من التورية .

الدود يتساقط من بدنه إلى الأرض ، وسقط لسانه من حنكه ومات .

وملك بعده قيصران ، أحدهما المشرق والشام وأرض الروم ، والآخر رومية ونحوها ، وكان أحدهما اسمه « علانيوس » والآخر « مقصطيوس » فكانا كالسباع الضارية على النصارى ، وأثاروا عليهم البلاء والجلاء وما لا يصفه واصف وفعلا بهم ما لم يفعله أحد من الملوك قبلهم .

وملك معهما على بزنطية وما والاها « قسطس » أبو قسطنطين ، وكان رجلاً ديناً مبغضاً للأصنام ، محباً للنصارى .

فخرج «قسطس» إلى ناحية الجزيرة و «الرها» فنزل في قرية من قرى الرها ، يقال لها « كفرجاث » فنظر فيها امرأة حسنة جميلة يقال لها « هيلانة » وكانت قد تنصرت على يدى أسقف الرها ، وتعلمت قراءة الكتب .

فخطبها قسطس من أبيها فزوجه إياها فحبلت منه ، ورجع قسطس إلى بزنطية .

وولدت هيلانة قسطنطين فتربى بـ « الرها » ، وتعلم حكم اليونانيين ، وكان غلاماً حسن الوجه ، قليل الشر ، وديعاً محباً للحكمة .

وأما « علانيوس » فكان رجلاً وحشياً ، شديد البأس ، مبغضاً للنصارى جداً ، كثير القتل لهم ، محباً للنساء ، ولم يترك للنصارى بنتاً بكراً إلا أخذها وأفسدها وقتلها ، وكذلك أصحابه، هكذا كانوا يفعلون بالنصارى،وكان النصارى في شدة شديدة جداً معهم .

وبلغه خبر « قسطنطين » وأنه غلام هاد ، قليل الشر ، كثير العلم والخير . وأخبره الحكماء الذين له والمنجمون أن « قسطنطين » سيملك ملكاً عظيماً فهمّ بقتله .

وعلم « قسطنطين » بذلك ، فهرب من الرها ، وذهب إلى مدينة «بزنطية» ووصل إلى أبيه « قسطس » فسلم إليه الملك .

وبعد قليل مات « قسطس » وصبّ الله على « علانيوس » الملك عللا عظيمة ، حتى تقطع لحمه وتهرّأ ، وبقى مطروحاً لا يقدر أحد أن يقترب منه .

فعجب الناس مما ناله ، ورحمه أعداؤه مما حلّ به .

فرجع إلى نفسه وقال : لعل هذا الذى بى مما أقتل النصارى .

فكتب إلى جميع عماله أن يطلقوا النصارى من الحبوس ، وأن يكرموهم ولا يؤذوهم ، ويسألونهم أن يدعوا له فى صلاتهم .

فصلى النصارى على الملك ودعوا له ، فوهب الله له العافية ورجع إلى أفضل مما كان عليه من الصحة والقوة .

فلما صح وقوى ، رجع إلى شر مما كان عليه من الردى .

وكتب إلى جميع عماله أن يقتلوا النصارى ولا يعيش فى مملكته نصرانى ، ولا يسكنوا مدينة ولا قرية له .

فمن كثرة القتلى ، كانوا يحملون على العجل، ويرمون بهم فى البحار والصحارى

وقتل « مارجرجس » وأخاه بمدينة « قباذوقيه » وهما من أهلها ، وقتل « بربارة » وذكر حرباً جرت بينه وبين سابور ، لما تنكر سابور ، وجاء إليه متنكراً وعرفه .

قال : وأما مقسطيوس ، فكان شريراً على أهل « رومية » واستعبد كل من كان برومية وخاصة النصارى ، فكان ينهب أموالهم ، ويقتل رجالهم ونساءهم وصبيانهم .

فلما سمع أهل رومية بملك « قسطنطين » وأنه مبغض للشر ، محب للخير ، وأن أهل مملكته معه فى هُدُوّ وسلامة ، كتب رؤساء رومية إلى قسطنطين يسألونه ويطلبون إليه أن يخلصهم من عبودية « مقسطيوس » عدو الله .

فلما قرأ كُتُبَهُمْ اغتَمّ غمّاً شديداً ، وبقى متحيراً ، لا يدرى كيف يصنع .

فبينما هو متفكر ، إذ ظهر له من نصف النهار فى السماء صليب من

كواكب تضىء ، مكتوباً حوله (بهذا تغلب) .

فقال لأصحابه : رأيتم ما رأيت ؟ قالوا : نعم .

فآمن من ذلك الوقت بالنصرانية وذلك لست سنين من بعد موت أبيه .

فتجهز قسطنطين ، واستعد لمحاربة مقسطيوس ملك رومية ، وعمل صليباً كبيراً من ذهب ، وصيره على رأس البند ، وخرج يريد مقسطيوس .

فلما سمع مقسطيوس ، أن قسطنطين قد وافاه لمحاربته ، استعد لحربه ، وعقد جسراً على النهر الذى قدام رومية ، وخرج مع جميع أصحابه يحارب قسطنطين .

فأعطِىَ قسطنطين النصرة عليه ، فقتل من أصحاب مقسطيوس مقتلة عظيمة ، وهرب مقسطيوس ، وغرق هو وأصحابه حتى امتلأ البحر — وهو النهر الذى عند رومية — غرقى وقتلى .

وخرج أهل رومية إلى قسطنطين بالإكليل الذهب وكل أنواع اللهو واللعب ، فلقوا قسطنطين وفرحوا به فرحاً عظيماً .

فلما دخل المدينة أمر أن تدفن أجساد النصارى الشهداء المصاليب ، وكل من كان من النصارى هرب أو نفاه مقسطيوس يرجع إلى بلده وموضعه ، ومن أخذ له شىء ردّ إليه .

وأقام أهل رومية سبعة أيام يُعَيِّدُونَ المَلِكَ وللصليب ويفرحون .

فلما سمع الخبر « علانيوس » جمع ما قدر عليه وتجهز لقتال قسطنطين .

فلما عاينه ، انهزموا من بين يديه وأخذهم السيف ، وقتل منهم مقتلة عظيمة .

ومنهم من أُسِرَ ، ومنهم من استأمن .

وأفلت علانيوس عرياناً فلم يزل يتقرى موضعاً موضعاً حتى وافى مدينته ، فجمع الكهنة والسحرة والعرافين الذين كان يحبهم ويقبل منهم ، فضرب أعناقهم لئلا يقعوا فى يد قسطنطين .

وصيَّر الله على علانيوس ناراً فى جوفه حتى كانت أحشاؤه تتقطع من الحر

الذى كان يجده فى جوفه ، وسقط على الأرض وتهرّأ لحمه على عظمه ومات .

وملك قسطنطين الدنيا فى هُدوّ وسلامة ، وذلك فى إحدى وأربعين سنة من ملك « سابور » بن هرمز ، ملك الفرس .

قال : وتنصر قسطنطين فى مدينة يقال لها « فيقوميذيا » وذلك فى اثنى عشرة سنة من ملكه ، وأمر ببناء الكنائس فى كل بلد ، وأن يخرج من بيت المال الخراج مما يعمل به أبنية الكنائس .

قال : وفى خمس سنين من ملكه ، صيّر « الإكصندروس » بطريركا على الإسكندرية ، وهو تلميذ بطركها بطرس الذى قتل ، وهو رفيق « أشلا » فأقام ست عشرة سنة. وفى خمس عشرة سنة من رياسته ، كان الجمع بمدينة « نيقية » الذى رتبت فيها الأمانة الأرتدكسية .

فمنع الأكصندروس بترك الإسكندرية أريوس من دخول الكنيسة ولعنه وقال : إن أريوس ملعون ، لأن بطرس البترك قبل أن يستشهد قال لنا : إن الله لعن أريوس فلا تقبلوه ولا تدخلوه الكنيسة .

وكان على مدينة « أسيوط » من عمل مصر ، أسقف يرى رَأْيَ أريوس ، فلعنه أيضاً .

وكان بالإسكندرية هيكل عظيم كانت « كلاوبطرة » الملكة بنته على اسم زحل ، وكان فيه صنم من نحاس عظيم يسمى « ميكائيل » وكان أهل الإسكندرية ومصر فى اثنى عشر يوما من شهر « هتور » وهو« تشرين الثانى» ، يُعَيِّدون لذلك الصنم عيداً عظيماً ، ويذبحون الذبائح الكثيرة .

فلما صار هذا بطركا على الإسكندرية وظهرت النصرانية ، أراد أن يكسر الصنم ويبطل الذبائح .

فامتنع عليه أهل الإسكندرية ، فاحتال لهم بأن قال : إن هذا صنم لا منفعة فيه ولا مضرة ، فلو صيرتم العيد لميكائيل الملاك ، وجعلتم هذه الذبائح له ، كان

أنفع لكم عند الله ، وكان خيراً لكم من هذا الصنم فأجابوه إلى ذلك .

فكسر الصنم ، وأصلح منه صليباً وسمى الهيكل « كنيسة ميكائيل » وهى الكنيسة التى تسمى قيسارية ، احترقت بالنار وقت موافاة الجيوش من المغاربة القرامطة ، مع المسمى أبو عبيد الله ، وكان معه أمير من أصحابه يسمى حباسة ، وذلك فى خلافة المعتضد بالله .

وكان عامله على مصر يومئذ ، مولاه المعروف « بتكين الحاجب » رجل تركى فنفر إلى المغاربة ، وجاءه مدد من الشرق مع الخادم الملقب بـ « مونس » الأستاذ .

فهرب منه أبو عبيد الله وحباسة وجنودهما وصير العيد لميكائيل الملاك والذبائح .

وإلى اليوم القبط بمصر والإسكندرية يُعَيِّدُون فى هذا اليوم عيد ميكائيل الملاك ، ويذبحون فيه الذبائح الكثيرة ، وكذلك الملكية يُعَيِّدون فى هذا اليوم عيد ميكائيل الملاك ، وصار رسما إلى اليوم .

قال : فلما منع بترك الإسكندرية « أريوس » من دخول الكنيسة ولعنه ، خرج أريوس مستعديا عليه ، ومعه أسقفان ، فاستغاثوا إلى قسطنطين الملك .

وقال : أريوس : إنه تعدى علىَّ وأخرجنى من الكنيسة ظلماً .

وسأل الملك أن يشخص « الأ كصندروس » بطرك الإسكندرية ليناظره قدام الملك .

فوجَّه قسطنطين برسول إلى الإسكندرية فأشخص البطرك ، وجمع بينه وبين « أريوس » ليناظره فقال قسطنطين لأريوس : اشرح مقالتك .

قال أريوس : أقول: إن الأب كان إذ لم يكن الابن، ثم الله أحدث الابن ، فكان كلمة له إلا أنه محدث مخلوق ، ثم فوَّض الأمر إلى ذلك الابن المسمى

« كلمة » فكان هو خالق السموات والأرض وما بينهما كما قال فى إنجيله » إذ يقول : « وهب لى سلطاناً على السماء والأرض » فكان هو الخالق لها بما أعطى من ذلك .

ثم إن الكلمة تجسدت من مريم العذراء ومن روح القدس ، فصار ذلك مسيحاً واحداً .

فالمسيح الآن معنيان ١ : ــ كلمة و ٢ : ــ جسد ، إلا أنهما جميعاً مخلوقان .

قال : فأجابه عند ذلك بطرك الإسكندرية وقال : تخبرنا الآن ، أيما أوجب علينا عندك ، عبادة من خلقنا أو عبادة من لم يخلقنا ؟

قال : أريوس ، بل عبادة من خلقنا .

قال له البطرك : فإن كان خالقنا الابن كما وصفت ، وكان « الابن » مخلوقا ، فعبادة الابن المخلوق أوجب من عبادة الأب الذى ليس بخالق ، بل تصير عبادة الأب الخالق للابن كفرا ، وعبادة الابن المخلوق إيمانا ، وذلك من أقبح الأقاويل .

فاستحسن الملك وكل من حضر مقالة البطرك ، وشنّع عندهم مقالة أريوس ، ودار بينهما أيضاً مسائل كثيرة .

فأمر قسطنطين للبطرك الأكصندروس أن يلعن « أريوس » وكل من قال بمقالته .

فقال له : بل يوجه الملك فيشخص البطاركة والأساقفة حتى يكون لنا مجمع ، ونضع فيه قضية ، ونلعن أريوس ، ونشرح الدين ونوضحه للناس .

فبعث « قسطنطين » الملك إلى جميع البلدان ، فجمع البطاركة والأساقفة .

فاجتمع فى مدينة « نيقية » بعد سنة وشهرين ، ألفان وثمانية وأربعون أسقفا ، وكانوا مختلفى الآراء مختلفى الأديان .

فنهم من يقول : المسيح ومريم إلهان من دون الله ، وهم المريمانية ، ويسمون المريميين .

ومنهم من كان يقول : إن المسيح من الأب ، بمنزلة شعلة نار تعلقت من شعلة نار ، فلم تنقص الأولى لإيقاد الثانية منها ، وهى مقالة « سباريئون » وأشياعه .

ومنهم من كان يقول : لم تحبل مريم لتسعة أشهر ، وإنما مرّ نور فى بطن مريم كما يمر الماء فى الميزاب ، لأن « كلمة الله » دخلت من أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها ، وهى مقالة « اليان » وأشياعه .

ومنهم من كان يقول : إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت ، كواحد منا فى جوهره ، وأن ابتداء الابن من مريم ، وأنه اصطُفِيَ ليكون مخلصاً للجوهر الإنسى ، صحبته النعمة الإلهية فحلّت فيه بالمحبة والمشيئة ، فلذلك سُمِّيَ « ابن الله » ويقولون : إن الله جوهر واحد ، وأقنوم واحد يسمونه بثلاثة أسماء ، ولا يؤمنون بالكلمة ، ولا بروح القدس ، وهى مقالة « بولص الشمشاطى » بطرك أنطاكية وأشياعه ، وهم البوليانيون .

ومنهم من كان يقول بثلاثة آلهة ، لم يزل صالح وطالح وعدل بينهما ، وهى مقالة « مرقيون » وأشياعه .

وزعموا أن « مرقيون » رئيس الحواريين ، وأنكروا « بطرس » السليح .

ومنهم من كان يقول : ربنا هو المسيح ، وهى مقالة بولس الرسول ، ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا .

قال : فلما سمع قسطنطين الملك مقالاتهم ، عجب من ذلك وأخلى لهم داراً ، وتقدم لهم بالإكرام والضيافة ، وأمرهم أن يتناظروا فيما بينهم لينظر من معه الحق فيتبعه .

فاتفق منهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً على دين واحد ورأى واحد ، فناظروا بقية الأساقفة المختلفين وأفلجوا عليهم حججهم وأظهروا الدين المستقيم ، وكان أيضاً باقى الأساقفة مختلفى الأديان والآراء .

وصنع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً، مجلساً خاصاً عظيماً، وجلس في وسطه، وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفعها إليهم وقال لهم: قد سلطتكم اليوم على المملكة لتصنعوا ما بدا لكم، لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين.

فباركوا على الملك وقلدوه سيفه، وقالوا له: أظهر دين النصرانية وذُبَّ عنه.

ووضعوا له أربعين كتاباً، فيها السنن والشرائع، وفيها ما يصلح أن يعمل به الأساقفة وما يصلح للملك أن يعمل بما فيها.

وكان رئيس المجمع والمقدم فيه الأكصندروس بطريرك الإسكندرية، وبطرك الأنطاكية، وأسقف بيت المقدس.

ووجه بطرك رومية من عنده رجلين، فاتفقوا على نفي «أريوس» بأسره ولعنوه، وكل من قال مقالته، ووضعوا الأمانة وثبتوا أن الابن مولود من الأب قبل كون الخلائق، وأن الابن من طبيعة الأب غير مخلوق.

واتفقوا على أن يكون فصح النصارى في يوم الأحد الذي يكون بعد فصح اليهود، وأن لا يكون فصح اليهود مع فصح النصارى في يوم واحد، وثبتوا ما وضعه من تقدم ذكره من حساب الصوم والفصح وأن يكون فطر النصارى يوم فصحهم يوم الأحد الذي يكون بعد فصح اليهود.

لأن النصارى - كما قلنا من قبل - كانوا إذا عيَّدوا عيد الغطاس - وهو عيد الغطاس - صاموا من الغد أربعين يوماً ويفطرون.

فإذا كان عيد اليهود عيَّدوا معهم الفصح، فصيروا يوم الفصح للفطر، ومنعوا أن يكون للأسقف زوجة، وذلك أن الأساقفة منذ وقت الحواريين إلى مجمع الثلاثمائة وثمانية عشر كان لهم نساء، لأنه كان إذا صُيِّرَ واحد أسقفاً، وكانت له زوجة، تبيت معه ولم تتنحَّ عنه، ما خلا البطاركة، فإنه لم تكن لهم نساء، ولا كانوا أيضاً يُصيِّرون أحداً بطركاً له زوجة.

قال : وانصرفوا مكرّمين محظوظين ، وذلك فى سبع عشرة سنة من ملك « قسطنطين » .

قال : وسن قسطنطين الملك ثلاث سنن . إحداها : كسر الأصنام وقتل كل من يعبدها.

والثانية: أن لايثبت فى الديوان إلاأولاد النصارى ، ويكونون أمراء وقواداً.

والثالثة : أن يقيم الناس جمعة الفصح والجمعة التى بعدها ، لا يعملون فيها عملا ، ولا يكون فيها حرب .

قال : وتقدم قسطنطين إلىّ أسقف بيت المقدس أن يطلب موضع المقبرة والصليب ، و يبنى الكنائس ، و يبدأ ببناء القيامة المقدسة .

فقالت « هيلانة » أم قسطنطين الملك : إنى نذرت أن أصير إلى بيت المقدس ، فأطلب المواضع المقدسة فأبنيها . فدفع الملك إليهاأموالاً كثيرة جزيلة .

وسارت إلى بيت المقدس مع أسقف بيت المقدس ، فلما وصلت ، لم يكن لها حرص ولا همة ، إلا طلب الصليب .

فجمعت اليهود والسكان فى بيت المقدس ، واختارت منهم عشرة ، ومن العشرة ثلاثة ، كان واحد منهم يقال له « يهوذا » فسألتهم أن يدلوها على موضع الصليب فامتنعوا وقالوا : ليس عندنا علم منه ولا خبرة بالموضع

فأمرت بهم فطرحتهم فى جُبٍّ ليس فيه ماء . فأقاموا سبعة أيام لم يطعموا ولم يسقوا . فقال أحدهم ــ الذى اسمه يهوذا ــ لصاحبيه : إن أباه عرفه بالموضع الذى تطلب هذه المرأة ، و إن جده عرّف أباه .

فصاح الاثنان من الجب : أخرجونا حتى نعلم الملكة بحال هذا الرجل .

فأخرجوهم ، فأخبروا الملكة بما قال لهما «يهوذا» فأمرت بضربه بالسياط ، فأقرّ أنه يعرف الموضع فخرج حتى جاء إلى الموضع الذى فيه المقبرة والأقرانيون ، وكانت مزبلة عظيمة هنالك ، فصلّى وقال : اللهم إن كان فى هذا الموضع المقبرة

فأسألك أن تزلزل المكان، وتخرج منه دخاناً حتى يؤمن، فزلزل الموضع وخرج منه دخان كما سأل فآمن .

فأمرت «هيلانة» بكنس الموضع من التراب ، فظهرت المقبرة والأقرانيون ، ووجد ثلاثة صلبان . قالت « هيلانة » : كيف لنا أن نعلم بصلب السيد المسيح ؟ وكان بالقرب منهم عليل شديد العلة ، قد يئس منه ، فوضع الصليب الأول عليه والثانى والثالث ، فقام المريض وليس به شيء يكره .

فعلمت « هيلانة » أنه الصليب الذى لسيدنا المسيح ، فجعلته فى غلاف من ذهب ، وحملته معها ، وجعلته بما تقدر عليه ، وأظهرت كل ما كان مدفوناً من آثار سيدنا المسيح ، وحملته إلى ابنها « قسطنطين » وبنت كنيسة القيامة فى موضع الصليب والأقرانيون وكنيسة قسطنطين ، وانصرفت . وأمرت أسقف بيت المقدس أن يبنى باقى الكنائس ، وذلك فى اثنين وعشرين سنة من ملك قسطنطين

قال : فمن ميلاد سيدنا المسيح إلى أن وجد الصليب ، ثلاثمائة وثمانية وعشرون سنة ، وذكر أنه بعد هذا اجتمعوا بمجمع عظيم ببيت المقدس .

وكان معهم رجل قد دعته بطرك القسطنطينية وجماعة معه ليسألوا بطرك الإسكندرية وكان هذا الرجل لما رجع إلى الملك أظهر أنه مخالف لأريوس وكان يرى رأيه ويقول بمقالته . فقام هذا الرجل واسمه « مانيوس » فقال : إن أريوس لم يقل إن المسيح خلق الأشياء ولكن قال : به خلقت الأشياء لأن « كلمة الله » التى بها خلق السموات والأرض وإنما خلق الله الأشياء بكلمته ، ولم تخلق الأشياء كلمته كما قال سيدنا المسيح فى الإنجيل المقدس « كل بيده كان ، ومن دونه لم يكن شيء » فقال : به كانت الحياة والحياة نور البشر ، وقال فى العالم والعالم به تكون ، فأخبر أن الأشياء به تكونت ولم يخبر أنها كونت له . قال : فهذه كانت مقالة «أريوس» . ولكن الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً تعدوا عليه وظلموه وحرموه ظلماً وعدواناً .

فردّ عليه بطرك الإسكندرية وقال : أما أريوس فلم يكذب عليه الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً ولاظلموه ، لأنه إنما قال : إن «الابن» خالق الأشياء دون الأب.

وإذا كانت الأشياء إنما خلقت بالابن دون أن يكون الأب لها خالقا فقد يجب أن يكون ما خلق منها شيئاً ، وفى ذلك تكذيب للمسيح قوله : « الأب يخلق وأنا أخلق » وقال : « إن أنا لم أعمل عمل أبى فلا تصدقونى » وقال : « كما أن الأب يحيى من يشاء ويميته ، كذلك الابن يحيى من يشاء ويميته » .

فدل على أنه يحيى ويخلق ، وفى هذا تكذيب لمن زعم أنه ليس بخالق ، وإنما خلقت به دون أن يكون خالقاً له . وأما قولك : إن الأشياء كونت به ، فإنا لما كنا لا نشك أن المسيح حىّ فعال ، وكان قد دل بقوله : « إنما أفعل الخلق والحياة » كان قولك : « به كونت الأشياء » إنما هو راجع فى المعنى إلى أنه كوّنها فكانت به مُكَوَّنة . ولو لم يكن ذلك كذلك لتناقض القولان .

قال : ورد عليه أيضاً فقال : « أما قول من قال من أصحاب « أريوس » : إن الأب يريد الشيء فيكوّنه الابن ، والإرادة للأب ، والتكوين للابن » فإن ذلك يفسد أيضاً ، إذ كان الابن عنده مخلوقاً فقد صار حظ المخلوق فى الخلق أوفى من حظ الخالق فيه ، وذلك أن هذا أراد وفعل ، وذاك أراد ولم يفعل ، فهذا أوفر حظاً فى فعله من ذاك ، ولا بد لهذا أن يكون فى فعله لما يريد ذلك ، بمنزلة كل فاعل من الخلق لما يريد الخالق منه ، ويكون حكمه كحكمه فى الجبر والاختيار . فإن كان مجبوراً فلا شيء له فى الفعل ، وإن كان مختاراً فجائز أن يطاع ، وجائز أن يعصى ، وجائز أن يثاب ، وجائز أن يعاقب ، وهذا أشنع فى القول .

قال : ورد عليه أيضاً وقال : إن كان الخالق إنما خلق خلقه بمخلوق ، فالمخلوق غير الخالق بلا شك ، فقد زعمتم أن الخالق يفعل بغيره ، والفاعل بغيره محتاج إلى متمم ليفعل به ، إذ كان لا يتم له الفعل إلا به ، والمحتاج إلى غيره منقوص والخالق يتعالى عن هذا كله .

قال : فلما دحض بطرك الإسكندرية حجج أولئك المخالفين ، وظهر لمن حضر بطلان قولهم ، تحيروا وخجلوا ، فوثبوا على بطرك الإسكندرية فضربوه حتى كاد يقتل ، فخلصه من أيديهم ابن أخت قسطنطين ، وهرب بطرك الإسكندرية المحتج على أصحاب « أريوس » وصار إلى بيت المقدس من غير حضور أحد من الأساقفة. ثم أصلح دهن «الميرون» ، وقدس الكنائس ومسحها بدهن الميرون وسار إلى الملك فأعلمه بالخبر فصرفه الملك إلى الإسكندرية .

فصـــــل

قال : وأمر الملك أن لا يسكن يهودى بيت المقدس ولا يجوز بها ، ومن لم يتنصر يقتل ، فتنصر من اليهود خلق كثير ، وظهر دين النصرانية .

فقيل لقسطنطين الملك : إن اليهود يتنصرون من فزع القتل وهم على دينهم .

قال الملك : كيف لنا أن نعلم ذلك منهم ؟

قال بولس البترك : إن الخنزير فى التوراة حرام ، واليهود لا يأكلون لحم الخنزير . فأمُرْ أن تذبح الخنازير وتطبخ لحومها وتطعمهم منها ، فمن لم يأكل منه علمنا أنه مقيم على دين اليهودية .

فقال الملك : إذا كان الخنزير فى التوراة حراماً فكيف يجوز لنا أن نأكل لحم الخنزير ونطعمه الناس ؟

فقال له بولس البترك : إن سيدنا المسيح قد أبطل كل ما فى التوراة ، وجاء بناموس آخر وبتوراة جديدة ، وهو الإنجيل ، وفى إنجيله المقدس أن كل مايدخل البطن ليس بحرام ولا بنجس ، وإنما ينجس الإنسان الذى يخرج من فيه.

وقال بولس الرسول فى رسالته إلى أهل مدينة قورينثيوس الأولى : الطعام للبطن آلته لها ، والبطن للطعام ، وله يلهن ومكتوب فى الأبركسس ـ يعنى أخبار الحواريين ـ أن بطرس رئيس الحواريين كان فى مدينة « يافا » فى منزل رجل دباغ يقال له « سيمون » وأنه صعد إلى المنزل ليصلى وقت ست ساعات من

النهار ، فوقع عليه سُبَاتٌ فنظر إلى السماء قد تفتحت ، وإذا إزار قد نزل من السماء حتى بلغ الأرض .

وفيه : كل ذى أربع قوائم على الأرض من السباع والذئاب وغير ذلك من طير السماء . وسمع صوتاً يقول له : يابطرس ، قم فاذبح وكل .

فقال بطرس : يارب ما أكلت شيئاً نجساً قط ولا وسخاً قط .

فجاء صوت ثانٍ : كل ما طهره الله فليس بنجس .

وفى نسخة أخرى : ما طهره الله فلا تنجسه أنت .

ثم جاءه الصوت بهذا ثلاث مرات ، ثم إن الإزار ارتفع إلى السماء . فعجب بطرس وتحير فيما بينه وبين نفسه .

فبهذا المنظر وبما قال سيدنا المسيح فى إنجيله المقدس أمر بطرس وبولس أن نأكل كل ذى أربع قوائم من الخنزير وغيره من جميع الحيوان حلالاً لنا .

فأمر الملك أن تذبح الخنازير وتطبخ لحومها ، وتقطع صغاراً صغاراً ، وتصير على أبواب الكنائس فى كل مملكته يوم أحد الفُصْح . وكلُّ من خرج من الكنيسة يلقم لقمة من لحم الخنزير ، فمن لم يأكل منه يقتل ، فقتل لأجل ذلك خلق كثير .

قال سعيد: وكان لقسطنطين ثلاثة أولاد، أكبرهم قسطنطين بن قسطنطين ، وذلك حين ملك أزدشير بن سابور بن هرمز على الفرس ، وملك بعده سابور ابن سابور لخمس سنين من ملك قسطنطين .

قال: وفى ذلك العصر اجتمع أصحاب «أريوس» وكل من قال بمقالته إلى الملك قسطنطين ، فحسنوا له دينهم ومقالتهم ، وقالوا : إن الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً الذين كانوا اجتمعوا بنيقية قد أخطأوا وحادوا عن الحق فى قولهم : إن الابن متفق مع الأب فى الجوهر . فتأمر أن لا يقال هذا ، فإنه خطأ . فأراد الملك أن يفعل ذلك .

قال : وفى ذلك العصر ظهر على الأقرانيون ـ وهو الجلجلة ـ نصف النهار صليب من نور ، من الأرض إلى السماء يفوق ضوؤه ضوء الشمس ، فكان يبلغ إلى طور زيتا ، فرأى ذلك كل من كان فى بيت المقدس من كبير وصغير .

فكتب أسقف بيت المقدس إلى قسطنطين بن قسطنطين بالخبر وقال : فى أيام أبيك السعيد ظهر صليب كواكب من السماء فى نصف النهار ، وفى أيامك ظهر أيها الملك على الأقرانيون صليب من نور يفوق نوره نور الشمس فى نصف النهار

وكتب إليه أن لا يقبل قول أصحاب أريوس فإنهم حائدون عن الحق ، كفار قد لعنهم الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً ، ولعنوا كل من يقول بمقالتهم . فقبل قوله .

قال : وفى ذلك الوقت غلبت مقالة « أريوس » على قسطنطينية وأنطاكية ، وبابل ، والإسكندرية .

فسمى التابعون لأريوس والقائلون بمقالته « أريوسيين » مشتقاً من اسمه .

قال : وفى ثانى سنة من ملك قسطنطين ، صير على أنطاكية بطرك أريوسى ثم بعده آخر أريوسى ، ثم بعده آخر منانى ، وصير على قسطنطينية بترك منانى .

قال : فى عشر سنين من ملكه صير على قسطنطينية بطرك ، وكان يقول : روح القدس مخلوقة ، وأقام عشر سنين ومات .

ونقل بعد ذلك بطرك أنطاكية فصير على قسطنطينية ، وكان منانياً .

قال : وأما أهل مصر والإسكندرية فكان أكثرهم أريوسيين ومنانيين . فغلبوا على كنائس مصر فأخذوها ، ووثبوا على بترك الإسكندرية ليقتلوه فهرب منهم واستخفى وصيروا على إسكندرية بتركا منانيا .

وفى ذلك الزمان ، قدم من القسطنطينية إلى الإسكندرية قائد وكان أريوسياً . فنفى الملكى وأقام بطرك أريوسيا

فلما خرج القائد قتل الملكيون ذلك البترك الأريوسى وأحرقوه بالنار .

ومات الملك قسطنطين بن قسطنطين وله فى الملك أربع وعشرون سنة

وملك بعده يوليانوس الملك الكافر على الروم سنين وأراد أن يرد الناس إلى عبادة الأصنام ، وقتل من الشهداء خلقاً .

وفى أول سنة من ملكه وثب الأريوسيون ببيت المقدس على أسقفها الملكى الذى كتب بظهور الصليب ليقتلوه ، فهرب منهم فصيروا أسقفاً أريوسيا .

قال : وفى ثانى سنة من ملكه صير على أنطاكية بطركا على الأمانة ، أقام خمسا وعشرين سنة .

وفى إحدى وعشرين سنة من رياسته ، كان المجمع الثانى بقسطنطينية .

قال : وكان فى عصره أهل مدينة « نيريار » كلهم صابئون ، فوضع أسقف « نيريار » و « أميمرا » فى ميلاد المسيح ويقول فى ابتدائه : السيد ولد مختونا فخذوا المسيح من السماء واستقبلوه على الأرض .

فلما قرأه عليهم ، استهزأوا به ، وأقبلوا يضحكون منه .

فلما كان عيد الجميم وضع « ميمرا » فى عيد الجميم ، هتك فيه دين الصابئين وفضحهم فيه ، ومكن فيه دين النصرانية .

قال : وكان فى عصر يوليانوس الملك الكافر أول راهب سكن برية مصر ، وبنى الديارات ، وجمع الرهبان .

وكان آخر بالشام ، وهو أول من سكن بَرِّيَّة « الأردن » وجمع الرهبان . وبنى الديارات .

قال : وخرج هذا الملك الكافر لقتال « سابور » ملك الفرس .

فلِسُوءِ مذهبه ، ورداءة دينه ، وما أراد أن يأخذ بعبادة الأصنام ، ظفر به ملك الفرس فقتله ، وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة .

وذكر أسقف « قيسارية » أنه كان جالساً فى محرابه ، وحذاؤه لوح ، فيه صورة « مارى مركورس » الشاهد ، فنظر إلى اللوح فلم ير فيه صورة الشاهد فعجب من ذلك إذ غابت ، فلم يكن إلا ساعة ، حتى عادت صورة الشاهد إلى

اللوح ، وفى طرف الحربة المصورة التى فى يد الشاهد شبيه بالدم ، فتعجب من ذلك وبقى متحيراً ، حتى بلغه أن الملك الكافر قتل فى الحرب .

فعلم أن « مارى مركوس » الشاهد قتله ، لشدة بغضه الذى كان للنصارى ، وما كان عزم عليه من عبادة الأصنام .

وذكر بعد هذا جماعة من البتاركة والأساقفة ، كان بعضهم أريوسيا ، وبعضهم منانيا ، وبعضهم ملكيا ، وذكر فتنا بينهم وَتَعَصُّبَ كل طائفة لبتركها ، حتى يقتل بعضهم بعضا ، وينفى بعضهم بعضاً .

وذكر أنه اختلفت آراء النصارى ، وكثرت مقالاتهم ، وغلبت عليهم مقالة « أريوس » وأنهم ملكوا عليهم ملكا اسمه « تذوس » وأن الوزراء والقواد اجتمعوا إليه ، ذاكرين أن مقالات الناس اختلفت وفسدت ، وغلبت عليهم مقالة « أريوس » و « مقدينوس » فينظر الملك فى هــذا ويذب عن النصرانية ، ويوضح الأمانة المستقيمة .

وكتب إلى بطرك إسكندرية ، وأنطاكية ، ورومية ، وأسقف بيت المقدس ، لحضروا مع أساقفتهم بقسطنطينية ، إلا بطرك رومية فإنه كتب وأنفذ بالأمانة المستقيمة .

فاجتمع بقسطنطينية ماية وخمسون أسقفاً ، وكان المقدم البطاركة الثلاثة .

فدفع الملك إليهم كتاب بطرك رومية ، فكان صحيحاً موافقاً ، وكان يزعم أن روح القدس إله ، ولكن مخلوق مصنوع .

فقال بطرك الإسكندرية : ليس روح القدس عندى معنى غير حياته ، فإذا قلنا : إن روح القدس مخلوق ، فقد قلنا : إن حياته مخلوقة ، وإذا قلنا : إن حياته مخلوقة ، فقد زعمنا أنه غير حىّ ، وإذا زعمنا أنه غير حىّ ، فقد كفرنا ، ومن كفر وجب عليه اللعن .

فاتفقوا على لعن مقدونيوس فلعنوه وأشياعه ، ولعنوا البطاركة الذين كانوا

بعده يقولون بقوله ، ولعنوا أسقف لونية وأشياعه ، ولعنوا بوليناريوس وأشياعه ، لأنه كان يقول : إن الأب والابن وجه واحد .

ولعنوا بوليناريوس وأشياعه لأنه كان يقول : إن جسد سيدنا المسيح بغير فعل .

وثبتوا أن روح القدس خالقة غير مخلوقة ، إله حق ، وأن طبيعة الأب والابن جوهر واحد ، وطبيعة واحدة .

وزاد فى الأمانة التى وضعها الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً الذين اجتمعوا فى مدينة نيقية « و بروح القدس المحيي ، المميت ، المنبثق من الأب » .

وثبتوا أن الأب وحده والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم ، ذو ثلاثة وجوه ، وثلاث خواص فى وحدانية واحدة ، وكيان واحدة ، وثلاثة أقانيم إله واحد ، جوهر واحد ، طبيعة واحدة .

وثبتوا أن جسد سيدنا المسيح بنفس ناطقة عقلية .

قال : فمن المجمع الأول إلى هذا المجمع الثانى ، ثمان وخمسون سنة .

قال : وأطلق بطرك الإسكندرية للبطاركة والأساقفة والرهبان ، أكل اللحم من أجل المنانية ، ليعرف المنانى منهم ، لأن المنانية لا يرون أكل اللحم ، ولا شيئاً من الحيوان البتة .

وكان أكثر أساقفة مصر منانية ، فأكل بطاركة مصر وأساقفتهم اللحم .

وأما بطاركة رومية وقسطنطينية وأساقفتها ورهبانها ، فلم يأكلوا اللحم وأكلوا بدل اللحم السمك ، وأقاموه مقام اللحم إذ كان حيوانا .

قال سعيد ابن البطريك : لم يطلق أكل اللحم على أنهم يعتاضون منه بالسمك ، إذ ليس بذبيحة و يمنعون أكل اللحم إذ كان قد أخطأ الذين أقاموا السمك مقام اللحم ، وسيدنا المسيح فقد أكل اللحم ، فوجب ــ ضرورة ــ أكل اللحم ، اقتداء بالسيد المسيح ولو يوما واحداً فى السنة ، ليزيلوا الشك من مذهب المنانية .

قال : وفى الأبركسس مكتوبا ، ما نظره بطرس السليح بـ « يافا » من تنزل السبنية ، وفيها كل ذى أربع قوائم ، ولهذا الحكم كُلٌّ من لم يأكل اللحم مخالف لشريعة النصرانية ، ومضاهٍ لمذهب الصابئة والروم ، وهم لا يغتسلون إلى اليوم ، لأن المنانية لا يرون الغسل بالماء ، فلما طال بهم الزمان أقاموه على هذه السنة .

وقال قوم : إنما تركوا الغسل بالماء لشدة برد بلادهم و برد الماء عندهم ، وأنه لا يتهيأ لهم بالجملة أن يقربوا الماء فى الشتاء ، لثلجه و برده ، فصار سنة جارية ، شتاء وصيفاً .

والمنانية صنفان ، السماعون ، والصديقون .

فالسماعون ، يصومون فى كل شهر أياماً معلومة .

والصديقون ، يصومون الدهر كله ، ولا يأكلون إلا ما نبت من الأرض .

فلما تنصروا خافوا أن يتركوا أكل اللحم فيعلم بهم فجعلوا لأنفسهم صياما ، فصاموا الميلاد والحواريين .

فلما طال بهم الزمان وتربوا فى هذا الصوم ، أكلوا اللحم ، فتبعتهم فى ذلك النساطرة ، واليعاقبة ، والمارونية ، وصارت سنة ، استحسنها الملكية فتبعوهم ، وخاصة المقيمون ببلاد الشام .

وأما الروم فما تركوا أكل اللحم فى أيام صوم الميلاد وصوم الحواريين ، وتلك الأيام التى نظن أنها من جملة الصوم الكبير .

فمن أحب أن يصوم الميلاد والحواريين والسيدة ولا يأكل لحماً ، فليس بواجب وليس لأحد قطع اللحم طول السنة إلا فى صوم الأربعين المقدسة فقط ، ومن فعل بضد ذلك فهو مخالف راجع إلى أصحاب الآراء المختلفة .

قال : وفى ثمان سنين من ملك « تذوس » ظهرت فتية الذين كانوا هربوا من « ذاقيوس » الملك ، واختفوا فى الكهف .

وذلك أن الرعاة ـ على طول الزمان ـ كانوا إذا جازوا بذلك الموضع الذى

هو الـكهف قلعوا الطوب المبنيّ على باب الـكهف حتى عاد مفتوحا كالباب .

فلما انتبهت الفتية توهموا أنهم كانوا نياما ليلة واحدة ، فقالوا لصاحبهم الذى كان يذهب يبتاع لهم الطعام : إمض واشتر لنا طعاما واستعلم خبر « ذاقنوس » .

فلما خرج إلى باب الـكهف نظر إلى البنيان والهدم ، ثم مضى حتى بلغ باب المدينة وهى « أفسس » فرأى باب المدينة عليه صليب كبير منصوب فأنكر ذلك فى نفسه ، وقال : أحسب أنى نائم ، فأقبل يمسح عينيه و ينظر يميناً وشمالا : هل يرى من يعرفه ، فلم ير . فبقى متحيراً وقال : لعلى أخطأت الطريق ولعل هذه مدينة أخرى .

ثم دخل المدينة فدفع دراهم مما كان معه ، عليها صورة «ذاقيوس» الملك ، فأنكر عليه ، وقالوا : لعله أصاب كنزاً ، ثم قالوا : من أين لك هذه الدراهم ، و إلا قتلناك فلم يكلمهم .

وصاح الناس ، فاجتمع إليه خلق كثير وكلموه فلم يكلمهم ، فصاروا به إلى بطريق المدينة وكلمه فلم يتكلم ، فهدده فلم يتكلم ، فجاء إليه أسقف المدينة فكلمه وخوفه وقال : إنك إن لم تكلمنى وتقل لى من أين لك هذه الدراهم و إلا قتلتك .

و إنما كان يمتنع من الـكلام خوفاً من « ذاقيوس » الملك .

فقالوا له : إنه قد مات وملك بعده جماعة ملوك ، فضربوه حتى آلمه الضرب فخبّرهم بحاله على جليتها .

فقالوا له : إن ذاقيوس قد مات وملك بعده ملوك كثيرة ، والملك اليوم « تذوس » الـكبير وقد ظهر دين النصرانية .

ثم سار معهم إلى الـكهف فنظروا إلى أصحابه والصندوق النحاس الذى فيه الصحيفة الرصاص مكتوب فيها قصتهم وخبرهم .

فكثر تعجبهم وكتبوا إلى الملك يعلمونه بخبرهم ، فركب وسار إلى مدينة أفسس فنظر إليهم وكلمهم .

وبعد ثلاثة أيام دخل إليهم فوجدهم أمواتاً ، فأمر أن يتركوا فى الكهف ولا يخرجوا ، ولكن يدفنوا فيه وتبنى عليهم كنيسة ، وتسمى بأسمائهم ويُعيَّدَ لها عيد فى كل سنة فى ذلك اليوم ، وانصرف إلى قسطنطينية .

قال : فمن وقت هرب الفتية من ذاقيوس إلى الكهف إلى الوقت الذى ظهروا فيه وماتوا ، مائة وسبع ، أو تسعة وأربعون سنة .

قلت : هذا مما أخطأ فيه ، فإن الله تعالى أخبر أنهم لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً .

لكن بعض المفسرين ، زعموا أن هذا قول بعض أهل الكتاب لقوله « اللهُ أعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا » وليس كذلك ، فإن الله لم يذكر هذا عن أهل الكتاب ، بل ذكره كلاماً منه تعالى .

قال سعيد : وفى زمنه كانت قصة بترك قسطنطينية « يوحنا » الملقب بـ« فم الذهب » وتولى بعد ابنه « ثذوس » الصغير اثنين وأربعين سنة لإحدى عشرة سنة من ملك « يزدجرد بن بهرام » .

وفى زمنه جعل «نسطورس» الذى تنسب إليه مقالة النسطورية بطركا على قسطنطينية .

قال : وكان نسطورس يقول : إن مريم العذراء ليست بوالدة إلهاً على الحقيقة ، ولذلك كان اثنان .

أحدهما : ـ الذى هو إله مولود من الأب .

والآخر : ـ الذى هو إنسان مولود من مريم ، وأن هذا الإنسان الذى يقول : إنه مسيح بالمحبة ، متوحد مع ابن إله ، ويقال له إله وابن الإله ، ليس بالحقيقة ، ولكن موهبة . واتفاق الاسمين والكرامة شبيهاً بأحد الأنبياء .

فبلغ قوله بطرك الإسكندرية فأنكر ذلك، وكتب إليه يقبح عليه فعله ومقالته، ويعرفه فساد ما هو عليه ويسأله الرجوع إلى الحق، فجرت بينهما رسائل كثيرة، ولم يرجع نسطورس عن مقالته.

فكتب إلى بطرك أنطاكية يسأله أن يكتب إلى نسطورس ويعرفه قبح فعله ورأيه وفساد مقالته، ويسأله الرجوع إلى الحق.

فكتب إلى نسطورس: إن هو لم يرجع اجتمعوا ولعنوه، وجرت بينهما رسائل كثيرة، فلم يرجع.

فكتبوا إلى بطرك رومية وأنطاكية، وبطرك بيت المقدس أن يجتمعوا فى مدينة «أفسس» لينظروا فى مقالة نسطورس.

فاجتمع بالمدينة مايتا أسقف، مقدمهم بطرك إسكندرية، وتأخر بطرك أنطاكية فلم ينتظروه، وبعثوا إلى نسطورس فلم يحضر معهم، فنظروا فى مقالته وأوجبوا عليه اللعن فلعنوه ونفوه، وثبّتوا أن مريم العذراء والدة الإله، وأن المسيح إله حق وإنسان معروف بطبيعتين متوحدة فى الأقنوم.

وهذا هو خلاف المحبة لأن نسطورس كان يقول: إن التحيد (أى الاتحاد) اتفاق الوجهين، وأما التحيد (أى الاتحاد المستقيم) فإنما هو أن يكون أقنوماً واحداً من طبيعتين.

فلما لعنوا نسطورس، قدم يوحنا بطرك أنطاكية، فلما وجدهم قد لعنوه قبل حضوره، غضب وقال: ظلمتم نسطورس ولعنتموه باطلاً وتعصب مع نسطورس فجمع الأساقفة الذين قدموا معه فقطع بطرك إسكندرية وقطع أسقف أفسس.

فلما رأى أصحاب بطرك إسكندرية قبح فعاله وقع بينهم شر عظيم، وخرجوا من أفسس، وصار أصحاب بطرك إسكندرية والمشرقيون حزبين، فلم يزل تذوس الملك حتى أصلح بينهم.

وكتب المشرقيون صحيفة وثبتوا فيها الأمانة الصحيحة؛ وقالوا فيها: إن مريم

العذراء القديسة ولدت إلهاً ربنا يسوع ، الذى هو مع أبيه فى الطبيعة ، ومع الناسوت فى الناسوت ، وأقروا بطبيعتين ووجه واحد ، وأقنوم واحد ، ولعنوا نسطورس ، ووجهوا بالصحيفة إلى بطرك إسكندرية فقبل الصحيفة ، وأجابهم عنها بموافقتهم على ذلك .

وقال قوم : لما قبل صحيفة المشرقيين بدا له ، ولم يقبل طبيعتين ووجهاً واحداً

وقال سعيد بن البطريق : وهم فى ذلك كاذبون ، لأن كتبه تنطق بذلك .

ثم أرسل نسخة صحيفة المشرقيين إلى جماعة من الأساقفة يعلمهم أن المشرقيين رجعوا إلى الإيمان ، وأنهم غير موافقين لنسطورس .

قال : فمن المجمع الثانى إلى المائة والخمسين أسقفاً المجتمعين بمدينة قسطنطين ولعنوا مقدونيوس إلى هذ المجمع المائتين أسقفاً المجتمعين بأفسس على نسطورس ، إحدى وخمسون سنة .

قال : ولما نفى نسطورس صار إلى مصر ، فأقام بضيعة فى صعيد مصر يقال لها « أخميم » ومات ودفن بها .

وكانت مقالته قد اندرست فأحياها من بعده بزمان طويل مطران « نصيبين » فى عصر يوسيطيانوس ملك الروم ، و« قباذ بن فيروز » ملك الفرس ، فبثها بالمشرق ، فلذلك كثر النسطورية بالمشرق ، وخاصة أرض أهل فارس بالعراق والموصل ، ونصيبين ، والفرات ، والجزيرة .

قال سعيد بن البطريق : رأيت أن أرد على النسطورية فى هذا الموضع ، وأبين بطلان قولهم وفساده ، لأن النسطورية فى عصرنا هذا خالفوا قول نسطور القديم ، وزعموا أن نسطور كان يقول : إن المسيح جوهران وأقنومان إله تام بأقنومه وجوهره ، وإنسان تام بأقنومه وجوهره .

وإن مريم ولدت المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ، لأن الأب عندهم ولد إلهاً ولم يلد إنساناً ، ومريم ولدت إنساناً ولم تلد إلهاً .

فيقال لهم : إن كان الأمر على ما تقولون ، فالمسيح مسيحان وابنان ، فمسيح إله، وابن إله ، ومسيح إنسان، وابن إنسان ، لأنه لابد لمريم من أن تكون ولدت المسيح ، أو لم تلده .

فإن كانت ولدته ، فلا بد أن تكون ولاداً روحانياً أو جسمانياً .

فإن كان جسمانياً ، فهو غير الذى ولده الأب ، وذلك يوجب أن يكون مسيحان .

وإن كان روحانياً ، فالمسيح ابن واحد ، أقنوم واحد ، مسيح واحد .

والدليل على ذلك صفيحة الحديد التى تتحد بها النار ، فإنها سيف واحد، تحرق وتمنع ، وتقطع وتضيء .

لا يجوز أن يكون من الجهة الحديدية هى المحرقة المضيئة من غير جهة النار إذ كان ما لم يكن فيه نار من الحديد، غير محرق .

ولا الجهة النارية هى القاطعة المانعة، إذ كان شأن النار الإضاءة والإحراق ، لا القطع .

فقد ثبت بهذا وصح ما تعتقده الملكية من أن المسيح أقنوم واحد ، وبأن زيف قول النسطورية : إن المسيح أقنومان .

قلت : يقال لهذا : إن قول النسطورية والملكية ، وإن كانا باطلين ، فقول الملكية أشد بطلاناً وأعظم كفراً وتناقضاً ، وما ذكره هذا باطل .

أما قوله : لو كان الأمر على ما تقولون ، فالمسيح مسيحان .

فيقال له : هذا إنما يلزم أن لو كان اللاهوت بمجرده يسمى مسيحاً ، فإن النسطورية وافقوهم على باطل ، وهو أن الرب ولد إلهاً ، وهذا باطل .

ولم يقل أحد قط من الأنبياء ، لا فى الإنجيل ولا غيره: إن صفة الله القائمة به مولودة ولا إن الرب له مولود قديم أزلى .

لكن إذا قدر أن الأمر كذلك ، فصفة الله لم يسمها أحد مسيحاً .

فإذا قدر أن اللاهوت والناسوت جوهران أقنومان لا اتحاد بينهما ، لم يلزم أن يكون اللاهوت مسيحاً ، ولا هناك مسيح هو إله ، ولا مسيح هو ابن إله .

وقد تقدم عن نسطور أنه كان يقول : إن هذا الإنسان الذى نقول : إنه مسيح متوحد بالمحبة مع ابن إله ويقال له إله وابن إله ، ليس بالحقيقة .

فقد صرح بأن المسيح هو الإنسان فقط دون اللاهوت ، وأن المسيح ليس بإله ولا ابن إله فى الحقيقة .

فبطل ما ألزمه إياه ، من أنه يلزم أن يكون هنا مسيحان .

وأما قوله : لا بد لمريم من أن تكون ولدت المسيح ، أو لم تلده .

فيقال : بل ولدت المسيح وهو الإنسان ، وهو غير اللاهوت الذى تزعمون أن الأب ولده ، وليس فى ذلك مسيحان ، بل مسيح واحد إنسان مخلوق .

وأيضاً فقوله : فإن كان ولدته فلا بد أن يكون ولاداً روحانياً أو جسمانياً فإن كان روحانياً ، فالمسيح ابن واحد ، أقنوم واحد ، مسيح واحد . تقسيم باطل ، وحجة فاسدة داحضة .

فإن مريم لم تلد ولادة روحانية ، بل خرج الولد من فرجها كما تخرج أولاد النساء من فروجهن ، سواء كانت عذرتها باقية أو لم تكن .

وأما ما ذكره من التمثيل بصفيحة الحديد ، فلو قدر أنه مثل مطابق لم يدل على صحة قولهم ، بل غايته أنه يدل على إمكانه .

فأين الدليل على أن هذا هو الواقع ؟ فليس فيه ما يدل على صحة قول الملكية وفساد قول خصومهم ، فكيف وهو تمثيل غير مطابق ؟

فإن الحديد إذا اتحدت به النار ، كان الحديد قد استحالت عن صفته ، فلم يبق حديداً محضاً ، وليست ناراً محضة ، والخشب وغيره إذا أحرق وصار ناراً ، فليس هو خشباً محضاً ، وليس هو ناراً محضة بسيطة .

فمن شأن الشيئين ـ إذا اتحدا ـ أن يستحيل كل منهما إلى جوهر ثالث وطبيعة ثالثة ، ليست لا هذا ولا هذا ، كالماء واللبن إذا اتحدا ، فإن ذلك يصير جوهراً ثالثاً وطبيعة ثالثة ، لالبناً محضاً ، ولا ماء محضاً ، وكذلك النار مع الحديد أو الخشب أو غير ذلك ، فإن ذلك يصير جوهراً ثالثاً ، ليس حديداً محضاً ولا خشباً محضاً ، ولا ناراً محضة ، لكن الحديد إذا برد فهو حديد ، لكنه تغيرت حقيقته ، فالنار تلينه وتذهب خبثه ، ولا يبقى ـ بعد اتحاده بالنار ـ كما كان قبل ، والخشب يصير فحماً وهو جوهر ثالث ، إذ كان من طبع النار أنها تؤثر فى كل جسد بحسبه ، فتؤثر فى الحديد بحسبه ، وفى الخشب بحسبه .

وكل شيئين اتحدا فإنهما يصيران جوهراً ثالثاً وأقنوما ثالثاً وطبيعة ثالثة .

فإن كان اللاهوت والناسوت قد اتحدا ـ كما زعموا ـ فقد استحالت صفة اللاهوت ، واستحالت صفة الناسوت ، فلم يبق اللاهوت لاهوتاً ، ولا الناسوت ناسوتاً ، بل صارا جوهراً ثالثاً ، لالاهوت ولا ناسوت ، وهم ينكرون هذا القول ، وهو باطل .

فإن رب العالمين لايتبدل ، وتستحيل(١) صفاته بصفات المحدثات ، ولا ينقلب القديم ولا شىء من صفاته محدثاً ، ولا يستحيل القديم الرب الخالق والمخلوق المحدث إلى شىء ثالث .

بل صفات الرب التى لم يزل ولا يزال موصوفاً بها لاتتبدل ، ولا تنقلب ، ولا تستحيل ، فضلا عن أن تستحيل إلى أمر ثالث .

ثم هذا الثالث ، إن كان قديماً خالقاً ، صار هنا خالقان قديمان .

وإن كان مخلوقاً محدثاً ، كان الخالق قد صار مخلوقاً محدثاً ، ومعلوم أن استحالة الخالق إلى خالق آخر أو إلى مخلوق ، ممتنع ظاهر الامتناع .

---

(١) قوله : وتستحيل : هكذا فى الأصل والسياق والسباق يقتضيان أن يقال . لاتستحيل

ومما يوضح هذا ، أن مامثلوا به من الحديدة المحماة بالنار هى جوهر ثالث ، يجرى على نارها مايجرى على حديدها ، فإذا طرقت ، فالتطريق واقع على نارها كما هو واقع على حديدها ، وكذلك إذا مدت ، وكذلك إذا بصق عليها ، وكذلك إذا ألقيت فى الماء .

فإن كان هذا التمثيل مطابقاً ، لزم أن يكون ماحلّ بالناسوت قد حلّ باللاهوت .

فيكون رب العالمين ، هو الذى كان يأكل ويشرب ، ويبول ويتغوط ، وهو الذى صُفِـعَ عندهم ، وبُصِقَ فى وجهه ، وجُعِلَ الشوك على رأسه ، وضُرِبَ بالسياط ، وصُلِبَ ومات ، وتألم ، كما يحكى مثل هذا عن اليعقوبية .

وهذا لازم لـكل من قال بالاتحاد ، حتى النسطورية إن قالوا : إنهما متحدون بالمشيئة ، بمعنى أن مشيئة هذا عين مشيئة هذا .

بخلاف ما إذا قالوا : إن مشيئته موافقة لمشيئته ليست إياها ، ولهذا قال تعالى ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِى إِسْرَائِيلَ : اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّه مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ؟ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ مَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٧٢ ــ ٧٥] فذكر سبحانه وتعالى : أنهما كانا يأكلان الطعام ، لأن ذلك من أظهر الأدلة على أنهما مخلوقان مربوبان ، إذ الخالق أحد الصمد ، لا يأكل ولا يشرب .

وذكر مريم مع المسيح لأن من النصارى من اتخذها إلهاً آخر ، فعبدها كما عبد المسيح .

والذين لايقولون بهذا ، كثير منهم يطلب منها كل مايطلب من الله حتى يقول لها : اغفرى لى وارحمينى ، وغير ذلك . بناء على أنها تشفع فى ذلك إلى ابنها فتارة يقولون : ياوالدة الإله ، اشفعى لنا إلى الإله ، وتارة يسئلونها الحوائج التى تطلب من الله ولا يذكرون شفاعة وآخرون يعبدونها كما يعبدون المسيح .

وقد ذكر سعيد بن البطريق هذا عنهم ، لما ذكر اجتماعهم عند قسطنطين بـ « نيقية » .

قال : وكانوا مختلفى الآراء ، مختلفى الأديان .

فنهم من يقول : المسيح وأمه إلهان من دون الله ، وهم المريمانيون ، ويسمون المريمانية . كذلك قال ابن حزم وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ : يَاعِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قَالَ : سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة : ١١٦ — ١١٧] وهو سبحانه لم يحك هذا عن جميع النصارى بل سأل المسيح سؤالا يقرع به من اتخذه وأمه إلهين من دون الله .

قال ابن البطريق : ويقال للنسطورية أيضاً ، أخبرونا عن الناسوت التى اتحدت بها اللاهوت وسمى مسيحاً : هل هو لم يزل مسيحاً منذ كان فى بطن مريم إلى حين وضعته وأرضعته وشب وصلب وقتل ، أم كان ثلاثين سنة وهو واحد من الناس ، ثم اتحد بعد ذلك اللاهوت بالناسوت فكان مسيحاً ؟ .

فإن قالوا : لم يكن مسيحاً وهو فى بطن مريم ، وإنما ولدت مريم إنساناً

كان ثلاثين سنة وهو واحد من الناس ، ثم اتحد بعد ذلك اللاهوت بالناسوت فكان مسيحاً ، تركوا قولهم وكذبوا الإنجيل و بولص ، وجميع كتب الكنيسة، وخرجوا عن مقالة النصرانية .

و إن قالوا : إن اللاهوت اتحد فى الناسوت عند الحمل وأنه كان مسيحاً وهو محمول ومولود ومرضع إلى أن صلب وقتل ، فقد أقروا أن مريم ولدت إلهاً مسيحاً واحداً ، أقنوما واحداً .

فيقال له : هذا التقسيم يدل على بطلان قول النصارى الذين ابتدعه طوائفهم الثلاثة وغيرهم ، فإن الاتحاد يزعمون أنه كان من حين حملت به مريم ، وأنه كان ينمو قليلا قليلا ، كنمو جسد المسيح ، والاتحاد باطل كما قد قرر غير مرة ، ولو قدر أنه ممكن ، لظهر أثر ذلك .

فإن الله لما كلم موسى من الشجرة ، ظهر من الآيات والعظمة مادل على ذلك .

ولذلك كان إذا كلم موسى يظهر آيات ذلك .

وكذلك ما أخبر به فى التوراة وغيرها من مصاحبته لبنى إسرائيل ، وهو مما ظهر أثره ، و إن لم يكن متحداً ولا حالاً فى شىء من ذلك .

ولما تجلى من طورسينا وأشرق من « ساعير » واستعلن من جبال «فاران» بما أنزله من كتبه ، ظهر آثار ذلك ، و إن لم تكن ذاته متحدة ولا حالّة بفاران ولا طورسينا ، باتفاق الأمم .

فكيف تكون ذاته متحدة بما فى بطن مريم ، أو حالّة فيه ، ولا يظهر أثر ذلك ؟ .

وأيضاً فيقال له : قد يقول النسطورية له : الناسوت كان مسيحاً من حين الحمل ، بمعنى أنه كان طاهراً مقدساً لا بمعنى اتحاد اللاهوت به .

و إن قالوا : المسيح اسم للاهوت والناسوت جميعاً ، فيقال : ليس فى كتب

الأنبياء مايقتضي هذا ، والنسطورية يسلمون ذلك لكن قد يقولون : إن المسيح اسم لهما كما أن الإنسان اسم للروح والجسد .

ثم قد يقال لجسد الإنسان الميت : هذا الإنسان ، فيقال وهو في بطن مريم أمه قبل نفخ الروح فيه : هذا الجنين وهذا الحمل . فكذلك إذا قيل له : مسيح بدون اللاهوت .

وأيضاً فقد تقول النساطرة باقتران اللاهوت من حين الحمل ، ولا يلزم أن يكون قد ولدت إلهاً ، إذا لم يقولوا بالاتحاد ، بل قالوا : هما جوهران أقنومان ، ولدت أحدهما ولم تلد الآخر كما تقول الملكية معهم : إنه صلب أحدهما ولم يصلب الآخر ، ومات أحدهما ولم يمت الآخر ، وتألم أحدهما ولم يتألم الآخر .

فكيف جوز الملكية حين الموت أن يحل الموت والصلب ، والأكل والشرب ، وسائر الأمور البشرية بأحد الجوهرين دون الآخر ، ولم يجوزوا ـ حين الولادة ـ أن تلد مريم أحد الجوهرين دون الآخر ؟ وهل هذا إلا من تناقضهم؟ كقولهم جميعاً : إنه صعد إلى السماء . وقعد عن يمين أبيه مع قولهم : إن اللاهوت مع الناسوت قعد عن يمين الأب .

و يقولون مع ذلك : إن اللاهوت القاعد عن يمين الآخر هو ذلك الآخر ، وهما جوهر واحد ، و إله واحد ، مع قوله : إنه إله حق من إله حق . فمناقضاتهم كثيرة .

ولا ريب أن قول النسطورية أيضاً متناقض . لكن لا يمكن أن نصحح قول الملكية دون قولهم . بل قول الملكية أعظم فساداً وتناقضاً .

فالنسطورية يقولون : الإله لم يولد ولم يصلب .

واليعقوبية يقولون : ولد وصلب .

والملكية يقولون : ولد ولم يصلب .

ومتى جاز أن يولد ، جاز أن يموت ويصلب ، وإن لم يجز أن يصلب ويموت ، لم يجز أن يولد .

فتجويز أحدهما ومنع الآخر ، تناقض .

ويقال للملكية : أنتم تقولون : إن اللاهوت اتحد بالناسوت عند الحمل ، وكان مسيحاً وهو مصنوع ومصلوب وميت ومتألم ، وتقولون : هذا كان بالناسوت دون اللاهوت ، فهذا التناقض من جنس تناقض النساطرة .

قال ابن البطريق . ويقال للنساطرة أيضاً : متى اتحدت الكلمة بالإنسان ؟ أقبل الولادة أم فى حال الولادة ؟

فإن قالوا : قبل الولادة ، قلنا لهم : قبل الولادة ، قبل الحمل ، أو قبل الولادة وهو حمل ؟

فإن قالوا : قبل الولادة وقبل الحمل ، فقد زعموا أنه اتحد قبل أن يكون إنساناً وقبل أن يصور . وقولك: فإن كان ذلك كذلك فسد قول النسطورية : إن القديم اتحد بإنسان جزئى ، لأن الإنسان الجزئى إنما كان إنسانا جزئياً لما صار مصوراً بشرياً .

فيقال له : هذا السؤال لازم للطوائف الثلاثة ، فإنهم يقولون بالاتحاد أعظم من النساطرة .

فإن قيل : هم يقولون : إنه اتحد بإنسان كلى ، كان هذا من أفسد الأقاويل ، فإن المسيح بشر معين جزئى ، يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، لم يكن إنساناً كلياً .

ثم قال : ويلزمهم ، أن يزعموا أن اللاهوت قد كان حل مع الناسوت تسعة أشهر ونحوها من بدء الحمل مقيما معه فى الموضع الذى يحمل فيه الجنين ثم ولدا معاً ، وهذا خلاف قولهم : إن مريم ولدت المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته .

فيقال : قد يقولون : إنه ولد الناسوت دون اللاهوت كما يقول الملكية : إنه صلب الناسوت دون اللاهوت .

وإن كان هذا متناقضاً ، فالنساطرة أقل تناقضاً ، لأن الملكية يقولون : إنهما شخص واحد ، أقنوم واحد ، فقد اتحد أحدهما بالآخر .

فإذا جاز مع هذا أن يفارق أحدهما الآخر فى الأكل والشرب والصلب والموت ، فمن قال : إنهما جوهران أقنومان ، هو أولى أن يقول : ولدت أحدهما دون الآخر .

ثم قال : وإن قالوا : اتحد به وهو حمل صورة تامة .

قلنا لهم : فقد كان الإله حملا قبل الولادة ، وإذا جاز أن يحمل ، جاز أن يولد .

فيقال : هم لا يقولون بأنهما صارا شخصاً واحداً ، أقنوما واحداً ، بل يقولون : جوهران أقنومان وحينئذ فلا يقولون : حملت بإله ، ولا ولدت إلها ، كما لا يقول الملكية : صلب اللاهوت ، ومات اللاهوت ، مع قولهم بأن اللاهوت والناسوت اتحدا .

قال : فإن قالوا : كان الاتحاد فى حال الولادة .

قلنا : فقد ولدت مريم الكلمة إذاً مع الإنسان ، والكلمة عندنا وعندهم إله ، فقد ولدت مريم إلها .

فإن قالوا : نعم ، قلنا : فإذا جاز أن يولد ، فلم لا يجوز أن يكون حملا ؟ فإذا أجازوا ذلك : تركوا قولهم ، وإن لم يجيزوه قلنا : فما الفرق بين أن يكون مولوداً ، وبين أن يكون محمولا ؟ فإن قالوا : ليس الإله مولوداً ، ولم يكن الاتحاد قبل لولادة ، وهو أن يكون محمولا ، ولا فى حال كونه ولداً فى حال الولادة .

قلنا : فهذا نقض قولكم : إن مريم ولدت المسيح ، لأن المسيح - عندكم - ليس هو الإنسان وحده ، ومريم - عندكم - إنما ولدت الإنسان وحده .

وإذا كان المسيح ليس هو الإنسان وحده ، وعندكم إنما ولدت الإنسان وحده قبل الاتحاد ، فإنما ولدت إذاً ، ما ليس بمسيح ، إذ كان إنما كان مسيحا بالاتحاد ، وكان الاتحاد بعد الولادة ، فإنما كان مسيحا بعد الولادة .

فإذا كان هذا - عندكم - فاسداً ، وكانت مريم ولدت المسيح ، فمريم لم تلد الإنسان وحده ، وهذا يوجب أنها قد ولدت الإله مع الإنسان ، ويوجب أن الاتحاد كان قبل الولادة .

قال : فقد تبين زائف ما تعتقده النسطورية ، من أن مريم ولدت المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ، وصح أن مريم ولدت إلها مسيحا واحداً .

قال : ويقال لهم : إذا زعمتم أن المسيح جوهران ، جوهر قديم ، وجوهر محدث ، ثم زعمتم أن مريم ولدت المسيح ، فقد أقررتم أن مريم ولدت هذين الجوهرين اللذين هما المسيح ، وإذا ولدتهما ، وأحدهما إله ، فقد ولدت إلها قديما ، ولا يجوز أن تلد إلا ما كان محمولا ، فهذا يوجب أنها قد كانت حاملة لذلك الإله .

فقد تبين زايف ما تعتقده النسطورية ، أن مريم لم تحمل إلها ، ولم تلده ، وصح ما تعتقده الملكية أن مريم ولدت إلها مسيحا واحداً ، ابنا واحداً ، أقنوما واحداً .

فيقال له : ليس هذا التناقض من النسطورية بأعظم من تناقض الملكية ، فإنهم - مع قولهم باتحاد اللاهوت والناسوت ، وأنهما شخص واحد - يقولون : إن أحدهما كان يأكل ويشرب ، ويصوم ويصلى ويتصرف ، وأنه أخذ وصفع ، ووضع الشوك على رأسه وصلب وألم ، ومات دون الآخر .

فإذا كان قول النسطورية متناقضا ، فقول الملكية أعظم تناقضا ، فإذا منعوا أن تحمل المرأة وتلد الناسوت دون اللاهوت لأجل الاتحاد الذى بينهما ، وجب

أن يمنعوا أن يأكل ويشرب ، ويصلب ويقتل أحدهما دون الآخر لأجل الاتحاد بطريق الأولى .

وكون الصلب والقتل أعظم منافاة للربوبية من حمل مريم به وولادته إياه ، لا يمنع كون كل ذلك ممتنعاً على الله .

ومن جوز عقله أن يكون رب العالمين خرج من فرج مريم وهى بكر ، فقد جعل رب العالمين يخرج من ثقب صغير ، وهذا أعظم ما يكون من الامتناع .

ومن جوز عليه هذا ، جوز عليه أن يخرج من كل ثقب مثل ذلك الثقب وأكبر منه ، وجوز أن يخرج رب العالمين من فم كل حيوان وفرجه ، ومن شقوق الأبواب وغير ذلك من الثقوب .

وإن قالوا : ذاك مكان طاهر ، قيل : أفواه الأنبياء والصالحين أطهر من كل فرج فى العالم ، فيجوز أن يخرج من فم كل نبى وولىّ لله ، ومن أذنه ، ومن أنفه ، فإن هذه الخروق والثقوب أفضل من فروج النساء ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

فهؤلاء النصارى يقولون : إن كون الله مولوداً من فرج مريم ، غير كونه مولودا فى الأزل من الأب ، بل هما ولادتان ، روحانية ، وجسمانية .

وهم إذا طولبوا بتفهيم ما يقولونه وقيل لهم : هذا لا يتصور أن يكون رب العالمين يخرج من ثقب ضيق ، لا فرج ، ولا فم ، ولا أذن ، ولا غير ذلك من الأثقاب ، قالوا : هذا فوق العقل ، واعترفوا بأن هذا لا يتصوره العقل .

فيقال لهم : هذا الكلام لم يقله نبى من الأنبياء ، ولم ينطق نبى من الأنبياء بأن مريم حملت برب العالمين وولدته ، بل ولا نطق نبى من الأنبياء بأن الله مولود ولا شىء من صفاته مولود ، لا علمه ، ولا حياته ، ولا غير ذلك .

ولا نطق نبى من الأنبياء لا المسيح ولا غيره بأن الله اتحد بشىء من المخلوقات .

وليس فى الإنجيل وغيره مما ينقل عن الأنبياء شىء من ذلك ، بل غاية مافيها كلمات مجملة متشابهة كقوله : أنا وأبى واحد ، كما قال الله لمحمد ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ وقوله: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

فإذا قال بعض ملاحدة المسلمين من الشيعة ، أو المتصوفة ، أو غيرهم : إن الله الله اتحد بمحمد) لقوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ كان هذا من جنس قول النصارى .

والآية لم تدل على ذلك ؛ بل مبايعة الرسول مبايعة لله ، لأن الرسول أمر بما أمر الله به ، ونهى عما نهى الله عنه .

فليس فى كلام الأنبياء أن الله ولا شيئاً من صفاته ، مولود الولادة التى يسمونها ولادة عقلية وروحانية ، ولا فى كتبهم أن شيئاً من صفات الله تسمى ابنا لله ، ولا أن اللاهوت ابن الله ، فضلا عن أن ينطقوا بأن الله مولود من امرأة ولادة ، وخرج من فرجها ، فيكون مولوداً ولادة جسمانية .

ولهذا لما تنازعت النصارى فى ذلك لم يكن لمن ادعاه على من نفاه حجة من نصوص الأنبياء ، غاية ما عندهم التمسك بألفاظ متشابهة وتغيير ألفاظ صريحة محكمة ، تبين أن المولود إنما هو بشر .

فإذا قالوا فى الألفاظ المتشابهة : لا نعلم مراد الرسول بها ، كان هذا مما قد يعذرون به ، فإن المتشابهة من النصوص لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم .

فإذا قالو : لسنا من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويله ، كانوا شاهدين على أنفسهم بعدم العلم ، وشهادة الإنسان على نفسه مقبولة .

بخلاف القول الذى تكلموا به هم ، وزعموا أن معناه يدل عليه كلام الأنبياء ، أو يدل عليه العقل ، فإن عليهم أن يبينوا معناه الذى عنوه به ، وعليهم أن يبينوا أنه قد دل على ذلك شرع أو عقل .

فإذا قالوا : نفس الـكلام الذى قلناه لا نتصور معناه . كانوا معترفين أنهم يقولون على الله مالا يعلمون ، وهذا حرام عليهم .

وإن قالوا : إن كلام الأنبياء دل على ذلك ، كان غاية ماعندهم التمسك بالمتشابه ، وحينئذ فيطالبون بتفسير المتشابه ، والجمع بينه وبين المحكم على وجه صحيح معلوم ، وإلا فإذا قالوا : هذا فوق العقل لا نفهمه .

قيل لهم : فدعوا المتشابه لا تحتجون به ، ولا تذكرون له معنى ، تزعمون أنـكم لا تعقلونه .

فمتى ثبت عن الأنبياء قول وقال قوم : إنا لا نفهمه أنهم يصدقون على أنفسهم .

وأما إذا فسروا كلام الأنبياء بقول عبروا به عن مراد الأنبياء وقالوا : هذا مرادهم مع تعبيرهم عنه بعبارات أخرى ، طولبوا بأن يبينوا ذلك المعنى وقيل لهم : إن فهمتم ماقلتموه فبينوه ، وإن لم تفهموه فلا تتـكلموا بلا علم .

قال سعيد بن البطريق : إن أئمة الضلالة ـ أعنى نسطوربوس وأرطيوس وديسقورس وسورس ويعقوب البراذعى وأشياعهم ـ الذين أرادوا أن يقيموا الزيف والمحال ولم يراجعوا إلى خشية الله وزاغوا عن سبيل الحق لسوء رأيهم ، فقد تورطوا فى بحر الضلالة .

وهم ـ جميعا ـ فيما ارتطموا فيه من ضلالتهم يضمرون جهلا منهم باتحاد لاهوت سيدنا المسيح بناسوته ، ويتورط كل واحد منهم فى وجه من وجوه الخلطة ، ويتمسك به .

فقد رأيت أن أوضح وجه الخلطة ، وأبين ذلك لتقف على فساد قولهم : إن من عظيم تدبير الله وكال عدله وجليل رحمته ، أن بعث كلمته الخالقة التى بها خلق كل شىء من جوهره ليست مخلوقة ، ولـكن مولودة منه من قبل كل الدهور ، ولم يكن الله بلا كلمته ولا روحه قط ، ولا كانت الـكلمة بَرِيَّةً منه

قط ولا من روحه الخالقة ولا من جوهره ، فهبطت كلمة الله الخالقة بقوامها القائم الدائم الثابت ، الذى لم يزل ولا يزال ، فالتحمت من مريم العذراء وهى جارية طاهرة مختارة من نسل داود ، اصطفاها الله لهذا التدبير من نساء العالمين ، وطهرها بروح القدس وروحه الجوهرية ، حتى جعلها أهلا لحلول كلمة الله الجوهرية بها ، فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق خلقته لنفسها ، بمسرة الأب وموازرة روح القدس ، خلقاً جديداً من غير نطفة آدمية جرت عليها الخطيئة ، ومن غير مجامعة بشرية ولا انفكاك عذرة ، تلك الجارية المقدسة ، فهو إنسان تام بجسده ونفسه الدموية وروحه الكلمانية التى من صورة الله فى الإنسان وشبهه ، فكانت مسكناً لله فى حلوله واحتجابه للطفها عن جميع ما لطف من الخلائق كلهم .

واعلم أنه لا يرى شىء من لطيف الخلق إلا فى غليظ الخلق ، ولا يرى ماهو لطيف من اللطيف إلا مع ماهو أغلظ منه فيما يظهر لأهل الأثقال من غليظ الخلق .

وإنا وجدنا روح الإنسان العاقلة الكلمانية ألطف من لطيف الخلق ، فلذلك كانت أولى خلق الله بحجاب الله ، فكانت لها حجاباً ولمن هو ألطف منها ، وكانت النفس الدموية لها حجاباً والجسد الغليظ حجاباً .

فعلى هذا ، خالطت كلمة الله الخالقة لنفس الإنسان الكاملة بجسدها ودمها وروحها العاقلة الكلمانية ، وصارت كلمة الله بقوامها قواما لتثليث الناسوت التى كل جوهرها بتقويم قوام كلمة الله إياها ، لأنها لم تخلق ولم تك شيئاً .

ألا نقول من كلمة الله الذى خلقها وكونها لا من شىء لا سبق قبل ذلك فى بطن مريم ولا من شىء كان لها من نطفة ولا من غير ذلك غير قوام الكلمة الخالقة الذى هو أحد التثليث الإلهى ، فذلك القوام معدود معروف مع الناس لما ضم إليه وخلقه له ، التحم به من جوهر الإنسان ، فهو بتوحيد ذلك القوام

الواحد ، قوام لكلمة الله الخالقة ، واحد فى التثليث بجوهر لاهوته ، واحد فى الناس بجوهر ناسوته وليس باثنين ، ولكن واحد مع الأب والروح ، وهو إياه ، واحد مع الناس جميعاً بجوهرين مختلفين ، من جوهر اللاهوت الخالق ، وجوهر الناسوت المخلوق ، بتوحيد القوام الواحد ، قوام الكلمة التى هى الأبن المولود من الله قبل الأدهار كلها ، وهو إياه المولود من مريم العذراء فى آخر الزمان من غير مفارقة من الأب ولا من روح القدس .

قلت : فهذا كلام سعيد بن البطريق الذى قرر به دين النصارى ، وفيه من الباطل ما يطول وصفه . لكن نذكر من ذلك وجوها .

الوجه الأول : ـ قوله : إن من عظيم تدبير الله أن بعث كلمته الخالقة ، التى بها خلق كل شىء من جوهره ليست مخلوقة ولكن مولودة منها ، فهبطت كلمة الله الخالقة بقوامها القائم الدائم ، فالتحمت من مريم العذراء .

فيقال : قد جعلت الكلمة خالقة ، وقلت ـ بعد هذا ـ : ولا كانت الكلمة بَرِيَّة منه ، ولا من روحه الخالقة ، وقلت ـ بعدها ـ : فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق خلقته لنفسها بمسرة الأب وموازرة روح القدس جميعاً ، خلقاً جديداً .

فيقال لهم : أخالق العالم ـ عندكم ـ خالق واحد وهو إله واحد ، أم العالم ثلاثة آلهة خالقون ؟

فإن قالوا : إن الخالق واحد ، وهم ثلاثة آلهة خالقون ، كما أنهم فى كثير من كلامهم يصرحون بثلاثة آلهة ، وثلاثة خالقين ، ثم يقولون : إله واحد ، وخالق واحد .

فيقال : وهذا تناقض ظاهر ، فإما هذا ، وإما هذا .

وإذا قلتم : الخالق واحد ، له ثلاث صفات ، لم تنازعكم فى أن الخالق له صفات ، لكن لا يختص بثلاثة .

فإن قالوا بثلاثة آلهة ، ثلاثة خالقين ، كما قد كثر منهم فى كثير من كلامهم ، بان كفرهم وعظم شركهم ، وبان أن شركهم أعظم من كل شرك فى العالم، فغاية المجوس الثنوية ، إثبات اثنين ، نور ، وظلمة ، وهؤلاء يثبتون ثلاثة .

ثم الأدلة السمعية فى التوراة والإنجيل والزبور وسائر كلام الأنبياء مع الأدلة العقلية المبينة لكون الخالق واحداً ، كثيرة جداً ، لا يمكن حصرها هنا .

وإن قالوا : إن الخالق واحد ، له صفات . قيل لهم : فهذا مناقض لقولكم : إنه بعث كلمته الخالقة ، وقولكم : « ولا كانت الكلمة برية منه ولا من روحه الخالقة » وقولكم : « فهبطت الكلمة الخالقة » وقولكم : « فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق ، خلقته لنفسها بمسرة الأب وموازرة الروح » . فهذا يقتضى أن الكلمة خالقة وأن الروح خالقة ، وأنها خلقت بمسرة الأب الخالق وموازرة الروح الخالقة ، وهذا الخالق هبط ، والأب لم يهبط .

فإذا كان الخالق واحداً له صفات ، لم يكن هنا إلا خالق واحد .

الوجه الثانى : ـ قولكم : « بعث كلمته الخالقة التى بها خلق كل شىء » وقد نطقت الكتب بأن الله يخلق الأشياء بكلامه فيقول لها : « كُنْ فَيَكُونُ » هكذا فى القرآن ، والتوراة وغيرهما .

لكن الخالق هو الله تعالى يخلق بكلامه ، ليس كلامه خالقاً .

ولا يقول أحد قط : إن كلام الله خلق السموات والأرض .

والتوراة كلام الله ، والإنجيل كلام الله ، ولا يقول أحد : إن شيئاً من ذلك خلق السموات والأرض ، ولا يقول أحد : يا كلام الله اغفر لى وارحمنى

فقول هؤلاء : إن كلمته هى الخالقة وإنه خلق بها ، كلام متناقض .

فإنها إن كانت هى الخالقة ، لم تكن هى المخلوق به ، فالمخلوق به ليس هو الخالق .

الوجه الثالث: ـ أن يقال قولكم : «كلمة الله الخالقة» أهى كلام الله كله ، أم هى بعض كلام الله ، أم هى المعنى القائم بالذات القديم الأزلى ، الذى يثبته ابن كلاب ، أم حروف وأصوات قديمة أزلية كما يقوله بعض الناس ، أم هى الذات المتكلمة ؟

فإن كانت هى الذات المتكلمة ، فهى الأب والرب ، وتكون هى الموصوفة بالحياة . فلا يكون هناك كلام مولود ، ولا كلمة أرسلت ولا غير ذلك مما ذكروه وهذا خلاف قولهم كلهم ، فإن الكلمة المتحدة بالمسيح ليست هى الأب عندهم . وإن قالوا : بل هى كلام الله كله .

قيل لهم : فيكون المسيح هو التوراة ، والإنجيل والقرآن وسائر كلام الله . وهذا لا يقولونه ، ولم يقله أحد ولا يقوله عاقل .

وإن قالوا : إنها هى المعنى الواحد القديم الأزلى ، أو الحروف والأصوات القديمة الأزلية .

قيل لهم : هذان القولان ، وإن كانا باطلين ، فإن قلتم بهما ، لزمكم أن يكون المسيح هو كلام الله كله ، فإن هذين ـ عند من يقول بهما ـ هما جميع كلام الله . والتوراة ، والإنجيل وسائر كلام الله ، عبارة عن ذلك المعنى القائم بذات الله ، وهو الحروف والأصوات القديمة القائمة بالذات عند من يقول بهذين .

وإن قلتم : إن المسيح بعض كلمات الله . فحينئذ لله كلمات أخر غير المسيح ، فاجعلوا كل كلمة خالقاً ، كما جعلتم الكلمة المتحدة بالمسيح خالقاً ، إذ كنتم تقولون : «الكلمة هى الخالقة وهى المخلوق بها» فقولوا عن سائر كلمات الله : إنها خالقة مخلوق بها ، وحينئذ فيتعدد الخالق بتعدد كلمات الله .

وإذا كانت كلمات الله لا نهاية لها ، كان للخالق خالقون لا نهاية لهم ، وهذا غاية الباطل والكفر .

وبالجملة أى شىء فسروا به الكلمة تبين به فساد قولهم ، ولكنهم يتكلمون بما لا يفهمونه ، ويقولون الكذب والكفر المتناقض . وإنما عندهم تقليد من أضلهم . كما قال تعالى : ﴿ يا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ ، [المائدة : ٧٧] .

الوجه الرابع : أن يقال لهم : ما لم يعلم بالمعقول، فليس فى المنقول ما يدل عليه ، وأنتم لا تدعون أنكم عرفتموه بالعقل ، لكن بما نقل عن الأنبياء وأنتم قد فسرتم كلمته بعلمه وحكمته ، وروح القدس بحياته ، فمن أى نبي تنقلون أن علم الله وحكمته مولودة منه ، وأنه يسمى ابنا ، وأن علمه أو حكمته خلق كل شىء ، وأن حياته خلقت كل شىء ، وأن علمه خالق وإله ورب ، وحياته خالقة وإله ورب وليس فى الأنبياء من سمى شيئاً من صفات الرب ولداً له ولا ابناً ، ولا ذكر أن الله ولد شيئاً من صفاته . فدعوا كم أن صفته القديمة الأزلية ولدت مرتين ، مرة ولادة قديمة أزلية ، وولادة حادثة من فرج مريم ، كذب معلوم على الأنبياء لم يقل أحد منهم : إن الله ولد ، ولا إن شيئاً من صفاته ولده ، لا ولادة روحانية، ولا ولادة جسمانية .

وهذا وإن أبطل قول الملكية ، فهو لقول اليعقوبية ، أشد إبطالاً ، وهو مبطل أيضاً لقول النسطورية ، فإنهم يقولون بالأمانة التى فيها أنه مولود قديم أزلى ، فإن طوائفهم الثلاثة متفقون على الأمانة التى ابتدعوها فى زمن قسطنطين بعد أكثر من ثلاثمائة سنة من المسيح .

الوجه الخامس : قولكم بعث كلمته الخالقة ، فهبطت كلمة الله الخالقة التى بها خلق كل شىء ، ليست مخلوقة ، ولكن مولودة منه ، ولم يكن الله بلا كلمته ولا روحه قط .

من قال من الأنبياء : إنه لم يكن بلا روحه قط أو إن روحه صفة له قديمة ، أو إنها حياته ؟

وكلام الأنبياء كله ينطق بأن روح الله وروح القدس ونحو ذلك هو ما ينزله على الأنبياء ، كالوحي والتأييد ، أو الملائكة ، فليست روح الله صفة قائمة به ولا غيرها ، ولكنها أمر بائن عنه .

الوجه السادس : أنه إذا كان قد بعث كلمته الخالقة وهبطت والتحمت من مريم ، فهو نفسه رب العالمين ، هبط والتحم من مريم أم رب العالمين نفسه ، لم يهبط ولم يلتحم من مريم ، وإنما هبط والتحم الكلمة التي أرسلها .

فإن قلتم : هو نفسه هبط والتحم : كان الأب الوالد للكلمة ، هو الذي هبط والتحم ، وكان الأب هو الكلمة . وهذا مناقض لأقوالكم .

وإن قلتم : إن المبعوث الهابط الملتحم ليس هو الأب ، بل هو كلمة الرب فقد جعلتموه الخالق ، فيكون هناك خالقان ، خالق أرسل فهبط والتحم ، وخالق أرسل ذلك ولم يهبط ولم يلتحم ، وقد أثبتم خالقاً ثالثاً وهو الروح ، وهذا تصريح بثلاثة آلهة خالقين .

الوجه السابع : أنه قال : إن الله بعث كلمته الخالقة التي بها خلق كل شيء فمع كونه جعلها خالقة ، جعل أنه بها خلق كل شيء ، والذي خلق بها كل شيء هو خالق ، فجعلها خالقة ، وجعل خالقاً آخر ، وجعل أحد الخالقين قد خلق الآخر به كل شيء ، وجعل هذا الخالق قد بعث ذاك الخالق الذي به خلق كل شيء ، وجعل الكلمة الخالقة احتجبت بإنسان مخلوق خلقته لنفسها بمسرة الأب وموازرة روح القدس خلقاً جديداً .

وإذا كانت هي الخالقة بمسرة الأب الخالق على الخلق ، فالأب لم يخلقه ، بل سر بذلك ، وروح القدس وازرت ذلك ، والخالق خلق الخلق .

ومعلوم أنه إذا كان للخالق من يوازره على الخلق ، لم يكن مستقلا بالخلق ، بل يكون له فيه شريك .

فهذه الكلمة ، تارة يقولون: هى الخالقة ، وتارة يقولون : خلق بها الخالق فخلقت ، وتارة يقولون : إن روح القدس وازرها فى الخلق ، فهذه أربعة أقوال ينقض بعضها بعضاً .

فإن كان الله هو الخالق لكل شيء فالخالق واحد ، فليس هناك خالق آخر ولا شريك له فى الخلق .

والخالق إذا خلق الأشياء بقوله : « كن » لم يكن كلامه خالقاً ، ولو كانت كل كلمة إلهاً خالقاً ، لكان الآلهة الخالقون كثيرين لا نهاية لهم .

ثم قال : ليست بمخلوقة ولكن مولودة منه من قبل كل الدهور .

فيقال : مَنْ من الأنبياء سمَّى شيئا من صفات الله مولوداً قديما أزليا ؟ فكيف يكون مولود قديم أزلى ؟ وهل يعقل مولود إلا محدثا ؟ !

وأيضا فإذا جاز أن تكون الكلمة التى يفسرونها بالعلم أو الحكمة مولودة منه . فكذلك تكون مولودة منه ، وإن كانت حياته منبثقة منه فكلمته منبثقة منه .

فجعل إحدى الصفتين الأزليتين مولودة من الأزل غير منبثقة ، والأخرى ليست مولودة من الأزل . بل منبثقة ، مع كونه باطلاً ، فهو متناقض وتفريق بين المتماثلين .

فإنه إن جاز أن يقال للصفة القديمة الأزلية : إنها مولودة منه فالحياة مولودة .

وإن جاز أن يقال : إنها منبثقة ، فالكلمة منبثقة .

وأيضا فكون الصفة إلها خالقا ، وإثبات ثلاثة آلهة خالقين مع قولهم : إن الخالق واحد ، تناقض آخر .

وأيضا فقوله : « ولم يكن الله بلا كلمته ولا روحه قط » إن أراد بروحه

حياته ، فهذا صحيح ، لـكن مَنْ من الأنبياء سمى حياة الله روحه ؟ . ومن الذى جعل لله روحا قديمة أزلية ؟ وهل هذا إلا افتراء على الأنبياء ؟ .

وليس لقائل أن يقول : إن هذا نزاع لفظى فلااعتبار به ، لأن هذا تفسير لـكلام الأنبياء ، فهم الذين تـكلموا بروح الله وروح القدس ونحو ذلك ، ولم يرد أحد بذلك حياة الله قط .

فتسمية حياة الله روحا ، وتفسير مراد الأنبياء بذلك ، افتراء على الله ورسله .

الوجه الثامن : قوله : « فهبطت كلمة الله الخالقة بقوامها القائم الدائم الثابت الذى لم يزل ولا يزول ، فالتحمت من مريم العذراء ، وهى جارية طاهرة ، مختارة من نسل داود ، اصطفاها الله لهذا التدبير من نساء العالمين وطهرها بروح القدس ، روحه الجوهرية ، التى جعلها أهلا لحلول كلمة الله الجوهرية بها ، فاحتجبت الـكلمة الخالقة بإنسان مخلوق خلقته لنفسها ، بمسرة الأب ، وموازرة روح القدس ، خلقا جديداً » .

فيقال : إن الـكتب دلت على أن المسيح تجسّد من روح القدس ، ومن مريم العذراء البتول ، وهكذا هو فى الأمانة التى لهم ، وبهذا أخبر القرآن حيث أخبر فى غير موضع ، أنه نفخ فى مريم من روحه مع إخباره أنه أرسل إليها روحه .

قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ [مريم : ١٦-٢٣] وقال تعالى: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ٩١]

قال تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَانِتِينَ ﴾ [التحريم : ١٢] فالكتب الإلهية يصدق بعضها بعضاً .

لكن دعواكم أن روح القدس ، روح الله الجوهرية (أى حياته القديمة الأزلية) أمر مخالف لجميع كتب الله وأنبيائه .

فلم يفسر أحد منهم روح القدس بصفة لله ، لا جوهرية ، ولا غير جوهرية ولا قديمة ، ولا غير قديمة ، ولا أرادوا بذلك حياة الله .

فقولكم هذا ، تبديل لكلام الله وكلام أنبيائه ورسله ، كما أنكم فى قولكم إن كلمة الله أو علمه ، أو حياته ، مولود منه ، و إن صفته القديمة الأزلية هى ابنه ما حرفتم فيه كلام الأنبياء ، فلم يرد أحد منهم هذا المعنى بهذا اللفظ قط ، ولم يطلق فى جميع الكتب التى عندكم لفظ الابن والمولود ، إلا على محدث مخلوق لا على شىء قديم أزلى ، لا موصوف ولا صفة ، لا علم ولا كلام ، ولا حكمة ، ولا غير ذلك .

وكل ولادة فى الكتب الإلهية التى عندكم وغيرها ، فهى ولادة حادثة زمانية . وكل مولود ، فهو محدث مخلوق زمانى ، ليس فى الكتب ولادة قديمة أزلية ولا مولود قديم أزلى ، كما أنكم ذكرتم ذلك فى أمانتكم وغيرها .

فلو كان ما ذكرتموه ممكناً فى المعقول ، لم يجز أن تجعلوه موجوداً واقعاً ، وتقولوا : الأنبياء أرادوا بذلك ، إلا أن يكونوا بينوا أن ذلك مرادهم .

فإذا كان كلامهم صريحاً فى أنهم لم يريدوا ذلك ، والمعقول الصريح يناقض ذلك ، كان ما قلتموه كذباً على الله وعلى أنبيائه ورسله ومسيحه ، وكان باطلاً فى المعقول ، وكنتم ممن قيل فيه ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ، [الملك : ١٠] .

ثم يقال : أنتم قلتم : « إن الكلمة الخالقة هبطت فالتحمت من مريم ،

واحتجبت بإنسان مخلوق خلقته لنفسها » وقلتم : « إن مريم حملت بالإله الخالق وولدته ، الذى هو الابن » .

فإذا جوزتم أن تكون مريم هى أمًّا للخالق الذى هو الابن حملته وولدته فَلِمَ لا يجوز أن تكون زوجة للخالق الذى هو الأب ، مع أن الخالق التحم من مريم ؟ وقد قلتم : لم يكن الله بلا كلمته ولا روحه قط ، ولا كانت الكلمة بَرِيَّةً منه قط ، ولا من روحه الخالقة ، ولا من جوهره ؟

فجعلتم الروح خالقة ، والله الذى هو الأب خالقاً ، والمسيح قد تجسد من الروح الخالقة ومن مريم ، فكما أن مريم أمه ، فالروح الخالقة بمنزلة أبيه .

وأيضاً فمريم ، لها اتصال بالأب وبروح القدس ، وكلاهما أب للمسيح على ما ذكرتموه .

فإذا كانت مريم متصلة بكل واحد ممن جعلتموه أبا للمسيح ، وقلتم إن الخالق التحم من مريم ، فهذا أبلغ ما يكون من جعل الخالق زوج مريم .

ومهما فسرتم به اتحاد اللاهوت بناسوت المسيح المخلوق منها ، كان تفسير التحام اللاهوت بناسوت مريم حتى يصير زوجا لمريم أولى وأحرى ، وليس فى ذلك نقص ولا عيب إلا وفى كون اللاهوت ابن مريم ، ما هو أبلغ منه فى النقص والعيب .

ومعلوم أن الإنسان أعلى قدراً عنده من زوجته وأن تسلطه على زوجته أعظم منه على أمه ، فإن الرجل مالك للزوجة ، قَوَّامٌ عليها . والمرأة أسيرة عند زوجها ، بخلاف أمه .

فإذا جعلتم اللاهوت الخالق القديم الأزلى ابنا لناسوت مريم بحكم الاتحاد مع كونه خالقاً لها بلاهوته وابناً لها بناسوته ، ولم يكن هذا ممتنعاً عندكم ولا قبيحاً . فأن تكون مريم صاحبة له وزوجة وامرأة بحكم الالتحام بالناسوت أولى وأحرى .

و إن كان هذا ممتنعاً وقبيحاً ، فذاك أشد امتناعا وقبحاً .

ولهذا ذهب طوائف من النصارى إلى أن مريم امرأة الله وزوجته وقالوا : إنما هو أبلغ من ذلك ، حتى ذكروا شهرة النكاح .

ولقد قال بعض أكابر عقلاء الملوك ممن كان نصرانياً : إنهم كانوا إذا نبهوا على قولهم : إن عيسى ابن الله لم يفهموا من ذلك إلا أن الله أحبل أمه وولدت له المسيح ابنه ، كما يحبل الرجل المرأة وتلد له الولد ، فيكون قد انفصل من الله جزء في مريم بعد أن نكحها ، وذلك الجزء الذى من الله ومن مريم ، ولدته مريم ، كما تلد المرأة الولد الذى منها ومن زوجها ، وقد قالت الجن المؤمنون : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا ﴾ [الجن : ٣] فنزهوه عن هذا وهذا وهؤلاء الجن المؤمنون أكمل عقلا وديناً من هؤلاء النصارى .

وقال تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ١٠١] فقوله « أنى يكون له ولد » تقديره من أين يكون له ولد ؟ ! فـ « أنى » فى اللغة بمعنى « من أين ذلك » وهذا استفهام إنكار .

فبين ـ سبحانه ـ أنه يمتنع أن يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، مع أنه خالق كل شيء ، وأن هذا الولد يمتنع أن يكون ، وأن هذا الامتناع مستقر فى صريح المعقول .

ثم إذا كانت الكلمة التى هى الخالق المخلوق به ، قد حلّت فى جوف مريم ، والتحمت من مريم وخلقت منها إنسانا هو المسيح خلقته لنفسها واحتجبت به واتحدت به ، فهل كان خلقها لهذا الإنسان قبل الاتحاد والاحتجاب أم حين ذلك ؟

فإنه بعد ذلك ظاهر الامتناع ، محال أنها بعد الاحتجاب به والاتحاد خلقته بل لابد أن تكون خلقته قبله أو معه .

فإن كان معه ، لزم كون المخلوق متحداً بالخالق دائما ، لم تمر عليه لحظة إلا وهو متحد به .

فإذا أمكن أن يقارن المخلوق خالقه ـ وعندهم أنه أقام تسعة أشهر حملاً كعامة الناس ، وقد ذكر سعيد بن البطريق هذا ـ فإذا كان كذلك ، كان الرب متحداً بالمضغة والجماد ، الذى لا روح فيه .

وإذا جاز عليه هذا ، جاز أن يتحد بسائر الجمادات ، وهذا على قول الأكثرين الذين يقولون : إن الروح ، إنما نفخت فيه بعد أربعة أشهر .

ومن قال إنها نفخت فيه من حين أخذ الجسد من مريم ـ وهذا يشبه قول جمهور النصارى الذين يقولون : إن المسيح مات وصلب وفارقته الروح الباطلة المنفوخة فيه ، والإله المتحد به لم يفارقه أبداً ـ فإنهم يقولون : إنه من حين اتحد بناسوت المسيح لم يفارقه ، بل هو الآن متحد به ، وهو فى السماء قاعد عن يمين أبيه ، وذلك القاعد هو الخالق القديم ، والأب هو الإله الخالق القديم الأزلى ، وهما مع ذلك إله واحد .

والمقصود هنا أنهم يقولون باتحاد اللاهوت بجسد لا روح فيه قبل النفخ و بعد الموت إلى أن قام من قبره ، فعادت الروح إليه ، وحينئذ لم يظهر من تلك المضغة من العجائب .

وهم يستدلون على إلهية المسيح بالعجائب ، مع أنه كان الإله متحداً به قبل أن يظهر العجائب ، وحينئذ فلا يلزم من عدم ظهور العجائب من شىء ، الجزم بأن الرب لم يتحد به مع إمكان الاتحاد .

و يلزم أن كل جامد وحى ظهرت منه العجائب ، أن يكون ذلك دليلا على أن الرب اتحد به .

وحينئذ فعباد العجل أعذر من النصارى

و إن كان من عباد الأصنام من يقول : إن الصنم خلق السموات والأرض ،

فهو أعذر من النصارى ، لأن ظهور العجائب من الحيوان الأعجم والجماد ، أعظم من ظهورها من الإنسان الناطق ، لاسيما الأنبياء والرسل .

فإن الأنبياء والرسل ، معروفون بظهور العجائب على أيديهم .

فإذا ظهرت على يد من يقول : إنى نبى مرسل ، كانت دليلا على نبوته ، لا على إلهيته .

والمسيح كان يقول : إنى نبى مرسل ، كما ذكر ذلك فى الإنجيل فى غير موضع . فأما الحيوان الأعجم والجماد ، فلا يجوز أن يكون نبيا .

فإن جاز الاتحاد بالمضغة والجسم المقبور الذى لا روح فيه ، فاتحاده بالعجل وبالصنم أولى ، وحينئذ فخوار العجل عجيب منه .

فاستدلال عُبّاد العجل بذلك على أنه إله ، خير من استدلال النصارى على إلهية المضغة إن قدر ظهور شىء من العجائب التى قد يستدلون بها .

وإن كانت تلك لا تدل إلا على نبوته صلى الله عليه وسلم تسليما .

الوجه التاسع : ـ قوله : « فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق خلقته لنفسها » وقوله : « فكانت مسكنا فى حلوله واحتجابه للطفها عن جميع ما لطف من الخلائق كلهم » .

يقال له ـ أولاً ـ : من أين لك أن روح الإنسان ألطف من جميع المخلوقات ؟ وأنها ألطف من الملائكة والروح الذى قال الله فيه ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ ﴾[النبأ : ٣٨] وأنها ألطف من الروحُ التى نفخ فى آدم منه بقوله ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ ؟

وبتقدير أن تكونا لطف ، فأنت لا تقول : إن الاحتجاب والاتحاد كان بروح الإنسان مجردة ، بل بالجسد الناسوتى الدموى الغليظ ، وتقول : « إن الخالق التحم من مريم العذراء » فتجعل الخالق قد التحم من لحم مريم ومن رحمها الذى هو لحم ودم ، وهذه أجساد كثيفة ، بل جمهورهم يقول : اتحد

بجسد لا روح فيه قبل النفخ و بعد الموت وقبل أن يقوم من قبره .

وحينئذ فقولك : « فكانت مسكنا لله فى حلوله واحتجابه للطفها عن جميع ما لطف من الخلائق كلهم » وصف ممنوع ، والتعليل به باطل ، فإنه لو كان مسكنا للطفه ، لم يجز أن يسكن إلا فى الروح اللطيفة ، فلما أثبت اتحادا بالجسد الكثيف ، بطل قولك : « إنه اتحد بالإنسان للطفه » .

الوجه العاشر ـ قولكم : « واعلم أنه لا يرى شىء من لطيف الخلق إلا فى غليظ الخلق ، ولا يرى ما هو لطيف من اللطيف إلا مع ما هو أغلظ منه » .

يقال لهم : إما أن يكون الله لما اتحد بالمسيح عندكم قد رآه الناس وعاينوه أو لم يره أحد .

فإن قلتم : قد رآه الناس وعاينوه ، فهذا مخالف للحس والشرع والعقل .

أما الحس ، فإن أحداً ممن رأى المسيح لم ير شيئاً يتميز به المسيح عن غيره من البشر ، غير العجائب التى ظهرت على غيره ، منها ما هو أعظم مما ظهر عليه ولم ير إلا بدن المسيح الظاهر ، لم ير باطنه ، لا قلبه ولا كبده ولا طحاله ، فضلا عن أن يرى روحه ، فضلا عن أن يرى الملائكة الذين يوحون إليه ، فضلا عن أن يرى الله ، إن قدر أنه كان متحداً به ، أو حالاً فيه .

فدعوى المدعى أن من رأى المسيح ، فقد رأى الله عيانا ببصره فى غاية المباهتة والمكابرة والكذب ، لو قدر أن الله حالّ فيه ، أو متحد به .

فإنه من المعلوم أن الملائكة تنزل على المسيح وغيره ، وتتصل بأرواحهم ، والناس لا يرون الملائكة ، بل الجن تدخل فى بنى آدم والناس لا يرونهم ، وإنما يرون جسد المصروع .

وكل إنسان معه قرينه من الملائكة ، وقرينه من الجن ، وهو ـ نفسه ـ لا يرى ذلك ، ولا يراه من حوله .

وتحضره الملائكة وقت الموت ، ولا يراهم من حوله ، مع أنه هو يراهم ،

قال تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْرُّوحُ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ * فَلَوْلاَ إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الواقعة : ٨٣ ـ ٨٧] .

فإذا كانت هذه المخلوقات ، التى اتفق أهل الملل على اقترانها بالإنسان واتصالها بهم ، وأن رؤيتها ممكنة ، لا يراها الناس ، فكيف يقال : إن المسيح الذى لم ير الناس منه إلا ماراوه من أمثاله من الرسل ، كإبراهيم ، وموسى ، ولم يكن له قط شىء يتميز به عن جنس الرسل ، كيف يقال : إن الذين رأوه رأوا الله عياناً بأبصارهم ؟ .

وأما الشرع ، فموسى ، والمسيح وغيرهما من الأنبياء ، أخبروا أن أحداً لا يرى الله فى الدنيا .

وأما العقل ، فإن رؤية بعض ملائكة الله ، أو بعض الجن يظهر لرائيها من الدلائل والأحوال ما يطول وصفه ، فكيف بمن رأى الله ؟!

والذين رأوا المسيح ، لم يكن حالهم إلا كحال سائر من رأى الرسل منهم ، الكافر به المكذب له .

ومنهم المؤمن به ، المصدق له ، بل هم يذكرون من إهانة ناسوته ما لا يعرف عن نظرائه من الرسل ، مثل ضربه ، والبصاق فى وجهه ، ووضع الشوك على رأسه وصلبه وغير ذلك .

وأيضاً ، فمعلوم أن من رأى الله ، إما أن يعرف أنه الله ، أو لا يعرف .

فإن عرف أنه رأى الله ، كان الذين رأوا المسيح قد علموا أنه الله ، ولو علموا ذلك ، لحصل لهم من الاضطراب ما يقصر عنه الخطاب .

وإن كانوا لم يعرفوه ، فهذا فى غاية الامتناع ، حيث صار رب العالمين لا يميز بينه وبين غيره من مخلوقاته ، بل يكون كواحد منهم ولا يميز بينه وبينهم ولا يعرف الرائى أن هذا هو الله .

ولوازم هذا القول الفاسدة كثيرة جداً .

وإن قالوا : إن الله لم ير ، لما اتحد بالمسيح ، وإنما رُئِيَ جسد المسيح الذى احتجب به الله . فقولهم بعد ذلك : « واعلم أنه لا يرى شيء من لطيف الخلق إلا فى غليظ الخلق ، ولا يرى ما هو لطيف من اللطيف إلا مع ما هو أغلظ منه» كلام لافائدة فيه . إذ كان هذا مثلا ضربوه لله ، ليبينوا أنه يرى .

فإذا سلموا أنه لم ير ، لم يكن فى هذا المثل فائدة ، بل كان هذا استدلالا على شيء يعلمون أنه باطل .

وأيضاً فما ذكروه ، من أن اللطيف لا يرى إلا فى الغليظ ، باطل ، فإن اللطيف كروح الإنسان ، لا ترى فى الدنيا وإن علم وجودها ، وأحس الإنسان بروحه وصفاتها ، فرؤيتها بالبصر غير هذا . يبين ذلك .

الوجه الحادى عشر :- قولهم : « وإنا وجدنا روح الإنسان العاقلة الكلمانية - يعنون النفس الناطقة - ألطف من لطيف الخلق ، فلذلك كانت أولى خلق الله بحجاب الله ، فكانت له حجاباً ، وكانت النفس الدموية لها حجاباً ، والجسد الغليظ حجاباً .

فعلى هذا خالطت كلمة الله الخالقة لنفس الإنسان الكاملة لجسدها ، ودمها ، وروحها العاقلة الكلمانية ، وصارت كلمة الله ، بقوامها ، قواما لتثليث الناسوت التى كمل جوهرها بتقويم قوام كلمة الله إياها ، لأنها لم تخلق ولم تك شيئاً إلا بقول من كلمة الله الذى خلقها وقومها ، لا من شيء سبق قبل ذلك فى بطن مريم ، ولامن سبب كان لها من غير ذلك غير قوام الكلمة الخالقة الذى هو أحد التثليث الآلهى .

فيقال لهم : هذا الكلام يقتضى أن الخالق احتجب بالنفس الناطقة ، والنفس الناطقة احتجبت بالبدن .

وأنتم تصرحون بأن نفس الكلمة التى هى الخالق ، وهى الله عندكم ، التى خلقت لنفسها إنساناً احتجبت به ، وقلتم : هو إنسان تام بجسده ونفسه الدموية ،

وروحه الكلمانية ، أى نفسه الناطقة التى هى صورة الله فى الإنسان وشبهه ، فكانت مسكنا لله فى حلوله واحتجابه .

فصرحتم بأن البدن مع الروح ، مسكن لله فى حلوله واحتجابه ، وأنه هو الذى خلق ذلك البدن والروح ، وقلتم : إن هذه الكلمة الخالقة المحتجبة التى قلتم : إنها الله ، التحمت من مريم العذراء .

فإذا كان الله الخالق قد التحم من مريم العذراء ، فمعلوم أن ذلك قبل نفخ النفس الناطقة التى سميتموها ، الروح الكلمانية فى المسيح .

وإذا كان الخالق تعالى ، قد التحم بجسد لا روح فيه ، والتحامه به أبلغ من حلوله فيه ، ثم اتخذ الجسد حجابا قبل نفخ الروح الكلمانية فيه ، فكيف يقال : إنما حل فى الروح لا فى البدن ، وهو قد التحم بالبدن واتخذ منه جزءاً مسكنا له وحجابا قبل أن ينفخ فيه الروح الكلمانية ؟

وقلتم أيضاً : فعلى هذا خالطت كلة الله الخالقة لنفس الإنسان الكاملة ، بجسدها ودمها ، وروحها العاقلة الكلمانية .

هذا تصريح بأن الخالق خالط الإنسان بجسده ودمه وروحه

وتقولون : إنما احتجبت بالروح اللطيفة ، مع تصريحكم بأن الخالق اختلط بالجسد والدم .

وهذا أيضاً يناقض قول من قال : إنه اتحد به اتحاداً برئ من الاختلاط .

فقد صرحتم هنا أنه اختلط به ، وسيأتى بعض نظائر هذا فى كلامهم ، يصرحون فيه باختلاط اللاهوت بالناسوت .

الوجه الثانى عشر ـ : قولكم : « غير قوام الكلمة الخالقة الذى هو أحد التثليث الإلهى ، فذلك القوام معدود معروف مع الناس ، لما ضم إليه وخلقه له التحم به من جوهر الإنسان ، فهو بتوحيد ذلك القوام الواحد قوام لكلمة الله الخالقة ، واحد فى التثليث بجوهر لاهوته ، واحد من الناس بجوهر ناسوته ،

وليس باثنين ، ولـكن واحد مع الأب والروح ، وهو إياه واحد مع الناس جميعاً بجوهرين مختلفين ، من جوهر اللاهوت الخالق ، وهو الناسوت المخلوق ، بتوحيد القوام الواحد قوام الـكلمة ، التي هي الابن المولود من الله من قبل كل الدهور وهو إياه المولود من مريم العـذراء في آخر الزمان من غير مفارقة من الأب ، ولا من روح القدس » .

فيقال : في هـذا الـكلام ، بل فيما تقدم ذكره ، ما يطول تعداده ووصفه من التناقض والفساد ، والـكلام الباطل ، والـكلام الذي تـكلم به قائله ، وهو لايتصور ما يقول مع سوء التعبير عنه ، كقوله « وهو إياه » فيضع الضمير المنفصل موضع المتصل ، ويعطف أحدهما على الآخر بلا واو عطف إلى أمثال ذلك مما يطول ذكر معايبه ، وذلك أن قولهم في نفسه باطل لا حقيقة له ، وهم لم يتصوروا معنى معقولا ، ثم عبروا عنه ، حتى يقال : قصروا في التعبير ، بل هم في ضلال وجهل ، لا يتصورون معقولا ، ولا يعرفون ما يقولون ، بل ولا لهم اعتقاد يثبتون عليه في المسيح ، بل مهما قالوه من بدعهم كان باطلا ، وكانوا هم معترفين بأنهم لا يفقهون ما يقولون .

لهذا يقولون : « هذا فوق العقل » ويقولون : « قد اتحد به بشر لايدرك » فما لا يدرك وما هو فوق العقل ، ليس لأحد أن يعتقده ولا يقوله برأيه .

لـكن إذا أخبرت الرسل الصادقون بما يعجز عقل الإنسان عنه صدقهم ، وإن نقل عنهم ناقل ما يعلم بصريح العقل بطلانه ، علم أنه يكذب عليهم ، إما في اللفظ والمعنى ، وإما في أحدهما .

وأما إذا كان هو يقول القول الذي يذكر أنه علم صحته ، أو أنه فسر به كلام الأنبياء . وهو لايتصور مايقوله ولا يفقهه . فهذا قائل على الله وعلى رسله مالا يعلم ، وهذا قد ارتكب أعظم المحرمات ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ

سُلطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف : ٣٣]وقال تعالى عن الشيطان:
﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾ وقال تعالى:
﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٧١-١٧٣] وقد اتفق أهل الملل على أن القول على الله بغير علم حرام ، والله سبحانه نهاهم أن يقولوا على الله إلا الحق ، فكان هذا نهياً أن يقولوا الباطل ، سواء علموا أنه باطل أو لم يعلموا .

فإنهم إن لم يعلموا أنه باطل ، فلم يعلموا أنه حق أيضاً ، إذ الباطل يمتنع أن يعلم أنه حق ، وإن اعتقد معتقد اعتقاداً فاسداً أنه حق ، فذلك ليس بعلم ، فلا تقولوا على الله مالا تعلمون .

وإن علموا أنه باطل ، فهو أجدر أن لا يقولوه .

وعامة النصارى ضُلَّالٌ لا يعلمون أن ما يقولونه حق ، بل يقولون على الله مالا يعلمون .

والمقصود أن الباطل فى كلامهم كثير ، كقولهم « فهو بتوحيد ذلك القوام الواحد ، قوام لكلمة الله الخالقة » .

والمسيح عندهم اسم للاهوت والناسوت جميعاً ، اسم للخالق والمخلوق ، وأحدهما متحد بالآخر ، فهو بتوحيد ذلك القوام ، قوام لكلمة الله الخالقة .

وسواء أريد بذلك أن الناسوت واللاهوت قوام للاهوت ، أو أن الناسوت قوام للاهوت ، وهم يمثلون ذلك بالروح والجسد والنار والحديد ، فيكون كما لو قيل : إن الجسد والروح ، أو الجسد قوام للروح ، أوالنار والحديد ، أو الحديد قوام للنار.

فيقال : الخالق الأزلى الذى لم يزل ولا يزال ، هل يكون المحدث المخلوق قواماً له ؟ فيكون المخلوق المصنوع المحدث المفتقر إلى الله من كل وجه قواماً للخالق الغنى عنه من كل وجه ؟ وهل هذا إلا من أظهر الدور الممتنع ؟

فإنه من المعلوم بصريح العقل واتفاق العقلاء ، أن المخلوق لا قوام له إلا بالخالق ، فإن كان الخالق قوامه بالمخلوق ، لزم أن يكون كل من الخالق والمخلوق قوامه بالآخر ، فيكون كل منهما محتاجاً إلى الآخر ، إذ ما كان قوام الشيء به ، فإنه محتاج إليه .

وهذا ـ مع كونه يقتضى أن الخالق يحتاج إلى مخلوقه ـ وهو من الكفر الواضح ، فإنه يظهر امتناعه بصريح العقل ، وهذا لازم للنصارى ، سواء قالوا بالاتحاد أو بالحلول بلا اتحاد ، وإن كانت فرقهم الثلاث يقولون بنوع من الاتحاد ، فإنه مع الاتحاد كل من المتحدين لابد له من الآخر ، فهو محتاج إليه كما يمثلون به فى الروح مع البدن والنار مع الحديد .

فإن الروح التى فى البدن محتاجة إلى البدن ، كما أن النار فى الحديدة محتاجة إلى الحديدة .

وكذلك الحلول ، فإن كل حالّ محتاج الى محلول فيه ، وهو من الكفر الواضح فإنه يظهر امتناعه بصريح العقل .

فإن ذلك المخلوق إن قدر أنه موجود بنفسه قديم أزلى ، فليس هو مخلوقاً ، ومع هذا فيمتنع أن يكون كل من القديمين الأزليين محتاجاً الى الآخر ، سواء قدر أنه فاعل له ، أو تمام الفاعل له ، أو كان مفتقراً إليه بوجه من الوجوه ، لأنه إذا كان مفتقراً إليه بوجه من الوجوه ، لم يكن موجوداً إلا به .

فإن الموجود لا يكون موجوداً إلا بوجود لوازمه وما لا يتم وجوده إلا به . فكل ما قدر أنه محتاج إليه لم يكن موجوداً إلا به .

فإذا كان كل من القديمين محتاجاً إلى الآخر ، لزم أن لا يكون هذا موجوداً إلا بخلق ذلك ما به تتم حاجة الآخر ، وأن لا يكون هذا موجوداً إلا بخلق ذلك ما به تتم حاجة الآخر .

والخالق لا يكون خالقاً ، حتى يكون موجودا ، ولا يكون موجودا إلا بلوازم وجوده ، فيلزم أن لا يكون هذا موجودا حتى يجعله الآخر موجودا ، ولا يكون ذاك موجودا حتى يجعله الآخر موجودا ، إذ كان جعله لما لم يتم به وجوده ، يتوقف وجوده عليه ، فلا يكون موجوداً إلا به ، فلا فرق بين أن يحتاج أحدهما إلى الآخر فى وجوده أو فيما لا يتم وجوده إلا به ، وهذا هو الدور القَبْلِيّ الممتنع باتفاق العقلاء .

وأما الدور المعيّ ، وهو أنه لا يوجد هذا إلا مع هذا ، ولا هذا إلا مع هذا كالأبوة مع البنوة ، وكصفات الرب بعضها مع بعض ، وصفاته مع ذاته ، فإنه لا يكون عالماً إلا مع كونه قادراً ، ولا يكون عالماً قادراً إلا مع كونه حيا ، ولا يكون حياً إلا مع كونه عالماً قادراً ، ولا تكون صفاته موجودة إلا بذاته ، ولا ذاته موجودة إلا بصفاته ، فهذا جائز فى المخلوقين اللذين يفتقران إلى الخالق الذى يحدثهما جميعاً كالأبوة والبنوة ، وجائز فى الرب الملازم لصفاته تعالى .

وأما إذا قدر قديمان أزليان ربان فاعلان ، امتنع أن يكون أحدهما محتاجاً إلى الآخر ، إذ كان وجوده لا يتم إلا بما يحتاج وجوده إليه ، ولا يكون فاعلا لشيء إن لم يتم وجوده ، فيمتنع مع نقص كل منهما عن تمام وجوده ، أن يكون فاعلا لغيره تمام وجود ذلك الغير ، ولهذا لم يقل بهذا أحد من الأمم .

ولكن الذى قاله النصارى أنهم جعلوا قوام الخالق تعالى بالمخلوق .

فيقال لهم : هذا أيضاً ممتنع فى صريح العقل ، أعظم من امتناع قيام كل

من الخالقين بالآخر ، وإن كان هـذا أيضاً ممتنعاً ، فإن المخلوق مفتقر فى جميع أموره إلى الخالق ، فيمتنع ـ مع فقره فى وجوده وتمام وجوده إلى الخالق ـ أن يكون قوام الخالق به ، لأن ذلك يقتضى أن يكون مقيما له ، وأن يكون تمام وجوده به ، فيكون المخلوق لا وجود لشىء منه إلا بالخالق .

فالقدر الذى يقال: إنه يقيم به الخالق هو من الخالق والخالق خالقه ، وخالق كل مخلوق ، فلا وجود له ولا قيام إلا بالخالق ، فكيف يكون بهقيام الخالق ؟

وليس هذا كالجوهر وأعراضه اللازمة ، أو كالمادة والصورة عند من يزعم أن الصورة جوهر إذا كانا متلازمين ، فإن هذا من باب الدور المعىّ ، كالبنوة مع الأبوة ، وهذا جائز كما تقدم ، إذ كان الخالق لهما جميعاً هو الله .

وأما مع كون كل منهما هو الخالق ، فهو ممتنع ، ومع كون أحدهما خالقاً، والآخر مخلوقا ، فهو أشد امتناعاً .

والرب تعالى غنى عن كل ما سواه من كل وجه ، وكل ما سواه فقير إليه من كل وجه ، وهذا من معنى اسمه « الصمد » فإن الصمد الذى يصمد إليه كل شىء ، لافتقاره إليه ، وهو غنى عن كل شىء لا يصمد إلى شىء ، ولا يسأله شيئا سبحانه وتعالى ، فكيف يكون قوامه بشىء من المخلوقات ؟ !

وهذا الاتحاد الخاص من النصارى يشبه ـ من بعض الوجوه ـ قول أهل الوحدة والاتحاد العام ، الذين يقولون كما يقوله ابن عربى صاحب « الفصوص » و « الفتوحات المكية » : إن أعيان المخلوقات ثابتة فى العدم ، ووجود الحق فاض عليها ، فهى مفتقرة إليه من حيث الوجود المشترك العام ، وهو وجوده ، وهو مفتقر إليها من حيث الأعيان الثابتة فى العدم ، وهو ما يختص به كل عين عين ، فيجعل كل واحد من الخالق والمخلوق مفتقرا إلى الآخر .

ويقولون : الوجود واحد ، ثم يثبتون تعدد الأعيان ، ويقولون : هى مظاهر ومجالى .

فإن كان المظهر والمجلى غير الظاهر ، فقد ثبت التعدد ، وإن كان هو إياه ، فلا تعدد ، فلهذا يضطرون إلى التناقض كما يضطر إليه النصارى ، حيث يثبتون الوحدة مع الكثرة ، وينشدون (فيعبدنى وأعبده ويحمدنى وأحمده) وهؤلاء بنوا قولهم على أصلين فاسدين .

أحدهما : ـ أن أعيان الممكنات ثابتة فى العدم ، كقول من يقول من أهل الكلام : إن المعدوم شىء ثابت فى العدم ، وهذا القول فاسد عند جماهير العقلاء .

وإنما حقيقة الأمر أن المعدوم يراد إيجاده ويتصور ويخبر به ويكتب قبل وجوده ، فله وجود فى العلم والقول والخط . وأما فى الخارج ، فلا وجود له .

والوجود هو الثبوت ، فلا ثبوت له فى الوجود العينىّ الخارجىّ ، وإنما ثبوته فى العلم ، أى يعلمه العالم قبل وجوده .

والأصل الثانى : أنهم جعلوا نفس وجود رب العالمين الخالق القديم الأزلى الواجب بنفسه ، هو نفس وجود المربوب المصنوع الممكن كما قال ابن عربى .

ومن عرف ما قررناه فى الأعداد وأن نفيها عين إثباتها ، علم أن الحق المنزه هو الخلق المشبه . فالأمر الخالق هو المخلوق ، والأمر المخلوق هو الخالق كل ذلك من عين واحدة ، لا بل هو العين الواحدة ، وهو العيون الكثيرة وهو « يَاأَبَتِ افْعَلْ مَاتُؤْمَرُ » إلى أن قال : فما ذبح سوى نفسه : وما نكح سوى نفسه .

وقال : ومن أسمائه الحسنى العلىّ ، على من يكون عَلِيًّا وماهو إلا هو ؟ أو عن ماذا يكون علياً وما ثَمَّ إلا هو ؟ فَعُلُوُّه لنفسه ، وهو من حيث الوجود عين الموجودات ، فالمسمى محدثات هى العلية لذاتها ، وليست هو .

وقد نقل عن أبى سعيد الخراز أنه قيل له : بماذا عرفت ربك ؟ قال : بجمعه بين الأضداد وقرأ قوله ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ

وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أراد بذلك أنه مجتمع فى حقه سبحانه ما يتضاد فى حق غيره ، فإن المخلوق لا يكون أولا آخراً ، باطنا ظاهراً .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء » فجاء هذا الملحد وفسر قول أبى سعيد بأن المخلوق هو الخالق . فقال : قال أبو سعيد ، وهو وجه من وجوه الحق ولسان من ألسنته ينطق عن نفسه بأن الله لا يعرف إلا بجمعه بين الأضداد فى الحكم عليه بها ، فهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، فهو عين ما ظهر وهو عين ما بطن فى حال ظهوره ، وما ثَمَّ من يراه غيره ، وما ثَمَّ من بطن عنه سواه ، فهو ظاهر لنفسه ، باطن عن نفسه ، وهو المسمى أبو سعيد الخراز ، وغير ذلك من أسماء المحدثات . ولهذا قال بعض النصارى لمن يقول مثل هذا ويحكيه عن شيوخه ويقول إنه مسلم : « أنتم كفرتمونا لأجل أن قلنا : إن الله هو المسيح ، وشيوخكم يقولون : إن الله هو أبو سعيد الخراز ، والمسيح خير من أبى سعيد » .

وهؤلاء يجيبون النصارى بجواب يتبين به أنهم أعظم إلحاداً من النصارى .

فيقولون للنصارى : « أنتم خصصتموه بالمسيح ، ونحن نقول : هو وجود كل شىء ، لا نخص المسيح » .

ولهذا قال بعضهم لأحذق هؤلاء « التلمسانى » الملقب بالعفيف : أنت نصيرى ؟

فقال نصير جزء منى ، فإن النصيرية أتباع أبى شعيب « محمد بن نصير » يقولون فى علىّ بن أبى طالب نظير ما يقوله النصارى فى المسيح ، كذلك سائر الغلاة فى علىّ ، أو فى أحد من أهل بيته ، أو فى الإسماعيلية بنى عبيد المنتسبين إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر ، كالحاكم وغيره ، أو فى الحلاج ، أو فى بعض

من الشيوخ الذين يقولون فى واحد من هؤلاء باتحاد اللاهوت به أو حلوله فيه ، نظير ما تقوله النصارى فى المسيح .

وهؤلاء يقولون بأن الحلول أو الاتحاد محدث ، وأن القديم حلّ أو اتحد بالمحدث بعد أن لم يكونا متحدين .

وأما أولئك فيقولون بالوحدة المطلقة ، فمحققوهم يقولون : إنه وجود كل شىء ، لا يقولون باتحاد وجودين ، ولا بحلول أحدهما بالآخر .

بل قد يقولون: إن الوجود هو ثبوت وجود الحق ، وثبوت الأشياء ، اتحدا ، وكل منهما مفتقر إلى الآخر .

فالحق إذا ظهر كان عبداً ، والعبد إذا بطن كان ربّاً .

ويقولون : إذا حصل لك التجلِّى الذاتى ، وهو هذا ، لم تضرك عبادة الأوثان ولا غيرها ، بل يصرحون بأنه عين الأوثان والأنداد ، وأن أحداً لم يعبد غيره ، كما يقول ابن عربى مصوِّباً لقوم نوح الكفار « وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا » لأن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو ، فإنه ما عدم من البداية فيدعى إلى الغاية « أدعوا إلى الله » فهذا عين المكر ، فأجابوه « مكرا » كما دعاهم « مكرا » فقالوا فى مكرهم: « لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا » فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق على قدر ما تركوا من هؤلاء .

فإن للحق فى كل معبود وجهاً ، يعرفه من عرفه ، ويجهله من جهله ، كما قال فى المحمديين ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ فما حكم الله بشىء إلا وقع . فالعارف يعرف من عبد ، وفى أى صورة ظهر حتى عبد ، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة ، وكالقوى المعنوية فى الصور الروحانية ، فما عبد غير الله فى كل معبود .

وصوّب هذا الملحد فرعون فى قوله ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ قال : ولما كان

فرعون فى منصب التحكم صاحب الوقت ، وأنه الخليفة بالسيف وإن جار فى العرف الناموسى لذلك قال : « أنا ربكم الأعلى » أى وإن كان الكل أربابا بنسبة مَّا ، فأنا الأعلى منهم بما أعطيته فى الظاهر من الحكم فيكم .

قال: ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه ، وأقروا له بذلك وقالوا له : ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ « فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ » فالدولة لك .

قال : فصح قول فرعون « أنا ربكم الأعلى » وإن كان فرعون عين الحق .

وصَوَّب أيضاً أهل العجل فى عبادتهم العجل ، وزعم أن موسى رضى بذلك.

فقال : ولما كان موسى أعلم بالأمر من هارون ، لعلمه بأن الله قضى أن لا نعبد إلا إياه ، وما حكم الله بشىء إلا وقع ، كان عيبه على هارون لإنكاره وعدم اتساعه ، فإن العارف من يرى الحق فى كل شىء ، بل يراه عين كل شىء .

ومن هؤلاء طائفة لا يقولون بثبوت الأعيان فى العدم ، بل يقولون : ما ثَمَّ وجود إلا وجود الحق .

لكن يفرقون بين المطلق والمعين فيقولون : هو الوجود المطلق السارى فى الموجودات المعينة ، كالحيوانية الثابتة فى كل حيوان ، والإنسانية الثابتة فى كل إنسان ، وهذا الذى يسمى الكلى الطبيعى .

ويسمون هذا الوجود ، الإحاطة فيقولون : الوجود المطلق إما بشرط الإطلاق عن كل قيد ، وهذا يسمى الكلى العقلى .

وهذا عند عامة العقلاء ، لا يوجد إلا فى الذهن لا فى الخارج ، ولكن يحكى عن شيعة «أفلاطن» أنهم أثبتوا هذه الكليات المجردة عن الأعيان فى الخارج ، وقالوا : إنها قديمة أزلية إنسانية مطلقة ، وحيوانية مطلقة ، ويسمونها المثل الأفلاطونية ، والمثل المعلقة .

وقد رد ذلك عليهم إخوانهم « أرسطو » وشيعته ، وجماهير العقلاء ، وبينوا

أن هذه إنما هي متصورة في الأذهان لا موجودة في الأعيان ، كما يتصور الذهن عدداً مطلقاً ومقادير مطلقة ، كالنقطة ، والخط ، والسطح ، والجسم التعليمي ونحو ذلك مما يتصوره الذهن ، وليس في ذلك شيء من الموجودات الثابتة في الخارج .

وهذا المطلق بشرط الإطلاق ، يظن هؤلاء ثبوته ، وقد يسمونه الإحاطة ، وهو الوجود المجرد عن جميع القيود ، ثم بعده الوجود المطلق لا بشرط ، وهو العام المنقسم إلى واجب وممكن ، إلى قديم وحادث ، ونحو ذلك ، كانقسام الحيوان إلى ناطق وأعجم .

وهذا المطلق لا بشرط يوجد في الخارج ، فإن الاسم العام شامل لأنواعه وأشخاصه لكن لا يوجد في الخارج إلا مقيداً معيناً .

ومن قال : إنه يوجد في الخارج كلياً ، فقد غلط . فإن الكلي لا يكون كلياً قط إلا في الأذهان لا في الأعيان ، وليس في الخارج إلا شيء معين ، إذا تصور منع نفس تصوره من وقوع الشركة فيه ، ولكن العقل يأخذ القدر المشترك الكلي بين المعينات ، فيكون كلياً مشتركاً في الأذهان .

وهؤلاء يجعلون الوجود الواجب هذا ، وقد يجعلونه بعد هذا ، فيقولون : هذا فوق الواجب .

وهذا الوجود الكلي إذا قيل : إنه لا يوجد في الخارج إلا معيناً ، فلا موجود في الخارج سوى الموجودات المعينة المشخصة ، بما فيها من الصفات القائمة بها .

وإن قدر وجوده في الخارج ، فهو إما جزء من المعينات ، وإما صفة لها .

فعلى الأول ، لا يكون في الخارج موجود هو رب الموجودات المعينة .

وعلى الثاني يكون رب الموجودات جزأها أو صفة لها .

ومعلوم بصريح العقل أن صفة الشيء القائمة به ، لا تخلق الموصوف ، وأن

جزء الشيء لا يخلق الشيء ، بل جزء الشيء ، جزء من الشيء .

فإذا كان هو الخالق للجملة ، كان خالقاً لنفسه ، وكان بعض شيء خالقاً لـكله .

ومن هؤلاء من يقول : إن الرب في العالم كالزبد في اللبن ، والدهن في السمسم ونحو ذلك ، فيجعلونه جزءاً من العالم المخلوق . ونفس تصور هذا يكفي في العلم بفساده .

لـكن هؤلاء يقولون : إن لم تترك العقل والنقل لم يحصل لك التحقيق الذي حصل لنا ، ويقولون : ثبت عندنا في الـكشف ما يناقض صريح العقل .

فقلت لبعضهم : إن الأنبياء صلوات الله عليهم أكمل الناس كشفاً ، وهم يخبرون بما يعجز عقول الناس عن معرفته ، لا بما تعرف عقولهم أنه باطل ، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول .

فمن دونهم إذا أخبر عن شهود وكشف ، يعلم بصريح العقل بطلانه ، علم أن كشفه باطل .

وأما إن كان لم يعلم بطلانه ، فهذا قد يمكن إصابته ، وقد يمكن خطؤه ، إذ غير الأنبياء ليس بمعصوم .

وهؤلاء سمعوا باسم الله وقصدوا عبادته ومعرفته ، فوقفوا على أثره في مصنوعاته فظنوا أنه هو . كمن سمع بالشمس ، فلما أن رأى الشعاع المنبسط في الهواء والأرض ، ظن أن ذلك هو الشمس ولم يصعد ببصره وبصيرته إلى الشمس التي في السماء

وكذلك هؤلاء لم تصعد بصائر قلوبهم إلى رب العالمين ، الذي فوق كل شيء ، المباين لمخلوقاته .

وسر ذلك ، أنهم يشهدون بقلوبهم وجوداً مطلقاً بسيطاً ، ليس له اسم

خاص ، كالحى ، والعليم ، والقدير . ولا له صفة ، ولا يتميز فيه شىء عن شىء ، وهذا هو الوجود المشترك .

لكن هذا الشهود هو فى نفوسهم ، لا حقيقة له فى الخارج ، وكثير ممن يخاطبهم لا يتصور ما يشهدونه ، فيظنون أنه لم يفهم ما شهدوه .

وقد خاطبت غير واحد منهم ، وبينت له أن هذا الذى يشهدونه هو فى الذهن ، وبتقدير أن يكون موجوداً فى الخارج ، فهو صفة للموجودات ، أو جزء منها ، ويظنون مع ظنهم أنه موجود فى الخارج ، أنه لم يبق فى الخارج غير ما شهدوه ، فإنهم يغيبون عن الحس الذى يدرك المعينات ، ويغيبون عقلهم عن تصورها ، حتى لا يميزوا بين موجود وموجود ، ويقولون : الحس فيه تفرقة ثم يشهدون هذا الوجود المطلق مع عزلهم الحس ، فيظنون أن هذا المطلق هو نفس المعينات ، وأنه ما بقى موجود أصلاً .

فيقال لهم : لو قُدِّر أن الوجود الكلى ثابت فى الخارج كلياً ، وأنكم شهدتم ذلك ، فمعلوم عند كل عاقل أن وجود الكلى المشترك ، لا يناقض وجود المعين المختص .

فالحيوانية ، والإنسانية المشتركة المطلقة ، لا تناقض أعيان الحيوان وأعيان الإنسان ، وحينئذ فثبوت أعيان الموجودات حاصل فى الخارج .

وهب أنكم غبتم عن هذا ولم تشهدوه ، فالغيبة عن شهود الشىء لا يوجب عدمه فى نفسه .

فإذا لم يشهد العبد الشىء ، أو لم يره ، أو لم يعلمه ، أو لم يخطر بقلبه ، أو فَنِيَ عن شهوده ، أو اصطلم ، أو غاب ، لم يلزم من ذلك أن يكون الشىء صار فى نفسه معدوماً فانياً لا حقيقة له ، بل الفرق ثابت بين أن يعدم الشىء فى نفسه ويفنى ويتلاشى ، وبين أن يعدم شهود الإنسان له وذكره ومعرفته .

وهؤلاء — من ضلالهم — يظنون أنه إذا فنى شهودهم للموجودات ، كانت

فانية فى أنفسها ، فلم يكن موجوداً إلا ما يخيلونه من الوجود المطلق .

ويقولون : الكثرة والتفرقة فى الحس ، فإذا فنى شهود القلب عن الحس ، لم يبق تفرقة ولا كثرة ، ويظنون أن شهود الحس حينئذ خطأ ، والعقل هو الذى يشهد الكليات والمطلقات دون الحس ، فإذا أبطلوا ما شهده الحس ، لم يبق معهم إلا الوجود الكلى .

ثم يظنون — مع ذلك — أنه هو الله ، فيبقى الرب — عندهم — وهماً وخيالاً فى نفوسهم ، لا حقيقة له فى الخارج ، كما قال بعض حذاقهم ، وهو «الششترى» صاحب ابن السبعين ، وهمك هو يتشخص ما تحته شىء . وقال :

يرى الوجود واحد وأنت ذاك وليس عليك زائد ما ثمّ سواك

وقلت لبعض حذاقهم : هب أن هذا الوجود المطلق ثابت فى الخارج وأنه عين الموجودات المشهودة ، فمن أين لك أن هذا هو رب العالمين الذى خلق السموات والأرض وكل شىء ؟

فاعترف بذلك وقال : هذا ما فيه حيلة .

والحس الباطن أو الظاهر إن لم يقترن به العقل الذى يميز بين المحسوس وغيره وإلا دخل فيه من الغلط من جنس ما يدخل على النائم والممرور والمبرسم وغيرهم ، ممن يحكم بمجرد الحس الذى لا عقل معه :

والبهائم قد تكون أهدى من هؤلاء ، كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١١٧] وهؤلاء يصرحون برفض السمع والعقل ، فدخلوا فى قوله ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ ويلزمون أنفسهم الغيبة عن العقل والحس الظاهر والشرع ؛ فلهذا يقول أحذقهم التلمسانى .

فَقُلْ لِحُسْنٍ تَغِبْ وَجْداً وَذُبْ طَرَباً ... فِيهَا وَقُلْ لِزَوَالِ العَقْلِ لَا تَزُلِ
وَاصْمُتْ إِلَى أَنْ تَرَاهَا فِيكَ نَاطِقَةً ... فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَاناً قَائِلاً فَقُلِ

وهؤلاء ، لبسط الكلام عليهم موضع آخر .

والمقصود ـ هنا ـ أن النصارى زعموا أن اللاهوت محتاج إلى ما اتحد به من الناسوت ، وهؤلاء زعموا أن رب العالمين محتاج إلى كل ما سواه من الأعيان الثابتة فى العدم .

فإن كل من قال : إن رب العالمين اتحد بغيره ، فكل من المتحدين مفتقر عليه الآخر ، مع استحالة كل منهما ، وتغير حقيقته ، ولا كذلك الحلول المعقول ، فإن الحلول لا يعقل إلا إذا كان الحالّ قائماً بالمحل محتاج إليه ، سواء أريد بذلك حلول الصفات والأعراض فى الموصوفات والجواهر ، أو أريد به حلول الأعيان .

فإن كون أحد الجسمين محلاً للآخر ، كحلول الماء فى الظرف ، هو يوجب افتقاره إليه .

وما يحل فى قلوب المؤمنين من معرفة الرب والإيمان به ، هو قائم بقلوبهم محتاج إليه .

وكذلك ما يثبته الفلاسفة من الهيولى والصورة ، ويقولون : إن الهيولى محل الصورة ، ويعترفون ـ مع ذلك ـ بأن الصورة محتاجة إلى الهيولى .

والقائلون بوحدة الوجود ، فقد يجعلون الخالق مع المخلوقات كالصورة مع الهيولى كما يشير إليه « ابن سبعين » ويقول هو فى الماء ماء ، وفى النار نار ، وفى كل شىء بصورة ذلك الشىء كما قد بسط الكلام على هؤلاء فى مواضع غير هذا الكتاب .

وإذا قالوا : إن الرب حلّ فى المسيح ، كما حلّ فى غيره ، وهو الحلول الموجود فى كلام داود عندهم ، حيث قالوا : أنت تحل فى قلوب القديسين ، فقد عرف أن هذا حلول الإيمان به ومعرفته وهداه ونوره والمثال العلمىّ ، كما قد بسط فى

موضع آخر ، ولهذا يسمى ظهوراً والشعاع الحال على الأرض والهواء ، عرض قائم بذلك ، وهو مفتقر إلى الأرض والهواء .

والرسل صلوات الله عليهم ، أخبروا بأن الله فوق العالم بعبارات متنوعة : تارة يقولون : هو العلي وهو الأعلى ، وتارة يقولون : هو في السماء كقوله ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وليس مرادهم بذلك أن الله في جوف السموات ، أو أن الله يحصره شيء من المخلوقات ، بل كلام الرسل كله يصدق بعضه بعضا ، كما قال تعالى : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات : ١٨٠-١٨٢] .

وقد قال تعالى : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء » فأخبر أنه لا يكون شيء فوقه .

ولهذا قال غير واحد من السلف : إنه ينزل إلى سماء الدنيا ، ولا يخلو العرش منه ، فلا يصير تحت المخلوقات وفي جوفها قط ، بل العلو عليها صفة لازمة له حيث وجد مخلوق ، فلا يكون الرب إلا عالياً عليه .

وقول الرسل « في السماء » أي في العلو ، ليس مرادهم أنه في جوف الأفلاك بل السماء العلو ، وهو إذا كان فوق العرش ، فهو العلي الأعلى وليس هناك مخلوق ، حتى يكون الرب محصوراً في شيء من المخلوقات ، ولا هو في جهة موجودة ، بل ليس موجوداً إلا الخالق والمخلوق ، والخالق بائن عن مخلوقاته ، عالٍ عليها ، فليس هو في مخلوق أصلاً ، سواء سُمِّيَ ذلك المخلوق جهة أو لم يسم جهة .

ومن قال : إنه في جهة موجودة تعلو عليه ، أو تحيط به ، أو يحتاج إليها بوجه من الوجوه ، فهو مخطىء .

كما أن من قال : ليس فوق السموات رب ، ولا على العرش إله ، ومحمد لم يعرج به إلى ربه ، ولا تصعد الملائكة إليه ، ولا تنزل الكتب منه ، ولا يقرب منه شيء ، ولا يدنو إلى شيء ، فهو أيضاً مخطيء .

ومن سمى ما فوق العالم جهة ، وجعل العدم المحض جهة ، وقال هو فى جهة ـ بهذا المعنى ـ أى هو نفسه فوق كل شيء ، فهذا معنى صحيح .

ومن نفى هذا المعنى بقوله : ليس فى جهة فقد أخطأ .

بل طريق الاعتصام أن ما أثبته الرسل لله ، أثبت له ، وما نفته الرسل عن الله ، نفى عنه :

والألفاظ التى لم تنطق الرسل فيها بِنَفْيٍ ، ولا إثبات ، كلفظ « الجهة » ، و« الحيز » ، ونحو ذلك لا يطلق نفياً ، ولا إثباتاً إلا بعد بيان المراد .

فمن أراد بما أثبت معنى صحيحاً ، فقد أصاب فى المعنى ، وإن كان فى اللفظ خطأ .

ومن أراد بما نفاه معنى صحيحاً ، فقد أصاب فى المعنى ، وإن كان فى لفظه خطأ .

وأما من أثبت بلفظه حقاً وباطلاً ، أو نفى بلفظه حقاً وباطلا ، فكلاهما مصيب فيما عناه من الحق ، مخطيء فيما عناه من الباطل ، قد لَبَسَ الحق بالباطل ، وجمع فى كلامه حقاً وباطلاً .

والأنبياء كلهم متطابقون على أنه فى العلو .

وفى القرآن والسنة ما يقارب ألف دليل على ذلك ، وفى كلام الأنبياء المتقدمين مالا يحصى .

فصـــــل

قال سعيد بن البطريق : وذلك مثل ما أن شعاع الشمس المولود من عين الشمس ، الذى يملأ ضوؤه ما بين السماء والأرض نوراً ، وفى بيت من البيوت

يكون فيه ضياء بنوره ، من غير مفارقة لعين الشمس التى تولد منها حقاً ؛ لأنه لم ينقطع من العين ، ولا من الضوء . فكذلك سكن الله فى الناسوت من غير أن يفارقه الأب ، فهو مع الناسوت ، وهو مع الأب وروح القدس حقاً .

فيقال : هذا التمثيل لو قدر أنه صحيح ، فإنما يشبه من بعض الوجوه قول من يقول : إنه بذاته فى كل مكان ، كشعاع الشمس ، الذى يظهر فى الهواء والأرض .

وأما النصارى ، فإنهم يخصونه بناسوت المسيح دون سائر النواسيت ، ولو مثل بهذا من يقول : إنه بذاته فى كل مكان ، لكان باطلاً ، فكيف النصارى ؟ ! فإن الضوء إنما يكون فى الهواء وسطوح الأرض ، لا يكون تحت السقوف ، والغيران و باطن الأرض .

ثم هـذا التمثيل باطل من وجوه :

أحدها : ـ أن الشعاع ليس متولداً من جرم الشمس ، ولا شعاع النار متولد من جرم النار ، بل هو حادث بائن عن جرم الشمس ، ولكنها سبب فى حصوله .

ولهذا يشبه به العلم الحاصل فى قلب المتعلم بسبب تعلم العلم من غير أن يكون من ذات علم العالم .

ولهـذا يشبه علم العالم بالسراج الذى يقتبس كل أحـد من نوره ، وهو لم ينقص .

بخلاف تولد المولود عن والده ، فإنه متولد من عينه .

والشعاع القائم بالهواء والأرض ، ليس هو قائماً بذات الشمس والنار ، بل هو عرض قائم بمحل آخر ، والعرض الواحد لا يكون فى محلين .

والنصارى يقولون : إن الكلمة التى هى علم الله أو حكمته ، متولدة منه ، وهى قديمة أزلية ، والصفة قائمة بالموصوف ، فالصفة مثل ما يقوم بذات الشمس

من استدارة وضوء ، فذاك صفة لها ، وهو غير الشعاع القائم بالهواء ، فإن ذاك بائن عنها ، فكيف يجعل هذا هو هذا ؟!

فإن قالوا : نحن مقصودنا أن حكمة الله وعلمه ونوره أنزله إلى المسيح وأفاضه على المسيح ، كما يفيض الشعاع عن الشمس .

قيل لهم : فهذا قدر مشترك بين المسيح وسائر الأنبياء ، فلا اختصاص للمسيح بذلك .

الوجه الثانى : ـ قولهم : الذى يملأ ضوؤه ما بين السماء والأرض نوراً ، وفى بيت من البيوت يكون فيه حقاً من غير مفارقة لعين الشمس التى تولد منها حقاً .

فيقال لهم : الشعاع الذى بين السماء والأرض ، هو الضوء ، وهو النور .

فقولكم : إن الشعاع يملأ ضوؤه ما بين السماء والأرض نوراً ، يقتضى أنه شعاع ، وضوء شعاع ، ونور حدث عن ذلك . وهذا غلط ، بل ليس هنا إلا جرم الشمس ، التى فى السماء وشعاعها ، وهو الضوء والنور الذى ما بين السماء والأرض .

الثالث : قولكم : « من غير مفارقة عين الشمس » يقتضى أن هذا الشعاع هو نفس ما قام بالشمس ، وهذا مكابرة للحس والعقل ، بل الشعاع الذى قام بالهواء والأرض ، عَرَضٌ لم يقم بالشمس قط .

وكل شعاع بقعة ، فليس هو عين الشعاع الذى فى البقعة الأخرى ، وإن كان هو نظيره ومثله ، وجنس الشعاع يجمعهما ، كما أن شعاع هذا السراج ، ليس هو شعاع هذا السراج وإن قدر اختلاطهما حتى يقوى الضوء ، ولا حركة هذا الهواء هى حركة هذا الهواء ، ونظائر ذلك متعددة .

الرابع : قولكم : « كذلك الله سكن فى الناسوت من غير أن يفارقه الأب » تمثيل باطل .

فإن الشمس نفسها لم تسكن فى الهواء والأرض ، وإنما سكن شعاعها .

فوزانه أن يقال : فكذلك سكن نور الله ، و برهانه ، وهداه ، وروحه .

وهذا إذا قلته ، فهو منقول عن الأنبياء ، تنطق كتبهم بأن نور الله وروحه وهداه فى قلوب المؤمنين ، لكن لا اختصاص للمسيح بذلك .

قال الله تعالى : ﴿ اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾ .

قال أُبَىٌّ بن كعب : مثل نوره فى قلب المؤمن .

وفى الترمذى عن أبى سعيد ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » ، ثم قرأ قوله : ﴿ إِنَّ فى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ .

الخامس : أنكم إذا جعلتم الله نفسه ساكناً فى المسيح ، فوزانه أن تكون الشمس نفسها ساكنة فى موضع صغير من الأرض .

وهذا التمثيل يبطل قولكم : إن الله أعلا وأعظم وأجل وأكبر ، والله أجل وأكبر وأعظم من كل شىء ، والشمس آية من آياته ، ومخلوق من مخلوقاته ، ومع هذا فلو قال قائل : إن الشمس سكنت فى جوف امرأة وخرجت من فرج تلك المرأة ، لكان كل عاقل يعلم فساد قوله ، وينسبه إلى الجهل العظيم ، أو الجنون ، وسواء قال : إن الشمس نفسها نزلت ؛ أو لم تنزل .

وأنتم تقولون : إن رب العالمين سكن فى بطن مريم ، ويقول أكثركم — كالملكية واليعقوبية — : إنه خرج من فرج مريم .

ولو قال قائل عما هو من أصغر مخلوقات الله كوكب من الكواكب ، أو جبل من الجبال ، أو صخرة عظيمة — : إن ذلك كان فى بطن امرأة وخرج من فرجها ، لضحك الناس من قوله ، فكيف بمن يدّعى مثل ذلك فى رب العالمين ؟ !

وإذا قالوا : إن الله نزل إلى السماء الدنيا ، أو نزل إلى الطور وكلم موسى من العليقة ، أو فى عمود الغمام ونحو ذلك ، فليس فى شىء من ذلك أنه اتحد بمخلوق ، لا سماء ، ولا طور ، ولا شجرة ، ولا كان كلامه قائماً بشىء مخلوق ، لا شجرة ، ولا غيرها .

وعندهم أنه اتحد بالمسيح ؛ وكان صوت المسيح القائم به ؛ هو صوت رب العالمين بلا واسطة .

فصـــــل

قال سعيد بن البطريق : ومثلما أن كلمة الإنسان المولودة من عقله ، تكتب فى قرطاس ، فهى فى القرطاس كلها حقاً من غير أن تفارق العقل الذى منه ولدت ، ولا يفارقها العقل الذى ولدها ؛ لأن العقل بالكلمة يعرف ؛ لأنها فيه ، والكلمة كلها فى العقل الذى ولدها ، وكلها فى نفسها ، وكلها فى القرطاس الذى التحمت به ، فكذلك كلمة الله ، كلها فى الأب الذى ولدت منه ، وكلها فى نفسها وفى الروح ، وكلها فى الناسوت التى حلت فيها والتحمت بها .

فيقال : هذا التمثيل حجة عليكم ، وعلى فساد قولكم ، لا حجة لكم ، وذلك يظهر بوجوه :

أحـدها : ـ أن يقال : إن كان حلول كلمة الله ـ التى هى المسيح ـ فى الناسوت ، مثل كتابة الكلام فى القرطاس ، فحينئذ يكون المسيح من جنس سائر كلام الله ، كالتوراة ، وزبور داود ، والإنجيل ، والقرآن وغير ذلك ، فإن هذا كله كلام الله ، وهو مكتوب فى القراطيس باتفاق أهل الملل ، بل الخلق كلهم متفقون على أن كلام كل متكلم يكتب فى القراطيس ، وقد قال تعالى فى القرآن : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ،

وقال : ﴿ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ ؛ وقال : ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ .

وإذا كانت الكلمة التى هى المسيح عندكم هكذا ، فمعلوم أن كلام الله المكتوب فى القراطيس ، ليس هو إلهاً خالقاً ، وهو كلام كثير ، لا ينحصر فى كلمة ، ولا كلمتين .

ولو قال قائل : يا كلام الله اغفر لى وارحمنى ، أو يا توراة ، أو يا إنجيل ، أو يا قرآن اغفر لى وارحمنى ؛ كان قد تكلم بباطل عند جميع أهل الملل والعقلاء .

وأنتم تقولون : المسيح إله خالق ، وهو يُدْعَى ويُعْبَد . فكيف تشبهونه بكلام الله المكتوب فى القراطيس ؟ !

الثانى : أن الكلام المكتوب صفة للمتكلم ، يقوم ويكتب فى القراطيس عند سلف أهل الملل وجماهيرهم .

وعند بعضهم ، هو عرض مخلوق ، يخلقه فى غيره .

فالجميع متفقون ، على أن الكلام صفة تقوم بغيرها ؛ ليس جوهراً قائماً بنفسه .

والمسيح ـ عندكم ـ لاهوته جوهر قائم بنفسه ، وهو إله حق من إله حق وهو ـ عندكم ـ إله تام وإنسان تام .

فكيف تجعلون الإله الذى هو عين قائمة بنفسها ، كالصفة التى لا تقوم إلا بغيرها .

الثالث : قولكم : « إن كلمة الإنسان مولودة من عقله » . لو كان صحيحاً ، فالتولد لا يكون إلا حادثاً .

وأنتم تقولون : إن كلمة الله القديمة الأزلية ؛ متولدة منه قبل الدهور .

وتقولون ـ مع هذا ـ : هى إله .

وهذا كما أن بطلانه معلوم بصريح العقل ؛ فهى بدعة وضلالة فى الشرع ؛ فإنه لم يسم أحد من الأنبياء شيئاً من صفات الله ابنا له ؛ ولا قال : إن صفته متولدة منه ؛ ولفظ « الابن » لا يوجد عندكم عن الأنبياء إلا اسما لناسوت مخلوق ، ولا لصفة الله القديمة ؛ فقد بدلتم كلام الأنبياء بهذا الافتراء .

الرابع :ـ قولكم : « مولودة من عقله » إن أردتم « بعقله » العين القائمة بنفسها التى يسميها قلباً وروحاً ونفساً ؛ أو نفساً ناطقة ؛ فتلك إنما تقوم بها المعانى ؛ وأما الألفاظ فإنما تقوم بفمه ولسانه .

وإن أردتم « بعقله » مصدر عقل يعقل عقلا ؛ فالمصدر عرض قائم بالعقل ، وهو عرض من جنس العلم والحكمة والعمل الصالح .

وإن أردتم بالعقل ، الغريزة التى فى الإنسان ، فهو أيضاً عرض .

الخامس : أن تسميتكم تكلم الإنسان بالمعنى أو اللفظ تولداً ، أمر اخترعتموه ، لا يعرف عن نبى من الأنبياء ، ولا أمة من الأمم ، ولا فى لغة من اللغات .

وإنما ابتدعتم هذا لتقولوا : إذا كان كلام الإنسان متولداً منه ، فكلام الله متولد منه .

ولم ينطق أحد من الأنبياء بأن كلام الله تولد منه ، ولا أنه ابنه ولا أن علمه تولد منه ، ولا أنه ابنه .

السادس : قولكم : « إن كلمة الإنسان المولودة من عقله تكتب فى القرطاس فهى فى القرطاس كلها حقاً من غير أن تفارق العقل الذى منه ولدت » إلى قولكم : « الكلمة كلها فى العقل الذى ولدها ، وكلها فى نفسها ، وكلها فى القرطاس الذى التحمت به » مكابرة ظاهرة معلومة الفساد بصريح العقل .

فإن وجود الكلام فى القلب واللسان ، ليس هو عين وجوده مكتوباً فى القرطاس ، بل القائم بقلب المتكلم معان ، طلب ، وخبر ، وعلم ، وإرادة . والقائم بنفسه ، حروف مؤلفة هى أصوات مقطعة ، أو هى حدود أصوات مقطعة ، وليس فى قلب الإنسان ولا فمه ، مداد كالمداد الذى فى القرطاس .

والكلام مكتوب فى القرطاس بإتفاق العقلاء ، مع علمهم بأنه ليس فى القرطاس علم وطلب وخبر قائم به ، كما تقوم بقلب المتكلم ، ولا قام به أصوات مقطعة مؤلفة ، ولا حروفا كالأصوات القائمة بفم المتكلم ، بل لفظ الحرف يقال على الحرف المكتوب . إما المداد المصور ، وإما صورة المداد وشكله . ويقال على الحرف المنطوق إما الصوت المقطع ، وإما حد الصوت ومنقطعه وصورته .

وكل عاقل يميز بحسه وعقله بين الصوت المسموع من المتكلم ، وبين المداد المرئى بالبصر ، ولا يقول عاقل : إن هذا هو هذا ، ولا يقال : إن هذا وهذا هو نفس المعنى القائم بقلب المتكلم ، فكيف يقولون : إن الكلمة فى القرطاس كلها ، وكلها فى العقل الذى ولدها ، وكلها فى نفسها ؟ !

السابع : أن حرف « فى » التى يسميها النحاة ظرفا ، يستعمل فى كل موضع بالمعنى المناسب لذلك الموضع .

فإذا قيل : إن الطعم واللون والريح ، حالٌ فى الفاكهة ، أو العلم والقدرة ، والكلام حالٌ فى المتكلم ، فهذا معنى معقول .

وإذا قيل : إن هذا حال فى داره ، أو إن الماء حال فى الظرف ، فهذا معنى آخر .

فإن ذاك حلول صفة فى موصوفها ، وهذا حلول عين قائمة ، تسمى جسماً وجوهراً ، فى محلها ، ومنه يقال لمكان القوم : المحلة ، ويقال : فلان حلَّ بالمكان الفلانى .

وإذا قيل : الشمس والقمر فى الماء ، أو فى المرآة ، أو وجه فلان فى المرآة ، أو كلام فلان فى هذا القرطاس ، فهذا له معنى يفهمه الناس ، يعلمون أنه قد ظهرت الشمس والقمر والوجه فى المرآة ، ورؤيت فيها ، وأنه لم يحل بها ذات ذلك ، وإنما حلّ فيها مثال شعاعىّ عند من يقول بذلك .

وكذلك الكلام إذا كتب فى القرطاس ، فالناس يعلمون أنه مكتوب فيه ومقروء فيه ومنظور فيه ، ويقولون : نظرت فى كلام فلان وقرأته وتدبرته وفهمته ورأيته ونحو ذلك ، كما يقولون : رأيت وجهه فى المرآة وتأملته ونحو ذلك .

وهم ـ فى ذلك كله صادقون ـ يعلمون ما يقولون ، ويعلمون أن نفس جرم الشمس والقمر والوجه لم يحل فى المرآة ، وأن نفس ماقام به من المعانى والأصوات لم تقم بالقرطاس ، بل كانت المرآة واسطة فى رؤية الوجه ، فهو المقصود بالرؤية ، وكان القرطاس واسطة فى معرفة الكلام ، فهو المقصود بالرؤية ، وكان .

ويعلمون أن حاسة البصر باشرت ما فى المرآة من الشعاع المنعكس .

ولكن المقصود بالرؤية ، هو الشمس ، وحاسة البصر باشرت ما فى القرطاس من المداد المكتوب ، ولكن المقصود بالرؤية هو الكلام المكتوب .

ويعلمون أن نفس المثال الذى فى المرآة ليس هو الوجه ؛ وأن نفس المداد المكتوب به ، ليس هو الكلام المكتوب ، بل يفرقون بينهما كما قال تعالى : ﴿ قُلْ : لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ ففرق سبحانه بين الكلمات وبين المداد ، الذى يكتب به الكلمات .

فكيف يقال : إن هذا هو هذا ، وأن الكلمة فى القرطاس كلها وهى فى المتكلم كلها ؟!

التامن : ـ أن الـكلام له معنى فى المتكلم ، يعبر عنه بلفظه ، واللفظ يكتب فى القرطاس ، فالمـكتوب فى القرطاس هو اللفظ المطابق للمعنى ، لا يكتب المعنى بدون كتابة اللفظ ، ولهذا من لم يعرف اللفظ الذى كتب بالخط ، لم يعرف ما كتب .

فدعوى هؤلاء أن نفس المعنى الذى فى القلب كله ، هو فى القرطاس كله جعل لنفس المعنى هو الخط ، وهذا باطل .

التاسع : ـ أنه لا ريب أن كلام المتـكلم يقال : إنه قائم به .

ويقال ـ مع ذلك ـ إنه مكتوب فى القرطاس ، ويقال : هذا هو كلام فلان بعينه ، وهذا هو ذاك ، ونحو ذلك من العبارات التى تتبين أن هذا المـكتوب فى القرطاس ، هو هذا الـكلام الذى تكلم به المتكلم بعينه ، لم يزد فيه ولم ينقص ، لم يكتب كلام غيره .

ولا يريدون بذلك أن نفس الخط نفس الصوت ، أو نفس المعنى . فإن هذا لا يقوله عاقل .

فإن قيل : فى المسلمين من يقول : إن كلام الله القديم الأزلى ، أو كلام الله ، الذى ليس بمخلوق ، هو حالٌ فى الصدور والمصاحف من غير مفارقة .

ومن هؤلاء من يقول : إنه يسمع من الإنسان الصوت القديم ؛ أو الصوت الذى ليس بمخلوق .

ومنهم من يقول : إن الحرف القديم ، أو الذى ليس بمخلوق ، هو فى القرطاس ، وحكى عن بعضهم أنه يقول ذلك فى المداد .

ومن هؤلاء من يقول : إن القديم حَالٌ فى المصحف ونحو ذلك .

فتقول . النصارى : نحن هؤلاء .

قيل : الجواب من وجوه

أحدها : أن المقصود بيان الحق الذى بعث الله به رسله ؛ وأنزل به كتبه ، والرد على من خالف ذلك من النصارى وغيرهم .

ونحن لا ننكر أن فى المنتسبين إلى الإسلام ، منهم منافقون ملحدون زنادقة . ومنهم جهال مبتدعة ؛ ومنهم من يقول مثل قول النصارى ؛ ومنهم من يقول شر منه ، فالرد على هؤلاء كلهم ، والعصمة ثابتة لكتاب الله ، وسنة رسوله .

وما اجتمع عليه عباده المؤمنون . فهذا لا يكون إلا حقاً ، وما تنازع فيه المسلمون ، ففيه حق و باطل .

الوجه الثانى : ـ أن يقال هؤلاء الذين قالوا فى القرآن ما قالوه ، ليس قولهم مثل قول النصارى .

فإن النصارى جعلوا لله ولداً قديماً أزلياً سموه « كلمة » وقالوا : إنه إله يخلق ويرزق ، وإنه اتحد بالمسيح ، فجعلوا المسيح ـ الذى هو الكلمة عندهم ـ إلهاً يخلق ويرزق .

وليس فى طوائف المسلمين المعروفة من يقول : إن كلام الله إله يخلق ويرزق .

ولكن محمد وغيره من الرسل ، عليهم السلام ، بلغوا إلى الخلق كلام الله الذى تكلم به .

فكان الصحابة والتابعون لهم بإحسان على أن القرآن والتوراة والإنجيل ، وغير ذلك من كلام الله ، هو كلام الله الذى تكلم به ، وأن الله أنزله وأرسل به ملائكته ، ليس هو مخلوقاً بائناً عنه خلقه فى غيره .

ويقولون : إن هذا القرآن هو كلام الله ، الذى بلغه رسوله ، والمسلمون يقرءونه ، ويسمع من القارىء كلام الله ، لكن يقرءونه بأفعالهم وأصواتهم ، ويسمعونه من القارىء الذى يقرؤه بصوت نفسه ، فالكلام كلام البارىء ، والصوت صوت القارىء .

ويقولون : إن الله تكلم به ، وبما كلم به موسى ، وأن موسى سمع نداء الله بأذنه ، فكلمه الله بالصوت الذى سمعه موسى ، كما بين ذلك فى كتب الله ، القرآن ، والإنجيل ، والتوراة وغير ذلك .

فحدث بعد الصحابة ، وأكابر التابعين طائفة معطلة يقولون : إن الله لم يكلم موسى تكليما ، ولم يتخذ إبراهيم خليلا ، فقتل المسلمون مقدمهم « الجعد » وصار لهم مقدم يقال له « الجهم » فنسبت إليه الجهمية ، نفاة الأسماء والصفات .

تارة يقولون : إن الله لم يتكلم ولم يكلم موسى ، وإنما أطلق ذلك مجازاً .

وتارة يقولون : تكلم ويتكلم حقيقة ، ولكن معنى ذلك أنه خلق كلاما فى غيره ؛ سمعه موسى ، لا أنه نفسه قام به كلام ، وهذا قول من يقوله من المعتزلة ونحوهم .

وزين هذا القول لبعض ذوى الإمارة ، فدعو إليه مدة وأظهروه وعاقبوا من خالفهم ، ثم أطفأ الله ذلك ، وأظهر ما كان عليه سلف الأمة ؛ أن القرآن ، والتوراة ، والإنجيل كلام الله ، تكلم هو به . منه بدا ، ليس بائن منه ، وليس بمخلوق خلقه فى غيره .

ولما أظهر الله هذا ، والناس يتلون قول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ؛ صار بعض أهل الأهواء يقول : إنما يسمع صوت القارئ ، وصوته مخلوق ، وهو كلام الله ، فكلام الله مخلوق .

ولم يميز هذا ، بين أن يسمع الكلام من المتكلم به ، كما سمعه موسى من الله بلا واسطة ، وبين أن يسمع من المبلغ عنه .

ومعلوم أنه لو سمع كلام الأنبياء وغيرهم من المبلغين ، لم يكن صوت المبلغ هو صوت المبلغ عنه ، وإن كان الكلام كلام المبلغ عنه ، لا كلام المبلغ .

فكلام الله إذا سمع من المبلغين عنه ، أولى أن يكون هو كلام الله ، لا كلام المبلغين ، وإن بلغوه بأصواتهم .

فجاءت طائفة ثانية فقالوا : هذا المسموع ألفاظنا وأصواتنا وكلامنا ، ليس هو كلام الله ؛ لأن هذا مخلوق ، وكلام الله ليس بمخلوق .

وكان مقصود هؤلاء تحقيق أن كلام الله غير مخلوق ، فوقعوا فى إنكار أن يكون هذا القرآن كلام الله ، ولم يهتدوا إلى أنه ــ وإن كان كلام الله ، فهو كلام الله مبلغاً عنه ــ ليس هو كلامه مسموعاً منه ، ولا يلزم إذا كانت أفعال العباد وأصواتهم مخلوقة ليست هى كلام الله ، أن يكون الكلام الذى يقرءونه بأفعالهم وأصواتهم كلامهم ويكون مخلوقاً ليس هو كلام الله .

ثم هؤلاء الذين قالوا : ليس هذا كلام الله ، منهم من قال : هو حكاية لكلام الله ، وطردوا ذلك فى كل من بلغ كلام غيره أن يكون ما بلغه حكاية لكلام المبلغ عنه لا كلامه .

وأهل الحكاية منهم من يقول : إن كلام الرب يتضمن حروفاً مؤلفة ، إما قائماً بذاته على قول بعضهم ، أو مخلوقة فى غيره على قول بعضهم ، والقائم بذاته معنى واحد .

ومن هؤلاء من قال : الحكاية تماثل المحكى عنه ، فلا نقول هو حكاية بل هو عبارة عنه ، والتقدير عندهم « فأجره حتى يسمع كلام عبارته أو حكايته » .

فجاءت طائفة ثالثة ، فقالت : بل قد ثبت أن هذا كلام الله ، وكلام الله ليس بمخلوق ، وهذا المسموع هو الصوت ، فالصوت غير مخلوق .

ثم من هؤلاء من قال . إنه قديم . ومنهم من قال : ليس بقديم ، ومنهم من قال : يسمع صوت الرب والعبد ، ومنهم من قال : إنما يسمع صوت الرب .

ثم منهم من قال : إنه قديم ، ومنهم من قال : إنما يسمعه من العبد .

وهؤلاء منهم من قال : إن صوت الرب حل فى العبد ، فضاهوا النصارى .

ومنهم من قال : بل نقول : ظهر فيه من غير حلول . ومنهم من يقول : لا يطلق هذا ولا هذا .

وكل هذه الأقوال محدثة مبتدعة ، لم يقل منها شيئاً أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا إمام من أئمة المسلمين ، كمالك ، والثورى، والأوزاعى . والليث بن سعد، وأبى حنيفة ، وأبى يوسف ، ومحمد ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، و إسحاق بن راهويه ، وابن عيينة وغيرهم .

بل هؤلاء كلهم متفقون على أن القرآن منزل غير مخلوق ، وأن الله أرسل به جبريل ، فنزل به جبريل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فبلغه محمد إلى الناس فقرأه الناس بحركاتهم وأصواتهم وليس شيء من أفعال العباد وأصواتهم قديماً ولا غير مخلوق ، ولكن كلام الله غير مخلوق ، ولم يكن السلف يقولون : القرآن قديم .

ولما أحدث الجهمية وموافقوهم من المعتزلة وغيرهم أنه مخلوق بائن من الله قال السلف والأئمة : إنه كلام الله غير مخلوق .

ولم يقل أحد من السلف : إن الله تكلم بغير قدرته ومشيئته ، ولا أنه معنى واحد قائم بالذات ، ولا أنه تكلم به القرآن أو التوراة أو الإنجيل فى الأزل بحرف وصوت قديم ، لحدث بعد ذلك طائفة فقالوا : إنه قديم .

ثم منهم من قال : القديم هو معنى واحد قائم بالذات ، هو معنى جميع كلام الله .

وذلك المعنى إن عبر عنه بالعبرية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً ، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، والأمر والنهى والخبر صفات له لا أنواع له .

ومن هؤلاء من قال : بل هو قديم ، وهو حروف ، أو حروف وأصوات أزلية قديمة ، وأنها هى التوراة والإنجيل والقرآن .

فقال الناس لهؤلاء : خالفتم الشرع والعقل فى قولكم : إنه قديم ، وابتدعتم بدعة لم يسبقكم إليها أحد من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، وفررتم من محذور إلى محذور ، كالمستجير من الرمضاء بالنار .

ثم قولكم : إنه معنى واحد ، هو مدلول لجميع العبارات ، مكابرة للعقل والشرع فإنا نعلم ـ بالاضطرار ـ أنه ليس معنى آية الكرسى ، هو معنى آية الدَّيْن ، ولا معنى « تبت يدا أبى لهب » هو سورة الإخلاص .

والتوراة إذا عربناها لم تصر هى القرآن العربى الذى جاء به محمد وكذلك إذا ترجمنا القرآن بالعبرية ، لم يكن هو توراة موسى .

وقول من قال منكم : إنه حروف ، أو حروف وأصوات أزلية ، ظاهر الفساد فإن الحروف متعاقبة ، فيسبق بعضها بعضاً ، والمسبوق بغيره ، لا يكون قديماً لم يزل ، والصوت المعين لايبقى زمانين ، فكيف يكون قديماً أزلياً ؟!

والسلف والأئمة لم يقل أحد منهم بقولكم ، لكن قالوا : إن الله تكلم بالقرآن وغيره من الكتب المنزلة ، وإن الله نادى موسى بصوت سمعه موسى بأذنه ، كما دلت على ذلك النصوص .

ولم يقل أحد منهم : إن ذلك النداء الذى سمعه موسى قديم أزلى ، ولكن قالوا : إن الله لم يزل متكلماً إذا شاء وكيف شاء ، لأن الكلام صفة كمال لا صفة نقص ، وإنما تكون صفة كمال إذا قام به ، لا إذا كان مخلوقاً بائناً عنه ، فإن الموصوف لا يتصف إلا بما قام به ، لا يتصف بما هو بائن عنه ، فلا يكون الموصوف حياً عالماً قادراً متكلماً رحيماً مريداً ، بحياة قامت بغيره ، ولا بعلم وقدرة قامت بغيره . ولا بكلام ورحمة وإرادة قامت بغيره .

والكلام بمشيئة المتكلم وقدرته أكمل ممن لا يكون بمشيئته وقدرته .

وأما كلام قائم يقوم بذات المتكلم بلا مشيئته وقدرته ، فإما أنه ممتنع أو هو صفة نقص كما يدعى مثل ذلك فى المصروع .

وإذا كان كالاً ، فدوام الكمال له وأنه لم يزل موصوفاً بصفات الكمال ، أكمل من كونه صار متكلماً بعد أن لم يكن ، لو قدر أن هذا ممكن ، فكيف إذا كان ممتنعاً ؟!

وكان أئمة السنة والجماعة ، كلما ابتدع فى الدين بدعة ، أنكروها ولم يقروها، ولهذا حفظ الله دين الإسلام ، فلا يزال فى أمة محمد طائفة هادية مهدية ظاهرة منصورة .

بخلاف أهل الكتاب ، فإن النصارى ابتدعوا بدعاً خالفوا بها المسيح ، وقهروا من خالفهم ممن كان متمسكاً بشرع المسيح ، حتى لم يبق حين بعث الله محمداً من هو متمسك بدين المسيح ، إلا بقايا من أهل الكتاب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « إن الله نظر إلى أهل الأرض ، فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب .

فلما أظهر قوم من الولاة أن القرآن مخلوق ودعوا الناس إلى ذلك ، ثبّت الله أئمة السنة وجمهور الأمة . فلم يوافقوهم . وكان المشار إليه من الأئمة إذ ذاك أحمد بن حنبل .

ثم بقى ذلك القول المحدث . ظاهراً ، نحو أربعة عشر سنة وأئمة الأمة وجمهورها ينكرونه . حتى جاء من الولاة من منع ، من إظهاره والقول به ، فصار مخفياً كغيره من البدع . وشاع عند العامة والخاصة أن القرآن كلام الله غير مخلوق .

فأراد بعض الناس أن يجيب عن شبهة من قال : إن هذا الذى يقوم بنا مخلوق فقال : القرآن كلام الله غير مخلوق ولكن ألفاظنا به مخلوقة ، وتلاوتنا له مخلوقة .

وربما قالوا : هذا الذى نقرؤه مخلوق ، أو هذا ليس هو كلام الله ، فقصدوا معنى صحيحاً ، وهو كون صفات العباد وأصواتهم وأفعالهم مخلوقة .

لكن غلطوا حيث أطلقوا القول أو أفهموا الناس بأن هذا القرآن الذى

يقرؤه المسلمون مخلوق ، ولم يهتدوا إلى أنا إذا أشرنا إلى كلام متكلم قد بلغ عنه ، فقلنا مثلا لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم كقوله : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى » : هذا كلام رسول الله ، أو لقول الشاعر .

« ألا كل شيء ماخلا الله باطل » . هذا كلام لبيد بن ربيعة ، ونحو ذلك .

فإنا نشير إلى نفس الكلام معانيه ونظمه وحروفه ، لا إلى مايختص بالمبلغ من حركته وصوته ، بل ولا صوت المبلغ عنه وفعله .

فإن كون الحيّ متحركاً أو مصوتاً ، قدر مشترك بين الناطق والأعجم وليس هذا صفة له .

والكلام التى يتميز بها الناطق عن الأعجم ، وإنما يتميز بالمعانى القائمة به . وباللفظ المطابق لها . من الحروف المنظومة بالأصوات المقطعة .

وهذا أمر يختص به المتكلم بالكلام ، لا المبلغ عنه ، فليس الجميع إلا تأدية ذلك .

ولهذا لو قال قائل لشعر لبيد « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » . فقال : هذا شعرى أو كلامى لكونه أنشده بصوته ، لكذبه الناس .

ولو قال : هذا الذى أقوله ، مثل شعر لبيد لكذبه الناس ، وقالوا . بل هو شعره نفسه ، ولكن أديته بصوتك .

بخلاف ما إذا قال قائل ، قولا نظماً أو نثراً ، وقال آخر مثله ، فإن الناس يقولون : هذا مثل قول فلان ، كما قال تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ [سورة البقرة : ١١٨] وقال عن القرآن ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ [سورة الإسراء: ٨٨] ﴾

ولهذا لو قال قارئ : أنا آتى بقرآن مثل قرآن محمد وتلاه نفسه وقال : هذا مثله لأنكر الناس ذلك وضحكوا منه ، وقالوا : هذا القرآن الذى جاء به هو ، ليس هو كلام آخر مماثل له .

فإذا كان القرآن الذى يقرؤه المسلمون ، هو كلام الله الذى بلغه الرسول ، لم يجز أن يقال : ليس هو بكلام الله ، بل هو مثله له ، أو حكاية عنه ، أو عبارة.

وإذا كان معلوماً إنما هو كلام الله ، فقد تكلم به سبحانه ، لم يخلقه بائناً عنه ، ولم يجز أن يقال لما هو كلامه : إنه مخلوق .

فإذا قيل عن ما يقرؤه المسلمون : إنه مخلوق ، والمخلوق بائن عن الله ، ليس هو كلامه ، فقد جعل مخلوقاً ليس هو بكلام الله ، فصار الأمة يقولون : هذا كلام الله ، وهذا غير مخلوق ، لا يشيرون بذلك إلى شىء من صفات المخلوق ، بل إلى كلام الله الذى تكلم به وبلغه عنه رسوله .

والمبلِّغ إنما بلغه بصفات نفسه ، والإشارة فى مثل هذا ، يراد بها الكلام المبلغ ، لا يراد بها ما به وقع التبليغ .

وقد يراد بهذا ، الثانى مع التقييد كما فى مثل الاسم إذا قيل : عبدت الله ، ودعوت الله ، فليس المراد أن المعبود المدعو ، هو الاسم الذى هو اللفظ ، بل المعبود المدعو هو المسمى باللفظ ، فصار بعضهم يقول الاسم هو غير المسمى ، حتى قيل لبعضهم : أقول دعوت الله ، فقال : لا تقل هكذا ، ولكن قل دعوت المسمى بالله ، وظن هذا الغالط أنك إذا قلت ذلك ، فالمراد دعوت هذا اللفظ ، ومثل هذا يرد عليه فى اللفظ الثانى .

فما من شىء عبر عنه باسم ، إلا والمراد بالاسم هو المسمى ، فإن الأسماء لم تذكر إلا لبيان المسميات ، لا أن الاسم نفسه هو ذات المسمى .

فمن قال : إن اللفظ والمعنى القائم بالقلب هو عين المسمّى ، فغلطه واضح

ومن قال : إن المراد بالاسم فى مثل قولك : دعوت الله وعبدته ، هو نفس اللفظ ، فغلطه واضح . ولكن اشتبه على الطائفتين ما يراد بالاسم ونفس اللفظ .

كذلك أولئك اشتبه عليهم نفس كلام المتكلم المبلغ عنه الذى هو المقصود بلفظ المبلغ وكتابته بنفس صوت المبلغ ومداده .

والفرق بين هذ وهذا ، واضح عند عامة العقلاء .

وإذا كتب كاتب اسم الله فى ورقة ، ونطق باسم الله فى خطابه وقال قائل : أنا كافر بهذا ومؤمن بهذا ، كان مفهوم كلامه أنه مؤمن أو كافر بالمسمى المراد باللفظ والخط ، لا أنه يؤمن ويكفر بصوت أو مداد .

فكذلك من قال لما يسمعه من القراء ولما يكتب فى المصاحف : إن هذا كلام الله .

أو قال لما يسمع من جميع المبلغين لكلام غيرهم ولما يوجد فى الكتب : هذا كلام الله ، فليس مرادهم ذلك الصوت والمداد ، وإنما هو المعنى واللفظ الذى بلغه زيد بصوته وكتب فى القرطاس بالمداد .

فإذا قيل عن ذلك : إنه مخلوق ، فقد قيل : إنه ليس كلام الله ، ولم يتكلم به .

ومن قصد نفس الصوت أو المداد ، وقال : إنه مخلوق ، فقد أصاب ، كما أن من قصد نفس الصوت أو الخط وقال : ليس هذا هو كلام الله . بل هو مخلوق ، فقد أصاب ، لكن ينبغى أن يبين مراده بلفظ لا لَبْسَ فيه .

فلهذا كان الأئمة كأحمد بن حنبل وغيره ، ينكرون على من أطلق القول بأن اللفظ بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق ، ويقولون : من قال : إنه مخلوق فهو جهمى ، ومن قال : إنه غير مخلوق فهو مبتدع ، ومن قال : إنه مخلوق هنا ، فقد يقولون : ليس هو كلام الله ، وهذا خلاف المتواتر عن الرسول ، وخلاف ما يعلم بمثل ذلك بصريح المعقول .

فإن الناس يعلمون — بعقولهم — أن من بلغ كلام غيره ، فالكلام كلام المبلغ عنه الذى قاله مبتدياً آمراً بأمره مخبراً بخبره ، لا كلام من قاله مبلغاً عنه مؤدياً .

ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى المواسم : « ألا رجل يحملنى

إلى قومه لأبلغ كلام ربى ؟ فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى » رواه أبو داود وغيره عن جابر .

ولما أنزل الله تعالى ﴿ الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ * فِىٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم : ١ ، ٣]

قال بعض الكفار لأبى بكر الصديق : هذا كلامك أم كلام صاحبك ؟ قال : ليس بكلامى ولا كلام صاحبى ، ولكنه كلام الله .

فلهذا اشتد به إنكار أحمد بن حنبل وغيره من أئمة الإسلام ، وبالغ قوم فى الإنكار عليهم وقالوا : لفظنا بالقرآن غير مخلوق ، وأطلقوا عبارات تشعر أن يكون شىء من صفات العباد غير مخلوقة ، فأنكر ذلك أحمد وغيره ، كما أنكر ذلك ابن المبارك ، وإسحاق بن راهويه ، والبخارى وغير هؤلاء من أئمة السنة ، وبينوا : أن الورق والمداد وأصوات العباد وأفعالهم مخلوقة ، وإن كان كلام الله الذى يحفظه العباد ويقرءونه ويكتبونه غير مخلوق .

فكلام أئمة السنة والجماعة كثير فى هذا الباب ، متفق غير مختلف ، وكله صواب .

ولكن قد يبين بعضهم فى بعض الأوقات ما لا يبينه غيره لحاجته فى ذلك .

فمن ابتلى بمن يقول : ليس هذا كلام الله كالإمام أحمد ، كان كلامه فى ذم من يقول : هذا مخلوق ، أكثر من ذمه لمن يقول : لفظى مخلوق .

ومن ابتُلِىَ بمن يجعل بعض صفات العباد غير مخلوق ، كالبخارى صاحب الصحيح ، كان كلامه فى ذم من يجعل ذلك غير مخلوق أكثر مع نص أحمد والبخارى وغيرهما ، على خطأ الطائفتين .

فصــــل

قال سعيد بن البطريق : وليس حلول كلمة الله الخالقة والتحامها بجوهر

الناسوت ، عن انتقال ولا تغير ولا احتيال من واحد من الجوهرين عن كثافة ، فلا الإلهى احتال عن أن يكون إلهاً خالقاً ، ولا الناسى احتال عن أن يكون ناسياً مخلوقاً .

والاحتيال والتغير ، إنما يلزم الخلطة إذا كانت من خلقين ثقيلين غليظين ، مثل الماء والخمر ، أو الماء والعسل ، أو السمن والعسل ، والذهب والورق والنحاس والرصاص وما أشبه ذلك . لأن كله ثقيل غليظ ، وكل ثقل تخالطه ثقلة لا محالة ، يلزمه التغير حتى يصير إلى ما كانت عليه الأثقال ، فلا الخمر خمراً ، ولا الماء ماء بعد اختلاطهما ـ ولكنهما احتالا جميعاً عن جوهرهما ، فصارا إلى أمر متغير ، ليس هو أحدهما بعينه ، ولا أحدهما خالص من الفساد والاحتيال عن حاله .

فأما إذا كانت الخلطة من خلق لطيف وخلق غليظ ، لم يخالط تلك الخلطة تغير ولا احتيال ، مثل خلطة النفس والجسد إنساناً واحداً ، أحدهما ملتحماً بالآخر من غير أن تكون النفس تغيرت واحتالت ، أى استحالت عن جوهرها أن تكون نفساً تعرفها بفعالها ، ولا الجسد تغير ولا احتال عن حاله وأفعاله ، ومثل ما كان تخالط النار والحديد ، فيلتحمان جميعاً ، فيكونان جمرة واحدة ، من غير أن تكون النار قد تغيرت إلى أن تكون حديدة ثقيلة ونشج وتقطع ، ولا الحديدة تغيرت واحتالت إلى أن تكون ناراً تحرق ، فكذلك تفعل كل خلطة مؤلفة من شيئين مختلفين ، أحدهما روحانى لطيف ، والآخر ثقلى غليظ ، مثل النفس والجسد والنار والحديد ، ومثل الشمس المخالطة للماء والطين وكل رطوبة وحمأة ، فهى لا تتغير ولا تحتال عن نورها ونقائها وضوئها ، مع مخالطتها كل سواد وسخ ، ونتن ونجس .

قال : والخلطة تكون على ثلاثة أوجه .

أحدها ، خلطة باختلاط من الطبيعتين الثقيلتين واحتيالها وفسادها ، مثل خلطة الخمر والماء ، والخل والعسل ، والذهب والورق ، والرصاص والنحاس ،

فإن فى ذلك كله وما أشبهه ، احتيالاً وفساداً ، لأن مزاج الخمر والماء ، ليس بخمر ولا ماء ، لاحتيال كل واحد منهما عن طبعه ، واختلاطهما بفسادهما وتغيرهما عن حالهما .

وكذلك خلطة الخل والعسل ، قد صارت لا خلاً ولا عسلا ، لاحتيال كل واحد منهما ، وخلطة الذهب والورق على مثل ذلك صارت على غير صحة ، لا من الذهب ولا من الورق ، وخلطة الورق والنحاس على غير صحة ، لا من الورق ولا من النحاس . فهذا وجه من الوجوه الثلاثة .

والوجه الثانى : ـ خطة افتراق من الطبيعتين الثقيليتين ، وقد تعرف من تلك الخلطة كل واحدة من الطبيعتين ثابتة فى الأخرى ، بقوامها ووجهها ، مثل الزيت والماء فى قنديل واحد ، ومثل الكتان والقز فى ثوب واحد منسوج بكتان مضلع بقز ، ومثل صنم نحاس ، رأسه من ذهب ، وما أشبه ذلك ، مما لا ينبغى أن يسمى خلطة مع افتراق الطبيعتين والقوامين ، مثل ما لا ينبغى أن يكون بين الماء والقلة التى هو فيها خلطة ، لأن طبيعة القلة فخار ، قوامها قلة ، وليس بينها و بين الماء خلطة ، بل أشد الفرقة .

وكذلك الماء والزيت ، لولا أن وعاء القنديل الذى هما فيه ضمهما مااجتمعا .

وكذلك الكتان والقز ، ليس بينهما خلطة ، و إن كانا فى ثوب واحد ، ولا بين الذهب والنحاس ولم يسبكا ، خلطة ، و إن جمعهما صنم واحد .

فهاتان الخلطتان لا تكونان أبداً إلا فى أثقال جسمانيات غليظة

فإن التحم بعضها ببعض مثلما يذاب الذهب والنحاس ويفرغان جميعاً ، وقعت فى وجه خلطة الاحتيال والفساد ، لأن تلك النقرة ليست بذهب صحيح ولا بنحاس صحيح .

فإن لم تلحم وألزم بعضها بعضاً ، مثل طوق يكون من نحاس وذهب ، وقعت من وجه خلطة الافتراق التى لا يحق لها أن تسمى خلطة .

وفى هذين الوجهين : وقع نسطورس وأشياعه . فلزموا خلطة الاحتيال والفساد . فزعموا أن الطبيعة الإلهية ، والطبيعة الناسية اختلطا فى المسيح الواحد . فهو ذو قوام واحد بطبيعة واحدة ، مختلطة من طبيعتين مختلفتين ، إلهية وناسية ، فأقروا أنهما قد احتالا ، والاحتيال فساد .

وألزموا على هذا القول الكافر ، طبيعة الله المصائب والموت ، وصيروا المسيح لا إلهاً صحيحاً ، ولا إنساناً ، مثل نقرة الذهب والنحاس .

فنسطورس وأشياعه لزموا خلطة الفرقة والانقطاع ، فزعموا : أن المسيح الواحد ذو طبيعتين مختلفتين ، إلاهية وناسية ، وذو قوامين معروفين ، إلهى : وناسى . فصيروا الفرقة خلطة ، كالطوق الملون نصفين ، أحدهما ذهب ، والآخر نحاس ، والثوب المبطن ، ظاهره خز ، وباطنه قطن ، ليس بينهما خلطة فى طبيعة ولا قوام .

وليس لهم ــ على هذا ــ أن يؤمنوا بمسيح واحد ، لأن الطوق الملون طوقان ، والثوب المبطن ثوبان .

فالمسيح مثل ذلك ، مسيحان ، واحد إلهى بطبيعته وقوامه ، مثل قضيب الذهب فى الطوق الملون ، ومثل ظهارة الخز فى الثوب المبطن .

والآخر ناسى ، مثل قضيب النحاس فى الطوق ، و بطانة القطن فى الثوب .

والعجب كل العجب كيف لم يفصل أهل الخلاف والشقاق بين الصنفين كليهما ، ولم يفهموا أن هاتين الخلقتين أنهما خلقتان ذواتا أثقال جسمانية غليظة ، ليس فيهما شىء من الخلق الروحانى اللطيف الخفيف ، ولذلك لا تقدر الأثقال الغليظة على الخروج من هذين الوجهين من وجوه الخلطة ، لأنهما إن اختلطا خلطة ملتحمة ممتزجة ، صارت إلى احتيال وفساد ، وإن قامت على حالها ، لا تلتحم ، ولا يمتزج بعضها ببعض ، فهى على وجه خلطة الافتراق ، ومنقطعة بعضها من بعض . وإن جمعها صنم واحد أو ثوب واحد ، فليس يوجد لشىء من

الأثقال الجسمانية وجه خلطة ، سوى هذين الوجهين أبداً ، إما فساد ، و إما انقطاع ، إلا أن تكون الخلطة فى اثنين ، أحدهما ثقيل جسمانى ، والآخر لطيف روحانى ، فإن ذلك هو الوجه الثالث من الخلطة ، وهى خلطة الحلول بلا اختلاط ولا احتيال ولا فساد ولا فرقة ولا انقطاع ، لكنها نفاذ الطبيعة الروحانية فى الطبيعة الثقيلة السفلية حتى تنتشر فى جميعها وتحل بكلها ، فلا يبقى موضع من الطبيعة الثقيلة السفلية خلواً من الطبيعة الروحانية ، ولا احتيال من الثقيلة الجسمانية عن طبيعتها الغليظة الثقيلة ولا تغيير ولا فساد لإحداهما ، مثل خلطة النفس والجسد ، ومثل خلطة النار والحديد فى قوام جمرة واحدة ، فهى جمرة واحدة بالقوام من طبيعة نار ملتحمة ، مخالطة لطبيعة الحديدة بلا فرقة من انقطاع ، ولا تخليط احتيال وفساد ، وقد انتشرت النار فى جميع الحديدة ولبستها ، وأنالت النار الحديدة من قوامها وقوتها حتى أنارت الحديدة وحرقت ، ولم تنل النار من ضعف الحديدة شيئاً من السواد والبرودة .

فعلى هذا الوجه من الخلطة دبرت كلمة الله الخالقة خلطتها للطبيعة البشرية .

فهو مسيح واحد ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل الأدهار ، كلها نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود ليس بمخلوق من سوس أبيه وجوهره وطبيعته ، وهو إياه من مريم العذراء المولود منها فى آخر الزمان بقوام واحد ، قوام ابن الله الوحيد الجامع للطبيعتين كلتيهما ، الإلهية التى لم تزل فى البدء قبل كل بدء ، والناسية التى كونت فى آخر الزمان المقوم بالقوام الأزلى .

فهو مسيح واحد ، بقوام واحد أزلى ذو طبيعتين : إلهية لم تزل ، وناسية خلقها له والتحم بها من مريم العذراء ، فقوامه ذلك ، قوام الطبيعة الإلهية والطبيعة الناسية ، جامعاً لهما بلا اختلاط ، ولا فساد ، ولا فرقة انقطاع ، لم يزل قوام الطبيعة الإلهية ، ثم هو قوام الطبيعة الناسية ، قد خلقها وكونها وقومها بقوامه ، الذى لم يزل يقيم إلا به ولم يعرف الإله .

والجواب عن هذا الكلام بعد أن يقال : إنه تناقض ، فجعل هـذا تارة اختلاطاً ، وتارة يقول : ليس هو اختلاطاً أن يقال : إنه ـ أولا ـ قد يجعل هذا الحلول والالتحام اختلاطاً ويقول : إنه لا يكون فيه استحالة ولا تغير ، ويقول : الاستحالة والتغيير إنما يلزم الخلطة ، إذا كانت من خلقين غليظين كالماء والخمر ، فأما إذا كانت من لطيف وكثيف لم يخالط تلك الخلطة تغير ولا احتيال ـ أى استحالة ـ ويقول : والخلطة تكون على ثلاثة أوجه ، ثم يقول : أحدها كالخمر والماء ، والثانى كالزيت والماء ، والكتان والقز . ثم يقول: وما أشبه ذلك مما لا ينبغى أن يسمى خلطة مع افتراق الطبيعتين فيجعله من أقسام الخلطة ثم يقول : ولا ينبغى أن يسمى خلطة .

وليس المقصود المنازعات اللفظية ، بل يقول : دعواه أن أحد نوعى الاختلاط يكون عن تغير واستحالة ، بخلاف النوع الآخر الذى هو اختلاط لطيف وغليظ ، دعوى ممنوعة ، ولم يقم عليها دليلا ، بل يقول : هى باطلة ، بل لا يكون الاختلاط بين شيئين إلا مع تغير واستحالة .

وما ذكره من الأمثال والشواهد ، فهى حجة عليه لقوله : « فأما إذا كانت الخلطة من خلق لطيف وخلق غليظ ، لم يخالط تلك الخلطة تغير ولا احتيال ، مثل خلطة النفس والجسد إنساناً واحداً ، أحدهما ملتحم بالآخر من غير أن تكون النفس تغيرت واحتالت عن جوهرها ، أن تكون نفساً تعرفها بفعالها ولا الجسد تغير واستحال عن حاله وفعاله » .

فيقال : هذا قول باطل ظاهر البطلان لكل من تصوره ، فإن الجسد إذا خلا عن النفس ، مثل ما يكون قبل نفخ الروح فيه ، وما يكون بعد مفارقة الروح له بالموت ، بل آدم عليه السلام أبو البشر ، خلق من تراب وماء ، وصار صلصالا كالفخار ، ثم نفخت فيه الروح ، فصار جسداً هو لحم وعظم وعصب ودم.

فهل يقول عاقل : إن جسد آدم قبل النفس وبعدها على صفة واحدة لم

يتغير ولم تستحل ، وذريته من بعده يخلق أحدهم من نطفة ثم علقة ثم مضغة ، فيكون جسداً ميتاً ، ثم ينفخ فيه الروح ، فيصير الجسد حياً بعد أن كان ميتاً ؟

وأى تغيير أعظم من انتقال الجسد من الموت إلى الحياة ؟ !

ومعلوم بالحس والعقل ، الفرق بين الحى والميت ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ والجسد إذا لم ينفخ فيه الروح فهو موات ليس له حس ولا حركة إرادية ، ولا يسمع ولا يبصر ، ولا ينطق ولا يعقل ، ولا يبطش ولا يأكل ، ولا يشرب ، ولا يمنى ، ولا ينكح ، ولا يتفكر ، ولا يحب ولا يبغض ، ولا يشتهى ولا يغضب .

فإذا اتصلت به النفس وتغيرت أحواله واستحالت صفاته ، وصار حساساً متحركاً بالإرادة ، فكيف يقال مثل خلطة النفس والجسد إنساناً واحداً ، أحدهما يلتحم بالآخر ، من غير أن تكون النفس تغيرت واستحالت عن جوهرها ، أن تكون نفساً يعرفها بفعالها ، ولا الجسد تغير ولا استحال عن حاله وأفعاله ؟

فهل يقول عاقل يتصور ما يقول : إن الجسد كان حاله وفعاله مع مفارقة النفس له ، كحاله وفعاله مع مخالطتها له ؟

وهل يقول عاقل : إن الجسد بعد موته ومفارقة النفس له ، حاله وفعاله ، كحاله وفعاله إذا كانت النفس مختلطة به ، وهو إذا مات ، كالجماد لا يسمع ولا يبصر ، ولا ينطق ولا يبطش ولا يمشى ، قد جمد دمه واسود ، ولم يبق سائلاً ، وتغيرت صحته ولونه ؟ وتغير الجسد بالحياة بعد الموت ، وبالموت بعد الحياة ، من أعظم التغيرات والاستحالات .

وكذلك النفس ، فإن النفس ـ عند اتصالها بالبدن ـ تلتذ بلذته ، وتتألم بألمه .

فإذا أكل البدن ، وشرب ونكح واشتم ، التذت النفس . وإذا ضُرِبَ البدن ، وصُفِعَ وأُهِينَ ، وحُطَّ الشوك على رأسه وبُصِقَ فى وجهه ، تألمت النفس بذلك .

فإذا شبهوا اتحاد الرب بالمسيح باتحاد النفس بالبدن ، وهم يقولون : إن المسيح وكل أحد إذا ضُرِبَ وصُفِعَ وصُلِبَ فتألم بدنه ، تألمت نفسه أيضاً .

. فإن كان الألم مع نفس المسيح وجسده ، كالنفس مع الجسد ، وجب أن يكون الرب يتألم بتألم الناسوت ، ويجوع بجوعه ، ويشبع بشبعه ، فإن ألم الجوع ولذة الشبع ، يحصل للنفس إذا جاع البدن وشبع .

وأيضاً فالمسيح عندهم إله تام وإنسان تام ، والإله إله قبل الاتحاد ، والإنسان إنسان قبل الاتحاد .

فهم يقولون : إنهما بعد الاتحاد إله تام كما كان ، وإنسان تام كما كان .

فنظير هذا أن يكون الإنسان المركب من بدن ونفس ، نفساً تامة وبدناً تاماً ، وأن تكون الحديدة المحماة ، حديداً تاماً ، وناراً تامة ، وهو باطل . بل الإنسان مركب من نفس وبدن ، والإنسان اسم للمجموع ، ليس الإنسان روحاً والإنسان بدناً .

فلو كان الاتحاد حقاً ، لوجب أن يقال . إن المسيح نصفه لاهوت ونصفه ناسوت ، وهو مركب من هذا وهذا .

لا يقال : إن المسيح نفسه إنسان تام ، والمسيح نفسه إله تام ، فإن تصور هذا القول على الوجه التام يوجب العلم الضرورى ، حيث جعلوا المسيح الذى هو المبتدأ ، الموضوع المخبر عنه المحكوم عليه ، هو إنسان تام وهو إله تام ، يوجب أن يكون نفس الإنسان هو نفس الإله .

ولو قيل هذا فى مخلوقين ، فقيل : نفس الملك نفس البشر ، لكان ظاهر البطلان ، فكيف إذا قيل فى رب العالمين ؟ ! لاسيما وكثير من النصارى لا يقولون : إن جسد المسيح مخلوق ، بل يصفون الجميع بالإلهية ، وهذا مقتضى قول أئمتهم القائلين : إن المسيح إله تام لكنهم تناقضوا فقالوا — مع ذلك — : وهو إنسان تام ، فكأنهم قالوا : هو الخالق ليس هو الخالق ، هو مخلوق ، ليس

هو مخلوقا ، فجمعوا بين النقيضين وهذا حقيقة قول النصارى ، لا سيما واتحاد اللاهوت بناسوت المسيح - عندهم - اتحاد لازم لم يفارقه البتة ، فيكون ذلك أبلغ من الاتحاد العارض ، ومن أن الرب كان متحداً بجسد لا روح فيه ، وثم بالجسد مع نفخ الروح فيه ، ثم بالجسد بعد مفارقة الروح له ، وحيث دفن في القبر ووضع التراب عليه .

ومعلوم أن الإنسان إذا كانت فيه النفس وجعل في التراب ، تألمت النفس ألماً شديداً ، ثم تفارق البدن .

ومن العجائب أنهم يقولون : إن المسيح صُلِبَ ومات ، ففارقته النفس الناطقة ، وصار الجسد لا روح فيه ، واللاهوت - مع هذا - متحد لم يفارقه وهو في القبر ، واللاهوت متحد به ، ويجعلون اتحاده به أبلغ من اتحاد النفس بالبدن .

والنفس - عند اتصالها بالبدن - تتغير وتتبدل صفاتها وأحوالها ، ويصير لها من الصفات والأفعال ما لم يكن بدون البدن ، وعند مفارقة النفس تتغير صفاتها وأفعالها .

فإن كان تمثيلهم مطابقاً ، لزم أن يكون الرب قد تغيرت أوصافه وأفعاله لما اختلط بالمسيح ، كما تتغير صفات النفس وأفعالها ، ويكون الرب قبل هذا الاختلاط ، كالنفس المجردة التي لم تقترن ببدن .

وأيضاً فالنفس والبدن شريكان في الأعمال الصالحة والفاسدة ، لهما الثواب وعليهما العقاب ، والثواب والعقاب على النفس ، أكمل منه على البدن فإن كان الرب كذلك ، كان جميع ما يفعله المسيح باختياره فعل الرب ، كما أن جميع ما يفعله البدن باختيار فعل النفس ، فالنفس هي التي تخاطب بالأمر والنَّهي ، فيقال لها : كُلِي واشرَبِي ، وانكحي ، ولا تأكلي ولا تشربي ولا تنكحي .

فإن كان الرب مع الناسوت كذلك ، كان الرب هو المأمور والمنهيُّ بما يؤمر به المسيح ، وكان الرب هو المصلي الصائم العابد الداعي ، وبطل قولهم :

يخلق ويرزق بلاهوته ، ويأكل ويعبد بناسوته .

فإن النفس والبدن لما اتحدا كانت جميع الأفعال الاختيارية للنفس والبدن .

فإذا صلى الإنسان وصام ودعا ، فالنفس والبدن يوصفان بذلك جميعاً ، بل النفس أخص بذلك ، وكذلك إذا أمر أو نهى . فكلاهما موصوف بذلك ، وكذلك إذا ضرب ، فألم الضرب يصل إليهما كما تصل إليهما لذة الأكل والجاع .

بل أبلغ من ذلك أن الجنيّ إذا دخل فى الإنسى وصرعه وتكلم على لسانه ، فإن الإنسيّ يتغير ، حتى يبقى الصوت والكلام الذى يسمع منه ، ليس هو صوته وكلامه المعروف .

وإذا ضرب بدن الإنسى فإن الجنى يتألم بالضرب ويصيح ويصرخ ويخرج منه من ألم الضرب ، كما قد جرب الناس من ذلك ما لا يحصى ، ونحن قد فعلنا من ذلك ما يطول وصفه .

فإذا كان الجنيُّ تتغير صفاته وأحواله لحلوله فى الإنسى ، فكيف بنفس الإنسان ؟!

وعندهم اتحاد اللاهوت بالناسوت أتم وأكمل من اتحاد النفس بالجسد .

فهل يقول عاقل — مع هذا الاتحاد — : إنهما جوهران ، لكل منهما أفعال اختيارية ، لا يشركه الآخر فيها ؟!

ويقولون — مع قولهم بالاتحاد — : إن الذى كان يصلى ويصوم ويدعو ويتضرع ويتعلم ويتألم ويضرب ويصلب ، هو نظير البدن ، والذى كان يأمر وينهى ويخلق ويرزق ، هو نظير النفس .

هذا مع قولهم : إن مريم ولدت اللاهوت مع الناسوت ، وإنه اتحد به مع كونه حياً وقبل حياته وعند مماته ، والجسد فى ذلك كله كسائر أجساد الآدميين ، لم يظهر فيه شىء من خصائص الرب أصلا ، بل ولا بعد إتيانه بالآيات ، فإن تلك كان يجرى مثلها وأعظم منها على يد الأنبياء ، فهذا أقرب أمثالهم وقد ظهر فساده .

وأبعد منه وأشد فساداً ، تمثيلهم ذلك بالنار والحديد .

ومعلوم عند كل من له خبرة ، أن النار إذا اتصلت بشيء من الأجسام الحيوانية والنباتية والجمادية ، مثل جسد الإنسان وغيره ، ومثل الخشب والقصب والقطن وغيره ، ومثل الحديد والذهب والفضة ، فإنها تغير ذلك الجسد وتبدل صفاته عما كانت ، فتحرقه أو تذيبه أو تلينه . والنار المختلطة به لا تبقى ناراً محضة بل تستحيل وتتغير أيضاً .

فقول هؤلاء : « ومثل ما تختلط النار والحديد ، فيلتحمان جميعاً ، فيكونان جمرة واحدة من غير أن تكون النار تغيرت إلى أن تكون حديدة ثقيلة تشج وتقطع ، ولا الحديدة تغيرت واستحالت إلى أن تكون ناراً تحرق » كلام باطل ملبس ، فإن الجمرة ليست حديدة محضة ولا ناراً محضة ، بل نوع ثالث .

وقوله : « لم تتغير النار إلى أن تصير حديدة ، ولا الحديدة إلى أن تصير ناراً » تلبيس .

فإن الاختلاط لا يتضمن الاستحالة ، والتغير ، كاختلاط الكثيفين الذى سلمه ، مثل الماء والخمر . والماء والعسل ، والسمن والعسل ، والذهب والوَرِق ، والنحاس والرصاص قد قال فيه : إنه لا الخمر خمر ، ولا الماء ماء بعد اختلاطهما ولكنهما استحالا جميعاً عن جوهرهما ، فصارا إلى أمر متغير ليس هو أحدهما بعينه ، ولا أحدهما خالص من الفساد والاستحالة عن حاله .

فيقال له : فهذا الذى سلمت فيه الفساد والاستحالة ، لم يصر الخمر فيه ماء ، ولا الماء له خمراً ، فكذلك مورد النزاع إذا لم تصر النار حديدة ولا الحديدة ناراً ، لم ينفعك هذا النفى ، ولم يكن هذا مانعاً من الاستحالة إلى نوع ثالث ، ومن الاستحالة والفساد كما ذكرته فى اختلاط الكثيفين . فإنه معلوم أن ما خالطته النار واتحدت به ، غيَّرته وأحالته وأفسدت صورته الأولى . والنار الملتحمة به ليست ناراً محضة .

ومعلوم أيضاً أن الجمرة التى ضربتها مثلاً للمسيح فقلت : إن الله وعيسى اتحدا كاتحاد النار والحديد حتى صارا جمرة ، فمعلوم أن الجمرة إذا ضربت بالمطرقة أو وضعت فى الماء ، أو مُدَّتْ ، فإن هذه الأفعال تقع بالمجموع لا تقع على حديدة بلا نار ، ولا نار بلا حديدة .

فيلزم من ذلك أن يكون ماحلّ بالمسيح من ضَرْبٍ و بصاق فى الوجه ، ووضع الشوك على الرأس ، ومن أ كْلٍ وشرب وعبادة ، ومن مَشْيٍ وركوب ، ومن حمل وولادة ، وغير ذلك مما حل بالمسيح ، ومن موتٍ ، إما متقدم ، و إما متأخر إذا نزل إلى الأرض ، ومن صلب ــ على قولهم ــ : أن يكون جميع ذلك حلّ بالمسيح الذى هو عندهم إله تام و إنسان تام، من غير فرق بين لاهوته وناسوته ، كما يكون ما يحل بجمرة النار ، من حمل ووضع وطرق بالمطرقة ، ومدّ وتصوير بشكل مخصوص ، و إلقاء فى الماء وغير ذلك حالٌ بمجموع الجمرة ، لايقول عاقل : إن ذلك يحل بالحديد دون النار ، بل هو حالٌ بالجمرة المستحيلة من حديدة ونار ، ومن خشبة ونار ، ليست حديدة محضة ، ولا ناراً محضة ، ولا مجموع حديد محض ، ونار محضة ؛ بل جوهر ثالث مستحيل من حديد ونار كسائر ما يستحيل بالاتحاد والاختلاط إلى حقيقة ثالثة .

فلا فرق بين الشيئين إذا اتحدا واختلطا وصارا شيئاً واحداً من أن يكونا كثيفين ، أو يكون أحدهما كثيفاً والآخر لطيفاً ، لابد فى ذلك كله أن يحصل لكل منهما من التغير والاستحالة ما يوجب الاتحاد ، وأن يكون المتحد المختلط المركب منهما شيئاً ثالثاً ، ليس هو أحدهما فقط ، ولا هو مجموع كل منهما على حاله .

فقولهم : « إنه مع الاتحاد إنسان تام و إله تام » كلام فاسد معلوم الفساد بصريح العقل .

وكلما ضربوا له مثلاً ، كان المثل حجة على فساد قولهم ، بل مع الاتحاد ليس

بإنسان تام ولا إله تام ، لكنه شيء ثالث مركب من إنسان ثالث ، استحال وتغير ، وإله استحال وتغير .

وإذا كان كل من هذين باطلا - بل إنسانية المسيح باقية تامة كما كانت لم تستحل ولم تتغير ، ورب العالمين باقٍ بصفات كماله ، لم يستحل ولم يتصف بشيء من خصائص المخلوقات ، ولا استحال عما كان عليه قبل ذلك - كان قولهم ظاهر الفساد .

فهذا مثلهم الثانى الذى ضربوه لله حيث شبهوا المسيح أو الله مع الإنسان بالنفس مع الجسد ، وشبهوه بالنار مع الحديد ، وهذا المثل أشد فساداً وأظهر .

وأما المثل الثالث - وهو تمثيل ذلك بالشمس مع الماء والطين - فهو أشد فساداً ، فإنهم قالوا كما تقدم : « ومثل الشمس المخالطة للماء والطين وكل رطوبة وحمأة ، فهى لا تتغير ولا تستحيل عن نورها وبقائها وضوئها ، مع مخالطتها كل سواد ووسخ ونتن ونجس » .

فيقال : أما جرم الشمس الذى فى السماء فلم يخالط شيئاً من الماء والطين ، ولا اتحد به ولا حلّ فيه بوجه من الوجوه ، بل بينهما من البعد ما لا يقدر قدره إلا الله ، والله تعالى أجل وأعظم وأبعد من مخالطة الإنسان من الشمس للماء والطين .

فإذا كانت الشمس نفسها لم تتحد ولم تختلط ، ولا حلّت فى الماء والطين ، بل ولا بغيرها من المخلوقات . فَرَبُّ العالمين أولى أن ينزه عن الاتحاد والاختلاط والحلول بشيء من المخلوقات .

ولكن شعاع الشمس حلّ بالماء والطين والهواء وغير ذلك مما يقوم به الشعاع ، كما يحل شعاع النار فى الأرض والحيطان ، وإن كان نفس جرم النار القائم بنفسه الذى فى ذبالة المصباح هو جوهر قائم بنفسه ، لم تحل ذاته فى شيء من تلك المواضع .

ولفظ الضياء والنور ونحو ذلك ، يراد به الشيء القائم بنفسه المستنير ، كالشمس والقمر وكالنار ، قال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ [سورة يونس : ٥] . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ : ١٣] وسمى سبحانه الشمس سراجاً وضياء ، لأن فيها ـ مع الإنارة والإشراق ـ تسخيناً وإحراقاً ، فهي بالنار أشبه ، بخلاف القمر فإنه ليس فيه ـ مع الإنارة ـ تسخيناً فلهذا قال : « جعل الشمس ضياء والقمر نوراً » .

والمقصود هنا ، أن لفظ الضياء والنور ونحو ذلك ، يراد به الشيء المستنير المضيء القائم بنفسه ، كالشمس والقمر والنار ، ويراد به الشعاع الذي يحصل بسبب ذلك من الهواء والأرض ، وهذا الثاني عرض قائم بغيره ليس هو الأول ، ولا صفة قائمة بالأول ، ولكنه حادث بسببه .

فالشعاع الذي هو الضوء والنور الحاصل على الماء والطين والهواء وغير ذلك ، هو عرض قائم بغيره ، وليس هو متحداً به البتة .

فهذا المثل لو ضربته النسطورية ، الذين يقولون : « إن الناسوت واللاهوت جوهران بطبيعتين ، حل أحدهما بالآخر » لكان تمثيلاً باطلاً ، فإن الشمس لم تحل بغيرها ، ولا صارت مشيئتها ومشيئة غيرها واحدة كما تقوله النسطورية ، بل شعاعها حل بغيره ، والشعاع حادث وكائن عنها .

فإذا قيل : إن ما يكون عن الرب من نوره وروح قدسه وهداه وكلامه ومعرفته ، يحل بقلوب أنبيائه والمؤمنين من عباده ، ومثّل ذلك بحلول الشعاع بالأرض ، كان أقرب إلى المعقول ، ولهذا قال تعالى ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾[النور : ٣٥] قال أُبَيّ بن كعب : مثل نوره في قلوب المؤمنين بهذا .

وما جاء في بعض الكتب المتقدمة أن الله يحل في قلوب الصديقين . فهذا معناه . وهو حلول معرفته والإيمان به ومثاله العلى ، كما بسط في غير هذا الموضع

وكذلك إذا قيل : نوره أو هداه أو كلامه ، وسمى ذلك روحاً ، يحل فى قلوب المؤمنين ، فهو بهـذا الاعتبار ، والله قد سمى ذلك روحاً فقال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وقال تعالى ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [غافر : ١٥] وقال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ .

وما جاء فى الكتب المتقدمة من أن روح الله أو روح القدس يحل فى الأنبياء والمؤمنين . فهو حق بهذا الاعتبار .

وإذا قيل : كلام الله يحل فى قلوب القارئين . فهو حق بهذا الاعتبار .

وأما نفس ما يقوم بالرب ، فلا يتصور أن يقوم هو نفسه بغير الرب ، بل ما يقوم بالمخلوق من الصفات والأعراض ، يمتنع أن يقوم هو نفسه بغيره .

فيمتنع فى صفات الشمس القائمة بها ، من شكلها واستدارتها ، وما قام بها من نور أوغيره ، أن يقوم بغيرها ، وكذلك ما قام بجرم النار من حرارة وضوء ، فلا يقوم بغيرها ، بل إذا جاورت النار ، هواء أو غير هواء ، حصل فى ذلك المحل سخونة أخرى غير السخونة القائمة بنفس النار ، تسخن الهواء الذى يجاوره ، كما تسخن القِدْر الذى يوقد تحتها النار فيسخن ثم يسخن الماء الذى فيها ، مع أن سخونة النار باقية فيها ، وسخونة القدر باقية فيها ، وسخونة الماء به سخونة أخرى حصلت فى الماء ، ليست واحدة من تينك ، وإن كانت حادثة عنها ، وجنس السخونة يجمع ذلك كله .

ولهذا ذكر الإمام أحمد عن السلف أنهم كرهوا أن يتكلم فى حلول كلام الله فى العباد بنفى أو إثبات ، فإن لفظ « الحلول » لفظ مجمل يراد به معنى باطل ، ويراد به معنى حق .

وقد جاء فى كلام الأنبياء لفظ «الحلول» بالمعنى الصحيح ، فتأوله من فى قلبه زيغ ، كالنصارى وأشباههم عن المعنى الباطل ، وقابلهم آخرون ، أنكروا هذا الاسم بجميع معانيه ، وكلا الأمرين باطل .

وقد قدمنا أن الناس يقولون : أنت فى قلبى ، أو ساكن فى قلبى ، وأنت حالٌّ فى قلبى ونحو ذلك ، وهم لا يريدون أن ذاته حلت فيه ، ولكن يريدون أن تصوره وتمثله وحبه وذكره حل فى قلبه كما تقدم نظائر ذلك .

والمقصود هنا أن النسطورية لو شبهوا ما يدعونه من اتحاد وحلول بالشعاع مع الطين ، كان تمثيلهم باطلا ، فكيف بالملكية الذين هم أعظم باطلا وضلالا بقولهم : « ومثل الشمس المخالطة للطين والماء وكل رطوبة وحمأة » تمثيل باطل من وجوه

منها : ــ أن الشمس نفسها لم تتحد ولم تحل بغيرها ، بل ذلك شعاعها .

ومنها : ــ أن الشعاع نفسه لم يتحد بالماء والطين ، ولكن حل به وقام به .

ومنها : ــ أن ذلك عام فى المخلوقات من وجه و بعباده المؤمنين من وجه ، لا يختص المسيح به ، فالمخلوقات كلها مشتركة فى أن الله خلقها بمشيئته وقدرته ، وأنه لا قوام لها إلا به ، فلا حول ولا قوة إلا به ، وهى كلها مفتقرة إليه ، محتاجة إليه ، مع غناه عنها ، ولهذا كانت من آيات ربو بيته وشواهد إلهيته .

ومن سماها ، مظاهر ، ومجالى ، بمعنى أن ذاته نفسها يظهر فيها ، فهو مفتر على الله . ومن أراد بذلك أنه أظهر بها مشيئته وقدرته وعلمه وحكمته ، فأراد بالمظاهر والمجالى ما يراد بالدلائل والشواهد ، فقد أصاب .

وكذلك إذا قال : هى آثاره ، ومقتضى أسمائه وصفاته .

وأما المؤمنون فإن الإيمان بالله ومعرفته ومحبته ونوره وهداه يحل فى قلوبهم وهو المثل الأعلى والمثال العلمى ، فلا اختصاص للمسيح بهذه . وكذلك كلامه فى قلوب عباده المؤمنين ، لا اختصاص للمسيح بذلك .

ومنها : ـ أن الشعاع لم يخالط الماء والطين ، ولا يخالط شيئاً من الأعيان ، ولا ينفذ فيه ولا يتحد به ، بل يكون على سطحه الظاهر فقط . لكن الشعاع يسخن ما يحل فيه ، فإذا سخن ذلك ، سخن جوفه بالمجاورة ، كما يسخن الماء بسخونة القدر من غير أن تكون النار خالطت القدر ، ولا الماء .

فأين هذا من قولهم : « إن رب العالمين اتحد بابن امرأة ، فصار إلهاً تاماً و إنساناً تاماً ؟ »

وهل يقول عاقل : إن الماء والطين صار شعاعاً تاماً ، وطيناً تاماً ؟ ! بل الطين طين ، لكن أثّر الشعاع فيه بتجفيفه ، لم يتحد به الشعاع ، ولا نفذ فيه ، ولا حلّ في باطنه .

فهذا المثل أبعد عن مذهبهم من تمثيلهم بالنار مع الحديد ، ومن تمثيلهم بالنفس مع الجسد ، فإن هناك اتصالا بباطن الحديد والبدن ، وهنا لم يتصل الشعاع إلا بظاهر الطين وغيره .

وأيضا فالنفس جوهر قائم بنفسه ، والشعاع عرض ، وكذلك النار جوهر . فالشمس هنا لم تتحد ولم تحل بالطين ، بل شعاعها ، ولا يوصف الطين باتحاده بالشعاع ، ولا باختلاط الشعاع بباطنه ، ولا بحلول الشمس نفسها فيه .

وحينئذ فقول القائل : « إن الشمس لم تتغير ولم تستحل عن نورها ونقائها وضوئها مع مخالطتها كل وسخ ونتن ونجس » . إن أريد به نفس الشمس أو صفاتها القائمة بها ، فتلك لم تتحد بغيرها ولا حلت فيه ولا قامت بغيرها .

فإذا كانت الشمس كذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ فهو أولى أن لا يتحد بغيره ولا يحل فيه ولا يقوم به .

و إن أريد شعاعها فشعاعها ليس هو الشمس ، فلا ينفعهم التمثيل به ، فإنهم يقولون : إن الله نفسه اتحد بالمسيح ، والمسيح ـ عندهم ـ هو رب العالمين مع أنه إنسان تام ، فهو ـ عندهم ـ إله تام إنسان تام والطين ليس بشعاع تام ، والشعاع

نفسه لا يخالط شيئا ، ولـكن يقوم به ، وقيام العرض بالمحل غير مخالطته له ، فإن المخالطة تـكون باختلاط كل من الأمرين بالآخر ، كاختلاط الماء بالطين ونحو ذلك .

وأما ما يقوم بالسطح الظاهر فلا يقال : إنه مخالط بجميع الأجزاء . فلا يقال للشعاع الذى على الجبال والبحر : إنه مخالط لجميع الجبال والبحر ، ولا لشعاع النار : إنه مخالط للحيطان وداخل للأرض ، وقد تقدم أنهم قسموا هذا الباب ثلاثة أقسام :

أحدها : اختلاط أحد الشيئين بالآخر كالماء والخمر .

والثانى : ـ اتصال من غير اختلاط . كالماء والزيت وكالإناء الذى بعضه فضة و بعضه ذهب : وقالوا : إن هذا لا ينبغى أن يسمى اختلاطا مع افتراق الطبيعتين والقوامين . مثل ما لا ينبغى أن يكون بين الماء والقلة التى هو فيها خلطة ، لأن طبيعة الفخار ليس بينها و بين الماء خلطة .

وهذا الفرق موجود فى الشعاع والطين ، بل بينهما من الفرق أشد مما بين الماء والقلة ، فإن الماء جرم قائم بنفسه ، وهذا عرض قائم بغيره ، والجسم بالجسم أشبه من الجسم بالعرض .

والإله ـ عندهم ـ مخالط لجميع ناسوت المسيح ، لم يخل جزء منه من اتحاد الإله به ، فأين هذا من هذا ؟

و إذا قيل : إن الشعاع لم يستحل عن نوره ونقائه وضوئه مع مخالطته كل سواد ووسخ ونتن ونجس ، لم يكن مثلا يطابقه ، مع أنه لم يخالط الشعاع غيره .

ثم يقال : إن أراد بما لم يتغير نفس الشعاع القائم بالمحل ، فهذا ممنوع ، فإن الشعاع يتغير بتغير محله ، فيرى فى الأحمر أحمر ، وفى الأسود أسود ، وفى الأزرق أزرق ، حتى إن الزجاج المختلف الألوان إذا صار مطرحاً للشعاع ، ظهر الشعاع متلونا بتلون الزجاج ، فيرى أحمر وأزرق وأصفر .

وقد ضرب أهل الإلحاد القائلون بوحدة الوجود ، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق ، لله أمثالاً باطلة شر من أمثال النصارى ، ولهم مثل السوء ، ولله المثل الأعلى ، وكان مما ضربوه لله من الأمثال أن شبهوه بالشعاع فى الزجاج .

فالأعيان الثابتة فى العدم — عندهم — هى الممكنات ، ووجود الحق فاض عليها ، فشبهوا وجوده بالشعاع ، وأعيانها بالزجاج ، وهذا باطل من وجوه .

منها : — أن القول بأن أعيان الممكنات ثابتة فى العدم قول باطل .

ومنها : — أن قولهم : إن وجود الخالق هو عين وجود المخلوق ، هو أيضاً باطل .

ومنها: — أن حلول الشعاع بالزجاج يقتضى حلول أحدهما بالآخر ، وهم ينكرون الحلول ، ويقولون : الوجود واحد .

ومنها : — أن الشعاع الذى على نفس الزجاج ، ليس وجوده وجود الزجاج ، وعندهم وجود الرب وجود الممكنات .

ومنها : — أن الشعاع الحال بهذا الزجاج ليس هو بعينه ذلك الشعاع الحال بالزجاج الآخر وإن كان نظيره ، وهؤلاء عندهم أن الوجود واحد بالعين لا يتعدد .

ومنها : — أن الشعاع عرض مفتقر إلى الزجاج ، فهو مفتقر إليه افتقار العرض إلى محله ، فيلزم إذا مثلوا به الرب أن يكون الرب مفتقراً إلى كل ما سواه ، مع غنى كل ما سواه عنه ، وهذا قلب كل حقيقة ، وأعظم كفراً بالخالق تعالى ، فإنه سبحانه الغنى عن كل ما سواه ، وكل ما سواه مفتقر إليه .

وكل من قال بحلول الله فى شىء من المخلوقات من النصارى وغيرهم يلزمهم أن يكون مفتقراً إلى ما حل فيه ، فإنه لا حقيقة للحلول إلا هذا .

ولهذا كان ما حل بقلوب المؤمنين من الإيمان والهدى والنور والمعرفة مفتقراً إلى قلوب المؤمنين ، لا يقوم إلا بها .

وجميع الصور الذهنية القائمة بالأذهان مفتقرة إلى الأذهان لا تقوم إلا بها ،

والشعاع مفتقر إلى محله . لا يقوم إلا به . وهكذا سائر النظائر .

وهؤلاء الذين شابهوا النصارى وزادوا عليهم من الكفر بقولهم : إن وجود الخالق وجود كل مخلوق . وإنه قائم بأعيان الممكنات . يقولون : إنه مفتقر إلى الأعيان فى وجوده . وهى مفتقرة إليه فى ثباتها . فيجعلون الخالق محتاجاً إلى كل مخلوق . والمخلوق محتاجاً إلى الخالق . ويصرحون بذلك كما يصرح بعض النصارى . بأن اللاهوت محتاج إلى الناسوت . والناسوت محتاج إلى اللاهوت .

ومعلوم أن الله غنى عن كل ما سواه . وكل ما سواه . وكل ما سواه فقير إليه من كل وجه . فهو الصمد المستغنى عن كل شىء . وكل شىء مفتقر إليه .

فمن قال : إنه مفتقر إلى مخلوق بوجه مّا . فهو كاذب مفتر كافر فكيف بمن قال : إنه مفتقر إلى كل شىء ؟ !

والمثل الذى ضربوه له ، يقتضى أن يكون مفتقراً إلى غيره ، وغيره مستغن عنه ، كالمثل الذى ضرب به النصارى له ، لما مثلوه بشعاع الشمس مع محله ، فإن محل الشعاع مستغن عن الشعاع ، والشعاع مفتقر إلى محله .

فمقتضى هذا التمثيل أن الإله محتاج إلى الإنسان ، والإنسان مستغن عن الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلٰكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

فصـــل

وهذا الذى قد ذكره هذا البترك « سعيد بن البطريق » المعظم عند النصارى ، المحب لهم ، المتعصب لهم فى أخبارهم ، التى بين بها أحوالهم فى دينهم ، معظما لدينهم ، مع ما فى بعض الأخبار من زيادة فيها تحسين لما فعلوه ، وكثير من الناس ينكر ذلك ويكذبه ، مثل ما ذكره من ظهور الصليب ، ومن مناظرة أريوس وغير ذلك ، فإن كثيراً من الناس يخالفه فيما ذكر ، ويذكر أن أمر

ظهور الصليب كان بتدليس وتلبيس وحيلة ومكر ، ويذكر أن أريوس لم يقل قط . إن المسيح خالق .

ولكن المقصود أنه إذا صدق هذا فيما ذكره ، فإنه بين أن عامة الدين الذى عليه النصارى ليس مأخوذاً عن المسيح ، بل هو مما ابتدعه طائفة منهم وخالفهم فى ذلك آخرون ، وأنه كان بينهم من العداوة والاختلاف فى إيمانهم وشرائعهم مايصدق قوله تعالى ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة : ١٤] والنصارى يقرون بما ذكره هذا البترك أن أول ملك أظهر دين النصارى ، هو قسطنطين ، وذلك بعد المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة ، وهو نصف الفترة التى بين المسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، فإنها كانت ستمائة سنة ، أو ستمائة وعشرين .

وإذا كان النصارى مقرين بأن ما هم عليه من الإيمان صنعه طائفة منهم مع مخالفة آخرين لهم فيه ليس منقولا عن المسيح ، وكذلك ماهم عليه من تحليل ما حرمه الله ورسوله ، وكذلك قتال من خالف دينه وقتل من حرم الخنزير ، مع أن شريعة الإنجيل تخالف هذا ، وكذلك الختان ، وكذلك تعظيم الصليب .

وقد ذكروا مستندهم فى ذلك أن قسطنطين رأى صورة صليب كواكب .

ومعلوم أن هذا لا يصلح أن ينبنى عليه شريعة ، فإن مثل هذا يحصل للمشركين عباد الأصنام والكواكب ما هو أعظم منه ، وبمثل هذا بُدِّل دين الرسل وأشرك الناس بربهم ، وعبدوا الأوثان فإن الشيطان يخيل هذا وأعظم منه.

وكذلك الإزار الذى رآه من رآه ، والصوت الذى سمعه ؛ هل يجوز لعاقل أن يغير شرع الله الذى بُعِثَتْ به رسله ، بمثل هذا الصوت والخيال الذى يحصل للمشركين عُبَّاد الكواكب والأصنام ما هو أعظم منه ؟ مع أن هذا الذى ذكروه عن « بطرس » رئيس الحواريين ، ليس فيه تحليل كل ما حرمه بل

قال : « ما طهره الله فلا تنجسه » وما نجسه الله فى التوراة فقد نجسه ولم يطهره إلا أن ينسخه المسيح والحوارى لم يبح لهم الخنزير وسائر المحرمات إن كان قوله معصوماً كما يظنون .

والمسيح صلى الله عليه وسلم لم يحل كل ماحرمه الله فى التوراة وإنما أحل بعض ماحرم عليهم ولهذا كان هذا من الأوصاف المؤثرة فى قتال النصارى كما قال تعالى ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ . [التوبة : ٢٩] .

وقد ذكر من لعنه بعض طوائف النصارى لبعض فى مجامعهم السبعة وغير مجامعهم ما يطول وصفه ، ويصدق قوله تعالى : ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وحينئذ فقول هؤلاء : « من خالفنا لعناه » كلام لا فائدة فيه ، فإن كل طائفة منهم لاعنة ملعونة .

فليس فى لعنتهم لمن خالفهم إحقاق حق ولا إبطال باطل وإنما يحق الحق بالبراهين والآيات التى جاءت بها الرسل كما قال تعالى ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

وقد تقدم ما ذكره سعيد بن البطريق من أخبارهم أنه كان يأتى البترك العظيم منهم إلى كنيسة مبنية لصنم من الأصنام ، يعبده المشركون ، فيحتال حتى يجعلهم يعبدون مكان الصنم مخلوقاً أعظم منه ، كملك من الملائكة أو نبى من الأنبياء . كما كان بالإسكندرية للمشركين كنيسة فيها صنم اسمه « ميكائيل »

فجعلها النصارى كنيسة باسم ميكائيل الملك ، وصاروا يعبدون الملك بعد أن كانوا يعبدون الصنم ، ويذبحون له .

وهذا نقل لهم من الشرك بمخلوق ، إلى الشرك بمخلوق أعلى منه ، أولئك كانوا يبنون الهياكل ويجعلون فيها الأصنام بأسماء الكواكب ، كالشمس والزهرة وغير ذلك .

فنقلهم المبتدعون من النصارى إلى عبادة بعض الملائكة أو بعض الأنبياء .

ولهذا قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠] وقال تعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٦ ـ ٥٧]

فصـــل

وقد حصل بما ذكرناه الجواب عن قولهم : « وعلى هذا المثال نقول : في السيد المسيح طبيعتان : طبيعة لاهوتية التي هي طبيعة كلمة الله وروحه ، وطبيعة ناسوتية التي أخذت من مريم العذراء واتحدت به » .

وعرف أن هذا قول من أقوال النصارى ، وأن لهم أقوالا أخر تناقض هذا .

وكل فريق منهم يكفر الآخر إذ كانوا ليسوا على مقالة تلقوها عن المسيح والحواريين ، بل هي مقالات ابتدعها من ابتدعها منهم ، فضلوا بها وأضلوا كما قال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُو

أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة : ٧٧] فذكر سبحانه أنهم ضلوا من قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

وأيضاً فإنه يلزمهم الضلال الذى أصله الجهل .

ولا يوجد قط من هو نصرانى باطناً وظاهراً إلا وهو ضال جاهل بمعبوده وبأصل دينه ، لا يعرف من يعبد ، ولا بماذا يعبد ، مع اجتهاد من يجتهد منهم فى العبادة والزهد ومكارم الأخلاق .

ثم يقال على هؤلاء قولهم « طبيعتان » ويقولون أيضاً : « له مشيئتان » ويقولون أيضاً « إنه شخص واحد لم يزد عدده » فإنهم يقولون « إنهما اتحدا » كما ذكروه فى كتابهم هذا ، لايقولون بشخصين لئلا يلزمهم القول بأربعة أقانيم .

ومنهم من يقول « هما جوهران » ومنهم من يقولول « هو جوهر واحد » .

فإن قالوا « هو جوهر واحد » صار قولهم من جنس قول اليعقوبية ، لاسيما وهم يقولون « إن مريم ولدت اللاهوت والناسوت ، وإن المسيح اسم يجمع اللاهوت والناسوت ، وهو إله تام وإنسان تام » .

فإذا كان جوهراً واحداً لزم ذلك أن يكون اللاهوت قد استحال وتغير ، وكذلك الناسوت ، فإن الاثنين إذا صارا شيئاً واحداً فذلك الشىء الثالث ليس هو إنساناً محضاً ، ولا إلهاً محضاً ، بل اجتمعت فيه الإنسانية والإلهية .

ومع أنه قد كان الإنسان والإله اثنين متباينين — وهما فى اصطلاحهم — جوهران ، فإذا صار الجوهران جوهراً واحداً ، لا جوهرين ، فقد لزم ضرورة ، أن يكون هذا الثالث ليس هو إلهاً محضاً ولا إنساناً محضاً ، ولا هو جوهران ، إنساناً وإلهاً ، فإن هذين جوهران لا جوهر واحد ، بل هو شىء ثالث ، اختلط وامتزج واستحال من هذا وهذا ، فتبدلت حقيقة اللاهوت وحقيقة الناسوت ، حتى صار هذا الجوهر الثالث الذى ليس لاهوتاً محضاً ولا ناسوتاً محضاً كسائر ما يعرف من الاتحاد .

فإن كل اثنين اتحدا فصارا جوهراً واحداً ، فلا بد فى ذلك من الاستحالة فى اتحاد الماء واللبن والخمر ، وسائر ما يختلط بالماء ، بخلاف الماء والزيت فإنهما جوهران كما كانا، لكن الزيت لاصق الماء وطفا عليه لم يتحد به ، ومثل اختلاط النار والحديد فإن الحديد استحال عما كان ولهذا إذا بُرِّدَ عاد إلى ما كان . وهكذا اتحاد الهواء مع الماء والتراب حتى يصير بخاراً أو غباراً ، وأمثال ذلك .

وفى الجملة فجميع ما يعرفه الناس من الاتحاد إذا صار الإثنان واحدا وارتفعت الثنوية ، فلا بد من استحالة الاثنين .

و إذا قيل : فيه طبيعة الاثنين ، ومشيئة الاثنين كما فى الماء واللبن قوة الماء وقوة اللبن .

قيل : لا بد ـ مع ذلك ـ أن تتغير كل قوة عما كانت عليه فتنكسر الأخرى ، كما يعرف فى سائر صور الاتحاد ، إذا اتحد هذا مع هذا كسر كل منهما قوة الآخر عما كانت عليه .

كما إذا اتحد الماء البارد بالماء الحار انكسرت قوة الحر وقوة البرد عما كانت ، فيبقى المتحد مرتبة متوسطة بين البرد المحض والحر المحض .

وكذلك الماء واللبن وسائر صور الاتحاد .

وعلى هذا ، فيجب إذا اتحد أن تتغير قوة اللاهوت وطبيعته ومشيئته ، عما كانت ، وتنكسر قوة الناسوت وطبيعته ومشيئته عما كانت عليه ، و يبقى هذا المتحد ممتزجا من لاهوت وناسوت ، وذلك يستلزم نقص اللاهوت عما كان و بطلان كماله ، كما أنه يوجب من كمال الناسوت ما لم يكن .

فكل ما يصفون به الناسوت من اتحاد اللاهوت به فهو مستلزم من نقص اللاهوت وسلب كماله الذى يختص به ، و بطلان صفاته التامة بحسب ما حصل له من ذلك الناسوت بحكم الاتحاد ، و إلا فإن كان اللاهوت كما كان ، فلا اتحاد بوجه من الوجوه ، بل الناسوت كما كان .

ثم هما اثنان لم يتحد أحدهما بصاحبه ولا صارا شيئاً واحدا .

وأيضاً فمع كون الجوهر واحدا يجب أن تكون مشيئته واحدة ، وطبيعته واحدة فإنه لو كان مشيئتان ، لكان محل إحدى المشيئتين ، إن كان هو محل للأخرى مع تضاد موجب المشيئتين ، لزم اجتماع الضدين فى محل واحد .

فإن الإرادة الناسوتية ، تطلب الأكل والشرب ، وأن تعبد وتصوم وتصلى .

واللاهوتية ، توجب امتناعه من إرادة هذه الأشياء .

وإرادته أن يخلق ويرزق ويدبر العالم . والناسوتية تمتنع من هذه الإرادة .

فإذا قامت الإرادتان والكراهتان بمحل واحد ، لزم أن يكون ذلك الجوهر الموصوف بهذا وهذا مريداً للشىء ممتنعاً من إرادته غير مريد له كارهاً للشىء غير كاره له ، وذلك جَمْعٌ بين النقيضين من وجوه متعددة .

ويمتنع أن يقوم بالموصوف الواحد إرادتان جازمتان بالشىء ونقيضه أو كراهيتان جازمتان للشىء أو نقيضه ، والفعل لا يقع إلا بإرادة جازمة مع القدرة .

فاللاهوت ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ومتى شاء شيئاً مشيئة جازمة فإنه على ماشاء قادر .

والناسوت لا يفعل شيئاً من خصائص البشرية حتى يريد ذلك إرادة جازمة .

والناسوت يمتنع أن يريد إرادة اللاهوت ويكره ذلك ، فيصير الشىء الواحد مريداً للشىء إرادة جازمة ، قادراً عليه ليس مريداً له إرادة جازمة ، بل هو عاجز عنه .

ويلزم أيضاً إذا كانا جوهراً واحداً ، وقد ولد وصُفِعَ ، وضُرِب وصُلِب ، ومات ، وتألم أن تكون نفس اللاهوت ضرب وصلب ومات وتألم ، كما تقوله اليعقوبية ، وهذا لازم لجميع النصارى وهو موجب عقيدة إيمانهم .

فإن قالوا : بل هما جوهران مع كونهما عندهم شخصاً واحداً لا تتعدد فيه ، كما يقوله من يقوله من الملكية ، كان هذا كلاماً متناقضاً .

فإن الشخص الواحد الذى لا تعدد فيه ، جوهر واحد ، ولهذا حُدَّ بأنه جسم .

وإن شبهوا ذلك بالنفس مع الجسد ، لزمهم المحدود .

فإن الإنسان كما يقال فيه : إنه شخص واحد يقال : إنه جوهر واحد ، بما بينهما من الاتحاد ، ولهذا يُحَدُّ بأنه جسم حساس ، نام ، متحرك بالإرادة ، ناطق ، هذا يتناول جسده وروحه ، وللنفس والبدن مشيئة واحدة .

ومتى شاء الإنسان الفعل مشيئة جازمة مع قدرته عليه فعله ولم يكن معه جوهر آخر له مشيئة غير مشيئته .

فإذا شبهوا اتحاد اللاهوت بالناسوت بهذا ، لزمهم أن يكونا جوهراً واحداً ، ومشيئة واحدة ، وهذا قول اليعقوبية .

ولهذا تتألم النفس بما يحدث فى الجسد من الآلام ، ويتألم الجسم الذى هو القلب الصنوبرى ، بما يحدث فى النفس من الآلام .

فإذا تألمت النفس ، تألم قلب الجسد وغير قلب الجسد ، وكذلك إذا تألم الجسد ، وإذا صفع الجسد وصاب وصفع و بصق فى وجهه ، ووُضِعَ الشوك عليه وتألم ومات ، كان ذلك كله حالاً بالنفس ، ونالها من إهانة الصفع وألم النزع ماينالها ، كما يسلمون لله أنه حلَّ بنفس المسيح و بدنه ، فإنهم لا يتنازعون أن الإله حلَّ ببدن المسيح ونفسه ، وإنما يتنازعون فى اللاهوت ، مع أن النفس مفارقة للبدن بالموت .

واللاهوت ــ عندهم ــ لم يفارق الناسوت بالموت ، بل صعد إلى السماء .

والمسيح الذى هو إله تام وإنسان تام ، يقعد عن يمين أبيه ، وكذلك يجىء يوم القيامة .

وأيضاً فالبدن إذا كانت فيه النفس : تتغير صفاته وأحكامه . وتختلف أحواله . باجتماعها وافتراقها .

والنفس إذا كانت فى البدن تختلف صفاتها وأحكامها .

فيلزم أن يكون ناسوت المسيح مخالفاً فى الصفات والأحكام لسائر النواسيت ، وأن يكون اللاهوت لما اتحد به ، تغيرت صفاته وأحكامه وهذا هو الاستحالة والتغير والتبدل للصفات ، مع أن ناسوت المسيح كان من جنس نواسيت البشر ، لم يظهر عليه إلا ما ظهر مثله على غيره ، بل ظهر على غيره من خوارق العادات أكثر مما ظهر عليه .

وبالجملة فأى مَثَلٍ ضربوه للاتحاد ، كان حجة عليهم ، وظهر به فساد قولهم .

وإن قالوا : هذا أمر لا يعقل ، بل هو فوق العقول ، كان الجواب من وجهين .

أحدهما : ـ أنه يجب الفرق بين مايعلم العقل بطلانه وامتناعه ، وبين مايعجز العقل عن تصوره ومعرفته .

فالأول : من محالات العقول ، والثانى من مجازات العقول ، والرسل يخبرون بالثانى .

وأما الأول: ـ فلا يقوله إلا كاذب ، ولو جاز أن يقول هذا ، لجاز أن يقال : إن الجسم الواحد يكون أبيض أسود فى حال واحدة ، وإنه ـ بعينه ـ يكون فى مكانين ، وإن الشىء الواحد يكون موجوداً معدوماً فى حال واحدة ، وأمثال ذلك مما يعلم العقل امتناعه .

وقول النصارى مما يعلم بصريح العقل أنه باطل ، ليس هو مما يعجز عن تصوره .

يوضح هذا ، أنه لو قال قائل فى مريم أم المسيح « امرأة الله وزوجته » فإنه نكحها نكاحاً عقلياً كما يقولون : إن المسيح وَلَدُه وِلادةً عقلية ، لم يكن هذا القول أفسد فى العقل من قولهم فى المسيح ، كما قد بسطناه فى موضعه ، وهم يُكَفِّرون من يقول ذلك ، ويحتجون بالعقل على فساده

وإذا قال : « هذا فوق العقل » لم يقبلوه ، وكذلك كل طائفة من طوائفهم احتجت على الأخرى بالعقل .

وإذا قالوا : « قولنا فوق العقل » لم يقبلوا هذا الجواب .

فإن كان هذا جواباً صحيحاً ، فيجب أن لا يبحث فى شىء من الإلهيات بالعقل ، بل يقول كل مبطل ما شاء من الباطل ، ويقول : كلامى فوق العقل كما يقوله أصحاب الحلول والاتحاد والوحدة ، الذين يقولون : إن وجود الخالق وجود المخلوق ، ويقولون : إن هذا فوق العقل ، وإنما نعلم بالذوق لا بالسمع ولا بالعقل .

الوجه الثانى : ـ أن يقال ما يعجز العقل عن تصوره إذا أخبرت به الأنبياء عليهم السلام قُبِلَ منهم ، لأنهم يعلمون ما يعجز غيرهم من معرفته .

وهذه الأقوال لم يقل الأنبياء شيئاً منها ، بل نفس فِرَقِ النصارى قالوها بآرائهم ، وزعموا أنهم استنبطوها من بعض ألفاظ الكتب .

فيقال لمن قالها منهم : أنت تتصور ماتقول أم لا تتصوره وتفهمه وتعقله ؟ .

فإن قال : لا أتصور ما أقول ولا أفقهه ولا أعقله ، قيل له : فقد قلت على الله مالا تعلم ، وقَفَوْتَ ما ليس لك به علم .

ومن أعظم القبائح المحرمة فى جميع الشرائع أن يقول الإنسان برأيه على الله قولاً لا يتصوره ولا يفهمه .

وجميع العقلاء يعلمون أن من قال قولا وهو لا يتصوره ولا يفقهه فإن قوله مردود عليه غير مقبول منه ، وإن قوله من الباطل المذموم .

وإن قال قائلهم : إنى أفقه ما أقول وأتصوره وأعقله ، قيل له : بَيِّنْهُ لغيرك حتى يفقهه ويعقله ويتصوره ، ولا تقل : « هو فوق العقل ، بل هو قول قد عقلته وفقهته » . وهذا تقسيم لا محيد لهم عنه .

فإنهم إن كانوا يفقهون ما يقولون و يعقلونه ، لزم أن يكون معقولا .

وإن كانوا لا يفقهونه ولا يعقلونه ، لزم أنهم قالوا على الله ما لا يفقهونه ولا يعقلونه ، قولاً برأيهم وعقلهم ، لا نقلا لألفاظ الأنبياء ، فإن من نقل ألفاظ الأنبياء الثابتة عنهم ، لم يكن عليه أن يفقه و يعقل ما يقول .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « نَضَّر الله امرأً ، سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » فقد يحفظ الرجل كلاما ، فيبلغه غيره وهو لا يفقه معناه ولا يعقله .

فمن نقل لفظ التوراة أو الإنجيل أو القرآن أو ألفاظ سائر الأنبياء ، لم نطالبه ببيان معناه .

بخلاف من ادَّعى أنه فهم ما قاله الأنبياء وعَبَّر عن ذلك بعبارة أخرى ، فإنه يقال له : إن كنت فهمت ما قالوه ، فهو معنى واحد ، عبَّروا عنه بعبارة ، عبَّرْتَ عنه بعبارة أخرى ، كالترجمان ، فهذا يعقل ما يقول و يفقهه .

و إن قال : إنى لم أفهم كلامهم ، أو لم أفهم ماقلته ، فقد اعترف بجهله وضلاله وأنه من الذين لم يفهموا كلام الأنبياء عليهم السلام ، ولم يفقهوا ما قالوه هم .

فلو قالوا : لم نفهم كلام الأنبياء وسكتوا ، لـكانوا أسوة أمثالهم من الجهال بمعانى كلام الأنبياء .

وأما إذا وضعوا عبارة وكلاماً ابتدعوه ، وأمروا الناس باعتقاده وقالوا : هذا هو الإيمان والتوحيد ، وقالوا : إنا ـ مع هذا ـ لا نتصور ما قلناه ولا نفقهه ولا نعقله ، فهؤلاء من الذين يقولون على الله مالا يعلمون ، و يفترون على الله وعلى كتب الله وأنبياء الله بغير علم ، بل يقولون الـكذب المفترى والـكفر الواضح ، و يقولون ـ ذلك ـ : إنا لا نعقله ؛ وهذا حال النصارى بلا ريب .

وهذا الموضع غلط فيه طائفتان من الناس ١ : ـ غالية غَلَتْ فى المعقولات

حتى جعلت ما ليس معقولا من المعقول ، وقدمته على الحس ونصوص الرسول ٢ : ـ وطائفة جَفَتْ عنه ، فردت المعقولات الصريحة وقدمت عليها ما ظنته من السمعيات والحسيات .

وهكذا الناس فى السمعيات نوعان ، وكذلك هم فى الحسيات الباطنة والظاهرة نوعان .

فيجب أن يعلم أن الحق لا ينقض بعضه بعضاً ، بل يصدق بعضه بعضاً .

بخلاف الباطل ، فإنه مختلف متناقض ، كما قال تعالى فى المخالفين للرسل ﴿ وَالسَّماءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ ، [سورة الذاريات : ٧ ـ ٩] . وإن ما علم بمعقول صريح ، لا يخالفه قط ، لا خبر صحيح ، ولا حس صحيح .

وكذلك ما علم بالسمع الصحيح ، لا يعارضه عقل ولا حس .

وكذلك ما عُلِمَ بالحس الصحيح ، لا يناقضه خبر ولا معقول .

والمقصود هنا ، الكلام مع من يعارض المعقولات بسمع أو حس .

فنقول لفظ « المعقول » يراد به المعقول الصريح الذى يعرفه الناس بِفِطَرِهم التى فُطِرُوا عليها ، من غير أن يتلقاه بعضهم عن بعض، كما يعلمون تماثل المتماثلين ، واختلاف المختلفين ـ أعنى اختلاف التنوع لا اختلاف التضادّ والتباين ـ فإن لفظ « الاختلاف » يراد به هذا وهذا .

وهذه المعقولات فى العلميات والعمليات هى التى ذم الله من خالفها بقوله ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [سورة الملك : ١٠] وقوله ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [سورة الحج : ٤٦] ونحو ذلك .

وأما ما يسميه بعض الناس « معقولات » ويخالفه فيه كثير من العقلاء ، مثل القول بتماثل الأجسام ، وبقاء الأعراض ، فإن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة ، التى لا تقبل القسمة ، أو من المادة والصورة ، وأن مالا يتناهى من

الأمور المتعاقبة شيئاً بعد شيء يمتنع وجوده ، إما في الماضي والمستقبل ، أو في الماضي فقط ، أو إن الكليات موجودة في الخارج جواهر قائمة بأنفسها ، أو إن لنا دهراً أو مادة هي جوهر عقلي قائم بنفسه ، أو إنه يمكن وجود جوهر قائم بنفسه لا يشار إليه ، ونحو ذلك مما يعده من يعده من النظّار ، أنه عقليات وينازعهم فيه آخرون .

فليس هذا هو العقليات التي لا يجب لأجلها رد الحس والسمع ، وينبني عليها علوم بني آدم ، بل المعقولات الصحيحة الدقيقة الخفية ترد إلى معقولات بديهية أولية .

بخلاف العقليات الصريحة ، مثل كون الجسم الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد ، فإن هذا معلوم بفطرة الله التي فطر الناس عليها .

فإذا جاء في الحس أو الخبر الصحيح ما يظن أنه يخالف ذلك ، مثل أن يرى الشخص الواحد في « عرفات » وهو في بلده لم يبرح ، أو يرى قاعداً في مكانه ، وهو في مكان آخر ، أو ترى أنه أغاث من استغاث به ، أو جاء طائراً في الهواء ، مع العلم بأنه في مكانه لم يتغير منه ـ فهذا إنما هو جنِّيٌّ تصور بصورة ذلك الشخص ليس هو نفسه ، فهذا يشبهه ليس هو إياه .

والحسيات إن لم يميز بينها بالعقل ، وإلا فالحس يغلط كثيراً ، فكذلك من ادَّعى فيما حصل له من المكاشفة والمخاطبة أمراً يخالف صريح العقل يعلم أنه غالط فيه ، كمن قال من القائلين بوحدة الوجود : « إني أشهد بباطني وجوداً مطلقاً مجرداً عن الأسماء والصفات ، لا اختصاص فيه ولا قيد البتة » فلا ينازع في هذا ، كما قد ينازعه بعض الناس .

لكن يقال له : من أين لك أن هذا هو رب العالمين الذي خلق السموات والأرض ؟ فإن كون ما شهدته بقلبك هو الله ، أمر لا يدرك بحس القلب ، وإذا ادَّعيت أنه حصل لك في الكشف ما يناقض صريح العقل ، علم أنك

غالط ، كما قال شيخ هؤلاء الملاحدة التلمسانى :

يَاصَاحِبِي أَنْتَ تَنْهَانِي وَتَأْمُرُنِي   وَالْوَجْدُ أَصْدَقُ نَهَّاءٍ وَأَمَّارِ
فَإِنْ أُطِعْكَ وَأَعْصِ الْوَجْدَ عُدْتُ عَمًا   عَنِ الْعِيَانِ إِلَى أَوْهَامِ أَخْبَارِ
وَعَيْنُ مَا أَنْتَ تَدْعُونِي إِلَيْهِ إِذَا   حَقَّقْتَهُ تَرَهُ الْمَنْهِيَّ يَاجَارِ

فيقال له : وَجْدُكَ وَذَوْقك لم يفدك إلا شهود وجود مطلق بسيط ، لكن من أين لك أن هذا هو رب العالمين ؟ بل من أين لك أن هذا ثابت فى الخارج عن نفسك كلياً مطلقاً مجرداً ؟ بل إنما تشهده كلياً مطلقاً مجرداً فى نفسك .

ولست تعلم بحس ولا عقل ولا خبر أن هذا هو فى الخارج .

كما أن النائم إذا شهد حِسُّهُ الباطن أشياء لم يكن معه يقين أن هذا فى الخارج .

فإذا عاد إليه عقله علم أن هذا كان فى خياله فى المنام .

وكذلك السكران وغيره ممن يضعف عقله فهذا يشهد بحسه الباطن ، أو الظاهر أشياء وقد ضعف عقله عن كُنْهِ ذلك لما ورد عليه ، إذا ثاب إليه عقله ، علم أن ما شهده كان فى نفسه وخياله لا فى الخارج عن ذلك .

فكل من أخبر بما يخالف صحيح المنقول أو صريح المعقول يعلم أنه وقع له غلط ، وإن كان صادقاً فيما يشهده فى الحس الباطن أو الظاهر ، لكن الغلط وقع فى ظنه الفاسد المخالف لصريح العقل لا فى مجرد الحس ، فإن الحس ليس فيه علم بِنَفْيٍ أو إثبات .

فمن رأى شخصاً ، فليس فى الحس إلا رؤيته .

وأما كونه زيداً أو عمراً ، فهذا لابد فيه من عقل يميز بين هذا وهذا ، ولهذا كان الصغير والمجنون والبهيم والسكران والنائم ونحوهم ، لهم حس ، ولكن لعدم العقل لا يميزون أن هذا المشهود هو كذا أم كذا ، بل قد يظنون ظنوناً غير مطابقة قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ

مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [سورة النور : ٣٩] .

فالظمآن ، يرى أن ماظنه ماء ولم يكن ماء لاشتباهه بالماء والحس لم يغلط ، لكن غلط عقله .

والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، معصومون ، لا يقولون على الله إلا الحق ، ولا ينقلون عنه إلا الصدق .

فمن ادَّعى فى أخبارهم ، ما يناقض صريح المعقول ، كان كاذباً ، بل لابد أن يكون ذلك المعقول ليس بصريح ، أو ذلك المنقول ليس بصحيح .

فما علم يقيناً أنهم أخبروا به ، يمتنع أن يكون فى العقل ما يناقضه .

وما علم يقيناً أن العقل حكم به ، يمتنع أن يكون فى أخبارهم ما يناقضه .

وقول أهل الإلحاد من النصارى وغيرهم ـ سواء ادَّعَوْا الاتحاد العام أو الخاص ـ قد علم بصريح العقل بطلانه ، فيمتنع أن يخبر به نبى من الأنبياء ، بل الأنبياء عليهم السلام قد يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته ، لا بما يعلم العقل بطلانه ، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول .

ومن سوى الأنبياء ليس معصوماً ، فقد يغلط و يحصل له فى كشفه وحسه وذوقه وشهوده أمور يظن فيها ظنوناً كاذبة .

فإذا أخبر مثل هذا بشىء ، علم بطلانه بصريح العقل ، علم أنه غالط .

و إذ أخبر غير الأنبياء بما يعجز عقل كثير من الناس عن معرفته ، لم يلزم أن يكون صادقاً ولا كاذباً ، بل لا نحكم بصدقه ولا كذبه إلا بدليل ، لاحتمال أن يكون غالطاً ، واحتمال أن يكون قد علم ما يعجز غيره عن معرفته .

و إذا قال القول المعلوم فساده بصريح العقل من ليس بنبى ، وقال : إن هذا فوق العقل ، أو هذا وراء طور العقل والنقل ، أو هذا لا نعرفه إن لم نترك العقل والنقل ، أو قال :

هُمْ مَعْشَرٌ حَلُّوا النِّظَامَ وَأَخْرَقُوا الـ   سِّيَاجَ فَلَا فَرْضٌ لَدَيْهِمْ وَلَا نَفْلُ
مَجَانِينُ إِلَّا أَنَّ سِرَّ جُنُونِهِمْ   عَزِيزٌ عَلَى أَبْوَابِهِ يَسْجُدُ الْعَقْلُ

قيل : وهذا يمتنع أن يقوله نبي ، أو ينقله صادق عن نبي ، فإن أقوال الأنبياء لا تناقض العقل الصريح ، فكيف يقبل هذا ممن ليس بنبي ؟

وإن قال كما يقوله النصارى أو غيرهم : إن هذا دل عليه كلام الأنبياء ، أو فهمناه من كلام الأنبياء .

قيل لهم : الكلام في معاني الألفاظ التي نطقت بها الأنبياء شيء ، والكلام الذي فهمتموه عنهم شيء آخر .

ولو قُدِّرَ أن ما ذكرتموه أنتم أو غيركم ، فهمتموه من كلام الأنبياء ليس مخالفاً لصريح العقل ، لم نجزم بأن قائل ذلك يتصور ما قال ، بل قد يكون فهم من كلامهم ما لم يريدوه .

فكيف إذا كان هو — نفسه — لم يتصور ما قال ؟ بل هم معترفون بأنه غير معقول له ، وهو لا يفهمه ، فكيف إذا كان الذي قاله معلوم الفساد بصريح العقل .

فهذه ثلاث مقدمات لو فهمه ثم قال : إني فهمت كلامهم ، لم يكن فهمه حجة .

فكيف إذا قال : إني لم أفهمه ، وإن هذا فوق طور العقل ؟

ولو قال هذا : لم يكن قوله حجة ، ولم يجب تصديقه من أن الأنبياء عنوا بكلامهم المعنى الذي اعترفوا أنه فوق طور العقل ، فكيف إذا عرف أن ذلك المعنى باطل ، يمتنع أن يقوله عاقل ، لا نبي ولا غير نبي ؟ !

فصـــــل

قال الحاكي عنهم : فقلت لهم : إنهم يقولون لنا : إذا كان اعتقادكم

فى البارى تعالى أنه واحد ، فما حملكم على أن تقولوا : أب وابن وروح قدس فتوهمون السامعين أنكم تعتقدون فى الله ثلاثة أشخاص مركبة ، أو ثلاثة آلهة ، أو ثلاثة أجزاء ، وأن له ابناً ؟ ويظن من لا يعرف اعتقادكم أنكم تريدون بذلك ، ابن المباضعة والتناسل ، فتطرقون على أنفسكم تهمة أنتم منها بريئون ؟

قالوا : وهم أيضاً ، لما كان اعتقادهم فى البارى جلت عظمته أنه غيرذى جسم ، وغير ذى جوارح وأعضاء ، وغير محصور فى مكان ، فما حملهم على أن يقولوا : إن له عينين يبصر بهما ، ويدين يبسطهما ، وساق ووجهه يوليه إلى كل مكان ، وجَنْبٍ ، وأنه يأتى فى ظلل من الغمام ، فيوهمون السامعين أن الله ذو جسم ، وذو أعضاء وجوارح ، وأنه ينتقل من مكان إلى مكان فى ظُلَلٍ من الغمام، فيظن من لا يعرف اعتقادهم أنهم يُجَسِّمُونَ البارى ، حتى إن قوماً منهم اعتقدوا ذلك واتخذوه مذهباً ، ومن لم يتحقق اعتقادهم ، يتَّهمهم بما هم بريئون منه .

قال : فقلت لهم : إنهم يقولون : إن العلة فى قولهم هذا ، أن الله له عينان ويدان ووجه وساق وجنب ، وأنه يأتى فى ظلل من الغمام ، فهو أن القرآن نطق به ، وإن ذلك غير ظاهر اللفظ ، وكل من يحمل ذلك على ظاهر اللفظ ويعتقد أن الله له عينان ويدان ووجه وجنب وجوارح وأعضاء وأن ذاته تنتقل ، فهم يلعنونه ويكفرونه ، فإذا كفَّروا من يعتقد هذا ، فليس لمخالفيهم أن يلزموهم هذا بعد أن لايعتقدوه .

قالوا : وكذلك نحن أيضاً النصارى ، العلة فى قولنا : إن الله ثلاثة أقانيم ، أب ، وابن ، وروح قدس ، أن الإنجيل نطق به ، والمراد بالأقانيم غير الأشخاص المركبة ، والأجزاء والأبعاض وغير ذلك مما يقتضى الشرك والتكثير ، وبالأب والابن غير أبوة وبنوة نكاح أو تناسل ، أو جماع ، أو مباضعة .

وكل من يعتقد أن الثلاثة أقانيم ثلاثة آلهة مختلفة ، أو ثلاثة آلهة متفقة ، أو ثلاثة أجسام مؤلفة ، أو ثلاثة أجزاء متفرقة ، أو ثلاثة أشخاص مركبة ،

أو أعراض ، أو قُوًى ، أو غير ذلك مما يقتضي الاشتراك والتكثير والتبعيض والتشبيه ، أو بُنُوَّة نكاح ، أو تناسل ، أو مباضعة ، أو جماع ، أو وِلادة زوجة ، أو من بعض الأجسام ، أو من بعض الملائكة ، أو من بعض المخلوقين ، فنحن نلعنه ونكفره ونحرمه .

وإذا لعنَّا وكفَّرنا من يعتقد ذلك ، فليس لمخالفينا أن يلزمونا بعدُ أن لا نعتقده وإن ألزمونا الشرك والتشبيه لأجل قولنا : أب وابن وروح قدس ، لأن ظاهر ذلك يقتضي التكثير والتشبيه . ألزمناهم أيضاً ـ نحن ـ التجسيم والتشبيه لقولهم : إن الله له عينان ويدان ووجه وساق وجَنْب ، وأن ذاته تنتقل من مكان إلى مكان ، وأنه استوى على العرش من بعد أن لم يكن عليه ، وغير ذلك مما يقتضي ظاهره التجسيم والتشبيه .

والجواب من وجوه :

أحدها ـ أن يقال : من آمن بما جاءت به الرسل وقال ما قالوه من غير تحريف للفظه ولا معناه ، فهذا لا إنكار عليه ، بخلاف من ابتدع أقوالاً لم تقلها الرسل ، بل هي تخالف ما قالوه وحرَّف ما قالوه ، إما لفظاً ومعنى ، وإما معنى فقط ، فهذا يستحق الإنكار عليه باتفاق الطوائف .

وأصل دين المسلمين أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه في كتبه ، وبما وصفته به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل يثبتون له تعالى ما أثبته لنفسه ، وينفون عنه ما نفاه عن نفسه ، ويتبعون في ذلك أقوال رسله ، ويجتنبون ما خالف أقوال الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [سورة الصافات : ١٨٠] أي عما يصفه الكفار المخالفون للرسل ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات : ١٨١] لسلامة ما قالوه من النقص والعيب ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٢] .

فالرسل وصفوا الله بصفات الكمال ، ونزهوه عن النقائص المناقضة للكمال ، ونزهوه عن أن يكون له مثل فى شىء من صفات الكمال ، وأثبتوا له صفات الكمال على وجه التفصيل ، ونفوا عنه التمثيل ، فأتوا بإثبات مفصَّل ، ونَفْيٍ مجمل .

فمن نفى عنه ما أثبته لنفسه من الصفات ، كان معطلاً ، ومن جعلها مثل صفات المخلوقين ، كان ممثلاً ، والمعطل يعبد عدماً ، والممثل صنماً .

وقد قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ وهو ردٌّ على الممثلة ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ وهو ردٌّ على المعطلة .

فوصفته الرسل بأنه حىٌّ منزه عن الموت ، عليم منزه عن الجهل ، قدير قوى عزيز ، منزه عن العجز والضعف والذل واللغوب ، سميع بصير منزه عن الصمم والعمى ، غنى منزه عن الفقر ، جواد منزه عن البخل ، حكم حليم ، منزه عن السفه ، صادق منزه عن الكذب ، إلى سائر صفات الكمال ، مثل وصفه بأنه ودود رحيم لطيف وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ .

فالصمد اسم يتضمن إثباتَ صفات الكمال ونَفْىَ النقائص ، وهو العليم الكامل فى علمه ، القدير الكامل فى قدرته ، الحكيم الكامل فى حكمته .

ولنا مصنف مبسوط فى تفسير هذه السورة وآخر[١] فى بيان أنها تعادل ثلث القرآن ، وذكرنا كلام علماء المسلمين من الصحابة والتابعين فى معنى « الصمد » وأن عامة ما قالوه حق ، كقول من قال منهم : « إن الصمد الذى لا جوف له » ومن قال منهم : « إنه السيد الذى انتهى سؤدده » كما قيل : « إنه المستغنى عن كل ما سواه ، وكل ما سواه محتاج إليه » وكما قيل : إنه العليم

---

(١) قوله : وآخر . يقصد به كتاب « جواب أهل العلم والإيمان ، فيما أخبر به رسول الرحمن من أن قل هو الله أحد ، تعدل ثلث القرآن » وقد طبع مرارا فى القاهرة .

الـكامل فى علمه ، والقدير الـكامل فى قدرته » إلى سائر صفات الـكمال .

وذكر تعالى فى هذه السورة أنه أحد ليس ، له كفواً أحد ، فنفى بذلك أن يكون شيئاً من الأشياء له كفواً ، و بيّن أنه أحد لا نظير له .

وقال فى آية أخرى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [سورة مريم : ٦٥] وقال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [سور الشورى : ١١] وقال : ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ [سورة النحل : ٧٤] ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ [سورة البقرة : ٢٢] .

وما ورد فى القرآن والسنة من إثبات صفات لله ، فقد ورد فى التوراة وغيرها من كتب الله مثل ذلك .

فهو أمر اتفقت عليه الرسل ، وأهل الـكتاب فى ذلك كالمسلمين .

و إذا كان كذلك ، فهم فى أماناتهم لم يقولوا ما قاله المسيح والأنبياء ، بل ابتدعوا اعتقادا لا يوجد فى كلام الأنبياء .

فليس فى كلام الأنبياء ــ لا المسيح ولا غيره ــ ذكر أقانيم لله ، لا ثلاثة ولا أكثر ، ولا إثبات ثلاثة صفات ، ولا تسمية شىء من صفات الله ، ابناً لله ، ولا ربًا ، ولا تسمية حياته روحاً ؛ ولا أن لله ابناً هو إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه ، وأنه خالق كما أن الله خالق ، إلى غير ذلك من الأقوال المتضمنة لأنواع من الـكفر ، لم تنقل عن نبى من الأنبياء .

فقالوا : فى شريعة إيمانهم : نؤمن بالله الأب ، مالك كل شىء ، صانع ما يُرى وما لا يُرى ، وهذا حق .

ثم قالوا : و بالرب الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد ، بكر الخلايق كلها ، مولود ليس بمصنوع ، إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه ، نور من نور ، مساوٍ الأب فى الذى الجوهر بيده أتقنت العوالم ، خلق كل شىء الذى من أجلنا ــ معشر الناس ــ ومن أجل خلاصنا نزل السماء ، وتجسّد من روح

القدس ، ومن مريم العذراء البتول ، وصار إنساناً وحُبِلَ به وولد من مريم وألم وصُلِبَ ودفن ، وقام فى اليوم الثالث ، كما هو مكتوب ، وصعد إلى السماء ، وجلس عن يمين أبيه ، وهو مستعد للمجىء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء .

ونؤمن بروح القدس المحيى ، وروح الحق المنبثق من أبيه ، أو الذى يخرج من أبيه روح محييه .

فأين فى كلام الأنبياء أن شيئاً من صفات الله أو من مخلوقاته يقال فيه : إنه أقنوم ، وإنه إله حق من إله حق ، من جوهر أبيه ، وإنه مساو لله فى الجوهر ، وإنه خالق خلق كل شىء ، وإنه قعد عن يمين الله فوق العرش ، وإنه الذى يقضى بين الناس يوم القيامة ؟! .

وأين فى كلام الأنبياء أن لله ولداً قديماً أزلياً ؟! .

ومن الذى سمى كلام الله أو علمه أو حكمته ، مولوداً له أو ابناً له أو شيئاً من صفاته مولوداً له أو ابناً له ؟!

ومن الذى قال من الأنبياء : إنه مولود ، وهو ـ مع ذلك ـ قديم أزلى ؟ !

وأين فى كلامهم أن لله أقنوماً ثالثاً هو حياته ، ويسمى بروح القدس ، وأنه أيضاً رب حىٌّ محيى ؟ !

فلو كان النصارى آمنوا بنصوص الأنبياء ، كما آمن المؤمنون ، لم يكن عليهم ملام .

ومن اعترض على نصوص الأنبياء ، كان لفساد فهمه ونقص معرفته .

ولكن هم ابتدعوا أقوالا وعقائد ليست منصوصة عن أحد من الأنبياء عليهم السلام ، وفيها كفر ظاهر وتناقض بَيِّنٌ .

فلو قُدِّر أنهم أرادوا بها معنى صحيحاً ، لم يكن لأحد أن يبتدع كلاماً لم يأت به نبى يدل على الكفر المتناقض الذى يخالف الشرع والعقل ، ويقول :

إنى أردت به معنى صحيحاً من غير أن يكون لفظه دالاً على ذلك ، فكيف والمراد الذى يفسرون به كلامهم فاسد متناقض كما تقدم ؟!.

فهم ابتدعوا أقوالاً منكرة وفسروها بتفسير منكر ، فكان الرد عليهم من كل واحد من الوجهين ، وهم - فى ذلك - نظير بعض ملاحدة المسلمين الذين يعتقدون إلهية بعض أهل البيت ، أو بعض المشايخ ، ويصفون الله بصفات لم ينطق بها كتاب ، وهؤلاء ملحدون عند المسلمين .

بخلاف المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسله ، الذين آمنوا بما قالت الأنبياء ؛ ولم يبتدعوا أقوالاً لم يأت بها الأنبياء ، وجعلوها أصل دينهم .

الوجه الثانى : - أن يقال : ما ذكرتموه عن المسلمين كذب ظاهر عليهم .

فهذا النظم الذى ذكروه ليس هو فى القرآن ، ولا فى الحديث ، ولا يعرف عالم مشهور من علماء المسلمين ، ولا طائفة مشهورة من طوائفهم ، يطلقون العبارة التى حكوها عن المسلمين ، حيث قالوا عنهم : « إنهم يقولون : إن لله عينين يبصر بهما ، ويدين يبسطهما ، وساقا ووجهاً يوليه إلى كل مكان ، وجنباً».

ولكن هؤلاء ركّبوا من ألفاظ القرآن - بسوء تصرفهم وفهمهم - تركيباً زعموا أن المسلمين يطلقونه .

وليس فى القرآن ما يدل ظاهره على ما ذكروه فإن الله تعالى قال فى كتابه : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [سورة المائدة : ٦٤] واليهود أرادوا بقولهم « يد الله مغلولة » أنه بخيل ، فكذبهم الله فى ذلك ، وبيّن أنه جواد لا يبخل ، فأخبر أن يديه مبسوطتان ، كما قال : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ﴾ [سورة الإسراء : ٢٩] فبسط اليدين ، المراد به الجود والعطاء ، ليس المراد ما أوهموه من بسطه المجرد .

ولما كان العطاء باليد يكون ببسطها ، صار من المعروف فى اللغة التعبير ببسط اليد عن العطاء .

فلما قالت اليهود « يد الله مغلولة » وأرادوا بذلك أنه بخيل ، كذبهم الله فى ذلك ، و بيّن أنه جواد ماجد .

و إثبات اليدين له موجود فى التوراة ، وسائر النبوات ، كما هو موجود فى القرآن .

فلم يكن فى هذا شىء يخالف ما جاءت به الرسل ، ولا ماينافض العقل ، وقد قال تعالى لإبليس : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [سورة ص : ٧٥] فأخبر أنه خلق آدم بيديه ، وجاءت الأحاديث الصحيحة توافق ذلك .

وأما لفظ « عينين » فليس هو فى القرآن ، ولـكن جاء فيه حديث .

وذكر الأشعرى عن أهل السنة حيث أنهم يقولون : إن لله عينين .

ولـكن الذى جاء فى القرآن: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي [طه : ٣٩] * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا [هود : ٣٧] * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر ١٣ ، ١٤] .

وأما قولهم « له وجه يوليه إلى كل مكان » فليس هذا فى القرآن ، ولـكن فى القرآن ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن ٢٦ ، ٢٧] . وقوله ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص ٨٨] وقوله ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة ١١٥] . وهذا قد قال فيه طائفة من السلف : فثَمّ قبلة الله ، أى فثم جهة الله ، والوجه ، والجهة ، كالوعد والعدة ، والوزن والزنة .

والمراد بوجه الله وجهة الله ، الوجه ، والجهة والوجهة الذى لله يستقبل فى الصلاة ، كما قال فى أول الآية ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ ثم قال ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ

وَجْهُ اللهِ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ : مَاوَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة البقرة : ١٤٢]

فإذا كان لله المشرق والمغرب ، ولكل وجهة هو موليها ، وقوله ، موليها ، أى متوليها أى مستقبلها ، فهذا كقوله : « فأينما تولوا فثم وجه الله » أى فأينما تستقبلوا فثم وجهة الله وقد قيل : إنه يدل على صفة لله لكن يدل على أن ثمَّ وجه لله وأن العباد أينما يولون ، فثم وجه الله ، فهم الذين يولون ويستقبلون ، لا أنه هو يولي وجهه إلى كل مكان ، فهذا تحريف منهم للفظ القرآن عن معناه وكذب على المسلمين .

ومن قال بالقول الثانى من المسلمين ، فإن ذلك يقتضى أن الله محيط بالعالم كله ، كما قد بسطت هذه الأمور فى غير هذا الموضع .

إذ المقصود هنا بيان ضلال هؤلاء فى دينهم فيما ابتدعوا من الكفر والتثليث والاتحاد ، دون الذين آمنوا بالله ورسله ، وما أخبرت به الرسل عن الله تبارك وتعالى .

وأما قولهم : « وجنب » فإنه لا يعرف عالم مشهور عند المسلمين ، ولا طائفة مشهورة من طوائف المسلمين ، أثبتوا لله جنباً ، نظير جنب الإنسان ، وهذا اللفظ جاء فى القرآن فى قوله : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ : يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ ﴾ [سورة الزمر:٥٦] فليس فى مجرد الإضافة ما يستلزم أن يكون المضاف إلى الله صفة له ، بل قد يضاف إليه من الأعيان المخلوقة وصفاتها القائمة بها ما ليس بصفة له باتفاق الخلق ، كقوله تعالى : ﴿ بيت الله ، وناقة الله ، وعباد الله ﴾ بل وكذلك « روح الله » عند سلف المسلمين وأئمتهم وجمهورهم .

ولكن إذا أضيف إليه ما هو صفة له وليس بصفة لغيره ، مثل كلام الله ، وعلم الله ، ويد الله ونحو ذلك ، كان صفة له .

وفى القرآن ما يبين أنه ليس المراد بالجنب ما هو نظير جنب الإنسان ، فإنه قال : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ : يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ ﴾ والتفريط ليس فى شىء من صفات الله عز وجل .

والإنسان إذا قال : فلان قد فرَّط فى جَنْبِ فلان أو جانبه ، لا يريد به أن التفريط وقع فى شىء من نفس ذلك الشخص ، بل يريد به أنه فرط فى جهته وفى حقه .

فإذا كان هذا اللفظ إذا أضيف إلى المخلوق ، لا يكون ظاهره أن التفريط فى نفس جنب الإنسان المتصل بأضلاعه ، بل ذلك التفريط لم يلاصقه ، فكيف يظن أن ظاهره فى حق الله أن التفريط كان فى ذاته .

وجنب الشىء وجانبه ، قد يراد به منتهاه وحده ، ويسمى جنب الإنسان جنباً بهذا الاعتبار ، قال تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ [سورة السجدة : ١٦] وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ . [سورة آل عمران : ١٩١] .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين « صَلِّ قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جَنْبٍ » .

وإذا قدر أن الإضافة هنا تتضمن صفة لله ، كان الكلام فى هذا ، كالكلام فى سائر ما يضاف إليه تعالى من الصفات ، وفى التوراة من ذلك نظير ما فى القرآن .

وهذا يتبين بالوجه الثالث : وهو أن يقال ما فى القرآن والحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، من وصف الله بهذه الصفات التى يسميها بعض الناس تجسيما ، هو مثل ما فى التوراة وسائر كتب الأنبياء .

وهذا الذى فى التوراة وكتب الأنبياء ليس مما أحدثه أهل الكتاب .

ولو كانوا هم ابتدعوا ذلك ، ووصفوا الخالق بما يمتنع عليه من التجسيم ،

لكان النبي صلى الله عليه وسلم ذمّهم على ذلك ، كما ذمهم على ما وصفوه به من النقائص فى مثل قوله ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٨١] وقوله ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ : يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [سورة المائدة : ٦٤]وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ [سورة ق : ٣٨]

فنفى عنه اللغوب الذى يظن فى لفظ الاستراحة الذى فى التوراة ، فإن فيها أن الله خلق العالم فى ستة أيام ، ثم استراح فى يوم السبت ، فظن بعض الناس أنه تعب فاستراح .

ثم من علماء المسلمين مَنْ قال: إن هذا اللفظ حرّفوا معناه دون لفظه ، وهذا لفظ التوراة المنزلة . قاله ابن قتيبة وغيره .

وقالوا : معناه ثم ترك الخلق فعبّر عن ذلك بلفظ استراح .

ومنهم من قال : بل حرّفوا لفظه ، كما قال أبو بكر بن الأنبارى وغيره .

وقالوا : ليس هذا لفظ التوراة المنزلة وأما ما فى التوراة من إثبات الصفات ، فلم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً من ذلك ، بل كان علماء اليهود إذا ذكروا شيئاً من ذلك يقرهم عليه ، كما فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ، أن حبراً من اليهود جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا محمد إن الله عز وجل يوم القيامة يحمل السموات على إصبع ، والأرض على إصبع ، والجبال والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك » : قال فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تعجباً وتصديقاً لقول الحبر ، ثم قرأ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ الآية [سورة الزمر : ٦٧]

وفى التوراة : « إن الله كتب التوراة بإصبعه » .

وإذا ثبت أن مثل هذه النصوص فى التوراة والكتب المتقدمة باتفاق أهل الكتاب وبما يشهد على ذلك من أخبار الرسول بنظير ذلك ، وترك إنكاره لما فى التوراة وتصديقه على ما كانوا يذكرونه من ذلك ، لم يكن المسلمون مختصين بذكر ما سموه تجسيما ، بل يلزم أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ من ذلك نظير ما يلزم المسلمين .

وقد افترق أهل الكتاب فى ذلك ، كما افترق فيه المسلمون ، منهم الغالى فى النفى والتعطيل ، ومنهم الغالى فى التشبيه والتمثيل .

والمسلمون ـ أئمتهم وجمهورهم ـ مقتصدون بين التعطيل والتمثيل ، وكذلك طائفة من أهل الكتاب .

والمقصود أنه إذا كانت هذه الصفات قد جاءت فى الكتب الإلهية ، التوراة وغيرها ، كما جاءت فى القرآن ، لم يكن المسلمين بذلك اختصاص .

ولم يجز للنصارى أن يجعلوا ذلك نظير ما اختصوا به من التثليث والاتحاد فإن ذلك مختص بهم .

وهذه الصفات قد اشترك فيها الملل الثلاث لأن التثليث والاتحاد ليس منصوصاً عن أحد من الأنبياء عليهم السلام وهذه الصفات منصوصة فى القرآن والتوراة وغيرها من كتب الأنبياء فكيف يجوز تشبيه هذا بهذا ؟ !.

الوجه الرابع : ـ قولهم : « فيوهمون السامعين أن الله ذو جسم وأعضاء وجوارح » كلام باطل ، وذلك أن الله سمى نفسه وصفاته بأسماء ، وسمى بعض عباده وصفات عباده بأسماء ، هى ـ فى حقهم ـ نظير تلك الأسماء فى حقه سبحانه وتعالى .

فسمى نفسه حيًّا ، كقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[سورة البقرة : ٢٥٥] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [سورة الفرقان: ٥٨] وسمى بعض عباده حيًّا

كقوله : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ [سورة الفرقان : ٥٨] مع العلم بأنه ليس الحيُّ كالحيِّ

وسمى نفسه عليما ، كقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ وسمى بعض عباده عليما ، كقوله : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ فاعلم بأنه ليس العليم كالعليم .

وسمى نفسه حليماً بقوله : ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ وسمى بعض عباده حليماً بقوله : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠١] .

وسمى نفسه رءوفاً رحيماً بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ وسمى بعض عباده رءوفاً رحيماً ، بقوله : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ [التوبة : ١٢٨] ﴾ وليس الرءوف كالرءوف ، ولا الرحيم كالرحيم .

وكذلك سمى نفسه ملكا جباراً متكبراً عزيزاً ؛ وسمى بعض عباده ملكا، و بعضهم عزيزاً ، و بعضهم جباراً متكبراً ، وليس هو فى ذلك مماثلا لخلقه .

وكذلك سمى بعض صفاته علماً وقوة وأيداً ، وقدرة ورحمه ، وغضباً ورضى ويداً ، وغير ذلك .

وسمى بعض صفات عباده بذلك ، وليس علمه كعلمهم، ولا قدرته كقدرتهم ولا رحمته وغضبه ، كرحمتهم وغضبهم ، ولا يده كأيديهم .

وكذلك ما أخبر به عن نفسه من استوائه على العرش ، ومجيئه فى ظلل من الغمام وغير ذلك من هذا الباب، ليس استواؤه كاستوائهم ، ولا مجيئه كمجيئهم.

وهذه المعانى التى تضاف إلى الخالق تارة و إلى المخلوق أخرى ، تذكر على ثلاثة أوجه : ١ ـ تارة تقيد بالإضافة إلى الخالق أو بإضافته إليها ، كقوله ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ [البقرة : ٢٥٥] * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ ﴾ [الذاريات : ٥٨]

٢ : ـ وتارة تقيد بالمخلوق كقوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

٣ ـ وتارة تطلق مجردة .

فإذا قيدت بالخالق ، لم تدل على شيء من خصائص المخلوقين .

فإذا قيل : علم الله وقدرته واستواؤه ومجيئه ويده ونحو ذلك ، كانت هذه الإضافة توجب مايختص به الرب الخالق ، وتمنع أن يدخل فيها مايختص به المخلوق

وكذلك إذا قيل : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ﴾ [المؤمنون : ٢٨] كانت هذه الإضافة توجب ما يختص بالعبد وتمنع أن يدخل فى ذلك مايختص بالرب عز وجل .

وإذا جرد اللفظ عن القيود فذكر بوصف العموم والإطلاق ، تناول الأمرين كسائر الألفاظ التى تطلق على الخالق والمخلوق .

وهذه للناس فيها أقوال .

قيل : إنها حقيقة فى الخالق مجاز فى المخلوق ، كقول أبى العباس الناشىء .

وقيل : بالعكس كقوله غلاة الجهمية والباطنية والفلاسفة .

وقيل : حقيقة فيهما ، وهو قول الجمهور .

ثم قيل : هى مشتركة اشتراكا لفظياً وقيل : متواطئة وهو قول الجمهور .

ثم من جعل المشككة نوعا من المتواطئة لم يمتنع ـ عنده ـ إذا قيل مشككة أن تكون متواطئة ، ومن جعل ذلك نوعاً آخر جعلها مشككة لا متواطئة .

وهذا نزاع لفظى ، فإن المتواطئة التواطؤ العام ، يدخل فيها المشككة .

إذ المراد بالمشككة ، ما يتفاضل معانيها فى مواردها ، كلفظ الأبيض الذى يقال على البياض الشديد ، كبياض الثلج ، والخفيف كبياض العاج ، والشديد أولى به .

ومعلوم أن مسمى البياض فى اللغة ، لا يختص بالشديد دون الخفيف ، فكان اللفظ دالا على ما به الاشتراك ، وهو المعنى العام الكلى ، وهو متواطىء بهذا الاعتبار ، وهو باعتبار التفاضل يسمى مشككاً .

وأما إذا أريد بالتواطئ ، ما تستوى معانيه ، كانت المشككة نوعاً آخر .

لكن تخصيص لفظ المتواطئة بهذا عُرْفٌ حادث ، وهو خطأ أيضاً .

فإن عامة المعانى العامة تتفاضل ، والتماثل فيها فى جميع مواردها ـ بحيث لا تتفاضل فى شىء من مواردها ـ إما قليل وإما معدوم .

فلو لم تكن هذه الأسماء متواطئة ، بل مشككة ، كان عامة الأسماء الكلية غير متواطئة ، وهذا مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا أن الله سبحانه وتعالى إذا أضاف إلى نفسه ما أضافه إضافة تختص بها ، وتمنع أن يدخل فيها شىء من خصائص المخلوقين ، وقد قال مع ذلك : إنه « ليس كمثله شىء » وإنه « لم يكن له كفواً أحد » وأنكر أن يكون له سَمِيٌّ ، كان من فهم من هذه ما يختص به المخلوق ، قد أُتِيَ من سوء فهمه ونقص عقله ، لا من قصور فى بيان الله ورسوله ، ولا فرق فى ذلك بين صفة وصفة .

فمن فهم من علم الله ما يختص به المخلوق من أنه عَرَضٌ مُحْدَثٌ باضطرار أو اكتساب ، فمن نفسه أُتِيَ ، وليس فى قولنا علم الله ما يدل على ذلك .

وكذلك من فهم من قوله ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : ٦٤] و﴿ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : ٧٥] ما يختص به المخلوق من جوارحه وأعضائه ، فمن نفسه أُتِيَ ، فليس فى ظاهر هذا اللفظ ما يدل على ما يختص به المخلوق كما فى سائر الصفات .

وكذلك إذا قال : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [الفرقان : ٥٩] من فهم من ذلك ما يختص بالمخلوق ، كما يفهم من قوله ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ﴾ فمن نفسه أُتِيَ فإن ظاهر اللفظ ، يدل على استواء يضاف إلى الله عز وجل كما يدل فى تلك الآية على استواء يضاف إلى العبد .

وإذا كان المستوى ليس مماثلا للمستوِى ، لم يكن الاستواء مماثلا للاستواء .

فإذا كان العبد فقيراً إلى ما استوى عليه ، يحتاج إلى حمله .

وكان الرب عز وجل غنياً عن كل ما سواه ، والعرش وما سواه فقيراً إليه ، وهو الذى يحمل العرش ، وحملة العرش ، لم يلزم إذا كان الفقير محتاجا إلى ما استوى عليه أن يكون الغنى عن كل شيء وكل شيء محتاج إليه ، محتاجا إلى ما استوى عليه .

وليس فى ظاهر كلام الله عز وجل ما يدل على ما يختص به المخلوق من حاجة إلى حامل وغير ذلك ، بل توهم هذا من سوء الفهم لا من دلالة اللفظ .

لكن إذا تخيل المتخيل فى نفسه أن الله مثله ، تخيل أن يكون استواؤه كاستوائه ، وإذا عرف أن الله ليس كمثله شيء ، لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ، علم أن استواءه ليس كاستوائه ، ولا مجيئه كمجيئه ، كما أن علمه وقدرته ورضاه وغضبه ، ليس كعلمه وقدرته ورضاه وغضبه .

وما بين الأسماء كالمعنى العام الكلى كما بين قولنا ، حى وحى وعالم وعالم .

وهذا المعنى العام الكلى المشترك ، لا يوجد عاماً كلياً مشتركاً إلا فى العلم والذهن ، وإلا فالذى فى الخارج أمر يختص بالموصوف .

فصفات الرب عز وجل ، مختصة به ، وصفات المخلوق مختصة به ، ليس بينهما اشتراك ولا بين مخلوق ومخلوق .

الوجه الخامس : ـ قولهم : « لما كان اعتقادهم فى البارى جلت قدرته أنه غير ذى جسم استعمال منهم للفظ الجسم فى القدر والغلظ لا فى ذى القدر والغلظ ، وهذا أحد مَوْرِدَيِ استعماله وهو الأشهر فى لغة العامة ، فيقولون : هذا الثوب له جسم ، وهذا ليس له جسم ، أى هذا له غلظ وكثافة دون هذا .

ولكن النظار أكثر ما يستعملون لفظ « الجسم » فى نفس ذى القدر فيقولون : للقائم بنفسه ؛ ذى القدر : إنه جسم .

وهذا اللفظ لما كثراستعماله فى كلام النُّظار ، تفرقوا فى معانيه لغة وعقلا

وشرعاً ، تفرقاً ضلّ به كثير من الناس ؛ فإن هذا اللفظ أصله فى اللغة هو الجسد.

قال غير واحد من أهل اللغة كالأصمعى وأبى زيد وغيرهما: الجسم هو الجسد.

وهذا إنما يستعمله أهل اللغة فيما كان غليظاً كثيفاً ، فلا يسمون الهواء جسما ولا جسداً ، ويسمون بدن الإنسان جسداً .

وقد تقدم أن الجسم يراد به نفس الجسد ، ويراد به قدر الجسد وغلظه ، قال تعالى : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] وقال تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون : ٤] وقد يراد به هذا وهذا .

ثم إن أهل النظر استعملوا لفظ « الجسد » فى أعم من معناه فى اللغة ، كما فعلوا مثل ذلك فى لفظ « الجوهر » ولفظ « العرض » ولفظ « الوجود » ولفظ « الذات » وغير ذلك .

فاستعملوا لفظ « الجسم » فيما يقوم بنفسه ، وتمكن الإشارة إليه الحسية المختلفة .

ثم تنازعوا نزاعاً عقلياً فيما يشار إليه ، كالهواء والنار والتراب والماء وغير ذلك هل هو مركب من الجواهر المنفردة التى لاتقبل القسمة ، أو من المادة والصورة ، أو ليس مركباً لا من هذا ولا من هذا ، على ثلاثة أقوال قد بسط الكلام عليها فى غير هذا الموضع .

فمن اعترف أنها مركبة من هذا أو هذا ؟ يلزمه ـ إذا قال : إن الله جسم ـ أن يكون الله مركباً من هذا أو هذا .

ولهذا قالوا : إن هذا باطل وأوجبوا ـ على أصلهم ـ نفى مسمى هذا الاسم وهذا هو المشهور عند هؤلاء .

ومن اعتقد أنه ليس مركباً ، لا من هذا ، ولا من هذا ، قال : لا يلزمنى إذا قلت : هو جسم ، أن يكون مركباً .

فمن هؤلاء من أطلق عليه لفظ « الجسم » وأراد به القائم بنفسه أو الموجود ، كما أطلق هؤلاء لفظ الجوهر وقالوا : أردنا بالجوهر ، القائم بنفسه وكما قال هؤلاء : ليس فى الوجود إلا جوهر أو عرض .

فإن الوجود إما قائم بنفسه ، وهو الجوهر ، أو بغيره ، وهو العرض ، والجوهر أشرف القسمين .

وقال الآخرون : ليس فى الوجود إلا قائم بنفسه ، وهو الجسم ، أو قائم بغيره ، وهو العرض ؛ والجسم أشرف القسمين ، وقال : فما سماه أولئك جوهرا ، سماه أولئك جسما ، وكلاهما ليست تسميته لغوية ولا شرعية .

وإذا قال هؤلاء : هو جوهر لا كالجواهر ، كما يقال هو شىء لا كالأشياء .

قال أولئك : إنه هو جسم لا كالأجسام ، كما يقال هو شىء لا كالأشياء .

وإذا قال هؤلاء : الجوهر ينقسم إلى كثيف ولطيف ، قال أولئك : والجسم ينقسم إلى لطيف وكثيف .

والمقصود هنا ، أن هؤلاء الذين نزهوه عما يمتنع عليه من مماثلة المخلوقين وسموه جسماً ، نزاعهم مع النفاة قد يكون لفظياً ، كنزاع النصارى فى لفظ الجوهر ، وقد يكون عقلياً ، كنزاعهم فى أن المشار إليه : هل هو مركب من الجواهر المنفردة أو من المادة والصورة ، أو لا من هذا ولا من هذا ؟

ومن قال من القائلين بأنه جسم ، فيقول : إنه مركب من الجواهر المنفردة أو من المادة والصورة ، فهؤلاء مذمومون لفظاً ومعنى عند جماهير المسلمين وغيرهم ؛ وإن كان النصارى وغيرهم يعجزون عن الرد على هؤلاء ، إذ كان ما يعتمدون عليه فى تنزيه الله عن خصائص الأجسام طرقا ضعيفة ، لا تثبت على المعيار العقلى كما قد بسط فى موضع آخر .

بخلاف من كان نزاعه لفظياً ، فهذا يذم ، إما لغة ، وإما لغة وشرعا ، لكونه

أطلق لفظاً لم يأذن به الشرع ، أو استعمله فى خلاف معناه اللغوى ، كما قد يذم النافى بمثل ذلك لغة وشرعا ، إذا كان معناه صحيحاً .

وأما من كان من النفاة أو المثبتة ، نفى حقاً أو أثبت نفياً باطلا ، فهذا مذموم ذماً معنوياً شرعا وعقلاً .

وأما الشرع فالرسل وأتباعهم الذين من أمة موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يقولوا : إن الله جسم ، ولا إنه ليس بجسم ، ولا إنه جوهر ، ولا إنه ليس بجوهر .

لكن النزاع اللغوى والعقلى والشرعى فى هذه الأسماء هو مما أحدث فى الملل الثلاث بعد انقراض الصدر الأول من هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء .

والذى اتفقت عليه الرسل وأتباعهم ماجاء به القرآن والتوراة ، من أن الله موصوف بصفات الكمال ، وأنه ليس كمثله شىء ، فلا تمثل صفاته بصفات المخلوقين ، مع إثبات ما أثبته لنفسه من الصفات ، ولا يدخل فى صفاته ما ليس منها ، ولا يخرج منها ماهو داخل فيها .

إذا تبين هذا ، فالمسلمون لما كان اعتقادهم بأن الله تعالى موصوف بما وصف به نفسه ، وأنه ليس كمثله شىء ، وكان ما أثبتوه له من الصفات التى جاءت بها الرسل ، لم يكن عليهم ملام ، لأنهم أثبتوا ما أثبته الرسل ونفوا ما نفته الرسل ، فكان فى هذا النفى ما ينفى الوهم الباطل .

بخلاف من أثبت أموراً لم تأت بها الرسل ، وضم إليها ما يؤكد المعنى الباطل لا ما ينفيه ، وكان مما نفوا عنه أنه ليس بجسم مركب من الجواهر المنفردة ، ولا من المادة والصورة .

أما على أحد قَوْلِيَ النظار بل وأظهرهما ، فإن ما سواه من الموجودات القائمة بأنفسها ليس مركباً ، لا من هذا ولا من هذا .

فهو سبحانه أحق بتنزيهه عن مثل هذا ، إذ كل نقص فى عن المخلوق ، فالخالق أحق بتنزيهه منه .

وأما على القول الآخر ، فتارة يقولون لأن المركب من الجواهر المنفردة يمكن افتراق أجزائه ، وذلك ممتنع فى حق الله تعالى ، وتارة يقولون ، لأنه مفتقر إلى أجزائه ، وذلك ممتنع فى حق الله تعالى ، إذ جزؤه غيره ، والمفتقر إلى غيره لا يكون واجباً بنفسه قديماً أزلياً ، كما قد بسط الكلام على هذه الأمور فى موضع آخر .

ثم منهم من لا يطلق من النفى والإثبات إلا الألفاظ الشرعية ، فكما لا يقول : هو جسم وجوهر ؛ لا يقول : ليس بجسم ولا جوهر .

ومنهم من يطلق هذه الألفاظ ، وهؤلاء منهم من ينفيها ، ومنهم من يثبتها.

وكل من الطائفتين قد يدخل فى ذلك مايوافق الشرع ، وقد يدخل فى ذلك ما يخالف الشرع .

وكل من الطائفتين ، يدّعى النظر العقلى أو اللغوى ، وربما اعتصم بعضهم بما يظنه دليلا شرعياً .

والغالب عليهم أنهم لا يعتصمون فى ذلك بشرع ، إذ لم يكن فى ذلك شرع ، وإنما يتكلفون تغيير اللغة التى بعث بها الرسول ، ثم يحملون ألفاظه على ما ابتدعوه من اللغة ، كما فعلته النصارى فى حمل كلام الأنبياء على ما ابتدعوه من اللغة .

فإن الأنبياء لم يسموا علم الله وحياته ابناً ، وروح قدس ، ولا ربّاً ، فيسمى النصارى علمه وحياته ، ابناً ، وروح قدس ، ورباً ، ثم حملوا كلام الأنبياء على ذلك .

كذلك طائفة من أهل الكلام كان السلف يسمونهم الجهمية ، أحدثوا

تسمية الواحد والأحد ونحوهما لما لا يشار إليه ولا يميز الحس منه شيئاً عن شيء ،
وهذا خلاف اللغة ، فإن أهل اللغة يسمون بالواحد والوحيد والأحد فى النفى
لما يشار إليه ويميز الحس منه شيئاً من شيء قال تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ
وَحِيداً ﴾ [المدثر : ١١] فسمّى الإنسان وحيدا . وقال تعالى : ﴿ وإنْ كَانَتْ
واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ﴾ [النساء : ١١] فسمّى المرأة واحدة . ﴿ ومآ أمْرُنَا
إلاَّ واحِدةٌ ﴾ [القمر : ٥٠] وقال : ﴿ وإنْ أحَدٌ مِنْ الْمُشرِكِينَ اسْتَجَارَكَ
فَأجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾ [التوبة : ٦] فسمى المستجير ـ وهو إنسان ـ
أحداً .

وكذلك قوله تعالى ﴿ ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أحَدٌ ﴾ نفى أن يكون أحدٌ كفواً له .

فلو كان ما يشار إليه لا يسمى أحداً ، لم يكن قد نزهه عن مماثلة المخلوقات
له ، فإن المشهود من المخلوقات كلها يشار إليها ، فإن لم يدخل فى « أحد »
لم يكن قد نزّه نفسه عن مماثلتها .

فهؤلاء لما أحدثوا أن مسمى الأحد والواحد لا يكون مشاراً إليه ، قالوا :
والرب قد سمى نفسه أحداً وواحداً ، فيجب أن لا يكون مشاراً إليه .

ولغةُ الرسول التى خاطب بها الناس لم تكن موافقة لما ابتدعوه من اللغة .

وكذلك الذين قالوا : « هو جسم » غيروا اللغة ، وجعلوا الجسم اسماً لما
يشار إليه ، أو لكل موجود ، ولكل قائم بنفسه .

ثم قالوا : وهو موجود ، أو قائم بنفسه ، أو مشار إليه ، فيكون جسما .

ولا يوجد فى اللغة اسم الجسم ، لا لهذا ، ولا لهذا ، ولا لهذا .

وقالوا : لا يلزم من كونه مشاراً إليه أن يكون مركباً من الجواهر المفردة ،
ولا من المادة والصورة .

وقال أولئك : بل يلزم أن كل مركب ، فإنه يسمى فى اللغة جسماً ، فيلزم أن
يسمى جسماً ، إذا قلنا : هو مشار إليه ، أو يرى بالأبصار ، أو متصفاً بصفات تقوم به .

وليس ما ذكروه عن اللغة بمستقيم ، فإن أهل اللغة لا يعنون بالجسم ، المركب ؛ بل الجسم ـ عندهم ـ هو الجسد ، ولا يسمون الهواء جسما .

إذا تبين هذا فتمثيل هؤلاء النصارى باطل ؛ على قول كل طائفة ، من طوائف المسلمين .

فمنهم من يقول : الجسم ـ فى اللغة ـ هو المركب ، والله ليس بمركب ، فليس بجسم . لا يقولون بما ذكروه من أن الله له وجه يوليه إلى كل مكان ، وجنب ونحو ذلك .

وكذلك من قال : إن الله ليس بمركب ، وسماه جسما ، بمعنى أنه قائم بنفسه ، أو لم يسمه جسما ، لا يقول بذلك أيضاً ، ومن حكى عنه أنه يثبت له خصائص الأجسام المركبة .

فهؤلاء إن أطلقوا ما نفاه فلا حجة للنصارى عليهم ، وإن لم يطلقوه فحجتهم أبعد .

فقد تبين أنه ليس لهم حجة على أفسد الناس قولا فى التجسيم ، فضلا عن غيرهم .

الوجه السادس : ـ أن يقال لهؤلاء النصارى : إما أن تعنوا بلفظ الجسم المعنى اللغوى ، وهو الجسد ، وإما أن تعنوا به المعنى الاصطلاحى عند أهل الكلام كالمشار إليه مثلا .

فإن عنيتم الأول ، لم يلزم من نَفْيِ ذلك نَفْيَ ما ذكرتموه من الصفات ، لاسيما وأنتم تقولون : إنه جوهر ، وقسمتم الجوهر إلى لطيف وكثيف .

فإذا كان الكثيف هو الجسم ، واللطيف جوهر ليس بجسم ، لم يمتنع على مثل هذا أن يكون له ما يناسبه من الصفات ، كالملائكة ، فإن الملائكة لا يمتنع وصفها بذلك ، وإن لم تكن أجساماً على هذا الاصطلاح ، بل هى

جواهر روحانية ، وكذلك روح الإنسان التى تخرج منه ، لا يمتنع وصفها بما يناسبها من ذلك ، وإن كانت ليس بجسم على هذا التقدير .

فتبيّن أن نَفْىَ مسمى الجسم اللغوى عن الشيء لا يمتنع اتصافه بما ذكر من الصفات وأمثالها .

وإن عنيتم بالجسم ، القائم بنفسه أو المشار إليه ، لم يمتنع – عندكم – أن يكون جسما ، فإنكم سميتموه جوهراً ، وعنيتم القائم بنفسه .

فإن قام الدليل على أن كل قائم بنفسه مشار إليه وكان أيضاً مشار إليه .

وإن قام دليل على أنه قائم بنفسه لا يشار إليه ، كان جوهراً وجسما عند من يفسر الجسم بالقائم بنفسه ، ومن فسره بالمشار إليه لم يسم عنده جسما ، فتبين أنه على – أصلكم – لا يمتنع أن يسمى جسما مع تسميتكم له جوهراً إلا إذا أثبت أن من الموجودات ماهو جوهر قائم بنفسه لا يشار إليه ، وهذا لم يقيموا عليه دليلا ، وليس هذا قول أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى ، وإنما هو قول طائفة من الفلاسفة ، وقليل من أهل الملل وافقوهم .

ثم يقال لكم : أنتم قلتم : إنه حَىٌّ ناطق ، وله حياة ونطق ، بل زدتم على ذلك حتى جعلتموه أقانيم ثلاثة .

ومعلوم أن الحياة والنطق لا تعقل إلا صفة قائمة بموصوف ، ولا يعلم موصوف بالحياة والنطق إلا ماهو مشار إليه بل ماهو جسم كالإنسان

فإن جاز لكم أن تثبتوا هذه الأعراض فى غير جسم ، جاز لغيركم أن يثبت المجيء واليد ونحو ذلك لغير جسم .

وإن قلتم : هذا لا يعقل إلا لجسم . قيل لكم : وذلك لا يعقل إلا لجسم فإن رجعتم إلى الشاهد ، كان حجة عليكم ، وإن جاز لكم أن تثبتوا فى الغائب حكما على خلاف الشاهد ، جاز لغيركم ، وحينئذ فلا تناقض بين مانفاه المسلمون

وأثبتوه ، لو كان ما ذكرتموه عنهم من النفى والإثبات حقاً على وجهه ، فكيف وقد وقع التحريف فى الطرفين ؟ ! ! .

الوجه السابع : أن يقال : غاية مقصودكم أن تقولوا : إن المسلمين لما أطلقوا ألفاظاً ظاهرها كفر عندهم ، لمجىء النص بها ، وهم لا يعتقدون ظاهر مدلولها ، كذلك نحن أطلقنا هذه الألفاظ التى ظاهرها كفر ، لمجىء النص بها ، ونحن لا نعتقد مدلولها .

فيقال لكم : أولا : ـ إن ما أطلقه المسلمون من نصوص الصفات أطلقتموه أنتم ، كما وردت به التوراة ؛ فهذا مشترك بينكم وبينهم ، وما اختصصتم به من التثليث ، والاتحاد لم يشركوكم فيه .

ثم يقال ثانياً : إن المسلمين أطلقوا ألفاظ النصوص ، وأنتم أطلقتم ألفاظاً لم يرد بها نص .

والمسلمون قرنوا تلك الألفاظ بما جاءت به النصوص من نَفْيِ التمثيل .

وأنتم لم تقرنوا بألفاظكم ما ينفى ما أثبتموه من التثليث والاتحاد .

والمسلمون لم يعتقدوا معنى باطلاً .

وأنتم اعتقدتم من التثليث فى الأقانيم ، والاتحاد ما هو معنى باطل .

والمسلمون لم يسموا صفات الله بأسماء أحدثوا تسمية الصفات بها ، وحملوا كلام الرسل عليها .

وأنتم أحدثتم لصفات الله أسماء ، سميتموه أنتم بها ، لم تسمه بها الرسل ، وحملتم كلام الرسل عليها .

والمسلمون لم يعدلوا عن النصوص الكثيرة المحكمة البينة الواضحة إلى ألفاظ قليلة متشابهة .

وأنتم عدلتم عن هذا إلى هذا .

والمسلمون لم يضعوا لهم شريعة اعتقاد غير ما جاءت به الرسل .

وأنتم وضعتم شريعة اعتقاد غير ما جاءت به الرسل .

والمسلمون لم يقولوا قولا لا يعقل .

وأنتم قلتم قولا لا يعقل .

والمسلمون لم يتناقضوا ، فيجعلوا الإله واحداً ، وتجعلونه اثنين ، بل ثلاثة ، وأنتم تناقضتم .

فهذه الفروق وغيرها مما يبين فساد تشبهكم أنفسكم بالمسلمين .

الوجه الثامن :ــ قولكم : وكذلك ــ نحن ــ النصارى العلة في قولنا : « إن الله ثلاثة أقانيم ، أب ، وابن ، وروح قدس ، أن الإنجيل نطق به .

فيقال لكم : هذا باطل ، فإنه لم ينطق ، لا الإنجيل ولا شيء من النبوات بأن الله ثلاثة أقانيم ولا خص أحد من الأنبياء الرب بثلاث صفات دون غيرها ، ولا قال المسيح ولا غيره : إن الله هو الأب ، والابن ، وروح القدس ، ولا إن له أقنوما هو الابن ، وأقنوما هو روح القدس ، ولا قال : إن الابن كلمته أو علمه أو حكمته أو نطقه ، وإن روح القدس حياته ، ولا سمى شيئاً من صفاته ابناً ولا ولداً ، ولا قال عن شيء من صفات الرب : إنه مولود ، ولا إنه جعل القديم الأزلي مولوداً ، ولا قال لا عن قديم ، ولا مخلوق : إنه إله حق من إله حق ، ولا قال عن صفات الله : إنها آلهة ، وإن الكلمة إله ، والروح إله ، ولا قال : إن الله اتحد لا بذاته ولا بصفاته بشيء من البشر ، بل هذا كله مما ابتدعتموه ، وخرجتم به عن الشرع والعقل ؛ فخالفتم الكتب المنزلة والعقول الصريحة ، وكنتم ممن قيل فيه : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠] ؛ فإنكم أنتم الذين سميتم نطق الله ابناً ، وقلتم : سميناه ابناً ؛ لأنه تولد منه كما يتولد الكلام من العقل ، فكان ينبغي

أيضاً أن تسموا حياته ابناً ؛ لأنها منبثقة منه ، ومتولدة عنه أيضاً ، إذ لا فرق بين علم الرب وحياته .

فعلمه لازم له ، وحياته لازمة له ، فلماذا جعلتم هذا ابناً دون هذا .

وقلتم : إنه مولود من الله ، وإنه قديم أزلى وأنتم تعترفون بأن أحداً من الأنبياء لم يسم علم الله ولا كلامه ، ولا حكمته مولوداً منه ؟

والذى يعقله الخلق فى المولود الذى يولد من غيره ، كما يتولد العلم والكلام من نفس الإنسان أنه حادث فيه أو منفصل عنه ، لا يعقل أنه قائم به ، وأنه متولد منه قديم أزلى .

ثم قلتم فى أمانتكم : إنه تجسم من روح القدس ، أو منه ومن مريم .

وهو إنما تجسم - عندكم - من الكلمة التى سميتموها ، الابن دون روح القدس .

وإن كان تجسم من روح القدس ، فيكون هو روح القدس ، لا يكون هو الكلمة التى هى الابن .

ثم تقولون : « هو كلمة الله وروحه » فيكون حينئذ أقنومين ، أقنوم الكلمة ، وأقنوم الروح ، وإنما هو - عندكم - أقنوم واحد .

فهذا تناقض وحيرة ، تجعلونه الابن الذى هو الكلمة ، وهو أقنوم الكلمة فقط .

وتقولون : تجسّم من روح القدس ولا تقولون : إنه تجسم من الكلمة .

وتقولون : هو كلمة الله وروحه ، والكلمة والروح أقنومان .

ولا تقولون : إنه أقنومان ، بل أقنوم واحد .

وتقولون : إنه خالق العالم ، والخالق هو الأب ، وتقولون : ليس هو الأب .

وتقولون : إله حق من إله حق ، وتقولون : إله واحد ساوى الأب فى الجوهر .

وتقولون : ليس له مثل ، وليس شىء من هذا فى كلام أحد من الأنبياء ،

فكيف تشبهون أنفسكم بمن اتبع نصوص الأنبياء ولم يحرفها ؟ !

وغاية ما عندكم ما وجد فى إنجيل « مَتَّى » دون سائر الأناجيل ، من أن المسيح ، عليه السلام قال : عَمِّدوا الناس باسم الأب ، والابن ، والروح القدس .

وأنتم قد عرفتم فى كلام المسيح وغيره من الأنبياء ، أنهم لا يريدون بالابن صفة الله ، لا كلامه ، ولا علمه ، ولا حكمته .

ولا يريدون بالابن ، إله حق من إله حق ، ولا مولود قديم أزلى ، بل ريدون به وليه ، وهو ناسوت لا لاهوت ، كيعقوب والحواريين .

ولا يريدون بروح القدس نفس حياة الله . ولا يريدون به أنه رب حى ، وإنما يريدون بها الملك ، أو ما ينزله الله على قلوب أنبيائه وأصفيائه ، من الهدى والتأييد ونحو ذلك .

فروح القدس يكون ـ عندكم وعند المسلمين ـ فى الأنبياء وغيرهم ، كما كانت فى داود وغيره ، وكانت فى الحواريين .

فلو قدر أن لفظ الابن وجد فى كلام المسيح مستعملا تارة فى كلمة الله ، وتارة فى وليه الناسوت ، وروح القدس مستعملا تارة فى حياته ، وتارة فيما ينزله على قلوب أنبيائه ، كان جزمكم بأنه أراد بذلك هنا صفات الله ، جزما باطلاً .

فما وصف به المسيح من أنه ابن الله ، ومن أن روح القدس فيه ، قد وصف به غيره من الأنبياء والصالحين .

فإن كان الابن ، وروح القدس صفتين لله ، وجب أن يكون غير المسيح لاهوتاً وناسوتاً ، كالمسيح ؛ إذ الذى حل فى المسيح ، حل فى غيره .

ثم جزمكم بأن هذه الصفات ، أقانيم ، وأنه ليس لله صفات ذاتية أو جوهرية أو نحو ذلك إلا هذه الثلاثة ، ثم تفرقتم فى الثلاثة : هل المراد بالأقانيم الوجود والعلم والحياة ، أو الحكمة والكلام ، أو النطق بدل لفظ العلم ، أو المراد الوجود

والعلم والقدرة ، بدل الحياة ، أو المراد الوجود والحياة والقدرة ، أو المراد الوجود مع الحياة والعلم والقدرة ؟ إلى أقوال أُخَر يطول أمرها .

فياليت شعرى ، ما الذى أراد المسيح بلفظ الأب والابن ، وروح القدس ، من هذه الأمور التى اختلفتم فيها ، لوكان مراده ما ادعيتموه من الأقانيم ؟!!

والأقانيم ـ لفظاً ومعنى ـ لا يوجد فى كلام أحد من الأنبياء ، بل قيل فيها : إنها لفظة رومية ، يفسرونها تارة بالأصل ، وتارة بالشخص ، وتارة بالذات مع الصفة ، ويفسرونها تارة بالخاصة ، وتارة بالصفة .

فهلا تركتم كلام المسيح على حاله ، ولم تحرفوه هذه التحريفات ؟!

ولقد أحسن بعض الفضلاء إذ قال : لو سألت نصرانياً وابنه ، وابن ابنه عما يعتقدونه ؛ لأخبرك كل واحد بعقيدة تخالف عقيدة الآخر ، إذ كان أصل اعتقادهم جهلا وضلالاً ، ليس معهم علم ، لا نقل ولا عقل ، فهم كما قال الله تعالى: ﴿ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ولاَ هُدًى ولاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾

وليس معهم بما اعتقدوه من التثليث والاتحاد علم ، بوجه من الوجوه ، فضلا عما هو أخص من ذلك ، وهو علم يهتدون به ، فليسوا بمهتدين فضلا عما هو أخص من الهدى وهو « كتاب منير » ، فليس معهم به كتاب منير .

ولو تكلمتم بهذا الكلام ، وقلتم : لا نفهم معناه ، أو ظاهره باطل ، وله تأويل مقبول ، كما حكيتموه عمن تشبهتم به من المسلمين من أنه يقوله فى الصفات ، لكان هذا أقرب إلى القياس .

فكيف والأمر بعكس ما ذكرتم ؟!!

وذلك يتبين بالوجه التاسع :ـ وهو أنكم إنما ضللتم بعدولكم عن صريح كلام الأنبياء وظاهره ، إلى ما تأولتموه عليه من التأويلات التى لا يدل عليها لفظه ، لا نصاً ولا ظاهراً ، فعدلتم عن المحكم واتبعتم المتشابه ، ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله .

فلو تمسكتم بظاهر هذا الكلام ، لم تضلوا ، فإن الابن ظاهره فى كلام الأنبياء ، لا يراد به شيء من صفات الله ، بل يراد به وليه ، وحبيبه ونحو ذلك .

وروح القدس لا يراد به صفته ، بل يراد به وحيه وملكه ونحو ذلك .

فعدلتم عن ظاهر اللفظ ومفهومه إلى معنى لا يدل عليه اللفظ ألبتة .

فكيف تدعون أنكم اتبعتم نصوص الأنبياء ؟!!

الوجه العاشر :- إنكم بالغتم فى ذم المسيح وإنجيله ، كما بالغتم فى سب الله وشتمه ، وإن كنتم لا تعلمون أن ذلك ذم ، فلم ترضوا أن تجعلوا ظاهر كلام المسيح ما أنتم عليه من الكفر ، حتى جعلتم ظاهره كفراً لا ترضونه ، مثل ثلاثة آلهة ، متفقة أو متفرقة ، أو ثلاثة أجسام مؤلفة ، أو ثلاثة أجزاء مفرقة ، أو ثلاثة أشخاص مركبة .

فهذا ونحوه هو الذى ادعيتم أنه ظاهر كلام المسيح عليه السلام .

وأنتم لا تقولون بهذا الظاهر ، بل تكفرون قائله ، كما يكفر المسلمون من يقول بالظاهر الذى هو التجسيم والتمثيل .

وهذا مما يتضمن أن كلام المسيح ظاهر فى إثبات ثلاثة آلهة ، وثلاثة أشخاص مؤلفة ، وثلاثة أجزاء متفرقة ، وثلاثة أشخاص مركبة .

كما زعمتم أن ظاهر القرآن التجسيم ، وأنكم عدلتم عن هذا الظاهر إلى إثبات الأقانيم الثلاثة التى جعلتم فيها كلمة الله ، هى ابنه ، وهو جوهر خالق يساويه فى الجوهر ، وأن المسيح هو هذا الابن المساوى للأب فى الجوهر خالق العالمين ، وديان يوم الدين ، والجالس فوق العرش عن يمين الرب ، وأنه إله حق من إله حق ، والروح أيضاً إله ثالث ، والآلهة الثلاثة إله واحد .

وهذا الذى ذكرتموه فيه من عيب المسيح وذمه ، ما ينتصر الله به للمسيح ، ولمن افترى عليه منكم ومن غيركم .

فإن المسيح عليه السلام ــ على قولــكم ــ : لم يفصح لــكم بأمانة تعتقدونها ، ولا بتوحيد تعرفون به ربكم ، عز وجل ، بل تــكلم بما ظاهره إثبات ثلاثة آلهة ، وثلاثة أجسام مركبة ، وثلاثة أجزاء متفرقة ، وأنــكم أنتم أصلحتم ذلك ، حتى جعلتموه ثلاثة أقانيم ، ووضع تلك الأمانة المخالفة لعقول ذوى المعقول ، ولــكل كتاب جاء به رسول ، مع أن المسيح لم ينطق بتثليث قط ، ولا باتحاد ، ولا بما يدل على ذلك .

وعمدتم على ما نقله « متَّى » عنه دون الثلاثة أنه قال : عَمِّدوا الناس باسم الأب ، والابن ، وروح القدس .

وهذا الــكلام ظاهره ــ بل نصه ـ حجة على خلاف قولــكم ، وأنه أراد بالابن نفسه وهو الناسوت ، لم يرد به صفة الله ، وأراد بروح القدس ما أيده الله به ، أو روح القدس الذى نفخ فى أمه حتى حبلت به ، لم يرد به صفة الله تعالى .

فتأولتم كلامه على خلاف ظاهره ، تأويلا يخالف صريح المعقول ، وصحيح المنقول ، فــكيف تدعون أنــكم تمسكتم بظاهر كلامه ؟ !

ولما كان قول النصارى فى التثليث متناقضاً فى نفسه لا حقيقة له ، صار مجرد تصوره التام كافياً فى العلم بفساده من غير احتياج إلى دليل ، وإن كانت الأدلة تظهر بفساده .

ولهذا سلك من طائفة العلماء فى الــكلام معهم هذا المسلك وهو أن مجرد تصور مذهبهم كاف فى العلم بفساده ، فإنه غير معقول .

وقالوا : إن النصارى ناقضت فى اللفظ ، وأحالت فى المعنى ، فلا يجوز أن يعتقد ما يدعون انتحاله لتناقضه .

وذلك أنهم يزعمون أن الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ، وهــذا لا يصح اعتقاده ؛ لأنه لا يجوز أن يعتقد المعتقد فى الشيء أنه ثلاثة مع اعتقاده فيه أنه واحد ، لأن ذلك متضاد .

وإذا كان ذلك كذلك ، فليس يخلو من أن يعتقد أنه ثلاثة ، أو أنه واحد .

وليس يحتاج أن يعرف بدليل بطلان قول من ادّعى أن الواحد ثلاثة ، وأن الثلاثة واحد ، لأن ذلك لا يعقل .

وهو كمن ادّعى فى الشىء أنه موجود معدوم ، أو قديم محدث ، أو فى الجسم أنه قائم قاعد ، متحرك ساكن .

وإذا كان كذلك فتناقضه أظهر من أن يحتاج فيه إلى دلالة .

وإذا قال النصارى : إنه أحدىّ الذات ثلاثىُّ الصفات .

قيل : لو اقتصرتم على قولكم : إنه واحد وله صفات متعددة ، لم ينكر ذلك عليكم جمهور المسلمين ، بل ينكرون تخصيص الصفات بثلاث . فإن هذا باطل من وجوه متعددة .

منها : أن الأب عندكم هو الجوهر ليس هو صفة ، فلا يكون له صفة إلا الحياة والعلم ، فيكون جوهراً واحداً له أقنومان ، وأنتم جعلتم ثلاثة أقانيم .

ومنها : أن صفات الرب لا تنحصر فى العلم والحياة ، بل هو موصوف بالقدرة وغيرها .

ومنها : أنكم تارة تفسرون روح القدس بالحياة ، وتارة بالقدرة ، وتارة بالوجود .

وتفسرون الكلمة ، تارة بالعلم ، وتارة بالحكمة ، وتارة بالكلام .

فبطلان قولكم فى إثبات ثلاث صفات كثير ، وأنتم — مع هذا — تجعلون كل واحدة منها إلهاً .

فتجعلون الحياة إلهاً ، والعلم إلهاً ، وهذا باطل .

وأما من لم يثبت الصفات من المسلمين وغيرهم ، فيردون عليكم من وجوه أخرى ، كقول بعضهم : إذا قيل : ألستم تقولون : إن الأبعاض الكثيرة تكون

إنساناً واحداً ، والآحاد الكثيرة عشرة واحدة ، والأجسام الكثيرة داراً واحدة ومدينة واحدة وما جرى هذا المجرى ، مما هو أكثر من أن يحصى ، وأظهر من أن يخفى .

فكيف عبتم ذلك من النصارى ؟ ولِمَ أنكرتم أن يكون ثلاثة أقانيم جوهراً واحداً ؟

قيل : إن قولنا إنسان واحد ، ودار واحدة ، وعشرة واحدة وما يجرى هذا المجرى ، أسماء تنبيء عن الجمل لا عن آحاد .

وإذا قلنا : إنسان واحد ، فكأنا قلنا جملة واحدة ، وكذلك إذا قلنا : عشرة واحدة ، لا أنا نثبته واحداً فى الحقيقة .

كيف ونحن نقول : إن أبعاض الإنسان متغايرة ، فكل بعض منها غير سائرها ، وكذلك كل واحد من العشرة غير سائرها ؟ !

فنحن وإن قلنا : إنسان واحد ، فلسنا نثبته شيئاً واحداً فى نفسه ولو أثبتنا ذلك لتناقضنا مناقضة النصارى . وإنما قلنا: هى جملة واحدة ، ولو قالت النصارى مثل ذلك لم تتناقض حتى تزعموا أنها ثلاثة أشياء جملة واحدة .

فيكون مرادهم فى ذلك بوصفهم الأقانيم الثلاثة ، بأنها جوهر واحد مما نريد بقولنا : الأبعاض الكثيرة أنه إنسان واحد .

فيكون وصفهم لها بأنها جوهر ، إنما ينبيء أنها جملة ، وليس هذا مما يذهبون إليه ، ولا يعتقدونه ولا يجعلون له معنى ، لأنهم لا يعطون حقيقة التثليث ، فيثبتون الأقانيم الثلاثة متغايرة ، ولاحقيقة التوحيد ، فيثبتون القديم واحداً ليس باثنين ولا أكثر من ذلك .

وإذا كان ذلك كذلك ، فما قالوه ، هو شيء لا يعقل ولا يصلح اعتقاده ويمكن أن يعارضوا على قولهم بكل حال .

فيقال لهم : إذا جاز عندكم أن تكون ثلاثة أقانيم جوهراً واحداً ، فلِمَ

لا يجوز أن تكون ثلاثة آلهة جوهراً واحداً وثلاثة فاعلين جوهراً واحداً ، وثلاثة أغيار جوهراً واحداً ، وثلاثة أشياء جوهراً واحداً ، وثلاثة قادرين جوهراً واحداً ، وكل ثلاثة أشياء جوهراً واحداً ؟ وكل ما يجرى هـذا المجرى من المعارضة ، فلا يجدون فصلا .

الوجه الحادى عشر : أن غلاة المجسمة الذين يكفرهم المسلمون أحسن حالا منكم ، شرعاً وعقلا ، وهم أقل مخالفة للشرع والعقل منكم .

فإذا كان هؤلاء خيراً منكم ، فكيف تشبهون أنفسكم بمن هو خير من هؤلاء من أهل السنة من المسلمين الذين لا يقولون ، لا بتمثيل ولا بتعطيل ؟

وبيان ذلك أن التوراة والإنجيل وسائر كتب الله ، وغير ذلك مما هو مأثور عن الأنبياء ، فيه نصوص كثيرة صريحة ظاهرة واضحة فى وحدانية الله ، وأنه لا إله غيره ، وهو مسمى فيها بالأسماء الحسنى ، موصوف بالصفات العليا ، وأن كل ما سواه مخلوق له ، ليس فيها تثليث ولا اتحاد الخالق بشىء من المخلوقات ، لا المسيح ولا غيره

وفيها ألفاظ قليلة مشكلة متشابهة ، وهى — مع ذلك — لا تدل على ماذكرتموه من التثليث والاتحاد ، لا نصا ولا ظاهراً ، ولكن بعضها يحتمل بعض ما قلتم ، وليس فيها شىء يحتمل جميع ما قلتم ، فضلا عن أن يكون ظاهراً فيه أو نصا ، بل بعضها يحتمل بعض قولكم .

فأخذتم ذلك المحتمل ، وضممتم إليه من الكفر الصريح ، والتناقض القبيح ما صيرتموه أمانة لكم (أى عقيدة إيمان لكم) .

ولو كانت كلها تحتمل جميع ما قلتم ، لم يجز العدول عن النص والظاهر إلى المحتمل . ولو كان بعضها ظاهراً فيما قلتم ، لم يجز العدول عن النصوص الصريحة إلى الظاهر المحتمل .

ولو قدر أن فيها نصوصاً صريحة قد عارضتها نصوص أخرى صريحة ، لكان

الواجب أن ينظروا بنور الله الذى أيَّد به عباده المؤمنين ، فيتبعون أحسن ما أنزل الله ، وهو المعنى الذى يوافق صريح المعقول وسائر كتب الله ، وذلك النص الآخر إن فهموا تفسيره ، وإلا فوضوا معناه إلى الله ، إن كان ثابتاً عن الأنبياء .

وهؤلاء عدلوا عما يعلم بصريح المعقول ، وعما يعلم بنصوص الأنبياء الكثيرة ، إلى ما يحتمله بعض الألفاظ ، لموافقته لمواهم فلم يتبعوا ﴿ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ .

وأما كفار المجسمة ، فهؤلاء أعذر وأقل كفراً من النصارى ، فإن هؤلاء يقولون كما يقوله معهم النفاة : إن ظواهر جميع الكتب هو التجسيم .

فى التوراة ، والقرآن من الآيات التى ظاهرها التجسيم ، ما لا يحصى .

وليس فيها نص بما يقوله النفاة ، من أن الله ، ليس بداخل العالم ، ولا خارجه ، ولا متصل به ولا منفصل عنه ، ولا هو فوق العرش ، ولا يشار إليه ، ولا يصعد إليه شيء ، ولا ينزل منه شيء ، ولا يقرب منه شيء ، ولا يدنو من شيء ولا يدنو إليه شيء ، إلى نحو ذلك من النفى الذى يقوله نفاة الصفات .

فمعلوم أنه ليس فى الكتب الإلهية ــ لا التوراة ، ولا الإنجيل ، ولا الزبور ، ولا القرآن ــ ولا غير ذلك من النبوات ، من هذا حرف واحد ، وكلها مملوءة مما يقول هؤلاء : إنه تجسيم .

فيقول هؤلاء : نحن اتبعنا نصوص الأنبياء ، ولم نعدل عنها إلى غيرها ، ولم نجد فى نصوصهم نصا محكما صريحاً بالنفى ، الذى يقوله نفاة الصفاة .

ووجدنا نصوصهم كلها بالإثبات الذى يقولون : إنه تجسيم .

فكان على قولنا وقولهم نصوص الأنبياء ظاهرة فى التجسيم وليس لهم نص يناقض ذلك ، فاتبعنا نصوصهم ، وكل من عارض إثبات الصفات ، لم يعارضها بنصوص صريحة عن الأنبياء ، لكن بحجج عقلية .

فيقول هؤلاء : إن النصارى خالفوا صريح المعقول ، وصريح كلام الأنبياء

واتبعوا قليلا من متشابه كلامهم . ونحن اتبعنا نصوص الأنبياء ، ولم نخالف شيئاً من صريح نصوصهم . ولكن مخالفنا يقول : إنا خالفنا العقل .

ونحن ننازعه فى ذلك ، وندعى أن العقل معنا لا علينا ، وأن ما ندعيه من المعقولات التى تعارض كلام الأنبياء ، فهى باطلة .

أو يقولون : نحن والنصارى متفقون ، على أنا لا نعارض كلام الأنبياء بالشُّبَهِ العقلية ، لكن نحن اتبعنا كلامهم المحكم الظاهر الكثير ، الذى لا نخالف له من كلامهم .

وهم خالفوا كلامهم الكثير المحكم ، واتبعوا قليلا من المتشابه .

ويقول الغلاة من هؤلاء الذين يكفرهم أئمة المسلمين وجمهورهم الذين يحكى عنهم : إن الله ينزل إلى الأرض عشية عرفة ، فيعانق المشاة ، ويصافح الركبان ، وأنه يتمشى فى الأرض ، يكون موطىء أقدامه مروجا ، ونحو ذلك .

ليس هذا القول بأعجب من قول النصارى ؛ الذين يقولون : إنه هو المسيح ، وإن اللاهوت والناسوت اتحدا .

فنحن نقول أيضاً : إنه حلَّ فى بعض الأجساد المخلوقة كما يقوله النصارى .

أو نقول : إنه تجسد كما تتجسد الملائكة والجن . وهذا أقرب من قول النصارى : إنه اتحد بجسم المسيح .

فإنا قد عهدنا اللطائف من الملائكة تتصور فى صورة بشرية ، ولم نعهد ملكا صار هو والبشر شيئاً واحداً .

فإذا لم يجز أن يتحد الملك بالبشر ، فكيف يجوز أن يتحد رب الخلائق كلهم بالبشر ؟!

قالوا : وقد يحل الجنىُّ فى بدن الإنسىِّ ، ويتكلم على لسانه ، إلا أنهما جوهران ومشيئتان وطبيعتان ، ليس بينهما اتحاد ، لكنه دخل فيه وتكلم على لسانه .

والنصارى يقولون : إن رب العالمين اتحد بالبشر . فمنهم من يقول جوهر واحد ، ومنهم من يقول : شخص واحد، وأقنوم واحد، ومنهم من يقول مشيئة واحدة ، فلابد لكل منهم من نوع واتحاد ، وهذا أبعد من حلول الجنيّ في الإنسيّ.

فإذا كان ما يقولونه ممتنعا في الجن والملائكة ، فكيف برب العالمين ؟!

ومن غلاة المجسمة ، اليهود ، من يحكى عنه أنه قال : إن الله بكى على الطوفان حتى رمد ، وعادته الملائكة ، وأنه ندم حتى عض يده وجرى منه الدم ، وهذا كفر واضح ، ولكن يقولون : قولنا خير من قول النصارى ، فإن النصارى يقولون : إنه أُخِذَ وضُرِبَ بالسياط و بُصِقَ في وجهه ، ووُضِعَ الشوك على رأسه كالتاج ، وصُلِبَ بين لصين ، وفُعِل به من أقبح ما يفعل باللصوص ، قطاع الطريق .

وقد صرح كثير منهم بأن هذا فُعِلَ باللاهوت والناسوت جميعاً .

وشريعة إيمانهم تدل على ذلك ، وهو لازم لمن أنكر ذلك منهم ، فإنه مع القول بالاتحاد الذى ، لابد لطوائفهم الثلاثة منه ، يمتنع أن تحل هذه العقوبات في هذا دون ذاك، فلا يمكن أن يحل في الناسوت دون اللاهوت ، فإن هذا إنما يتصور إذا كانا اثنين .

ومن قال بالاتحاد ، امتنع عنده أن يكون هناك اثنان .

وفي الجملة ، فالنصارى المثلثة ، إما أن يصرحوا بالاتحاد من كل وجه ، كاليعقوبية ، وهؤلاء يصرحون بأن الآلام حلّت باللاهوت .

و إما أن يقولوا بالاتحاد من وجه ، كقول الملكية : إنهما شخص واحد ، وقول النسطورية : هما مشيئة واحدة .

وحينئذ فما قالوه من التعدد والموت الذى يوجب المباينة ، وأنه لا يتصف

أحدهما بما يتصف به الآخر ، ولا يحل به ما حل به ، فيكون متناقضاً لهذا .

فأحسن أحوالهم أن يتناقضوا فى الاتحاد ، كما تناقضوا فى التثليث وهذا حقيقة قول خيار هؤلاء يتكلمون بالكفر و بما يناقضه ، و بالتوحيد و بما يناقضه .

ومعلوم أن ما يفعله بنفسه من ندم و بكاء وحزن ، هو دون ما يفعله أعداؤه به ، من ضرب ، وصفع ، وجعل الشوك على رأسه ، وصلبه بين لصَّين وأن استغاثته بمن يخاصه من ذلك أشد نقصاً من ندمه وحزنه .

و إن قالوا : فعل هذا حتى يعلم عباده التشبه به . أمكن أولئك المجسمة أن يقولوا : بكى وندم ، وعض يده ندماً حتى جرى الدم ، حتى يعلم عباده التوبة من الذنوب .

فنى الجملة ، ما قال قوم من أهل الملل قولا فى الله ، إلا وقول النصارى أقبح منه .

ولهذا كان معاذ بن جبل رضى الله عنه يقول : لا ترحموهم فلقد سبوا الله مسبة ، ماسبه إياها أحد من البشر ، ولهذا يعظم الله فريتهم على الله فى القرآن ، أشد من تعظيم افتراء غيرهم كقوله ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [سورة مريم: ٨٨-٩٤] .

وفى الصحيحين ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله عز وجل : كذبنى ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، فأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لى كفوا أحد ، وأما تكذيبه إياى فقوله : لن

يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته » .

ورواه البخارى عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : قال الله عز وجل : « كذبنى ابن آدم ، ولم يكن له ذلك . وشتمنى ، ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى ، فزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمته إياى ، فقوله : لى ولد ، فسبحانى أن أتخذ صاحبة ولا ولداً .

وفى الصحيحين عن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله عز وجل ، إنه يُشْرَكُ به ، و يُجْعَلُ له ندٌّ وهو يعافيهم و يرزقهم و يدفع عنهم » .

الوجه الثانى عشر : أن كل من يعتقد فى التجسيم مايعتقد ، يمكنه أن يقول كما يقوله النصارى ، فإن النصارى عمدوا إلى ما هو جسد من جنس سائر أجساد بنى آدم . قالوا : إنه إله تام ، و إنسان تام . وليس فيه من الإلهية شىء . فما بقى ـ مع هذا ـ يمتنع أن يعتقد فى نظائره ما يعتقد فيه .

فلو قال القائل : إن موسى بن عمران كان هو الله ، لم يكن هـذا أبعد من قول النصارى ، فإن معجزات موسى ، كانت أعظم ، وانتصاره على عدوه أظهر ، وقد سماه الله فى التوراة إلهاً لهارون ولفرعون .

فإذا قيل فيه ما قالوا فى المسيح : إنه أظهر المعجز بلاهوته ، وأظهر العبودية بناسوته ، لم يكن بطلان هذا أظهر من بطلان قول النصارى ، بل متى جوزوا اتحاد اللاهوت بالناسوت ، لم يمكنهم دفع ذلك عن أحد ممن يدّعِى فيه إلا بدليل خاص. بل إذا قيل لهم : حلّ فى كثير من الأنبياء والقداديس ، لم يمكنهم نفى ذلك .

و إذا قالوا : لم يخبر بذلك أحد ، ولم يبشر به نبى ، أو هذا غير معلوم .

قيل لهم : غاية هذا كله ، أنكم لا تعلمون ذلك ، ولم يقم عندكم دليل عليه، وعدم العلم ليس علماً بالعدم ، فعدم علمكم ، وعدم علم غيركم بالشىء ، ليس علماً بعدم ذلك الشىء .

وكذلك عدم الدليل المعين ، لا يستلزم عدم المدلول عليه ، فإن كل ما خلقه الله دليل عليه ، ثم إذا عدم ذلك ، لم يلزم عدم الخالق ، فلا يجوز نفى الشيء لعدم الدليل الدال عليه إلا أن يكون عدم الدليل مستلزماً لعدمه ، كالأمور التى تتوفر الهمم على نقلها إذا لم ينقل علم انتفاؤها .

والمقصود أنكم — مع العدم — لا يمكنكم النفى العام عن غير المسيح لعدم الدليل الدال عليه ، فإنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول فى نفس الأمر ، لاسيما وهو كان متحداً بالمسيح عندهم أكثر من ثلاثين سنة ، ومع هذا ، فكان يخفى نفسه ولا يظهر إلا العبودية .

فإذا قيل لهم : هكذا كان متحداً بغيره من الأنبياء والصالحين ، ولكن أخفى نفسه لحكمة له فى ذلك ، أو أظهر على نفسه بعض خواص عباده ، أو أظهر لطائفة لم ينقل إلينا خبرهم ونحو ذلك ، لم يمكن — مع تصديق النصارى فيما يدعونه — الجزم بكذب هؤلاء . بل من جوَّز قول النصارى ، جوز أن يكون متحداً بغير ذلك من الأجسام ، فيجعل كثيراً من الأجسام المخلوقة هى رب العالمين ، إذ كان ليس هو متحداً بها فى نفس الأمر .

فإذا اعتقدوا الاتحاد فيها ، كما اعتقدته النصارى فى المسيح ، لم يكن ثمَّ إله فى الحقيقة إلا ذلك الجسم الناسوتىّ المخلوق .

لكن ظن الضال أنه رب العالمين كما ظن عُبّاد العجل أن العجل إله موسى.

فإذا جاز أن يتحد الرب عز وجل ببعض الأجسام ، لم ينكر على أصحاب العجل إذا جوزوا أن يكون رب العالمين اتحد بالعجل ، وقد رأوا منه نوع خرق عادة . فليس للنصارى أن ينكروا على عباد العجل ، ولا عباد شيء من الأصنام ، إذا أمكن أن يكون الرب عز وجل حل فيها عندهم ، إن لم يقيموا دليلا على أن الرب لم يحل فى ذلك .

فإذا قيل : إن موسى عليه السلام أنكر على عباد العجل .

قيل : نعم . وموسى ينكر على كل من عبد شيئاً من المخلوقات ، حتى لو عبد أحد الشجرة التى كلمه الله منها ، لأنكر عليه ، فإنكاره على النصارى أعظم .

وموسى عليه السلام ، لم يقل قط : إن الله يتحد بشىء من المخلوقات ويحل فيه ، بل أخبر من عظمة الله عز وجل بما يناقض ذلك .

ففى التوراة ، من نهيه عن عبادة ما سوى الله ، ومن تعظيم أمره ، وعقوبة المشركين به ، و بما أخبر به من صفات الله عز وجل ، ماينافض قول النصارى .

ولهذا كان من تدبر التوراة وغيرها من كلام الأنبياء عليهم السلام من النصارى ، تبين له أن دينهم يناقض دين الأنبياء كلهم ، وأن ما هم عليه من التثليث والاتحاد والشرك ، لم يبعث به أحد من الأنبياء عليهم السلام . وما يفعلونه من دعاء المخلوقين كالملائكة ، أو كالأنبياء والصالحين الذين ماتوا ، مثل دعائهم مريم وغيرها ، وطلبهم من الأموات الشفاعة لهم عند الله ، لم يبعث به أحد من الأنبياء . فكيف وقد صوروا تماثيلهم ، ليكون تذكيراً لهم بأصحابها ويدعون تلك الصورة ؟ !

وإن قصدوا دعاء أصحابها ، فهم إذا صرحوا بدعاء أصحابها وطلبوا منهم الشفاعة وهم موتى وغائبون ، كانوا مشركين .

فكيف إذا كان الدعاء فى الظاهر لتماثيلهم المصورة ؟ ! وهذا مما يعترفه حذاق علمائهم بأنه مخالف لدين الأنبياء كلهم .

ولهذا وقع بينهم تنازع فى اتخاذ الصور فى الكنائس ، لما ابتدعه بعضهم كما هو مذكور فى أخبارهم ، ولم يأت من ابتدع ذلك بحجة شرعية .

والمجسمة يعتقدون أن الله قديم أزلى ، وأنه عظيم جداً ، لايقولون : إنه متحد بشىء من الأجسام المخلوقة ، ولا يحل فيها .

فمن قال باتحاده وحلوله فيها ، كان قوله شرا من قول هؤلاء المجسمة .

كما أن المتفلسفة الذين يقولون بأن الأفلاك أجسام قديمة أزلية واجبة بنفسها

أولها علة تتشبه بها كما يقوله « أرسطو » وذووه ، أو يثبتون لها علة فاعلة لم تزل مقارنة لها كما يقوله « ابن سينا » وأمثاله .

وهؤلاء قولهم شر من قول اليهود والنصارى ومشركى العرب الذين يثبتون للسموات والأرض خالقاً خلقها بمشيئته وقدرته .

ولو قال من قال منهم : إن ذلك جسم فغايته أن يثبت جسما قديماً أزلياً موصوفاً بصفات الكمال .

فمن أثبت جسما قديماً أزلياً ليس موصوفاً بصفات الكمال ، كان قوله شراً من قول هذا .

فتبين أن المجسمة الذين يثبتون جسما ، قديماً أزلياً واجب الوجود بنفسه ، عالماً بكل شيء ، قادراً على كل شيء مع قولهم : إنه تحله الحوادث ، وتقوم به الحركة والسكون ، خيراً من قول الفلاسفة الذين يقولون : إن الأفلاك أجسام قديمة أزلية واجبة الوجود بنفسها ، كما يقوله « أرسطو » وذووه ، وخير من النصارى أيضاً .

الوجه الثالث عشر : ـ قولهم : من قال ثلاثة آلهة مختلفة أو متفقة ، أو ثلاثة أشخاص مركبة أو غير ذلك مما يقتضى الاشتراك والتكثير والتبعيض والتشبيه فنحن نلعنه ونكفره .

فيقال لهم : وأنتم أيضاً تلعنون من قال : إن المسيح ليس هو إله حق من إله حق ، ولا هو مساوى الأب فى الجوهر ، ومن قال : إنه ليس بخالق ، ومن قال : إنه ليس بجالس عن يمين أبيه ، ومن قال أيضاً : إن روح القدس ليس رب حق محيى ، ومن قال : إنه ليس ثلاثة أقانيم .

وتلعنون أيضاً مع قولكم إنه الخالق من قال : إنه الأب ، والأبُ هو الخالق ، فتلعنون من قال هو الأب الخالق ومن قال : ليس هو الخالق ، فتجمعون بين النقيضين .

فتلمنون من جرد التوحيد بلا شرك ولا تثليث ، ومن أثبت التثليث مع انفصال كل واحد عن الآخر ، وتجمعون بين النقيضين .

فمن أثبت أحدهما منفكا عن الآخر لعنتموه ، كمن قال : عندى واحد ثلاثة .

فمن قال : هو واحد ليس بثلاثة كذبه ، ومن قال : هو ثلاثة ليس واحداً كذبه . ومن قال : عندى شىء موجود معدوم .

فمن قال : هو موجود ليس بمعدوم كذبه ، ومن قال معدوم ليس بموجود كذبه ، ومن قال : عندى شىء هو حى ميت ، هو عالم جاهل ، هو قادر عاجز .

فمن قال هو حى ليس بميت كذبه ، ومن قال : هو ميت ليس بحى ، كذبه .

فهكذا أنتم ، تجمعون بين قولين متناقضين ، أحدهما حق ، والآخر باطل .

فمن قال الحق ونفى الباطل ، لعنتموه . ومن قال الباطل ونفى الحق لعنتموه .

وأنتم تشبهون الملاحدة ، من الجهمية والفلاسفة والباطنية ، الذين يسلبون عنه النقيضين ، أو يمتنعون عن إثبات أحد النقيضين ، فيقولون : لا نقول هو حى ولا ليس بحى ، ولا هو عالم ، ولا ليس بعالم ، ولا قادر ولا ليس بقادر .

بل منهم من يقول : لا نقول هو موجود ولا معدوم ولا نقول : هو شىء ، ولا نقول : ليس بشىء .

ومنهم من يقول : ليس بحى ولا ميت ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا عاجز .

ومنهم من يقول : لا نطلق لا هذا ولا هذا .

فيقال لهم : رفع النقيضين كجمع النقيضين ، والامتناع عن إثبات أحد النقيضين ، كالامتناع عن نَفْيِ أحد النقيضين .

وكذلك من وصفه بأنه موجود واجب الوجود لذاته ، ثم وصفه بصفات تستلزم عدمه ، فقد جمع بين النقيضين .

وكل قول يتضمن جمع النقيضين و إثبات الشىء ونفيه ، أو رفع النقيضين ، الإثبات والنفى ، فهو باطل .

والنصارى ـ فى هذا الباب ـ من أبلغ الناس تناقضا ، يقولون الشىء ، ويقولون بما يناقضه ، ويلعنون من قال هذا ومن قال هذا .

وأيضاً فكل طائفة منكم تلعن الأخرى ، فإن أهل الأمانة تلعن الأريوسية وغيرهم من طوائف النصارى وهم يلعنونكم ، وكل من فرقكم الثلاثة ، النسطورية ، واليعقوبية ، والملكية ، تلعن الطائفتين الأخريين .

فأنتم واليعقوبية تلعنون من يقول . إن مريم لم تلد إلهاً ، ويقولون : إن مريم ولدت إنسانا تاماً إلهاً تاماً .

وأنتم والنسطورية تلعنون من قال . إنهما جوهر واحد بمشيئة واحدة وطبيعة واحدة .

ومن قال : إن اللاهوت تألم مع قولكم : إن اللاهوت مولود من مريم ، ومع قولكم المسيح الذى ولدته مريم : مات وصلب ، وفى أقوالكم من العجائب المتناقضة التى توجب أنكم ملعونون ، ما يطول وصفه ، فما منكم من أحد إلا وهو لاعن ملعون ، فلعنكم من قال بهذه المقالات ، لا يوجب أنكم على الحق ، بل يوجب أن يكون من جملة الملعونين عندكم ، كطائفة من طوائفكم ، والنصارى طوائف كثيرون مختلفون اختلافاً كثيراً .

والطوائف الثلاثة المشهورة فى الأزمان المتأخرة فهم بعض طوائفهم ، وإلا فهم طوائف كثيرون ، مختلفون فى التثليث والاتحاد .

وتجد كل صنف منهم ـ أو من غيرهم فى مقالاتهم ـ يحكى أقوالا غير الأقوال التى حكاها الآخرون .

ومن أجل من جمع أخبارهم عندهم سعيد بن البطريق بترك الإسكندرية ، فى أثناء المائة الرابعة من دولة الإسلام ، وقد بحث لهم بحثاً استقصى فيه ـ بزعمه ـ نصر مذهبهم ، وهو ملكى ، وقد ذكرت كلامه فى غير هذا الموضع .

وفيهم من يقول : إن مريم زوجة الله ، وفيهم من يجعلها إلهاً آخر ، كالمسيح .

وفيهم من يثبت أن المسيح ابن الله ، الولادة المعروفة من الحيوان .

والأمانة التي جعلوها عقيدتهم وأصل إيمانهم في زمن قسطنطين بعد المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة ، هي وغيرها من أقوالهم الظاهرة ، تدل على هذه الأمور المنكرة القبيحة دلالة بينة .

لكن علماؤهم يتأولونها بتأويلات تناقض مدلولها ، مع فساد تلك المعاني التي يحملونها عليها عقلا وشرعاً .

وليست تلك ألفاظ الأنبياء ، حتى يقال : حكمهم في ذلك حكم سائر الطوائف من المسلمين وغيرهم ، الذين يقولون ما يرونه متشابهاً من كلام الأنبياء ويقولون : إن الأنبياء تكلموا بما لا يعرف أحد معناه ، أو أنهم خاطبوا الجمهور بما أرادوا به تفهيمهم أموراً ينتفعون بها ، وإن كان ذلك كذباً باطلا في نفس الأمر .

فإن هؤلاء الطوائف ، وإن كان فيهم من الضلال والجهل ماقد بسط في غير هذا الموضع ، فقد فعلوا ذلك في ألفاظ الأنبياء التي لها حرمة النبوة .

بخلاف النصارى فإنهم وضعوا عقيدة وشريعة ، ليست ألفاظها منقولة عن أحد من الأنبياء .

الوجه الرابع عشر : ـ قولهم : ومرادنا بالأب والابن ، غير أبوة وبنوة نكاح ، ومن أراد ولادة زوجة معتاد .

فيقال: لفظ الولادة المعروف ، إنما يكون من أصلين ، وإنما يكون بانفصال جزء من الأصلين ، وإنما يكون بحدوث المولود ، سواء أريد ولادة الحيوان أو غيرها ، كما تتولد النار من بين الزنادين ، فإذا قدح أحدهما بالآخر ، خرج منهما جزء لطيف ، فاستحال نارا ، ثم سقط على الحراق .

وقد توسع بعض الناس في الولادة حتى عبر به عما يحدث عن الشيء ، وإن لم يكن بانفصال جزء منه ، كتولد الشعاع عن النار ، والشمس وغيرها ، لأن هذا يحدث بشيئين أحدهما ، ما يصدر عنه ، من الشمس والنار . والثاني المحل

القابل له الذى ينعكس عليه ، وهو الجرم المقابل له الذى يقوم به الشعاع .

فأما ما يحدث عن شىء واحد ، فلا يعرف أنه يسمى ولادة إن قدر وجود ذلك ، وكذلك لا يعرف ما يلزم الشىء الواحد أنه يسمى ولدا .

فأما ما يقوم بالموصوف من صفاته اللازمة له ، فهذا أبعد شىء عن أن يسمى هذا اللزوم ولادة ، بل لا تكون الولادة إلا عن أصلين .

وكل من قال : إن لله ولدا ، لزمه أن تكون له صاحبة بأى وجه فسر الولادة ، وأن يكون له ولد حادثا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة الأنعام : ٩٩ ، ١٠٠] . فاستفهم تعالى استفهام إنكار ، يبين امتناع أن يكون له ولد ، إذا لم تكن له صاحبة فإن الولد لا يكون إلا من أصلين ، وهذا مما ينبغى أن يتفطن له ، فإن جعل ما يلزم الشىء الواحد متولداً عنه ، لا يعرف ، لاسيما صفاته القائمة به اللازمة له ، كعلمه ، وحياته ، لا سيما الصفات القديمة الأزلية لذات رب العالمين ، الذى لم يزل ولا يزال موصوفا بها ، فإن صفات العبد اللازمة له ، كحياته ، وقدرته ونحو ذلك ، ليست متولدة عنه عند جميع العقلاء .

ولا يقول عاقل يعقل ما يقول : إن لون السماء وقدرها متولد عنها ، ولا إن قدر الشمس وضوءها القائم بها ، اللازم لها ، متولد عنها ، ولا يقول أحد : إن حرارة النار وضوءها القائم بها متولد عنها .

وإنما يقال : — إن قيل — فيما ليس بقائم بها ، بل قائم بغيرها ، أو فيما هو حادث بعد أن لم يكن ، كالشعاع القائم بالأرض والحيطان ، وهذا ليس بقائم بها ، بل قائم بغيرها ، وهو حادث متولد عن أصلين ، لا عن أصل واحد .

فأما صفات المخلوق القائمة به اللازمة له ، فلا يقول أحد من العقلاء : إنها متولدة عنه .

والنصارى يزعمون أن كلمة الله التي يفسرونها بعلمه أو حكمته ، وروح القدس التي يفسرونها بحياته وقدرته ، هى صفة له قديمة أزلية ، لم يزل ولا يزال موصوفا بها .

ويقولون ـ مع ذلك ـ : إن الكلمة هى مولودة منه ، فيجعلون علمه القديم الأزلى متولداً عنه ، ولا يجعلون حياته القديمة الأزلية متولدة عنه .

وقد أصابوا فى أنهم لم يجعلوا حياته متولدة عنه ، لكن ظهر بذلك بعض مناقضاتهم وضلالهم بأنه أنواع كثيرة ، فإنه إن كانت صفة الموصوف القديمة اللازمة لذاته ، يقال : إنها ابنه وولده ومتولد عنه ، ونحو ذلك ، فتكون حياته أيضاً ابنه وولده . ومتولداً عنه ، وإن لم يكن كذلك ، فلا يكون علمه ابنه ولا ولده ، ولا متولدا عنه .

وأبلغ من ذلك أن روح القدس المنفصلة عنه ، القائمة بالأنبياء والصديقين ، لا يقولون : إنها ولده ، ولا إنها متولدة عنه ، بل يخصون ذلك بالكلمة ، فلا ينقلون عن أحد من الأنبياء أنه سمى شيئاً من صفات الله ابناً ولا ولداً ، ولا قال : إن علم الله أو كلامه أو حكمته ولده أو ابنه ، أو هو متولد عنه :

فعلم أن القوم فى غاية التناقض فى المعانى والألفاظ وأنهم مخالفون للكتب الإلهية كلها ، ولما فطر الله عليه عباده من المعقولات التى يسمونها نواميس عقلية ، ومخالفون لجميع لغات الآدميين ، وهذا مما يظهر به فساد تمثيلهم فإنهم قالوا : تولدت الكلمة عنه ، كما تولد الكلمة والحكمة فينا عن العقل .

فيقال لهم : لو قدر أن الأنبياء سموا ذلك تولداً ، فما يتولد فينا حادث بعد أن لم يكن ، وحدوثه يتسبب من فعلنا وقدرتنا ومشيئتنا .

فأما صفاتنا اللازمة لنا ، التى لا اختيار لنا فى اتصافنا بها ولم نزل متصفين بها ، فلا يقول عاقل : إنها متولدة فينا وعنا .

وأنتم تجعلون صفة الله القديمة اللازمة له ، التى لم يزل ولا يزال متصفاً بها ، متولدة عنه .

فلو قدر أن ما ذكرتموه من التولد العقلى أمراً معروفا فى اللغة والعقل والشرع ، لم يكن لكم أن تجعلوا علم الله وحكمته التى فسرتم بها كلمته ابناً له ومولوداً منه ، لم يزل مولوداً منه ، لأن هذا باطل عقلا وشرعا ولغة .

أما العقل فإن صفة الموصوف اللازمة له ـ وإن كان مخلوقا ـ ليست متولدة عنه ، فكيف الصفة القديمة للموصوف القديم ؟

ولو جاز هذا ، جاز أن يجعل ما كان لازما لغيره ولداً له ومولوداً منه ، فيجعل كيفيات الأشياء وكمياتها متولدة عنها وأمثالها .

ويقال : إن طول الجسم وعرضه وعمقه متولد عنه ، وإن حياة الحى متولدة عنه ، وإن القُوَى والطبايع التى جعلها الله فى الحيوان متولدة عنها .

وأما الشرع ، فإن هذا لو كان متولداً ـ وهو فى بعض اللغات يسمى ولداً ـ لم يجز أن يحمل على ذلك كلام الأنبياء إلا أن يكون فى لغتهم يسمى ولداً .

وكل من نظر فى كتب الأنبياء من علماء النصارى وغيرهم ، لم يجد أحداً من الأنبياء يُسَمِّى علم الله وكلمته وحياته ، ولداً له ولا ابناً له ، ولا قال : إن ذلك يتولد عنه .

فقولهم عن المسيح : عَمِّدُوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس أنه أراد بالابن كلمة الله القديمة الأزلية ، وأنها متولدة منه وأنه أراد بروح القدس ، حياة الله القديمة الأزلية ، كذب محض على المسيح عليه السلام ، لا يوجد قط فى كلامه ولا كلام غيره من الأنبياء أنهم سموا علم الله وحكمته ، ولا شيئاً من صفاته القائمة به ابناً ، ولا سموا حياته روح القدس .

وأما اللغة ، فإن هذا التعبير الذى ذكروا ـ وهو تسمية صفات الموصوف اللازمة له ولداً وابناً ومتولدا ـ لا يعرف فى لغات بنى آدم المعروفة .

وقد يتبنى الرجل ولد غيره فيتخذه ولدا ويجعله بمنزلة الولد وإن لم يكن متولداً عنه ، كما كانت تفعله أهل الجاهلية من العرب وغيرهم ، ولهذا نزه الله تعالى نفسه عن الولادة وعن اتخاذ الولد فقال تعالى : ﴿ أَلاَ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة الأنعام : ٩٩، ١٠٠] وقال تعالى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

وأما اتخاذ الولد ، ففى مواضع متعددة كقوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ [سورة الإسراء : ١١١] ، وقوله تعالى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [سورة البقرة : ١١٦، ١١٧] وقوله ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ : إِنِّي إِلٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء ٢٦ ـ ٢٩] وقوله ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [سورة المؤمنون : ٩١] وقوله ﴿ لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

وأهل الكتاب يذكرون أن فى كتبهم تسمية عباد الله الصالحين ابنا ، وتسمية الله أبا ، وتسمية المصطفين ابناء ، وهذا إذا كان ثابتاً عن الأنبياء فإنهم لا يعنون به إلا معنى صحيحاً .

واللفظ قد يكون له فى لغة معنى ، وله فى لغة أخرى معنًى غير ذلك ، والمراد بهذا الولد والابن ، لا ينافى كونه مخلوقا مربوبا عبداً لله عز وجل .

وأما تسمية شىء من صفات الله ابنا أو ولدا ، فهذا لا يعرف عن أحد من الأنبياء ، ولا الأمم أهل اللغات سوى مبتدعة النصارى .

ولم يبق للتولد إلا معنيان ، أحدهما : ـ أن ينفصل عنه جزء .

والثانى : ـ أن يحدث عنه شىء إما باختياره ، وإما بغير اختياره وقدرته ، كحدوث الشعاع عن النار والشمس .

وكل من الأمرين لا يكون إلا عن أصلين ، ولابد أن يكون حادثا لا يكون من صفاته اللازمة له ، فيمتنع أن يتولد عنه شىء إن لم يكن معه أصل آخر يتولد عنهما .

والتولد عنه بغير قدرته ومشيئته ، ممتنع عند أهل الملل ، المسلمين واليهود والنصارى وسائر الأمم ، سوى طائفة من المتفلسفة يقولون : إنه موجب بذاته ، مستلزم لما يصدر عنه ، فهؤلاء قولهم يناسب هذا التولد .

والنصارى تكفر هؤلاء ، لكن قد ضاهوهم فى القول ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ وهذا قاله طائفة من اليهود ، وهو معروف عن شخص يقال له فنحاص بن عازورا وأتباعه .

قال أبو محمد ابن حزم : والصدوقية ، طائفة من اليهود ، نسبوا إلى رجل

يقال له صدوق ، وهم يقولون ـ من بين سائر اليهود ـ : إن العزير ابن الله ، وكانوا بجهة اليمن .

ولكن المتفلسفة الذين يقولون بصدور العقول والأفلاك عنه ، وإن سمى ذلك تولدا ، فهم يجعلون ولده منفصلا عنه ، لكن يثبتون والدا قديما أزليا صدر عنه بغير اختياره ، ويجعلون الشيء الواحد متولدا عنه .

وسائر الطوائف الذين أثبتوا لله ولداً ، جعلوه حادثا منفصلا عنه .

فأما جعل صفته القائمة به ولداً له ومولوداً ، فهذا لا يعرف عن غير النصارى فإذا أثبتوا له ولداً وابناً غير مخلوق ، والصفة القائمة به اللازمة له ، لم تتولد عنه ، ولا تسمى ابناً ولا ولداً عند أحد من الأنبياء وغيرهم ، تعيّن أن يكون الولد ، إما جزءاً منفصلا عنه ، وإما معلولاً له صادراً عنه بغير قدرته ومشيئته ، وأىّ القولين قالوه ، فهم فيه كفار مضاهئون لقول الذين كفروا من قبل .

وبعض علمائهم وإن أنكر ذلك ، لكنهم يقولون بما يستلزم ذلك ، ويشبهونه بالشعاع من الشمس ، ويقولون عنه الروح ، هو منبثق من الله ، خارج منه .

وهذا كله يناسب الولادة ، التى هى خروج شيء منه ، أو حدوث شيء عنه بغير اختياره ومشيئته ، ولا بد له ـ مع ذلك ـ من محل يقوم به ، فإن الشعاع لا يقوم إلا بالأرض .

والأمر المنبثق الخارج من غيره إما أن يكون جوهراً قائماً بنفسه ، أو صفة قائمة بغيرها .

فإن كان جوهراً ، فقد انفصل من الرب جزء .

وإن كان عرضاً ، فلا بد له من محل ، فيكون متولدا عن أصلين .

وتشبيههم بتولد الكلام عن العقل ، تشبيه باطل ، فإن ذلك يحصل بقدرة الإنسان ومشيئته ، وهو حادث بعد أن لم يكن .

هذا إذا عرف أن ما يقوم بقلب الإنسان من علم وحكمة ، يقال : إنه يتولد عنه و يقال : إنه ابنه ، مع أن هذا أمر غير معروف فى اللغات ، ولو كان معروفا فى لغة بعض الأمم ، لم يجز أن يفسر به كلام الأنبيـاء إن لم يكن معروفا فى لغتهم .

وأما ما يدّعونه ، فإنهم يقولون : إن الـكلمة لازمة لذات الله أزلاً وأبداً ، وهى مولودة منه ، مع أنها غير مصنوعة ، فهذا كلام متناقض باطل من وجوه .

فإن المتولد عن الشىء ، لا يتولد إلا عنه وعن غيره .

وأما الشىء الواحد ، فلا يتولد عنه وحده شىء .

وأيضاً فإن ما تولد عن غيره لم يكن إلا حادثا .

وأما الصفة القديمة اللازمة لذات الرب ، فليست مولودة له ، ولا متولدة عنه ، بل هى قائمة به لازمة لذاته

وأيضاً ، فإن المولود اسم مفعول ، يقال : ولده يَلِدُه فهو مولود ، وهذا لا يقال إلا فى الحادث المتجدد ، فإنه مفعول فعل الوالد .

والقديم الأزلى ، لا يكون مفعولا مولوداً .

وأيضاً فتسمية الصفة القديمة الأزلية ، مولوداً وابناً ، لا يوجد فى كلام أحد من الأنبياء عليهم السلام .

فهبْ أنَّ هذا مما يسوغ لنا فى اللغة أن نقوله ، لـكن لا يجوز أن نحدث لغة غير لغة الأنبياء ، ونحمل كلام الأنبياء عليها ، فإن هذا كذب عليهم .

وهكذا تفعل النصارى وأمثالهم من أهل التحريف بكلام الأنبياء ، يحدثون لهم لغة مخالفة لغة الأنبياء ، و يحملون كلام الأنبياء عليه .

مثال ذلك أن الأنبياء أخبروا بأن الله إله واحد ، وكفروا من أثبت إلهين اثنين ، وأمروا بالتوحيد ودعوْا إليه ، وحرموا الشرك وكفَّروا أهله ، وأخبروا أن الله واحد أحد ، وكان مرادهم بذلك توحيده وأنه لا يجوز أن يعبد إلا الله ،

وأنه لا يستحق العبادة إلا هو ـ ليس مقصودهم بذلك نفى صفاته .

فلم يقصدوا بلفظ « الأحد والواحد » أنه ليس له علم ولا قدرة ، ولا شيء ، من الصفات .

فجاء طائفة من أهل البدع ، فسروا لفظ اسم « الواحد » و « الأحد » بما جعلوه اصطلاحا لهم ، فقالوا : الواحد الذى ليس فيه تركيب ولا ينقسم ، ولو كان له صفات لـكان مركبا ، ولو قامت به الصفات ، لـكان جسما ، والجسم مركب من الجواهر المنفردة ، أو من المادة والصور ، فلا يكون أحداً ولا واحداً .

فيقال : هذا الذى قالوه لو قُدِّر أنه صحيح فى العقل واللغة ، فليس هو لغة الأنبياء التى خاطبوا بها الخلق ، فـكيف إذا لم يكن هذا الواحد من لغة أحد من الأمم ؟ !

بل جميع الأمم تسمى ما قام به الصفات واحداً ، بل يسمونه وحيداً ، وقد يسمونه فى غير الإثبات أحدا كقوله ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾ [التوبة : ٦] وقوله ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ وأمثال ذلك .

وأما البحث العقلى فى هذا ، فقد بسطناه فى غير هذا الموضع ، وبيَّنَّا أن ما يسميه هؤلاء المتفلسفة تركيباً كقولهم : إن الشيء مركب من وجود وماهية ، وقولهم : إن الأنواع مركبة من الأجناس والفصول ، هو باطل عند جميع جمهور العقلاء .

وليس فى الخارج إلا ذات متصفة بصفات ، ليس فى الخارج وجود القائم بنفسه ، وماهية أخرى غير هذا الشيء الموجود القائم بنفسه مثلاً .

ولـكن قد يعنى بلفظة « الماهية » ما يتصور فى الأذهان ، و بالوجود ما يوجد فى الأعيان ، وحينئذ ، فهذه الماهية غير هذا الموجود ، وحينئذ فيقال هذه الماهية غير هذا الوجود .

وكذلك قولهم : إن الإنسان الموجود فى الخارج مركب من الجنس والفصل فإن الإنسان الموجود هو ذات متصفة بصفات هو وغيره من الموجودات .

ولكن يتصور فى الذهن ما هو مركب من الحيوان والناطق ، كما يتصور ما هو مركب من الحيوان والضاحك ، وهذا تركيب ذهنى ، لا تركيب فى الخارج ، وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع .

وتبيَّن أن ما جعلوه من الصفات داخلا فى الماهية ، وما جعلوه خارجاً عنها لازماً لها ، وما هو مجموع أجزاء الماهية ، يرجع ـ عند التحقيق ـ إلى ما هو مدلول عليه بالتضمن والالتزام والمطابقة .

ومن ذلك تركيب الجسم من الجواهر المفردة ، أو من المادة والصورة .

وأكثر العقلاء ينكرون تركب الجسم من هذا وهذا ، كما قد بسط فى موضع آخر .

والمقصود هنا ، أن كلام الأنبياء لا يجوز أن يحمل إلا على لغتهم التى عادتهم أن يخاطبوا بها الناس ، لا يجوز أن يحدث لغة غير لغتهم و يحمل كلامهم عليها .

بل إذا كان لبعض الناس ـ عادة ولغة ـ يخاطب بها أصحابه وقدر أن ذلك يجوز له ، فليس له أن يجعل ذلك ، لغة النبى ، و يحمل كلام النبى على ذلك .

ومن هذا إخبار الأنبياء بأن الله يقول و يتكلم و ينادى و يناجى ، وأنه قال كذا وتكلم بكذا ، ونادى موسى ونحو ذلك .

والمعروف فى لغتهم ولغة سائر الأمم ، أن المتكلم من قام به الكلام وإن كان متكلماً بقدرته ومشيئته ، لا يعرف فى لغتهم أن المتكلم من أحدث كلاماً منفصلا عنه ، ولا أن المتكلم من قام به الكلام بدون قدرته ومشيئته .

فليس لأحد ـ إذا جعل اسم المتكلم لمن يحدث كلاماً بائناً عنه ، أو من قام به بدون قدرته ومشيئته ـ أن يحمل كلام الأنبياء على هذا .

بل المتكلم ـ عند الإطلاق ـ من تكلم بقدرته ومشيئته ، مع قيام الكلام به .

وهذا هو المعروف فى لغة الأنبياء وسائر الأمم عند الإطلاق ، ونظائر هذا متعددة .

فمن فسر كلام الأنبياء بغير لغتهم المعروفة ، فهو ممن بدل كلامهم وحرفه والنصارى من هؤلاء .

وكذلك اسم العادل والظالم ونحوهما ، فإن المعروف من كلام الأنبياء وغيرهم أن العادل من قام به العدل وفعل العدل بمشيئته وقدرته .

والظالم من قام به الظلم ، وفعله بقدرته ومشيئته ، لا يسمون من لم يقم به الظلم ، ولكن قام بغيره ، ظالما ، لكونه قد جعل ذلك فاعلا له ولا يسمون من لم يفعل الظلم ـ ولكن فعله غيره فيه ـ ظالماً .

فمن جعل الظالم والكافر والفاسق من لم يفعل شيئاً من ذلك ، ولكن فعله غيره فيه ، أو جعل الظالم من لم يقم به ظلم فعله ، ولكن جعل غيره متصفاً به ظالما ، فقد خرج عن المعروف من كلام الأنبياء وغيرهم .

وأبلغ من ذلك أن المحدث والحادث فى لغة جميع الأمم ، لا يسمى به إلا ما كان بعد أن لم يكن والمخلوق أبلغ من المحدث والحادث .

فليس لأحد ـ إذا أحدث اصطلاحاً سمى به القديم الأزلى الذى لم يزل موجوداً ولكنه زعم أنه معلول لغيره فسماه محدثاً بهذا الاعتبار ـ أن يقول : أنا أحمل كلام الأنبياء الذى أخبروا به ، أن السموات والأرض وما بينهما مخلوق أو مصنوع أو مفعول أو محدث ونحو ذلك من العبارات ، على أن مرادهم بذلك أنه معلول مع كونه قديماً أزلياً لم يزل .

وأما لفظ « القديم » فهو فى اللغة المشهورة التى خاطبنا بها الأنبياء يراد به

ما كان متقدماً على غيره تقدماً زمانياً ، سواء سبقه عدم أو لم يسبقه كما قال تعالى ﴿ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ وقال تعالى ﴿ تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ وقال الخليل ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ فلهذا كان القديم الأزلى الذى لم يزل موجوداً ، ولم يسبقه عدم ، أحقّ باسم القديم من غيره .

وليس لأحد أن يجعل القديم والمتقدم اسما لما قارن غيره فى الزمان لزعمه أنه متقدم عليه بالعلة ، ويقول: إنه متقدم على غيره وسابق له بهذا الاعتبار وإن ذلك المعلول متأخر عنه بهذا الاعتبار ، ثم يحمل ما جاء من كلام الأنبياء وأتباع الأنبياء وعموم الخلق على هذا الاصطلاح لو كان حقاً فكيف إذا كان باطلاً .

وما ذكره من التقدم والسبق والتأخر بغير الزمان ، أمر غير موجود ولا معقول ، ولا يعرف فى الوجود من فعل شيئاً وكان علة فاعلة له إلا وهو متقدم عليه سابق له ، ليس مقارناً له فى الزمان ألبتة ، بل متقدم عليه تقدماً زمانياً .

وكل ما يعرف أنه سبب أو علة فاعلة فإنه متقدم على مسببه ومعلوله ، لكن قد يكون متصلاً به ، ليس بينهما زمان آخر .

فيقال : ليس هذا متأخراً عن هذا ، أى هو متصل به ليس بينهما فصل .

ويقال : ليس ذلك متقدماً على هذا ، أى ليس بينهما زمان ، بل هو متصل به ، إذ قد يراد بلفظ التقدم هذا ، كقول النبى صلى الله عليه وسلم : « الجنازة متبوعة وليست بتابعة ليس منها من تقدمها » أى من كان قد تقدمها ، حتى من لم يكن قريباً منها ، لم يكن تابعاً لها ، كما جاء فى الحديث الآخر « الراكب خلف الجنازة ، والماشى أمامها ووراءها ، وعن يمينها ويسارها قريباً منها » رواه أبو داود وغيره ، وهو أبينُ حديث روى فى هذا الباب فى هذا الحكم ، منه قوله تعالى : ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ أى لا يتقدم عليه ، بحيث يكون بينهما انفصال . بل كل منهما متصل بالآخر .

والمقصود هنا أن معرفة اللغة التي خاطبنا بها الأنبياء وحمل كلامهم عليها ، أمر واجب متعين ، ومن سلك غير هذا المسلك ، فقد حرف كلامهم عن مواضعه وكذب عليهم وافترى .

ومثل هذا التحريف والتبديل ، قد اتفق المسلمون واليهود والنصارى ، على أنه وقع فيه خلق كثير من أهل الكتب الثلاثة ، وأن التوراة والإنجيل حُرِّفا بهذا الاعتبار ، وكذلك القرآن حرَّفه أهل الإلحاد والبدع ، بهذا الاعتبار .

فأهل الكتاب نقلوا عن الأنبياء أنهم تكلموا بلفظ الأب والابن .

ومرادهم ــ عندهم ــ بالأب الرب ، وبالابن المصطفى المختار المحبوب .

ولم ينقل أحد منهم عن الأنبياء أنهم سمّوْا شيئاً من صفات الله ابناً ، ولا قالوا عن شيء من صفاته : إنه تولد عنه ، ولا إنه مولود له .

فإذا وجد في كلام المسيح عليه السلام أنه قال : « عمّدوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس » ثم فسروا الابن بصفة الله القديمة الأزلية ، كان هذا كذباً بيّناً على المسيح ، حيث لم يكن في لغته أن لفظ الابن ، يراد به صفة الله القديمة الأزلية .

وكذلك إذا لم يكن في كلام الأنبياء أن حياة الله تسمى روح القدس ، وإنما يريدون بروح القدس ، ما ينزله الله تبارك وتعالى على الأنبياء والصالحين ، ويؤيدهم . كان تفسير قول المسيح ، روح القدس أنه أراد حياة الله ، كذباً على المسيح .

وهذا من بعض الوجوه أفسد من قول بعض المتفلسفة : إن العقول والنفوس والفلك ، معلولة له متولدة عنه ، لازمة له أزلا وأبداً ، وإن كان هذا أيضاً باطلا في صريح العقل ، كما هو كفر بما أخبرت به الأنبياء ، كما قد بسط في موضع آخر فإنه لا يصدر شيء عن فاعل الأشياء بعد شيء لا يتصور أن يكون المفعول مقارناً للفاعل ولا يتأخر عنه . ولا يكون التولد إلا عن أصلين .

والواحد من كل وجه الذى ليس له صفة ثبوتية ، لا وجود له ، ولو كان له وجود لم يصدر عنه وحده شىء ، كما قد بسط الكلام على ذلك فى مواضع أخر .

ومما يوضح ذلك أن خواص النصارى وعلماءهم – مع تجويزهم أن يقال : إن المسيح ابن الله – يلزمهم أن تكون مريم صاحبة الله وامرأته ، كما قال ذلك من يغلو منهم .

ومنهم من يجعل مريم إلهاً مع الله كما جعل المسيح إلهاً .

فإن قالوا بذلك ، جعلوا لله صاحبة وولداً ، وجعلوا المسيح بن مريم وأمه إلهين من دون الله ، كما فعل ذلك من فعله منهم .

فإنهم يعبدون مريم ، ويدعونها بما يدعون به الله سبحانه والمسيح ، ويجعلونها إلهاً كما يجعلون المسيح إلهاً .

فيقولون : يا والدة الإله ، اغفرى لنا وارحمينا ونحو ذلك ، فيطلبون منها ما يطلبونه من الله عز وجل .

ومنهم من يقول عن مريم : إنها صاحبة الله سبحانه وتعالى .

وبيان لزوم ذلك أن المسيح ، عندهم إنسان تام وإله تام ناسوت ولاهوت ، فناسوته من مريم ، ولاهوته الكلمة القديمة الأزلية وهى الخالق عندهم .

فالمسيح بين أصلين ، ناسوت ولاهوت ، فإذا كان الأب هو الله عندهم ، والكلمة المولودة عن الأب ابن الله ، فمعلوم أن اللاهوت لما التحم بالناسوت ليصير منهما ، أن المسيح ازدوج به وقارنه ، وهذا معنى الزوجية .

فكما أنهم قالوا : إن الولادة عقلية لا حسية ، فكذلك الازدواج والنكاح ، عقلى لا حسى . فإن اللاهوت – على قولهم – ازدوج بناسوت مريم ونكحها نكاحاً عقليا ، وخلق المسيح من هذا وهذا .

وهم يقولون فى الأمانة : إن المسيح تجسد من مريم ومن روح القدس .

فإن فسروا روح القدس بجبريل كما ـ يقوله المسلمون ـ فهو الحق ، و بطل قولهم . لكنهم يقولون : روح القدس هو الأقنوم الثالث ، كما يقولون فى الكلمة وهو اللاهوت عندهم .

فهم قد ذكروا أنه تجسد من الناسوت واللاهوت ، فيلزمهم على هذا أن يكون المسيح هو الابن ، وهو روح القدس ، فيكون أقنومين ، لا أقنوما واحداً وقد تقدم تناقضهم فى هذا .

والمقصود هنا أنهم إذا قالوا : إن الرب أو بعض صفاته اتحد بما خلق من مريم ، فلا بد أن يحصل له اتصال بمريم قبل اتصاله بما خلق منها، وذلك هو معنى النكاح والازدواج .

وعند جمهور النصارى أن مريم ولدت اللاهوت كما ولدت الناسوت ، وهى أم اللاهوت ، و يقولون فى دعائهم : يا والدة الإله .

واللاهوت الذى ولدته مريم هو ـ عندهم ـ رب العالمين ، واللاهوت اتحد بالناسوت عندهم ، من حين خلق الناسوت فى بطن مريم ، لم يحدث بعد الولادة

فإذا جاز أن يكون لرب العالمين عندهم أم ولدته بوجه من الوجوه فإمكان أن يكون له صاحبة وزوجة ، أولى وأحرى ، وليس فى ذلك ما يحيله العقل والشرع إلا وهو لكونها إما للاهوت أشد إحالة .

فإن جاز أن يكون للاهوت أم والأم أصل ، فلأن يكون له صاحبة هى زوجة ونظير أقرب وأولى ، فإن من المعلوم أن ولد ذلك الشىء ، وهو المتفرع المتولد عنه ، أنقص بالنسبة إليه من نظيره .

فإذا قالوا : إن لرب العالمين ولدا اتحد بالناسوت هو نظيره المساوى له فى الجوهر ، وقالوا : إن الناسوت أم هذا المسيح الذى هو الله وهو ابن الله ، وقالوا : إن الناسوت مريم ، ولد اللاهوت ، كما ولد الناسوت ، ولم يكن هذا عيباً ينزه الرب عنه ، فلأن يجعلوا له أم هذا الولد الذى حبلت به واتحد به اللاهوت وهو فيها ، وولدت اللاهوت ، صاحبة وزوجة للأب ، أولى وأحرى ، وإلا

فكيف تلد ابنه الذى هو اللاهوت ، ولا تكون صاحبته وامرأته ؟

وهم يقولون : نحن سمينا علمه مولوداً عنه ، لكونه تولد عنه تولد الكلمة عن العقل ، وهذا الولد اتحد بالناسوت ، فسمينا المجموع ولداً .

وبهذا يفرقون بين كون المسيح ابناً ، وغيره من الأنبياء يسمى ابناً .

فإنهم يقولون : هؤلاء أبناء بالوضع ، والمسيح ابن بالطبع ، أى أولئك سموا أبناء بمشيئة الرب وقدرته ، لأنهم اصطفاهم ، والكلمة التى جعلوها متحدة بالمسيح هى ـ عندهم ـ متولدة عن الله تولداً قديماً أزلياً ، لا يتعلق بمشيئته وقدرته ، ولهذا قالوا : مولود غير مصنوع ، فإن القديم الأزلى ـ مع كونه قائماً بذاته ـ لا يكون مصنوعا عند أحد من العقلاء ، ولا القائلين بقدم العالم .

فإذا كانت الكلمة اتحدت بالمسيح المخلوق من مريم والتحمت به ، فإذا قيل ـ مع ذلك ـ : إن القديم مسَّ المحدث أو لاصقه أو باشره ، كان أيسر من هذا كله .

والمسيح ولد ولادة حادثة عندهم ، غير الولادة القديمة التى للكلمة ، فيلزم أن تكون مريم قد صارت زوجة وامرأة ، بل نكحت نكاحاً حادثاً يناسب تلك الولادة المحدثة ، قال تعالى : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ولهذا كان الحلول أسهل من الاتحاد .

فمن قال : إنه حلَّ فى جسد المسيح وماسَّه وباشره كما يحل الماء فى اللبن ، كان أهون ممن يقول : إنه اتحد به والتحم به .

فإذا قيل : إن مريم امرأة القديم وصاحبته وزوجته ، كان ما فى هذا من إثبات مباشرته لها ومماسته لها ، واتصاله بها .

ومهما قُدِّر من اتصال الزوج بزوجته أهون مما قالوه من اتحاد القديم بالمحدث ، ومصيره وإياه ، إما جوهراً واحداً ، وإما شخصاً واحداً ، وإما مشيئة واحدة .

ولهذا كان كل عاقل يعلم أن النكاح الحسى أسهل من الولادة الحسية .

فالذكر من الحيوان إذا نكح الأنثى فإنما مسّ الذكر للأنثى لم تصر الأنثى متولدة عنه . فإذا جوزوا أن يكون للرب القديم الأزلى ، ما يتولد عنه ويتحد به ، وهو محدث مخلوق ، فَلأَنْ يكون له ما يمسه أولى وأحرى .

وإذا قالوا : إن المسيح إنما كان ابناً ، لأن الكلمة القديمة التى هى ابن ، اتحدت به قَبلُ ، فقد يسمى الناسوت الذى اتحد به القديم ابناً عندكم ، باسم القديم وجعلتموه إلهاً خالقاً ، فما المانع من جعل أم ذلك الناسوت الذى جعلتموه ابن الله ، صاحبةً لله وزوجة ، باعتبار أن القديم الأزلى حصل منه ومنها ما هو ابن القديم الأزلى ؟

الوجه الخامس عشر : ـ أن يقال : لفظ الابن وروح القدس ، قد جاء فى حق غير المسيح ـ عندكم ـ حتى الحوار بين عندكم يقولون : إن المسيح قال لهم : إن الله أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم ، ويقولون : إن روح القدس تحل فيهم .

وفيما عندكم من التوراة أن الرب قال لموسى : اذهب إلى فرعون ، نقل له : يقول لك الرب : إسرائيل ابنى بكرى أرسله يعبدنى ، فإن أبيت أن ترسل ابنى بكرى ، قتلت ابنك بكرك .

فلما لم يرسل فرعون بنى إسرائيل كما قال الله ، قتل الله أبكار فرعون وقومه من بكر فرعون الجالس على السرير إلى الأول من أولاد الآدميين ، إلى ولد الحيوان البهيم .

فهذه التوراة تسمى بنى إسرائيل كلهم أبناء الله وأبكاره ، وتسمى أبناء أهل مصر أبناء فرعون ، ويتوسع فتسميه سخال الحيوان أولاد المالك للحيوان .

وفى مزامير داود يقول «أنت ابنى ، سَلْنى أعطك» .

وفى الإنجيل يقول عن المسيح «أنا ذاهب إلى أبى وأبيكم ، وإلهى وإلهكم»

وقال : إذا صليتم فقولوا : « يا أبانا الذى فى السماء ، قدوس اسمك ، افعل بنا كذا وكذا » .

ويقولون عن القديسين : إن روح القدس يحل فيهم ، وكذلك حلت فى

داود وغيره من الأنبياء ، بل عندهم إن الله يحل فى الصديقين كلهم .

فإن كان الابن وروح القدس ، يقتضى اتحاد اللاهوت بالناسوت ، وجب أن يكون كل من الحواريين لاهوتاً وناسوتاً ، وكذلك الأنبياء ، فيكون النبى لاهوتاً وناسوتاً ، لأنه قد سمى عندكم ابن الله ، ونطقت فيه روح القدس ، لاسيما وأنتم قلتم فى الأمانة : إنه روح ممجد مسجود له ، ناطق فى الأنبياء .

فإن كان هذا يوجب حلول اللاهوت فى الناسوت ، أو اتحاده به ، لزم أن يكون غير المسيح من الأنبياء ، بل والحواريين ، بل وأبناء إسرائيل ، لاهوتاً وناسوتاً، إذ كان الذى جعلتموه اللاهوت ، حلّ بغير المسيح واتحد به ، أو سكن فيه ، أو احتجب به ، أو ما قلتم من الألفاظ التى استدللتم بها على أن اللاهوت حلّ فى المسيح ، كلفظ الابن، وروح القدس، موجودة عندكم فى غير حق المسيح .

والمعجزات التى احتججتم بها للمسيح ، قد وجدت لغير المسيح .

ولو قُدِّر أن المسيح أفضل من بعض أولئك ، فلا ريب أن المسيح عليه السلام أفضل من جمهور الأنبياء ، أفضل من داود وسليمان وأصحاب النبوات الموجودة عندكم ، وأفضل من الحواريين .

لكن مزيد الفضل يقتضى الفضيلة فى النبوة والرسالة ، كفضيلة إبراهيم وموسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه ، وذلك لا يقتضى خروجه عن جنس الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ، انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة : ٧٥] . وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ الآية كلها [المائدة : ٧٢ _ ٧٥] .

وجماع هذا الجواب : أن ما يوصف به المسيح عندهم ، من كونه ابن الله ، وكون الله حلّ فيه ، أو ظهر ، أو سكن ، وكون روح القدس ، أو روح الله حلت فيه ، وكونه مسيحاً . كل ذلك موجود عندهم فى حق غير المسيح .

فليس للمسيح اختصاص بشىء من هذه الألفاظ ، وإنما يوجد اختصاصه بلفظ «الكلمة» وكونه تجسَّد من روح القدس وهذا هو الذى خصه به القرآن فإن الله قال : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ [النساء . ١٧١] . وفى الصحيحين عن عبادة بن الصامت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه أدخله الله الجنة على ما كان من عمل» فهذا الذى خصه به القرآن ، هو الذى خصته الكتب المتقدمة ، إذ كان القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمناً عليه .

وأما سائر ما يوصف به ، ويدّعون اختصاصه به ، من كونه ابناً لله ، وكونه مسيحاً ، فغيره أيضاً فى كتب الله يسمى ابناً لله ومسيحاً ، ولذلك مايذكر من الألفاظ التى يحتجون بها على الحلول ، مثل كون الرب ظهر فيه أو حلّ أو سكن ، فإن هذه الألفاظ موجودة عندهم فى حق غير المسيح ، بخلاف لفظ « الاتحاد » فإنه لا يوجد ـ عندهم ـ عن الأنبياء ، لا فى حق المسيح ولا غيره ، كما لا يوجد عندهم عن الأنبياء لفظ « الأقانيم » ولا لفظ « التثليث» ولا «اللاهوت» و «الناسوت» ولا تسمية الله جوهراً . بل هذا كله مما ابتدعوه كما ابتدعوا أيضاً تسمية صفات الله ابناً وروح القدس، فهم ابتدعوا ألفاظاً لم ينطق

بها الأنبياء ، أثبتوا لها معانى باطلة وابتدعوا استعمال ألفاظ الأنبياء فى غير مرادهم وحملوا مرادهم عليها .

والألفاظ المتشابهة التى يحتجون بها على اتحاد اللاهوت بالناسوت ، موجودة ـ عندهم ـ فى حق غير المسيح .

فليس للمسيح خاصة فى كلام الأنبياء ، توجب أن يكون هو الله ، أو ابن الله .

وتلك الألفاظ قد عرف ـ باتفاقهم واتفاق المسلمين ـ أن المراد بها حلول الإيمان بالله ومعرفته وهداه ونوره ومثاله العلمىّ فى قلوب عباده الصالحين ، كما قد بسط الكلام على ذلك فى غير هذا الموضع ، وقد تقدم .

ومن قال من ضُلَّال المسلمين : «إن الرب يتحد أو يحل فى الأنبياء والأولياء ، وإن هذا من السر الذى لا يباح به » فقوله من جنس قول النصارى فى المسيح ، وهذا كثير فى كلام كثير من المشايخ والمدّعِينَ للمعرفة والتحقيق والتوحيد ، فيجعلون توحيد العارفين أن يصير الموحِّد هو الموحَّد ، ومنهم من يقول : إن الله يحل فى قلب العارف ويتكلم بلسانه ، كما يتكلم الجنىُّ على لسان المصروع ، ويقول الأول :

مَا وَحَّدَ الْوَاحِدَ مِنْ وَاحِدٍ إِذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدُ
تَوْحِيدُ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَعْتِهِ عَارِيَةٌ أَبْطَلَهَا الْوَاحِدُ
تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لَاحِدُ

ومن هؤلاء من يقول : إن هذا ، هو السر الذى باح به الحلاج وغيره وهذا عندهم من الأسرار التى يكتمها العارفون ، فلا يبوحون بها إلا لخواصهم

ومنهم من يقول : إنما قتل الحلاج لأنه باح بهذا السر ، وينشدون :

مَنْ بَاحَ بِالسِّرِّ كَانَ الْقَتْلُ شِيمَتَهُ بَيْنَ الرِّجَالِ وَلَمْ يُؤْخَذْ لَهُ ثَارُ

وأمثال ذلك :

وهؤلاء فى دعواهم الاتحاد والحلول بغير المسيح ، شر من النصارى .

فإن المسيح ـ صلوات الله عليه ـ أفضل من كل من ليس بنبي بل هو أفضل من جماهير الأنبياء والمرسلين .

فإذا كان من ادّعى أن اللاهوت اتحد به كافراً ، فكيف بمن ادّعى ذلك فيمن هو دونه ؟!

وهذا الاتحاد الخاص غير الاتحاد والحلول العام لقول الذين يقولون : إنه حالٌّ بذاته فى كل مكان ، أو متحد بكل شىء .

وغلاة هؤلاء ومحققوهم يقولون : إنه عين الوجود ، والوجود واحد .

فيجعلون الوجود الخالق القديم الواجب هو عين وجود المخلوق المحدَث الممكن .

وهؤلاء مثل ابن عربى الطائى ، وصاحبه الصدر القونوى ، وصاحبه العفيف التلمسانى ، وابن سبعين ، وصاحبه الششترى ، وعبد الله البلبانى ، وعامر البصرى وطوائف غير هؤلاء .

وهؤلاء يقولون : إن النصارى إنما كفروا لأنهم خصوا ذلك بالمسيح .

وحقيقة قول هؤلاء ، هو جحد الخالق وتعطيله ، كما قال فرعون « وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ » وقال « مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي » .

فإن فرعون ما كان ينكر هذا الوجود المشهود ، لكن ينكر أن له صانعاً مبايناً له خلقه ، وهؤلاء موافقون لفرعون فى ذلك .

لكن فرعون أظهر الجحود والإنكار ، فلم يقل : الوجود المخلوق هو الخالق .

وهؤلاء ظنوا أنهم يقرون بالخالق وأن الوجود المخلوق ، هو الخالق ، وقد بسط الكلام على هؤلاء فى آخر هذا الكتاب .

وهؤلاء لهم شعر نظموا قصائد على مذهبهم ، كابن الفارض فى قصيدته المسماة بنظم السلوك حيث يقول :

لَهَا صَلَوَاتِي بِالْمَقَامِ أُقِيمُهَا   وَأَشْهَدُ فِيهَا أَنَّهَا لِيَ صَلَّتِ
كِلَانَا مُصَلٍّ وَاحِدٌ سَاجِدٌ إِلَى   حَقِيقَتِهِ بِالْجَمْعِ فِي كُلِّ سَجْدَةِ
وَمَا كَانَ لِي صَلَّى سِوَايَ وَلَمْ تَكُنْ   صَلَاتِي لِغَيْرِي فِي أَدَا كُلِّ رَكْعَةِ

إلى أن قال :

وَمَا زِلْتُ إِيَّاهَا وَإِيَّايَ لَمْ تَزَلْ   وَلَا فَرْقَ بَلْ ذَاتِي لِذَاتِي أَحَبَّتِ

وقوله :

إِلَيَّ رَسُولًا كُنْتُ مِنِّي مُرْسِلًا   وَذَاتِي بِإِيَّايَ عَلَيَّ كُلِّ اسْتَدَلَّتِ
فَإِنْ دُعِيتُ كُنْتُ الْمُجِيبَ وَإِنْ أَكُنْ
مُنَادًى أَجَابَتْ مَنْ دَعَانِي وَلَبَّتِ
وَقَدْ رُفِعَتْ يَاءُ الْمُخَاطَبِ بَيْنَنَا   وَفِي رَفْعِهَا عَنْ فِرْقَةِ الْفَرْقِ رِفْعَتِ

إلى أمثال هذه الأبيات .

وكذلك ابن إسرائيل فى شعره قطعة من هذا كقوله :

وَمَا أَنْتَ غَيْرُ الْكَوْنِ بَلْ أَنْتَ عَيْنُهُ   وَيَفْهَمُ هَذَا السِّرَّ مَنْ هُوَ ذَائِقُ

والتلمسانى الملقب بالعفيف ، كان من أفجر الناس ، وكان أحذق هؤلاء الملاحدة .

ولما قرئ عليه كتاب « فصوص الحكم » لابن عربى قيل له : هذا الكلام مخالف القرآن . فقال : «القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد فى كلامنا» .

فقيل له : إذا كان الوجود واحداً ، فلماذا تحرَّم علىَّ أمى وتباح لى امرأتى ؟

فقال : الجميع عندنا حلال ، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا : حرام ، فقلنا حرام عليكم .

وكلام هؤلاء كله متناقض ينقض بعضه بعضاً .

فإن قوله : « هؤلاء المحجوبون » وقوله : « قلنا حرام عليكم » يقتضى

الفرق بينه و بين المحجوبين ، و بين المخاطب والمخاطَب ، وهذا يناقض وحدة الوجود .

و إذا قالوا : « هـذه مظاهر للحق ومجال » فإن كان الظاهر غير المظهر ، والمجلى غير المتجلى ، فقد ثبت التعدد ، وأن فى الوجود اثنين ظاهراً ومظهراً ، و إن جعلوهما واحداً ، فقد بطل جوابهم .

فصـــــل

قال الحاكى عنهم : فقلت فإنهم ينكرون علينا فى قولنا : إن الله تعالى جوهر .

قالوا : إننا نسمع عن هؤلاء القوم أنهم ذو فضل وأدب ومعرفة .

ومن هذا صورته ، وقد قرأ شيئاً من كتب الفلاسفة والمنطق ، فما حقهم ينكرون هـذا علينا ، وذلك أنه ليس فى الوجود شىء إلا وهو إما جوهر و إما عرض ، لأن أى أمر نظرناه وجدناه ، إما قائماً بنفسه غير مفتقر فى وجود إلى غيره ، وهو الجوهر ، و إما مفتقر فى وجوده إلى غيره ، لا قوام له بنفسه ، وهو العرض ، ولا يمكن أن يكون لهذين القسمين قسم ثالث .

فأشرف هذين القسمين ، القائم بذاته الغير مفتقر فى وجوده إلى غيره . وهو الجوهر .

ولما كان البارى ـ تقدست أسماؤه ـ أشرف الموجودات ، إذ هو سبب سائرها ، أوجب أن يكون أشرف الأمور وأعلاها الجوهر .

ولهذا قلنا : إنه جوهر لا كالجواهر المخلوقة ، كما نقول : إنه شىء كالأشياء المخلوقة ، و إلا لزم أن يكون قوامه بغيره ومفتقر فى وجوده إلى غيره . وهذا فمن القبيح ، أن يقال على الله تعالى .

فقلت لهم : إنهم يقولون : إنا إنما نمتنع من أن نسميه جوهراً ، لأن الجوهر ما قبل عرضاً وما شغل الحيز ، ولهذا من يطلق عليه القول بأنه تعالى جوهر ،

قالوا : إن الذى يقبل عرضاً و يشغل حيزاً هو الجوهر الكثيف ، فأما الجوهر اللطيف ، فما يقبل عرضاً ولا يشغل حيزاً ، مثل جوهر النفس ، وجوهر العقل ، وجوهر الضوء ، وما يجرى هذا المجرى من الجواهر اللطيفة المخلوقة .

فإذا كانت الجواهر اللطيفة المخلوقة لا تقبل عرضاً ، ولا تشغل حيزاً ، فيكون خالق الجواهر اللطائف والكثائف ومركب اللطائف بالكثائف ، يقبل عرضاً و يشغل حيزاً كلا .

والجواب من وجوه :

أحدها : أن يقال : أما تسمية البارى جوهراً ، فهو من أهون ما ينكر على النصارى ، ولهذا كان من الناس من ينكره من جهة الشرع فقط ، أو اللغة ، ومنهم من ينكره من جهة العقل أيضاً ، ومنهم من يراه نزاعاً لفظياً .

وطائفة من المسلمين يسمونه جوهراً وجسما أيضاً ، وذلك أن المسلمين فى أسماء الله تعالى على طريقتين ، وكثير منهم يقول : إن أسماءه سمعية شرعية ، فلا يسمى إلا بالأسماء التى جاءت بها الشريعة ، فإن هذه عبادة ، والعبادات مبناها على التوقيف والاتباع .

ومنهم من يقول : ما صح معناه فى اللغة ، وكان معناه ثابتاً له ، لم يحرم تسميته به ، فإن الشارع لم يحرم علينا ذلك ، فيكون عفواً .

والصواب القول الثالث ، وهو أن يفرق بين أن يدعى بالأسماء أو يخبر بها عنه .

فإذا دُعِىَ لم يُدْعَ إلا بالأسماء الحسنى كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾ .

وأما الإخبار عنه ، فهو بحسب الحاجة ، فإذا احتيج فى تفهيم الغير المراد إلى أن يترجم أسماؤه بغير العربية ، أو يعبر عنه باسم له معنى صحيح ، لم يكن ذلك محرما .

وأما الذين منعوه من جهة العقل ، فكثير .

منهم من يقولون: إن الجوهر ما شغل الحيز ، وحمل الأعراض،والله سبحانه وتعالى ليس كذلك ، وهذا قول من نفى ذلك من أهل الكلام .

ومنهم من يقول : الجوهر ما إذا وجد كان وجوده لا فى موضوع ، وهذا إنما يكون فيما وجوده زائداً على ذاته ، وواجب الوجود ، وجوده عين ذاته ، فلا يكون جوهراً ، وهذا قول ابن سينا وأمثاله من متأخرى المتفلسفة .

وأما قدماء الفلاسفة ، كأرسطو وأمثاله ، فكانوا يسمونه جوهراً .

وعنهم أخذت النصارى هذه التسمية ، فإن أرسطو كان قبل المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة ، ولهذا قال هؤلاء فى كتابهم : نعجب ممن ينكر ذلك ، وهو قد قرأ شيئاً من كتب الفلاسفة والمنطق .

وقد ذكرت طائفة أن أفلاطون وغيره كانوا ينكرون تسميته جوهراً ، وأن أرسطو سماه جوهراً . وممن حكى النزاع بينهم أبو نصر الفارابى .

وأما اللغة فإن لفظ الجوهر ليس من العربية العرباء ، ولهذا لا يعرف فى كلام العرب المحض ، وإنما هو معرب كما ذكر ذلك الجوهرى وغيره .

قال الجوهرى : الجوهر معرب ، الواحدة جوهرة ، فهو من العربية المعربة ، لا من العربية العرباء ، كلفظ سجيل ، واستبرق ، وأمثال ذلك من الألفاظ المعربة ، وهذا اللفظ ليس موجوداً فى القرآن .

ومع هذا فلما عرب كان معناه فى اللغة هو الجوهر المعروف وتسمية القائم بنفسه ، أو الشاغل للحيز جوهراً ، فهو أمر اصطلاحى ، ليس هو من الأسماء اللغوية ولا العرفية العامة ، ولا الأسماء الشرعية .

وقد قيل : إنه مأخوذ من كلام الأوائل ، كاليونان وغيرهم ، فإنه يوجد فى كلامهم تسمية القائم بنفسه جوهراً .

وقد قيل : سموه بذلك ، لأن جوهر الشيء أصله ، والقائم بنفسه هو الأصل . وقد يسمون العرض القائم بغيره جوهراً .

وقيل : لأن لفظ الجوهر ، فَوْعَل ، من الجهر ، وهو الظهور والوضوح ؛ والقائم بنفسه يظهر ويعرف قبل أن يعرف ما قام به من الأعراض .

والناس متفقون على إثبات الأعيان القائمة بنفسها التي تسمى جواهر أو أجساما ، وتنازعوا في ثبوت الأعراض القائمة بها ، والنزاع عند محققيهم لفظي ، فإن عاقلا لا ينازع أن الجسم يتحرك بعد سكونه .

لكن منهم من يقول : حركته ليست زائدة على ذاته .

ومنهم من يقول هي زائدة على ذاته ، وهو نظير نزاعهم في الصفات : هل هي زائدة على الذات أو ليست زائدة ؟

والتحقيق أن مسمى الإنسان إذا أطلق ، دخل فيه صفاته ، وإذا ميز بين هذا وهذا ، قيل : الذات والصفات .

ومن الناس من يخص بلفظ العرض مالم يكن من الصفات لازماً للموصوف .

والصفات اللازمة يسميها صفات ذاتية أو جوهرية .

ومنهم من يخص بالعرض مالا ينفي[1] عنده زمانين ، ويقول : صفات المخلوقات تسمى أعراضاً ، لأنها لا تقبل زمانين بخلاف صفات الله ، فإنها ثابتة فلا تسمى أعراضاً

ومن نُظَّار المسلمين وغيرهم من يسمى صفات كل موصوف أعراضاً ، إذا كان كذلك فلا يدخل في أسماء الله التي تذكر في أصول الإيمان التي يجب اعتقادها من الأسماء ، ماهو اصطلاح طائفة من الناس ، مع أنه يوهم معنى باطلا .

وهذا الموضع مما اضطرب فيه ـ مع النصارى ـ كثير من الناس .

---

(١) قوله : ينفي . كذا في الأصل . والصواب : « يبقى » كما هو مقرر في علم الفلسفة.

منهم : ـ من يجعل الصفات أعياناً قائمة بنفسها وجواهر قائمة بنفسها .

ومنهم : ـ من يجعل الأعيان القائمة بنفسها صفات ، والصفات لاتقوم بأنفسها ، بل لابد لها من موصوف تقوم به .

والأولون نوعان .

منهم : ـ من نفى الصفات ، وقال : لو أثبتنا له حياة وعلما وقدرة ، لزم أن تكون هذه آلهة ، فإن القدم أخص وصفه ، فلو أثبتنا قديما ليست هى الذات ، لزم أن يشارك الذات فى أخص وصفها ، فتكون ذاتاً أخرى قائمة بنفسها .

وهذه طريقة كثير من نفاة الصفات من مبتدعة المسلمين ، واليهود والنصارى احتجوا على نفى الصفات بأنا لو أثبتناها ، لزم أن تكون آلهة .

وقال من قال من المنتسبين إلى الإسلام : إنا لو أثبتنا الصفات ، لقلنا بقول النصارى حيث أثبتوا لله الأقانيم ، وحجة هؤلاء قائمة على النصارى ، وهم النوع الثالث ، فإنهم أثبتوا لله صفات وجعلوها جوهراً قائماً بنفسه ، فقالوا : إن الله موجود حى ناطق ، ثم قالوا : حياته جوهر قائم بنفسه ، ونطقه ـ وهو الكلمة ـ جوهر قائم بنفسه ، وقالوا فى هذا : إنه إله من إله ، وهذا إله من إله ، فأثبتوا صفات لله وجعلوها جواهر قائمة بنفسها ، ثم قالوا : الجميع جوهر واحد ، فكان فى كلامهم أمور كثيرة من الباطل المتناقض .

منهم : ـ من جعل الصفات جوهرا .

ومنهم : ـ من جعل الجواهر المتعددة جوهراً واحداً .

والذين قالوا من نفاة الصفات من المعتزلة والجهمية : إن من أثبت الصفات فقد قال بقول النصارى ، فهو متوجه على من جعل الصفات جواهر .

وهؤلاء هم والنصارى يزعمون أن الصفات جواهر آلهة ، ثم قال هؤلاء ولا إله إلا الله ، فلا صفة له.

وقالت النصارى : بل الأب جوهر إله ، والابن جوهر إله ، وروح القدس جوهر إله ، ثم قالوا : والجميع إله واحد .

ونفس تصور هذه الأقوال التصور التام ، يوجب العلم بفسادها .

وأما الرسل وأتباعهم ، فنطقوا : إن لله علما وقدرة وغير ذلك من الصفات ، و بينوا أن الإله واحد .

فإذا قال القائل : عبدت الله ، ودعوت الله ، فإنما دعا وعبد إلهاً واحدا ، وهو ذات متصفة بصفات الكمال ، لم يعبد ذاتاً ، لا حياة لها ولا علم ولا قدرة ، ولا عبد ثلاثة آلهة ولا ثلاثة جواهر ، بل نفس اسم الله يتضمن ذاته المقدسة المتصفة بصفاته سبحانه ، وليست صفاته خارجة عن مسمى اسمه ، ولا زائدة على مسمى اسمه ، بل إذا قُدِّرَ ذات مجردة عن الصفات ، فالصفات زائدة على هذه الذات المقدرة فى الذهن المجردة عن الصفات ، ليست الصفات زائدة على الذات المتصفة بالصفات ، فإن تلك لا وجود لها إلا بصفاتها ، فتقديرها ـ مجردة عن صفاتها ـ تقدير ممتنع .

وقد تنازع المثبتة : هل يقال الصفات غير الذات ، أم يقال ليست غير الذات ؟ أم يقال : لا يقال هى غير الذات ، ولا يقال ليست غير الذات ؟

وتنازعوا فى مسمى الغيرين : هل هما ما جاز مفارقة أحدهما الآخر مطلقاً ، أو ماجاز مفارقته بوجود أو زمان أو مكان ، أو هما ماجاز العلم بأحدهما مع عدم العلم بالآخر ؟ وغير ذلك منازعات لفظية .

وكثير منهم فرّق فى الصفات اللازمة بين بعضها و بعض .

فجعل بعضها زائداً على الذات ، و بعضها ليس بزائد على الذات ، وكان الفرق بحسب ما يتصوره ، لا بحسب ما الأمر عليه فى نفسه .

فإذا أمكنهم تصور الذات بدون صفة ، قالوا : هذه زائدة ، وإلا قالوا : ليست زائدة ، وهذا يقتضى أنها زائدة على ما تصوروه هم من الذات ، لا أنه

فى الخارج ذات مجردة عن تلك الصفة وصفة زائدة عليها ، بل ليس إلا الذات المتصفة بتلك الصفات .

ولكن يجب الفرق بين أن يقال : إن الصفات غير الذات ، وبين أن يقال : إنها غير الله ، فإن اسم الله متناول لذاته المتصفة بصفاته

فإذا قال القائل : دعوت الله ، وعبدت الله ، فلم يدع ذاتاً مجردة ، ولا صفات مجردة ، بل دعا الذات المتصفة بصفاتها ، فاسمه تعالى يتناول ذلك . فليست صفاته خارجة عن مسمى اسمه ، ولا زائدة على ذلك . وإن قيل : إنها زائدة على الذات المجردة .

ومن ظن أنها زائدة على الذات المتصفة بصفاتها التى تدخل صفاتها فى مسماها ، فقد غلط ، ولكن الأذهان والألسنة تزلق فى هذا الموضع كثيراً .

فإذا قيل : الصفات مغايرة للذات ، لم يكن فى هذا من المحذور ما فى قولنا : إن صفات الله ، غير الله ؛ فإن اسم الله يتناول صفاته .

فإذا قيل : إنها غيره ، فهم من ذلك أنها مباينة له ، وهذا باطل .

ولهذا كان النفاة إذا ناظروا أئمة المسلمين ، كما ناظروا الإمام أحمد ابن حنبل فى محنته المشهورة ، فقالوا له : « ما تقول فى القرآن وكلام الله ، أهو الله ، أم غير الله ؟ »

عارضهم بالعلم ، وقال لهم : « ما تقولون فى علم الله ، أهو الله ، أم غير الله ؟ » .

وأجاب أيضاً بأن المرسلين لم تنطق بواحد من الأمرين ، فلا حجة لكم فى كلام الله ورسوله ، فإن الله لم يقل لكلامه : هو أنا ، ولا قال : إنه غيرى حتى يقول القائل ، إذا كان قد جعل كلامه غيره وسواه ، فقد أخبر أنه خالق لكل ماسواه .

فإن كان الاحتجاج بالسمع ، فلا حجة فيه ، وإن كان الاحتجاج بالعقل ، فالمرجع فى ذلك إلى المعانى لا إلى العبارات .

فإن أراد المريد بقوله : هل كلامه وعلمه غيره أنه مباين له ، فليس هو غير إله بهذا الاعتبار .

وإن أراد بذلك أن نفس الكلام والعلم ، ليس هو العالم المتكلم ، فهو غير له بهذا الاعتبار .

وإذا كان اللفظ مجملا لم يجز إطلاقه على الوجه الذى يفهم المعنى الفاسد .

وأما الذين جعلوا الأعيان القائمة بأنفسها صفات ، فهم هؤلاء المتفلسفة النفاة للصفات ، ومن أشبههم ؛ فإنهم قالوا : إن رب العالمين عقل ، وعاقل ، ومعقول .

ولفظ « العقل » عندهم ، وإن كانوا يقولون : هو جوهر قائم بنفسه ، فقد صرحوا أيضاً بأنه نفسه علم ، حتى صرحوا بأن رب العالمين علم ، كما صرح بذلك ابن رشد وغيره ، ونقلوه عن أرسطو ، وأن العقول العشرة كل منها علم ، فهو علم وعالم ومعلوم . بل قالوا : عقل وعاقل ومعقول ، وعاشق ومعشوق وعشق ، ولذيذ وملتذ ولذة ، فجعلوه نفسه لذة وعقلا وعشقا ، وجعلوا ذلك هو العالم العاشق الملتذ ، وجعلوا نفس العلم نفس العشق ، ونفس اللذة . فجعلوه نفسه صفات ، وجعلوه ذاتاً قائمة بنفسها ، وجعلوا كل صفة هى الأخرى ، وهذا مما يعلم بصريح العقل بطلانه .

ومنهم من لا يصرح بأنه نفسه علم ، فإنه يقول : هو عاقل ومعقول وعقل ، يقول : إنه يعلم نفسه بلا علم ، بل هو العالم ، وهو المعلوم ، وهو العلم

وحقيقة كلامهم يعود إلى قول أولئك ، فإنهم إذا قالوا : إن العلم الذى يعلم به ذاته هو العالم ، وهو المعلوم . فقد جعلوا نفس العلم نفس العالم ، ونفس العلم

نفس المعلوم ، وهذا هو حقيقة قول أولئك ، وهـذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع .

الوجه الثانى :ـ أن يقال لهم : أنتم تقولون : إنـكم متبعون للـكتب الإلهية ، وإذا كان كذلك لم ينبغ لـكم أن تدخلوا فى شريعة إيمانـكم من الأسماء إلا ما جاءت به الأنبياء عليهم السلام .

والأنبياء لم يسم الله أحدٌ منهم جوهراً ، وإنما سماه بذلك أرسطو وأمثاله ، وهؤلاء كانوا مشركين يعبـدون الأصنام ، ولم يكونوا يعرفون الله المعرفة الصحيحة ، ولا يقولون : إنه خالق السموات والأرض ، ولا إنه بكل شيء عليم ، ولا على كل شيء قدير ، وإنما كانوا يعبدون الـكواكب العلوية ، والأصنام السفلية ، ويعبدون الشياطين ، ويؤمنون بالجبت والطاغوت .

وإنما صاروا مؤمنين ، لـما دخل إليهم دين المسيح ، صلوات الله عليه وسلامه ، بعد الإسكندر المقدونى ـ صاحب أرسطو ـ بنحو ثلاثمائة سنة .

وكانوا يسمون الملك من ملوكهم بطلميوس ، كما تسمى القبط ملـكها فرعون ، والحبشة ملـكها النجاشى ، والفرس كسرى ، ونحو ذلك .

وحينئذ فعدولـكم عن طريقة الأنبياء والمرسلين ، إلى طريقة الـكفار والمشركين المعطلين من الضلال المبين .

وفى كتبهم : أن بولص لـما صار إلى أثينة ، دار الفلاسفة ، وفيها دار الأصنام ، وجد مكتوباً على باب دار العلماء والأصنام مكتوباً « الإله الخفى الذى لا يعرف ، هو الذى خلق العالم » .

فـكانوا لا يعرفون رب العالمين ، فـكيف يعدل عن طريقة رسل الله وأنبيائه ، كموسى ، وداود ، والمسيح إلى طريقة هؤلاء الـكفار المشركين المعطلين ؟ ! .

ولـكن النصارى ركبوا ديناً من دينين من دين الأنبياء الموحدين ، ودين المشركين ، فصار فى دينهم قسط مما جاءت به الأنبياء ، وقسط مما ابتدعوه من دين المشركين فى أقوالهم وأفعالهم ، كما أحدثوا ألفاظ الأقانيم ، وهى ألفاظ لا توجد فى شىء من كلام الأنبياء ، وكما أحدثوا الأصنام المرقومة بدل الأصنام المجسدة ، والصلاة إلى الشمس والقمر والكواكب ، بدل الصلاة إليها ، والصيام فى وقت الربيع ، ليجمعوا بين الدين الشرعى ، والأمر الطبيعى وغير ذلك .

الوجه الثالث :ـ قولهم : إن الذى يشغل حيزاً ويقبل عرضاً هو الجوهر الكثيف .

فأما الجوهر اللطيف فما يقبل عرضاً ولا يشغل حيزاً ، مثل جوهر النفس وجوهر العقل ، وجوهر الضوء .

فيقال : الكلام فى الجواهر ، هل هى منقسمة إلى متحيز وغير متحيز ، أو كلها متحيز ؟ هو متصل بالكلام على نفس الإنسان الناطقة .

فنقول : إن المسلمين من أعظم الناس معرفة بوجود الملائكة ، ووجود الجن ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وكذلك سلف الأمة وأئمتها ، يعرفون وجود النفس التى هى روح الإنسان التى تفارق بدنه حين الموت ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، وإجماع السلف والأئمة ، وإن كان كثير من أهل الكلام يزعم أنها عرض من أعراض البدن ، أو جزء من أجزائه ، فهذا قول محدث فى الإسلام لم يذهب إليه أحد من السلف والأئمة ، وإن كان محكياً عن أكثر المتكلمين ، فليس الذين قالوا هذا من سلف الأمة ولا أئمتها ، بل هم من أهل الكلام المحدث المذموم عند السلف .

وأئمة الأمة ، وكثير من المتفلسفة الداخلين فى أهل الملل يقولون : إن الذوات التى تسميها الأنبياء الملائكة ، هى التى تسميها المتفلسفة المشاؤون عقولاً ،

أو عقولا ونفوسا ، وهذا غلط عظيم ، كما قد بسط فى موضعه .

فإن العقول التى يثبتها هؤلاء المتفلسفة ، لا حقيقه لها عند الرسل وأتباعهم ، بل ولا حقيقة لها عند العقل الصريح أنها أعراض قائمة بأنفسها .

وقد صرحوا بأن واجب الوجود نفسه هو علم ، وجعلوا نفس العلم هو نفس العالم ، ونفس تصور هذا القول يكفى فى العلم بفساده ، كما أن هؤلاء المتفلسفة ، أتباع أرسطو لا يعرفون الملائكة ، بل ولا الجن ، و إنما علمهم بمعرفة الأجسام الطبيعية ، وتكلموا فى الإلهيات بكلام قليل نزر . باطله أكثر من حقه ، كما قد بسط فى موضع آخر .

وهؤلاء يزعمون أن العقل الأول أبدع مادونه من العقول والأفلاك إلى أن ينتهى الأمر إلى العقل العاشر ، فهو مبدع ما تحت فلك القمر .

وهذا كله من أعظم الكفر عند الرسل وأتباعهم أهل الملل .

فإن مضمون هذا ، أن ملكاً من الملائكة خلق كل ما تحت السماء ، وملكاً فوقه خلق كل ما سوى الله سبحانه ، وهذا من أعظم الكفر فى دين المرسلين وأهل الملل ، المسلمين ، واليهود ، والنصارى قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [سورة الأنبياء آية : ٢٦ ـ ٢٨] فأخبر أن الملائكة لا تسبقه بالقول ، ولا تعمل إلا بأمره ، فضلا عن أن يكون ملك هو خالق كل شىء .

وهؤلاء يقولون : إن الوحى والكلام الذى جاءت به الرسل ، إنما هو فيض من هذا العقل الفعال على قلوب الأنبياء .

والله تعالى ـ عند هؤلاء ـ لم يكن يعرف موسى ولا عيسى ولا إبراهيم

ولا محمداً ولا غيرهم من الرسل ، ولا يعرف الجزئيات ، بل عند أرسطوا وأتباعه ، أنه لا يعلم شيئاً من الأشياء ، بل ولا خلق عندهم شيئاً ، بل ولا يقدر عندهم على خلق شيء ، فضلا عن أن يكون على كل شيء قدير ، وأن يكون قد أحاط بكل شيء علماً .

وأرسطو وقومه ، كانوا مشركين يعبدون الأصنام بمقدونية ، وأثينة ، وغيرهما من مدائن فلاسفة اليونان ، وكان وزيراً للاسكندر بن فيلبس المقدونى . وكان هذا قبل المسيح عليه السلام بنحو ثلاثمائة سنة ، ولم يكن وزيراً لذى القرنين الذى بنى سد يأجوج ومأجوج ، وكان عامة علم القوم علم الطبيعيات والحسابيات وأما العلم الإلهى – وهو الذى يسمونه علم ما بعد الطبيعة ، وهو منتهى فلسفتهم – فإنما تكلموا فيه على أمور كلية ، قسموا الوجود إلى جوهر وتسعة أعراض يجمعها بيتان .

زيد الطويل الأسود بن مالك في داره بالأمس كان متكى
فى يده سيف نضاه فانتضى فهذه عشر مقولات سوا

وهى : ١ : – الجوهر . ٢ : – والكم . ٣ : – والكيف .
٤ : – الأين . ٥ : – ومتى . ٦ : – والإضافة .
٧ : – والملك . ٨ : – والوضع . ٩ : – وأن يفعل
١٠ : – وأن ينفعل .

وقد نازعه أتباعه وغيرهم فى هذا الحصر وقالوا : إنه لا دليل عليه .

ومنهم من جعلها ثلاثة .

ومنهم من قال غير ذلك ، وأثبت العلة الأولى بناء على حركة الفلك ، وأنه يتحرك حركة شوقية ، فلا بد له مما يتشبه به .

فالعلة الأولى هى علة لحاجة الفلك إليها من جهة أنه يتحرك ليتشبه بها

كحركة المؤتمّ بإمامه ، والمقتدي بقدوته ، وقد يقولون : كتحريك المعشوق لعاشقه .

وكلام أرسطو فى ذلك موجود ، وقد نقلته بألفاظه وتكلمت عليه فى غير هذا الموضع ، وقد ذكر ذلك فى مقالة اللام وهى آخر فلسفته ، ومنتهى حكمته .

وفى كتاب أثولوجيا « ولم يثبت أن الرب مبدع للفلك ، ولا علة فاعلة ، ولا سماه واجب الوجود ، ولا قسم الموجودات إلى واجب قديم وممكن قديم .

بل ذلك فعل المتأخرين ، كابن سينا وأمثاله ، وقد بسطنا الكلام عليهم فى غير هذا الموضع .

والمتأخرون الذين سمعوا كلام أهل الملل ، أرادوا إصلاح كلامه وتقريبه إلى المعقول ، لعله توافق ما علم بصريح المعقول ، وصحيح المنقول

فتكلم عليه ثابت بن قرة ، وبيَّن أن الفلك إذا كان لا قِوَام له إلا بطبيعة ، ولا قِوَام لطبيعته إلا بحركته ، ولا قوام لحركته الإرادية إلا بمحرك لها .

وزعموا أن المحرك ، يجب أن لا يكون متحركا ، وقرروا ذلك بأدلة فاسدة ، قد بسط الكلام عليها فى غير هذا الموضع ، فقالوا : إنه إنما تحرك الفلك من جهة نسبة الفلك به ، وإن لم يكن هو القادر على تحريك الفلك ، بل ولا شعور منه بالفلك .

وعبر عن ذلك ابن رشد الفيلسوف وأمثاله ، فقالوا : إنه يأمر الفلك بالحركة وقوام الفلك بطاعته لأمر الله .

مع أنه عندهم لا إرادة له ولا علم له بما يأمر به ، بل كونه أمراً ، هو معنى كون الفلك يتشبه به ، كما يأمر المعشوق عاشقه أن يحبه ، وإن كان المعشوق لا شعور له ولا إرادة فى أن يحبه ذلك .

ثم لو قُدِّر أنه هو الآمر ، فإنما يصدر بسبب أمره ، مجرد حركة الفلك ، ولهذا شبهوا ذلك بأمر السلطان لعسكره بأمر يطيعونه فيه ، فجعلوا الحركات

معلولة له بهذا الاعتبار ، لم يثبتوا أنه أبدع شيئاً من الأفلاك والعناصر والمولدات ولا العقول ولا النفوس ، لا أبدع أعيانها ولا صفاتها ، ولا أفعالها ، بل غايته أن يكون آمراً لها بالحركة كأمر الملك لعسكره ، مع أنه عندهم ليس آمراً بالحقيقة بل ولا علم له بشيء من الموجودات .

بل غاية ما يزعم أرسطو وأتباعه ، أن للفلك حاجة إليه من جهة تشبهه به .

وأما كونه هو علة موجبة للفلك . و إنما يقول هذا من يقوله من متأخريهم ، كابن سينا .

وأما الفارابى ، فهو الذى وسّع القول فى هـذا الباب ، وقسم الموجود إلى واجب وممكن ، وجعل الأفلاك واجبة ممكنة به ، وفى ذلك من الفساد والاضطراب ، ما قد بسط فى غير هذا الموضع .

و بنى ابن سينا الـكلام فى نفى صفاته ، على كونه واجب الوجود .

وأما الفارابى فى كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » وغير ذلك ، فاعتمد على كونه أول ، وكذلك أرسطو فى كتاب « أثولوجيا » اعتمد على كونه هو الأول ، وشبهه بالأول فى العدد ، وعلى ذلك بنوا نفى الصفات ، وأنا لو أثبتناها لخرج عن كونه أول ، مع أنهم لم يقيموا حجة على كونه أول بهذا المعنى الذى زعموه ، كما لم يقيموا حجة على كونه واجب الوجود بالمعنى الذى ادعوه ، بل تكلموا بألفاظ مجملة متشابهة ، تحتمل حقاً و باطلاً ، فإنه معلوم أن الله واجب الوجود بذاته ، موجود بنفسـه ، وأنه الأول الذى ليس قبله شيء ، وهو القديم الأزلى الذى لم يزل ولا يزال .

وهؤلاء جعلوا وجوب الوجود بمعنى أنه لا يتعلق بغيره ، فلا يكون له صفة .

وكونه أول ، بمعنى أول الأعداد الذى لا تعدد فيه .

ومعلوم أن الواحد والأول المجرد عن كل شيء إنمـا يقدر فى الأذهان ، لا فى الأعيان .

فالذهن يقدر واحداً واثنين وثلاثة وأربعة ، إلى سائر الأعداد المجردة .

والعدد المجرد عن المعدود ، إنما يوجد فى الأذهان ، لا فى الأعيان .

فأما الموجود فى الخارج ، فإنما هى أعيان قائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها .

والأول منها هو ذات متصفة بصفاتها ، لا يوجد فى الأعيان شىء ليس بذات قائمة بنفسها ، ولا صفة قائمة بغيرها ، بل لا يوجد ذات مجردة عن صفاتها وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع .

ولكن نبهنا هنا عليها ، لأن هؤلاء القوم قالوا : إنا نعجب من هؤلاء القوم ، أنهم ذو فضل وأدب ومعرفة ، ومن هذا صورته ، وقد قرأ شيئاً من كتب الفلاسفة والمنطق ، فما حقهم ينكرون علينا هذا .

فكان كلام هؤلاء النصارى يتضمن تعظيم الفلاسفة ، وأهل المنطق ، وأن من قرأ كتبهم ، عرف بها من الحق فى الإلهيات ، ما لا يعرفه سائر أهل الملل .

وهذا يدل على جهل هؤلاء النصارى ، بما جاءت به الرسل ، وبما يعرف بالعقل المحض .

أما الأول فلإنَّ المسيح وأتباعه ، كالحواريين ومن اتبعهم ، ليس فيهم من عظم هؤلاء الفلاسفة ، ولا استعان بهم ، ولا التفت إليهم ، بل هم عندهم من أئمة الكفر ، ورؤوس الضلال .

وكذلك موسى وأتباعه ، وكذلك محمد وأتباعه .

وليس فى رسل الله وأنبيائه ، ولا فى أتباعهم من يعظمهم ، ولا يستعين بكلامهم ، بل الرسل وأتباعهم متفقون على تضليلهم وتجهيلهم .

وأما العقليات ، فإنما يعظم كلام هؤلاء ، الفلاسفة فى العلوم الكلية والإلهية من هو من أجهل الناس بالمعارف الإلهية والعلوم الكلية ، إذ كان كلامهم فى ذلك فيه من الجهل والضلال ، ما لا يحيط به إلا ذو الجلال .

وإنما كان القوم يعرفون ما يعرفونه من الطبيعيات والرياضيات ، كالهندسة وبعض الهيئة وشيئاً من علوم الأخلاق والسياسة المدنية والمنزلية ، التى هى جزء مما جاءت به الرسل .

واليهود والنصارى ـ بعد النسخ والتبديل ـ أعلم من هؤلاء بالعلوم الإلهية والأخلاق والسياسات ، فضلا عما وراء ذلك .

فاعتضاد هؤلاء النصارى بهؤلاء المتفلسفة ، يدل على عظيم جهلهم بالشرعيات والعقليات ، وهذا قد بسط الكلام عليه فى مواضع متعددة .

إذ كان الرد على الفلاسفة لا يختص به النصارى ، بل الكلام فى ذلك معهم ومع من يعظمهم من أهل الملل عموما .

ومعلوم أن المنتسبين إلى الإسلام من أتباع الفلاسفة ، كالفارابى ، وابن سينا ، والسهروردى المقتول : وابن رشد الحفيد وأمثالهم ، أحذق بهم وأعلم من النصارى .

وكتب الفلاسفة التى صارت إلى المسلمين ، من الطب ، والحساب ، والمنطق وغير ذلك ، هذبها المنتسبون إلى الإسلام ، فجاء كلامهم فيها خيراً من كلام أولئك اليونان .

والنصارى واليهود إنما يعتمدون فى هذه العلوم على ما وضعه هؤلاء المنتسبون إلى الإسلام ، مع أن هؤلاء عند علماء المسلمين جهال ضلال فى الإلهيات والكليات ، فكيف يكون سلفهم ومن يعظمهم من اليهود والنصارى ؟

ولما صار أولئك اليونان عارفين بالله ، موحدين له ، عابدين له مؤمنين بملائكته وكتبه ورسله ، لما دخل إليهم أتباع المسيح يدعونهم إلى دين الله الذى بعث به المسيح .

وكل من كان من أتباع المسيح ، غير مبدل لشىء من دينه قبل النسخ ، فإنه من المؤمنين المسلمين المهتدين ، وهم من أولياء الله المتقين من أهل الجنة .

ومن ظن أن كلام الرسل يوافق هؤلاء اليونان ، فإن ذلك يدل على جهله بما جاءت به الرسل و بما يقوله هؤلاء .

و إنما يوجد مثل هذا فى كلام الملاحدة من أهل الملل ، ملاحدة اليهود والنصارى والمسلمين وغيرهم ، كأصحاب رسائل إخوان الصفا ، وأمثالهم من الملاحدة المنتسبين إلى تشيع ، أو إلى تصوف ، كابن عربى وابن سبعين وأمثالهما

وفى الكتب المضنون بها على غير أهلها ونحو ذلك من الكلام المنسوب إلى أبى حامد قطعة من ذلك .

وهؤلاء قد يحتجون بالحديث المأثور « أول ما خلق الله العقل ، فقال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، فقال : وعزتى ما خلقت خلقاً أكرم على منك ، فبك آخذ ، و بك أعطى ، و بك الثواب ، وعليك العقاب » .

وهذا الحديث كذب موضوع على النبى صلى الله عليه وسلم كما ذكر ذلك أهل العلم بالحديث ، كأبى جعفر العقيلى ، وأبى حاتم ابن حبان البستى ، وأبى الحسن الدارقطنى ، وأبى الفرج ابن الجوزى وغيرهم .

ثم لفظه لو كان صحيحاً حجة ، على نقيض مطلوبهم ، فإنه قال « أول ما خلق الله العقل » بنصب « أول » وفى لفظ « لما خلق الله العقل قال له » .

فلفظه يقتضى أنه خاطبه فى أول ما خلقه ، فحرفوا لفظه وقالوا : أول ما خلق الله العقل بالضم ، وليس هذا لفظه ولكن لفظه يقتضى أنه خاطبه فى أول أوقات خلقه ولهذا قال : ما خلقت خلقاً أكرم علىَّ منك ، وهذا يقتضى أنه خلق قبله غيره .

وعندهم هو أول المبدعات ، يمتنع أن يتقدمه شىء ، مع أنه وسائر العقول والأفلاك ـ عندهم ـ قديمة أزلية ، لم تزل ولا تزال .

ثم قال : فبك آخذ ، و بك أعطى ، و بك الثواب وعليك العقاب .

فجعل به هذه الأنواع الأربعة .

وعندهم أن العقل صدر عنه جميع العالم العلوى والسفلى ، وذلك أن لفظ

« العقل » فى الحديث سواء كان صحيحاً أو ضعيفاً ، هو العقل فى لغة الأنبياء والمرسلين ، هو عقل الانسان ، وهو عرض قائم به ، وهذا صفة قائمة بالإنسان ليس هو جوهراً قائماً بنفسه .

والعقل فى لغة هؤلاء الفلاسفة ، هو جوهر قائم بنفسه .

وأما النفس الفلكية ، فلهم فيها قولان .

١ : — قيل إنها عرض قائم بالفلك وهو قول أكثرهم .

٢ : — وقيل : بل جوهر قائم بنفسه ، ولهذا يميل ابن سيناء .

وهذه الأمور مبسوطة فى موضع آخر .

والمقصود هنا ذكر هؤلاء أن ثم جوهرا لطيفاً ، غير الجوهر الكثيف ، ومثلوا ذلك بالنفس والعقل والضوء .

ثم إن النصارى لم يقيموا على ثبوت شىء من ذلك دليلا ، ولا دليل . ذلك مما دلت عليه الكتب الالهية .

فإن النفس الفلكية والعقول العشرة ، لم ينطق بها كتاب ولا رسول ، بل ولا دل عليها دليل عقلى ، وأدلة المتفلسفة عليها ضعيفة .

وإنما دل العقل على ما أخبرت به الرسل من الملائكة .

ولكن هؤلاء الذين حملوا كلام الرسل على ما يوافق قول هؤلاء المتفلسفة يجعلون اللوح المحفوظ ، هو النفس الفلكية ، كما يجعلون العقل والقلم هو العقل الأول ، والعرش هو الفلك التاسع ، وغير ذلك مما قد بسط الكلام عليه فى موضع آخر .

وإذا لم يقيموا حجة شرعية ولا عقلية على ما مثلوا به من الجواهر اللطيفة لم يكن لهم حجة على من قال : إن الجوهر ما يشغل حيزا ويقبل عرضاً .

ولما قرنوا النفس بالعقل ، كان ذلك ظاهراً فى أنهم أرادوا النفس الفلكية

فأما إن أرادوا النفس الإنسانية ، فهذه ثابتة ، قد أخبرت بها الرسل وأتباعهم ، كما قد بسط فى موضعه .

لكن هذه لا تقرن بالعقل الذى هو جوهر ، والعقل صفة هذه ، وهو مصدر عقل يعقل عقلا .

وقد يراد بالعقل غريزة قائمة بها ، ويراد بالعقل العمل بالعلم كما قد بسط فى موضع آخر .

الوجه الرابع : ــ قولهم : « وجوهر الضوء » .

فيقال لهم : إن أردتم بالضوء ، نفس الشمس والنار ، فهذا جسم متحيز ، يشغل حيزا ، أو يقبل عرضا ، ليس هو من الجواهر اللطيفة التى مثلتم بها .

وإن أردتم بالضوء ، الشعاع القائم بالهواء والجدران ونحو ذلك ، فليس هذا بجوهر ، لا لطيف ولا كثيف ، بل هو عرض قائم بغيره .

الوجه الخامس : ــ قولكم : « إن الجوهر اللطيف لا يقبل عرضاً » كلام ممنوع ، وهو باطل أيضاً فإن نفس الإنسان تقبل الأعراض القائمة بها ، وكذلك النفس الفلكية عند من أثبتها ، يقوم بها إرادات وتصورات متجددة .

ولفظ « العرض » فى اصطلاح النظار يراد به ما قام بغيره ، سواء كان صفة لازمة أو عارضة ، وهذا موجب تقسيم النصارى ، كما هو قول الفلاسفة .

فإنهم قالوا : ليس فى الوجود شىء إلا وهو إما جوهر وإما عرض ، لأنه أى أمر نظرناه وجدناه إما قائماً بنفسه ، غير مفتقر فى وجوده إلى غيره ، وهو الجوهر . وإما مفتقر فى وجوده إلى غيره ، لا قوام له بنفسه وهو العرض .

قالوا : ولا يمكن أن يكون لهذين القسمين قسم ثالث .

وهذا الذى قالوه هو تقسيم أرسطو وأتباعه ، وهو يسمى المبدأ الأول جوهراً وهذا تقسيم سائر النظار .

لـكن أكثرهم لا يدخلون رب العالمين فى مسمى الجوهر ، ومنهم من يدخله فيه و بعض النزاع فى ذلك لفظى .

و إذا كان الأمر على ما قالوه ، فالضوء القائم بالأرض والهواء ، عرض ليس جوهرا قائما بنفسه ، وهم قد جعلوه جوهرا ، وهذا تناقض بَيِّن .

وأيضاً ، فالجواهر اللطيفة ، تقوم بها الأعراض ،كالحياة ، والعلم ؛ بل والرب — على قولهم — تقوم به الحياة والعلم .

فإذا سموه جوهراً ، لزمهم أن يسموا صفاته أعراضاً ، إذا قالوا : لا موجود إلا جوهر أو عرض .

فهؤلاء إن عنوا بالعرض هـذا ، فكل جوهر يقبل الصفات . و إن أرادوا بالعرض ما يعنيه المتفلسفة بالصفات العرضية التى يفرقون بينها و بين الذاتية ، مع أن هذا ليس مقتضى كلامهم ، فقد ذكرنا فى غير هذا الموضع ، أن تقسيم هؤلاء الصفات اللازمة للموصوف إلى ذاتية وعرضية ، تقسيم باطل . و بتقدير أن يكون حقا ، فالنفس أيضاً تقبل الصفات العرضية ، بل وكذلك كل جوهر ، سواء كان لطيفاً أو كثيفاً .

فقولـكم : إن الجوهر اللطيف لا يقبل عرضاً ، مثل جوهر النفس وجوهر العقل وجوهر الضوء وما يجرى هذا المجرى من الجواهر اللطيفة ، كلام باطل على كل تقدير .

و إن عنوا بلفظ العرض شيئاً آخر ، لم ينفعهم ذلك ، فإن المتكلمين الذين قالوا : الجوهر ما يشغل حيزاً و يقبل عرضاً إنما أرادوا بالعرض ما يقوم بغيره من المعانى ، سواء كان لازماً له أو عارضاً له ، ومعلوم أن كل جوهر ، فإنه تقوم به المعانى . والخالق تعالى — عندهم — تقوم به الحياة والعلم ، فإذا كان الخالق تقوم به المعانى ، وهم يسمونه جوهراً ، فـكيف لا تقوم بغيره المعانى ؟

وهؤلاء يثبتون جوهراً لا تقوم به الأعراض ، مع قولهم : إنه تقوم به

المعانى ، وهذا اصطلاح لهم لا يوافقهم عليه أحد .

ثم يتناقضون فيقولون : الموجود إماجوهر و إما عرض ، وهذا يناقض قولهم : الموجود إما جوهر و إما عرض ، فليس فى الموجودات إلا هـذا أو هذا ، بل وموجب كلامهم أنها قائمة بذات الله ، فـكيف بذات غيره ؟

و إن قالوا : نعنى بالأعراض ، الصفات العارضة أو القائمة بالأجسام ، كان هذا مناقضاً لقولهم : الموجود إما جوهر ، و إما عرض ، مع قولهم : إن الرب جوهر ثلاثة أقانيم ، والأقنوم ذات وصفة ، ومع أقوالهم : إن الرب جوهر .

فقولهم يقتضى أن الرب جوهر تقوم به الأعراض ، فـكيف غيره ؟

ثم يقال : إذا قدر أنهم يدّعون ثبوت جوهر لا تقوم به الأعراض ، فهذا اصطلاح لهم ، وافقوا فيه نفاة الصفات من الفلاسـفة كأرسطو وأتباعه ، فإنهم يقولون : إن الرب جوهر لا يتصف بشىء من الصفات الثبوتية ، لـكن ليس هذا قول النصارى ، فتبين أنهم فى قولهم : إن الرب جوهر ، وفى قولهم : إن من الجواهر ما لا تقوم به الصفات ، موافقون للمشركين الفلاسفة ، أرسطو وأتباعه ، لا موافقين للمسيح والحواريين ، وأنهم أثبتوا الصفات لله موافقـة للمسيح والحواريين ، ثم جعلوه جوهراً ، ثم قالوا : إن الجوهر اللطيف لا تقوم به الصفات . وهذا قول الفلاسفة المشركين المعطلين ، وهذا تحقيق ما ذكرناه عنهم من أنهم ركبوا ديناً من دين المسيح والحواريين ، ومن دين الـكفار المشركين.

ونظار المسلمين ، لهم فى تسمية صفات الله القائمة به أعراضاً نزاع بينهم .

بعضهم يسميها أعراضاً ، و بعضهم ينـكر هذه التسمية ، مع اتفاق هاتين الطائفتين على قيام الصفات به .

وجمهور نظار المسلمين لا يسمونه جوهراً ، و بعضهم يسميه جوهراً .

وأما من أنـكر قيام الصفات به ، فذاك لا يسمى الله جوهراً ولا جسما .

وهؤلاء النصارى متناقضون تناقضاً بيناً ، ولهذا كان لهم طريقة لا يوافقهم

عليها أحد من طوائف العقلاء وذلك يظهر .

بـ « الوجه السادس : ـ وهو أن الناس لهم فى إثبات الصفات القائمة بذات الله تعالى قولان .

فسلف المسلمين وأئمتهم ، وجمهور الخلق من أهل الملل وغير أهل الملل ، يثبتون قيام الصفات بالله تبارك وتعالى . وهل تسمى أعراضاً ؟ على قولين .

والقول الثانى : ـ قول من ينفى الصفات ، مثل الملاحدة الجهمية ونحوهم ، من مبتدعة المسلمين ، ومن وافقهم من الفلاسفة ، و بعض اليهود والنصارى .

فهؤلاء لا تقوم به المعانى والصفات عندهم ، فلا يقولون تقوم به الأعراض .

ثم من هؤلاء ، من يسميه جوهراً كأرسطو وأتباعه ، ومنهم من لا يسميه جوهراً كمتأخرى الفلاسفة ، ابن سينا وأمثاله ، مع جمهور نظار المسلمين وغيرهم.

وأما الجمهور القائلون بقيام المعانى به ، فبعضهم يسميها أعراضاً و إن لم يسمه جوهراً . وقد سماه بعضهم جوهراً ، و بعضهم ينفى أن يكون أعراضاً ، و بعضهم يسكت عن النفى والإثبات ، فلا يسميها أعراضاً ، ولا ينفى تسميتها بذلك ، أو يستفصل القائل عن كونها أعراضاً .

وأما هؤلاء النصارى فقالوا : هو جوهر ثلاثة أقانيم ، ووصفوه بالصفات الثبوتية ، وهى الحياة ، والنطق ، وقالوا : الموجود إما جوهر ، و إما عرض ، فلزمهم أن تـكون صفات الله أعراضاً عندهم .

ثم قالوا : الجوهر اللطيف ، لا تقوم به الأعراض ، ونزهوا الرب أن تقوم به الأعراض ، مع قولهم : إنه جوهر ، فتناقضوا تناقضاً بيناً ، حيث جمعوا بين كلام الرسل وأتباعهم ، و بين كلام المشركين المعطلين الفلاسفة .

فما تلقوه عن المسيح فهو حق ، وما ابتدعوه من قول من خالف الرسل ، فهو باطل .

فجمعوا فى قولهم بين الحق والباطل ، وسلكوا مسلكا لا يعرف عن غيرهم

وإيضاح هذا أن يقال فى :

الوجه السابع : ـ أن هذا الذى ذكروه تناقض بَيِّن ، فإنهم قالوا : الموجود إما جوهر وإما عرض ، فالقائم بذاته هو الجوهر ، والقائم بغيره هو العرض .

ثم قالوا : إنه موجود حىٌّ ناطق ، له حياة ونطق .

فيقال لهم : حياته ونطقه ، إما جوهر ، وإما عرض ، وليس جوهراً ، لأن الجوهر ما قام بنفسه ، والحياة والنطق لا يقومان بأنفسهما ، بل بغيرهما ، فهما من الأعراض ، فتبيَّن أنه عندهم جوهر تقوم به الأعراض ، مع قولهم : إنه جوهر لايقبل عرضا .

وإن قيل : أرادوا بقولهم : « لا يقبل عرضا » ما كان حادثا .

قيل : فهذا ينقض تقسيمهم الموجود إلى جوهر وعرض ، فإن المعنى القديم الذى يقوم به ليس جوهراً وليس حادثا .

فإن كان عرضاً ، فقد قام به العرض وقبله ، وإن لم يكن عرضاً ، بطل التقسيم .

فتبيَّن من هذا ، أنهم يقال لهم : أنتم قلتم : إنه شىء حىٌّ ناطق ، وقلتم : هو ثلاثة أقانيم ، وقلتم : المتحد بالمسيح أقنوم الكلمة ، وقلتم فى الأمانة : نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور ، إله حق من إله حق من جوهر أبيه مولود غير مخلوق مساوٍ ، للأب فى الجوهر .

ثم قلتم : إن الرب جوهر ، وقلتم : إن الذى يشغل حيزاً أو يقبل عرضاً هو الجوهر الكثيف .

فأما الجوهر اللطيف فلا يقبل عرضاً ولا يشغل حيزا ، مثل جوهر النفس وجوهر العقل ، وما يجرى هذا المجرى من الجواهر اللطيفة .

فإذا كانت هذه الجواهر اللطيفة المخلوقة لا تقبل عرضاً ، ولا تشغل حيزاً ،

فيكون خالق الجواهر اللطائف والكثائف ، ومركب اللطائف بالكثائف يقبل عرضا ويشغل حيزاً كلا . فصرحتم بأنه جوهر لا يقبل عرضاً ، وقلتم : ليس فى الوجود شىء إلا وهو إما جوهر وإما عرض فإن كان قائماً بنفسه غير محتاج فى وجوده إلى غيره ، فهو الجوهر ، وإن كان مفتقرا فى وجوده إلى غيره ، لا قوّام له بنفسه ، فهو العرض .

فيقال لكم : الابن القديم الأزلى الموجود من جوهر أبيه ، الذى هو مولود غير مخلوق ، الذى تجسد ونزل ، هو جوهر قائم بنفسه أم هو عرض قائم بغيره ؟ والوجود عندكم إما جوهر وإما عرض .

فإن قلتم : هو جوهر ، فقد صرحتم بإثبات جوهرين ، الأب جوهر ، والابن جوهر ؛ ويكون حينئذ أقنوم الحياة جوهراً ثالثاً ، فهذا تصريح بإثبات ثلاثة جواهر قائمة بأنفسها .

وحينئذ فيبطل قولهم : إنه إله واحد ، وإنه أَحَدِيّ الذات ، ثلاثى الصفات وإنه واحد بالجوهر ، ثلاثة بالأقنوم ، إذ كنتم قد صرحتم ـ على هذا التقدير ـ بإثبات ثلاثة جواهر .

وإن قلتم : بل الابن القديم الأزلى ، الذى هو الكلمة ، التى هى العلم والحكمة ، عرض قائم بجوهر الأب ، ليس هو جوهراً ثانياً ، فقد صرحتم بأن الرب جوهر تقوم به الأعراض ، وقد أنكرتم هذا فى كلامكم ، وقلتم : هو جوهر لا تقوم به الأعراض ، وقلتم : إن من المخلوقات جواهر لا تقوم بها الأعراض ، فالخالق أولى ، وهذا تناقض بيِّن ، لا حيلة فيه لمن تدبر كلامهم ، أوله وآخره .

فإن كلامهم هذا يوجب أنه جوهر واحد ، لا يقوم به شىء من الأعراض .

وهم يقولون : جوهر واحد ، ثلاثة أقانيم ، وسواء سموها صفات أو خواص أو أعراضاً ، أو قالوا : الأقنوم هو الذات والصفة .

فيقال لهم : الرب مع الأقانيم ، ثلاثة جواهر ، أو جوهر واحد له ثلاث صفات ، أو جوهر واحد لا صفة له ؟

فإن قالوا : ثلاثة جواهر ، أثبتوا ثلاثة ، و بطل قولهم : إن الرب جوهر واحد ، و إله واحد ، وصرحوا بإثبات ثلاثة آلهة .

و إن قالوا : بل جوهر واحد له ثلاث صفات ، فقد صرحوا أن هـذا الجوهر تقوم به الصفات ، و إذا قامت به الصفات ـ وقد سموه جوهراً ، وقالوا : كل موجود إما جوهر ، و إما عرض ، لزمهم قطعاً أن تـكون صفاته أعراضاً فبطل قولهم : إنه جوهر لا تقوم به الأعراض .

و إن قالوا : جوهر واحد ، لا تقوم به الصفات بحال ، بطل قولهم : له حياة ونطق ، و إذا نفوا الصفات ، أبطلوا التثليث والاتحاد ، و بطلت الأمانة مع مخالفتهم لـكتب الأنبياء ، فإنها مصرحة بإثبـات الصفات ، ومع مخالفتهم لصريح العقل .

والمقصود أنهم يتناقضون تناقضاً بيناً ، لأنهم أثبتوا جوهراً لا تقوم به الأعراض ، مع قولهم : الموجود إما جوهر و إما عرض ، ومع قولهم : إنه جوهر ثلاثة أقانيم .

فإذا لم تقم به الأعراض ، لم يكن له صفات ، فإن الصفة قائمـة بغيرها ، ليست جوهراً ، بل هى ـ إذا كان الموجود إما جوهر و إما عرض ـ من قسم الأعراض ، لا من قسم الجواهر ، فـكان هذا الـكلام نافياً لقيام الصفات به مطلقاً .

ثم قالوا بالأقانيم التى توجب إما إثباتِ صفات ، و إما إثبات جواهر ثلاثة قائمة بنفسها ، مع أنها إذا قامت بنفسها ، لزم اتصافها بالصفات .

ولا ريب أن القوم يجمعون فى قولهم ، بين النقيضين ، بين إثبات الصفات ونفيها ، و بين إثبات ثلاثة جواهر ، ثلاثة آلهة ، و بين قولهم . الإله واحد .

وسبب ذلك ، أنهم ركبوا لهم اعتقادا ، بعضه من نصوص الأنبياء المحكمة ، كقولهم : الإله واحد ، و بعضه من متشابه كلامهم ، كلفظ الابن ، وروح القدس ، و بعضه من كلام الفلاسفة المشركين المعطلين ، كقولهم : جوهر لا تقوم به الصفات .

ومما يوضح ذلك أنك تجد عامة علماء النصارى ـ فضلا عن عامتهم ـ لا يعرفون ما نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقره ، مع اتفاقهم على أن المسيح لم ينسخها كلها ، ولم يقرها كلها ، بل أخبرهم أنه إنما جاء ليتمها لا ليطلبها ، وقد أحل بعض ما حرم فيها ، كالعمل فى السبت .

ومعلوم أن المقصود بالرسل تصديقهم ، فيما أخبروا ، وطاعتهم فيما أمروا .

فإذا كان عامة النصارى لا يميزون ما أمرهم به مما لم يأمرهم به ، ولا ما نهاهم عنه مما لم ينههم عنه ـ مع اعترافهم بأنه أقر كثيراً من شريعة التوراة ، بل أكثرها ، وأحل بعضها فنسخه ورفعه ، وهم لا يعرفون هذا من هذا ، لم يكونوا عارفين بما جاء به المسيح ، ولا يعرفون ما أمرهم الله على لسان موسى وسائر الأنبياء ـ فإنهم لا يجوز لهم العمل بكل مافى التوراة ، بل قد نسخ المسيح بعض ذلك باتفاقهم ، واتفاق المسلمين على ذلك .

ولا يجوز لهم تعطيل جميع شريعة التوراة ، بل يجب عليهم العمل بما لم ينسخه المسيح .

وعامتهم لا يعرفون مانسخه ، مما لم ينسخه ، فلا يمكنهم العمل بالتوراة والانتفاع بها فى الشرع ، حتى يعرفوا المنسوخ منها من غير المنسوخ .

وعامتهم لا يعرفون ذلك ، فلم يكونوا حينئذ على شريعة منزلة من الله ، لا من جهة المسيح ، ولا من جهة موسى ، فلم يعلموها ، بل كان ذلك مجهولا عند عامتهم وجمهورهم أو جميعهم ، فكانوا محتاجين إلى أن يعرفوا ما شرعه الله مما لم يشرعه .

فأرسل الله محمداً صلى الله عليه وسلم بشرع ، أمر فيه بمحاسن مافى الكتابين ، وعوض عما نسخه بما هو خير منه .

فصــــل

ثم قالوا : إنا نعجب من هؤلاء القوم الذين مع أدبهم وما يأخذون به أنفسهم من الفضل ، كيف لم يعلموا أن الشرائع شريعتان ، شريعة عدل ، وشريعة فضل ، لأنه لما كان البارى عدلا وجواداً ، وجب أن يظهر عدله على خلقه .

فأرسل موسى إلى بنى إسرائيل ، فوضع شريعة العدل ، وأمرهم بفعلها إلى أن استقرت فى نفوسهم .

ولما كان الكمال الذى هو الفضل ، لا يمكن أن يضعه إلا أكمل الكمال ، وجب أن يكون هو ـ تقدست أسماؤه وجلت آلاؤه ـ الذى يضعه ، لأنه ليس شىء أكمل منه ، ولأنه جواد ، وجب أن يجود بأجل الموجودات .

وليس فى الموجودات أكمل من كلمته ، ولذلك وجب أن يجود بكلمته ، فلهذا وجب أن يتحد بذات محسوسة ، يظهر منها قدرته وجوده .

ولما لم يكن فى المخلوقات أجل من الإنسان ، اتحد بالطبيعة البشرية من السيدة الطاهرة ، من مريم البتول المصطفاة على نساء العالمين .

وبعد هذا الكمال ما بقى شىء يوضع ، لأن جميع ما تقدمه منقصة وما يأتى بعد الكمال ، غير محتاج إليه لأنه ليس شىء يأتى بعد الكمال فيكون فاضلا ، بل دوناً ، أو أخذ منه ، والأخذ منه ، فهو فضل لا يحتاج إليه ، وفى هذا القول مقنع ، والسلام على من اتبع الهدى .

وهذا مما عرفته من أن القوم الذين رأيتهم وخاطبتهم فى محمد عليه الصلاة السلام ، وما يحتجون به عن أنفسهم .

فإن يكن ما ذكروه صحيحاً ، فلله الحمد ، وإن يكن خلاف ذلك ، فمولانا يكتب ذلك بعد أن جعلونى سفيراً والحمد لله رب العالمين .

والجواب عن هذا من وجوه

أحدها : ـ أن يقال : بل الشرائع ثلاثة ، شريعة عدل فقط ، وشريعة فضل فقط ، وشريعة تجمع العدل والفضل ، فتوجب العدل وتندب إلى الفضل ، وهذه أكمل الشرائع الثلاث ، وهى شريعة القرآن الذى يجمع فيه بين العدل والفضل : مع أننا لا ننكر أن يكون موسى عليه السلام أوجب العدل وندب إلى الفضل ، وكذلك المسيح أيضاً أوجب العدل وندب إلى الفضل .

وأما من يقول : إن المسيح أوجب الفضل وحرم على كل مظلوم أن يقتص من ظالمه ، أو أن موسى لم يندب إلى الإحسان ، فهذا فيه غضاضة بشريعة المرسلين .

لكن قد يقال : إن ذكر العدل فى التوراة أكثر ، وذكر الفضل فى الإنجيل أكثر ، والقرآن جمع بينهما على غاية الكمال .

والقرآن بيَّن أن السعداء أهل الجنة ، فهم أولياء الله نوعان ، أبرار مقتصدون ، ومقرَّبون سابقون .

فالدرجة الأولى تحصل بالعدل ، وهى أداء الواجبات وترك المحرمات .

والثانية ـ : لا تحصل إلا بالفضل ، وهو أداء الواجبات والمستحبات ، وترك المحرمات والمكروهات .

فالشريعة الكاملة ، تجمع العدل والفضل كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾ فهذا عدل واجب ، من خرج عنه استحق العقوبة فى الدنيا والآخرة .

ثم قال: ﴿ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ له ﴾ [البقرة : ٢٨٠]

فهذا فضل مستحب مندوب إليه ، من فعله أثابه الله ورفع درجته ، ومن تركه لم يعاقبه .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ [النساء : ٩٢] فهذا عدل ، ثم قال : ﴿ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا ﴾ فهذا فضل

وقال تعالى : ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ فهذا عدل ، ثم قال : ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ فهذا فضل .

وقال تعالى : وإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ فهذا عدل ، ثم قال : ﴿ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [البقرة . ٢٣٧] فهذا فضل .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ فهذا عدل ، ثم قال : ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦] فهذا فضل .

وقال تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ فهذا عدل ، ثم قال : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] فهذا فضل .

وهو ـ سبحانه ـ دائماً يحرم الظلم ، ويوجب العدل ، ويندب إلى الفضل ، كما فى آخر سورة البقرة ، لما ذكر حكم الأموال

والناس فيها ، إما محسن ، وإما عادل ، وإما ظالم .

فالمحسن ، المتصدق ، والعادل ، المعاوض كالبايع ، والظالم كالمرابى .

فبدأ بالإحسان والصدقة ، فذكر ذلك ورغّب فيه فقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ الآيات [البقرة : ٢٦١ ــ ٢٦٣] .

ثم ذكر تحريم الربا فقال : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٧٥]

ثم لما أحل البيع ذكر المداينات ، وذكر حكم البيع الحالّ والمؤجل ، وحفظ ذلك بالكتاب والشهود أو الرهن ، وختم السورة بأصول الإيمان ، من الإيمان بالكتب والرسل ، بعد أن افتتحها بذلك ، وذكر أصناف الناس ، وهم ثلاثة ، إما مؤمن ، وإما كافر ، وإما منافق .

فذكر نعت المؤمنين ، ثم ذكر نعت الكافرين ، ثم ذكر نعت المنافقين .

ثم مهد أصول الإيمان ، فأمر بعبادة الله تعالى ، وذكر آياته وآلائه .

ثم قرر نبوة رسوله ، ثم ذكر اليوم الآخر ، والوعد والوعيد ، ثم ذكر بدء العالم وخلق السموات والأرض ، ثم خلق آدم وإسجاد الملائكة له ، وخروجه من الجنة ، وهبوطه إلى الأرض .

ثم بعد أن عمّ بالدعوة جميع الخلق ، خص أهل الكتاب فخاطبهم .

خاطب اليهود أولا بنى إسرائيل ، ثم النصارى ، ثم خاطب المؤمنين .

فقرر لهم قواعد دينه ، فذكر أصل ملة إبراهيم وبناءه للبيت ودعاءه لأهل مكة ، ووكد الأمر بملة إبراهيم .

ثم ذكر ما يتعلق بالبيت ، من اتخاذه قبلة ، ومن تعظيم شعائر الله التى عنده ، كالصفا والمروة ، ثم ذكر التوحيد والحلال والحرام فى المطاعم للناس عموماً ، ثم للذين آمنوا خصوصاً .

ثم ذكر ما يتعلق بالقتل من القصاص و بالموت ، من الوصية .

ثم ذكر شرائع الدين ، فذكر صيام شهر رمضان ، وما يكون فيه من الاعتكاف .

ثم ذكر ما يتصل بشهر الصيام ، وهو أشهر الحج ، فذكر الحج ، وذكر حكم القتال عموماً وخصوصاً ، فى البلد الحرام .

ولما ذكر الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة ، ذكر بعد ذلك الحلال والحرام فى الفروج .

فذكر أحكام وطء النساء ، والمَحِيض ، والإيلاء منهن ، والطلاق لهن ، واختلاعهن .

وذكر حكم الأولاد و إرضاعهم ، واعتداد النساء ، وخطبتهن فى العدة ، وطلاقهن قبل الدخول و بعده .

ثم ذكر الصلوات والمحافظة عليهن ، ثم قرر المعاد ، وما يدل عليه من إحياء الموتى فى الدنيا مرة بعد مرة .

فتضمنت هذه السورة الواحدة جميع ما يحتاج الناس إليه فى الدين ، أصوله وفروعه ، وافتتحها بالإيمان بالكتب والرسل ، ووسطها بالإيمان بالكتب والرسل ، وختمها بالإيمان بالكتب والرسل .

فإن الإيمان بالكتب والرسل هو عمود الإيمان وقاعدته وجماعه .

وأمر فيها الخلق عموماً ، وخصوصاً بعد عموم ، وذكر فيها الإيمان بالخالق وآيات ربوبيته ، والإيمان بالمعاد والدار الآخرة والأعمال الصالحة ، التى أمر بها ، و إن من كان من أتباع الرسل ، من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين ، قائماً بهذه الأصول ، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، فهو السعيد فى الآخرة الذى له أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

بخلاف من بدّل منهم الكتاب ، أو كذب بكتاب فإن هؤلاء من الكفار .

فمن كان متبعاً لشرع التوراة ، قبل مبعث المسيح ، غير مبدل له ، فهو من السعداء .

وكذلك من كان متبعاً لشرع الإنجيل قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، غير مبدل له ، فهو من السعداء .

ومن بدل شرع التوراة ، أو كذب بالمسيح ، فهو كافر ، كاليهود بعد مبعث المسيح عليه السلام .

وكذلك من بدل شرع الإنجيل ، أو كذب محمداً صلى الله عليه وسلم ، فهو كافر ، كالنصارى بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

فقُدَماء اليهود والنصارى ، الذين اتبعوا الدين قبل النسخ والتبديل ، سعداء .

وأما اليهود والنصارى الذين تمسكوا بشرع مبدل منسوخ ، وتركوا اتباع الكتاب والرسول الذى أرسل إليهم وإلى غيرهم ، وعدلوا عن الشرع المنزل المحكم ، فهم كفار .

وردّ دعاوى اليهود والنصارى الكاذبة ، مثل قول هؤلاء : (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا) وقول هؤلاء : (لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى) فقال : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ١١٢] .

وبيّن من كفر اليهود والنصارى ، ما عرف بهم حالهم .

لكن أكثر ما ذكر فى هذه السورة ، اليهود ، كما أن أكثر ما ذكر فى سورة آل عمران النصارى ، فإن هذه نزلت أول مقدمه المدينة ، وكان اليهود جيرانه .

وآل عمران تأخر نزولها إلى آخر الأمر ، لما قدم عليه نصارى وفد نجران ،

وفيها فرض الحج ، لما طهر الله مكة من المشركين ، فكان أكثر دعائه فى أول الأمر للمشركين ، لأنهم جيرانه بمكة ، ثم لليهود لأنهم جيرانه بالمدينة ، ثم للنصارى لأنهم كانوا أبعد عنه من ناحية الشام ، واليمن ، والمجوس أيضاً لأنهم كانوا أبعد عنه بأرض العراق وخراسان .

وهذا هو الترتيب المناسب ، يدعو الأقرب إليه فالأقرب ، ثم يرسل رسله إلى الأبعد .

وهو صلى الله عليه وسلم ، كان ، أولا ، مشغولا بجهاد المشركين واليهود .

فلما صالح المشركين صلح الحديبية ، وحارب يهود خيبر عقيب ذلك ففتحها الله عليه وقسمها بين الذين بايعوه تحت الشجرة الذين شهدوا صلح الحديبية ، فتفرغ لمن بَعُدَ عنه ، فأرسل رسله إلى جميع مَنْ حواليه ، من الأمم .

أرسل إلى ملوك النصارى بمصر والشام والحبشة ، فإنه كان قد مات ملك الحبشة النجاشى الذى أسلم ، وأخبر الناس بموته يوم مات ، وخرج بأصحابه إلى ظاهر المدينة ، فصلّى عليه بهم صلاة الجنازة ، كما كان يصلى على سائر موتى المسلمين .

وتولى بعد النجاشى آخر ، فأرسل إليه كما ذكره مسلم فى صحيحه وغيره .

وأرسل إلى ملوك اليمن من المشركين واليهود ، و إلى ملوك العرب .

وكان فى العرب خلق كثير يهود ، وخلق كثير نصارى ، وخلق كثير مجوس .

فدعا جميع الخلق من اليهود والنصارى والمجوس والمشركين ، عربهم وعجمهم .

الوجه الثانى : ـ أن يقال لهم : الناس لهم فى أمر الله ونهيه ، قولان مشهوران .

أحـــدها : أنه يرجع إلى محض المشيئة ، لا يعتبر فيه أن يكون المأمور به مصلحة للخلق ، و إن اتفق أن يكون مصلحة ، و إن كان الواقع كونه مصلحة ، وهذا قول من يقول : لا يفعل ولا يحكم لسبب ، ولا لحـكمة ولا لغرض .

والقول الثانى - وهو قول جمهور الناس - إن الله إنما أرسل الرسل ليأمروا الناس بما يصلحهم وينفعهم إذا فعلوه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] وقال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ؟ قَالَ : كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ [طه : ١٢٣ - ١٢٦] .

فإن قيل بالأول ، لم يسأل عن حكمة إرسال الرسل ، و إن قيل بالثانى ، ففى إرسال محمد صلى الله عليه وسلم من الحـكم والمصالح ، أعظم مما كان فى إرسال موسى والمسيح ، والذى حصل به من صلاح العباد فى المعاش والمعاد أضعاف ما حصل بإرسال موسى والمسيح ، من جهة الأمر والخلق .

فإن فى شريعته من الهدى ودين الحق ، أكمل مما فى الشريعتين المتقدمتين ، ويسَّر الله من اتباع الخلق له واهتدائهم به ، مالم يتيسر مثله لمن قبله ، فحصل فضيلة شريعته من جهة فضلها فى نفسها ، ومن جهة كثرة من قبلها وكمال قبولهم لها .

بخلاف شريعة من قبله ، فإن موسى صلى الله عليه وسلم بعث إلى بنى إسرائيل ، وكان فيهم من الرد والعناد فى حياة موسى و بعد موته ، ماهو معروف .

وقد ذكر النصارى فى كتابهم هذا من ذلك ما تقدم .

ولم تـكن شريعة التوراة فى الـكمال ، مثل شريعة القرآن ، فإن القرآن

فيه من ذكر المعاد ، وإقامة الحجج عليه وتفصيله ، ووصف الجنة والنار ، مالم يذكر مثله فى التوراة .

وفيه من ذكر قصة هود وصالح وشعيب وغيرهم من الأنبياء ، مالم يذكر فى التوراة .

وفيه من ذكر أسماء الله الحسنى وصفاته ، ووصف ملائكته وأصنافهم، وخلق الإنس والجن ، مالم يفصل مثله فى التوراة .

وفيه من تقرير التوحيد بأنواع الأدلة ، مالم يذكر مثله فى التوراة .

وفيه من ذكر أديان أهل الأرض ، مالم يذكر مثله فى التوراة .

وفيه من مناظرة المخالفين للرسل ، وإقامة البراهين على أصول الدين ، مالم يذكر مثله فى التوراة ، مع أنه لم ينزل كتاب من السماء أهدى من القرآن والتوراة .

وفى شريعة القرآن تحليل الطيبات ، وتحريم الخبائث .

وشريعة التوراة فيها تحريم كثير من الطيبات عليهم ، حرمت عليهم عقوبة لهم .

وفى شريعة القرآن ، من قبول الدية فى الدماء ، مالم يشرع فى التوراة ، وفيها من وضع الآصار والأغلال التى فى التوراة ما يظهر به أن نعمة الله على أهل القرآن أكمل .

وأما الإنجيل ، فليس فيه شريعة مستقلة ، ولا فيه الكلام على التوحيد وخلق العالم وقصص الأنبياء وأممهم ، بل أحالهم على التوراة فى أكثر الأمر .

ولكن أحلّ لهم المسيح بعض ماحرم عليهم ، وأمرهم بالإحسان والعفو عن المظالم ، واحتمال الأذى ، والزهد فى الدنيا ، وضرب الأمثال لذلك .

فعامة ما امتاز به الإنجيل عن التوراة ، بمكارم الأخلاق المستحسنة ،

والزهد المستحب ، وتحليل بعض المحرمات ، وهذا كله فى القرآن ، وهو فى القرآن أكمل .

فليس فى التوراة والإنجيل والنبوات ، ماهو من العلوم النافعة والأعمال الصالحة إلا وهو فى القرآن ، أو ماهو أفضل منه .

وفى القرآن من العلوم النافعة والأعمال الصالحة من الهدى ، ودين الحق ، ماليس فى الكتابين .

لكن النصارى لم يتبعوا ، لا التوراة ولا الإنجيل ، بل أحدثوا شريعة لم يبعث بها نبى من الأنبيا ، كما وضعوا اقسطنطين الأمانة ، ووضعوا له أربعين كتاباً ، و يسمونها القوانين ، فيها بعض ما جاءت به الأنبياء ، وفيها شىء كثير مخالف لشرع الأنبياء ، وصاروا إلى كثير من دين المشركين ، الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى وكذبوا رسله ، فصار فى دينهم من الشرك وتغير دين الرسل ، ما غيروا به شريعة الإنجيل ، ولهذا التبست عند عامتهم شريعة الإنجيل بغيرها ، فلا يعرفون ما نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقره ، ولا ما شرعه ، مما أحدث بعده .

فالمسيح لم يأمرهم بنصب الصوَر وتعظيمها ، ولا دعا من صورت تلك التماثيل على صورته ولا أمر بهذا أحد من الأنبياء .

لا يوجد قط عن نبى أنه أمر بدعاء الملائكة والاستشفاع بهم ، ولا بدعاء الموتى من الأنبياء والصالحين والاستشفاع بهم، فضلا عن دعاء تماثيلهم والاستشفاع بها ، فإن هذا من أصول الشرك ، الذى نهت عنه الرسل ، وهذا كان أصل الشرك فى بنى آدم من عهد نوح عليه السلام .

قال الله تعالى عن قوم نوح ﴿ وَقَالُوا : لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلوا كَثِيرًا ﴾ ، [نوح ٢٣ ، ٢٤] .

قال كثير من العلماء ، منهم ابن عباس وغيره : وهؤلاء كانوا قوماً صالحين فى قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صَوَّروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم ، وقد ذكر ذلك المسيح وعلماء النصارى .

والمسيح عليه السلام لم يأمرهم بعبادته ولا قال : إنه الله ، ولا أمرهم بما ابتدعوه من التثليث والاتحاد .

والمسيح لم يأمرهم باستحلال كل ما حرمه الله فى التوراة من الخبائث ، كالخنزير وغيره ، فاستحلوا الخبائث المحرمة وغيّروا شريعة التوراة والإنجيل .

والمسيح لم يأمرهم أن يصلوا إلى المشرق ، ولم يأمرهم أن يعظموا الصليب ، ولم يأمرهم بترك الختان ولا بالرهبانية ولا بسائر ما ابتدعوه بعده .

ولهذا لما ظهر فساد دين النصارى ، صار بعض الناس ، كأبى عبد الله الرازى يقول : لم يظهر الانتفاع بدين المسيح ، إلا فى طائفة قليلة كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الدين الذى كان عليه جمهور النصارى ، ليس هو دين المسيح .

ويبين هذا بـ « الوجه الثالث : ـ وهو أن يقال هب : إن شريعة الكتابين كانت كافية ، فإنما ذاك إذا كانت محفوظة معمولا بها ، ولم يكن الأمر كذلك ، بل كانت قد درس كثير من معالمها .

وقد اختلف أهل الكتاب فى المسيح وغيره اختلافا عظيما كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة ١٤] وقد قال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً أى فاختلفوا ﴿ فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [البقرة ٢١٣] والوقت الذى بعث فيه محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن قد بقى أحد مظهراً لما بعث الله به الرسل قبله .

فبعثه على حين فترة من الرسل ، وطموس من السُّبُل ، أحوج ما كان الناس إلى رسول ، كما فى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب » .

وكان الناس حين مبعث محمد صلى الله عليه وسلم إما أميين ، لا كتاب لهم يشركون بالرحمن ، ويعبدون الأوثان ، وإما أهل كتاب قد بدّلوا معانيه وأحكامه ، وحرّفوا حلاله وحرامه ، ولبسوا حقه بباطله ، كما هو الموجود .

فلو أراد الرجل أن يميز له أهل الكتاب ما جاءت به الأنبياء ، مما هم عليه مما أحدثوه بعدهم ، لم يعرف جمهورهم ذلك ، بل قد صار الجميع - عندهم - ديناً واحداً .

فبعث الله تبارك وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بالكتاب الذى أنزله عليه مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، فميّز به الحق من الباطل . والهدى من الضلال والغىَّ من الرشاد قال تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ : فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا : مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة ١٥ - ١٩] .

الوجه الرابع : إن شريعة التوراة يغلب عليها الشدة ، وشريعة الإنجيل يغلب عليها اللين ، وشريعة القرآن معتدلة جامعة ، بين هذا وهذا ، كما قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة ١٤٣] وقال في وصف أمته : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح ٢٩] إلخ ، وقال أيضاً : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة ٥٤] فوصفهم بالرحمة للمؤمنين ، والذلة لهم ، والشدة على الكفار والعزة عليهم .

وكذلك كان صفة محمد صلى الله عليه وسلم نبيهم ، أكمل النبيين وأفضل الرسل ، بحيث قال : « أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا نبي الرحمة ، وأنا نبي الملحمة ، وأنا نبي التوبة ، وأنا الضحوك القتال » فوصف نفسه بأنه نبي الرحمة والتوبة ، وأنه نبي الملحمة ، وأنه الضحوك القتال .

وهذا أكمل ممن نعت بالشدة والبأس غالباً ، أو باللين غالباً .

وقد قيل : إن سبب ذلك أن بني إسرائيل كانت نفوسهم قد ذلت بقهر فرعون لهم ، واستعباد فرعون وقومه لهم ، فشرعت لهم الشدة لتقوى أنفسهم ، ويزول عنهم ذلك الذل .

ولهذا لما أمروا بالجهاد نكلوا عنه ، وقال لهم موسى : ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا : يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ، وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ * وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا : يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة الآيات ٢١ - ٢٤] .

وأما أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال له قائلهم يوم بدر : والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل ، قالوا لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » لكن نقاتل أمامك ووراءك ، وعن يمينك وعن يسارك ، والذى بعثك بالحق نبياً لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك ، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك » .

وكان الكلام قريباً من « بدر » والبحر من جهة الغرب .

و « برك الغماد » مكان من يمانى مكة ، بينه وبين مكة عدة ليال .

والكفار كانوا ـ إذ ذاك بمكة ، وأصحابه[1] من ناحية المدينة شامى مكة ، فمكة جنوبهم ، والبحر غربهم .

يقول : لو طلبت أن ندخل بلد العدو ، ونذهب إلى تلك الناحية لفعلناه .

قالوا : فلما نصر الله بنى إسرائيل وأظهرهم ، ظهرت فيهم الأحداث بعد ذلك وتجبروا ، وقست قلوبهم ، وصاروا شبيهاً بآل فرعون .

فبعث الله المسيح عليه السلام باللين والصفح ، والعفو عن المسىء ، واحتمال أذاه لِيلِيِّنَ أخلاقهم ، ويزيل ما كانوا فيه من الجبرية والقسوة .

فأفرط هؤلاء فى اللين ، حتى تركوا الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله ، وتركوا الحكم بين الناس بالعدل ، وإقامة الحدود ، وترهّب عُبّادُهم منفردين .

مع أن فى ملوك النصارى من الجبرية والقسوة والحكم بغير ما أنزل الله ، وسفك الدماء بغير حق ، مما يأمرهم به علماؤهم وعبادهم ، ومما لم يأمروهم به ، ما شاركوا فيه اليهود .

فبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالشريعة الكاملة العادلة ، وجعل أمته

---

(١) قوله وأصحابه . أى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم .

عَدْلاً خياراً لا ينحرفون إلى هذا الطرَف ولا إلى هذا الطرف ، بل يشتدون على أعداء الله ، ويلينون لأولياء الله ، ويستعملون العفو والصفح ، فيما كان لنفوسهم ، ويستعملون الانتصار والعقوبة ، فيما كان حقاً لله .

وهذا كان خلق نبيهم كما فى الصحيحين عن عائشة قالت : « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادماً له قط ، ولا امْرأةً له قط ، ولا دابة ولا شيئاً قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله ولا نيل منه شيء قط فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله ، فإذا انتهكت محارم الله ، لم يقم لغضبه شيء ، حتى ينتقم لله ، وما عرض عليه أمران ، أحدهما أيسر من الآخر ، إلا أخذ بأيسرهما إلا أن يكون مأثماً ، فإن كان مأثماً كان أبعد الناس منه » .

وفى الصحيحين عن أنس أنه قال : « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لى أفٍّ قط ، ولا قال لشيء فعلته لِمَ فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله : لم لا فعلته ؟ ولا لما صنعت ، لِمَ صنعت ، وكان بعض أهله إذا عتبونى على شيء يقول : دَعُوهُ ، فلو قدر شيء لكان هذا » مع قوله فى الحديث الصحيح لما سرقت امرأة كانت من أشرف قريش من بنى مخزوم فأمر بقطع يدها ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد ؟ فكلموه ، فكلمه فيها ، فقال : يا أسامة أتشفع فى حدٍّ من حدود الله ؟ إنما أهلك من كان قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذى نفس محمد بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

ففى شريعته صلى الله عليه وسلم من اللين والعفو والصفح ومكارم الأخلاق أعظم مما فى الإنجيل ، وفيها من الشدة والجهاد ، وإقامة الحدود على الكفار والمنافقين . أعظم مما فى التوراة ، وهذا هو غاية الكمال .

ولهذا قال بعضهم : بُعِثَ موسى بالجلال ، وبُعِثَ عيسى بالجمال ، وبعث محمد بالكمال .

الوجه الخامس : — إن نعم الله على عباده تتضمن نفعهم والإحسان إليهم ، وذلك نوعان .

أحدهما : — أن يدفع بذلك مضرتهم ويزيل حاجتهم وفاقتهم ، مثل رزقهم الذى لولا هو ، لماتوا جوعاً ، ونصرهم الذى لولا هو لأهلكهم عدوهم ومثل هدام الذى لولا هو ، لَضَلُّوا ضلالاً يضرهم فى آخرتهم .

وهذا النوع من النعمة لا بد لهم منه وإن فقدوه حصل لهم ضرر ، إما فى الدنيا وإما فى الآخرة ، وإما فيهما .

ولهذا كان فى سورة النحل ، وهى سورة النِّعم ، فى أولها ، أصول النعم فى أثنائها كمال النعم .

والنوع الثانى : — النعم التى يحصل بها من كمال النعم وعُلُوِّ الدرجة ، ما لا يحصل بدونها ، كما أنهم فى الآخرة نوعان ، أبرار أصحاب يمين ، ومقربون سابقون ، ومن خرج عن هذين ، كان من أصحاب الجحيم .

وإذا كانت النعمة نوعين ، فالخلق كانوا محتاجين إلى إرسال محمد صلى الله عليه وسلم من هذين الوجهين ، وحصل بإرساله هذان النوعان من النعمة ، فإن الناس بدونه كانوا جهالا ضالين أُمِّيَّهُمْ وأهلَ الكتاب منهم .

ولم يكن قد بقى من أهل الكتاب ، أتباع المسيح ، من هو قائم بالدين الذى يوجب السعادة عند الله فى الآخرة بل كانوا قد بدّلوا وغيّروا .

وأيضاً فلو قُدِّر أنهم لم يبدلوا شيئاً ، ففى إرساله من كمال النعم وفواضلها ، وعُلُوِّ الدرجات فى السعادة ، ما لم يكن حاصلا بالكتاب الأول .

فكان إرساله أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض من نَوْعَىِ النعيم .

ومن استقرأ أحوال العالم ، تبيَّن له أن الله لم ينعم على أهل الأرض نعمة

أعظم من إنعامه بإرساله صلى الله عليه وسلم ، و إن الذين ردوا رسالته ، هم ممن قال الله فيهم :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم ٢٨] .

ولهذا وصف بالشكر من قبل هذه النعمة فقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام ٥٣] وقال تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران ١٤٤]

الوجه السادس : — أن يقال قولهم : « إنا نعجب من هؤلاء القوم » إلى آخر الفصل ، قول جاهل ظالم يستحق أن يقال له : بل العجب من هذا العجب هو الواجب ، بل هو الذى لا ينقضى منه العجب ، وأن كل عاقل ليعجب ، ممن عرف دين محمد صلى الله عليه وسلم وقصده الحق ، ثم اتبع غيره ، و يعلم أنه لا يفعل ذلك إلا مفرط فى الجهل والضلال ، أو مفرط فى الظلم واتباع الهوى .

وذلك أن أهل الأرض نوعان ، أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، وغير أهل الكتاب كالمشركين من العرب والهند والترك وغيرهم ، وكالمجوس من الفرس وغيرهم ، وكالصابئة من المتفلسفة وغيرهم

وأهل الكتاب يسلمون لنا ، أن مَنْ سوى أهل الكتاب انتفع بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم منفعة ظاهرة ، وأنه دعا جميع طوائف المشركين والمجوس والصابئين إلى خير مما كانوا عليه ، بل كانوا من أحوج الناس إلى رسالته .

وأما أهل الكتاب ، فاليهود يسلمون لنا حاجة النصارى إليه ، وأنه دعاهم إلى خير مما كانوا عليه .

والنصارى تسلم لنا حاجة اليهود إليه ، وأنه دعاهم إلى خير مما كانوا عليه .

فما من طائفة من طوائف أهل الأرض إلا وهم مقرون بأن محمداً صلى الله عليه وسلم دعا سائر الطوائف وغيرهم ، إلى خير مما كانوا عليه .

وهذه شهادة من جميع أهل الأرض بأنه دعا أهل الأرض إلى خير مما كانوا عليه .

فإن شهادة جميع الطوائف مقبولة على غيرهم ، إذ كانوا غير متهمين عليهم ، فإنهم معادون لمحمد وأمته ومعادون لسائر الطوائف .

وأما شهادتهم لأنفسهم فغير مقبولة ، فإنهم خصومه ، وشهادة الخصم على خصمه غير مقبولة .

وقد اعترف الفلاسفة بأنه لم يقرع العالم ناموس أفضل من ناموسه ، واعترفوا بأنه أفضل من ناموس موسى والمسيح عليهما الصلاة والسلام ، بل لهم من الطعن فى نواميس غيره ، ما ليس هذا موضع ذكره .

بخلاف ناموس محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه لم يطعن فيه أحد منهم إلا من كان خارجا عن قانون الفلسفة التى توجب عندهم العدل والكلام بعلم .

فأما من التزم منهم الكلام بعلم وعدل ، فهم متفقون على أن ناموس محمد صلى الله عليه وسلم أفضل ناموس طرق العالم ، فكيف يتعجب من مثل هذا الناموس ؟!

الوجه السابع : — أن يقال لأهل الكتاب خصوصاً ، فيقال لليهود : أنتم أذل الأمم ، فلو قدر أن ما أنتم عليه دين الله الذى لم يبدل ، فهو مغلوب مقهور فى جميع الأرض ، فهل تعجبون من أن يبعث الله رسولا يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فيبعثه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، حتى يصير دين الله الذى بعث به رسله ، وأنزل به كتبه ، منصورا ظاهراً بالحجة والبيان والسيف والسنان ؟!

ويقال للنصارى : أنتم لم تخلصوا دين الله الذى بعث به رسله من دين

المشركين والمعطلين بل أخذتم من أصول المشركين المعطلين من الفلاسفة وغيرهم، ماأدخلتموه فى دينكم، وليس لكم على أكثر على الكفار، لاحجة علمية ، ولا يد قهرية ، بل للكفار فى قلوبكم من الرعب والخوف والتعظيم ، ما أنتم به من أضعف الأمم حجة ، وأضيقها محجة وأبعدها عن العلم والبيان وأعجزها عن إقامة الحجة والبرهان، تارة تخافون من الكفار الفلاسفة وغيرهم من المشركين والمعطلين ، فإما أن توافقوهم على أقوالهم وإما أن تخضعوا لهم متواضعين .

وتارة تخافون من سيوف المشركين ، فإما أن تتركوا بعض دينكم لأجلهم ، وإما أن تذلوا لهم خاضعين .

ففيكم من ضعف سلطان الحجة ، وضعف سلطان النصرة ، ما يظهر به حاجتكم إلى قيام الهدى ودين الحق الذى بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه .

فالعجب منكم ، كيف تعدلون عما فيه سعادتكم فى الدنيا والآخرة إلى ما فيه شقاؤكم فى الدنيا والآخرة ؟ ! هذا هو العجب ، ليس العجب ممن آمن بما فيه سعادة الدنيا والآخرة ، وفى خلافه شقاوة الدنيا والآخرة .

ومثل هذا لا يرد على المسلمين،فإنه لم يزل ولا يزال فيهم طائفة قائمة بالهدى ودين الحق ، ظاهرة بالحجة والبيان ، واليد واللسان ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين ، كما ثبت فى الصحاح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة » وفى لفظ « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرة حتى يأتى الله بأمره » .

<u>الوجه الثامن</u> : ــ أن يقال لأهل الكتاب ، لليهود : أنتم لما كنتم متبعين موسى عليه السلام ، كنتم على الهدى ودين الحق ، فكنتم منصورين ، ثم كثرت فيكم الأحداث التى تعرفونها ، كما قال تعالى لكم : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ

أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ * قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة الآيتان ٥٩ ، ٦٠] ، وقوله « وعبد الطاغوت » معطوف على قوله « لعنه الله » أى من لعنه الله وغضب عليه وعبد هو الطاغوت ، ليس داخلا فى خبر جعل ، حتى يلزم إشكال كما ظنه بعض الناس .

وأهل الكتاب معترفون ، بأن اليهود عبدوا الأصنام مرات ، وقتلوا الأنبياء .

وقال تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء الآيات ٤ ـ ٨] وهم معترفون بأن بيت المقدس خرب مرتين.

فالخراب الأول لما جاء « بُخْتَ نَصَّر » وسباهم إلى بابل ، وبقى خرابا سبعين سنة .

والخراب الثانى : بعد المسيح بنحو سبعين سنة .

وقد قيل: هذا تأويل قوله : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة ٧٨] .

فبعد الخراب الثانى ، تفرقوا فى الأرض ، ولم يبق لهم ملك .

وبين الخرابين ، كانوا تحت قهر الملوك الكفار .

وبعث المسيح عليه الصلاة والسلام ، وهم كذلك .

ويقال للنصارى : أنتم ما زلتم مقهورين مغلوبين مبددين فى الأرض ، حتى ظهر قسطنطين وأقام دين النصرانية بالسيف ، وقتل من خالفه من المشركين واليهود .

لكن أظهر ديناً مبدلا مغيرا ، ليس هو دين المسيح عليه السلام .

ومع هذا فكانت أرض العراق وفارس كفاراً من المجوس ، وغيرهم مجوساً ومشركين .

وكانوا فى بعض الأزمنة يقْهرون النصارى على بلادهم .

وأما أرض المشرق والمغرب ففيهما من أنواع المشركين ، أمم .

وكان الشرك والكفر ظاهراً فى أرض اليمن والحجاز والشام والعراق ،

فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، أظهر به توحيد الله وعبادته وحده لاشريك له،ظهوراً لم يعرف فى أمة من الأمم ، ولم يحصل مثله لنبيّ من الأنبياء، وأظهر به من تصديق الكتب والرسل والتوراة والإنجيل والزبور ، وموسى وعيسى، وداود وسليمان وغيرهم من الرسل، مالم يكن ظاهرا، لا عند أهل الكتاب ولا غيرهم ،

فأهل الكتاب ، وإن كانوا خيراً من غيرهم ، فلم يكونوا قائمين بما يجب من الإيمان بالله ورسله ولا باليوم الآخر ، ولا شرائع دينه ، ولا كانوا قاهرين لأكثر الكفار ، بل ولا كانوا منصورين عليهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ [التوبة ٢٩]

أما اليهود ففيهم من التنقص بالأنبياء وسبّهم ، وذكر عيوبٍ نزههم الله منها ، ما هو معروف .

حتى إن منهم من يقول : إن سليمان كان ساحراً ، وداود كان منجماً لم يكن نبياً ، إلى أمثال ذلك مما يطول وصفه .

ففيهم من الـكفر بالأنبياء ، من جنس ما كان في سلفهم الخبيث .

وأما النصارى ـ فَمَعَ غُلُوِّهم في المسيح وأتباعه ـ يستخفون بغيره ، فتارة يجعلون الحواريين ، مثل إبراهيم وموسى أو أفضل منهم ، وتارة يقولون كما قال اليهود : إن سليمان لم يكن نبياً ، بل سقط من النبوة ، وتارة يجعلون ما خاطب الله به داود وغيره من الأنبياء ، إنما أريد به المسيح .

مع أن اللفظ لا يدل على ذلك ، بل يتأولون كُتُبَ الله بمجرد هوى أنفسهم

وتارة يقولون : إن الواحد منهم إذا أطاع الله بما يزعمون أنه طاعة ، صار مثل واحد من الأنبياء وأفضل منه ، ووجب طاعته كما تجب طاعة الأنبياء ، ويسوغون لمثل هؤلاء أن يغيروا شرائع الأنبياء ، ويضعوا ديناً ابتدعوه .

ومحمد صلى الله عليه وسلم وأمته ، أقاموا توحيد الله الذى كان عليه إبراهيم وموسى وسائر الرسل ، وآمنوا بكل كتاب أنزله الله ، وكل رسول بعثه الله ، وأقاموا دين الرحمن إقامة لم يقِمْهَا أحد من الأمم .

فعامة أهل الأرض مع محمد ، إما مؤمن به باطناً وظاهراً ، وهم أولياء الله المتقون وحزبه المفلحون ، وجنده الغالبون .

وإما مسلمون له في الظاهر ، تقيةً وخوفاً من أمته ، وهم المنافقون ؛

وإما مسالمون له بالعهد والذمة والهدنة وهم أهل الذمة والهدنة في جميع الأرض ، وإما خائفون من أمته .

وحيث كان الواحد والطائفة من أمته متمسكا بدينه ، كان نوره ظاهراً ، وبرهانه قاهراً معظماً منصوراً ، يعرف فضله على كل من سواه

وهذا أمر يعرفه الناس في أرض الـكفار من المشركين وأهل الـكتاب لما خص الله به محمداً وأمته من الهدى ودين الحق .

وقد أظهروا دين الرب في مشارق الأرض ومغاربها ، بالقول والعمل .

فهل يقول عاقل ممن عنده علم وعدل : إنه لا فائدة في إرسال محمد وإنه

يستغنى بما عند أهل الكتاب عن رسالته ؟! :

الوجه التاسع : ــ أن يقال : هم معترفون بانتفاع المشركين به غاية الانتفاع، فإنه أقام توحيد الله ودينه فيهم ، وإنه عظَّم المسيح، وردَّ على اليهود قولهم فيه وأهانهم ، وحينئذ فهذا من أعظم الفوائد وأجل المقاصد وأعظم نعم الله على عباده .

ثم هو ــ مع ذلك ــ قال : إن الله أرسله وأمره بذلك .

فإن كان كاذباً ، فالكذاب المفترى على الله من شرّ الكفار ، ومن يكون كذلك لايحصل منه هذا الخير العظيم الذى ماحصل مثله من أحد من الأنبياء ، فإنه أزال دين المشركين ، ودين المجوس ، وقمع اليهود .

وكل واحدة من هذه الثلاث لم يقدر عليه أحد قبله من الأنبياء والمرسلين .

وإن كان صادقاً ، فهو قد أخبر أنه رسول الله إلى النصارى وغيرهم من الأمم ، وأخبر عن الله بكفر كل من لم يؤمن به ، وهذا الوجه مما يخاطب به كل صنف .

فيقال لكل صنف من الأمم : أنتم معترفون بأن من سواكم إذا اتبعوا دين محمد كان خيراً لهم مما هم عليه .

فاليهود معترفة ، بأن النصارى إذا اتبعوه كان خيراً لهم من دين النصارى .

والنصارى معترفون بأن اليهود إذا اتبعوه كان خيراً لهم من دين اليهود

وأهل الكتاب ، اليهود والنصارى ، معترفون بأن من سواهم إذا اتبعوا كان خيراً لهم مما هم عليه .

فالمجوس والمشركون من العرب ، والسودان والترك وأصناف الخزر والصقالبة ، إذا اتبعوه كان خيراً لهم مما هم عليه .

وسائر أصناف الكفار معترفون بأن اتِّباعه خير من غيره .

ومن ليس من أهل الكتاب ، عامتهم ، معترفون بأن دين المسلمين خير من اليهود والنصارى .

وحينئذ فيقال : من جاء بهذا الدين الذى يفضله جميع أهل الأرض على غيره ، يمتنع أن يكون من أكفر الناس وأحقهم بغضب الله وعقابه .

وكل من قال : إنه رسول الله ، فإن كان صادقاً ، كان من خير أهل الأرض وأحقهم برضوان الله وثوابه .

وإن كان كاذباً ، كان من شر أهل الأرض وأحقهم بغضب الله وعقابه .

ومن حصل منه هذا الخير والعلم والهدى وما فيه صلاح الدنيا والآخرة أعظم مما حصل من جميع الخلق . يمتنع أن يكون من أكفر الناس المستحقين لغضب الله وعقابه ، فوجب أن يكون من خير أهل الأرض ، بل هو خير أهل الأرض وأحقهم برضوان الله وثوابه .

الوجه العاشر : ـ إن الله سبحانه وتعالى كانت سنته قبل إنزال التوراة ، إذا كُذِّب نبي من الأنبياء أن ينتقم له من أعدائه بعذاب من عنده ، كما أهلك قوم نوح بالغرق ، وقوم هود بالريح الصرصر ، وقوم صالح بالصيحة ، وقوم شعيب بالظلة ، وقوم لوط بالحاصب ، وقوم فرعون بالغرق ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنَ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْاولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص ٤٣] فلما أنزل التوراة ، أمر أهل الكتاب بالجهاد ، فمنهم من نكل ، ومنهم من أطاع .

وصار المقصود بالرسالة لا يحصل إلا بالعلم والقدرة كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ﴾ [الفتح ٢٨] .

فقول هؤلاء : إن التوراة جاءت بالعدل ، والإنجيل بالفضل ، فلا حاجة إلى غيرهما لو قُدِّر أنه حق ، إنما يستقيم إذا كان الكتابان لم يُبَدَّلا بل كانا

متبعين علماً وعملا ، وكان أهلهما مع ذلك منصورين مؤيدين على من خالفهم ، فكيف وكل منهما قد بُدِّلَ كثير مما فيه ، وأهلهما غير منصورين على الكفار ؟! بل الكفار ظاهرون عليهم فى أكثر الأرض ، كأرض اليمن والحجاز ، وسائر جزيرة العرب وأرض العراق وخراسان والمغرب ، وأرض الهند والسند والترك .

وكان بأيدى أهل الكتاب الشام ومصر وغير ذلك ، ومع هذا ، فكانت الفرس قد غلبتهم على ذلك .

ثم إن الله أظهر النصارى عليهم ، فكان ظهورهم توطئة وتمهيداً لإظهار دين الإسلام .

فإن الفرس المجوس ، لما غلبوا الروم ، ساء ذلك النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به ، وفرح بذلك مشركوا العرب ، وكانوا أكثر من المؤمنين ، لأن أهل الكتاب أقرب إلى المؤمنين من المجوس ، والمجوس أقرب إلى المشركين منهم إلى أهل الكتاب، ووعد الله المؤمنين أن تَغْلِبَ الروم بعد ذلك، وأنه يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

فأضاف النصرة إلى اسم الله الذى هو الفاعل ، ولم يقل بنصر الله إياهم ، وذلك أنه حين ظهرت الروم على فارس ، كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد ظهروا على المشركين واليهود .

وأرسل النبى صلى الله عليه وسلم إذ ذاك يدعو ملوك النصارى بالشام ومصر إلى الإيمان به فعرفوه وعرفوا أنه النبى المبشر به وكان ذلك أول ظهور دينه .

ثم أرسل طائفة من أصحابه إلى « مؤتة » ثم خرج بالمسلمين معه عام تبوك إلى الشام ، ثم فتح هذه البلاد أصحابه فكان تأييد دين الله وظهوره و إذلال المشركين والمجوس وغيرهم من الكفار ، على يديه و يدى أمته ، لا على يد اليهود والنصارى .

فلو قُدِّرَ أن شرع أولئك كامل لا تبديل فيه ، لكان مغلوبا مقهورا ،

وكان الله قد أرسل من يؤيد دينه ويظهره ، فكيف وهو مبدّل ؟!

ولو لم يبدل فدين أحمد أكمل وأفضل منه ، فذاك مفضول مبدل ، وهذا فاضل لم يبدل ، وذاك مغلوب مقهور ، وهذا مؤيد منصور ، وببعض هذا تحصل الفائدة فى إرساله ؟! .

فكان من أجل الفوائد إرسال محمد صلى الله عليه وسلم . فكيف يقال : إنه لا فائدة فى إرساله .

الوجه الحادى عشر : ـ قولهم : « لما كان البارى عدلا جواداً أوجب أن يظهر عدله وجوده » .

فيقال لهم : جود الجواد غير إلزام الناس بترك حقوقهم ، فإن الجواد هو الذى يحسن إلى الناس ، ليس هو الذى يلزم الناس بترك حقوقهم .

وهؤلاء يزعمون أن شريعة الإنجيل ألزمت الناس بترك حقوقهم ، وأنه لا ينصف مظلوم من ظالمه ، ولهذا ليس عندهم حكم عدل يحكمون به بين الناس ، بل الحكم عندهم حكمان .

حكم الكنيسة ، وليس فيه إنصاف المظلوم من الظالم .

والثانى حكم الملوك ، وليس هو شرعا منزلا ، بل هو بحسب آراء الملوك .

ولهذا تجدهم يردون الناس إلى حكم شرع الإسلام فى الدماء والأموال ونحو ذلك ، حتى فى بعض بلادهم يكون الملك والعسكر وأكثر أهل البلد نصارى ، وفيهم طائفة قليلة مسلمون لهم حاكم ، فيردون الناس فى الدماء والأموال إلى حكم شرع المسلمين .

وذلك أن الدماء والأموال وإن كان يستحب للمظلوم أن يعفو فيها عن ظالمه ، فالحاكم الذى يحكم بين الناس متى حكم على المظلوم بترك حقه ، كان حاكما بالظلم لا بالعدل .

ولو أمرنا كل وَلِيِّ مقتول أن لا يقتص من القاتل ، وكلّ صاحب دَيْنٍ أن لا يطالب غريمه بل يَدَعُهُ على اختياره ، وكل مشتوم ومضروب أن لا ينتصف من ظالمه لم يكن للظالمين زاجر يزجرهم وظلم الأقوياء الضعفاء وفسدت الأرض ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ .

فلا بد من شرع يتضمن الحكم بالعدل ، ولا بد ـ مع ذلك ـ من نَدْبِ الناس إلى العفو والأخذ بالفضل .

وهذه شريعة الإسلام كما تقدم ما ذكرناه من الآيات ، مثل قوله : ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ [المائدة ٤٥] وقوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة ٢٨٠] وقوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى ٤٠] وقوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل ١٢٦] وقوله : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران ١٣٤] وقوله : ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى الآيتان ٤١ ، ٤٢]وقوله : ﴿ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ﴾ [النساء ٩٢] وقوله : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى ٤٣] .

وقال أنس : ما رُفِعَ للنبي صلى الله عليه وسلم أمر شيء فيه القصاص ، إلا أمر فيه بالعفو ، فكان يأمر بالعفو ، ولا يلزم الناس به .

ولهذا لما عتقت بريرة جارية عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لها أن تفسخ النكاح ، وطلب زوجها أن لا تفارقه ، فشفع إليها أن لا تفارقه ،

فقالت : أتأمرنى ؟ قال: لا، إنما أنا شافع ، فلم يوجب عليها قبول شفاعته صلى الله عليه وسلم .

الوجه الثانى عشر : ـ قولهم : « ولما كان الكمال الذى هو الفضل ، لا يمكن أن يضمه إلا أكمل الكمال »

فيقال لهم : العدل والفضل ، لا يشرعه إلا الله ، فشريعة التوراة لم يشرعها إلا الله ، وشريعة الإنجيل لم يشرعها إلا الله عز وجل .

يبيّن ذلك أن الله كلم موسى من الشجرة تكليما ، وهم غاية ما قرروا به إلهية المسيح أن زعموا أن الله كلم الناس من ناسوت المسيح ، كما كلم موسى من الشجرة .

ومعلوم عند كل عاقل ، لو كان هذا حقاً أن تكليمه لموسى من الشجرة أعظم تكليم كلمه الله لعباده ، فكيف يقال : إن شريعة العدل لم يشرعها الله عز وجل ؟

ثم يقال لهم : بل شريعة العدل أحق بأن تضاف إلى الله ، من شريعة الفضل ، فإن الأمر بالإحسان والعفو ، يحسنه كل واحد .

وأما شريعة العدل والحكم بين الناس به ، فلا يقدر عليه إلا آحاد الناس .

ولهذا يوجد من الذين يصلحون بين الناس بالإحسان خلق كثير .

وأما الذى يحسن أن يفصل بينهم بالعدل ، فناس قليل .

فكيف يقال : إن الذى يأمر بشرع الفضل هو الله ، دون الذى يأمر بشرع العدل ؟ !

والله تعالى أرسل الرسل ، وأنزل الكتب . ليقوم الناس بالقسط ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد ٢٥]

وأمر المسيح عليه السلام المظلوم بالعفو عن الظالم ، ليس فيه ما يدل على أنه من الواجب الذى من تركه استحق الذم والعقاب ، بل هو من المرغَّب فيه ، الذى من فعله استحق المدح والثواب .

وموسى عليه السلام أوجب العدل الذى من تركه استحق الذم والعقاب .

وحينئذ فلا منافاة بين إيجاب العدل ، و بين استحباب الفضل .

لكن إيجاب العدل يقترن به الترهيب والتخويف فى تركه ، واستحباب الفضل يقترن به الترغيب والتشويق إلى فعله .

فذاك فيه رهبة مع ما فيه من الرغبة .

وهذا فيه رغبة بلا رهبة ، ولهذا قال المسيح عليه السلام : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة الآيتان ١١٧ ، ١١٨] ولهذا قيل : إن المسيح عليه السلام بُعث لتكميل التوراة ، فإن النوافل تكون بعد الفرائض كما فى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى : « من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرب إلىَّ عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، و بصره الذى يبصر به ، و يده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها، فبى يسمع، و بى يبصر، و بى يبطش، و بى يمشى، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ، ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ، ولا بد له منه .

و إلا فلو قيل : إن المسيح عليه السلام أوجب على المظلوم العفو عن الظالم ، بمعنى أنه مستحق للوعيد ، وللذم وللعقاب إن لم يعف عنه ، لزم من هذا أن يكون كل من انتصف من الظالم ظالماً مستحقاً للذم والعقاب ، وهذا ظلم ثان

للمظلوم الذى انتصف ، فإن الظالم ظلمه أولا ، فلما انتصف منه ظلم ظلماً ثانياً ، فهو ظلم لعادل انتصف من ظالمه .

وما أحسن كلام الله حيث يقول : ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى الآيات ٣٦ ، ٤٣] وقال : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [الحج ٦٠] .

فهذا من أحسن الكلام وأعدله وأفضله ، حيث يشرع العدل فقال : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » ثم ندب إلى الفضل فقال : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين » .

ولما ندب إلى العفو ، ذكر أنه لا لَوْمَ على المنتصف ، لئلا يظن أن العفو فرض فقال : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » .

ثم بين أن السبيل إنما يكون على الظالمين فقال : « إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم » .

ثم لما رفع عنهم السبيل ، ندبهم مع ذلك إلى الصبر والعفو ، فقال : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » .

فهذا أحسن شرع وأجله ، يرغب فى الصبر والعفو والإصلاح بغاية الترغيب ،

ويذكر ما فيه من الفضائل والمحاسن وحميد العاقبة ، ويرفع عن المنتصف ممن ظلمه الملام والعدل ، ويبين أنه لا حرج عليه ولا سبيل إذا انتصر بعد ما ظلم .

فهل يمكن أن تأتى شريعة تجعل على المنتصف سبيلاً مع عدله ، وهى لاتجعل على الظالم سبيلا مع ظلمه ؟!

فعلم أن ما أمر به المسيح من العفو ، لم يكن لأن تاركه مستحق للذم والعقاب ، بل لأنه محروم مما يحصل للعافى المحسن من الأجر والثواب ، وهذا حق لا يناقض شرع التوراة .

فعلم أن شرع الإنجيل ، لم يناقض شرع التوراة ، إذ كان فرعا عليها ، ومكملا لها .

وحينئذ ، فزعمهم أن شرع الإنجيل شرعه الله ، دون شرع التوراة ، كلام مَنْ هو مِنْ أجهل الناس وأضلهم ، ولهذا كان هذا فرعا على قولهم بالاتحاد ، وأن المسيح هو الله .

فذاك الضلال ، أوجب هذا القول المحال .

فصـــــل

وجميع ما احتجوا به من التوراة والإنجيل وغيرهما من كلام الأنبياء عليهم السلام ، إنما تكون الحجة فيه علمية برهانية ، إذا أقاموا الدليل على نبوة من احتجوا بكلامه ، بأن يبنوا إمكان النبوة ، ثم تبينوا وقوعها فى الشخص المعين بالطرق التى يستدل بها على نبوة النبى .

وهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك ، بل احتجوا بذلك ، على أنها مقدمة مسلمة يسلمها المسلمون لهم ، وهذا لا ينفعهم لوجوه .

أحدها : ـ أن فيمن ذكروه ، من لم يثبت عند المسلمين أنه نبى ، كيخا ، وهاموص .

الثانى : ـ أن من ثبت عند المسلمين نبوته ، كموسى ، وعيسى ، وداود

وسليمان ، لم يثبت عندهم أنهم قالوا جميع ما ذكروه من الكلام ، وأن ترجمته بالعربية هو ما ذكروه ، وأن مرادهم به ما فسروه .

الثالث : ـ أن جمهور المسلمين لا يعلمون نبوة أحد من الأنبياء قبل محمد إلا بإخبار محمد صلى الله عليه وسلم بنبوتهم ، فلا يمكنهم التصديق بنبوة أحد من هؤلاء ، إلا بعد التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

فإذا طلب هؤلاء من المسلمين أن يسلموا نبوة هؤلاء ، دون نبوة محمد ، لم يمكن المسلمون أن يسلموا ذلك لهم ، ولا يسوغ ذلك للمسلمين ، لا عقلا ولا نقلا .

وحينئذ فإذا لم يقيموا الأدلة على نبوة أولئك ، لم يكونوا قد ذكروا ، لا حجة برهانية ، ولا حجة جدلية .

الرابع : ـ أن المسلمين لم يصدقوا بنبوة موسى وعيسى ، إلا مع إخبارهما بنبوة محمد .

فإن سلموا أنهما أخبرا بنبوة محمد ، ثبتت نبوته ونبوتهما .

وإن جحدوا ذلك ، جحد المسلمون نبوة من يدّعون أنه موسى وعيسى الذين لم يخبرا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

الخامس : ـ أن المسلمين وكل عاقل ، يمتنع ـ بعد النظر التام ـ أن يقر بنبوة موسى وعيسى دون محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ كانت نبوته أكمل ، وطرق معرفتها أتم وأكثر .

وما من دليل يستدل به على نبوة غيره إلا وهو على نبوته أدل ، فإن جحد نبوته ، يستلزم جحد نبوة غيره بطريق الأولى .

ولكن من قال ذلك ، هو متناقض كما تتناقض سائر أهل الباطل .

ولهذا قال تعالى فى الكفار : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات الآيتان ٨ ، ٩] .

فصـــــل

قد ذكرنا فى جواب أول كتابهم ، بيان امتناع احتجاجهم بشىء من كلام محمد صلى الله عليه وسلم أو غيره من الأنبياء عليهم السلام ، على ما يخالف دين المسلمين من دينهم :

ونحن نبسط هذا هنا فنقول : لا ريب أن الباطل لا يقوم عليه دليل صحيح ، لا عقلى ولا شرعى ، سواء كان من الخبريات أو الطلبيات ، فإن الدليل الصحيح يستلزم صحة المدلول عليه .

فلو قام على الباطل دليل صحيح ، لزم أن يكون حقاً مع كونه باطلا ، وذلك جمع بين النقيضين ، مثل كون الشىء موجوداً معدوماً .

وأهل الكتاب معهم حق فى الخبريات والطلبيات ، ومعهم باطل ، وهو ما بدّلوه فى الخبريات ، سواء كان المبدل هو اللفظ أو معناه ، وما ابتدعوه ، أو ما نسخ من العمليات .

والمنسوخ الذى تنوعت فيه الشرائع قليل بالنسبة إلى ما اتفقت عليه الكتب والرسل .

فإن الذى اتفقت عليه ، هو الذى لا بد للخلق منه فى كل زمان ومكان ، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر ، والعمل الصالح ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائدة ٦٩] .

وعامة السور المكية ، كالأنعام والأعراف وال ، حم ، وال ، طس ، وال آلر هى من الأصول الكلية التى اتفقت عليها شرائع المرسلين ، كالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، والصدق والعدل والإخلاص ، وتحريم الظلم والفواحش ، والشرك والقول على الله بلا علم ، وعامة ما عندهم من النقول الصحيحة عن الأنبياء ، من التوراة والإنجيل ، والزبور ، ونبوات الأنبياء ، توافق المنقول عن محمد صلى الله

عليه وسلم ، يشهد هذا لهذا ، وهذا لهذا ، وذلك من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن دلائل نبوة أولئك الأنبياء .

ولهذا يذكر الله ذلك بياناً لإنعامه على محمد ودلالة لنبوته ، كقوله تعالى لما ذكر قصة مريم - : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ * ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران الآيات ٤٢ - ٤٤] وقال تعالى - لما قص قصة نوح - : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود ٤٩] فذكر آلاءه ونعمته وآيته ، بكونه لم يكن يعلمها هو ، ولا قومه أيضاً كانوا يعلمونها ، لئلا يظن أنه تعلم ذلك من قومه ، فإن قومه لم يكونوا يعلمون ذلك .

وقد علم بالنقل المتواتر أن محمداً صلى الله عليه وسلم ولد بمكة ، وبها نشأ بعد أن كان مسترضعاً في بادية سعد بن بكر ، قريباً من الطائف ، شرقي مكة ، وهو صغير ، ثم حملته مرضعته حليمة السعدية إلى أمه بمكة ، ولا يعلم شيئاً من ذلك ، ولا هناك من يتعلم منه شيء من ذلك .

وأهل مكة يعلمون حاله ، وأنه لم يتعلم ذلك من أحد ثم أخبرهم بالغيب الذي لا يعلمه أحد إلا بتعليم الله له .

فكان هذا من أعلام رسالته ، ودلائل نبوته عليهم ، أولا ، وعلى غيرهم آخراً ، فإنهم كانوا مشاهدين له ، يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من أحد .

وغيرهم يعلم ذلك بالأخبار المتواترة ، ويعلم أن قومه المكذبين له - مع حرصهم على الطعن فيه ، ومع علمهم بحاله - لو كان قد تعلم من أهل الكتاب ، لقالوا : هذا قد تعلمه منهم . قال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ

وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس ١٦] .

والمقصود أنه نفى علم قومه بما أخبره فيه ، بيانا لآلاء الله التي هي آياته ونعمه ، فإن ذلك يدل على أنه لم يتعلم ذلك من قومه ، وفيه إنعام الله على الخلق بذلك .

وقال تعالى ـ لما ذكر قصة يوسف ـ : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف ١٠٢]
وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ [القصص الآيات ٤٣ ، ٤٦] .

فنفى سبحانه شهوده لهذه الأمور الغائبة وحضوره لها ، تنبيهاً للناس على أنه أخبر بالغيب الذى لم يشهده ولم يعرفه ، من جهة أخبار الناس ، فإن قومه لم يكونوا يعلمون ذلك ، ولا عاشر غير قومه .

وكل من عرف حاله ، يعلم أنه لم يتعلم شيئاً من ذلك ، لا من أهل الكتاب ولا ممن نقل عن أهل الكتاب .

فإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم أخبر بمثل ما أخبرت به الأنبياء قبله ، فى باب أسماء الله ، وصفاته ، وتوحيده ، وملائكته وأوليائه وأعدائه ، مع العلم بأن فى هذه الأمور من التفاصيل الكثيرة ، ما يمتنع اتفاق اثنين عليه ، إلا عن مواطأة بينهما .

ومحمد وموسى صلوات الله عليهما وسلامه ، لم يتواطئا ، بل لم يواطئ محمد

صلى الله عليه وسلم أحداً من الرسل قبله ، ولا واطئوه .

والخبر الكذب إما أن يتعمد صاحبه الكذب فيه ، وإما أن يغلط .

فالكاذبان المتعمدان للكذب ، لا يتفقان فى القصص الطويلة والتفاصيل العظيمة .

وكذلك الغالطان لا يتفق غلطهما فى مثل ذلك .

بل الاثنان من آحاد الناس ، إذا أخبر كل منهما عن حال بلدة رآها وأخبر الآخر بمثل خبره من غير مواطأة ، عرف صدقهما ، فكيف بالأمور الغائبة ، التى لا يمكن العلم بها إلا من جهة الله تعالى ؟ فهذا من دلائل نبوة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

وأما القدر الذى يخالف ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم مما ينقلونه عن الأنبياء ، فهو نوعان :

أحدهما : ــ ما وقع فيه النسخ من الشرائع ، وهذا لا يمنعه ، لكن المنسوخ مثل هذا بالنسبة إلى ما لم ينسخ من الكتاب ، نظير المنسوخ من القرآن والأحاديث النبوية ، فإنه قليل جداً بالنسبة إلى مالم ينسخ ، وكذلك عامة ما أمر به موسى وداود والمسيح وغيرهم من الأنبياء ، إذا اعتبر بما أمر به محمد صلى الله عليه وسلم ، وجد عامة ذلك متفقاً لم ينسخ منه إلا القليل .

والثانى : ــ الخبريات ، وهذه قد ادعى بعض أهل الكتاب أن محمداً خالف بعض ما أخبرت به الأنبياء قبله ، وهذا باطل ، فإن أخبار الأنبياء لا يجوز أن تتناقض ، إذ هم ــ كلهم ــ صادقون مصدقون .

فإن علم أن محمداً رسول الله وأن موسى رسول الله، وأن المسيح رسول الله علم أن أخبارهم لا تتناقض .

لكن قد يخبر هذا بما لم يخبر هذا ، فيكون فى أخبار أحدهم زيادات على أخبار غيره ، لا ما يناقض خبر غيره .

وما يذكره أهل الكتاب مما يناقض خبر محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو — عامته — مما حرفوا معناه وتأويله ، وقليل منه حرف لفظه .

وأهل الكتاب — اليهود والنصارى — مع المسلمون متفقون على أن الكتب المتقدمة وقع التحريف بها، إما عمداً ، وإما خطأ في ترجمتها وفي تفسيرها وشرحها وتأويلها .

وإنما تنازع الناس : هل وقع التحريف في بعض ألفاظها ؟ فكل ما يدعى مدع أن محمداً صلى الله عليه وسلم ناقضه فلا بد له من أن يثبت مقدمتين ، إحداهما ثبوت ذلك اللفظ عن ذلك النبي ، والثانى ثبوت معناه .

وكل من احتج بنقل عن نبي ، فلا بد له من هاتين المقدمتين ، الإسناد والمتن ، فلا بد له من ثبوت اللفظ ، ولا بد له من ثبوت معنى اللفظ .

وإذا كان النقل ليس بلغة النبي ، بل بلغة أخرى ، فلا بد من الترجمة الصحيحة ، وعامة النصارى ، ليس عندهم كتب الأنبياء بلغة الأنبياء .

فإن موسى والمسيح ومن بينهما من أنبياء بنى إسرائيل ، إنما كانوا يتكلمون باللغة العبرانية .

والمسيح كان عبرانياً ، لم يتكلم بغير العبرانية ، وإنما تكلم بغيرها ، كالسريانية واليونانية والرومية ، بعض من اتبعه .

وجمهور النصارى لا يعرفون بالعبرانية ، فلا يحسنون أن يقرءوا بالعبرانية لاتوراة ولا إنجيلا ، ولا غير ذلك ، وإنما يتكلمون بذلك ، باللغة الرومية ، أو السريانية ، أو غيرها ، وإن كان فيهم قليل ممن يتكلم بالعبرانية .

بخلاف اليهود ، فإن العبرانية فاشية فيهم .

وحينئذ فمن احتج من أهل الكتاب بشيء من كلام الأنبياء المنقولة بالرومية والسريانية ، أو بالعبرانية ، فإنه يحتاج مع إثبات النقل إلى إثبات الترجمة وصحتها فإنهم كثيراً ما يضطربون في الترجمة ويختلفون في معناها .

فهذه مقدمات ثلاث ، لا بد لهم منها فى كل ما يحتاجون من كلام الأنبياء ، ولو لم يدّعوا أنه معارض لما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم

فكيف إذا ادّعوا مناقضته لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ؟ !

فإن قدر أنه ثبت أن نبياً أخبر بشيء ، امتنع قطعاً أن يخبر محمد بنقيضه .

فإن فيما نقل عن محمد صلى الله عليه وسلم أيضاً ما ليس بثابت لفظه ، مثل بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، وفيما ثبت لفظه ما ليس معناه صريحاً فى المناقضة ، بل لا يدل على ذلك .

فكم ممن يفسر القرآن بما لا يدل عليه لفظ القرآن ، بل ولا قاله أحد من الصحابة ولا التابعين .

كمن يقول . إن شعيباً النبي كان هو حما موسى . وليس فى القرآن والسنة وكلام الصحابة إلا ما يدل على نقيض ذلك .

وكمن يقول : إن الرسل الذين أرسلوا إلى القرية كانوا من أتباع المسيح . وليس فى القرآن والمنقول عن الصحابة إلا ما يدل على نقيض ذلك .

وأما ما علم أن محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر به ، فقد قامت الأدلة القاطعة اليقينية على صدقه وصدق ما أخبر به ، أعظم مما قامت على صدق غيره وصدق ما جاء به ، فمهما عارض ذلك علم أنه كذب على الأنبياء .

ولا يمكن أحداً من الخلق أن يذكر دليلا قطعياً على صحة ذلك النقل ، بل غايتهم أن يذكروا طريقاً ظنياً لا يفيدهم إلا الظن ، والظن لا يعارض اليقين .

فما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يمكن صاحب النظر والاستدلال أن يعلمه علماً يقيناً ، لا يرتاب فيه .

وما يناقضه لا سبيل لأحد إلى العلم به ، ولا يتصور أن يقوم بقلبه منه إلا الظن والتقليد ، وكلاهما لا يناقضان العلم فهذا أصل جامع ، ثم العارف يعبر عنه

مع كل إنسان بحسب ما يوصل معناه إلى ذلك المخاطب .

والمقصود هنا أن يقال : كل ما يحتجون به على مخالفة ما ثبت عن محمد صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يقوم لهم عليه دليل ، لا شرعى ولا عقلى ، وهذا نعلمه مجملا .

ونحن نبين ذلك مفصلا فنقول : ما يحتجون به إما أن يكون حجة عقلية ، وإما أن يكون سمعية .

أما العقليات ، فمعلوم أن الحجج العقلية الدالة على فساد ما تقوله النصارى ، أظهر مما يحتجون به على صحة دينهم .

ومن احتج منهم ، أو من اليهود بحجة عقلية على مخالفة شيء من دينه فلها أجوبة .

أحدها : أن يبين أن ذلك يلزم غيره من الأنبياء ، فإنهم جاءوا بذلك أو بأعظم منه .

فلا يقدح أحد بحجة عقلية فى محمد صلى الله عليه وسلم ، إلا كان ذلك قد جاء بطريق الأولى فى غيره من الأنبياء ، كما بينا فى الرد على الرافضة ، أنه لا يقدح أحد فى الخلفاء الثلاثة ، أبى بكر ، وعمر ، وعثمان إلا أمكن أن يقدح بمثل ذلك وبأعظم منه فى عَلِيّ ، فيمتنع أن يكون عليٌّ سالما من القوادح فى إمامته إلا والثلاثة أسلم منه ، مما يقدح فى إمامتهم

ويمتنع أن يكون موسى وعيسى وداود برآء ، مما يقدح فى نبوتهم إلا ومحمد أبرأ مما يقدح فى نبوته .

وهذا كما إذا احتج محتج بما فى القرآن ، من آيات الصفات ، فيقال له : فى التوراة وغيرها من كتب الأنبياء ، مثل ذلك وأعظم .

وإذا احتج بإنزال المتشابهات ،فيقال له:فى الكتب المتقدمة من المتشابهات أعظم مما فى القرآن .

وهل ضلّت النصارى إلا باتباع المتشابهات من كلام الأنبياء وترك المحكم؟.

والثانى : — أن يبين أن مثل تلك الحجة لا تصلح أن يعارض بها ما جاءت به الأنبياء ، كما إذا أخذ بعض الناس يطعن فى شىء من الشرائع بالرأى ، بُيِّنَ له أن ما ثبت عن الأنبياء ، لا يعارض برأى ولا قياس .

الثالث : — أن يبين فساد تلك الحجة العقلية .

إن كانت من باب الخبريات بُيِّن فسادها كما قد بسطنا القول فى ذلك فى كتاب « رد تعارض العقل والشرع » وذكرنا أن جميع ما يحتج به على خلاف نصوص الأنبياء من العقليات ، فإنه باطل فذكرنا ما يعتمد عليه النفاة فى هذا الباب .

وإن كان من باب الطلبيات ، فهى من باب الأمر والنهى .

فمن كان من مذهبه أنه لا يعلل أحكام الله ، ولا يقول بأن حسن الأفعال وقبحها يعلم بالعقل ، ولا ينزه الله عن فعل ، ولا عن حكم ، بل يجوز عليه كل شىء ، وإنما ينفى ذلك بالخبر السمعى أو العادة ، فهذا يجيب بهذا الجواب ، لكن عامة القلوب والعقول لا تقبل هذا .

وأما على قول الجمهور ، فيبين ما فى مأموراته من الحِكَم والمصالح ، وما فى منهياته من المفاسد والضرر ، ويبين رجحان ماجاء فيه على مايعارض به ، بل ويبين رجحان شرائع الأنبياء على سياسات سائر الأمم ، ويبين رجحان شريعة محمد صلى الله عليه وسلم وسائر الشرائع ، وهذا مبسوط فى مواضع .

وأما إذا احتج أهل الكتاب فى مناقضة محمد صلى الله عليه وسلم بحجة سمعية سواء كانت من كلامه ، أو كلام غيره من الأنبياء عليهم السلام ، كان الجواب من وجوه .

أحدها : — أن يقال لهم : لا يمكنكم أن تصدقوا بنبوة نبى من الأنبياء مع

التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فإنكم لا يمكنكم أن تحتجوا بكلام أحد من الأنبياء حتى تثبت نبوته .

والطريق التي بها تثبت نبوة الأنبياء ، تثبت نبوة محمد بمثلها و بأعظم منها .

بل نحن نبين أن التصديق بنبوته ، أولى من التصديق بنبوة غيره ، لأن كل ما يستدل به على نبوة نبي ، فمحمد صلى الله عليه وسلم أحق بجنس ذلك الدليل من غيره ، وما يعارض به نبوة نبي ، فالجواب عن محمد صلى الله عليه وسلم أولى من الجواب عن غيره .

فهو مقدم فيما يدل على النبوة ، وفيما يجاب به عن المعارضة ، وهو أكمل فى ذلك . فيمتنع مع العلم والعدل أن يصدق بنبوة غيره ، مع التكذيب بنبوته ، كما يمتنع مع العلم والعدل فى كل اثنين ، أحدهما أكمل من الآخر فى فن ، أن يقر بمعرفة ذلك الفن للمفضول دون الفاضل .

وقولنا مع العلم والعدل ، لأن العالم يفضل المفضول مع علمه بأنه مفضول .

والجاهل قد يعرف المفضول ولا يعرف الفاضل .

فإن كثيراً من الناس يعلمون فضيلة متبوعهم إما فى العلم أو العبادة ، ولا يعرفون أخبار غيره حتى يوجد أقوام يعظمون بعض الأتباع دون متبوعه الذى هو أفضل منه عند التابع وغيره لا يعرفونه ، فهؤلاء ليس عندهم علم ، ولهذا تجد كثيراً من هؤلاء يرجح المفضول ، لعدم العلم بأخبار الفاضل .

وهذا موجود فى جميع الأصناف ، حتى فى المدائن ، يفضل الإنسان مدينة يعرفها على مدينة هى أكمل منها ، لكونه لا يعرفها .

والحكم بين الشيئين بالتماثل أو التفاضل ، يستدعى معرفة كل منهما ، ومعرفة ما اتصف به من الصفات التى تستدعى التماثل والتفاضل .

كمن يريد أن يعرف أن البخارى أعلم من مسلم ، وكتابه أصح ، أو أن سيبويه أعلم من الأخفش ونحو ذلك .

وقد فضل الله بعض النبيين على بعض كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ .

والكلام فى شيئين ، أحدهما ، فى كون المفضول يستحق تلك المنزلة دون الفاضل ، وهذا غاية الجهل والظلم .

كقول الرافضة الذين يقولون : إن علياً كان إماماً عالماً عادلا ، والثلاثة لم يكونوا كذلك .

وكذلك اليهود والنصارى الذين يقولون : إن موسى كان رسولا ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن كذلك ، فإن هذا فى غاية الجهل والظلم .

بخلاف من اعترف باستحقاق الاثنين للمنزلة ، ولكن فضل المفضول ، فهذا أقل جهلا وظلماً .

ومعلوم أن المرسلين يتفاضلون ، تارة فى الكتب المنزلة عليهم ، وتارة فى الآيات والمعجزات الدالة على صدقهم ، وتارة فى الشرائع وما جاءوا به من العلم والعمل ، وتارة فى أممهم .

فمن عنده علم وعدل ، فينظر فى القرآن وفى غيره من الكتب ، كالتوراة ، والإنجيل ، أو فى معجزات محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعجزات غيره ، أو فى شريعته ، وشريعة غيره ، أو فى أمته وأمة غيره ، وجد من التفضيل على غيره مالا يخفى إلا على مفرط فى الجهل أو الظلم .

وكيف يمكن مع هذا أن يقال هو كاذب مفتر ، وغيره هو النبى الصادق ؟!

نعم كثير من أهل الكتاب لم يعرفوا من أخباره ما يبين لهم ذلك ، كما أن كثيراً من الرافضة لم يعرفوا من أخبار الثلاثة ما يبين لهم فضيلتهم على علىّ رضى الله عنه .

فهؤلاء فى الجهل . وطلب العلم عليهم فرض ، خصوصاً أمر النبوة .

فإن النظر فى أمر من قال: « إنى رسول الله إليكم » مقدم على كل شيء ، إذ كان التصديق بهذا مستلزماً لغاية السعادة، والتكذيب به مقتضياً لغاية الشقاوة

فبالرسول يحصل الفرق بين السعداء والأشقياء ، و بين الحق والباطل ، والهدى والضلال . والفرق بين أولياء الله وأعدائه .

وكما يسلك هذه الطريق العقلية فى القياس والاعتبار ، بأن يعتبر حال محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه ، وشرعه وأمته ، بحال غيره وكتابه وشرعه وأمته ، وينظر : هل هما متماثلان أو متفاضلان ؟ وأيهما أفضل ؟

و إذا تبين أن حاله أفضل ، كان تصديقه أولى ، وامتنع أن يكون غيره صادقا وهو كاذب .

بل لو كانا متماثلين ، لوجب كونه صادقا ، بل وكذلك لو كانا متقاربين وغيره أفضل .

فإن المتنبى الكذاب لا يقارب الصادق ، بل بينهما من التباين ، مالا يخفى إلا على أعمى الناس .

فكذلك يسلك هذا الطريق فى جنس الأنبياء عليهم السلام مطلقاً وأممهم ، بأن تعرف أخبار من مضى من الأنبياء وأممهم . وترى آثار هؤلاء وهؤلاء كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج ٤٦] وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ [يوسف ١٠٩] وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ۞

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف الآيات ١٠٩ ، ١١١] .

وقال تعالى ـ لما ذكر آل فرعون ـ : ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص ٤٢] ، وكذلك قال تعالى عن عاد : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود ٦٠] وقال تعالى عن قوم شعيب : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ .

وإذا ذكر الأنبياء عليهم السلام . قال تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ ومثل هذا فى القرآن كثير ، فيذكر من حال الأنبياء وأتباعهم . وما حصل لهم من الكرامة ، وما حصل للكفار بهم من الخزى والعذاب ، وحسن حال هؤلاء ، وقبح حال هؤلاء .

ومما يوضح ذلك أن من اعتبر حال أهل الملل ، من المسلمين والنصارى ، وحال غيرهم ، فى العلوم النافعة والأعمال الصالحة ، تبين له أن حال أهل الملل أكمل بما لا يحصى .

وإذا نظر ما عند غير أهل الملل ، من الحكمة العلمية والعملية ، كحكمة الهند واليونان ، والعرب فى الجاهلية ، والفرس وغيرهم ، وجد ما عندهم بعض ما عند أهل الملل ، من الحكمة العلمية والعملية .

فيمتنع أن يكون علماء اليونان والهند ونحوهم ، على حق وهدى ، وعلماء المسلمين واليهود والنصارى على باطل وضلال .

وكذلك يمتنع أن تكون تلك الأمة لها علم نافع وعمل صالح ، وأهل الملل ليسوا كذلك .

فني الجلة ، لا يوجد فى غير أهل الملل ، من علم نافع ، وعمل صالح ، من حكمة علمية وعملية ، إلا وذلك فى أهل الملل أكمل .

ولا يوجد فى أهل الملل شر ، إلا وهو فى غيرهم أكثر .

وهؤلاء فلاسفة اليونان ، الذين قد شهروا عند كثير من الناس ، باسم الحكمة وحكمتهم كحكمة سائر الأمم ، نوعان ، نظرية وعملية .

والعملية فى الأخلاق ، وسياسة المنزل ، وسياسة المدائن .

وكل من تأمل ما عند اليهود والنصارى ، بعد النسخ والتبديل ، من سياسة الأخلاق والمنزل والمدائن ، وجده خيراً مما عند أولئك بأضعاف مضاعفة .

فإن أولئك عمدة أمرهم ، الكلام على قوى النفس الشهوية والغضبية ، وقوى العلم والعدل ، كأمور من جنس آداب العقلاء ، ليس عندهم من معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله ، ومن عبادته وحده لا شريك له ، شيء له قدر .

والذى عندهم من العلوم الطبيعية والحسابية ، ليس مما ينفع بعد الموت إلا أن يستعان به على ما ينفع بعد الموت .

والذى عندهم من العلم الإلهى قليل جداً ، مع ما فيه من الخطأ الكبير .

وكل ما عندهم من علم نافع وعمل صالح ، فهو جزء مما جاءت به الأنبياء عليهم السلام .

فيمتنع أن يكون هؤلاء المسمون بالحكماء وأتباعهم ، على حق فى الاعتقاد ، وصدق فى الأقوال ، وخير فى الأعمال ، كما هو غاية مطلوبهم .

والأنبياء وأتباعهم ، ليسوا كذلك .

واعتبر ذلك بمن تعرف من خاصة هؤلاء وعامتهم ، وخاصة هؤلاء وعامتهم وإن كان بينهما من التفاوت ، كما بين أهل الجنة وأهل النار .

فالاعتبار فى مثل ذلك ، بما جاء به التنزيل . قال تعالى ﴿ آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ والمقصود أنه بالاعتبار والقياس العقلى والموازنة . توزن الشيء بما يناظره ، وتعتبر به قياس الطرد ، وقياس العكس .

فيظهر لكل من تدبر ذلك أن أهل الملل أولى بالحق والصدق والخير من غيرهم ، و إن كان لأولئك من الحكمة ما يناسب أحوالهم .

وحكماؤهم أفضل من عوامهم ، وهم خير من الكفار بالرسل الذين ليس لهم من الحكمة مالهم ، وهذا مما استفادوه أتباع الأنبياء منهم ، فيكون هذا من دلائل نبوتهم وأعلام رسالتهم ، استدلالا بالأثر على المؤثر ، و بالمعلول على علته .

وكذلك من تدبر حال المسلمين ، وحال اليهود والنصارى ، تبيَّن له رجحان حال المسلمين ، فيكون هذا من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأعلام رسالته .

وقد ذكرنا فى غير هذا الموضع أن النبوة تعلم بطرق كثيرة ، وذكرنا طرقاً متعددة فى معرفة النبى الصادق والمتنبيء الكذاب ، غير طريق المعجزات .

فإن الناس كلما قويت حاجتهم إلى معرفة الشيء ، يسر الله أسبابه ، كما يسر ما كانت حاجتهم إليه فى أبدانهم أشد .

فلما كانت حاجتهم إلى النفس والهواء أعظم ، منها إلى الماء ، كان مبذولا لكل أحد فى كل وقت .

ولما كانت حاجتهم إلى الماء ، أكثر من حاجتهم إلى القوت ، كان وجود الماء أكثر لذلك .

فلما كانت حاجتهم إلى معرفة الخالق أعظم ، كانت آياته ودلائل ربوبيته وقدرته وعلمه ومشيئته وحكمته ، أعظم من غيرها

ولما كانت حاجتهم إلى معرفة صدق الرسل بعد ذلك ، أعظم من حاجتهم إلى غير ذلك ، أقام الله سبحانه من دلائل صدقهم ، وشواهد نبوتهم ، وحسن

حال من اتّبعهم ، وسعادته ونجاته ، و بيان ما يحصل له من العلم النافع والعمل الصالح ، وقبح حال من خالفهم ، وشقاوته ، وجهله وظلمه ، ما يظهر لمن تدبر ذلك ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور : ٤٠] .

وهذا الذى ذكرناه ، من اعتبار الشىء بنظرائه وموافقيه وأشباهه ، واعتباره بأضداده ومخالفيه ، حتى يعرف فى المتشابهين أيهم أكمل وأفضل ، وفى المختلفين أيهم أولى بالحق والهدى ، والعدل موجود فى سائر الأمور علمها وعملها ، كعلم الطب والحساب والنحو والفقه وغير ذلك ، فيمتنع ـ مع العلم والعدل ـ أن يقال : جالينوس كان طبيباً ، وأبقراط لم يكن طبيباً ، أو أن يقال : الأخفش كان نحوياً ، وسيبويه لم يكن نحوياً ، أو أن زفر والحسن بن زياد ، ويونس بن خالد السمتى ، كانوا فقهاء ، وأبو حنيفة لم يكن فقيها ، أو أن أشهب ، وابن القاسم ، وابن وهب كانوا فقهاء ، ومالك لم يكن فقيها ، أو أن المزنى والبويطى والربيع ، كانوا فقهاء ، والشافعى لم يكن فقيها ، أو أن أبا داود وإبراهيم الحربى ، وأبا بكر الأثرم كانوا فقهاء ، وأحمد بن حنبل لم يكن فقيها ، أو أن علياً كان إمام عدل ، وأبو بكر وعمر لم يكونا إمامى عدل ، أو أن نور الدين الشهيد كان عادلا ، وعمر ابن عبد العزيز لم يكن عادلا ، أو أن كوشيار ، كان يعلم الهيئة ، و بطليموس لم يكن يعرف الهيئة ، أو أن أبا على بن الهيثم ، كان يعرف علم الهندسة ، وإقليدس لم يكن يعرف ذلك ، أو أن النابغة الجعدى كان شاعراً ، والنابغة الذبيانى لم يكن شاعراً ، أو أن يقال : إن القمر مستنير ، والشمس ليست مستنيرة ، أو أن عطارد نجم ثاقب ثقب ضوءه ، والمشترى ليس بنجم ثاقب ، أو أن مسلماً كان عالماً بالحديث ، والبخارى لم يكن كذلك ، أو أن كتابه أصح من كتاب البخارى . ونحو ذلك مما يطول تعداده .

فصـــل

والنصارى لهم سؤال مشهور بينهم ، وهو إن منهم من يقول : « محمد لم تبشر به النبوات ، بخلاف المسيح فإنه بشرت به النبوات » .

وزعموا أن من لم تبشر به ، فليس بنبي .

وهذا السؤال يورد على وجهين :

أحدهما : ـ أنه لا يكون نبياً حتى يبشر به .

والثاني : ـ أن من بشرت به أفضل أو أكمل ، ممن لم تبشر به ، أو أن هذا طريق تعرف به نبوة المسيح ، اختص به .

وأنتم قد قلتم : ما من طريق تثبت به نبوة نبي إلا ومحمد تثبت نبوته بمثل تلك الطريق وأفضل .

فأما هذا الثاني ، فيستحق الجواب ، وأما الأول فنحن نجيبهم عنه أيضاً لكن هل يجب الإجابة عنه فيه ؟ قولان ، بناء على أصل .

وهو ، أنه : ـ هل من شرط النسخ الإشعار بالمنسوخ ؟ ولنظار المسلمين فيه قولان .

أحدهما : ـ أنه لابد إذا شرع حكماً يريد أن ينسخه ، فلا بد أن يشعر المخاطبين بأني سأنسخه ، لئلا يظنوا دوامه ، فيكون ذلك تجهيلا لهم .

والثاني : ـ لا يشترط ذلك .

وأيضاً ، فمن بعث بعد موسى بشريعة ، هل يجب أن يكون مبشرا به ؟ فيه قولان .

وبكل حال ، فلا ريب عند علماء المسلمين أن المسيح عليه السلام بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ الآية [الصف ٦] ، وقال تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف ١٥٧] وقال تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ [الفتح ٢٩] وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة ١٤٦] و [الأنعام : ٢٠] فى موضعين من القرآن ، أحدهما فى التوحيد أو القرآن ، والآخر فى القبلة ، والقرآن ومحمد .

فقال فى الأول : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل : لَّا أَشْهَدُ قُلْ : إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام الآيتان ١٠ ، ٢٠] وهذا فى سورة الأنعام ، وهى مدنية .

وقال فى سورة البقرة وهى مدنية : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ

إذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [البقرة الآيات ١٤٤ ، ١٤٧] وقال تعالى : ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة ٨٩] قال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام ١١٤] وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ ﴾ وقال تعالى : ﴿ قُلْ : كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ الآية [المائدة ٨٣]

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ [الإسراء ١٠٧ ، ١٠٨] وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا : آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [القصص ٥٢ ، ٥٤] وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الآية [يونس ٩٤]

وإذا كان كذلك ، فيقال : معلوم باتفاق أهل الملل ، أنه ليس من شرط نبوة كل نبي ، أن يبشر به من قبله ، إذ النبوة ثابتة بدون ذلك ، لا سيما ونوح وإبراهيم وغيرهما ، لم يعلم أنه بشر بهما من قبلهما ، وكذا عامة الأنبياء الذين

قاموا فى بنى إسرائيل ، لم يتقدم لهم بشارات ، إذ كانوا لم يبعثوا بشريعة ناسخة ، كداود وأشعياء وغيرهما .

وإنما قد يُدَّعَى هذا ، فيمن جاء بنسخ بعض شرع من قبله ، كما جاء المسيح بنسخ بعض أحكام التوراة ، وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم .

ففى مثل هذا يتنازع المتنازعون من علماء المسلمين وغيرهم : هل يشترط أن يكون قد أخبر بذلك قبل النسخ ؟ على قولين .

وحينئذ فنقول : فالمسلمون يقولون : شريعة التوراة والإنجيل ، لم تشرع شرعا مطلقاً ، بل مقيدا ، إلى أن يأتى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا مثل الحكم الموقت بغاية لا يعلم متى يكون ، كقوله تعالى : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾ ومثل هذا جائز باتفاق أهل الملل .

وهل يسمى هذا نسخاً ؟ فيه قولان .

قيل : لا يسمى نسخاً ، كالغاية المعلومة . كقوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ فإن ارتفاع وجوب الصيام بمجىء الليل ، لا يسمى نسخاً باتفاق الناس .

فقيل إن الغاية المجهولة ، كالمعلومة .

وقيل : بل هذا يسمى نسخاً ، ولكن هذا النسخ جائز باتفاق أهل الملل ، اليهود وغيرهم .

وعلى هذا ، فثبوت نبوة المسيح ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، لا تتوقف على جواز النسخ المتنازع فيه ، فإن ذلك إنما يكون فى الحكم المطلق ، والشرائع المتقدمة لم تشرع مطلقاً .

وسواء قيل : إن الإشعار بالناسخ واجب ، أو قيل : إنه غير واجب ، فعلى

القولين قد أشعر أهل الشرع الأول ، بأنه سينسخ .

فإن موسى بَشَّرَ بالمسيح ، وكذلك غيره من الأنبياء .

وموسى والمسيح وغيرهما من الأنبياء ، بشَّروا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان هذا هو الواقع ، فنبوة المسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، لا تتوقف على ثبوت النسخ المتنازع فيه .

وحينئذ فنقول : العلم بنبوة محمد ونبوة المسيح ، لا تتوقف على العلم بأن من قبلهما بَشَّر بهما ، بل طرق العلم بالنبوة متعددة .

فإذا عرفت نبوته بطريق من الطرق ، ثبتت نبوته عند من علم ذلك ، وإن لم يعلم أن من قبله بَشَّر به .

لكن يقال : إذا كان الواجب أو الواقع ، أنه لابد من إخبار مَنْ قبله بمجيئه ، وأن الإشعار بنسخ شريعة مَنْ قبله واجب أو واقع ، صار ذلك شرطاً في النبوة ، ومن علم نبوته ، علم أن هذا قد وقع ، وإن لم ينقل إليه .

فإذا قال المعارض : عدم إخبار مَنْ قبله به ، قد يقدح في نبوته ، فإنه إذا قُدِّر أنه لم يخبر به من قبله والإخبار شرطاً في النبوة ، كان ذلك قدحا .

قيل : الجواب هنا من طريقين :

أحدهما : ـ أن يقال : إذا علمت نبوته بما قام عليها من أعلام النبوة ، فإما أن يكون تبشير من قبله به لازما لنبوته ، واجباً أو واقعاً ، وإما أن لا يكون لازماً .

فإن لم يكن لازما لم يجب وقوعه وإن كان لازماً علم أنه قد وقع .

وإن كان ذلك لم ينقل إلينا ، إذ ليس كل ما قالته الأنبياء المتقدمون علمناه ووصل إلينا .

وليس كل ما أخبر به المسيح ، ومن قبله من الأنبياء ، وصل إلينا ، وهذا مما يعلم بالاضطرار .

ولو قُدِّر أن هذا ليس فى الكتب الموجودة ، لم يلزم أن المسيح ومَنْ قبله لم يذكروه ، بل يمكن أنهم ذكروه وما نقل . ويمكن أنه كان فى كتب غير هذه الكتب . ويمكن أنه كان فى نسخ غير هذه النسخ ، فأزيل من بعضها ، ونسخت هذه مما أزيل منه وتكون تلك النسخ التى هو موجود فيها غير هذه ؛ فكل هذا ممكن فى العادة ، لا يمكن الجزم بنفيه .

فلو قُدِّر أنه ليس فى هذه الكتب الموجودة اليوم بأيدى أهل الكتاب ، لم يقطع بأن الأنبياء لم يبشروا به .

فإذا لم يمكن اليهود أن يقطعوا بأن المسيح لم يبشر به الأنبياء ، ولا يمكن أهل الكتاب أن يقطعوا بأن محمداً صلى الله عليه وسلم لم تبشر به الأنبياء ، لم يكن معهم علم بعدم ذلك ، بل غاية ما يكون عند أحدهم ظن ، لكونه طلب ذلك ، فلم يجده .

ودلائل نبوة المسيح ومحمد قطعية يقينية ، لا يمكن القدح فيها بظن ، فإن الظن لا يدفع اليقين ، لا سيما مع الآثار الكثيرة المخبرة بأن محمداً كان مكتوباً باسمه الصريح فيما هو منقول عن الأنبياء ، كما فى صحيح البخارى أنه قيل لعبد الله ابن عمرو : « أخبرنا ببعض صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة ، فقال : إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لست بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب بالأسواق ، ولا تجزى بالسيئة السيئة ، ولكن تجزى بالسيئة الحسنة ، وتعفو وتغفر ، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء ، فأفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما . وقلوبا غلفا ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله » .

ولفظ التوراة والإنجيل والقرآن والزبور ، قد يراد به الكتب المعينة ، ويراد به الجنس ، فيعبر بلفظ القرآن عن الزبور وغيره ، كما فى الحديث الصحيح

عن النبي صلى الله عليه وسلم : « خُفِّفَ على داود القرآن ، فكان ما بين أن يسرج دابته إلى أن يركبها يقرأ القرآن » والمراد به قرآنه ، وهو الزبور ، ليس المراد به القرآن الذى لم ينزل إلا على محمد

وكذلك ما جاء فى صفة أمة محمد « أنا جيلهم فى صدورهم » فسمى الكتب التى يقرؤونها — وهى القرآن — أناجيل .

وكذلك فى التوراة « إنى سأقيم لبنى إسرائيل نبياً من إخوتهم أنزل عليه توراة مثل توراة موسى » فسمى الكتاب الثانى توراة

فقوله : « أخبرنى بصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة » قد يراد بها نفس الكتب المتقدمة كلها ، وكلها تسمى توراة ، ويكون هذا فى بعضها .

وقد يراد به التوراة المعينة ، وعلى هذا فيكون هذا فى نسخة لم تنسخ منها هذه النسخ ؛ فإن النسخ الموجودة بالتوراة التى وقفنا عليها ، ليس فيها هذا .

لكن هذا عندهم فى نبوة أشعيا قال فيها : « عبدى الذى سرت به نفسى أنزل عليه وحيى ، فيظهر فى الأمم عدلى ، ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ، ولا يسمع صوته فى الأسواق ، يفتح العيون العور ، والآذان الصم ، ويحيى القلوب الغلف ، وما أعطيه ، لا أعطى أحداً ، يحمد الله حمداً جديداً ، يأتى من أقصى الأرض ، وتفرح البرية وسكانها ، يهللون الله على كل شرف ، ويكبرونه على كل رابية ، لا يضعف ولا يغلب ، ولا يميل إلى الهوى مشقح ، ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة ، بل يقوى الصديقين ، وهو ركن المتواضعين ، وهو نور الله الذى لا يطفى . أثر سلطانه على كتفيه » .

وهذه صفات منطبقة على محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ، وهى من أجل بشارات الأنبياء المتقدمين به .

ولفظ التوراة ، قد عرف أنه يراد به جنس الكتب التى يُقِرُّ بها أهل الكتاب ، فيدخل فى ذلك الزبور ، ونبوة أشعيا ، وسائر النبوات غير الإنجيل .

فإن كان المراد بلفظ التوراة والإنجيل فى القرآن هذا المعنى ، فلا ريب أن ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة بهذا الاعتبار ، كثير متعدد ظاهر ، كما سنبين بعضه .

وحينئذ فتكون التوراة فى قوله : ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ متناولة لجنس الكتب التى يُقِرُّ بها أهل الكتاب .

ولفظ الإنجيل يختص بما عند النصارى ولهذا لم يذكر كونه فى الزبور مع أنه مذكور فيه ، إذ كان مندرجا فى لفظ التوراة .

الطريق الثانى من الجواب : ـ أن نبين أن الأنبياء قبله ، بشروا به .

وهذا هو دليل مستقل على نبوته ، وعَلَم عظيم من أعلام رسالته .

وهذا أيضاً ، يدل على نبوة ذلك النبى إذ أخبر بأنباء من الغيب مع دعوى النبوة ، ويدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لإخبار من تثبت نبوته بنبوته .

هذا إذا وجد الخبر ممن لا نعلم نحن نبوته ، ولم يذكر فى كتابنا .

وأما من ثبتت نبوته بطرق أخرى ، كموسى والمسيح ، فهذا مما تظاهر فيه الأدلة على المدلول الواحد ، وهو أيضاً يتضمن أن كل ما ثبتت به نبوة غيره ، فإنه تثبت به نبوته ، وهو جواب ثانٍ ، لمن يجعل ذلك شرطاً لازماً لنبوته .

فصـــــل

ثم العلم بأن الأنبياء قبله ، بشروا به يعلم من وجوه :

أحدها : ـ ما فى الكتب الموجودة اليوم بأيدى أهل الكتاب من ذكره .

الثانى : ـ إخبار من وقف على تلك الكتب وغيرها ، من كتب أهل الكتاب ، ممن أسلم ، وممن لم يسلم ، بما وجدوه من ذكره بها .

وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار أن جيرانهم من أهل الكتاب ، كانوا يخبرون بمبعثه ، وأنه رسول الله ؛ وأنه موجود عندهم ، وكانوا ينتظرونه وكان

هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام حتى آمن الأنصار به و بايعوه ، من غير رهبة ولا رغبة .

ولهذا قيل : إن المدينة فتحت بالقرآن ، لم تفتح بالسيف كما فتح غيرها .

وقد أخبر الله بذلك عن أهل الكتاب فى القرآن قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا : قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾[البقرة ٨٧ ، ٩٠]

ومثل ما تواتر عن أخبار النصارى بوجوده فى كتبهم ، مثل إخبار هرقل . ملك الروم ، والمقوقس ملك مصر صاحب الإسكندرية ، والنجاشى ملك الحبشة، والذين جاءوه بمكة ، وقد ذكر الله ذلك عنهم فى القرآن فى قوله عن اليهود « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » .

وقال عن النصارى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة ٨٣] وقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا : آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا ﴾ [القصص ٥٢ ، ٥٣]

وقال ابن إسحق : حدثنى محمد ابن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس « أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج

برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب ، كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه »

فقال معاذ بن جبل و بشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة ، : يامعشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ونحن أهل شرك ، وتخبرونا بأنه مبعوث ، وتصفونه بصفته » .

فقال سلام بن مشكم ، أخو بني النضير : ما جاءنا شيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم » .

فأنزل الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٨٩]

وقال أبو العالية وغيره : كانوا — يعني اليهود — إذا استنصروا بمحمد على مشركي العرب يقولون : « اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا ، حتى يعذب المشركين و يقتلهم »

فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ورأوا أنه من غيرهم ، كفروا به حسداً للعرب وهم يعلمون : أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله هذه الآيات (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به)

وروى ابن إسحق عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري ، ثم الظفري ، عن رجال من قومه قالوا : «ومما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه ، أنا كنا نسمع من رجال يهود ، كنا أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل الكتاب ، عندهم علم ليس عندنا ، وكانت لا تزال بيننا و بينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : قد تقارب زمان نبي يبعث الآن ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم » فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم .

فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم رسولاً من عند الله ، أجبنا حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه ، فآمنا به وكفروا به

ففينا وفيهم نزلت هؤلاء الآيات التى فى البقرة « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين »

قال ابن إسحاق : وحدثنا صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة الأنصارى قال : حدثنى من شئت من رجال قومى عن حسان بن ثابت الأنصارى قال : «والله إنى لغلام يفقه ، ابن سبع سنين أو ثمان سنين ، أعقل كل ما سمعت إذ سمعت يهودياً يقول على أطم يثرب ، يصرخ : « يامعشر اليهود » فلما اجتمعوا عليه قالوا : « مالك ويلك ؟ » قال : « طلع نجم أحمد الذى يبعث الليلة » .

وروى أبو زرعة بإسناد صحيح عن أسامة بن زيد عن أبيه زيد بن حارثة قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مُرْدِفِىَّ . ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم حارٍ من أيام مكة ، حتى إذا كنا بأعلى الوادى ، لقيه زيد بن عمرو بن نفيل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ياابن عمرو . مالى أرى قومك قد شنفوك ؟ »

قال : أما والله ، إن ذلك لغير مأثرة كانت منى فيهم ، ولكن أراهم على ضلال .

فخرجت أبتغى هذا الدين ، فأتيت إلى أحبار يثرب ، فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به ، فقلت : « ما هذا بالدين الذى أبتغى » .

فخرجت حتى آتى أحبار خيبر ، فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به ، فقلت : « ما هذا بالدين الذى أبتغى » .

فقال لى حبر من أحبار الشام « إنك لتسأل عن دينٍ ما نعلم أحداً يعبد الله به إلا شيخ بالجزيرة .

فخرجت ، فقدمت عليه فأخبرته بالذى خرجت له ، فقال : « إن كل من رأيت فى ضلالة ، ممن أنت ؟

قال : قلت أنا من أهل بيت الله ، ومن أهل الشوك والقرظ .

فقال : إنه قد خرج فى بلدك نبى ، أو خارج قد خرج نجمه ، فارجع فصدقه واتبعه وآمن به ، فرجعت فلم أحس شيئاً بعد ، قال : فأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيره فقدمنا إليه السفرة .

قال زيد : ما آكل شيئاً ذبح لغير الله ، فتفرقا ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطاف بالبيت .

قال زيد : وأنا معه ، وكان صنمان من نحاس يقال لهما « أساف » و « نائلة » مستقبل الكعبة ، يتمسح بهما الناس إذا طافوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تمسهما ، ولا تمسّح بهما » .

قال زيد : فقلت فى نفسى ، وقد طفنا ، لأمسهما حتى أنظر ما يقول ، فمستهما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ألم تنهه ؟» فلا والذى أكرمه ، ما مسستهما حتى أنزل الله عليه الكتاب . ومات زيد بن عمرو بن نفيل قبل الإسلام .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه يبعث أمة وحده »

وروى البخارى حديث خروج زيد بن عمرو قريباً من هذا اللفظ .

وقال ابن إسحق : حدثنا صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، عن محمود بن لبيد عن سلمة بن سلامة بن وقش ، قال « كان بين أبياتنا يهودى ، فخرج على نادى قومه بنى عبد الأشهل ذات غداة ، فذكر البعث والقيامة ، والجنة والنار ، والحساب والميزان فقال ذلك لأصحاب وثن لا يرون أن بعثا كائن بعد موت ، وذلك قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : « ويحك يا فلان ، أو « ويلك » وهذا كائن ؟ إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون من أعمالهم ؟

قال : نعم والذى يحلف به ، لوددت أن حظى من تلك النار ، أن يوقدوا

أعظم تنور فى داركم ، فيحمونه ، ثم يقذفونى فيه ، ثم يطينون علىّ ، وإنى أنجو من تلك النار غداً .

فقيل : يا فلان ، فما علامة ذلك ؟

قال : نبى يبعث من ناحية هذه البلاد ، وأشار إلى مكة واليمن بيده .

قالوا : فمتى نراه ؟

فرمى بطرفه فرآنى وأنا مضطجع بفنايات أهلى وأنا أحدث القوم فقال : إن يستفد هذا الغلام عمره يدركه .

فما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله وإنه لحىّ بين أظهرهم ، فآمنا به وصدقناه، وكفر به بغياً وحسدا .

فقلنا له : يا فلان ، ألست الذى قلت ما قلت ، وأخبرتنا ؟ قال : ليس به .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن غلاماً يهودياً كان يخدم النبى صلى الله عليه وسلم ، فمرض ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوده ، فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراة .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا يهودى أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، هل تجد فى التوراة صفتى ومخرجى ؟ » قال : لا .

قال الفتى : بلى والله يا رسول الله إنا نجد فى التوراة نعتك ومخرجك ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أقيموا هذا من عند رأسه وَلُوا أخاكم » رواه البيهقى بإسناد صحيح .

وقال ابن إسحق : حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بنى قريظة قال : هل تدرى عما كان إسلام أسيد وثعلبة ابنى سعيد ، وأسد بن عبيد ، نفر من بنى هذيل ، لم يكونوا من بنى قريظة ، وبنى النضير ، كانوا فوق ذاك ؟

فقلت : لا ، قال : فإنه قدم علينا رجل من الشام من يهود يقال له :

ابن الهيبان ، فأقام عندنا ، والله ما رأينا رجلا قط لا يصلى الخمس خيراً منه فقدم علينا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بسنين ، وكنا إذا أقحطنا وقلّ علينا المطر نقول : يا ابن الهيبان ، اخرج فاستسق لنا ، فيقول : لا والله حتى تقدموا أمام مخرجكم صدقة فنقول : كم ؟ فيقول : « صاعاً من تمر أو مُدَّيْن من شعير » فنخرجه ، ثم يخرج إلى ظاهر حرتنا ونحن معه ، فنستقى ، فوالله ما يقوم من مجلسه حتى تمر الشماب ، قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثة .

فحضرته الوفاة واجتمعوا إليه فقال : يا معشر يهود ما ترونه أخرجنى من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع ؟ فالوا : أنت أعلم . قال : فإنه إنما أخرجنى توقع خروج نبى قد أظل زمانه هـذه البلاد ومهاجره ، فاتبعوه ولا تُسْبَقُنَّ إليه إذا خرج يا معشر يهود ، فإنه يبعث بسفك الدماء ، وسَبْي الذرارى والنساء ممن خالفه ، ولا يمنعنَّكم ذلك منه » ثم مات .

فلما كان الليلة التى فتحت فيها قريظة ، قال أولئك الثلاثة الفتية ، وكانوا شباناً أحداثاً : يا معشر يهود والله إنه الذى ذكر لـكم ابن الهيبان .

فقالوا : ما هو به . قالوا : « بلى والله إنه لصفته » ثم نزلوا فأسلموا وخلوا أموالهم وأولادهم وأهاليهم .

قال ابن إسحق : فلما فتح الحصن رد ذلك عليهم .

وفى الصحيحين من حديث ابن عباس عن أبى سفيان بن حرب ، لما حدثه عن هرقل وقد تقدم حديثه فى أول الكتاب وذكر فيه : أن هرقل لما سأله عن صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن يكن ما تقول فيه حقاً ، إنه لنبيٌ ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظنه منكم ، ولو أعلم أنى أخلص إليه لأحببت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه .

وزاد البخارى فى حديثه ، وقال ابن الناطور : وكان هرقل حزاء ينظر فى النجوم ، فنظر فقال : إن ملك الختان قد ظهر ، فمن يختتن من هذه الأمة ؟

قال : تختتن اليهود فلا يهمنك شأنهم ، وابعث إلى من فى مملكتك من اليهود فيقتلونهم .

ثم وجد إنساناً من العرب فقال : انظروا ، أمختتن هو ؟ فنظروا ، فإذا هو مختتن .

وسأله عن العرب فقال : يختتنون .

وقال فيه : وكان برومية صاحب له ، كان هرقل نظيره فى العلم ، فأرسل إليه وسار إلى حمص ، فلم يرم من حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأيه على خروج النبى صلى الله عليه وسلم وأنه نبى .

وكذلك النجاشى ملك الحبشة ، لماهاجر الصحابة إليه ، لما أذاهم المشركون، وخافوا أن يفتنوهم عن دينهم ، وقرءوا عليه القرآن ، قال : فأخذ عوداً بين إصبعيه فقال : ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هـذا العود ، فتناخرت بطارقته فقال : وإن نخرتم ، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضى ، يعنى أنتم آمنون .

وقال هذا ، لأن قريشاً أرسلوا هدايا إليه وطلبوا منه أن يرد هؤلاء المسلمين وقالوا : « هؤلاء فارقوا ديننا ، وخالفوا دينك ، الحديث » رواه أحمد وغيره .

وفى الصحيحين ، حديث ورقة بن نوفل الذى ترويه عائشة رضى الله عنها، فى بدء الوحى قالت : «أول مابدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِّب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه ــ وهو التعبد ــ الليالى ذوات العدد إلى أن قالت : فأتت به خديجة ورقة بن نوفل ، وكان قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب من الإنجيل ماشاء الله أن يكتب ، فقالت : اسمع من ابن أخيك ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى ، فقال ورقة : « هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى ، ليتنى جذعاً أنصرك نصراً مؤزراً إذ يخرجك قومك ، قال : أوَمُخرِجِيَّ هم ؟ قال : نعم . لم يأت أحد بمثل ماجئت

به إلا عُودِيَ ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً » ثم لم ينشب ورقة أن توفى » .

وقال ابن إسحق : وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرون رجلا، أو قريب من ذلك ـ وهو بمكة ـ من النصارى ، حين ظهر خبره بالحبشة ، فوجدوه فى المجلس فكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديتهم .

فلما فرغوا من مسألتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا ، دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن .

فلما سمعوا ، فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره .

فلما قاموا من عنده ، اعترضهم أبوجهل فى نفر من قريش فقال : خيبكم الله من رَكْبٍ ، بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم لترتادوا لهم ، فتأتونهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم ، ما نعلم رَكْباً أحمق منكم ، أو كما قالوا لهم .

فقالوا : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم .

ويقال : فيهم نزل قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا : آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ الآية .

وعن محمد بن عمر بن سعيد بن محمد بن جبير : حدثتنى جدتى أم عثمان بنت سعيد بن محمد بن جبير عن أبيها سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه قال : سمعت أبى جبيراً يقول : « لما بعث الله نبيه ، وظهر أمره بمكة ، خرجت إلى الشام ، فلما كنت ببصرى ، أتتنى جماعة من النصارى فقالوا لى: أمن الحرم أنت ؟ قلت: نعم،قالوا : فتعرف هذا الذى تنبأ فيكم ؟ قلت : نعم قال : فأخذوا بيدى فأدخلونى ديراً لهم ، فيه تماثيل وصُوَر ، فقالوا لى : انظر

هل ترى صورة هذا النبي الذى بعث فيكم ؟ فنظرت فلم أر صورته قلت : لا أرى صورته .

فأدخلونى ديراً أكبر من ذاك الدير ، فيه صور أكثر مما فى ذلك الدير .

فقالوا لى : انظر هل ترى صورته ؟ فنظرت ، فإذا أنا بصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصورته ، وإذا أنا بصفة أبى بكر وصورته وهو آخذ بعقب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا لى : انظر هل ترى صفته ؟ قلت : نعم . قالوا : هو هذا ؟ وأشاروا إلى صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : اللهم نعم . أشهد أنه ، هو .

قالوا : أتعرف هذا الذى أخذ بعقبه ؟ قلت : نعم .

قالوا : نشهد أن هذا صاحبكم ، وأن هذا الخليفة من بعده » رواه البخارى فى تاريخه ، وقال فيه : « قال الذى أراه الصور لم يكن نبى إلا كان بعده نبى ، إلا هذا النبى » ورواه أبو نعيم فى دلائل النبوة .

وروى موسى بن عقبة أن هشام بن العاص ، ونعيم بن عبدالله ، ورجلاً آخر ، قد سماه ، بعثوا إلى ملك الروم زمن أبى بكر ، قال : فدخلنا على جبلة بن الأيهم وهو بالغوطة ، فذكر الحديث وأنه انطلق بهم إلى الملك وأنهم وجدوا عنده شبه الربعة العظيمة مذهبة ، وإذا فيها أبواب صغار ففتح منها بابا ، فاستخرج منه خرقة حرير سوداء ، فيها صورة بيضاء ، وذكر صفة آدم ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة وفيها صورة نوح ، ثم إبراهيم ، ثم أراهم حريرة فيها صورة محمد صلى الله عليه وسلم فقال : هذا آخر الأبواب لكنى عجلته لأنظر ما عندكم ، ثم فتح أبوابا أخر وأراهم صورة بقية الأنبياء ، موسى ، وهرون ، وداود ، وسليمان ، وعيسى بن مريم عليهم السلام ، وصفة لوط ، وصفة إسحاق ، وذكر أن هذا عندهم قديماً من عهد آدم ، وأن دانيال صورها بأعيانها .

وروى مثل هـذا عن المغيرة بن شعبة ، أنه لما دخل على المقوقس ملك

مصر والإسكندرية ملك النصارى ، أخرج له صور الأنبياء ، وأخرج له صورة نبينا صلى الله عليه وسلم فعرفها .

والوجه الثالث : — نفس إخباره بذلك فى القرآن مرة بعد مرة ، واستشهاده بأهل الكتاب وإخباره بأنه مذكور فى كتبهم ، مما يدل العاقل على أنه كان موجوداً فى كتبهم ، فإنه لا ريب عند كل من عرف حال محمد من مؤمن وكافر ، أنه كان من أعقل أهل الأرض ، فإن المكذبين له ، لا يشكون فى أنه كان عنده من الخبرة والمعرفة والحذق ، ما أوجب أن يقيم مثل هذا الأمر العظيم ، الذى لم يحصل لأحد مثله ، لا قبله ولا بعده ، فعلم ضرورة أنه لا يفعله ولا يخبر به ، وهو من أحرص الناس على تصديقه ، وأخبرهم بالطرق التى يصدق بها ، وأبعدهم عن أن يفعل ما يعلم أنه يكذب به .

فلو لم يعلم أنه مكتوب عندهم ، بل علم انتفاء ذلك ، لامتنع أن يخبر بذلك مرة بعد مرة ، ويستشهد به ويظهر ذلك لموافقيه ومخالفيه ، وأوليائه وأعدائه ، فإن هذا لا يفعله إلا من هو أقل الناس عقلا ، لأن فيه إظهار كذبه عند من آمن به منهم ، وعند من يخبرونه ، وهو ضد مقصوده ، وهو بمنزلة من يريد إقامة شهود على حقه فيأتى إلى من لا يعلم أنه لا يكذب ، ويعلم أنه ليس بشاهد ولا حضر قضيته ، ويقول : هذا يشهد لى ، وهذا يشهد لى .

فإنهم كانوا حاضرين هذه القضية ، فيقول : أولئك لسنا نشهد له . ولا حضرنا هذه القضية .

فهذا لا يفعله عاقل ، يعلم أنهم لم يكونوا حاضرين ، وأنهم يكذبونه ولا يشهدون له .

الرابع : أن يقال : لما قامت الأعلام على صدقه ، فقد أخبر أنه مكتوب فى الكتب المتقدمة وأن الأنبياء بشروا به ، علم أن الأمر كذلك ، لكن هذا لا يذكر إلا بعد أن يقام دليل منفصل على نبوته .

والطريق الأول ، هو من أظهر الحجج على أهل الكتاب ، وأظهر الأعلام على نبوته .

وقد استخرج غير واحد من العلماء من الكتب الموجودة الآن في أيدي أهل الكتاب من البشارات بنبوته مواضع متعددة ، وصنفوا في ذلك مصنفات ، وهذه البشارات في هذه الكتب من جنس البشارات بالمسيح صلى الله عليه وسلم .

واليهود يقرون باللفظ ، لكن يدّعون أن المُبَشَّر به ليس هو المسيح عيسى ابن مريم ، وإنما هو آخر ينتظر .

وهم — في الحقيقة — لا ينتظرون إلا المسيح الدجال ، وينتظرون أيضاً مجيء المسيح عيسى بن مريم إذا نزل من السماء ، كما بسط في موضع آخر ، ويحرفون دلالة اللفظ ويقولون : إنها لا تدل على نبي منتظر ، كما قالوا في قوله : « سأقيم لبني إسرائيل نبياً من إخوتهم مثلك ياموسى أنزل عليه توراة مثل توراة موسى ، أجعل كلامي على فيه » .

قال بعضهم : ليس هذا إخبارا ، بل هذا استفهام إنكار ، وقدروا ألف استفهام ، وليس في النص شيء من ذلك .

فاليهود يحرفون الدلالات المبشرة بالمسيح ، وذلك عند المسلمين والنصارى لا يقدح في البشارات بالمسيح ، بل تبين دلالة النصوص عليه ، وبطلان تحريف اليهود .

وكذلك البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة ، لايقدح فيها تحريف أهل الكتاب ، اليهود والنصارى ، بل تبين دلالة تلك النصوص على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبطلان تحريف أهل الكتاب .

الوجه الخامس : — أن يقال معلوم أن ظهور دين محمد صلى الله عليه وسلم في مشارق الأرض ومغاربها ، أعظم حادث حدث في الأرض .

فلم يعرف قط دين ، انتشر ودام كانتشاره ودوامه ، فإن شرع موسى وإن دام ، فلم ينتشر انتشاره ودوامه ، بل كان غاية ظهوره ببعض الشام .

وأما شرع المسيح ، فقبل قسطنطين ، لم يكن له ملك ، بل كانوا يكونون ببعض بلاد الروم وغيرها ، وكانوا مستضعفين بقتل أعيانهم أو عامتهم فى كثير من الأوقات .

ولما انتشر تفرق أهله فرقا متباينة ، يكفر فيها بعضهم بعضاً .

ثم إن شرع محمد صلى الله عليه وسلم ، ظهر فى مشارق الأرض ومغاربها ، وفى وسط الأرض المعمورة الإقليم الثانى والثالث والرابع ، وظهرت أمته على النصارى فى أفضل الأرض وأجلها عندهم، كأرض الشام ومصر والجزيرة وغيرها، ودام شرعه ، فله اليوم أكثر من سبعمائة سنة .

ومعلوم أن هذا المدعى للنبوة ، سواء كان صادقاً أو كاذباً ، لابد أن يخبر به الأنبياء فإنهم أخبروا بظهور الدجال الكذاب ، تحذيراً للناس من فتنته ، وأنه كذاب يظهر على يده أمور يفتتن بها الناس ، مع أن الدجال مدته قليلة فلو كان ما يقوله المكذب لمحمد حقاً وأنه كاذب ليس برسول لكانت فتنته أعظم من فتنة الدجال من وجوه كثيرة ، لأن الذين اتبعوه أضعاف أضعاف من يتبع الدجال ، فلو كان كاذباً ، لكان الذين افتتنوا به أضعاف أضعاف من يفتتن بالدجال ، فكان التحذير منه أولى من التحذير من الدجال ، إذ ليس فى العالم من زمان آدم إلى اليوم ، كذاب ظهر ودام هذا الظهور والدوام ، فكيف يغفل الأنبياء التحذير عن مثل هذا لو كان كاذباً ؟

وإذا كان صادقا ، فالبشارة به للايمان به ، من أولى ما يبشر به الأنبياء من المستقبلات ، ويخبر به ، فعلم أنه لا بد أن يكون فى الكتب ذكره .

ثم قد وجد مواضع كثيرة فى الكتب ، تزيد على مائة موضع ، استدلوا بها على أنه مذكور ، وتواتر عن خلق كثير من أهل الكتاب أنه موجود فى

كتبهم ، وتواتر عن كثير ممن أسلم أنه كان سبب إسلامهم ، أو من أعظم سبب إسلامهم ، علمهم بذكره فى الكتب المتقدمة .

إما بأنه وجد ذكره فى الكتب ، كحال كثير ممن أسلم قديمًا وحديثًا.

وإما بما ثبت عندهم من أخبار أهل الكتاب ، كالأنصار فإنه كان من أعظم أسباب إسلامهم ما كانوا يسمعونه من جيرانهم أهل الكتاب من ذكره ونعته ، وانتظارهم إياه ، وأن من خيارهم من لم يسكن أرض يثرب مع شدتها ، ويدع أرض الشام مع رخائها إلا لانتظاره لهذا النبى العربى الذى يبعث من ولد إسماعيل .

ولم يمكن أحد قط أن ينقل عن شىء من الكتب أنه وجد فيها ذكره بالذم والتكذيب والتحذير كما يوجد ذكر الدجال .

وعند أهل الكتاب من ذكر أصحابه كعمر بن الخطاب وغيره ، وعدلهم وسيرتهم عن المسيح وغيره ، ما هو معروف عندهم .

فإذا كان الذين استخرجوا ذكره من كتب أهل الكتاب ، والذين سمعوا خبره من علماء أهل الكتاب إنما يذكرون نعته فيها بالمدح والثناء ، علم بذلك أن الأنبياء المتقدمين ، ذكروه بالمدح والثناء ، ولم يذكروه بذم ولا عيب .

وكل من ادَّعَى النبوة ومدحه الأنبياء وأثنوا عليه ، لم يكن إلا صادقا فى دعوى النبوة ، يمتنع أن الأنبياء يثنون على من يكذب فى دعوى النبوة ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ وهذا مما يبين أنه لابد أن يكون الأنبياء ذكروه وأخبروا به ، وأنهم لم يذكروه إلا بالثناء والمدح ، لا بالذم والعيب ، وذلك — مع دعوى النبوة — لا يكون إلا إذا كان صادقا فى دعوى النبوة فتبين أنهم بشروا بنبوته ، وهو المطلوب .

تبين من ذلك أن الأنبياء أخبروا أهل الكتاب بما سيكون منهم من

الأحداث،وما يسلط عليهم من الملوك الذين يقتلونهم و يخربون بلادهم و يسبونهم كـ « بخت نصَّر » وسنجاريب .

ولـكن هؤلاء الملوك لم يدّعوا أنهم أنبياء ، ولم يَدْعُوا إلى دين فلم تحتج الأنبياء إلى التحذير من اتباعهم وقد حذروا من اتباع من يَدَّعِى النبوة وهو كاذب .

ومحمد صلى الله عليه وسلم قد قهر أهل الـكتاب ، وسبى من سبى ، وقتل من قتل ، وأخرجهم من ديارهم ، فلا بد أن يذكروه و يذكروا الأحداث التى تجرى عليهم فى أيامه .

و إذا كان كاذباً مُدَّعِياً للنبوة ، فلا بد أن يحذروهم من اتباعه .

ومعلوم أن عامة أهل الـكتاب ومن نقل عنهم إما أن يقول : ليس موجوداً فى كتبنا أو يقول : إنه موجود بالمدح والثناء ، لا يمـكن أحد أن ينقل عن الـكتب المتقدمة أنه موجودفيها بالذم والتحذير .

ولو كان مذكوراً عندهم بالذم والتحذير ، لـكان هـذا من أعظم ما يحتجون به عليه فى حياته ، وعلى أمته بعد مماته ، ويحتج به من لم يسلم منهم على من أسلم .

فإنه معلوم أن كثيراً من أهل الـكتاب ، كان عندهم من البغض له والعداوة وتـكذيبه والحرص على إبطـالّ أمره ، ما أوجب أن يفتروا أشياء لم توجد ، ونسبوا إليه أشياء يعرف كذبها كل من عرف أمره حتى آل الأمر ببعضهم إلى أن فسروا قول المسلمين « الله أكبر » بأنه أكبر صنم وأن النبى أمرهم بتعظيم هذا الصنم .

وقال بعضهم فيه : إنه أوجب الزنا على المرأة المطلقة . ثلاثا ، عقوبة لزوجها بأنه لا ينـكحها حتى يزنى بها غيره .

وقال بعضهم : إنه تعلم من بحيرا الراهب ، مع علم كل من عرف سيرته بأنه

لم يجتمع به « بحيرا » وحده ، ولم يره إلا بعض نهار ومع أصحابه لما مروا به لما قدموا الشام فى تجارة ، وأن بحيرا ، سألهم عنه ولم يكلمه إلا كلمات يستخبره فيها عن حاله ولم يخبره بشىء.

ومع طعن بعض أهل الكتاب فيه بأنه بعث بالسيف ، حتى قد يقولوا إنما قام دينه بالسيف ، وحتى يوهموا الناس أن الذين اتبعوه إنما اتبعوه خوفا من السيف ، وحتى يقولوا : إن الخطيب إنما يتوكأ على سيف يوم الجمعة إشارة إلى أنه إنما يقوم الدين بالسيف ، إلى أمثال هذه الأمور التى هى من أظهر الأمور كذبا عليه ، يعرف أدنى الناس معرفة بحاله أنها كذب ، وهم ـ مع هذا ـ يتشبثون بها .

فلو كان عندهم أخبار عن الأنبياء توجب ذمه وتكذيبه والتحذير من متابعته ، لكان إظهارهم لذلك . واحتجاجهم به ، أقوى وأبلغ ، وكان ذلك مما يجب فى العادة اشتهاره بين خاصتهم وعامتهم ، قديماً وحديثاً ، وكان ظهور ذلك فيهم أولى من ظهور خبر الدجال فيهم وفى المسلمين ، فإن هذا الأمر من أعظم ما تتوفر الهمم والدواعى على نقله واشتهاره .

فإذا لم يكن كذلك ، علم أنه ليس فى كتب الأنبياء ما يوجب تكذيبه وذمه ، وقد قام الدليل على أنه لا بد من أن تذكره الأنبياء وتخبر بحاله ، فإذا لم يخبروا أنه كاذب، علم أنهم أخبروا أنه نبى صادق ، كما شاع ذلك وظهر واستفاض من وجوه كثيرة .

فالكتاب الذى بعث به ، مملوء بشهادة أهل الكتب له ، والكتب الموجودة ، فيها مواضع كثيرة شاهدة له من وجوه متعددة ، والأخبار متواترة عمن اطلع على ما فيها بذلك ، والأخبار متواترة عن أسلم لأجل ذلك ، وهذا مما يوجب القطع بأنه مذكور فيها بما يدل على صدقه فى دعوى النبوة ، وليس فيها ما يخبر بكذبه والتحذير منه ، وهذا هو المطلوب .

وفى الجملة أمره أظهر وأشهر ، وأعجب وأبهر ، وأخرق للعادة من كل أمر ظهر فى العالم من البشر .

ومثل هذا إذا كان كاذباً ، فلكذبه لوازم كثيرة جداً تفوق الحصر ، متقدمة ومقارنة ومتأخرة .

فإن من هو أدنى دعوة منه إذا كان كاذباً ، لزم كذبه من اللوازم ما يبين كذبه ، فكيف مثل هذا ؟ فإذا انتفت لوازم المكذب انتفى الملزوم .

وصدقه لازم لأمور كثيرة كلها تدل على صدقه : وثبوت الملزوم يقتضى ثبوت اللازم ، ماضيه ومقارنه ومتأخره .

ومدعى النبوة لا يخلو من الصدق أو الكذب ، وكل من الصدق والكذب له لوازم وملزومات ، فأدلة الصدق مستلزمة له ، وأدلة الكذب مستلزمة له ، والصدق له لوازم والكذب له لوازم .

فصدقه يعرف بنوعين ، بثبوت دلائل الصدق المستلزمة لصدقه ، وبانتفاء لوازم الكذب الموجب انتفاؤها انتفاء كذبه .

كما أن كذب الكذاب يعرف بأدلة كذبه المستلزمة لكذبه ، وبانتفاء لوازم الصدق المستلزم انتفاؤها لانتفاء صدقه ، والله أعلم .

والشيء يعرف تارة بما يدل على ثبوته ، وتارة بما يدل على انتفاء نقيضه ، وهو الذى يسمى قياس الخلف .

فإن الشيء إذا انحصر فى شيئين ، لزم من ثبوت أحدهما انتفاء الآخر ، ومن انتفاء أحدهما ثبوت الآخر .

ومدعى النبوة إما صادق ، وإما كاذب ، وكل منهما له لوازم . يدل انتفاؤها على انتفائه ، وله ملزومات ، يدل ثبوتها على ثبوته .

فدليل الشيء مستلزم له كأعلام النبوة ودلائلها ، وآيات الربوبية ، وأدلة الأحكام الشرعية وغير ذلك .

وانتفاء الشيء يعلم بما يستلزم نفيه كانتفاء لوازمه مثل صدق الكذاب .

يقال : لو كان صادقا ، لكان متصفاً بما يتصف به الصادقون .

وكذلك كذب الصادق يقال : لو كان كذابا لكان متصفاً بما يتصف به الكذاب فإنه قد عرف حال الأنبياء الصادقين والمتنبئين الكذابين ، فانتفاء لوازم الكذب ، دليل صدقه ، كما أن ثبوت ما يستلزم الصدق دليل صدقه .

وكذلك الكذاب يستدل على كذبه بما يستلزم كذبه ، وبانتفاء لوازم صدقه ، وهكذا سائر الأمور .

فصـــــل

ومما ينبغي أن يعرف ما قد نبهنا عليه غير مرة ، أن شهادة الكتب المتقدمة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، إما شهادتها بنبوته ، وإما شهادتها بمثل ما أخبر به هو من الآيات البينات على نبوته ونبوة من قبله ، وهو حجة على أهل الكتاب وعلى غير أهل الكتاب من أصناف المشركين والملحدين ، كما قد ذكر الله هذا النوع من الآيات في غير موضع من كتابه .

كما في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وقوله : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ وقوله : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ وقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ

الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ [المائدة : ٨٤] وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ [الإسراء١٠٧،١٠٨] وذلك مثل قوله فى التوراة ما قد ترجم بالعربية : « جاء الله من طور سينا » و بعضهم يقول فى الترجمة : « تجلى الله من طور سينا وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران » .

قال كثير من العلماء ــ واللفظ لمحمد بن قتيبة ــ ليس بهذا خفاء على من تدبر ولا غموض ، لأن مجيء الله من طور سينا إنزاله التوراة على موسى من طور سينا ، كالذى هو عند أهل الكتاب وعندنا ، وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح وكان المسيح من ساعير ــ أرض الخليل بقرية تدعى « ناصرة » ــ و باسمها سمى من اتبعه من نصارى .

وكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير بالمسيح ، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران ، إنزاله القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم . وجبال فاران هى جبال مكة .

قال : وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف فى أن فاران هى مكة ، فإن ادعوا أنها غير مكة ، فليس ينكر ذلك من تحريفهم و إفكهم .

قلنا : أليس فى التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر و إسماعيل فاران ؟ وقلنا : دلونا على الموضع الذى استعلن الله منه ، واسمه فاران والنبى الذى أنزل عليه كتاباً بعد المسيح . أو ليس « استعلن » و « علن » هما بمعنى واحد ؟ وهو ما ظهر وانكشف .

فهل تعلمون ظهر دين ظهور الإسلام وفشا فى مشارق الأرض ومغاربها فشوه؟

وقال أبو هاشم بن ظفر : « ساعير » جبل بالشام ، منه ظهرت نبوة المسيح .

قلت : وبجانب بيت لحم ، القرية التى ولد فيها المسيح ، قرية تسمى إلى اليوم ساعير ، ولها جبال تسمى ساعير .

وفى التوراة : أن نسل العيص كانوا سكانا بساعير ، وأمر الله موسى أن لا يؤذيهم .

وعلى هذا ، فيكون ذكر الجبال الثلاثة حقا ، جبل حراء الذى ليس حول مكة جبل أعلى منه ، ومنه كان نزول أول الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وحوله من الجبال ، جبال كثيرة ، حتى قد قيل : إن بمكة اثنى عشر ألف جبل وذلك المكان يسمى فاران ، إلى هذا اليوم ، وفيه كان ابتداء نزول القرآن .

والبرية التى بين مكة ، وطور سيناء تسمى برية فاران ، ولا يمكن أحداً أن يدعى أنه ــ بعد المسيح ــ نزل كتاب فى شىء من تلك الأرض ، ولا بعث نبى .

فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلا إرسال محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو ــ سبحانه ــ ذكر هذا بالتوراة على الترتيب الزمانى ، فذكر إنزال التوراة ، ثم الإنجيل ، ثم القرآن ، وهذه الكتب نور الله وهداه .

وقال فى الأول : جاء أو ظهر ؛ وفى الثانى : أشرق ؛ وفى الثالث : استعلن .

وكان مجىء التوراة مثل طلوع الفجر ، أو ماهو أظهر من ذلك ، ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس ازداد به النور والهدى .

وأما نزول القرآن ، فهو بمنزلة ظهور الشمس فى السماء ، ولهذا قال : واستعلن من جبال فاران ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم ، ظهر به نور الله وهداه فى مشرق الأرض ومغربها ، أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين ،

كما يظهر نور الشمس إذا استعلت فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولهذا سماه الله سراجاً منيراً ، وسمى الشمس سراجاً وهاجاً .

والخلق محتاجون إلى السراج المنير ، أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج ، فإن الوهاج يحتاجون إليه فى وقت دون وقت ، بل قد يتضررون به بعض الأوقات .

وأما السراج المنير ، فيحتاجون إليه كل وقت ، وفى كل مكان ، ليلاً ونهاراً ، سراً وعلانية .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « زويت لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زُوِىَ لى منها » .

وهذه الأماكن الثلاث أقسم الله بها فى القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

فأقسم بالتين والزيتون ، وهو الأرض المقدسة التى ينبت فيها ذلك ، ومنها بعث المسيح ، وأنزل عليه فيها الإنجيل ، وأقسم بطورسينا ، وهو الجبل الذى كلم الله فيه موسى ، وناداه من واديه الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، وأقسم بالبلد الأمين ، وهى مكة ، والبلد الذى أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه ، وهو الذى جعله الله حرماً آمناً ، ويتخطف الناس من حولهم ، وجعله آمناً ، خلقاً وأمراً ، قدراً وشرعاً ، فإن إبراهيم حرمه ودعا لأهله ؛ فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ

مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم : ٣٧] قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ : وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ١٢٥، ١٢٦] .

فأخبر الله تعالى أن إبراهيم دعا الله بأن يجعل مكة بلداً آمناً ، واستجاب الله لدعاء إبراهيم ، وبها بنى إبراهيم البيت كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧-١٢٩] وقد استجاب الله دعاء إبراهيم ، فبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وذكر ذلك في غير موضع قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦، ٩٧] وقال تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [سورة قريش] وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا : إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : ٥٧] وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ

النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت:٦٧]

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج : ٢٦ ـ ٢٩] قال تعالى : ﴿ جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٩٧] .

فقوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين ﴾ إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة ، التى ظهر فيها نوره وهداه ، وأنزل فيها كتبه الثلاثة ، التوراة ، والإنجيل ، والقرآن .

كما ذكر الثلاثة فى التوراة بقوله : جاء الله من طور سينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال « فاران » .

ولما كان ما فى التوراة خبراً عنها ، أخبر بها على ترتيبها الزمانى ، فقدم الأسبق فالأسبق .

وأما القرآن ، فإنه أقسم بها تعظيماً لشأنها ، وذلك تعظيم لقدرته سبحانه وآياته ، وكتبه ، ورسله .

فأقسم بها على وجه التدريج ، درجة بعد درجة ، فختمها بأعلى الدرجات .

فأقسم أولا ، بالتين والزيتون ، ثم بطور سينا ، ثم بمكة ، لأن أشرف الكتب الثلاثة ، القرآن ، ثم التوراة ، ثم الإنجيل ، وكذلك الأنبياء .

فأقسم بها على وجه التدريج ، كما فى قوله : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا *

فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات : ١ـ٣] .

فأقسم بطبقات المخلوقات ، طبقة بعد طبقة ، فأقسم بالرياح الذاريات ، ثم بالسحاب الحاملات للمطر ، فإنها فوق الرياح ، ثم بالجاريات يسراً .

وقد قيل : إنها السفن ، ولكن الأنسب أن تكون هى الكواكب المذكورة فى قوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ ، فسماها جوارى ، كما سمى الفلك جوارى فى قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِى فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ ، والكواكب فوق السحاب .

ثم قال : ﴿ فالمقسمات أمراً ﴾ ، وهى الملائكة ، التى هى أعلا درجة من هذا كله .

وما ذكر ابن قتيبة وغيره من علماء المسلمين ، من تربية إسماعيل فى برية « فاران » فهكذا هو فى التوراة ، قال فيها : « وغدا إبراهيم فأخذ الغلام وأخذ خبزاً وسقاء من ماء ، ودفعه إلى هاجر ، وحمله عليها ، وقال لها : اذهبى ، فانطلقت هاجر ، فضلت فى برية سبع ، ونفذ الماء الذى كان معها ، فطرحت الغلام تحت شجرة ، وجلست فى مقابلته على مقدار رمية سهم ، لئلا تبصر الغلام حين يموت ، ورفعت صوتها بالبكاء ، وسمع الله صوت الغلام ، فدعا ملك الله هاجر ، وقال لها : مالك يا هاجر ؟ لا تخشىْ فإن الله قد سمع صوت الغلام حيث هو ، فقومى فاحملى الغلام ، وشُدِّى يديك به ، فإنى جاعله لأمة عظيمة » .

وفتح الله عينها فبصرت بئر ماء ، فسقت الغلام وملأت سقاءها ، وكان الله مع الغلام ، فربى وسكن فى برية « فاران » .

فهذا خبر الله فى التوراة أن إسماعيل ربى وسكن فى برية فاران ، بعد أن كاد يموت من العطش ، وأن الله سقاه من بئر ماء .

وقد علم بالتواتر ، واتفاق الأمم أن إسماعيل إنما ربى بمكة ، وهو وأبوه إبراهيم بنيا البيت ، فعلم أن أرض مكة من فاران .

والله تعالى قد أخبر فى القرآن فى غير موضع بكون إسماعيل كان بمكة ، فقال عن الخليل ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

وقال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ، قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ * وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

وهذه البشارة التى فى التوراة لهاجر بإسماعيل ، وقول الله : ﴿ إنى جاعله لأمة عظيمة ﴾ ومعظمة جداً جداً ، و إن هاجر فتحت عينها فرأت بئر ماء فدنت منها ، وملأت المزادة ، وشربت وسقت الصبي ، وكان الله معها ، ومع الصبي حتى تربى ، وكان مسكنه فى برية « فاران » .

وفى موضع آخر قال عن إسماعيل : إنه يجعل يده فوق أيدى الجميع .

ومعلوم باتفاق الأمم ، والنقل المتواتر أن إسماعيل تربَّى بأرض مكة ، فعلم أنها « فاران » ، وأنه هو وإبراهيم بنيا البيت الحرام الذى مازال محجوجاً

من عهد إبراهيم ، تحجه العرب ، وغير العرب من الأنبياء وغيرهم ، كما حج إليه موسى بن عمران ، ويونس بن مَتَّى ، كما فى الصحيح من رواية ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بوادى الأزرق بين مكة والمدينة ، فقال : « أيُّ وادٍ هذا ؟ » ، فقالوا : هذا وادى الأزرق ، فقال : « كأنى أنظر إلى موسى صلى الله عليه وسلم هابطاً من الثنية ، واضعاً أصبعيه فى أذنيه ، له جؤار إلى الله عز وجل فى التلبية ، ماراً بهذا الوادى » قال : ثم سرنا حتى أتينا على ثنية ، فقال : « أيُّ ثنية هذه ؟ » قالوا : هو شيء ، فقال : « كأنى أنظر إلى يونس على ناقة حمراء ، عليه جبة صوف ، خطام ناقته ليف خلبة ، مارًّا بهذا الوادى ملبيا » .

وفى رواية : « أما موسى فرجل آدم ، جعـد على جمل أحمر مخطوم بخلبة ليفه » .

ولمـا بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، أوجب حجه على كل أحد ، فحجت إليه الأمم من مشارق الأرض ومغاربها .

والبئر الذى شرب منها إسماعيل وأمه ، هى بئر زمزم ، وحديثها مذكور فى صحيح البخارى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل ، اتخذت منطقاً ليعفى أثرها على سارة .

ثم جاء بها إبراهيم ، و بابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعها عند البيت ، عند دوحة فوق زمزم ، فى أعلا المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحـد ، وليس بها ماء ، فوضعها هنالك ، ووضع عندها جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء .

ثم قفا إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى ، ليس فيه إنس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها .

فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذاً لا يضيعنا

وفى لفظ « وتبعته أم إسماعيل حتى بلغوا كداء ، نادته من وراء يا إبراهيم إلى من تتركنا ؟ قال : إلى الله ، قالت : رضيت بالله ، ثم رجعت .

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند البيت ، حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهذه الدعوات ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ـ حتى بلغ ـ يَشْكُرُونَ ﴾ .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل ، وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفذ ما فى السقاء وعطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ، أو قال يتلبّط ، انطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر ، هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا ، حتى إذا بلغت الوادى ، رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود ، حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة ، فقامت عليها ونظرت ، هل ترى من أحد ؟ فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : فلذلك سعى الناس بينهما .

فلما أشرفت على المروة ، سمعت صوتاً ، فقالت : صه ، تريد نفسها ، ثم سمعت فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه ، أو قال : بجناحه ، حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوطه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ماتغرف .

قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يرحم الله أم إسماعيل ، لو تركت زمزم » ، أو قال : « لو لم تغرف من الماء ، لكان زمزم عيناً معيناً » .

قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة ، فإن ههنا بيت الله ، يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول ، فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك ، حتى مرت بهم رفقة من جُرْهُم أو أهل بيت من جرهم ، مقبلين من طريق كذا ، فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائراً عايفاً ، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى ، وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا .

قال : وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ فقالت : نعم ؟ ولكن لا حق لكم فى الماء ، قالوا : نعم .

قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس ، فنزلوا فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشبَّ الغلام ، وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم ، وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زَوَّجُوه امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل .

فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل ، يطالع تركته فلم يجد ، فسأل امرأته فقالت : خرج يبتغى لنا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : بِشَرٍّ نحن فى ضيق وشدة ، فشكت إليه .

قال : إذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، وقولى له ، يغير عتبة بابه .

فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً ، فقال : هل جاءكم من أحد ؟

قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنَّا فى جهد وشدة .

قال: فهل أوصاك بشىء ؟ قالت: نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، وقال : تغير عتبة بابك ، قال : ذاك أبى ، قد أمرنى أن أفارقك ، الحقى بأهلك فطلقها .

ثم تزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد ، فلم يجده .

فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا .

قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله .

فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء ، قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم ، دعا لهم فيه » قال : فهما لا يخلو عنهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه » .

قال : فإذا جاء زوجك ، فاقرئى عليه السلام ، ومريه أن يثبت عتبة بابه .

فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟

قالت: نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألنى عنك ، فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير .

قال فأوصاك بشىء ؟ قالت : نعم ، هو يقرأ عليك السلام ويقول لك : أن تثبت عتبة بابك .

قال : ذاك أبى ، وأنت العتبة ، أمرنى أن أمسكك .

ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلاً له ، تحت دوحة قريباً من زمزم .

فلما رآه ، قام إليه ، فصنع كما يصنع الولد بالوالد ، والوالد بالولد .

ثم قال : يا إسماعيل ، إن الله أمرنى بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعيننى ؟ قال : وأعينك .

قال : فإن الله أمرنى أن أبنى هاهنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها .

قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة ، وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء ، جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يبنى ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : « رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » قال فجعلا يبنيان ، حتى يدورا حول البيت ، وهما يقولان : « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » .

وكانت بئر زمزم قد عميت ثم أحياها عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ، وصارت السقاية في ولده في العباس وأولاده ، يسقون منها ، ويسقون أيضاً الشراب الحلو ، والشرب من ذلك سنة .

والله تعالى قال في إسماعيل : « إني جاعله لأمة عظيمة ومعظمة جداً جداً » وهذا التعظيم المؤكد بـ « جدًا جداً » يقتضى أن يكون تعظيما مبالغاً .

فلو قدر أن البيت الذى بناه لا يحج إليه أحد ، وأن ذريته ليس منهم شيء ، كما يقوله كفرة أهل الكتاب ، لم يكن هناك تعظيم مبالغاً فيه بجداً جداً ، إذ أكثر ما في ذلك أن يكون له ذرية .

ومجرد كون الرجل له نسل وعقب ، لا يعظم به إلا إذا كان في الذرية مؤمنون مطيعون لله

وكذلك قوله « أجعله لأمة عظيمة » إن كانت تلك الأمة كافرة ، لم تكن عظيمة ، بل كان يكون أبا لأمة كافرة ، فعلم أن هذه الأمة العظيمة ، كانوا مؤمنين ، وهؤلاء يحجون البيت ، فعلم أن حج البيت مما يحبه الله ويأمر به .

وليس في أهل الكتاب إلا المسلمون ، فعلم أنهم الذين فعلوا ما يحبه الله ويرضاه ، وأنهم وسلفهم الذين كانوا يحجون البيت ، أمة أثنى الله عليها ، وشرفها ، وأن إسماعيل عظمه الله جداً جداً ، بما جعل في ذريته من الإيمان والنبوة ، وهذا هو ، كما امتن الله على نوح وإبراهيم بقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ وقال في الخليل : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ ولما قال في نوح : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ كان في ذريته أهل الإيمان كلهم .

فعلم بذلك أن إسماعيل وذريته معظمون عند الله ممدوحون ، وأن إسماعيل

معظم جداً جداً ، كما عظم الله نوحا وإبراهيم ، وإن كان إبراهيم أفضل من إسماعيل .

لكن المقصود أن هذا التعظيم له ولذريته إنما يكون إذا كانت ذريته معظمة على دين حق وهؤلاء يحجون إلى هذا البيت ، ولا يحج إليه بعد مجيء محمد غيرهم .

ولهذا لما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ قالت اليهود أو بعض أهل الكتاب : فنحن مسلمون ، قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ فقالوا : لا نحج فقال : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وأيضاً فهذا التعظيم المبالغ فيه ، الذى صار به ولد إسماعيل فوق الناس ، لم يظهر إلا بنبوة محمد ، فدل ذلك على أنها حق مبشر به .

ومثل هذا بشارة أخرى بمحمد صلى الله عليه وسلم ، من كلام « شمعون » بما رضوه من ترجمتهم ، وهو : « جاء الله بالبينات من جبال فاران ، وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته » .

فهذا تصريح بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى جاء بالنبوة من جبال « فاران » وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته .

ولم يخرج أحد قط ، وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته ، مما يسمى « فاران » سوى محمد صلى الله عليه وسلم .

فإن المسيح لم يكن بأرض فاران ألبتة .

وموسى إنما كُلِّمَ من الطور ، والطور ليس من أرض فاران ، وإن كانت البرية التى بين الطور وأرض الحجاز من فاران ، فلم ينزل الله فيها التوراة : وبشارات التوراة قد تقدمت بجبل الطور ، وبشارة الإنجيل بجبل « ساعير » .

ومثل هذا ما نقل عن نبوة « حبقوق » أنه قال : جاء الله من التيمن ،

وظهر القدس على جبال « فاران » وامتلأت الأرض من تحميد « أحمد » وملك بيمينه رقاب الأمم ، وأنارت الأرض لنوره ، وحملت خيله فى البحر .

ومن ذلك ما فى التوراة التى بأيديهم فى السفر الأول منها ، وهى خمسة أسفار فى الفصل التاسع فى قصة هاجر ، لما فارقت سارة وخاطبها الملك فقال : « يا هاجر من أين أقبلت وإلى أين تريدين » .

فلما شرحت له الحال قال : ارجعى فإنى سأكثر ذريتك وزرعك حتى لايُحْصَوْنَ ، وها أنت تحبلين وتلدين ابناً تسمينه إسماعيل ، لأن الله قد سمع تذللك وخضوعك ، وولدك يكون وحى الناس ، ويكون يده فوق الجميع ، ويد الكل به ، ويكون مسكنه على تخوم جميع إخوته .

قال المستخرجون لهذه البشارة : معلوم أن يد بنى إسماعيل قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن فوق أيدى بنى إسحاق ، بل كان فى بنى إسحاق النبوة والكتاب ، وقد دخلوا مصر زمن يوسف مع يعقوب فلم يكن لبنى إسماعيل فوقهم يد ، ثم خرجوا منها لما بعث موسى ، وكانوا مع موسى أعز أهل الأرض ، لم يكن لأحد عليهم يد ، ثم مع يوشع بعده إلى زمن داود ، وملك سليمان الذى لم يؤت أحد مثله ، وسلط عليهم بعد ذلك بخت نصر ، فلم يكن لبنى إسماعيل عليهم أمر ، ثم بعث المسيح وخرب بيت المقدس الخراب الثانى ، حيث أفسدوا فى الأرض مرتين ، ومن حينئذ زال ملكهم وقطّعهم الله فى الأرض أمماً ، وكانوا تحت حكم الروم والفرس والقبط ، ولم يكن للعرب عليهم حكم أكثر من غيرهم ، فلم يكن لولد إسماعيل سلطان على أحد من الأمم ، لا أهل الكتاب ولا الأميين فلم يكن يد ولد إسماعيل فوق الجميع حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم الذى دعا به إبراهيم وإسماعيل حيث قالا : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

فلما بعث ، صارت يد ولد إسماعيل فوق الجميع ، فلم يكن فى الأرض سلطان أعز من سلطانهم، وقهروا فارس والروم وغيرهم من الأمم ، وقهروا اليهود والنصارى والمجوس والمشركين والصابئين .

فظهر بذلك تحقيق قوله فى التوراة «وتكون يده فوق الجميع ، و يد الكل به » وهذا أمر مستمر إلى آخر الدهر .

فإن قيل : هذه بشارة بملكه وظهوره ؟ .

قيل : الملك ملكان ، ملك ليس فيه دعوى نبوة ، وهذا لم يكن لبنى إسماعيل على الجميع وملك صدر عن دعوى نبوة .

فإن كان مدعى النبوة كاذباً ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ ، وهذا من شر الناس وأكذبهم وأظلمهم وأجرمهم ، وملكه شر من ملك الظالم الذى لم يَدَّعِ نبوة كـ « بختنصر » وسنجاريب .

ومعلوم أن الأخبار بهذا لا يكون بشارة ، ولا تفرح سارة و إبراهيم بهذا كما لو قيل : يكون جبارا طاغياً يقهر الناس على طاعته ، و يقتلهم ، و يسبى حريمهم ، و يأخذ أموالهم بالباطل » فإن الإخبار بهذا لا يكون بشارة ، ولا بشر المخبر بذلك ، و إنما يكون بشارة تسره إذا كان ذلك يعدل وكان علوه محمودا لا إثم فيه وذلك من مدَّعِي النبوة لا يكون إلا وهو صادق لا كاذب .

فصل

وقال داود فى الز بور فى قوله : « سبحوا الله تسبيحاً جديداً » وليفرح بالخالق من اصطفى الله له أمته وأعطاه النصر ، وسدد الصالحين منهم بالكرامة ، يسبحونه على مضاجعهم ، و يكبرون الله بأصوات مرتفعة ، بأيديهم سيوف ذات شفرتين ، لينتقم بهم من الأمم الذين لا يعبدونه .

وهذه الصفات إنما تنطبق على صفات محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ، فهم الذين يكبرون الله بأصوات مرتفعة فى أذانهم للصلوات الخمس وعلى الأماكن العالية ، كما قال جابر بن عبد الله : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا علونا كَبَّرْنَا و إذا هبطنا سَبَّحْنَا فوضعت الصلاة على ذلك » رواه البخارى .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قفل من الجيوش ، أو السرايا ، أو الحج ، أو العمرة . إذا أوفى على ثنية أو فَدْفَدٍ · كبر ثلاثا ، ثم قال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، آيبون تائبون عابدون ساجدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

وفى صحيح البخارى عن أنس قال : « صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن معه بالمدينة الظهر أربعا ، والعصر بذى الحليفة ركعتين ، ثم بات بها حتى أصبح ، ثم ركب حتى استوت به راحلته على البيداء ، حمد الله وسبح وكبر ، ثم أَهَلَّ بعمرة وحج » وذكر الحديث .

وعن أبى هريرة : أن رجلا قال : يارسول الله إنى أريد أن أسافر فأوصنى . قال : « عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف » .

فلما أن ولّى الرجلُ قال : « اللهم اطْوِ له البعد وهوِّن عليه السفر » رواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى .

وروى ابن ماجه عنه « أوصيك بتقوى الله ، والتكبير على كل شرف .

وروى أبو داود وغيره بإسناد صحيح عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم وجيوشه إذا عَلَوْا شرفا كبروا ، و إذا هبطوا ، سبحوا .

وهم يكبرون الله بأصوات عالية مرتفعة فى أعيادهم، عيد الفطر ، وعيد النحر ،

فى الصلاة والخطبة ، وفى ذهابهم إلى موضع الصلاة ، وفى أيام « مِنًى » الحجاج ، وسائر أهل الأمصار يكبرن عقيب الصلوات : فإمام الصلاة يسن له الحمد والتكبير .

وذكر البخارى عن عمر بن الخطاب : أنه كان يكبر فى قبه بمنى ، فيسمعه أهل المسجد فيكبرون بتكبيره . فيسمعهم أهل الأسواق فيكبرون ، حتى ترتج منى تكبيراً .

وقال : وكان ابن عمر وابن عباس،يخرجان إلى السوق أيام العشر ، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما ، ويكبرون على قرابينهم وهَدْيهم وضحاياهم ، كما كان نبيهم يقول عند الذبح : « بسم الله والله أكبر » ويكبرون إذا رموا الجمار ، ويكبرون عند الصفا والمروة ، ويكبرون فى الطواف عند محاذاة الركن ، وكل هذا يجهرون فيه بالتكبير غير ما يسرونه .

قال تعالى : لما ذكر صوم رمضان الذى يقيمون له عيد الفطر : ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وقال ــ لما ذكر الهدى الذى يقرب فى عيد النحر ، وهو يوم الحج الأكبر قال ــ : ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج ٣٦ ، ٣٧] والنصارى يسمون عيد المسلمين « عيد الله الأكبر » لظهور التكبير فيه ، وليس هذا لأحد من الأمم ، لا أهل الكتاب ، ولا غيرهم ، غير المسلمين ، وإنما كان موسى يجمع بنى إسرائيل بالبوق ، والنصارى شعارهم الناقوس .

وأما تكبير الله بأصوات مرتفعة ، فإنما هو شعار المسلمين ، فإن الأذان شعار المسلمين ، وبهذا يظهر تقصير من فسر ذلك بتلبية الحجاج .

وفى الصحيحين عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا غزا أقواماً ، لم يغز حتى يصبح ، فإن سمع أذاناً أمسك ، وإن لم يسمع أذانا أغار بعد ما يصبح »

وفى لفظ مسلم « كان يغير إذا طلع الفجر وكان يستمع الأذان ، فإن سمع أذانا أمسك وإلا أغار » ، فسمع رجلا يقول : الله أكبر الله أكبر ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : «على الفطرة» ثم قال: «أشهد أن لا إله إلا الله» فقال : «خرجت من النار» .

وعن عصام المزنى قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا بعث السرية يقول : « إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم منادياً فلا تقتلوا أحداً » رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه .

وكذلك قوله : « بأيديهم سيوف ذات شفرتين » وهى السيوف العربية التى بها فتح الصحابة وأتباعهم البلاد .

وقوله : « يسبحونه على مضاجعهم » بيان لنعت المؤمنين الذين يذكرون الله ، قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويصلى الفرض أحدهم قائماً ، فإن لم يستطع فقاعدا ، فإن لم يستطع ، فعلى جنب ، فلا يتركون ذكر الله فى حال ، بل يذكرونه حتى فى هذه الحال ، ويصلون فى البيوت على المضاجع . بخلاف أهل الكتاب

والصلاة أعظم التسبيح كما فى قوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ وقوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ .

وفى الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال : « كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ وهذا معنى قول داود : سبحوا الله تسبيحا جديداً يعنى التسابيح التى شرعها الله جديداً ، كالصلوات الخمس التى شرعها للمسلمين جديدا .

ولما أقامها جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم قال : « هذا وقتك ، ووقت الأنبياء قبلك » .

فكان الأنبياء يسبحون فى هذه الأوقات ، وذلك هو التسبيح المتقدم ، والتسبيح الجديد للمسلمين كما يدل عليه سائر الكلام .

ولا يمكن أن يكون ذلك للنصارى ، لأنهم لا يكبرون الله بأصوات مرتفعة ، ولا بأيديهم سيوف ذات شفرتين ، لينتقم الله بهم من الأمم ، بل أخبارهم تدل على أنهم كانوا مغلوبين مع الأمم ، ولم يكونوا يجاهدونهم بالسيف ، بل النصارى قد تعيب من يقاتل الكفار بالسيف .

ومنهم من يجعل هذا من معايب محمد صلى الله عليه وسلم وأمته ، ويغفلون عما عندهم من أن الله أمر موسى بقتال الكفار ، فقاتلهم بنو إسرائيل بأمره ، وقاتلهم يوشع ، وداود وغيرهما من الأنبياء ، وإبراهيم الخليل قاتل ، لدفع الظلم عن أصحابه .

فصل

قالوا : وقال داود فى مزاميره ـ وهى الزبور ـ : من أجل هذا بارك الله عليك إلى الأبد فتقلد ـ أيها الجبار ـ بالسيف لأن البهاء لوجهك ، والحمد الغالب عليك اركب كلمة الحق وسمة التأله ، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك وسهامك مسنونة والأمم يخرون تحتك .

قالوا : فليس متقلد السيف من الأنبياء بعد داود ، سوى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى خرت الأمم تحته ، وقرنت شرائعه بالهيبة ، كما قال صلى الله عليه وسلم « نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر » .

وقد أخبر داود أن له ناموساً وشرائع ، وخاطبه بلفظ الجبار ، إشارة إلى قوته وقهره لأعداء الله ، بخلاف المستضعف المقهور .

وهو صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة ، ونبى الملحمة ، وأمته أشداء على الكفار رحماء بينهم ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين .

بخلاف من كان ذليلا للطائفتين ، من النصارى المقهورين مع الكفار ، أو كان عزيزاً على المؤمنين من اليهود ، بل كان مستكبراً كلما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم ، كذبوا فريقاً وقتلوا فريقاً .

فصـــل

قالوا : وقال داود فى مزمور له : « إن ربنا عظيم محمود جداً » وفى ترجمة إلهنا قدوس ، ومحمد قد عم الأرض كلها فرحاً :

قالوا فقد نص داود على اسم محمد وبلده ، وسماها قرية الله ، وأخبر أن كلمته تعم الأرض كلها .

قلت : قد تقدم الحديث الصحيح لما قيل لعبد الله بن عمرو ، وروى أنه عبد الله بن سلام فى غير البخارى « أَخْبِرْنا ببعض صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة » فقال: « إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن ، وذكر صفته موجودة فى نبوة أشعياء ، وليست موجودة فى نفس كتاب موسى » .

وتقدم أن لفظ التوراة ، يقصدون به جنس الكتب التى عند أهل الكتاب وكذلك ما يوجد كثيراً من قول كعب الأحبار وغيره ، ممن ينقل عن

أهل الـكتاب : قرأت فى التوراة ، إنما يريدون به جنس الـكتاب الذى عند أهل الـكتاب ، لا يخصون بذلك كتاب موسى .

وإذا كان هذا معروفا عندهم ، وقد خوطبوا بهذه اللغة فإن قوله تعالى فى القرآن ﴿ يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾ يراد بالتوراة جنس الـكتب التى عند أهل الـكتاب ، فيتناول ذلك كتاب موسى ، وزبور داود ، وصحف سائر الأنبياء ، سوى الإنجيل ، فإنه ليس عند أهل الـكتاب ، وإنما هو عند النصارى خاصة .

وأما سائر كتب الأنبياء ، فالأمتان يُقرَّان بها ويؤيد ذلك أن الله كثيرا ما يقرن فى القرآن بين التوراة والإنجيل وإنما يذكر الزبور مفردا كقوله تعالى : ﴿ الم اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ١ـ٤] وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾ وأهل الـكتاب يجدونه مكتوبا فى الـكتب التى بأيديهم ، وهو فى كثير منها أصرح مما هو فى كتاب موسى خاصة .

فإذا أريد بالتوراة جنس الـكتب ، فلا يستريب عاقل فى كثرة ذكره ونعته ونعت أمته فى تلك الـكتب .

ومعلوم أن الله أراد بذلك ، الاستشهاد بوجوده فى تلك الـكتب ، وإقامة الحجة بذكره فيها .

فإذا كان ذكره فى غير كتاب موسى أكبر وأظهر عندهم ، كان الاستدلال بذلك أولى من تخصيص الاستدلال بكتاب موسى .

فإذا حمل لفظ التوراة فى هذا على جنس الـكتب ، كما هو موجود فى لغة

من تكلم بذلك من الصحابة والتابعين ، كان هذا فى غاية البيان والمدح للقرآن والكتب المتقدمة ، وتصديق بعضها بعضاً .

وقد أمرنا أن نؤمن بما أوتى النبيون مطلقاً كما قال تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ وقال : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ والزبور ذكره مفرداً فى موضعين من القرآن فى قوله : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾ فذكره مفرداً .

وذكر كتاب موسى بهذه الإضافة ، لا بلفظ التوراة فى غير موضع فقال : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ وقال : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا : مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ .

وإذا كان لفظ التوراة يتناول الكتب التى عند أهل الكتاب جميعاً ، وغيره داخل فى هذا الاسم ، كان ظهور اسمه ونعته فى التوراة ووجودهم ذلك فيما عندهم وتكرره فى غاية القوة ، وكان معرفتهم لذلك ، كما يعرفون ابناءهم واضحاً بيناً ، وإن قدر أن هذه الكتب التى يعترف بها عامتهم لم يكتم منها شىء بل هى باقية كما كانت .

فصل

وقالوا : قال داود فى مزموره « لترتاح البوادى وقراها ، ولتصر أرض « قيذار » مروجاً ، وليسبح سكان الكهوف ويهتفوا من قلل الجبال بحمد الرب ، ويذيعوا تسابيحه فى الجزائر » .

قالوا : فمن البوادى من الأمم سوى أمة محمد ، ومن « قيذار » ، سوى ابن إسماعيل جد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن سكان الكهوف وتلك الجبال سوى العرب ؟

فصل

قالوا : وقال داود فى مزمور له « ويجوز من البحر إلى البحر ومن لدن الأنهار إلى منقطع الأرض ، ويخر أهل الجزائر بين يديه ، ويلحس أعداؤه التراب ، ويسجد له ملوك الفرس ، وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد ، ويخلص البائس المضطهد ممن هو أقوى منه ، وينقذ الضعيف الذى لا ناصر له ، ويرأف بالمساكين والضعفاء ، ويُصَلَّى عليه ويبارك فى كل حين » .

وهذه الصفات منطبقة على محمد وأمته ، لا على المسيح .

فإن محمداً جاز من البحر الرومىّ إلى البحر الفارسى ، ومن لدن الأنهار ، كسيحون وجيحون ، إلى منقطع الأرض بالمغرب ، كما قال : « زُوِيَت لى

الأرض ، مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زُوِىَ لى منها » .

وهو يصلى عليه ويبارك فى كل حين ، فى كل صلاة من الصلوات الخمس وغيرها ، يقول كل من أمته : اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، فيصلى عليه ويبارك .

وقدخرَّتْ أهل الجزائر بين يديه ، أهل جزيرة العرب ، وأهل الجزيرة التى بين الفرات ودجلة ، وأهل جزيرة قبرص ، وأهل جزائر الأندلس .

وخضعت له ملوك الفرس ، فلم يبق منهم إلا من أسلم أو أدّى الجزية عن يدوهم صاغرون . بخلاف ملوك الروم ، فإن فيهم من لم يسلم ويؤدى الجزية ، فلهذا خص ملوك فارس ودانت له الأمم .

فعامة الأمم التى تعرفه وتعرف أمته ، كانت إما مؤمنة به ، أو مسلمة له منافقة ، أو مهادنة مصالحة ، أو خائفة منهم ، وأنقذ الضعفاء من الجبارين .

وهذا بخلاف المسيح ، فإنه لم يتمكن هذا التمكن فى حياته ، ولا من اتبعه بعد موته تمكنوا هذا التمكن ، ولا جازوا ما ذكر ، ولا صُلِّىَ عليه وبورك عليه فى اليوم والليلة ، فإن النصارى يدَّعُون إلهية المسيح ، فلا يصلون عليه ، وإنما يصلون له .

فصـــــل

وقالوا فى نبوة أشعياء قال أشعياء : « فقيل لى قم نظاراً ، فانظر ماذا ترى ، فقلت : أرى راكبين مقبلين ، أحدهما على حمار ، والآخر على جمل يقول أحدهما لصاحبه : سقطت بابل وأصنامها للمنحر » .

قالوا : فراكب الحمار هو المسيح ، وراكب الجمل هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو أشهر بركوب الجمل من المسيح بركوب الحمار .

وبمحمد صلى الله عليه وسلم سقطت بابل .

فصــــل

ومما ينبغي أن يعرف : أن الـكتب المتقدمة بشَّرَتْ بالمسيح ، كما بشرت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك أنذرت بالمسيح الدجال .

والأمم الثلاثة ــ المسلمون ، واليهود ، والنصارى ــ متفقون على أن الأنبياء أنذرت بالمسيح الدجال ، وحذرت منه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « ما من نبي إلا وقد أنذر أمته المسيح الدجال ، حتى نوح أنذر أمته وسأقول لـكم فيه قولاً لم يقله نبي لأمته : إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه ك ف ر ، يقرأه كل مؤمن قارىء وغير قارىء » .

والأمم الثلاثة متفقون على أن الأنبياء بشروا بمسيح من ولد داود .

فالأمم الثلاثة متفقون على الإخبار بمسيح هُدًى من نسل داود ، ومسيح ضلالة وهم متفقون على أن مسيح الضلالة لم يأت بعد ، وسيأتى ، ومتفقون على أن مسيح الهدى سيأتى .

ثم المسلمون واليهود والنصارى ، متفقون على أن مسيح الهدى هو عيسى ابن مريم ، واليهود ينكرون أن يكون هو عيسى بن مريم مع إقرارهم بأنه من ولد داود .

قالوا : « لأن المسيح المبشر به تؤمن به الأمم كلها » وزعموا أن المسيحْ ابن مريم إنما بعث بدين النصارى ، وهو دين ظاهر البطلان ، ولهذا إذا خرج المسيح الدجال اتبعوه ، فيخرج معه سبعون ألف مطيلس من يهود أصبهان .

ويسلط المسلمون على اليهود ، فيقتلونهم حتى يقول الحجر والشجر : « يامسلم هذا يهودى ورائى ، تعال فاقتله » كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح .

والنصارى يُقِرُّون بأن المسيح مسيح الهدى بُعِثَ ويقرون ، بأنه سيأتى مرة ثانية ، لـكن يزعون أن هذا الإتيان الثانى ، هو يوم القيامة ، ليجزى ، الناس

بأعمالهم ، وهو - في زعمهم - هو الله ، والله الذي هو اللاهوت ، يأتى فى ناسوته ، كما زعموا أنه جاء قبل ذلك .

وأما المسلمون ، فآمنوا بما أخبرت به الأنبياء على وجهه ، وهو موافق لما أخبر به خاتم الرسل حيث قال فى الحديث الصحيح « يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَماً عدلاً ، وإماماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية »

وأخبر فى الحديث الصحيح أنه إذا خرج مسيح الضلالة الأعور الكذاب ، نزل عيسى ابن مريم على المنارة البيضاء شرقيَّ دمشق ، بين مهرودتين ، واضعاً يديه على منكبي ملكين ، فإذا رآه الدجال انماع كما ينماع الملح فى الماء ، فيدركه فيقتله بالحربة ، عند باب لُد الشرقىّ ، على بضع عشرة خطوة منه ، وهذا تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ أى يؤمن بالمسيح قبل أن يموت ، حين نزوله إلى الأرض ، وحينئذ لا يبقى يهودى ولا نصرانى ، ولا يبقى دين إلا دين الإسلام ، وهذا موجود فى نعته عند أهل الكتاب .

ولكن النصارى ظنوا أن ذلك مجيئه بعد قيام القيامة ، وأنه هو الله ، فغلطوا فى ذلك كما غلطوا فى مجيئه الأول . حيث ظنو أنه هو الله .

واليهود أنكروا مجيئه الأول ، وظنوا أن الذى بُشِّر به ليس هو إياه ، وليس هو الذى يأتى آخراً ، وصاروا ينتظرون غيره ، وإنما هو بعث إليهم أولاً فكذبوه ، وسيأتيهم ثانياً ؛ فيؤمن به كل من على وجه الأرض من يهودى ونصرانى ، من قتل أو مات ، ويظهر كذب هؤلاء الذين كذبوه ، ورموا أمه بالفرية ، وقالوا : إنه ولد زنا وهؤلاء الذين غَلَوْا فيه وقالوا : إنه الله .

ولما كان المسيح عليه السلام نازلاً فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، صار بينه و بين محمد من الاتصال . ماليس بينه و بين غير محمد ، ولهذا قال النبى صلى الله

عليه وسلم فى الحديث الصحيح « إن أولى الناس بابن مريم لأنا ، إنه ليس بينى و بينه نبى » .

وروى « كيف تهلك أمة أنا فى أولها ، وعيسى فى آخرها » .

وهذا مما يظهر به مناسبة اقترانهما فيما رواه أشعياء حيث قال : « راكب الحمار وراكب الجمل » .

فصـــــل

قالوا : وقال أشعياء النبى عليه السلام مثنياً على مكة شرفها الله : « ارفعى إلى ما حولك بصرك ، فستبتهجين وتفرحين من أجل أن الله يصير إليك ذخائر البحرين ، وتحجج إليك عساكر الأمم ، حتى يعم بك قطر الإبل المو بلة ، وتضيق أرضك عن القطرات التى تجتمع إليك ، وتساق إليك كباش مدين ، و يأتيك أهل سبأ ، و يسير إليك أغنام فاران ، و يخدمك رجال مأرب » يريد سدنة الكعبة وهم أولاد مأرب بن إسماعيل .

قالوا فهذه الصفات كلها حصلت بمكة ، فحملت إليها ذخائر البحرين ، وحج إليها عساكر الأمم ، وسيقت إليها أغنام فاران — الهدايا والأضاحى — و « فاران » هى البرية الواسعة التى فيها مكة ، وضاقت الأرض عن قطرات الإبل المو بلة الحاملة للناس ، وأزوادهم إليها ، وأتاها أهل سبأ ، وهم أهل اليمن .

فصـــــل

قالوا : وقال أشعياء للنبى صلى الله عليه وسلم معلناً باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى جعلت أمرك محمداً ، يامحمد ياقدوس الرب ، اسمك موجود من الأبد » .

قالوا : فهل بقى بعد ذلك لزائغ مقال ، أو لطاعن مجال ؟

وقول أشعياء : إن اسم محمد موجود من الأبد ، موافق لقول داود الذى حكيناه أن اسمه موجود قبل الشمس .

وقوله : « ياقدوس الرب » يعنى يامن طهره الرب ، وخلصه من شوائب بشريته واصطفاه لنفسه .

فصـــل

قالوا : وقال أشعياء « وشهد لهذه الأمة بالصلاح والديانة ، سأرفع علماً لأهل الأرض بعيداً ، فيصفر لهم من أقاصى الأرض ، فيأتون سراعاً » .

والنداء ، هو ماجاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، من التلبية فى الحج ، وهم الذين جعلوا لله الكرامة ، فوحدوه وعبدوه ، وأفردوه بالربوبية ، وكسروا الأصنام ، وعطلوا الأوثان .

والعلم المرفوع ، هو النبوة ، وصفيره ، دعاؤهم إلى بيته ومشاعره ، فيأتونه سامعين مطيعين .

فصـــل

قالوا : وقال أشعياء النبي والمراد مكة ، شرفها الله تعالى ، « سيرى واهتزى أيتها العاقر ، التى لم تلدى ، وانطقى بالتسبيح ، وافرحى إذ لم تحبلى ، فإن أهلك يكونون أكثر من أهلى - يعنى بأهله بيت المقدس - ويعنى بالعاقر - مكة شرفها الله - لأنها لم تلد قبل نبينا عليه السلام .

ولا يجوز أن يريد بالعاقر بيت المقدس ، لأنه بيت للأنبياء ، ومعدن الوحى ، فلم تزل تلك البقعة ولادة .

فصـــل

قالوا : وقال أشعياء النبي ونص على خاتم النبوة « وُلِدَ لنا غلام ، يكون عجباً وبشراً ، والشامة على كتفيه ، أركون السلام ، إله جبار ، وسلطانه سلطان السلام ، وهو ابن عامله ، يجلس على كرسى داود » .

قالوا : الأركون ، هو العظيم بلغة الإنجيل ، والأرا كنة المعظمون .

ولما أبرأ المسيح مجنوناً من جنونه ، قال اليهود : « إن هذا لايخرج الشياطين من الآدميين إلا بأركون الشياطين » يعنون عظيمهم .

وقال المسيح فى الإنجيل : « إن أركون هذا العالم يدان » يريد إما إبليس أو الشرير العظيم الشر من الآدميين ، وسماه إلهاً على نحو قول التوراة « إن الله جعل موسى إلهاً لفرعون » أى حاكما عليه ومتصرفا فيه ، وعلى نحو قول داود للعظماء من قومه : « إنكم آلهة » .

فقد شهد أشعيا بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ووصفه بأخص علاماته وأوضحها ، وهى شامته ، فلعمرى لم تكن الشامة لسليمان ، ولا للمسيح ، وقد وصفه بالجلوس على كرسى داود ، يعنى أنه سيرث بنى إسرائيل ، نبوتهم وملكهم ، ويبتزهم رياستهم .

فصـــــل

قالوا : وقال أشعياء فى وصف أمة محمد صلى الله عليه وسلم : « ستمتلىء البادية والمدن من أولاد قيدار ، يسبحون ، ومن رؤس الجبال ينادون ، هم الذين يجعلون لله الكرامة ، ويسبحونه فى البر والبحر » .

قلت : وقيدار ، هو ابن إسماعيل باتفاق الناس ، وربيعة ومضر من ولده ، ومحمد صلى الله عليه وسلم من مضر .

وهذا الامتلاء والتسبيح فى البر والبحر ، لم يحصل لهم إلا بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، والتسبيح الصلوات الخمس ، وقد جعلت لهم الأرض مسجداً وطهوراً ، فهم يصلون الخمس فى البر والبحر .

فصـــــل

قالوا : وقال أشعياء : والمراد مكة « أنا رسمتك على كفى ، وسيأتيك

أولادك سراعا ، ويخرج عنك من أراد أن يخيفك ويخربك ، فارفعى بصرك إلى ما حولك ، فإنهم سيأتونك ويجتمعون إليك ، فتسمى باسمى إنى أنا الحى ، لتلبسى الحلل ، وتزينى بالإكليل مثل العروس ، ولتضيقن خراباتك من كثرة سكانك والداعين فيك ، وليهابَنّ كل من يناويك ، وليكثرن أولادك حتى يقول : من رزق هؤلاء كلهم ؟ وأنا وحيدة فريدة ، يرون رقوب ، فمن ربى لى هؤلاء ، ومن تكفل لى بهم » ؟

قالوا : وذلك إيضاح من أشياء بشأن الكعبة ، فهى التى ألبسها الله الحلل الديباج الفاخرة ، ووكل بخدمتها الخلفاء والملوك ، ومكة هى التى بارك الله لها الأولاد من حجاجها ، والقاطنين بها .

قلت : وذلك أن مكة هى التى أخرج عنها كل من أراد أن يخيفها ويخربها ، فلم تزل عزيزة مكرمة محرمة ، لم يهنها أحد من البشر قط ، بل أصحاب الفيل لما قصدوها ، عذبهم الله العذاب المشهور ، ولم تزل عامرة محجوجة ، من لدن إبراهيم الخليل .

بخلاف بيت المقدس ، فإنه قد اخرب مرة بعد مرة ، وخلا من السكان واستولى العدو عليه وعلى أهله وكذلك إخباره بإهانة كل من يناويها ، هو للكعبة دون بيت المقدس كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

والحجاج بن يوسف كان معظماً للكعبة لم يرمها بمنجنيق ، وإنما قصد ابن الزبير خاصة . وأما كثرة أولادها ، وهم الذين يحجون إليها أو يستقبلونها فى صلاتهم ، فهم أضعاف أضعاف أولاد بيت المقدس .

فصــــل

قالوا : وقال أشعيا ـ حاكياً عن الله تعالى ـ : «اشكر حبيبى وابنى أحمد» . فسماه الله حبيباً وسماه ابنا .

وداود ابنا ، غير أن الله خصه عليهم بمزية فقال : « حبيبي ابنى اشكره » فتعبد أشعيا لشكر محمد ، ووجب عليه وعلى قومه شكره وإجلاله ، ليتبين قدره ومنزلته عنده . وتلك منزلة لم يؤتها غيره من الرسل .

وقال أشعيا : « إنا سمعنا من أطراف الأرض صوت محمد » وهذا إفصاح من أشعيا باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فَلْيُرِنَا أهل الكتاب نبياً نصّت الأنبياء على اسمه صريحاً ، سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فصـــــل

قالوا : وقال حبقوق ــ وسمى محمداً رسول الله صلى الله عليه مرتين فى نبوته ــ : « إن الله جاء من التيمن والقدوس من جبال فاران ، لقد أضاءت السماء من بهاء محمد ، وامتلأت الأرض من حمده ، شعاع منظره مثل النور ، يحوط بلاده بعزه ، تسير المنايا أمامه ، وتصحب سباع الطير أجناده ، فأمّ فسيح الأرض ، فتضعضعت له الجبال القديمة ، وانخفضت الروابى ، وتزعزعت ستور أهل مدين ، ولقد حاز المساعى القديمة » .

ثم قال « زجرك فى الأنهار واختتام صوامك فى البحار ، ركبت الخيول وعلوت مراكب الإيقاد ، وسينزع فى قسيك أغراقاً ونزعا ، وترتوى السهام بأمرك يا محمد ارتواء ، ولقد رأتك الجبال فارتاعت ، وانحرف عنك شؤبوب السيل ، وتعبرت المهاوى تعبرا ورعبا ، رفعت أيديها وجلاً وخوفاً ، وسارت العساكر فى بريق سهامك ولمعان تباريك ، تدوخ الأرض غضباً ، وتدوس الأمم زجراً ، لأنك ظهرت بخلاص أمتك ، وإنقاذ تراث آبائك » .

قالوا : وهذا تصريح بمحمد ، ومن رام صرف نبوة حبقوق هذه عن محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد رام ستر النهار ، وحبس الأنهار ، وأنّى يقدر على ذلك ؟!

وقد سماه باسمه مرتين ، وأخبر بقوة أمته وسير المنايا أمامهم ، واتباع جوارح الطير آثارهم .

وهذه النبوة لا تليق إلا بمحمد ، ولا تصلح إلا له ، ولا تدل إلا عليه . فمن حاول صرفها عنه ، فقد حاول ممتنعاً .

قلت : وقد ذكر فيها مجيء نور الله من التيمن ، وهي ناحية مكة والحجاز ، فإن أنبياء بني إسرائيل كانوا يكونون من ناحية الشام ، ومحمد صلى الله عليه وسلم جاء من ناحية اليمن ، وجبال فاران هي جبال مكة كما قد تقدم بيان ذلك ، وهذا مما لا يمكن النزاع فيه .

وأما امتلاء السماء من بهاء أحمد ، فأنوار الإيمان والقرآن التي ظهرت منه ومن أمته .

وامتلاء الأرض من حمده وحمد أمته في صلواتهم ، فأمر ظاهر ، فإن أمته هم الحامدون ، لابد لهم من حمد الله في كل صلاة وكل خطبة ، ولا بد لكل مُصَلٍّ في كل ركعة من أن يقول : « الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين » .

فإذا قال : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدني عبدي ، فإذا قال الرحمن الرحيم ، قال: أثنى عليّ عبدي ، فإذا قال: مالك يوم الدين ،قال: مجّدني عبدي.

فهم يفتتحون القيام في الصلاة بالتحميد ويختمونها بالتحميد وإذا رفعوا رءوسهم من الركوع ، يقول إمامهم : سمع الله لمن حمده ، ويقولون جميعاً : ربنا ولك الحمد ، ويختمون صلاتهم بتحميده ، بجعل التحيات له والصلوات والطيبات ، وأنواع تحميدهم فيه والثناء عليه ، مما يطول وصفه .

فصـــل

قالوا : وقال دانيال ـ وهو يهدد اليهود ، ويصف لهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ـ : « وإن الله يظهرهم عليكم ، وباعث فيهم نبيا ، ومنزل عليهم كتاباً ، ومملكهم رقابكم ، يقهرونكم ويذلونكم بالحق ، ويخرج رجال قيذار في جماعات

الشعوب ، معهم ملائكة على خيل بيض متسلحين ، فيحيطون بكم ، وتكون عاقبتكم إلى النار نعوذ بالله من النار » .

قلت : وذلك أن رجال بنى قيدار ، هم ربيعة ومضر أبناء عدنان ، وهما جميعاً من ولد قيدار بن إسماعيل ، والعرب كلهم من بنى عدنان ، و بنى قحطان .

فعدنان أبو ربيعة ومضر وأنمار من ولد إسماعيل باتفاق الناس .

وأما قحطان ، فقيل : هم من ولد إسماعيل ، وقيل : هم من ولد هود .

ومضر ولده إلياس ابن مضر ، و إلياس بن مضر وقريش ، هم من ولد إلياس بن مضر .

وهوازن ، مثل عقيل ، وكلاب ، وسعد بن بكر ، و بنو نمير ، وثقيف وغيرهم ، هم من ولد إلياس بن مضر .

وهؤلاء انتشروا فى الأرض ، فاستولوا على أرض الشام والجزيرة ومصر والعراق وغيرها ، حتى إنهم لما سكنوا الجزيرة بين الفرات ودجلة ، سكنت مضر فى حران وماقرب منها ، فسميت ديار مضر ، وسكنت ربيعة فى الموصل وماقرب منها ، فسميت ديار ربيعة .

وقال : « تنزل الملائكة على خيْل بيض » وهذا مما تواترت به الآثار أن الملائكة كانت تنزل على الخيل البيض ، فإنها نزلت يوم « بدر » لنصر النبى صلى الله عليه وسلم وأمته ، ونزلت يوم الأحزاب ، وأحاطت ببنى قريظة .

فهرس

الجزء الثالث من

كتاب « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح »

صفحة

٣ الحسن بن أيوب ، يتحدث عن اضطراب النصارى فى اتهامهم الإسلام .

١١ احتجاج « بطريرك الإسكندرية » على البدع « الكنسية » .

١٧ قسطنطين وأثره فى الديانة النصرانية .

٢٤ عيد الفصح عند النصارى واليهود .

٢٦ قصة « وجود الصليب » واكتشافه .

٢٨ استبداد الملوك النصارى مع المخالفين لهم فى الدين .

٣٢ مجمع القسطنطينية ــ ولعنهم المخالفين لأفكارهم .

٣٤ ظهور أهل الكهف فى عهد (ثذوس)

٣٧ مجمع (أفسس) لمناقشة مقالة (نسطورس) .

٤٥ اختلاف طوائف النصارى فى « الولادة والصلب » .

٥٣ ابن تيمية يناقش (المتحدث باسم المسيحية المحرفة) من وجوه .

٧٣ وجوه اتفاق القائلين « بوحدة الوجود » كابن عربى ، والقائلين باتحاد « اللاهوت والناسوت » من النصارى .

٨٤ الردّ على خرافة حلول « اللاهوت » فى « الناسوت » .

٨٨ ومن خرافات النصارى ، تمثيل حلول عيسى ــ بالكلمة الموجودة فى العقل

صفحة

٩٣ الردّ على من يدعى المشابهة بين عقيدة المسيحيين فى « المسيح » وعقيدة المسلمين فى « أزلية القرآن ».
١٠٣ كيف يصلب الإله ويموت ؟
١١٧ الإمام أحمد كره أن يتكلم فى « مسألة حلول كلام الله فى العباد » بنفى أو إثبات .
١٢٢ بدء اعتناق الحكومات للدين المسيحى .
١٢٥ ردود مفحمة على الذين يدعون حلول اللاهوت فى الناسوت .
١٣١ الكلام عن الله بغير علم .
١٣٧ مناظرة بين مسلم ونصرانى — حول التثليث عند النصارى وتوحيد الصفات عند المسلمين .
١٤٠ الفرق بين (توحيد الصفات) و (القول بالتجسيم) .
١٧٣ قول النصارى فى عقيدتهم . أقبح قول قاله أهل الملل .
١٩٣ من النصارى من يجعل مريم إلهاً مع الله .
١٩٦ لفظ (الابن) و (روح القدس) قد ورد فى (الإنجيل) فى حق غير المسيح .
١٩٩ من ضلال المسلمين — من قال بالاتحاد أو الحلول .
٢٠٢ بحث منطق كلامى حول الصفات — هل هى جواهر أو أعراض ؟
٢١٣ أرسطو . . . والمقولات العشر .
٢١٤ فلاسفة الملل ، أرادوا أن يقربوا بين مايراه أرسطو ، و بين ماتقرره أديانهم .

صفحة
٢٢٨ المسيحيون يرون أن شريعة « التوراة » شريعة العدل ، وأن شريعة « الإنجيل » شريعة الفضل ـ وأنه لا حاجة بالناس إلى شريعة الإسلام ـ وابن تيمية يردّ عليهم .
٢٣٥ نماذج مما فى « الشريعة الإسلامية » من فضل ـ عمّا فى الشريعتين السابقتين .
٢٤٠ (شريعة القرآن) هى الوسط بين (شدّة التوراة) و (لين الإنجيل)
٢٥٨ على المسيحيين ، إذا أرادوا أن يكون احتجاجهم بالتوراة والإنجيل ، علمياً ، أن يقيموا الأدلة على نبوة من يحتجون بكلامهم .
٢٦٠ لا يقوم على الباطل دليل صحيح .
٢٦٣ هل خالف محمد صلى الله عليه وسلم ، فى الخبريات الأنبياء السابقين ؟
٢٧٥ هل من لم تبشر به النبوات ليس بنبى .
٢٩٩ شهادات الكتب المتقدمة لمحمد صلى الله عليه وسلم .
٣٢١ داود يبشر فى مزاميره بمحمد صلى الله عليه وسلم .
٣٢٤ الديانات السابقة بشرت بمحمد والمسيح .
٣٢٦ أشعيا يتحدث عن مكة شرفها الله .
٣٢٨ أشعيا يصف أمة محمد صلى الله عليه وسلم .
٣٣٢ دانيال يصف الأمة المحمدية .

الجواب الصحيح

لمن بدل دين المسيح

لشيخ الاسلام ابن تيمية

٦٦١ — ٧٢٨

الجزء ٤

مطابع
المجد
التجارية

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل

وقال دانيال عليه السلام — وذكر محمداً صلى الله عليه وسلم باسمه فقال: « ستنزع فى قسيك اغراقاً، وترتوى السهام بأمرك يا محمد ارتواء ».

فهذا تصريح بغير تعريض، وتصحيح ليس فيه تمريض.

فإن نازع فى ذلك منازع فليوجد لنا آخر، اسمه محمد، له سهام تنزع، وأمر مطاع لا يدفع.

وقال دانيال النبى أيضاً، حين سأله بخت نصر، عن تأويل رؤيا رآها، ثم نسيها: رأيت أيها الملك صنما عظيما قائماً بين يديك، رأسه من ذهب، وساعداه من الفضة، وبطنه وفخذاه من النحاس، وساقاه من الحديد، ورجلاه من الخزف، ورأيت حجراً لم تقطعه يد إنسان، قد جاء وصك ذلك الصنم، فتفتت وتلاشى، وعاد رفاتا، ثم نسفته الرياح، فذهب وتحول ذلك الحجر، فصار جبلا عظيما حتى ملأ الأرض كلها، فهذا ما رأيت أيها الملك؟

فقال بخت نصر: صدقت فما تأويلها؟

قال دانيال: أنت الرأس الذى رأيته من الذهب، ويقوم بعدك ولداك اللذان رأيت من الفضة، وهما دونك، ويقوم بعدهما مملكة أخرى هى دونها، وهى التى تشبه النحاس، والمملكة الرابعة تكون قوية مثل الحديد الذى يدق كل شىء.

فأما الرجلان التى رأيت من خزف، فمملكة ضعيفة، وكلمتها سخيفة

وأما الحجر الذى رأيت قد صك ذلك الصنم العظيم ففتته، فهو نبى يقيمه

الله إله السماء والأرض من قبيلة بشريعة قوية ، فيدق جميع ملوك الأرض وأممها حتى تمتلىء منه الأرض ومن أمته ، ويدوم سلطان ذلك النبي إلى انقضاء الدنيا ، فهذا تعبير رؤياك أيها الملك .

قلت : فهذا بعث محمد صلى الله عليه وسلم لا بعث المسيح ، فهو الذى بعث بشريعة قوية دون جميع ملوك الأرض وأممها ، حتى امتلأت الأرض منه ومن أمته ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، وسلطانهم دائم لا يقدر أحد أن يزيله ، كما زال ملك اليهود ، وزال ملك النصارى عن خيار الأرض وأوساطها .

فصـــــل

قالوا : وقال دانيال النبي أيضاً : « سألت الله وتضرعت إليه أن يبين لى ما يكون من بنى إسرائيل ، وهل يتوب عليهم ويرد إليهم ملكهم ، ويبعث فيهم الأنبياء ، أو يجعل ذلك فى غيرهم ؟ فظهر لى الملك فى صورة شاب حسن الوجه ، فقال : السلام عليك يا دانيال ، إن الله يقول : إن بنى إسرائيل أغضبونى وتمردوا على ، وعبدوا من دونى آلهة أخرى ، وصاروا من بعد العلم إلى الجهل ، ومن بعد الصدق إلى الكذب ، فسلطت عليهم بخت نصر ، فقتل رجالهم ، وسبى ذراريهم ، وهدم مسجدهم ، وحرق كتبهم ، وكذلك فعل من بعده بهم ، وأنا غير راضٍ عنهم ، ولا مقيلهم عثرات ، فلا يزالون فى سَخَطِى حتى أبعث مسيحى ابن العذراء البتول ، وأختم ذلك عليهم باللعن والسخط ، فلا يزالون ملعونين ، عليهم الذلة والمسكنة حتى أبعث نبى بنى إسماعيل الذى بشرت به هاجر ، وأرسلت إليها ملاكى وبشرها ، وأوحى إلى ذلك النبى ، وأعلمه الأسماء ، وأزينه بالتقوى وأجعل البر شعاره ، والتقوى ضميره ، والصدق قوله ، والوفاء طبيعته ، والقصد سيرته ، والرشد سنته ، أخصه بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتب ، وناسخ لبعض ما فيها ، أسرى به إلى ، وأرقيه من سماء

إلى سماء حتى يعلو فأدنيه ، وأسلم عليه وأوحى إليه ، ثم أرده إلى عبادى بالسرور والغبطة ، حافظا لما استودع صادقاً فيما أمر ، يدعو إلى توحيدى باللين من القول والموعظة الحسنة ، لافظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ، رءوف بمن والاه ، رحيم بمن آمن به ، خشن على من عاداه ، فيدعو قومه إلى توحيدى وعبادتى ، ويخبرهم بما رأى من آياتى ، فيكذبونه ويؤذونه .

ثم سرد دانيال قصة رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أملاه عليه الملك ، حتى أوصل آخر أيام أمته بالنفخة ، وانقضاء الدنيا .

وهذه البشارة الآن عند اليهود والنصارى يقرءونها ، ويقولون : « لم يظهر صاحبها بعد » .

قال أبو العالية : فأنا قرأت ذلك المصحف ، وفيه صفتكم وأخباركم وسيرتكم ولحون كلامكم ، وكان أهل الناحية — يعنى أرض السوس حيث دانيال مدفون بها — إذا أجدبوا كشفوا عن قبره ، فيسقون ، فكتب أبو موسى فى ذلك إلى عمر بن الخطاب ، فكتب إليه عمر : أن احفر بالنهار ثلاثة عشر قبراً ، وادفنه بالليل فى واحد منها ، لئلا يفتتن الناس به .

فصــــــل

قالوا : قال كعب ـ وذكر صفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى التوراة ، ويريد بها التوراة التى هى أعم من التوراة المعينة ـ : أحمد عبدى المختار ، لا فظ ولا غليظ ، ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، يعفو ويغفر ، مولده بمكّا ، وهجرته طابا ، وملكه بالشام ، وأمته الحامدون ، يحمدون ، الله على كل نجد ، ويسبحونه فى كل نزلة ، ويغضون أطرافهم ، ويأتزرون على أنصافهم ، وهم رعاة الشمس ، ومؤذنهم فى جو السماء ، وصفُّهم

فى الجهاد والصلاة سواء ، رهبان بالليل ، أسد فى النهار ، لهم دوىّ كدوىّ النحل ، يصلون الصلاة حيث ما أدركتهم ولو على كناسة » .

فصـــل

قالوا : قال ابن أبى الزناد : حدثنى عبد الرحمن بن الحارث عن عمر بن حفص ، وكان من خيار الناس ، قال : « كان عند أبى وجدى ورقة يتوارثونها قبل الإسلام ، فيها اسم الله وقوله الحق ، وقول الظالمين تبار ، هذا الذكر لأمة تأتى فى آخر الزمان ، يتّزرون على أوساطهم ، و يرصدون أطرافهم ، و يخوضون البحور إلى أعدائهم ، فيهم صلاة لو كانت فى قوم نوح ما هلـكوا بالطوفان ، وفى ثمود ماهلـكوا بالصيحة » .

فصـــل

قالوا : قال أشعياء — وذكر قصة العرب فقال : « و يدوسون الأمم دياس البيادر ، و ينزل البلاء بمشركى العرب ، و ينهزمون بين يدى سيوف مسلولة وقسىّ موترة من شدة الملحمة » ، وهذا إخبار عما طرأ بعبدة الأوثان من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، و يوم حنين ، وفى غيرها من الوقائع .

بسم الله الرحمن الرحيم و به نثق

فصل فى كلمة الإنجيل و تفسيرها

قالوا : وقال يوحنا الإنجيلى : قال يسوع المسيح فى الفصل الخامس عشر من إنجيله « إن الفار قليط روح الحق الذى يرسله أبى ، هو يعلمـكم كل شىء » .

وقال يوحنا التلميذ أيضاً ، عن المسيح أنه قال لتلاميذه : « إن كنتم تحبونى

فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطاً آخر ، يثبت معكم إلى الأبد ، روح الحق الذى لم يطق العالم أن يقتلوه ، لأنهم لم يعرفوه ، ولست أدعكم أيتاماً لأنى سآتيكم عن قريب » .

وقال يوحنا : قال المسيح : « من يحبنى يحفظ كلمتى وأبى يحبه و إليه يأتى ، وعنده يتخذ المنزل ، كلمتكم بهذا لأنى عندكم مقيم ، والفارقليط روح الحق الذى يرسله أبى هو يعلمكم كل شىء ، وهو يذكركم كل ما قلت لكم ، استودعتكم وأمى ، لا تقلق قلوبكم ولا تجزع ، فإنى منطلق وعائد إليكم ، لو كنتم تحبونى ، كنتم تفرحون بمضيِّي إلى الأب ، فإن أنتم ثبتم فى كلامى ، وثبت كلامى فيكم ، كان لكم كل ما تريدون ، و بهذا يمجد أبى » .

وقال أيضاً : « إذا جاء الفارقليط الذى أبى أرسله ، روح الحق الذى من أبى ، هو يشهد لى ، قلت لكم هذا ، حتى إذا كان تؤمنوا به ، ولا تشكوا فيه » .

وقال أيضاً : « إن خيراً لكم أن أنطلق ، لأنى إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط ، فإذا انطلقت أرسلته إليكم ، فهو يوبخ العالم على الخطيئة ، وإن لى كلاماً كثيراً ، أريد أن أقوله ، ولكنكم لا تستطيعون حمله ، لكن إذا جاء روح الحق ذاك الذى يرشدُكم إلى جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بما يسمع ، ويخبركم بكل ما يأتى ، ويعرفكم جميع ما للأب » .

وقال يوحنا الحوارى : قال المسيح : « إن أركون العالم سيأتى ، وليس لى شىء » .

وقال مَتَّى التلميذ : قال المسيح : ألم يقرأوا أن الحجر الذى أرذله البناءون ، صار رأساً للزاوية من عند الله ، كان هذا ، وهو عجيب فى أعيننا ، ومن أجل ذلك أقول لكم : إن ملكوت الله سيؤخذ منكم و يدفع إلى أمة أخرى ، تأكل ثمرها ، ومن سقط على هذا الحجر ينشرح ، وكل من سقط هو عليه يمحقه » .

وقال يوحنا التلميذ ، فى كتاب رسائل التلاميذ المسمى بفراكسيس :

« يا أخاى ، إياكم أن تؤمنوا بكل روح ، لـكن مَيِّزُوا الأرواح التى من عند الله من غيرها ، واعلموا أن كل روح يؤمن بأن يسوع المسيح قد جاء وكان جسدانياً ، فهى من عند الله ، وكل روح لا يؤمن بأن يسوع المسيح جاء ، وكان جسدانياً ، فليست من عند الله ، بل من المسيح الـكذاب ، الذى سمعتم به ، وهو الآن فى العالم » .

وقال شمعون الصفا ، رئيس الحواريين ، فى كتاب فرا كسيس : « إنه قد حان أن يبتدىء الحـكم من بيت الله ابتداء » .

قلت : وهذا اللفظ ، لفظ الفار قليط ، فى لغتهم ذكروا فيه أقوالا .

قيل : إنه الحماد ، وقيل : إنه الحامد ، وقيل : إنه المعز ، وقيل : إنه الحمد ، ورجح هذا طائفة ، وقالوا : الذى يقوم عليه البرهان فى لغتهم أنه الحمد ، والدليل عليه قول يوشع : من عمل حسنة تـكون له فار قليط جيد ـ أى حمد جيد ـ وقولهم المشهور فى مخاطبتهم : فار قليط وفار قليطان وما زاد على الجميع ، أى حمد ، ومنه كما يقول تحويد ، ومنه هنا رويده يأتى بعد قوله : وواحد منها بقى عبرانياً .

ومن قال : معناه المخلص ، فيحتجون بأنهـا كلمة سريانية ، ومعناها المخلص ، وقالوا : هو مشتق من قولنا : « فار » ويقال بالسريانية « فاروق » لجمل فارق .

قالوا : ومعنى « ليط » كلمة يراد بها التثبت والتقدير ، كما يقال فى العربية : رجل هو ، وحجر هو ، وبدر هو ، وذكر هو .

قالوا : وكذلك يراد فى السريانية « ليط » .

والذين قالوا : هو المعز ، قالوا : هو فى لسان اليونان ، المعز .

ويعترض على هذين القولين بأن المسيح لم تـكن لغته سريانية ولا يونانية ، بل عبرانية .

ويجاب عنه بأنه تـكلم بالعبرانية ، وترجم عنه بلغة أخرى ، كما أملوا أحد

الأناجيل باليونانية ، وآخر بالسريانية ، والآخر بالرومية ، وواحـد منها بقي عبرانياً .

وقد اختلف فيه ، فمن النصارى من قال : هو روح نزلت على الحواريين ، وقد يقولون : إنه ألسن نارية نزلت من السماء على التلاميذ ، ففعلت الآيات والعجائب ، ولهذا يقول من خبر أحوال النصارى : إنه لم ير أحدا منهم يحسن تحقيق مجيء هذا الفارقليط الموعود به .

منهم من يزعم أنه المسيح نفسه ، لكونه جاء بعد الصلب بأربعين يوماً ، وكونه قام من قبره .

وتفسيره بالروح باطل ، وأبطل منه تفسيره بالمسيح لوجوه .

منها : ـ أن روح القدس ما زالت تنزل على الأنبياء والصالحين قبل المسيح وبعده ، وهذا مما اتفق عليه أهل الكتاب : أن روح القدس نزلت على الأنبياء والصالحين قبل المسيح وبعده ، وليست موصوفة بهذه الصفات وقد قال تعالى : ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت لما كان يهجو المشركين « اللهم أيده بروح القدس » وقال : « إن روح القدس معك مازلت تنافح عن نبيه » .

وإذا كان كذلك ولم يسم أحد هذه الروح فارقليطا دل على أن الفارقليط أمر غير هذه .

وأيضاً فمثل هذه مازالت يؤيد بها الأنبياء والصالحون وما بشر به المسيح أمر عظيم ، يأتي بعده أعظم من هذا .

وأيضاً فإنه وصف الفارقليط بصفات لاتناسب هذا وإنما تناسب رجلا يأتي

بعده نظيراً له ، فإنه قال : « إن كنتم تحبونى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطا آخر يثبت معكم إلى الأبد » .

فقوله « فارقليطا آخر » دل على أنه ثان لأول كان قبله ، ولم يكن معهم فى حياة المسيح إلا هو لم تنزل عليهم روح ، فعلم أن الذى يأتى بعده نظيراً له ، ليس أمراً معتادا يأتى الناس .

وأيضاً فإنه قال « يثبت معكم إلى الأبد » وهذا إنما يكون لما يدوم ويبقى معهم إلى آخر الدهر .

ومعلوم أنه لم يرد بقاء ذاته ، فعلم أنه بقاء شرعه وأمره ، فعلم أن الفارقليط الأول لم يثبت معهم شرعه ودينه إلى الأبد .

وهذا يبين أن هذا الثانى صاحب شرع لا ينسخ بخلاف الأول .

وهذا إنما ينطبق على محمد صلى الله عليه وسلم .

وأيضاً فإنه أخبر أن هذا الفارقليط الذى أخبر به ، يشهد له ، ويعلمهم كل شىء ، وأنه يذكرهم كل ما قال المسيح ، وأنه يوبخ العالم على الخطيئة فقال « والفارقليط الذى يرسله أبى ، هو يعلمكم كل شىء ، وهو يذكركم كل ما قلت لكم » .

وقال : « إذا جاء الفارقليط الذى أنى رسله ، وهو يشهد لى ، قلت لكم هذا ، حتى إذا كان تؤمنوا به ولا تشكوا فيه »

وقال « إن خيرا لكم أن أنطلق ، لأنى إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط ، فإذا انطلقت أرسلته إليكم ، فهو يوبخ العالم على الخطيئه ، وإن لى كلاما كثيرا أريد أن أقوله ، ولكنكم لا تستطيعون حمله ، لكن إذا جاء روح الحق ، ذاك الذى يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بما يسمع ، ويخبركم بكل ما يأتى ، ويعرفكم جميع ما للأب » .

فهذه الصفات والنعوت التى تلقوها عن المسيح ، لا تنطبق على شىء فى قلب

بعض الناس ، لايراه أحد ولا يسمع كلامه ، وإنما تنطبق على من يراه الناس ويسمعون كلامه ، فيشهد للمسيح ، ويعلمهم كل شيء ، ويذكرهم كل ما قال لهم المسيح ، ويوبخ العالم على الخطيئة ، ويرشد الناس إلى جميع الحق ، وهو لاينطق من عنده ، بل يتكلم بما يسمع ، ويخبرهم بكل مايأتى ، ويعرفهم جميع مالرب العالمين .

وهذا لايكون ملكا لايراه أحد ، ولا يكون هدى ولا علما فى قلب بعض الناس ، بل لايكون إلا إنسانا عظيم القدر ، يخاطب الناس بما أخبر به المسيح ، وهذا لايكون إلا بشرا رسولا بل يكون أعظم من المسيح ، فإن المسيح بين أنه يقدر على مالا يقدر عليه المسيح من خطاب الناس فى أمور عظيمة لاتحملها عقول أولئك ، ويعلم مالا يعلمه المسيح ، ويخبر بكل مايأتى وبما يستحقه الرب ، حيث قال : « وإن لى كلاما كثيرا ، أريد أن أقوله ، ولكنكم لاتستطيعون حمله ، ولكن إذا جاء روح الحق ، ذاك الذى يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بما يسمع ، ويخبركم بكل مايأتى ، ويعرفكم جميع ماللأب »

وهذه الصفات لاتنطبق إلا على محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن الإخبار عن الله بما هو متصف به من الصفات ، وعن ملائكته ، وعن ملكوته ، وعن ما أعده الله فى الجنة لأوليائه ، وفى النار لأعدائه ، أمر لايحتمل عقول كثير من الناس معرفته على التفصيل ، ولهذا قال علىّ رضى الله عنه : « حدثوا الناس بما يعرفون ، ودعوا ماينكرون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ »

وقال ابن مسعود : مامن رجل يحدث قوما حديثا لاتبلغه عقولهم ، إلا كان فتنة لبعضهم .

وسأل رجل ابن عباس عن قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ قال : مايؤمنك أن لو أخبرتك بتفسيرها لكفرت ، وكفرك بها تكذيبك بها

فقال لهم المسيح عليه السلام : « إن لى كلاما كثيرا أريد أن أقوله ،

ولكنكم لاتستطيعون حمله » وهو الصادق المصدوق فى هذا ولهذا ليس فى الإنجيل من صفات الله وصفات ملكوته ومن صفات اليوم الآخر إلا أمور مجملة ، وكذلك التوراة ليس فيها من ذكر اليوم الآخر إلا أمور مجملة ، مع أن موسى كان قد مهد الأمر للمسيح ، ومع هذا فقد قال لهم المسيح « إن لى كلاماً كثيراً أريد أن أقوله ، ولكنكم لاتستطيعون حمله » ثم قال : « ولكن إذا جاء روح الحق ، ذلك الذى يرشدكم إلى جميع الحق » وقال : « إنه يخبركم بكل مايأتى ، ويعرفكم بجميع ماللرب »

فدل هذا على أن هذا الفار قليط ، هو الذى يفعل هذا دون المسيح .

وكذلك كان محمد صلى الله عليه وسلم أرشد الناس إلى جميع الحق ، حتى أكمل الله له الدين ، وأتم به النعمة ، ولهذا كان خاتم الأنبياء فإنه لم يبق شىء يأتى به غيره ، وأخبر محمد صلى الله عليه وسلم بكل ما يأتى من أشراط الساعة والقيامة والحساب والصراط ووزن الأعمال ، والجنة وأنواع نعيمها ، والنار وأنواع عذابها ، فلهذا كان فى القرآن من تفصيل أمر الآخرة وذكر الجنة والنار ، وما يأتى من ذلك ، أمور كثيرة ، لا توجد ، لا فى التوراة ، ولا فى الانجيل ، وذلك تصديق قول المسيح : إنه يخبر بكل ما يأتى .

ومحمد بعثه الله بين يدى الساعة ، كما قال : « بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بإصبعيه ، السبابة والوسطى » .

وكان إذا ذكر الساعة ، علا صوته ، واحمر وجهه ، واشتد غضبه ، كأنه منذر جيش .

وقال : « إنى نذير لكم بين يَدَىْ عذاب شديد » .

وقال : « أنا النذير العريان » .

فأخبر من الأمور التى تأتى فى المستقبل بما لم يخبر به نبى من الأنبياء ، كما نعته به المسيح حيث قال : « إنه يخبركم بكل ما يأتى » ولا يوجد مثل هذا

قط عن أحد من الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، فضلا عن أن يوجد شيء ينزل على قلب بعض الحواريين .

وأيضاً فقال : « ويعرفكم جميع ما للرب » فبين أنه يعرف الناس جميع ما لله ، وذلك يتناول ما لله من الأسماء والصفات ، وماله من الحقوق وما يجب من الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله ، بحيث يكون ما يأتي به جامعاً لكل ما يستحقه الرب .

وهذا لم يأت به أحد غير محمد ، حيث يتضمن ما جاء به من الكتاب والحكمة ، هذا كله .

ومعلوم أن ما نزل على الحواريين ، لم يكن فيه هذا كله ولا نصفه ولا ثلثه، بل ما جاء به المسيح أعظم مما جاء به الحواريون ، وهذا الفارقليط الثانى جاء بأعظم مما جاء به المسيح .

وأيضاً ، فإن المسيح قال : « إذا جاء الفارقليط الذى أرسله أبى ، هو يشهد لى ، قلت لكم هذا ، حتى إذا كان تؤمنوا به ولا تشكوا فيه » .

فبين أنه أخبركم به لتؤمنوا به إذا جاء ولا تشكوا فيه ، وأنه يشهد له » وهذه صفة من بشر به المسيح ، ويشهد للمسيح كما قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] وأخبر أنه يوبخ العالم على الخطيئة ، ولم يوجد أحد وبخ جميع العالم على الخطيئة إلا محمداً صلى الله عليه وسلم ، فإنه أنذر جميع العالمين من أصناف الناس ، وو بخهم على الخطيئة من الكفر والفسوق والعصيان ، وو بخ جميع المشركين من العرب والهند والترك وغيرهم ، وو بخ المجوس ، وكانت مملكتهم أعظم الممالك ، وو بخ أهل الكتابين ، اليهود والنصارى ، وقال فى الحديث الصحيح عنه « إن الله نظر إلى أهل الأرض ، فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب »

لم يقتصر على مجرد الأمر والنهى ، بل و بخهم وقرعهم وتهددهم .

وأيضاً فإنه أخبر أنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع .

وهذا إخبار بأن كل ما يتكلم به فهو وحى يسمعه ، ليس هو شيئاً تعلمه من الناس ، أو عرفه باستنباطه ، وهذه خاصة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن المسيح ومن قبله من الأنبياء ، كانوا يتعلمون من غيرهم ، مع ما كان يوحى إليهم فعندهم علم غير ما يسمعونه من الوحى .

ومحمد صلى الله عليه وسلم لم ينطق إلا بما يسمعه من الوحى ، فهو مبلغ لما أرسل به ، وقد قيل له : ﴿ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة ٦٧] فضمن الله له العصمة إذا بلغ رسالاته ، فلهذا أرشد الناس إلى جميع الحق ، وألقى إلى الناس ما لم يمكن غيره من الأنبياء إلقاءه ، خوفاً أن يقتلوه ، كما يذكرون عن المسيح وغيره .

وقد أخبر المسيح بأنه لم يذكر لهم جميع ما عنده ، وأنهم لا يطيقون حمله .

وهم معترفون بأنه كان يخاف منهم ، إذا أخبرهم بحقائق الأمور .

ومحمد صلى الله عليه وسلم أيده الله تأييداً ، لم يؤيده لغيره ، فعصمه من الناس ، حتى لم يخف من شىء يقوله ، وأعطاه من البيان والعلم ، ما لم يؤته غيره .

فالكتاب الذى بعث به ، فيه من بيان حقائق الغيب ، ماليس فى كتاب غيره .

وأيد أمته تأييداً أطاقت به حمل ما ألقاه إليهم ، فلم يكونوا كأهل التوراة الذين حملوا التوراة ، ثم لم يحملوها ، ولا كأهل الإنجيل الذين قال لهم المسيح : « إن لى كلاما كثيراً أريد أن أقوله لكم ، ولكن لا تستطيعون حمله » .

وروى أن المسيح قال . « جئتكم بالأمثال ، وهو يجيئكم بالتأويل » .

ولا ريب أن أمة محمداً كمل عقولا ، وأعظم إيماناً ، وأتم تصديقاً وجهاداً.

ولهذا كانت علومهم وأعمالهم القلبية ، وإيمانهم ، أعظم .

وكانت العبادات البدنية لغيرهم أعظم قال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٥ ـ ٢٨٦] ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله قال : قد فعلت .

وأيضاً فإنه أخبر عن الفارقليط أنه يشهد له ، وأنه يعلمهم كل شىء ، وأنه يذكرهم كل ما قال المسيح ، ومعلوم أن هذا لايكون إلا إذا شهد له شهادة يسمعها الناس ، لا يكون هذا شيئاً فى قلب طائفة قليلة .

ولم يشهد أحد للمسيح شهادة سمعها عامة الناس إلا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه أظهر أمر المسيح وشهد له بالحق ، حتى سمع شهادته له عامة أهل الأرض ، وعلموا أنه صدق المسيح ونزهه عما افترته عليه اليهود ، وعما غلت فيه النصارى ، فهو الذى شهد له بالحق .

ولهذا لما سمع النجاشى من الصحابة ما شهد به محمد للمسيح قال لهم : « ما زاد عيسى على ما قلتم هذا العود » .

وجعل الله أمة محمد شهداء على الناس ، يشهدون عليهم بما علموه من الحق ، إذ كانوا وسطاً عدلا ، لا يشهدون بباطل ، فإن الشاهد لا يكون إلا عدلا ، بخلاف من جار فى شهادته فزاد على الحق أو نقص منه ، كشهادة اليهود والنصارى فى المسيح .

[١] وأيضاً ، فإن معنى الفارقليط ، إن كان هو الحامد أو الحماد أو الحمد أو المعز ، فهذا الوصف ظاهر فى محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه وأمته ، الحمادون ، الذين يحمدن الله على كل حال ، وهو صاحب لواء الحمد ، والحمد مفتاح خطبته ، ومفتاح صلاته .

ولما كان حمادا جوزى بوصفه ، فإن الجزاء من جنس العمل ، فكان اسمه محمداً وأحمد .

وأما محمد فهو على وزن مكرم ومعظم ، وهو الذى يحمد حمداً كثيراً مبالغاً فيه ، ويستحق ذلك ، فلما كان أحمد ، كان محمداً ، وفى شعر حسان بن ثابت :

وَشَقَّ لَهُ مِن اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهٰذَا مُحَمَّدُ

وأما أحمد ، فهو أفعل التفضيل ، هو أحمد من غيره ، أى أحق بأن يكون محموداً ، أكثر من غيره ، يقال هذا أحمد من هذا ، أى هذا أحق بأن يحمد من هذا ، فيكون فيه تفضيل له على غيره فى كونه محمداً .

فلفظ « محمد » يقتضى فضله فى الكمية ، ولفظ « أحمد » يقتضى فضله فى الكيفية .

ومن الناس من يقول : أحمد ، أى أكثر حمداً من غيره .

فعلى هذا يكون بمعنى الحامد والحماد .

وقال من رجح ، أن معنى الفارقليط فى لغتهم هو الحمد كما تقدم : وإذا كان كذلك فهو ما جاء فى القرآن : « وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » قالوا : ولا شك عندهم أنه اسم مشتق من الحمد ، مثل ما نقول فى لغتنا : ضارب ومضروب .

وأما من فسره بالمعز ، فلم يعرف قط نبى أعز أهل التوحيد لله والإيمان ، كما أعزهم محمد ، فهو أحق باسم المعز من كل إنسان .

وأما معنى المخلص ، فهو أيضاً ظاهر فيه ، فإن المسيح هو المخلص الأول ،

كما ذكر فى الإنجيل ، وهو معروف عند النصارى أن المسيح صلوات الله عليه قد سمى مخلصاً ، فيكون المسيح هو الفارقليط الأول ، وقد بشر بفارقليط آخر ، فإنه قال : « وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطا آخر ، يثبت معكم إلى الأبد » فهذا بشارة بمخلص ثانٍ يثبت معهم إلى الأبد ، والمسيح هو المخلص الأول .

وأما ما ينزل فى القلوب ، فلم يسمه أحد مخلصاً ، ولا فارقليطاً ، ولا يجوز أن يفسر كلام المسيح إلا بلغته ومعانيه المعروفة فى لغته ، التى خاطب بها ، وكذلك سائر الأنبياء ، بل وسائر الناطقين .

وقد وصف هذا المخلص الثانى بأنه يثبت معهم إلى الأبد .

ومحمد هو المخلص الذى جاء بشرع باق إلى الأبد ، لا ينسخ .

وأيضاً فإن فى الإنجيل ، إنجيل يوحنا ، أن المسيح قال : « إن أركون العالم سيأتى ، وليس لى شىء » .

وقد ذكروا أن الأركون بلغتهم عظيم القدر ، والأراكنة ، العظماء ، وقد كانوا يقولون عن المسيح : إن أركون الشياطين بعينه ، أى عظيم الشياطين ، وهو من افتراء اليهود على المسيح .

فقول المسيح عليه السلام « أركون العالم » إنما ينطبق على عظيم العالم ، وسيد العالم ، وكبير العالم .

وقد أخبر أنه سيأتى ، فامتنع أن يكون هذا الأركون المسيح أو أحداً مثله.

ولم يأت بعد المسيح من ساد العالم وأطاعه العالم ، غير محمد صلى الله عليه وسلم وهذا من بشارة المسيح به .

وقد سئل صلى الله عليه وسلم : ما كان أول أمرك ؟ قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورؤيا أمى ، رأت حين ولدتنى أنه خرج منها نور ، أضاءت له قصور الشام ببصرى »

وبالجملة ، فمعلوم باتفاق أهل الأرض ، والاضطرار ، أنه لم يأت بعد المسيح من ساد العالم ، باطناً وظاهراً ، وانقادت له القلوب والأجساد ، وأطيع فى السر والعلانية فى محياه وبعد مماته ، فى جميع الأعصار ، وأفضل الأقاليم شرقا وغربا ، أحد ، غير محمد ، فإن الملوك يطاعون ظاهرا لا باطناً ، ولا يطاعون بعد موتهم ، ولا يطيعهم أهل الدين طاعة يرجون بها ثواب الله فى الدار الآخرة ، ويخافون عقاب الله فى الدار الآخرة ، بخلاف الأنبياء .

محمد أظهر دين الرسل قبله ، وصدقهم ونوه بذكرهم وتعظيمهم ، فيه آمن بالأنبياء والرسل ، مثل موسى والمسيح وغيرهما ، أمم ، عظيمة ، لولا محمد لم يؤمنوا بهم .

ومن كان يعرف هؤلاء من أهل الكتاب ، كانوا مختلفين فيه كاختلاف أهل الكتاب فى المسيح ، وكانوا يقدحون فى داود وسليمان وغيرهما ، بما هو معروف عندهم .

وأيضاً فإنه ذكر لهم من الرسل مالم يكونوا يعرفونه ، مثل هود وصالح وشعيب وغيرهم .

ومحمد صلى الله عليه وسلم صدق المسيح فى أخباره ، بأنه أركون العالم ،فقال : أنا سيد ولد آدم ولا فخر . آدم فمن دونه تحت لوائى ، أنا خطيب الأنبياء إذا وفدوا ، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا .

وهو صاحب لواء الحمد ، وهو صاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون يوم القيامة ، فهو سيد العالمين حقاً ، وهذا مطابق لقول المسيح : « إنه أركون العالم » فهو أركون الآخرين فى الدنيا والآخرة ، وهو أركون الأولين والآخرين فى الآخرة .

وقول المسيح : « إن أركون العالم سيأتى ، وليس لى شىء » تضمن الأصلين

إثبات الرسول ، وإثبات التوحيد وأن الأمر كله لله ، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وقول المسيح : « ليس لى شىء » تنزيه له مما نُسِبَ إليه من الربوبية ، وهذا النفى يشترك فيه جميع الخلق ، قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران ١٢٨] وقال تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [الأنعام ٥٠] وقال : ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (أى ملجأ وملاذا) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [الجن : ٢١ ــ ٢٣] وقال تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ ﴾ [الأعراف : ١٨٨] .

وأيضا فنى نبوة أشعيا أنه وصف محمدا بأنه أركون السلم ، والسلم والسلام الإسلام ، فهو يبين أنه سيد دين الإسلام

ولا ريب أن الأنبياء كلهم بعثوا بدين الإسلام ، لكن لم يظهر هذا الدين واسمه ، وانتشر ذكره من بينهم فى الأرض ، كما ظهر لمحمد ، فمحمد أركون الإسلام الذى يجمع كل خير و بر ، كما أن إبليس أركون الشر ، قال تعالى عن نوح : ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ * فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٧١ ــ ٧٢] فهذا نوح أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض يذكر أنه أمر أن يكون من المسلمين .

وقال تعالى عن إبراهيم : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٠ - ١٣٢] ، ﴿ وَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤] وقالت بلقيس : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، [النحل : ٤٤] . وقالت السحرة ، لما أسلموا ، وأراد فرعون قتلهم : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ ، [الأعراف ١٢٦] . وَقَالَ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ ، [المائدة ٤٤] وَقَالَ : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ ، [المائدة ١١١] وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ، [المائدة ١١١] .

فإن قيل : فقد سمى المسيح الفارقليط روح الحق ، وسماه روح القدس .

قيل : قد قال يوحنا فى كتاب ، أخبار الحواريين المسمى « افراكيس » : « ياأحبابى إياكم أن تؤمنوا بكل روح ، لكن ميزوا الأرواح التى من عند الله من غيرها ، واعلموا أن كل روح يؤمن بأن يسوع المسيح قد جاء ، فكان جسدانيا فهى من عند الله ، وكل روح لايؤمن بأن المسيح قد جاء ، فكان جسدانيا ، فليست من عند الله ، بل من المسيح الكذاب الذى هو الآن فى العالم »

وإذا كان كذلك علم أن الروح - عندهم - يتناول النبي المرسل من البشر

وجبريل الذى نزل بالوحى على محمد ، هو روح القدس ، وهو روح الحق كما قال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [النحل ١٠٢] وقال : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : ١٩٣] وقال : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [البقرة ٩٧] وهذا الروح إنما جاء بمجىء محمد ، والكلام الذى نزل به ، هو الذى بلغه محمد ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ فاصطفى الله جبريل من الملائكة ، واصطفى محمدا من البشر ، ولهذا يشير القول الذى هو القرآن إلى نزول هذا تارة ، و إلى نزول هذا تارة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : ٢٠ ، ٢١] فهذا الرسول هنا جبريل وقال فى الأخرى ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٠ ، ٤٣] فهذا الرسول هنا محمد ، وأضافه إلى كل منهما بلفظ الرسول ، لتضمنه أنه بلغه عن مُرْسِله ، لم يقل : إنه لقول ملك ، ولا نبىّ بل كفَّرَ من قال : إنه قول البشر ، كما ذكر ذلك عن الوحيد ، وقد قال تعالى فى القرآن : ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [الطلاق ١٠ ، ١١] ومعلوم أن الرسول نفسه لم ينزله بل أبدل الرسول من الذكر لأن الرسول جاء بالذكر .

ولما كان الرسول الملكى والرسول البشرى والذكر المنزل أمورا متلازمة ، يلزم من ثبوت واحد ، ثبوت الآخرين ، ومن الإيمان بواحد ، الإيمان بالآخرين

فيلزم من كون القرآن حقاً، كون جبريل ومحمد حقا، وكذلك يلزم من كون محمد حقاً، كون جبريل والقرآن حقاً، ويلزم من كون جبريل حقاً كون القرآن ومحمد حقاً.

ولهذا جمع الله بين الإيمان بالملائكة وبالأنبياء من جهتين، من جهة أنهم أخبروا به قبل أن يبعث بسنين كثيرة، فكان الأمر كما أخبروا به. وهذا آية لنبوتهم.

وإخبارهم بنبوته، دليل على نبوته، فصار ما في الكتب المتقدمة من خبره، دليلا على نبوة من قبله، وعلى نبوته.

وكما أن إخباره هو أيضاً عنهم مع بعد العهد خبرا لم يتعلمه من بشر دليلا على نبوته وقد أخبر بنبوتهم، فثبتت نبوته ونبوتهم صلى الله عليهم أجمعين.

الجهة الثانية أنه أخبر بمثل ما أخبروا به من غير مواطأة بينهم وبينه، ولا تشاعر، لم يأخذوا عنه، ولم يأخذ عنهم.

وكل منهما أخبر عن الله بأخبار مفصلة، يمتنع الاتفاق عليها عادة إلا بتواطىء فإذا لم يكن تواطؤ وتشاعر، وامتنع اتفاق ذلك من غير مواطأة، علم أن كلا من المخبرين صادق قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ [يوسف: ٧] وقص قصته في السورة إلى أن قال: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ * وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٢ — ١٠٦] إلى قوله: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *

وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ • حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ • لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٨ — ١١١] وقال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف ٨٣] وقال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] وقال : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف : ٩] وقال تعالى ، لما قص قصة نوح فى سورة هود ، وهى أطول ماقصه الله فى القرآن من قصة نوح : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود ٤٩] فذكر سبحانه أن هذا الذى أوحاه إليه من أنباء الغيب ، ما كان يعلمه هو ولا قومه من قبل هذا .

فإذا لم يكن قومه يعلمون ذلك ، لا من أهل الكتاب ، ولا من غيرهم ، وهو لم يعاشر إلا قومه ، وقومه يعلمون ذلك منه ، ويعلمون أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك ، ويعلمون أيضاً أنه هو لم يكن تعلم ذلك ، وأنه لم يكن يعاشر غيرهم ، وهم لايعلمون ذلك ، صار هذا حجة على قومه ، وعلى من بلغه خبر قومه .

ومثل هذا ما أخبرهم عن قصة آدم ، وسجود الملائكة له ، وتزيين إبليس له حتى أكل من الشجرة ، وهبط هو وزوجته ، وأخبرهم عن نوح ودعاه على قومه ، ومكثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .

وهذا فى التوراة الموجودة بأيدى أهل الكتاب مقدار لبثه فى قومه قبل الغرق وبعده .

وأخبرهم عن قصة الخليل وما جرى له مع قومه ، وإلقائه فى النار ، وذبح ولده ، ومجىء الملائكة إليه فى صورة ضيفان ، وتبشيره بإسحاق ويعقوب ، وذهاب الملائكة إلى لوط ، وما جرى للوط مع قومه ، وإهلاك الله مدائن قوم لوط ، وقصة يعقوب مع بنيه ، كقصة يوسف وما جرى له بمصر ، وقصة موسى مع فرعون ، وتكليم الله إياه مرة بعد مرة ، وآياته كالعصا واليد البيضاء ، والقمل والضفادع والدم ، وفلق البحر ، وتظليل الغمام على بنى إسرائيل ، وإطعامهم المنّ والسلوى ، وانفجار الماء من الحجر اثنى عشر عينا لسَقْيهم ، وعبادتهم العجل ، وقتل بعضهم بعضا لما تاب الله عليهم ، وقصة البقرة ، ونتق الجبل فوقهم ، وقصة داود ، وقتله لجالوت ، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ، وقصة الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه ، وغير ذلك من أحوال بنى إسرائيل إلى أن ذكر قصة زكريا وابنه يحيى ، وعيسى ابن مريم ، وأحوال المسيح وآياته ، ودعائه لقومه ، والآيات التى بُعِثَ بها ، وتفاصيل ذلك ، وذكر قصة أصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين ، وغير ذلك من قصص الأنبياء والصالحين والكفار ، مفصلة مبينة بأحسن بيان ، وأتم معرفة ، مع علم قومه الذين يعرفون أحواله من صغره إلى أن ادّعى النبوة ، أنه لم يتعلم هذا من بشر ، بل لم يجتمع هو بأحد من البشر يعرف ذلك ، ولا كان عندهم بمكة من يعرف ذلك ، لا يهودى ولا نصرانى ولا غيرهم ، كان هذا من عظيم الآيات والبراهين لقومه بأن هذا إنما أعلمه به وأنبأه به الله ، ومثل هذا الغيب لا يعلمه إلا نبى أو من أخذ عن نبى فإذا لم يكن هو قد أخذه عن نبى ، تعيّن أن يكون نبياً .

ثم سائر أهل الأرض يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من بشر ، من طرق .

أحدها : ــ أن قومه المعادين له ، الذين هم من أحرص الناس على القدح فى نبوته ، مع كمال علمهم ، لو علموا أنه تعلم ذلك من بشر ، لطمنوا عليه بذلك وأظهروه ، فإنهم ــ مع علمهم ــ بحاله يمتنع أن لا يعلموا ذلك لو كان ، ومع حرصهم على القدح فيه ، يمتنع أن لا يقدحوا فيه ، و يمتنع أن لا يظهر ذلك .

الثانى : ــ أنه قد تواتر عن قومه أنهم كانوا يقولون : إنه لم يكن يجتمع به من يعلمه ذلك .

الثالث : ــ أنه لو كانت هذه القصص المتنوعة قد تعلمها من أهل الكتاب مع عداوته لهم ، لكانوا يخبرون بذلك و يظهرونه ، ولو أظهروا ذلك ، لنقل ذلك وعُرِفَ ، فإن هذا من الحوادث التى تتوفر الهمم والدواعى على نقلها .

الرابع : ــ أنه حين بعث ، كان الناس إما مشركا ، و إما كتابياً ، فلم يكن هناك أحد على الدين الذى دعا إليه .

وقد علم الناس بالتواتر أن المشركين من قريش وغيرهم ، لم يكونوا يعرفون هذه القصص ، ولو قدِّر أنهم كانوا يعرفونها ، فهم أول من دعاهم إلى دينه فعادوه وكذبوه ، فلو كان فيهم من علمه ، أو يعلم أنه تعلَّم من غيره ، لأظهر ذلك .

الخامس : ــ أن مثل هذا لو كان ، فلا بد أن يعرفه ، ولو خواص الناس ، وكان فى أصحابه الذين آمنوا به من يعرف ذلك ، وكان ذلك يشيع ، ولو تواصوا بكتمانه ، كما شاع ما كتم من أمر الدول الباطنية ، ولكان خواصه فى الباطن يعلمون كذبه ، وكان علمهم بذلك يناقض تصديقه فى الباطن ، كما عرف فى نظائر ذلك .

فكيف ، وكان أخص أصحابه ، وأعلمهم بحاله ، أعظمهم محبة وموالاة ؟ بخلاف حال من يبطن خلاف ما يظهر ، فإن خواص أصحابه لا يعظمونه فى الباطن .

فإذا علم النـاس أن قومه الذين كانوا معادين له غاية المداوة ، وكانوا يطلبون القدح فى نبوته بكل طريق ، يخبرون أنه لم يكن عندهم بَشَرٌ يعلمه مثل هذا ، وأنه لم يكن فى قومه ولا بلده من يعرف هذا .

علم الناس ما علمه قومه من أن هذا إنما أنبأه به الله ، وكان هذا من إعلامه وآياته و براهينه ، وهذا مما بين الله فى القرآن أنه من آياته ، وأنه حين أخبر قومه بهذا مع تـكذيبهم وفرط عداوتهم له ، لم يمكن أحداً منهم أن يقول له : بل فينا من كان يعلم ذلك ، وأنت كنت تعلم ذلك ، وقد تعلمته منا أو من غيرنا .

فـكان إقرارهم بعدم علمه وعلمهم ، مع فرط عداوتهم له ، آية بينة لجميع الأمم أنه لم يكن هو ولا هم يعلمون ذلك .

ولهذا لما كان بعضهم يفترى عليه فرية ظاهرة كانوا كلهم يعلمون كذبه ، و إذا اجتمعوا وتشاوروا فى أمره يعترفون أن هذا كذب ظاهر عليه ، كما كان بعضهم يقول : إنه مجنون ، و بعضهم يقول : إنه كاهن ، و بعضهم يقول : إنه ساحر ، و بعضهم يقول : إنه معلَّم ، تعلمه من بشر ، و بعضهم يقول : أضغاث أحلام .

فحـكى الله أقوالهم ، مبينا ظهور كذب من قال ذلك ، وأنه قول ضال حائر ، قد بهره حال الرسول فحار فلم يدر ما يقول ، كما قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّل الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيـكُونَ لِلْعَالَمِينَ نذيراً ۞ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلداً وَلَمْ يكنْ لَهُ شَرِيكٌ فى المُلْكِ وَخلَقَ كلَّ شَىْء فقَدَّرهُ تقْدِيراً ۞ وَاتَّخَذوا مِنْ دونهِ آلِهَةً لايَخْلقُونَ شيئاً وَهمْ يُخْلَقون وَلا يَمْلِـكون لأنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نفْعاً وَلا يَمْلِـكونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً ۞ وَقالَ الَّذِينَ كفَرُوا إنْ هٰذا إلاَّ إفكٌ افترَاهُ وَأعانهُ عليهِ قَوْمٌ آخرونَ فقدْ جاؤُا ظلْماً وَزوراً ۞ وَقالوا أساطيرُ الأوَّلينَ اكْتَتَبَها فهى تُمْلَى عليْه بُـكْرَةً

وَأَصِيلاً * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ [الفرقان ١ — ٦] فأخبر عمن قال ذلك ، وهم يعلمون أن هذا من أظهر الكذب ، فإن هذه القصص المذكورة فى القرآن ، لم يكن بمكة من يعرفها ، فضلا عن أن يعلمها كما قال : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت ٤٨] وقال : ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذَا ﴾ [هود ٤٩] ولهذا قال : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الفرقان٦]فأخبر أن هذا من علم من يعلم السر، إذ كان البشر لايعلمون ذلك إلا من جهة أخبار الأنبياء ، وليس بمكة من يعلم ما أخبرت به الأنبياء .

ثم ذكر ما اقترحوه فقال : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ : إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : ٧ — ٩] .

أمر بالنظر فى كيفية ماضربوه من الأمثال ، حيث شبهوه بمن يظهر الفرق بينه وبينه ظهوراً لا يخفى على الناظر ، ولهذا قال : « فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » إذ كان ظاهراً أن هذا ضلال عن طريق الحق ، فلا يستطيع الضال عن طريق الحق إليه سبيلا .

وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ * وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لايَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ

أَنَّهُمْ يقولونَ إنَّما يُعَلِّمُهُ بشرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إليهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل : ٩٨ — ١٠٣] فأخبر عما افتراه بعضهم من قوله : إنما يعلمه هذى القرآن بشر .

وكان بمكة مولى أعجمى لبعض قريش قيل : إنه مولى لبنى الحضرمى ، والنبي لايحسن يتكلم باللسان العجمى ، وذاك لايحسن أن يتكلم بهذا اللسان العربى .

فلما قالوا : إنه افترى هذى القرآن ، وأنه علمه إياه بشر ، قال تعالى : ﴿ لسان الذى يلحدون ﴾ أى يضيفون إليه هذى التعليم و ينسبونه إليه ، وعبر عنه بلفظ الإلحاد ، لما فيه من الميل ، فقال : لسان هذا الشخص الذى قالوا : إنه يعلمه القرآن ، لسان أعجمى ، وهم لم يمكنهم أن يضيفوا هذى التعليم إلى رجل عربى ، بل إلى هذى لأعجمى ، لكونه كان ربما يجلس أحياناً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وذاك الأعجمى لا يمكنه أن يتكلم بهذى الكلام العربى ، بل هو أعجمى ، ومحمد لا يعرف بالعجمية ، لكن غاية ذاك الأعجمى كعبد بنى الحضرمى أن يعرف قليلاً من كلام العرب الذى يحتاج إليه فى العادة ، مثل الألفاظ التى يحتاج إليها فى غالب الأوقات ، كلفظ الخبز ، والماء ، والسماء ، والأرض ، ولا يعرف أن يقرأ سورة واحدة من سور القرآن .

فَبَيَّنَ سبحانه ظهور كذبهم فيما افتروه ، ولم يقل أحد منهم ما يمكن أن يكون شبهة فى تعلمه أنباء الغيب من علماء أهل الكتاب ونحو ذلك ، وإنما قالوا ما ظهر بطلانه لكل أحد ، ولم ينقل عن أحد منهم أنه قال قولاً يخفى بطلانه ، بل ما يظهر كذبه لكل أحد .

فتبيّن أنه لم يمكنهم أن يقولوا : إنه تعلم أخبار الغيوب من أحد .

وهذه القصة قصة نوح — لاسيما قصته المستوفاة فى سورة هود كما تقدم — لا يعلمها إلا نبي أو من تلقاها عن نبيّ . فإذا عرف أنه لم ينقلها عن أحد علِمَ

أنه نبي، ولهذا قال تعالى في آخرها : ﴿ تلكَ منْ أنباءِ الغَيبِ نوحيها إليكَ ما كُنتَ تَعلَمُها أنت وَلا قومُكَ منْ قبلِ هٰذَا فاصْبِرْ إنَّ العَاقِبةَ للمتَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٩] والقول في سائر القصص ، كالقول فيها .

وكما قال في سورة يوسف : ﴿ ذٰلكَ منْ أَنْباءِ الغَيبِ نوحيهِ إليكَ وَما كُنتَ لديْهمْ إذْ أجْمَعوا أَمْرهمْ وَهمْ يَمكُرونَ ﴾ [يوسف : ١٠٢] وقال في سورة آل عمران ، لما ذكر قصة زكريا ومريم : ﴿ ذٰلكَ منْ أنباءِ الغَيبِ نوحيهِ إليكَ وما كنتَ لديْهم إذْ يُلقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وما كُنتَ لديْهمْ إذْ يَختَصِمونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] وقال في قصة موسى : ﴿ وما كُنتَ بجانِبِ الغَربيِّ إذْ قضيْنا إلى موسَى الأمرَ وما كُنتَ من الشَّاهِدينَ * ولـكنَّا أنشَأْنا قُرُوناً فتطَاولَ عليهِمُ العُمُرُ وما كُنتَ ثَاوِياً في أهلِ مَدْينَ تَتْلُو عليهِمْ آياتِنا ولـكنَّا كُنَّا مُرْسِلِين * وما كُنتَ بجانِبِ الطُّورِ إذْ نادَيْنا ولـكنْ رحْمَةً منْ ربِّكَ ﴾ الآية [القصص ٤٤ ـ ٤٦] .

والإنسان إنما يعلم مثل هذا بمشاهدة أو خبر ، فنبه بقوله : « وما كنت لديهم » على أنك إنما علمت ذلك بإخبارنا وإيحائنا إليك وإعلامنا لك بذلك ، إذ كان معلوماً عند كل من عرفه أنه لم يسمع ذلك من بشر وأنه لم يكن هو ولا قومه يعلمون ذلك .

وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ لو شاءَ اللهُ ما تلوتُهُ عليكمْ ولا أدْرَيكمْ به فقد لَبِثْتُ فيكمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أفلا تعقِلُونَ ﴾ بين بذلك أن تلاوته عليهم هـذا الـكتاب وإدراءهم ، أى إعلامهم به ، هو بمشيئة الله وقدرته ، لا من تلقاء نفسه ، كما قال قبل هذا : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهِمْ آياتُنا بيِّناتٍ قال الذين لا يرجونَ لقاءنا ائْتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّلْهُ قل ما يكونُ لي أنْ أُبدِّلَهُ مِنْ تلقاءِ نفسى إنْ أتَّبِـعُ إلا ما يُوحَى إلَيَّ إنِّي أخافُ إنْ عَصيْتُ ربِّي عذابَ يومٍ عظيمٍ قُلْ لو شاءَ اللهُ ما تلوتُهُ عليكمْ ولا أدْرَيكمْ به ﴾ الآية [يونس ١٥ ، ١٦] .

فبيّن أنه لبث فيهم عمراً من قبله ، وهو لا يتلو شيئاً من ذلك ولا يعلمهم به فليس الأمر من جهته ، ولكن من جهة الله الذى لو شاء ما تلاه عليهم ، ولا أدراهم به ، وتلاوته عليهم وإدراؤهم به ، هو من الإعلام بالغيوب الذى لا يعلمها إلا نبى ، وبيّن أن ذلك من الإرسال الدينىّ الذى يحبه الله ويرضاه ، لا من الكونىّ الذى قدره وقضاه ، وهو لا يحبه ولا يرضاه ، كإرسال الشياطين ولهذا كانوا يعرضون عليه أن يصير ملكا عليهم وأن يعطوه حتى يكون من أغناهم ، وأن يزوجوه ما شاء من نسائهم فيقول : « لو وضعتم الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أدع هذا الأمر لم أستطع أن أدعه » وهذه الثلاث هى مطلوب النفوس من الدنيا (السلطان والمال والنساء) فأعرض عن قبول الدنيا التى هى غاية أمانى طالبها ، وبين أنه لا يقدر على أن يدع ما أمر به من تبليغ الرسالة .

وقال تعالى : ﴿ وإنْ كادوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذى أوحَيْنا إليكَ لِتَفْتَرِى علينا غَيْرَهُ وإذًا لاتّخَذُوكَ خليلاً * ولولا أنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إليهمْ شيئاً قليلاً إذًا لَأذَقْنَاكَ ضِعفَ الحياةِ وضِعفَ المماتِ ثم لا تجدُ لكَ علينا نصيراً وإنْ كادوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرْضِ لِيُخْرِجوكَ منها وإذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلاّ قليلاً * سُنَّةَ مَنْ قد أرسَلنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا ولا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تحويلاً ﴾ [الإسراء ٧٣ ، ٧٧] بين سبحانه أنهم طلبوا أن يمنعوه بكل طريق ، فإن الإنسان إنما يتم عمله بإرادته وقدرته .

فمع الإرادة الجازمة ، والقدرة التامة ، يجب وجود المقدور ، وإذا تعذر أحدهما امتنع .

فطلبوا تغيير إرادته ليركن إليهم ، فيغير ما أوحى إليه ، فعصمه الله ، وثبّته .

ثم طلبوا تعجيزه بأن يستفزوه ويخرجوه ، حتى يعجز عن تبليغ رسالة ربه ، ولو كان ذلك لعاجلهم الله بالعقوبة ، أسوة بمن تقدمه من الرسل ، فإن الله كان

إذا أراد إهلاك أمة ، أخرج نبيها من بينها ، ثم أهلكها ، لا يهلكها وهو بين أظهرها كما قال تعالى : ﴿ وما كان اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأنت فيهِمْ وما كان اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وهم يستغفرونَ ﴾ وهذا بعد قوله ﴿ وإذْ قالوا : اللَّهُمَّ إنْ كان هذا هُوَ الحقَّ مِنْ عِنْدِكَ فأمطرْ علينا حجارةً مِنَ السماء أوِ ائْتِنا بعذابٍ أليمٍ ﴾ قال تعالى : ﴿ وما كان الله لِيُعَذِّبَهُمْ وأنتَ فيهِمْ وما كان اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وهم يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فلما خرج من بينهم بالهجرة أتاهم الله بعذاب أليم يوم « بدر » وغيره .

فقوله : « إن كادوا ليفتنونك » إشارة إلى سعيهم فى إفساد إرادته وقوله : « وإن كادوا ليستفزونك من الأرض » إشارة إلى سعيهم فى تعجيزه .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت ٤٨] بيَّن سبحانه من حاله ما يعلمه العامة والخاصة ، وهو معلوم لجميع قومه الذين شاهدوه ، متواتر عند من غاب عنه و بلغته أخباره من جميع الناس : أنه كان أمِّيًا لا يقرأ كتاباً ، ولا يخط كتاباً من الكتب ، لا المنزلة ولا غيرها ، لا يقرأ شيئاً مكتوباً ، لا كتاباً منزلاً ولا غيره ، ولا يكتب بيمينه كتاباً ولا ينسخ شيئاً من كتب الناس ، لا المنزلة ولا غيره .

ومعلوم أن من يعلم من غيره إما أن يأخذ تلقيناً وحفظاً ، وإما أن يأخذ من كتابة ، وهو لم يكن يقرأ شيئاً من الكتب من حفظه ، ولا يقرأ مكتوباً .

والذى يأخذ من كتاب غيره ، إما أن يقرأه ، وإما أن ينسخه ، وهو لم يكن يقرأ ولا ينسخ .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ ربِّ العالَمِينَ نَزَلَ به الروحُ الأمينُ على قلبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذِرِينَ بلسانٍ عربِيٍّ مُبِينٍ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأوَّلِينَ أوَلَم يكنْ لهم آيَةً أنْ يَعْلَمَهُ علماءُ بنى إسرائيلَ ﴾ [الشعراء ١٩٢ ، ١٩٧] ،

إلى قوله ﴿ وما تنزّلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون فلا تدعُ مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل : إنى برىء مما تعملون وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين إنه هو السميع العليم هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين تنزّل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أىَّ منقلب ينقلبون ﴾ [الشعراء ٢١٠ ، ٢٢٧] ، فقال تعالى : ﴿ وإنه لفى زبر الأولين ﴾ وقال : ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴾ وعلماء بنى إسرائيل يعلمون ذكر إرسال محمد ونزول الوحى عليه ، كما قال تعالى : ﴿ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ وقال : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزّل من ربك بالحق ﴾ وقال : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ﴾ وقال : ﴿ وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ ويعلمون المعانى التى فيه أنها موافقة لأقوال الرسل قبله فى الخبر والأمر .

فإنه أخبر عن توحيد الله وصفاته ، وعرشه وملائكته ، وخلقه السموات والأرض وغير ذلك ، بمثل ما أخبرت به الرسل قبله .

وأمر بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، وبالعدل والصدق ، والصلاة والزكاة ، ونهى عن الشرك والظلم والفواحش ، كما أمرت ونهت الرسل قبله .

والسُّوَر المكية نزلت بالأصول الكلية المشتركة ، التى اتفقت عليها الرسل ،

التى لابد منها ، وهى الإسلام العام ، الذى لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين ديناً غيره .

وأما السور المدنية ، ففيها هذا ، وفيها ما يختص به محمد صلى الله عليه وسلم من الشرعة والمنهاج .

فإن دين الأنبياء واحد كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنا ــ معاشر الأنبياء ــ ديننا واحد » قال الله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى به نُوحاً والذى أوحَيْنا إليكَ وما وَصَّيْنا به إبراهيمَ وموسَى وعيسى أنْ أقيموا الدِّينَ ولا تتفرَّقوا فيهِ ﴾ [الشورى ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صالحاً إنِّى بما تَعْمَلُونَ عليمٌ * وَأنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحدةً وأنا ربُّكُمْ فاتَّقونِ * فَتَقَطَّعُوا أمرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بما لديْهِمْ فَرِحونَ ﴾ [المؤمنون ٥١ ــ ٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ التى فَطَرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلٰكِنَّ أكْثَرَ الناسِ لا يعلَمُونَ * مُنِيبِينَ إليهِ واتقوهُ وأقيموا الصلاةَ ولا تكونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الذين فرَّقوا دِينَهُمْ وكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بما لديهِمْ فَرِحونَ ﴾ .

وأما الشرعة والمنهاج ، فقد قال عن أهل التوراة والإنجيل والقرآن : ﴿ لِكُلٍّ جعلْنا منكُمْ شرعةً ومنهاجاً ﴾ وقال : ﴿ ولِكُلِّ أُمَّةٍ جعلْنا مَنْسَكاً ليذكُرُوا اسمَ اللهِ عَلَى مارزقَهُمْ من بَهِيمَةِ الأنعامِ فكُلوا منْها وأطْعِموا القانِعَ والمُعْتَرَّ كَذٰلكَ سخَّرْناها لكُمْ لعلكُمْ تشكُرُون * لنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها ولادِمَاؤُها ولٰكنْ يَنالُهُ التَّقوى منكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جعلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكوهُ ﴾ وأما القبلة فلم يجعل ما ابتدعه أهل الكتاب من القبلة ، فلذلك قال : ﴿ ولِكُلٍّ وِجْهَةٌ هوَ مولِّيها ﴾ لم يقل : إنا جعلنا لكل وجهة كما قال فى المنسك والشرعة والمنهاج ، وقال تعالى : ﴿ وقالوا لوْلاَ يأْتينا بآيةٍ

من ربِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بيِّنةُ ما في الصُّحُف الأُولى ﴾ فإنه إذا أتاهم ببيان ما في الصحف الأولى ، مع علمهم بأنه لم يعاشر أحداً من أهل الصحف الأولى ، ولا استفاد منهم علماً ، كان هذا من أعظم الآيات من الله .

وكما أن إخباره عن أمور الغيب يدل على نبوته ، فإنه يدل على أن النبوة إنباء من الله ، ليس ذلك ، كما يقوله بعض المتفلسفة ، كابن سينا وأمثاله : إنه فيض فاض عليه من النفس الفلكية أو العقل الفعال » ويقولون : إن النفس أو العقل ، هو اللوح المحفوظ وأن من اتصلت نفسه به علم ما علمته الأنبياء .

ويقولون « النبوة مكتسبة ، لأن هذه صفتها » ويقولون : « إن سبب علمه بالغيب هو اتصال نفسه بالنفس الفلكية » ويزعمون أنها اللوح المحفوظ ، وأن تحريكها للفلك هو سبب حدوث الحوادث في الأرض ، فتكون عالمة بما يحدث في الأرض ، لأن العلم بالسبب ، يوجب العلم بالمسبب .

فإن هـذا مبنيٌّ على مقدمات باطلة ، قد بسط الكلام على بطلانها في موضع آخر .

منها : إثبات العقل الفعال .

ومنها : دعواهم أنه لا سبب للحوادث إلا حركة الفلك .

ومنها : أن المحرك له هو النفس .

ومنها : إيصال نفوسنا بتلك النفس .

والمقصود ـ هنا ـ أن هذا لو كان حقاً فإنما يفيد علماً بالمستقبل الذي تكون الحركة الحاضرة سبباً له .

أما ما قد مضى قبل ذلك بمئين أو ألوف من السنين ، فليس شيء من حركات الفلك حين مبعث الرسول ، كان سبباً له ، وإنما تكون الحركة الموجودة في زمانه سبباً للمستقبل لا الماضي ، وحينئذ فلا يكون تحريك النفس للفلك سبباً للعلم بهذه الأمور ، ولا يكون ذلك هو اللوح المحفوظ ، بل القرآن

المجيد فى لوح محفوظ ، وهو فى أم الكتاب ، ﴿ فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون ﴾ وأخبر سبحانه أنه : ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ وقال فى آية أخرى : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ وقال فى موضع آخر : ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ وقال : ﴿ إنه لقول رسول كريم * ذى قوة عند ذى العرش مكين * مطاع ثم أمين * وما صاحبكم بمجنون * ولقد رآه بالأفق المبين * وما هو على الغيب بضنين * وما هو بقول شيطان رجيم * فأين تذهبون * إن هو إلا ذكر للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاؤن إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ وقال تعالى : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ﴾ فذكر أنه قول رسول اصطفاه من الملائكة ، نزل به على رسول اصطفاه من البشر ، فقال : ﴿ إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين * وإنه لتذكرة للمتقين * وإنا لنعلم أن منكم مكذبين * وإنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾ فنزه كلا من الرسولين عما قد يشتبه به .

نزه الملك أن يكون شيطانا ونزه البشر أن يكون شاعراً أو كاهناً ، وبين برهان ذلك وآيته فقال : ﴿ وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغى لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ فبين أنه ما يصلح لهم النزول به ، بل هم منهيون عن ذلك ، وهم ممتنعون عن ذلك ، لا يريدونه ، لمنافاته لمقصودهم ، وأنهم لو أرادوا ذلك ، لعجزوا عن ذلك ، فلم يستطيعوه ، إذ كانوا معزولين عن أن يسمعوه من الملأ الأعلى ، وهم إنما يقدرون على أن ينزلوا بما سمعوه لا بما لم يسمعوه ، وذلك أن الفاعل للفعل إنما يفعله إذا كان مريداً له قادراً عليه .

فبيَّن بقوله « وما ينبغى لهم » أنهم لا يريدون تنزيله ، وبقوله « وما يستطيعون » أنهم عاجزون عن تنزيله .

وأما كونهم لا يريدون ، فلأنه لا ينبغى لهم ، « وينبغى » مضارع بغى يبغى أى طلب وأراد ، فالذى لا ينبغى للفاعل ، هو الذى لا يطلبه ولا يريده ، إما لكونه ممتنعاً من ذلك ، أو لكونه ممنوعاً منه .

والشيطان إنما يريد الكذب والفجور ، لا يريد الصدق والصلاح .

وما جاء به الرسول ، مناقض لمراد الشياطين غاية المناقضة ، فلم يحدث فى الأرض أمر أعظم مناقضة لمراد الشياطين من إرسال محمد ونزول القرآن عليه .

فيمتنع أن تفعل الشياطين ما لا يريدون إلا نقيضه ، وهم أيضاً ممنوعون من ذلك بحيث لا يصلح لهم ذلك ولا يتأتى منهم ، كما أن الساحر لا ينبغى له أن يكون نبياً .

والمعروف بالكذب والفجور لا ينبغى له مع ذلك أن يكون رسولا ، ولا أن يكون حاكما ولا شاهداً ولا مفتياً إذ الكذب والفجور يناقض مقتضى الرسالة والحكم والشهادة والفتيا ، فكذلك ما فى طبع الشياطين من إرادة الكذب والفجور ، يناقض أن تتنزل بهذا الكلام الذى هو فى غاية الصدق والعدل ، لم يشتمل على كذبة واحدة ، ولا ظلم لأحد .

ثم قال « وما يستطيعون » فإنهم عن سمع هذا الكلام لمعزولون بما حرست به السماء من الشهب ، كما قال عن الجن : ﴿ وأَنَّا لَمَسْنَا السماء فوجدْناها مُلِئتْ حَرَساً شَديداً وشُهُباً وأنَّا كنَّا نقعُدُ مِنها مقاعِد للسَّمْعِ فمنْ يستمعِ الآنَ يجِدْ لهُ شِهَاباً رَصَداً ﴾ وقد ذكرنا تواتر هذا الخبر وأن السماء ـ حين مبعثه ـ حرست حرساً لم يعهده الناس قبل ذلك ، ورأى الناس ذلك بأبصارهم ، فكانوا قد عاينوا ما أخبرهم به من الرمْىِ بالشُّهُب التى يرمى بها لطرد الشياطين ، فعزلوا بذلك عن سمع الملأ الأعلى ، وكان ما عاينه الكهان من

الرمى الشديد العام الذى انتقضت به العادة المعروفة فى رمى الشهب ، دليلاً على سبب خارق للعادة ، ولم يحدث - إذ ذاك - فى الأرض أمر لم تجرِ به العادة إلا ادعاء للرسالة ، فلم يعرف قبله ولا بعده من نزل عليه الكلام كنزوله عليه .

إذ كان موسى عليه السلام إنما أنزلت عليه التوراة مكتوبة ، لم تنزل عليه منجمة مفرقة ملقاة إليه حفظاً ، حتى تحتاج السماء إلى حراسها عن استراق سمعها .

والزبور تابع لشرع التوراة ، وكذلك الإنجيل فرع على التوراة .

لم ينزل كتاب مستقبل إلا التوراة والقرآن كما قال تعالى : ﴿ قلْ فأْتوا بكتابٍ منْ عندِ اللهِ هوَ أهْدى منهما أتبِعْهُ إنْ كنتم صادقينَ ﴾ ولهذا يقرن سبحانه بين التوراة والقرآن كثيراً كما فى قوله : ﴿ وما قدرُوا اللهَ حقَّ قدرِهِ إذْ قالوا : ما أنزل الله على بشرٍ منْ شيْءٍ قلْ : منْ أنزَلَ الكتابَ الّذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس﴾ إلى قوله : ﴿وهذا كتابٌ أنزلْناهُ مُباركٌ مصدِّقُ الّذى بيْنَ يدَيْهِ ﴾ وقال : ﴿ أفمنْ كانَ على بيِّنَةٍ منْ ربِّهِ ويَتْلوهُ شاهدٌ منهُ ومنْ قبلِهِ كتابُ موسى إماماً ورحمة أولئِكَ يؤْمنونَ به ومنْ يكفرْ به منَ الأحزَابِ فالنَّارُ موعدهُ ﴾

وقال سعيد بن جبير وغيره : الأحزاب هى الملل كلها ، قال : وهذا تصديق قول النبى صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده لا يسمع بى من هذه الأمة ، يهودى ولا نصرانى ، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار » وقرأ هذه الآية : ﴿ ومن يكفرْ به منَ الأحزاب فالنَّار موعدهُ ﴾ .

وقالت الجن : ﴿ إنّا سَمِعنا كِتاباً أُنزِلَ منْ بعدِ موسى ﴾ الآية .

وقال النجاشى — لما سمع القرآن — : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة » .

وقال ورقة بن نوفل للنبى صلى الله عليه وسلم : « يا ابن أخى هذا هو

الناموس الذى كان يأتى موسى » . وأيضاً فكان معروفا عندهم إخبار الكهان عن الشياطين التى تسترق السمع .

فلما رأوا أن السماء قد حرست حرساً شديداً خلاف العادة ، علموا أن الشياطين منعوا استراق السمع ، وعلمت الجن ذلك كما تقدم ، وقد قالت الجن : ﴿إنَّا لمسْنا السماءَ فوَجدْناها مُلئتْ حَرَساً شَديداً وشُهُباً * وأنَّا كنَّا نقعُدُ منها مقاعد للسَّمْعِ فمَنْ يستَمعِ الآنَ يجدْ لهُ شِهَاباً رَصداً * وأنَّا لاندرِى أشرٌ أُريد بمَن فى الأرْض أمْ أرادَ بهمْ رَبُّهم رشَداً﴾ ، وقد تواترت الأخبار بأنه حين المبعث كثر الرمى بالشهب ، وهذا أمر خارق للعادة ، حتى خاف بعض الناس أن يكون ذلك لخراب العالم ، حتى نظروا ، هل الرمْىُ بالكواكب التى فى الفلك أم الرمى بالشهب ؟ فلما رأوا أنه بالشهب ، علموا أنه لأمر حدث ، وأرسلت الجن تطلب سبب ذلك ، حتى سمعت القرآن ، فعلمت أنه كان لأجل ذلك كما جاء فى الصحيحين عن ابن عباس قال : « انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه ، عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين و بين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حيل بيننا و بين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب . قالوا · ما حال بينكم و بين خبر السماء إلا لأمر حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ماهذا الأمر الذى حدث . فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ، ما هذا الأمر الذى حال بينهم و بين خبر السماء ؟ قال : فانطلقوا نحو تهامة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن تسمعوا له ، فقالوا : هذا الذى حال بينكم و بين خبر السماء ، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا : ﴿ياقوْمَنا إنَّا سَمِعنا قُرآناً عَجَباً * يَهْدِى إلى الرُّشْد فآمَنَّا به ولنْ نُشْرِكَ بربِّنا أحداً﴾ فأنزل الله على نبيه : ﴿قل أُوحِىَ إلىَّ أنَّهُ استمع نفرٌ منَ

الجن ﴾ وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : كان الجن يستمعون الوحى فيسمعون الكلمة ، فيزيدون فيها عشرا ، فيكون ماسمعوا حقاً وما زادوه باطلا ، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك .

فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كان أحدهم لايقعد مقعده إلا رمى بشهاب يحرق ما أصاب .

فشكوا ذلك إلى إبليس فقال : ماهذا إلا من أمر قد حدث ، فبث جنوده فإذاهم بالنبي صلى الله عليه وسلم يصلى بين جبلى نخلة فأتوه فأخبروه ، فقال : هذ الحدث الذى حدث فى الأرض .

وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن السدى : زعم أن السماء لم تكن تحرس إلا أن يكون فى الأرض نبى أو دين لله ظاهر

فكانت الشياطين قبل محمد صلى الله عليه وسلم قد اتخذت المقاعد فى السماء الدنيا يستمعون مايحدث فى السماء من أمر

حتى لما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم نبياً رجموا ليلة من الليالى ، ففزع لذلك أهل الطائف ، فقالوا : هلك أهل السماء ، لما رأوا من شدة النار فى السماء واختلاف الشهب ، فجعلوا يعتقون أرقاءهم ويسيبون مواشيهم ، فقال لهم ، عبدياليل ابن عمرو بن عمير : ويحكم يامعشر الطائف ، أمسكوا عن أموالكم ، وانظروا إلى معالم النجوم ، فإن رأيتموها مستقرة فى أمكنتها فلم يهلك أهل السماء إنما هذا من أجل ابن أبى كبشة (يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم) وإن أنتم لم تروها ، فقد هلك أهل السماء ، فنظروا فرأوها فكفوا عن أموالهم .

وفزعت الشياطين فى تلك الليلة فأتوا إبليس فحدثوه بالذى كان من أمرهم ، فقال : ائتونى من كل أرض بقبضة من تراب أشمها ، فأتوه فشم فقال : صاحبكم بمكة ، فبعث سبعة نفر من جن نصيبين قدموا مكة ، فوجدوا نبى الله صلى الله عليه وسلم قائماً يصلى فى المسجد الحرام يقرأ القرآن ، فدنوا منه حرصاً على القرآن حتى

كادت كلا كلهم تصيبه ، ثم أسلموا فأنزل الله عز وجل شأن أمرهم على نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهذا من أعلام النبوة ودلائلها

وقبل زمان البعث وبعده كان الرمى خفيفاً لم تمتلىء به السماء كما ملئت حين نزول القرآن وقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ والأفاك: الكذاب والأثيم: الفاجر كما قال: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته: « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »

فالشياطين تنزل على من يحصل مقصودها بنزولها عليه ، وهو المناسب لها فى الكذب والإثم .

فأما الصادق البار ، فلا يحصل به مقصود الشياطين ، فإن الشيطان لا يطلب الصدق والبر ، وإنما يطلب الكذب والفجور .

ومحمد صلى الله عليه وسلم مازال قومه يعرفونه بينهم بالصادق الأمين ، لم تجرب عليه كذبة واحدة .

ولما جاءه الروح بالوحى لم يخبر بخبر واحد كذب ، لا عمداً ولا خطأ .

ومن تنزلت عليه الشياطين لابد أن يخبر بالكذب ، فإن الشياطين يلقون إليهم السمع ، ولا يلقون إليهم ما سمعوه على وجهه ، بل يكذبون فيه كثيراً .

إذ كان أكثر الشياطين الذين ينزلون عليهم كاذبين فيما ينزلون به عليهم .

فإن الشياطين وإن كان كلهم كاذبا ، فليس كل من ألقى السمع يكذب فيما يلقيه ، بل قد يصدق أحدهم فيما يلقيه من السمع ويسترقه ولو مرة ، ولكن

أ كثرهم يكذبون ، والذى يصدق منهم مرة يكذب مرات ، والذى ينزل عليه الشياطين أفاك أثيم .

وفى صحيح البخارى عن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الملائكة تنزل فى العنان وهو السحاب ، فتذكر الأمر قضى فى السماء ، فيسترق الشياطين السمع فتوحيه إلى الكهان ، فيكذبون معهامائة كذبة من عند أنفسهم »

فالفرق بين الصادق البار الذى يأتيه الملك الكريم ، والكاذب الأثيم الذى يأتيه الشيطان الرجيم ، فرق مبين يعرف بأدنى معرفة بحال الاثنين .

ولما كان الكاهن الذى يأتيه شيطان قد يخبر ببعض الأمور الغائبة ، بين سبحانه أن هذا يكون ـ وإن صدق فى بعض الأخبار ـ كاذباً فاجرا ، والذى يأتيه أيضاً يأتيه بالكذب ، فلا يشتبه بمن لا يكذب ولا يفجر ، وهذا مما يبين أن النبى لا يكون إلا بارا معصوماً أن يصر على ذنب .

فصـــــل

وقد ذكرنا أن قومه المعادين له غاية العداوة ، مازالوا معترفين بصدقه صلى الله عليه وسلم ، وأنهم لم يجربوا عليه كذباً ، بل ومعترفين بأن مايقوله ليس بشعر ولا كهانة ، وأنه ليس بساحر .

وكانوا فى أول أمره يرسلون إلى البلاد التى فيها علماءأهل الكتاب يسألونهم عنه ، لأن مكة لم يكن بها ذلك ، ففى الصحيحين عن ابن عباس « أن أباسفيان ابن حرب حدثه قال : انطلقت إلى الشام فى المدة التى كانت بينى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فبينما أنا بالشام إذ جىء بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ، قال : وكان دحية الكلبى جاء به فدفعه إلى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل . فقال هرقل : هل ههنا أحد من قوم هذا الرجل الذى

يزعم أنه نبي ؟ قالوا : نعم ، قال فدعيت في نفر من قريش ، فدخلنا على هرقل ، فأجلسنا بين يديه ، فقال : أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ قال أبو سفيان فقلت أنا . فأجلسوني بين يديه وأجلسوا أصحابي خلفي ، فدعا بترجمانه فقال : قل لهم ، إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ، فإن كذبني فكذبوه ، قال أبو سفيان : وأيم الله لولا مخافة أن يؤثر على كذباً لكذبت عليه . ثم قال لترجمانه : سله كيف نسبه فيكم ؟ قال : قلت ، هو فينا ذو نسب ، قال : فهل كان في آبائه من ملك ؟ قلت : لا ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ قلت : لا » وذكر باقي الحديث :

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : انطلق سعد بن معاذ معتمراً فنزل على أمية بن خلف ، وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمرّ بالمدينة ينزل على سعد ، فقال لسعد : انتظر ، حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس ، انطلقت فطفت ، فبينما سعد يطوف ، إذا أبو جهل . فقال : من هذا الذي يطوف بالبيت ؟ فقال : أنا سعد ، فقال أبو جهل : تطوف بالبيت آمنا وقد آويتم محمداً وأصحابه ؟ قال : نعم ، فتلاحيا بينهما ، فقال أمية لسعد : لا ترفع صوتك على أبي الحكم ، فإنه سيد أهل الوادي ، ثم قال سعد : والله لإن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام ، قال : فجعل أمية يقول لسعد : لا ترفع صوتك ، وجعل يمسكه ، فغضب سعد فقال : دعنا عنك فإني سمعت محمداً صلى الله عليه وسلم يزعم أنه قاتلك ، قال : إياي ؟ قال : نعم ، قال : والله ما يكذب محمد إذا حدث ، فرجع إلى امرأته فقال : أما تعلمين ما قال أخي اليثربي ؟ قالت : وما قال ؟ : قال زعم أن محمداً يزعم أنه قاتلي . قالت : فوالله ما يكذب محمد . قال : فلما خرجوا إلى «بدر» وجاء الصريخ ، قالت له امرأته : أما ذكرت ماقال لك أخوك اليثربي ؟ قال : وأراد أن لا يخرج ، فقال له أبو جهل : إنك من أشراف الوادي ، فسر يوماً أو يومين ، فسار معهم فقتله رسول الله .

وفى رواية أنه قال : والله ما يكذب محمد ، وعزم أن لا يخرج خوفاً من هذا ، حتى قال له أبو جهل : إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادى ، تخلفوا معك . فقال : أما إذا غلبتنى فَلأشترينّ أجود بعير بمكة ، وذكّرتهُ امرأته بقول سعد ، فقال : ما أريد أن أكون معهم إلا قريباً .

وكذلك ما ذكره أهل المغازى وغيرهم أن أمية بن خلف لما بلغه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أنا أقتله ، ثم طعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فخدشه ، وجعل أصحابه يجرعونه ويقولون : إنما هو خدش وليس بشيء ، فقال : والله لو كان بمضر لقتلهم ، أليس قال: « لأقتلنك » .

وعن مجاهد قال : قال مولاى السايب بن يزيد : كنت فيمن بنى البيت ، وإن قريشاً اختلفوا فى الحجر حين أرادوا أن يضعوه حتى كادوا يقع بينهم قتال بالسيوف ، فقالوا : اجعلوا بينكم أول رجل يدخل من الباب ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا يسمونه فى الجاهلية الأمين . فقالوا : يا محمد قد رضينا بك .

وقال ابن إسحاق ــ فى قصة بناء البيت واختلاف قريش فيمن يضع الحجر وإنهم مكثوا على ذلك أربع ليال أو خمساً ، ثم اجتمعوا فى المسجد ، فتشاوروا وتناصفوا ، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو ابن مخزوم وكان عامئذ أسنّ قريش كلهم ، قال : يامعشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب المسجد يقضى بينكم فيه . ففعلوا ، فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين قد جاء ، رضينا . هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هَلُمّ ثوباً » فأُتِىَ به ، فأخذ الركن (يعنى الحجر الأسود) فوضعه فيه بيده ، ثم قال: « لِيَأْخُذْ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً »

ففعلوا . حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده صلى الله عليه وسلم ، ثم بنى عليه .

وكانت قريش تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحى الأمين .

وعن عقيل بن أبى طالب قال : جاءت قريش إلى أبى طالب ، فقالوا له : إن ابن أخيك يأتينا فى كعبتنا ونادينا ، ويسمعنا ما يؤذينا ، فإن رأيت أن يكف عنا فافعل .

قال : فقال لى : ياعقيل ، التمس ابن عمك .

قال : فأخرجته من كيس من أكياس شعب أبى طالب ، فأقبل يمشى ، حتى انتهى إلى أبى طالب ، فقال له : يا ابن أخى ، والله ما علمت إن كنت لى مطيعاً ، وقد جاءنى قومك يزعمون أنك تأتيهم فى كعبتهم وناديهم ، فتسمعهم ما يؤذيهم ، فإن رأيت أن تكفَّ عنهم ؟

قال فحلق ببصره نحو السماء فقال . والله ما أنا بأقدر على أن أدع مابعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من النار .

فقال أبو طالب : إنه ـ والله ـ ما كذب قط ، فارجعوا راشدين ، رواه البخارى فى تاريخه ، وأبو زرعة فى الدلائل ، ورواه ابن إسحاق قريباً من هذا اللفظ وقال : « فأخرجته من حفش ـ ، وهو بيت صغير ـ وقال فيه : فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قد بدا لعمه ، وأنه خاذله ومسلمه ، وضعف عن القيام معه ، فقال : « ياعم لو وضعت الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ماتركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فى طلبه »

وفى الصحيحين عن عبد الله بن الصامت قال : قال أبو ذر : خرجنا من قومنا غفار ، وكانوا يحلون الشهر الحرام ، فخرجت أنا وأخى أنيس وأمنا فنزلنا على خال لنا فأكرمنا وأحسن إلينا ، فحسدنا قومه فقالوا : إنك إذا خرجت عن

أهلك خالف إليهم أنيس ، فجاء خالنا فنثا علينا الذى قيل له، فقلت له: أما مامضى من معروفك فقد كدرته ولا جماع لك فيما بعد فقربنا صرمتنا ، فاحتملنا عليها ، وتغطى خالنا ثوبه يبكى ، وانطلقنا حتى نزلنا بحضرة مكة ، فنافر أنيس رجلا عن صرمتنا وعن مثلها ، فأتيا الكاهن فخير أنيسا فأتى بصرمتنا ومثلها معها . قال : وقد صليت يا ابن أخى قبل أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين . قلت : لمن ؟ قال : لله ، قلت : فأين توجه ؟ قال : أتوجه حيث يوجهنى ربى أصلى عشاء ، حتى إذا كان من آخر الليل ألقيت كأنى خفا ، حتى تعلونى الشمس فقال : أنيس : إن لى حاجة بمكة فاكفنى ، فانطلق أنيس حتى أتى مكة فراث على ، ثم جاء فقلت : ماصنعت ؟ قال : لقيت رجلا بمكة على دينك ، يزعم أن الله أرسله قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون ، شاعر ، كاهن ، ساحر . وكان أنيس أحد الشعراء ، قال ، أنيس لقد سمعت قول الكهنة ، فما هو بقولهم ولقد وضعت قوله على أقراء الشعراء ، فما يلتئم على لسان أحد يقرى بعدى أنه شعر ، والله إنه لصادق وإنهم الكاذبون . قال : قلت ، فاكفنى حتى أذهب فأنظر ، قال : نعم ، وكن على حذر من أهل مكة ، فإنهم قد سبقوا له وتجهموا ، قال : فأتيت مكة فضفت رجلا منهم فقلت : أين هذا الذى تدعونه الصابىء ؟ فأشار إلى فقال : الصابىء ، فمال على أهل الوادى بكل مدرة وعظم حتى خررت مغشياً على » وذكر الحديث وصفة إسلامه رضى الله عنه بلفظ مسلم

وفى حديث البخارى عن ابن عباس « : أن أبا ذر أرسل أخاه وقال : اعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء ، فاسمع من قوله ثم ائتنى ، فانطلق الآخر حتى قدم مكة وسمع من قوله ، ثم رجع إلى أبى ذر فقال : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وكلاماً ما هو بالشعر .

فقال . ماشفيتنى فيم أردت ، فتزود وحمل شنة له فيها ماء حتى قدم مكة ، فأتى المسجد » وذكر تمام الحديث

وعن جابر بن عبد الله قال : قال الملأ وأبو جهل : لقد غلبنا أمر محمد ، فلو التمستم رجلا عالماً بالشعر والكهانة والسحر ، فأتاه فكلمه ، فأتانا ببيان من أمره

وقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر ، وعلمت من ذلك علما ، فما يخفى على إن كان كذلك . فأتاه فلما خرج إليه قال : أنت ـ يا محمد خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ فبم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا ؟ فإن كنت إنما بك الرياسة عقدنا لك الرياسة ، فكنت رأسنا مابقيت . وإن كان بك الباه ، زوجناك عشر نسوة تختار من أى بنات قريش شئت . وإن كان بك المال ، جمعنا لك ماتستغنى به أنت وعقبك من بعدك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت لايتكلم ، فلما فرغ قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ﴾ إلى قوله ﴿ فقلْ أنذرتكمْ صاعقة مثلَ صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم أن يكف ورجع إلى أهله فلم يخرج إلى قريش ، فاحتبس عنهم عتبة فقال أبو جهل : يامعشر قريش ، والله مانرى عتبة إلا قد صبى إلى محمد وأعجبه طعامه ، وما ذاك إلا من حاجة أصابته ، فانطلقوا بنا إليه ، فأتاه أبو جهل فقال : ياعتبة ماحبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره ، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا مايغنيك عن طعام محمد ، فغضب وأقسم أن لايكلم محمداً أبداً وقال : لقد علمتم أنى من أكثر قريش مالا ، ولكنى أتيته وقصصت عليه القصة فأجابنى بشىء ، والله ، ماهو بشعر ولا كهانة ولا سحر ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته إلى قوله انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب » رواه أبو بكر أحمد بن مردويه ، فى كتاب التفسير عن محمد بن فضيل عن الأجلح عن الذيال بن حرملة عنه ، ورواه يحيى

ابن معين عن محمد بن فضيل، ورواه أبو يعلى الموصلى فى مسنده ، ورواه عبد بن حميد عن شيخ أبى يعلى بن أبى شيبة .

وفى بعض الطرق : « إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة . وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع » ورواه ابن إسحاق قال : حدثنى يزيد بن زياد مولى لبنى هاشم عن محمد بن كعب قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيدا حليما » وذكر الحديث إلى أن قال : « لما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى،إنى -والله- قد سمعت قولا ماسمعت بمثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا السحر ، ولا الكهانة ، يامعشر قريش أطيعونى واجعلونى ، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فإن تصيبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا : أسحرك - والله- يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى لكم ، فاصنعوا مابدا لكم ، ثم ذكر شعر أبى طالب يمدح عتبة فيما قال .

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : قدم ضماد مكة وهو رجل من أزد شنوءة ، وكان يرقى من هذه الريح ، فسمع سفهاء أهل مكة يقولون : إن محمدا مجنون ، فقال: لو أنى رأيت هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدى- قال: فلقيت محمداً ، فقلت : إنى أرقى من هذه الريح ، وإن الله يشفى على يدى من شاء فهلم .

فقال محمد : إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونسترشده ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أما بعد فقال: أعد على كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، فقال : والله لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء ، فما سمعت بمثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن

قاموس البحر

قال : فقال : هات يدك أبايعك على الإسلام قال : فبايعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : وعلى قومك ، فقال : وعلى قومى ، الحديث .

وعن ابن عباس . أن الوليد ابن المغيرة جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : اقرأ على فقرأ عليه من القرآن ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ قال : أعد فأعاد النبى صلى الله عليه وسلم فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما يقول هذا البشر .

وفى لفظ قال ابن عباس : إن الوليد ابن المغيرة جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً . قال : ولم ؟ قال : ليعطوكه ، فإنك أتيت محمدا لتعوض مما قبله . قال : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا ، قال : فقل فيه ولا تبلغ قومك أنك منكر له وأنك كاره له . قال : وماذا أقول ؟ والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منى ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده منى ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته .

قال : لا ترضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : فدعنى حتى أفكر فيه ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ، يأثره عن غيره . فنزلت ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ رواه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن عكرمة عنه .

وفى رواية أخرى « إن الوليد بن المغيرة اجتمع ونفر من قريش وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم فقال : إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحداً ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد بعضكم قول بعض : فقالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل

وأقِمْ لنا رأيا نقوم به . فقال : بل أنتم فقولوا وأنا أسمع فقالوا : نقول كاهن ، فقال : ماهو بكاهن ، لقد رأيت الكهان ، فما هو بزمزمة الكهان . فقالوا : نقول مجنون . فقال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا المجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر ، فقال : ماهو بشاعر ، قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول ساحر ، قال : فما هو بساحر ، قد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثه ولا عقده . فقالوا . ما نقول ياأبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله حلاوة ، وإن أصله لغدق ، وإن فرعه لجنى ، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول أن تقولوا : ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه ، وبين المرء وبين أخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته . فتفرقوا عنه ، فجعلوا يجلسون للناس حين قدموا الموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا له أمره . فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة ، وذلك من قوله : ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ إلى قوله : ﴿ سأصليه سقر ﴾ وأنزل فى النفر الذين كانوا معه ، الذين جعلوا القرآن عضين ، أى أصنافاً .

وروى ابن إسحاق عن شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس قال : قام النضر بن الحارث فقال : « يا معشر قريش ، والله لقد نزل بكم أمر ، ما ابتليتم بمثله ، لقد كان محمد فيكم غلاما حدثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، قد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم : كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وسمعنا سجعهم ، وقلتم : شاعر ، لا والله ما هو بشاعر لقد روينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها ، مخرجه ورجزه وقريضه ، وقلتم : مجنون ، ولا والله ، ماهو بمجنون ، لقد رأينا المجنون ،

فما هو بخنقه ولا تخليطه ، يا معشر قريش ، انظروا فى شأنكم ، فإنه ــ والله ــ لقد نزل بكم أمر عظيم » .

وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وممن يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة .

قال : وحدثنى الزهرى قال : حدثت أن أبا جهل وأبا سفيان ، والأخنس ابن شريق ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى بالليل فى بيته ، وأخذ كل رجل منهم مجلساً ليستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر ، تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم ، لأوقعتم فى نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر ، تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض ، مثل ما قال أول مرة ، ثم انصرفوا ، فلما كانت الليلة الثالثة ، فعلوا كذلك ، ثم جمعتهم الطريق فتعاهدوا أن لا يعودوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق ، أخذ عصاه ثم أتى أبا سفيان فى بيته فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، فقال الأخنس : وأنا ، والذى حلفت به . ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ، تنازعنا نحن و بنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، ثم إذا تجاثينا على الرُّكَب ، وكنا كفَرَسى رهان ، قالوا : منا نبيٌّ يأتيه الوحيُ من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ ! والله لا نؤمن به ولا نصدقه أبداً .

وكذلك روى عن المغيرة بن شعبة أن أبا جهل قال له مثل ذلك وقال :

إنى لأعلم أن ما يقول حق ، ولـكنّ بنى قُصَىّ قالوا : فينا الندوة ، فقلنا : نعم فينا الحجابة فقلنا : نعم فينا السقاية فقلنا : نعم ، وذكر نحوه .

وقد كانوا يرسلونه إلى أهل الـكتاب ليسألوهم عن أمره صلى الله عليه وسلم .

قال : محمد بن إسحاق : حدثنى شيخ من أهل مصر ، قدم منذ بضع وأربعين سنة ، عن عكرمة مولى ابن عباس ، عن ابن عباس قال : « بعثت قريش النضر ابن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ، فقالوا لهم : اسألوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الـكتاب الأول ، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى قدما المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصفوا لهم أمره و بعض قوله ، وقالا : إنـكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، قال : فقالت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاث ، ، نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، و إن لم يفعل ، فالرجل متقوِّل ، فروْا فيه رأيكم ، سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ، ما كان من أمرهم ؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه . وسلوه عن الروح ما هو ، فإن أخبركم بذلك فإنه نبى فاتبعوه ، و إن هو لم يخبركم ؟ فهو رجل متقوِّل فاصنعوا فى أمره ما بدا لـكم .

فأقبل النضر وعقبة ، حتى قدما مكة على قريش فقالا : يا معشر قريش قد جئناكم بفصل مابينكم و بين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور ، فأخبروهم بها .

فجاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا محمد : خبرنا ، فسألوه عما أمروهم به .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبركم ، وجاء جبريل من الله بسورة الـكهف ، فيها خبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطوّاف ، وقول

الله : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآأُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ قال ابن إسحاق : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتتح السورة فقال : «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ » يعنى محمداً أنك رسولى فى تحقيق ما سألوه عنه من نبوته « وَلَمْ يجعل له عوجاً قيما » أى أنزله قيما ، أى معتدلا ، لا اختلاف فيه وذكر تفسير السورة إلى قوله : ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ أى وما قدروا من قدرى ، وفيما صنعت من أمر الخلائق ، وما وضعت على العباد من حججى ما هو أعظم من ذلك .

قال : قال مجاهد ليس بأعجب آياتنا من آياتنا ما هو أعجب من ذلك .

وفى تفسير العوفى عن ابن عباس : الذى أتيتك من العلم والسنة والكتاب ، أفضل من شأن أصحاب الكهف .

قلت : والأمر على ما ذكره السلف ، فإن قصة أصحاب الكهف هى من آيات الله ، فإن مكثهم نياماً لا يموتون ثلاثمائة سنة آية دالة على قدرة الله ومشيئته، وأنه يخلق مايشاء ،ليس كما يقوله أهل الإلحاد، وهى آية على معاد الأبدان كما قال تعالى : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ﴾ وكان الناس قد تنازعوا فى زمانهم : هل تعاد الأرواح دون الأبدان ، أم الأرواح والأبدان ؟ فجعل الله أمرهم آية لمعاد الأبدان .

وإخبار النبى صلى الله عليه وسلم بقصتهم من غير أن يعلمه بشر ، آية على نبوته ، فكانت قصتهم آية على أصول الإيمان الثلاثة ، الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والإيمان برسله ، ومع هذا فليسوا من آيات الله بعجب ، بل من آيات الله ما هو أعجب من ذلك .

وقد ذكر الله تعالى سؤالهم له عن الآيات التى كانوا يسألونه عنها ، ليعلموا : هل هو نبى صادق أم كاذب ؟ فقال تعالى : ﴿ ويسئلونَكَ عَنْ ذِى القرنين ﴾ وقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فى يوسُفَ وإخوتِهِ آياتٌ للسائلينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ تلكَ مِنْ

أنباء الغيب نوحيه إليكَ وما كنتَ لديهمْ إذْ أجمعُوا أمرَهُمْ وَهُمْ يمكرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وكأيِّنْ مِنْ آيةٍ في السمواتِ والأرْضِ يمرُّونَ عليها وَهُمْ عنها مُعرِضونَ * وما أرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إلاَّ رجالاً نُوحِي إليهِمْ مِنْ أهلِ القُرَى أفلمْ يسيروا في الأرْضِ فيَنْظُرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ الذين مِنْ قبلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خيرٌ للَّذين اتقوا أفلا تعقلونَ * حتى إذا استَيْئَسَ الرسُلُ وظنُّوا أنَّهُمْ قَدْ كُذِبوا جاءَهُمْ نصرُنا فنُجِّيَ مَنْ نشاء ولا يُرَدُّ بأسُنا عَنِ القومِ المجرمينَ * لقَدْ كانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأولِي الألبابِ ما كانَ حديثاً يُفتَرَى ولـكنْ تصديقَ الذى بينَ يديهِ وتفصيلَ كُلِّ شيء وهُدًى ورحمةً لقومٍ يؤمنونَ ﴾ وقال تعالى لما ذكر قصة أهل الـكهف التى سألوه عنها ﴿ ويسئلونَكَ عَنْ ذِى القرنينِ قُلْ سأتلو عليكُمْ منهُ ذِكراً ﴾ أى يسئلونك ذاك ، ويسألونك عن هذا .

والقرآن مملوء من إخباره عن الغيب الماضى الذى لا يعلمه أحد من البشر إلا من جهة الأنبياء الذين أخبرهم الله بذلك . ليس هو الشيء الذى تزعمه ملاحدة المتفلسفة ، فإن هذه الأمور الغيبية المعينة المفصلة ، لا يؤخذ خبرها قط إلا عن نبى كموسى ومحمد ، وليس أحد ممن يدعى المـكاشفات ، لا من أولياء الله ، ولا من غير أولياء الله ، يخبر بشيء من ذلك ، ولهذا كان هذا من أعلام الأنبياء وخصائصهم ، التى لا يشركهم فيها غيرهم .

وأهل الملل متفقون على ما دل عليه العقل الصريح من أن هذا لا يعلم إلا بخبر نبى .

فإذا كان محمد قد أخبر من ذلك بما أخبر به موسى وغيره من الأنبياء ، وأخبر بما يعلمونه ، مما لا يعلمه أحد إلا بالتعلم منهم ، وقد عرف أن محمداً لم يتعلم هذا من بشر ، كان هذا آية بينة و برهاناً قاطعاً على نبوته .

ثم العلم بأن محمداً لم يتعلم هـذا من بشر ، يحصل بوجوه . أما قومه المباشرون له ، الخبيرون بحاله وكانوا يعلمون أنه لم يتعلم هذا من بشر ، فقامت

عليهم الحجة بذلك وأما من لم يعرف حاله إلا بالسماع فيعلم ذلك بطرق .

منها : ـ تواتر أخباره وكيف كان ، من حين ولد ، إلى أن مات كما هى مستفيضة مشهورة متواترة ، يعلمها من له خبرة بذلك ، أعظم مما يعلم به حال موسى وعيسى ، فإن محمداً ظهر أمره ، وانتشرت أخباره ، وتواترت أحواله ، أعظم من جميع بنى آدم ، فما بقى ما دون هذا من أحواله يخفى على الناس ، فكيف مثل هذا ؟!

ومنها أنه قد أخبر فى القرآن بما لا يوجد عند أهل الكتاب ، مثل قصة هود ، وصالح ، وشعيب ، وبعض التفاصيل فى قصة إبراهيم وموسى وعيسى ، مثل تكليم المسيح فى المهد . ومثل نزول المائدة ، فإن هـذا لا يعرفه أهل الكتاب ، ومثل إيمان امرأة فرعون وغير ذلك ، .فيمتنع أن يقال : إن هذا تعلمه من أهل الكتاب ، وقومه لم يكونوا يعلمون ذلك ، بل قد رأوا ، هم وغيرهم آثار المنذرين الذين عاقبهم الله لما كذبوا الرسل ، كقوم عاد وثمود وغيرهم .

فيستدل الناس بالآثار الموجودة على صدق الرسل ، وعقوبة الله لمن يكذبهم .

و يستدل قومه وغيرهم على صدقه فيما أخبر به من هذه الأمور ، التى لم يتعلمها من أهل الكتاب بتصديق أهل الكتاب له فيما وافقهم فيه ، مع علمهم أنه لم يتعلم ذلك منهم ، ويكون هذا مما يدل على أنه لم يتعلم ذلك من أهل الكتاب كما قد يظنه بعضهم ، وذلك من الوجهين كما تقدم .

ومنها : ـ أن أكثر قومه كانوا من أعظم الناس عداوة له ، وحرصاً على تكذيبه والطعن فيه ، و بحثاً عما به يقدحون فيه.

فلو كان قد تعلم هذه الأخبار من بشر ، لكانوا يعلمون ذلك ويقدحون به فيه و يظهرونه ، ولكان هذا مما يظهر أعظم مما ظهر غيره .

فلما لم يقع ذلك دل على أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك ولم يتمكنوا من القدح

به فيه ، مع علمهم بحاله ، ورغبتهم فى القدح فيه . ومع كمال الداعى والقدرة ، يجب وجود المقدور .

فلما كان داعيهم تاماً ، ولم يقدحوا ، علم أن ذلك لعجزهم .

وعجزُهم عن القدح مع علمهم بحاله . دليل على أنهم علموا أنه لم يتعلمه من بشر .

ومنها . ـ أن يقال : مثل هذا لو وقع ، لـكان من أعظم ما تتوفر الهمم والدواعى على نقله و يشيع ، بل كان المتبعون له المؤمنون به ، إذا طَّلعوا على ذلك فلا بد أن يشيعوه و يعلنوه ، فـكيف المخالفون له المـكذبون له ؟! فإن القوم المتفرقين الذين لم يتواطئوا ، كما لا يجتمعون على تعمد الـكذب ، فلا يجتمعون على كتمان مثل ذلك ، بل يجتهد الملوك والرؤساء فى إخفاء ما يبطنونه من أمر ملـكهم الذى بنوه عليه ، ويحلفون أولياءهم على كتمان ذلك ، و يبذلون لهم الرغبة والرهبة فى ذلك ، ثم يظهر ذلك ، كما فعل القرامطة الباطنية من أهل البحرين و بنى عبيد الله بن ميمون القداح ، وكما عرف الناس أن النصيرية لهم خطاب يسرونه إلى أوليائهم وإن لم يعلم أكثر الناس ما ذلك الخطاب الذى يسرونه .

لاسيما والذين آمنوا بمحمد واتبعوه ـ أولاً ـ من المهاجرين ، كانوا مؤمنين به باطناً وظاهراً ، هجروا لأجله الأوطان والأهل والمال ، وصبروا على أنواع المـكاره والأذى .

فطائفة كبيرة ذهبت إلى الحبشة مهاجرة بدينها لما عذبها المخالفون له ، حتى يرجعوا عن دينه .

وطائفة كانوا بمكة يعذبون هذا يقتل ، وهذا يخرج به إلى بطحاء مكة فى الحر وتوضع الصخرة على بطنه حتى يكفر فلا يكفر ، وهذا يمنع رزقه و يترك جائعاً عرياناً .

ثم إنهم هجروا أحب البلاد إليهم وأفضلها عندهم مكة أم القرى ، إلى مدينة كانوا فيها محتاجين إلى أهلها ، وتركوا أموالهم بمكة قال تعالى : ﴿ للفقراء المهاجرِينَ الذين أُخرِجوا مِنْ دِيارِهِمْ وأموالِهِمْ يبتغونَ فضلاً مِنَ اللهِ ورِضواناً وينصرونَ اللهَ ورسولَهُ أولئكَ هُمُ الصادِقونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أُذِنَ للذين يقاتلونَ بأنَّهُمْ ظُلِموا وَإنَّ اللهَ على نصرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الذين أُخرِجوا مِنْ ديارِهِمْ بغيرِ حقٍ إلاَّ أنْ يقولوا : ربُّنا اللهُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فالذين هاجَرُوا وأُخرِجوا مِنْ ديارِهِمْ وأُوذُوا في سبيلِي وقاتلوا وقُتِلوا لأُكَفِّرَنَّ عنهُمْ سيئاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جناتٍ تجرى مِنْ تحتِها الأنهارُ ثواباً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثوابِ ﴾ وقال : ﴿ يُخرِجونَ الرسولَ وإياكُمْ ﴾ وجميع المهاجرين والأنصار آمنوا به طوعاً واختياراً ، قبل أن يؤمر أحد بقتال .

فإنه مكث بمكة بضع عشرة سنة ، لا يقاتل أحداً ، ولم يؤمر بقتال ، بل كان لا يكره أحداً على الدين كما قال تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾ وكانوا خلقاً كثيراً ، ومعلوم أن الخلق الكثير الذين اتبعوا شخصاً ، قد جاء بدين لا يوافقه عليه في زمانه أحد ، وطلب منهم أن يؤمنوا به ويتبعوه ، ويفارقوا دين آبائهم ، ويصبروا على عداوة الناس لهم وأذاهم ، وهجروا لأجله ما ترغب النفوس فيه ، من الأهل ، والمال ، والوطن . وهو ـ مع ذلك ـ لم يعط أحداً منهم مالاً ، ولا كان له مال يعطيهم إياه ، ولا ولى أحداً ولاية ، ولم يكن عنده ولاية يوليهم إياها ، ولا أكره أحداً ولا بقرصة في جلده ، فضلا عن سوط أو عصاً ، أو سيف وهو ـ مع ذلك ـ يقول عما يخبرهم به من الغيب « الله أخبرنى به ، لم يخبرنى بذلك بشر » .

فلو كانوا ـ مع ذلك ـ يعلمون أنه تعلمه من بشر ، لكان هذا مما يقوله بعضهم لبعض .

ويمتنع في جبلة بنى آدم وفطرهم أن يعلموا أنه كاذب وأنه قد تعلم هذا

من بشر ، وليس فيهم من يخبر بذلك ، مع أنهم كانوا كثيرين ، لا يمكن تواطؤهم على الكذب والكتمان ، بل ولا داعِيَ لهم ، يدعوهم إلى ذلك .

ويمتنع أن لا يعلموا ذلك ، وهم بطانته المطلعون على أحواله ، وهم يسمعون كلام أعدائه المطلعين على حاله .

والقرآن كان ينزل شيئاً فشيئاً ، لم ينزل جملة ، بل كانوا يسألونه عن الشيء بعد الشيء من الغيب ، بين الذين آمنوا به وباطنوه واطلعوا على أسراره ، وهو لا يعلم شيئاً من ذلك ، ثم يخبرهم ، وهم مطلعون على أمره ، خبراً بعد خبر ، وسؤالا بعد سؤال ، وهذا كان بمكة ، وليس بها أحد من علماء أهل الكتاب ، لا اليهود ولا النصارى ، ثم هاجر إلى المدينة وبها خلق كثير من يهود بنى قينقاع وقريظة والنضير ، ولعلهم كانوا بقدر نصف أهلها أو أقل أو أكثر ، وهم أيضاً يسألونه عن الغيوب التى لا يعلمها إلا نبى فيخبرهم بها ويتلو عليهم ما سأله عنه المشركون من الغيب ، وما أخبرهم به ، ويتلو عليهم هذا الغيب الذى أوحاه الله إليه ، ويبين أن الله أعلمه ذلك ، لم يعلمه إياه بشر ، فآمن به طائفة من أهل الكتاب وكفرت به طائفة أخرى ، والطائفتان ليس فيهم من يقول : إن هذا تعلمه منا ، أو من إخواننا ، أو نظرائنا ، ولا إنك قرأته فى كتبنا ، مع أنه لو كان قد تعلم ذلك منهم ، لكان شيوخه منهم ، وشيوخهم إذا علموا أنه كاذب تعلمه منهم ، يمتنع أن يصدقوه باطناً وظاهراً ، بل تصديقهم الكتاب الأول ، وعلمهم بكذب من ادعى نزول كتاب ثان ، وقد تعلم منهم ، يدعوهم إلى أن يبينوا أمره ويظهروا كذبه ، ويقولوا للناس : تعلم منا ونحن أخبرناه بذلك .

لا سيما مع ما فعله باليهود من القتل والحصار والجلاء والسبى وغير ذلك .

وهذا لو وقع ، لكان من أعظم ما تتوفر الهمم والدواعى على نقله ، ينقله الموافق والمخالف .

فلما لم ينقل ذلك أحد ، ولم ينقله أحد مع ما أظهره من الأخبار المستفيضة

المتواترة ، التي علمها الخاص والعام ، بأن هذا مما أنبأني الله لا يخبرني به بشر ، كان هذا دليلا قاطعاً بيناً في أن هذه الأخبار الغيبية التي لا يعلمها إلا نبي أعلمه الله بها أو من تعلمها من نبي أعلمه الله بها ، هي مما أنبأه الله به ولم يعلمه ذلك بشر ، وهذا من الغيب الذي قال الله فيه في السورة التي ذكر فيها استماع الجن للقرآن و إنذار قومهم به حيث قال : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمعَ نفرٌ مِنَ الجنِّ فقالوا : إنَّا سَمِعنا قرآناً عَجَباً * يَهْدي إلى الرشدِ فآمنا به ولنْ نُشْرِكَ بربِّنا أحداً * وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ ربِّنا ما اتَّخَذَ صاحِبةً ولا وَلَدًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوه كادوا يكونونَ عليهِ لِبَدًا * قُلْ إنَّما أدعو ربِّي ولا أُشْرِكُ به أحداً قُلْ إنِّي لا أَمْلِكُ لكُمْ ضراً ولا رَشداً * قُلْ إنِّي لنْ يُجيرَني مِنَ اللهِ أحدٌ ولنْ أجِدَ مِنْ دونِهِ مُلْتَحَداً * إلاَّ بلاغاً مِنَ اللهِ ورسالاتِهِ وَمَنْ يعصِ اللهَ ورسولَهُ فإنَّ له نارَ جَهَنَّمَ خالدين فيها أبداً * حتى إذا رأوا ما يوعَدونَ فسيعلَمونَ مَنْ أضعفُ ناصراً وَأَقَلُّ عدداً * قُلْ إنْ أدْري أقريبٌ ما توعَدونَ أم يجعلُ له ربِّي أمداً * عالِمُ الغيبِ فلا يُظْهِرُ على غيبِهِ أحداً إلاَّ مَنِ ارتضى مِنْ رسولٍ فإنَّهُ يسلُكُ مِنْ بينِ يديهِ وَمِنْ خلفِهِ رَصَداً * ليعلَمَ أنْ قد أبلغوا رِسالاتِ ربِّهِمْ وأحاطَ بما لديْهِمْ وأحصى كُلَّ شيءٍ عدداً ﴾ فقوله : ﴿ فلا يُظْهِرُ على غيبِهِ أحداً ﴾ يبين أنه غيب يضاف إليه يختص به ، لا يعلمه أحد إلا من جهته ، بخلاف ما يغيب عن بعض الناس ويعلمه بعضهم ، فإن هذا قد يتعلمه بعضهم من بعض قال تعالى : ﴿ عالِمُ الغيبِ فلا يُظْهِرُ على غيبِهِ أحداً إلاَّ مَنِ ارتضى مِنْ رسولٍ فإنَّهُ يَسلُكُ مِنْ بينِ يديهِ ومِنْ خلفِهِ رَصَداً ليعلَمَ أنْ قد أبلغوا رسالاتِ ربِّهِمْ وأحاطَ بما لديْهِمْ وأحصى كُلَّ شيءٍ عدداً ﴾ .

فهذه أنباء الغيب التي أوحاها إليه هي من الغيب الذي لا يظهر الله عليه أحداً إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا يرصدون من يأتيه من إنسي وجني ، فيدفعونه ، « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » .

فمما سأله عنه أهل الكتاب فى المدينة مسائل ، وهى غير المسائل التى كان يسأل عنها وهو بمكة ، كما كان مشركو قريش يرسلون إلى اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد ، فيرسل اليهود إليهم بمسائل يمتحنون بها نبوته ، وذلك مثل ما فى صحيح البخارى عن أنس قال : « جاء عبد الله بن سلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى ، ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ، والولد ينزع إلى أمه تارة وإلى أبيه تارة قال : « أخبرنى جبريل آنفاً » قال عبد الله : ذاك عدو اليهود من الملائكة « أما أول أشراط الساعة ، فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة ، فزيادة كبد الحوت . وأما الولد ، فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة ، نزع الولد إلى أبيه ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمه » فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله » قال : يا رسول الله : إن اليهود قوم بهت فإن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى عندك .

فجاءت اليهود ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أى رجل عبد الله فيكم ؟ » قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، وعالمنا وابن عالمنا .

قال : « أرأيتم إن أسلم عبد الله ؟ » قالوا أعاذه الله من ذلك .

فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

فقالوا : « شرنا وابن شرنا » وتنقصوه . قال : فهذا ما كنت أخاف وأحذره .

وروى مسلم فى صحيحه عن ثوبان قال : كنت قائماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك يا محمد ، فدفعته

دفعة كاد يصرع منها ، فقال : لم تدفعنى ؟ قال : قلت ألا تقول ، يا رسول الله ؟ قال : إنما سميته باسمه الذى سماه به أهله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن اسمى الذى سمانى به أهلى محمد .

فقال اليهودى : جئت أسألك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينفعك شىء إن حدثتك» قال : أسمع بأذنى ، فنكت بعود معه . فقال له : سل : فقال اليهودى : أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فى الظلمة دون الجسر» قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال : « فقراء المهاجرين » . فقال اليهودى : فما تحفتهم حين يدخلون ؟ قال : « زيادة كبد نون » . قال : وما غذاؤهم على أثره ؟ قال : « ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها » . قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : « من عين فيها تسمى سلسبيلا » .

قال : صدقت قال : وجئت أسألك عن شىء لايعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبى أو رجل أو رجلان . قال : « ينفعك إن حدثتك » . قال : أسمع بأذنى قال : جئت أسألك عن الولد . قال : « ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر ، فإذا اجتمعا ، فعلا منى الرجل منى المرأة ذكراً بإذن الله ، وإذا علا منى المرأة منى الرجل أنثى بإذن الله » فقال اليهودى : صدقت وإنك لنبى ، ثم انصرف .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم . إنه سألنى هذا الذى سألنى عنه وما أعلم شيئاً منه حتى أتانى به الله تعالى » . ورواه عبد بن حميد فى تفسيره عن أحمد بن يونس ، عن عبد الحميد به .

وروى أبو داود الطيالسى حدثنا عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن ابن عباس قال : حضرت عصابة من اليهود يوماً إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، حدثنا عن خلال نسألك عنها لا يعلمها إلا نبى فقال : « سلونى عما شئتم ، ولـكن اجعلوا لى ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه ، إن أنا

حدثتكم بشيء تعرفونه صدقا لتتابعوني على الإسلام» . قالوا : لك ذلك قال : «فسلوني عما شئتم» قالوا : أخبرنا عن أربع خلال ، أخبرنا عن الطعام الذي حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة . وأخبرنا عن ماء الرجل كيف يكون الذكر منه حتى يكون ذكراً وكيف يكون الأنثى حتى يكون أنثى . وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في التوراة ، ومن وليه من الملائكة ؟ قال . « فعليكم عهد الله وميثاقه ، لئن أنا حدثتكم لتتابعوني » . فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق . قال . « أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً طال سقمه فيه ، فنذر لله نذراً لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه . وكان أحب الشراب إليه ، ألبان الإبل وأحب الطعام إليه لحوم الإبل » . قالوا . اللهم نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « اللهم اشهد عليهم » . قال : فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى : هل تعلمون أن ماء الرجل غليظ أبيض وأن ماء المرأة رقيق أصفر ، فأيهما علا كان الولد والشبه له بإذن الله » . قالوا : اللهم نعم . فقال : « اللهم اشهد » قال : « أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو وأنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن هذا النبي تنام عيناه ولا ينام قلبه » . قالوا : اللهم نعم . قال « اللهم اشهد » . قالوا : أنت الآن حدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك قال « وليي جبريل عليه السلام ، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه » قالوا : فعندها نفارقك ، لو كان غيره لاتبعناك وصدقناك قال . « فما يمنعكم أن تصدقوا به ؟ » قالوا . إنه عدونا من الملائكة ، فأنزل الله عز وجل ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ .

فى هذه الأحاديث أن علماء اليهود كعبد الله بن سلام وغيره ، كانوا يسألونه عن مسائل يقولون فيها . لا يعلمها إلا نبى ، أى ومن تعلمها من الأنبياء ، فإن السائلين كانوا يعلمونها كما جاء أيضاً « لا يعلمها إلا نبي أو رجل أو رجلان » وكانوا يمتحنونه بهذه المسائل ، ليتبين . هل يعلمها ؟ وإذا كان يعلم مالا يعلمه إلا نبى كان نبياً .

ومعلوم أن مقصودهم بذلك إنما يتم إذا علموا أنه لم يتعلم هذه المسائل من أهل الكتاب ومن تعلم منهم . وإلا ، فمعلوم أن هذه المسائل كان تعلمها بعض الناس ، لكن تعلمها هؤلاء من الأنبياء .

وهذا يبين أن هؤلاء السائلين له من أهل الكتاب ، كانوا يعلمون أن أحداً من البشر لم يعلمه ما عند أهل الكتاب من العلم ، إذ لو جوزوا ذلك عليه ، لم يحصل مقصودهم من امتحانه . هل هو نبى أولا ؟ فإنهم إذا جوزوا أن يكون تعلم مالا يعلمه إلا نبى من أهل الكتاب ، كان من جنسهم ، فلم يكن علمهم بها وأحاديثهم عنها دليلا على نبوته .

فلا بد أن يكون هؤلاء السائلون يقطعون بأنه لم يتعلم من أهل الكتاب .

وهذا كان بالمدينة بعد أن أقام بمكة بضع عشر سنة . وانتشر أمره ، وكذبه قومه ، وحرصوا على إبطال دعوته بكل طريق يقدرون عليه .

فلو كان بمكة أو بالمدينة أحد من أهل الكتاب ، يتعلم منه ، أو لقى أحداً من أهل الكتاب فى طريق فتعلم منه ، لكان ذلك يقدح فى مقصود هؤلاء السائلين .

فتبين أنه كان معلوماً عند أهل الكتاب أنه لم يتعلم شيئاً من الغيب من بشر لاسيما ولو كان قد تعلمه من أهل الكتاب وقد كذبهم وحاربهم لأظهروا ذلك ، ولشاع فى أهل الكتاب ، وكان إذا أجابهم قالوا : هذا تعلمته من فلان وفلان منا ، أو هذا علمك بعض أهل ديننا .

وهذا كما كانوا يرسلون إلى قومه من قريش ليسألوه عن مسائل ويقولون : إن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فهو متقول ، ويقولون : سلوه عن مسائل لا يعلمها إلا نبي .

فهذا من أهل المدينة ، ومن قريش قومه ، يبين أن قومه المشركين وأهل الكتاب كانوا متفقين على أنه لم يتعلم شيئاً من ذلك من البشر ، إذ لو جوزوا ذلك لم يحصل مقصودهم بذلك ، ولم يجز أن يقولوا : لا يعلمها إلا نبي ، فإنهم كانوا جميعاً يعلمون أن من أهل الكتاب من تعلم هذه المسائل ، وبذلك يعرف هل يجيب فيها بما قالته الأنبياء أو بخلاف ذلك ؟ ويعلمون أن من كان يعلمها من أهل الكتاب ، ومن تعلم منهم ، لا يدل جوابه عنها على نبوته ، كما لو أجاب عن تلك المسائل بعض أهل الكتاب ، وكما لو سأل فى زماننا بعض الناس لبعض المسلمين عن تلك المسائل أو غيرها من أنباء الغيب ، التى لا يعلمها إلا نبي ، فإن ذلك لا يدل على نبوته ، لأنه قد تعلم ذلك من الأنبياء ، فدلَّ على أن مرادهم بقولهم : لا يعلمها إلا نبي ، أى لا يعلمها ابتداء بدون تعليم بشر إلا نبي ويدل على أن المشركين وأهل الكتاب ، كانوا جميعاً متفقين على أنه لم يتعلم من بشر ، مع انتشار أخباره . ومع اطلاع قومه على أسراره ، ومع ظهور ذلك ، لو وجد ، ومع أنهم لو جوزوا تجويزاً أن يكون قد تعلمها من بشر فى الباطن . لم يجز أن يستدل بها على نبوته ، فدل على أنهم كانوا قاطمين بأنه لم يتعلم ذلك من بشر ، لا فى الباطن ، ولا فى الظاهر ، وهذا طريق بين ، يدل على أنه لم يتعلم ذلك من بشر ، سوى الطرق المذكورة هنا .

فصــــــل

ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم رسولا إلى جميع الثقلين جنهم وإنسهم ، عربهم وعجمهم ، وهو خاتم الأنبياء لا نبي بعده ـ كان من نعمة الله على عباده ، ومن تمام حجته على خلقه ، أن تكون آيات نبوته ، وبراهين رسالته ، معلومة

لكل الخلق ، الذين بعث إليهم ، وقد يكون عند هؤلاء من الآيات والبراهين على نبوته ما ليس عند هؤلاء .

وكان يظهر لكل قوم من الآيات النفسية والأفقية ، ما يبين به أن القرآن حق كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أرأيتم إنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثم كفرتم به مَنْ أضلُّ مِمَّنْ هو في شِقاقٍ بعيدٍ * سَنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسِهِمْ حتى يتبينَ لهم أنَّهُ الحقُّ أَوَلَمْ يكفِ بربِّكَ أنَّهُ على كُلِّ شيءٍ شهيدٌ ﴾ أخبر سبحانه أنه سَيُرِي العباد الآيات في أنفسهم ، وفي الآفاق ، حتى يتبين لهم أن القرآن حق ، فإن الضمير عائد إليه ، إذ هو الذي تقدم ذكره كما قال : ﴿ قُلْ أرأيتم إنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثم كفرتم به مَنْ أضلُّ مِمَّنْ هو في شِقاقٍ بعيدٍ ﴾ والضمير في « كان » عائد إلى معلوم .

يقول : أرأيتم إن كان القرآن من عند الله ، ثم كفرتم به ، من أضل ممن هو في شقاق بعيد .

فإنه على هذا التقدير ، يكون الكافر في شقاق بعيد ، قد شاقَّ الله ورسوله ، ولا أحد أضل ممن هو في مثل هذا الشقاق ، حيث كان في شق ، والله ورسوله في شق . كما قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا باللهِ وما أُنْزِلَ إلينا وما أُنْزِلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتِيَ موسى وعيسى وما أُوتِيَ النبيُّونَ مِنْ ربِّهِمْ لا نُفرِّقُ بينَ أحدٍ منْهُمْ ونحنُ له مسلمونَ فإنْ آمنوا بمثلِ ما آمنتم به فقدِ اهتدَوا وإنْ تولَّوا فإنَّما هُمْ في شِقاقٍ فسيكفيكَهُمُ اللهُ وهو السميعُ العليمُ ﴾ بين أن من تولَّى عن ذلك ، لم يكن متبعاً للحق قاصداً له ، فإن هذا الذي قلتموه لا يتولَّى عنه من أهل الكتاب ، مَنْ قَصْدُه الحق ، وإنما يتولَّى عنه من قصده المُشاقة والمعاداة ، لِهَوَى نفسه ، وهذا يكفيك الله أمره .

والقرآن إن كان من عند الله ، ثم كفر به من كفر فلا أحد أضل ممن هو في مثل حاله إذ هو في شقاق بعيد .

وإن قدر أنه لم يعلم أنه حق ، فهو ضال .

والشقاق قد يكون مع العناد ، وقد يكون مع الجهل

فإن الآيات إذا ظهرت ، فأعرض عن النظر الموجب للعلم ، كان مشاقا ولهذا قال عقيب ذلك « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » فأخبر أنه سيرى عباده من الآيات الأفقية والنفسية ، مايبين أنه حق ، ثم قال ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ فإن شهادته وحده كافية بدون ماينتظر من الآيات كما قال تعالى ﴿ قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ وشهادته للقرآن ولمحمد ، تكون بأقواله التي أنزلها قبل ذلك على أنبيائه كما قال تعالى عن أهل الكتاب : ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ وتكون بأقواله التي أنزلها على محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن القرآن نفسه ، آية بينة ، ومعجزة قاهرة

وتكون بأفعاله ، وهو مايحدثه من الآيات والبراهين الدالة على صدق رسله فإنه صدقهم بها فيما أخبروا به عنه ، وشهد لهم بأنهم صادقون .

والقرآن نفسه هو قول الله ، وفيه شهادة الله بما أخبر به الرسول ، وإنزاله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وإتيان محمد به هو آية وبرهان ، وذلك من فعل الله ، إذ كان البشر لايقدرون على مثله ، ولا يقدر عليه أحد من الأنبياء ، ولا الأولياء ولا السحرة ولا غيرهم ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجتمعتِ الإنْسُ والجنُّ على أنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلِهِ ولو كانَ بعضُهُمْ لبعضٍ ظَهِيراً ﴾ ومحمد صلى الله عليه وسلم أخبر بهذا في أول أمره إذ كانت هذه الآية في سورة « سبحان » وهي مكية ، صَدَّرَها بذكر الإسراء الذي كان بمكة باتفاق الناس .

وقد أخبر خبرا وأكده بالقسم عن جميع الثقلين ، إنسهم وجنهم ، أنهم إذا

اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، بل يعجزون عن ذلك ، وهذا فيه آيات لنبوته .

منها إقدامه على هذا الخبر العظيم عن جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة ، بأنهم لا يفعلون هذا ، بل يعجزون عنه .

وهذا لا يقدم عليه من يطلب من الناس أن يصدقوه إلا وهو واثق بأن الأمر كذلك ، إذ لو كان عنده شك فى ذلك لجاز أن يظهر كذبه فى هذا الخبر ، فيفسد عليه ماقصده ، وهذا لا يقدم عليه عاقل ، مع اتفاق الأمم ، المؤمن بمحمد والكافر به ، على كمال عقله ومعرفته وخبرته إذ ساس العالم سياسة لم يسسهم أحد بمثلها ثم جعله هذا فى القرآن المتلو المحفوظ إلى يوم القيامة ، الذى يقرأ به فى الصلوات ، وسمعه العام والخاص ، والولى والعدو دليل على كمال ثقته بصدق هذا الخبر ، وإلا لو كان شاكا فى ذلك ، لخاف أن يظهر كذبه عند خلق كثير ، بل عند أكثر من اتبعه ومن عاداه ، وهذا لا يفعله من يقصد أن يصدقه الناس ، فمن يصدقه الناس ، لا يقول مثل هذا و يظهره هذا الإظهار ، و يشيعه هذه الإشاعة ، قصد أن و يخلده هذا التخليد ، إلا وهو جازم عند نفسه بصدقه .

ولا يتصور أن بشراً يجزم بهذا الخبر إلا أن يعلم أن هذا مما يعجز عنه الخلق ، إذ علم العالم بعجز جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة ، هو من أعظم دلائل كونه معجزا وكونه آية على نبوته ، فهذا من دلائل نبوته فى أول الأمر عند من سمع هذا الكلام ، وعلم أنه من القرآن الذى أمر ببلاغه إلى جميع الخلق وهو ـ وحده ـ كاف فى العلم بأن القرآن معجز .

دع ماسوى ذلك من الدلائل الكثيرة على أنه معجز ، مثل عجز جميع الأمم عن معارضته مع كمال الرغبة والحرص على معارضته .

وعدم الفعل مع كمال الداعى يستلزم عدم القدرة .

فلما كان دواعى العرب وغيرهم على المعارضة ، تامة وانتفت المعارضة . علم عجز جميع الأمم عن معارضته ، وهذا برهان بين يعلم به صدق هذا الخبر وصدق هذا الخبر آية لنبوته ، غير العلم بأن القرآن معجز ، فذلك آية مستقلة لنبوته ، وهى آية ظاهرة باقية إلى آخر الدهر ، معلومة لكل أحد ، وهى من أعظم الآيات فإن كونه معجزا يعلم بأدلة متعددة ، والإعجاز فيه من وجوه متعددة ، فتنوعت دلائل إعجازه وتنوعت وجوه إعجازه ، وكل وجه من الوجوه ، فهو دليل إعجازه وهذه جمل ، لبسطها تفصيل طويل ، ولهذا قال تعالى .

﴿ وقالوا لوْلاَ أُنزل عليهِ آيةٌ منْ ربهِ قلْ إنمَا الآياتُ عندَ اللهِ وإنمَا أنَا نذيرٌ مبينٌ أوَلَمْ يكفهمْ أنَا أنزلنَا عليكَ الكتابَ يُتلَى عليهمْ إنَّ فى ذلكَ لرحمةً وذكرَى لقومٍ يؤمنون ﴾ فهو كافٍ فى الدعوة والبيان ، وهو كافٍ فى الحجج والبرهان .

فصـــل

فى إظهار معجزاته

والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كثيرة متنوعة ، وهى أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ويسميها من يسميها من النظار معجزات ، وتسمى دلائل النبوة ، وأعلام النبوة ، ونحو ذلك .

وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء ، كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ، ولهذا لم يكن لفظ « المعجزات » موجودا فى الكتاب والسنة ، وإنما فيه لفظ « الآية » و « البينة » و « البرهان » كما قال تعالى فى قصة موسى ﴿ فذانكَ برْهانانِ منْ ربِّكَ ﴾ فى العصا واليد ، وقال الله تعالى فى حق محمد : ﴿ يا أيُّها الناسُ قدْ جاءكُمْ برهانٌ منْ ربكُمْ وأنْزلنَا إليكُمْ نوراً مُبيناً ﴾ وقد قال فى مطالبة أهل الدعاوى الكاذبة بالبرهان : ﴿ وقالوا لنْ يدخلَ الجنَّة

إلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أوْ نصارى تلكَ أمانيُّهم قلْ هاتوا برْهانَكمْ إنْ كنتمْ صادقينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أمْ مَنْ يبدؤُ الخلقَ ثُمَّ يعيدهُ وَمَن يرزقكمْ منَ السماءِ والأرضِ أإلهٌ معَ اللهِ ؟ قلْ هاتوا برهانكمْ إنْ كنتمْ صادقينَ ﴾ وقال: ﴿ وَمَنْ يدعُ معَ اللهِ إلهاً آخرَ لاَ برهانَ لهُ بهِ فإنما حسابُهُ عندَ ربِّهِ إنَّهُ لا يفلحُ الكافرُون ﴾ وقال تعالى : ﴿ ويومَ يناديهمْ فيقولُ : أيْنَ شُركائيَ الَّذِينَ كنتمْ تزعُمُون • ونزعنا منْ كلِّ أمَّةٍ شهيداً فقلنا هاتوا برهانكمْ فعلموا أنَّ الحقَّ للهِ وضلَّ عنهمْ ما كانوا يفترُونَ ﴾ .

وأما لفظ « الآيات » فكثير فى القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ وكذلكَ جعلنا فى كلِّ قريةٍ أكابرَ مُجْرِميهاَ ليمكروا فيها وما يمكرون إلاَّ بأنفسِهمْ ومايشعرون وإذا جاءتْهمْ آيةٌ قالوا لنْ نؤمنَ حتَّى نؤتَى مثلَ ما أوتيَ رسلُ اللهِ – اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولقدْ آتينا موسى تِسْعَ آياتٍ بيناتٍ فاسئلْ بنى إسرائيلَ إذْ جاءهمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وأدْخِلْ يدكَ فى جيْبِكَ تَخْرُجْ بيضاءَ منْ غيرِ سوءٍ آيةً أخرى ﴾ وقول فرعون له : ﴿ فأْتِ بآيةٍ إنْ كنتَ منَ الصَّادقين ﴾ وقال قوم صالح : ﴿ فأتِ بآيةٍ إنْ كنتَ منَ الصَّادقينَ • قالَ : هذهِ ناقةٌ لها شربٌ ولكمْ شِربُ يومٍ معلومٍ ﴾ وقال : ﴿ هذهِ ناقةُ اللهِ لكمْ آيةً ﴾ وقال المسيح : ﴿ قدْ جئتكمْ بآيةٍ منْ ربكمْ أنِّى أخلقُ لكمْ منَ الطينِ كهيئةِ الطيْرِ فأنفخُ فيهِ فيكونُ طيراً بإذنِ اللهِ وأُبرئُ الأكمهَ والأبرَصَ وَأُحْيِي الموْتَى بإذنِ اللهِ وأنبئكمْ بما تأكلونَ وما تدَّخرون فِى بيوتكمْ إنَّ فى ذلكَ لآيةً لكمْ إنْ كنتمْ مؤْمنينَ ﴾ وقال فى حق محمد : ﴿ وما تأتيهمْ منْ آيةٍ منْ آياتِ ربهمْ إلاَّ كانوا عَنها معرضينَ • فقدْ كذَّبوا بالحقِّ لمَّا جاءهمْ فسوفَ يأتيهمْ أنباءُ ما كانوا بهِ يستهزؤونَ ﴾ وقال : ﴿ أوَلمْ يكنْ لهمْ آيةً أنْ يعلمهُ عُلماءُ بنى إسرائيلَ ﴾ وقال : ﴿ اقتربتِ السَّاعةُ وانشقَّ

القمرُ • وإنْ يروْا آيةً يُعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمرٌّ ﴾ وقال : ﴿ ومنهمْ منْ يستمعُ إليكَ وجعلنا على قلوبهمْ أكنَّةً أنْ يَفقهوهُ وفى آذانهمْ وَقْراً وإنْ يَرَوْا كلَّ آيةٍ لا يؤمنوا بها حتَّى إذا جاؤُكَ يجادلونك يقولُ الَّذينَ كفروا: إنْ هٰذا إلاَّ أساطيرُ الأوَّلين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وقالوا لوْلا يأتينا بآيةٍ منْ ربِّهِ قلْ إنما الآياتُ عندَ اللهِ وإنمَا أنَا نذيرٌ مبينٌ • أوَلَمْ يكفِهِمْ أنا أنزلْنا عليكَ الكتابَ يُتلَى عليهمْ إنَّ فى ذلكَ لرحمةً وذكرَى لقومٍ يُؤْمنون ﴾ وقال : ﴿ سنُريهمْ آياتنَا فى الآفَاقِ وفى أنفسهمْ حتَّى يتبَيَّن لهمْ أنَّهُ الحقّ ﴾ وقال تعالى ﴿ قدْ كانَ لكمْ آيةٌ فى فئتينْ التقتَا فئةٌ تقاتِلُ فى سبيلِ اللهِ وأُخرى كافرةٌ يروْنهم مثليهم رأى العينِ واللهُ يؤيِّدُ بنصرهِ مَنْ يشاء إنَّ فى ذلكَ لعبْرَةً لِأولى الأبصَارِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإذا تُتلَى عليْهمْ آياتُنا بيِّناتٍ قالَ الَّذين لا يرجُون لقاءَنا ائْتِ بقرآن غيرِ هٰذا أو بدِّلْهُ قلْ ما يكونُ لِى أنْ أُبدِّلَهُ منْ تلقاءِ نفسِى ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل انظُروا ماذا فى السَّمواتِ وَالأرْض وما تُغنِى الآيات والنُّذُرُ عنْ قومٍ لايؤْمنونَ ﴾ وقال لما ذكر قصص الأنبياء فى سورة الشعراء ، قال فى آخر كل قصة: ﴿ إنَّ فى ذلكَ لآيةً وما كانَ أكثرهمْ مُؤْمنين وَإنَّ ربَّكَ لَهُو العزيزُ الرحيمُ ﴾ وقالَ : ﴿ لقدْ كان فى يوسُفَ وإخوتهِ آياتٌ للسَّائلينَ ﴾ إلى أن قال فى آخرها : ﴿ ذلكَ منْ أنْباءِ الغيْبِ نوحيهِ إليكَ وما كنتَ لديهمْ إذْ أجمَعوا أمرَهُمْ وهُمْ يمكرُون ﴾ إلى قوله : ﴿ وكأيِّنْ منْ آيةٍ فى السَّمواتِ والأرْض يمرُّون عليهاَ وهُمْ عنهاَ معرضونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وعدكمُ اللهُ مغانمَ كثيرةً تأخُذونها فعجَّلَ لكمْ هذه وكفَّ أيْدِىَ النَّاس عنكمْ ولتكونَ آيةً للمؤْمنينَ ﴾ وقال : ﴿ وجعلنا ابْنَ مريمَ وأمَّهُ آيةً وَآوَيناهُماَ إلى ربوَةٍ ذاتِ قرَارٍ وَمَعين ﴾.

وأما لفظ المعجز ، فإنما يدل على أنه أعجز غيره كما قال تعالى : ﴿ وما هم بمعجزين ﴾ وقال : ﴿ وما أنتمْ بمعجزينَ فى الأرض ولا فى السماء ﴾ .

ومن لايثبت فعلا إلا لله ، يقول : المعجز هو الله ، و إنما سمى غيره معجزاً مجازاً .

وهذا اللفظ لايدل على كون ذلك آية ودليلا إذا فسر المراد به ، وذكر شرائطه ، ولهذا كان كثير من أهل الكلام لايسمى معجزاً إلا ما كان للأنبياء فقط ، وما كان للأولياء إن أثبت لهم خرق عادة سماها كرامة .

والسلف ـ كأحمد وغيره ـ كانوا يسمون هذا وهذا معجزاً ، ويقولون لخوارق الأولياء : إنها معجزات ، إذا لم يكن فى اللفظ مايقتضى اختصاص الأنبياء بذلك .

بخلاف ما كان آية و برهاناً على نبوة النبى ، فإن هذا يجب اختصاصه .

وقد يسمون الكرامات آيات ، لكونها تدل على نبوة من اتبعه الولى ، فإن الدليل مستلزم للدلول ، يمتنع ثبوته بدون ثبوت المدلول ، فكذلك ما كان آية و برهاناً وهو الدليل والعلم على نبوة النبى يمتنع أن يكون لغير النبى .

وقد يقال : إنهم سموها معجزات لأن كرامات الأولياء دليل على نبوة النبى الذى اتبعوه ، ولهذا سموها آيات أيضاً ، أو لأنها تعجز غيرهم ، وهى آية على صحة طريقهم ، و بسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كثيرة متنوعة ، كما قد تكلمنا على ذلك فى غير هذا الكتاب ، وبينا أن من يخصص دلائل النبوة بنوع فقد غلط ، بل هى أنواع كثيرة ، لكن الآيات نوعان .

منها : ما مضى وصار معلوماً بالخبر ، كمعجزات موسى وعيسى .

ومنها : ماهو باق إلى اليوم ، كالقرآن الذى هو من أعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكالعلم والإيمان اللذين فى أتباعه ، فإنه من أعلام نبوته ، وكشريعته التى أتى بها ، فإنها أيضاً من أعلام نبوته ، وكالآيات التى يظهرها الله وقتاً بعد وقت من كرامات الصالحين من أمته ، ووقوع ماأخبر بوقوعه ، كقوله ﴿ لا تقوم

الساعة حتى تقاتلوا الترك » وقوله « لاتقوم الساعة حتى تخرج نار بأرض الحجاز تضىء لها أعناق الإبل ببصرى »

وقد خرجت هذه النار سنة خمس وخمسين وستمائة ، وشاهد الناس أعناق الإبل فى ضوء النار ببصرى .

وظهور دينه وملته بالحجة والبرهان ، واليد والسنان، ومثل المثلات والعقوبات التى تحيق بأعدائه ، وغير ذلك ، وكنعته الموجود فى كتب الأنبياء قبله ، وغير ذلك .

فصل
فى معجزات القرآن

القرآن كلام الله ، وفيه الدعوة والحجة ، فله به اختصاص على غيره ، كما ثبت عنه فى الصحيح أنه قال : « ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

والقرآن يظهر كونه آية و برهاناً له ، من وجوه ، جمله وتفصيلا .

أما الجملة ، فإنه قد علمت الخاصة والعامة من عامة الأمم ، علماً متواتراً أنه هو الذى أتى بهذا القرآن ، وتواترت بذلك الأخبار ، أعظم من تواترها بخبر كل أحد من الأنبياء والملوك والفلاسفة وغيرهم .

والقرآن نفسه ، فيه تحدى الأمم بالمعارضة ، والتحدى هو أن يحدوهم . (أى يدعوهم ويبعثهم) إلى أن يعارضوه .

فيقال فيه : حدانى على هذا الأمر (أى بعثنى عليه) ومنه سمى حادى العيس ، لأنه يحداه يبعثها على السير .

وقد يريد بعض الناس بالتحدى دعوى النبوة ، ولـكن أصله الأول ، قال تعالى فى سورة الطور ﴿ أم يقولونَ تقولهُ بل لايؤمنونَ فليأتوا بحديث مثله إن

كانوا صادقين ﴾ فهنا قال « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » فى أنه تقوله فإنه إذا كان محمد قادراً على أن يتقوله كما يقدر الإنسان على أن يتكلم بما يتكلم به من نظم ونثر ، كان هذا ممكناً للناس ، الذين هم من جنسه فأمكن الناس أن يأتوا بمثله .

ثم إنه تحداهم بعشر سور مثله فقال تعالى : ﴿ أَمْ يقولونَ افتراهُ قلْ فأتوا بعشرِ سُوَرٍ مثلِهِ مفترياتٍ وادعوا مَنِ استطعتمْ منْ دُونِ اللهِ إنْ كنتمْ صادقينَ ﴾ ثم تحدَّاهم بسورة واحدة منه فقال تعالى : ﴿ وَمَا كانَ هٰذا القرآنُ أنْ يُفترى مِنْ دُونِ اللهِ ولٰـكنْ تصديقَ الذى بيْنَ يديهِ وتفصيلَ الـكتابِ لاريْبَ فيهِ منْ ربِّ العالمينَ أمْ يقولونَ افتراهُ قلْ فأْتوا بسُورةٍ مثلهِ وادْعوا مَنِ استطعتمْ منْ دونِ اللهِ إنْ كنتمْ صادقينَ ﴾ فطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، هم وكل من استطاعوا من دون الله ، ثم تحدَّاهم بسورة واحدة ، هم ومن استطاعوا قال : ﴿ فإنْ لَمْ يستَجيبوا لـكُمْ فاعلَموا أنمَا أنزِلَ بعلْمِ اللهِ وأنْ لا إلٰهَ إلا هُو ﴾ وهذا أصل دعوته ، وهو الشهادة بأن محمداً رسول الله .

وقال تعالى : ﴿ فإنْ لَمْ يستَجيبوا لـكُمْ فاعلَموا أنما أنزِلَ بعلْمِ اللهِ ﴾ كما قال : ﴿ لـكِنِ اللهُ يشهدُ بما أُنزل إليكَ أنزلَهُ بعلْمِهِ والملائـكةُ يشهدونَ وكفى باللهِ شهيداً ﴾ أى هو يعلم أنه منزل ، لا يعلم أنه مفترى كما قال : ﴿ وَما كانَ هٰذا القرآنُ أنْ يُفترى منْ دون الله ﴾ أى ما كان لأن يفترى ، يقول : ما كان ليفعل هذا ، فلم ينف مجرد فعله ، بل نفى احتمال فعله ، وأخبر بأن مثل هذا لايقع بل يمتنع وقوعه ، فيكون المعنى : مايمكن ، ولا يحتمل ، ولا يجوز أن يفترى هذا القرآن من دون الله ، فإن الذى يفتريه من دون الله مخلوق ، والمخلوق لايقدر على ذلك ، وهذا التحدى كان بمكة ، فإن هذه السور مكية ، سور يونس ، وهود ، والطور .

ثم أعاد التحدى فى المدينة بعد الهجرة ، فقال فى «البقرة» وهى سورة مدنية ﴿ وإنْ كنتمْ فى رَيْبٍ مِمَّا نزَّلْنا عَلَى عبدِنَا فأتوا بسُورةٍ من مثله وَادعوا شُهداءكُمْ منْ دونِ اللهِ إنْ كنتمْ صادقينَ ﴾ ثم قال : ﴿ فإنْ لَمْ تفعلوا ولنْ تفعلوا فاتَّقوا النَّارَ التى وقودُها الناسُ والحجارةُ أعدَّتْ للكافرينَ ﴾ فذكر أمرين .

أحدهما : قوله ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار ﴾ يقول : إذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حق ، فخافوا الله أن تكذبوه ، فيحيق بكم العذاب الذى وعد به المكذبين ، هذا دعاء إلى سبيل ربه بالموعظة الحسنة بعد أن دعاهم بالحكمة ، وهو جدالهم بالتى هى أحسن .

والثانى : قوله « ولن تفعلوا » و « لن » لنفى المستقبل ، فثبت الخبر أنهم فيما يستقبل من الزمان ، لايأتون بسورة من مثله ، كما أخبر قبل ذلك وأمره أن يقول فى سورة « سبحان » وهى سورة مكية افتتحها بذكر الإسراء ، وهو كان بمكة بنص القرآن والخبر المتواتر ، وذكر فيها من مخاطبته للكفار بمكة ، مايبين ذلك بقوله ﴿ قل لئن اجتمعتِ الإنسُ والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ فعم يأمره له أن يخبر بالخبر جميع الخلق معجزاً لهم ، قاطعاً بأنهم إذا اجتمعوا كلهم ، لايأتون بمثل هذا القرآن ، ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك ، وهذا التحدى والدعاء ، هو لجميع الخلق ، وهذا قد سمعه كل من سمع القرآن ، وعرفه الخاص والعام ، وعلم مع ذلك أنهم لم يعارضوه ولا أتوا بسورة مثله ، ومن حين بعث ، وإلى اليوم ، الأمر على ذلك ، مع ماعلم من أن الخلق كلهم كانوا كفاراً قبل أن يبعث ، ولما بعث إنما تبعه قليل .

وكان الكفار من أحرص النـــاس على إبطال قوله ، مجتهدين بكل طريق يمكن .

تارة يذهبون إلى أهل الكتاب فيسئلونهم عن أمور من الغيب ، حتى

يسألوه عنها ، كما سألوه عن قصة يوسف ، وأهل الكهف ، وذى القرنين كما تقدم .

وتارة يجتمعون فى مجمع بعد مجمع على ما يقولونه فيه ، وصاروا يضربون له الأمثال ، فيشبهونه بمن ليس بمثله لمجرد شبه ما ، مع ظهور الفرق .

فتارة يقولون : مجنون ، وتارة ، يقولون : ساحر وتارة ، يقولون : كاهن . وتارة يقولون : شاعر . إلى أمثال ذلك من الأقوال ، التى يعلمونها ، هم وكل عاقل سمعها أنها افتراء عليه .

فإذا كان قد تحداهم بالمعارضة ، مرة بعد مرة ، وهى تبطل دعوته ، فمعلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها ، لفعلوها ، فإنه ـ مع وجود هذا الداعى التام المؤكد ـ إذا كانت القدرة حاصلة ، وجب وجود المقدور ، ثم هكذا القول فى سائر أهل الأرض .

فهذا القدر ، يوجب علماً بيناً لكل أحد يعجز عن جميع أهل الأرض ، عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، بحيلة و بغير حيلة .

وهذا أبلغ من الآيات التى يكرر جنسها كإحياء الموتى ، وإن هذا لم يأت أحد بنظيره ، وكون القرآن أنه معجزة ، ليس هو من جهة فصاحته و بلاغته فقط ، أو نظمه وأسلوبه فقط ، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط ، ولا من جهة صرف الدواعى عن معارضته فقط ، ولا من جهة سلب قدرتهم عن معارضته فقط .

بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة ، من جهة اللفظ ، ومن جهة النظم ، ومن جهة البلاغة فى دلالة اللفظ على المعنى ، ومن جهة معانيه التى أمر بها ، ومعانيه التى أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته ، وغير ذلك .

ومن جهة معانيه التى أخبر بها عن الغيب الماضى . وعن الغيب المستقبل .

ومن جهة ما أخبر به عن المعاد ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية ، والأقيسة العقلية ، التي هي الأمثال المضروبة ، كما قال تعالى : ﴿ ولَقَدْ ضَرَبْنَا في هٰذا القرآنِ للنَّاس مِنْ كلِّ مثلٍ وكانَ الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جَدَلا ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقدْ ضربنا للنَّاس في هٰذا القُرآن مِنْ كلِّ مثلٍ فأبَى أكثرُ النَّاس إلاَّ كفُوراً ﴾ وقال : ﴿ ولقدْ ضرَبنا للنَّاس في هٰذا القُرآن مِنْ كلِّ مثلٍ لعلَّهمْ يتذكرونَ قرآناً عَربيًّا غيرَ ذى عِوَجٍ لعلهمْ يتَّقون ﴾ .

وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن ، هو حجة على إعجازه ، ولا يناقض ذلك ، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له .

ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام : إنه معجز بصرف الدواعي مع قيام الموجب لها ، أو بسلب القدرة الجازمة ، وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضى التام ، أو سلبهم القدرة المعتادة في مثله سلباً عاما ، مثل قوله تعالى لزكريا : ﴿ آيَتُكَ ألاَّ تُكلِّمَ النَّاس ثلاث ليالٍ سويًّا ﴾ فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل ، وهو أنه إذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله ، فامتناعهم — جميعهم — عن هذه المعارضة مع قيام الدواعي العظيمة إلى المعارضة — من أبلغ الآيات الخارقة للعادات ، بمنزلة من يقول : إني آخذ أموال جميع أهل هذا البلد العظيم ، وأضربهم جميعهم ، وأجوعهم ، وهم قادرون على أن يشكوا إلى الله ، أو إلى ولي الأمر ، وليس فيهم — مع ذلك — من يشتكى ، فهذا من أبلغ العجائب الخارقة للعادة .

ولو قدر أن واحداً صنف كتابا ، يقدر أمثاله على تصنيف مثله ، أو قال شعراً ، يقدر أن يقولوا مثله ، وتحداهم كلهم ، فقال : عارضوني ، وإن لم تعارضوني فأنتم كفار ، مأواكم النار ، ودماؤكم لي حلال ، امتنع في العادة أن لا يعارضه أحد .

فإذا لم يعارضوه ، كان هذا من العجائب الخارقة للعادة .

والذي جاء بالقرآن ، قال للخلق كلهم : أنا رسول الله إليكم جميعاً ، ومن آمن بي ، دخل الجنة ، ومن لم يؤمن بي ، دخل النار ، وقد أبيح لي قتل رجالهم وسبي ذراريهم ، وغنيمة أموالهم ، ووجب عليهم – كلهم – طاعتي ، ومن لم يطعني ، كان من أشقى الخلق ، ومن آياتي هذا القرآن ، فإنه لا يقدر أحد على أن يأتي بمثله وأنا أخبركم أن أحداً لا يأتي بمثله .

فيقال : لا يخلو إما أن يكون الناس قادرين على المعارضة أو عاجزين .

فإن كانوا قادرين ، ولم يعارضوه ، بل صرف الله دواعي قلوبهم ، ومنعها أن تريد معارضته مع هذا التحدي العظيم ، أو سلبهم القدرة التي كانت فيهم قبل تحديه ، فإن سلب القدرة المعتادة أن يقول رجل : معجزتي أنكم كلكم ، لا يقدر أحد منكم على الكلام ولا على الأكل والشرب ، فإن المنع من المعتاد ، كإحداث غير المعتاد . فهذا من أبلغ الخوارق .

وإن كانوا عاجزين ، ثبت أنه خارق للعادة ، فثبت كونه خارقاً للعادة على تقدير النقيضين ، النفي والإثبات ، فثبت أنه من العجائب الناقضة للعادة في نفس الأمر .

فهذا غاية التنزل ، وإلا فالصواب المقطوع به ، أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته ، لا يقدرون على ذلك ، ولا يقدر محمد نفسه من تلقاء نفسه ، على أن يبدل سورة من القرآن ، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه ، لكل من له أدنى تدبر ، كما قد أخبر في قوله : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ .

وأيضاً فالناس يجدون دواعيهم إلى المعارضة حاصلة ، لكنهم يحسون من أنفسهم العجز عن المعارضة ، ولو كانوا قادرين لعارضوه .

وقد انتدب غير واحد لمعارضته ، لكن جاء بكلام فضح به نفسه ، وظهر

به تحقيق ما أخبر به القرآن من عجز الخلق عن الإتيان بمثله ، مثل قرآن مسيلمة الكذاب ، كقوله « يا ضفدع بنت ضفدعين ، نِقِّي كم تَنِقِّينَ ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين ، رأسك فى الماء ، وذنبك فى الطين » .

وكذلك أيضاً يعرفون أنه لم يختلف حال قدرتهم قبل سماعه و بعد سماعه ، فلا يجدون أنفسهم عاجزين عما كانوا قادرين عليه ، كما وجد زكريا عجزه عن الكلام بعد قدرته عليه .

وأيضاً فلا نزاع بين العقلاء المؤمنين بمحمد والمكذبين له ، أنه كان قصده أن يصدقه الناس لا يكذبوه ، وكان — مع ذلك — من أعقل الناس وأخبرهم وأعرفهم بما جاء به ، بنال مقصوده ، سواء قيل : إنه صادق أو كاذب فإن من دعى الناس إلى مثل هذا الأمر العظيم ، ولم يزل حتى استجابوا له طوعا وكرها ، وظهرت دعوته وانتشرت ملته هذا الانتشار ، هو من عظماء الرجال على أى حال كان . فإقدامه — مع هذا القصد — فى أول الأمر وهو بمكة وأتباعه قليل على أن يقول خبراً ، يقطع به أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، لا فى ذلك العصر ، ولا فى سائر الأعصار المتأخرة ، لا يكون إلا مع جزمه بذلك ، وتيقنه له ، و إلا ، فمع الشك والظن ، لا يقول ذلك من يخاف أن يظهر كذبه فيفتضح ، فيرجع الناس عن تصديقه .

و إذا كان جازما بذلك ، متيقنا له ، لم يكن ذلك إلا عن إعلام الله له بذلك

وليس فى العلوم المعتادة أن يعلم الإنسان أن جميع الخلق لا يقدرون أن يأتوا بمثل كلامه ، إلا إذا علم العالم أنه خارج عن قدرة البشر .

والعلم بهذا يستلزم كونه معجزاً ، فإنا نعلم ذلك ، و إن لم يكن علمنا بذلك خارقا للعادة ، ولكن يلزم من العلم ثبوت المعلوم ، و إلا كان العلم جهلا ، فثبت أنه — على كل تقدير — يستلزم كونه خارقا للعادة .

ولو قال مفتر : بل أنا أقول الذى أخبر بهذه الغيوب وأتى بهذه العجائب ، كان جاهلا أخرق ، ولا يدرى ما يقول .

وقيل له فهذا أبلغ فى الإعجاز وخرق العادة أن يكون مجنونا ، قد أتى بهذه الغيوب والعجائب التى لا يقدر عليها أحد من العقلاء ولا المجانين .

وأما التفصيل ، فيقال : نفس نظم القرآن وأسلوبه ، عجيب بديع ، ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة ، ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب ، فإنه ليس من جنس الشعر ، ولا الرجز ، ولا الرسائل ، ولا الخطابة ، ولا نظمه نظم شىء من كلام الناس ، عربهم وعجمهم ، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته هذا ، عجيب خارق للعادة ليس له نظير فى كلام جميع الخلق وبسط هذا وتفصيله طويل ، يعرفه من له نظر وتدبر .

ونفس ما أخبر به القرآن فى باب توحيد الله وأسمائه وصفاته ، أمر عجيب خارق للعادة ، لم يوجد مثل ذلك فى كلام بشر ، لا نبى ولا غير نبى .

وكذلك ما أخبر به عن الملائكة ، والعرش ، والكرسى ، والجن ، وخلق آدم وغير ذلك ، ونفس ماأمر به القرآن ، من الدين ، والشرائع كذلك ، ونفس ما أخبر به من الأمثال ، وبينه من الدلائل هو أيضاً كذلك .

ومن تدبر ما صنفه جميع العقلاء فى العلوم الإلهية ، والخلقية ، والسياسية ، وجد بينه وبين ما جاء فى الكتب الإلهية ، التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، وصحف الأنبياء ، تفاوتاً عظيما ، ووجد بين ذلك وبين القرآن من التفات ، أعظم مما بين لفظه ونظمه ، وبين سائر ألفاظ العرب ونظمهم .

فالإعجاز فى معناه ، أعظم وأكثر من الإعجاز فى لفظه ، وجميع عقلاء - بنى آدم - عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه ، أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه .

وما فى التوراة والإنجيل ، لو قدر أنه مثل القرآن ، لا يقدح فى المقصود ،

فإن تلك كتب الله أيضاً ، ولا يمتنع أن يأتى نبى بنظير آية نبى كما أتى المسيح بإحياء الموتى . وقد وقع إحياء الموتى على يد غيره ، فكيف وليس ما فى التوراة والإنجيل مماثلا لمعانى القرآن ، لا فى الحقيقة ، ولا فى الكيفية ولا فى الكمية ؟ ! بل يظهر التفاوت لكل من تدبر القرآن ، وتدبر الكتب .

وهذه الأمور من ظهرت له من أهل العلم والمعرفة ، ظهر له إعجازه من هذا الوجه .

ومن لم يظهر له ذلك ، اكتفى بالأمر الظاهر الذى يظهر له ولأمثاله ، كعجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله مع تحدى النبى و إخباره بعجزهم ، فإن هذا أمر ظاهر لكل أحد .

ودلائل النبوة من جنس دلائل الربوبية ، فيها الظاهر البين لكل أحد ، كالحوادث المشهودة ، مثل خلق الحيوان والنبات والسحاب و إنزال المطر وغير ذلك . وفيها ما يختص به من عرفه ، مثل دقائق التشريح ، ومقادير الكواكب وحركاتها وغير ذلك ، فإن الخلق كلهم محتاجون إلى الإقرار بالخالق ، والإقرار برسله ، وما اشتدت الحاجة إليه فى الدين والدنيا ، فإن الله يجود به على عباده جوداً عاماً ميسراً .

فلما كانت حاجتهم إلى النفس أكثر من حاجتهم إلى الماء ، وحاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى الأكل ، كان سبحانه قد جاد بالهواء جوداً عاماً فى كل زمان ومكان ، لضرورة الحيوان إليه ثم الماء دونه ، ولكنه يوجد أكثر مما يوجد القوت وأيسر ، لأن الحاجة إليه أشد .

فكذلك دلائل الربوبية ، حاجة الخلق إليها فى دينهم أشد الحاجات ، ثم دلائل النبوة .

فلهذا يسرها الله وسهلها أكثر مما يحتاج إليه العامة ، مثل تماثل الأجسام واختلافها ، و بقاء الأعراض أو فنائها ، وثبوت الجوهر الفرد أو انتفاؤه ،

ومثل مسائل المستحاضة وفوات الحج وفساده ، ونحو ذلك مما يتكلم فيه بعض العلماء .

فصل

وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، من آياته وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته ، من آياته ، وأمته من آياته ، وعلم أمته ودينهم ، من آياته ، وكرامات صالح أمته من آياته ، وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولد إلى أن بعث ، ومن حين بعث إلى أن مات ، وتدبر نسبه و بلده وأصله وفصله ، فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسباً : من صميم سلالة إبراهيم ، الذى جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب ، فلم يأت نبى من بعد إبراهيم إلا من ذريته ، وجعل له ابنين : إسماعيل و إسحاق ، وذكر فى التوراة هذا وهذا ، و بشر فى التوراة بما يكون من ولد إسماعيل ، ولم يكن فى ولد إسماعيل من ظهر فيما بشرت به النبوات غيره ودعا إبراهيم لذرية إسماعيل بأن يبعث فيهم رسولا منهم ، ثم من قريش صفوة بنى إبراهيم ، ثم من بنى هاشم صفوة قريش ، ومن مكة أم القرى ، و بلد البيت الذى بناه إبراهيم ، ودعا الناس إلى حجه ، ولم يزل محجوجا من عهد إبراهيم ، مذكوراً فى كتب الأنبياء بأحسن وصف .

وكان من أكمل الناس تربية ونشأة ، لم يزل معروفا بالصدق والبر والعدل ، ومكارم الأخلاق ، وترك الفواحش والظلم ، وكل وصف مذموم ، مشهوداً له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة ، وممن آمن به وكفر بعد النبوة ، لا يعرف له شىء يعاب به ، لا فى أقواله ، ولا فى أفعاله ، ولا فى أخلاقه ، ولا جرت عليه كذبة قط ، ولا ظلم ، ولا فاحشة ، وكان خلقه ، وصورته من أكمل الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله ، وكان أميا من قوم أميين ، لا يعرف ، لا هو ، ولا هم ، ما يعرفه أهل الكتاب ، التوراة والإنجيل ، ولم يقرأ شيئاً عن علوم الناس ، ولا جالس أهلها ، ولم يدع نبوة إلى أن أكمل الله له

أربعين سنة ، فأتى بأمر وهو أعجب الأمور وأعظمها ، و بكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره ، وأخبرنا بأمر ، لم يكن فى بلده وقومه ، من يعرف مثله ، ولم يعرف قبله ولا بعده ، لا فى مصر من الأمصار ، ولا فى عصر من الأعصار ، من من أتى بمثل ما أتى به ، ولا من ظهر كظهوره ، ولا من أتى من العجائب والآيات بمثل ما أتى به ، ولا من دعا إلى شريعة أكمل من شريعته ، ولا من ظهر دينه على الأديان كلها بالعلم والحجة و باليد والقوة كظهوره .

ثم إنه اتبعه أتباع الأنبياء ، وهم ضعفاء الناس ، وكذبه أهل الرياسة وعادوه ، وسعوا فى هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق ، كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأتباعهم .

والذين اتبعوه ، لم يتبعوه لرغبة ولا لرهبة ، فإنه لم يكن عنده مال يعطيهم ، ولا جهات يوليهم إياها ، ولا كان له سيف ، بل كان السيف والمال والجاه مع أعدائه .

وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى ، وهم صابرون محتسبون ، لا يرتدون عن دينهم لما خالط قلوبهم من حلاوة الإيمان والمعرفة .

وكانت مكة يحجها العرب من عهد إبراهيم ، فتجتمع فى الموسم قبائل العرب ، فيخرج إليهم يبلغهم الرسالة ، و يدعوهم إلى الله صابراً على ما يلقاه من تكذيب المكذب ، وجفاء الجافى و إعراض المعرض إلى أن اجتمع بأهل يثرب ، وكانوا جيران اليهود قد سمعوا أخباره منهم ، وعرفوه ، فلما دعاهم علموا أنه النبي المنتظر ، الذى تخبرهم به اليهود ، وكانوا قد سمعوا من أخباره ما عرفوا به مكانته ، فإن أمره كان قد انتشر وظهر فى بضع عشرة سنة ، فآمنوا به وتابعوه على هجرته وهجرة أصحابه إلى بلدهم ، وعلى الجهاد معه ، فهاجر هو ومن اتبعه إلى المدينة ، و بها المهاجرون والأنصار ، ليس فيهم من آمن برغبة دنيوية ولا برهبة ، إلا قليلا من الأنصار أسلموا فى الظاهر ، ثم حسن إسلام بعضهم ،

ثم أذِنَ له فى الجهاد ، ثم أمِرَ به ، ولم يزل قائماً بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها من الصدق والعدل . والوفاء ، لا يحفظ له كذبة واحدة ، ولا ظلم لأحد ، ولا غدر بأحد ، بل كان أصدق الناس ، وأعدلهم ، وأوفاهم بالعهد ، مع اختلاف الأحوال عليه ، من حرب وسلم وأمْنٍ ، وخوف ، وغِنًى ، وفقر ، وقِلَّةٍ ، وكثرة ، وظهوره على العدو تارة ، وظهور العدو عليه تارة ، وهو ـ على ذلك كله ـ ملازم لأكمل الطرق وأتمها ، حتى ظهرت الدعوة فى جميع أرض العرب التى كانت مملوءة من عبادة الأوثان ، ومن أخبار الكهان ، وطاعة المخلوق فى الكفر بالخالق ، وسفك الدماء المحرمة ، وقطيعة الأرحام ، لا يعرفون آخرةً ولا معاداً ، فصاروا أعلم أهل الأرض ، وأدينهم ، وأعدلهم ، وأفضلهم .

حتى إن النصارى لما رأوهم ـ حين قدموا الشام ـ قالوا : ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء .

وهذه آثار علمهم وعملهم فى الأرض وآثار غيرهم ، يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين .

وهو صلى الله عليه وسلم ـ مع ظهور أمره وطاعة الخلق له وتقديمهم له على الأنفس والأموال ـ مات صلى الله عليه وسلم ولم يخلف درهماً ولا ديناراً ولا شاة ولا بعيراً له إلا بغلته وسلاحه ، ودرعه مرهونة عند يهودى على ثلاثين وسقا[1] من شعير ، ابتاعها لأهله .

وكان بيده عقار ينفق منه على أهله ، والباقى يصرفه فى مصالح المسلمين ، فحكم بأنه لا يورث ، ولا يأخذ ورثته شيئا من ذلك .

وهو ، فى كل وقت ، يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه ، ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويشرع الشريعة

---

(١) صاعا — نسخة .

شيئاً بعد شيء ، حتى أكمل الله دينه الذى بعث به ، وجاءت شريعته أكمل شريعة ، لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به ، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه ، لم يأمر بشيء فقيل : ليته لم يأمر به ، ولا نهى عن شيء فقيل : ليته لم ينه عنه ، وأحل الطيبات ، لم يحرم شيئاً منها كما حرم فى شرع غيره ، وحرم الخبائث لم يحل منها شيئاً كما استحله غيره . وجمع محاسن ما عليه الأمم ، فلا يذكر فى التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، نوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الآخر ، إلا وقد جاء به على أكمل وجه ، وأخبر بأشياء ليست فى هذه الكتب .

فليس فى تلك الكتب إيجاب لعدل ، وقضاء بفضل ، وندب إلى الفضائل ، وترغيب فى الحسنات ، إلا وقد جاء به وبما هو أحسن منه .

وإذا نظر اللبيب فى العبادات التى شرعها ، وعبادات غيره من الأمم ، ظهر فضلها ورجحانها ، وكذلك فى الحدود والأحكام وسائر الشرائع .

وأمته أكمل الأمم فى كل فضيلة ، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم ، وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم ، ظهر أنهم أدْيَنُ من غيرهم .

وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم فى سبيل الله ، وصبرهم على المكاره فى ذات الله ، ظهر أنهم أعظم جهاداً وأشجع قلوباً .

وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم ، وسماحة أنفسهم بغيرهم ، تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم .

وهذه الفضائل به نالوها ، ومنه تعلموها وهو الذى أمرهم بها ، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء بتكميله ، كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة .

فكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم ، بعضها من التوراة ، وبعضها من الزبور ، وبعضها من النبوات ، وبعضها من المسيح ، وبعضها ممن بعده

كالحواريين ، ومن بعد الحواريين ، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم ، حتى أدخلوا ـ لما غيروا دين المسيح ـ فى دين المسيح أموراً من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح .

وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم يكونوا قبله يقرءون كتاباً ، بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود ، والتوراة ، والإنجيل ، والزبور إلا من جهته ، فهو الذى أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ، ويقروا بجميع الكتب المنزلة من عند الله ، ونهاهم أن يفرقوا بين أحد من الرسل ، فقال تعالى فى الكتاب الذى جاء به : ﴿ قولوا آمنا باللهِ وما أُنْزِلَ إلينا وما أُنزِلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ وما أُوتِيَ موسى وعيسى وما أُوتِيَ النبيونَ مِنْ ربِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ مِنهُمْ ونحنُ له مسلمونَ * فإنْ آمنوا بمثلِ ما آمنتُمْ به فقدِ اهتدَوا وإنْ تولَّوا فإنَّما هُمْ فى شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وهو السميعُ العليمُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بما أُنْزِلَ إليهِ مِنْ ربِّهِ والمؤمنونَ كُلٌّ آمَنَ باللهِ وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ مِنْ رُسُلِهِ وقالوا سَمِعنا وأَطَعْنا غفرانَكَ ربَّنا وإليكَ المصيرُ * لا يُكَلِّفُ اللهُ نفساً إلاَّ وُسْعَها لها ما كسبتْ وعليها ما اكتسبتْ ربَّنا لا تؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أو أخطأْنا ربَّنا ولا تحمِلْ علينا إصْراً كما حملتَهُ على الذين مِنْ قبلِنا ربَّنا ولا تُحَمِّلْنَا ما لا طاقَةَ لنا به واعفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لنا وارحمنا أنْتَ مولانا فانصُرْنا على القومِ الكافرينَ ﴾ .

وأمته لا يستحلون أن يأخذوا شيئاً من الدين من غير ما جاء به ، ولا يبتدعون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ولا يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله

لكن ما قصه عليهم من أخبار الأنبياء وأممهم ، اعتبروا به ، وما حدثهم به أهل الكتاب ، موافقاً لما عندهم ، صدقوه ، وما لم يعلموا صدقه ولا كذبه ، أمسكوا عنه ، وما عرفوا أنه باطل ، كذبوه ، ومن أدخل فى الدين ما ليس منه ، من أقوال متفلسفة الهند والفرس أو اليونان أو غيرهم ، كان ـ عندهم ـ من أهل

الإلحاد والابتداع ، وهذا هو الدين الذى كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون ، وهو الذى عليه أئمة المسلمين الذين لهم فى الأمة لسان صدق ، وعليه جماعة المسلمين وعامتهم ، ومن خرج عن ذلك ، كان مذموما مدحوراً عند الجماعة ، وهو مذهب أهل السنة والجماعة ، وهم الظاهرون إلى قيام الساعة ، الذين قال فيهم النبى صلى الله عليه وسلم : « لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لايضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة »

وقد تنازع بعض المسلمين ، مع اتفاقهم على هذا الأصل الذى هو دين الرسل عموما ، ودين محمد خصوصاً

ومن خالف هذا الأصل كان ـ عندهم ـ ملحدا مذموماً ، ليسوا كالنصارى الذين ابتدعوا ديناً ، قام به أكابر علمائهم وعبادهم ، وقاتل عليه ملوكهم ، وكان به جمهورهم ، وهو دين مبتدع ، ليس هو دين المسيح ، ولا دين غيره من الأنبياء .

والله سبحانه وتعالى أرسل رسله بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، فمن اتبع الرسل ، حصل له سعادة الدنيا والآخرة .

وإنما دخل فى البدع ، من قصر فى اتباع الأنبياء ، علماً وعملا .

ولما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ، تلقى ذلك عنه المسلمون أمته .

فكل علم نافع وعمل صالح ، عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم آخذوه عن نبيهم ، مع مايظهر لكل عاقل أن أمته أكمل الأمم فى جميع الفضائل العلمية والعملية .

ومعلوم أن كل كمال فى الفرع المتعلم ، فهو من الأصل المعلم . وهذا يقتضى أنه كان أكمل الناس علماً وديناً ، وهذه الأمور توجب العلم الضرورى بأنه كان صادقاً فى قوله : إنى رسول الله إليكم جميعاً لم يكن كاذباً مفترياً ، فإن هذا القول

لا يقوله إلا من هو من خيار الناس وأكملهم ، إن كان صادقاً ، أو هو من شر الناس وأخبثهم ، إن كان كاذباً .

وما ذكر من كمال علمه ودينه ، يناقض الشر والخبث والجهل ، فتعين أنه متصفٌ بغاية الكمال فى العلم والدين ، وهذا يستلزم أنه كان صادقاً فى قوله : « إنى رسول الله » لأن الذى لم يكن صادقاً ، إما أن يكون متعمداً للكذب أو مخطئاً والأول يوجب أنه كان ظالماً غاوياً والثانى يقتضى أنه كان جاهلا ضالا ، وكمال علمه ينافى جهله ، وكمال دينه ينافى تعمد الكذب ، فالعلم بصفاته يستلزم العلم بأنه لم يكن متعمداً للكذب ، ولم يكن جاهلا يكذب بلا علم ، وإذا انتفى هذا وذاك تعين أنه كان صادقاً عالماً بأنه صادق ، ولهذا نزهه الله عن هذين الأمرين بقوله تعالى : ﴿ والنَّجمِ إذا هَوَى * ماضلَّ صاحبكمْ وما غَوَى * وما ينطقُ عن الهوَى * إنْ هوَ إلاَّ وحيٌ يوحَى ﴾ وقال تعالى عن المَلَكِ الذى جاء به : ﴿ إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : ٢٠ ، ٢١] ثم قال عنه : ﴿ وما صاحبكمْ بمجنون * ولقد رآهُ بالأفُقِ المبينِ * وما هُوَ على الغَيْبِ بضنينٍ ﴾ أى بمتهم ، أو بخيل ، كالذى لا يُعَلِّم إلا بجعل أو لمن يكرمه : ﴿ وما هوَ بقوْل شيطانٍ رجيمٍ * فأينَ تذهَبونَ * إنْ هوَ إلاَّ ذكرٌ للعالمينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَإنَّهُ لَتَنْزِيلُ ربِّ العالَمِينَ * نَزَلَ به الروحُ الأمينُ * على قلبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذِرِينَ * بلسانٍ عربِيٍّ مُبينٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ هلْ أنبئكمْ على منْ تنزلُ الشياطينُ تنزلُ على كلِّ أفَّاكٍ أثيمٍ يلقون السَّمْعَ وأكثرهم كاذبونَ ﴾ بين سبحانه أن الشيطان إنما ينزل على من يناسبه ليحصل به غرضه ، فإن الشيطان يقصد الشر (وهو الكذب والفجور) لا يقصد الصدق والعدل ، فلا يقترن إلا بمن فيه كذب وفجور ، إما عمداً وإما خطأ ، فإن الخطأ فى الدين من الشيطان أيضاً ، كما قال ابن مسعود — لما سئل عن مسألة — : « أقول فيها برأى فإن يكن صواباً

فمن الله ، و إن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه » .

فالرسول برىء من تنزُّلِ الشيطان عليه فى العمد والخطأ ، بخلاف غير الرسول ، فإنه قد يخطىء ويكون خطؤه من الشيطان ، و إن كان خطؤه مغفوراً له ، فإذا لم يعرف له خبر أخبر به ، كان فيه مخطئاً ، ولا أمر به ، كان فيه فاجراً. علم أن الشيطان لم ينزل عليه ، و إنما ينزل عليه مَلَكٌ كريم ، ولهذا قال فى الآية الأخرى عن النبى : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ إلى آخر الآية .

فصل فى صفاته

وقد نقل الناس صفاته الظاهرة الدالة على كماله ، ونقلوا أخلاقه ، من حلمه ، وشجاعته ، وكرمه ، وزهده وغير ذلك . ونحن نذكر بعض ذلك :.

فى الصحيحين عن البراء بن عازب قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهاً ، وأحسنهم خلقاً ، ليس بالطويل الذاهب ، ولا بالقصير »

وعنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيد ما بين المنكبين ، عظيم الجمة إلى شحمة أذنيه ، عليه حلة حمراء ، ما رأيت شيئاً قط أحسن منه » .

وفى البخارى : وسئل البراء : أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل السيف ؟ قال : لا ، بل مثل القمر .

وفى الصحيحين من حديث كعب بن مالك قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ ، استنار وجهه حتى كأنه فلقة قمر » .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضخم الرأس والقدمين ، لم أر قبله ولا بعده مثله ، وكان بسيط الكفين ، ضخم اليدين »

وسئل عن شعره فقال : « كان شعراً رجلا ، ليس بالجعد ولا بالسبط ، بين أذنيه وعاتقه » .

وفى الصحيحين عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال : « كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم ضليع الفم ، أشكل العينين ، منهوس العقبين » وفسرها بن سماك بن حرب فقال : واسع الفم ، طويل شق العين ، قليل لحم العقب .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير ، وليس بالأبيض الأبهق ، ولا بالآدم ، ولا بالجعد القطط ، ولا بالسبط »

وفى الصحيحين عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهر اللون ، كأن عرقه اللؤلؤ ، إذا مشى تكفأ ، وما مسست ديباجة ولا حريرة ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا شممت مسكا ولا عنبرة ، أطيب من رائحة رسول الله صلى الله عليه وسلم »

وروى الدارمى عن ابن عباس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبلج الثنيتين ، إذا تكلم رئى النور يخرج من ثناياه » .

وروى عن ابن عمر قال : « ما رأيت أحداً أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أضوأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وعن أنس قال : « دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال[1] عندنا ، فعرق ، وجاءت أمى بقارورة فجعلت تسلت العرق فيها ، فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أم سليم ، ما هذا الذى تصنعين ؟ » قالت : هذا عرقك نجعله فى طيبنا ، وإنه أطيب من الطيب » أخرجاه .

وروى الدارمى عن جابر قال: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسلك طريقاً فيتبعه أحد ، إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عرقه » .

وفى حديث أم معبد المشهور ، لما مر بها النبى صلى الله عليه وسلم فى الهجرة ،

---

(١) قوله : فقال ، أى نام وقت الضحوة الكبرى وهو المعروف بالقيلولة .

هو وأبو بكر ، ومولاه . ودليلهم ، وجاء زوجها فقال : « صفيه لى يا أم معبد » فقالت : « رجلا ظاهر الوضاءة ، حلو المنطق ، فصل ، لا نزر ولا هذر ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن » .

وروى أبو زرعة بإسناده عن محمد بن عمار بن ياسر قال : قلت للربيع بنت معوذ بن عفرا : صف لى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت : يا بنى لو رأيته رأيت الشمس طالعة .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس ، وكان أجود الناس ، وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناس قِبَلَ الصوت ، فتلقَّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت ، وقد استبرأ الخبر وهو على فرس لأبى طلحة عرى فى عنقه السيف وهو يقول : لن تراعوا .

وقال : وجدناه بحراً ، وكان الفرس قبل ذلك بطيئاً ، فعاد لا يجارى .

وفى الصحيحين عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون فى شهر رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة »

وفى الصحيحين عن البراء بن عازب قال : « كنا إذا احمر البأس نتقى به وإن الشجاع منا الذى يحاذى به (يعنى النبى صلى الله عليه وسلم) .

وعن على بن أبى طالب قال : « لما كان يوم « بدر » اتقينا المشركين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أشد الناس بأساً ، وما كان أحد أقرب إلى العدو منه » ذكره البيهقى بإسناد صحيح .

وفى الصحيحين عن أنس قال: «خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، والله ما قال لى : أف قط ، ولا قال لشىء : لم فعلت ، وهلا فعلت كذا»

وفى رواية فى الصحيحين أيضاً قال: «لخدمته فى السفر والحضر ، والله ما قال

لى لشىء صنعته : لم صنعت هذا هكذا ؟ ولا لشىء لم أصنعه لم لم تصنع هذا هكذا ؟ وكان أحسن الناس خلقاً » .

وفى الصحيحين عن جابر قال : « ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام شيئاً إلا أعطاه ، قال : فجاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخاف الفاقة » .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء فى خدرها ، وكان إذا كره شيئاً عرفناه فى وجهه » .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو ، وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً » .

وروى البخارى عن أنس قال : « لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم سباباً ولا فحاشاً ولا لعاناً ، كان يقول لأحدنا عند المعتبة : ماله ترب جبينه » .

وفى صحيح مسلم عن عائشة أنها قالت : « ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثما ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط إلا أن تنتهك محارم الله » .

وعنها قالت : « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده شيئاً قط ، لا امرأة ولا خادماً ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، وما نيل منه شىء قط فينتقم من صاحبه ، إلا أن ينتهك شىء من محارم الله فينتقم لله » .

وروى مسلم فى صحيحه عنها وقد سئلت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « كان خلقه القرآن » .

وروى أبو داود الطيالسى عن شعبة ، حدثنا أبو إسحاق ، حدثنا أبو عبد الله الجدلى قال : سمعت عائشة ، وسألها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ، ولا صخابا فى الأسواق ، ولا يجزى

بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو و يصفح ، أو يغفر » شك أبو داود .

ورواه الحاكم فى مستدركه على الصحيحين .

وفى الصحيحين عن علقمة قال : سألت عائشة : كيف كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل كان يخص شيئاً من الأيام ؟ قالت : « لا كان عمله ديمة ، وأيكم يستطيع ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستطيع »

وروى مسلم فى صحيحه عن سعد بن هشام ، وقد سأل عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « ألست تقرأ القرآن ؟ قال : بلى . قالت : « فإن خلق نبى الله القرآن »

وفى صحيح الحاكم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وفى الصحيحين عن المغيرة بن شعبة قال: « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه ، فقيل : يارسول الله : أليس قد غفر الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً »

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة قال : « ماعاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما قط ، إن اشتهاه أكله ، وإلا تركه »

وروى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وأبو الشيخ الأصبهانى من حديث بهز بن حكيم ، عن أبيه عن جده أن أخاه أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « جيرانى على ما أخذوا » فأعرض عنه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الناس يزعمون أنك نهيت عن البغى ، ثم تستحل به فقال لأن كنت أفعل ذلك إنه لعلى وما هو عليهم ، خلوا له جيرانه »

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : « ما كان شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك » رواه عن عبد الرحمن بن مهدى : حدثنا حماد بن سلمة عن حميد عنه ، رواه أبو داود الترمذى .

وروى أبو نعيم وأبو الشيخ وغيرهما عن ابن عباس « إن الله أرسل إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ملكا من الملائكة معه جبريل فقال الملك « إن الله خيره بين أن يكون عبداً نبياً وبين أن يكون ملكا نبياً قال : فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كالمستشير فأشار جبريل بيده أن تواضع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لابل أكون عبداً نبياً » ورواه النسائى والبخارى فى تاريخه .

وفى صحيح مسلم عن أنس قال كان غلام يهودى يخدم النبى صلى الله عليه وسلم فمرض ، فعاده النبى صلى الله عليه وسلم فقال . أتشهد أن لا إله إلا الله ؟ » فنظر الغلام إلى أبيه فقال له أبوه . أطع أبا القاسم ، فأسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم « الحمد لله الذى أنقذه بى من النار »

وعن أبى حازم : أن النبى صلى الله عليه وسلم كلم رجلا فأرعد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « هون عليك فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » رواه ابن الجوزى من طرق، بعضها متصلا عن ابن مسعود وجرير ، قال ابن الجوزى أو روى متصل ، والصواب إرساله كما تقدم .

وفى الصحيح عن أنس بن مالك « أن امرأة كان فى عقلها شيء فقالت : يارسول الله ، إن لى إليك حاجة . قال يا أم فلان خذى فى أى الطرق شئت ، قومى فيه حتى أقوم معك ، فخلا معها يناجيها حتى قضت حاجتها » رواه مسلم .

وعن أنس قال : « كانت الأمة من إماء أهل المدينة ، لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتدور به فى حوائجها حتى تفرغ ثم يرجع » رواه البخارى فى الأدب .

وروى عن ابن أبى أوفى قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى مع الأرملة والمسكين ، فيقضى له حاجته » .

وعنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الذكر ، ويقل اللغو ، ويطيل الصلاة ، ويقصر الخطبة ، ولا يستنكف أن يمشي مع العبد ، ولا مع الأرملة حتى يفرغ من حاجتهم » رواه الدارمي والحاكم في صحيحه .

وروى أبو داود الطيالسي عن أنس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ، ويلبس الصوف ، ويجيب دعوة المملوك ، ولقد رأيته يوم خيبر على حمار خطامه ليف »

وروى مسلم في صحيحه عن أنس قال : « ما رأيت أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وروى البخاري عنه قال : « مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على صبيان فسلم عليهم »

وروى ابن عباس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس على الأرض ، ويأكل على الأرض ، ويعتقل الشاة ، ويجيب دعوة المملوك »

وعن قدامة بن عبد الله قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة شهباء ، لاضرب ولا طرد ، ولا إليك » رواهما أبو الشيخ .

وعن عائشة قالت : « ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قط مستجمعاً ضاحكا حتى أرى منه لهواته ، إنما كان يبتسم ، وكان إذا رأى غيما أو ريحاً عرف ذلك في وجهه ، فقلت : يارسول الله ، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية ؟ . قال : ياعائشة وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذب قوم بالريح ، وقد أتى العذاب قوما ، وتلا قوله تعالى ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا : هذا عارض ممطرنا ﴾ أخرجاه في الصحيحين

وفي الصحيحين أيضاً عن أنس قال : « كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذا شديدا

حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد مر لى من مال الله الذى عندك . قال : فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك ، ثم أمر له بعطاء »

وفى صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقوم من مصلاه الذى يقوم فيه حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت ، قام ، وكانوا يتحدثون فى أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم »

وفى رواية أخرى صحيحة « كان طويل الصمت ، قليل الضحك وكان أصحابه ربما تناشدوا عنده الشعر والشىء من أمورهم فيضحكون ويتبسم » .

وفى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها وسألها الأسود : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع فى أهله ؟ فقالت : « كان يكون فى مهنة أهله (يعنى خدمة أهله) فإذا حضرت الصلاة خرج » .

وفى رواية عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عروة قال : « سأل رجل عائشة ، هل كان يعمل فى بيته ؟ قالت : « كان يخصف نعله ، ويخيط ثوبه ، ويعمل فى بيته كما يعمل أحدكم فى بيته »

وروى الطيالسى : ثنا شعبة ، ثنا الأغر قال سمعت أنسا يقول : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ، ويلبس الصوف ، ويجيب دعوة المملوك ، ولقد رأيته يوم خيبر على حمار خطامه من ليف » .

وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام من خبز بُرٍّ تباعاً حتى مضى لسبيله » .

وعنها قالت : « كنا – آل محمد صلى الله عليه وسلم – يمر بنا الهلال والهلال ما نوقد بنار لطعام ، إلا أنه التمر والماء ، إلا أنه حولنا أهل دور من الأنصار فيبعث أهل كل دار بغريزة شاتهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يشرب من ذلك اللبن » أخرجاه فى الصحيحين .

وفى صحيح البخارى قال : أنس : « ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رغيفاً مرققاً حتى لحق بالله ، ولا رأى شاة سميطاً بعينه قط » .

وفى صحيح البخارى عنه : « ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا فى سكرجة ولا خُبِزَ له مرقّق » فقيل له . على ما كانوا يأكلون ؟ قال : على السفر » .

وفى صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب أنه خطب وذكر ما فتح على الناس فقال : « لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتوى يومه من الجوع ، ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه » .

وفى صحيح البخارى عن أنس : أنه مشى إلى النبى صلى الله عليه وسلم بخبز شعير وإهالة سنخة ، ولقد رهن درعه عند يهودى فأخذ لأهله شعيراً ، ولقد سمعته يقول : « ما أمسى عند آل محمد صاع بُرٍّ ولا صاع حب » وإنهم يومئذ تسعة أبيات .

وفيه عن عائشة قالت : « كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم من أدم حَشْوهُ ليف » .

وفى الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ لما ذكر اعتزال رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ـ قال : فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خزانته ، فإذا هو مضطجع على حصير ، فأدنى إليه إزاره وجلس ، وإذا الحصير قد أثَّر بجنبه ، وقلبت عينى فى بيته فلم أجد شيئاً يرد البصر غير قبضة من شعير وقبضة من قرض نحو الصاعين ، وإذا أفق معلقة فابتدرت عيناى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما يبكيك يا ابن الخطاب » ؟ فقلت : « يارسول الله ، وما لى لا أبكى وأنت صفوة الله ورسوله وخيرته من خلقه ، وهذه خزانتك وهذه الأعاجم » . وفى رواية « كسرى وقيصر فى الثمار والأنهار » فقال : « أو فى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عُجِّلَتْ لهم طيباتهم

فى حياتهم الدنيا » وفى رواية « أو ما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ » قال : بلى ، قال : « فاحمد الله عز وجل » . قال : فقلت : أستغفر الله .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » .

وروى الطيالسى بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال : « اضطجع النبى صلى الله عليه وسلم على حصير فأثر الحصير بجلده ، فجعلت أمسحه عنه وأقول : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، ألا آذنتنا فنبسط لك شيئاً يقيك منه تنام عليه ؟ فقال : « ما لى وللدنيا ، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » رواه أحمد .

وروى الحاكم فى صحيحه عن ابن عباس أن عمر دخل على النبى صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه .

وفى الترمذى عن أنس ابن مالك قال « حج النبى صلى الله عليه وسلم على رحل رث وقطيفة » ورواه البخارى عن أنس أيضاً فى « كتاب الحج » قال : « حج أنس على رحل رث ولم يكن شحيحاً وحدث أن النبى صلى الله عليه وسلم حج على رحل وكانت زاملته » .

وفى صحيح الحاكم عن أنس : أن النبى صلى الله عليه وسلم لبس خشناً ، وأكل خشناً ، ولبس الصوف ، واحتذى المخصوف . قيل للحسن : ما الخشن ؟ قال : غليظ الشعير ، ما كان يسيغه إلا بجرعة ماء » .

فصل فى المعاد

ومما يبين به فضل أمته على جميع الأمم وذلك مستلزم لكونه رسولا صادقاً كما تقدم ، وهو آية وبرهان على نبوته ، فإن كل ملزوم ، فإنه دليل على لازمه .

اعلم أن الأمم نوعان : نوع لهم كتاب منزل من عند الله ، كاليهود والنصارى . ونوع لا كتاب لهم ، كالهند ، واليونان ، والترك ، وكالعرب قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وما من أمة إلا ولابد لها من علم وعمل ، بحسبهم يقوم به مايقوم من مصالح دنياهم . وهذا من الهداية العامة التى جعلها الله لكل إنسان بل لكل حيوان ، كما يهدى الحيوان إلى جلب ماينفعه بالأكل والشرب ، ودفع مايضره باللباس والسكن ، وقد خلق الله فيه حباً لهذا ، وبغضا لهذا . قال تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسمَ ربكَ الأعْلى * الذى خلقَ فسوَّى * والذى قدرَ فهدى ﴾ ، وقال موسى لفرعون : ﴿ ربنا الذى أعطى كلَّ شىء خلقهُ ثمَّ هدَى ﴾ وقال الخليل : ﴿ الذى خلقنى فهوَ يهدين ﴾ وقال فى أول ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ اقرأْ باسمِ ربكَ الذى خلقَ خلق الإنسانَ منْ علق اقرأْ وربكَ الأكرمُ * الذى علم بالقلم ، علم الإنسانَ مالمْ يعلمْ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ألمْ نجعل لهُ عينين ولساناً وشفتين وهديناهُ النجدينِ ﴾ .

ثم الأمم متفاضلون فى معرفة الخالق تعالى وفى الإقرار بمعاد بعد الموت ، إما للأرواح فقط ، وإما للأبدانَ فقط ، وإما لمجموعهما كما هو قول سلف المسلمين وأئمتهم وعامتهم أهل السنة والجماعة ، ويتفاضلون فيما يحمدونه ويستحسنونه من الأفعال والصفات ، ومايذمونه ويستقبحونه من ذلك .

لكن عامة بنى آدم على أن العدل خير من الظلم ، والصدق خير من الكذب ، والعلم خير من الجهل ، فإن المحسن إلى الناس خير من الذى لايحسن إليهم .

وأما المعاد فهو إما للأرواح أو للأبدان ، وإن الناس بعد الموت يكونون سعداء أو أشقياء ، فيقرّ به كثير من الأمم غير أهل الكتاب ، وإن كان على وجه قاصر ، كحكماء الهند واليونان والمجوس وغيرهم ، وذلك أن أهل الأرض فى المعاد على أربعة أقوال :

أحدها : وهو مذهب سلف المسلمين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين المشهورين وغيرهم من أهل السنة والحديث من الفقهاء والصوفية والنظار وهو إثبات معاد الروح والبدن جميعاً ، وأن الإنسان إذا مات كانت روحه منعمة أو معذبة ، ثم تعاد روحه إلى بدنه عند القيامة الكبرى ، ولهذا يذكر الله فى كثير من السور أمر القيامتين ، القيامة الصغرى بالموت ، والقيامة الكبرى حين يقوم الناس من قبورهم وتعاد أرواحهم إلى أبدانهم ، كما ذكر الله القيامتين فى سورة الواقعة حيث قال فى أولها : ﴿ إذا وقعتِ الواقعة ليسَ لوقعتها كاذبةٌ * خافضةٌ رافعةٌ * إذا رجتِ الأرضُ رجا * وبست الجبالُ بساً * فكانتْ هباء منبثاً * وكنتمْ أزواجاً ثلاثة * فأصحابُ الميمنةِ ما أصحابُ الميمنةِ * وأصحابُ المشئمةِ ما أصحابُ المشئمةِ * والسابقون السابقون أولئكَ المقربون * فى جناتِ النعيمِ ﴾ ثم ذكر سبحانه حال الأصناف الثلاثة فى القيامة الكبرى ، وقال فى آخرِ السورة : ﴿ فلولا إذا بلغتِ الحلقومَ * وأنتمْ حينئذٍ تنظرونَ * ونحنُ أقربُ إليهِ منكمْ ولكنْ لاتبصرون * فلولا إنْ كنتم غير مَدينينَ * ترجعُونها إنْ كنتم صادقينَ فأمَّا إنْ كان من المقرَّبين فروحٌ وريحانٌ وجنةُ نعيمٍ وأمَّا إنْ كان منْ أصحاب اليمينِ * فسلامٌ لكَ منْ أصحابِ اليمينِ وأمَّا إنْ كان منَ المكذبين الضالِّين فنزلٌ من حميمٍ وتصليةُ جحيمٍ * إنَّ هذا لهو حقُّ اليقينِ * فسبح باسم ربِّكَ العظيمِ ﴾ وكذلك قال فى سورة القيامة :﴿ لاأُقسمُ بيومِ القيامةِ وَلا أُقسمُ بالنَّفس اللَّوَّامةِ أيحسبُ الإنسانُ أنْ لن نجمعَ عظامهُ بلىْ قادرينَ على أنْ نُسَوِّى بنانهُ بلْ يريدُ الإنسانُ ليفجرَ أمامهُ يسألُ أيانَ يومُ القيامةِ فإذا برقَ البصرُ وخسفَ القمرُ وجمعَ الشمسُ والقمرُ يقولُ الإنسانُ يومئذٍ أينَ المفرُّ كلاَّ لا وَزَرَ * إلى ربِّكَ يومئذٍ المستقرُّ ينبَّؤُ الإنسانُ يومئذٍ بما قدَّم وأخرَ ﴾ فذكر القيامة الكبرى ، ثم قال فى آخر السورة : ﴿ كلا إذا بلغتِ التراقىَ وقيلَ منْ راقٍ وظنَّ أنهُ الفراقُ والتفَّتِ الساقُ بالساقِ *

إلى ربِّكَ يومئذٍ المساقُ ﴾ و بسط هذا له موضع آخر ، فإن ذكر ماتناله الروح عند فراق البدن من النعيم والعذاب كثير فى النصوص النبوية .

وأما وصف القيامة الكبرى فى الكتاب والسنة ، فكثير جداً ، لأن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ، وقد بعث بين يدى الساعة ، فلذلك وصف القيامة بما لم يصفها به غيره ، كما ذكر المسيح فى صفته فقال : « إنه يخبركم بكل ما يأتى ، ويعرفكم جميع ما للرب » .

والقول الثانى : قول من يثبت معاد الأبدان فقط ، كما يقول ذلك كثير من المتكلمين الجهمية ، والمعتزلة المبتدعين من هذه الأمة .

و بعض المصنفين يحكى هذا القول عن جمهور متكلمى المسلمين ، أو جمهور المسلمين ، وذلك غلط ، فإنه لم يقل ذلك أحد من أئمة المسلمين ، ولا هو من قول جمهور نظارهم ، بل هو قول طائفة من متكلميهم المبتدعة ، الذين ذمهم السلف والأئمة .

والقول الثالث : المعاد للنفس الناطقة بالموت فقط ، وأن الأبدان لا تعاد .

وهذا لم يقله أحد من أهل الملل ، لا المسلمين ، ولا اليهود ، ولا النصارى .
بل هؤلاء كلهم متفقون على إعادة الأبدان ، وعلى القيامة الكبرى .

ولكن من تفلسف من هؤلاء فوافق سلفه من الصابئة والفلاسفة المشركين على أن المعاد للروح وحده ، فإنه يزعم أن الأنبياء خاطبوا الجمهور بمعاد الأبدان، وإن لم يكن له حقيقة ، وخاطبوهم بإثبات الصفات لله وليس لها حقيقة ، وأن الأنبياء لم يظهروا الحقائق للخلق ، وأنه لا يستفاد من أخبارهم معرفة شىء من صفات الله ، ولا معرفة شىء من أمر المعاد .

وحقيقة قولهم أن الأنبياء كذبوا للمصلحة ، هؤلاء ملاحدة كفار عند المتبعين للأنبياء ، من المسلمين ، واليهود ، والنصارى .

وإن كان هؤلاء كثيرين موجودين فيمن يتظاهر بأنه من أهل الملل

لظهور أديانهم ، وهو فى الباطن على هذا الرأى .

وهؤلاء القائلون بمعاد الأرواح فقط ، منهم من يقول بأن الأرواح تتناسخ ، إما فى أبدان الآدميين ، أو أبدان الحيوان مطلقاً ، أو فى جميع الأجسام النامية .

ومنهم من يقول بالتناسخ فى الأنفس الشقية فقط ، وكثير من محققيهم ينكر التناسخ .

والقول الرابع : ـ إنكار المعادين جميعاً ، كما هو قول أهل الكفر من العرب ، واليونان ، والهند ، والترك وغيرهم ، والمتفلسفة أتباع «أرسطو» كالفارابى وأتباعه ، لهم فى معاد الأرواح ثلاثة أقوال : ـ

١ ، ٢ : ـ قيل بالمعاد للأنفس العالمة والجاهلة .

٣ : ـ وقيل بإنكار الاثنين ، والفارابى نفسه قد قال الأقوال الثلاثة .

و بسط الكلام على هذه الأمور له موضع آخر ، إذ المقصود هنا أن كل ما عند أهل الكتاب ، بل وسائر أهل الأرض من علم نافع وعمل صالح ، فهو عند المسلمين .

وعند المسلمين ما ليس عند غيرهم فى جميع المطالب التى تنال بها السعادة والنجاة .

وعقلاء جميع الأمم تأمر بالعدل ومكارم الأخلاق ، وتنهى عن الظلم والفواحش ، ولهم علوم إلهية ، وعبادات بحسبهم ، ويعظمون أهل العلم والدين منهم .

والهند والفرس واليونان فى ذلك أكمل من كفار الترك ، والبربر ونحوهم ، مع أن هؤلاء فيهم أيضاً قسط من ذلك بحسبهم .

ومعلوم عند الاعتبار أن الأمم الذين لهم كتاب ، كاليهود والنصارى ، أكمل من الأمم الذين لا كتاب لهم ، فى الفضائل العلمية والعملية ، فإن ما لم يأخذه الناس عن الأنبياء يعلم بالعقل والاعتبار ، و بالمنام والإلهام ، وأخبار الجن ونحو ذلك من طرق العلم .

وكل طريق صحيح من الطرق العقلية والإلهامية وغيرها ، يشارك أهل الكتاب فيه مَنْ لا كتاب له ، ويمتاز أهل الكتاب بعلوم وأعمال أخذوها عن الأنبياء ، ليس في قوة من ليس بنبي أن يعلمها ، وهذا ظاهر في الأخلاق والسياسات الملكية والمدنية . فإن جنس أهل الكتاب ولو كان منسوخاً مبدلا ، هم أحسن حالاً ممن لا كتاب له .

أما في العبادات والإيمان بالله واليوم الآخر ، فرجحانهم فيه ظاهر .

وأما علوم وأعمال يكون ضررها راجحاً ، كالسحر والطلسمات وما يتوسل به من الشرك إلى استخدام الشياطين ونحو ذلك ، فهذا وإن كان غير أهل الكتاب أَقْوَمُ به ، فإنما ذلك لاستغناء أهل الكتاب بما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة .

ولهذا لما ذكر الله تعالى في قصة سليمان براءته عن ذلك ، وكانت الشياطين كتبت كُتُبَ كفر وسحر ، ودفنتها تحت كرسيِّ سليمان ، فلما مات أظهروا ذلك ، وقالوا : إنما كان يسخر الجن بهذه الأسماء والعزائم ، فصدقهم فريقان .

فريق قدحوا في سليمان بل كفروه ، من أهل الكتاب ، وقالوا : من فعل ذلك فهو كافر .

وفريق قالوا : نحن نقتدي بسليمان ونفعل كما كان يفعل ، وهم أهل العزائم والطلاسم التي يستخدمون بها الجن ، ويقولون : إن سليمان كان يستخدمهم بها حتى يقولوا : إن هذه الأسماء كانت مكتوبة على تاجه ، وهذا صورة خاتمة ، وهذا كلام « آصف بن برخيا » إلى أمثال ذلك مما يضيفونه إليه ، وهو كذب على سليمان .

وقد ذكر ذلك علماء المسلمين في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولمَّا جاءهُمْ رسولٌ منْ عندِ اللهِ مصدِّقٌ لِمَا معهمْ نبذَ فريقٌ منَ الذينَ أُوتوا الكتابَ كتابَ اللهِ وراءَ ظهورهمْ كأنهمْ لايعلمونَ واتبعوا ما تتلوا الشياطينُ على ملكِ سليمان

وَما كفرَ سُليمانُ ولـكنَّ الشياطينَ كفرُوا يعلّمونَ الناسَ السحرَ وما أُنزلَ على الملـكينِ ببابلَ هاروتَ وماروتَ وما يعلّمانِ منْ أحدٍ حتى يقولاَ إنمـا نحنُ فتنة فلا تـكفر فيتعلّمونَ منهما مايفرقون بهِ بينَ المرءِ وزوجهِ وماهم بضارِّين بهِ منْ أحدٍ إلا بإذنِ اللهِ ويتعلّمون مايضرهمْ ولا ينفعهمْ ولقدْ علموا لمنِ اشتراهُ مالهُ فى الآخرةِ منْ خلاق ولبئسَ ماشَرَوْا بهِ أنفسهمْ لوْ كانوا يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ فذم سبحانه من عَدَل عن اتباع كتاب الله ورسله ، واتبع ما تتلوه الشياطين على عهد سليمان ، و بين ــ سبحانه ــ أن سليمان لم يكفر ، ولـكن الشياطين كفروا وأنهم يعلِّمون الناس السحر ، وما أنزل على الملـكين ببابل هاروت وماروت ، وأن الملـكين ما يعلمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر .

وأخبر ــ سبحانه ــ أنهم لا يضرون به أحداً إلا بإذن الله ، وأنهم يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ثم قال : ﴿ ولقدْ علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرةِ من خلاقٍ ﴾ أى نصيب ، أى هؤلاء يعلمون أن صاحبه لا نصيب له فى الآخرة ، وإنما يطلبون أنهم يقضون به أغراضهم الدنيوية لما لهم فى ذلك من الهوى ، وذلك ضار لهم لا نافع ، كما قال فى المشرك : ﴿ يَدْعو لمنْ ضرُّه أقربُ منْ نفعهِ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولوْ أنهمْ آمنوا واتقوا لمثوبةٌ منْ عندِ اللهِ خيرٌ لو كانوا يعلمونَ ﴾ فبين سبحانه ، أنه بالإيمان والتقوى ، يحصل من ثواب الله ما هو خير لهم من هذا ، فإنهم إنما يطلبونه لما يرجون به من الخير لهم ، وهذا خير لهم ، وهذا كقوله : ﴿ إذا نودىَ للصلاةِ منْ يومِ الجمعةِ فاسعوا إلى ذكرِ اللهِ وذروا البيع ذلـكمْ خيرٌ لـكمْ ﴾ فإن ما تطلبه النفوس فيه لها لذة ، فجعل خيراً بذلك الاعتبار ، لـكن إذا كان الألم زائداً على اللذة ، كان شره أعظم من خيره .

والشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ،

فهى تأمر بما ترجح مصلحته ، وإن كان فيه مفسدة مرجوحة كالجهاد ، وتنهى عما ترجحت مفسدته وإن كان فيه مصلحة مرجوحة، كتناول المحرمات من الخمر وغيره .

ولهذا أمر تعالى أن نأخذ بأحسن ما أنزل إلينا من ربنا .

فالأحسن ، إما واجب ، وإما مستحب ، قال تعالى : ﴿ فخذها بقوَّةٍ وأمُرْ قومَكَ يأخذوا بأحسنها ﴾ وقال: ﴿ واتبعوا أحسنَ ماأُنزِلَ إليكُمْ من ربكُمْ ﴾ فأمر باتباع الأحسن والأخذ به .

وقال تعالى : ﴿ فبشرْ عبَادى الذينَ يستمعون القولَ فيتبعون أحسنهُ أولئكَ الذينَ هداهمُ اللهُ ﴾ فاقتضى أن غيرهم لم يهده ، وهذا يقتضى وجوب الأخذ بالأحسن ، وهو مشكل ، وقد تكلم الناس فيه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وقلْ لعبادى يقولوا التى هى أحسنُ إنَّ الشيطانَ ينزغُ بينهمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ادفعْ بالتى هىَ أحسنُ السيئةَ ﴾ مع قوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ ويدرءونَ بالحسنةِ السيئةَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وجادلهمْ بالتى هىَ أحسنُ ﴾ وقال : ﴿ ولا تجادِلوا أهْل الكتابِ إلا بالتى هىَ أحسنُ ﴾ وقال : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيمِ إلاَّ بالتى هىَ أحسنُ ﴾ فى موضعين .

وقد يقال هذا نظير قوله تعالى :﴿ فاسعوا إلى ذكرِ اللهِ وذروا البيعَ ذلكُمْ خيرٌ لكُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ اللهُ خيرٌ أمَّا يشركونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ تاللهِ إن كنَّا لفى ضلالٍ مبينٍ • إذ نسويكم بربِّ العالمينَ ﴾ وقوله : ﴿ واللهُ خيرٌ وأبقى ﴾ وقوله : ﴿ والآخرةُ خيرٌ وأبقى ﴾ وقوله : ﴿ فردوهُ إلى اللهِ والرسُول إن كنتمْ تؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾ وقوله : ﴿ أىُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ نديا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومنْ أحسنُ ديناً ممنْ أسلمَ وجههُ للهِ وهوَ محسنٌ واتبعَ ملةَ إبراهيمَ حنيفاً واتخذ اللهُ إبراهيمَ خليلاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ اعدلوا هو أقربُ للتقوى ﴾ وقوله : ﴿ ولوْ أنهمْ فعلوا مايوعظونَ بهِ لكانَ خيراً لهمْ وأشدَّ تثبيتاً ﴾ ونظائر هذا كثيرة مما يذكر فيه

أن المأمور به خير وأحسن من المنهى عنه ، وإن كان الأول واجباً ، والثانى محرماً .

وذلك لأن المأمور به قد يشتمل على مصلحة مرجوحة ، فيكون باعتبار ذلك فى هذا خيروحسن . وفى هذا شر وسيء ، لكن لما كان هذا خيرا وأحسن كان واجباً .

فقوله تعالى : ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ هو أمر بالأحسن من فعل المأمور أو ترك المحظور ، وهو يتناول الأمر بالواجب والمستحب ، فإن كليهما أحسن من المحرم والمكروه .

لكن يكون الأمر أمر إيجاب وأمر استحباب ، كما أمر بالإحسان فى قوله تعالى : ﴿ وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ والإحسان منه واجب ، ومنه مستحب .

فصـــــل

فى وجوب العدل ومقصود العبادات وصفاتها

وإذا كان جنس أهل الكتاب أكمل فى العلوم النافعة والأعمال الصالحة ، ممن لا كتاب له ، فمعلوم أن أمته ، أكمل من طائفتى أهل الكتاب ، اليهود والنصارى ، وأعدل ، وقد جمع لهم محاسن ما فى التوراة وما فى الإنجيل .

فليس عند أهل الكتاب فضيلة علمية وعملية إلا وأمة محمد صلى الله عليه وسلم أكمل منهم فيها .

فأما العلوم ، فهم أحذق فى جميع العلوم من جميع الأمم حتى العلوم التى ليست بنبوية ولا أخروية ، كعلم الطب مثلا ، والحساب ، ونحو ذلك ، هم أحذق فيها من الأمتين ، ومصنفاتهم فيها أكمل من مصنفات الأمتين بل أحسن علماً وبيانا لها من الأوائل الذين كانت هى غاية علمهم .

وقد يكون الحاذق فيها من هو عند المسلمين منبوذ بنفاق و إلحاد ولا قدر له عندهم ، لـكن يحصل له بما يعلمه من المسلمين من العقل والبيان ما أعانه على الحذق فى تلك العلوم ، فصار حثالة المسلمين أحسن معرفة و بياناً لهذه العلوم من أولئك المتقدمين .

وأما العلوم الإلهية والمعارف الربانية وما أخبرت به الأنبياء من الغيب ، كالعرش ، والملائـكة ، والجن ، والجنة ، والنار ، وتفاصيل المعاد ، فـكل من نظر فى كلام المسلمين فيها ، وكلام علماء اليهود والنصارى ، وجد كلام المسلمين فيها أكمل وأتم .

ومعلوم أن علم أهل الـكتاب والملل بذلك أتم من علم غيرهم .

وأما العبادة ، والزهد ، والأخلاق ، والسياسة الملـكية والمدنية ، فالـكلام فيها مبنى على أصل ، وهو معرفة المقصود بها ، وما يحصل المقصود .

فنقول : للناس فى مقصود العبادات مذاهب ، منهم من يقول : المقصود بها تهذيب أخلاق النفوس وتعديلها ، ليستعد بذلك للعلم ، وليست هى مقصودة فى نفسها ، و يجعلونها من قسم الأخلاق ، وهذا قول متفلسفة اليونان ، وقول من اتبعهم من الملاحدة والإسماعيلية وغيرهم من المتفلسفة الإسلاميين ، كالفارابى وابن سينا وغيرهما ، ومن سلك طريقتهم من متكلم ، ومتصوف ، ومتفقه

كما يوجد مثل ذلك فى كتب أبى حامد ، والسهروردى المقتول ، وابن رشد الحفيد ، وابن عربى ، وابن سبعين .

لـكن أبو حامد يختلف كلامه ، تارة يوافقهم ، وتارة يخالفهم .

وهذا القدر ، فعله ابن سينا وأمثاله ممن رام الجمع بين ما جاءت به الأنبياء و بين فلسفة المشائين ـ أرسطو وأمثاله ـ ولهذا تكلموا فى الآيات وخوارق العادات ، وجعلوا لها ثلاثة أسباب ١ ـ القوى الفلـكية ٢ ـ والقوى النفسانية ٣ ـ والطبيعية ، إذ كانت هذه هى المؤثرات فى هذا العالم عندهم .

وجعلوا ما للأنبياء وغير الأنبياء من المعجزات والكرامات ، وما للسحرة من العجائب ، هو من قوى النفس .

لكن الفرق بينهما أن ذلك قصده الخير ، وهذا قصده الشر

وهذا المذهب من أفسد مذاهب العقلاء ، كما قد بسط الكلام عليه فى غير هذا الموضع ، فإنه مبنى على إنكار الملائكة و إنكار الجن ، وعلى أن الله لا يعلم الجزئيات ، ولا يخلق بمشيئته وقدرته ، ولا يقدر على تغيير العالم .

ثم إن هؤلاء لا يقرون من المعجزات إلا بما جرى على هذا الأصل ، وأمكن أن يقال فيه هذا ، مثل نزول المطر ، وتسخير السباع ، و إمراض الغير وقتله ونحو ذلك .

فأما قلب العصا حية ، و إحياء الموتى ، و إخراج الناقة من الهضبة ، وانشقاق القمر وأمثال ذلك ، فلا يقرون به .

وقد علم بطرق متعددة ما يكون من الخوارق بسبب أفعال الجن ، و بسبب أفعال الملائكة .

وأحوال الجن معلومة عند عامة الأمم ، مسلمهم وكافرهم ، لا يجحد ذلك إلا من هو من أجهل الناس ، وكذلك من فسرها بقوى النفس ، وهذا غير إخبار الله عنهم فيما أنزله من الكتب .

وأما الملائكة فأمرهم أجل ، وهم رسل الله فى تدبير العالم كما قال تعالى : ﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ وقال : ﴿ فالمقسمات أمراً ﴾ وقد ذكر الله تعالى فى كتبه من أخبارهم وأصنافهم ما يطول وصفه ، وآثارهم موجودة فى العالم ، يعرف ذلك بالاعتبار ، كما قد بسط فى موضعه . إذ المقصود هنا ذكر مذاهب الناس ، فى العبادات .

وهؤلاء غاية ما عندهم فى العبادات ، والأخلاق ، والحكمة العملية ، أنهم

رأوا النفس ، فيها شهوة وغضب ، من حيث القوة العملية ، ولما نظر من جهة القوة العلمية .

فقالوا : كمال الشهوة فى العفة ، وكمال الغضب فى الحلم والشجاعة ، وكمال القوة النظرية فى العلم . والتوسط فى جميع ذلك بين الإفراط والتفريط هو العدل .

وما ذكروه من العمل متعلق بالندب لم يثبتوا خاصية النفس الذى هو محبة الله وتوحيده ، بل ولا عرفوا كمال ذلك ، كما لم يكن عندهم من العلم بالله إلا قليل مشتمل على كثير من الباطل ، كما قد بسط الكلام عليهم فى موضع آخر .

ومحبة الله وتوحيده ، هو الغاية التى فيها صلاح للنفس ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له .

فلا صلاح للنفس ، ولا كمال لها إلا فى ذلك ، وبدون ذلك تكون فاسدة لا صلاح لها كما قد بسط الكلام على ذلك فى موضع آخر ولهذا كان هو دين الإسلام الذى اتفقت عليه الرسل ، وهو جماع دعوة المرسلين ، قال الله تعالى : ﴿ ولقدْ بعثنا فى كلِّ أمَّةٍ رسولاً أن اعبدوا اللهَ واجتنبوا الطاغوتَ ﴾ ، وقال : ﴿ وما أرسلنا من قبلكَ منْ رسولٍ إلاّ نوحى إليهِ أنهُ لا إله إلا أنا فاعبدونِ ﴾ وقال : ﴿ ومَنْ يبتغ غيرَ الإسلامِ ديناً فلنْ يقبلَ منهُ ﴾ وقال تعالى: ﴿ واسئلْ منْ أرسلنا منْ قبلكَ منْ رسُلنا أجعلنا منْ دونِ الرحمن آلهةً يعبدونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسُلُ كلوا منَ الطيباتِ واعملوا صالحاً إنى بما تعملونَ عليمٌ وأنَّ هذه أمتكمْ أمةً واحدةً وأنا ربكمْ فاتقون • فتقطَّعوا أمرهمْ بينهمْ زبُراً كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحونَ ﴾ وقال لما ذكر قصص الأنبياء : ﴿ إنَّ هذه أمتكمْ أمةً واحدةً وأنا ربكمْ فاعبدونِ • وتقطَّعوا أمرهمْ بينهمْ كلٌّ إلينا راجعونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ شرعَ لكمْ منَ الدين ماوَصَّى بهِ نوحاً والذى أوحينا إليكَ وما وصينا بهِ إبراهيمَ وموسى وعيسى أنْ أقيموا الدِّين ولاتتفرقوا فيه ﴾ وقال تعالى : ﴿ فأقمْ وجهكَ للدِّين حنيفاً فطرةَ اللهِ التى فطرَ الناس عليها

لا تبديلَ لخلق اللهِ ذلكَ الدينُ القيمُ ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمونَ * منيبينَ إليه واتقوه وأقيموا الصلاةَ ولا تكونوا منَ المشركينَ * منَ الذينَ فرّقوا دينهمْ وكانوا شيعاً كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون ﴾ وقد قال تعالى : ﴿ وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدونِ ﴾ ، فالغاية الحميدة التى بها يحصل كمال بنى آدم وسعادتهم ونجاتهم ، عبادة الله وحده ، وهى حقيقة قول القائل « لا إله إلا الله » وبهذا بعث الله جميع الرسل ، وأنزل جميع الكتب ، فلا تصلح جميع النفوس وتزكو وتكمل إلا بهذا ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَيلٌ للمشركينَ الذينَ لا يؤتونَ الزكاة ﴾ أى لا يؤتون ما تزكو به نفوسهم من التوحيد والإيمان .

وكل من لم يحصل له هذا الإخلاص لم يكن من أهل النجاة والسعادة كما قال تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لا يغفرُ أن يشركَ بهِ ويغفرُ ما دونَ ذلك لمَنْ يشاء ﴾ وهذا فى موضعين من كتابه ، وهذا أول الكلمات العشر التى أنزلها الله على موسى حيث قال : « أنا الله لا إله إلا أنا إلهك الذى أخرجتك من أرض مصر من التعبد ، لا يكون لك إله غيرى ، لا تتخذ صوراً ولا تمثالا ، ما فى السموات من فوق ، ومن فى الأرض من أسفل ، وما فى الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهن ولا تعبدهن ، إنى أنا ربك العزيز » .

وقد شهد المسيح عليه السلام أن هذا هو أعظم وصية فى الناموس .

فعبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يكون الله أحب إلى العبد من كل ما سواه ؛ هو أعظم وصية وكلمة جاء بها المرسلون ، كموسى ، والمسيح ، ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين ، وضد هذا هو الشرك الذى لا يغفره الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ ومنَ الناس مَنْ يتخذ من دون اللهِ أنداداً يحبونهمْ كحب الله والذينَ آمنوا أشدُّ حباً للهِ ﴾ وقد بسط الكلام على هذا فى غير هذا الموضع ، وبين أن النفس ليس لها نجاة ولا سعادة ولا كمال ، إلا بأن يكون الله معبودها ومحبوبها الذى لا أحب إليها منه ، ولهذا كثر فى الكتب الإلهية الأمر بعبادة الله وحده .

ولفظ « العبادة » يتضمن كمال الذل بكمال الحب .

فلا بد أن يكون العابد محباً للإله المعبود كمال الحب ، ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل .

فمن أحب شيئاً ولم يذل له لم يعبده ، ومن خضع له ولم يحبه لم يعبده .

وكمال الذل والحب لا يصلح إلا لله وحده ، فهو الإله المستحق للعبادة ، التى لا يستحقها إلا هو ، وذلك يتضمن كمال الحب والذل والإجلال والإكرام ، والتوكل والعبادة .

فالنفوس محتاجة إلى الله من حيث هو معبودها الذى هو محبوبها ومنتهى مرادها و بغيتها ، ومن حيث هو ربها وخالقها .

فمن أقر بأن الله رب كل شىء وخالقه ، ولم يعبد الله وحده ، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه ، وأخشى عنده من كل ما سواه ، وأعظم عنده من كل ما سواه ، وأرجى عنده من كل ما سواه ، بل من سوَّى بين الله و بين بعض المخلوقات فى الحب . بحيث يحبه مثل ما يحب الله ، ويخشاه مثل ما يخشى الله ، ويرجوه مثل ما يرجو الله ، ويدعوه مثل ما يدعوه ، فهو مشرك الشرك الذى لا يغفره الله . ولو كان مع ذلك عفيفاً فى طعامه ونكاحه ، وكان حليما شجاعاً .

فما ذكره المتفلسفة من الحكمة العملية ، ليس فيها من الأعمال ما تسعد به النفوس وتنجو من العذاب ، كما أن ما ذكروه من الحكمة النظرية ، ليس فيها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

فليس عندهم من العلم ما تهتدى به النفوس ، ولا من الأخلاق ما هو دين حق ، ولهذا لم يكونوا داخلين فى أهل السعادة فى الآخرة المذكورين فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذينَ آمنوا والذينَ هادوا والنصارى والصابئين منْ آمنَ بالله واليومِ الآخر وعملَ صالحاً فلهمْ أجرهم عندَ ربهم ولا خوفٌ عليهمْ ولا همْ يحزنونَ ﴾

وهذه الفضائل الأربع التى ذكرتها المتفلسفة ، لا بد منها فى كمال النفس وصلاحها وتزكيتها .

والمتفلسفة لم يحدوا ما يحتاج إليه بحد يبين مقدار ما تحصل به النجاة والسعادة .

ولكن الأنبياء بينوا ذلك ، وقد قال سبحانه : ﴿ قُلْ إنما حرَّمَ ربى الفوَاحشَ ما ظهرَ منها وما بطنَ والإثمَ والبغىَ بغير الحقِّ وأن تشركوا باللهِ مالمَ ينزلْ بهِ سلطاناً وأنْ تقولوا على اللهِ مالا تعلمونَ ﴾ فهذه الأنواع الأربعة هى التى حرمها تحريماً مطلقاً ؛ لم يبح منها شيئاً لأحد من الخلق ، ولا فى حال من الأحوال .

بخلاف الدم والميتة ولحم الخنزير وغير ذلك ، فإنه يحرم فى حال ويباح فى حال . وأما الأربعة فهى محرمة مطلقا .

فالفواحش متعلقة بالشهوة . والبغى بغير الحق يتعلق بالغضب ، والشرك بالله فساد أصل العدل فإن الشرك ظلم عظيم ، والقول على الله بلا علم ، فساد العلم فقد حرم سبحانه هذه الأربعة ، وهى فساد الشهوة ، والغضب ، وفساد العدل والعلم .

وقوله ﴿ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ يتضمن تحريم أصل الظلم فى حق الله ، وذلك يستلزم إيجاب العدل فى حق الله تعالى ، وهو عبادته وحده لا شريك له فإن النفس لها القوتان ، العلمية ، والعملية ، وعمل الإنسان عمل اختيارى ، والعمل الاختيارى إنما يكون بإرادة العبد

وكل إنسان له إرادة وعمل بإرادته فإن الإنسان حساس متحرك بالإرادة ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أصدق الأسماء الحارث وهمام » .

والإرادة لابد لها من مراد ، وكل مراد فإما أن يراد لنفسه ، وإما أن يراد لغيره . والمراد لغيره لابد أن ينتهى إلى مراد لنفسه.

فالقوة العملية تستلزم أن يكون للإنسان مراد ، وذلك المراد لنفسه ، هو المحبوب لنفسه ، وهو الإله الذى يستحق أن يكون محبوباً لذاته ، وهذا هو العلة الغائية ، الذى هو علة فاعلية للعلة الفاعلية ، ولهـذا قيـل : العامة تقول « قيمة كل امرئ ما يحسن » والعارفون يقولون « قيمة كل امرىء ما يطلب »

وفى بعض الـكتب المتقدمة « إنى لا أنظر إلى كلام الحـكيم ، وإنما أنظر إلى همته »

وهؤلاء المتفلسفة لم يذكروا هذا فى كمال النفس ، وإنما جعلوا كلامها العملى فى تعديل الشهوة والغضب بالعفة والحلم ، وهذا غايته ترك الإسراف فى الشهوة والغضب ، والشهوة : هى جلب ما ينفع البدن ويبقى النوع ، والغضب دفع ما يضر البدن .

ولم يتعرضوا المراد الروح الذى يحبه ، كدأبه . مع أنهم إنما تكلموا فيما يعود إلى البدن ، وجعلوا ذلك إصلاحا للبدن الذى هو آلة النفس ، وجعلوا كمال النفس فى مجرد العلم .

وقد بسطنا غلطهم فى هذا الأصل من وجوه فى غير هذا الموضع ، وبينا أن النفس لها كمال فى العلم والإرادة ، كما أن لها كمالا فى العلم ، وأن العلم المجرد ليس كمالا لهـا ولا صلاحا ، ولو كان كمالا ، لم يكن ما عندهم من العلم هو كمال للنفس ، وبينا غلط الجهمية الذين قالوا « الايمان هو مجرد العلم » وأن الصواب قول السلف والأئمة « إن الإيمان قول وعمل » أصله قول القلب وعمل القلب المتضمن عمل القلب وإرادته .

وإذا كان لابد للنفس من مراد محبوب لذاته لا تصلح إلا به ولا تكمل إلا به ، وذلك هو إلٰهها ، فليس لهـا إله يكون به صلاحها إلا الله ، ولهذا قال الله تعالى ﴿ لو كانَ فيهما آلهةٌ إلاَّ اللهُ لفسدتَا ﴾ وليس ذلك للإنسان فقط بل

وللملائكة والجن ، فإنهم كلهم أحياء عقلاء ناطقون ، لهم علم وعمل اختياري ، ولا صلاح لهم إلا بمرادهم المحبوب لذاته ، وهو معبودهم ، ولا يجوز أن يكون معبوداً محبوباً لنفسه إلا الله فلو كان في السموات والأرض إله إلا الله لفسدتا .

فلهذا كان دين جميع الرسل عبادة الله وحده لاشريك له .

وهؤلاء المتفلسفة لايعرفون ذلك ، فليس عندهم من صلاح النفس وكمالها في العلم والعمل ما تنجو به من الشقاء ، فضلا عما تسعد به .

ومما يبين ذلك أن « أرسطو » معلمهم الأول هو وأتباعه إنما أثبتوا العلة الأولى بالحركة الفلكية ، فقالوا « الحركة الدورية حركة اختيارية نفسانية فقوامه بحركته الاختيارية ، وفساده بعدمها ، وقوام حركته بما يتحرك لأجله ، فإن الفاعل بالاختيار إنما قوامه بعلته الغائية التي يتحرك لأجلها ، وغايته التي يتحرك لأجلها ، هو العلة الأولى فإنه يتحرك للتشبه بها .

فجعلوا قوام العالم كله بالعلة الأولى من حيث هو متشبه به ، لأن المتحرك باختياره لابد له من مراد .

ومعلوم أن الحركة الإرادية تطلب مراداً محبوباً لنفسه ، وتستلزم ذلك أعظم من استلزامها تشبها به ، فإن كل متحرك بالإرادة لابد له من مراد محبوب لنفسه ، فإن الإرادة لابد لها من مراد ، والمراد يكون إما مراداً لنفسه ، وإما مراداً لغيره ، والمراد لغيره إنما يراد لذلك الغير فلا بد أن يكون ذلك الغير مراداً لنفسه أو ينتهي إلى مراد لنفسه ، وإلا لزم التسلسل في العلل الغائية وذلك باطل كبطلان التسلسل في العلل الفاعلية بصريح العقل واتفاق العقلاء . وبسط هذا له موضع آخر .

وإذا كان الفاعل بالاختيار يستلزم مراداً لنفسه محبوبا ، فلا بد أن يكون لما يتحرك في السموات بإرادته سواء كان هؤلاء ، الملائكة ، أو ما يسمونه

هم نفساً ، من محبوب مراد لذاته ، يكون هو الإله المعبود المراد بتلك الحركات

وكذلك نفس الإنسان ، حركتها بالإرادة من لوازم ذاتها ، فلا بد لهـا من محبوب مراد لذاته وهو الإله ، وهذا المحبوب المراد لذاته هو الله تعالى ، ويمتنع أن يكون غيره كما قد بسط هذا فى موضع آخر ، وبين أنه كما يمتنع أن يكون موجوداً بغيره ، بل هو واجب الوجود بنفسه ، فيمتنع أن يكون مراداً لغيره بل مراد لنفسه .

وكما يمتنع أن يكون للعالم ربّان قادران ، يمتنع أن يكون للعالم إلهـان معبودان ، فإن كون أحدهما قادرا ، يناقض كون الآخر قادراً لامتناع اجتماع القادرين على مقدور واحد ، وامتناع كون أحدهما قادراً على الفعل حين يكون الآخر قادراً عليه ، وامتناع ارتفاع قدرة أحـدهما بقدرة الآخر مع التكافى[١]

كذلك يمتنع أن يكون إلهـان معبودان محبوبان لذاتهما ، لأن كون أحدهما هو المعبود لذاته ، يناقضه أن يكون غيره معبوداً لذاته ، فإن ذلك يستلزم أن يكون بعض المحبة والعمل لهذا ، وبعض ذلك لهذا ، وذلك يناقض كون الحب والعمل كله لهذا فإن الشركة نقص فى الحب ، ولا تكون حركة المتحرك بإرادته له ، فلا يكون أحدهما معبوداً معمولا له إلا إذا لم يكن الآخر كذلك ، فإن العمل لهذا يناقض أن يكون له شريك ، فضلا عن أن يكون لغيره .

وكل من أحب شيئين فإنما يحبهما لثالث غيرهما ، وإلا فيمتنع أن يكون كل منهما محبوباً لذاته ، إذ المحبوب لذاته هو الذى تريده النفس وتطلبه وتطمئن إليه ، بحيث لايبقى لها مراد غيره ، ولهذا يناقض أن يكون له شريك.

والقول الثانى : — فى مقصود العبادات قول من يقول : إن الله عرض

---

(١) قوله : التكافى . هكذا فى الأصل . ولعل الصواب . التكافؤ .(أى التماثل)

الناس بالتكليف بالعبادات ليثيبهم على ذلك بعد الموت فإن الإنعام بالثواب لا يحسن بدون التكليف لما فيه من الإجلال والتعظيم ، الذى لا يستحقه إلا مكلف ، كما يقول ذلك القدرية ، كالمعتزلة ومن وافقهم من الشيعة وأهل الكتاب من المسلمين وغيرهم .

وهؤلاء قد يجعلون الواجبات الشرعية لطفا فى الواجبات العقلية ، وقد يقولون إن الغاية المقصودة التى بها يحصل الثواب هو العمل ، والعلم ذريعة إليه ، حتى يقولوا[1] مثل ذلك فى معرفة الله تعالى ، يقولون : إنما وجبت لأنها فى أداء الواجبات العقلية العملية .

والقول الثالث : ـ قول من يقول : بل الله أمر بذلك لا لحكمة مطلوبة ، ولا بسبب بل لمحض المشيئة ، وهذا قول الجبرية المقابلين للقدرية ، كالجهم ، والأشعرى ، وخلق كثير من المتكلمين والفقهاء والصوفية وغيرهم .

والقول الرابع : ـ قول سلف الأمة وأئمتها ، وهو أن نفس معرفة الله تعالى ومحبته مقصودة لذاتها ، وأن الله سبحانه محبوب مستحق للعبادة لذاته ، لا إله إلا هو ، ولا يجوز أن يكون غيره معبودا محبوبا لذاته ، وأنه سبحانه يحب عباده الذين يحبونه ويرضى عنهم ، ويفرح بتوبة التائب ، ويبغض الكافرين ويمقتهم ويغضب عليهم ويلعنهم ويذمهم ، وأن فى ذلك ، من الحكم البالغة ، وكذلك من الأسباب ما يطول وصفه فى هذا الخطاب ، كما قد بسط فى موضعه ، إذ المقصود ــ هنا التنبيه على أن المسلمين أكمل من غيرهم فى العلوم النافعة والأعمال الصالحة .

---

(١) قوله حتى يقولوا هكذا فى الأصل والصواب . حتى يقولون . لأن « حتى » هنا ليست ناصبة بل هى تفريعية بمعنى الفاء .

وإذا عرفت مذاهب الناس فى مقاصد العبادات ، فهم أيضاً مختلفون فى صفاتها .

فمن الناس من يظن أن كل ما كان أشق على النفس وأشد إماتة لشهوتها فهو أفضل .

وهذا مذهب كثير من المشركين والهند وغيرهم ، وكثير من أهل الكتاب اليهود ، والنصارى ، وكثير من مبتدعة المسلمين .

والقول الثانى ـ قول من يقول : إن أفضلها ما كان أدعى إلى تحصيل الواجبات العقلية .

والثالث ـ قول من يقول : فضل بعضها على بعض لاعلة له ، بل يرجع إلى محض المشيئة .

والرابع ـ وهو الصواب ـ أن أفضلها ما كان لله أطوع وللعبد أنفع .

فما كان صاحبه أكثر انتفاعاً به وكان صاحبه أطوع لله من غيره ، فهو أفضل كما جاء فى الحديث « خير العمل أنفعه » .

وعلى كل قول ، فعبادات المسلمين أكمل من عبادات غيرهم .

أما على الأول « فأولئك يقولون : كلما كانت الأعمال أشق على النفس فهى أفضل .

ثم هؤلاء قد يفضلون الجوع والسهر والصمت والخلوة ونحو ذلك ، كما يفعل ذلك من يفعله من المشركين فى الهند وغيرهم ومن النصارى ، ومبتدعة هذه الأمة ولكن يقال لهم : الجهاد أعظم مشقة من هذا كله ، فإنه بذل النفس وتعريضها للموت ، ففيه غاية الزهد المتضمن لترك الدنيا كلها ، وفيه جهاد النفس فى الباطن ، وجهاد العدو فى الظاهر ، وتلك العبادات توجد من الضعفاء .

ومعلوم أن المسلمين أعظم جهادا من اليهود والنصارى .

فإن اليهود خالفوا موسى فى الجهاد وعصوه ، والنصارى لايجاهدون على دين

وأما على قول من يجعل العبادات الشرعية لطفا فى الواجبات العقلية ، فلا ريب أن عبادات المسلمين - كصلاتهم وصيامهم وحجهم - أدعى إلى العدل الذى هو جماع الواجبات العقلية ، من عبادات غيرهم التى ابتدعوها ، فإنها متضمنة للظلم المنافى للعدل .

وأما على قول نفاة التعليل ورد ذلك إلى مشيئة الله فيكون الأمر فى ذلك راجعاً إلى محض مشيئة الله وتعبد للخلق .

وحينئذ ، فمن تكون عباداته تابعة لأمر الله الذى جاءت به الرسل يكون متعبداً بما أمر الله به .

بخلاف من تكون عباداته قد ابتدعها أكابرهم من غير أن يأتيهم بها رسول من عند الله .

وأما على القول الرابع ، فإنما علم أن الله أمر به يتضمن طاعة الله . وهذا إنما يكون فى عبادات أمر الله بها ، وهى عبادات المسلمين دون من ابتدع كثيراً من عباداتهم أكابرهم .

وأما انتفاع العباد بها ، فهذا يعرف بثمراتها ونتائجها وفوائدها ، ومن ذلك آثارها فى صلاح القلوب .

فليتدبر الإنسان عقول المسلمين وأخلاقهم وعدلهم ، يظهر له الفرق بينهم وبين غيرهم .

ثم صفات عباداتهم فيها من الكمال والاعتدال ، كالطهارة ، والاصطفاف ، والركوع ، والسجود ، واستقبال بيت إبراهيم الذى هو إمام الخلائق ، والإمساك فيها عن الكلام وما فيها من الخشوع ، وتلاوة القرآن واستماعه الذى يظهر الفرق بينه وبين غيره من الكتب لكل متدبر منصف ، إلى أمثال ذلك من الأمور التى يظهر بها فضل عبادات المسلمين على عبادات غيرهم .

وأما حكم المسلمين فى الحدود والحقوق ، فلا يخفى على عاقل فضله .

حتى إن النصارى فى طائفة من بلادهم ينصبون لهم من يقضى بينهم بشرع المسلمين ، إذ لم يكن لهم شرع عام يحكم به بين الناس .

وليس فى الإنجيل حكم عام ، بل عامته ، الأمر بالزهد ومكارم الأخلاق ، وهو مما يأمر به المسلمون أيضاً .

وقد ذكرنا فى كون المسلمين معتدلين متوسطين بين اليهود والنصارى ، فى التوحيد ، والنبوات ، والحرام ، والحلال وغير ذلك ، مما يبين أنهم أكمل من الأمتين ، مع أن دلائل هذا كثيرة جداً ، وإنما المقصود، التنبيه على ذلك ، وحينئذ ففضل الأمة ، يستلزم فضل متبوعها .

فصـــــل

ومما يبين أمر محمد صلى الله عليه وسلم أن من دعا إلى مثل مادعا إليه لايخلو من ثلاثة أقسام :ـ

إما أن يكون نبياً صادقاً مرسلا من الله ، كما أخبر عن نفسه بمنزلة نوح وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وداود ، وسليمان وغيرهم من الأنبياء الذين ذكرهم الله . فى قوله : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً * رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾

وإما أن يكون ملكا عادلا وضع ناموسا سياسيا ، وقانونا عدليا ، ينتفع به الخلق ، ويحملهم به على السيرة العادلة ليبلغ عله ، كما كان للأمم من يضع لهم

النواميس ، مثل واضعى النواميس من اليونان ، والهند ، والفرس وغيرهم .

وإن كان واضع الناموس مختصا بقوة قدسية ينال بها العلم بسهولة وله قوة نفسية « ينصرف فيها تصرفات خارجة عن العادة » ويكون له قوة تخييلية « تمثل له فى نفسه أشكالا نورانية » وأصواتاً يسمعها فى داخل نفسه ، فإن هذه الخواص الثلاثة ، هى التى يقول « ابن سينا » وأمثاله من المتفلسفة : إنها خواص النبى ، ومن قامت به كان نبياً . والنبوة مكتسبة عندهم .

ولكن لما كانت هذه موجودة لكثير من الخلق ، ولم يصل بها إلى قريب من درجة الصديقين ، أتباع الأنبياء ، كالخلفاء الراشدين ، وحوارى عيسى ، وأصحاب موسى ، جعلناها من هذا القسم ، إذ صاحب هذا ، قد يكون فيه عدل وسياسة ، بحسب مامعه من العلم والعدل ، فهذا القسم الثانى .

وإما أن يكون رجلا كاذبا ، فاجراً أفاكا أثيما يتعمد الكذب والظلم ، أو يتكلم بلا علم ، فيخطئ خطأ من يتكلم بلا علم .

ومن يظن الكذب صدقا ، والباطل حقاً ، والضلال هدى ، والغى رشداً ، والظلم عدلا ، والفساد صلاحاً وكل من دعا الخلق إلى متابعته وطاعته على سبيل الحتم والإيجاب ، بأن يصدقوه فيما أخبر ، ويطيعوه فيما أوجبه وأمر به باطناً وظاهراً ، من غير أن يخبر أحداً على اتباعه وتصديقه وطاعته ، ولا يسوغ له مخالفته بوجه من الوجوه ، لا فى الباطن ولا فى الظاهر . لم يخرج عن هذه الأقسام الثلاثة

وذلك لأنه ، إما أن يكون قصده الإثم والعدوان ، أو قصده البر والعدل .

فإن كان قصده الأول ، فهو ظالم فاجر ، ومثل هذا لا يكون إلا كاذبا عمداً أو خطأ .

وإن كان قصده البر والعدل ، فلا يخلو ـ مع ذلك ـ إما ، أن يكون عالما بكل ما يخبر به من الغيوب ، جازما بصدق نفسه جزما لا يحتمل النقيض ، عالما

بأن ما يأمر به هو عدل ، لايجوز لمن أمره أن يعصيه بوجه من الوجوه ، وإما أن لايكون جازما بذلك.

فإن كان جازما بذلك ، كان هذا هو النبي المعصوم ، الذى لايخبر إلا بحق وصدق ، ولا يأمر إلا بعدل ﴿ وتمّتْ كلماتُ ربِّكَ صِدقاً وَعَدلاً لاَمُبَدِّلَ لِكلماتِهِ وَهوَ السّميعُ العليمُ ﴾ .

بخلاف القسم الذى يتحرى العدل والصدق باجتهاده ورأيه ، فإن هذا قد يأمر بأشياء يجوز أن تكون المصلحة والعدل فى خلافها ، ويخبر بأشياء باجتهاده يجوز أن تكون المصلحة والعدل فى خلافها ، و يخبر بأشياء باجتهاده ، يجوز أن يكون الأمر فيها بخلاف ذلك ، ولا بد أن يغلط فى بعض مايخبر به من العلميات وما يأمر به من العمليات ، فإنه لامعصوم إلا الأنبياء ، ولهذا لم يجب الإيمان بكل مايقوله بشر ، إلا أن يكون نبياً ، فإن الإيمان واجب بكل مايأتى به النبي .

قال تعالى : ﴿ قولوا آمنَّا باللهِ وَما أُنزِلَ إلينا وَما أُنزِلَ إلى إبراهيم وَإسماعيلَ وَإسحاقَ وَيعقوبَ وَالأسباطِ وَما أُوتِيَ موسى وَعيسى وَما أُوتِى النَّبيُّونَ منْ ربهمْ لانفرِّقُ بينَ أحدٍ منهُمْ ونحنُ لهُ مسلمونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ ليسَ البرَّ أنْ تولوا وُجُوهكمْ قبلَ المشْرِقِ والمغربِ ولـكنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخرِ والملائـكةِ والـكتابِ والنَّبيِّينَ ﴾ الآية .

وإذا كان كذلك فمعلوم بالتواتر أن محمداً ذكر أنه رسول كإبراهيم وموسى وعيسى .

بل أخبر أنه سيد ولد آدم ، وأن آدم ومن دونه تحت لوائه يوم القيامة ، وأنه لما أسرى به وعرج إلى ربه ، علا على الأنبياء كلهم ، على إبراهيم ، وموسى وهرون ، وعيسى ، ويحيى وغيرهم ، وأخبر أنه لا نبى بعده ، وأن أمته هم الآخرون فى الخلق ، السابقون يوم القيامة ، وأن الـكتاب الذى أنزل إليه ، أحسن الحديث ، وأنه مهيمن على ما بين يديه من الـكتب ، مع تصديقه لذلك .

وحينئذ فإذا كان عالماً بصدق نفسه ، فهو نبي رسول ، ومن قال هذا القول وهو يعلم أنه كاذب ، فهو من أظلم الناس وأجرم ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى على الله كذباً أَوْ قال أُوحِيَ إِلَيَّ ولَمْ يُوحَ إليهِ شيءٌ ﴾ .

وإن كان يظن صدق نفسه وليس كذلك ، فهو مخطىء غالط ملبوس عليه

وإذا كان كذلك ، فلا بد أن يخطىء فيما يخبر به من الغيوب ، ويظلم فيما يأمر به من العدل ، ولا يتصور استمراره على هذا ، بل لابد أن يتبين له ولغيره أنه صادق أو كاذب

فإن من ظن صدق نفسه فى مثل هذه الدعوى وليس بصادق ، يكون من أجهل الناس وأظلمهم وأبعدهم عن التمييز بين الحق والباطل ، والصدق والكذب والخير والشر ، فإن هذا بمنزلة من اشتبه عليه النبي الصادق بالنبي الكاذب ، وهذا من أجهل الناس

وإذااشتبه عليه حال غيره . فكيف بمن اشتبه عليه حال نفسه ولم يعلم هو مايقوله ، أصدق أم كذب ؟

ومن كان جاهلا مع هذه الدعوى العظيمة التى لم يدع بشر مثلها ، ومع كثرة مايخبر به من الغيوب الماضية والمستقبلة ، و يأمر به و ينهى عنه ، من الأمور الكلية ، والسنن العامة ، والشرائعوالنواميس ، فلابد أن يكون فيها من الضلال والغي مايبين لأكثر الخلق .

فإذا كان إخباره عن الماضى والمستقبل ، يصدق بعضه بعضاً ، والذى يأمر به هو الطريق الأقوم ، والكتاب الذى جاء به ، كتاب متشابه مثانى ، يشبه بعضه بعضاً فى الصدق ، قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يتدبَّرُونَ القرآنَ ولو كان منْ عندِ غيرِ اللهِ لوجدُوا فيهِ اختلافاً كثيراً ﴾ فإنه لو كان من عند غير الله ، لوجب أن يكون فيه تناقض ، لامتناع قدرة البشر على أن تخبر بهذه الأخبار وما فيها من الغيوب ، و يأمر بهذه الأوامر مع سلامة ذلك من التناقض ولهذا لا يوجد بشر غير نبي يسلم من ذلك .

فإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم قد علم بالاضطرار من سيرته أنه كان يتحرى الصدق والعدل ، وأنه ما جرت عليه كذبة قط وعلم أنه كان جازماً بما يخبر به مع عظم الأخبار وكثرتها ، وأنه ـ هو وحده ـ قام يدعو الناس إلى ما جاء به ، ومن عادة طالب الملك والرياسة ـ ولو كان عادلاً ـ أن يستعين بمن يعينه ، كأقارب وأصدقائه ونحوهم ، وأن يبذل للنفوس من العاجل ما يرغبها به ، كالمال والرياسة ، ويرهب من خالفه .

ومحمد صلى الله عليه وسلم دعا الناس وحده وهو بمكة ، فآمن به المهاجرون ، ثم آمن به الأنصار بالمدينة ، ثم آمن به أهل البحرين ، ولم يعط أحداً منهم درهماً ولا كان معه ما يخيفهم به ، لا سيف ، ولا غيره . بل أقام بمكة بضع عشرة سنة ، وهو والمؤمنون به ، مستضعفون ، لم يكن له مال يبذله لهم ، ولا سيف يخيفهم به .

وكان أعظم من آمن به ، أبو بكر الصديق ، مع كمال عقله وخلقه ودينه في قومه ، ومحبتهم له وعلو قدره فيهم ، أنفق ماله كله في سبيل الله ، حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ما تركت لأهلك ؟ » قال : « تركت لهم الله ورسوله » ولم يعطه النبي صلى الله عليه وسلم درهماً واحداً يخصه به ، ثم تولى الأمر بعده ، وترك ما كان معه للمسلمين ، واكتفى كل يوم بدرهمين له ولعياله ، ومات وهو فقير من فقراء المسلمين .

وتولى بعده عمر بن الخطاب ، وفتح أعظم ممالك العالم ، مملكة فارس والروم ، فقهر الروم على بلاد الشام والجزيرة ومصر .

وأميره الكبير « أبو عبيدة » أزهد الخلق في ولايته الأموال ، وأعبدهم للخالق ، وأرحمهم للمخلوق ، وأبعدهم عن هوى النفس ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه : « إن لكل أمة أميناً ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .

وأميره على فارس « سعد بن أبي وقاص » الذي كان مستجاب الدعوة ،

وكان من أزهد الخلق ، وكان آخر من بقي من أهل الشورى والناس يتنازعون في الولاية وهو معتزل في قصره بالعقيق ، لا يزاحم أحدا .

فقال له ابن عمر : « تركت الناس يتنازعون في الملك وجلست ههنا ؟ » فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله يحب العبد التقي النقي الخفي » .

فصـــــل

ومن آيات محمد صلى الله عليه وسلم ودلائل نبوته في القرآن ، قصة الفيل ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ .

وقد تواترت قصة أصحاب الفيل ، وأن أهل الحبشة ، النصارى ، ساروا بجيش عظيم ، معهم فيل ليهدموا الكعبة ، لما أهان بعض العرب كنيستهم التي باليمن ، فقصدوا إهانة الكعبة وتعظيم كنايسهم .

فأرسل الله عليهم طيراً أهلكهم عامتهم ، وكان ذلك عام مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان ، ودينُ النصارى خير من دينهم .

فعلم بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذ ، بل كانت لأجل البيت ، أو لأجل النبي صلى الله عليه وسلم ، الذي ولد في ذلك العام عند البيت ، أو لمجموعهما ، وأي ذلك كان ، فهو من دلائل نبوته .

فإنه إذا قيل : إنما كانت آية للبيت وحفظاً له ، وذبًّا عنه لأنه بيت الله الذي بناه إبراهيم الخليل . فقد علم أنه ليس من أهل الملل من يحج إلى هذا

البيت ويصلى إليه ، إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، هو الذى فرض حجه والصلاة إليه .

فإذا كان هذا البيت عند الله خير من الكنائس التى للنصارى ، حتى إن الله أهلك الكنائس لما أرادوا تعظيم الكنائس وإهانة البيت . علم أن أهل هذا البيت خير من دين النصارى والمشركون ليسوا خيراً من النصارى .

فتعين أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير من النصارى ، وذلك يستلزم أن نبيهم صادق ، وإلا فمن كانوا متبعين لنبى كاذب ، فليسوا خيراً من النصارى بل هم من شرار الخلق ، كأتباع مسيلمة الكذاب ، والأسود العنسى وغيرهما ، وقال فى القرآن ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم فى تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴾ والأبابيل جماعات متفرقة فوج بعد ترميهم بحجارة من سجيل ، أى من طين مستحجر ، وهى كلمة معربة ، أصلها بالفارسية (سنك) و (كل) بالفارسية هى الطين ، ويقولون فى الجمع كيلان (أى أطيان) لأن الألف والنون فى الفارسية للجمع ، فيقولون : مسلمان وفقيهان وعالمان أى مسلمون وعلماء وفقهاء .

ولما عربتها العرب صارت عربية ينطقون بها ، ويعرفون معناها ، والقرآن نزل بلغتهم العربية والمعرب عربى « فجعلهم كعصف مأكول » كالتبن الذى أكل وقوله : « ألم تر » استفهام فى معنى التقرير ، وهذا يقتضى أن هذا قد وقع وعلم به الناس ورأوه ، وقد قررهم على ذلك لما فيه من الدلالة والبيان والإنعام على الخلق .

فصـــــــل

ومن آياته الظاهرة التى فى القرآن ما ذكره من أن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً ، بخلاف ما كانت العادة جارية به ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ

إليَّ أنهُ استمَعَ نفرٌ مِنَ الجنِّ فقالوا : إنا سَمِعنا قُرآناً عَجباً * يَهدِي إلى الرُّشْدِ فآمنَّا بهِ وَلَنْ نشركَ بربِّنا أحداً ﴾ إلى قوله: ﴿وأنَّا لمسْنَا السَّماء فوَجدْناهاَ مُلئتْ حرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَأنَّا كنَّا نقعُدُ منهاَ مقاعدَ للسَّمْعِ فمنْ يسْتمِعِ الآنَ يجِدْ لهُ شِهَاباً رَصَداً * وأنَّا لا نَدْرِى أشرٌّ أُرِيدَ بمَنْ فى الأرْض أمْ أرادَ بِهمْ ربهم رَشَداً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما تَنَزَّلَتْ به الشَّياطِينُ وما ينبغى لهم وما يستطيعونَ إنهمْ عَنِ السَّمْعِ لَمعْزُولُونَ ﴾ وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقرؤه على الناس وهم يقرءونه ، ولم ينكره أحد ، ولا ارتاب به مؤمن ، ولا احتج به عليه كافر ، فدل على أن الناس علموا صدق ما أخبرت به الجن من أن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً ، وأنهم لم يتمكنوا حينئذ مما كانوا يتمكنون منه قبل ذلك من الاستماع .

ومعلوم أن هذا أمر يراه الناس بأبصارهم فإن امتلاء السماء بالشهب ، أمر يراه الناس كلهم ، فلو لم يكن كذلك ، لكان الناس يكذبون بهذا ، مؤمنهم وكافرهم ، فإن الجماعة العظيمة الذين لم يتواطؤا ، يمتنع اتفاقهم على الكذب ، وعلى التصديق بما يعلمون أنه كذب ، وعلى كتمان ما يعلمونه ، وعلى ترك إنكار ما يعلمون أنه كذب .

وقد سمع القرآن ألوف مؤلفة ، أدركوا مبعثه ، وشاهدوا أحوال السماء ، فلو لم يكن هذا كان موجوداً ـ مع أن عامتهم كانوا مكذبين له ، ولما آمنوا كانوا طوائف متباينين ـ يمتنع اتفاقهم على كذب أو كتمان أو سكوت ، فلما لم ينكر ذلك أحد ، بل تظاهرت الأخبار بمثل ما أخبر به القرآن من الرمى العظيم بالشهب الذى لم يعهد مثله ، حتى صاروا يشكون : هل ذلك فى الكواكب التى فى الفلك أو فى غيرها ؟ وقالوا : إن كان فى كواكب الأفلاك فهو خراب العالم ، فلما رواه فيما دونها ، علموا أنه لأمر حدث . فى الصحيحين من حديث ابن عباس قال : « انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة

من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين و بين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حيل بيننا و بين السماء ، أرسلت علينا الشهب . قالوا : ما ذاك إلا من شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا : ما هذا الذى حال بيننا و بين خبر السماء ؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهي بنخل عامدين إلى سوق عكاظ ، وكان الرسول يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن ، استمعوا له وقالوا : هذا الذى حال بيننا و بين خبر السماء ، فرجعوا إلى قومهم فقالوا ياقومنا ﴿ إِنَّا سَمِعنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِى إلى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِربِّنا أَحَداً ﴾ فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً ﴾ وفى لفظ البخارى بنخلة قريباً من مكة ، وهو الصواب .

وقد ظن بعض الناس أن الشهب لم يكن يرمى بها قبل ذلك بحال ، والصواب أنه كان يرمى بها كما هو الآن أحياناً كما ثبت فى صحيح مسلم عن ابن عباس ورواه أيضاً أحمد فى مسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو فى نفر من الأنصار إذ رمى بنجم فاستنار ، فقال لهم : « ما كنتم تقولون فى هذا النجم الذى يرمى به فى الجاهلية ؟ » قالوا : كنا نقول حين رأيناها يرمى بها ، مات ملك وولد مولود . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس ذلك كذلك ، ولكن الله إذا قضى فى خلقه أمراً يسمعه أهل العرش فيسبحون ، فيسبح من تحتهم بتسبيحهم ، فيسبح من تحت ذلك ، فلم يزل التسبيح يهبط حتى ينتهى إلى السماء الدنيا حتى يقول بعضهم لبعض : لم سبحتم ؟ فيقولون سبح من فوقنا فسبحنا بتسبيحهم فيقولون : ألا تسألون من فوقكم مم سبحوا ؟ فيسألون فيقولون : قضى الله فى خلقه كذا وكذا ، الأمر الذى كان ، فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهى إلى سماء الدنيا فيتحدثون به ، فتسترقه

الشياطين بالسمع على توهم منهم واختلاف ، ثم يأتون به الكهان من أهل الأرض فيحدثونهم ، فيخطئون ويصيبون ، فيتحدث به الكهان .

وفى الصحيحين عن عائشة قالت : قلت يارسول الله ، إن الكهان قد كانوا يحدثوننا بالشيء فيكون حقاً قال : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقذفها فى أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة » .

وروى البخارى فى صحيحه عن عائشة أنها سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الملائكة تنزل فى العنان ، وهو السحاب ، فتذكر الأمر قضى فى السماء ، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه ، فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم .

وفى صحيح البخارى أيضاً عن أبى هريرة قال : إن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاً لقوله ، كأنه سلسلة على الصفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : « الحق وهو العلى الكبير » فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا ، بعضهم فوق بعض ، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : « كذا وكذا » الكلمة التى سمعت من السماء ، فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء .

ورواه محمد بن إسحاق عن الزهرى ، وقال فى آخره : « ثم إن الله عز وجل حجب الشياطين عن السمع بهذه النجوم ، فانقطعت الكهانة ، فلا كهانة »

ورواه معمر عن الزهرى وقال : فقلت للزهرى : أو كان يرمى بها فى الجاهلية ؟ قال نعم .

قلت : يقول الله : ﴿ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ﴾ الآية .

قال : غلظت واشتد أمرها حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم .

وروى الطبرى عن داود ، ثنا عاصم بن على ، ثنا على بن عاصم عن عطاء ابن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « كان للجن مقاعد فى السماء يستمعون الوحى ، وكان الوحى إذا أوحى ، سمعت الملائكة كهيئة الحديدة يرمى بها على الصفوان ، فإذا سمعت الملائكة صلصلة الوحى ، خروا لجباههم فإذا نزل عليهم أصحاب الوحى قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قال : فينادون قال ربكم : « الحق وهو العلى الكبير » .

قال : فإذا نزل إلى السماء الدنيا قالوا : يكون فى الأرض كذا وكذا موتاً ، وكذا وكذا حياة ، وكذا وكذا جدوبة ، وكذا وكذا خصباً ، وما يريد أن يصنع ، وما يريد أن يبتدى تبارك وتعالى ، فنزلت الجن فأوحوا إلى أوليائهم من الإنس بما يكون فى الأرض .

فبيناهم كذلك ، إذ بعث النبي صلى الله عليه وسلم فزجرت الشياطين عن السماء ، ورموهم بالكواكب ، فمنعوا ، فجعل لا يصعد أحد إلا احترق ، ، وفزع أهل الأرض لما رأوا فى الكواكب ، ولم يكن قبل ذلك فقالوا : أهلك من فى السماء .

وكان أهل الطائف أول من فزع ، فينطلق الرجل إلى إبله فينحر كل يوم بعيراً لآلهتهم ، فينطلق صاحب الغنم فيذبح كل يوم شاة ، فينطلق صاحب البقر ، فيذبح كل يوم بقرة .

فقال لهم رجل : ويلكم لا تهلكوا أموالكم ، فإن معالمكم من الكواكب التى تهتدون بها لم يسقط منها شيء . فأقلعوا ، وقد أسرعوا فى أموالهم .

وكان إبليس قال : حدث فى الأرض حدث ، فأتى من كل مكان فى

الأرض بتربة ، فجعل لا يؤتى بتربة أرض إلا شمها ، فلما أتى بتربة تهامة قال : ههنا حدث الحدث فصرف الله إليه نفراً من الجن وهو يقرأ القرآن فقالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجباً ﴾ حتى ختم الآية ، فولوا منذرين .

ورواه أبو زرعة عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة عن عطاء بنحوه ، ورواه البيهقي عن حماد بن سلمة عن عطاء أيضاً .

فقد تبين أنه لما كان في زمن المبعث ، ملئت السماء حرساً شديداً وشهباً ، وقبل ذلك لم يكن الحرس شديداً ، بل كانت السماء مملوءة حرساً وشهباً كما هي ترمى بها أحياناً وكانوا يقعدون بها مقاعد للسمع ، أي يسترق أحدهم ما يسمعه كما يستمع المستمع إلى حديث غيره ، مختفياً بسماعه ، مسترقا له ، فكانت الشياطين تسترق (أي تستمع) ما تقوله الملائكة .

فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، صار أحدهم إذا استمع ، وجد الشهاب قد أرصد له ، فلم يستطع أن يقعد ويستمع كما كان قبل ذلك .

فصل

وقد ذكرنا بعض آياته التي في القرآن ، لأن من أهل الكتاب من يقول : لا نصدق إلا بما في القرآن كما في التوراة والإنجيل ما فيهما من آيات موسى والمسيح ، إذ كان نقل القرآن عنه متواترا لا يستريب فيه أحد ، فنبهنا على بعض ما في القرآن ، مع أن آياته التي ليست في القرآن كثيرة جداً .

وليس من شرط المنقول المتواتر أن يكون في القرآن ، بل كما تواتر عنه من شريعته ما ليس في القرآن وهو من الحكمة التي أنزلها الله عليه كذلك ، تواتر عنه من دلائل نبوته ما ليس في القرآن ، وهو من آياته وبراهينه ، وقد قال تعالى في غير موضع : ﴿ وأنزلَ اللهُ عليكَ الكتابَ والحكمةَ ﴾ فالحكمة منزلة عليه ، وهي منقولة في غير القرآن .

وقد تواتر عنه كون الصلاة خمساً ، والفجر ركعتين ، والمغرب ثلاثا ، والباقى أربعاً أربعا ، والرباعية فى السفر ركعتان ، وتواتر عنه سجود السهو .

وكذلك تواتر عنه أنواع من المعجزات والأخبار المأثورة فى أصناف آياته ، وبراهينه كثيرة جدا لا يمكن إحصاؤها ، وهى مشتملة على جنسى العلم والقدرة على أنواع من الإخبار بالغيوب المستقبلة ، مفصلة ، كأنما رآها بعينه ، لم يأت منها خبر إلا كما أخبر به ، وهذا أمر لم يكن قط إلا لنبى .

أما الكاهن والمنجم ونحو هؤلاء ، فيكذبون كثيراً كما يصدقون أحياناً ، ويخبرون بجمل غير مفصلة .

وأما أهل الولاية والصلاح ، فأعظمهم كشفاً ، يخبر من ذلك بأمور قليلة ، لا تبلغ عشر معشار ما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا يخبرون بها مفصلة كخبره ، وعلى أنواع من القدرة والتصرف الخارق للعادة والآيات . إما من باب العلم والخبر والمكاشفة . وإما من باب القدرة والتأثير والتصرف .

وفى القرآن من الأخبار بالمستقبلات ، شىء كثير كقوله تعالى : ﴿ الٓمٓ * غُلِبت الرومُ * فى أدْنَى الأرضِ وهم من بعد غَلَبِهِمْ سيَغْلِبون * فى بِضْعِ سنينَ * لِلهِ الأمرُ من قبلُ ومِن بعدُ ﴾ فغلبت الروم فارس فى بضع سنين ، وقد ذكرنا تفصيل ذلك فيما مضى ، وكقوله : ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأرضِ كما اسْتَخْلَفَ الذين مِن قبلِهم وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دينَهُمُ الذى ارتَضَى لهمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِن بعدِ خَوْفِهم أَمْناً يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شيئاً ﴾ وكان كما أخبر .

وروى الدارمى عن أبى بن كعب قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة وآواهم الأنصار ، رمتهم العرب عن قوس واحدة ، وكانوا لا يبيتون إلا فى السلاح ، ولا يصبحون إلا فيه ، فقالوا ترون : أنا نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل ؟ فنزلت ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا

الصالحات ، إلى آخر الآية ، وكان كذلك ، استخلف الله المؤمنين فى الأرض ، ومكن لهم دينهم فى مشارق الأرض ومغاربها .

وقال تعالى : ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾ ، وكان كما أخبر ووعد ، وقال تعالى: ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ وكان كما أخبر ، وقال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ إلى قوله : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ فأخبر أنهم لن يفعلوا ، وكان كما أخبر .

وأخبر أنه قال للمسيح : ﴿ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ وكان كما أخبر .

وأنزل فى مكة : ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر * سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ فكان كما أخبر ، هزم الجمع وولوا الدبر .

وقال : ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيراً ﴾ فكان كما أخبر .

وقال : ﴿ ومن الذين قالوا : إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ وكان كما أخبر

وقال : ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً ﴾ إلى قوله ، ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾ وكان كما أخبر .

وقال : ﴿ لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون * ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل

منَ الناسِ وباءوا بغضبٍ منَ اللهِ وضُرِبَتْ عليهمُ المسْكنةُ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات اللهِ ويقتلون الأنبياء بغيرِ حقٍّ ذلك بما عصَوْا وكانوا يعتدُونَ ﴾ .

وقال : ﴿ ولَوْ قاتَلَكُمُ الذين كفروا لَوَلَّوُا الأدبارَ ﴾ ، وقال : ﴿ قاتلوهمْ يُعذِّبْهُمُ اللهُ بأيديكُمْ ﴾ وكان كذلك ، فلم يقاتلوهم بعد نزول الآية إلا انتصر عليهم المسلمون . ومازال الإسلام فى عز وظهور حتى ظهر على أهل المشرق والمغرب

وقال تعالى خطاباً لليهود : ﴿ قُلْ إنْ كانت لكمُ الدَّارُ الآخرةُ عند اللهِ خالصةً منْ دونِ الناسِ فتمنَّوُا الموتَ إن كنتم صادقين * ولَنْ يتمنَّوْهُ أبداً بما قدَّمَتْ أيديهم واللهُ عليمٌ بالظالمينَ * ولَتجِدنَّهُمْ أحرصَ الناسِ على حياةٍ وَمِنَ الذين أشرَكُوا يوَدُّ أحدُهمْ لو يُعمَّرُ ألفَ سنةٍ وما هوَ بمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذاب ﴾ وقال: ﴿ قُلْ يا أيُّها الذين هادُوا إنْ زعمتُمْ أنَّكمْ أولياء لله من دونِ الناس فتَمَنَّوُا الموتَ إنْ كنتم صادقينَ * ولاَ يتمنَّوْنَهُ أبداً بما قدَّمتْ أيديهمْ واللهُ عليمٌ بالظالمينَ ﴾ فأخبر عن اليهود أنهم لن يتمنوا الموت أبداً ، وكان كما أخبر ، فلا يتمنى اليهود الموتَ أبدا . وهذا دليل من وجهين ، من جهة إخباره بأنه لا يكون أبدا ، ومن جهة صرف الله لدواعى اليهود عن تمنى الموت ، مع أن ذلك مقدور لهم وهذا من أعجب الأمور الخارقة للعادة ، وهم ـ مع حرصهم على تكذيبه ـ لم تنبعث دواعيهم لإظهار تكذيبه بإظهار تمنى الموت .

وقال فى سورة المدثر: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً ﴾ إلى قوله : ﴿ سأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ ما سَقَرُ * لا تُبْقِي وَلاَ تذَرُ ﴾

وقال عن أبى لهب عمه : ﴿ تبَّتْ يدَا أبِي لَهبٍ وَتَبَّ * ما أغنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى ناراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ ، فكان كما أخبر به ، مات الوليد كافرا ومات أبو لهب كافراً .

وقال فى سورة « الفتح » : ﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تأخُذُونَهَا فَعَجلَ لَكُمْ هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِىَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رءوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتحاً قَرِيباً ﴾ وقال : ﴿ قُلْ للمخَلَّفِينَ مِنَ الأعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إلى قَوْمٍ أُولى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهم أَوْ يُسلِمونَ فإِنْ تُطِيعوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قبلُ يُعذِّبكُمْ عذَاباً أليماً ﴾ ، وهذا كله وقع كما أخبر ، فحصلت لهم الغنائم الكثيرة ، ودخلوا المسجد الحرام آمنين ، ودعيت الأعراب إلى قتال الروم والفرس ، يقاتلونهم أو يسلمون ، فلا بد من القتال أو الإسلام ليس هناك هدنة بلا قتال ، ولا إسلام كما كان يكون قبل نزول آية الجزية .

وقال تعالى : ﴿ إذا جَاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ ٭ وَرَأَيت النَّاسَ يدخُلُونَ فى دِينِ اللهِ أفوَاجاً ٭ فسبحْ بحَمْدِ رَبِّكَ وَاستغفرهُ إِنَّهُ كان تَوَّاباً ﴾ فدخل الناس فى دين الله أفواجاً بعد الفتح ، فما مات النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى بلاد العرب ، موضع لم يدخله الإسلام .

وقال تعالى عن المنافقين : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ نَافَقُوا يَقولُونَ لإخوانِهم الذينَ كَفرُوا مِنْ أَهْلِ الكتابِ لَئِنْ أُخرِجتمْ لنَخْرجنَّ معَكُمْ وَلا نُطِيعُ فيكُمْ أَحَداً أبداً وَإِنْ قوتلتُم لننْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يشْهَدُ إِنَّهُم لَكَاذِبونَ ٭ لَئِنْ أُخرِجوا لا يَخْرُجونَ معهُمْ وَلَئِنْ قوتلُوا لا يَنصُرُونَهم وَلَئِنْ نَصَرُوهمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصرونَ ﴾ وكذلك كان ، فروى أهل التفسير والمغازى والسير ، أن هذه الآية نزلت فى المنافقين ، كعبد الله بن أبى ، وعبيد الله ابن نبتل ، ورفاعة بن تابوت ونحوهم ، كانوا يقولون لبنى النضير — وهم اليهود حلفاؤهم : « لئن أخرجتم لنخرجن معكم » الآية . فأخبر الله عنهم أن... ... يفعلوا ذلك . وكذلك كان .

وضرب الله لهم مثلا بالشيطان : ﴿ إذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فلمَّا كَفَرَ

قال إنى برئ منك إنى أخاف الله رب العالمين ﴾ ، كذلك المنافقون و بنو النضير .

فصــــــل

وآياته صلى الله عليه وسلم قد استوعبت جميع أنواع الآيات الفعلية والخبرية ، فإخباره عن الغيب الماضى والحاضر والمستقبل بأمور باهرة ، لايوجد مثلها لأحد من النبيين قبله ، فضلا عن غير النبيين ، ففى القرآن من إخباره عن الغيوب شىء كثير كما تقدم بعض ذلك ، وكذلك فى الأحاديث الصحيحة مما أخبر بوقوعه ، فكان كما أخبر .

فى الصحيحين عن حذيفة قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما ما ترك شيئاً يكون من مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدَّث به ، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابى هؤلاء و إنه ليكون منه الشىء قد نسيته فأراه فأذكره ، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ، ثم إذا رآه عرفه .

وفى صحيح مسلم عن أبى زيد عمرو بن أحطب قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، ثم نزل فصلى بنا ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر ، ثم نزل فصلى بنا ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غابت الشمس ، قال: وأخبرنا بما كان و بما هو كائن ، فأحفظنا أعلمنا

وفى صحيح البخارى عن عدى بن حاتم قال: بينما أنا عند النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ جاء رجل فشكى إليه الفاقة ، ثم أتى آخر فشكى إليه قطع السبيل ، فقال يا عدى « هل رأيت الحيرة » فقلت : لم أرها وقد أنبئت عنها ، قال : « فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لاتخاف أحداً إلا الله ، قال : قلت فيما بينى وبين نفسى : فأين دعار طىء الذين سعروا البلاد ؟ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ؛ قلت : كسرى بن هرمز

قال : كسرى بن هرمز ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة ، يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه ، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه و بينه ترجمان يترجم له ، فيقولن له : ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك ؟ فيقول : بلى . فيقول : ألم أعطك مالا وأفضل عليك ؟ فيقول : بلى . فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم » قال عدى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » .

قال عدى فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لاتخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يخرج الرجل ملء كفه » .

قلت وهذا الذى أخبر به من خروج الرجل ملء كفه من ذهب أو فضة فلا يجد من يقبله ، ظهر كما أخبر ، فى زمن عمر بن عبد العزيز .

وفى صحيح مسلم عن جابر بن سمرة عن نافع بن عتبة قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة فأتى النبى صلى الله عليه وسلم قوم من قبل المغرب عليهم ثياب الصوف ، فوافقوه عند أكمة ، فإنهم لقيام رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد . قال : فقلت لنفسى : آتيهم فقم بينهم وبينه لايغتالونه ، قال : ثم قلت لعله يجىء معهم ، فأتيتهم فقمت بينه و بينهم ، قال فحفظت منه أربع كلمات أعدهن فى يدى . قال : « تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله ، ثم تغزون فارس فيفتحها الله ، ثم تغزون الروم فيفتحها الله ، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله » .

وروى البخارى عن عوف بن مالك قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فى «غزوة تبوك» وهو فى قبة أدم . فقال : أعدوا أشياء بين يدى الساعة . موتى وفتح بيت المقدس ، ثم موتان يأخذ فيكم كعقاص الغنم ، ثم استفاضة المال ، ثم يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً ، ثم فتنة لايبقى بيت من العرب إلا دخلته ، ثم

هدنة تكون بينكم وبين بنى الأصفر ، فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية ، كل غاية اثنا عشر ألفاً .

قلت ففتح بيت المقدس بعد موته فى خلافة عمر بن الخطاب ، ثم بعد ذلك وقع الطاعون العظيم بالشام (طاعون عمواس) فى خلافة عمر أيضاً ، ومات فيه معاذ ابن جبل ، وأبو عبيدة بن الجراح وخلق كثير ، وكان ذلك أول طاعون وقع فى الإسلام ، فكان مما أخبر به حيث أخذهم طاعون كعقاص الغنم ، ثم استفاض المال فى خلافة عثمان بن عفان ، حتى كان أحدهم يعطى مائة دينار فيسخطها ، حتى كانت الفرس تشترى بوزنها ، ثم وقعت الفتنة العامة التى لم يبق من العرب بيت إلا دخلته لما قتل عثمان ، واتسعت الفتنة بين المسلمين يوم الجمل وصفين .

وفى الصحيحين عن خباب بن الأرت قال : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلنا : ألا تدعو الله لنا ، ألا تستنصر لنا . قال فجلس محمراً وجهه ثم قال : « والله إن من كان قبلكم ليؤخذ الرجل فيمشط بأمشاط الحديد ما بين لحم وعصب ، مايصرفه ذلك عن دينه ، ويؤخذ فتحفر له الحفيرة فيوضع المنشار على رأسه ، فيشق باثنتين ، مايصرفه عن دينه وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله عز وجل أو الذئب على غنمه ولكنكم تعجلون »

وفى الصحيحين واللفظ للبخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لاتقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك ، صغار الأعين ، حمر الوجوه ، ذلف الأنف كأن وجوههم المجان المطرقة ، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلون قوما نعالهم الشعر .

قلت : وهؤلاء الطوائف كلهم قاتلهم المسلمون كما أخبر صلى الله عليه وسلم وأمر هذه الطوائف معروف ، فإن قتال الترك من التتار وغيرهم الذين هذه صفتهم معروف مشهور ، وحديثهم فى أكثر من عشر آلاف نسخة ، كبار وصغار من كتب المسلمين ، قبل قتال هؤلاء الذين ظهروا من ناحية المشرق ، الذين

هذه صفتهم ، التى لو كلف من رآهم بعينه أن يصفهم لم يحسن مثل هذه الصفة

وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز ، تضىء لها أعناق الإبل ببصرى »

وقد ظهرت هذه النار سنة بضع وخمسين وستمائة ، ورآها الناس ، ورأوا أعناق الإبل قد أضاءت ببصرى ، وكانت تحرق الحجر ولا تنضج اللحم .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد وأسماء ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمار بن ياسر : « تقتله الفئة الباغية » .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هلك كسرى ، ثم لايكون كسرى بعده ، وقيصر ليهلكن ، ثم لا يكون قيصر بعده ، ولتنفقن كنوزهما فى سبيل الله » .

وفى الصحيحين عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله » .

وفى الصحيحين عن جابر بن سمرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لتفتحن عصابة من المسلمين ، أو قال المؤمنين ، كنز آل كسرى الذى فى الأبيض » . والأبيض قصر كان لكسرى ، وفتح هذا الكنز سعد فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

وفى صحيح البخارى عن أبى بكرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عن الحسن ابن ابنته ، وهو يخطب على المنبر : « إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » .

قلت فوقع هذا كما أخبر به بعد موت الرسول بنحو ثلاثين سنة ، وهو سنة أربعين من الهجرة ، لما أصلح الله بالحسن بين الفئتين العظيمتين اللتين كانتا متحاربتين ، صف عسكر على ، وصف عسكر معاوية :

وفى الصحيحين عن ابن عباس ، أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، إنى رأيت الليلة فى المنام ظلة تنطف السمن والعسل ، فأرى الناس يتكففون منها بأيديهم ، فنهم المستكثر والمستقل ، ثم إذا سبب واصل من الأرض إلى السماء ، فأراك أخذت به فعلوت ، ثم أخذ به رجل بعدك فعلا ، ثم أخذ به رجل آخر فعلا ثم أخذ به رجل آخر فانقطع ، ثم وصل له فَعَلاَ .

قال أبو بكر يارسول الله بأبى أنت وأمى : لتدعنى فلأعبره فقال : عبر .

فقال أبو بكر : أما الظلة فظلة الإسلام . وأما الذى تنطف من السمن والعسل فهو القرآن ، حلاوته ولينه . وأما مايتكفف ، فالمستكثر من القرآن والمستقل ، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض ، فالحق الذى أنت عليه فأخذت به فيعليك الله ، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو ، ثم يأخذ به رجل فيعلو ، ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع به ، ثم يوصل له فيعلو به ، فأخبرنى يارسول الله : أصبت أم أخطأت ؟ فقال : « أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً »

قال : فوالله يارسول الله لتخبرنى بالذى أخطأ ، قال لاتقسم .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بينا أنا نائم رأيتنى على قليب عليها دلو فنزعت منها ماشاء الله ثم أخذها ابن أبى قحافة فنزع منها ، ذنوبا أو ذنوبين ، وفى نزعه ضعف ، والله يغفر له ، ثم استحالت غربا فأخذ ابن الخطاب فلم أر عبقريا من الناس ينزع نزع عمر ، حتى ضرب الناس بعطن » .

وفى رواية « فاستحالت الدلو غربا فى يد عمر »

قال الشافعى : « رؤيا الأنبياء وحى »

وقوله : « فى نزعه ضعف » قصر مدته ، وعجلة موته ، وشغله بالحرب مع أهل الردة عن الافتتاح والمزيد الذى بلغه عمر فى طول مدته .

وفى الصحيحين عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن امرأة سألت

رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، فأمرها أن ترجع إليه ، فقالت: يارسول الله » أرأيت إن جئت فلم أجدك ؟ قال : أى كأنها تعنى الموت .

قال : « فإن لم تجدينى فائتى أبا بكر » .

وروى أبو داود الطيالسى عن أبى ثعلبة الخشنى ، وعن أبى عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة وكائناً خلافة ورحمة ، وكائناً ملكا عضوضاً ، وكائناً عتوة وجبرية وفساداً فى الأمة ، يستحلون الفروج والخمور والحرير ، وينصرون على ذلك ، ويرزقون أبداً حتى يلقوا الله عز وجل » .

وروى أبو داود الطيالسى عن سمرة بن جندب أن رجلا قال : يارسول الله ، إنى رأيت كأن دلواً دلى من السماء ، فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها فشرب شرباً ضعيفاً ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع ، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع ، ثم جاء على فأخذ بعراقيها فانتشطت وانتضح عليه منه شيء .

وفى السنن عن سفينة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « تكون خلافة النبوة ثلاثين سنة ، ثم تصير ملكا » . فكان هذا العام تمام الثلاثين سنة من موته ، ودخل فى ذلك خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى .

قلت : وتمامها ستة أشهر ، التى استخلف فيها سيدنا الحسن السبط رضوان الله عليه وعلى سائر أصحاب رسول الله ، وأهل بيته الطاهرين .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « زويت لى الأرض مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها »

وفى صحيح مسلم عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وأن أمتى سيبلغ ملكها

مازوى لى منها وأعطيت الكنزين ، الأحمر والأبيض ، وإنى سألت ربى لأمتى أن لا يهلكهم بسنة عامة ، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، وإن ربى قال لى : يامحمد ، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ، وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً » .

وهذا أخبر به فى أول الأمر وأصحابه فى غاية القلة قبل فتح مكة ، وكان كما أخبر ، فإن ملك أمته انتشر فى الشرق والغرب ، ولم ينتشر فى الجنوب والشمال ، كانتشاره فى الشرق والغرب ، إذ كانت أمته أعدل الأمم ، فانتشرت دعوته فى الأقاليم التى هى وسط المعمور من الأرض ، كالثالث ، والرابع ، والخامس ، وقد تقدم قوله : « إذا هلك كسرى فلا يكون كسرى بعده » ، وذاك كسرى بن هرمز آخر الأكاسرة المملكين ، ثم ولى بعده ولاة مستضعفون ، فكان آخرهم « يزدجرد » وإليه الإشارة باللفظ الآخر : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذى نفسي بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله » .

وهذا أخبر به وملك كسرى وقيصر أعز ملك فى الأرض ، وصدق الله خبره فى خلافة عمر وعثمان ، فهلك كسرى وهو آخر الأكاسرة فى خلافة عثمان ، بأرض فارس ، ولم يبق بعده كسرى ، ولم يبق للمجوس والفرس ملك ، وهلك قيصر الذى بأرض الشام وغيرها ، ولم يبق بعده من هو ملك على الشام ، ولا مصر ، ولا الجزيرة من النصارى ، وهو الذى يدعى قيصر .

قال الشافعى : كانت قريش تنتاب الشام انتيابا كثيراً ، وكان كثير من معايشها منه ، وتأتى العراق فيقال : لما دخلت فى الإسلام ذكرت للنبى صلى الله

عليه وسلم خوفها من انقطاع معايشها بالتجارة من الشام والعراق ، إذا فارقت الكفر ودخلت فى الإسلام ، وخلاف ملك الشام والعراق لأهل الإسلام :

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » فلم يبق بأرض العراق كسرى يثبت له أمر بعده .

وقال : « إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده » فلم يكن بأرض الشام قيصر ، فأجابهم على ما قالوا ، وكان كما قال ، قطع الله الأكاسرة عن العراق وفارس وقيصر عن الشام :

وقال فى كسرى : « مزق الله ملكه » فلم يبق للأكاسرة ملك، وقال فى قيصر : « ثبت ملكه » فثبت ملكه ببلاد الروم وتنحى عن الشام . وكل هذا يصدق بعضه بعضاً .

وفى الصحيحين عن سفيان بن زهير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تفتح اليمن ، فيأتى قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون : ثم تفتح الشام ، فيأتى قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، ثم تفتح العراق فيأتى قوم متحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » . وفى رواية فيخرج من المدينة .

فأخبر صلى الله عليه وسلم بفتح اليمن والشام والعراق قبل أن يكون ، وأخبر أنه يخرج من المدينة أقوام يتحملون بأهليهم ومن أطاعهم إلى هذه الأمصار ، و يطلبون الشرف وسعة الرزق ، قال : « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

وفى صحيح مسلم عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ستفتح مصر وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيراً »

وفى رواية : « فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحماً ، فإذا رأيتم رجلين يقتتلان على موضع لبنة فاخرج منها » .

فمر أبو ذر بعد فتح مصر بمدة ، بابنى شرحبيل بن حسنة وهما يتنازعان في موضع لبنة ، فخرج منها .

وفي صحيح البخاري عن سليمان بن صرد قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول حين أجلى الأحزاب عنه « الآن نغزوهم ولا يغزونا » وكذلك كان .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا فتحت عليكم فارس والروم أىُّ قوم أنتم » .

قال عبد الرحمن بن عوف نقول كما أمرنا الله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أو غير ذلك ؟ تتنافسون ، ثم تتحاسدون ، ثم تتدابرون ، ثم تتباغضون ، ثم تنطلقون في مساكن المهاجرين ، فتحملون بعضهم على رقاب بعض » .

وفي صحيح البخاري عن أبى هريرة أنه لما أنزل الله : ﴿ هوَ الَّذِي بعثَ في الأُمِّيِّينَ رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكِّيهم ويعلِّمُهُم الكتابَ والحكمةَ وَإنْ كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبينٍ ، وآخرينَ منهمْ لمَّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾

سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء الآخرين فقال : « لو كان الدين معلقاً بالثريا لناله رجال من أبناء فارس » . وفي لفظ « لو كان الإيمان » وفي لفظ « العلم » وكان كما أخبر ، فإنه حصل في التابعين وتابعيهم وهلمَّ جرًّا ، من أبناء فارس ، مثل الحسن البصري ، ومحمد بن سيرين ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، ومجاهد ابن جبر وأضعاف هؤلاء ، مَنْ نالوا ذلك .

ولما نزل قوله تعالى : ﴿ فسوفَ يأتِ اللهُ بقومٍ يحبُّهُمْ ويحبُّونهُ أذلَّةٍ عَلَى المؤمنينَ أعزَّةٍ عَلَى الكافرينَ ﴾ ، سئل عنهم فقال : « هم قوم هذا » وأشار إلى أبى موسى الأشعري ، وقال : « إني لا أجد نفسَ الرحمن من قبَلِ اليمنِ » .

وفى الصحيحين عنه أنه قال : « أتاكم أهل اليمن ، هم أرَقُّ قلوباً وألْيَنُ أفئدة ، الإيمان يمانيّ ، والحكمة يمانية » .

فلما ارتد من ارتد عن الإسلام أتى الله بهؤلاء الذين يحبهم ويحبونه ، فقاتل الصديق بهم أهل الردة ، وغلب بهم أبو بكر وعمر ، كسرى وقيصر .

وقال لعثمان بن عفان : « إن الله مقمصك قيصاً ، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه » .

وفى الصحيحين عن أبى موسى قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حائط من حوائط المدينة وهو متكىء يركز بعود فى الماء والطين إذا استفتح رجل فقال : « افتح و بشره بالجنة » فإذا هو أبو بكر ، ففتحت له و بشرته بالجنة ، ثم استفتح رجل آخر فقال : « افتح له و بشره بالجنة » فذهبت فإذا هو عمر ، ففتحت له و بشرته بالجنة ، ثم استفتح رجل آخر فقال : « افتح له و بشره بالجنة على بلوى تصيبه » فذهبت فإذا هو عثمان ، ففتحت له و بشرته بالجنة ، وقلت له الذى قال ، فقال : اللهم صبرًا ، والله المستعان .

وفى الصحيحين حديث حذيفة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الفتن التى تموج موج البحر وقال لعمر « إن بينك و بينها باباً مغلقاً ، يوشك ذلك الباب أن يكسر . فسأله مسروق من الباب فقال : عمر .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى فيها خير من الساعى ، من تشرف لها تستشرفه ، ومن وجد فيها ملجأ فَلْيَعُذْ به » رواه أبو بكرة .

وقال فيه : « فإذا وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله ، ومن كانت له غنم ، فليلحق بغنمه ، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه » .

قال : فقال رجل ، يارسول الله ، أرأيت إن لم يكن له إبل ولا غنم

ولا أرض ؟ قال : « يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر ، ثم لِيَنْجُ إن استطاع النجا ، اللهم هل بلغت ؟ » .

فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت إن أُكْرِهت حتى ينطلق بى إلى أحد الصفين ، أو أحد الفئتين ، فضربنى رجل بسيفه ، أو نحى سهم فيقتلنى ؟ قال : « يبوء بإثمه وإثمك ويكون من أصحاب النار » .

وفى صحيح أبى حاتم قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ويل للعرب ، من شر قد اقترب ، أو فتنة عمياء صماء بكماء ، القاعد فيها خير من الماشى ، والماشى خير من الساعى ، ويل ، الساعة فيها من الله يوم القيامة » .

وفى الصحيحين عنه أنه قال : « إنى لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم مواقع القطر » .

وفى الصحيحين من غير وجه أنه لما قال له ذو الخويصرة : يا محمد ، اعدل فإنك لم تعدل ، فقال : « ويحك قد خبت وخسرت إن لم أعدل » .

فقال بعض أصحابه : دعنى أضرب عنق هذا المنافق .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنه يخرج من ضئضىء هذا أقوام ، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم يقرءون القرآن ، لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، آيتهم أن فيهم رجلا مخدج اليد ، على عضده مثل البضعة من اللحم ، تدور عليها شعرات » .

وفى رواية فى الصحيحين : « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين ، يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق » .

وهؤلاء ظهروا بعد موته ببضع وعشرين سنة فى أواخر خلافة على لما افترق المسلمون ، وكانت الفتنة بين عسكر على وعسكر معاوية ، وقتلهم على ابن

أبى طالب وأصحابه ، وهم أدنى الطائفتين إلى الحق ، والطائفة الأخرى قتلوا عمار بن ياسر ، وهى الطائفة الباغية .

وكان على قد أخبرهم بهذا الحديث و بعلامتهم ، وطلبوا هذا المخدج فلم يجدوه ، حتى قام علىّ بنفسه ، ففتش عليه ، فوجده مقتولا ، فسجد شكرا لله .

وفى الصحيح عنه أنه قال : « ستكون بعدى أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها ، فصلوا الصلاة لوقتها ، واجعلوا صلاتكم معهم نافلة » .

وهؤلاء ظهروا بعده بمدة ، فكانوا يؤخرون الظهر إلى وقت العصر ، ويؤخرون العصر إلى اصفرار الشمس .

وفى الصحيحين عنه أنه قال : « إنكم ستلقون بعدى أثرة ، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض » فلقوا بعده من استأثر عليهم ولم يعطهم حقهم .

وفى الصحيحين عنه أنه قال : « ستكون بعدى أمراء ، يطلبون منكم حقهم ويمنعونكم حقكم » . قالوا : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « أدوا إليهم حقهم ، واسئلوا الله حقكم » .

وفى الصحيحين عنه أنه سارّ فاطمة فقال لها وهو فى مرضه الذى توفى فيه « إنى أقبض فى مرضى هذا » ثم أخبرها أنها أول أهله لحوقا به » . وفى رواية « وأخبرها أنها سيدة نساء المؤمنين » .

وفى الصحيحين عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أسرعكن بى لحاقا أطولكن يداً » قالت : فكن يتطاولن أيتهن أطول يدا ، فكانت أطولنا يدا زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق .

وفى صحيح البخارى وغيره عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور لهم » .

وفى صحيح البخارى ، عن أم حرام أيضاً ، قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا » .

قالت : قلت يا رسول الله ، أنا فيهم ؟ قال : « أنت فيهم » قالت : ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم » .

فقلت : يا رسول الله « أنا فيهم ؟ » قال : لا .

وغزاها المسلمون في خلافة معاوية ، وكان يزيد أميرهم ، وكان في المعسكر ، أبو أيوب الأنصاري الذي نزل النبي صلى الله عليه وسلم في بيته لما قدم المدينة مهاجرا ، ومات ودفن تحت سورها ، وذكروا أنهم كانوا إذا أجدبوا كشفوا عن قبره فيَسْتَقُون[1] .

ثم غزاها المسلمون مرة ثانية ، وفي خلافة عبد الملك ، غزاها ابنه مسلمة ، وحصروها عدة سنين و بنوا فيها مسجداً .

وفي الصحيحين عن أنس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يدخل على أم حرام بنت ملحان ، فتطعمه ، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت ، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطعمته ، وجعلت تفلي رأسه ، فنام ، ثم استيقظ وهو يضحك ، فقالت : مم تضحك ؟ قال : « عرض على ناس من أمتي يركبون ثبج هذا البحر ، ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة » فقالت أم حرام : أدع الله أن يجعلني منهم ، فدعا لها ، ثم وضع رأسه فنام ، ثم

---

(١) قوله : (وذكروا أنهم كانوا إذا أجدبوا كشفوا عن قبره فيسقون) . كلام نرى أنه من الأهدى والأجدى ، إبعاده من طريق الموحدين ، حتى لا يدخل عليهم الشبهات والضلالات .

ونحن مع احترامنا لشيخ الإسلام ولآرائه ، ولعقيدته ، لا نوافقه على صحة هذا الذي رواه ؛ إذ أنه لا يتفق ومذهب شيخ الإسلام نفسه في تخليص التوحيد مما علق به من خرافات وأضاليل . وفي إخفاء قبر دانيال النبي عظة وعبرة .

على أن الإسناد الذي اعتمده شيخنا شيخ الإسلام ـ رضي الله عنه ! ـ في عرض هذه الرواية ، لا ينسجم مع طريقته في التمحيص والتدقيق والتحقيق ؛ إذ أنه صدر « الرواية » بقوله : « ذكروا » ؛ فمن هم هؤلاء الذين ذكروا ؟ ـ هل هم ثقات عدول ، أو غير ذلك .

من أجل هذا كله ، فنحن لا نقبل هذه الرواية ، وإنما نردها بقوة .

استيقظ وهو يضحك ، فقالت : مم تضحك ؟ فقال : « عرض على ناس من أمتى » كما قال فى الأولى ، فقالت : يا رسول الله أدع الله أن يجعلنى منهم ، قال : « أنت من الأولين » .

قال أنس : فركبت البحر زمان معاوية بن أبى سفيان، فصرعت عن دابتها لما خرجت من البحر فماتت ، وهذا كان فى خلافة عثمان ، ومعاوية نائبه .

وكان المسلمون فى خلافة عمر لم يغزوا فى البحر ، وأول ما غزوا البحر فى خلافة عثمان ، وفتحوا جزيرة قبرص ، وجاءوا بسبيها إلى دمشق .

وكان أبو الدرداء حيا بدمشق ، فجعل يبكى ، فقيل له : ما يبكيك يا أبا الدرداء ، هذا يوم قد أعز الله فيه الإسلام ؟ فقال : إنما أبكى أنى رأيت هذه الأمة كانت قاهرة ظاهرة ، فأضاعت أمر الله ، فأصارها الله إلى ما ترون ، ما أهون العباد على الله إذا ضيعوا أمره ؟

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سألت ربى ثلاثا، فأعطانى اثنتين ، ومنعنى واحدة ، سألته أن لا يسلط على أمتى عدوا من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلكهم بسنة عامة فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها » .

وثبت عنه فى الصحيحين أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتى ، ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم ، ولا من خذلهم ، حتى تقوم الساعة » .

وهذا أخبر به حين كانت أمته أقل الأمم ، فانتشرت الأمة فى مشارق الأرض ومغاربها وكان كما أخبر به ، فإن هذه الأمة ـ ولله الحمد والمنة ـ لم يزل فيها طائفة ظاهرة بالعلم والدين والسيف، لم يصبها ما أصاب من قبلها من بنى إسرائيل وغيرهم ، حيث كانوا مقهورين مع الأعداء ، بل إن غلبت طائفة فى قطر من الأرض ، كان فى القطر الآخر أمة ظاهرة منصورة ، ولم يسلط على مجموعها عدوا من غيرهم ، ولكن وقع بينهم اختلاف وفتن .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى عليه وسلم «صنفان من أهل النار ، لم أرهما بعد ، قوم معهم سياط كأذناب البقر ، يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » .

وهؤلاء ظهروا بعده بمدة طويلة ، وظهر النسوة بعد ذلك بسنين كثيرة ، وعلى رءوسهن عمائم كأسنمة الجمال البخاتى ، يسمون العمائم سنام الجمل(١)

وفى حديث مسلم عن أسماء بنت أبى بكر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سيكون فى ثقيف كذاب ومبير » .

وظهر الكذاب من ثقيف ، وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى ، الذى أظهر التشيع والانتصار للحسين ، وقتل عبيد الله بن زياد وغيره من قتلة الحسين ، ثم أظهر أنه يوحى إليه ، وأنه ينزل عليه حتى قيل لابن عمر وابن عباس عنه ، قيل لأحدهما : إنه يوحى إليه ، وللآخر أنه ينزل عليه .

فقال أحدهما : ﴿ وإنَّ الشَّياطينَ لَيُوحونَ إلى أوْليائِهم ﴾ .

وقال الآخر : ﴿ هلْ أنبئُكمْ عَلَى مَنْ تنزَّلُ الشَّياطينُ ، تنزَّلُ عَلَى كلِّ أفَّاكٍ أثيمٍ ﴾ .

وأما المبير ، فكان هو الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكان مبيراً سفاكاً للدماء بغير حق ، انتصارا للملك عبد الملك بن مروان ، الذى استنابه .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أنه قال : لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما « أيكم يبسط ثوبه ، فيأخذ من حديثى فيجمعه إلى صدره فإنه لن

---

(١) وصف ابن تيمية ، ما رآه فى عصره ، ولو عاش معنا الآن لرأى ما عناه النبى صلى الله عليه وسلم . فى نسائنا الكاسيات العاريات .

ينسى شيئاً سمعه » . فبسطت بردة على حتى فرغ من حديثه ، ثم جمعتها إلى صدرى ، فما نسيت بعد ذلك اليوم شيئاً سمعته منه .

وفى الصحيحين عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثنى عشر خليفة ، كلهم من قريش » .

وفى لفظ « إلى اثنى عشر أميراً » .

وفى رواية لأبى داود الطيالسى « كلهم يجتمع عليهم الأمة » .

وفى رواية فقالوا : ثم يكون ماذا ؟ قال : « ثم يكون الهرج » .

قال أبو بكر البيهقى : وفى الرواية الأولى بيان العدد ، وفى الثانية بيان المراد بالعدد ، وقد بين وقوع الهرج ، وهو القتل بعدهم .

وقد وجد هذا العدد بالصفة المذكورة إلى وقت الوليد بن يزيد بن عبدالملك ثم وقع الهرج والفتنة العظمى ، وإنما يزيدون على العدد المذكور إذا تركت الصفة المذكورة فيه أوعد معهم من كان بعد الهرج .

وفى الصحيحين عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل لك من أنماط ؟ » قلت : يا رسول الله ، وأنى يكون لى أنماط ؟ فأنا أقول اليوم لامرأتى : نحى عنك أنماطك ، فتقول : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنها ستكون لكم أنماط ؟ » .

وفى الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينا أنا نائم أريت أنه وضع فى يدى سواران من ذهب ، فقطعتهما فكرهتهما ، فأذن لى فى نفختهما ، فطارا ، فأولتهما كذابين يخرجان بعدى » .

قال عبد الله : أحدهما العنسى الذى قتله فيروز الديلمى باليمن ، والآخر مسيلمة .

وفى الصحيحين من حديث ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال ـ وهو مستقبل المشرق ـ « ها إن الفتنة ها هنا ، ها إن الفتنة ها هنا من حيث يطلع قرن الشيطان » .

وفى بعض طرق البخارى قام خطيبا فأشار بيده نحو مسكن عائشة فقال : وذكر الحديث . .

فالمشرق عن مدينته فيه البحرين ، ومنها يخرج مسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة ، وهو أول حادث حدث بعده ، واتبعه خلائق ، وقاتله خليفته الصديق .

وروى أبو حاتم فى صحيحه ، عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: « إن بين يدى الساعة كذابين ، منهم صاحب اليمامة . ومنهم صاحب صنعا العنسى . ومنهم صاحب حمير . ومنهم الدجال وهو أعظمهم فتنة وصاحب اليمامة هو مسيلمة قال: وقال أصحابى: قال : « هم قريب من ثلاثين كذاباً » .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون ، دجالون كذابون ، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يفيض المال ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج » . قالوا وما الهرج يا رسول الله ؟ قال : « القتل القتل » .

وفى صحيح ابن حبان عن أبى ذر قال : ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم حمارا وأردفنى خلفه ثم قال : « يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس جوع شديد حتى لاتستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك ، كيف تصنع ؟ » فقال : الله ورسوله أعلم قال: «تعفف» ، قال: «ياأبا ذر أرأيت إن أصاب الناس موت شديد حتى يكون البيت بالوصيف ، كيف تصنع ؟ » قال : الله ورسوله أعلم ، قال : «اصبر» «ياأبا ذر أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضاً حتى تغرق حجارة الزيت

من الدماء كيف تصنع ؟ » قال : الله ورسوله أعلم ، قال : « اقعد فى بيتك وأغلق عليك بابك » فقال : أريت إن لم أترك ؟ قال : « فائت من أنت منه فكن فيهم » قال : فإن أخذ سلاحى ؟ قال : « إذا تشاركهم فيه ، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك ، يبوء بإثمك وإثمه » .

وفيه عن ابن مسعود قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى قبة من أدم ، فيها أربعون رجلا ، فقال : « إنكم فاتحون ومنصورون ، فمن أدرك ذلك الزمان منكم فليتق الله وليأمر بالمعروف ولينه عن المنكر ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

وأما الفتوح التى فتحت عليهم ، والنصرة التى نصروا ، فقد أخبر به فى أوائل مبعثه كما تقدم ذكره ، ووقع ما أخبر به .

وروى أبو حاتم فى صحيحه عن ابن عباس قال : مرض أبو طالب فأتته قريش ، وأتاه النبى صلى الله عليه وسلم يعوده ، وعند رأسه مقعد رجل ، فقام أبو جهل فقعد فيه ، فشكوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى طالب ، فقالوا : إن ابن أخيك يقع فى آلهتنا .

قال : ماشأن قومك يشكونك يا ابن أخى ؟

قال : « ياعم إنما أردتهم على كلمة واحدة ، تدين لهم بها العرب وتؤدى لهم بها العجم الجزية » فقال : وما هى ؟ « قال لاإله إلا الله » .

فقاموا فقالوا : « أَجَعَلَ الآلهةَ إلٰهاً وَاحِداً » ؟ قال : ونزلت ﴿ ص والقرآن ذِى الذِّكر — إلى قوله — إنَّ هٰذا لشىءٌ عُجاب ﴾ .

وفى صحيح ابن حبان عن إسمعيل بن أبى خالد ، عن قيس بن أبى حازم قال: لما أقبلت عائشة مرت ببعض مياه بنى عامر ، طرقتهم ليلا ، فسمعت نباح الكلاب ، فقالت : أى ماء هذا ؟ قالوا : ماء الحوأب ، قالت : ما أظننى إلا

راجعة ، قالوا مهلا يرحمك الله تقدمين ، فيراك المسلمون ، فيصلح الله بك .
قالت : ما أظنني إلا راجعة ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كيف بإحداكن ينبح عليها كلاب الحوأب ؟ .

وفيه أيضاً عن علي بن أبي طالب قال : قال لي عبد الله بن سلام وقد وضعت رجلي في الغرز وأنا أريد العراق لاتأت العراق ، فإنك إن تأتهم أصابك ذنب السيف .

قال علي : وأيم الله لقد قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أبو الأسود: فقلت في نفسي ، ما رأيت كاليوم رجلا محارباً يحدث الناس بمثل هذا .

وهذا وأمثاله مما أخبر به صلى الله عليه وسلم من المستقبلات ، فوقع بعده كما أخبر ، ورأى الناس ذلك .

وأماما أخبر به ، مما لم يقع إلى الآن ، فكثير

وقد أخبر بأشياء من المغيبات ، ووقعت في زمانه ، ووجد كما أخبر كما في الصحيحين عن سهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر — « لأعطين هذه الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه » فكان كذلك .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا فقال لرجل ممن يدعى الإسلام : « هذا من أهل النار » فلما حضرنا القتال ، قاتل الرجل قتالا شديدا ، فأصابته جراحة ، فقيل : يارسول الله ، الرجل الذي قلت له آنفاً : إنه من أهل النار ، فإنه قاتل اليوم قتالا شديداً ، فأصابته جراحة وقد مات ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إلى النار » فكاد بعض المسلمين أن يرتاب .

فبينماهم على ذلك إذ قيل : فإنه لم يمت ، ولكن به جرحا شديدا .

فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه فأخبر النبي صلى الله

عليه وسلم بذلك فقال : « الله أكبر ، أشهد أنى عبد الله ورسوله » ثم أمر بلالا فنادى فى الناس : إنه لايدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر . ورواه سهل بن سعد .

وفى الصحيحين عن على رضى الله عنه قال : « بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبا مرثد الغنوى ، والزبير بن العوام ، والمقداد وكلنا فارس فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة ظعينة ، معها كتاب من حاطب إلى المشركين » فأدركناها تسير على بعير لها خبب ، فقلنا لها : أين الكتاب ؟ فقالت : مامعى كتاب ، قال فأنخنا بها ، فالتمسنا الكتاب فى رحلها ، فلم نر كتابا ، قال : قلنا : ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم لتخرجن الكتاب أو لنجردنك . قال : فلما رأت أنى أهويت إلى حجزتها وهى محتجزة بكساء ، أخرجت الكتاب من عقاصها ، فأخذنا الكتاب ، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا فيه « من حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبى صلى الله عليه وسلم » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا حاطب ، ماحملك على هذا ؟ » قال : لا تعجل على إنى كنت امرأ ملصقا فى قريش ولم أكن من أنفسها ، وكان من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة ، فأحببت – إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم – أن أتخذ يداً يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن دينى ، ولا رضاء بالكفر بعد الإسلام .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنه قد صدقكم » . فقال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق . فقال : « إنه قد شهد بدرا وما يدريك ؟ لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ؟ .

فكان فى هذا الكتاب إخبار المشركين بأن النبى صلى الله عليه وسلم يريد غزوهم فأعلمه الله بذلك » .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس النجاشى فى اليوم الذى مات فيه ، فخرج إلى المصلى وكبر أربع تكبيرات .

وفى رواية عن جابر قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على أصحمة النجاشى .

وفى لفظ من رواية أبى هريرة قال : قد مات اليوم عبد الله الصالح أصحمة فأمنا وصلى عليه . وفى رواية عمران بن حصين قال : إن أخاً لكم قد مات ، فصلوا عليه » يعنى النجاشى .

وروى موسى بن عقبة عن ابن شهاب قصة الصحيفة ، ورواها عروة ابن الزبير ، ومحمد بن إسحاق بمعناه قال : ثم إن المشركين اشتدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كأشد ما كانوا حتى بلغ بالمسلمين الجهد ، واشتد عليهم البلاء ، وأجمعت قريش مكرها ، على أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم علانية .

فلما رأى أبو طالب عمل القوم ، جمع بنى عبد المطلب ، وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم ، ويمنعوه ممن أراد قتله . فاجتمعوا على ذلك ، مسلمهم وكافرهم ، فنهم من فعله حمية . ومنهم من فعله إيمانا ويقيناً .

فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، واجتمعوا على ذلك ، واجتمع المشركون من قريش ، أجمعوا أمرهم أن لايجالسوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل ، وكتبوا فى مكرهم صحيفة وعهودا ومواثيق ، لا يقبلوا من بنى هاشم أبداً صلحاً ، ولاتأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل .

فلبث بنو هاشم فى شعبهم ثلاث سنين واشتد عليهم البلاء والجهد ، وقطعوا عنهم الأسواق ، فلم يتركوا طعاما يقدم مكة ولا بيعاً ، إلا بادروهم إليه فاشتروه ، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

زاد ابن إسحاق فى روايته قال : حتى كان تسمع أصوات صبيانهم يتضاغون

من وراء الشِّعب من الجوع ، وغدوا على من أسلم فأوثقوهم وآذوهم ، واشتد البلاء عليهم ، وعظمت الفتنه ، وزلزلوا زلزالا شديدا .

قال : قال موسى بن عقبة فى تمام حديثه : وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد مكراً به واغتياله فإذا نوم الناس أمر أحد بنيه ، أو إخوته ، أو بنى عمه ، فاضطجع على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بعض فرشهم فينام عليه .

فلما كان رأس ثلاث سنين ، تلاوم رجال من بنى عبد مناف ، ومن بنى قصى ، ورجال سواهم من قريش قد ولدتهم نساء بنى هاشم ، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم ، واستخفوا بالحق ، واجتمع أمرهم ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة منه .

و بعث الله عز وجل على صحيفتهم التى فيها المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم الأرضة ، فلحست كل ما كان فيها من عهد وميثاق . ويقال كانت معلقة فى سقف البيت ، فلم تترك اسماً لله عز وجل فيها إلا لحسته ، و بقى ما فيها من شرك أو ظلم أو قطيعة رحم [1] .

---

(١) هكذا فى الأصل المطبوع . وهو مخالف ، لما رواه العدول ، من رواة سيرته صلى الله عليه وسلم ، إذ أن الثابت ـ تاريخياً ـ أن (الأرضة) لحست الصحيفة كلها ، ولم تترك إلا قولهم : (باسمك اللهم) .

واليك ما كتبه الإمام ابن القيم ، وما كتبه المؤرخ الكبير « ابن هشام » .

قال ابن القيم ـ فى زاد المعاد ، الجزء الثانى ص ١٢٣ ـ مطبعة السنة ، [ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم ، وأنه أرسل عليها الأرضة ، فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم ، إلا ذكر الله عز وجل . . . إلخ القصة] .

وقال ابن هشام فى كتابه « السيرة النبوية » ـ القسم الأول ص ٣٧٧ ـ م الحلبى ، ط. ثانية :

[وذكر بعض أهل العلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لأبى طالب : « ياعم ، إن ربى الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش ، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها ، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان . . . الخ القصة]

وأطلع الله رسوله على الذى صنع بصحيفتهم ، فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى طالب .

فقال أبو طالب : « لا والثواقب ما كذبنى » فانطلق يمشى بعصابة من بنى عبد المطلب حتى أتى المسجد ، وهو حافل من قريش ، فلما رأوهم عامدين بجماعتهم ، أنكروا ذلك ، وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ، فأتوهم ليعطوهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فتكلم أبو طالب فقال : قد حدثت أمور بينكم . لم نذكرها لكم فائتوا بصحيفتكم التى تعاهدتم عليها ، فلعله أن يكون بينكم و بيننا صلح .

و إنما قال ذلك ، خشية أن ينظروا فى الصحيفة قبل أن يأتوا بها .

فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لا يشكون أن الرسول مدفوع إليهم فوضعوها بينهم ، وقالوا : قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع قومكم فإنما قطع بيننا و بينكم رجل واحد ، جعلتموه خطراً ، لهلكة قومكم وعشيرتكم وفساد دينكم .

فقال أبو طالب : إنما أتيتكم لأعطيكم أمراً فيه نَصَفٌ فإن ابن أخى أخبرنى ولم يكذبنى ، أن الله عز وجل برىء من هذه الصحيفة التى فى أيديكم ومحا كل اسم هو له فيها ، وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا ، وتظاهركم علينا بالظلم ، فإن كان الحديث الذى قال ابن أخى ، كما قال ، فأفيقوا ، فوالله لا نسلمه أبداً حتى نموت من عند آخرنا ، و إن كان الذى قال باطلاً دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحييتموه .

قالوا : قد رضينا بالذى تقول ، ففتحوا الصحيفة ، فوجدوا الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم قد أخبر خبرها فلما رأتها قريش كالذى قال أبو طالب . قالوا : والله إن كان هذا إلا سحراً من صاحبكم ، فارتكسوا وعادوا شراً مما كانوا

عليه من كفرهم والشدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وعلى رهطه ، والقيام بما تعاهدوا عليه .

فقال أولئك النفر من بنى عبد المطلب : إن أولى بالسحر والكذب غيرنا كيف ترون ، فإنا نعلم أن الذى اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب إلى الخبث والسحر من أمرنا ، ولولا أنكم اجتمعتم على السحر ، لم تفسد صحيفتكم ، وهى فى أيديكم ، طمس الله ما كان فيها من اسم[1] ، وما كان فيها من بغى تركه . أفنحن السحرة أم أنتم ؟ .

فقال عند ذلك النفر من بنى عبد مناف ، و بنى قصى ورجال من قريش ولدتهم نساء من بنى هاشم . منهم أبو البخترى ، والمطعم بن عدى ، وزهير ابن أبى أمية بن المغيرة ، وزمعة بن الأسود ، وهشام بن عمرو ، وكانت الصحيفة عنده ، وهو من بنى عامر بن لؤى فى رجال من أشرافهم ووجوههم : نحن براء مما فى هذه الصحيفة .

فقال أبو جهل : هذا أمر قد قضى بليل .

وأنشأ أبو طالب يقول فى ذلك الشعر فى شأن صحيفتهم ، و يمتدح النفر الذين تبرءوا منها ونقضوا ما كان فيها من عهد ، و يمتدح النجاشى .

قال موسى بن عقبة : فلما أفسد الله صحيفة مكرهم ، خرج النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه فعاشوا وخالطوا الناس .

وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن مسعود قال : انطلق سعد بن معاذ معتمراً ، فنزل على أمية بن خلف أبى صفوان ، وكان أمية بن خلف إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة ، نزل على سعد بن معاذ . فقال سعد لأمية : « انظر لى ساعة خلوة ، لعلى أن أطوف بالبيت » قال : انتظر . حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفت . .

---

(١) يراجع ــ ماحققناه فى ص ١٥٤ .

قال : فخرج به قريباً من نصف النهار ، فلقيهما أبو جهل فقال : يا أبا صفوان من هذا الذى معك ؟ قال : هذا سعد ، فقال له أبو جهل : « ألا أراك تطوف بالبيت آمناً وقد آويتم الصباه ، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم ؟ أما والله لولا أنك مع أبى صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً » .

فقال له سعد ـ وقد رفع صوته عليه ـ : « لئن منعتنى من هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه ، طريقك على المدينة » .

قال فقال له أمية : لا ترفع صوتك على أبى الحكم سيد أهل الوادى .

فقال سعد : « دعنا منك يا أمية ، فوالله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنه قاتلك . قال : بمكة ؟ قال : لا أدرى ، ففزع لذلك أمية . فزعاً شديداً وقال : « والله ما يكذب محمد » فلما رجع أمية إلى أهله قال : « يا أم صفوان ألم ترى إلى ما قال لى سعد ؟ » قالت : وما قال لك ؟ قال : زعم أن محمداً أخبرهم أنه قاتلى ، فقلت له : بمكة ؟ فقال : لا أدرى . فقالت : والله ما يكذب محمد ، فقال أمية : والله لا أخرج من مكة .

فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس فقال : أدركوا عيركم ، قال : فكره أمية أن يخرج ، فأتاه أبو جهل فقال : يا أبا صفوان ، إنك متى يراك الناس قد تخلفت ـ وأنت سيد أهل الوادى ـ تخلفوا معك ، فلم يزل أبو جهل حتى قال : إذ غلبتنى فوالله لأشترين أجود بعير بمكة .

قال أمية : يا أم صفوان جهزينى ، فقالت له : يا أبا صفوان أو قد نسيت ما قال لك أخوك اليثربى ؟ قال : لا ، وما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً .

قال : فلما خرج أمية جعل لا ينزل منزلاً إلا عقل بعيره ، فلم يزل كذلك حتى قتله الله ببدر .

وعن كعب بن مالك قال : كان أُبَىُّ بن خلف أخو بنى جمح ، قد حلف وهو بمكة ، ليقتلن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما بلغت رسول الله صلى الله

عليه وسلم حلفته ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بل أنا اقتله إن شاء الله عز وجل ».

فأقبل أُبَيٌّ مقنعاً فى الحديد وهو يقول : لا نجوت إن نجا محمد فحمل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قتله ، فاستقبله مصعب بن عمير أخو بنى عبد الدار يقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، فقتل مصعب بن عمير .

وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ترقوة أبى بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة ، فطعنه فيها بحربته ، فوقع أبى عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم .

فأتاه أصحابه فاحتملوه ، وهو يخور خوار الثور . فقالوا له : ما أجزعك ! إنما هو خدش . فذكر لهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أقتل أبيا ، ثم قال : والذى نفسى بيده ، لو كان هذا الذى بى بأهل ذى المجاز لماتوا أجمعون فمات إلى النار . ورواه موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهرى عن سعيد بن المسيب ، وذكره الواقدى بإسناده ، وهذا لفظه . وهو مما ذكره عروة بن الزبير فى مغازيه ، وابن إسحاق وغيرهما .

ذكر موسى بن عقبة فى مغازيه أن عمير بن وهب الجمحى لما رجع فَلُّ[1] المشركين إلى مكة وقد قتل الله من قتل منهم . أقبل عمير حتى جلس إلى صفوان ابن أمية فى الحجر . فقال صفوان : قبح الله العيش بعد قتلى بدر . قال : أجل والله ما فى العيش خير بعدهم ولولا دَيْنٌ علىّ لا أجد له قضاء ، وعيال لا أدع لهم شيئاً ، لرحلت إلى محمد فقتلته . إن ملأت عينى منه ، فإن لى عنده علة أعتل بها ، أقول قدمت على أننى أفدى هذا الأسير .

ففرح صفوان بقوله وقال له : عَلَىَّ دينك ، وعيالك أسوة عيالى فى النفقة فحمله صفوان وجهزه ، وأمر بسيف عمير فصقل وسُمّ .

---

(١) واحد الفلول ، وهو الجيش المنهزم ــ راجع القاموس .

فأقبل عمير حتى قدم المدينة فنزل بباب المسجد ، وعقل راحلته ، وأخذ السيف فعمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فنظر إليه عمر بن الخطاب وهو فى نفر من الأنصار يتحدثون .

فقال عمر : عندكم الكلب هذا عدو الله الذى حرش بيننا يوم بدر ، وَحَزَرَنَا للقوم ، ثم قام عمر حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر الحديث . إلى أن قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أقدمك ؟ قال أسيرى عندكم ففادونا فى أسرائنا ، فإنكم العشيرة والأهل .

قال : « فما بال السيف فى عنقك ؟ » قال عمير : قبحها الله من سيوف ، فهل أغنت عنا شيئاً ؟ إنما نسيته فى عنقى حين نزلت .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « اصدقنى ما أقدمك ؟ » قال : ما قدمت إلا فى أسيرى . قال : « فماذا شرطت لصفوان بن أمية فى الحجر ؟ » ففزع عمير وقال : ماذا شرطت ؟ قال : « تحملت له بقتلى على أن يعول بيتك ويقضى دينك والله حائل بينك وبين ذلك » .

فقال عمير أشهد أنك رسول الله ، وأن لا إله إلا الله ، كنا نكذبك بالوحى وبما يأتيك من السماء ، وهذا الحديث كان بينى وبين صفوان فى الحجر ، لم يطلع عليه أحد غيرى وغيره ، فأخبرك الله به . وذكر بقية الحديث .

وفى صحيح البخارى عن أنس قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أقواماً من بنى سليم إلى بنى عامر فى سبعين . فلما قدموا قال لهم خالى : أتقدمكم فإن أمنونى حتى أبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلا كنتم منى قريباً . فتقدم ، فأمنوه

فبينما هو يحدثهم عن النبى صلى الله عليه وسلم إذ أومأوا إلى رجل منهم فطعنه فأنفذه فقال: فزت ورب الكعبة ، ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوهم إلا رجلا أعرج صعد الجبل وآخر معه ، فأخبر جبريل النبى صلى الله عليه وسلم أنهم قد

لقوا ربهم فرضى الله عنهم وأرضاهم فكنا نقرأ : « أن بلغوا عنا قومنا إنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا » ثم نسخ بعد ، فدعا عليهم أربعين صباحا على رعل وذكوان وعصية ، وبنى لحيان الذين عصوا الله ورسوله .

وكان فى هؤلاء عامر بن فهيرة قال عنه عامر بن الطفيل ، لقد رأيته بعد ما قتل رفع إلى السماء حتى إنى لأنظر إليه بين السماء الأرض .

وفى الصحيحين من حديث أبى حميد الساعدى قال: « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك فأتينا وادى القرى على حديقة لامرأة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اخرصوها » فخرصناها ، وخرصها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة أوسق . قال : « احصها حتى نرجع إليك إن شاء الله تعالى» فانطلقنا حتى قدمنا « تبوك » فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ستهب عليكم ــ الليلة ــ ريح شديدة ، فلا يقم فيها أحد منكم ، فمن كان له بعير فليشد عقاله » فهبت ريح شديدة ، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طى »

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : كان الذى أسر العباس بن عبد المطلب أبو اليسر بن عمرو ، وهو كعب بن عمرو ، أحد بنى سلمة .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف أسرته يا أبا اليسر » ؟ فقال: لقد أعاننى عليه رجل ما رأيته بعد ولا قبل هيئته كذا وكذا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد أعانك عليه ملك كريم » .

وقال للعباس : « ياعباس افد نفسك ، وابنى أخيك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث بن فهر »

قال : « فإنى قد كنت مسلماً قبل ذلك وإنما استكرهونى »

قال : « الله أعلم بشأنك ، إن يك ماتدعى حقاً فالله يجزيك بذلك ، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافد نفسك » وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ منه عشرين أوقية ذهباً .

فقال : « يارسول الله ، احسبها لى من فداى . قال : « لاذلك شيء أعطانا الله منك » . قال : فإنه ليس لى مال . قال : « فأين المال الذى وضعته بمكة حين خرجت عند أم الفضل وليس معك أحد غيركما ؟ فقلت : إن أصبت فى سفرى هذا ، فللفضل كذا ، ولقثم كذا ، ولعبد الله كذا ؟ »

قال : فو الذى بعثك بالحق ماعلم بهذا أحد من الناس غيرى وغيرها وإنى أعلم إنك لرسول الله .

وفى صحيح البخارى عن نافع عن ابن عمر قال : أمَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوَة « مؤتة » زيد بن حارثة ، فإن قتل زيد « فجعفر » وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة .

قال ابن عمر : كنت معهم ، ففتشته ـ يعنى ابن رواحة ـ فوجدنا فيما أقبل من جسده بضعاً وسبعين، مابين طعنة ورمية .

وروى البخارى عن أنس بن مالك قال : نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس ، قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر ، فأصيب ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة ، فأصيب ، وإن عينى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتذرفان ، ثم أخذها خالد بن الوليد سيف من سيوف الله ، حتى فتح الله عليهم » .

فصـــــل

آياته صلى الله عليه وسلم المعلقة بالقدرة والفعل والتأثير أنواع . الأول . منها : ما هو فى العالم العلوى ، كانشقاق القمر ، وحراسة السماء بالشهب ، الحراسة التامة لما بعث ، وكمعراجه إلى السماء .

فقد ذكر الله انشقاق القمر ، و بين أن الله فعله ، وأخبر به لحكمتين عظيمتين:

إحداهما : ـ كونه من آيات النبوة لما سأله المشركون آية ، فأراهم انشقاق القمر .

والثانية ـ أنه دلالة على جواز انشقاق الفلك ، وأن ذلك دليل على ماأخبرت به الأنبياء من انشقاق السموات ، ولهذا قال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَرُ ۞ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۞ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ۞ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِنَ الأَنْبَاءِ مَافِيهِ مُزْدَجَرٌ ۞ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ ۞ فَتَوَلَّ عَنْهُم يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ ۞ خُشَّعًا أَبْصَارُهُم يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُم جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾

فذكر اقتراب الساعة وانشقاق القمر ، وجعل الآية فى انشقاق القمر دون الشمس وسائر الكواكب ، لأنه أقرب إلى الأرض من الشمس والنجوم ، وكان الانشقاق فيه دون سائر أجزاء الفلك إذ هو الجسم المستنير الذى يظهر الانشقاق فيه ، لكل من يراه ، ظهوراً لايتمارى فيه ، وأنه ـ نفسه ـ إذا قبل الانشقاق فقبوله محله أولى بذلك ، وقد عاينه الناس وشاهدوه .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ بهذه السورة فى المجامع الكبار ، مثل صلاة الجمعة والعيدين ، ليسمع الناس مافيها من آيات النبوة ودلائلها ، والاعتبار بما فيها ، وكل الناس يقر بذلك ولا ينكره ، فعلم أن انشقاق القمر كان معلوما عند الناس عامة .

وفى صحيح مسلم : أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثى : ما كان يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأضحى والفطر ؟ فقال : كان يقرأ فيها بـ « ق والقرآن المجيد ، و« اقتربت الساعة وانشق القمر »

ومعلوم بالضرورة فى مطرد العادة أنه لو لم يكن انشق لأسرع المؤمنون به إلى تكذيب ذلك ، فضلا عن أعدائه الكفار والمنافقين .

ومعلوم أنه كان من أحرص الناس على تصديق الخلق له واتباعهم إياه .

فلو لم يكن انشق ، لما كان يخبر به و يقرأه على جميع الناس ، و يستدل به ، و يجعله آية له .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال: إن أهل مكة سألوا نبى الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر فرقتين .

وعنه قال : أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فانشق القمر فرقتين :

زاد الترمذى : فنزلت « اقتربت الساعة وانشق القمر » إلى قوله « سحر مستمر » يقول : ذاهب .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شقتين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اشهدوا » .

وعن ابن مسعود أيضاً قال : رأيت القمر منشقاً شقتين بمكة قبل مخرج النبى صلى الله عليه وسلم شقة على جبل أبى قبيس ، وشقة على السويدا ، فقال كفار قريش ـ أهل مكة ـ هذا سحر ، سحركم به ابن أبى كبشة ، أنظروا السفار فإن كانوا رأوا مثل مارأيتم ، فقد صدق ، وإن لم يكونوا رأوا مثل مارأيتم ، فهو سحر .

قال فسئل السفار ، وقدموا من كل وجه ، فقالوا : « رأينا » رواه البخارى ومسلم .

وروى البخارى عن ابن عباس أنه قال : انشق القمر على زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى مسلم عن ابن عمر فى قوله تعالى ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ قال : قد كان ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انشق القمر فلقتين، فلقة من دون الجبل ، وفلقة من خلف الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اشهد »

وعن جبير بن مطعم قال : انشق القمر ونحن بمكة ، حتى صار فرقتين على هذا الجبل ، فقال : وعلى هذا الجبل .

فقال الناس : سحرنا محمد صلى الله عليه وسلم .

فقال رجل : إن كان سحركم فلم يسحر الناس كلهم ، رواه الترمذى .

وكذلك صعوده ليلة المعراج إلى ما فوق السموات ، وهذا مما تواترت به الأحاديث ، وأخبر به القرآن ، أخبر بمسراه ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وهو بيت المقدس ، وفى موضع أخر بصعوده إلى السموات فقال تعالى : ﴿ سبحانَ الَّذِى أسرَى بعبْدِه ليْلاً مِنَ المسجدِ الحَرَامِ إلى المسجدِ الأقصى الذى بَارَكنا حولَهُ لنُرِيَهُ مِنْ آياتنَا إنَّهُ هُو السميعُ البصيرُ ﴾ فأخبر ـ هنا ـ بمسراه ليلا بين المسجدين ، وأخبر أنه فعل ذلك ، ليريه من آياته .

ومعلوم أن الأرض قد رأى الناس مافيها من الآيات ، فعلم أن ذلك ليريه آيات لم يرها عموم الناس ، كما قال فى السورة الأخرى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى ما يرَى * ولقدْ رآهُ نزْلةً أخرى * عندَ سِدْرةِ المنتَهَى * عندها جنَّةُ المأْوَى * إذْ يغشى السِّدرةَ ما يَغْشى * ما زَاغَ البصرُ وما طغَى * لقدْ رأى مِنْ آياتِ ربِّهِ الكبْرَى ﴾

وفى الصحيحين عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا جعلنَا الرُّؤْيَا الَّتى أريناكَ إلاَّ فتنةً للنَّاس ﴾ قال : هى رؤيا عين أريها النبى صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به .

كان فى إخباره بالمسرى ليريه من آياته ، بيان أنه رأى من آياته مالم يره الناس ، وقد بين ذلك فى السورة الأخرى ، وأنه رأى جبريل عند السدرة المنتهى ﴿ عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة مايغشى ﴾ وأنه رأى بالبصر آيات ربه الكبرى .

وذكر فى تلك السورة المسرى ، لأنه أمكنه أن يقيم عليه برهانا .

فإنه لما أخبرهم به ، فكذبه من كذبه ، وتعجبوا من ذلك ، سألوه عن نعته وصفاته ، فنعته لهم ، لم يخرم من النعت شيئاً ، وأخبر خبر عيرهم التى كانت

فى الطريق ، فظهر لهم صدقه ، وكان صدقه فى هذا ، آية على صدقه فيما غاب عنهم ، وكان قطع المسافة البعيدة فى الزمان اليسير لأجل ماراَه من الآيات التى تختص برؤيتها الأنبياء .

وبهذا تميز عمن يقطع المسافة كرامة لولى أو تسخيراً لجن كما فى قصة بلقيس حيث : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ أنا آتيكَ بهِ قبلَ أنْ تَقومَ مِنْ مقامِكَ وَإِنى عليهِ لَقَوِىٌّ أمينٌ • قَالَ الذى عِندهُ عِلْمٌ مِنَ الكتابِ : أنا آتيكَ بهِ قبلَ أنْ يرتدَّ إليكَ طرفُكَ ﴾ فإن قطع الجسم الثقيل للمسافة البعيدة إنما كان لما أوتيه سليمان من الملك ، كما كانت الريح : ﴿ تجْرِى بأمْرِهِ رُخاءً حيثُ أصَابَ • والشياطِينَ كلَّ بنَّاءٍ وَغوَّاص • وآخَرِينَ مقرَّنينَ فى الأصْفَادِ ﴾ وهذا تسخير ملكى .

وقطع محمد صلى الله عليه وسلم كان لما أراه الله من الآيات التى ميزه بها على سائر النبيين ، وكان ذلك فتنة (أى محنة وابتلاء) للناس ، ليتبين من يؤمن به ممن يكذبه .

وأحاديث المعراج وصعوده إلى ما فوق السموات ، وفرض الرب عليه الصلوات الخمس حينئذ ، ورؤيته لما رآه من الآيات ، والجنة ، والنار ، والملائكة والأنبياء فى السموات ، والبيت المعمور ، وسدرة المنتهى وغير ذلك ، معروف متواتر فى الأحاديث ، وهذا النوع لم يكن لغيره من الأنبياء مثله . يظهر به تحقيق قوله تعالى : ﴿ تلكَ الرسُلُ فضَّلْنا بعضَهم على بعضٍ مِنهم مَنْ كلَّمَ اللهُ وَرَفعَ بعضَهم درجَاتٍ وَآتينا عيسى بْنَ مريَمَ البيِّنَاتِ وأيَّدْنَاهُ بروحِ القُدُسِ ﴾

فالدرجات التى رفعها محمد ليلة المعراج وسيرفعها فى الآخرة كالمقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون الذى ، ليس لغيره مثلها .

ففى الصحيحين من حديث أنس بن مالك، عن مالك بن صعصة ، وأبى ذر

ومن رواية ابن عباس ، وأبى حبة الأنصارى وغيرهم .

فروى أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتيت بالبراق ، وهو دابة أبيض طويل ، فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى بصره قال : فركبته حتى أتيت بيت المقدس ، قال : فربطته بالحلقة التى تربط بها الأنبياء . قال : ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت ، فجاءنى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن ، فقال : جبريل عليه السلام : اخترت الفطرة » ، ثم عرج بنا إلى السماء ، فاستفتح جبريل ، فقيل من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم . قيل : أو قد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . قال : ففتح لنا ، فإذا أنا بآدم ، فرحب بى ودعا لى .

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل عليه السلام ، فقيل : من أنت ؟ قال جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم ، قيل : أو قد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . قال : ففتح لنا ، فإذا أنا بابنى الخالة ، عيسى ، ويحيى بن زكريا عليهما السلام ، فرحبا بى ، ودعوا لى بالخير .

ثم عرج بى إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل : فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم ، قيل : أو قد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطى شطرا من الحسن ، قال : فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم ، قيل : أو قد بعث إليه ، قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بإدريس صلى الله عليه وسلم فرحب بى ودعا لى بخير : قال الله عز وجل : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ .

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة ، فاستفتح جبريل عليه السلام ، فقيل :

من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم ، فقيل : أو قد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بهارون عليه السلام ، فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل عليه السلام ، قيل : من هذا ؟ قال : جبريل : قيل : ومن معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم ، قيل : أو قد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام ، فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل عليه السلام ، فقيل : من هذا ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم ، قيل : أو قد بعث إليه ؟ قال قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بإبراهيم صلى الله عليه وسلم مسند ظهره إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه .

ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى ، فإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال قال : فلما غشيها من أمر الله ما غشيها ، تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها .

فأوحى الله إلى ما أوحى ، ففرض على خمسين صلاة في كل يوم وليلة .

فنزلت إلى موسى عليه السلام فقال : ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت خمسين صلاة . قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم .

قال : فرجعت إلى ربي فقلت : رب خفف عن أمتي ، فحط عني خمساً .

فرجعت إلى موسى عليه السلام ، فقلت : حط عني خمساً . قال : فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .

قال : فلم أزل أرجع بين يدى ربى تبارك وتعالى و بين موسى عليه السلام ، حتى قال لى : يامحمد ، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة ، لكل صلاة عشر ، فتلك خمسون صلاة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها ، كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر ، ومن هم بسيئة فلم يعملها ، لم تكتب شيئاً ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة .

قال : فنزلت حتى انتهيت إلى موسى عليه السلام فأخبرته . قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه .

وفى رواية قال : فأتيت فانطلق بى إلى زمزم فشرح عن صدرى ، ثم غسل بماء زمزم ، ثم أنزلت طست من ذهب ، مملوءة حكمة وإيماناً ، فحشى بها صدرى .

وفى رواية « فشق من النحر إلى مراقى البطن » وقال عن البيت المعمور . فقلت : ما هذا ؟ قال : بناء بناه الله للملائكته يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك ، يقدسون الله ، ويسبحونه ، لا يعودون إليه .

وفى حديث أبى ذر « فنزل جبريل فشرح صدرى ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ، ممتلىء حكمة وإيماناً ، فأفرغها فى صدرى ، ثم أطبقه ثم أخذ بيدى ، فعرج بى إلى السماء الدنيا ، فلما جئنا السماء الدنيا ، قال جبريل لخازن سماء الدنيا : افتح ، قال : من هذا ؟ قال : هذا جبريل ، قال : هل معك أحد ؟ قال : نعم معى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما علونا السماء ، فإذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة ، قال : فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى . قال : مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح ، قال قلت : ياجبريل من هذا ؟ قال : آدم ، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه ، فأهل

اليمين أهل الجنة والأسودة التى عن شماله أهل النار .

قال الزهرى : وأخبرنى ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصارى يقولان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم عرج بى حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام .

وفى صحيح مسلم ،عن عبد الله بن مسعود قال : لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى سدرة المنتهى ، وهى فى السماء السابعة ، إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض ، فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط به من فوقها ، فيقبض منها قال : ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ قال : فراش من ذهب ، قال : فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً . ١ - أعطى الصلوات الخمس ٢ - وأعطى خواتيم سورة البقرة ، ٣ - وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المقحمات وعنه فى قوله عز وجل : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل فى صورته وله ستمائة جناح .

وفى الصحيحين ، عن جابر بن عبد الله : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما كذبتنى قريش ، قمت فى الحجر ، فجلى الله لى بيت المقدس ، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه »

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد رأيتنى فى الحجر . وقريش تسألنى عن مسراى ، فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ، فكربت كربة ، ما كربت مثلها قط » قال : « فرفعه الله إلى أنظر إليه ، ما يسألونى عن شىء إلا أنبأتهم به » .

قلت : وصعود الآدمى ببدنه إلى السماء قد ثبت فى أمر المسيح ، عيسى ابن مريم عليه السلام ، فإنه صعد إلى السماء ، وسوف ينزل إلى الأرض

وهذا مما يوافق النصارى عليه المسلمين ، فإنهم يقولون : إن المسيح صعد إلى السماء ببدنه وروحه ، كما يقوله المسلمون ، ويقولون : إنه سوف ينزل

إلى الأرض أيضاً ، كما يقوله المسلمون ، وكما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة .

لكن كثيراً من النصارى يقولون : إنه صعد بعد أن صلب ، وأنه قام من القبر .

وكثيراً من اليهود يقولون : إنه صلب ، ولم يقم من قبره .

وأما المسلمون ، وكثير من النصارى ، فيقولون : إنه لم يصلب ، ولكن صعد إلى السماء بلا صلب .

والمسلمون ومن وافقهم من النصارى ، يقولون : إنه ينزل إلى الأرض قبل القيامة ، و إن نزوله من أشراط الساعة ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة .

وكثيراً من النصارى يقولون : إن نزوله هو يوم القيامة ، و إنه هو الله الذى يحاسب الخلق .

وكذلك إدريس صعد إلى السماء ببدنه ، وكذلك عند أهل الكتاب أن إلياس صعد إلى السماء ببدنه .

ومن أنكر صعود بدن إلى السماء ، من المتفلسفة ، فعمدته شيئان :

أحدهما : ـ أن الجسم الصقيل لا يصعد ، وهذا فى غاية الضعف ، فإن صعود الأجسام الثقيلة إلى الهواء مما تواترت به الأخبار فى أمور متعددة ، مثل عرش بلقيس الذى حمل من اليمن إلى الشام فى لحظة ، لما قال سليمان : ﴿ يا أَيُّها المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۞ قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ۞ قالَ الذى عِندَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَما رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قالَ: هٰذا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ؟ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۞ قالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ ﴾ ومثل حمل الريح لسليمان عليه

السلام وعسكره ، لما كان يحمل البساط فى الهواء ، وهو جالس عليه بأصحابه .

ومثل حمل قرى قوم « لوط » ثم إلقائها فى الهواء . ومثل المسرى إلى بيت المقدس الذى ظهرصدق الرسول بخبره .

ورجال كثيرون فى زماننا وغير زماننا يحملون من مكان إلى مكان فى الهواء ، وهذا مما تواتر عندنا ، وعند من يعرف ذلك .

وأيضاً فمعلوم أن النار والهواء الخفيف تحركه حركة قسرية ، فيهبط . والتراب والماء الثقيلان ، يحركان حركة قسرية ، فيصعد ، وهذا مما جرت به العادة .

والشبهة الثانية : ــ ظن بعض المتفلسفة ، كأرسطو وشيعته ، أن الأفلاك لا تقبل الانشقاق ، وحجتهم على ذلك فى غاية الضعف ، فإنهم قالوا : لو كانت تقبل الانشقاق ، لكان المحدد للأفلاك المحرك لها ، يتحرك حركة مستقيمة ، والحركة المستقيمة تحتاج إلى خلاء خارج العالم ، ولا خلاء هناك .

وهذه الحجة فاسدة من وجوه .

منها أنها تدل على ذلك فى الفلك الأعلى ، لا فيما دونه ، كفلك القمر وغيره ، وهذا مما أجابهم به الرازى وغيره .

ومنها : ــ أن وجود الأجسام خارج الفلك ، كوجود الفلك فى حيزه .

فقول القائل : إن ذلك يحتاج إلى خلاء ، كقوله : إن وجود الفلك فى حيزه يحتاج إلى خلاء ، وقوله بنفى الخلاء عن حيزه .

فإن كان الخلاء عدما محضا ، فهو منتف فى الجانبين . وإن قيل : إنه أمر وجودى ، لزم أن يحتاج إليه فى الموضعين ، وحينئذ فيبطل القول بنفيه .

وبهذا يظهر جوابهم عن إنكارهم انشقاق القمر ، فإن عمدتهم فيه ، أن الفلك لا يقبل الانشقاق وقد عرف فساد ذلك عقلا وسمعا ، وتواترت عن الأنبياء أنهم أخبروا بانشقاق السموات .

وإيضاح الرد على هؤلاء ، أن ما يثبتونه من أن الحركة لابد لها من جهة

ومحدد يحدد الجهات ، إنما يدل على الافتقار إلى جنس المحدد ، لا يدل على الاحتياج إلى محدد معين .

فإذا قدر أنه خلق وراء المحدد محددا آخر وخرق الأول ، حصل به المقصود .

وهكذا عامة أدلتهم إنما تدل على شيء مطلق ، لكن يعينونه بلا حجة ، فيغلطون في التعيين ، كدليلهم على دوام الفاعلية أو الحركة أو زمانها ، فإن ذلك لا يدل على الحركة الفلكية ، وأن الزمان هو مقدار الحركة ، بل إذا كان الله قد خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام كما أخبرت به الرسل ، لم تكن تلك الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض هي مقدار حركة الشمس التي هي مما خلق في تلك الأيام .

بل قد أخبر الله تعالى أنه كان عرشه على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض ، وأخبر أنه خلق السموات من دخان ، وهو بخار الماء .

فإذا كان قبل هذه الحركات المشهودة ، حركات أخر لأجسام غير هذه الأجسام المشهودة ، لم يكن هذا مناقضاً لما دل عليه العقل .

وكذلك ما يذكرونه من قِدَمِ العالم .

فليس مع القوم دليل واحد عقليّ صحيح يناقض ما أخبرت به الرسل ، ولكن قد تناقض ما يظنه بعض أهل الكلام من دين الرسل ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

والنوع الثاني : ـ آيات الجوّ ، كاستسقائه صلى الله عليه وسلم واستصحائه ، وطاعة السحاب في حصوله ، وذهابه بدعائه صلى الله عليه وسلم ، ونزول المطر بدعائه .

ففي الصحيحين عن أنس بن مالك : أن رجلا دخل المسجد في يوم جمعة ، من بابٍ كان نحو دار القضاء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يخطب ،

فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً ، ثم قال : يا رسول الله ، هلكت الأموال وانقطعت السُّبُل ، فادع الله يُغِثْنَا . قال : فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال : « اللهم أغثنا، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا » .

قال أنس : ولا والله ، ما نرى فى السماء من سحاب ولا من قزعة ، وإن السماء لمثل الزجاجة ، وما بيننا و بين سلع من دار ، فو الذى نفسى بيده ، ماوضع يديه حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر عن لحيته .

وفى رواية أخرى « فطلعَتْ من ورائه سحابةٌ مثل التُرْسِ ، فلما توسطت السماء ، انتشرت ، ثم أمطرت ، قال : فلا والله ما رأيت الشمس سبتاً .

قال : ثم دخل رجل من ذلك الباب فى الجمعة المقبلة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يخطب ، فاستقبله قائماً فقال : يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل ، فادع الله أن يمسكها عنا .

قال : فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ، ثم قال : « اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام والظراب و بطون الأودية ، ومنابت الشجر » .

قال : فما يشير بيده إلى ناحية إلا تفرجت حتى رأيت المدينة فى مثل الجوبة ، وسال الوادى قناة شهراً ، ولم يجيء أحد من ناحية إلا أخبر بجود » .

ومن هذا الباب ، نصر الله له بالريح التى قال الله فيها :﴿ يأيُّها الذينَ آمنوا اذكُرُوا نعمةَ اللهِ عليكُمْ إذْ جاءَتْكُمْ جُنودٌ فأرسلنَا عليهم ريحاً وجُنوداً لَمْ ترَوْها وكان اللهُ بما تعملونَ بَصِيراً ﴾ .

قال مجاهد : يعنى ريح الصبا ، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق ، حتى كفأت قدورها على أفواهها ، ونزعت فساطيطهم حتى أظعنتهم . وجنوداً لم تروها (يعنى الملائكة) .

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدَّبُور » .

وفى المغازى والسير والتفسير قصة الأحزاب ، وكيف أرسلت عليه الريح الملائكة وانهزموا بغير قتال معروف .

والنوع الثالث : ـ تصرفه فى الحيوان ـ الإنس والجن والبهائم .

فروى عن عبد الله بن جعفر قال : أردفنى رسول الله صلى الله عليهم وسلم ذات يوم فأسرَّ إلىَّ حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس .

قال : وكان أحب ما استتر به هدف أو حائش[1] نخل ، فدخل حائط رجل من الأنصار فإذا جمل ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حَنَّ وذَرَفَتْ عيناه ، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم ، فمسح رأسه وذِفرَاه فسكن ، ثم قال : « لمن هذا الجمل ؟ » فجاء فتى من الأنصار فقال : هو لى يا رسول الله . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « ألا تتَّقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها ، فإنه شكا إلىَّ أنك تجيعه وتذيبه » روى مسلم بعضه ، و بعضه على شرطه ؛ ورواه أبو داود وغيره .

وروى الإمام أحمد ، والدارمى وغيرهما ، عن جابر قال : أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، حتى إذا دفعنا إلى حائط من حيطان بنى النجار ، إذا فيه جمل لا يدخل الحائط أحدٌ إلا شدَّ عليه ، فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فجاء حتى أتى الحائط فدعا البعير ، فجاء واضعاً مشفره إلى الأرض حتى برك بين يديه .

قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هاتوا خطامه ، فخطمه ودفعه إلى صاحبه » . قال : ثم التفت إلى الناس فقال : « إنه ليس شىء بين السماء والأرض إلا يعلم أنى رسول الله ، إلا عاصى الجن والإنس » .

---

(١) قوله : أو حائش : هكذا فى الأصل . ولعل الأصح : حائط . بدل حائش .

وروى الطبرانى عن جابر قال : خرجنا فى غزوة ذات الرقاع ، حتى إذا كنا بحرة واقم ، عرضت امرأة بدوية بابن لها ، فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، هذا ابنى قد غلبنى عليه الشيطان . قال : « فأدنيه منى » فأدنته منه . فقال : « افتحى فمه » ففتحته ، فبصق فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « اخسأ عدو الله وأنا رسول الله » قالها ثلاث مرات ، ثم قال : « شأنك بابنك ، ليس عليه بأس ، فلن يعود إليه شىء مما كان يصيبه » .

وذكر قصة الشجرتين ، إلى أن قال : ثم خرجنا ، فنزلنا منزلا صحراء ديمومة ، ليس فيها شجرة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لجابر « يا جابر انطلق فانظر لى مكانا ، يعنى للوضوء ، فخرجت أنطلق فلم أجد إلا شجرتين مفرقتين ، لو أنهما اجتمعتا سترتاه .

فرجعت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، والله ما رأيت شيئاً يسترك إلا شجرتين مفرقتين . ولو أنهما اجتمعتا ، سترتاك .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « انطلق إليهما فقل لهما : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اجتمعا » .

قال : فخرجت فقلت لهما ، فاجتمعتا حتى كأنهما فى أصل واحد .

ثم رجعت فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قضى حاجته ، ثم رجع فقال : ائتهما فقل لهما : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لكما : ارجعا كما كنتما كل واحدة إلى مكانها .

فرجعت فقلت لهما : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لكما : « ارجعا كما كنتما » فرجعتا .

ثم خرجنا فنزلنا فى واد من أودية بنى محارب ، فعرض له رجل من بنى محارب يقال له « غورث بن الحارث » والنبى صلى الله عليه وسلم متقلد سيفه ،

فقال : يا محمد أعطني سيفك هذا ، فسله فناوله إياه ونظر إليه ساعة ، ثم أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد من يمنعك مني ؟ فارتعدت يده حتى سقط السيف من يده ، فناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « يا غورث من يمنعك مني ؟ » قال : لا أحد .

قال : ثم أقبلنا راجعين ، فجاء رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعُشِّ طير يحمله ، وفيه فراخ وأبواه يتبعانه ويقعان على يد الرجل ، فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم على من كان معه ، فقال : « أتعجبون بفعل هذين الطيرين بفراخهما ؟ » .

زاد في رواية : « فربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفراخه » .

ثم أقبلنا راجعين ، حتى إذا كنا بحرة واقم ، عرضت لنا المرأة التي جاءت بابنها برطب وابن شاة ، فأهدته له فقال : « ما فعل ابنك ، هل أصابه شيء مما كان يصيبه ؟ » قالت : لا ، والذي بعثك بالحق ، ما أصابه شيء مما كان يصيبه ، وقبل هديتها .

ثم أقبلنا حتى إذا كنا بمهبط من الحـــرة ، أقبل جمل يرقل ، فقال : « أتدرون ما قال هذا الجمل ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هذا جمل جاءني يستعدي على سيده ، يزعم أنه كان يحرث عليه منذ سنين ، حتى إذا أجر به وأعجفه ، وكبر سنه ، أراد نحره ، إذهب معه ياجابر إلى صاحبه فائت به » . فقلت : ما أعرف صاحبه يا رسول الله . قال : « إنه سيدلك عليه » .

قال فخرج بين يَدَيَّ معنقا ، حتى وقف بي في مجلس بني خطمة ، فقلت أين رب هذا الجمل ؟ قالوا : فلان .

فجئته فقلت : أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج معي حتى جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « إن جملك

هذا يستعدى عليك ، يزعم أنك حرثت عليه زماناً حتى أجربته وأعجفته وكبر سنه ، ثم أردت نحره » .

فقال : والذى بعثك بالحق ، إن ذلك لـكذلك .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « تبيعنيه؟» قال : نعم ، يارسول الله . فابتاعه منه ، ثم سيبه فى الشجر حتى نصب سناما ، فـكان إذا اعتل على بعض المهاجرين والأنصار من نواضحهم شيء أعطاه إياه ، فمكث بذلك زماناً .

وهذا الحديث له شواهد ، أخرج أهل الصحيح منه قصة الشجرتين ، وقصة الذى شهر السيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقصة الطير . رواه أبو داود الطيالسى ، وقصة الصبى ، ذكرها غير واحد .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن يعلى بن مرة الثقفى قال . ثلاثة أشياء رأيتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بينما نحن نسير معه إذ مررنا ببعير يسنى عليه ، فلما رآه البعير جرجر ، ووضع جرانه بالأرض ، فوقف عليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « أين صاحب هذا البعير ؟ » فجاء ، فقال : « بعنيه » . فقال : بل أهبه لك يا رسول الله . فقال : « لا ، بل بعنيه » فقال : بل نهبه لك ، وهو لأهل بيت ، ما لهم معيشة غيره .

فقال : « أما إذ ذكرت هذا من أمره ، فإنه يشتـكى إلى كثرة العمل وقلة العلف ، فأحسنوا إليه » . وفى رواية « أنهم أرادوا نحره » .

ثم مررنا من منزلنا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « انطلق إلى هاتين الشجرتين ، فقل لهما : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لـكما أن تجتمعا» .

فانطلقت فقلت لهما ذلك ، فانتزعت كل واحدة منهما من أصلها ، فنزلت كل واحدة إلى صاحبتها ، فالتفتا جميعاً . فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته من ورائهما ، ثم لما فرغ عادت كل واحدة منهما مكانها بأمره .

وأتته امرأة بصبي لها به لمم فقالت : يا رسول الله ، إن ابني هذا ، به لمم منذ سبع سنين ، يأخذه في كل يوم مرتين . فتفل النبي صلى الله عليه وسلم في فيه ، وقال : « أخرج عدو الله أنا رسول الله » فبرئ .

فلما رجعنا ، جاءت أم الغلام بكبشين وشيء من أقط ، قالت : والذي بعثك بالحق ما رأينا منه ريباً بعدك . فأخذ أحد الكبشين والأقط ، ورد الكبش الآخر .

وروى هذه القصة ، أبو يعلى الموصلي عن أسامة بن زيد رضي الله عنه ، ورواه الحاكم في صحيحه قال فيه : سافرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيت منه عجباً ، وذكر الحديث .

وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمرأة لما أخرج الشيطان من ابنها : « إذا رجعنا فأعلمينا ما صنع » ورواه الدارمي أيضاً .

وروى الدارمي عن ابن عباس أن امرأة جاءت بابن لها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله إن ابني به جنون ، وإنه يأخذه عند غدائنا وعشائنا ، فيخبث علينا . فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره ودعا ، فثع ثعة خرج من جوفه مثل الجرو الأسود فشفي .

وروى أبو داود الطيالسي عن ابن مسعود قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فدخل رجل غيطه فأخرج منها بيض حمرة ، فجاءت الحمرة ترف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه . فقال : « أيكم فجع هذه ؟ » فقال رجل من القوم : أنا أخذت بيضتها . فقال : « رده رحمة لها » .

وروى الحاكم في صحيحه عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ركبنا البحر في سفينة ، فانكسرت السفينة ، فركبت لوحاً من ألواحها ، فطرحني في أجمة فيها أسد ، فلم يرعني إلا به . فقلت : « يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم » فطأطأ رأسه وغمز بمنكبه شِقِّي ، فما زال يغمزني ويهديني

الطريق حتى وضعنى على الطريق ، فلما وضعنى على الطريق همهم فظننت أنه يودعنى .

وروى الإمام أحمد فى مسنده ، وأبو يعلى الموصلى عن عائشة قالت : « كان لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحش ، إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتد ولعب وأقبل وأدبر ، فإذا أحس برسول الله صلى الله عليه وسلم قد دخل ربض ، فلم يترمرم كراهية أن يؤذيه » . ولفظه للإمام أحمد ، ورواه أبو نعيم .

وروى عنها أحمد أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى نفر من المهاجرين والأنصار . فجاء بعير فسجد له فقال : « اعبدوا الله ربكم وأكرموا أخاكم ، ولو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، ولو أمرها أن تنتقل من جبل أصفر إلى جبل أسود ، ومن جبل أسود إلى جبل أبيض ، كان ينبغى لها أن تفعله » رواه الإمام أحمد عن عفان ، وابن ماجه ، بعضه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن عفان قال ثنا حماد بن سلمة ثنا أبى ثنا على ابن يزيد ثنا سعيد عن عائشة .

وقصة هذا الجمل رواها جماعة من الصحابة .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى قال : عدا الذئب على شاة فأخذها ، فطلبه الراعى فانتزعها منه ، فأقعى الذئب على ذنبه فقال : « ألا تتقى الله ، تنزع منى رزقا ساقه الله إلى ؟ فقال : ياعجباً ذئب مقع على ذنبه يكلمنى كلام الإنس ؟

فقال الذئب : « ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ محمد صلى الله عليه وسلم بيثرب ، يخبر الناس بأنباء ما قد سبق » .

قال : فأقبل الراعى يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها ، ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره .

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنودى : الصلاة جامعة ، ثم خرج فقال للأعرابى : « أخبرهم » فأخبرهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صدق والذى نفس محمد بيده ، لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس ، ويكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله ، ويخبره فخذه ما أحدث أهله بعده » .

وروى الترمذى آخره وصححه ، قال البيهقى : إسناده صحيح وله شاهد من وجه آخر .

ورواه أحمد عن أبى هريرة قال : وكان الراعى يهودياً فأسلم .

وقال فيه : أعجب من هذا رجل فى النخلات بين الحرتين يخبركم بما مضى ، وبما هو كائن بعدكم .

وفى الصحيحين عن أنس قال : كان بالمدينة فزع فاستعار النبى صلى الله عليه وسلم فرساً لأبى طلحة وكان يقطف فلما رجع قال إن وجدنا فرسكم هذا بحرا وكان بعد ذلك لا يجارى .

وفى الصحيحين ، عن سلمة بن الأكوع ، وسهل بن سعد ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة خيبر : أنه أرسل إلى على وهو أرمد العين فقال : « لأعطين الراية رجلا يحبه الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله ، يفتح الله على يديه » فبصق فى عينيه فبرئ ، كأن لم يكن به وجع قط ، وأعطاه الراية فقال علىٌّ : يا رسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ قال : « انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيهم ، فو الله لأنْ يَهْدِىَ الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم » .

وعن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن أبيه قتادة بن النعمان : أنه أصيبت عينه فى الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، فسالت على وجنته ، فأرادوا أن يقطعوها فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « لا » ودعاه وغمز حدقتها

براحته فكان لا يدرى أى عينيه أصيبت ، فكانت أحسن عينيه وأحدها .

وفى رواية « فرفع حدقته حتى وضعها موضعها ، ثم غمزها براحته وقال : « اللهم اكسها جمالا » فمات وما يدرى من لقيه أى عينيه أصيبت » ، رواه عنه أهل المغازى .

وأنشد ولده بحضرة عمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، وأقره من حضر ولم ينكروه .

أَنَا ابْنُ الذى سَالَتْ على الخدِّ عَيْنُهُ ... وَرُدَّتْ بِكَفِّ المُصْطفى أحْسنَ الرَّدِّ
فَعَادَتْ كَمَا كَانَتْ لِأحسنِ حَالِهَا ... فيَا حسنَ ماعيْنٍ ويا حسنَ ما ردِّ

فلولا أنه كان معروفا عند التابعين لم يقروه ، وهم إنما تلقوا هذا عن الصحابة .

وفى صحيح البخارى عن البراء بن عازب قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى رافع اليهودى رجالا من الأنصار ، وأمر عليهم عبد الله بن عتيك ، وكان أبو رافع يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعين عليه ، وكان فى حصن له بأرض الحجاز ، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم ، قال عبد الله لأصحابه : اجلسوا مكانكم فإنى منطلق ومتلطف للبواب لعلى أدخل .

قال : فأقبل حتى دنا من الباب ، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجة ، وقد دخل الناس ، فهتف به البواب : يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل ، فإنى أريد أن أغلق الباب ، فدخلت فكمنت .

فلما دخل الناس أغلق الباب ثم أغلق الأغاليق على ودخل .

قال فقمت إلى الأقاليد فأخذتها ، ففتحت الباب ، وكان أبو رافع يسمر عنده ، وكان فى علالى له ، فلما ذهبت عنه أهل السمرة ، صعدت إليه فجعلت كلما فتحت بابا أغلقت علىّ من داخل ، قلت : إن القوم لو نذروابى لم يخلصوا إلى

حتى أقتله فانتهيت إليه ، فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله ، لا أدرى أين هو من البيت .

قلت : أبا رافع . قال : من هذا ؟ فأهويت نحو الصوت فضربته ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنت شيئاً وصاح .

فخرجت من البيت ، فمكثت غير بعيد ، ثم دخلت إليه فقلت : ما هذا الصوت يا أبا رافع ؟

فقال : لأمك الويل ، إن رجلا فى البيت ضربنى قبل بالسيف .

قال فضربته ضربة أثخنته ولم أقتله ، ثم وضعت صيب السيف فى بطنه حتى أخذ فى ظهره ، فعلمت أنى قد قتلته ، فجعلت أفتح الأبواب باباً فباباً ، حتى انتهيت إلى درجة ، فوضعت رجلى ، وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض ، فوقعت فى ليلة مقمرة فانكسرت ساقى فعصبتها بعمامتى ، ثم انطلقت حتى جلست عند الباب فقلت : لا أبرح حتى أعلم ، أقتلته أم لا ؟ فلما صاح الديك قام الناعى على السور ينعى أبا رافع فانطلقت إلى أصحابى فقلت : النجا النجا قتل الله أبا رافع .

قال فانتهينا إلى النبى صلى الله عليه وسلم وحدثناه فقال : « أبسط رجلك » . فبسطها فمسحها فكأنما لم يشكها قط .

وفى البخارى عن يزيد بن أبى عبيد قال : رأيت فى ساق سلمة بن الأكوع أثر ضربة ، فقلت : يا أبا مسلم ، ما هذه الضربة ؟ قال : هذه ضربة أصابتنى يوم خيبر فقال الناس : أصيب سلمة ، قال : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فنفث فيه ثلاث نفثات فما اشتكيت منها حتى الساعة .

وفى الترمذى وغيره عن عثمان بن حنيف : أن رجلا ضريراً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ادع الله تعالى أن يعافينى . قال : « إن شئت صبرت فهو خير لك ، وإن شئت دعوت الله » قال : فادعه ، قال : فأمره أن يتوضأ

فيحسن الوضوء ، ويصلى ركعتين ، ويدعو بهذا الدعاء .

اللهم إنى أتوجه إليك بنبيك نبىّ الرحمة ، يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى هذه اللهم فشفعه فى .

وفى رواية قال : « يارسول الله ليس لى قائد وقد شق على » وذكر الحديث .

فقال عثمان : « والله ماتفرقنا ولاطال الحديث بنا » حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضر قط » قال الترمذى : حديث صحيح .

النوع الثالث آثاره فى الأشجار والخشب

وفى الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال : كان المسجد مسقوفا على جذوع النخل ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها ، فلما صنع المنبر وكان عليه ، سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار ، حتى جاء النبى صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها فسكنت .

وفى رواية « فصاحت النخلة صياح الصبى »

وفى الصحيحين عن جابر : أن امرأة من الأنصار قالت : يارسول الله ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه ، فإن لى غلاما نجارا ؟ قال : « إن شئت » قال فعملت له المنبر .

فلما كان يوم الجمعة ، قعد النبى صلى الله عليه وسلم على المنبر الذى صنع له ، وصاحت النخلة التى كان يخطب عليها ، حتى كادت أن تنشق ، فنزل النبى صلى الله عليه وسلم فضمها إليه ، فجعلت تئن أنين الصبى الذى أخذ يسكت حتى استقرت .

وفى صحيح مسلم من حديث جابر قال سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلنا واديا أفيح ، فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضى حاجته ، فاتبعته بأداوة من ماء ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم ير شيئاً يستتر به فإذا شجرتان بشاطىء الوادى ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

إحداهما فأخذ بغصنين من أغصانها ، فقال : « انقادى على بإذن الله » فانقادت معه كالبعير المخشوش الذى يصانع قائده ، حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال : «انقادى على بإذن الله »فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالمنصف فيما بينهما فلأم بينهما حتى جمع بينهما ، فقال : « التئما على بإذن الله تعالى » فالتأمتا عليه فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله صلى عليه وسلم بقربى ، فتباعدت فجلست أحدث نفسى ، فحانت منى لفتة ، فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا ، وإذا الشجرتان قد افترقتا فقامت كل واحدة منهما على ساق وذكر الحديث .

وعن ابن عباس قال : جاء رجل من بنى عامر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله ، أرنى الخاتم الذى بين كتفيك ، فإننى من أطب الناس قال « ألا أريك آية ؟ » قال : بلى . فنظر إلى نخلة فقال : « ادع ذاك العذق » فجاءه ينقر حتى قام بين يديه . فقال له « ارجع » فرجع .

فقال العامرى يا آل بنى عامر ، « ما رأيت أسحر منه » قال الترمذى : حديث حسن صحيح ، ورواه الدارمى أيضاً قال : فجاءت النخلة تنقر بين يديه ثم قال لها : « ارجعى » فعادت إلى مكانها .

وفى رواية الترمذى: جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بم أعرف أنك نبى ؟ قال « إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة ، أتشهد أنى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:نعم فدعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال : « ارجع » فعاد فأسلم الأعرابى .

وروى الدارمى عن عبد الله بن عمر قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فأقبل أعرابى ، فلما دنا منه ، قال له النبى صلى الله عليه وسلم : « أين تريد ؟ » قال : إلى أهلى . قال : « هل لك فى خير ؟ » قال : وما هو ؟ قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله». قال ومن يشهد على ما تقول ؟

قال: « هذه السلمة » فدعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى بشاطىء الوادى فأقبلت تخد الأرض حتى قامت بين يديه ، فاستشهدها ثلاثا ، فشهدت ثلاثا أنه كما قال ، ثم رجعت إلى منبتها ، ورجع الأعرابى إلى قومه فقال : إن اتبعونى اتيتك بهم وإلا رجعت فكنت معك .

وفى الصحيحين عن معن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبى يقول : سألت مسروقا من آذن النبى صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال : حدثنى أبوك (يعنى عبد الله بن مسعود) أنه قال آذنته بهم شجرة .

وفى الترمذى عن على قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فخرجنا فى بعض نواحيها ، فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول : « السلام عليك يارسول الله » رواه الحاكم فى صحيحه .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : جاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو جالس حزين قد خضب بالدماء ، ضربه بعض أهل مكة . فقال له : « مالك ؟ » قال : فقال « فعل هؤلاء وفعلوا » .

قال : فقال له جبريل : « أتحب أنى أريك آية ؟ » قال : « نعم » . فنظر إلى شجرة من وراء الوادى فقال : أدع تلك الشجرة » فدعاها ، فجاءت تمشى حتى قامت بين يديه فقال : « مرها فلترجع إلى مكانها » . فقال لها : « ارجعى » فرجعت حتى عادت إلى مكانها فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « حسبى » ورواه أبو يعلى الموصلى فى مسنده

فصل

والنوع الرابع : ـ الماء والطعام والثمار الذى كان يكثر ببركته فوق العادة وهذا باب واسع نذكر منه ماتيسر

أما الماء ، ففى الصحيحين عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا بماء فأتى بقدح رحراح ، فجعل القوم يتوضئون قال : فحزرت ما بين السبعين إلى الثمانين .

وفى رواية عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج فى بعض مخارجه ومعه أناس من أصحابه ، فانطلقوا يسيرون ، فحضرت الصلاة فلم يجدوا مايتوضئون به ، فانطلق رجل من القوم ، فجاء بقدح فيه ماء يسير ، فأخذه النبى صلى الله عليه وسلم فتوضأ ، ثم مد أصابعه الأربع على القدح ثم قال : « قوموا فتوضؤا » وكانوا سبعين أو نحوه .

وفيهما عن أنس أيضاً : أن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالزوراء . (والزوراء بالمدينة عند السوق والمسجد ثمة) دعا بقدح فيه ماء ، فوضع فيه كفه فجعل ينبع بين أصابعه ، فتوضأ جميع أصحابه قال : قلت : كم كانوا يا أبا حمزة ؟ قال : كانوا زهاء الثلاثمائة ، وفى رواية « بماء لايغمر أصابعه »

وفى الصحيحين عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت صلاة العصر ، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء فوضع فى ذلك الإناء يده وأمر الناس أن يتوضؤا منه ، قال : فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه ، فتوضأ الناس حتى توضؤا من عند آخرهم .

وفى الصحيحين عن جابر قال : قد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حضرت صلاة العصر ، وليس معنا ماء غير فضلة ، فجعل فى إناء فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأدخل يده فيه ، وفرج أصابعه ثم قال : « حى على الوضوء والبركة من الله » فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه ، فتوضأ الناس وشربوا فجعلت لا آلو ماجعلت فى بطنى منه ، فعلمت أنه بركة .

قلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : ألفا وأربعمائة .

وفى صحيح البخارى عن جابر أيضاً قال : عطش الناس يوم الحديبية والنبي صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة فتوضأ ، فجهش الناس نحوه قال : « مالـكم قالوا : ليس عندنا مانتوضأ ولا نشرب إلا مابين يديك . فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا . قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لـكفانا ، كنا خمس عشرة مائة .

وفى البخارى عن البراء بن عازب قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبيه ، كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة ، والحديبية بئر ، فنزحناها ، فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأتاها فجلس على شفيرها ، ثم دعا بإناء من ماء ، فتوضأ ، ثم تمضمض ، ثم صبه فيها ، فتركناها غير بعيد ، ثم إنها أصدرتنا ماشئنا نحن وركابنا ، وكنا ألفاً وأربعمائة ، أو أكثر من ذلك .

وفى صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع قال : قدمنا الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أربع عشرة مائة ، وعليها خمسون شاة لاترويها ، فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبا الركية ، فإما دعا ، وإما بصق فيها .

قال : فجاشت فسقينا واستقينا .

وعن ابن عباس قال : دعا النبي صلى الله عليه وسلم بلالا ، فطلب بلال الماء ، ثم جاء فقال : لا والله ما وجدت الماء . فقال صلى الله عليه وسلم « فهل من شن ماء؟» فأتاه بشن فبسط كفيه فيه فانبعثت من يده عين . قال : فكان ابن مسعود يشرب وغيره يتوضأ .

وعن جابر بن عبد الله قال : غزونا أو سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن يومئذ بضع عشرة ومائتين فحضرت الصلاة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل فى القوم من طهور ؟ فجاء رجل يسعى بإداوة فيها شيء من ماء ، ليس فى القوم ماء غيره ، فصبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قدح ، ثم توضأ فأحسن الوضوء ،

ثم انصرف وترك القدح ، فركب الناس ذلك القدح وقالوا : تمسحوا تمسحوا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « على رسلكم » حين سمعهم يقولون ذلك ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم كفه فى الماء والقدح وقال : « بسم الله » ثم قال : « أسبغوا الطهور » . فو الذى ابتلانى ببصرى لقد رأيت العيون الماء تخرج من بين أصابعه ، فلم يرفعها حتى توضئوا أجمعون » رواها الدارمى فى مسنده .

وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن مسعود قال : كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفا ، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فقل الماء : « فقال اطلبوا فضلة من ماء ، فجاؤا بإناء فيه ماء قليل ، فأدخل يده فى الإناء ثم قال : « حى على الطهر المبارك والبركة من الله » فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع النبى صلى الله عليه وسلم ، ولقد كان نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل .

وروى مسلم فى صحيحه عن معاذ بن جبل ، قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك ، فكان يجمع الصلاة ، فصلى الظهر والعصر جميعا ، والمغرب والعشاء جميعاً ، حتى إذا كان يوم أخر الصلاة ، ثم خرج ، فصلى الظهر والعصر جميعاً ، ثم دخل ثم خرج بعد ذلك فصلى المغرب والعشاء جميعاً ، ثم قال : « إنكم ستأتون غداً ـ إن شاء الله ـ عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار ، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتى » . فجئناها، وقد سبقنا إليها رجلان والعين مثل الشراك تبض بشىء من ماء ، فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل مسستما من مائها شيئاً ؟ » قالا : نعم ، فسبهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهما ماشاء الله أن يقول ، قال : ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلا قليلا حتى اجتمع شىء ، قال: وغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها ، فجرت العين بماء منهمر ، أو قال : غزير ، فاستقى الناس ثم قال : « يوشك ـ يامعاذ إن طالت بك حياة ـ أن ترى ماء هاهنا قد ملأ جنانا » .

وفى صحيح مسلم من حديث جابر الذى رواه عبادة بن الوليد وقد تقدم أوله فى قصة الشجرتين وانقيادهما ثم افتراقهما ووضع الغصن على القبرين وقال فى آخره : فأتينا العسكر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا جابر ناد بوضوء » فقال : ألا وضوء ألا وضوء . قال : قلت يارسول الله : ما وجدت فى الرّكب من قطرة ، وكان رجل من الأنصار يبرد لرسول الله صلى الله عليه وسلم الماء فى أشجاب له ، فقال لى : انطلق إلى فلان الأنصارى ، فانظر هل فى أشجابه من شىء ؟ قال : فانطلقت إليه ، فنظرت فيها ، فلم أجد إلا قطرة فى عزلا شجب ، لو أنى أفرغه لشربه يابسه .

فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله لم أجد فيها إلا قطره فى عزلا شجب ، لو أنى أفرغه لشربه يابسه .

قال اذهب فائتنى به ، فأتيته به ، فأخذه بيده ، فجعل يتكلم بشىء لا أدرى ما هو ، ويغمزه بيده ، ثم أعطانيه ، ثم قال : يا جابر ، ناد لجفنة الركب ، فقلت ياجفنة الركب ، فأتيت بها تحمل ، فوضعتها بين يديه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فى الجفنة هكذا ، فبسطها ، وفرق بين أصابعه ، ثم وضعها فى قعر الجفنة فقال : « خذ ياجابر فصب على وقل : بسم الله » فصببت عليه وقلت : بسم الله ، فرأيت الماء يفور من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ، ثم فارت الجفنة ودارت حتى امتلأت . فقال : « ياجابر ناد من كانت له حاجة بماء » قال : فأتى الناس فاستقوا حتى رووا ، قال : فقلت : هل بقى أحد له حاجة ؟ .

فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده من الجفنة وهى ملأى .

وفى الصحيحين عن عمران بن حصين قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى مسير له ، فأدلجنا ليلتنا ، حتى إذا كان وجه الصبح ، عرسنا ، فغلبتنا أعيننا حتى بزغت الشمس ، فكان أول من استيقظ منا أبو بكر الصديق ، وكنا لا نوقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من منامه حتى يكون هو الذى يستيقظ ، لأنا لا ندرى

مايحدث له فى نومه ، ثم استيقظ عمر ، فجعل يـكبر ، حتى استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رفع رأسه ورأى الشمس قد بزغت قال : ارتحلوا ، فسار بنا حتى ابيضت الشمس . نزل ، فصلى بنا الغداة ؛ فاعتزل رجل من القوم لم يصل معنا ، فلما انصرف قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما منعك أن تصلى معنا ؟ » قال أصابتنى جنابة ولا ماء . قال له : « عليك بالصعيد فإنه يكفيك » فتيمم بالصعيد فصلى ، ثم عجلنى فى ركب بين يديه يطلب الماء ، وقد عطشنا عطشاً شديداً .

فبينما نحن نسير إذا نحن بامرأة سادلة رجليها بين مزادتين ، فقلنا لها : أين الماء ؟ فقالت : إيهاه إيهاه ، لا ماء لـكم . فقلت : كم بين أهلك وبين الماء ؟ قالت : مسيرة يوم وليلة ، قلنا : انطلقى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت وما رسول الله ؟ فلم نملـكها من أمرها شيئاً حتى انطلقنا بها ، فاستقبلنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألها فأخبرته مثل الذى أخبرتنا ، وأخبرته أنها مويمة لها صبيان أيتام .

فأمر براويتها فأنيخت ، فمج فى العزلاوين العلياوين ، ثم بعث براويتها فشربنا ، ونحن أربعون رجلا عطاشا حتى روينا ، وملأنا كل راوية ، وملأنا كل قربة معنا وإداوة ، وغسلنا صاحبنا ، غير أنا لم نسق بعيراً وهى تـكاد تنضرج من الماء يعنى المزادتين ، ثم قال : « هاتوا ماعندكم » فجمعنا لها من كسر وتمر ، وصر لها صرة ، وقال لها ، اذهبى فأطعمى عيالك ، واعلمى أنا لم نرزأ من مائك شيئاً .

فلما أتت أهلها قالت : لقد رأيت أسحر البشر ، أوإنه النبى كما زعم ، كان من أمره زيت وزيت ، فهدى الله عز وجل ذلك القوم بتلك المرأة ، فأسلمت وأسلموا .

وفى الصحيحين عن أبى قتادة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال « إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم ، وتأتون الماء غداً إن شاء الله ، فانطلق الناس لايلوى أحد على أحد ، وذكر حديث النوم فى الوادى فقال: ثم دعا بميضأة كانت معى فيها شىء من ماء ، فتوضأ منها وضوءا ، دون وضوء و بقى فيها شىء من ماء ثم قال لأبى قتادة : « احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ » ، ثم قال : أصبح الناس فقدوا نبيهم

فقال : أبو بكر وعمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدكم لم يكن ليخلفكم .

وقال الناس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أيديكم ، فإن تطيعوا أبا بكر وعمر ترشدوا .

قال : فانتهينا إلى الناس حين امتد النهار وحمى كل شىء ، وهم يقولون : يارسول الله هلكنا عطشاً فقال : « لاهلاك عليكم » ثم قال « اطلقوا لى غمرى » قال : ودعا بالميضأة ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصب وأبو قتادة يسقيهم فلم يعد أن رأى الناس ما فى الميضأة تكابوا عليها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحسنوا الملاء ، كلكم سيروى »

قال : ففعلوا ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصب ، وأسقيهم حتى مابقى غيرى وغير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم صب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى : « اشرب » . فقلت : لا أشرب حتى تشرب يارسول الله . قال : « إن ساقى القوم آخرهم شربا » فشربت وشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فأتى الناس الماء جامين رواء .

قال عبد الله بن رباح : إنى لأحدث بهذا الحديث فى مسجد الجامع إذ قال لى عمران بن حصين : أنظر كيف تحدث ، فأنا أحدث الركب تلك الليلة فقلت : أنت أعلم . فقال : ممن أنت ؟ قلت : من الأنصار . قال : أنتم أعلم بحديثكم .

قال عمران : لقد شهدت تلك الليلة ، وما شعرت أحداً حفظه كما حفظته .

وفى مسند الإمام أحمد ورواه أبو يعلى الموصلى عن البراء بن عازب قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتينا على ركى زمه ، قال : فنزل ستة ، أنا سابعهم ، أو سبعة أنا ثامنهم . قال : فأدليت إلى دلو ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على شفتى الركى ، فجعلنا فيها نصفها أو قريب ثلثيها ، فرفعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فكدت بإنائى آخذ سقياً أجعله فى حلقى فما وجدت . قال : فغمس رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فيها فقال ماشاء الله أن يقول ، فأعيدت إلينا الدلو وما فيها ، قال : فقد رأيت آخرنا أخرج مخافة الغرق ، قال : وساخت »

وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد ، والترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجه طرف منه ، عن زيادة بن الحارث الصداى ، قال فى آخره : ثم قلنا : يانبى الله ، إن لنا بئرا إذا كان الشتاء وسعنا ماؤها واجتمعنا عليها ، وإذا كان الصيف ، قل ماؤها فتفرقنا على مياه حولنا وقد أسلمنا وكل من حوالينا عدو ، فادع الله فى بئرنا أن يسعنا ماؤها ، فنجتمع عليها ولا نتفرق .

فدعا بسبع حصيات فعركهن فى يده ، ودعا فيهن ثم قال « اذهبوا بهذه الحصيات ، فإذا أتيتم البئر فألقوا واحدة واحدة ، واذكروا اسم الله عز وجل »

قال الصداى : ففعلنا ما قال لنا ، فما استطعنا بعد أن ننظر إلى قعرها .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال . أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، وليس فى العسكر ماء ، فأتاه رجل فقال : يارسول الله ليس فى العسكر ماء . قال : « هل عندك شىء ؟ » قال : نعم . قال : « فائتنى به » قال : فأتاه بإناء فيه شىء من ماء قليل ، قال ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابعه على فم الإناء ، وفتح أصابعه . قال فانفجرت من بين أصابعه عيون ، وأمر بلالا فقال : « ناد فى الناس : الوضوء المبارك » .

فصــــل

وأما تكثير الطعام ، ففي الصحيحين عن جابر قال : لما حفر الخندق رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خمصا ، فانكفأت إلى امرأتي فقلت لها : « هل عندك شيء ؟ فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خمصاً شديداً ، فأخرجت لى جراباً فيه صاع من شعير ، ولنا بهيمة داجن » قال : فذبحت وطحنت ، ففرغت إلى فراغي فقطعتها في برمتها ، ثم وليت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، فقالت : « لا تفضحني برسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه .

قال : فجئت فساررته فقلت : « يارسول الله ، إنا ذبحنا بهيمة لنا وطحنت صاعا من شعير عندنا ، فتعال أنت ونفر معك » .

فصاح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « يا أهل الخندق ، إن جابراً قد صنع صوراً لحيلاً بكم » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء » .

فجئت وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم الناس ، حتى جئت امرأتي فقالت : « بك وبك » قال : « قد فعلت الذي قلت لى » .

فأخرجت له عجيناً ، فبصق فيه وبارك ، ثم عمد إلى برمتنا فبصق فيها و بارك ثم قال : « ادعي لى خابزة فلتخبز معك ، واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها » وهم ألف .

فأقسم بالله ، لأكلوا حتى تركوه ، وانحرفوا ، وإن برمتنا لتغط كما هي ، وإن عجيننا ليخبز كما هو » .

وفي رواية ، قال جابر ، إنا يوم الخندق نحفر ، فعرضت كدية شديدة ، فجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : « هذه كدية عرضت » فقال : « أنا نازل » . فقام و بطنه معصوب بحجر[1] ، ولبثنا ثلاثاً لا يذوق ذواقاً .

---

(١) الصواب : أنه كان يربط الحجز لا الحجر ، والحجز هو : (الحزام) .

فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول ، فضرب فعاد كثيباً أهيل .

فقلت : يارسول الله ، ائذن لى إلى البيت ، فقلت لامرأتى : إنى رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ما فى ذلك صبر .

قالت : عندى شعير وعناق ، فذبحت العناق ، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم فى البرمة . ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافى قد كادت أن تنضج فقلت : طعيم لى ، فقم أنت يارسول الله ورجل ورجلان قال : « كم هو ؟ » فذكرت له . فقال : « كثير طيب » . قال : « قل لها ، لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتى » : قال : « قوموا » ، فقام المهاجرون والأنصار .

فلما دخل على امرأته قال : ويحك جاء النبى صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين والأنصار ومن معهم .

قالت : هل سألك ؟ قلت : نعم . فقال : « ادخلوا ولا تضاغطوا » .

فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه ثم نزع ، فلم يزل يكسر ويفرق حتى شبعوا وبقى بقية . قال : « كُلْ هذا وأهد فإن الناس أصابتهم مجاعة » .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : قال أبو طلحة لأم سليم : قد سمعت صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شىء ؟ فقالت : نعم . فأخرجت أقراصاً من شعير ، ثم أخذت خماراً لها فلفت الخبز ببعضه ثم دسته تحت ثوبى وردتنى ببعضه ، ثم أرسلتنى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : فذهبت به ، فوجدته جالساً فى المسجد ومعه الناس ، فقمت عليهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلك أبو طلحة ؟ فقلت : نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن معه « قوموا » .

قال : فانطلق وانطلقت معهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته ، فقال أبوطلحة : يا أم سليم قد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس وليس عندنا ما نطعمهم . فقالت : الله ورسوله أعلم .

قال : فانطلق أبو طلحة : حتى لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « هلمى يا أم سليم ما عندك » فأتت بذلك الخبز ففت ، وعصرت عليه أم سليم عكة لها فأدمته ، ثم قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقول ، ثم قال : « ائذن لعشرة » فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : « ائذن لعشرة » فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ، ثم قال : « ائذن لعشرة » فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : « ائذن لعشرة » فأذن لهم ، حتى أكل القوم كلهم وشبعوا ، والقوم سبعون رجلاً أو ثمانون .

وفى طريق البخارى ثمانون وقال فى رواية : ثم أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو طلحة وأم سليم وأنس وفضل فضلة ، فأهديناها لجيراننا :

وفى صحيح مسلم عن سلمة قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة خيبر ، فأمرنا أن نجمع ما فى أزوادنا ، يعنى من التمر - فبسط نطعاً فنثرنا عليه أزوادنا قال : فطيت فتطاولت فنظرت لحزرته كربضة شاة ، ونحن أربع عشرة مائة قال : فأكلنا ثم تطاولت فنظرته لحزرته كربضة شاة .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة وأبى سعيد وسلمة بن الأكوع ، واللفظ لمسلم ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسير ، قال : فنفدت أزواد القوم حتى هموا بنحر بعض حمائلهم ، قال : فقال عمر : يارسول الله ، لو جمعت ما بقى من أزواد القوم فدعوت الله عليها . قال ففعل ، فجاء ذو البر ببره ، وذو التمر بتمره وذو النوى بنواه .

قيل : وما كانوا يصنعون بالنوى ؟ قال : يمصونه ويشربون عليه الماء ، قال : فدعا عليها حتى ملأ القوم أزوادهم .

قال : فقال عند ذلك « أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيها إلا دخل الجنة » .

قال : لما كان يوم « غزوة تبوك » أصاب الناس مجاعة ، فقالوا : يارسول الله ، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادّهنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : افعلوا .

قال : فجاء عمر فقال : يارسول الله ، إن فعلت قل الظهر ، وفى رواية ، ما بقاؤهم بعد إبلهم ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ، ثم ادع لهم بالبركة ، لعل الله أن يجعل البركة فى ذلك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم » فدعا بنطع فبسطه ، ثم دعا بفضل أزوادهم . قال : فجعل الرجل يجىء بكف ذرة ، وجعل الآخر يجىء بكف تمر ، وجعل الآخر يجىء بكسرة ، حتى اجتمع على النطع من ذلك شىء يسير .

قال : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة ، ثم قال : « خذوا فى أوعيتكم » قال فأخذوا فى أوعيتهم حتى ماتركوا فى العسكر وعاء إلا ملئوه ، قال: فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة (الحديث) .

وروى البخارى من حديث سلمة بن الأكوع بنحوه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة ، فأصابنا جهد حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا ، فأمرنا نبى الله صلى الله عليه وسلم ، فجمعنا مزاودنا ، فبسطنا له نطعاً، فاجتمع زاد القوم على النطع ، قال فتطاولت لأحزره كم هو ؟ فحزرته كربضة العنز ، ونحن أربع عشرة مائة . قال : فأكلنا حتى شبعنا جميعاً ، ثم حشينا جرو با . فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : « فهل من وضوء ؟ » قال : فجاء

رجل بأداوة فيها نطفة ، فأفرغها فى قدح ، فتوضأنا كلنا بدعفقة دعفقة ، أربع عشرة مائة ، ثم جاء بعد ذلك ثمانية فقالوا : هل من طهور ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فرغ الوضوء » .

وفى صحيح مسلم عن جابر : أن أم مالك كانت تهدى للنبى صلى الله عليه وسلم فى عكة لها سمناً ، فيأتيها بنوها فيسألون الأدم وليس عندهم شىء . فتعمد إلى الذى كانت تهدى فيه للنبى صلى الله عليه وسلم ، فتجد فيه سمناً ، قال : فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته ، فأتت النبى صلى الله عليه وسلم . فقال : «عصرتيها ؟» فقالت : نعم . قال : « لو تركتيها ما زال قائماً » .

وروى مسلم فى صحيحه عن جابر أيضاً ، قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم يستطعمه فأطعمه شطر ونبق شعير ، فما زال الرجل يأكل منه وامرأته وضيفهما حتى كاله ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « لو لم تكله لأكلتم منه ولقام لكم » .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : تزوج النبى صلى الله عليه وسلم زينب فدخل بأهله ، قال : فصنعت أم سليم حيساً فجعلته فى تور من حجارة ، فقالت : يا أنس ، اذهب بهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل : بعثت بهذا أمى إليك وهى تقرئك السلام ، وتقول : إن هذا لك منا قليل يارسول الله .

قال : فذهبت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : إن أمى تقرئك السلام وتقول : إن هذا لك منا قليل . فقال : « ضعه » ثم قال : « اذهب فادع فلاناً وفلاناً وفلاناً ومن لقيت » وسمى رجالاً . قال فدعوت من سمى ومن لقيت قال الجعد ــ وهو الراوى عن أنس: عددكم كم كانوا ؟ قال : كانوا زهاء ثلاثمائة ، وقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أنس هات التور » قال : فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليتحلق

عشر عشرة ، وليأكل كل إنسان مما يليه » . قال فأكلوا حتى شبعوا ، قال : فخرجت طائفة ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم . فقال : « يا أنس ارفع » فرفعت فما أدرى حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت ؟ قال : وجلس طوائف منهم يتحدثون ، وذكروا نزول آية الحجاب .

وروى البخارى عن أنس أيضا : أن أم سليم عمدت إلى مد من شعير ، جشته وجعلت منه خطيفة ، وعصرت عكة عندها ، ثم بعثتنى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيته وهو فى أصحابه ، فدعوته . قال : «ومن معى ؟ » فجئت فقلت : إنه يقول « ومن معى ؟ » فخرج إليه أبو طلحة فقال يارسول الله : إنما هو شىء صنعته أم سليم ، فدخل فجىء به وقال : « أدخل عشرة » حتى عد أربعين ، ثم أكل النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قام ، فجعلت أنظر ، هل نقص منها شىء ؟ .

عن سمرة بن جندب قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم نتداول قصعة من غدوة من الليل ، يقوم عشرة . و يقعد عشرة ، فقلنا : ما كانت تمد ؟ قال : فمن أى شىء تعجب ؟ ما كانت تمد إلا من ههنا ، وأشار بيده إلى السماء : رواه النسائى والترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه الدارمى والحاكم فى صحيحه .

وفى البخارى عن أبى هريرة : أنه كان يقول : والله الذى لا إله إلا هو ، إن كنت لأعتمد على الأرض من الجوع ، و إن كنت لأشد الحجز على بطنى من الجوع ، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذى يخرجون منه ، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ، ماسألته إلا ليستتبعنى ، فمر ولم يفعل ، ثم مر بى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم ، فتبسم حين رآنى ، وعرف مافى وجهى وما فى نفسى ثم قال : « يا أباهر » . قلت : لبيك يارسول الله . قال : « الحق » ومضى ، فاتبعته فدخل ، فاستأذن ، فأذن لى ، فدخلت ، فوجد لبنا فى قدح

فقال : «من أين هذا اللبن ؟ » قالوا : أهداه لك فلان أوفلانة . قال : «ياأبا هر» قلت . لبيك يارسول الله قال « الحق إلى أهل الصفة فادعهم لى ». قال : وأهل الصفة أضياف الإسلام ، لايأوون إلى أهل ولا إلى مال، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً ، و إذا أتته هدية أرسل إليهم ، وأصاب منها وأشركهم فيها ، فساءنى ذلك فقلت : وما هذا اللبن فى أهل الصفة : كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها ، فإذا جاءوا أمرنى فكنت أنا أعطيهم ، وما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن ؟ ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد فأتيتهم فدعوتهم ، فأقبلوا واستأذنوا ، فأذن لهم ، وأخذوا مجالسهم من البيت فقال : « ياأبا هر » قلت : لبيك يارسول الله . قال : « خذ فأعطهم » فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ، ثم يرد على القدح . حتى انتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقد روى القوم كلهم ، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلى فتبسم فقال : « يا أبا هر » قلت : لبيك يارسول الله ، قال «بقيت أنا وأنت» قلت: صدقت يارسول الله . قال « اقعد فاشرب» فقعدت فشربت ، فما زال يقول « اشرب » حتى قلت : لا والذى بعثك بالحق ما أجد له مسلكا : قال « فأرنى » فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة .

وفى الصحيحين عن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثين ومائة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « هل مع أحد منكم طعام ؟» فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه ، فعجن . ثم جاء رجل منفش الرأس ، ثائر الرأس طويل ، بغنم يسوقها فقال النبى صلى الله عليه وسلم « أبيعا أم عطية » أو قال : « هبة » . قال . بل بيع . فاشترى منه شاة فصنعت وأمر النبى صلى الله عليه وسلم بسواد البطن أن يشوى ، وأيم الله ما فى الثلاثين ومائة إلا من قد حز له النبى صلى الله عليه وسلم حزة من سواد بطنها ، إن كان

شاهدا أعطاه ، وإن كان غائباً أخبأ له ، فجعل منها قصعة فأكلوا أجمعون ، وشبعنا ، ففضلت القصعتان فحملناه على البعير » أو كما قال .

فصل

وأما تكثير الثمار ، ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله أن أباه استشهد وترك ديناً ، وترك ست بنات ، فلما حضر جداد النخل قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : قد علمت أن والدى قد استشهد يوم أحد ، وترك ديناً كثيرا وإنى أحب أن يراك الغرماء . قال : « اذهب فبيدر كل تمر على ناحية » ففعلت ، ثم دعوته ، فلما نظروا إليه ، كأنهم اغروا بى تلك الساعة ، فلما رأى مايصنعون ، أطاف حول أعظمها بيدرا ثلاث مرات ، ثم جلس عليه ثم قال « ادع لى أصحابك » فما زال يكيل لهم حتى أدى الله عن والدى أمانته ، وأنا أرضى أن يؤدى الله عن والدى أمانته ولا أرجع إلى أخواتى بتمرة ، فسلم الله البيادر كلها ، حتى إنى لأنظر إلى البيدر الذى كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، كأنها لم تنقص تمرة واحدة .

وفى رواية : أن أباه ترك عليه ثلاثين وسقا لرجل من اليهود ، فاستنظره جابر ، فأبى أن ينظره ، فكلم جابر النبى صلى الله عليه وسلم ليشفع له إليه ، فجاءه وكلم اليهودى ليأخذ تمر نخله بالذى له فأبى ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم النخل ، فمشى فيها ، ثم قال لجابر : « جده فأوف له » فجدله بعد ماراح رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثين وسقا ، وفضل له سبع عشرة وسقا ، فجاء جابر ليخبره بالذى كان فوجده يصلى العصر ، فلما انصرف أخبره بالفضل . فقال : « أخبر بذلك ابن الخطاب » فذهب جابر إلى عمر فأخبره فقال عمر : لقد علمت حين مشى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليباركن فيها .

وروى الإمام أحمد والترمذى وغيرهما ، حديث مزود أبى هريرة ، قال ،

أحمد : ثنا يونس ثنا حماد بن زيد عن المهاجر ، عن أبى العالية ، عن أبى هريرة قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بتمرات وقلت : ادع الله لى فيهن بالبركة ، قال : فصفهن بين يديه قال : ثم دعا فقال لى : « اجعلهن فى مزودك ، وأدخل يدك ولا تنثره » قال: فحملت منه كذا وكذا وسقا فى سبيل الله ، ونأكل ونطعم ، وكان لا يفارق حقوى فلما قتل عثمان انقطع من حقوى فسقط » رواه الترمذى عن عمران ابن موسى الفرار ، عن حماد ، بنحوه ، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه .

ورواه الحافظ عبد الغنى وغيره من طريق أخرى ، عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة ، فأصابهم عوز من الطعام فقال : « يا أبا هريرة عندك شىء ؟ » قال : قلت : لا ، إلا شىء من التمر فى مزودى ، قال : « جىء به » فجئت بالمزود وقال : «هات نطعا» فجئت بالنطع فبسط ، فأدخل يده فقبض على التمر فإذا هو إحدى وعشرون تمرة ، قال: ثم قال: «بسم الله» فجعل يضع كل تمرة ويسمى، حتى أتى على التمر، فقال به هكذا فجمعه فقال : « ادع فلاناً وأصحابه » فأكلوا وشبعوا وخرجوا ثم قال « ادع فلانا وأصحابه » فأكلوا وشبعوا وخرجوا ، قال : وفضل تمر فقال لى : « اقعد » فقعدت فأكل وأكلت ، قال : وفضل تمر فأخذه فأدخله فى المزود فقال : « يا أباهريرة إذا أردت شيئاً فأدخل يدك فخذ ولا تكفأ فيكفأ عليك . قال : فما كنت أريد تمرا إلا أدخلت يدى ، فأخذت منه خمسين وسقا فى سبيل الله عز وجل ، وكان معلقاً خلف ظهرى فوقع زمان عثمان ، فذهب .

ورواه من طريق يزيد بن أبى منصور عن أبيه عن أبى هريرة قال : أصبت بثلاث بموت النبي صلى الله عليه وسلم ، وكنت صويحبه وخويدمه ، وبقتل عثمان ، والمزود ، وما المزود ! ! كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصاب الناس مخمصة ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل من شىء يا أبا هريرة ؟ » فقلت : نعم ، شىء من تمر فى مزود . قال : « فائتنى به »

فأتيته به ، فأخذ يده ، فأخرج قبضة فبسطها ، ثم قال : « ادع لى عشرة » فأكلوا حتى شبعوا ، فما زال يصنع كذلك حتى أطعم الجيش كلهم وشبعوا ، ثم قال : « خذ ما جئت به وأدخل يدك واقبض ، ولا تكفه .

قال أبو هريرة : قبضت على أكثر مما جئت به ، ثم قال أبو هريرة : ألا أحدثكم عما أكلت منه ؟ أكلت حياة[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطعمت ، وحياة[1] أبي بكر وأطعمت، وحياة[1] عمر وأطعمت ، وحياة[1] عثمان وأطعمت، فلما قتل عثمان انتهب بيتى وذهب المزود .

وروى الإمام أحمد فى مسنده : ثنا يعلى بن عبيد ، ثنا إسماعيل عن قيس عن دكين بن سعيد المدنى قال : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين وأربعمائة ، نسأله الطعام فقال لعمر : « اذهب فأعطهم » ، فقال : يا رسول الله ما بقى إلا آصع من تمر ما أرى تقبضنى ، قال: «اذهب فأعطهم » ، قال : سمعاً وطاعة ، قال : فأخرج عمر المفتاح من حجزته ففتح الباب ، فإذا شبه الفصيل الرابض من تمر فقال لنا : خذوا ، فأخذ كل منا ما أحب ، ثم التفت وكنت من آخر القوم ، وكأنا لم نرزأ تمرة .

ورواه أبو داود عن عبد الرحيم بن مطرق عن عيسى بن يونس عن إسماعيل ابن أبي خلد ، عن قيس بن أبي حازم ، عن دكين ، قال أبو عبد الله المقدسى : وإسناده على شرط الصحيح .

فصـــــل

وأما النوع الخامس ، تأثيره فى الأحجار وتصرفه فيها وتسخيرها له .

ففى صحيح البخارى عن أنس قال : صعد النبي صلى الله عليه وسلم أُحُداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ، فرجف بهم الجبل فقال : « اسكن » وضربه برجله « فليس عليك إلا نبي وصديق وشهيدان » .

---

(١) أى : مدة حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم !

وفى الصحيحين عن جابر بن سمرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث ، إنى لأعرفه الآن » .

وفى الترمذى عن عَلِيٍّ قال : « كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ، فخرجنا فى بعض نواحيها ، فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول : السلام عليك يا رسول الله » ورواه الحاكم فى صحيحه وفى صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع فقال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا ، فلما واجهنا العدو تقدمته فأعلو ثنية ، فاستقبلنى رجل من العدو ، فرميته بسهم فتوارى عنى ، فما دريت ما صنع ونظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى ، فالتقوا هم وأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فولّى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فرجعت منهزما ، وعَلَيَّ بردتان ، متزراً بإحداهما ، مرتدياً بالأخرى ، فاستطلق إزارِىَ فجمعتهما جميعاً ، ومررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم منهزماً وهو على بغلته الشهباء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد رأى ابن الأكوع فزعا » فلما غشوا النبى صلى الله عليه وسلم نزل عن البغلة ، ثم قبض قبضة من الأرض واستقبل بها وجوههم فقال : « شاهت الوجوه » فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة ، فولّوا مدبرين ، فهزمهم الله .

وفى صحيح مسلم عن العباس بن عبد المطلب قال : شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نفارقه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامى ، فلما التقى المسلمون والكفار ، وولى المسلمون مدبرين ، طفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قِبَلَ الكفار قال العباس : وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها إرادة

أن لاتسرع ، وأبوسفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أى عباس ، ناد أصحاب السمرة » فو الله لكأن عطفهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها، يالبيك يالبيك . قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة فى الأنصار يقولون : يامعشر الأنصار ، ثم قصرت الدعوة على بنى الحارث بن الخزرج فقالوا : يابنى الحارث بن الخزرج ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا حين حمى الوطيس » ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى وجوه الكفار ثم قال : « انهزموا ورب الكعبة » قال فذهبت أنظر ، فإذا القتال على هيئته فيما أرى ، فوالله ماهو إلا أن رماهم بحصياته ، فما زلت أرى حدهم كليلا ، وأمرهم مدبراً حتى هزمهم الله ، وقد قال الله تعالى عن يوم بدر : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ .

وروى ابن إسحاق عن جماعة ، منهم عروة ، والزهرى ، وعاصم بن عمرو وغيرهم قالوا : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العريش ، هو وأبو بكر ، مامعهما غيرهما ، وقد تدانى القوم بعضهم من بعض ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه ، ما وعده من نصره ويقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد » ، وأبو بكر يقول : بعد مناشدتك ربك يارسول الله فإن الله سينجز لك ماوعدك من نصره ، وخفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة ثم هب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أبشر ياأبا بكر أتاك نصر الله عز وجل . هذاجبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع (يقول الغبار)» ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فعبأ أصحابه وهيأهم وقال: « لايعجلن منكم بقتال حتى يؤذنه فإذا أكثبكم القوم – يقول قربوا منكم – فانضحوهم عنكم بالنبل » ثم تزاحم الناس ، فلما تدانى بعضهم من بعض ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ حفنة من حصباء ، ثم استقبل بها قريشاً فنفخ بها وجوههم وقال : «شاهت

الوجوه» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « احملوا عليهم يامعشر المسلمين» فحمل المسلمون وهزم الله قريشاً، وقتل من قتل من أشرافهم ، وأسر من أسر منهم .

وفى حديث ابن أبي طلحة الوالبي ، عن ابن عباس قال له جبريل : « خذ قبضة من تراب » فأخذ قبضة من تراب ، ورمى بها وجوههم ، فما من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين .

فصل

النوع السادس من آياته ، تأييد الله له بملائكته ، قال الله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ ، الآية وقال تعالى : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ من الملائكة مُسَوِّمِينَ ﴾ ، وقال تعالى فى الخندق : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ ، وقال تعالى فى حنين: ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ وقال تعالى فى الهجرة : ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ وقال تعالى فى بدر: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ .

وفى الصحيحين ــ واللفظ لمسلم ــ عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين ، وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلا ، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم القبلة ، ثم

مد يديه وجعل يهتف بربه : «اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم آتنى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد فى الأرض » ، فما زال يهتف بربه مادا يديه ، مستقبل القبلة ، حتى سقط رداءه عن منكبيه .

فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه ، فألقاه عن منكبيه ، ثم التزمه من ورائه فقال: « يانبى الله كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إذ تستغيثونَ ربكمْ فاستجابَ لكمْ أنى ممدكمْ بألفٍ منَ الملائكةِ مردفينَ ﴾ فأمده الله بالملائكة .

قال أبو زميل : فحدثنى ابن عباس قال : بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة سوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : « أقدم حيزوم » فنظر إلى المشركين أمامه ، فخر مستلقياً ، فنظر إليه فإذا قد خطم أنفه ، وشق وجهه ، كضربة بالسوط ، فاخضر ذلك أجمع .

فجاء الأنصارى فحدث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة » فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين ، وذكر الحديث

وذكر البخارى فى هذا الحديث : فخرج - يعنى النبى صلى الله عليه وسلم - وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » .

وقال ابن إسحاق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن حزم ، عن بعض بنى ساعدة قال : سمعت أبا أسد مالك بن ربيعة - بعد ما أصيب بصره - يقول : لو كنت معكم ببدر الآن ، ومعى بصرى ، لأخبرتكم بالشعب الذى خرجت منه الملائكة ، لا أشك ولا أتمارى ، فلما نزلت الملائكة ورآها إبليس ، وأوحى الله إليهم : ﴿ أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ ، إن الملائكة تأتى الرجل فى صورة الرجل تعرفه وتقول له : أبشروا ، فإنهم ليسوا بشىء ، والله معكم ، كروا عليهم .

فلما رأى إبليس الملائكة ، نكص على عقبيه وقال : ﴿ إنى برىء منكم

إنى أرى مالا ترون ﴾ ، وهو فى صورة سراقه

وأقبل أبو جهل يحضض أصحابه ويقول : لايهولنكم خذلان سراقة إياكم ، فإنه على موعد من محمد وأصحابه ، ثم قال : « واللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمداً وأصحابه فى الحبال ، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذاً » .

وفى الصحيحين ، عن سعد بن أبى وقاص قال : رأيت يوم « أحد » عن يمين النبى صلى الله عليه وسلم وعن يساره ، رجلين عليهما ثياب بيض ، يقاتلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد القتال ، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده ـ ؟ يعنى جبريل وميكائيل عليهما السلام .

وفى الصحيحين عن عائشة قالت : أصيب سعد يوم الخندق ، رماه رجل من قريش بن العرقة ، رماه فى الأكحل ، فضرب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيمة فى المسجد يعوده من قريب .

فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق ، ووضع السلاح، فاغتسل فأتاه جبريل عليه السلام ، وهو ينفض عن رأسه من الغبار ، فقال : « وضعت السلاح ، فوالله ماوضعناه ، أخرج إليهم » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فأين ؟ » فأشار إلى بنى قريظة ، فقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم فيهم إلى سعد ، قال : فإنى أحكم فيهم أن يقتل المقاتلة، وأن تسبى الذرية والنساء ، وتقسم أموالهم .

وفى بعض طرق البخارى : فأتاه جبريل وقد عصب رأسه الغبار .

وروى البخارى عن أنس قال : كأنى أنظر إلى الغبار ساطعاً فى زقاق بنى غنم ، موكب جبريل صلوات الله عليه ، حين سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى قريظة .

وفى المغازى من طريق : أن الصحابة رأوا جبريل فى صورة « دحية الكلبى »

وأنه معتم بعمامة أرخى طرفها بين كتفيه ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : بعثه الله إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ، ويلقي الرعب في قلوبهم .

وروى البخاري عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر « هذا جبريل ، آخذ برأس فرسه ، عليه أداة الحرب » .

وفي الصحيحين عن عائشة أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « يارسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال « لقد لقيت من قومك ، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فناداني ملك الجبال وَسَلَّمَ عَلَيَّ ثم قال : يامحمد إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني إليك ربك لتأمرني بأمرك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلت .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، ولا يشرك به شيئاً » .

النوع السابع : في كفاية الله له أعداءه ، وعصمته له من الناس ، وهذا فيه آية لنبوته من وجوه .

منها : ـ أن ذلك تصديق لقوله تعالى : ﴿ فاصْدعْ بمَا تُؤمرُ وأعرضْ عنِ المشركينَ ه إنَّا كفيناكَ المستهزئينَ ه الذينَ يجعلُونَ معَ اللهِ إلهاً آخرَ فسوف يعلمونَ ﴾ ، فهذا إخبار الله بأنه يكفيه المشركين المستهزئين .

وأخبر أنه يكفيه أهل الكتاب بقوله : ﴿ قولوا آمنا باللهِ وما أنزِلَ إلينا وما أُنزِلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتِيَ موسى

وعيسى وما أوتيَ النبيّون من ربِّهم لانفرّقُ بينَ أحدٍ منهُمْ ونحنُ له مسلمونَ فإنْ آمنوا بمثلِ ما آمنتم به فقدِ اهتدَوا وإنْ تولّوا فإنّما هُمْ في شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وهو السميعُ العليمُ ﴾ .

فأخبره الله أنه يكفيه هؤلاء المشاقين له من أهل الكتاب ، وأخبره أنه يعصمه من جميع الناس بقوله : ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بلِّغْ ما أُنزلَ إليكَ منْ ربِّكَ وإنْ لَمْ تفعلْ فما بلَّغْتَ رسالتهُ واللهُ يعصمُكَ منَ النَّاس ﴾ فهذا خبر عام ، بأن الله يعصمه من جميع الناس .

فكل من هذه الأخبار الثلاثة العامة ، قد وقع كما أخبر ، وفي هذا عدة آيات .

منها أنه كفاه أعداءه بأنواع عجيبة خارجة عن العادة المعروفة .

ومنها أنه نصره مع كثرة أعدائه وقوتهم وغلبهم ، وأنه كان وحده جاء هو بمعاداتهم ، وسب آبائهم ، وشتم آلهتهم وتسفيه أحلامهم ، والطعن في دينهم وهذا من الأمور الخارقة للعادة .

والمستهزئون كانوا من أعظم سادات قريش ، وعظماء العرب ، وكان أهل مكة أعز الناس وأشرفهم ، يعظمهم جميع الأمم .

أما العرب فكانوا يدينون لهم ، وأما غيرهم من الأمم ، فكانوا يعظمونهم به ، لاسيما من حين ما جرى لأهل الفيل ما جرى ، كما كانت الأمم تعظم بني إسرائيل ، لما ظهر فيهم من الآيات ما ظهر .

وهؤلاء بنو إسماعيل ابن خليل الله ، وهؤلاء بنو إسحاق ابن خليل الله ، وكلاهما ممن وعد الله إبراهيم في التوراة فيهم بما وعده ، من إنعام الله عليه النعمة التي لم ينعم الله بها على غيرهم .

فكان أهل مكة معظمين لأنهم جيران البيت ، ولأنهم أشرف بني إسماعيل .

فإن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ،

واصطفى بنى هاشم من قريش ، واصطفى محمداً من بنى هاشم .

وكان قد عاداه أشراف هؤلاء ، كما عادى المسيح أشراف بنى إسرائيل .

و بدّل هؤلاء وهؤلاء نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دار البوار .

وكفى الله رسوله المسيح من عاداه منهم ، ولم ينفعهم نسبهم ولا فضل مدينتهم .

وكذلك كفى الله محمداً من عاداه ، وانتقم منهم ، ولم ينفعهم انتسابهم ، ولا فضل مدينتهم .

فإن الله إنما يثيب بالإيمان والتقوى ، لا بالبلد والنسب ، فقال تعالى : ﴿ وكذّب بهِ قومُكَ وهوَ الحقُّ قلْ لستُ عليكمْ بوكيلٍ ، لكلِّ نبإٍ مستقرٌّ وسوفَ تعلمونَ ﴾ ، وقال : ﴿ وكأيّنْ منْ قريةٍ هيَ أشدُّ قوةً منْ قريتكَ التى أخرجتكَ أهلكناهمْ فلاَ ناصرَ لهمْ ﴾ ، وقال : ﴿ وضربَ اللهُ مثلاً قريةً كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقُهَا رغداً منْ كلِّ مكانٍ فكفرتْ بأنعمِ اللهِ فأذاقَهَا اللهُ لباسَ الجوعِ والخوفِ بمَا كانوا يصنعونَ ، ولقدْ جاءهمْ رسولٌ منهمْ فكذبوهُ فأخذهمُ العذابُ وهمْ ظالمونَ ﴾ ، وقد سمى أهل العلم بعض من كفاه الله من المستهزئين ، وكانوا معروفين مشهورين عند الصحابة بالرياسة والعظمة ، فى الدنيا ، فذكروهم ليعرف هذا الأمر العظيم ، الذى أكرم الله نبيه به .

فنى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال أبو جهل : « هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ » قيل : نعم . قال : « واللات والعزى ، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته » ، فما فاجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه . فقيل له : مالك ؟ قال : « إن بينى و بينه لخندقاً من نار ، وهؤلاء أجنحة » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً »

وأنزل الله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الذى ينهى * عَبْداً إذا صلّى * أرأيت إنْ كان على الهدى * أو أمرَ بالتَّقوى * أرأيت إنْ كذب وتولى * ألم يعلم بأن الله يرى * كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالنَّاصيةِ * ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئةٍ * فليدعُ نَاديَهُ * سندعُ الزبانيةَ * كلاَّ لاتُطِعهُ واسجدْ واقتربْ ﴾ ، [العلق ٩ ــ ١٩] .

وفى الصحيحين من حديث البراء بن عازب ، حديث هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر من مكة إلى المدينة قال فيه سراقة بن مالك بن جعشم ، ونحن فى جدد من الأرض فقلت : يارسول الله أتينا ، قال : « لا تحزن إن الله معنا » ، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارتطمت فرسه إلى بطنها فقال : « إنى قد علمت أنكما دعوتما على فادعوا لى ، والله لكما أن أرد عنكما الطلب ، فدعا الله فنجا ، فرجع لا يلقى أحداً إلا قال : قد كفيتم ما ههنا فلا يلقى أحدا إلا رده .

وفى لفظ « فساخ فرسه فى الأرض إلى بطنه ، ووثب عنه فقال : يامحمد ، قد علمت أن هذا عملك ، فادع الله أن يخلصنى مما أنا فيه ، ولك على لأعمين على من ورائى » .

وفى الصحيحين عن ابن شهاب ، من رواية سراقة نفسه قال : جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره .

فبينما أنا جالس فى مجلس قومى بنى مدلج ، إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس ، فقال : ياسراقة ، إنى رأيت آنفاً أسودة بالساحل ، أراها محمدا وأصحابه .

قال سراقة : فعرفت أنهم هم ، فقلت : ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً ، ثم لبثت ساعة ، ثم قمت فدخلت بيتى ، فأمرت جاريتى أن تخرج فرسى وهى من وراء أكمة فتحبسها على ، وأخذت رمحى ، فخرجت به من ظهر البيت

فخططت بزجه الأرض ، وخفضت عاليه ، حتى أتيت فرسى فركبتها ، فرفعتها تقرب بى حتى دنوت منهم وعثرت فى فرسى ، فخررت عنها ، فقمت عنها ، فأهويت بيدى إلى كنانتى فاستخرجت منها الأزلام : فاستقسمت بها : أضرهم أم لا ؟ فيخرج الذى أكره ، فركبت وعصيت الأزلام ، فقربت بى ، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، ساخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين ، فخررت عنها ، ثم زجرتها فنهضت ، فلم تكد تخرج يديها ، فلما استوت قائمة إذ لاثر يد بها غبار ساطع فى السماء مثل الدخان ، فاستقسمت بالأزلام . فخرج الذى أكره ، فناديتهم بالأمان فوقفوا ، فركبت فرسى حتى جئتهم ، ووقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر تمام الحديث .

وفى الصحيحين عن جابر قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزاة قبل نجد ، فأدركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القائلة ، فى واد كثير الفضاء ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة ، فعلق سيفه بغصن من أغصانها ، وتفرق الناس فى الوادى يستظلون بالشجر .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن رجلاً أتانى ، وأنا نائم ، فأخذ السيف ، فاستيقظت وهو قائم على رأسى ، والسيف صلتا فى يده . فقال : من يمنعك منى ، قلت : الله ، فشام السيف ، فها هو ذا جالس » ثم لم يعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ملك قومه ، فانصرف حين عفا عنه . فقال : لا أكون فى قوم هم حرب لك .

وفى صحيح الحاكم عن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق قال : كان فلان يجلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا تكلم النبى صلى الله عليه وسلم اختلج بوجهه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كن كذلك ، فلم يزل يختلج حتى مات » .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : كان نصرانى فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران ، وكان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم فعاد نصرانياً ، فكان يقول مايدرى محمد إلا ما كتبت له .

فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اجعله آية » فأماته الله ، فأصبح وقد لفظته الأرض ، فقالوا : هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه لحفروا له فأعمقوا ما استطاعوا ، فأصبح وقد لفظته الأرض فقالوا : مثل الأول ، لحفروا له وأعمقوا ، فلفظته الثالثة ، فعلموا أنه ليس من فعل الناس فتركوه منبوذا .

وروى الإمام أحمد من حديث محمد بن إسحاق قال : حدثنى يحيى بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : قلت له : ما أكثر مارأيت قريشاً أصابت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهر من عداوته ؟ قال : حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما فى الحجر ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ما رأينا مثل ماصبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، قد سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وفرق جماعاتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، أو كما قالوا .

فبينما هم فى ذلك ، إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فلما أن مر بهم ، غمزوه ببعض مايقول قال : فعرفت ذلك فى وجهه ثم مضى ، فلما مر الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك فى وجهه ، ثم مضى فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فقال : « تسمعون يامعشر قريش ، أما والذى نفس محمد بيده ، لقد جئتكم بالذبح » فأخذت القوم كلمته حتى مامنهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ، ليرفأه بأحسن مايجد من القول ، حتى إنه ليقول : « انصرف انصرف يا أبا القاسم انصرف راشداً ، فوالله ما كنت جهولا فانصرف رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان من الغد ، اجتمعوا فى الحجر وأنا معهم فقال بعضهم لبعض : ذكرتم مابلغ منكم وما بلغكم ، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه .

فبينما هم فى ذلك . طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون له : أنت الذى تقول كذا وكذا ، لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهتهم ودينهم ، قال : فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم ، أنا الذى أقول ذلك » قال فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه ، وقام أبو بكر الصديق دونه يقول وهو يبكى ، : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ ثم انصرفوا عنه .

وذكر البخارى بعد حديث عروة عن عبد الله بن عمرو قال : وقال عبدة عن هشام عن أبيه ، قيل لعمرو بن العاص .

وروى سعيد بن جبير عن ابن‌عباس فى قوله تعالى: ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾ قال : المستهزئون « الوليد بن المغيرة » و « الأسود بن عبد يغوث الزهرى » و « الأسود بن عبد المطلب » أبو زمعة من بنى أسد بن عبد العزى و « الحارث ابن عيطال السهمى » و « العاص بن وائل » فأومى جبريل إلى أكحل الوليد ابن المغيرة ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ماصنعت ؟ قال: كفيته ، وأومى إلى الأسود بن عبد المطلب إلى عينيه ، فقال : ما صنعت ؟ فقال كفيته ، وأومى إلى رأس الأسود بن عبد يغوث فقال : ماصنعت ؟ قال : كفيته ، وأومى إلى الحارث السهمى إلى بطنه ، فقال : ما صنعت ؟ قال : كفيته ، وأومى إلى إخمص العاص ابن وائل ، فقال : ماصنعت ؟ قال : كفيته .

فأما الوليد فمر برجل من خذاعة وهو يريش نبله فأصاب أكحله فقطعها .
وأما الأسود بن عبد المطلب ، فعمى فمنهم من يقول : عمى هكذا ، ومنهم من يقول : نزل تحت سمرة فجعل يقول : يابنى ألا تدفعون عنى ؟ ويقولون : مانرى

شيئاً فجعل يقول : هلكت ها هو ذا أطعن فى عينى بالشوك فجعلوا يقولون : ماترى شيئاً فلم يزل كذلك حتى عميت عيناه وأما الأسود فخرج فى رأسه قروح فمات منها . وأما الحارث بن عيطل فأخذه الماء الأصفر فى بطنه حتى خرج خرؤه من فيه فمات . وأما العاص بن وائل فركب إلى الطائف على حمار ، فربض به فى شبرقة يعنى شوكة ، فدخلت فى إخمص قدمه فمات وقيل : دخلت فى رأسه شبرقة فمات ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره ثنا يونس بن حبيب ، ثنا أبو داود ، ثنا أبو عوانة ، ثنا أبو بشر ، عن سعيد وروى بإسناده عن الربيع بن أنس ، قال: أراد صاحب اليمن أن يأوى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأتاه الوليد فزعم أن محمداً ساحر ، وأتاه العاص بن وائل فأخبره أن محمداً تعلم أساطير الأولين ، وأتاه آخر فزعم أنه كاهن وآخر أنه شاعر ، وآخر زعم أنه مجنون ، فأهلكهم الله كل منهم أصابه عذاب سوى عذاب صاحبه وذكر تفصيل عذابهم .

وروى مثله عن عكرمة . وقال محمد بن إسحاق ثنا يزيد بن رومان عن عكرمة وغيره من العلماء ، أن جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهم يطوفون بالبيت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جانبه فمر به الأسود بن عبد المطلب فرمى فى وجهه بورقة خضراء فعمى ، ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى ، فمات منها . ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى جرح بأسفل كعبه كان أصابه لما مر برجل يريش نبله فخدش رجله وليس بشىء فانتقض فمات . ومر به العاص بن وائل فأشار إلى إخمص قدمه فذكر مثل ماتقدم من رواية ابن عباس ورواه أبو زرعة من طرق كثيرة عن جماعة من التابعين ومن المشهور عند أصحاب السير وغيرهم دعوته على عتيبة بن أبى لهب ، وكان أبو لهب لما عادى النبى صلى الله عليه وسلم أمر ابنيه أن يطلقا ابنتى النبى صلى الله عليه وسلم ، رقية وأم كلثوم قبل الدخول ، وقال عتيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: كفرت بدينك

وفارقت ابنتك لاتحبينى ولا أحبيك ، ثم تسلط عليه بالأذى وشق قيصه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ، فخرج فى نفر من قريش ، حتى نزلوا فى مكان من الشام يقال له الزرقاء ليلا فأطاف بهم الأسد تلك الليلة ، فجعل عتيبة يقول : ويل أخى هو والله آكلى كما دعا محمد علىّ ، قتلنى وهو بمكة وأنا بالشام فعدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه ، وفى رواية هشام بن عروة عن أبيه قال : لما طاف الأسد بهم تلك الليلة انصرف عنهم قاموا وجعلوا عتيبة فى وسطهم فأقبل الأسد يتخطاهم حتى أخذ برأس عتيبة فقدغه .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جاوس وقد نحرت جزور بالأمس ، فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا جزور بنى فلان فيأخذه فيضعه فى كتفى محمد إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم فأخذه ، فلما سجد النبى صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه ، قال : فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر لو كانت لى منعة طرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والنبى صلى الله عليه وسلم ساجد لا يرفع رأسه حتى انطلق إنسان إلى فاطمة فجاءت وهى جويرية فطرحته عنه ثم أقبلت عليهم تسبهم ، فلما قضى النبى صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم ، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً ثم قال: «اللهم عليك بقريش» ثلاث مرات ، فلما سمعوا صوته ، ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته ، ثم قال: «اللهم عليك بأبى جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة ابن أبى معيط» ، وذكر السابع لم أحفظه فوالذى بعث محمداً بالحق ، لقد رأيت الذى سمى صرعى يوم بدر ، ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر .

وعنه قال استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، القبلة ودعى على ستة نفر

فذكره ، وفى رواية غير أن أمية بن خلف ، كان رجلا ضخماً فقطعت أوصاله ، فلم يلق فى البئر ، وقال غيرتهم الشمس ، وكان يوما حارا .

ويدخل فى هذا الباب مالم يزل الناس يروونه ويسمعونه من انتقام الله ممن يسبه ويذمه ويذم دينه بأنواع من العقوبات ، وفى ذلك من القصص الكثيرة ، ما يضيق هذا الموضع عن بسطه وقد رأينا وسمعنا من ذلك ما يطول وصفه من انتقام الله ممن يؤذيه بأنواع من العقوبات العجيبة ، التى تبين كلاءة الله لعرضه وقيامه بنصره ، وتعظيمه لقدره ، ورفعه لذكره ، وما من طائفة من الناس إلا وعندهم من هذا الباب ما فيه عبرة لأولى الألباب ، ومن المعروف المشهور المجرب عند عساكر المسلمين بالشام ، إذا حاصروا بعض حصون أهل الكتاب أنه يتعسر عليهم فتح الحصن ، ويطول الحصار إلى أن يسب العدو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحينئذ يستبشر المسلمون بفتح الحصن وانتقام الله من العدو فإنه يكون ذلك قريباً كما قد جربه المسلمون غير مرة تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ .

ولما مزق كسرى كتابه مزق الله ملك الأكاسرة كل ممزق ، ولما أكرم هرقل والمقوقس كتابه بقى لهم ملكهم .

النوع الثامن : فى إجابة دعوته ، وإجابة الدعاء منه ماتكون إجابته معتادة لكثير من عباد الله كالإغناء والعافية ونحو ذلك .

ومنه ما يكون المدعو به من خوارق العادات كتكثير الطعام والشراب كثرة خارجة عن العادة ، وإطعام النخل فى العام مرتين ، مع أن العادة فى مثله مرة ، ورد بصر الذى عمى ، ونحو ذلك مما يأتى وما تقدم من أدعيته .

ومعلوم أن من عوده الله إجابة دعائه ، لا يكون إلا مع صلاحه ودينه ، ومن ادعى النبوة لا يكون إلا من أبر الناس إن كان صادقا ، أو من أفجرهم إن كان كاذباً ، وإذا عوده الله إجابة دعائه لم يكن فاجراً بل برا ، وإذا لم يكن

مع دعوى النبوة إلا برا تعين أن يكون نبياً صادقاً ، فإن هذا يمتنع أن يتعمد الكذب ، ويمتنع أن يكون ضالا يظن أنه نبي ، وأن الذى يأتيه ملك ، ويكون ضالا فى ذلك ، والذى يأتيه الشيطان ، فإن هذا حال من هو جاهل بحال نفسه ، وحال من يأتيه ، ومثل هذا لا يكون أضل منه ، ولا أجهل منه ، لأن الله تعالى جعل بين الملائكة والشياطين ، وبين الأنبياء الصادقين ، وبين المتشبهين بهم من الكذابين من الفرق ما لا يحصيه غيره ، بل جعل بين الأبرار والفجار من الفروق أعظم مما بين الليل والنهار ، ولأن مايأتى به الأنبياء من الأخبار والأوامر مضادة من كل وجه لما يأتى به الشيطان ، ومن استقرأ أحول الرسل وأتباعهم وحال الكهان والسحرة ، تبين له ما يحقق ذلك .

والشيطان الذى يقول لمن ليس بنبي إنك نبي صادق ، والله أرسلني إليك ، يكون من أعظم الناس كذباً ، والكذب يستلزم الفجور ، فلا بد أن يأمره بما ليس صدقا بل كذبا ، كما هو الواقع ممن تضله الشياطين من جهلة العباد ، وممن يزين له أنه نبي أو أنه المهدى أو خاتم الأولياء ، فكل هؤلاء لا بد أن تأمره الشياطين بإثم ، ولا بد أن يكذب فى بعض ما تخبره به ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ قلْ هلْ أنبئكم عَلَى منْ تنزَّل الشياطينُ تنزَّلُ عَلَى كلِّ أفاكٍ أثيم ﴾ .

وحينئذ : فمثل هذا لا يكون مع دعوى النبوة من الأبرار الذين عودهم الله إجابة دعائهم إجابة خارجة عن العادات ، بل لا يكون مع دعوى النبوة إلا من الأفاكين الفجار ، وإذا كان صادقاً فى دعوى النبوة عالماً بأنه صادق ثبت أنه نبي .

والأنبياء معصومون من الإقرار على الخطأ فيما يبلغونه عن الله باتفاق الناس ، وحينئذ : فكل مايبلغه عن الله فهو حق ، وهو المطلوب ، ومن كان يأتيه صادق وكاذب ، مثل ابن صياد ومثل كثير من العباد الذين لهم إلهام من الملك ، ووسواس من الشيطان ، فمثل هذا إذا أخبره الشيطان بأنه نبي ، ويقول أنا أرسلني الله

فلا بد أن يتبين كذبه ، ولو ببعض الوجوه ، مثل : أن يخبره بكذب فإن مثل هذا الشيطان الذى قال له إنه نبى لا بد أن يكذب فيما يخبره به ، ومثل إخبار الصادق له بأن هذا كاذب ، فإذا أتاه الشيطان بالكذب لا بد أن يخبره الصادق الذى يأتيه بما يخالف ذلك ، بخلاف الإخبار بأمور جزئية إذ إخباره بأنه نبى صادق مع أنه ليس كذلك ، يهلكه هلاكا عظيما ، ويفسد على الصادق جميع ما يأتيه به ، لأن ذلك يستلزم أن يصدق ذلك الكاذب ، فى كل ما يخبره به ، إذ قد اعتقد أنه نبى ، وحينئذ فلا يكون عنده كاذبا ، ولا يعرف أنه كاذب فلا يكون مثل ابن صياد ونحوه ، ممن يعرف أنه يأتيه صادق وكاذب ، بل أضل من هؤلاء من يظن أن كل ما يأتيه فهو صادق ، ولهذا كل من كان يأتيه إخبار ملكى صادق ، وأخبار شيطانى كاذب ، فلا بد أن يعرف أنه يأتيه كاذب ، لأنه تبين له الكذب فيما يخبره به الشيطان الكاذب ، كما هو الواقع ، ولهذا يوجد الكهان يعرفون كذب من يخبرهم كثيراً ، وكذلك العباد الذين لهم خطابات ومكاشفات ، بعضها شيطانى ، وبعضها ملكى ، يتبين له الكذب فيما يأتيهم به الشيطان ، كما هو الواقع فلا يوجد شيخ عابد له حال شيطانى إلا ولا بد أن يخبره بكذب يظهر له أنه كذب ، وحينئذ : فإذا صدق هذا الكاذب فى إخباره النبوة كان مصدقا للكاذب ، ولأن الصادق الذى يأتيه مخبراً له بالصدق ، ناصحاً له ، لابد أن يبين له ذلك فلا يصر على اعتقاده أن من يأتيه صادق ، وهو فى نفس الأمر كاذب ، ولا يعلم أنه كاذب ، إلا من هو أفاك أثيم ، والله تعالى يقول : ﴿ هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين تنزّلُ عَلَى كلِّ أفاك أثيم ﴾ .

فينزلها على الأفاك الأثيم ، وأما نزول الشيطان مرة أو مرتين ، فقد يكون على من ليس بأفاك أثيم ، فإن من لم يكن مدعياً للنبوة ، فيمتنع أن يقره الصادق الذى يأتيه على ذلك ، بل لابد أن يبين له هذا إن جوز ذلك .

فإن الناس تنازعوا : هل يجوز أن يلقى الشيطان على لسان النبي ما ينسخه الله ويمحوه أو لا يجوز ذلك ؟ وعلى كل حال يمتنع أن يقر على خطأ .

والمقصود هنا ذكر بعض أدعية النبي صلى الله عليه وسلم ا التي شوهد إجابتها ، وقد تقدم ذكر بعض أدعيته ، مثل دعائه على الملإ من قريش ، فقتلوا «يوم بدر» وألقوا في القليب . ومثل: دعائه على عتيبة بن أبي لهب . ومثل دعائه على الذي كذب عليه بأن يجعله آية ومثل دعائه لما قل الزاد وجمعوه على نطع فكثره الله ببركة دعوته حتى كفى الجيش العظيم في « غزوة تبوك » ، ومثل دعائه في « غزوة الخندق » فكفى الطعام ، وهو صاع من شعير لألف نفر ، وكذلك دعاؤه لما نزحت بئر « الحديبية » فكثر ماؤها ، حتى كفى الركب ، وهم ألف وخمسمائة وركابهم .

وقد تقدم دعاؤه للذي ذهب بصره فأبصر ، ودعاؤه في الاستسقاء فما رد يديه إلا والسماء قد أمطرت ، ودعاؤه في الاستصحا(١) وإشارته إلى السحاب فقطع من ساعته ، ودعوته على « سراقة بن جعشم » لما تبعهم في الهجرة ، فغاصت فرسه في الأرض ، ودعاؤه « يوم بدر » و « يوم حنين » وقال الله له يوم بدر : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ وأمثال ذلك .

وفي الصحيحين عن جابر قال لما نزل ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم : أعوذ بوجهك ، ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿ أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ قال : هاتان أهون أو أيسر .

وفي الصحيحين : عنه صلى الله عليه وسلم قال : « سألت ربي ثلاثاً فأعطاني

---

(١) الاستصحا : طلب الصحو . ومعنى ذلك انكشاف الغيم ، وإقلاع السماء عن المطر ، وكان ذلك بعد الاستسقاء ، لما عاد الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وشكا إليه كثرة المطر وما فعله بهم من أفاعيل .

اثنتين ، ومنعني واحدة . سألته أن لا يهلك أمتي بسنة عامة فأعطانيها ، وسألته أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم ، فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها فلن يزال الهرج[1] إلى يوم القيامة » . وفي صحيح مسلم من حديث سلمة بن الأكوع قال جعل عمي يرجز ويقول :

تَاللهِ لولا اللهُ ما اهتدَينا ولا تصدَّقْنا ولا صَلَّيْنا

ونحن من فضلك ما استغنينا فثبت الأقدام إن لاقينا

* وانزلنْ سكينةً علينا *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من هذا ؟» قالوا عامر ، قال : « غفر لك ربك . » قال : وما استغفر رسول الله صلى الله عليه وسلم لإنسان يخصه الا استشهد . قال : فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل له يانبي الله لولا متعتنا بعامر ؟ . قال فلما قدمنا خيبر خرج ملكهم « مرحب » يخط بسيفه وهو يقول:

قد علمت خيبرُ أنى مرحبُ * شاكى السلاح بطلٌ مجربُ

* اذا الحروبُ اقبلت تلهب *

قال وبرز له عمي عامر فقال :

قد علمت خيبر أنى عامر * شاكى السلاح بطل مغامر

قال : فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف « مرحب » في ترس عامر ، وذهب عامر يسل سيفه ، فرجع سيفه على نفسه ، فقطع اكحله ، وكانت فيها نفسه . قال: سلمة ، فخرجت في نفر من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، يقولون : بطل عمل عامر ، قتل نفسه . قال : فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أبكى فقلت : يارسول الله بطل عمل عامر . قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

---

(١) الهرج : القتل .

« من قال ذلك ؟ » قلت ناس من أصحابك . قال : كذب من قال ذلك ، بل له أجره مرتين »

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : قالت أم سليم : يارسول الله خادمك أنس ادع الله له . فقال: « اللهم أكثر ماله وولده و بارك له فيما أعطيته »

وروى البخارى قال دخل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على أم سليم فأتته بتمر وسمن . فقال أعيدوا سمنكم فى سقائه ، وتمركم فى وعائه[1] ، ثم قام إلى ناحية البيت فصلى غير مكتوبة ، فدعى لأم سليم وأهل بيتها . فقالت أم سليم يارسول الله إن لى خويصة فقال : « ماهى ؟ » قالت خادمك أنس ، قال فما ترك آخرة ولا دنيا الا دعى به « اللهم ارزقه مالا وولدا وبارك له فيه »

فإنى لمن اكثر الأنصار مالا ، وحدثتنى ابنتى أمينة أنه دفن لصلبى إلى مقدم الحجاج البصرة بضع وعشرون ومائة ، وفى رواية « لمسلم » دعا لى بثلاث دعوات قد رأيت منها اثنتين وأنا ارجو الثالثة فى الآخرة .

وفى الترمذى وحسنه عن أبى خلدة قال : قلت لأبى العالية سمع أنس من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . قال خدمه عشر سنين ودعى له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان له بستان يحمل فى السنة الفاكهة مرتين ، كان فيها ريحان يجىء منه ريح المسك .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال كنت أدعو أمى إلى الإسلام وهى مشركة . فدعوتها يوما فأسمعتنى فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكره ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكى ، فقلت : يارسول الله إنى كنت أدعو أمى إلى الإسلام وتأبى على فدعوتها اليوم فأسمعتنى فيك ما أكره ، فادع الله أن يهدى أم أبى هريرة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اهد أم

---

(١) فى رواية : (فإنا صائمون) . وهذا هو الذى دعا النبى إلى رفض (طعام أم سليم) .

أبي هريرة» . فخرجت مستبشرا بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصرت إلى الباب فإذا هو مجاف فسمعت أمي خشف قدمي ، فقالت: مكانك يا أبا هريرة ، وسمعت خضخضة الماء فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ، ففتحت الباب فقالت : يا أبا هريرة ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فأتيته وأنا أبكي من الفرح ، فقلت : يارسول الله أبشر فقد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة ، فحمد الله وقال خيراً ، فقلت يارسول الله : أدع الله أن يحببني وأمي إلى عباده المؤمنين ، ويحببهم إلينا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم حبب عبدك هذا يعني أبا هريرة وأمه إلى عبادك المؤمنين وحبب إليهما المؤمنين » فما خلق الله مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني .

وفي الصحيحين عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى على عبد الرحمن بن عوف أثر صفرة فقال : « ماهذا ؟ » قال يارسول الله إني تزوجت امرأة . قال : « كم سقت إليها ؟ » قال : وزن نواة من ذهب . قال : فبارك الله لك أولم[1] ولو بشاة . وفي الصحيحين : أنه لما قدم آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه و بين سعد بن الربيع الأنصاري فعرض عليه سعد بن الربيع أن يناصفه أهله وماله ، فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلني على السوق فما انقلب إلا بسمن وأقط ، ثم تابع الغد ، وذكر الحديث ، فظهرت بركة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغ من مال عبد الرحمن ، ماقاله الزهري أنه تصدق بأربعمائة ألف دينار ، وحمل على خمسمائة فرس ، في سبيل الله وخمسمائة بعير في سبيل الله . قال وكان عامة ماله التجارة ، وقال محمد بن سيرين اقتسم نساء عبد الرحمن بن عوف ثمنهن فكان ثلاثمائة وعشرين ألفاً .

وقال الزهري أوصى عبد الرحمن ، لمن شهد بدرا فوجدوا مائة لكل رجل منهم أربعمائة دينار .

---

(١) أولم : يعني : اصنع وليمة .

وقال عبد الله بن جعفر حدثتنى أم بكر بنت المسور أن عبدَ الرحمن باع أرضاً بأر بعين ألف دينار ، فقسمها فى فقراء بنى زهرة ، وفى المهاجرين وأمهات المؤمنين . وقال محمد بن عمرو بن أبى سلمة أن عبد الرحمن أوصى لأمهات المؤمنين بحديقة قومت بأر بعمائة ألف ، وفى الترمذى وصححه ورواه ابن حبان فى صحيحه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام » وكان عمر ابن الخطاب أحبهما إلى الله ؛ فأسلم عمر ، وروى أن الدعوة كانت فى يوم الأربعاء فأسلم يوم الخميس ، وأعز الله به الإسلام قال عبد الله بن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر . رواه البخارى ، وظهر من عز الإسلام فى إمارته شرقاً وغرباً ، وفتح الشام والعراق ومصر ، وكسر عساكر كسرى وقيصر ، ما تحقق به إجابة الدعوة .

وفى الصحيحين أن ابن عباس وضع للنبى صلى الله عليه وسلم لما أتى الخلاء وضوءاً فقال لما خرج : « من وضع هذا ؟ » فقيل : ابن عباس فقال : « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل » وفى رواية قال : ضمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صدره وقال : « اللهم علمه الكتاب » وفى رواية « الحكمة » وظهرت إجابة دعوته حتى كان يسمى « البحر » .

وقال فيه ابن مسعود لو أدرك ابن عباس أسناننا لما عشره منا أحد ، وكان عمر يقدمه ويدخله مع أكابر الصحابة ، وعلم ابن عباس مشهور فى الأمة .

وفى الصحيحين عن جابر قال : كنت أسير على جمل قد أعيا وأردت أن أسيبه قال : فلحقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فضربه ، ودعا له ، فسار سيرا لم يسر مثله ، وفى رواية فقال لى : « ما لبعيرك ؟ » فقلت : عليل قال : فتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حيزه ، فدعى له فما زال يسير بين يدى الإبل قدامها فقال : برى بعيرك قلت : بخير قد أصابته بركتك . قال فبعنيه وذكر الحديث .

وفى الترمذى وغيره ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم استجب لسعد إذا دعاك » وفى لفظ : « اللهم أجب دعوته ، وسدد رميته » فكان سعد لا يرمى إلا يصيب ، ولا يدعو إلا أجيب .

وروى الحاكم فى صحيحه عن على رضى الله عنه قال : مرضت فعادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول : اللهم إن كان أجلى قد حضر فأرحنى ، وإن كان متأخراً فارفعنى ، وإن كان بلاء فصبرنى ، فقال : « اللهم اشفه ، اللهم عافه » ثم قال « قم » فقمت فما عاد إلىّ ذلك الوجع بعدُ .

وفى الصحيحين عن أم خالد قالت : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة ، فقال : « من ترون نكسوه هذه الخميصة ؟ » فسكت القوم فقال : « ائتونى بأم خالد » فأتى بى رسول الله صلى الله عليه وسلم فألبسنيها فقال : « ابلى واخلقى » مرتين فجعل ينظر إلى علم الخميصة ويشير بيده إلىّ ويقول : « يا أم خالد هذا سنا » . والسنا بلسان الحبشة « الحسن » ، فبقيت حتى ذكت . وعن أبى يزيد عمرو بن أخطب الأنصارى قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أدن منى » فمسح بيده على رأسى ولحيتى ثم قال : « اللهم جمّله وأدم جماله » . قال الراوى عنه فبلغ بضعاً وثمانين سنة وما فى لحيته بياض إلا نزر يسير ، ولقد كان منبسط الوجه ولم يتقبض وجهه حتى مات ، رواه الإمام أحمد، وقال البيهقى: إسناده صحيح ورواه الترمذى وقال: مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على وجهى ودعا لى . قال عروة : إنه عاش مائة وعشرين سنة ، وليس فى رأسه إلا شعرات بيض ، وقال حديث حسن .

وقال البخارى فى تاريخه : ثنا يعقوب بن إسحاق بن حنظلة بن حنيفة بن حزيم قال : قال حزيم : يارسول الله ، إنى رجل ذو سن وهذا أصغر بنىّ فسمت عليه ، قال : « تعال يا غلام » فأخذ بيدى ومسح برأسى وقال : « بارك الله فيك ـ أو بورك فيك » فرأيت حنظلة يؤتى بالإنسان الوارم فيمسح بيده ويقول :

بسم الله ، فيذهب الورم . وفى رواية : والشاة والبعير ، و يذكر عن أبى سفيان ، واسمه مدلوك أنه ذهب به إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم فدعا له النبى صلى الله عليه وسلم ، ومسح رأسه بيده ودعا له بالبركة ، فكان مقدم رأسه موضع يد النبى صلى الله عليه وسلم أسود وسائره أبيض ، ذكره أيضاً البخارى فى تاريخه .

وروى أحمد فى مسنده بإسناده عن أبى العلى قال : كنت عند قتادة بن ملحان فى مرضه الذى مات فيه فمر رجل فى مؤخر الدار ، فرأيته فى وجه قتادة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مسح وجهه قال : وكنت قبل ما رأيته إلا ورأيته كان على وجهه الدهان .

وفى صحيح البخارى أن عبد الله بن هشام كان يخرج إلى السوق فيتلقاه ابن الزبير وابن عمر فيقولان له أشركنا فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعى لك بالبركة ، فيشركهم ، فربما أصاب الراحلة كما هى فيبعث بها إلى المنزل .

وفى مسند الإمام أحمد عن عروة بن أبى قال عرض للنبى صلى الله عليه وسلم جلب فأعطانى ديناراً وقال أى عروة ائت الجلب فاشتر شاة فأتيت الجلب فساومت صاحبه فاشتريت منه شاتين بدينار ، فجئت بهما أسوقهما فلقينى رجل فساومنى فابتعته شاة بدينار ، فجئت بالدينار وجئت بالشاة فقلت يارسول الله ، هذا دينارکم وهذه شاتكم ، قال : «وصنعت كيف ؟» فحدثته الحديث فقال : « اللهم بارك له فى صفقة يمينه » . فلقد رأيتنى أقف بكناسة الكوفة فأربح أربعين ألفاً قبل أن أصل إلى أهلى رواه الإمام أحمد وفى لفظ آخر . قال الراوى عنه : فكان لو اشترى التراب لربح فيه . رواه البخارى عن أهل الدار عنه .

وفى صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع أن رجلاً أكل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بشماله ، فقال له : « كل بيمينك » . قال لا أستطيع . قال : « لا استطعت ، ما منعه إلا الكبر » قال : فما رفعها إلى فيه .

وروى مالك فى موطئه عن زيد بن أسلم عن جابر عن عبد الله السلمى قال :

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بنى أنمار . قال جابر : فبينما أنا نازل تحت شجرة إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : هلم يا رسول الله إلى الظل ، قال : فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال جابر : فقمت إلى غرارة لنا فالتمست فيها فوجدت فيها جرد قثا فكسرته ثم قربته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « من أين لكم هذا ؟ » قلنا : خرجنا به من المدينة ، قال : وعندنا صاحب لنا نجهزه يذهب يرعى ظهرنا ، قال : فجهزته ، ثم أدبر ، يذهب إلى الظهر وعليه ثوبان له قد خلقا[1] فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أما له ثوبان غير هذين ؟ » فقلت : بلى يا رسول الله ، ثوبان فى العيبة كسوته إياهما . قال : « أدعه فليلبسهما » ثم ولى يذهب فدعوته فلبسهما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماله ضرب الله عنقه أليس هذا خير له ؟ » فسمعه الرجل فقال يا رسول الله فى سبيل الله . فقال : « فى سبيل الله » فقتل الرجل فى سبيل الله ، ورواه أبو زرعة عن سعيد بن سليمان عن الليث عن هشام ابن سعيد عن زيد بن أسلم عن عطاء عن جابر .

فصـــــل

فى الطرق التى يبين بها أن هذه الأخبار تفيد العلم .

وهذه الأخبار : منها ما هو فى القرآن . ومنها ، ما هو متواتر يعلمه العامة والخاصة كنبع الماء من أصابعه ، وتكثير الطعام ، وحنين الجذع ، ونحو ذلك فإن كلا من ذلك تواترت به الأخبار ، واستفاضت ونقلته الأمة جيلا بعد جيل ، وخلفاً عن سلف ، فما من طبقة من طبقات الأمة إلا وهذه الآيات منقولة مشهورة مستفيضة فيها ، ينقلها أكثر ممن ينقل كثيراً من القرآن ، وقد نقلها وسمعها من الأمة أكثر ممن سمع ونقل كثيراً من آيات القرآن ، وأكثر ممن

---

(١) يقال ثوب خلق ، إذا كان قديماً ممزقاً .

سمع ونقل أنه كان يسجد فى الصلاة سجدتى السهو ، وممن سمع ونقل نصب الزكاة وفرائضها . بل مواقيت الصلاة وأعدادها إنما شاع نقلها للعمل الدائم بها .

وأما هذه الآيات فنقلها أكثر مل نقل مواقيت الصلاة من جهة الأخبار المعينة ، وذلك أن آيات الرسول كان كثيراً منها يكون بمشهد من الخلق عظيم فيشاهدون تلك الآيات ، كما شاهد أهل الحديبية وهم ألف وخمسمائة نبع الماء من بين أصابعه ، وظهور الماء الكثير من بئر الحديبية لما نزحوها ، ولم يتركوا فيها قطرة ، فكثر حتى روى العسكر ، وكما شاهد العسكر فى « غزوة ذات الرقاع » الماء اليسير لما صبه جابر فى الجفنة وامتلأت ، وملأ منها جميع العسكر ، وكما شاهد الجيش فى رجوعهم من « غزوة خيبر » المزادتين مع المرأة ، وقد ملئوا كل وعاء معهم ، وشربوا وهى ملأى كما هى ، وكما شاهد أهل خيبر وهم ألف وخمسمائة الطعام الذى كان كربضة الشاة وأشبع الجيش كلهم ، وكما شاهد الجيش العظيم وهم نحو ثلاثين ألفاً فى تبوك ، العين لما كانت قليلة الماء فكثر ماؤها ، حتى كفاهم ، وشاهدوا الطعام الذى جمعوه على نطع ، فأخذوا منه حتى كفاهم وكما شاهد أهل الخندق ، وهم أكثر من ألف كثرة الطعام فى بيت جابر ، بعد أن كان صاعاً من شعير ، وعناقا ، فأكلوا كلهم بعد الجوع ، حتى شبعوا وفضلت فضلة .

وكما شاهد الثمانون نفساً كثرة الطعام كما أكلوا فى بيت أبى طلحة . وكما شاهد الثلاثمائة كثرة الماء لما توضئوا من قدح والماء ينبع من بين أصابعه حتى كفاهم الوضوء ، وكذلك وليمة زينب كانت ثلاثمائة فأكلوا من طعام فى تور من حجارة ، وهو باق فظن أنس أنه أزيد مما كان وكانوا يتداولون قصعة من غدوة إلى الليل ، يقوم عشرة ويقعد عشرة ، كما فى حديث سمرة بن جندب ، وأهل الصفة لما شربوا كلهم من اللبن القليل وكفاهم ، وفضل ، وكانوا ينقلون ذلك بينهم وهو مشهور ، ينقله بعض من شاهده إلى من غاب عنه ، وكانه

استفاضة آياته وشهرتها وتواترها فى الأمة ، أعظم من تواتر سجود السهو فى الصلاة ، فإن هذا إنما كان مرات قليلة ، ولم يحضره إلا المصلون خلفه لتلك الصلاة وكذلك نقلهم لنصب الزكاة وفرائضها فإن هذا إنما سمعه منه طائفة قليلة ، ونقلوه .

وكذلك حكمه بالشفعة فيما لا يقسم ، وقضاؤه بأن دية الخطأ على العاقلة ، وقضاؤه بأن الولد للفراش ، وللعاهر الحجر ، ونهيه عن نكاح الشغار ، وتحريمه لطلاق الحائض ، وطلاق الموطوءة قبل أن يتبين حملها ، وأن المعتقة تحت عبد يثبت لها الخيار ، وتوريث الجدة السدس ، ونهيه أن تنكح المرأة على عمتها وخالتها ، وقوله فيما سقت السماء العشر ، وما سقى بالدوالى والنواضح نصف العشر ، وأمثال ذلك .

وإنما سمعها طائفة من الأمة هم أقل بكثير ممن شاهد آياته ، ثم إن الأمة متفقة على نقل ذلك ، وهذه الأحكام متواترة عنه معلومة بالاضطرار من دينه .

فإذا كان مثل هذه الأمور تواتر فى الأمة ، واتفقت على نقله ، فكيف بما كان أشهر وأظهر ، عند من عاينه ، وكان علم الذين رأوه به ، أظهر من علمهم بهذه الأحكام وقد نقلوا ذلك إلى من غاب عنهم ، فإنه قطعا يجب أن يكون تواتر هذه الآيات فى الأمة أعظم وأظهر ، ولهذا لا يكاد يوجد مسلم إلا وقد عرف كثيراً من هذه الآيات ، وسمعها ونقلها ، إلى غيره ، بخلاف كثير من الأحكام المتواترة عنه ، المتفق على نقلها عند العلماء ، فإن كثيراً من الناس لا يعرفها ، ولا سمعها ، وإذا قال القائل: هذه مما تتوفر الهمم والدواعى على نقلها ، فلو كانت موجودة لتوفرت الهمم والدواعى على نقلها ، ولو كان كذلك لتواترت . قلنا : وكذلك هى ولله الحمد ، توفرت الهمم والدواعى على نقلها ، أكثر مما توفرت الهمم والدواعى على نقل أكثر آيات الأنبياء قبله ، وأكثر مما توفرت الهمم والدواعى على نقل الأخبار العجيبة من سير الملوك والخلفاء ، فإن من تدبر نقل هذه الآيات وجد شهرتها فى

كل زمان ، وظهور الأخبار بها أعظم من شهرة ما ينقل من آيات الأنبياء ، وسير الملوك والدول التي جرت العادة بتوفر الهمم والدواعي على نقلها ، فإن مثل هذا يجب في كونه متواتراً أن يتواتر عند كل أحد ، من الناس ، فإن أكثر ما تواتر عند كل أمة من أحوال متقدميها ، قد لا يسمعه كثير من الأمم ، من غيرهم فضلا عن تواتره عندهم ، حتى إن كثيراً من الأمم الذين لا يعرفون الأنبياء قد لا يكونون سمعوا بأسماء الأنبياء ، ولا بأخبارهم فضلا عن تواترها عندهم ، وأكثر أتباع الأنبياء لم يتواتر عندهم من أخبار الملوك وسيرهم ، ما تواتر عند غيرهم ، حتى إن أكثر المسلمين ، لم يسمعوا بأسماء خلفاء بني أمية و بني العباس، وأسماء وزرائهم ونوابهم ، وقوادهم ، و بالحروب التي جرت بينهم ولا يعرفون الوقائع العظيمة من الحروب التي كانت بين المسلمين وأعدائهم ، مثل يوم أجنادين ، و يوم مرج الصفر ، ويوم فحل ، و يوم اليرموك ، ومثل يوم الحرة ، و يوم مرج راهط ، وفتنة ابن المهلب ، وفتنة ابن الأشعث ، والقرا مع الحجاج ، وحرب مصعب بن الزبير مع المختار بن أبي عبيد ، وفتنة المنصور مع محمد بن عبد الله بن حسن بن حسين بالمدينة ، ومع أخيه محمد بن إبراهيم بالبصرة، ومثل جسر أبي عبيدة ، و يوم القادسية ، بل وحر بهم مع أهل الردة مع أتباع طليحة الأسدي ، ووفد براحة ، ومثل حديقة الموت ، مع أتباع مسيلمة الكذاب ، ولا يعرفون أن المسلمين فتحوا قبرص ، ولا حاصروا القسطنطينية ، مرتين ، مرة في زمن معاوية ومرة في زمن بني مروان، وكذلك الفتن التي كانت بين المسلمين لا بل أكثر العامة لم يسمعوا بأبي مسلم صاحب الدعوة ، و بعبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، وما جرى لهما من الحروب مع عساكر مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، ولم يسمعوا أيضاً بدخول عبد الرحمن بن هشام إلى الأندلس وما جرى له فيها ، ولا بالفتنة التي بين ابني الرشيد ، الأمين والمأمون .

مع أن هذه الأمور هي متواترة عند أهل العلم بالسير ، وأخبار الناس

والتواريخ وظهور هذه الآيات التى هى دلائل النبوة وأعلامها ، مشهورة بين الأمة عامتها وخاصتها ، فى كل زمان أعظم من ظهور هذه الأخبار المتواترة ، فهى أحق أن تجعل متواترة من هذه ، ونقلة هذه الآيات من خاصة أهل العلم ، وكتب الحديث والتفسير والمغازى والسير ، وكتب الأصول والفقه التى توجد فيها هذه الأخبار أصح نقلا باتفاق أهل العقل والعلم من كتب التواريخ المرسلة ، فإن تلك كثير من أخبارها منقطع الإسناد ، فيها من الأكاذيب مالايحصيه إلا الله ، وإن كان أصل القصة قد يكون متواترا ، وهذه الآيات المشهورة فى الأمة كثير من أجناسها متواتر عند العامة ، وكثير من آحادها متواتر عند خاصة أهل العلم ، بل الفقهاء والمتكلمون أو أكثرهم لا يعرفون عدد مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم التى قاتل فيها أعداءه ، وهى وقائع مشهورة ، كل منها متواتر تواترا ظاهراً عند أهل العلم مثل يوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم الخندق ، وغزوة بنى المصطلق ، وغزوة خيبر وفتح مكة ، ويوم حنين ، وحصار الطائف .

فكثير من أهل العلم فضلا عن العامة ، وإن كانوا سمعوا بهذه الأسماء أو بعضها ، فلا يعرفون أيها كانت قبل الآخر ، ولا يعرفون بأى بقعة كانت تلك الغزاة بل ولا يعرفون من كان العدو فيها ، ولا كيف كانت ، بل أكثر العامة لا يميزون بين بدر وحنين ، بل يقول قائلهم يوم بدر وحنين ، ويظنون أن ذلك يوم واحد ، وأنها غزاة واحدة ، ولا يعرفون أنهما غزاتان ، بينهما نحو ست سنين ، كانت بدر فى السنة الثانية من الهجرة ، وكانت حنين فى السنة الثامنة بعد فتح مكة ، وأن بدرا مكان بين مكة والمدينة ، شامى مكة ، ويمانى المدينة ، وحنين واد قريب من الطائف ، شرق مكة ، وإنما قرن بينهما فى الاسم ، لأن الله أنزل فيها الملائكة وأيد بها نبيه والمؤمنين ، حتى غلبوا عدوهم ، مع قوة العدو فى بدر ، ومع هزيمة أكثر المسلمين أولا بحنين ، وامتن الله بذلك فى كتابه فى قوله : ﴿ ولقدْ نصركمُ الله ببدرٍ وأنتمْ أذلّةٌ فاتقوا اللهَ لعلكمْ تشكرونَ ﴾

وفى قوله : ﴿ ويوم حُنَيْنٍ إذْ أعجبتكمُ كثرتُكمْ فلَمْ تغنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكمُ الأرضُ بمَا رحبتْ ثمَّ وليتمْ مدبرينَ ثمَّ أنزلَ اللهُ سكينتهُ على رسولهِ وعلى المؤمنينَ وأنزلَ جنوداً لمْ تروْها ﴾ حتى بعض أكابر أئمة الفتيا المشهورين، قال له صاحبه لما أنكر عليه طلب علم السير . تسكت وإلا سألتك قدام الناس أيهما كانت قبل ، بدر أو أحد ، فإنى أعلم أنك لا تعلم ذلك ، مع أنه من المتواتر الذى لا يستريب فيه من له أدنى معرفة بالأخبار ، أن أحداً كانت بعد بدر ، وفى بدر انتصر المسلمون على الكفار ، ويوم أحد استظهر الكفار ، بل وكثير من علماء المسلمين الأكابر ، لا يعلمون ما هو متواتر عند أهل الكتاب ، بل وعند غيرهم من علماء المسلمين ، مثل خراب بيت المقدس مرتين ، ومجىء بخت نصر إلى بيت المقدس أولا ، والله سبحانه ذكر فى القرآن المرتين فقال: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ﴾ وكانت الأولى بعد سليمان ، وكانت الثانية بعد زكريا ويحيى والمسيح لما قتلوا يحيى بن زكريا ، الذى يسميه أهل الكتاب يوحنا المعمدان .

وكثير من المذكورين بالعلم يظن أن بخت نصر هو الذى قدم الشام لما قتل يحيى بن زكريا ، وهذا عند أهل العلم من أهل الكتاب ، وعند من له خبرة من علماء المسلمين : باطل ، والمتواتر أن بخت نصر هو الذى قدم فى المرة الأولى وكذلك كون شعيب النبى كان حمو موسى عليه السلام ، كما تقوله طائفة من الجهال ، والمتواتر عند أهل الكتاب ، وعند علماء المسلمين من الصحابة والتابعين،

وغيرهم، خلاف ذلك، وعند النصارى من أخبارهم وأخبار علمائهم وملوكهم، المتواترة مالا يعرفه المسلمون واليهود ، وعند المسلمين من أخبار علمائهم وملوكهم المتواترة مالا يعرفه أكثر الأمم ، بل عند كل طائفة من المسلمين ، من أخبار شيوخهم وأمرائهم و بلادهم المتواترة ، ما لم يسمع به غيرهم ، وليس هذا بمنزلة من ادعى خبرا لم يكن يعرف فى الذين شاهدوا تلك القضية ، كما لو ادعى مدع أن النبى صلى الله عليه وسلم حج بعد الهجرة أكثر من حجة ، وأنه كان يصوم شهر رمضان بمكة ، وأنه كان بمكة أذان ، أو أنه كان فى عساكره وعساكر خلفائه دبادب و بوقات ، أو أنه كان يؤذن للعيدين ، أو أنه كان يخطب للعيدين قبل الصلاة ، أو أنه كان يصلى بالمدينة أكثر من عيد[1] ، أو أنه كان يصلى فى السفر أربعا ، أو أنه صلى بمنى صلاة عيد النحر ، أو أنه نص على على بن أبى طالب رضى الله عنه ، أو غيره بالخلافة نصا ظاهرا مشهوراً ، ، أو أنه عزل أبا بكر عن الإمارة ، فى الحجة وولى عليا ، أو أنه صلى بهم فى مرض موته غير أبى بكر ، ونحو ذلك من الأخبار التى يعرف أنها كذب و باطل ، لتواتر نقيضها ، ولأنها لو كانت صحيحة لكانت مما تتوفر الهمم والدواعى على نقله واشتهاره ، ومع أنه لم يكن له ذكر فى الزمن المتقدم .

وكذلك ماينقله كثير من أهل الجهل مثل مايجعلونه من معجزات الرسول أو غيره ، ولا يوجد منقولا عند أهل العلم بأحواله ، بل يكذبون ناقله ، مثل قول كثير من العامة أن الغمام كان يظله دائما ، فهذا لايوجد فى شىء من كتب المسلمين المعروفة عند علمائهم ، ولا نقله عالم من علمائهم ، بل هو كذب عندهم ، و إن كان كثير من الناس ينقله ، و إنما نقل أن الغمامة أظلته لما كان صغيراً ، فقدم مع عمه إلى الشام تاجرا ورآه بحيرا الراهب ، ومع هذا فهذا لايجزم بصحته ، وكذلك

---

(١) يعنى : أن النبى لم يصل العيد فى مسجده بالمدينة ، إلا مرة واحدة — بسبب المطر — بخلاف سائر الأعياد . فقد كان يصليها بالجبانة خارج المدينة .

ماينقله بعضهم من أنه كان إذا وطىء أثر قدمه فى الحجر وفى الرمل لم يكن يؤثر فهذا لم ينقله أهل العلم بأحواله ، ولا واحد منهم بل هو كذب عليه .

وكذلك ماينقله طائفة من الناس ، من كثرة القتل بحروبه ، والمغازى الكثيرة التى يذكر مثلها صاحب الكتاب الذى سماه ، بنقلات الأنوار ، ويقال له البكرى ، فهذا لما كان أكثرها لايوجد فى كتب المسلمين المعروفة ، ولا نقلها علماؤهم ، بل قد تواتر مايخالفها ، كانت كذبا ظاهراً عند أهل العلم بأحواله ، وإن كان كثير من الناس الجهال بأحواله ، قد يصدق بها .

ومثل ماينقله طائفة من الناس ، أنه كان فى غزاة خيبر ، نصب على بن أبى طالب يده ليمر الجيش عليها وأن البغلة مرت عليها ، فقال لها : قطع الله نسلك فانقطع نسلها ، فهذا ليس فى شىء من كتب أهل العلم بأحواله ، ولا نقل ذلك واحد منهم ، وإنما ينقل ذلك من هو معروف بالكذب ، أو جاهل ، ولهذا كان هذا من الكذب الذى يقطع بكذبه علماء المسلمين ، ويعلمون أنه تواتر نقيضه ، وأنه لم يكن فى غزوة خيبر بغلة واحدة ، ولم يكن بمكة ولا بالمدينة بغلة إلا بغلته التى أهداها له المقوقس النصرانى ، ملك مصر والإسكندرية ، وإنما أهداها له بعد فتح خيبر ، لما كتب النبى صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الطوائف ، يدعوهم إلى الإسلام وهو إنما أرسل إلى ملوك الطوائف ، بعد الحديبية وخيبر ، لما رجع من خيبر ، ويعلمون أن البغلة لم تزل مقطوعة النسل ، لم يكن لها نسل قط .

وكذلك ماينقله بعض الكذابين ، من أن طائفة من أهل البيت سبوا ، وأركبوا جمالا فنبت لها سنامان ، وأنها البخاتى ، فهذا مما اتفق أهل المعرفة بالأخبار عنه ، على أنه كذب ، ولم يسب المسلمون قط فى وقت من الأوقات أحدا من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، لا فى خلافة بنى أمية ، ولا فى خلافة بنى العباس ، والجمال البخاتى مازالت هكذا ، لم يتجدد لها السنام فى الإسلام

كما قال صلى الله عليه وسلم ، لما ذكر مايحدث النساء بعده ، قال : على رءوسهن كأسنمة البخت .

وكذلك مانقله طائفة من أهل العلم ، من أن الشمس ردت لما فاتت عليا صلاة العصر ، لكون النبي نام فى حجره صلى الله عليه وسلم ، وجعل بعضهم هذا من المعجزات ، وليس هذا الحديث فى شيء من كتب المسلمين التى يعتمدون على مافيها من المنقولات ، لا الصحاح ولا المسانيد ، ولا التفسير ولا المغازى ، ولا السير ولا غير ذلك ، بل بين أهل العلم بالحديث أن هذا كذب ، وليس له إسناد واحد صحيح متصل ، بل غايته أن يروى عمن لايعرف صدقه ولم يروه إلا هو مع توفر الهمم والدواعى على نقله ، فعلموا أنه كذب ، وهذا باب واسع يبين أن علماء المسلمين يميزون فى المنقولات بين الصدق والكذب ، فيردون الكذب و إن كان فيه من فضائل نبيهم وأعلامه ، وفضائل أصحابه وأمته ما هو عظيم ، و يقبلون الصدق و إن كان فيه شبهة و إشكال ، وقد يحتج به المنازعون لهم وكان عبد الرحمن بن مهدى يقول أهل العلم يكتبون مالهم وما عليهم ، وأهل الأهواء لايكتبون إلا مالهم ، ومن ذلك مغازى حمزة الشائعة بين كثير من جهال الناس ، لايوجد فى شيء من كتب العلم ، بل قد تواتر عند أهل العلم أن حمزة لم يشهد غزوة إلا غزوة بدر ، ثم غزوة أحد وقتل يوم أحد شهيداً ، قتله وحشى بن حرب وهذا متواتر عند أهل العلم ، وما كان من هذه الآيات والمعجزات فى الصحاح ، بل وكثير مما لم يخرجه البخارى ومسلم ، فهذه عامتها مما يقطع أهل العلم بالحديث بصحتها ، ويثبتون ذلك ، وهذا عندهم مستفيض متواتر ، و إن كان بعض ذلك قد لايتواتر و يستفيض عند غيرهم ، فإن الأخبار قد تتواتر وتستفيض عند قوم دون قوم ، بحسب عنايتهم بها وطلبهم لها ، وعلمهم بمن أخبر بها ، وصفاتهم ومقاديرهم وما دل من الدلائل على صدقهم ، وأهل العلم بحديث النبى صلى الله عليه وسلم وأقواله وأفعاله وسيرته ، وأسباب نزول القرآن ومعانيه وغير ذلك ،

لهم بهذا من العلم ، وعندهم به من اليقين ، مالا يوجد مثله لغيرهم ، كما أن أصحاب مالك والشافعى وأحمد بن حنبل وأبى حنيفة وداود وغيرهم ، عند كل طائفة من أقوال متبوعهم ونصوصه وأخباره مايقطعون به ، وإن كان غيرهم لايعرف ذلك.

والأطباء عندهم من كلام أبقراط ، وجالينوس ، ومحمد بن زكريا ، وأمثالهم مايقطعون به ، وغيرهم لايعلم ذلك .

وأهل الهيئة عندهم من كلام بطليموس ، والرصد الممتحن المأمونى ، وثابت ابن قرة ، وأبى الحسين الصوفى ، مايعلمونه وغيرهم لايعلم ذلك ، بحيث يجزم هؤلاء وهؤلاء بكثير من مذاهب أهل الطب والحساب وتجارب الأطباء وأرصاد أهل الحساب . وغيرهم لايعلم ذلك .

وعند أهل الكتاب كاليهود من أخبار هلال ،وسماى وغيرهما من شيوخهم مالا يعلمه غيرهم ، وعند النصارى من أخبار الحواريين ، ومن أخبار قسطنطين ، والمجتمع الأول بنيقيه والمجتمع الثانى والثالث والرابع والخامس ، وغير ذلك من مجامعهم ، وأخبارهم ، مايقطع به علماؤهم وإن كان غيرهم لايعلمون ذلك .

وأهل العلم ، بأيام الإسلام يعلمون من سيرة أبى بكر وعمر وعثمان ومغازيهم كوقعة أجنادين ، ومرج الصفر ، وغيرهما فى خلافة أبى بكر ، وكوقعة اليرموك ، وجسر أبى عبيد وهزيمة الفرس، وفتح مصر ، وغير ذلك مما كان فى زمن عمر بن الخطاب ، ما يقطعون به وإن كان غيرهم لايعرفون ذلك .

وكذلك ما كان بعد هؤلاء من سير الملوك ، وحوادث الوجود ، بل أهل العلم بالرجال ، يعلمون من حال آحاد الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، كعبد الله بن عمر وابن عباس ، وأبى سعيد ، وأبى هريرة ،وعبد الله بن مسعود ، وأنس بن مالك وأبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وسعيد بن المسيب ، والحسن البصرى ،وعلقمة والأسود ، وغير هؤلاء مما لايعلمه غيرهم .

وأهل العلم بالنحو ، يعلمون من حال سيبويه ، والأخفش ، والمبرد ، والزجاج والفراء ، والكسائى ، مالا يعلمه غيرهم .

والقراء يعلمون من قراءة أبي عمرو ، وابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وابن عامر ، ويعقوب بن إسحاق ، والأعمش ، وخلف بن هشام ، وأبي جعفر ، مالا يعلمه غيرهم .

فإذا كان آحاد أهل العلم من أهل الفقه أو الطب أو الحساب أو النحو أو القراءات ، بل وآحاد الملوك يعلم الخاصة من أمورهم ، مالا يعلمه غيرهم ويقطعون بذلك ، فكيف بمن هو عند أتباعه أعلا قدراً من كل عالم ، وأرفع منزلة من كل ملك ، وهم أرغب الخلق في معرفة أحواله ، وأعظم تحريا للصدق فيها ، وأرد للكذب منها ، حتى قد صنفوا الكتب الكثيرة في أخبار جميع من روى شيئاً من أخباره ، وذكروا فيها أحوال نقلة حديثه ، وما يتصل بذلك من جرح وتعديل ، ودققوا في ذلك وبالغوا مبالغة لايوجد مثلها لأحد من الأمم ، ولا لأحد من هذه الأمة إلا لأهل الحديث ، فهذا يعطي أنهم أعلم بحال نبيهم من كل أحد بحال متبوعه وأنهم أعلم بصدق الناقل وكذبه ، من كل أحد ، بصدق من نقل عن متبوعهم وكذبه .

فإذا كان أولئك فيما ينقولونه عن متبوعهم متفقين عليه جازمين بتصديقه ، لا يكون إلا صدقاً ، فهؤلاء مع جزمهم بالصدق واتفاقهم على التصديق ، أولى إذ لا يكون ما جزموا بصدقه إلا صدقا .

وعامة أخبار الصحيحين ، مما اتفق علماء الحديث على التصديق بها ، وجزموا بذلك وإنما تنازعوا في أحاديث قليلة منها ، وعامة ما ذكرناه من آيات النبي صلى الله عليه وسلم التي في الصحاح ، هي من موارد إجماعهم المستفيضة عندهم ، التي يجزمون بصدقها ، ليست من موارد نزاعهم ، فهذا طريق يسلكه من عرفه من العلماء ، ويعلم خبرة أهله من كان خبيراً بهم ، فهذه طريقان في تصديق هذه الآثار

التواتر العام . والتواتر الخاص .

الطريق الثالث : التواتر المعنوى وهذا مما اتفق على معرفته عامة الطوائف ، فإن الناس قد يسمعون أخباراً متفرقة ، بحكايات يشترك مجموعها فى أمر واحد ، كما سمعوا أخباراً متفرقة تتضمن شجاعة عنترة وخالد بن الوليد . وأمثالها ، وتتضمن سخاء حاتم ومعن بن زائدة وأمثالها ، وتتضمن حلم الأحنف بن قيس ومعاوية بن أبى سفيان وأمثالها ، وتتضمن شعر امرىء القيس والنابغة ولبيد وأمثالهم ، من المتقدمين وشعر الفرزدق وجرير وعمر بن أبى ربيعة وأمثالهم ، من المولدين ، وشعر أبى نواس والمتنبى وأبى تمام وأمثالهم من المحدثين ، بل وسمعوا أقوالاً وفتاوى متفرقة ، تتضمن فقه مالك والثورى والليث بن سعد ، وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل و إسحاق بن راهويه ، وغيرهم من العلماء وأخبار متفرقة تتضمن العدل وحسن السيرة ، من عمر بن الخطاب وعمر بن العزيز وغيرهما ، من ولاة الأمر ، وسمعوا أخباراً متفرقة تتضمن الزهد ، عن مثل الحسن البصرى والفضيل بن عياض وعامر بن عبد الله ومالك بن دينار و إبراهيم بن أدهم وغيرهم من الزهاد ، وسمعوا أخباراً متفرقة تتضمن معرفة أبقراط وجالينوس ونحوهما بالطب ، فيحصل بمجموع الأخبار علم ضرورى بأن الشخص موصوف بذلك النعت و إن كان كل من الأخبار لو تجرد وحده لم يفد العلم ، و إن كان كل من الحكايات ليست وحدها منقولة بالتواتر .

ومن هذا الباب العلم القطعى بالإيمان والموت ونحو ذلك ، مما يحصل به استفاضة توجب العلم القطعى كعلم الناس بأن خديجة وعائشة ونحوهما من أمهات المؤمنين ، وأن فاطمة وزينب من بنات النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن عائشة بنت أبى بكر الصديق ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان تولوا الخلافة بعده ، وأن أبا بكر وعمر دفنا فى حجرته .

و إذا عرف هذا فهذه الأحاديث وأضعاف أضعافها هى أضعاف أضعاف ما ينقل عن الواحد من هؤلاء ، ونقلتها أجل وأكثر وأفضل من نقلة هؤلاء ،

وهى كلها تتضمن أن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، كان يجرى على يديه من الآيات الخارقة للعادة والعجائب العظيمة ما لا يعرفه نظيره عن أحد من الناس وعلمُ المسلمين بهذا أعظم من علم أهل الكتاب بما ينقلونه عن آيات موسى وعيسى وغيرهما ، فإن نقلة آيات محمد صلى الله عليه وسلم غير القرآن ، أضعاف أضعاف نقلة التوراة والإنجيل فضلا عن غيرهما من أخبار الأنبياء ، فإن التوراة لم تكن جميعها محفوظة لعموم بنى إسرائيل ، كما يحفظ القرآن عامة المسلمين ، وعند خراب بيت المقدس قل من يحفظها جداً ، حتى تنازع الناس فى تواتر نقلها .

وكذلك الإنجيل نقلته أقل بكثير من نقلة آيات محمد صلى الله عليه وسلم ، فإذا قال النصارى هؤلاء كانوا صالحين وكان لهم آيات أيضاً ، كما يذكرونه من آيات الحواريين ، فأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وتابعوهم صالحون ، ولهم من الآيات أعظم مما للحواريين ، وغيرهم من الأمم ، وفيهم من كان يحمل العسكر على الماء ، ومن كان يشرب السموم القاتلة ، ومن يحيى الله الموتى بدعوته ، ومن يكثر الطعام والشراب ، وكتب كرامات الأولياء فيها من ذلك أعظم مما عند أهل الكتاب وهم ينقلون أخبار الأنبياء والصالحين ، من كتب عندهم : مثل كتاب أخبار الحواريين، وكتاب سفر الملوك ، ونحو ذلك ، ومايذكرون من حجة فى صحة نقلها إلا وحجة المسلمين فيما ينقلونه عن نبيهم وأصحابه والتابعين ، أظهر وأقوى .

الطريق الرابع : أن يقال هذه الآيات التى ذكرنا بعضها ، كانت تكون بمحضر من الخلق الكثير ، كتكثير الطعام يوم الخندق ، فإنه كان أهل الخندق ؛ رجالهم ونساؤهم ألوفا .

وكذلك نبع الماء من بين أصابعه ، وفيضان البئر بالماء يوم الحديبية ، وكانوا يومئذ ألفاً وخمسمائة ، وكلهم صالحون ، من أهل الجنة ، لا يعرف فيهم من تعمد كذبة واحدة على النبى صلى الله عليه وسلم .

وكذلك تكثير الماء والطعام فى غزوة خيبر ، كانوا ، ألفاً وخمسمائة ،

وفى تبوك كانوا ألوفاً مؤلفة ، وكان بعض من حضر هذه المشاهد ينقل هذه الآيات قدام آخرين ممن حضرها ، وينقلها لأقوام ، فيذهب أولئك فيخبرون بها أولئك ، ويصدق بعضهم بعضاً ويحكى هذا مثل ما حكى هذا ، من غير تواطىء وتشاعر ، وأدنى أحواله أن يقره ولا ينكر عليه روايتها ، ونحن نعلم بموجب العادة الفطرية التى جبل الله عليها عباده ، وبموجب ما كان عليه سلف الأمة عن اعتياد الصدق وتحريه ، واعتقادهم أن ذلك واجب ، ومن شدة توقيهم الكذب على نبيهم ، وتعظيمهم ذلك إذ قد تواتر عنه عندهم أنه قال : من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار .

فنحن نعلم أنهم لم يكونوا يقرون من يعلمون أنه كذب عليه ، ومن أخبر عنه بما كانوا مشاهدين له ؛ وكذب عليه ، فقد علموا أنه كذب عليه ، فلما اتفقوا على الإقرار على ذلك وعلى تناقله بينهم من غير إنكار أحد منهم لذلك. علم قطعاً أن القوم كانوا متفقين على نقل ذلك ، كما هم متفقون على نقل القرآن والشريعة المتواترة ، وإن كان جمهورهم ليس منتصباً لتلقين القرآن ، بل هذا يلقنه وهذا يسمعه من هذا الملقن ، ولا ينكر بعضهم على بعض القراءة ، وهذا يعلم هذا الصلاة ، أن الظهر فى الحضر أربع ركعات ، والمغرب ثلاث والفجر ركعتان ، وهذا يقر هذا فلما كان بعضهم يقر بعضاً على نقل ذلك ، علم اتفاقهم على نقل ذلك ، وهذا غاية التواتر .

فكذلك ما نقلوه من شرائعه ومن آياته وبراهينه ، يبين ذلك أن ما أنكره بعضهم رده على الآخر ولم يوافقه عليه ، وإن كانوا متأخرين عن زمن الصحابة ، فكيف بالمتقدمين ، كتنازعهم : هل كان يجهر بالبسملة أو لا يجهر بها ؟ وهل كان يداوم على القنوت فى الفجر أو كان يقنت أحياناً للنوازل أو قنت مرة ، ثم تركه ؟ ، فهذا من أهون الأمور وأيسرها ، إذ كلهم متفقون على صحة صلاة من قنت ، وعلى صحة صلاة من لم يقنت ، ومن جهر ومن خافت ، ولكن

لما تنازعوا فيما فعله الرسول تنازعوا فى الحكم فعلم بذلك أن ما كان مشهوراً فى الأمة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم ينكره أحد من علمائها كانت الأمة متفقة على نقله ، كنقلهم للقرآن وللشرائع الظاهرة المشهورة ، وإن نقل ذلك أعظم من نقل سائر أخبار الأنبياء والعلماء والملوك والزهاد .

وكذلك حجه فإنهم كلهم متفقون على ما تواتر عنه من أنه لم يحج بعد الهجرة إلا حجة واحدة ، وهى التى تسمى حجة الوداع ، وإنما عاش بعدها نحواً من ثلاثة أشهر ، وأنه لما حج أمر أصحابه كلهم إلا من ساق الهدى منهم إذا طاف بالبيت و بين الصفا والمروة ، أن يحل من عمرته وأنه لم يعتمر هو ولا أحد من أصحابه الذين حجوا معه بعد الحج إلا عائشة وحدها ، وإنه هو نفسه لم يحل من حجه ولا أحد ممن ساق الهدى معه ، وإنما اشتبه على بعضهم بعض ألفاظه ، أو بعض الأمور التى تخفى على أكثر الناس ، وكان الصحابة ينقلون تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومرادهم بالتمتع أنه قرن بين العمرة والحج ، فظن بعض الناس أنهم أرادوا أنه أخر الإحرام بالحج إلى أن قضى العمرة ، وروى بعض الصحابة أنه أفرد الحج فظن بعض الناس أنه حج واعتمر بعد الحج ، وهذا لم يقله أحد من العلماء ، بل اتفقوا على أنه لم يعتمر بعد الحج ، وروى بعض الصحابة أنه قرن ، فظن بعض الناس أنه طاف طوافين وسعى سعيين ، وهذا لم ينقله أحد عنه وكان من أسباب غلط كثير من الناس ، أنهم كانوا يستعملون تلك الألفاظ فى معان غير ما استعملته فيها الصحابة ، فغلط بعض الناس على بعض الصحابة ، وأما مافعله فى الحج مشهوراً فهو متواتر لم يختلف فيه النقل ، ولا علماء النقل ومن تدبر هذه الطريق أفادته علماً يقينياً قطعياً بصحة هذه الآيات عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الطرق المتقدمة ، فإنا قد ذكرنا أن ما كان الناس أحوج إلى معرفته يسر الله دلائله للناس ، أعظم من تيسير غيره ، وحاجة الخلق إلى تصديق الرسول أشد من حاجتهم إلى جميع الأشياء ، إذ بذلك تحصل سعادتهم

فى الآخرة ، ونجاتهم من العذاب ، و به يحصل صلاح العباد فى المعاش والمعاد .

الطريق الخامس : أن نقول ما من صنف من أصناف العلماء إلا وقد تواتر عندهم من الآيات ما فيه كفاية ، فكتب التفسير مشحونة بذكر الآيات ، متواتر ذلك فيها ، وكتب الحديث مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها . وكتب السير والمغازى والتواريخ مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها . وكتب الفقه مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها ، و إن لم يكن هذا مقصوداً منها ، و إنما المقصود الأحكام ، لكنهم فى ضمن ما يروونه من الأحكام يروون فيها من الآيات ما هو متواتر عندهم ، وكتب الأصول والكلام مشحونة بذكر الآيات متواتر ذلك فيها ، ونقل كل طائفة من هذه الطوائف يفيد العلم اليقينى ، فكيف بما ينقله كل طائفة من هذه الطوائف ، وهذه الطريق وغيرها مثل طريق الإقرار والتصديق وطريق التواتر المعنوى ، وطريق تصديق أهل الحديث والعلم بها وغير ذلك ، يستدل بها تارة على تواتر الجنس العام للآيات الخارقة للعادة ، وهذا أقل مايكون ، و يستدل بها على تواتر جنس جنس كتواتر تكثير الطعام ، وتواتر تكثير الطهور والشراب ، وعلى تواتر نوع نوع منها كتواتر نبع الماء من بين أصابعه ، وتواتر إشباع الخلق العظيم من الطعام القليل ، وتواتر شخص شخص منها كتواتر حنين الجذع إليه وأمثال ذلك ، وكلما أمعن الإنسان فى ذلك النظر ، واعتبر ذلك بأمثاله واعتبر وأعطاه حقه من النظر والاستدلال ، ازداد بذلك علماً و يقيناً ، وتبين له أن العلم بذلك أظهر من جميع مايطلب من العلم بالأخبار المتواترة ، فليس فى الدنيا علم مطلوب بالأخبار المتواترة إلا والعلم بآيات الرسول وشرائع دينه ، أظهر من ذلك وما من حال أحد من الأنبياء والملوك والعلماء ، والمشايخ المتقدمين ، وأقواله وأفعاله وسيرته إلا والعلم بأحوال محمد صلى الله عليه وسلم ، أظهر من العلم به وأبين ، ونقله أكمل وأتم ، وما من علم يعلم بالتواتر مما هو موجود الآن ، كالعلم بالبلاد البعيدة ، كعلم أهل

الشام بالعراق وخراسان ، والهند والصين والأندلس ، وعلم أهل المغرب بالشام والعراق وخراسان والهند ، وعلم أهل خراسان بالشام والعراق ومصر ، وعلم أهل الهند بالعراق والشام ، وأمثال ذلك من علم أهل البلاد بعضهم بحال بعض ، إلا وعلم الإنسان بحال المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وما هم عليه من الدين وما ينقلونه عن نبيهم من آياته وشرائعه ، أظهر من علمه بهذا كله .

وهذا مما يبين أنه ليس فى الوجود أمر يعلم بالنقول المتواترة إلا وآيات الرسول وشرائعه تعلم بالنقول المتواترة أعظم مما يعلم ذلك الأمر تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ هوَ الذى أرسلَ رسولهُ بالهدى ودين الحق ليظهرهُ عَلَى الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴾ .

وظهوره على الدين كله بالعلم والحجة والبيان إنما هو بما يظهره من آياته وبراهينه ، وذلك إنما يتم بالعلم بما ينقل عن محمد من آياته ، التى هى الأدلة ، وشرائعه التى هى المدلول ، المقصود بالأدلة ، فهذا قد أظهره الله علماً وحجة وبياناً على كل دين ، كما أظهره قوة ونصراً وتأييداً على كل دين ، والحمد لله رب العالمين .

كما أنه ما من دليل عقلى يستدل به على مدلول ، إلا والأدلة على آيات الرب أكثر وأكثر والحمد لله رب العالمين .

الطريق السادس : أن العلماء قد صنفوا مصنفات كثيرة فى ذكر آياته وبراهينه المنقولة فى الأخبار ، وجردوا لذلك كتباً ، مثل : كتاب دلائل النبوة ، للفقيه الحافظ أبى بكر البيهقى ، وقبله دلائل النبوة : للشيخ الحافظ أبى نعيم الأصبهانى ، وقبله دلائل النبوة : لأبى الشيخ الأصبهانى ، ولأبى القاسم الطبرانى ، وقبلهما دلائل النبوة للإمام الحافظ أبى زرعة الرازى ، وللشيخ المصنف أبى بكر عبد الله بن أبى الدنيا ، وللإمام : أبى إسحاق الحربى ، وللمصنف : الحافظ أبى جعفر الفريابى ، وما صنفه الشيخ العالم : أبو الفرج ابن الجوزى فى كتابه

المسمى بالوفا فى فضائل المصطفى ، وما صنفه الحافظ أبو عبد الله المقدسى فى دلائل النبوة ، وهؤلاء وغيرهم يذكرون مايذكرون بالأسانيد المعروفة ، والطرق المتعددة الكثيرة المتواترة ، وهؤلاء منهم من يميز فيما يذكره من الأحاديث بين ما فى صحيحى البخارى ومسلم ، وما فى غيرهما وإن كان صحيحاً أيضاً ، كالبيهقى وابن الجوزى والمقدسى .

ومنهم من يذكر ذلك جميعه ، بأسانيده ، وقد يتكلم على الأسانيد والطرق ويذكر تعددها من غير احتياج منه إلى أن يذكر ما رواه البخارى ومسلم ، كأبى زرعة شيخ مسلم ، وأبى الشيخ وأبى نعيم وغيرهم .

وآخرون يذكرون ما يذكرونه معزوا مسنداً إلى من رواه ، وإن لم يذكروا إسناده كما يفعله القاضى عياض السبتى فى كتابه المسمى بالشفا بتعريف حقوق المصطفى .

ومنهم من يقرر ذلك بشهرة ذلك ، وطرق أخرى يبين صحته كما يفعله كثير من النظار ، كالقاضى : عبد الجبار ، والجاحظ والماوردى القاضى ، وسليم الرازى الفقيه ، وأضعاف هؤلاء ، وهذه الكتب فيها من الأحاديث المتضمنة لآيات نبوته ، وبراهين رسالته ، أضعاف أضعاف الأحاديث المأثورة فيما هو متواتر عنه .

مثل حجة الوداع ، وعمرة الحديبية ، وصد المشركين له ، ومصالحته إياهم ، وحله هو وأصحابه بالحديبية ، ورجوعهم ذلك العام ، وفتح خيبر عقب ذلك ، وعمرة القضية ، وعمرة الجعرانة ، ومثل حصاره لأهل الطائف قبل ذلك ، وفتح مكة قبل ذلك ، ومثل غزوة النصارى عام تبوك ، وإرساله جيشاً لغزوهم بمؤته من مشارق الشام ، قريباً من الحصن المسمى بالكرك ، ومثل غزو اليهود بخيبر وغزو اليهود قبل ذلك لمن كان عند المدينة مثل بنى قينقاع ، والنضير ، وقريظة ومثل : إرساله أبا بكر أميراً على الحج سنة تسع ، ونبذه العهود ، ومناداته أن لايحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومثل هجرته مع أبى بكر

وغلامه عامر بن فهيرة ورجل ثالث كان دليلا لهم ، ومثل ماتواتر عنه أنه كان يصلى بالمسلمين يومى العيدين الفطر والنحر ، بالمصلى خارج المدينة لم يكن يصلى العيد فى مسجده الأمرة ، نقل أنه صلى فى المسجد لأجل المطر ، ولم يكن على عهده يصلى أحد بالمدينة صلاة العيد إلا خلفه ، لم يكن يصلى صلاتى عيد على عهده وعهد أبى بكر وعمر وعثمان وأول من فعل ذلك على بن أبى طالب لما كثر الناس وضعف أقوام عن الخروج إلى الصحراء استخلف من يصلى بهم فى المسجد ، وكما تواتر عنه أنه كان يصلى الجمعة بأذان وإقامة ، لايؤذن لها إلا إذا قعد على المنبر ، وكذلك كان الأمر على عهد أبى بكر وعمر ، فلما كان فى أثناء خلافة عثمان كثر الناس فأمر بالنداء الثالث ، على دار قريبة من المسجد من جهة المشرق يقال لها الزوراء ، وكما تواتر أن مسجده بناه باللبن ، وسقفه بجذوع النخل وكانت حجر أزواجه قبلى المسجد ، وشرقيه ، فلما كثر الناس زاد فيه عمر ، ثم زاد فيه عثمان ، وبناه بالقصة والحجارة ، ثم فى إمارة الوليد أمر نائبه عمر ابن عبد العزيز أن يشترى الحجر ، ويزيدها فى المسجد فدخلت حجرة عائشة التى دفن فيها هو وأبو بكر وعمر فى المسجد ، من حينئذ ، وإنما كانت فى حياته خارجة عن مسجده إلى سنة إحدى وتسعين ، وقال فى مرض موته : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، يحذر ما فعلوا . قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً .

وكما تواتر عنه أنه نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ، ووقت غروبها ، وكما تواتر عنه أنه كان يضحى فى عيد الأضحى ، بل تواتر عند أهل العلم بأحواله تروكه المشهورة[1] ، كما تواترت أفعاله المشهورة ، فتواتر أنه لم يكن يؤذن للعيدين ولا للكسوف ولا للاستسقاء ، وأنه صلى فى الكسوف ركعتين فى كل ركعة صلاة طويلة ، وتواتر أنه كان يطوف بالبيت سبعاً ، ويصلى ركعتين بعد الطواف

---

(١) يعنى السنن التركية

وكان يسعى بين الصفا والمروة سبعاً ، ولم يكن يصلى بعد السعى بالصفا والمروة ركعتين ، وتواتر أنه كان يواصل وينهى أصحابه عن الوصال ، ويقول : « إنى لست كهيئتكم ، إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » ، وأنه لم يفرض صوماً إلا صوم شهر رمضان ، ولم يفرض الحج على المستطيع إلا مرة فى العمر ، وأنه فرض الصلوات الخمس على كل بالغ عاقل ، إلا الحائض والنفساء ، وأنه منع الحائض والنفساء من الصوم والصلاة ، وكان الحيض يؤمرون بقضاء الصوم ، ولا يؤمرون بقضاء الصلاة ، وأنه أمر بالاغتسال من الجنابة للصلاة ، وأمر بالوضوء عند الصلاة لمن بال أو تغوط ، أو خرج منه ريح أو مذى ، وأنه رخص فى الاستجمار بثلاثة أحجار ، ونهى عن الاستجمار باليمين ، ونهى عن الاستجمار بالعظم والبعر ، وقال إنها زاد إخوانكم من الجن ، وأنه لم يكن يجمع المسلمين ، لا على سماع كف ، ولا دف ، ولا رقص ، ولا صعق ، لا هو ولا أصحابه ، عند سماع القرآن ، بل كانوا توجل قلوبهم ، وتقشعر جلودهم ، وتدمع عيونهم ، وإنه لم يكن على عهده وعهد خلفائه ، أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ . تعاد امرأة مطلقة إلى زوجها بنكاح ، يقصد به التحليل ظاهرا ، بل لعن المحلل والمحلل له ، لأن ذلك ربما فعل سراً ، وأنه أمر بعيادة المريض ، وتشييع الجنازة ، وإفشاء السلام ، وإجابة الدعوة ، وأنه كان يصلى على الميت ، وكان يكبر عليه أربع تكبيرات ، وقد كان أحياناً يكبر سبعاً ، أو خمساً ، وأمر بتغسيل الميت ، وتكفينه ، والصلاة عليه ، ودفنه ، وأنه حرم كل مسكر ، وحرم بيع الدرهم بالدرهمين ، والدينار بالدينارين ، والصاع بالصاعين ، من : الحنطة ، والشعير ، والتمر ، والزبيب . وأنه أمر بصدقة الفطر ، صاعا من تمر ، أو صاعا من شعير . لما كان أهل المدينة يقتاتون التمر والشعير ، وأنه أباح الدواء . وقال : تداووا عباد الله ، فإنه لم ينزل داء ، إلا نزل له دواء إلا السام . والسام : الموت ، وأنه كان يتداوى بالحجامة وغيرها .

وكذلك ما تواتر عنه من أحاديث ، سوى ما فى القرآن من صفة الجنة والنار ، وذكر العرش ، والملائكة ، والجن ، وإرساله إلى الثقلين ، وما ذكره من أسماء الله ، وصفاته ، وما أخبر به من فتنة الإنسان فى قبره ، ومن عذاب القبر ونعيمه ، ومن دخول من يدخل النار من أهل الكبائر من أمته ، وخروجهم من النار بشفاعته وشفاعة غيره ، ومن ذكر حوضه وما أخبر به من رؤية الله يوم القيامة ، ومحاسبة الله للعباد وغير ذلك .

وما تواتر عنه من أنه كان يرسل رسلا إلى الملوك يدعوهم إلى الإيمان بالله ، وبما جاء به ، كما أرسل إلى ملوك اليمن ، وإلى ملوك الشام ، ومصر ، والعراق ، وإلى ملوك المشركين واليهود ، والنصارى ، والمجوس ، بعد ما حارب اليهود مرة بعد مرة .

وما تواتر عنه من أنه كان إذا سافر من المدينة استخلف خليفة ، وأنه كان يستكتب كتابا يكتبون له ، وأنه كان يركب الخيل ، والإبل ، والبغال ، والحمير وأنه رجم الزانى المحصن ، مرة بعد مرة ، وقطع يد السارق ، وجلد شارب الخمر ، وأنه كان يصلى فى السفر الرباعية ركعتين ركعتين .

وأنه جمع بين الصلاتين : الظهر والعصر بعرفة ، وفى مزدلفة جمع بين المغرب والعشاء ، وأنه كان يصلى بمنى ركعتين ركعتين، وأنه أمر المسلمين كلهم فى حجة الوداع أن يحلوا من إحرامهم ويجعلوها عمرة إلا من ساق الهدى ، فإنه أمره أن يبقى على إحرامه ، وأنه هو لم يحل من إحرامه ، ولا اعتمر بعد الحج لا هو ولا أحد ممن حج معه إلا عائشة ، لكونها كانت حائضاً ، وأن شهر رمضان فرض فى السنة الثانية من الهجرة ، فصام تسع رمضانات .

وأنه كان له أربع بنات وثلاثة بنين ، وكان يكنى بأكبر أولاده القاسم فيدعى أبا القاسم ، وأنه تزوج بنتى أبى بكر وعمر ، وأنه زوج عثمان بابنتيه ، وزوج علياً بنتاً ، وأنه آمن به من أعمامه حمزة والعباس ، ولم يؤمن به أبو لهب

ولا أبو طالب ، مع أن أبا طالب كان يحوطه و يذب عنه .

وأنه استخلف أبا بكر ليصلي بالناس لما مرض وثقل عن الصلاة لم يصل أحد بإذنه مع حضوره غير أبي بكر في مرض موته ولما ذهب ليصلح بين بني عمرو بن عوف ، وأنه كان من خواص أصحابه العشرة أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعبد الرحمن بن عوف ، وغير هؤلاء ، كعبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وأبي طلحة ، وأبي أيوب ، وأسيد بن حضير ، وأضعاف هؤلاء .

وأنه بايعه تحت الشجرة ألف وأربعمائة ، أو وخمسمائة ، وهم الذين أنزل الله فيهم : ﴿لقد رَضِيَ الله عن المؤمنين إذ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرةِ فعلم مافي قُلوبِهِمْ فأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ .

وأنه لما قدم المدينة بنى مسجداً كان في شماليه صفة يأوي إليها الغرباء ، وأن المهاجرين والأنصار كلهم أسلموا طوعاً بلا رغبة ، ولا رهبة ، وأن المهاجرين آذاهم الكفار إيذاء عظيماً حتى هاجر منهم طائفة إلى الحبشة عند النجاشي ، وأن النجاشي آمن به ، وأنه لما مات أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بموته يوم مات ، وأنه صلى عليه بأصحابه في المصلى كما يصلى على الميت الحاضر .

وأنه كان يخطب يوم الجمعة قبل الصلاة ، ويخطب في العيد بعد الصلاة ، وكان يؤذن للجمعة وللصلوات الخمس ولا يؤذن للعيدين ، ولا لغير الصلوات الخمس ، وأن بلالا كان يؤذن له بالمدينة هو وابن أم مكتوم الأعمى ؛ وكان سعد القرظ يؤذن لأهل قباء ، وأقام أبا محذورة يؤذن لأهل مكة .

وكما تواتر عنه وعن خلفائه ، أنهم لم يكونوا بمنى يصلون صلاة عيد ، بل يرمون جمرة العقبة وينحرون ، كما أمر أهل الأمصار أن يصلوا ، ثم ينحروا إلى أمثال هذه الأمور مما هي متواترة عند كل من كان عالماً بأحواله .

ومنها ما هو المتواتر عند جميع الأمة . ومنها ما هو متواتر عند جمهورها ، وليس منها شيء إلا وتواترت آياته و براهينه التي لم تذكر في القرآن أعظم من تواتر هذه الأمور والكتب المصنفة في آياته و براهينه الخارجة عن القرآن فيها من الأحاديث أضعاف أضعاف ما يوجد من الأحاديث في مثل هذه الأمور ، بل كل صنف من أصناف آياته من الأحاديث أضعاف ما يوجد في مثل ذلك ، كتواتر أخباره بالغيوب المستقبلة ، وتواتر تكثيره للطعام مرات متعددة ، وتواتر تكثيره للطهو والشراب مرات متعددة ، إما بنبع الماء بين أصابعه ، و إما بفيضان الينبوع الذي يضع فيه بعض آثاره ، و إما بفيضان الماء من الوعاء الذي يبارك فيه والماء باق بحاله لم ينقص .

فالأحاديث المتواترة في مثل هذه الأنواع أكثر من الأحاديث المتواترة في مثل تلك الأمور ، التي هي متواترة .

ولهذا كان شهرة هذه في الأمة ، وفي أهل العلم بأحواله ، أعظم من شهرة كثيرة من تلك الأمور .

والمقصود هنا أن تواتر أنواع آياته المستفيضة في الأحاديث أعظم من أمور كثيرة ، هي متواترة عند الأمة ، أو عند علمائها وعلماء أهل الحديث ، وهذا غير الآيات والبراهين المستفادة بالقرآن ، فإن تلك قد تجرد لها طوائف من المسلمين ذكروا من أنواعها وصفاتها ما هو مبسوط في غير هذا الموضع ، حتى بينوا أن ما في القرآن من الآيات يزيد على عشرات ألوف من الآيات ، وهذان غير ما في كتب أهل الكتاب من الإخبار به .

وهذه الأجناس الثلاثة غير ما في شريعته التي بعث بها ، وغير صفات أمته ، وغير ما بذل من المعرفة بسيرته وأخلاقه ، وصفاته ، وأحواله ، وهذا كله غير نصر الله و إكرامه لمن آمن به ، وعقوبته ، وانتقامه ممن كفر به ، كما فعل بالأنبياء المتقدمين ، فإن تعداد أعيان دلائل النبوة مما لا يمكن بشراً الإحاطة به إذ كان الإيمان به واجبا على كل أحد .

فبين الله لـكل قوم ، بل لـكل شخص من الآيات والبراهين مالا يبين لقوم آخرين ، كما أن دلائل الربوبية وآياتها أعظم وأكثر من كل دليل على كل مدلول ، ولـكل قوم ، بل ولـكل إنسان من الدلائل المعينة التي يريه الله إياها فى نفسه وفى الآفاق، مالا يعرف أعيانها قوم آخرون ، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وفى أَنْفُسِهِم حتى يتبيَّنَ لهُمْ أنَّهُ الحقُّ﴾ والضمير فى ذلك عائد إلى القرآن عند المفسرين والسلف وعامة العلماء ، كما يدل على ذلك القرآن بقوله : ﴿ قُلْ أرأيتم إنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُم به مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فى شِقَاقٍ بَعيدٍ سنريهم آياتنا فى الآفاقِ وفى أنفسهم حتى يتبيَّنَ لهم أنَّه الحقّ ﴾ .

وقد قيل : إن الضمير عائد إلى الله ، والصواب : الأول كما قال : ﴿ قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ﴾ وهذا هو القرآن . ثم قال بعد ذلك : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ .

ثم قال : ﴿ أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ .

فأخبر أنه سيرى الناس فى أنفسهم ، وفى الآفاق من الآيات العيانية المشهودة والمعقولة ما يتبين أن الآيات القرآنية المسموعة المتلوة حق ، فيتطابق العقل ، والسمع ، ويتفق العيان والقرآن ، وتصدق المعاينة للخبر .

وإذا كان القرآن حقاً لزم كون الرسول الذى جاء به صادقاً ، وأن الله أنزله وأنه يجب التصديق لما أخبر والطاعة لما أوجب وأمر ، وذلك يتضمن إثبات الصانع وتوحيده ، وأسمائه ، وصفاته وإثبات النبوات وإثبات المعاد ، وهذه هى أصول العلم والإيمان التى علقت بها السعادة والنجاة .

فصـــــل

وآيات النبوة وبراهينها تـكون فى حياة الرسول ، وقبل مولده ، وبعد مماته لا تختص بحياته فضلا عن أن تختص بحال دعوى النبوة ، أو حال التحدى ، كما ظنه بعض أهل الـكلام ، بل لا بد من آيات فى حياته تدل على صدقه

تقوم بها الحجة ، وتظهر بها المحجة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

وقد قال تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ ، إلى قوله : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله ﴾ ، إلى قوله : ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ، قالت رسلهم : أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ الآية .

فأخبر أن قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله أتتهم رسلهم بالبينات ، فعلم أنهم جاءوا بالبينات .

وقال : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليما ، وعاداً وثمود وأصحاب الرسّ وقرونا بين ذلك كثيراً ، وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيراً ﴾ .

فأخبر أنه سبحانه ضرب الأمثال لجميع هؤلاء الذين أرسلهم إليهم وأهلكهم ، فلم يعاقبهم إلا بعد أن أقام عليهم الحجة .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ .

فأخبر أنه لم يرسل إلا رجالا يوحى إليهم ، لم يرسل إليهم ملائكة ولا نساء ، وأنه أرسلهم بالبينات .

والزبر : جمع زبور ، وهى الكتب ، فإن منهم من أنزل عليه كتاب ، ومنهم من أرسل بتجديد الكتاب الذى قبله .

وقال تعالى : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ، وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ﴾ .

أخبر أنه ليس أمة من الأمم إلا خلا فيها نذير ، كما قال : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ .

ثم أخبر أن الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ، وهذا من عطف الخاص على العام ، لاختصاصه بوصف يختص به ، كقوله : ﴿ وملائكته وجبريل وميكال ﴾ ، فإن الزبر من البينات والكتاب المنير من الزبر ، وهو كقوله : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ . فإن الهدى من العلم ، والكتاب المنير من الهدى .

وبين أنه أخذ الذين كفروا بربهم ، وهذا أنزله ليبين عاقبة المكذبين .

ولهذا بنى الفعل للفاعل فقال : ﴿ فقد كذب الذين من قبلهم ﴾ ، وهذه السورة مكية .

ثم أنزل فى آل عمران وهى مدنية فى سياق الآيات التى فيها تسلية الرسول والمؤمنين به ، وتثبيتهم وتعزيتهم لما أصابهم من المكذبين يوم أحد وغيره فقال : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرْحُ للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل

لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ، إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ أى يخوفكم أولياءه كما قاله جمهور العلماء .

ثم قال : ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً ﴾ ،وسياق الكلام فى بيان أن الكفار لا يضرون الله ولا عباده المؤمنين ، بل ضررهم على أنفسهم وأن ما حصل لهم من نعمة إنما هو استدراج وإملاء ، إلى أن قال : ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ، الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات و بالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ﴾ ، [سورة آل عمران ١٨١–١٨٣] .

بين سبحانه أن هذا القول منهم مع أنه كذب فلم يقولوه إلا دفعاً للحق لا ليؤمنوا بمن جاءهم بذلك ، إذ قد جاءهم رسل من قبله بالآيات البينات والقربان الذى تأكله النار ، ومع هذا قتلوهم ، والكلام فى مثل هذا الجنس الذى يوالى بعضهم بعضاً و يتبع بعضهم بعضاً كاليهود الذين هم على دين سلفهم الذين فعلوا ذلك .

ولهذا يخاطبهم بصيغة الخطاب كقوله : ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ .

فالخطاب لجنس بنى إسرائيل وإن كان الذين عاينوا ذلك ماتوا .

ثم قال : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾ .

فحذف هنا الفاعل وبنى الفعل للمفعول ، إذ المقصود هنا : تسلية الرسول وتعزيته لا ذكر عقوبة المكذبين فلهذا كانت هذه أخص من تلك .

فصـــــل

ومن آيات الأنبياء إهلاك الله لمكذبيهم ونصره المؤمنين بهم ، فهذا من أعلام نبوتهم ودلائل صدقهم ، كإغراق الله قوم نوح لما كذبوه ، وكإهلاكه قوم عاد بالريح الصرصر ، وإهلاك قوم صالح بالصيحة ، وإهلاك قوم شعيب بالظلة ، وإهلاك قوم لوط بقلب مدائنهم ورجمهم بالحجارة ، وكإهلاك قوم فرعون بالغرق .

وقد ذكر الله هذه القصص فى القرآن فى غير موضع ، وبين أنها من آيات الأنبياء الدالة على صدقهم ، كما ذكره فى سورة الشعراء لما ذكر قصة موسى قال : ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ .

ثم ذكر قصة إبراهيم وقال فى آخرها : ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ .

وكذلك ذكر مثل ذلك فى قصة نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، ومن ذلك ما جعله من اللعنة الشائعة لمن كذبهم ، ومن لسان الصدق بالثناء والدعاء لهم ، ولمن آمن بهم كما قال تعالى فى قصة نوح : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على نوح فى العالمين ﴾ .

وكذلك فى قصة إبراهيم : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إبراهيم ﴾ أى تركنا هذا القول الذى يقوله المتأخرون ، وكذلك فى قصة موسى وهرون : ﴿ سلام على موسى وهرون ، وسلام على إلياسين ﴾ ، وكذلك فى قصة إبراهيم قال تعالى : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً ، ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ .

وقال فى قصة فرعون : ﴿ واستكبرهو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ، وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ .

ولهذا قال تعالى : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ قال لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ .

فأخبر أن العاقبة للمتقين ، ثم إنه ما وقع لهؤلاء وهؤلاء يعلم بالسمع والنقل تارة ، ويعلم بالعقل والاعتبار بآثارهم تارة ، كما قال عن أهل النار : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ .

كما ذكر الله الطريقين فى قوله : ﴿ ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ﴾ :

ثم قال : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير * فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ .

ثم قال : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا فى البلاد هل من محيص ، إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم

رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون ، ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ، ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فـكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ، فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الـكافرون ﴾ .

وقال لما قص قصص نوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب ، وموسى فى سورة هود : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد ، وما ظلمناهم ولـكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

ولما ذكر قصة لوط فى سورة الصافات قال : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ؟ ﴾ ، وفى سورة الحجر : ﴿ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ، وإنها لبسبيل مقيم ، إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ .

ثم قال : ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ، فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين ﴾ ، والإمام المبين : هو الطريق المستبين الواضح .

بين سبحانه : أن هذه وهذه كلاهما بسبيل الناس ، يرونها بأبصارهم فيعلمون

بذلك ما فعل الله بمن كذب رسله وعصاهم ، ودلالة نصر الله للمؤمنين ، وانتقامه من الكافرين ؛ على صدق الأنبياء من جنس دلالة الآيات والمعجزات على صدقهم فكون هذا فعل لأجل هذا ، أو كون ذاك سبب هذا هو مما يعلم بالاضطرار عند تصور الأمر على ما هو عليه ، كانقلاب العصا حية عقب سؤال فرعون الآية ، وانشقاق القمر عند سؤال مشركى مكة آية ، وأمثال ذلك .

والسؤال المشهور الذى يورد فى هذا الموضع على قول من ينفى التعليل فى أعمال الله ، أو يجوز على الله كل فعل ؟ حيث قيل لهم على أصلكم لا يفعل الله شيئاً لأجل شىء ، وحينئذ فلم يأت بالآيات الخارقة للعادة ، لأجل تصديق الرسول ، ولم عاقب هؤلاء لتكذيبهم له ؟ ولم أنجى هؤلاء ونصرهم لإيمانهم به إذا كان لا يفعل شيئاً لشىء عندكم ، وقالوا لهم أيضاً : إذا جوزتم على الرب كل فعل جاز أن يظهر الخوارق على يد الكاذب ، ويقال لهم أيضاً : أنتم لا تعلمون ما يفعل الرب إلا بعادة أو خبر الأنبياء ، فقبل العلم بصدق النبى لا يعلم شىء بخبره ، والعادة إنما تكون فيما تكرر ، كطلوع الشمس ، ونزول المطر ونحو ذلك ، والإتيان بالخارق للتصديق ليس معتاداً .

فيقال فى جوابه : هذا السؤال إن كان متوجهاً فإنما يقدح فى قول هؤلاء الذين يقولون لا يفعل شيئاً لأجل شىء ، ويجوزون عليه فعل كل شىء ممكن لا ينزهونه عن فعل من الأفعال ، وليس عندهم قبيح وظلم إلا ما كان ممتنعاً ، مثل جعل الشىء موجوداً معدوماً ، وجعل الجسم فى مكانين ، ولهذا ذكر ذلك مخالفوهم حجة فى إبطال مذهبهم ، وقالوا قولهم يقدح فى العلوم الضرورية ، ويسد باب العلم بصدق الرسل ، قالوا إذا جوزتم أن يفعل كل شىء فجوزوا أن تكون الجبال انقلبت ياقوتاً والبحار لبناً ، ونحو ذلك مما يعلم بالضرورة بطلانه ، وجوزوا أن يخلق المعجزات على يد الكذابين ، وليس المقصود هنا الجواب عن هؤلاء ببيان فساد قولهم ، ولكن المقصود : أن هذا السؤال إن كان

متوجهاً ، فإنما يقدح في قول هؤلاء ، لا يقدح فيما علم بالاضطرار من دلالات الآيات المذكورة على حال هؤلاء وهؤلاء ، وأن الله سبحانه وتعالى نجى موسى ونصره لصدقه ، ونبوته ، وإيمانه ، وأهلك فرعون لتكذيبه .

وكذلك نصر محمداً ومن اتبعه على من كذبه من قومه ، ونصر نوحاً على من كفر به ، ونصر المسيح على من كذبه ونصر سائر الرسل وأتباعهم المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ إنا لَنَنْصُرُ رسلنا والذينَ آمنوا في الحياةَ الدُّنيا ويوم يقوم الأشهادُ ﴾ وقال : ﴿ ولقد سبقتْ كلمتنا لِعبادنا المرسَلين ، إنَّهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ ، كما لا يقدح فيما علم بالاضطرار من أن الله ينزل المطر في إبانه لسقي المزارع ، وأنه يسوق النيل لسقي أرض مصر ، وأنه جعل أعضاء الإنسان بما فيها من المنافع ، كالبطش باليدين ، والمشي بالرجلين ، والنظر بالعينين والسمع بالأذنين ، والنطق باللسان ، وجعل ماء العين مالحاً لكونها شحمة ، والملوحة تمنعها أن تذوب ، وماء الأذن مراً ليمنع الذباب من الولوج في الدماغ ، وماء الفم عذباً ليطيب الطعام والشراب ، وجعل ماء البحر مالحاً لبقاء الأنام ، فإنه لو كان عذباً فيموت فيه من الحيوان العظيم ، فيفسد الريح فيموت الآدميون والبهائم بهذه الريح ، إلى ما لا يحصى من حكمة الله المشهودة في خلقه .

ونفاة التعليل يقولون نحن نعلم أن هذا مقارن لهذا بحكم العادة التي أجراها الله وإن لم يخلق شيئاً لشيء ، وكذلك من نفى الأسباب مع نفي التعليل أيضاً يقولون نحن نعلم أنه يخلق هذا عند هذا لا به ، فاقتران المعجز بالتصديق من هذا الباب عندهم لكن يبقى عليهم ، أن هذا لا يعلم إلا بالعادة ولا عادة فلا جرم رجعوا إلى فطرتهم من أن هذا أمر معلوم بالاضطرار وإن كان مناقضاً لأصلهم الفاسد ، وضربوا له مثلاً بالملك الذي أظهر ما يناقض عادته لتصديق رسوله .

لكن يقال لهم : الملك يفعل فعلا لمقصود ، فأمكن أن يقال : إنه قام

ليصدق رسوله ، وأنتم عندكم أن الله لا يفعل شيئاً لشيء ، فلم يبق المثل مطابقاً ، ولهذا صاروا مضطربين فى هذا الموضع تارة يقولون : المعجز دل على الصدق ، لئلا يفضى إلى تعجيز الرب ، فإنه لا دليل على الصدق إلا خلق المعجز ، فلو لم يكن دليلاً لزم أن يكون الرب غير قادر على تصديق الرسول الصادق وهذه طريقة الأشعرى فى أكثر كتبه ، وأحد قوليه ، وسلكها القاضى أبو بكر أحياناً وأبو إسحاق الاسفرائينى ، وأبو بكر بن فورك ، وأبو محمد بن اللبان ، وأبو على بن شاذان ، والقاضى أبو يعلى وغيرهم .

والثانى قالوا : نحن نعلم بالاضطرار أنه فعل هذا لأجل التصديق كالمثل المضروب ، وهذا هو القول الآخر وهى طريقة أبى الحسن الأشعرى فى أماليه ، وهى طريقة أبى المعالى وأتباعه كالرازى وغيره ، وتنازعوا هل يمكن خلق ذلك على يد كذاب ؟.

فقيل : لا يمكن ، لأنه لو أمكن لجاز وقوعه ، وقيل : بل هو مقدور ، لكن نعلم أنه لا يفعله ، كما نعلم أنه لا يفعل كثيراً من الخوارق المقدورات ، كقلب الجبل ياقوتاً ، والبحر زئبقاً .

قالوا : فنحن نجوز أشياء ونعلم بالضرورة أنه لا يفعلها ، فلا يلزم من كونها مقدورة ممكنة أن لا يعلم انتفاء وقوعها ، بل قد علم عدم وقوعها بالاضطرار وإن كنا نقول : إنها ممكنة مقدورة .

وظهور المعجزات على يد الكذاب فى دعوى النبوة من هذا الباب عندنا . وقالوا : المعجز علم على صدق الأنبياء فيمتنع أن يكون الدليل غير مستلزم المدلول عليه ، وهذا القول حق ، لكن منازعوهم يقولون : هو يستلزم نقيض ما نفوه من كون الله يخلق شيئاً لشيء ويخلق شيئاً بشيء ، وما قالوا من كونه يجوز عليه فعل كل شيء ، وكان ما ذكروه من الحق دليلا على أن الخلق يعلمون

مايعلمونه من حكمة الرب ومراده بما يخلقه لأمر آخر ، وأنه سبحانه منزه عن أن يفعل شيئاً ، لا يجوز منه فعل كل شيء .

وهم يقولون هنا : قد يكون الشيء ممكناً جائزاً مع العلم بأنه غير واقع ، كانقلاب الجبال ياقوتاً ، والبحر زئبقاً ، وموت أهل البلد كلهم فى لحظة ، ومصير الأطفال علماء حكماء فى لحظة واحدة .

وعلى هذا الجواب : يعتمدون كثيراً كما يذكره القاضى أبو بكر ، والقاضى أبو يعلى ، وأبو المعالى والرازى وغيرهم ، ثم إنهم يقولون فى العقل : إنه علوم ضرورية ، كالعلم بوجوب الواجبات ، وامتناع الممتنعات ، وجواز الجائزات ، فالممتنعات : كانقلاب دجلة دما ، وأمثال ذلك من الأمور العادية ، فيجعلون العادات واجبة تارة ، وممتنعة أخرى ، مع أنه لا سبب يوجب لا هذا ولا هذا .

ويقولون : نعلم أن هـذا جائز ممكن لا يتوقف على سبب ولا له مانع كالآخر ، ثم نعلم أن هذا واقع ، وهذا غير واقع لمجرد العادة ، مع أن خرق العادة ليس له عنده ضابط ، بل كل ما يخرق من العادات معجزات للأنبياء ، فيجوز أن يكون عندهم للولى وللساحر .

والفرق بينهما عندهم : التحدى أو عدم المعارضـة ، وكذلك المتفلسفة الملاحدة الذين يقولون : أسباب الآيات القوى الفلكية ، والقوى النفسانية والطبيعية ، وهذه كلها مشتركة عندهم بين الأنبياء والسحرة ، لـكن النبى يقصد الخير ، والعدل ، والساحر يقصد الشر ، والظلم .

وكذلك أولئك الذين وافقوا جهماً على أصله فى القدر ، لا فرق عندهم بين كرامات الأولياء وخوارق السحرة ، لـكن الولى مطيع لله ، والساحر غير مطيع لله .

هذا عمدة هؤلاء النفاة للحكمة والأسباب فى أفعال الله تعالى .

وجمهور الناس يخالفونهم ويقولون : هذا القول فاسد ، بل نفس تصوره

كاف فى العلم بفساده ، فإنه إذا تماثل هذا وهذا من كل وجه ، فمن أين يعلم وجود هذا أو وجوبه ، وعدم هذا أو امتناعه .

وإذا قيل : مستندى العادة . قيل له : منازعوك يقولون : هـذا باطل من وجهين .

أحدهما : أنك أنت تجوز انتقاض العادة ، وليس لانتقاضها عندك سبب تختص به ، ولا حكمة انتقضت لأجلها ، بل لا فرق عندك بين انتقاضها للأنبياء والأولياء والسحرة وغير ذلك ، ولهذا قلتم ليس بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء والسحرة فرق إلا مجرد اقتران دعوى النبوة ، والتحدى بالمعارضة مع عدم المعارضة، مع أن التحدى بالمعارضة قد يقع من المشرك ، بل ومن الساحر فلم يثبتوا فرقاً يعود إلى جنس الخوارق المفعوله ، ولا إلى قصد الفاعل والخالق ولا قدرته ولا حكمته .

والثانى : أن العادة لابد لها من أسباب وموانع يعلم بها اطرادها تارة ، وانتقاضها أخرى ، وبهذا يظهر الجواب عما قالوه : من أن انقلاب الجبل ذهباً ، والبحر زئبقاً ، والأناسى قروداً ، ونحو ذلك ممكن معلوم الجواز ، مع العلم بأنه لم يقع ، فإنهم يقال لهم : الناس لا يسلمون لكم أن هذا ممكن إلا مع لوازمه وانتفاء أضداده ، وحينئذ فيقال : لم قلتم إن هذا لا يستلزم أسباباً تكون قبله ، وموانع ترتفع كسائر ما يحدثه الله من الأمور الخارقة للعادة . فإنه لا يحدث شيئاً إلا بإحداث أسباب ، ودفع موانع .

مثال ذلك : غرق قوم نوح لم يكن ماء وجد بلا سبب ، بل أنزل الله ماء السماء وأنبع ماء الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَّبت قبلهم قومُ نوح فكذَّبوا عبدَنا وقالوا مجنون وازدُجِر فدَعا ربَّه أنّى مغلوبٌ فانتصر ، ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقَى الماء عَلَى أمرٍ قدْ قُدِرَ * وحَمَلْناه عَلَى ذاتِ ألْوَاحٍ ودُسُرٍ ﴾ .

وكذلك عاد لما أهلكهم ، أرسل عليهم الريح الصرصر سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، كما قال تعالى : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ؟ ﴾ .

وكذلك ثمود قال لهم صالح : ﴿ ياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب * فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب * فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنو معه برحمة منا ومن خزى يومئذ أن ربك هو القوى العزيز * وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم إلا بعداً لثمود ﴾ وكل ما وجد فى العالم من خوارق العادات : آيات الأنبياء وغيرها لم يأت منها شىء ، إلا بأسباب تقدمته ، فآيات موسى من مثل مصير العصى حية كانت بعد أن ألقاها ، إما عند أمر الله له بذلك لما ناداه من الشجرة ورأى النار الخارقة ، وإما عند مطالبة فرعون له بالآية ، وإما عند معارضة السحرة لتبتلع حبالهم وعصيهم .

وكذلك سائر آياته ، حتى إغراق فرعون ، كان بعد مسير الجيش وضربه البحر بالعصا ، وكذلك تفجير الماء من الحجر كان بعد أن ضرب الحجر بعصاه واستسقاء قومه إياه وهم فى برية لا ماء عندهم .

وكذلك آيات نبينا صلى الله عليه وسلم ، مثل تكثير الماء ، كان بوضع يده فيه حتى نبع الماء من بين الأصابع ، أى تفجر الماء من بين الأصابع لم يخرج من نفس الأصابع .

وكذلك البئر ، كان ماؤها يكثر إما بإلقائه سهما من كنانته فيها ، وإما بصبه الماء الذى بصق فيه فيها .

وكذلك المسيح ، كان يأخذ من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله إلى أمثال ذلك .

فأما جبل ينقلب ياقوتا بلا أسباب تقدمت ذلك ، فهذا لا كان ولا يكون .

وكذلك نهر يطرد يصبح لبنا بلا أسباب تقتضى ذلك يخلقها الله ، فهذا لا كان ولا يكون ، ومن قال إن الشيء ممكن ، فهذا يعنى به شيئان : يعنى به الإمكان الذهنى ، والإمكان الخارجى .

فالإمكان الذهنى : هو عدم العلم بالامتناع ، وهذا ليس فيه إلا عدم العلم بالامتناع ، وعدم العلم بالامتناع غير العلم بالإمكان ، فكل من لم يعلم امتناع شيء ، كان عنده ممكناً بهذا الاعتبار ، لكن هذا ليس بعلم بإمكانه ، ومن استدل على إمكان الشيء بأنه لو قدر لم يلزم منه محال من غير بيان انتفاء لزوم كل محال ، كما يفعله طائفة من أهل الكلام ، كالآمدى ونحوه لم يكن فيما ذكره إلا مجرد الدعوى .

وأما الثانى : وهو العلم بإمكان الشيء فى الخارج ، فهذا يعلم بأن يعلم وجوده ، أو وجود نظيره ، أو وجود ما هو أقرب إلى الامتناع منه ، فإذا كان حمل البعير للقنطار ممكناً كان حمله لتسعين رطلاً أولى بالإمكان ، وبهذه الطريقة يبين الله فى القرآن إمكان ما يريد بيان إمكانه ، كإحياء الموتى والمعاد فإنه يبين ذلك تارة ببيان وقوعه ، كما أخبر أن قوم موسى قالوا : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فأخذَتْهُم الصاعقةُ وهم ينظُرونَ ، ثُم بعثْنَهُمُ اللهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .

وكما أخبر عن المقتول الذى ضربوه بالبقرة فأحياه الله ، كما قال : ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادَّارَأْتُمْ فيهاَ واللهُ مخرجٌ ما كُنْتُم تكْتُمُونَ ، فقلْنَا اضرِبُوهُ بِبَعْضِهاَ كَذَلِكَ يحيي الله الموتَى ويريكم آياته لعلكُمْ تعقِلون ﴾ .

وكما أخبر عن الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله : موتوا ثم أحياهم .

وكما أخبر عن الذى: ﴿ مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال: أنى يحيى هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال: كم لبثتَ ؟ قال : لَبِثْتُ يوماً أو بعضَ يومٍ ، قال : بل لبثتَ مائةَ عامٍ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظرُ إلى حمارك ولنجعلكَ آيةً للناسِ ، وانظرُ إلى العِظَامِ كيفَ ننشِزُها ثمّ نَكسُوهَا لحماً ، فَلَمّا تبيّن له قالَ : أعلمُ أنَّ اللهَ على كلّ شيء قديرٌ ﴾ .

وأخبر سبحانه بنظير ذلك فى قصة إبراهيم حيث قال : ﴿ رَبِّ أرِنِى كيفَ تحيي الموتى : قال : أو لَم تؤمِنْ ؟ قالَ : بلَى ، ولـكِنْ ليطْمَئِن قلبى ، قال : فخُذْ أربعَةً مِنَ الطير فصُرْهُن إليكَ ، ثم اجْعَل على كل جبلٍ منهن جزءاً ، ثم ادْعُهُن يأتينَكَ سَعياً ، واعلمْ أنَّ الله عَزيزٌ حكيمٌ ﴾ .

واستدل سبحانه بما هو أعظم من ذلك ، وهو النشأة الأولى ، قال : ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ ، وقال : ﴿ إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفةٍ ، ثم من علقةٍ ، ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلقةٍ ، لنبيّن لـكم ونقرُّ فى الأرحام ما نشاء إلى أجلٍ مسمًّى ، ثم نُخرِجُـكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشُدكم ومنكم من يتوفى ومنـكم من يُرد إلى أرْذَل العُمُرِ لـكيْلاَ يعلم مِنْ بعد علم شيئاً وترَى الأرض هامِدَةً فإذا أنزلْنا عليْها المـاء اهتزّت وربَتْ وأنبتت من كل زوجٍ بهيجٍ ﴾ .

فاستدل سبحانه على إمكان الإحياء بابتداء خلق الحيوان و بخلق النبات ، وذكر ذلك فى القرآن فى غير موضع ، و بسط هذا له موضع آخر .

والمقصود : أن قول القائل هذا ممكن ، لا يحتاج إلى دليل لا يكفى فى العالم بإمكانه عدم العلم بامتناعه ، والله سبحانه على كل شىء قدير .

والممتنع ليس بشىء باتفاق العقلاء ، وكل ماخلقه الله فلا بد أن يخلق لوازمه

و يمتنع أضداده و إلا فيمتنع وجود الملزوم بدون اللازم ، و يمتنع اجتماع الضدين وليس للعباد اطلاع على لوازم كل مخلوق ولا أضداده المنافية لوجوده .

فالجزم بإمكان وجوده بدون العلم بلوازمه و إمكانها وأضدادها وانتفائها جهل ، والله سبحانه قادر على تغيير ما شاءه من العالم ، وهو يشق السموات ، و يسير الجبال و ينسفها نسفاً ، فيجعلها هباء منبثاً ، إلى أمثال ذلك مما أخبر الله به ، كما يخلق سائر ما يخلقه بما يسره من الأسباب ، وهذا مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا : أن آيات الأنبياء ودلائل صدقهم متنوعة قبل المبعث ، وحين المبعث فى حياتهم و بعد موتهم ، فقبل : مثل أخبار من تقدم من الأنبياء ، ومثل الإرهاصات الدالة عليه .

وأما حين المبعث فظاهر ، وأما فى حياته فمثل نصره ، وانجائه و إهلاك أعدائه ، وأما بعد موته ، فمثل نصر أتباعه و إهلاك أعدائه ، كما قال تعالى : ﴿إنا لننصرُ رُسلَنَا والذين آمنُوا فى الحياةِ الدنيَا و يومَ يقُومُ الأشْهَادُ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقد سَبَقَتْ كلمتنا لعبادنا المرسَلينَ * إنَّهُمْ لهم المنصورون * و إن جُندنا لهم الغالبون ﴾ وقال للمسيح : ﴿إنى متوفِّيك ورافعُك إلىَّ ومطهِّرُكَ من الذين كفروا ، وجاعلُ الذينَ اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ وقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قالَ عيسى بنُ مريم للحوار يين من أنصارى إلى الله ؟ قال الحوار يُّون : نحنُ أنصار اللهِ فآمنت طائفةٌ من بنى إسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهر ين ﴾

ومحمد صلى الله عليه وسلم ، جعلت له الآيات البينات قبل مبعثه وحين مبعثه ، وفى حياته و بعد موته ، و إلى قيام الساعة ، فإن ذكره إلى الساعة وذكر كتابه والبشارة بذلك موجود فى الكتب المتقدمة ، كما قد بسط فى موضعه ، وقد تقدم بعض ذلك .

والخليل دعا به فقال فى دعائه لذريته : ﴿ ر بنا وابعثْ فيهم رسُولاً منهم

يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتابَ والحكمةَ ويزكيهم ﴾ .

ولما ولد اقترن بمولده من الآيات ما هو معروف وجرى ذلك العام قصة أصحاب الفيل المشهورة ، وكان يحصل له فى مدة نشأته من الآيات والدلائل أمور كثيرة ، قد ذكر طرف منها فى كتب دلائل النبوة والسيرة وغيرها مثل الآيات التى حصلت لمرضعته لما صار عندها .

ومثل ما شوهد من أحواله فى صغره ، وأما انتصار الله له ولأتباعه وإعلاء ذكره ، ونشر لسان الصدق له ، وإهلاك أعدائه ، وإذلال من يحاده ويشاقه ، وإظهار دينه على كل دين باليد ، واللسان ، والدليل ، والبرهان ، فهذا مما يطول وصف تفصيله ، قال تعالى : ﴿ قد كانتْ لكم آيةٌ فى فئتين التقتا فئةٌ تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرةٌ يرونهم مثليهم رأى العينَ والله يؤيد بنصرهِ من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنُّوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعبَ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ .

والأنبياء صلوات الله عليهم وأتباعهم المؤمنون وإن كانوا يبتلون فى أول الأمر ، فالعاقبة لهم ، كما قال تعالى لما قص قصة نوح : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ .

وفى الحديث المتفق على صحته لما أرسل النبى صلى الله عليه وسلم رسولاً إلى ملك الروم فطلب من يخبره بسيرته ، وكان المشركون حينئذ أعداءه لم يكونوا آمنوا به فقال : كيف الحرب بينكم وبينه ؟ قالوا : الحرب بيننا وبينه سجال ، يدال علينا المرة ، وندال عليه الأخرى .

فقال : كذلك الرسل تبتلى وتكون لها العاقبة .

فإنه كان يوم بدر ، نصر الله المؤمنين ، ثم يوم أحد ابتلى المؤمنين ، ثم لم ينصر الكفار بعدها حتى أظهر الله الإسلام .

فإن قيل : ففي الأنبياء من قد قتل ، كما أخبر الله أن بنى إسرائيل يقتلون النبيين بغير حق ، وفى أهل الفجور من يؤتيه الله ملكا وسلطانا ، ويسلطه على المتدينين ، كما سلط بخت نصر على بنى إسرائيل ، وكما سلط كفار المشركين وأهل الكتاب أحيانا على المسلمين .

قيل : أما من قتل من الأنبياء ، فهم كمن يقتل من المؤمنين فى الجهاد شهيداً . قال تعالى : ﴿ وكأين من نبىّ قاتَلَ معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحبُّ الصَّابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبتْ أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهُم الله ثوَابَ الدنيا وحُسن ثوابِ الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ .

ومعلوم أن من قتل من المؤمنين شهيداً فى القتال ، كان حاله ، أكمل من حال من يموت حتف أنفه ، قال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ ، ولهذا قال تعالى: ﴿ قل هَلْ تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ﴾ .

أى : إما النصر والظفر ، وإما الشهادة والجنة ، ثم الدين الذى قاتل عليه الشهداء ينتصر ويظهر ، فيكون لطائفته السعادة فى الدنيا والآخرة ، من قتل منهم كان شهيداً ، ومن عاش منصوراً سعيداً ، وهذا غاية ما يكون من النصر ، إذ كان الموت لا بد منه ، فالموت على الوجه الذى تحصل بها سعادة الدنيا والآخرة ، أكمل بخلاف من يهلك هو وطائفته ، فلا يفوز لا هو ولا هم بمطلوبهم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

والشهداء من المؤمنين قاتلوا باختيارهم ، وفعلوا الأسباب التى بها قتلوا ، كالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فهم اختاروا هذا الموت ، إما أنهم قصدوا الشهادة ، و إما أنهم قصدوا ما به يصيرون شهداء عالمين بأن لهم السعادة فى الآخرة وفى الدنيا بانتصار طائفتهم ، و ببقاء لسان الصدق لهم ثناء ودعاء ، بخلاف من هلك من الكفار ، فإنهم هلكوا بغير اختيارهم هلاكا لا يرجون معه سعادة الآخرة ، ولم يحصل لهم ولا لطائفتهم شىء من سعادة الدنيا ، بل اتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ، و يوم القيامة هم من المقبوحين وقيل فيهم : ﴿ كم تركوا من جنّات وعُيُون ، وزروع ومقام كريم ، ونَعْمَةٍ كانوا فيها فَاكِهِينَ ، كذلك وأورثناها قوما آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ .

وقد أخبر سبحانه أن كثيراً من الأنبياء قتل معه ربيون كثير ، أى ألوف كثيرة ، وأنهم ما ضعفوا ولا استكانوا لذلك ، بل استغفروا من ذنوبهم التى كانت سبب ظهور العدو ، وأن الله أتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

فإذا كان هذا قتل المؤمنين ، فما الظن بقتل الأنبياء ، ففيه لهم ولأتباعهم من سعادة الدنيا والآخرة ما هو من أعظم الفلاح .

وظهور الكفار على المؤمنين أحيانا هو سبب ذنوب المسلمين ، كيوم أحد ، فإن تابوا انتصروا على الكفار وكانت العاقبة لهم ، كما قد جرى مثل هذا للمسلمين فى عامة ملاحمهم مع الكفار ، وهذا من آيات النبوة وأعلامها ودلائلها ، فإن النبى — إذا قاموا بعهوده ووصاياه نصرهم الله وأظهرهم على المخالفين له ، فإذا ضيعوا عهوده ظهر عليهم ، فمدار النصر والظهور مع متابعة النبى وجوداً وعدما من غير سبب يزاحم ذلك ، ودوران الحكم مع الوصف وجودا وعدما من غير مزاحمة وصف آخر يوجب العلم بأن المدار علة للدائر .

وقولنا من غير مزاحمة وصف آخر يزيل النقوض الوارة ، فهذا الاستقراء

والتتبع يبين أن نصر الله وإظهاره هو بسبب اتباع النبي ، وأنه سبحانه يريد إعلاء كلمته ونصره ونصر أتباعه على من خالفهم ، وأن يجعل لهم السعادة ، ولمن خالفهم الشقاء ، وهذا يوجب العلم بنبوته وأن من اتبعه كان سعيدا ، ومن خالفه كان شقياً ، ومن هذا : ظهور بخت نصر على بني إسرائيل ، فإنه من دلائل نبوة موسى إذ كان ظهور بخت نصر ، إنما كان لما غيروا عهود موسى ، وتركوا اتباعه ، فعوقبوا بذلك وكانوا إذ كانوا متبعين لعهود موسى منصورين مؤيدين ، كما كانوا في زمن داود وسليمان وغيرهما . قال تعالى : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيراً * فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا * ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً * إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا ، عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا ﴾ .

فكان ظهور بني إسرائيل على عدوهم تارة ، وظهور عدوهم عليهم تارة من دلائل نبوة موسى صلى الله عليه وسلم وآياته ، وكذلك ظهور أمة محمد صلى الله عليه وسلم على عدوهم تارة ، وظهور عدوهم تارة ، هو من دلائل رسالة محمد وأعلام نبوته ، وكان نصر الله لموسى وقومه على عدوهم في حياته وبعد موته كما جرى لهم من يوشع وغيره ، من دلائل نبوة موسى .

وكذلك انتصار المؤمنين مع محمد صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد مماته مع خلفائه ، من أعلام نبوته ودلائلها ، وهذا بخلاف الكفار الذين ينتصرون على أهل الكتاب أحيانا ، فإن أولئك لا يقول مطاعهم إني نبي ، ولا يقاتلون أتباع الأنبياء على دين ، ولا يطلبون من أولئك أن يتبعوهم على دينهم ، بل قد يصرحون بأنا إنما نصرنا عليكم بذنوبكم وأن لو اتبعتم دينكم لم ننصر عليكم ،

وأيضاً فلا عاقبة لهم ، بل الله يهلك الظالم بالظالم ، ثم يهلك الظالمين جميعاً ، ولا قتيلهم يطلب بقتله سعادة بعد الموت ، ولا يختارون القتل ليسعدوا بعد الموت ، فهذا وأمثاله مما يظهر به الفرق بين انتصار الأنبياء وأتباعهم ، و بين ظهور بعض الكفار على المؤمنين أو ظهور بعضهم على بعض .

و بين أن ظهور محمد وأمته على أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، هو من جنس ظهورهم على المشركين عباد الأوثان ، وذلك من أعلام نبوته ودلائل رسالته ليس هو كظهور بختنصر على بنى إسرائيل وظهور الكفار على المسلمين ، وهذه الآية مما أخبر بها موسى .

و بين أن الكذاب المدعى للنبوة لا يتم أمره ، وإنما يتم أمر الصادق ، فإن من أهل الكتاب من يقول : محمد وأمته سلطوا علينا بذنو بنا مع صحة ديننا الذى نحن عليه ، كما سلط بخت نصر وغيره من الملوك .

وهذا قياس فاسد ، فإن بختنصر لم يدع نبوه ، ولا قاتل على دين ، ولا طلب من بنى إسرائيل أن ينتقلوا عن شريعة موسى إلى شريعته ، فلم يكن فى ظهوره إتمام لما ادعاه من النبوة ، ودعا إليه من الدين، بل كان بمنزلة المحار بين قطاع الطريق ، إذا ظهروا على القوافل بخلاف من ادعى نبوة ودينا دعا إليه ، ووعد أهله بسعادة الدنيا والآخرة ، وتوعد مخالفيه بشقاوه الدنيا والآخرة ، ثم نصره الله وأظهره ، وأتم دينه ، وأعلا كلمته ، وجعل له العاقبة وأذل مخالفيه .

فإن هذا من جنس خرق العادات المقترن بدعوى النبوة ، فإنه دليل عليها وذاك من جنس خرق العادات التى لم تقترن بدعوى النبوة ، فإنه ليس دليلا عليها ، وقد يغرق فى البحر أمم كثيرة ، فلا يكون ذلك دليلا على نبوة نبى بخلاف غرق فرعون وقومه ، فإنه كان آية بينة لموسى ، وهذا موافق لما أخبر به موسى عليه الصلاة والسلام من أن الكذاب لا يتم أمره ، وذلك بأن الله حكيم لا يليق به تأييد الكذاب على كذبه من غير أن يبين كذبه ، ولهذا أعظم الفتن فتنة الدجال

الـكذاب ، لما اقترن بدعواه الإلهية بعض الخوارق ، كان معها مايدل على كذبه من وجوه .

منها : دعواه الإلهية وهو أعور ، والله ليس بأعور مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ ، والله تعالى لا يراه أحد حتى يموت .

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم هذه العلامات الثلاث فى الأحاديث الصحيحة ، فأما تأييد الـكذاب ونصره وإظهار دعوته دائماً ، فهذا لم يقع قط ، فمن يستدل على مايفعله الرب سبحانه بالعادة والسنة ، فهذا هو الواقع على ذلك أيضاً بالحـكمة ، فحـكمته تناقض أن يفعل ذلك إذ الحـكيم لا يفعل هذا ، وقد قال تعالى ﴿ ولو قاتلـكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لايجدون وليا ولا نصيرا سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ .

وأخبر أن سنة الله التى لاتبديل لها نصر المؤمنين على الـكافرين .

والإيمان المستلزم لذلك يتضمن طاعة الله ورسوله ، فإذا نقص الإيمان بالمعاصى كان الأمر بحسبه كما جرى يوم أحد وقال تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفوراً استكباراً فى الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المـكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ .

وأخبر أن الـكفار لاينظرون إلا سنة الأولين ، ولا يوجد لسنة الله تبديل ، لاتبدل بغيرها ، ولا تتحول ، فـكيف النصر للـكفار على المؤمنين الذين يستحقون هذا الاسم ؟ .

وكذلك قال فى المنافقين وهم الـكفار فى الباطن دون الظاهر ومن فيه شعبة نفاق : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ .

والسنة هى العادة ، فهذه عادة الله المعلومة ، فإذا نصر من ادعى النبوة واتباعه على من خالفه ، إما ظاهراً و إما باطنا نصراً مستقراً ، فإن ذلك دليل على أنه نبى صادق إذ كانت سنة الله وعادته نصر المؤمنين بالأنبياء الصادقين على الكافرين والمنافقين ، كما أن سنته تأييدهم بالآيات البينات وهذه منها .

ومن ادعى النبوة وهو كاذب ، فهو من أكفر الكفار ، وأظلم الظالمين ، قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ وقال تعالى: ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه ﴾ وقال تعالى: ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القومُ الظالمين ﴾ .

ومن كان كذلك ، كان الله يمقته ، و يبغضه ، و يعاقبه ، ولا يدوم أمره ، بل هو كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة قال : « إن الله يملى للظالم ، فإذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

وقال أيضاً فى الصحيح عن أبى موسى أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تقيمها الرياح تارة وتميلها أخرى ، ومثل المنافق مثل شجرة الأرز لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة » .

فالكاذب الفاجر و إن عظمت دولته ، فلا بد من زوالها بالكلية و بقاء ذمّه ، ولسان السوء له فى العالم وهو يظهر سريعاً و يزول سريعاً ، كدولة الأسود العنسى ومسيلمة الكذاب ، والحارث الدمشقى ، و بابا الرومى ونحوهم .

وأما الأنبياء ، فإنهم يبتلون كثيراً ليمحصوا بالبلاء ، فإن الله إنما يمكن العبد إذا ابتلاه و يظهر أمرهم شيئاً فشيئاً ، كالزرع ، قال تعالى : ﴿ محمد رسول الله

والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه ـ أى فراخه ـ فآزره ـ أى قواه ـ فاستغلظ فاستوى على سوقه ـ أى قوائمه ـ يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما ﴾ .

ولهذا كان أول ما يتبعهم ضعفاء الناس ، فاعتبار هذه الأمور وسنة الله فى أوليائه وأنبيائه الصادقين ، وفى أعداء الله والمتنبئين الكذابين مما يوجب الفرق بين النوعين ، و بين دلائل النبي الصادق ودلائل المتنبيء الكذاب .

وقد ذكر ابتلاء النبي والمؤمنين ، ثم كون العاقبة لهم فى غير موضع ، كقوله تعالى ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون * حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فَنُجِّيَ من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين * لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

فصــــل

ومما ينبغى أن يعرف ، أن الادلة نوعان :

نوع : يدل على مجرد العلم بالمدلول عليه .

ونوع : يحض مع ذلك على الرغبة فيه ، أو الرهبة منه .

فالأول : من جنس الخبر المجرد .

والثانى : من جنس الحث ، والطلب ، والإرادة والأمر بالشىء والنهى عنه وذلك كمن علم أن فى المكان الفلانى جمادات أو حيوانات ، أو نبات ليس له فيها غرض ، لاحب ، ولا بغض ، فليس هو بمنزلة من علم أن فى المكان الفلانى صديقه ، وولده ، ومحبوبه ، وماله ، وأهله ، وأهل دينه ، وفى المكان الفلانى عدوه ، ومبغضه ، ومن يقطع عليه الطريق ، ويقتله ، ويأخذ ماله .

فكذلك دلائل النبوة ، هى كلها تدل على صدق النبى ، ثم يعلم مايخبر به النبى من الأمر والنهى والوعد والوعيد ، لأنه أخبر عن الله بذلك وهو صادق فيما يخبر به ، فهذا طريق صحيح عام .

وأما إثبات نبوة الأنبياء بما فعله بهم وبأتباعهم من النجاة ، والسعادة ، والنصرة ، وحسن العاقبة ، وما جعله لهم من لسان الصدق ، وما فعله بمكذبيه ومخالفيه من الهلاك ، والعذاب ، وسوء العاقبة ، وإتباعهم اللعنة فى الدنيا مع عذاب الآخرة ، فهذا يدل مع صدق الأنبياء على الرغبة فى اتباعهم ، والرهبة من مخالفتهم ، ففيه العلم بصدقهم ، والموعظة للخلق ، والوعظ هو أمر ونهى بترغيب وترهيب ، قال تعالى : ﴿ ولو أنهم فعلوا مايوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما ولهديناهم صراطاً مستقيما ﴾ أى : ولو أنهم فعلوا مايوعظون به ، وما يؤمرون به : وقال ﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ﴾ أى ينهاكم الله أن تعودوا لمثله ، وهذه الطريق أكمل وأبلغ فى

حصول المقصود ، فإنها تفيد العلم بصدقهم ، والرغبة فى اتباعهم ، والرهبة من خلافهم ، وتفيد ثبوت صحة الدين الذى دعوا إليه ، وسعادة أهله ، وفساد الدين المخالف لدينهم وشقاوة أهله .

ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المجامع الكبار ، كصلاة العيد « بقاف » و « إقتربت الساعة » لما فيهما من بيان ذلك ، وسورة قاف ، كان يقرأ بها فى الجمعة ، فإنها جامعة لإثبات النبوات والمعاد ، مع مافيها من التوحيد ، وأصول الشرائع ، و بيان حال متبعى الأنبياء ومخالفيهم فى الدنيا ، كما قال تعالى فيها : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون و إخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾ .

فصــــل

ومما ينبغى أن يعلم : أن الله إذا أرسل نبياً وأتى بآية دالة على صدقه ، قامت بها الحجة ، وظهرت بها المحجة ، فمن طالبهم بآية ثانية ، لم تجب إجابته إلى ذلك بل وقد لاينبغى ذلك ، لأنه إذا جاء بآية ثانية طولب بثالثة ، و إذا جاء بثالثة طولب برابعة ، فإن طلب المتعنتين لا أمد له ، ومعلوم أنه من قامت عليه حجة بينة فى مسألة علم أو حق من حقوق العباد التى يتخاصمون فيها لو قال: أنا لا أقبل حتى تقوم عليه حجة ثانية وثالثة ، كان ظالماً متعدياً ، ولم تجب إجابته إلى ذلك ولا يمكن الحكام الخصوم من ذلك ، بل إذا قامت البينة بحق المدعى حكم له بذلك ولو قال المطلوب أريد بينة ثانية وثالثة ورابعة ، لم يجب إلى ذلك .

فحق الله الذى أوجبه على عباده من توحيده والإيمان به و برسله أولى إذ أقام بينة أوجبت على الخلق الإيمان برسله ، أن لايجب إجابة الطالب إلى ثانية وثالثة ثم قد يكون فى تتابع الآيات حكمة فيتابع تعالى بين الآيات ، كما أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بآيات متعددة ، لعموم دعوته وشمولها ، فإن الأدلة كلما كثرت وتواردت على مدلول واحد كان أوكد ، وأظهر وأيسر لمعرفة الحق ، فقد

يعرف دلالة أحد الأدلة من لا يعرف الآخر ، وقد يبلغ هذا ما لم يبلغ هذا ، وقد يرسل الأنبياء بآيات متتابعة ، ويقسى قلوب الكفار عن الإيمان لتتابع الآيات آية بعد آية ، لينتشر ذلك ويظهر ، ويبلغ ذلك قوما آخرين ، فيكون ذلك سبباً لإيمانهم ، كما فعل بآيات موسى وآيات محمد ، كما ذكر فى التوراة أنه يقسى قلب فرعون ، لتظهر عجائبه وآياته ، وكما صد المكذبين عن الإيمان بمحمد حتى يعارضوه ، ويمانعوه ، ويسعوا فى معارضته ، والقدح فى آياته ، فيظهر بذلك عجزهم عن معارضة القرآن وغيره من آياته فيكون ذلك من تمام ظهور آياته وبراهينه ، بخلاف مالو اتبع ابتداء بدون ذلك ، فإنه قد كان يظن أنهم قادرون على معارضته ، وكذلك أيضاً يكون فى ذلك من يقينه ، وصبره ، وجهاده ، ويقين من آمن به ، وصبرهم ، وجهادهم ماينالون به عظيم الدرجات فى الدنيا والآخرة .

وقد تقتضى الحكمة أن لا يرسل بالآيات التى توجب عذاب الاستئصال ، كما ذكره الله فى كتابه من أن الكفار كانوا يقترحون على الأنبياء آيات غير الآيات التى جاؤا بها فتارة يجيبهم الله إلى ذلك لما فيه من الحكمة والمصلحة ، وتارة لايجيبهم لما فى ذلك من المضرة والمفسدة عند جمهور أهل الملل من المسلمين وغيرهم ؛ الذين يقولون : إنه يفعل للحكمة ومن لم يعلل أفعاله يرد ذلك إلى محض المشيئة ، ويقول : اقترن بالمراد المصلحة والمفسدة عادة وسنة من الله ، وإن لم يفعل هذا لهذا .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ربما طلب تلك الآيات رغبة منه فى إيمانهم بها فيجاب بأن الآيات لاتستلزم الهدى بل تستلزم إقامة الحجة وتوجب عذاب الاستئصال لمن كذب بها ، والله تعالى قد يظهر الآيات الكثيرة مع طبعه على قلب الكافر ، كما فعل بفرعون وأبى لهب وغيرهما لما فى ذلك من الحكمة العظيمة ، كما دل على ذلك القرآن والتوراة وغيرهما وقد تبين أنه لايظهرها لانتفاء

الحكمة فيها ، أو لوجود المفسدة ، قال تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ، ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ .

بين سبحانه أنه مامنعه أن يرسل بالآيات إلا تكذيب الأولين بها ، الذى استحقوا بها الهلاك ، فإذا كذب بها هؤلاء استحقوا ما استحقه أولئك من عذاب الاستئصال ، وهذا المعنى مذكور فى عامة كتب التفسير والحديث ، وغيرها من كتب المسلمين ، وهو معروف بالأسانيد الثابتة عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، فقد ذكر المفسرون مارواه أهل التفسير والحديث والمسند وغيرهم من حديث الأعمش عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « سأل أهل مكة النبى صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحى عنهم الجبال حتى يزرعوا ، قال : فقيل له : إن شئت تستأنى بهم نجتبى منهم ، وإن شئت أن تؤتيهم الذى سألوا فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم ، قال : لا بل أستأنى بهم ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ رواه أحمد والنسائى من حديث جرير عن الأعمش .

وروى الإمام أحمد ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، أنبأنا سفيان عن سلمة ابن كهيل ، عن عمران بن حكيم عن ابن عباس قال : قالت قريش للنبى صلى الله عليه وسلم : «ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً ، ونؤمن لك قال : وتفعلون ؟ قالوا : نعم . قال : فدعا فأتاه جبريل فقال : إن ربك يقرئك السلام ويقول : إن

شئت أصبح الصفا لهم ذهباً ، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين . وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة ، قال : بل باب التوبة والرحمة »

وروى ابن أبى حاتم وغيره عن مالك بن دينار قال : سمعت الحسن يعنى البصرى فى قوله : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ ، قال : رحمة لكم أيتها الأمة أنا لو أرسلنا بالآيات فكذبتم بها أصابكم ما أصاب من قبلكم .

وفى الإنجيل : « أن اليهود طلبوا من المسيح آية من السماء ، فقال لهم المسيح : الأمة الفاجرة تطلب آية ولا تعطى إلا مثل آية يونان - يعنى ذا النون - » وقد كانت الآيات يأتى بها صلى الله عليه وسلم آية بعد آية ، فلا يؤمنون بها .

قال تعالى : ﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين * فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون * ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين * ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين * وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ولبسنا عليهم ما يلبسون * ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون * قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ .

أخبر سبحانه بأن الآيات تأتيهم ، وما تأتيهم من آيات إلا أعرضوا عنها وأنهم بتكذيبهم الحق سوف يرون صدق ما جاء به الرسول ، كما أهلك من قبلهم بذنوبهم التى هى تكذيب الرسول ، فإن الله يقول : ﴿ وما كان ربك

مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ .

وأخبر بشدة عن قوة كفرهم بأنه لو أنزل عليهم كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا منهم : إن هذا إلا سحر مبين .

و بين سبحانه أنه لو جعل الرسول ملكا لجعله على صورة الرجل ، إذ كانوا لا يطيقون أن يروا الملائكة فى صورهم ، وحينئذ فكان اللبس يقع لظنهم أن الرسول بشر لا ملك .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا * قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ .

وهذه الآيات التى اقترحوها لو أجيبوا بها ولم يؤمنوا بها أتاهم عذاب الاستئصال كما تقدم .

وأيضاً فهى مما لا يصلح الإتيان بها ، فإن قولهم حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً يقتضى تفجير الينبوع بأرض مكة فيصير واديا ذا زرع ، والله من حكمته جعل بيته بواد غير ذى زرع ، لئلا يكون عنده ما ترغب النفوس فيه من الدنيا ، فيكون حجهم للدنيا لا لله ، و إذا كان له جنة من نخيل وأعناب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، كان فى هذا من التوسع فى الدنيا ما يقتضى نقص درجته وانخفاض منزلته .

وكذلك إذا كان له بيت من زخرف ، والزخرف الذهب ، وأما إسقاط

السماء كسفاً ، فهذا لا يكون إلا يوم القيامة ، وهو لم يخبرهم أن هذا يكون إلا يوم القيامة .

فقولهم : كما زعمت كذب عليه إلا أن يريدوا التمثيل فيكون القياس فاسد

وأما الإتيان بالله والملائكة قبيلا ، فهذا لما سأل قوم موسى ما هو دونه أخذتهم الصاعقة .

قال تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾

وأما إنزال الكتاب فقد قال تعالى : ﴿ يسألكَ أهلُ الكتابِ أن تُنَزِّلَ عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبرَ من ذلك فقالوا أرنَا اللهَ جهرةً فأخذتْهُمُ الصاعقةُ بظلمهم ثم اتخذُوا العجلَ من بعد ما جاءتْهُمُ البيناتُ فعفونَا عن ذلكَ وآتينا موسى سلطانا مبيناً * ورفعنا فوقَهُمُ الطورَ بميثاقِهم وقلنا لَهُمُ ادخلوا الباب سُجَّدًا وقلنا لهم لا تعْدوا في السَّبْتِ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حقٍ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا * وبكفرهِمْ وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيهِ لَفِي شكٍّ منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيماً * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنَنَّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً * فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أُحِلَّتْ لهم وبصدهم عن سبيل اللهِ كثيرا * وأخذِهِمُ الربا وقد نُهُوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴾ ، [سورة النساء : ١٥٣ – ١٦١] .

بين سبحانه أن المشركين سألوه إنزال كتاب ، وأهل الكتاب سألوه ذلك .

وبين سبحانه أن الطائفتين لا يؤمنون إذا جاءهم ذلك ، وإنما سألوه تعنتاً

فقال عن المشركين : ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ .

وذكر عن أهل الكتاب أنهم سألوا موسى أكبر من ذلك ، وهو رؤية الله جهرة ، فقال : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴾ ، وأنهم عبدوا العجل لما قال: ﴿ ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك ﴾ ، وأن الله آتى موسى سلطاناً مبينا ، ورفع الطور فوقهم وقال لهم لا تعدوا فى السبت وأخذ منهم ميثاقاً غليظاً كما قال : ﴿ وآتينا موسى سلطانا مبيناً ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ وإنهم مع هذا نقضوا الميثاق ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا النبيين بغير حق إلى أمثال ذلك ، وأنه بسبب ظلمهم وصدهم عن سبيل الله حرم عليهم طيبات أحلت لهم ، فكان فى هذا من الاعتبار لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن هذه الأمة المكذبة بك الذين لا يهتدون إذا جاءتهم الآيات المقترحة التى اقترحوها لم بك فى مجيئها منفعة لهم ، بل فيها ما يوجب استحقاقهم عقوبة الاستئصال إذا جاءتهم ، فلم يؤمنوا بها و بك ، وتغليظ الأمر عليهم ، فكان أن لا ينزل مثل هذه الآيات الموجبة لعذاب الاستئصال أعظم رحمة وحكمة .

وقد عرض الله على محمد صلى الله عليه وسلم أن يهلك قومه لما كذبوه فقال : « بل استأنى بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً » .

كما فى الصحيحين عن عائشة أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ فقال « لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلاب ،

فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت على وجهى وأنا مهموم ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فإذا فيها جبريل ، فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فنادانى ملك الجبال فسلم على وقال : إن الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك ، وقد بعثنى إليك لتأمرنى بما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت ؟ فقال : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً . أخرجاه .

ولهذا لما طلب من المسيح المائدة ، كانت من الآيات الموجبة لمن كفر بها عذاباً لم يعذبه أحدا من العالمين .

قال تعالى : ﴿ إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين • قالوا : نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين • قال عيسى بن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين • قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحدا من العالمين ﴾ .

وكان قبل نزول التوراة يهلك الله المكذبين للرسل بعذاب الاستئصال عذاباً عاجلا يهلك الله به جميع المكذبين ، كما أهلك قوم نوح ، وكما أهلك عادا وثمود ، وأهل مدين ، وقوم لوط ، وكما أهلك قوم فرعون ، وأظهر آيات كثيرة لما أرسل موسى ليبقى ذكرها وخبرها فى الأرض ، إذ كان بعد نزول التوراة لم يهلك أمة بعذاب الاستئصال ، بل قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس ، بل كان بنو إسرائيل لما يفعلون ما يفعلون من الكفر والمعاصى يعذب بعضهم ويبقى بعضهم ، إذ كانوا لم يتفقوا على الكفر .

ولهذا لم تزل فى الأرض أمة من بنى إسرائيل باقية .

قال تعالى: لما ذكر بنى إسرائيل : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك و بلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ وقد قال تعالى : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر و يسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ .

فكان من حكمته ورحمته سبحانه وتعالى لما أرسل محمدا أن لا يهلك قومه بعذاب الاستئصال ، كما أهلكت الأمم قبلهم ، بل عذب بعضهم بدون ذلك من أنواع العذاب ، كما عذب طوائف ممن كذبه بأنواع من العذاب ، كالمستهزئين الذين قال الله فيهم : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين * الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ﴾ فعذب كل واحد بعذاب معروف .

وكالذى دعا عليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال فيه : « اللهم سلط عليه كلباً من كلابك » فكان يحترس بقومه فجاءه الأسد فتخطى الحلقة حتى أخذه من وسطها فقتله ، وأمثال ذلك مما هو موجود إلى زماننا هذا .

وقال تعالى للكفار : ﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴾ .

فأخبر أنه يعذب الكفار تارة بعذاب من عنده ، وتارة بأيدى عباده المؤمنين بالجهاد ، و إقامة الحدود ، وتارة بعذاب غير ذلك ، فكان يعذبهم بمثل هذه الأسباب مما يوجب إيمان أكثرهم ، كما جرى لقريش وغيرهم ، فإنهم لما كذبوه ، لو أهلكهم كما أهلك قوم فرعون ومن قبلهم لبادوا وانقطعت المنفعة به عنهم ، ولم يبق لهم ذرية تؤمن به بخلاف ما إذا عذب بعضهم بأنواع من العذاب ولو بالهزيمة والأسر ، وقتل بعضهم ، كما عذبوا يوم بدر ، فإن فى هذا من إذلالهم وقهرهم ما يوجب عجزهم مع بقائهم ، والنفوس إذا كانت قادرة على كمال أغراضها ، فلا تكاد تنصرف عنها بخلاف ما إذا عجزت عن كمال

أغراضها ، فإن ذلك مما يدعوها إلى التوبة ، كما يقال : من العصمة أن لا تقدر فكان ما وقع بهم تعجيزا وزاجرا وداعياً إلى التوبة .

ولهذا آمن عامتهم بعد ذلك ولم يقتل منهم إلا قليل ، وهم صناديد الكفر الذين كان أحدهم فى هذه الأمة كفرعون فى تلك الأمة .

كما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عن أبى جهل : « هذا فرعون هذه الأمة » .

وقد ذكر الله لموسى فى التوراة أنى أقسى قلب فرعون فلا يؤمن بك لأظهر آياتى وعجائبى .

بين أن فى ذلك من الحكمة انتشار آياته الدالة على صدق أنبيائه فى الأرض ، إذ كان موسى قد أخبر بتكليم الله له و بكتابة التوراة له ، فأظهر الله من الآيات ما يبقى ذكرها فى الأرض ، وكان فى ضمن ذلك من تقسيته قلب فرعون ما أوجب أن أهلكه وقومه أجمعين ، وفرعون كان جاحدا للصانع ، منكراً لربوبيته لا يقر به ، فلذلك أتى من الآيات بما يناسب حاله .

وأما بنو إسرائيل مع المسيح ، فكانوا مقرين بالكتاب الأول ، فلم يحتاجوا إلى مثل ما احتاج إليه موسى ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن محتاجا إلى تقرير جنس النبوة ، إذ كانت الرسل قبله جاءت بما ثَبَّتَ ذلك ، وقومه كانوا مقرين بالصانع ، وإنما كانت الحاجة داعية إلى تثبيت نبوته .

ومع هذا ، فأظهر الله على يديه من الآيات مثل آيات من قبله وأعظم .

ومع هذا ، فلم يأت بآيات الاستئصال التى يستحق مكذبها العذاب العام العاجل ، كما استحقه قوم فرعون ، وهود ، وصالح ، وشعيب وغيرهم .

فلهذا يبين الله فى القرآن أن هذه الآيات إذا جاءت لا تنفعهم ، إذ كانوا لا يؤمنون بها ، ولكن تضرهم ، إذ كانوا يستحقون عذاب الاستئصال إذا كذبوا حينئذ ، ومع وجود المانع وعدم المقتضى لا يصلح الفعل على قول الجمهور

القائلين بالحكمة ، ومن لم يعلل فلا يطلب سبباً ولا حكمة ، أو يطلب سبباً بلا حكمة ، بل يرد الأمر إلى محض المشيئة .

قال تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ ، وهو يعلم أن قلوب هؤلاء ، كقلوب أولئك الأولين ، فيكذبون بها فيستحقون بها ما استحقه أولئك ، كقوم نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط وغيرهم .

قال تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ، أتواصوا به بل هم قوم طاغون * فتول عنهم فما أنت بملوم وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ﴾ .

وقال تعالى عن أهل الكتاب : ﴿ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر * أم يقولون نحن جميع منتصر * سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾ .

ذكر هذا فى سورة اقتربت التى ذكر فيها انشقاق القمر ، وإعراضهم عن الآيات ، وقولهم : هذا سحر مستمر ، وتكذيبهم واتباع أهوائهم ، فقال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾ .

ثم قال : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴾ أى من أنباء الغيب وما أخبر به ما فيه ، مزدجر : أى ما يزجرهم عن الكفر ، إذ كان فى تلك الإنباءات بيان صدق الرسول ، والإنذار لمن كذبه بالعذاب كما عذب المتقدمون .

ولهذا يقول عقيب القصة : ﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾ أى كيف كان عذابى لمن كذب رسلى ، وكيف كان إنذارى بذلك قبل مجيئهم يبين صدق قوله الذى أخبرت به الرسل وعقوبته لمن كذبهم .

ثم ذكر قصة المكذبين ، كنوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، إلى قوله : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ، كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ فإن قوم فرعون كذبوا بجميع آيات موسى وجميع آيات الأنبياء قبله ، وكذبوا بالآيات الدالة على وجود الرب وقدرته ومشيئته ، إذ كانوا جاحدين للخالق ، منكرين له فكذبوا بآياته كلها .

ثم قال : أكفاركم أيتها الأمة التى أرسل فيها محمد خير من أولئكم الذين كذبوا نوحا ، وهودا ، وصالحا ، ولوطا ، وموسى ، أم لكم براءة فى الزبر ؟ أم يقولون نحن جميع منتصر ؟ وذلك أن كونكم لا تعذبون مثل ما عذبوا إذا كذبتم ، إما أن يكون لكونكم خيراً منهم ، فلا تستحقون مثل ما استحقوا ، أو لكون الله أخبر أنه لا يعذبكم ، فتكون لكم البراءة فى الزبر ، فتعلمون ذلك بخبره بأن ما يفعله الله تارة يعلم بخبره ، وتارة يعلم بسنته وحكمته وعدله .

فإما أن تكونوا علمتم هذا من هذا الوجه ، أو من هذا الوجه ، هذا إن نظر إلى فعل الله الذى لا طاقة للبشر به ، وإن نظر إلى قوة الرسول وأتباعه فيقولون : نحن جميع منتصر ، فإنهم أكثر ، ومنتصرون أقوى من محمد وأتباعه .

كما قال تعالى ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا : أى الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا * وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئياً ﴾ أى أموالا ومنظرا . فقال تعالى : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ ، أخبر بهزيمتهم وهو بمكة فى قلة من الأتباع وضعف منهم ، ولا يظن أحد بالعادة المعروفة أن أمره يظهر ويعلو قبل أن يهاجر إلى المدينة ، وقبل أن يقاتلهم .

وكان كما أخبر ، فإنهم يوم بدر وغيرها هزم جمعهم وولوا الأدبار ، وتلك سنة الله فى المؤمنين والكافرين .

قال تعالى : ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً * سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ .

وحيث ظهر الكفار فإنما ذاك لذنوب المسلمين التي أوجبت نقص إيمانهم ، ثم إذا تابوا فكمل إيمانهم نصرهم الله ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ وقال : ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ﴾ .

فإذا كان من تمام الحكمة والرحمة أن لا يهلكهم هلاك الاستئصال ، كما أهلك المكذبين ، وكانت الآيات التي اقترحوها موجبة لعذاب الاستئصال ، كما أهلك الأمم قبلهم كما قال : ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ﴾ كان أن لا يأتي بما يوجب عذاب الاستئصال مع إتيانه سبحانه بما يقيم الحجة ، ويوضح المحجة أكمل في الحكمة والرحمة إذ كان ما أتى به من الآيات حصل به كمال الخير ، والمنفعة ، والهدى ، والبيان ، والحجة على من كفر ، وما امتنع منه دفع به من عذاب الاستئصال والهلاك والعذاب العام ما أوجب بقاء جمهور الأمة حتى يتوبوا : ويؤمنوا ، ويهتدوا ، فكان في إرسال محمد صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم الرسل من الحكمة البالغة ، والمنن السابغة ، ما لم يكن في رسالة رسول قبله صلوات الله عليهم أجمعين ، والحمد لله رب العالمين ، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

فصـــل

جماع الكلام في النبوة متصل بالكلام في جنس الخبر ، فإن قول القائل : إني رسول الله إليكم خبر من الأخبار ، وكذلك وصول كلامه وأفعاله ، وآياته إلينا هو بالأخبار .

والخبر تارة يكون مطابقاً لمخبره ، كالصدق المعلوم أنه صدق ، وتارة لا يكون مطابقاً لمخبره ، كالكذب المعلوم أنه كذب ، وغير المطابق مع التعمد كذب ، ومع اعتقاد أنه صدق لم يكن معذوراً ، كالمفتي بلا اجتهاد يسوغ ،

والمحدث بلا علم يسمى كاذباً أيضاً ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « كذب أبو السنابل ابن بعكك » ، وقوله لمن قال : بطل عمل عامر بن الأكوع لما قتل نفسه خطأ : « كذب من قال ذلك إنه لجاهد مجاهد » .

وقد تكون المطابقة فى عناية المتكلم ، وقد يكون فى إفهام المخاطب إذا كان اللفظ مطابقاً لما عناه المتكلم ، ولم يطابق أفهام المخاطب ، فهذا أيضاً قد يسمى كذباً وقد لا يسمى ، ومنه المعاريض لكن يباح للحاجة ، وإن كان الخبر لم يحصل به المقصود ، بل يكون مأموراً بالسكوت عنه إلا مع البينة ، فقد يسمى كاذباً ، كقوله تعالى : ﴿ لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ .

والمقصود هنا : أن الخبر قد يعلم أنه صدق ، وقد يعلم أنه كذب ، وقد لا يعلم واحد منهما ، والعلم بأنه صدق له معنيان :

أحدهما : أن يعلم أنه مطابق لمخبره من غير جهة المخبر ، كمن أخبرنا بأمور نعلم أنها حق بدون خبره .

والثانى : أن يعلم أن المخبر به صادق فيه ، وقد يجتمع الأمران بأن يعلم ثبوت ما أخبر به ، ويعلم أنه صادق فيه ، وقول محمد : إنى رسول الله ، هو من هذا الباب ، كما سنبينه إن شاء الله .

وكذلك كونه كذباً قد يراد به أنه على خلاف مخبره ، وإن كان صاحبه لم يتعمد الكذب ، وقد يعنى به أن صاحبه يتعمد الكذب .

ولهذا كانت الأحاديث المعلوم بطلانها على نوعين :

تارة يعلم أن صاحبها تعمد الكذب .

وتارة يكون قد غلط ، والصحابة لم يعرف فيهم من يتعمد الكذب على النبى صلى الله عليه وسلم .

وكذلك جمهور التابعين لم يعرف فيهم من كان يتعمد الكذب ، ولكن طائفة قليلة من الشيعة عرف أنه كان فيها من يتعمد الكذب ، بخلاف غيرهم من أهل الأهواء ، كالخوارج ، فإنه لم يكن فيهم من يعرف بالكذب ، بل يقال : هم من أصدق الناس حديثاً ، والرجل الفاسق المعروف أنه يكذب لابد أن يصدق فى بعض أخباره ، فلا يكون فى الناس من لا يخبر إلا بكذب .

ولهذا قال تعالى : ﴿ إنْ جاءكم فاسق بنبإٍ فتبينوا ﴾ ، وفى القراءة الأخرى : ﴿ فتثبتوا ﴾ فأمر بالتبين والتثبت إذا أخبر الفاسق بخبر ، ولم يأمر بتكذيبه بمجرد إخباره ، لأنه قد يصدق أحياناً .

ولما أمر سبحانه بالتبين والتثبت فى خبر الفاسق دل ذلك على أنه لا يجوز تصديقه بمجرد إخباره ، إذا كان فاسقاً ، فقد يكذب ، ولا يجوز أيضاً تكذيبه قبل أن يعرف أنه قد كذب وإن كان فاسقاً ، لأن الفاسق قد يصدق ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمَنَّ الله عليكم فتبينوا ﴾ .

فأمرهم بالتبين والتثبت فى الجهاد ، وأن لا يقولوا للمجهول حاله : لست مؤمناً يبتغون عرض الحياة الدنيا ، فيكون إخبارهم عن كونه ليس مؤمناً خبراً بلا دليل ، بل لهوى أنفسهم ليأخذوا ماله ، وإن كان ذلك فى دار الحرب إذا ألقى السلام ، وفى القراءة الأخرى : السلم ، فقد يكون مؤمناً يكتم إيمانه ، كما كنتم أنتم من قبل مؤمنين تكتمون إيمانكم ، فإذا ألقى إليكم السلام ، فذكر أنه مسالم لكم لا محارب ، فتبينوا وتثبتوا ، لا تقتلوه ولا تأخذوا ماله حتى تكشفوا أمره ، هل هو صادق أو كاذب ؟

وهذا خبر يتضمن دعوى له ، فإن المدعى مخبر ، والمنكر مخبر ، والمقر مخبر ، وكما نهاهم عن تكذيب المدعى بلا علم ، نهاهم عن تصديق المنكر المتهم

الذى يرمى البرىء بلا حجة ، وتبرئته وتزكيته بلا علم ، فقال تعالى : ﴿ إنَّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً * ولا تُجَادِلْ عن الذين يَخْتَانُونَ أنفسهم إن الله لا يحب من كان خَوَّاناً أثيما * يَسْتَخْفُونَ من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً * ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يُجَادِلُ الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا * ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً * ومن يَكْسِبْ إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً * ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثما مبيناً * ولولا فضل الله عليك ورحمته لَهَمَّتْ طائفة منهم أن يُضِلُّوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعَلَّمَكَ مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

وكذلك نهاهم عن تصديق القاذف الرامى لمن عرف منه الخير ، فقال : ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفْكٌ مبين * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفَضْتُم فيه عذاب عظيم * إذ تَلَقَّوْنَه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ .

وقد قال تعالى : ﴿ ولاَ تَقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسئولا ﴾ .

وهذا نهى عن التكلم بلا علم ، وهو عام فى جميع أنواع الأخبار ، وهو يتناول ما أخبر به الإنسان وماقد يعتقده بغير الإخبار من الدلائل والآيات ،

والعلامات ليس له أن يتكلم بلا علم ، فلا ينفي شيئاً إلا بعلم ، ولا يثبته إلا بعلم .

ولهذا كان عامة العلماء على أن النافي للشيء عليه الدليل على ما ينفيه ، كما أن المثبت للشيء عليه الدليل على ثبوته .

وحكى عن بعض الناس أنه قال : النافي ليس عليه دليل ، وفرق بعضهم بين العقليات والشرعيات ، فأوجبه في العقليات دون الشرعيات ، وهؤلاء اشتبه عليهم النافي بالمانع المطالب ، فإن من أثبت شيئاً ، فقال له آخر : أنا لا أعلم هذا ، ولا أوافقك عليه ، ولا أسلمه لك حتى تأتي بالدليل ، كان هذا مصيبا ولم يكن على هذا المانع المطالب بالدليل - دليل ، وإنما الدليل على المثبت بخلاف من نفي ما أثبته غيره ، فقال له : قولك خطأ ، والصواب في نقيض قولك ، ولم يكن هذا كذا ، فإن هذا عليه الدليل على نفيه ، كما على ذلك المثبت الدليل على إثباته ، وإذا لم يأت واحد منهما بدليل ، كان كلاهما متكلماً بلا حجة .

ولهذا كان من أثبت شيئاً أو نفاه وطلبت منه الحجة ، فلم يأت بها ، كان منقطعاً في المناظرة ، وإذا اعترض المعترض عليه بممانعة أو معارضة فأجاب عنها ، انقطع المعترض عليه وثبت قول الأول ، وإن لم يجب عن المعارضة انقطع المستدل إذا كان الدليل الذي يجب اتباعه هو الدليل السالم عن المعارض المقاوم ، ولو أقام دليلا قطعياً فعورض بما لا يفيد القطع ، كان له أن يقول ما ذكرته يفيد العلم .

والعلم لا يعارضه الظن ، والبينات لا تعارض بالشبهات التي هي من جنس كلام (السوفسطائية) ، فهو سبحانه نهى عن الكلام بلا علم مطلقاً ، وخص الكلام على الله بقوله تعالى : ﴿ قل إنما حرَّمَ رَبِّيَ الفواحش ما ظَهَرَ منها

وما بَطَنَ والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾ .

ونهى عن اتباع خطوات الشيطان ، وأخبر أنه يأمر[1] بالقول على الله بلا علم ؛ فقال : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيِّباً ولا تتَّبِعُوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون * وإذا قيل لهم اتَّبِعُوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما أَلْفَيْنَا عليه آباءنا أَوَ لَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ .

وكذلك ذم من يجادل ويحاج بلا علم ، كقوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدًى ولا كتاب منير ﴾ ، وقال : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد * كُتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء حاجَجْتُم فيما لكم به علم فلِمَ تُحاجُّون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إن جاءكم فاسق بنبإٍ فتبينوا ﴾ يتناول خبر كل فاسق — وإن كان كافراً — لا يجوز تكذيبه إلا ببينة ، كما لا يجوز تصديقه إلا ببينة .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوارة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم » .

وفى رواية : « فإما أن يحدثوكم بحق ، فتكذبوه وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه » .

وهذا الذى دل عليه الكتاب والسنة من إمساك الإنسان عما لا يعلم

---

(١) الضمير فى يأمر — راجع إلى الشيطان .

انتفاؤه وثبوته هو مأثور عن غيره من الأنبياء ، كما جاء عن المسيح عليه السلام أنه قال : « الأمور ثلاثة :

أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اشتبه عليكم فكلوه إلى عالمه » .

وعامة عقلاء بنى آدم على هذا ، ولهذا لا يجوز أن يصدق بخبر منقول عن الرسول أو غيره إلا بدلالة تدل على صدقه ، ولا يجوز أن يكذبه إلا بدلالة تدل على كذبه ، وعلى هذا العلم والدين ، وقد تكلم العلماء وصنفوا كتباً كثيرة فى الجرح والتعديل فى الرجال ، والأحاديث .

فمن الناس من يعرف بالصدق والضبط ، فهذا هو العدل المقبول خبره . ومنهم من يكون صدوقاً لكنه قد لا يحفظ ولا يضبط ، فيقولون فى مثل هذا : هو صدوق تُكُلِّمَ فيه من قِبَلِ حفظه .

ومنهم من عرف بالكذب . وإذا روى الحديث من هو سيء الحفظ أو من قد يكذب لم يحكموا بذلك الحديث ولم يثبتوه .

ثم تارة يقوم الدليل على كذبه ، وتارة يتوقفون فيه لا يعلمون أصدق أم كذب ؟ ، ومثل هذا لا يعتقد ولا يثبت ولا يحتج به ، كالشاهد الذى شهد للمدعى وليس بعدل مرضى أو هو خصم أو متهم ظنين ، فهذا إذا ردت شهادته ولم تقبل لم يكن معنى ذلك الحكم بكذبه أو خطئه ، بل معنى ذلك أنه لا تقوم به حجة ، ولا يحكم به لعدم العلم بصدقه لا للعلم بكذبه .

والمدعى عليه إذا كان صاحب يد أو ذمته بريئة ، فمعه حجة ترجح جانبه ، وقد ضم إليها الشارع اليمين ، كما فى صحيح البخارى عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو يعطى الناس بدعواهم لادّعى رجال دماء قوم وأموالهم ولكن اليمين على المدعى عليه » ، فإذا لم يكن مع المدعى إلا مجرد دعواه فجانب المنكر أقوى من جانبه ، لأن معه أن الأصل فى الأيدى أنها محقة والأصل

براءة الذمة ، ولكن قد يكون المدعى صادقاً ولا يكون له حجة ، وهذا كثير جداً فلا يدفع بمجرد الأصل ، بل يحلف المنكر ، فيكون يمينه مع الأصل حجة ، فيكون إنكار هذا مقابلاً لدعوى هذا ، كلاهما خبر لم يعلم صدقه فتعارضا ، ورجح المنكر بالأصل ، فيبقى على ما كان لا يسلم للمدعى ما ادعاه بمجرد دعواه ولا تنقطع مطالبته المدعى عليه ، لأنه لم يأت بحجة تدفعه ، فإذا حلف المنكر كانت يمينه حجة فصلت الخصومة وقطعت الدعوى .

وإذا لم يأت المنكر باليمين ، بل نكل عنها ، ولا أتى المدعى بحجة وقف الأمر عند أكثر العلماء .

وعند بعضهم : يقضى على المنكر بالنكول فيجعل نكوله إما بدلاً لما طلب وإما إقرارا به .

والأكثرون يقولون : بل يرد اليمين على المدعى الطالب الذى يقول : إنه يعلم صدق نفسه فيما ادعاه وأنه عالم بما ادعاه فيقال له : احلف وخذ ، فإن حلف أخذ ، وإلا دفع .

ثم من العلماء من يرد اليمين فى عامة الدعاوى .

ومنهم من يحكم بالنكول ؛ إن كان المنكر يقول : لا أعلم ما ادعى به وكل من الطائفتين يذكر آثاراً عن الصحابة .

والمنقول عن الصحابة يدل على التفصيل ، وهو أظهر الأقاويل ، وهو أنه إن كان المنكر هو العالم دون المدعى كما إذا ظهر فى المبيع عيب وقد بيع بالبراءة فقال المشترى : أنا لم أعلم به فإنه هنا يقال له كما قال عثمان بن عفان لابن عمر رضى الله عنهما : احلف أنك بعته وما به ذا يعلمه[1] ، فإن حلف وإلا قضى عليه بالنكول ، كما قضى عثمان على ابن عمر بالنكول بناء عليه .

وإن كان المدعى يقول إنه يعلم ماادعى به ، كمن ادعى على آخر ديناً أو عيباً

---

(١) « ذا » : الإشارة إلى المشترى ، ومعنى العبارة : احلف أنك بعته وما به من عيب هو ـ أى المشترى ـ يعلمه .

فقال : أنا لا أعلم ما ادعيته احلف وخذ ، فإنه يقال له كما قال عمر بن الخطاب : أنصفك خصمك احلف وخذ . فإن لم يحلف لم يعط شيئاً .

والبينة فى الدعاوى عند أكثر العلماء هى : ما تبين الحق وتظهره وتوضحه ، كالدليل والآية والعلامة ، فمتى ترجح جانب أحدهما حلف مثل أن يقيم المدعى شاهداً ، فإنه يحلف مع شاهده ويقضى له بشاهد ويمين ، كما مضت به سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قول أكثر العلماء ، ومنهم من يقول: اليمين دائماً فى جانب المدعى عليه ، وكذلك لو كان فى دعوى القتل لوث ولطخ وشبهة وهى علامات ترجح جانب المدعى ، فإن أولياء المقتول يحلفون خمسين يميناً ، ويقضى لهم بذلك عند أكثر العلماء ، كما مضت بذلك السنة .

وكذلك فى اللعان إذا حلف الزوج وشهد أربع شهادات بالله أنه لمن الصادقين روكدها بالخامسة ، فقد أقام بينة على دعواه ، فإن التعنت المرأة وشهدت أربع شهادات مؤكدة بالخامسة أنه كاذب تعارضت البينتان والشهادتان ، فلم يحكم بقول واحد منهما لا يحكم بأنه قاذف ، ولا يحكم بأنها زانية .

وإن نكلت فلم تحلف فأكثر العلماء يقولون : يحكم بأنها زانية وتعذب على ذلك ، كما دل عليه القرآن لأنه اجتمع شهادة الزوج ونكولها عن المعارضة ، كما اجتمع فى القسامة العلامة والإيمان ، وكما اجتمع الشاهد واليمين ، وكما اجتمع فى جانب المنكر الأصل واليمين .

فهذا ونحوه مما جاءت به الشريعة وبسطه له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن الخبر إن قام دليل على صدقه أو كذبه وإلا بقى مما لم نصدقه ولم نكذبه ، وأهل العلم بالحديث إذا قالوا : هذا الحديث رواه فلان وهو مجروح أو ضعيف ، أو سيء الحفظ ، أو ممن لم تقبل روايته ، ونحو ذلك ، فهو كقول القائل : هذا الشاهد مجروح ، أو سيء الحفظ ، أو ممن لا تقبل شهادته ، وهذا يفيد أنه لا يحكم به ، ولا يفيد الحكم بأنه كاذب ، بل قد يمكن أنه صادق ، فلا يقال : إنه كاذب إلا بحجة .

وإن قالوا عن الحديث إنه ضعيف ، فهذا مرادهم ، أى أنه لم يثبت ولا يحتج به ، ولا يجوز الحكم بصدقه ليس مرادهم أنه بمجرد ذلك يحكم بكذب الناقل ، وينفى ما نقله ويقول : إن هذا لم يكن من غير علم منا بهذا النفى ، بل إن قام دليل على انتفاء ما أخبر به حكمنا بذلك ، وإلا سكتنا لم ننفه ولم نثبته فهذا أصل يجب معرفته ، فإن كثيراً من الناس لا يميز بين ما ينفيه لقيام الدليل على نفيه ، وبين ما لم يثبته لعدم دليل إثباته ، بل تراهم ينفون ما لم يعلموا إثباته ، فيكونون قد قفوا ما ليس لهم به علم : وقالوا بأفواههم ما ليس لهم به علم ، وهذا كثير فى أهل الاستدلال والنظر وأهل الإسناد والخبر ، فمن الأولين طوائف يطلبون الدليل على ثبوت الشيء ، فإذا لم يجدوه نفوه ، ومعلوم أن عدم العلم ليس علماً بالعدم وعدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود إلا إذا كان الطالب ممن يمكنه ذلك إما بعلم أو ظن غالب ، فمن هؤلاء من يقول فى صفات الله ما لم يقم دليل قطعى على إثباته ، وإلا وجب القطع بنفيه ، لأن صفات الله لا تثبت إلا بالقطع .

وخالفهم فى ذلك جمهور الناس وقالوا كما لا يجوز القطع فى الإثبات إلا بدليل قطعى ، فلا يجوز القطع فى النفى إلا بدليل قطعى على النفى ، فكما لم يجز أن يثبت إلا بعلم فلا ينفى إلا بعلم .

والنافى عليه الدليل ، كما على المثبت الدليل قال هؤلاء : هذه المسائل مبناها على القطع ، فإنه لا يجوز لنا التكلم فيها بالظن ، فإذا لم يقم القاطع قطعنا بالنفى .

فقيل لهم : هذا حجة عليكم ، فإنكم إذا نفيتم ما لم تعلموا نفيه تكلمتم بالظن وإذا قطعتم من غير قاطع كنتم قد تكلمتم فى القطعيات بلا قاطع نفياً كان الكلام أو إثباتاً ، وليس يعلم فى الأدلة الشرعية أو العقلية أن كل ما لم يقم دليل سمعى أو عقلى على إثباته ، فإنه يجب عليكم نفيه والقطع بنفيه ، بل تكلمكم بهذا تكلم بلا علم .

ومن هنا أخطأ كثير من النظار فى نفى كثير من صفات الرب وأحكامه

وأفعاله حيث لم يعلموا دليلاً قطعياً يثبتها فنفوها وكانت ثابتة فى نفس الأمر ، وقد يكون عند غيرهم دليل قطعى يثبتها ولو قدر عدم علم الناس كلهم بها ، فلله علم لم يعلمه العباد ، ولله أسماء استأثر بها فى علم الغيب عنده لم يعلمها الناس ، وليس إذا لم يعلم ثبوت الصفة يجب أن يعلم انتفاؤها ، بل قد يظن ثبوتها أو انتفاؤها ، وقد يشك فى ذلك ، فلا يعلم ولا يظن واحداً منهما .

والواجب على الإنسان أن يقول لما يعلمه أعلمه ، ولما يظنه أظنه ، ولما يشك فيه أشك فيه ، والله تعالى لم يوجب على الإنسان أن يقطع بانتفاء شىء إن لم يعلم أنه منتف ، فمن قال : إنه أوجب علينا القطع بانتفاء ما لم نقطع بثبوته ولا انتفائه فقد غلط ، وهذا بخلاف ما يناقض صفات الإثبات ، فإن هذا يجب نفيه عن الله .

فقد علم بالأدلة العقلية ، أن الله موصوف بصفات الكمال المناقضة للنقص مثل : أنه حى قيوم ، بكل شىء عليم ، وعلى كل شىء قدير ، وأنه خالق كل شىء ، ورب ، ومليكه ، وأنه غنى عن كل ما سواه بكل وجه .

فكل من قال قولا يناقض هذا ، علم أنه باطل ، كالذين قالوا : إن له شريكا ، أو ولداً ، أو أنه يشفع عنده الشفعاء بغير إذنه ، ونحو ذلك مما يناقض الكمال المعلوم له .

وما كان من الأمور مستلزماً لوازم لو كان موجوداً ، فإنه يستدل بانتفاء اللازم على انتفاء الملزوم ، كالأمور التى لو كانت موجودة لوجب أن تنقل نقلا متواتراً شائعاً ، فإنه يقول بانتفاء اللازم على انتفاء الملزوم ، كما لو قال قائل : إنه بنى بين العراق والشام ، أو بين الحجاز والشام مدينة أعظم من بغداد ، والموصل وأصبهان ، ومصر وأنه بنى دورها فى ثلاثة أيام ، ونحو ذلك ، فإنه يعلم كذبه ، فإن هذا مما تتوفر همم الناس على نقله لو كان موجوداً ، فإذا لم يستفض هذا وينتشر ، علم أن المخبر به كاذب .

وكذا لو ادعى مدع أنه يوم الجمعة أو العيد قتل الخطيب ، ولم يصل الناس يوم الجمعة ، ولم يستفض هذا و ينتشر ، أو ادعى أنه قتل بعض الملوك علانية بين الناس ، ولم يستفض هذا ولم ينتشر ، أو ادعى أنه بعث نبي بين المسيح ومحمد صلى الله عليه وسلم ، أو بعد محمد جاء بكتاب مثل القرآن أو الإنجيل ، واتبعه خلق كثير وكذبه خلق كثير ، فإنه يعلم كذب هـذا ، إذ مثل هذا لابد أن يستفيض و ينتشر .

وكذلك لو ادعى أن قريشاً أو غيرهم عارضوا القرآن وجاءوا بكتاب يماثل القرآن ، وأنهم أظهروا ذلك وأبطلوا به حجة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهذا مما يقطع بكذبه ، لأن مثل ذلك لو وقع لـكان مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله

وكذلك لو ادعى أن محمداً أمر بحج غير البيت العتيق ، أو أوجب صوم شهر غير شهر رمضان ، أو أوجب صلاة سادسة وقت الضحى ، أو أمر بالأذان والإقامة لغير الصلوات الخمس ، أو أنه قال علانية بين الناس لأبي بكر ، أو للعباس ، أو لعلي ، أو غيرهم : هذا هو الخليفة من بعدي ، فاسمعوا له وأطيعوا ، أو أن عليا دعا إلى نفسه في خلافة الثلاثة[1] ، وأمثال هذه الأمور التي لو وقعت ، لـكان لها لوازم ، فيستدل بانتفاء اللازم على انتفاء الملزوم ، ثم هذه اللوازم منها جلي ومنها خفي يعرفه الخاصة .

فلهذا كان أهل العلم بأحوال الرسول يقطعون بكذب أحاديث لا يقطع غيرهم بكذبها ، لعلمهم بلوازم تلك الأحاديث وانتفاء لوازمها ، كما يقطع من يعلم مغازي النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم يقاتل في غزوة تبوك ، وأن غزوات القتال إنما كانت تسعة مغازي ، وأنه لم يغز بنفسه إلى اليمن ، ولا العراق ، ولا جاوز تبوك بعد النبوة ، وأنه لم يحج بعد الهجرة لا حجة الوداع ، ولم يصم إلا تسع رمضانات . وهكذا يعلمون أن فلاناً أخطأ في هذا الحديث على فلان ، لأنهم

---

(١) يعني أبا بكر وعمر وعثمان .

قد علموا من وجوه ثابتة ، أن ذلك الحديث إنما رواه على صورة معينة ، فإذا روى غير الثقة ما يناقض ذلك علموا بطلان ذلك ، وأنه أخطأ أو تعمد الكذب مثل ما يعلمون كذب من زاد فى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا سبق إلا فى خف ، أو حافر ، أو نصل » فزاد بعض الناس فيه أو جناح ، لما رأى بعض الأمراء عنده حماماً ، فعلموا أنه كذب تقرباً إلى ذلك الأمير ، وكما يعلمون كذب من روى أن مسيلمة وقومه ، كانوا مؤمنين بالله ورسوله ، وإنما قاتلهم الصديق لكونهم لم يعطوه الزكاة ، فإنهم قد علموا بالتواتر أن مسيلمة ادعى النبوة ، واتبعه قومه على ذلك ، وأنه كتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته يقول : من مسيلمة رسول الله ، إلى محمد رسول الله ، فكتب إليه النبى صلى الله عليه وسلم : « من محمد رسول الله ، إلى مسيلمة الكذاب » ويعلمون أنه كان له مخاريق ، وأنه ظهر كذبه من وجوه متعددة ، وأن أبا بكر الصديق والصحابة قاتلوه على كذبه فى دعوى النبوة ، وقاتلوا قومه على ردتهم عن الإسلام ، واتباعهم متنبئاً كاذباً ، لم يقاتلوهم على كونهم لم يؤدوا الزكاة إلى أبى بكر .

وكذلك الأسود العنسى الذى ادعى النبوة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وقتل فى حياته كل منهما عرف كذبه بتكذيب النبى الصادق المصدوق لهما ، وبما ظهر من دلائل كذبهما مثل الأخبار الكاذبة التى تناقض النبوة ، ومثل الإتيان بقرآن مختلق يعلم من سمعه أنه لم يتكلم الله به ، وإنما هو من تصنيف الآدميين ، كما قال أبو بكر الصديق لهم لما تابوا من الردة وعادوا إلى الإسلام : أسمعونى قرآن مسيلمة ، فلما أسمعوه إياه قال : ويحكم أين يذهب بعقولكم ، إن هذا كلام لم يخرج من آل - أى لم يخرج من رب .

ومثل ما كان يفعله ويأمر به من الفجور والكذب ، ومثل اطلاع أخص الناس على أنه كان يكذب ويستعين بمن يختلق له الكذب ، ومثل أنه كان

يعدهم بأن جبريل أخبره بأنه سينصر ، فلما حقت الحقائق قال لهم : إنه لا جبريل لكم ، فقاتلوا على أحسابكم، إلى أمثال هذه الأمور التي تدل على كذب الكاذب .

فالصدق له دلائل مستلزمة تدل على الصدق .

والكذب له دلائل مستلزمة تدل على الكذب ، ولا يجوز الحكم بصدق مخبر ولا بكذب مخبر إلا بدليل ، وما لم يعلم صدقه ، ولا كذبه ، ولا ثبوته ، ولا انتفاؤه ، فإنه يجب الإمساك عنه ، ويقول القائل : هذا لم أعلمه ولم يثبت عندي ، ولا أجزم به ، ولا أحكم به ، وأستدل به ، ولا أحتج به ، ولا أبني عليه مذهبي واعتقادي وعملي ، ونحو ذلك .

لا يقول : هذا أقطع بكذبه وانتفائه ، وإن كنت أقطع أن من أثبته تكلم بلا علم ، فالقطع بجهل مثبته المعتقد له غير القطع بانتفائه ، فمن قطع بشيء بلا دليل يوجب القطع قطعنا بجهله وضلاله وخطئه . وإن لم يقطع بانتفاء ما أثبته في نفس الأمر ، كمن حكم بشهادة مجروح فاسق أمر الله بالتثبت في خبره ، فمن حكم وقطع بخبره من غير دليل يدل على صدقه ، حكمنا بأن هذا متكلم حاكم بلا علم ، وإن لم يحكم بكذب الشاهد المخبر ، لكن لا يجوز للإنسان أن ينفي علم غيره ، وقطع غيره من غير علم منه بالأسباب التي يعلم بها ويخبر ، فإنه كثيراً ما يكون للإنسان دلائل كثيرة تدل على صدق شخص معين وثبوت أمر معين ، وإن كان غيره لا يعرف شيئاً من تلك الدلائل .

وهذا أيضاً مما يغلط فيه كثير من الناس ينظرون في أنفسهم ومبلغ علمهم ، فإذا لم يجدوا عندهم ما يوجب العلم بذلك الأمر ، جعلوا غيرهم كذلك من غير علم منهم بانتفاء أسباب العلم عند ذلك الغير ، وقد يقيمون حججاً ضعيفة على أن غيرهم لا يعلم ذلك مثل ما يفعله كثير من الناس بالنظر والاستدلال والاعتبار ، ومن لم يساوهم في نظرهم وأدلتهم وقوة أذهانهم لا يعلم ما علموه .

وكثير من الناس يعلم بالإخبار والنقل والاستدلال بذلك أموراً كثيرة ،

ومن لم يشاركهم فيما سمعوه وفيما عرفوه من أحوال المخبرين به ، وكان معرفتهم بذلك لا يعلم ماعلموه .

فلهذا ، كان لأهل النظر العقلى طرق لا يعرفها أهل الأخبار .

ولأهل الأخبار السمعية طرق لا تعرف بمجرد العقول ، ولهذا كان لهؤلاء من الطرق الدالة على صدق الرسول ونبوته والاستدلال على ذلك أمور كثيرة لا يعرفها أهل الحديث والآثار ، وعند هؤلاء من الأحاديث المتواترة عندهم والآثار المستفيضة عندهم مايعلمون بها صدق الرسول ، وإن كان أولئك لا يعرفونها ، بل طرق معرفة الصانع وتصديق رسوله قد يكون لكل قوم منها طريق أو طرق لا يعلمها آخرون ، وهم مشتركون فى الإقرار بالله وبرسوله ، ولكل قوم طرق وأدلة غير طرق الآخرين وأدلتهم ، بل ماتواتر عندهم من أحوال الرسول قد يكون المخبرون لهؤلاء الذين تواتر عندهم ما أخبروهم به من آياته وشرائعه غير المخبرين لأولئك ، كما كان الصحابة المخبرون لأهل الشام بآيات الرسول ، وبالقرآن ، وشرائع الإسلام غير الصحابة المخبرين لأهل العراق ، ولكن خبر هؤلاء يصدق خبر هؤلاء وإن كان كل من الطائفتين لا يعلم أعيان أولئك الذين أخبروا أولئك .

وهكذا سائر العلوم ، قد يكون الذى علم هؤلاء الفقه أو النظر ، أو النحو ، أو الطب غير الذى علم هؤلاء ، وإن اشترك الجميع فى جنس الفقه ، والنظر ، والنحو ، والطب وعلم هؤلاء ماعلمه هؤلاء من الأعيان والأنواع مع أن طريق هؤلاء ليس طريق أولئك ، وإن اشتركوا فى النوع .

وعامة ما يعلمه الناس بالحس ، هو من هذا الباب ، فإن الإنسان يحس بأحوال نفسه من جوعه ، وعطشه ، وشبعه ، وريه ، وحبه ، وبغضه ، وشهوته ، ونفرته ، وألمه ، ولذته ، بل يحس بأعضائه كبطنه ، وفرجه ، ولا يحس بأحوال غيره ، ولكن يشتركان فى الجنس العام ، فيشتركون فى جنس الإحساس بجوعهم

وشبههم ، وقد يشتركون فى غير ما يحسونه ، كاشتراكهم فى رؤية الشمس ، والقمر ، والهلال ، والكواكب .

وقد غلط فى مثل هذا طائفة من المتكلمين فى المنطق اليونانى ، فزعموا أن العلوم التجريبية ، والتواترية ، والحدسية ، قسماً غير التجريبية ، وفيهم من يجعل الحدسية نوعا من التجريبية ، ومنهم من يجعلها جنسا آخر ، فزعم هؤلاء أن هذه العلوم مختصة لاتقوم بها الحجة على من لم يعلمها دون الحسيات ، والوجدانيات ، والعقليات .

وليس كذلك ، بل كما أن هذه تكون مشتركة تارة ، ومختصة أخرى ، فكذلك الحسيات ، فإن أهل كل زمان ومكان ، يعلمون بالحس من أحوال ذلك المكان والزمان ، وأحوال أهله مالا يشركهم فيه غيرهم .

وكذلك الوجدانيات : فإن من ابتلى بالغرائب فى الأمور السياسية والبدنية يعلم منها مالا يشركه فيه غيره .

وكذلك العقليات ، فإن من الناس من يكون له أصل يقيس به الفرع فيعلم القدر المشترك الذى هو الحد الأوسط ، ويعلم من تعلق الحكم به مالم يعلمه غيره .

فأجناس العلوم وطرقها منها ماهو مختص ، ومنها ماهو مشترك ، والمشترك منه مايشترك فيه جنس بنى آدم ، ومنه مايشترك فيه نوع منهم وطائفة ، فهذا أصل جامع ينبغى معرفته لمن تكلم فى هذا الباب .

فصل

وإذا كان جنس من يخبر الخبر قد يكون كاذباً ، وقد يكون صادقاً ، فقد علم أنه ليس كل واحد أخبر بخبر يصدق مطلقاً ، ولا يكذب مطلقاً ، فلم يقل أحد من العقلاء إن كل خبر واحد ، أو خبر كل واحد يكون صدقاً ، أو يفيد العلم ، ولا أنه يكون كذبا ، بل الناس يعلمون أن خبر الواحد قد يقوم دليل على صدقه

فيعلم أنه صدق وإن كان خبر واحد ، وقد يقوم الدليل على كذبه ، فيعلم أنه كذب وإن أخبر به ألوف إذا كان خبرهم عن غير علم منهم بما أخبروا به ، أو عن تواطئ منهم على الكذب مثل : إخبار أهل الاعتقادات الباطلة بالباطل الذى يعتقدونه ، وأما إذا أخبروا به عن علم منهم بما أخبروا به ، فهؤلاء صادقون فى نفس الأمر ، ويعلم صدقهم تارة بتواتر أخبارهم من غير مواطأة ، ولو كانا اثنين فإن الاثنين إذا أخبرا بخبر طويل أسنداه إلى علم ، وقد علم أنهما لم يتواطئا عليه ولا هو مما يتفق فى العادة تماثلهما فيه فى الكذب أو الغلط . علم أنه صدق وقد يعلم صدق الخبر الواحد بأنواع من الدلائل تدل على صدقه ، ويعلم صدق خبر الواحد بقرائن بخبره يعلم بها صدقه .

وتلك الدلائل والقرائن ، قد تكون صفات فى المخبر من علمه ، ودينه ، وتحريه الصدق ، بحيث يعلم قطعاً أنه لا يتعمد الكذب ، كما يعلم علماء أهل الحديث علماً يقينياً قطعياً أن ابن عمر ، وعائشة ، وأبا سعيد ، وجابر بن عبد الله وأمثالهم لم يكونوا يتعمدون الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضلا عن أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وابن مسعود ، وأبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وأمثالهم ، بل يعلمون علماً يقينياً أن الثورى ، ومالك ، وشعبة ، ويحيى بن سعيد ، وعبد الرحمن بن مهدى ، وأحمد بن حنبل ، والبخارى ، وأبا زرعة ، وأبا داود وأمثالهم لا يتعمدون الكذب فى الحديث .

وقد تكون الدلائل صفات فى المخبر به مختصة بذلك الخبر ، أو تنوعه يعلم بها أن ذلك المخبر لا يكذب مثل ذلك الخبر ، كحاجب الأمير إذا قال بحضرته لعسكره إن الأمير قد أذن لكم فى الانصراف ، أو أمركم أن تركبوا غدا ، أو قال : قد أمر عليكم فلاناً ، ونحو ذلك ، فإنهم يعلمون أنه لم يتعمد الكذب فى مثل هذا ، وإن لم يكن بحضرته ، فكيف إذا كان بحضرته ، وإن كانوا قد يكذبونه فى غير هذا .

وقد تكون الدلائل سماع من شاركه في العلم بذلك الخبر وأقروه عليه ، فإن العادة كما قد تمنع التواطؤ على الكذب ، فإنها قد تمنع التواطؤ على الكتمان و إقرار الكذب ، والسكوت عن إنكاره ، فما توافرت الهمم والدواعى على ذكره والخبر به يمتنع أن يتواطأ أهل التواتر على كتمانه ، كما يمتنع فى العادة أن تحدث حادثة عظيمة تتوفر الهمم والدواعى على نقلها فى الحج ، أو الجامع ، أو العسكر ، وحيث توجب العادة نقل الحاضرين لما عاينوه ثم لا ينقل ذلك أحد .

و إقرار الكذب والسكوت عن رده أعظم امتناعا فى العادة من الكتمان ، فإن الإنسان فى العادة قد تدعوه نفسه إلى أن يسكت عما رآه وسمعه ، فلا يخبر به ، ولا تدعوه نفسه إلى أن يكذب عليه ويخبر عنه بما يعلم أنه كذب عليه فيقره ولا ينكره إذ كانت عادة الناس إلى تكذيب مثل هذا أبلغ من عادتهم فى الإخبار بما رأوه .

وكذلك إذا كذب فى قضية وبلغ ذلك من شاهدها ، فتوفر الهمم على تكذيب هذا أعظم من توفرها على إخبارهم ابتداء بما وقع ، فإذا كانت من القضايا التى يمتنع السكوت عن إظهارها ، فالسكوت عن تكذيب الكذب فيها أشد امتناعا .

وقد تكون الدلائل صفات فيه تقترن بخبره ، فإن الإنسان قد يرى حمرة وجهه ، فيميز بين حمرته من الخجل والحياء ، و بين حمرته من الحمى وزيادة الدم ، و بين حمرته من الحمام ، و بين حمرته من الغضب .

وكذلك يميز بين صفرته من الفزع والوجل ، و بين صفرته من الحزن والخوف ، و بين صفرته من المرض ، فكما أن سحنته ووجهه يعرف بها أحوال بدنه الطبيعية من أمراضه المختلفة حتى إن الأطباء الحذاق يعلمون حال المريض من سحنته لا يحتاجون مع ذلك إلى نبض وقارورة .

فكذلك تعرف أحواله النفسانية ، هل هو فرح مسرور ؟ أو محزون

مكروب ؟ ويعلم هل هو محب صديق مريد للخير ، أو هو مبغض عدو مريد للشر ؟ كما قيل :

تحدثني العينان ما القلب كاتم والعين تشهد من عيني محدثها
إن كان من حربها أو من أعاديها

وكما قيل :

ولا خير في الشحناء والنظر الشزر

ثم إذا تكلم دل كلامه على أبلغ مما يدل عليه سيما وجهه ، كما قال تعالى عن المنافقين : ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول﴾ وأن معرفتهم بالسيما معلقة بالمشيئة ، والمنافق الكاذب يقول بلسانه ما ليس في قلبه .

فبين أنه في لحن قوله يعلم أنه كاذب ، وقال في حق المؤمنين : ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ وقال في حق الكافر : ﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾ أي له زنمة من الشر ، أي علامة يعرف بها .

وقد روى عن عثمان بن عفان أنه قال : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه .

وقد بسطنا الكلام على هذه في مسألة الإيمان ، وبينا ما يقوم بالقلب من تصديق : وحب لله ورسوله وتعظيم ، لا بد أن يظهر على الجوارح ، وكذلك بالعكس .

ولهذا استدل بانتفاء اللازم الظاهر على انتفاء الملزوم الباطن ، كما في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهي القلب » .

وكما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لمن رآه يعبث فى الصلاة : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه .

ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوَادُّون من حادَّ الله ورسوله ﴾ وقوله : ﴿ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ﴾ وقوله : ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعَدُّوا له عدة ﴾ .

فإن الإرادة التى فى القلب مع القدرة توجب فعل المراد .

والسفر فى غزوة بعيدة لا يكون إلا بعدة ، ومن هذا الباب أن عثمان قال لعمر لما شاوره فى المرأة التى أقرت بالزنا : إنى أراها تستهل به استهلال من لا يعرف أنه حرام ، فإنه لما رآها تجهر بما فعلته وتحكيه من غير اكتراث ، تبين له أنها لم تعتقد تحريمه ، وأنه يذم وتعاقب عليه ، ووافقه عمر ، وعلى وغيرهما على ذلك .

والرجل الصادق البار يظهر على وجهه من نور صدقه ، وبهجة وجهه سيما يعرف بها ، وكذلك الكاذب الفاجر ، وكلما طال عمر الإنسان ظهر هذا الأثر فيه حتى إن الرجل يكون فى صغره جميل الوجه ، فإذا كان من أهل الفجور مصراً على ذلك ، يظهر عليه فى آخر عمره من قبح الوجه ما أثره باطنه و بالعكس .

وقد روى عن ابن عباس أنه قال : « إن للحسنة لنوراً فى القلب ، وضياء فى الوجه ، وقوة فى البدن ، وسعة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الخلق ، و إن للسيئة لظلمة فى القلب ، وسواداً فى الوجه ، ووهناً فى البدن ، و بغضاً فى قلوب الخلق » .

وقد يكون الرجل ممن لا يتعمد الكذب ، لكن يعتقد اعتقادات باطلة كاذبة فى الله أو فى رسله ، أو فى دينه ، أو فى عباده الصالحين ، وتكون له زهادة وعبادة ، واجتهاد فى ذلك ، فيؤثر ذلك الكذب الذى ظنه صدقاً وتوابعه فى باطنه و يظهر ذلك على وجهه فيعلوه من القترة والسواد ما يناسب حاله ، كما قال بعض السلف لو ادهن صاحب البدعة كل يوم بدهان إن سواد البدعة لفى وجهه .

وهذه الأمور تظهر يوم القيامة ظهوراً تاماً ، كما قال تعالى : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوًى للمتكبرين ويُنَجِّى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ وقال تعالى : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودَّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ؟ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ .

وقال ابن عباس وغيره : تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسودُّ وجوه أهل البدعة والفرقة .

والمقصود أن ما فى القلوب من قصد الصدق ، والمحبة ، والبر ، ونحو ذلك ، قد يظهر على الوجه حتى يعلم ذلك علماً ضرورياً من أبلغ العلوم الضرورية ، وكذلك ما فيها من قصد الكذب ، والبغض ، والفجور ، وغير ذلك .

والإنسان يرافق فى سفره من لم يره قط إلا تلك الساعة ، فلا يلبث إذا رآه مدة وسمع كلامه أن يعرف هل هو مأمون يطمئن إليه ، أو ليس كذلك ، وقد يشتبه عليه ذلك فى أول الأمر وربما غلط ، لكن العادة الغالبة أنه يتبين ذلك بعد لعامة الناس .

وكذلك الجار يعرف جاره ، والمعامل يعرف معامله ؛ ولهذا لما شهد عند عمر ابن الخطاب رجل فزكاه آخر قال : هل أنت جاره الأدنى تعرف مساءه وصباحه؟ قال : لا ، قال: هل عاملته فى الدرهم والدينار اللذين تمتحن بهما أمانات الناس ؟ قال : لا ، قال : هل رافقته فى السفر الذى تنكشف فيه أخلاق الناس ؟ قال : لا ، قال : فلست تعرفه . وروى أنه قال : لعلك رأيته يركع ركعات فى المسجد .

وذلك أن المنافق قد يظهر الصلاة فمن لم يخبره لا يعرف باطن أمره كما قيل :

ذئب تراه مصليا   فإذا مررت به ركع
يدعو وجُل دعائه   ما للفريسة لا تقع

وإذا الفريسة خيلت ذهب التنسك والورع

فإذا كان كذلك ، فمن نباه الله واصطفاه للرسالة ، كان قلبه من أفضل القلوب صدقاً وبراً ، ومن افترى على الله الكذب ، كان قلبه من شر القلوب كذباً وفجوراً ، كما قال عبد الله بن مسعود : إن الله نظر فى قلوب العباد ، فوجد قلب محمد خير قلوب العباد ، فاصطفاه لرسالته ، ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فاختارهم لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المسلمون سيئاً ، فهو عند الله سيء .

وقال عبد الله بن مسعود : من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات ، فإن الحى لا يؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

وإذا كان من أعظم ، بل أعظم أهل زمانه صدقاً وبراً ، فإنه لابد أن يظهر على فلتات لسانه ، وصفحات وجهه ، ما يناسب ذلك ، كما أن الكاذب الكافر لابد أن يظهر على وجهه ، وفلتات لسانه ما يناسب ذلك .

وهذا يكون تارة حين إخباره بما يخبر به ، وتارة موجوداً فى غير تلك الحال فإن الرجل إذا جاء وقال : إن السلطان ، أو الأمير ، أو الحاكم ، أو الشيخ ، أو فلاناً أرسلنى إليكم بكذا ، فإنه قد يقترن بنفس إخباره من كيفيته وحاله ما يعلم به أنه صادق أو كاذب ، وإن كان معروفاً قبل ذلك بالصدق أو الكذب ، كان ذلك دلالة أخرى ، وقد يكون ممن يكذب ، ولكن يعرف أنه صادق فى ذلك الخبر دع من يستمر على خبر واحد بضعاً وعشرين سنة مع أصناف الناس ، واختلاف أحوالهم .

ومما ينبغى أن يعلم أن الناس تختلف أحوالهم فى المعرفة ، والخبرة ، والنظر ،

والاستدلال فى جميع المعارف ، فقد يتفطن الإنسان لدلالة لا يتفطن لها غيره ، وقد يتبين له ما يخفى على غيره ، حتى الأنبياء يتفاضلون ، كما قال تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذْ يَحْكُمان فى الحرث إذْ نَفَشَتْ فيه غنم القوم وكنَّا لحكمهم شاهدين ، فَفَهَّمْناها سليمان وكلاً آتينا حكما وعلماً ﴾ .

والمقصود : أن العلم بصدق الصادق ، وكذب الكاذب كغيرهما من المعلومات قد يكون ضرورياً ، وقد يكون كسبياً نظرياً ، وهو ليس من الضروريات الكلية الأولية ، كالعلم بأن الواحد نصف الاثنين ، بل من العلم بالأمور المعينة ، كالعلم بحمرة الخجل ، وصفرة الوجل ، وعدل العادل ، وظلم الظالم ، ونحو ذلك مما يعرفه الخبير بذلك علماً ضرورياً ، وإذا كان استدلالياً ، فالمعرفة بالعلم لا تحصل بمجرد وجود الدليل فى نفسه ، بل لابد من معرفة القلب به والناس متفاضلون فى ذلك ، والدليل أبداً هو ما يستلزم المدلول . فكل ما كان مستلزماً للشيء ، كان دليلاً عليه ، لكن لابد من معرفته ومعرفة أنه مستلزم ، ثم إذا حصل العلم صار ضرورياً ، وقد يكون ضرورياً بلا واسطة دليل معين ، وليس العلم بالمغيبات ، كالعلم بصدق هذا . وكذب هذا مما يحتاج فيه إلى القياس الشمولى ، فإن ذلك إنما يفيد بتوسط قضية كلية ، والمعينات قد لا يحتاج فيها إلى ذلك وإن كان لابد فيها من خبرة بحال ذلك المعين ، وإذا كان القائل : إنى رسول الله ، إما أن يكون من خيار الناس وأصدقهم ، وأبرهم ، وأفضلهم . وإما أن يكون من شرار الناس وأكذبهم وأفجرهم .

والفرق بين هذين يكون من وجوه كثيرة لا تكاد تنضبط ، كل منها يعرف به صدق هذا وكذب هذا ، وكانت المعرفة بذلك قد تحصل عند سماع خبر هذا ، وخبر هذا ، ورؤية وجهه ، وسماع كلامه ، وما يلزم ذلك ، ويقترن به من بهجة الصدق ، ونوره ، ومن ظلمة الكذب ، وسواده ، وقبحه .

فتبين بذلك أن كثيراً من الناس يحصل لهم علم ضرورى بأن هذا النبى

صادق ، وهذا المتنبي كاذب بمثل ذلك من قبل أن يروا خارقاً للعادة منفصلاً عنه ، وقول بعض المتكلمين ما لم يكن خارقاً للعادة ، فلا اختصاص للنبي به فلا يدل .

فيقال له : لفظ خرق العادة لفظ مجمل وأن نفس دعوى النبوة صدقاً وكذباً ليس هو أمراً معتاداً ، ولم يقع هذا إلا فى أفراد من العالمين ، وهو أقل بكثير من الإخبار بالمغيبات ، فإن هذا أكثر فى الوجود من دعوى النبوة ، إذ كل نبي يخبر بالمغيبات ، وليس كل من أخبر بها كان نبياً ، وهؤلاء الذين يقولون هذا يقول أكثرهم أو كثير منهم : إن دعوى النبوة ، والتحدى ، والمعجز مجموعها هو المختص بالنبي وإلا فهم يقولون : إن ما كان معجزة لنبي جاز أن يظهر على يدى ولى ، أو ساحر ، وإنما يفرق بينهما دعوى النبوة مع التحدى وعدم المعارضة ، ومنهم من ينكر أن خرق العادة يظهر على يد غير نبي ، ومنهم من لا يفرق بين الولى والساحر ، إلا ببر هذا ، وفجور هذا ، ومنهم من يطرد ذلك فى النبي لاسيما متفلسفة اليونان منهم ، فإنهم من أجهل الناس بأمر النبوة ، إذ كانوا لم يأخذوها من العلم بصدق الأنبياء ، وما جاءوا به من الآيات والبراهين ، والعلم بصفاتهم ، وإنما أخذوها من القياس على المنامات ، فجوزوا فيها مثل ما يجوز على النائم من الأحلام والتخيل ، وما يصيب أهل المرة السودا مما يشبه ذلك ، وهذا هو الموجود فى عامة أتباع أرسطو ، ولكن متأخروهم ، كابن سينا ضم إلى ذلك تصرفه فى هيولى العالم ، لما بلغه من خوارقهم الفعلية التى لم يكن يعرفها أولئك ، إذ كان علم أرسطو هو بما كان يعلمه قومه من اليونان ، وهم أمة أولاد يافث ، لم يكن فيهم ما فى أولاد سام ، كهود ، وصالح وغيرهما ، ثم أولاد إبراهيم الخليل الذى وعده الله أن يجعل فى ذريته النبوة والكتاب ، حتى يكون علم النبوة مشهوراً فيهم ، وقد جعل الله تعالى من زمن الخليل فى ذريته النبوة والكتاب ، كما أخبر بذلك فى القرآن ، وهم يعنى الفلاسفة لم يكونوا من ذريته ولا كانوا خبيرين بأحوال ذريته ، وقد ذكر طائفة منهم ، كمحمد بن يوسف العامرى ،

وصاعد بن عباد الأندلسى ، أن أساطينهم أربعة : ابندقلس ، ثم فيثاغورس ، ثم سقراط ، ثم أفلاطن ، قدموا الشام واستفادوا من بنى إسرائيل .

ولهذا لم يكن من هؤلاء ، من قال بقدم العالم بخلاف أرسطو قالوا : فإنه لم يقدم الشام ، وذكر هؤلاء ، كمحمد بن يوسف العامرى وغيره ، أن أول من لقب بالحكمة : لقمان ، وأن ابندقلس استفاد منه ، ومن أتباع داود عليه السلام فإنه كان فى زمن داود . وإذا كان هذا قول هؤلاء النظار من أهل الكلام والفلسفة ، فمجرد خارق العادة عندهم ليس وحده مستلزماً للنبوة حتى يكون وحده دليلاً ، بل لابد أن ينضم إلى ذلك التحدى وعدم المعارضة .

ولهذا لما اختلف قول طائفة منهم ، كأبى الحسن وأتباعه ، هل يجوز ظهور الخارق على يد الكاذب ؟

فقيل : لا يجوز ، لأنه علم النبوة فيمتنع أن يتخلف عنه مدلوله كسائر الأدلة .

وقيل : بل يجوز ، ولكن الله لا يفعله ، ثم قيل : لأنه يستلزم عجزه عن تصديق الرسول ، إذ لا طريق لنا إليه إلا المعجز عندهم ، وقيل : بل هو مقدور ممكن ، ولكن نحن نعلم اضطرارانه لا يفعله مثل كثير مما يمكن فى العادة ، ونعلم أن الله لا يفعله ، وجميع من جمع بين القولين ، وقال : مجموع ما يدل على النبوة وهو الخارق السالم عن المعارض مع التحدى يمتنع أن يكون لغير نبى ، بخلاف جنس الخارق .

فقيل له : هذا الامتناع إما أن يكون عاديا ، وإما أن يكون لاستلزامه العجز عن تصديق النبى ، وذلك ممتنع ، فإنما كان ممتنعاً لاستلزامه أمراً ممتنعاً ، وإذا كان انقلاب العادة ليس عندك ممتنعاً ، فلابد لك من ذلك الجواب ، وهو القول: بأنا نعلم ضرورة أن ذلك لم يكن ، ثم إذا علمت أن هذا علم ضرورى ، وأن العلم بدلالتها على الصدق أمر ضرورى ، كالمثل الذى ضربته فى إرسال الملك رسولاً ، وقول رسوله : إن كنت صادقاً فغير عادتك بقيامك ، ثم قعودك ففعل

ذلك عقب سؤال الرسول ، فإن ذلك يوجب العلم الضرورى بصدق الرسول .

وقيل لك : الملك نعلم عادته ، ونعلم أنه فعل ذلك للتصديق ، والرب عندك لم يخلق شيئاً لشيء .

فقلت : بل يخلق شيئاً مقارناً لشيء ، كالعاديات ، وهذا منها ، فقيل لك : العاديات قد تكررت ، فقلت : قد نعلم ذلك بلا تكرر ، وجعلت ذلك من باب الدلالة الوضعية ، كدلالة اللفظ على قصد المتكلم .

وقلت : قد نعلم قصده اضطرارا من غير سبق مواضعه ، وهذه العلوم الضرورية التى ذكرت أنه يعلم بها صدق الرسول وإن كانت حقاً .

فجمهور الناس يقولون : إنك لم تقر بلوازمها من كونه يفعل لأجل كذا ، ويقولون القول بأنه خلق المعجزة له قصد التصديق مع القول بأنه لا يخلق شيئاً ، لأجل شيء .

فقلت : لا يشترط فى العلم الضرورى العلم بأنه يفعل كذا لأجل كذا .

فقيل لك : هب أنه كذلك ، لكن لا يحصل العلم الضرورى مع العلم بما يناقضه ، والمقصود أن مايذكره هؤلاء وأمثالهم من النظار ، بل وعامة الناس هم فيما يثبتونه من العلم والحقائق المعلومة أشد منهم وأصوب فيما ينفونه ، فإن الإنسان بما يثبته أعلم منه بما ينفيه ، وشهادته على الإثبات أقوى من شهادته على النفى ، وإن كان النفى قد يكون معلوما ، لكن غلط الناس فيما ينفونه ويكذبون به ، أكثر من غلطهم فيما يثبتونه ويصدقون به ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ .

ولهذا تجد من سلك طريقاً من الطرق ، إما فى إثبات العلم بالصانع ، وإما فى العلم بالنبوة ، أو العلم بالمعاد ، أوغير ذلك ، وأى أحد يقول : لا طريق إلا هذا الطريق يخطئ فى النفى أكثر من خطإه فى الإثبات ، ومنهم هؤلاء ، فإنهم قد ينفون من العلم والطرق مايعلمه غيرهم بالاضطرار ، ويثبتون مايقولون إنه معلوم بالاضطرار ،

وقد يكون غيرهم أصوب فيما يثبته منهم فيما ينفونه ، بل وفيما يثبتونه .

ولهذا كان الذين اتفقوا على أنه لا طريق إلا المعجزات يتنوعون فى وجه دلالتها ، فيثبت هؤلاء وجها يستدلون به وينفون طريق غيرهم وبالعكس .

فإذا قالوا : ماسوى الخارق للعادة ليس يختص بالنبى ، فلا يدل على ثبوته .

قيل لهم : الدليل هو الذى يكون مستلزماً للمدلول يلزم من تحققه تحقق المدلول ، ولفظ الخارق للعادة فيه إجمال كما تقدم ، وحينئذ فنفس إنباء الله للنبى ، واصطفائه لرسالته ، وإقداره على التلقى من الملك هو من خوارق العادات ، وذلك من المعجزات التى أعجز الله الخلق أن يفعلوه ، وهو مختص بالأنبياء ، وهذا الوصف أجل وأعظم قدراً من غيره من الخوارق ، والمستلزم لهذا الخارق لا يكون إلا خارقا ، وهو الدليل إذ يلزم من ثبوت الملزوم ثبوت اللازم ، ومن انتفاء اللازم انتفاء الملزوم والمعتاد الذى يوجد بدون النبوة لا يكون دليلا .

وأما مالا يوجد إلا إذا وجدت النبوة ، فهو دليل ، فقد تبين أن كل مايدل على صدق الرسول وهو خارق للعادة يكون آية ونبوة على صدقه ، وأما مايكون خارقا للعادة ولا يستلزم النبوة ، فليس يكون دليلا ، وقد يكون الشىء معتادا بدون النبوة ، ومع النبوة يكون خرقا للعادة ، بحيث يكون وجوده مع النبوة خرقا للعادة ، بخلاف وجوده مجرداً عنها ، لأن النبوة خرق للعادة ، فلا يكون مستلزماً لها ، إلا خارق للعادة .

فقول القائل لا يعلم صدقه إلا بالمعجزة وهو الخارق للعادة إن أراد به المعنى العام ، وهو ما يستلزم صدقه ، بطل تخصيصه ذلك بما يخالفه منفصلا عنه من الآيات .

وإن أراد بذلك نوعا مخصوصاً مع اشتراك الجميع فى الدلالة ظهر بطلان قوله .

وأما مايوجد بدونها كما يوجد معها كالأمور التى تكون للصادق فى دعوى

النبوة والـكاذب فى دعوى النبوة ، فهذه لاتدل وما يظهره الله على يد النبى من الأنواع التى بها يعرف صدقه ليس فيها شىء يكون للـكاذب ، بل الـكاذب لايكون له من الدلالة إلا مايستلزم كذبه ، فـكل مايدل على كذب الـكاذب لايدل على صدق الصادق وبالعكس ، فإن دليل الـكذب مستلزم له ، ودليل الصدق مستلزم له ، وهما ضدان يمتنع أن يكون مدعى النبوة نبياً صادقا ، ومتنبئاً كاذباً ؛ والضدان لايجتمعان ، فيمتنع أن يكون شىء واحد يدل على الضدين ، فتبين أن دليل الصدق يمتنع أن يدل على الـكذب ودليل الـكذب يمتنع أن يدل على الصدق ، وهذه القاعدة ينتفع بها فى مواضع .

منها : أن كثيراً من الناس إذا رأوا الـكاذب وسمعوا كلامه ، تبين لهم كذبه تارة بعلم ضرورى ، وتارة بعلم استدلالى ، وتارة بظن قوى .

وكذلك النبى الصادق إذا رأوه وسمعوا كلامه ، فقد يتبين لهم صدقه بعلم ضرورى ، أو نظرى ، وقد يكون أولا بظن قوى ، ثم يقوى الظن حتى يصير يقينياً ، كما فى العلوم بالأخبار المتواترة والتجارب ، فإن خبر الأول يفيد نوعا من الظن ، ثم يقوى بخبر الثانى والثالث حتى يصير يقينياً .

وهذه الطريق سلـكها طوائف من الناس ، وممن نبه على ذلك : القاضى عياض . قال القاضى عياض : إذا تأمل المتأمل المنصف ما قدمنا من جميل أثره ، وحميد سيره ، وبراعة علمه ، ورجاحة عقله ، وحلمه ، وجملة كماله ، وجميع خصاله ، وشاهد حاله ، وصواب مقاله ، لم يمتر فى صحة نبوته ، وصدق دعوته ، قال وكفى هذا غير واحد فى إسلامه ، والإيمان به .

فروينا عن الترمذى ، وابن قانع ، وغيرهما بأسانيدهم : « أن عبدالله بن سلام قال : « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جئته لأنظر إليه ، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب » رواه غير واحد ، كعبد الوهاب الثقفى ومحمد بن جعفر ، وابن أبى عدى ، ويحيى بن سعيد ، عن عوف بن أبى جميلة

الأعرابى ، عن زرارة بن أبى أوفى ، عن عبد الله بن سلام ، وعن أبى رمثة البلوى قال : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ومعى ابن لى فأريته ، فلما رأيته قلت هذا نبى الله » .

وروى مسلم فى صحيحه وغيره عن ابن عباس أن ضمادا قدم مكة وكان من ازد شنوءه ، وكان يرقى من هذه الريح ، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون : إن محمداً مجنون . فقال : لو أنى رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدى . قال : فلقيته فقال : يا محمد إنى أرقى من هذه الريح ، وإن الله يشفى على يدى من شاء الله ، فهل لك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد » فقال : أعد على كلماتك هؤلاء ، فأعادهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، قال فقال : لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ، فما سمعت بمثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن قاموس البحر ، هات يدك أبايعك على الإسلام فبايعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى قومك ؟ قال: وعلى قومى » الحديث.

وقال جامع بن شداد : كان فينا رجل يقال له طارق ، فأخبر أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقال: هل معكم شىء تبيعونه ؟ قلنا : هذا البعير، قال : بكم ، قلنا: بكذا وكذا وسقا من تمر ، فأخذ بخطامه وسار إلى المدينة فقلنا : بعنا من رجل لا ندرى من هو ومعنا ظعينة فقالت : أنا ضامنة لثمن البعير رأيت وجه رجل مثل القمر ليلة البدر ولا يخيس بكم ، فأصبحنا فجاء رجل بتمر فقال : أنا رسول رسول الله إليكم يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر ، وتكتالوا حتى تستوفوا ففعلنا .

وفى خبر الجلندى ملك غسان لما بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام فقال الجلندى : والله لقد دلنى على هذا النبى الأمى أنه لايأمر

بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وإنه يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يضجر ، ويفي بالعهد ، وينجز بالموعود ، وأشهد أنه نبي .

وقال نفطويه في قوله تعالى : ﴿ يكاد زَيْتُها يُضِيء ولو لم تَمْسَسْهُ نار ﴾ هو مثل ضربه الله لنبيه يقول : يكاد منظره يدل على نبوته ، وإن لم يتل قرآنا ، كما قال ابن رواحة :

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

قالت : وإيمان خديجة ، وأبو بكر وغيرهما من السابقين الأولين ، كان قبل انشقاق القمر ، وقبل إخباره بالغيوب ، وقبل تحديه بالقرآن ، لكن كان بعد سماعهم القرآن الذي هو نفسه آية مستلزمة لصدقه ونفس كلامه وأخباره بأني رسول الله مع ما يعرف من أحواله مستلزم لصدقه ، إلى غير ذلك من آيات الصدق وبراهينه ، بل خديجة قالت له : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكَلّ ، وتقرى الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق ، فكانت عارفة بأحواله التي تستلزم نفي كذبه وفجوره ، وتلاعب الشيطان به .

وأبو بكر كان من عقل الناس وأخيرهم ، وكان معظماً في قريش لعلمه ، وإحسانه ، وعقله ، فلما تبين له حاله علم علماً ضرورياً أنه نبي صادق ، وكان أكمل أهل الأرض يقيناً علماً وحالا .

وكذلك هرقل ملك النصارى لما أرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام ، سأل عن عشرة خصال ، كما في الصحيحين عن ابن عباس قال : «حدثني أبو سفيان بن حرب من فيه إلى في قال : انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم هدنة ، قال : فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ، قال : وكان دحية الكلبي

جاء به ، فدفعه إلى عظيم بصرى ، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل .

فقال هرقل : هل هنا أحد من قوم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ؟

قالوا : نعم . قال : فدعيت فى نفر من قريش : فدخلنا على هرقل ،فأجلسنا بين يديه .

قال : أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ؟

قال أبو سفيان : قلت : أنا ، فأجلسونى بين يديه وأجلسوا أصحابى خلفى ، فدعا بترجمانه ، فقال :

قل لهم : إنى سائل عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ، فإن كذبنى فكذبوه ، قال : فقال أبو سفيان : وأيم الله لولا مخافة أن يؤثر على الكذب لكذبت عليه .

ثم قال لترجمانه : سله كيف حسبه فيكم ؟ قال : قلت : هو فينا ذو حسب ، قال فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا : قال : ومن يتبعه ؟ أشراف الناس أم ضعفاؤهم قلت : بل ضعفاؤهم .

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : لا . بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له ؟ قال : قلت : لا . قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قال : قلت : يكون الحرب بيننا و بينه سجالا يصيب منا ونصيب منه .

قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا . ونحن منه على مدة ما ندرى ما هو صانع فيها . قال : فوالله ما أمكننى من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه .

قال : فهل قال هذا القول أحد قبله ؟ قال : قلت : لا .

قال لترجمانه : قل له : إنى سألتك عن حسبه ، فزعمت أنه فيكم ذو حسب ، وكذا الرسل تبعث فى أحساب قومها ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك ؟

فزعمت أن لا فقلت : لو كان من آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك عن أتباعه ، أضعفاؤهم أم أشرافهم ؟ فقلت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فزعمت أن لا ، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ثم يكذب على الله . وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له ؟ فزعمت أن لا . فكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب ، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون ؟ فزعمت أنهم يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل قاتلتموه ؟ فزعمت أنكم قاتلتموه ، فيكون الحرب بينكم و بينه سجالا ينال منكم وتنالون منه ، وكذلك الرسل تبتلى ، ثم تكون لها العاقبة ، وسألتك هل يغدر؟ فزعمت أنه لا يغدر ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله ؟ فزعمت أن لا . فقلت : لو قال هذا القول أحد قبله قلت : رجل ائتم بقول قيل قبله ، ثم سألتك: بم يأمركم ؟ قلت يأمرنا بالصلاة ، والزكاة ، والصلة ، والعفاف ، قال : إن يكن ما تقول فيه حقاً : إنه لنبي ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم ، ولو أعلم أنى أخلص إليه لأحببت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، وليبلغن ملكه ما تحت قدمى » ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم و إذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين[1] و ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ » .

(١) الأريسيون : الفلاحون ، وعامة الشعب .

وفى رواية فماذا يأمركم به قال : يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً ، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة ، والصدقة ، والعفاف ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، فقال : هذه صفة نبى .

وما استدل به ملك النصارى هرقل من العلم بصفاته هو استدلال على عينه فإن الناس فى النبوة على درجات . منهم من يحتاج إلى أن يعلم جنس النبوة ، فيصدق بجنس الرسل من البشر لا يكذب بالجنس كما كذب بذلك من كذب به من قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وغيرهم .

ولهذا يقول تعالى: ﴿ كذب قوم نوح المرسلين ﴾ ،﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ ﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴾ لأن تكذيبهم لم يكن لشخص واحد ، بل كانوا مكذبين لجميع الرسل ، وهؤلاء يخاطبهم الله فى السور المكية ، كقوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس ﴾ .

فاحتج بإنزال كتاب موسى لما تواتر فى خبره من الآيات الباهرات الدالة على صدقه والإنجيل تبع للتوراة ، ثم قال : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ﴾ لما قام من الآيات الدالة على نزوله .

ولهذا يذكر سبحانه فى السور المكية من تثبيت أمر الرسل ، وآياتهم ، وبراهينهم ، ونصرهم ، وحسن عاقبتهم ، ومن ضلال مخالفيهم ، وجهلهم ، وغيهم ، وخذلانهم ، وسوء عاقبتهم ما فيه عبرة .

ومن الناس من يقر بالرسل فى الجملة لكن لا يؤمن بما يجب من حقيقة إرسالهم ، كالملاحدة وأهل البدع الذين يعظمون الأنبياء مع اعتقادهم فى الباطن ما يناقض بعض ما جاءوا به لشبهات انعقدت فى قلوبهم ظنوها علوماً عقلية ، وهى مناقضة لما أخبرت به الرسل ، فيحتاجون إلى أن يوفقوا بينهما ، هؤلاء يشبهون الذين قال الله فيهم : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك

وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً * أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً ﴾ .

وقد أخبر الله أنه جعل للأنبياء من يعاديهم من الإنس والجن ، فقال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً * ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم ومايفترون * ولتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون * أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين * وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لامبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيراً ﴾ وهؤلاء الذين عندهم ماينافض بعض ما أخبرت به الرسل هم ثلاثة أصناف :

أهل التخييل : من الملاحدة المتفلسفة ، والباطنية الذين يقولون : إن الرسل أخبروا من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر بما يخالف الحق فى نفس الأمر فخيلوا إلى الجمهور ماينتفعون به ويعدون هذا من فضائل الرسل ، وقد بسط الرد على هؤلاء فى غير موضع .

وأهل التحريف والتأويل : الذين يأولون كلامهم على مايخالف مرادهم ، ويزعمون أنهم أرادوا ذلك المعنى مع أنه ليس فى كلامهم مايدل على إرادة ذلك المعنى بل كلامهم يدل على إرادة خلافه .

وأهل التجهيل : الذين يقولون : ذلك الكلام ليس له معنى يعلمه الرسول

ولا غيره ، و إنما هو يعلمه الله وحده ، وهذان القولان يقول بكل منهما طوائف معظمين للرسل ، وقد تبين فسادهما فى غير هذا الموضع .

وأما من قال : إن الرسل وغيرهم يعلمون المعنى الذى بينه الله لهم بكلامه ، ولكن استأثر الله بعلم أمر آخر لا يعلمونه ، كما استأثر بعلم غيب الساعة ، فهذا قول السلف والأئمة ، و بسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن الكلام فى النبوات تارة فى جنسها ، وتارة فى شخص النبى المعين ، وهرقل ملك الروم لم يكن محتاجاً إلى الإيمان بجنس النبوات ، فإنه كان من أهل الكتاب وأهل الكتاب يقرون بجنس النبوة ، فإنهم يقرون بنبوة نوح ، والخليل ، وموسى ، وأنبياء بنى إسرائيل ، والنصارى تقر مع ذلك بالمسيح والإنجيل .

والذين يحتاجون إلى معرفة النبى المعين نوعان :

نوع : عرفوا أنه يبعث نبى وقد يعرفون بعض نعوته ، فيحتاجون أن يعرفوا عينه ، وهرقل وأمثاله من أهل الكتاب، كانوا من هذا النوع ، فكانوا يعلمون أن نبياً سيبعث ، و إنما كانت حاجتهم إلى أن يعرفوا هل هو هذا النبى المذكور أو غيره ؟ فيكون مايحتاجون إليه من دلائل صدقه أيسر مما يحتاج إليه من لايؤمن بالرسل ، أو لايعرف أن نبياً سيبعث ، ومن كان يعلم جنس الرسل ولا يدرى هل يبعث نبى أو لا ، يحتاج أن يعلم أن هذا المعين هل هو من جنس الأنبياء الصادقين ، أو من جنس المتنبئين الكاذبين ؟ وهذا يعرف بما يخصه من آيات صدقه و باعتبار ماجاء به الأنبياء قبله ، فإن أصول ذلك مما لايمكن اختلاف الأنبياء فيه ، وهى الأمور التى لاتقبل النسخ ، كالإخبار عن الله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله واليوم الآخر .

فهذا مما لا يمكن اختلاف الأنبياء فيه ، إذ كان كل ما يخبر به النبى ، فهو صدق ، والأخبار الصادقة لا تتناقض ولا تقبل النسخ ، ولكن قد يكون

بعض الأنبياء أعلم ببعض ذلك من بعض ، وفى كلام بعضهم من الأخبار ببعض ذلك ماليس فى كلام بعض .

وما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم ، هو أكمل وأكثر مما أخبر به موسى ، والمسيح صلوات الله وسلامه عليهم .

وقد يظن بعض الغالطين تناقض بعض أخبار الأنبياء ، كما يظن بعض الغالطين معارضة العقل لما أخبروا به ، وهذا ممتنع ، بل لابد أن يكون المعارض العقلى خطأ ليس بمعقول صحيح ، أو السمعى لم يثبت عنهم ، ولفظه أو دلالته ، وكذلك الأخبار لابد أن يكون أحد الخبرين كذباً أو غير دال على مناقضة الخبر الآخر .

وأما الأصول الجامعة ، كالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، وبر الوالدين ، والصدق ، والعدل ، وتحريم الأجناس الأربعة وهى : الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم ، والبغى بغير الحق ، والإشراك بالله ، وأن يقال عليه غير الحق ، وذلك مثل ما ذكره فى سورة الأنعام ، والأعراف ، وبنى إسرائيل .

وقد تنازع الناس فى مثل هذا ، هل يمكن نسخه ، وتنوع الشرائع فيه ؟ على قولين : فمن جوز أن يأمر الله بكل شىء ، وينهى عن كل شىء ، رد ذلك إلى محض المشيئة لا إلى صفات تقتضى الأمر بهذا دون هذا ، فإنهم جوزوا دخول النسخ فى هذا ، وتنوع الشرائع فيه ، كما يقوله جهم بن صفوان ، والأشعرى ومن وافقه من أصحاب مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وإن كانوا قد يقولون : إنه لم يقع فيه نسخ .

وأما جمهور الناس من السلف والخلف ، فإنهم لا يجوزون دخول النسخ فى هذا ، ولا تنوع الشرائع فيه .

ولهذا كان دين الأنبياء واحداً ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا

من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصَّيْنَا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾

وقال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وجهك للدين حنيفاً فِطْرَةَ الله التى فَطَرَ الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القَيِّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد » .

وهذا مبسوط فى موضع آخر . والحمد لله رب العالمين .

فهـــرس

الجزء الرابع من

كتاب « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح »

صفحة

٣ دانيال النبي يؤول رؤيا « بخت نصر » الملك .

٤ من بشارات دانيال بالنبي .

٥ كعب : ينقل صفة النبي عن التوارة .

٦ أشعياء يصف العرب .

٦ كلمة الإنجيل وتفسيرها .

– ما جاء في الإنجيل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢٢ من دلائل نبوة نبينا أنه أخبر بمثل ما أخبر به الرسل السابقون بدون ما تواطىء ولا تشاعر .

٣٥ ابن تيمية يردّ « الفرية » القائلة : « إنما يعلمه بشر » من وجوه .

٣٣ دين الأنبياء واحد ، وشرائعهم مختلفة .

٣٤ إنباء النبي بالغيب ، يدل على أن النبوة « إنباء من الله » خلافاً لابن سينا ، ومن نحا نحوه .

٣٨ السماء حرست بعد (بعثة النبي) . فلم يستطع جني استراق السمع .

٤١ حتى أعداء النبي ، يعترفون بصدقه ، قبل البعثة و بعدها .

صفحه

٤٦ عتبة بن ربيعة يعرض على النبي أشياء ، ليكف عن دعوته .

٥٠ الكفار يحنون لسماع الوحي .

٥١ الكفار واليهود يسألون : ورسول الله صلى الله عليه وسلم : يجيب .

٦٧ المعجزة ، والآية ، والبينة ، والبرهان .

٧١ معجزات القرآن .

٧٥ الرأى القائل بأن إعجاز القرآن [بالصرفة] وضعفه وتخاذله

٨٠ سيرة النبي ، وسير الصالحين من أتباعه ؛ آيات له .

٨٧ صفات الرسول الخَلْقيَّة والخُلُقيَّة .

٩٦ عرض فكرة المعاد فى الإسلام ، من معجزات النبي العظيمة .

١٠٤ الأمة الإسلامية ، أعدل الأمم ، وأهداها سبيلا ، فى العلوم والعقائد والأخلاق . وسائر المعارف سواء أكانت إلهية أم بشرية .

١١٧ من أدلة صدق محمد صلى الله عليه وسلم .

١٢٢ من آيات النبي صلى الله عليه وسلم ، ودلائل نبوته [قصة الفيل] .

١٢٣ ومن آياته صلى الله عليه وسلم ، منع الجن من استراق خبر السماء .

١٢٨ هل القرآن هو المصدر الوحيد من مصادر التشريع ، والدليل الفذ من أدلة الاستدلال ؛ أو أن السنة العملية والقولية المتواترة ، بهذه المثابة ؟

١٢٩ مما فى القرآن من الإخبار بالمغيبات المستقبلة .

١٣٣ نبينا صلى الله عليه وسلم ، فاق جميع النبيين صلوات الله وسلامه عليهم ، فى المعجزات العملية والخبرية .

١٥٣ قصة المقاطعة ، وما حدث للصحيفة مع (الأرضة) ، وإخبار النبي عن ذلك .

صفحة

١٥٦ الرسول ينبىء عن نهاية أمية بن خلف .

١٦١ إنشقاق القمر . من آيات النبي العلوية .

١٦٤ الإسراء والمعراج ؛ من مظاهر تكريم الله لنبيه .

١٦٩ ابن تيمية يدلل على إمكان الإسراء والمعراج .

١٧٢ المطر يهطل ، ويقلع ، بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، في الاستسقاء والاستصحاء .

١٧٣ « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » وآيات النبي في نصر الرياح له .

١٧٤ من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم.

١٨٥ فصل ، ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم : تكثير الماء ، والثمار ، والطعام ببركة دعائه .

٢٠٢ من تأثير النبي صلى الله عليه وسلم في الأحجار والجماد .

٢٠٥ ومن معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم ، إنزال الله الملائكة لتحارب معه .

٢٠٨ ومن آياته : عصمة الله له من الناس .

٢١٠ إنتقام الله من أعدائه ، ومن المستهزئين به .

٢١٧ من إكرام الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ، إجابة دعائه في الأمور الخارقة للعادة .

٢٢٧ تواتر النقل لمعجزاته صلى الله عليه وسلم ، وفيه ردّ على الذين يزعمون أن معجزاته صلى الله عليه وسلم الحسيّة أحاديث آحاد ـ مثل : الأستاذ « محمد حسين هيكل » وغيره .

٢٣٣ من أخطاء الجهلة والعوام في المعجزات والكرامات .

صفحة

٢٥٧ هل أفعال الله لعلة ؟

٢٦٥ دلائل صدق الأنبياء متنوعة ، فمنها ماهو قبل البعث ، ومنها ماهو بعده ، ومنها ما هو بعد الموت .

٢٧٤ نوعا الأدلة .

٢٧٥ هل يجب على النبي إجابة المتعنت إلى آية ثانية ، أو هل يجب على القاضي إجابة الخصم إلى بينة أخرى ؟

٢٨٧ العلاقة بين النبوة و بين (الخبر المطلق)

٢٩١ هل الظن يعارض العلم ؟

٣٠٢ التثبت عند تلقي الأخبار ، قبل الحكم عليها بالصدق أو بالكذب .

٣٠٦ الصدق يظهر أثره على الوجه ، وكذلك الكذب .

٣١٤ صدق النبي يظهر من مرآه وسماع كلامه .

٣١٦ هرقل يستدل على صدق النبي .

٣٢٠ الذين ناقضوا بعض ما أخبرت به الأنبياء ثلاث طوائف .

٣٢٢ من الغالطين : من يظن تناقض بعض أخبار الأنبياء